



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة محمد لمين دباغين - سطيف 2
كلية الآداب و اللغات
قسم اللغة والأدب العربي



أطروحة
مقدمة لنيل شهادة
دكتوراه علوم
تخصص ادب عربي قديم
إعداد الطالب : عبد الله بلعودة

الإنسان الكامل
في نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب
دراسة تحليلية تأويلية

إشراف الأستاذ :
أ.د. الطيب بودريالة

السنة الدراسية : 1443 هـ / 1444 هـ - 2022 م / 2023 م

إهداء

إلى آل البيت.. إلى نهج الحق، انتماء وامثالاً وتطبيقاً..
إلى الإمام - علي - مثلاً الكمال..، وإنسان الحقيقة..
إلى والدي الكريمين عرفانا ووفاء، وإن تأخر البحث بعد الرحيل..
إلى إخوتي وأخواتي ثمرة مجاهدة ومصابرة في طريق المحنة والابتلاء..
إلى أستاذي الكريم "الطيب بودريالة" سيرا في خط وطريق قد تواصل..
إلى "خالد" على كل جهد بذل في تصنيف وتنظيم هذه القطع..
إلى كل حر كريم يؤمن بإنسانية الإنسان..
إلى الإنسان.. أنت الإنسان..

مفاتيح ورموز الرسالة :

الرمز	معناه
ط	طبعة
ج	جزء
مج	مجلد
ع	عدد
تح	تحقيق
تر	ترجمة

حقوق الملكية



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وبعد:

طرح موضوع "الإنسان" منذ القدم إشكاله الحيوي، ماهية وطبيعة ووجودا وارتباطا ووظيفة، ولذا فإن فهم هذه الماهية وسر تركيبها، إنما يعني تذليل عقبات وظيفية في حياة هذا الكائن، وقد أدرك الإمام علي عليه السلام هذا، فعمل على تأويل هذه التكوينية البشرية بأحوالها وحمولاتها وتقلباتها وتشابكاتها وتعقيداتها، لأن الإنسان يعتبر نصا مغلقا، علاماته مفتوحة على إمكان القراءة النامية المتجددة، ويمثل معرفة أولى تبنى عليها معرفة ثانية تتمثل في معرفة المجتمع، كما أن معرفة المجتمع تؤدي إلى معرفة الإنسان، وتتسلسل عملية التأويل وتتابع خيوط هذه الإشارات لتصل إلى معرفة الكون، ومن ثم إلى معرفة الله تعالى، أرقى المعرفة المنتهى إليها.

يشكل نهج البلاغة انعطافة إبداعية متفردة، انتقل فيها الإبداع الفني في الثقافة العربية نقلة غير مسبوقة، هذه الحيازة تعود إلى ما توافر فيها من مقومات الصنعة، فهناك اللغة الرفيعة والبلاغة العالية، والأسلوب المحكم، هذه الجمالية هي صورة لهذا الحسن الذي صار براعة ونهجا، وتحول إلى مثال حي، يستمد استمراريته من هذا النظم العجيب المنفرد والفكر المتوقد المتجدد، والروح الساحرة التي تنفث الحياة كلما لامست كلماتها النفوس، وإن كل قارئ للنهج تصيبه تلك الروعة بالحياة والنماء والرعشة بالتجدد والوعي بالحقيقة والوجود، ولذا فأهمية هذا البحث آتية من طبيعة موضوع الدراسة، ومن المبدع مؤلف النهج، ومن خصوصية هذا الأخير بما يحمله من قيم وبنيات فكرية وجمالية وأدبية.

يعد الإمام علي عليه السلام مبدعا للنص ومؤولا خاصا تجلّى هذا في قراءة حقيقة الإنسان؛ ذاتا فردية، في طبيعته التكوينية، وسر سوية تركيبه، وذاتا اجتماعية، وفق سنن الاجتماع الإنساني وعلاقاته واللحمة البانية لنسيجه، وذاتا تاريخية في ارتباطاته بتحويلات الزمن، وفقه العبر، ونسق صيرورته هبوطا وارتفاعا، ومتفتحا، وذاتا كونية تقرأ أسرار الكون وعلاماته وجمالياته.

إن هذا الإنسان الحائر المحير يستدعي تأمل وضعه وحاله، وإن إجابة وتأويلا لإشكال إنساني هو الضرورة التي تلازم عقول الأحياء والعباقرة المبدعين قصد إيجاد المركب النهائي لوصفة إنسانية وتوصيف يحقق نعته الدال: أنه الإنسان.

يقودنا هذا البسط إلى تحديد بعض المعالم التي كانت سببا في هذا الاختيار، أي دراسة معالم الكمال الإنساني [= في الإنسان الكامل] عند الإمام والتي نجملها في:

أولاً: قيمة كتاب "نهج البلاغة" العلمية والمعرفية والإبداعية والأدبية، وتلك الصياغة لبلاغة أراد بها الإمام إعادة بناء المفاهيم الكونية والاجتماعية والإنسانية والروحية، بهدف استعادة المثال الذي سقط في زحمة الاضطراب والتغيرات الطارئة والتحويلات التاريخية.

ثانياً: إعادة اوزنة تفتح العقول والقلوب كي تتوجه إلى هذا المقام العلمي لتعرف من علمه ومعرفته، بعيداً عن حالة الانغلاق التي أحدثتها الوضعية التاريخية وحالة الانقسام التي حجبت الرؤية عن الإنسان.

ثالثاً: أهمية موضوع الإنسان وحيويته، إضافة إلى إشكاليته التي تطرح دوماً وتتجدد، بحيث تقتضي مثل هذه الوضعية إعادة تصحيح وبناء، بعلم ومعرفة وفقه سنن وقوانين بناء الذات الإنسانية.

رابعاً: معرفة حقيقة الكمال الإنساني، وهذا الفهم يستند إلى معرفة السياق لكونه يمثل أهمية وضرورة تستدعيها مطالب الحياة وما يفرضه نسق التجدد والتغير وحتمية التبدل، ففي نواقض ونواقص عصرنا يلح هذا المطلب لاستعادة اللحظة المشرقة والإضاءة الكاشفة، حتى يكون هذا الإنسان سيد زمنه، ومثالا دالاً على عصره.

إن السؤال الذي يتحدى العقل البشري، كيف تفهم ماهية الإنسان؟ وكيف يشتغل هذا الكائن؟ ولماذا تختلف صور أدائه، حيث يرتفع في لحظة وينحط في أخرى؟ ولماذا يتألق في وقت وتبهت صورته هذه في زمن آخر؟!

ولذا فإن جوهر هذه المشكلة ينصب في البحث عن فهم هذا المكون والتركيب الداخلي وسره المتحكم فيه. وتبرز القوى الحية في الإنسان هذا الإشكال بصورة جلية تظهر في طاقات النفس والجسد والعقل، هل تعمل متجانسة في اتجاه واحد في ما يخدم الهدف الذي يتبناه هذا الكائن أم لا؟! ولذا نسأل: هل يمكن أن يكون فهم المكون النفسي مفتاح فهمنا لماهية الإنسان؟ أم أن اشتغال الجسد يحدد هذه الحقيقة؟! أم أن العقل هو من يرينا ذلك باعتباره طاقة وإمكان توجيهه؟!

إن الإنسان أشكل على الإنسان بتعبير "أبي حيان"، وإن جلاء هذه الصورة يبقى هو التحدي الأكبر الذي يواجه كل إنسان، وعند القبض على هذا السر ستتكشف خيوط هذا المركب العامل داخل هذا المصنع.

وإذا رجعنا إلى موضوع بحثنا عن الكمال في الإنسان عند الإمام عليه السلام، فإننا نجد هذه الحيرة مستولية على عقله وفكره، فقد أرقه هذا ودعاه إلى العجب، وظهر هذا في:

- إشارات العلمية الدقيقة حول ماهيته، رصدناها في محطات البحث: "أعجبوا لهذا الإنسان ينظر بشحم ويتكلم بلحم، ويسمع بعظم، ويتنفس في خرم"، و"عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله"، و"لا خير في جسد لا رأس معه"، حيث ركز على مختلف القوى وأكد على ترابطها، وتأثير ما هو نفسي على العقل، مثل الحسد على العقل وغيره كثير.

- والأمر الثاني ما رآه الإمام عليه السلام من صور الأداء المتناقضة في حياة الإنسان التي تفجع وتحير الحلماء والعقلاء وتحزن القلوب الحية.

إن الواقعة الإنسانية تدعو إلى التفكير العملي لإيجاد الوصفة الحقيقية لعلاج أمراض الكائن، وتقديم أبنية معرفية علمية جديدة تكون البديل الوظيفي الحي لهذا الإنسان الذي يسقط وينزل إلى ما دون مرتبة الإنسانية [= أضل]، وهنا يفتح سؤال الكمال الإنساني كما جاء في الحديث النبوي: "كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون... وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام"*، وعلى هذا الأساس يصبح الكمال معلم اهتداء سير الإنسانية، وصانع فكرة الحياة وكمال تطبيقها، مطلبا وضرورة.

إن هذا التصور التأويلي للماهية الإنسانية والكمالية، يستهدف بفعل هذا الاستقصاء إعادة تصحيح التصورات حول مفهوم الكمال، تقريبا لحقيقته من الأذهان وإزالة لبسه نظرا لنفور الناس من هذا، لارتباط المفهوم بسياقات معرفية لا تشكل إجماعا، ولغياب الوعي بقيمته.

وتقتضي محاولة إعادة البناء هذه تقديم مفاهيم جديدة عن حقيقة الكمال لهذا رأينا أن بحثنا قد يملك صحة التصور بتبسيط صورته، ليكون قريب التناول ممكن الأخذ بمفاتيحه، وهدفا تديليا تعليميا تعميما للفائدة، مادام أن الإشارة النبوية ألمحت إلى هذا بهذه الصيغة: "ثم الأمثل فالأمثل"، حث بين على تحصيل درجة من درجاته، وسيرا إلى ما هو أرفع.

إنه لا سبيل يمكن من تحقيق مقارنة مع نصوص المخاطبات، وفتح مسالكها بالكشف الحي، خاصة مع موضوع يتعلق بالإنسان، إلا طريق التأويل، تأويل موضوع "الإنسان الكامل"، وقراءة بنيته وتركيبته وسياق تفاعله مع أنساق اجتماعية وثقافية وتاريخية، تمكننا من الوقوف على معرفة علامته وسيماه الهووية.

*- أبو الحسين مسلم بن الحجاج : صحيح مسلم شرح الإمام النووي، تح أبو عبد الرحمان عادل بن سعد، دار ابن الهيثم، القاهرة، مج 8، ص50، 51.

يعد التأويل عملية وقدرة على الفهم، ومحاولة منهجية ذات إحاطة واستشراق، تقدم لنا رؤية متكاملة وإجابة عن سؤال الماهية والوجود، ونضيف إلى هذا حيوية الموضوع، حيث أن الإمام قد طرح إشكالية الإنسان في إطاره الكلي، أين يظهر للراصد في صورة متعددة الزوايا ومتنوعة الأبعاد؛ كونية ونفسية واجتماعية وروحية وإنسانية، إضافة إلى تحليلات كل واحدة، ولذا تصبح المقاربة التأويلية هي مفتاح الوصول إلى معرفة هذا المكون وكيفية تفاعله.

ويستدعي تفكيك هذا المركب في إشرطاته الوظيفية التي نشأ وغما في أجوائها تأويلا لأفق العلامة والدلالة في نص المخاطبات، وهذه العملية عبارة عن تلاقي حدثين تاريخين مختلفين، أي تلاق بين الذات المبدعة والذات القارئة، خاصة وأن الإمام قد قدم هذا الإنسان "فاعلا ومنفعلا"، الأمر الذي يدفع إلى حذر ووعي ومعرفة تمكن من تمثّل حي لهذه المقاربة التأويلية. وهذه الإحاطة بموضوع الإنسان هي ترجمة لهذا المقابل الحيوي، وتعني تأويل الإنسان تأويلا كونيا، وتأويل معنى، وبهذا فمنهج هذه المقاربة، هو كشف عن سيما هوية كونية وإنسانية، ومعرفة بسنن بناء هذه الذات، وتحليلات هذا الكمال والجمال الإنساني.

وضعنا خطة لهذا البحث كبنية تشكيلية منهجية، للإحاطة بهذا الموضوع، ومن خلالها نرصد تصور الإمام للإنسان، حيث يقدمه كائنا متحركا نشطا في دوائر متداخلة نفسية وكونية واجتماعية وإيمانية، وتفرعت خطة العمل إلى مدخل عام وستة فصول، عنوانها المدخل ب: الإسلام والإنسان الجديد، وتناولنا فيه ثلاثة محاور، هي الإنسان في الجاهلية حقيقته وكمالاته التي صنعتها عوالم محيطة به ونسجها فكره ومخيماله مثل الخمر والناقة والفرس والكرم، ثم أخلاق إنسان العصر ونواقض إنسانيته، والمحور الثاني: التحولات الكبرى التي أحدثها الإسلام وما أشاعه من حرية أدت إلى ارتقاء إنساني مثلها الإنسان الصحابي، وأخيرا تحدثنا عن الرسول محمد ﷺ نموذج الإنسان الكامل الذي خص بالاصطفاء، وهو ما يدل على حسن منبته، مع تلك الأعمدة والأسس والتحليلات التي تمتع بها نتيجة سعیه الدؤوب ليلبغ مرتبة الإنسان الكامل، ومن ثم فكماله يقوم على أرضية تثبت كماله وكمال نبوته.

وأما الفصل الأول فجاء تحت عنوان: صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة، قسمته إلى أربعة مباحث، خصصت الأول للحياة الكونية، والثاني للحياة الاجتماعية والثالث للحياة الفردية، والرابع لتفاعل صورها، وعليه فإن صور هذه الحيوانات، تعتبر تجسيدا عمليا وحييا لفكر الإنسان، وتجل دال عليها، وتماس مباشر مع محيطه وعالمه، أين يتجلى تطبيق هذا الكمال في كل أبعاده.

وقد سُميت الفصل الثاني بـ: الإنسان الشقي، وقع تحت خمسة مباحث مبينة، الأول تعلق بمفهوم الشقاء وحقيقته، وتناول الثاني: الانحراف العقدي، والثالث الانحراف الفكري بتجلياته، ووسم الرابع بالانحراف العملي حقيقته وميزاته ونتائجه، وعالج الخامس معيقات الكمال، وقد تفرع إلى أقسام، أولها: إتباع الشيطان، حيث تم إبراز حقيقته وعداوته للإنسان وعمله وأدواره وأسلوبه وآثاره المدمرة للكمالات، وثانيها: إتباع الشهوات بوصفها سيما الشقاء، وثالثها: إتباع الهوى كمركب نزوعي يقود إلى الفساد والتهيه وإساءة العمل، ورابعها: الحياة الدنيا، وتفرعت إلى قسمين تعلق الأول بالمال الدال على البعد المادي، والثاني بزينة الحياة الدنيا.

وأما الفصل الثالث، فهو يترجم حالة الارتقاء الإنساني نحو الكمال، ولهذا عنونته بمراتب الكمال، واحتوى على أربعة مباحث، فالمبحث الأول أسميته: مرتبة التوحيد، واشتمل على بيان حقيقته، وطرق المعرفة وآياتها المتلوة والكونية والتكوينية (قصص الاعتبار)، بمعرفتها المحصلة لمرتبة كمال التوحيد، وأما المبحث الثاني فكان عن مرتبة العبودية، تناولت فيه حقيقتها ومقومات بنائها ومراتبها ومعاييرها، والمبحث الثالث: مرتبة العقل، عاجلت فيه مفهومه وارتباطه بالعلم والفكر، وأساس كماله كونه حجة بين الله ﷻ وعباده، والمبحث الرابع: مرتبة العمل الصالح، تعرضنا فيه لمفهومه وعلاقته بالتقوى والإحسان، وعلاقة العبادة به، وهي مراتب تقف مضادا لمعيقات الكمال. وعنونت الفصل الرابع بتجليات الإنسان الكامل، وعاجلت هذه الإشكالية في أربعة مباحث، تعلق الأول بالإنسان الكامل بين المعرفة والعمل، تناولت فيه الإنسان العارف والعالم والعامل المجاهد، وخصصت الثاني للإنسان الكامل بين الخفاء والتجلي، أبرزنا مفهومه وحقيقته ووظيفة وأداء وصورا، والإنسان العابد وتجليات عبوديته، وتعرض الثالث لعالم الجوانية والبرانية صفاء ويقينية وثباتا واختيارا، وسيما تجليات جماله، وأما الرابع فتناول تشاكل الظاهر والباطن الدال على صورة الكمال، تخليصا وتمحيصا وحضورا لقوى الإنسان وطاقاته.

وأعلمت الفصل الخامس بالإنسان الكامل، وتمحورت إشكاليته في مباحث أربعة، خصصت الأول لمفهوم الإنسان، وقسمته إلى ثلاثة أقسام أولها طبيعته وماهيته المعنوية، والثاني للإنسان في القرآن بوصفه السالب والموجب، وأهمية تعديل طبيعته، وأتمودج كماله النبوي، والثالث للإنسان في نهج البلاغة مفهومه وطبيعته، وأما المبحث الثاني فتناولت فيه مقومات الإنسان الكامل، حيث أتيت على خمس مقومات هي: الكونية والإنسانية والفطرية والفكرية والتوازنية، ووسمت المبحث الثالث بخصائص الإنسان الكامل حصرتها في ست هي: الربانية والتكريمية والروحانية

والخيرية والحكمية والجمالية. وأما المبحث الرابع فقد وسم ب: سيما الإنسان الكامل في نهج البلاغة، أين ظهرت لنا منه علامات وتجليات دالة على الكمال، وثانيا : تجليات سيماه بين جرح الظلم وجرح الحق، وهذا الرصد يحدد ضوابط امتثال الحق بجمال وكمال.

اخترنا أن يكون الفصل السادس بحثا في جماليات المبنى، حيث حددناه في: أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة، لمعرفة إسهام هذه الأدوات في تشكيل رؤية الإمام عليه السلام. بمباحثه الخمسة أولها اللغة والأسلوب وأسرار جماليات النظم وشعريته، وتضمن شعرية الإيجاز وشعرية كسر النظام متمثلة في التقديم والتأخير والاعتراض، ثم شعرية التحول الوظيفي للاستفهام، وشعرية التوكيد والحذف وشعرية التوازي، وأما المبحث الثاني، فقد عنوانته بشعرية التشكيلات الإيقاعية، أي نظم الصوت والإيقاع وتناولت فيه نسق التكرار والتضاد والتقابلات والتناظر الإيقاعي، ونسق السجع والجناس. أما المبحث الثالث فعالجت فيه نسق الاستمتاع وجماليات التشكيل، تعرضت في الأول إلى جمالية المعجم الشعري، وفي الثاني إلى البنية المجازية وتشكيل المفهومات حددتها في مصفوفات دلالية هامة، هي مجازية الدنيا والتحويلات الاجتماعية، والفتنة والشيطان، ومجازية توصيف النبي عليه السلام والقائد العظيم، ومجازية الإيمان والعبادة.

وتطرقت في المبحث الرابع إلى تداولية الخطاب في نهج البلاغة وعالجت فيه نظريتين لدواعي منهجية، هي النظرية التلفظية أبرزت فيها المعينات التواصلية والسياقية وسياق الذات المتكلمة والمخاطبة، وسياق الذاتية والموضوعية في الخطاب، وأما النظرية الثانية فتمثلت في النظرية الحجاجية، عالجت فيها قسمين حجاجيين، الحجاج اللغوي وروابطه الحجاجية، والحجاج العقلي وطبقت هذا التصور على خطبة "الغراء" ركزت فيها على ترتيب أجزاء القول برصد مختلف الحجج التي تهدف في النهاية إلى استعادة ذلك البعد الروحي الذي فقد في الإنسان.

وعالجت في المبحث الخامس أثر النهج في الفكر والعلم، محددًا في أثره في علم الكلام هذا أولا، وثانيا أثره في التصوف الإسلامي، وثالثا أثره في الفكر والأدب الإسلامي عموما.

ثم أتهيأ لهذا بخاتمة رصدنا فيها أهم وأكبر هذه النتائج التي تلخص مفاصل ومركبات مشروع الإنسان في نهج البلاغة، وهي تشكل علامات كشف قد تضاء بقراءات أخرى نوعية تستكمل نواقص العمل، أو تفتح زوايا بحثية أخرى، ولعل أعظم إلفات نريده أن يتحقق في حياة الناس أن يبحث كل واحد عن ماهيته، وأن يحقق جزءا من كماله وإنسانيته، وهي مسألة دقيقة وحيوية، كما

هي ضرورة حياتية تحتاج إلى مزيد من البحث والاستقصاء العلمي، مع ملاحق وظيفية عن هذه الثلاثية الجامعة: الإمام ونهج البلاغة والتأويل.

نرجع بعد هذا إلى ذكر المراجع المعتمدة في هذه الدراسة، وما يشكل مكتبة بحثنا، وقاد إلى بناء هذا العمل، والأکید أن حضور نص الاشتغال - النهج - مرتکز قاعدة هذا التأويل، يستدعي ضرورة حضور نصوص أخرى كاشفة، حيث تتلاقى شيفرات نص المخاطبات مع النص القرآني، ونصوص التاريخ والفكر والنفس والاجتماع، ومختلف تخصصات المعرفة، فمن تمام العمل التأويلي أن نقارب الإشارة بالإشارة، كي يفتح أمامنا أفق النص، حيث العلامة ساجحة في فضائه.

شكل النص القرآني ساندا لاعتبار بين أن نص النهج هو نص ديني جوهرًا يتلاقى ويتقاطع مع النص القرآني ويأخذ منه، ويضع تصورات في حالة من التماهي مع الرؤية القرآنية، أسندناه ببعض كتب التفسير منها مجالس التذکیر "لابن باديس"، ولطائف الإشارات "للقشيري"، ونحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم "للإمام محمد الغزالي"، وتطلبت العملية التأويلية نصوصًا من الحديث النبوي قصد استكمال هذا الإمكان التأويلي ووضعه في سياقاته الوظيفية.

لا يمكن لهذه القراءة التأويلية أن تبلغ تمامها، إلا بوجود رؤية ثانية ترصد مختلف سياقات ولادة النص، ولهذا فإن الإطار التاريخي والاجتماعي والنفسي يدخل مكونًا رئيسًا في تحقيق المقاربة التأويلية، وما تمثله من نتائج حيوية وأبعاد وظيفية في نصوص المخاطبات، لذا اخترنا بعض المراجع التي ترصد هذا السياق، قصد فهم البنية الفكرية لها، من مثل: التفسير الإسلامي للتاريخ "لعماد الدين خليل"، وسلسلة كتب الأستاذ "مالك بن نبي"، والسيرة المفتوحة للنصوص المغلقة "لخالد آغة القلعة"، وكي تكتمل صورة المقاربة بمعرفة البنية التكوينية للإنسان، عمدنا إلى أعمال تجلي حقيقة هذا المكون منها "الإنسان والوعي"، و"فلسفة الحياة والوجود"، و"مسؤولية التأويل"، وسلسلة كتب "الإمام النورسي"، وكتاب "الفكرانية" و"الفكر العربي في مخاضه الكبير"، "لعبد الرحمان مرجبا"، إضافة إلى كتب أخرى ومقالات متنوعة تستكمل البنية المعرفية التي تؤطر الرؤية التأويلية للإنسان، وكذا الاستثمار في المقوم الإنساني والروحي والخيري والجمالي، نذكر حصرا "وحي القلم للرافعي" وما يقيم أعمدة هذا البناء من أفكار وتصورات وأسس حية، وتطلب البعد الكوني عملية تأويلية راصدة لهذه العلاقة الاستثنائية التي تثمر في النهاية رؤية كونية دالة التي تميز وتضبط العلاقة الإنسانية الإلهية، نذكر هنا العالمية الإسلامية "لأحمد حاج حمد"، "وستيفن هوكنج"، "التصميم العظيم إجابات جديدة على أسئلة الكون الكبرى"، ومقالات خاصة في هذا الشأن.

إن كل هذا العمل التأويلي أعين بشروح النهج، مثل شرح "ابن أبي الحديد"، و"محمد عبده"، ودراسة "رضا شاه كاظمي" العدل والذكر، والنزعة المثالية في نهج البلاغة، "لمحمد فلاق عريوات"، وعلي بن أبي طالب دراسة عن حياته "للجلال السيد".

وتطلبت دراسة شق المبنى والبحث عن أدوات تشكيل الرؤية الفنية مراجع في الجماليات وشعرية النظم، مثل دلائل الإعجاز "للجرجاني"، و"جون كوهين" بنية اللغة الشعرية، و"نوفل هلال أبو رغيف" المستويات الجمالية في نهج البلاغة، و"خزعل الماجدي" العقل الشعري، و"حسين العمري" الخطاب في نهج البلاغة، و"علي مهدي زيتون" أدبية الخطابة الإسلامية، والحجاج العقلي وآفاق التأويل "لعلبي الشبعان"، و"أوليفي روبول" مدخل إلى الخطابة، وراجعنا في مبحث أثر النهج في العلم والفكر "ابن أبي الحديد" في شرحه، وعبقرية الإمام علي "للعقاد"، ومقدمة ابن خلدون، و"جورج جرداق" الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، و"أحمد محمد صبحي" في علم الكلام، و"برهان رزيق" التصوف في الفكر الإسلامي، ورسائل "الجنيد"، وأعمال "أبو زيد البسطامي"، وغيرها لإثبات وجه التأثير والتلاقي والتلمذ.

إن هذا المتاح من المصادر والمراجع حاولنا من خلاله بناء تصورنا لهذا الإنسان الذي أراد الإمام صياغته فكريا = تكوينيا، من زواياه الإيمانية والإنسانية والكونية، لذا حاولنا تأويله قاصدين خطوة تالية هي إحيائه واستعادته.

اعترض طريق بحثنا عقبات جمّة، نابعة من طبيعة البحث ورحمه، ففكرة البحث تحتاج إلى الكثير من الزاد المنهجي والمعرفي حتى يكتمل بناءه ويتحقق نضجه، ولذا فإن ما يمكن أن يوضع بيانا دالا على تلك التحديات المعيقة، ما يأتي :

1- قلة المصادر والمراجع المتخصصة في موضوع الإنسان والكمال التي تمكن من تقديم تصور دقيق عن الموضوع، وتمنح رؤية تحدد إطار العمل، قصد التقاط نفاسة الأفكار البانية لمعالم هذه الهوية لكائن يتفلسف كثيرا عن التحديد والضبط.

2- قلة المراجع التطبيقية التي تصب في محاولة تحليل حقيقة الذات الإنسانية وتأويلها تأويلا سننيا لبنيتها التي تتحكم في حياة كائن حي موجود، خاصة وأن مجال الدراسة الذي تحركت فيه، هو محاولة تطبيقية لمختلف المعالم المؤطرة للإنسان التي تبني كماله وترسم جوهره الجمالي.

3- إن ما تمتع به كتاب النهج من زخم في مادته وكثافة دلالاته، وبلاغة أسلوبه، يفرض أدوات دقيقة تسهم في فك شيفرات نص المخاطبات، وما قد يوقع في الابتعاد عن إصابة المفصل الذي يحدد

ويضبط مفاهيم بناء حقيقة الإنسان، وحقيقة كماله، وكل هذا يزيد من تعقيد العمل كما يطرح صعوبتين هامتين :

أولاً: الفهم والتحقق النظري من هذا الخيار المنهجي التأويلي ورصد حقائقه، ومختلف أفكاره وتصوراتهِ.

ثانياً: تمثل الأمر الثاني في تحويل الإطار النظري إلى إجراء عملي تطبيقي، لأن عملية تنزيل التصورات تحتاج إلى أرقى كفاءة، وأمهر الأدوات التي تمكن من النفاذ إلى داخل النصوص وفك شيفراتها، باعتبار أن التأويل محاولة كشف عن سر خفي وليس بالمعطى الجاهز.

ومن ثم كان يتعين مغالبة هذا التحدي المعرفي والإجرائي بما هو متاح أمامنا.

يعود فضل هذا الإنجاز إلى أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور "الطيب بودريالة"، فقد كان لتوجيهه شرف هذا الميلاد، باقتراحه تغيير موضوع الأطروحة من النفس الإنسانية عند الإمام علي عليه السلام إلى ما هو عليه البحث الآن من وسم وهيكله هذا من جهة؛ ومن جهة ثانية تصميمه لهيكل البحث ومفاصله، وتوجيهاته المنهجية وتدقيقاته في ضبط هذا الإشكال، وتصوراتهِ عن ماهية وحقيقة الإنسان الكامل.

فأشكره جزيل الشكر وأحي فيه صبره وتوجيهه لمشاق هذا الطريق بإكراهاته وعسره، وما تطلبه من زمن يماثل تلك العقبات، حتى تحقق لهذا البحث في النهاية تمامه.

وأوجه شكري لكل من كانت له لمسة توجيه وإعانة ودعم دون حصر وعد، فسلاماً وتحيةً..

مدخل

الإسلام وميلاد الإنسان الجديد

- أولاً: الإنسان في العصر الجاهلي:
- ثانياً : التحولات الكبرى التي أحدثها الإسلام
- ثالثاً : الرسول ﷺ نموذج الإنسان الكامل

أولاً: الإنسان في العصر الجاهلي:

1- توطئة؛ الإنسان والعصر: نطلق في كشف شيفرة الإنسان الجاهلي من نصوص وظيفية دالة:

أ- يقول النابغة:

"فتى كملت أوصافه غير أنه جواد فما يبقي على المال باقياً"¹.

ب- ويقول عمر وبن كلثوم:

"ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا"².

ج- ويقول طرفة:

"ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً وياتيك بالأخبار من لم تزود"³.

د- قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾⁴.

هـ- يطرح الأستاذ "رينهارد لاوت" سؤالاً وظيفياً قائلاً: "لماذا أنا موجود في الحياة على هذه الأرض وجوداً يتجاوز مجرد الوجود الأرضي؟ إذا الموضوع، هو هل يوجد مصير رفيع كهذا ومصير أرفع؟ وما هو هذا المصير؟"⁵

تشكل حزم هذه النصوص حدوداً هامة، نؤطر من خلالها لإنسان الجاهلية وكماله:

- حد الكرم والفتوة: وصف "النابغة" الفتى بكمال حقه، وأضاف إليه صفة الجود مع استثناء أنه لا يبقي منه شيئاً، حيث جمع بين الكرم والفتوة، بوصفهما يمثلان قيماً محورية في المجتمع العربي، وحالة اعتداد بالنفس، فهل نعتبر هذا حداً؟!

- حد المبالغة في الجهل: تعلق كلمة الجهل في بيت "عمر بن كلثوم" معبرة عن حالة اندفاع النفس، مع جهل وندية وإيغال وشدة في الأمر، فهل يمكن أن نعتبر هذا حداً آخر؟!

- حد النبوءة: يطرح "طرفة" الخارج عن منظومة القيم المعتز بفتوته، نبوءة: "ستبدي لك الأيام"، وكأنه يخبر بحدسه الشعري بتغير المعادلات، فهل نعتبر هذا حداً كذلك؟!

¹ - الذبياني النابغة : الديوان، تج، عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، 1996، ط 3، ص 95.

² - الشنقيطي أحمد مختار : شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2004، ص 50.

³ - المرجع نفسه، ص 92.

⁴ - سورة الرحمن الآيات 4-5.

⁵ - لاوت رينهارد : إبراهيم وأبناء عهده مع الله، ت غانم هنا. خطوات للنشر، دمشق، 2006، ط 1، ص 24.

- حد البيان : تقدم الآية الكريمة كشفاً وتحلياً إنسانياً يعطي رؤية جديدة وصياغة أخرى لإنسان ما بعد الجاهلية، تعليم البيان، فهل نعتبر هذا حداً، وحالة من حالات البيان؟

- حد الكمالات ونقلاته : يطرح الأستاذ "رينهارد لاوت" إمكانية تجاوز البعد الأرضي، ويشرع باب إمكانية الانتقال في الكمالات من رفيع إلى أرفع، فهل يمكن أن نعتبر هذا حداً آخر كذلك؟! ما الذي يمكن استخلاصه من كل هذا؟

نتائج وتقييم : إذا وضعنا الفتوة حداً أولياً ومنطلقاً مع حالة الجود المفرط بلا إبقاء، علامة لكمال تنزيه الأوصاف الإنسانية، وجعلنا "الجهل" حداً ثانياً يناقض الأول، بما يمثله من نقص في العقل والحلم والكرم، فإن أمر هذا التطرف يقودنا إلى التحديدات الآتية:

أولاً : نلاحظ حالة عدم التوازن بين قيم الفرد وقيم المجتمع، واعتبارات التطلع الآتية من الحدين. ثانياً : يمثل المجتمع واضع الأفكار والقواعد إمكانية النزود بالأخبار والمعرفة التي تعطي الميزان، يقول "مالك بن نبي" : "هكذا كان وجه المجتمع الجاهلي المنغلق على نفسه والذي كانت تتلاشى على أرباضه حركات المد والجزر التاريخية للأمم العظيمة التي جاورتها: الإمبراطورية البيزنطية، والإمبراطورية الفارسية، ومملكة الحبشة في الجنوب"¹، وكأنه بهذا ينتظر ولادة جديدة، أو هو في انتظارها.

ثالثاً : يطرح كمال أوصاف الإنسان ورفض الظلم، والجهل تطرفاً ورفضاً فوق حدود الاحتمال، فقد تطرف الأول فما أبقى من ماله شيئاً، وتطرف الثاني فرد فعالي في جهله فخرج عن قواعد مجتمعه.

رابعاً : يرسم العربي لنفسه صورة هي هويته بواسطة اللغة التي هي هوية إلهية معطاة للإنسان بتعبير "إبراهيم الكوني"، وأعطاه القرآن البيان جلاءً ورفعةً، حيث تكشف الآية هذا الملمح المميز لصورة هذا الإنسان، نقرأها بتأويل "مصطفى ناصف"، حيث يقول: "ومن الجلي أننا إذا اعتمدنا على القرآن وجدنا صورة العصر الجاهلي مختلفة عما يتصوره الباحثون، فالقرآن الكريم يعطي للعربي من مظاهر القدرة القلقة أكثر مما علق بأذهاننا حتى الآن"²، بمعنى أن الحيوية التي تمتع بها الإنسان العربي تمثل قدرة وتطلعا على ارتياد أفق مغاير لمألوف حاله، ويمثل هذا التطلع في ذاته بحثاً عن معنى الإنسان وكماله، وابتغاء مصير رفيع حسن، واتجاه إلى ما هو أرفع، وهو ما حاول "طرفة" أن يحمله في ذاته القلقة المتسائلة، "أن يتكشف فكرة المصير التي تطرق وجدان الشعوب - كما يقول

¹ - بن بني مالك: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق 2011، ط10، ص 39.

² - ناصف مصطفى : قراءة ثانية لشعرنا القديم، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ص 48.

"شبنجلر" - في بداية السلم الحضاري¹، وعليه فإن الإنسان الذي يرفع تحديا ورفضاً لسكون الواقع، ويحاول خلخلة المستقر من المفاهيم في النظام الاجتماعي، هو إنسان مميز، له من القوة المعنوية الكثير، ولذا "المصير لا يمثل إشكالا لضعيف الشخصية، أو لا يصل إلى جعل هذه الأفكار قضية بالنسبة له"²، فكرة إنسان متوثب متحفز باحث عن صورة مثال باستشراف المستقبل، وهذا بالسير في طريق الرفعة وعدم الاقتناع بالمحدود الأرضي والعرضي، فكيف كانت إذن بيئة هذا الإنسان ونفسيته وحياته؟!!

يعكس ما قلناه عن ذلك الألق وتلك اليقظة اللتان تمتع بها الإنسان العربي أصالة كرم في ذاته، وروحا شفيفة، فالنفس العربية، هي نفس "سمححة ناعمة لا عوج فيها ولا التواء ولا تعقيد، وكذلك كان العقل العربي متصفا بالبساطة وشيء من السطحية الخالية من العمق والتشعب، وإن كان يتسم بالوضوح والاستقامة"³، مجمل ما يستقرئ من هذه الجمل أن نفس العربي تتمتع بمرونة وجمالية وهي أقرب إلى النقاء والفطرة السليمة، كما أن ميزات بساطته ووضوحه واستقامته، دالة على أنه يمتلك عقلا هو مادة خام وذهنا صافيا، يحمل قابلية استنبات فكرة منشئة، وهي أوصاف ومعالم إنسان ما قبل الحضارة*، فقد شغل نفسه وبيئته بمكارم نفيسة هي مدعاة فخره في عالمه الصحراوي الممتد الفسيح بلا غطاء، لم يكن فيه ظللا لأحد، بل كان ابنا لصحراء ركبت فيه اعتدادا خارقا ونبلا يحسب له، وناتج هذا أن "الاعتداد بالقوة الإنسانية، والثقة المحدودة بالنفس، والعزم الذي لا يهتز على عدم الإذعان لأية سلطة. سواء أكانت إنسانية أم إلهية - باختصار كل ما يناقض "العبودية" ومن ناحية تاريخية أيضا، فإن هذه كانت واحدة من الصفات المميزة للعقلية العربية قبل الإسلام"⁴، ففي مهاد الأنفة استعصى هذا الإنسان على الخضوع، وهي صفة تتطلبها المرحلة التاريخية، هذه القيمة تعد كمالا فيه، بعد إزاحة "نقيض الإيمان والاعتقاد"⁵ وكل زيف،

¹ - مصطفى ناصف : قراءة ثانية لشعرنا القديم، ص 171.

² - المرجع نفسه، ص 171.

³ - السيد جلال : علي بن أبي طالب، دراسة عن حياته دار الجيل، بيروت، لبنان، 1997، ط1، ص 26.

* - ينظر مناقشة فكرة إنسان ما قبل الحضارة في مؤلفات مالك بن نبي: "مشكلة الأفكار"، "ميلاد مجتمع" .. لإجلاء هذه الفكرة من تاريخ الإنسان.

⁴ - ايزوتسو توشيهيكو: الله والإنسان في القرآن - علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، تر هلال محمد الجهاد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007، ط1، ص 312.

⁵ - كولن محمد فتح الله : النور الخالد، محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، تر، أورهان محمد علي، دار النيل، القاهرة، 2010، ط 5، ص 25.

بترويض هذه النفس لتحمل الفكرة الجديدة، "ولقد نظر "ليسينغ"، إلى التاريخ الديني على أنه تربية للجنس البشري"¹، فما ضيعه العربي من تربية لقواه سيحده في مستقبله، مع هذا الدين الجديد.

2- كمالات الإنسان الجاهلي: يقول الأستاذ "عمر رضا كحالة": "وحاصل القول يمكننا أن نصف العربي أنه تام التركيب الطبيعي يميز عن غيره غالباً بطول القامة مع نحافة الجسم، بيضي الجمجمة، طويل الوجه، أبيض اللون إذا لم يتعرض إلى الجو فيصبح نحاسي اللون، أسود العينين والشعر، مستقيم الوجه مع ارتفاع قليل، أفتى الأنف، صغير الفم، رقيق الشفتين، صغير الأذنين، سالم الأعضاء الحاسة، ذكي عصبي المزاج، عزيز النفس، يهيج إذا جرحت كرامته أو انتهكت حرمة قومه، وإذا احتاج أسرع إلى السيف، واحتكم إليه وصارت الحرب نظامهم المألوف، يميل إلى الحرية، يجب المساواة، يشعر في أعماق نفسه بأنه من دم ممتاز"². يقدم هذا القول صورة نموذجية للمثال الذي كان عليه العربي، حيث يبدو من الناحية الشكلية تام التركيب الطبيعي سالم الأعضاء، متميزاً في صورته عن غيره من الأجناس، كاملاً في جسده من العيوب والعاهات التي قد تشكل عائقاً أو نقصاً فيه، ويظهر لنا من الناحية المعنوية متناقضاً فبعد أن جمع الذكاء وحب الحرية والمساواة والشعور بالتميز وعزة النفس، بصفات يعكسها مزاجه العصبي، وسرعة غضبه، وهو ما يفقده التوازن والحكمة، أي أن إنسانيته يعترتها النقص، يقول "أحمد أمين": "والعرب في الجاهلية غرقوا في عبادة الأوثان. وكان الدين - كما يدل عليه شعرهم - شيئاً سطحياً غير متغلغل في أعماق صدورهم فقدسوا الحجارة والغدران"³، وقد يكون المزاج العصبي وسرعة الغضب وراء ابتعاده عن الروية والتعقل والضبط الذي يقوده إلى رفض أسوأ سلوك اعتراه وهو الشرك الدال على جاهليته، ولذا "فإن الحياة النفسية عند المشرك تشبه الصحراء العاتية التي تخلو من الحرية والرحمة والسلام"⁴، وهو ما يدل على خلوه من معنى إنسانيته إلى حد ما، فقد كان حاداً في طبعه، عاطفياً في غير تعقل، وعليه فإن الجهل "هو نوع من السلوك النموذجي للرجل المتهور، السريع الاهتياج الذي يميل إلى فقدان السيطرة على نفسه الأدنى إثارة، ويتصرف تبعاً لذلك بشكل متهور، تقوده عاطفة عمياء، لا يمكن التحكم بها"⁵، وبهذا يكون الجهل ناقضاً كمالياً لإنسانية الإنسان، يحتاج إلى تنمية وتزكية ذاتية.

¹ - رينهارد لاوت : إبراهيم و أبناء عهده مع الله، ص 19.

² - كحالة عمر رضا : العالم الإسلامي. ج 2/1، الشركة المتحدة للتوزيع دمشق، 1984، ط3، ص 24.

³ - أمين أحمد : يوم الإسلام، دار الأصالحة، الجزائر، 2010، ط1، ص 6.

⁴ - ناصف مصطفى : مسؤولية التأويل - المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام - القاهرة الإسكندرية، 2004، ط1، ص 225.

⁵ - توشيهيكو ايزوتسو : الله والإنسان في القرآن، ص 318.

إن من الصور التي تبرز إمكانية تألق هذا الإنسان ونزوعه نحو السمو فكرة الكرم والبذل، وهذا معناه ترويض مثمر للنفس، ومنازعة للقوى الشهوية والغضبية ونزعة الأنانية وحب السيطرة والتملك، لأن الكرم هو مدرسة لتربية وتزكية النفس، تهيئ الإنسان وتدفعه إلى الإنسانية ورفيع الخصال، ومن ثم ففكرة الكرم هي "نوع من السلوك فوق البشري"¹، وهذا ما يؤكد على خصوصية وتميز إنساني بالكرم، ولذا "فالكريم -دائماً- إنسان موهوب"²، بمعنى أنه مبدع إنسانية وخيرية بامتياز، وهو المقياس الذي يقاس به الإنسان، "فلا يستطيع كائن بشري أن يرتفع بمحض اكتسابه، بل لا بد أن يدركه ما يشبه أن يكون مسا من هذا المطر"³، وهذا معناه أن قوة أخرى دافعة وساندة ومحركة لهذا الفعل الإنساني/الاجتماعي، "ففي وسعنا أن نزعم أن الشاعر الجاهلي يرى علو الإنسان رهينا بصلته بأشياء أخرى غير الإنسان ومن أهمها المطر والناقة"⁴، وصلة حيوية، وعليه فقد كان الكمال وما يزال حالة استثنائية [= إنسانية = جمالية]، ليست سهلة الارتداد، ولا هي بالمتاحة لكل الناس، ولكن هذا لا يمنع من إتيان المحاولة، لتحقيق درجة من درجاتها، وأن تتجه الإرادة إلى هذا المعنى الإنساني/الجمالي، الأمر الذي يجعل الكرم كمالاً، والكمال كرماً، يجود به الأفاضل الموهوبون، لتنمية الحياة بالخيرات في رحلة أرضية متدرجة صاعدة، يقول "عنترة بن شداد":

فإنها شربت فإنني مسنح الكرم
وإنها صلوت فما أقصر عن زهد
مألي وعرضي وأهر لمر بظلم
وكمأ علمت شأني وزك رمي⁵

إن عنترة ورغم شربه للخمرة، إلا أنه أبقى ذاته في حالة من الكرم العالي، دون أن يدنس عرضه، كما أن سكره قد حمله على مكارم الأخلاق، وكفه عن المساويء، ليظهر في الأخير بمظهر الكمال، وهو ما جعله يفتخر بجوده، حيث لم ينقص السكر من وفر عقله، ولذا فالجود صفة كمالية ملازمة لعنترة، فهل الخمرة هي التي رفعته إلى هذا الحد، وجعلته أكثر يسراً وتلقائية، وكأنها حالة ترويض ثانية لا يقوى عليها أيا كان، إلا المميزون والموهوبون؟! إن عنترة يظهر بمظهر الكمال الذي يجعله مفخرة في هذا الوسط العربي وفي بيئة الكرم الخاصة وفي مزاجه ملفتة بين الكرم والخمر. وترتفع الخمرة إلى مرتبة الكمال المقدس، يباكر إليها الفتیان، كما يقول "الحادرة":

¹ - مصطفى ناصف : قراءة ثانية لشعرنا القديم، ص 132.

² - المرجع نفسه، ص 132.

³ - المرجع نفسه، ص 132.

⁴ - المرجع نفسه، ص 132.

⁵ - أحمد مختار الشنقيطي : شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، ص 110.

فَهْـمِي مَا بِصِرْبِكَ أَنْ رَبِّ هُنْبَلَةٌ بِأَكْرَبَتْ أَمْزَجَهُمْ بِأَهْمَكُنْ صَرْعًا¹

إن إرادة اللذة والمباكرة المقصودة تمثل حالة يقظة وانتشاء وتحفز يرفع هؤلاء إلى مرتبة مقدسة، يقول "مصطفى ناصف": "يشربون الخمر التي كانت دائما شراب الآلهة لكي يتشبهوا بهم وهم يشربونها"²، فإذا كان الكرم يحتاج إلى قدرة أخرى خارج إرادة الإنسان، فإن الخمرة تمثل مباكرة لأمر عظيم يشغله، ولأنها سامية مقدسة، فارتقاؤهم إليها يكون بمباكرتها، بمعنى "محاولة الإنسان أن يرتد إلى وعيه الباطن..، ذلك المبدأ الذي يبحث عنه ليكون بمراى من الحياة"³، بمراى من الحياة ظهورا إلى شبه بالآلهة وارتفاعا عن المألوف الذي يقتل حيويته وتميزه، ولهذا عدت "أهم مظاهر الرجل النبيل الذي يحقق مالا يستطيعه غيره"⁴، وهو التحلي الذي تتطلبه طبيعة الحياة ومبادئها.

وليس بعيدا عن أجواء الكرم والخمر أن نجد الناقة والفرس بتلك الهالة الكبيرة والتأليه الملاحظ، وهذا لاعتبارات هامة، بحثا عن عالم أفضل وتطلعا طالما شده في رحلة مضنية. تكشف أن الناقة والفرس عالمان سحريان خارقان صنع منهما رمزية دالة، الحيوان المثل [= الإنسان المثل]، وكأنه يحدث الوجود الذي يساكنه في رحلة ممتدة ورثتها الأجيال في شبه تغذية مجسدة ل: سؤال أفق، وسؤال حلم. أن "صورة الفرس هي صورة الرجل النبيل (...)", ذات صبغة إنسانية مثالية"⁵، يوحي هذا بالعراقة والأصل والكرم كشجرة ثابتة الأصل في عقل المميز الشاعر صوت الإنسانية، بتعبير الشاعر "صلاح عبد الصبور"، وحدسا بأسئلة العظماء عن غد، لأن غدهم هو غد عقولهم الخارقة التي تصنع الحياة ثانية بالسؤال، وتعيد بناء الإنسان والوجود في كل لحظة برؤية جديدة واستشراف كاشف، ومن ثم يمثل الفرس صبغة إنسانية مثالية، صبغة الإنسان الباحث، وصورة "العزلة أو ما يشابهها فالفرس إنسان غير مبتذل- والابتدال هو مخالطة الناس دون اهتزاز ودون أن يفرغ المرء لنفسه"⁶. نعم إن أشد ما يقتل الإنسان الباحث عن الحياة [= الحي] الإلفة والابتدال، وإنما الإنسان الحي من يتصل وينفصل، حفاظا على ألق الدهن وصفاء النفس، وكأنه يفرغ لنفسه، كي يبينها.

¹ - الحادرة قطبة بن محسن: الديوان، جمعه محمد بن العباس الزبيدي، ص 99.

² - مصطفى ناصف : قراءة ثانية لشعرنا القديم ص 150.

³ - المرجع نفسه، ص 151.

⁴ - المرجع نفسه، ص 134.

⁵ - المرجع نفسه، ص 87.

⁶ - المرجع نفسه، ص 92.

ولهذا فقد كان هذا الفرس "أقرب إلى صورة المعلم العظيم الذي يمهّد للناس الطريق"¹، صار رمزاً مخلصاً والقوة التي يحتمي بها الإنسان أمام ضعفه، ويتقوى بها ليكمل نقصه، أما الناقة التي يقطع بها الجاهلي الصحراء والأهوال، فهي تمثل محاورة وسؤالاً يتماثل ويتلازم مع حركتها، فهي الأخرى ستغدو "الإنسان المثالي" يحمل شعلة غريبة ويستحق الحياة إذا هو حارب، ولذلك كان الشعار الروحي في العصر الجاهلي أن الحرب هي مفتاح الطهارة"²، هي الناقة المثال تحوز هذه المكانة في هذه البيئة الطبيعية الصعبة تحمل عبء الحياة، وشعلة غريبة في حربه وفي سلمه ليكون جديراً بالحياة، وتأويل هذا أن البيئة المفتوحة بلا حدود ولا جيش ولا حارس، أنه لا يتم الاحتماء في هذا الفضاء الواسع من المخاطر المحدقة، إلا بقوة الناقة وقدرتها العجيبة على التحمل وإمدادها الملهم، وهو ما جعل من "الرؤية" الجاهلية "للعالم ذات مركزية إنسانية، إذ كان الإنسان القطب المفهومي الوحيد الذي لم يكن ثمة قطب أساسي في مواجهة جوهريّة معه"³، وبذلك الشعار الروحي الذي حمله في ذاته أن الحرب هي مفتاح الطهارة، حتى يبقى نظيفاً من كل دنس ويستمر أياً عصياً على الإخضاع ويثبت رجله في المكان، طهارة هي حماية لذاته وكرامته وإنسانيته، وبهذا تصبح الحرب "الماء الذي يطهر الإنسان"⁴، من الدنس، وبهذا فهي تمثل البقاء والمثال والكمال، بقاء إنسان شاهد على مرحلة تبحث عن حرية ووردة برية تنبت إنسانية في هذه الصحراء، وردة ولادة أصيلة "لحيوان محارب"⁵، تثمر ولادة إنسان أصيل، في بيئة تفرض على إنسانها هذا، ومع الناقة القادرة على ذلك، بالمجاهة الدائمة التي تصنع الفعل بعزم وإرادة قوية.

3- أخلاق في العصر: ذكرنا سابقاً مجموعة الحوافز الطبيعية والإنسانية التي دفعت الإنسان في هذا العصر إلى البحث عن كينونة مشرفة، وعن صورة حية لإنسان مثال يكون عصياً على الكسر والتطويع والذوبان، وعليه فقد كان مفتاح وجوده إباء خاص تميز به، كما أن مقوم هذه الذات هي الأخلاق والقيم والمبادئ، "ولا ننكر أن أهل الجاهلية كانت فيهم دنايا ورذائل وأمور ينكرها العقل السليم ويأبأها الوجدان، ولكن كانت فيهم من الأخلاق الفاضلة المحمودة ما يروع الإنسان،

¹ - مصطفى ناصف : المرجع السابق، ص 92.

² - المرجع نفسه، ص 110.

³ - توشيهيكو ايزوتسو : الله والإنسان في القرآن، ص 129.

⁴ - مصطفى ناصف : المرجع السابق، ص 113.

⁵ - المرجع نفسه، ص 113.

ويفضي به إلى الدهشة والعجب"¹. إن الجمع بين خلقي الوفاء بالعهد وعزة النفس والعزم يزيد من قدرة الذات في مواجهة المشاق وحفظ الكرامة، مع أخلاق أخرى كثيرة كالإجارة وإعانة الضعفاء والمحتاجين، وإنسانية عروة مثال حي* على ذلك، يقابل هذا أخلاقا سيئة تحط من قيمة الإنسان كواد البنات مثلا، "وهذا كله لا يشير إلى أن العرب لم يكن فيهم جرثومة خلقية صالحة يمكن تقويمها وتهذيبها. فقد كانوا يجبون الحرية حبا جما ويمارسون فعائل الكرم وبذل القرى"²، جرثومة تبقي الأصل الإنساني قائما، كما تبعد الإنسان عن التحلل والتفكك.

وعليه فقد كان من أعظم الأخلاق في هذا المجتمع التي تميز بها عن غيره بعد الوفاء بالعهد "عزة النفس والمضي في العزائم. إذا لا يمكن قمع الشر والفساد، وإقامة العدل والخير؛ إلا بهذه القوة القاهرة، وبهذا العزم الصميم"³، وفعلا فإن عزة النفس مفخرة تورث الخلود والمضي في العزائم هو الترياق المعالج لتلك الجراح التي يأتي بها أهل الشر والفساد، وأما من الناحية الدينية فإن عبادة الحيوان والكواكب والأشجار عند البعض، ومنهم من اتبع اليهودية والنصرانية المخرفتين⁴. قد أوقعهم في فساد كبير وغلق على النفس باب تغذية ذاتية وتنمية وجدانية كان من الممكن أن تحصلها، فانعكس هذا الوضع سلبا على تحديد وجهة العرب في التاريخ، ونتج عن هذا أنهم كانوا "ضعاف التفكير أقوياء الشهوات"⁵، وهي حالة اضطراب وعدم توازن تبعد عن إصابة طريق الرشد، لأن مكة كانت في عهد البعثة مملوءة بعواصف من المآثم والشهوات المفسدة وكان رجالها مضربا حقيقيا للشلل الفكري وانطلاق الأهواء والشهوات⁶، أجواء قائمة تشي بأحوال التناقص وموج هذا الاضطراب بمداه وجزره يدفع على الكسل والجمود، بحيث "يزيد خمول الخامل وحدة اليقظان كالشعاع الذي ينمي الأشواك والورود معا"⁷، في مثل هذه الحالات من وضعيات التاريخ البشري يشرد الكثير ويضل آخرون، ما عدا قلة قليلة تبقى ثابتة في وضع إضاءة، يمثل وضعها طبيعيا ومهادا لأرضية الكرامة الإنسانية تنبت جديدا بألية التدافع.

1- المباركفوري صفى الرحمان: الرحيق المختوم، الشركة الجزائرية اللبنانية، الجزائر، 2006، ط1، ص 45.

*- ينظر ديوان بن الورد عروة، ففيه نظرات ثابتة عن الإنسان وحرته وكرامته وعلاقته بمجتمعه الإنساني على أساس من العدل.

2- عمر رضا كحاله، العالم الإسلامي، ج 1/2، ص 113.

3- صفى الرحمان المباركفوري: المرجع السابق، ص 47.

4- عمر رضا كحاله: مرجع سبق ذكره، ص 115.

5- الغزالي محمد: فقه السيرة، دار المعرفة، باب الواد، الجزائر، ص 26.

6- المرجع نفسه، ص 27.

7- المرجع نفسه، ص 76.

4- نواقض إنسانية: إن ما تمتع به إنسان الجاهلية من خاصيات نوعية تجعل منه إنسان يقظة وتطلع وإرادة وإمكانا يحقق إنسانيته، ولكن هذا الألق يناقضه بممهدات ومعيقات تعرض إنسانيته للخطر والتدمير الحتمي، ونجمل نواقض* إنسانيته في الآتي:

- **أولاً: الافتقاد لبنية ثقافية عميقة:** يقول "مصطفى ناصف": "لم يكن الإنسان في الثقافة الجاهلية جزءاً عضويًا من حياة ممتدة عميقة"¹. إن غياب بنية عضوية ثقافية عميقة وضعت الإنسان الجاهلي في حالة من الهشاشة التكوينية وضعف الرؤية، نظراً لافتقاده لمنظومة معرفية يغرف منها من محمولاتها القيمة التي تدفعه إلى ارتياد الأبعد والأعمق والجميل، لتتكشف له الحقيقة ويتجلى له المعنى، ولذا فتثقافة الإنسان الجاهلي قائمة على شذرات بسيطة وأفكار غير نامية.

- **ثانياً: فكرة الحواجز:** يقول "مصطفى ناصف": "العقل العربي قبل الإسلام شديد الاقتناع بفكرة الحواجز، ولذلك كانت فكرة الجمع عنده فكرة سطحية"²، ولعل أبرز هذه الحوائل الكثيرة الأوثان [=الواسطة] كما اعتبروها، وهي فكرة تبعد الإنسان عن إمكانية لمس ما هو جوهر، وإقامة علاقات رابطة تجمع بين الحقائق والمفاهيم لإدراك البعد الكوني، ولذا بقي أسيراً للحسية التي لا تحقق الجمع والنماء فأضعفته عن الارتقاء، وأرهقه هذا العقل الذي يجزئ الحقائق والأشياء، فلم يجد مخارج فكرية عملية تحقق نموه وتطوره الطبيعي وتحل مشكلاته، وتنجز مشروعه الحيوي.

- **ثالثاً: الاحتفال بالصيرورة والتغير:** يقول "مصطفى ناصف": "قد احتفل - أي الجاهلي - بالصيرورة والتغير بدلا من النمو. وكانت فكرة النمو مهددة بفكرة الفناء"³. إن فكرة الطلل تعد مثالا حيا لهذه الصيرورة، فعوامل الفناء ماثلة حوله تحذف رسوم الحياة، وتبقى آثار الأشياء دالة على عملية انخيار معنى الحياة، يرسمها العقل ولا يتجاوزها إلى بديل يجددها، لأن من طبيعة الحياة أنها نامية بالفكرة، ممتدة بالسعي والإرادة، وبناء يتجدد بالقيم.

- **رابعاً: الإغراق في الجزئيات:** يقول "مصطفى ناصف": "وهكذا يبدو لي مرة أخرى أن القرآن يتولى فحص أمارات اللغة والعقل العربي، وكأنه يعتب عليه الجزئيات الكثيرة التي فتنته"⁴، لأن العقل التجزيئي لا يمكنه أن يحيط بالحقائق، فمعه تضيع الكثير من الخيوط، وتصبح الرؤية قاصرة عن

* - إن تعبير نواقض إنسانية نشير به إلى المعيقات التي أضعفت إنسانية الإنسان، وأقعدته عن إدراك وإصابة معنى الإنسانية والكمال الحقيقي.

¹ - محمد ناصف : مسؤولية التأويل، ص 94.

² - المرجع نفسه، ص 164.

³ - المرجع نفسه، ص 165.

⁴ - المرجع نفسه، ص 165.

الإمام بالحقائق ونظام الأشياء، وعليه فإن ربط الحقائق ببعضها في نسيج واحد متكامل يدل على تمام عقل، يوصل إلى إدراك الحقيقة، وقد عاب "مالك بن نبي" في تحليله للعقل العربي مثل هذا الأمر، لأنه يجزئ الأشياء¹، وبهذا العقل لا يمكن إيجاد ترابط بين الحياة والموت، والإنسان والطبيعة، وبين الإنسان وأخيه الإنسان، والفرد والمجتمع، وبين المعاني والضرورات وتشابكات الحياة، ولذا فإن متتالية الصور والحقائق التي ترد على الذهن أضعفها هذا العقل، وضاع معها الإبصار والرؤية، يقول "محمد عبد الرحمان مرحبا": "فقبل الإسلام لم يتبلور للعرب فكر متميز خالص واضح المعالم، إذ لم يكن لهم شخصية عقلية واعية أو نواة للتفكير المدروس المنظم فالغالب عليهم الفطرة والطبع"²، فعطل إشعاع العقل بفكر فعال، وهذا ما تجليه فكرة الحسية والواسطة التي منعت من انبلاجها.

- خامسا: اعتبار العبادة عبودية : يقول "مصطفى ناصف": "كذلك نظر إلى العبادة في الجاهلية على أنها محض عبودية لا يلاحظ فيها تربية الإنسان وتكميله"³. ذكرنا سابقا أن العربي يرفض الخضوع لأي جهة كانت وأن اعتداده بنفسه قد ملك كيانه، بل إن هذا الإنسان كثيرا ما تجرأ على صنمه معبوده [=الواسطة] بالبصق والشتم، وحتى على الناقة بمنزلتها، وكل هذا شكل حجبا حالت دون تحصيل رؤية ومعرفة يقينية، تجعله يدرك أن العبادة التي هي خضوع تحمل معاني التربية والتهذيب والنمو والثقيف، وأنها بنية تكوينية تنمي الذات، لم يستطع أن يتخلص من تراكم يشل قواه عن الإبداع والتفكير، وهكذا "فإن إلها واحدا يحيط بكل شيء، لا يبدو أنه كان في العقل العربي إجراء يؤدي إليه حتى نزول القرآن الكريم"⁴، فقد أجمته تلك الحجب عن تشكيل فكرة إيمانية تخرج هذا الإنسان من عالم الحس والتهيه، وتنقله إلى عالم التوحيد والعبودية، وتسهم في تربيته إيمانية تكمل نقصه وضعفه، وعليه فإن هذا الناقد يعد ناقضا رئيسا، جانب بفقده الإنسان العربي التوفيق والنمو، بل أبقاه في عبودية ووهم من إفرازاتها أنه وجد في "عصر يضطرم فيه القلق ويبلغ ذروته، إننا أمام مجتمع تشغله أسئلة أساسية شاقة عن مبدأ الإنسان ومنتهاه ومصيره وشقائه وعلاقته بالكون"⁵، فضيع الوعي والحكمة، ولم يحصل المعرفة والتربية التي تنمي ذاته وقواه لمعالجة أموره.

¹ - ينظر "مالك بن نبي"، فقد وردت هذه الفكرة في كتيبه ككتاب "مشكلة الثقافة"، وفيها تحليل دقيق لمزلق هذا العقل ومخاطره وانعكاساته السلبية.

² - مرحبا محمد عبد الرحمان : الفكرانية، القسم النظري، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2005، ط1، ص 17.

³ - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 211

⁴ - كموني سعد حسن: العقل العربي في القرآن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، 2005، ط1، ص 238.

⁵ - مصطفى ناصف : قراءة ثانية لشعرنا القديم، ص 49، 50.

لقد دفعت هذه النواقض الإنسانية من جهة أخرى الإنسان العربي في عصر الجاهلية إلى بث روح التملل، وتحولت فيه إلى يقظة تلخصها حالة الحيوية والتحفز التي كان عليها، وكثيرا ما نطق الشعر العربي بهذا المعنى.

5- عالم ووسط يموج: تحركت الذات العربية في هذا الوسط تفتش مع تقدم الزمن عن الخيط الأبيض الرفيع، والأکید أنها أصابت الأرفع منه بدرجات، رغم الإخفاق الهائل والحاصل في الحياة الاجتماعية، من عينات ذلك ما كانت عليه بعض العائلات الكريمة التي حاولت التأسيس لقيم عربية أصيلة، مرتدية لباس الكرم والتقوى، تبحث في أصلاها عن الأصلح للحياة¹، وغالبا ما يكون حلما في عاقلة رجل واحد، وفي سلسلة متواصلة من العمل الصامت، قدمت تلك العائلات القيم التي تجابه التحلل والتفكك الذي أصاب كثيرا من الناس، وعليه "فليس من شيء في حكم العادة يحدث طفرة أو يبلغ شأوا من الكمال في فراغ، وقبل أن يتقدمه تمهيد يهيئ له الأرضية الصالحة ليترعرف وفق الشرط المرغوب"²، مما يعني أن تطلعا قد شغل العربي وحفزه كثيرا إلى ذلك، تطلع لم يكن سهلا، فقد كان ثمنه غاليا غلاء العظمة والرفعة.

ينفرد العرب "بمميزة لم تتوفر لغيرهم هي أن يقظتهم القومية اقترنت برسالة دينية، بل لعل الأدق أن نقول إن هذه الرسالة هي تعبير عن تلك اليقظة"³، حيث يأتي الاصطفاء ويثمر وسط هذه الظروف والأوضاع، مع هذه اليقظة الحرجة التي تمر بها الشعوب والأمم، يقول النبي ﷺ "إن الله اختارني واختار لي أصحابي"⁴، وبهذا يتحقق الحلم ويتجسد كمال هذه الأمة، وكمال الإنسانية في الإنسان العربي، لأنه إنسان "سليم من الخلل العقلي والنفسي إجمالا، لأن مثل هذا الخلل يأتي أكثر ما يأتي من اختلال الغريزة الجنسية وآثارها على النفوس وأن الشذوذ الناجم عن اختلال هذه الغريزة هو بعيد عن العربي في جاهليته التي قطعها الإسلام وأنهاها، فالغريزة الجنسية عند العرب عولجت علاجا طبيعيا"⁵، تمثل هذه السلامة القابلية للسمو، وتشكل من ناحية ثانية مؤهلا لعملية الاصطفاء والاختيار، مما يمكنه من التحرر من الشهوات التي تفسد البنية النفسية والتكوينية له.

¹ - ينظر كتاب جلال السيد: "علي بن أبي طالب، دراسة عن حياته"، فقد حلل فيه هذا التشكل والصراع والتهيئة والتطلع نحو أفق تمنوه فكان، خاصة العائلة الهاشمية التي استقرت فيها فكرة مجاوزة المؤلف المعتاد في المجتمع الجاهلي.

² - فلاق أحمد عروات: التبعة لمثالية في نهج البلاغة - موضوعا وأسلوبا - ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون، الجزائر، 1998، ص 282.

³ - محمد عبد الرحمان مرجبا: الفكرانية، ص 39.

⁴ - الألباني محمد ناصر الدين: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، دار المعارف، القاهرة، 1992، ط1، ص 35.

⁵ - جلال السيد: علي بن أبي طالب دراسة عن حياته، ص 15، 16.

يكشف الشعر العربي عن الكثير من حالات تجاوز الواقع القائم، مما يدل دلالة قاطعة على "أن المجتمع الجاهلي لم يكن مقتنعا بما يفعله، بل ليس من المبالغة في كثير أن نزعم أنه كان يتطلع إلى صورة أروع وأكثر كمالاً"¹، أي عدم اقتناعه بكل سلوك منافي للأخلاق، متعارض مع ذاته، مثل وأده للبنات، وليس هذا تبريرا من وجهة أخلاقية، ولكنه كشف لملاسات النفس الإنسانية وهي تتأرجح في صراعها بين بناء قيم إنسانية ونقيض مهدد مهدم لها، يقول "بشيتي الكسندري": "إني لا أحب الإنسان، بل أحب ما ينهشه من الداخل"، عن حال النفس وهي تبحث عن صفائها وتوازنها من ذلك الأمل، ووضع الإنسان وهو يجد في طريق خلاصه، وعليه "فإن مشكلة الإنسان في الجزيرة ليست مشكلة مادية عملية. وإنما هي مشكلة نفسية خلقية روحية"²، أي أن علاج مشكلته له ماهية معنوية روحية، لا يقدر عليها إلا الأنبياء، ووصفته توجد في عالم النبوة، وهو ما ولد الخشية من المستقبل، حيث يزداد السؤال بحمله وثقله على الذات، ولذا كان "الشاعر العربي مشغول بما يخشى أن يكون"³، وهي الخشية التي انبلج ظلامها مع فجر الفكرة الدينية التي أثمرت ميلاد الإنسان الجديد، وبذلك تحول الحلم إلى عظمة في التاريخ.

ثانيا - التحولات الكبرى التي أحدثها الإسلام: كانت كلمة "اقرأ" النازلة في غار حراء قطرة الروح التي سقت النفوس الظائمة وغذت العقول الحائرة، في صحراء هذا الإنسان، ومثلت مشهد ميلاد كوني أتي بالتوحيد الذي ألغى الوثنية، ورفع الإنسان إلى مقام الأكملة، وأعطته إمكانية أن يترقى وفق قاعدة: "الأكمل فالأكمل"، أو "الأمثل فالأمثل"، بعد أن علم هذا الإنسان البيان، وتعلم كيف يرقى إلى الإنسانية بميزان، قال تعالى: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾⁴، وطلب منه ضبط وعدم تضييع الميزان ليتحقق العدل، قال تعالى: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾⁵، بدل التطاحن والصراع والغلبة والافتراس بين الناس، أسس لنظام يقوم على العدل والقسط والميزان. ويشمل هذا كل ما في الكون لإقامة التكليف، ودفع الإنسان إلى أن يتحمل مسؤوليته بعلم ووعي ومعرفة، وهو مبدأ حتمية حرية، ولذا "فالإنسان في عقيدة القرآن هو الخليفة المسؤول بين جميع ما خلق الله"⁶، نتيجة تكريمه

¹ - مصطفى ناصف : قراءة ثانية لشعرنا القديم، ص 91.

² - المرجع نفسه، ص 117.

³ - المرجع نفسه، ص 179.

⁴ - سورة الرحمان، الآية 7.

⁵ - سورة الرحمان، الآية 9.

⁶ - العقاد محمود عباس: الإنسان في القرآن، مطابع نخضة مصر، ص 7.

بالعقل، حيث صار مسؤولاً على فعله اختياراً وطوعاً ومحبة، وسيكشف سلوكه عن إنسانية وعظمة فعل.

لقد مهد طريق الإنسان، وتوضحت له الأهداف، فشكل هذا تحولا في مساره الإنساني والتاريخي، لأن الأمر استند في الحقيقة إلى صحة وصلاحية فكرة¹، وعليه فإنه "لم يعد يؤرق هذا الفرد الوعي الفاجع في البحث عن المخارج. فلقد أعطته الفاعلية الدينية هذه المخارج"²، دفعته إلى إتقان مداخل الأمر ومخارجه، بالجمع بين الفكرة والعمل، فلم يعد العمل تيهًا وخبط عشواء، وإنما صار نية وصواباً*، وما يمثل وجه الإحسان في قصده، وبمعنى آخر أن هذه التحولات الإستراتيجية قد غيرت مسارات الإنسان، حيث أن عمله وفعله وحركته ارتبطت بغاية وقصد، وصارت تدور حول محور واحد³، أن تكون لله خالصة، ولا يشرك فيها سواه، كما منحته قوة حررته من الأغيار، وأخرجته من دائرة العبيثية والعدمية، وأسقطت كل الحواجز التي تقف أمامه، ووجهته إلى تمام التوحيد وكماله، وعليه فقد "كانت بعثة محمد ضرورة ماسة لتصويب خطى الإنسانية التي شردت. وكانت لفتنا لأنظار أهل الكتاب خاصة إلى المآسي التي ألحقوها بالناس"⁴. إنها الترجمة العملية الملائمة لضرورة تاريخية، تصحح مسار الإنسان، بمنهجية واضحة المعالم.

تستلزم نقلات وتحولات التاريخ النظر إلى الواقع نظرة دقيقة عميقة كاشفة لإدراكه، ومن ثم تغييره بقيم أخرى، لذا جاء الإسلام "وبدل المقاييس القديمة وأحدث مقاييس غيرها يستخدمها في تقييم الرجال"⁵، تغيير فكرة التحلل والفساد والسقوط بفكرة النهوض والبناء والصلاح، وترسيخ قيم بديلة، مجددة لحياة الإنسان، وتعد هذه الوظيفة التي جاء من أجلها الرسل، "في كل بيئة لتعالج الفساد الذي نشأ في هذه البيئات"⁶، وظيفة عضوية ضرورية من الرسل، لتصلح ما فسد وتهيئ

¹ - ينظر كتاب مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته، حيث شرح وحلل فكرة صلاح وصلاحية الفكرة شرحا وافيا دقيقا.

² - سركيس إحسان : الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية، ص 80.

*- يتجلى توضيح هذه المسألة ومفهوم العمل الذي يكون لله خالصا أولا في حديث: "إنما الأعمال بالنيات..." وأما شرطه الثاني فهو الصواب ويستشف من قوله تعالى "ليلوكم أيكم أحسن عملا" [الملك، 2] قال الفضيل أخلصه وأصوبه، وقال: هو الخالص: إذا كان لله عز وجل، والصواب إذا كان على السنة "وقد دل هذا الذي قال الفضيل على قوله عز وجل "فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا"، ينظر كتاب ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 1998، ص 18.

³ - ينظر محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، دار الشروق القاهرة، 2010، ط11، ص 16.

⁴ - المرجع نفسه، ص 16.

⁵ - جلال السيد : علي بن أبي طالب دراسة عن حياته، ص 114.

⁶ - الشعراوي محمد : الإنسان الكامل محمد ﷺ، دار الندوة، الإسكندرية، ص 26.

الأرضية المناسبة لاستنبات جديد، ليجد الإنسان في هذا العالم الروحي النقي فرصته في تجديد إنسانيته، وتصويب حركته وتوجيه بوصلته.

I- تحول وإنسانية: رأينا حالة التخبط التي لاحقت الإنسان العربي في جاهليته قبل أن يجد مسلكه النهائي في إشراقه الفكرة الدينية، مع ما تمتع به من تطلع وحافزية، في عصر "لم يكن عصر بساطة، أو قبيلة، بالمعنى المألوف، بل كان عصر تحولات شاملة في حياة العرب وتفكيرهم وأدبهم"¹، فقد استهدف هذا التغيير الإنسان، وأعاد له هويته وصاغه صياغة ثانية، ونقله من منظومة فكرية إلى منظومة أخرى مختلفة، حيث كان بناء شخصية الإنسان الجديد آية متفردة، "مهيمًا كلاً منهم لدوره المتفرد العظيم الذي أتاح للمسلمين أن يقودوا العالم ويعيدوا صياغة تاريخه، وأن يقفوا بعقريّة معجزة من جاهلية التمزق والفراغ، إلى حضارة الوحدة والامتلاء...، ومن الموت والخمول إلى الحياة والحركة اللتين لا تحدهما حدود"². لقد تركّز تكوين الإنسان الجديد [= الصحابي] على إعدادهِ وتعليمهِ، وقد تفرد كل واحد بميزة خاصة مغايرة، قصد تهيئة وبناء النماذج العظيمة، بهدف صناعة جيل متنوع ومنسجم يضيف فيه كل فرد إضافة نوعية للمجموع العام، تبني كماله وكمال المجتمع، وعامل إنهاض بعد تمام البناء الكلي، وعليه فإن تفرد الإنسان الصحابي وعظمة إنسانيته بهذا التشكيل الفسيفسائي³ المتنوع، يقصد من ورائها قيادة البشرية بعقريّة، ورفعها إلى الإنسانية السامية.

إن الارتفاع بالإنسانية إلى مرتبة عالية وتحويل إنسانها من حال إلى آخر نقيض له هو مهمة الأنبياء والمميزين من أهل العلم والفطر الصافية، وهذا بالنظر إلى ما يتمتعون به من مهارات فائقة في رياضة النفوس وإعادة تشكيلها إلى كائنات [إنسانية، ملائكية] مدهشة، "وإن حل هذا الحشد من المشاكل هو الذي سيظهر فيه النبي ﷺ عبقرية ذات رحابة لا مثيل لها، مستهديا بالوحي الذي يجيء حاملاً دائماً الشعاع العلوي والكلمة الأخيرة"⁴، وبهذه العبقرية الخارقة والقدرة العجيبة التي تمنح للعظماء من الإنسانية خصوصاً الأنبياء عليهم السلام، على التعامل بمرونة فائقة مع الأنفس

¹ - إحساس سركيس : الظاهرة الأدبية، ص 7.

² - خليل عماد الدين : في النقد الإسلامي المعاصر، مؤسسة الرسالة بيروت، 1984، ط3، ص 29.

³ - يمكن ملاحظة هذا في كتب السير كيف كان النبي ﷺ يعمل على منح كل صحابي ميزة يخصصه بها، واحداً في العلم وآخر في الإدارة والقيادة، وآخر يبعث رسولا إلى الملوك والوجهاء، وهكذا تتنوع أحوال هذا التفرد إلى درجة مدهشة، لا يكفينا المقام أن نذكرها وهي تحتاج بحثاً يكشف نقاط قوتها وإضاءتها، وهو ما يمكن أن يعد فناً في صناعة وإخراج الرجال على معيار المثال.

⁴ - بن نبي مالك: الظاهرة القرآنية، دار الفكر، ترجمة عبد الصبور شاهين، ص 134.

البشرية ومداداة أحوالها وتحويلها بيسر، ومنحها هويتها الحقيقية، تلك الصورة الإنسانية الجمالية والكمالية والهوية الإلهية الكونية، يقول "مالك بن نبي": "وفجأة أضاءت فكرة في غار حراء حيث منعزل يقوم فيه متأملاً. وحمل وميضها رسالة بدأت بكلمة (اقرأ)، مزقت هذه الكلمة ظلمات الجاهلية، وقضت على عزلة المجتمع الجاهلي"¹، بسحر الكلمة وألق الفكرة وشعاع النور الباهر، سلطه على خمول وكسل الذوات وموت الأنفس، لتنبعث الحياة في القلوب، وتزداد العقول وضاءة، كي تنطلق في عملية تغيير حقيقية، وإثبات للذات وفق رؤية إيمانية.

إن تغيير منحى حياة الإنسان من داخله يتركز على عناصر بسيطة ويستند إلى فكرة واضحة، بشرطها المشكل لمعادلة تعطي نجاعتها: [= صالحة + صحيحة + مغير متفرد]، تجدد حياته في لحظة فارقة نادرة، بالمغير المخلص لفكرته، القادر على منح التغيير، ولذا "فالتحولات الكبيرة ترفع وتيرة الأفكار الكبيرة"²، تحول حدث مع الإنسان العربي المهمل (= كونيا) الذي كان بلا قيمة، رغم أميته تحول فجأة إلى قائد للتاريخ، فمنحه وجهة جديدة، بعد أن تم كسر القيود وتحطيم أغلال الاستعباد والطغيان والتعبر، لأنه يمتلك سر ومفتاح التغيير والتحويل، كان من ثمرته ميلاد إنسان جديد، ووفق هذه القاعدة يستطيع الأنبياء وأتباعهم أن يحققوا هذا المبتغى، "مما يطمح إليه بنو الإنسان من كمالات يرقون إليها وينعمون في ظلها"³، عمل ينصب على تغيير ما بالأنفس وما بالقوم، لكي يبقى الإنسان منسجماً مع فطرته الأولى، ومحافظاً على هذه السلامة، وقد ابتغت بعثة النبي ﷺ هذه الغاية، فقد "جاء إلى مجتمع جاهلي يعيش المسخ في هويته فتحرك على مستوى تبديل وتغيير هذه الهوية"⁴، إلى الهوية الإيمانية التي تليق بمقام التكريم الإلهي للإنسان، "بهدم وفسخ هويتنا السابقة ومنحنا هوية جديدة، بحيث نبقى نمارس ونعيش هذه الهوية الجديدة"⁵، وينقل لنا كلام الصحابي الجليل "عبد الله بن مسعود" ﷺ هذه الحقيقة عندما قال: "كان يفرغنا ثم بملؤنا"، يقصد النبي ﷺ. إن عملية الإفرغ والملاء تمثل منهجية نبي مغير، بهدم وإعادة بناء، نجسدها بهذا المخطط الكاشف:

¹ - مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 39.

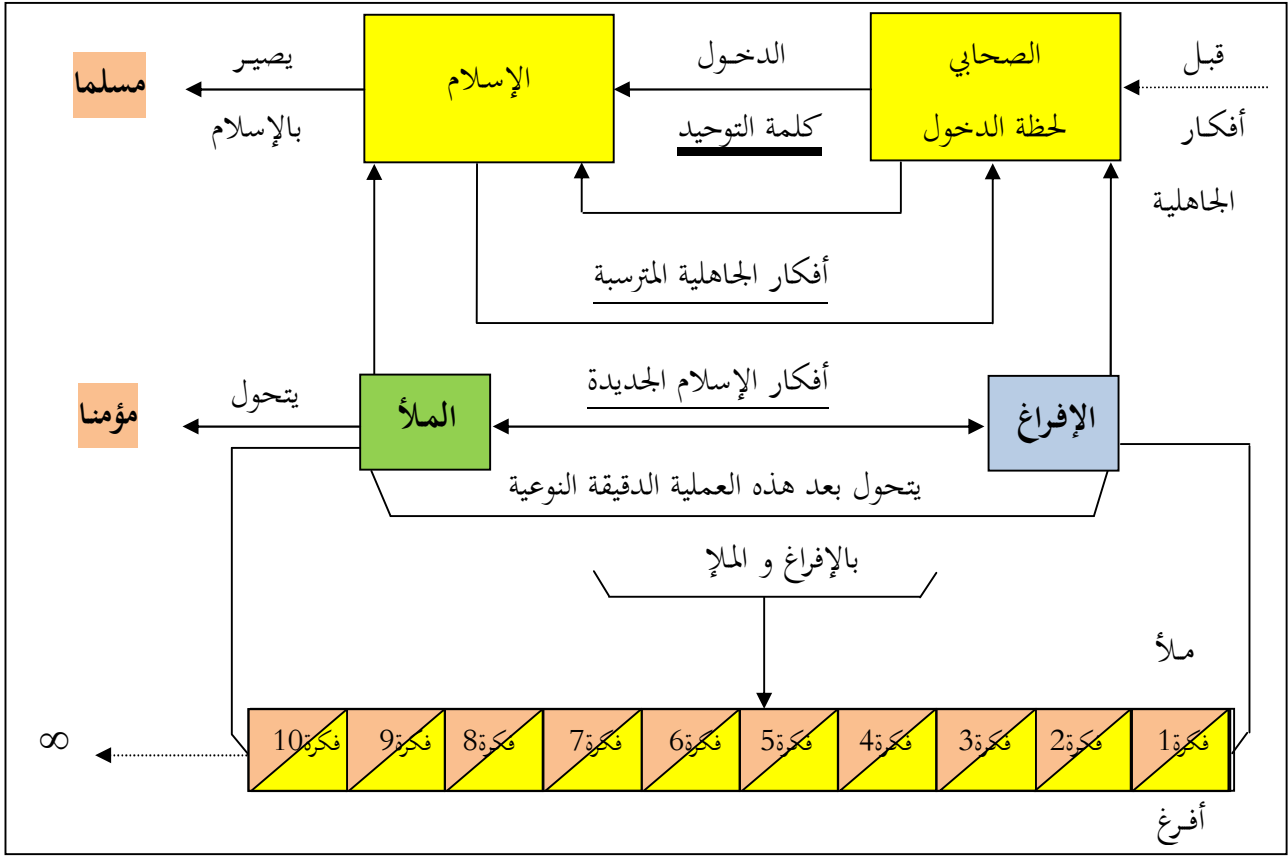
² - محمد عبد الرحمان مرجبا : الفكرانية، ص 25.

³ - عروات أحمد فلاق : النزعة المثالية في نهج البلاغة، ص 187.

⁴ - سروش عبد الكريم : بسط التجربة النبوية، ت، أحمد القباجي، دار الانتشار العربي، بيروت، لبنان، 2009، ط1، ص 212.

⁵ - المرجع نفسه، ص 212.

مدخل : الإسلام وميلاد الإنسان الجديد



- عملية تشكيل الإنسان الصحابي النموذج -

تعد هذه العملية قاعدة نبوية سننية تقوم على الهدم والبناء، والإفراغ ثم الملاء في منهجية تغيير ما بالأنفس والقوم، في إشارة إلى تربية النبي ﷺ لهم وتكوينهم القرآني، لتشكل بعدها ذات الصحابي وتصاغ صياغة قرآنية جديدة، وعليه فالصحابي هو مثال إنسان النبوة الخاتمة، يحمل دلالة هذا الطبع الرفيع الكامل، ويمكننا أن نستنبط من هذه العملية التكوينية النبوية القواعد الآتية:

- أن الإفراغ عملية إزالة للأفكار الجاهلية، أي هدم تصوراتها ومفاهيمها، وهي مرحلة تكوينية أولى.
- أن كل فراغ - من أفكار الجاهلية - يحدثه النبي ﷺ في نفسية الصحابي يملؤه قرآنا، بمعنى يعيد ملاءه [= تذهينية بالقرآن]، بأفكاره، وهي مرحلة تكوينية ثانية.

- يثبت هذه العملية أحد الصحابة الكرام في طريقة حفظهم للقرآن، بحفظ عشر آيات مع العمل بها*، مما يعطي لعملية الحفظ قوة الرسوخ، حتى تصبح أفكارا مطبوعة "على هيئة وحي، فانطبعت في ذاتية الجيل المعاصر لغار حراء"¹، حيث صاغت جيل الصحابة صياغة قرآنية.

* - ورد في السنة طريقة الحفظ المتبعة من النبي ﷺ في تحفيظهم وتعليمهم القرآن : "كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن"، ينظر محمد بن جرير الطبري : جامع البيان في تأويل القرآن، مؤسسة الرسالة، 2000، ط1، ج1، ص80.

¹ - بن نبي مالك: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر بسام بركة وأحمد شعبو، دار الوعي الجزائر، 2013، ط1، ص70.

إن عملية إعادة صياغة التركيبة التي شكلت بها الذات الإنسانية، أو ما يسمى بعملية "التذهين الإنشائي" للفرد، تبدأ في سن مبكرة، الثالثة من عمر الطفل وتستمر إلى سن الخامسة عشر وقد تزيد¹، وعليه فمن الملفت للانتباه معرفة هذه الحقيقة، وهي من أعقد القضايا، لأن التذهينات من أفكار وسلوكات أصعب عمل يواجهه الإنسان في إرادته التغيير، كي يتخلص من خطر التذهينات السلبية، ومحو آثارها، وهذا مفهوم قرآني في تزكية النفس.

إن فهم الآلية التي تشتغل عليها الأفكار وإعداد برمجة وهندسة توجيهية تعرف بالعناصر الدخيلة على صفحة النفس، حتى تبقى هذه الهوية نظيفة، هي فرض اجتماعي كشف عنه النبي ﷺ بقوله: "فأبواه يهودانه وينصرانه"²، إلى الكفر والضلال بدل الفطرة والإيمان.

لقد جمع الإسلام بين عناصر هامة ووظيفية تفرد بها فجدد في آن واحد حقيقتين متميزتين ومتكاملتين، دين توحيدى إلى الناس كافة، كما أن ظهوره تلازم واقترب بحاجة المجتمع العربي إلى مضمون روحي جديد يخرج من حالة التمزق³، فتمكن من تحقيق خلاصه، وهو ما يمنح للرسالة صفة العالمية التي استهدفت هذا البعد الكوني في انسجام تام وتكامل بين الرؤيتين الوجودية التوحيدية والروحية الكمالية، باعتبارها ضرورة إنسانية من بعثة الرسل، حيث تجنب "العالم متاعب الضرب في بيداء طامسة"⁴، ولذا تلخصت مهمة النبي ﷺ في توعية الإنسان وتجهيزه معرفيا لما ينتظره من مصير، ووضع في ذهنه أن وجوده في هذه الحياة ليس وجودا عبثيا، وقد أحدث هذه النقلة في الإنسان الصحابي بنية جديدة حققت استجابة مدهشة للحق، وكذا في تمثله، "علما بأن هؤلاء الناس كانوا قد فتحوا نوافذ قلوبهم لكل أنواع الشرور والآثام فاستطاع الرسول ﷺ بإجراءاته المدهشة والرائعة أن يستل منهم كل عاداتهم السيئة وأن يصوغهم صياغة جديدة رائعة"⁵، حيث يفتح النبي والملمهم في عمق ذات المستقبل للفكرة طريق النفاذ إلى داخله، ليصنعها صناعة جديدة متفردة، وهذه خطة إعداد نماذج الكمال الإنساني التي تبني الإنسانية، وعليه "فالذين يتخرجون من مدارس الأنبياء يحملون إيمانا متميزا ويقينا ثابتا، فأعينهم التي تطل على العالم تفتح بجانبها بصائر

¹ - ينظر سلسلة الأستاذ "خالد آغة القلعة"، السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة. فيها الكثير من الأفكار المهمة المتعلقة بالبرمجة الذهنية للإنسان وتركيبته وعوامل وعناصر هذا التكوين...

² - ابن الأشتع أبو داود سليمان: سنن أبي داود، بيت الأفكار الدولية، عمان الأردن، ص 514.

³ - ينظر إحسان سرقيس : الظاهرة الأدبية، ص 13

⁴ - الغزالي محمد: أركان الإيمان، الشهاداتتان، منشورات بغدادى، الجزائر، ص 61.

⁵ - عبد الكريم سروش : بسط التجربة النبوية، ص 325.

أخرى يرون بها مالا يرى الناس"¹، بهذه النخبة النجيبة المصطفاة وبفضل العناية الإلهية، لتكون أقطاب تغيير الإنسانية التي رفعها إلى الكمال، يقول "محمد عبد الرحمان مرجبا": "فأنا لا أعرف نفسي كما أعرفها عندما أكون في حضرة رجل عظيم وفي جوار مع رجل عظيم قراءة وكتابة ولقاء"²، حضرة هي خطوة لكل موفق، وملازمة تمكن الإنسان من تركية وتنمية ذاته وفق قوانين العظيم، حيث ترفعه هذه الصحبة إلى أحوال من الكمال والترقي الإنساني.

إن عملية التحول الإنساني نحو الأسمى والأفضل والأكمل لا توجد إلا داخل قانون العظيم الذي يملك القدرة على ذلك، تمكنه معرفته من أن يعيد بناء وتشكيل الذات الطالبة للكمال [= المُغَيَّر]، مادامت هي الأخرى تمتلك عقلا وقوى إدراكية فعلية وقابلية للتغير والنمو، متوافقا مع سير النبي والعظيم، وسيعطي هذا القانون قيمته النوعية الرفيعة، بعقل وفكر وحيوية ذات راغبة. لقد أبدع قانون العظيم [= النبي] أمثلة صلاح في صحابته، حيث "كان كل صحابي بطل في عالم القلب والروح، وكان مجتمع الصحابة مجتمعا متميزا مباركا نشأ في ظل فيض القرآن وبركته، واستطاع هؤلاء الصحابة إجراء تأثير عميق وكبير على قسم كبير من العالم"³، وبذلك كان الإنسان الصحابي في المكان والزمان والحدث، انسجاما مع حركة التحول التاريخي الذي شهدته أمة العرب مع مطلع البعثة المحمدية، بدأ التغيير بصناعة النماذج الفاعلة التي أسهمت في بناء حركة التاريخ الكبرى والتحويلات الحضارية العميقة، في عالم له إلفة مع الأشياء، يصنع الوثن والفساد، وتغيير هذا يعد حتمية بفكرة استنبات محددة للحياة، ولن يكون هذا بالسهل، إلا بوجود العظيم وقانونه.

يقول "عماد الدين خليل": "كان القرآن وهو ينير العقيدة في ضمائر الجماعة المسلمة يخوض بهذه الجماعة معركة ضخمة مع الجاهلية من حولها، كما يخوض بها معركة ضخمة مع رواسب الجاهلية في ضميرها هي وأخلاقها وواقعها.. ومن هذه الملابسات ظهر بناء العقيدة لا في صورة (نظرية) ولا في صورة (لاهوت) ولا في صورة (جدل كلامي)، ولكنها في صورة تجمع عضوي حيوي، وتكوين تنظيمي مباشر للحياة"⁴، على اعتبار أن الفساد منظومة معقدة جدا، وحالة إحباط وتعطيل للقوى والقدرات، ويحتاج تفكيكها إلى منهجية دقيقة، تفهم طبيعة النفس، وتدرك

¹ - محمد فتح الله كولن : النور الخالد محمد مفرخة الإنسانية، ص 72.

² - محمد عبد الرحمان مرجبا : الفكرانية، ص 800

³ - كولن فتح الله : أضواء قرآنية في سماء الوجدان، دار النيل للطباعة، القاهرة، 2010، ط5، ص 28.

⁴ - عماد الدين خليل : في النقد الإسلامي المعاصر، ص 137.

طبيعة بيئة الإنسان من حوله وواقعه، ووضع هذا في إطاره العضوي الحيوي، معالجة ذاتية مباشرة وحكيمة، بقانون عظيم النبوة: [= يفرغ ويملاً] تديماً وبناء، بمراعاة مختلف الملابس الذاتية والواقعية، وهي إرادة إلهية "تريد بناء جماعة وحركة وعقيدة، في وقت واحد. كان يريد أن يبني الجماعة والحركة بالعقيدة، وأن يبني العقيدة بالجماعة والحركة"¹، كي تتماثل الفكرة والتطبيق، بإحداث قطيعة مركزية مع منظومة الفساد، وبطريقة منهجية هادئة سلسة، نظراً لرسوخ الأفكار الفاسدة في الجهاز المفاهيمي للإنسان، واقتلاعها يحتاج إلى عمل منهجي سنني دقيق، يستند إلى معرفة علمية وخبرة بالنفوس والتاريخ، وعليه "فالأنبياء يقومون في الوقت نفسه بوظيفة المرآة التي تعكس الأسرار الصادرة من الذات الأقدس إلينا، لذا وجب أن تكون هذه المرايا صافية ونقية لكي لا تكون الحقائق التي تعكسها للقلوب خادعة"²، وتقود هذه العملية إلى جلاء النفس بالتزكية، لتصبح مرآة صافية تعكس صورة الحق، باعتبار أن الإنسان هو قلب الحقيقة ومركز كل تغيير.

II- تحولات حرية وموقف: لن تتحقق إنسانية الإنسان ولن ترتفع قيمته، إلا إذا تمتع بحرية كاملة، ومسؤولية بوعي في مواقفه تبعاً لهذه الحرية، وينبع من إرادته الواعية، بعيداً عن كل ضرب وتيه وتجاوز لكل حد، بمعنى أن يتصف فعله بصبغة إنسانية، "لهذا لم يعد-الإنسان- عالقا بالأرض بل تسنى له أن يتعالى عليها، وأصبح لإرادة السيطرة والتملك إزاء حياة الصحراء والأشياء التي تنهدم وتغيب، أصبح لها متنفس في انطلاقه في الأرض تخرج الفرد من أسار الصحراء"³، هذه الصحراء التي علمته الإباء والنخوة والكرم والشجاعة والبطولة والفتوة، لكنه انحسر في إطار من الذاتية الضيقة تكيفا مع ضرورات الواقع، وجراء هذا لم يستطع أن يخرج من دائرة العيشة التي تلحق بفعله وإرادته، ومثل هذا التصور كان محل توجيه من القرآن، حيث انتقد "مفهوم الفردية العربية، ورأى العربي لأول مرة أنه إذا أسلم فقد امتدت حياته في آفاق غير محدودة ونزع إلى التعالي"⁴، وتصويب حركة العربي قاداته إلى اندماجه [= الفرد] في عالم واسع منفتح أمامه، وشكل فتحا له غير خرائط إدراكه، حيث منحه الإسلام رؤية جديدة تتوافق مع هذا التحول العميق الذي صار إليه، "فلا تعود نفسه بؤرة يتوافى فيها الزمان والمكان والضرورة والمصادفة، لأن يقينا ملأ نفسه أشعره أن

¹ - عماد الدين خليل : المرجع السابق، ص 137.

² - فتح الله كولن : النور الخالد، ص 514.

³ - إحسان سركيس : الظاهرة الأدبية، ص 80.

⁴ - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 207.

انطلاقته ضرورة توافق حريته"¹، انطلاق من محدودية الذات إلى هذه الوساعة الأفقية، بفعل ملامسة عملية التغيير عمق الذات، فأدت إلى تحرره من هذه المكبلات الأرضية والوهم الذي يصنع الخوف بالحرية والفكرة الإيمانية الجديدة.

وعليه فقد "وضعت كلمة الحياة في القرآن ليبطل الإحساس العجيب بالآبد المنتشر في الشعر العربي قبل الإسلام"²، لأن الآبد الأصم يمثل عطالة عن انطلاقه وحركته، حيث تغيب معه الحياة النامية، وفاعلية الحضور والحيوية، وكى يتخطى هذه الوضعية المنغلقة، فإنه يتعين عليه أن يستعمل أجهزة وعيه التي هي الطريق إلى الحياة والإيمان، وممارسة وظيفته بمسؤولية ووعي، قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾³، وإذا تساءلنا هل كان يشعر بهذا الانفتاح أمامه؟ وهل كان يدرك مسؤولية حواسه وقواه قبل هذا التحول؟! الأكد أن فكرة الآبد تجينا بانغلاقه فاحتجب عنه المعنى خلف كلال الذات بفعل هيمنة مثل هذا التصور والإحساس.

إن وجود الإنسان صار الآن بعد فكرة الوحي مغايرا للسلبية ولمنطق الصراع، ولكل صور التطاحن والتضارب، لأن النقلة التي حدثت، هي نقلة إيمانية ونقلة سلام إلى وساعة الكون وإلى المطلق [= الله]، وهنا تبدل دوره، فقد دفعه القرآن إلى تصور معنى جديد للحياة، تجسده محاور مركزية كلف بأدائها، فهو أولا خليفة الله في الأرض وثانيا خلق ليعبده وثالثا لعمارة هذا الكون بالصالحات⁴، ثلاثة محاور وأسس تدفعه إلى أن يتخطى ذلك الانغلاق، وأن يخرج من دائرة السطحية والعبثية والعدمية، مع إضافة مسحة إنسانية على فعله بسنة وآلية التعارف⁵، هذه العناصر الوظيفية هدفها بناء الحياة التعبدية والإنسانية، بعلاقات متينة بين الناس، وفق معايير إيمانية وعقلية وإنسانية تحقق السلام والتعاون والإثراء، ولذا "فقد طلب القرآن من العربي والإنسان أن يعي ذاته

¹ - إحسان سركيس : المرجع السابق، ص 80.

² - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 160.

³ - سورة الإسراء، الآية 36.

⁴ - هذه المحاور نكتشفها من خلال الآيات الآتية: الاستخلاف، النور (55)/ العبادات، الذاريات (56)/ العمارة، هود (61). وهي تبرز بجلاء سؤالا

جوهريا هاما يخطر على كل عقل: لماذا خلق الإنسان؟

⁵ - تشير الآية 13 من سورة الحجرات إلى هذه الضرورة فالله ﷻ أول من يدعو الإنسان والإنسانية إلى التعارف بين الناس وإقامة علاقات بينهم، قبل أن تكون ضرورة يستدعيها الاجتماع الإنساني، فهي دعوة إلهية، وعندها يمكن أن نرى ثمار هذا التعارف، إذا أحتكم فيه إلى سنن الحق والعدل.

وعيا جديدا، وأن يتأمل مركزه من العالم¹، بهذا التغيير السنني يمكنه أن يضع قواعد بناء حضارة إنسانية راشدة يلغى فيها منطق الاستضعاف والاستكبار* والظلم وأكل الحقوق، وامتهان الكرامة. تؤسس الحرية المسؤولة والواعية حالة انطلاق لا يمكن تصور نتائجها في مختلف المستويات وصولا إلى مبدأ الحرية الأعلى المنشئ لفكرة التوحيد، محرر طاقات الإنسان، ليصبح أكثر إدراكا ووعيا لرسالته في الحياة، "وهذه الأهمية تعود إلى حقيقة أن الإسلام، بوصفه تجربة دينية شخصية داخلية لكل فرد يعني حدوث أمر مهم يؤشر النقطة الجوهرية التي تبدأ منها الطاعة والخضوع الحقيقيين"². إن خضوع الإنسان يعد تجربة حرة واعية، تمنحه رفعة وعزة ونقلات نوعية وكمالية في حياته، يقول "العقاد" متحدثا عن طوابع البعثة وضرورتها أنها "مقدمات تتحقق بها قوانين الطبيعة ومقدمات تتحقق بها عناية الله، وهذه هي المقدمات التي لا تأتي بعدها النتائج الصالحة إلا بعناية من الله واتجاه بقوانين الكون وعوامله إلى حيث يشاء"³، هي مقدمات الحياة الصالحة التي أفرزتها الفكرة الدينية وتوجيهها الحكيم، ويضيف قائلا: "فليست الجاهلية مقدمة للإسلام، وليس الفساد في العالم سببا للصالح، وليست قريش ولا جزيرة العرب ولا دولة القياصرة ولا أبهة الأكاسرة هي التي بعثت محمدا لينكر العصبية على قريش هؤلاء جميعا كانوا ضحية البعثة المحمدية، وهؤلاء جميعا كانوا مريضها الذي شفي على يديها بغير شعور منه بالمرض وبغير سعي منه إلى الشفاء"⁴، تلقائية سننية إلهية، وإرادة تغيير وإصلاح اقتضتها مشيئة الله، وبذلك تحقق هذا التحول المنهجي العضوي لطفلا ورحمة بالإنسان، تعالجه وتشفيه من مرضه المزمن بفضل العناية الإلهية، وبذلك رسم خطأ جديدا للبشرية بتجلياته التي نراها إلى اليوم، فقد "كانت شهادة لا إله إلا الله دعوة إلى تغيير النفس، حتى تغير العالم"⁵، وهي معادلة متوازنة ذات تقدير حكيم تقوم على قاعدة التحرر من الوهم والشهوات، ومختلف الاكراهات والاشراطات المعيقة لانطلاقه، وقاعدة ثانية لتغيير العالم

¹ - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 207 .

* - يوجه القرآن الإنسان إلى ضرورة إلغاء هذه القاعدة التاريخية الظالمة التي أهلكت أغلب الكل واستبدالها بقيم العدل، ينظر: النساء97، والنحل 22

² - توشيهيكو ايزوتسو : الله والإنسان في القرآن، ص 310.

³ - العقاد عباس محمد : مطلع النور، أو طوابع البعثة المحمدية، شركة نضضة مصر، 2009، ط 4، ص 4.

⁴ - المرجع نفسه، ص 4.

⁵ - مصطفى ناصف : المرجع السابق، ص 207.

ومحاورته بلغة كونية هادئة، شهادة جعلت منه إنسانا "عالي الرتبة وأن الله يخاطبه"¹، أدخلته إلى الكمال بهذه المخاطبة [= الوحي]، مكنته من الارتفاع إلى عالم رוחي تصفو فيه إنسانيته.

إن هذه الشهادة الإيمانية تمثل في الحقيقة معنى الحرية الإنسانية، ومعادلة مواجهة يقابل بها الإنسان القوى التي تريد كسره وسحقه، وبمعنى آخر هي "ارتفاع بالأضعف إلى الأقوى"²، وتحديد له بالإيمان، حيث كرامة الإنسان وحرية هي في المقام الأول، وكذا حماية المجتمع والحياة من التحلل والتفكك، وهذا ما مكن الأمة الخيرة أن تتشكل، يقول "مالك بن نبي": "ولو أن أحدا شهد ميلاد المجتمع الإسلامي فلعله - فيما أظن - كان يشهد موجة التغيير تغمر الذين عاصروا النبي ﷺ، لا في خصائصهم النفسية فحسب، بل في سماتهم العضوية أيضا"³، لأن التحول كان جذريا استطاع أن يهز عمق النفس، وتعدى تأثيره إلى الجسد، منحه فورانا وألقا وطاقة متفجرة، وهذا ما يتطلبه سياق الإيمان والتعبد، وسياق التاريخ الجديد الذي يبني الحضارة، بمثل هذه الطاقة.

يحتاج الإنسان الجديد إلى مقومات أخرى معينة على الأداء، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾⁴، عبودية مرتبطة بالعمارة والتعارف الإنساني، تحدد واجبات الإنسان، "لكي يعلم الإنسانية ماهيتها الحقيقية..، وتسمو من المرتبة الدنيا للجسم إلى المرتبة العليا للروح"⁵، أي الوصول بها إلى الفطرة السليمة، بأدوات منهجية مثل التصفية والتنقية، أو بألية قرآنية هي التزكية، والاختيار الحر المسؤول، قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾⁶، خيارا حرا واعيا بكرامة، مثلما كان مع مجتمع الصحابة، بوصفهم "العقل الجديد الذي سيضع في العالم تمييزه بين الحق والباطل"⁷، وبهذا العقل كان ميلاد الإنسان الجديد بمقوماته وخصائصه الروحية.

III- تحول وارتقاء: لن يكون التحول حقيقيا متميزا، إلا إذا سجل الإنسان ارتقاء من عالم الحس إلى عالم الروح، وفق نقلات نوعية رفيعة إلى منازل الكمال، يترتب عن هذا إمتلاك معنى الحياة بتلك الفكرة الروحية الحية، حيث تعطيه تحولا وتجديدا، ومن ثم ارتقاء، وهو حلم العظماء

¹ - مصطفى ناصف : المرجع السابق، ص 207.

² - الراجعي مصطفى صادق: وحي القلم، ج1، دار ابن الهيثم، القاهرة، 2007، ص 6.

³ - ابن نبي مالك: ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 2006، ط 6، ص 80.

⁴ - سورة الذريات، الآية 56.

⁵ - محمد فتح الله كولن: النور الخالد، ص 27.

⁶ - سورة البلد، الآية 10.

⁷ - مصطفى صادق الراجعي: وحي القلم، ج1، ص 15.

الذين كملت فيهم الطبيعة الإنسانية، بما يملكون من قدرة على تحويل الأنفس والارتقاء بها إلى الكمال، مثلما وقف إبراهيم الخليل عليه السلام ضد عالم الوثنية والحس الأليف بالأنفس، فحطم بمعول الإصلاح ثقافة الوثن والحسية، فأزالها من العقول، حيث "كانت تحيا في أعماقه كراهية لعالم تمرست الحسية داخله وراحت تعيث فسادا، وقف وحيدا في هذه الكراهية، وكان خارج جماعة العبادة تلك"¹، قد مكنته وقفته تلك من تحقيق انعطافة رائدة في تاريخ الإنسانية أثمرت في تأسيس فكرة التوحيد، وهي مجابهة ومواجهة ضرورية كان لابد منها، لتحرير الإرادة الإنسانية ودفعها نحو الأرفع، والأمر ذاته حصل مع مجيء الإسلام مثلما تجسده واقعة معراج* النبي صلى الله عليه وسلم التي شقت طريقا جديدا بالعرب والإنسانية، وصنعت نفوسا "ليس في داخلها إلا أنفس مندفعة إلى الخارج عنها، ثم يقاتلون بهذه الطبيعة في الداخل منها إلا النفوس المستعدة أن تهرب إلى الداخل"²، أي دفع بالجميع إلى حالة التوازن الطبيعي الذي يمكن من تمثل الحق، بالتركيز الذاتية والتحرر من كل أسر شهوي والاكراهات الخارجية، والانطلاق بعد هذا في بناء التجربة الإيمانية الذاتية والإنسانية.

لقد شرعت هذه الاندفاعة باب الارتقاء الإنساني لكل راغب يريد أن يسمو فوق حدود الطين؛ فداخلا أن يرتفع إلى مرتبة الإنسان ومعنى الإنسانية، وخارجا أن يدفع الاستكبار والطغيان والتهيه والتلاشي ويلغي الاستضعاف، وطريقه إتباع الأنبياء، إتباع "نابع عن بحث الإنسان عن الاستقامة"³، وبذلك يصبح هذا الإتيان يمثل صفحة التكوين البيضاء في حياة الإنسان، كما يشكل برجة ثانية تصفية وتنقية للذات الإنسانية، من المشوهات الجمالية، وهذا ما يمنحه له ميلاده الجديد. يعطينا حديث شعب الإيمان* تصورا لهذه العملية الإيمانية التي تثبت هذا الترقى في مختلف مراتبه ومستوياته ومجسدا لمنظومة متشابهة من العلاقات، من التوحيد أعلاها، إلى إمطة الأذى عن الطريق أدناها، كما يبرز تعالقا وتداخلا بين الكليات والجزئيات، حيث "جعل إمطة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الإيمان"⁴، من دائرة التوحيد العليا ينطلق الإمام وينسحب على كل

¹ - رينهارد لاوت : ابراهيم وأبناء عهده مع الله، ص 114.

* - تشير الآيات الأولى من سورة النجم إلى هذا المعراج برموزه ودلالاته الدينية والروحية، وقد شكل فتحا حقيقيا، وأعظم مكسب إيماني إنساني تحقق فيها، تمثل في فريضة الصلاة التي بفضلها يستطيع الإنسان أن يترقى إلى حالة من السواء المبهر، إن هو أدرك مفتاحها وأخذ بمجهرها.

² - مصطفى صادق الرافعي : وحي القلم، ج1، ص 20.

³ - فتح الله كولن : النور الخالد، ص 514.

* - "الإيمان بضع وسبعون شعبة..."، يبرز هذا الحديث علاقات وظيفية متشابهة عمودية وأفقية، بدءا من علاقة الإنسان بربه إلى علاقته بمجتمعه والناس والكون، إنه يمثل تشابكات حيوية تجمع بين عالم الغيب وعالم الشهادة.

⁴ - الصواف محمد محمود: نظرات في سورة الحجرات، مكتبة رحاب الجزائر، 1987، ص 164.

الجزئيات، وجميعها عناصر جمالية تبعث على روح الارتقاء، وتمنح الإنسان جمالية وجوده الإنساني والكوني، وطهارة ذاتية ترفعه إلى الكمال، فما يريد الله ﷻ من عبده إلا الصورة النظيفة التي ترفع قدره، وهي علامة تكريمه وحسن تقويمه، وتمثل حزمها التي تبدأ بالأعلى وتنتهي بالأدنى علائق متراكبة ومتكاملة، تغطي جميع شعب حياة المؤمن وعلاقاته، في نسيج واحد يجمع الإلهي والكوني والاجتماعي والإنساني وحتى الفردي والتعبدي، بعامل الإيمان وكل ما يدل على جمالية والإحسان.

إن ما يجمع بين هذه الشعب هو الارتقاء، فكل شعبة هي مبتدأ لأخرى تتدفق معها الحياة، وتؤسس لوضع جديد، "ويخرج من ذلك أن يكون أكبر أغراض الإسلام هو أن يجعل من خشية الله ﷻ قانون وجود الإنسان على الأرض"¹، قانون يجعل سيره هادفاً، بنية خالصة وقصد صائب تمليه سنة الخشية ومتطلبات الحياة، وفعله مترقياً مدفوعاً إلى كل كمال وجمال، من رفيع إلى أرفع.

ثالثاً / الرسول ﷺ نموذج الإنسان الكامل :

I / توطئة.. كمال النبوة: إن عموم الناس هم: "قيعان لا تمسك ماء"²، بوصف الحديث النبوي، مثل أرض غار مأوها في الأعماق دون أن تنتفع به، ومثل الفرق بين الكلمة الطيبة والخبيثة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾³، وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾⁴، ويشذ عن هذا أهل الاصطفاء من الأنبياء عليهم السلام والأكمل من الناس، اصطفاء دقيق، بمعايير إلهية يقر بها العلم والفطرة والعقل الإنساني السليم، وكل حقيقة موضوعية. أوضح الأستاذ "مالك بن نبي" في كتابه "الظاهرة القرآنية" مسألة النبوة بمنهج علمي وإثباتات العقل وحقائق النفس والتاريخ، وأكد خصائص هذه الظاهرة وحددها في هذا المبدأ :

"أولاً: صفة القهر النفسي الذي يقضي جميع العوامل الأخرى للذات، بإلزام النبي في النهاية بسلوك معين ودائم.

وثانياً: حكم فذ على أحداث المستقبل، يمليه نوع من القهر الذي ليس له أي أساس منطقي.

وثالثاً: استمرار مظاهر السلوك النبوية، وتمثالها الظاهر والخفي عند جميع الأنبياء"⁵.

¹ - مصطفى صادق الرافعي : وحي القلم، ج1، ص 07.

² - ابن حنبل أحمد: مسند الإمام أحمد، تح شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، 2001، ط1، ج32، ص 343.

³ - سورة إبراهيم، الآية 24.

⁴ - سورة إبراهيم، الآية 26.

⁵ - مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية، ص 99.

إذن فلكي تتحدد ظاهرة النبوة في شخص، فلا بد أن توضع في سياق خاص، بهدف تجسيد الحقيقة الإلهية جليلة صافية في ذاته، ولهذا أعطى الأستاذ رحمه الله ثلاثة معالم تعمل في هذا النطاق، فالزام النفس وقهرها، والقدرة على الحكم على أحداث المستقبل بقراءة استشرافية صائبة، واستمرار مظاهر السلوك وتمائلها يثبت في النهاية حقيقة النبوة وصحتها دون تناقض في كل تفاصيل البلاغ والإخبار النبوي، وبعيدا عن انفعالات النفس واضطرابات السلوك وتأثره بالمتغيرات، ويهدف هذا التدقيق إلى التأكيد على كمال شخص النبي وتفرد، وهنا نظفر بهذه القيمة الرمزية ذات الأهمية التي لا يتسرب إليها شك أن النبوة ظاهرة تفرد خارجة عن المعايير البشرية، وقد أثبت الله ﷻ في حقهم العصمة الدائمة، إثباتا للحق، وتنزيها لشرف النبوة والرسالة التي يحملون، ودفاعا هدفه حماية الإنسان والإنسانية من الضلالات والأهواء والتحلل، فمعظم الناس هم بوصف الآية الكريمة: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾²، إلا الأنبياء والصالحون، ولذا فإن بيان حقيقة النبوة وكمالاتها يصبح ضرورة شرعية وكذا منطقية وكونية، لأنها تمثل نورا يهتدى بضوئه، نظرا للوظيفة الجليلة في القيام بتأدية البلاغ الإلهي، وإزالة حوائل معرفة الحق من الأوثان والأفكار والضلال والالتباسات التي وضعت حول الإنسان، وتحرير الإرادة الإنسانية ومنع الظلم والقضاء على ظاهرة الاستضعاف والاستكبار، بحيث يضعه هذا التحريك في نقطة الإضاءة والحرية، كي يختار بوعي ومسؤولية.

يقول النبي ﷺ: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر"¹، أمر تجليه الحقائق النيرة، سيد في سلسلة الأنبياء وإمامهم، وسيد كل بني آدم جميعا، فقد حاز كل كمال وسمو، بمقياس النبوة، قد بلغ هذا الكمال بعد الاصطفاء الإلهي له، وبأعمال من التحلية والتحلية، يقول "الإمام الشعراوي": "ولذلك فهو قد ترك الناس في ثلاثة أمور:

الأول: لا يذم أحدا.

الثاني: لا يعير أحدا.

الثالث: لا يطلب عورة أو عيوب أحد"².

إن الإنسان الذي لا ينشغل بمثل هذه الأمور، هو إنسان فاضل مستقيم، حيث أنه رأى في الاهتمام بما هو أصلح له ضرورة كماله، ويمثل تركه هذا استجماعا لقوى النفس، كي تستكمل

¹ - ابن الحجاج أبو الحسن مسلم: صحيح مسلم، شرح الإمام النووي، ت، عبد الرحمان عادل ابن ربيعة، مج7، دار ابن الهيثم، القاهرة، 2003، ط1، ص 381.

² - محمد متولي الشعراوي : الإنسان الكامل محمد صلى الله عليه وسلم، ص 61.

فضائلها، وتنمي طاقاتها وقدراتها، وترتبط بأحوال أخرى من التفكير والتأمل والتدبر والنظر، توفر له فرصة التحرر بتنمية وتغذية ذاتية تصنع كماله هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن هذا ينقل النفس إلى منازل روحية عالية تعرج إليها، إضافة إلى هذا المخطط المنهجي في التزكية، فإن "رسول الله ﷺ ترك من نفسه ثلاثة أمور. الأول.. أمور الرياء.

الثاني.. الإكثار.

الثالث.. ترك ما لا يعنيه"¹.

إن صرف النفس عن كل المعيقات التي تمنع من ترقى الذات، إلى روحية تصنع كمالها، يعد أمراً هاماً، ويشكل هذا الترك عملية توجيهية للنفس، تسهل على الإنسان العاقل أن يقود ذاته، ويتهيأ بعدها لقيادة غيره، وبهذا يمثل الترك الأول والثاني ضبطاً منهجياً دقيقاً يسير عليه النبي ﷺ.

II / النبوة كمال وعظمة: إن العناصر التي تصنع العظمة هي قوانين ممكنة التحقق، وعصية في الوقت نفسه، وعليه فإن للعظمة رجالها وللنبوة خاصتها من الناس المصطفين، يقول "مصطفى ناصف": "إن الفرق بين الرسل ومجتمعاتهم أنهم أدق تقديراً لمشكلات المجتمع، والرسول بوصفه قائداً تؤهله شخصيته وقدرته على تمثيل فكرته وإبلاغها، وهم الوحيد تغيير روح الجماعة، واصطفاء الرسل لقدرتهم على فهم مجتمعاتهم، والاتصال بها، والتأثير والاهتمام بأمرها وإشاعة ملكة الفهم والاختيار والتحرر"². إن الدقة في التقدير ناتجة عن عوامل خاصة ومؤهلات بدأت تفيض بالتدرج على شخصية النبي سواء كانت متروكات أو تحليات [= إضافية]، وهي تشكل في النهاية قانون العظيم، تمكنه من وضع الجميع في إطار إنساني خاص، وتحرير الطاقات للانطلاق في عملية نامية نحو الإنسانية والكمال، بمقياس النبوة.

وقد حاز النبي ﷺ من العظمة والكمال ما لم يكن لغيره في أي وقت، فكان تميزه ظاهراً يصفه "فتح الله كولن" بقوله: "إنه الإنسان المصنوع على عين الله"³، بمعنى أن قدراته العجيبة وكماالاته التي اتصف بها ﷺ هي تعهد إلهي له بالإعداد والتزكية والتربية المتكاملة، ويجلي هذه الحقيقة رده على أبي بكر رضي الله عنه عندما اندهش من أدبه الرفيع، وسأله له: من أدبك؟ فقال النبي

¹ - محمد متولي الشعراوي : الإنسان الكامل محمد صلى الله عليه وسلم، ص 62.

² - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 281

³ - محمد فتح الله كولن : النور الخالد، ص 50

ﷺ: "أدبني ربي فأحسن تأديبي"¹، وهذا أكبر دليل على هذه العناية الإلهية التي خص بها الله ﷺ نبيه ورسوله الكريم ﷺ، عناية من يحمل كلامه وبلاغه إلى الناس ورسالاته الخاتمة لهم، ولهذا فقد "كان رسول الله ﷺ يمثل أتمودج الشخص المتوازن في مظهره الخارجي وعالمه الداخلي، فكما كان مظهره الخارجي مهيباً وجميلاً يسحر القلوب والألباب كان عالمه الداخلي الغني يسحر قلوب الناس"²، ويعني هذا تجانسه الداخلي والخارجي، تشاكل يثبت كماله، إضافة إلى تحليه بإحدى أهم المكونات الرئيسة لشخصية الإنسان وهي مقوم التوازنية التي يتحقق بها الكمال. إن خلاصة ما ننتهي إليه أن كمال النبي هو صناعة ذاتية بتزكية، مع صناعة إلهية خالصة اصطفاء واختياراً.

ولكن لماذا هذه الإنسانية الخاصة في حياة النبي؟

إن التكليف الذي يحمله والرسالة التي سيبلغها والتحديات التي سيواجهها هي التي تستدعي كل هذا، ثم إن خصوصية رسالته ﷺ ستكون الرسالة التي ستبطل كل ما سبقها، إضافة إلى أن فكرة الخاتمية ستكون هي المهيمن الإلهي والنبوي الذي يقود البشرية جمعاء نحو الله ونحو الحق حتى نهاية رحلتها، يقول "الإمام الغزالي": "فإذا كان القرآن هداية الله لخلقه، فإن محمداً ﷺ هو التطبيق الحي لما حوته من معان، والمظهر العملي لما تضمنه من توجيهات ووصايا"³، لهذا كان مثال الإنسان الكامل والمثال في كل شيء، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾⁴، تنزيها ورفعة للذات النبوية، فهي مصفاة لحمل الحق، ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾⁵، وشرح الصدر برهان هذه الآية والتعهد الإلهي بناطقة الآية: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾⁶، رفع دال على كمال وعظمة خاصة، وأن هذه الرعاية الخاصة هي تقدير إلهي في إحاطة كامل السلسلة [= عائلة النبي]، بحالة من اللطف الخاص، حتى تثمر هذه الشجرة ثمرتها المرجوة، فقد "تكونت في عبد المطلب النواة أو الخلية الأولى بعدما كانت مواد هذه الخلية متفرقة في الآباء والأجداد وكان هذا هو الإعداد الذي أمرت به عناية الله وحققه القدر لبعث محمد"⁷، فمن هذا المعدن والنبت الصافي

¹ - محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، مج1، ص 173.

² - فتح الله كولن: النور الخالد، ص 273.

³ - الغزالي محمد: كيف نفهم الإسلام، تحفة مصر للطباعة، الفجالة، القاهرة، 2005، ط3، ص 17.

⁴ - سورة النجم، الآية 3-4.

⁵ - سورة الشرح، الآية 1.

⁶ - سورة الشرح، الآية 4.

⁷ - جلال السيد: علي بن أبي طالب، دراسة عن حياته، ص 95.

الذي تلاقت فيه الإرادات والحقائق كان ميلاد هذا العظيم الكامل، وهي تؤكد شرف هذا النسب وأصالته التي تعلقو كل شرف، من الوالدين إلى الأسرة إلى القبيلة إلى القوم¹، لتقول جميعها نفس الكلمة وتثبت نفس الحقيقة أنه: نبي مختار مصنوع على عين الله. حلم أسند بتطلع أسرة آثرت أن تبقى في النقطة المضيفة وتعمل على نقاء هذا الشرف بالتقوى والصلاح ليظهر في أبنائها، وبمعنى آخر توفيرها الأسباب الذاتية المنجحة والابتعاد عن كل ما يزرى بها، ومن ثم صارت تلك الفكرة خميرة لمادة ستأتي بشهدها النادر، كما تكون الخمائر في صدور أولئك الآباء سليلي شجرة النبوة.

إن أجمل الخمائر والأفكار ما كان مثل هذا الحلم، كحلم أم مريم عليها السلام نذرا نبت حسنا، فأنبئت نباتا حسنا، ومخاض لا يقوى عليه إلا أهله، أين تلتقي إرادة الله وإرادة الإنسان في صنع قدر أولئك الرجال من الأنبياء والعظماء، وهو حلم "عبد المطلب"، الجد الذي طالما كان يترقى ويترقب ويستجمع كل عناصر التميز في أسرته وذريته، وقد كان ذلك "تحقيقا لإرادة الله التي جعلت عبد المطلب يخترن في نفسه الإرادة والاستغراق الكامل لمحاولة جديدة لا تشبه ما كان عليه القوم محاولة تقضي على كل ما صنعه طلاب الدنيا"². نعم إنه استجماع القدرات والعمل باتجاه المستقبل في ثبات وهدوء، وعزم على إزالة كل الأسباب المانعة من تحقيق هذه الإرادة والتطلع. إذن لم تكن حركة "عبد المطلب" معزولة عن سياقها الاجتماعي والتاريخي، خالية من القصد والوعي بالواقع والمآلات، وإنما كان يتقدم كل يوم إلى هذا المعنى ويضع لبنة أساسية فيه، منتظرا اكتمال البناء، "وهكذا كانت جميع النبوات فعلا إلهيا مباشرة يتمثل في اختيار الرجل الذي سيحمل الأمانة، وفي تهيئة - قبل هذا- على عين الله، ثم في إرساله نبيا إلى قومه أو إلى العالم كله"³. إن هذا اللطف الإلهي بعباده من الأنبياء هدفه تحقيق سوية متكاملة للنبي، لاعتبار مقام البلاغ، وثقل الأمانة التي تعهد إليه، ووجوب التأدية الوافية لها، حيث يظهر هذا المسعى وآثاره في حياة النبي، وبهذا فإن جميع حركاته وأفعاله وسكناته وحديثه وصمته ينبغي أن تكون عظمة حقيقية، وهو ما كان عليه النبي ﷺ، حيث "كان كلامه يزداد طراوة وعمقا وجاذبية، ومن هنا فإن النبي كان يزداد علما بالتدريج فيكون أعلم من السابق وأكثر يقينا وأثبت قدما وأقوى تجربة، وبكلمة: "أشد نبوة"⁴، ذلك أن الكمال سير

¹ - ينظر كتاب عبقرية محمد للعقاد، ففيه تفصيل جميل لهذه الفكرة.

² - جلال السيد : المرجع السابق، ص 96.

³ - خليل عماد الدين : التفسير الإسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، 1991، ط5، ص 185.

⁴ - عبد الكريم سروش : بسط التجربة النبوية، ص 27 .

وتحقق، وعليه فإن سنة التدرج هي التي ترفع من قيمة النبي إلى العظمة وأحوال الكمال، حيث يتخذ سيره شكلا هرميا إلى أن يبلغ قمته، وتمام كماله وحسنه، حتى يصل إلى ذروة الأمر أن يكون: **"أشد نبوة"**، وكأنه يدخل عمق هذه النبوة بدرجات يتخطاها، توغله فيها حقيقة ورسمًا وحالا.

إن السير في طريق الكمال شاق، مثل الطريق الذي شقه إبراهيم الخليل عليه السلام، فمعه "رفعت البشرية رأسها لأول مرة من بؤرة الرجاسة الحسية واستنشقت هواء نقيا، فكم كان وعيه كبيرا، ويبقى كذلك لما أدرك أن مملكة البر هي عالم مختلف تماما عن عالم الشهوة المسيطرة والمحددة لكل شيء"¹، بجرأة نادرة، وبهدف تأسيس مملكة البر والتوحيد، دفعه هذا إلى أن يضرب بقوة عالم الشهوة المستحكمة، وأكبر هذه الضربات، ضربته الموجهة للأصنام، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا﴾²، أين كانت تتحلق وتجتمع حولها عناصر الفساد السياسي والاجتماعي والأخلاقي والإيماني، بفك مفصل الترابط بين فكرة الفساد والباطل بتحرير إنساني مثالي بعامل التوحيد.

تتجدد هذه الضربة مع كل الأنبياء وتتجه في طريق السير المستمر، في معركة مفتوحة لا تنتهي مع هذا الصراع السنني بين الحق والباطل، ومعركة العدالة ضد الظلم قائمة متجددة بمختلف الوسائل، وكان تمام السلسلة مجيء النبي محمد صلى الله عليه وسلم ليجهز على هذا الوثن من جديد، ويعيد تحرير العقل من طغيان هذه النزعة الحسية، ويمنحه ألقا لم يسبق إليه، تحرير جعل للإنسانية أنصارا وحواريين يدافعون عن كرامة الإنسان إلى يومنا هذا، وهذا ما يحسب للنبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي يعد محرر العبيد*، ولهذا "فالإنسانية لا تبلغ مرتبة الكمال الحقبة إلا بعد أن تفهمه بحق وتتبع خطاه"³، وتواصل طريقه مع كفاءات الإنسانية وعظمائها، تشتغل بهدوء في عملية البناء واستعادة الهوية الإنسانية، وصولا إلى حالة السلام والجمال، بالإرادة رغم تكاليفه، ولذا يعد الخط الذي انتهجه النبي إبراهيم ومحمد عليهما السلام إنجازا في قمة النبوة، ويمثل سيما كشف دالة لأحرار الإنسانية.

¹ - رينهارد لاوت : إبراهيم وأبناء عهده مع الله، ص 406

² - سورة الأنبياء، الآية 58.

* - يستحسن تأمل فكرة الكفارات في الإسلام خاصة تحرير رقبة والغاية منها، فكرة تحتاج إلى نظر وبحث، وكأن الله قد وضع في رقبة الإنسان إعتاق أخيه، لأنه هو من وضع قيد العبودية في رقبته، وهو من يتوجب عليه نزعها وتحريره كفارة له عن ذنبه، وكفارة للإنسانية التي جارت فيما مضى في حق أبنائها، لتتعلم أن كل إنسان قد خلق حرا، ونلاحظ هذه المتلازمة: الوثن + العبودية التي تبقى دائما موجودة بأشكال مختلفة، ولنتأمل قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾. إن صور الوثن قائمة، وقضية الرقيق الأبيض وقضايا استعباد الناس وأكل حقوقهم مستمرة! فهذا التألق لنبي الإسلام ولهذا الدين يجعل من هذه الفكرة التي جاء بها أرضية لصلاح الإنسانية، حتى تتمكن من تجسيد قيم العدل والصلاح والكرامة وتدرك معنى الحرية والإنسانية وضرورتها في كل الخيارات الممكنة الحياتية والإيمانية.

³ - محمد فتح الله كولن : النور الخالد، ص 50.

لقد بلغ النبي ﷺ كل كمال، "فقد استجمع صفات الكمال فهو عليه الصلاة والسلام كمالا فوق الكمال"¹، وهذه الذروة في الكمال، هي رحمة ولطف إلهي بالناس جميعا، ولذا تعد بعثته نبعا متدفقا ونهرا يسقي البشرية في كل الأوقات، وعليه "فإن الإسلام الذي جاء به محمد بن عبد الله هو الهدى الكامل لبني آدم كلهم، والرحمة الشاملة لجميعهم"²، وقد ذكر المؤرخون وأهل السير الكثير من الصفات التي تثبت كمال النبي وسموه، وقدرته على الهداية، "فقد كان النبي ﷺ يمتاز بفصاحة اللسان وبلاغة القول، وكان من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل، سلاسة طبع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف. أوتي جوامع الكلم، وحض ببدائع الحكم، وعلم ألسنة العرب يخاطب كل قبيلة بلسانها"³، ويبرز كماله القدرة على الإبانة والتواصل السليم والسلس، بمقتضى ما تتطلبه مهمته في البلاغ والبيان، يبان يعد ضرورة لكمال العقل، وثمره للنفس السليمة، وعليه فما تقدمه أوصافه يعد صورة حية دالة على كمال رجل، يقول "أنس بن مالك" : "كنا نعرف رسول الله إذا أقبل بطيب رائحته فقد كانت رائحته الزكية تسبقه إلى أي مكان، فإذا جلس ملأت المكان"⁴، وطيب الرائحة مقدمة لأخلاق رقيقة، وعنوان لاستقامة تامة، فكما طاب مخبره، فقد طاب مظهره، ونذكر من أوصافه ما جاء من قول "هند بن أبي هالة" أن النبي ﷺ كان: "خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، يبدأ من يلقاه بالسلام، متواصل الأحزان، دائم الفكر، طيب الرائحة، لا يتكلم في غير حاجة"⁵، هذه صفات هي الأخرى تجلي بصدق عظم تواضعه مع روح اجتماعية وتواصلية لافتة، ويمثل تواصل أحزانه، ودوام تفكيره، وحديثه إلا عند الحاجة، كمالا كبيرا يكشف مدى انشغاله وانصرافه إلى معالي الأمور، وابتغائه تماما يحصله، وعليه "فلو لم يكن موجودا لما كان للكون ولا للإنسان أي معنى، لأن الرسول محمدا ﷺ هو الإنسان الذي أسبغ المعاني على الأشياء"⁶. إن هذه المكانة النادرة هي محصل كمالاته، ظهرت تجلياتها على الكون والإنسانية، بما منحه من معنى للحقائق والأشياء.

¹ - محمد محمود الصواف : نظرات في سورة الحجرات، ص 165.

² - إبراهيم محمد البشير: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، جمع أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2011، ط3، ص 316.

³ - صفي الرحمان المباركفوري : الرحيق المختوم، ص 578.

⁴ - محمد متولي الشعراوي : الإنسان الكامل محمد صلى الله عليه وسلم، ص 50.

⁵ - المرجع نفسه، ص 50.

⁶ - محمد فتح الله كولن : النور الخالد، ص 17.

يقول الأستاذ "مالك بن نبي": "وسيكشف (الرجل) عن ذكاء عجيب، وعن حكم على قيم الأشياء، وعلى نفسية الرجال منزه تقريبا عن الخطأ، كما يكشف عن إرادة لا يعترها الوهن، لقد تتبعنا حتى الآن خطواته داعية فحاولنا أن نفهم حركات قلبه، وخلجات نفسه، وأن نكشف في إشارات وفي دعوته الدلائل الناصعة على خشوعه وإيمانه وإخلاصه المطلق"¹، هذه إضافة أخرى لتمييزه ﷺ، وتمثل الثلاثية الأولى الذكاء العجيب، والحكم على قيم الأشياء ونفسية الرجال، ونفاذ بصيرة لا يكون العظيم عظيما إلا بها، وأما التنزه عن الخطأ والإرادة القوية فتعبير عن قوة الذات وثمره هذه البصيرة، وجميعها تعد انعكاسا للجانب السلوكي والأخلاقي والإيماني والفكري، بفضلها خطأ خطواته الثابتة نحو الكمال، ليجسد بذلك مفهوم الإنسان المؤمن السوي الأول بتعبير القرآن. ويثبت تعامله مع الناس وحسن تدييره كمال عقله، فقد كان ﷺ "على جانب عظيم من العقل الكبير وثقوب الرأي وجودة الفطنة وإصابته وصدق الظن وحسن النظر في العواقب والمصالح وكمال التدبير واقتناء الفضائل"². إن منحة العقل مفخرة إنسانية، حيث يمثل العقل إمكانا كبيرا لكسب كل عظمة ورهان، فهو ميزان الأمور والنظر والتأمل، تحقق به الفضائل، منحة تمكن من نيل الكمال وكل خير، يقول الإمام علي عليه السلام، متحدثا عن النبي ﷺ: "أرسله بالضياء، وقدمه في الاصطفاء"³، مصطفى بالاختيار الإلهي لكماله، بالكمال الذي فيه أولا، ويمثل الضياء الذي معه [=القرآن] كمالا ثانيا له يحمله إلى الناس، ويحملهم بضوئه كي يطرقوا به باب الهداية والكمال والسواء الإنساني، وعلى هذا الأساس، "فإنما النبي إشراق إلهي على الإنسانية يقومها في فلکها الأخلاقي، ويجذبها إلى الكمال في نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية في الكواكب"⁴، من كل تحلل وتفكك يصيبها، وعلاجها بحكمة من اعوجاجها، بالنور الإلهي الذي معه. ودواء يعالج به تقرحات النفس الإنسانية، وبهذه الفاعلية يعيد صناعتها من جديد، يقول الرافي: إن "العامل الإلهي العظيم يعمل في نظام النفس والأرض بأداتين متشابهتين: أجرام النور من الشمس والكواكب، وأجرام العقل من الرسل والأنبياء"⁵، وعليه فإن النبي محمد ﷺ يعد فتحا إلهيا على الإنسانية، قد أشرق عليها بعد ظلام، وحررها بهذا العقل وقادها إلى مراتب وفتوحات عظيمة رفيعة،

¹ - مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية، ص 134

² - عمر رضا كحالة : العالم الإسلامي، ج 2/1، ص 120.

³ - ابن أبي طالب علي: نهج البلاغة شرح محمد عبده، دار الكتاب العربي بيروت، دار الأصالة، الجزائر، 2005، ص 306

⁴ - مصطفى صادق الرافعي : وحي القلم، ج 1، ص 5.

⁵ - المرجع نفسه، ص 5.

ويبقى طريقها مستمرا يواصل طرقه العلماء ورثة الأنبياء، تتجدد بهم الإنسانية، ومعهم تتحقق كمالاتها.

III / النبوة ممارسة كمال: لا يتنبأ المرسلون بكلام الغيب يخبرون به، ثم تنتهي قصة رسالتهم، على أهمية الإخبار وضرورته، بل يعد كلام الغيب القيمة الحية للرسالة والممارسة الفعلية والتطبيقية، والأداة النموذجية التي تري الناس الطريق الواضح يهدونها إليه، ويدفعون العقول إلى عقد موازنات بين هذه الفكرة المثال، والعالم الواقعي بإسفافه وانحطاطه وفساده، ولهذا يأتي التطبيق النبوي ليرفع النفوس إلى عالم الطهارة بالتزكية، ويدفع الإنسان إلى البحث عن كماله وجمال إنسانيته، يقول "الإمام الشعراوي": "إن الرسول إنما هو نموذج تطبيقي فقد نعلم كثيرا من التخمينات، ونعلم كثيرا من المناهج، ولكن المهم ليس أن نعلم المنهج، طالما أن المهم هو ليس أن نعلم المنهج، بل الأهم من ذلك هو أن نوظف المنهج، وألا نجعل المنهج عقيما... فمن الذي ينظمه؟... الذي ينظمه هو أول من انفعل به وهو.. رسول الله محمد ﷺ.. أي أن الرسول هو النموذج الكامل التطبيقي"¹. لقد اكتملت مسيرة الإنسانية الاكتمال الحقيقي بالنبي محمد ﷺ، ودينه الخاتم الكامل، ولا يكون كمال الدين إلا بتطبيقه في الحياة برؤية ومنهجية واضحة ترى ثمرته جلية، وبذلك يكون الكمال ممارسة واقعية في حياة النبي وحياة أتباعه، ولأن النبي هو الإنسان الأول الذي أدرك هذا السر الإلهي وانفعل به انفعالا واعيا، فإن انفعاله ووعيه به حوله إلى أن يكون المطبق الأول لهذه الرسالة في كل تفصيلا، ولهذا كانت حياته معلما متساوقا ودالا مع ما جاء به فكرة وتطبيقا، أي أنه كان أشد تمثلا للحق، وتمثل إجابته السيدة عائشة رضي الله عنها دليلا على هذه الحقيقة، عندما رأت قدميه تنفطر من القيام وقد غفر له، فرد على كلامها قائلاً: "أولا أكون عبدا شكورا"²، تعبير يدل على صورة هذا الانفعال الأعلى من أهل الكمال وبذلك الأمثل من الناس، ويمثل مفارقة لأغلب الكل المكتفين بالحد الأدنى من الأداءات، وهذا من ثمار هذا الانفعال والإدراك للحقيقة، ولذا كان انفعاله كمالا ذاتيا متفردا، كمال الآحاد، وإن هذا التفرد في الكمال يعتبر ضرورة ومطلب مرحلة، "فقد عاش رسول الله ﷺ في عهد فشت فيه الأخلاق الذميمة من كل نوع حتى أصبحت طبيعة في النفوس، ولم يكتف رسول الله ﷺ باقتلاع هذه الأخلاق السيئة من النفوس، بل زينها بأحلى

¹ - محمد متولي الشعراوي : الإنسان الكامل محمد صلى الله عليه وسلم، ص 28.

² - البخاري محمد بن إسماعيل : الجامع الصحيح، مج 2، دار الشعب، القاهرة، 1987، ط1، ص 63.

الأخلاق وأجمل الفضائل"¹. إن استحكام الشرور في النفوس يحتاج إلى نموذج تطبيقي حي لاقتلاعها، يراه الناس مشخصا في كيان متحرك من قدوة، تجعلهم يدركون فوارق هذه الطبيعة وأن تلك المعاني ممكنة التحقق في ذواتهم، وليست تعاليم نظرية مجردة.

ومن هنا فإن "الرسول محمد ﷺ هو النموذج الكامل التطبيقي فكل منهج جاء به هو من الله، ولذلك نجده في كل زوايا الحياة مثلا أعلى، وتكون مثاليات الرسول تطبيقا للمنهج الرباني"²، وتأويل هذا الأمر نرجعه إلى أن تقريب المسافة وقصرها بين مبدأ الفكرة المثالية والواقع العملي مهمة النبي وهو مما كلف به، وبذلك يسر ﷺ على الناس عقل المراد الإلهي وإمكانية تمثله، علما وفهما وتطبيقا، فقد كان "يسعى طيلة ثلاث وعشرين سنة من رسالته إلى الطريق المؤدي إلى الحرية الروحية والتحرر"³، وهو طريق عملي سعى إليه وجسده في واقع الناس، بتغيير منهجي يتماشى مع السنن الإلهية، بصناعة جديدة تجعل من الإنسان إمكانية تاريخية، ولذا يمثل معراجه ﷺ دلالة على عملية تحويل الواقعي إلى كمالي والكمالي إلى واقعي، "كان يريد للجميع هذا الصعود في مراتب الكمال على قدر مراتبهم ومكانتهم"⁴. إذن فالمعراج النبوي هو معراج للروح والنفوس يمكن تطبيقه عمليا، وفي كل يوم بواسطة الصلاة، الآلية التي تتحقق بها كل الكمالات الروحية والنفسية والعقلية، وحتى الجسدية لما تحدته من توازن في عالم الإنسان.

تحتاج هذه العملية إلى تركية مستمرة للنفوس الإنسانية، ودفع كل تدسية عنها، وهذه هي مادة تحصيل الكمالات الروحية*، ولذا فإن النبي محمد ﷺ قد "وضع رجله على الأرض كي يتسنى له وضع يده على مواطن الداء في بني الإنسان وبمنحها البلسم والدواء"⁵. أراد تصحيح الصورة الخاطئة والحالة الفاسدة للطبع الإنساني، فكان لا بد من ممارسة فعلية تطبيقية لهذه المثالية، فألزم نفسه مراقبة تغير سلوك أصحابه، فرأى كمال تطبيقهم وامتثالهم فسجل يقول: "لصافحتكم

¹ - محمد فتح الله كولن : النور الخالد، ص 170.

² - محمد متولي الشعراوي : المرجع السابق، ص 31.

³ - رمضان طارق : على خطى النبي دروس من حياة النبي ﷺ، تر زهير السمهوري، دار العبيكان، السعودية، 2016، ص 295.

⁴ - عبد الكريم شروس : بسط التجربة النبوية، ص 24.

* - يمكن تأمل الحديث النبوي "ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها"، نلاحظ هذا الترقى الذي يصيبه الإنسان بهذا الامتثال للأمر الإلهي وتمثال الفكرة والتطبيق، وتشاكلا حقيقيا ورائعا يفترض بالإنسان أن يكون فيه أو يقاربه "ساعة وساعة" بتعبير النبي وهذا عين الكمال الذي هو إمكانية قابلة للتحقق. ينظر الحديث : محمد بن إسماعيل البخاري : صحيح البخاري، ج8، ص 105.

⁵ - جلال السيد : علي ابن طالب، ص 182.

الملائكة^{*}، في إشارة بليغة لعملية تمثل الصحابة رضي الله عنهم للحق، والسير وفق منهج الحق والسنة الإلهية، ومن جهة أخرى يثبت هذا كماله وقدرته الخارقة على تغيير ما بالأنفس، يقول الإمام الشعراوي: "ومثالية الرسول تتمثل في.."

إضافية مثالية له.

أو مثالية فيه.

أو مثالية منه.

إذا الثلاثة موجودات فيه فهي إضافة جمعت كل الإضافات لأن مثالية الرسول هي مثالية فيه حتى يعمل مثلها، ثم أن الذي جعل المثالية له.. هو خالقه ﷺ¹. إن هذه الإضافية المثالية له وفيه، صارت مثالية منه، فكان انفعاله تعبديا بامتياز: "أولا أكون عبدا شكورا"، ونطقه بهذه المثالية يجعل منه إنسانا أنموذجا عمليا وعيانا تطبيقيا للكمال الإنساني، ومثالية أخرى في تمثله للحق، كان هذا ملحوظا مشهودا: "كان قرآنا يمشي"، وبذلك فإن النبوة تصبح "الغصن المدلى من الحق تعالى إلى الخلق، وهي قلب الغيب ولسانه ووجوده من وراء هذا العالم الأرضي وفيها تتجلى عملية سمو وعملية اختيار واصطفاء وعملية تكليف وإرسال"²، فرفعة مقام النبوة ومرتبة النبي ﷺ ومكانه الأرفع، وقدرته على إحداث عملية الوصل بالله ﷻ، وبالوحي الذي يحمله معه إلى الناس، وقد أعطته هذه الرسالة ونبينا الخاتم كل مقومات الموضوعية، وقابلية النجاح، و يقينية وعلم، "فهي نبوة فهم وهداية، وليست نبوة استطلاع وتنجيم.. وهي نبوة هداية بالتأمل والنظر والتفكير، وليست نبوة خوارق وأهوال تروع البصر والبصيرة وتروع الضمائر بالتخويف والإرهاب حيث يعيها قبول الإقناع"³، وتقتضي هذه الخصائص إجراء وظيفيا مناسبا، إعمال العقل والفكر والحواس ليفهم الإنسان المراد الإلهي ويتمثل الحق الذي جاءت به الرسالة.

إن ميزة هذه الرسالة أنها رسالة نوعية تعتمد على أسلوب الفهم والهداية، كي تقود الإنسان إلى الكمال، رسالة جسد تمام كمالها النبي الكريم ﷺ، "وتلك هي الشهادة له ﷺ بأنه خاتم الأنبياء

* - إشارة إلى ما حدث لذلك الصحابي عندما كان يقرأ القرآن، فرأى تلك السحابة تقترب منه فهرع إلى النبي لمول ما رأى فأجابه النبي بقوله: "يا حنظلة لو كنتم تكونون كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة على فرشكم أو في طرقكم... يا حنظلة ساعة وساعة"، ينظر مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج29، ص150.

¹ - محمد متولي الشعراوي : الإنسان الكامل، ص32.

² - كولن محمد فتح الله : أسئلة العصر، ت، أورخان محمد علي دار النيل، القاهرة مصر، ط5، ص29.

³ - عباس محمود العقاد : الإنسان في القرآن الكريم، ص19.

وأن دينه هو دين الإنسانية الأخير، فهذا الدين في مجموعه إن هو إلا صورة تلك النفس العظيمة في مجموعها؛ صلابة بمقدار الحق الإنساني الثابت، لا بمقدار الإنسان المتغير يكون عند سبب جيلا يشمخ، وعند سبب آخر ماء عذبا يجري"¹، قد بلغت الإنسانية كما لها ببعثة محمد ﷺ وبدينه، ومنه تستمد صور كما لها الحقيقي في كل جيل بمثابة ما، وبمقدار الفهم والإرادة والتمثل، وبذلك فحتام النبوة سمي "باسمه الحق أنه هو فاتحة عهد الرشد في الإنسانية الخالدة"²، تدخله الإنسانية ومعه تدخل مسارا جديدا، هو مسار الرشد، يقتضيه العقل والتكليف، "فكما جاءت نبوة التكليف، صح في حكم العقل أن تختم بها النبوة لأنها حاضرة في كل وقت يحضره الإنسان العاقل المسؤول، وتحضره آيات الله لقوم يعقلون"³، فقد أعطانا مقياسه الظاهري والموضوعي كماله ﷺ وكمال نبوته، حكم يقر به حكماء الإنسانية، ويمثل حالة نجمية جاذبة إلى سبب يتنامى مع الأجيال ويتجدد مع حضور العقلاء، وهي تقرأ الآيات الإلهية في الكون، وبديلا لكل نوع من أنواع الفساد، "وبهذا المعنى يكون باب الولاية والنبوة موصدا بعد النبي، فبعد رحلة النبي يتساوى جميع أفراد البشر في دائرة التكليف وتعيين الحكم، وتكون الأفضلية للتقوى والتعقل"⁴، فكمالهم عقلا وتقوى رائدهم إلى الحق وقائدهم إلى الكمال على هدي من كمال الوحي والنبوة، "ولئن كانت العبقريّة امتداد في موهبة واحدة أو في جملة المواهب، فالنبوة امتداد في المواهب كلها، واكتمال عقلي وعاطفي وبدني وعصمة من الدنيا ورسوخ في الفضائل، وعرافة في النبل والفضل"⁵. تتوزع كمالاتها في كل المتميزين، وتمس تأثيراتها مختلف المواهب، كي تترسخ الفضائل في الحياة الإنسانية.

وبذلك تكون النبوة معيارا قائما بذاته، تواجه منظومة الفساد في الحياة وواقعها المعقد، تعرف التائه الطريق وتخرجه من متاهته، وتهدى الضال إلى سواء السبيل، وتعيد الظالم إلى ميزان الحق والعدل، وعليه فكي تستمر هذه الفكرة حية، فإنها تحتاج إلى هجرة وخروج لتجديدها والتزود بروح عالية وحيوية وحكمة وضبط، شبيه هذا برعاية إنسان لوردة جميلة، أين يحرص على نموها، ويدفع عنها الأخطار، يقول "الإمام الشعراوي": "يعطينا رسول الله ﷺ بالهجرة درسا يجب أن نتأسى به في كل أحداثنا الضخمة التي نحاول بها أن نؤثر في مجرى حركة الحياة، لأن الذي يريد أن يغير مجرى

¹ - مصطفى صادق الرافعي : وحي القلم، ج1، ص 6.

² - عباس محمود العقاد : المرجع السابق، ص 22.

³ - المرجع نفسه، ص 20.

⁴ - عبد الكريم سروش : بسط التجربة النبوية، ص 280.

⁵ - عباس محمود العقاد، المرجع السابق، ص 67.

حياته و حياة من حوله، لا بد أن يتعرض لكثير من المتاعب، لأنه سيخرج بالناس عما ألفوا¹، لأن التغيير ليس ضربة في المجهول، وإنما هو تحول وسير سنني، وحركة موضوعية واعية، لإحداث تحولات في نظام قيم الحياة التي تعودت عليها النفوس، بهجرة تقطع الإلفة مع الأشياء، ومن ثم فهي تمثل عملية صرف للإنسان إلى معالي المجد، ففي "هذه الليلة ولد فيها الهدى الذي محق الضلال، وولد فيها الحق الذي محى الباطل، وولد فيها النور الذي نسخ الظلام، وولد فيها التوحيد الذي أمات الوثنية، وولدت فيها الحرية التي انتقمت من العبودية وولد فيها التساوي الذي قضى على الأثرة والأنانية"²، وهي معاني تتحدد بهجرة إلى الحق، وفكرة تجدد المؤلف البالي من قيم الحياة.

وعليه فإن هذا التزامن بين البعثة والهجرة مؤشر هام على عمليات التحول التي شهدت ميلاد تاريخ إنساني بفكرة وقيم البعثة. "إذا فالهجرة نشأت مع البعثة، فكأن الله ﷻ أراد أن يعلمنا.. أن البعثة بدأت بإطلاق الدعوة في مكة في آذان سادة الجزيرة العربية، ولكنها انطلقت من المدينة فكأنه لا بد أن يلتقي.. الإطلاق والانطلاق"³، ويمثل تلاقي الإطلاق والانطلاق عظمة هذا التحول التاريخي الذي حرر قوى الإنسان من قيود الزمان والمكان والعادة والضرورة، بفكرة البعثة التي تحفظها الهجرة وتمنحها الحياة الدائمة، يقول الرافي: "ابتعث الله تاريخ العقل بآدم جديد بدأت به الدنيا في تطورها الأعلى من حيث يرتفع الإنسان على ذاته، كما بدأت من حيث يوجد الإنسان في ذاته، فكانت الإنسانية دهرها بين اثنين: أحدهما فتح لها طريق المجيء من الجنة، والثاني فتح لها طريق العودة إليها: كان في آدم سر وجود الإنسانية، وكان في محمد سر كمالها"⁴، من سر الوجود، إلى سر الكمال، إلى سر الرجوع، وفي سر الكمال ألق الإنسانية، ويمكن تأمل كيف يباهي الله ملائكته بعباده يوم الحج لبيان منزلة الكمال الإنساني بالإيمان، تمام صار جمالا يمشي على الأرض في واقع الناس، وهو من نور النبوة، نور عبر عنه الإمام علي ﷺ بقوله: "أنا من رسول الله كالصنو من الصنو، والذراع من العضد"⁵، عن أسرار هذا التحلي الجمالي لأنوار النبوة فيه، وشهادة تصديق أبي بكر ﷺ النبي ﷺ في معراجة وفي غيبته، وموافقات القرآن لعمر بن الخطاب ﷺ، وحياء عثمان ﷺ الذي تستحي منه الملائكة، وهي عينات من نماذج الكمال تعلمت من مرشدها وإنسانها

¹ - محمد متولي الشعراوي : الإنسان الكامل، ص 68.

² - محمد البشير الإبراهيمي : آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 317.

³ - محمد متولي الشعراوي : المرجع السابق، ص 62.

⁴ - مصطفى صادق الرافعي : وحي القلم، ج 2، ص 11.

⁵ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 385.

الكامل، وكمالات تطبيقية خالصة في الحياة، " إلى درجة أن تلاميذه سبقوا الجميع في عالم الروح وتربية النفس، وسبقوا كالمدعي الإرشاد حالياً¹، فمن مدرسة النبوة أخرجت مختلف صور كمالات الصحابة رضي الله عنهم كل في فنه، ومن "ثم فإن المصنع الإلهي لا يخرج أعماله التامة العظيمة إلا من أجزاء دقيقة"². أسهمت في بناء أمة عظيمة متكاملة.

إن الميزة الجليلة لأوصاف النبي ﷺ انتظامها في مصفوفة واحدة بأجزائها، تنبئ عن نشأة ورعاية وحفظ إلهي له، في أطوار كماله كرائد في الناس لا يتكرر، فلو تأملت "الرأيت منها كونا معنويا دقيقا قائما بهذا الإنسان الأعظم، كما يقوم هذا الكون الكبير بسننه، وأصول الحكمة فيه، ولأيقنت أن هذا النبي الكريم إن هو إلا معجم نفسي حي ألفته الحكمة بعلم من علمها وقوة من قوتها لتخرج به الأمة التي تبعد العالم إبداعا جديدا"³، تهيئة له لأداء رسالته، إذا فوظيفة النبوة إخراج أمة جديدة وفق مقتضى الحكمة والكمال، يقول الإمام علي رضي الله عنه: "ودعوة متلافية"⁴، تداركت الإنسان والإنسانية من الهلاك، بعد داء الفترة الطويل، ليكون الإنسان مع فرصة عظيمة مع الحق وتحقيق الكمال وإبصار معنى الإنسانية، فمن تداركته النبوة بمعناها، فقد نال كماله وجماله وإنسانيته، ومن ثم فوزه من هلاك محتم، وبهذا يصبح مجيء النبي ﷺ ممثلا لإصلاح شامل لحركة التاريخ ومسار الإنسانية، ومدرسة إيمانية وتربوية لكل أبنائها، "وهي المدرسة الوحيدة التي استطاعت أن تسمو بالموهب والكفاءات إلى أعلى المستويات فمن قصد هذه المدرسة استطاع أن ينمي كل قابلياته العقلية والقلبية والروحية، وجميع ملكاته الأخرى إلى مداها النهائي"⁵، مدرسة محمدية لتربية الإنسان وبناء كفاءته وصناعة مواهبه، وفتح النفس الإنسانية على قابليات النمو، أي إطلاق هذه القوى لتنتقل إلى الكمال الذي هو ضرورة تجديد، ورجوعا آمنا لأبنائها إلى مبدأ الانطلاق = الجنة. وعليه فإن أعظم مدح ووصف يكون في حقه لن يكون إلا بما مدحه به ربه عز وجل،
قائلا: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾⁶. وهذا هو عين كماله!

¹ - فتح الله كولن : النور الخالد، ص 340.

² - مصطفى صادق الرافعي : المرجع السابق، ص 21.

³ - المرجع نفسه، ص 34، 35.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 218.

⁵ - فتح الله كولن : النور الخالد، ص 334.

⁶ - سورة القلم، الآية 04.

IV/ تجليات كمال النبي [= القرآني]: تكشف آيات القرآن الكريم التي جاءت في وصف النبي ﷺ، عن تجليات كماله المتنوعة، حيث تبرز صورة هذا الإنسان الكامل في الخليقة، هاديا إلى الحق، وإماما للإنسانية، ومعلمها طريق الرشد الذي ينبغي أن تسلكه، وعليه فإن الوصف الإلهي لشخص النبي ﷺ هو وصف حال وهيئة، قبل أن يكون وصف مقام ومنزلة نالها، بمعنى أنه كمال قد تحقق، بتطبيقه وتجسيده واقعا في حياته، حتى صار باديا عرف به، يبرز رفعته ومقامه.

أولا : الكمالية النبوية: تمدنا الآيات بتحديد دقيق عن كمال النبي ﷺ حيث يتخذ هذا الكمال مسارين مهمين ودالين، ويبرز وظيفة النبي ﷺ تبليغا وأداء وتوصلا، من خلال توجيهين رئيسين:

أ- التوجه الرأسي [التوجه العبادي الإيماني مع الله]: يبرز هذا التوجه علاقة النبي ﷺ بالله ﷻ، وهي علاقة إيمانية تعبدية، ذات قيمة رمزية تجلي كمال إيمانه وتعبده، وصلة خاصة نادرة ممتعة، وسيما آية دالة، وردت تجلياتها في المواضع الآتية:

1- فكرة الثقلب في الساجدين: ويعد هذا من التجلي الأرفع، مع القلة من أمثل وأكمل العابدين، يقول تعالى في نعت نبيه ﷺ: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقْلُبُ فِي السَّاجِدِينَ﴾¹، وهي تجربة إيمانية ذاتية يشقها العارف إلى ربه، وحالة تجل من الخضوع والتعبد والشكر، ويلخص هذا جمع الحالة الإيمانية وتمامها، مع "الذين عرفوا الله فسجدوا له دون من لم يعرفوه"²، تعبيرا عن تمام عقل وقوة بصيرة، إنه ثقلب للنبي ﷺ بين أصحابه، "فهم نجوم وأنت بدر"³، مع صفوة مصفاة هي عين العبودية، وعين الإنسانية، وهي المشقة الأولى التي تعين على الثانية [= البلاغ].

2- قيام الليل وترتيل القرآن: يمثل قيام الليل خصيصة نبوية واجبة، يدل على عبادة الشكر ورافد الطاقة الروحية الذي يحقق الترقى والكمال، ويمد النبي ﷺ بالقوة التي تعينه على المواجهة في معركته مع الباطل، كما حدد له الله ﷻ سلفا إطار سيرته⁴، خط تكشف عنه الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾⁵، وعليه فإن هذا التوجه الرأسي لله ﷻ يتطلب طاقة عالية وروحا كبيرة يستمدتها من

¹ - سورة الشعراء، الآية 219.

² - المشيرى أبو القاسم : لطائف الإشارات تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم، تح إبراهيم بسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2000، ط4، مج3، ص 21.

³ - المصدر نفسه، ص 21.

⁴ - ينظر محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي، ص 485.

⁵ - سورة الأنعام، الآية 162-163.

القيام وأنواره، يقول الإمام الغزالي: "إنه إذا فرغ من قيام الليل استقبل كدح النهار في تبليغ الدعوة، ومجابهة الخصوم. ولا معين له إلا الله"¹، فمن هذا القيام يولد النبي والإنسان العظيم. إن الفكرة التي تجمع بين طاقة الصلاة وترتيل القرآن، تعد أعظم إمكان لعروج الذوات، وتحقيق الوصل بالله ﷻ.

ويأتي الترتيل في سياق كمال قراءة الكتاب، تفكرا وتدبرا ونظرا، وسياحة في عمقه لينال من أنواره، ومقامات القرآن درجات بحسب طبقات العارفين وأهل الكمال، فمن مرتبة التلاوة، يقول تعالى: ﴿وَأَنْ أُنَلُّو الْقُرْآنَ﴾²، إلى مرتبة القراءة، يقول تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾³، حيث تمثل القراءة تدرجا نوعيا، وحالة وعي تحدث إشكالا حقيقيا للشيطان، لأن رحلة الفهم تكون قد بدأت مع الكتاب، ومن ثم بداية رسم خط يناهض طريقه وسبيله، ويأتي الحث على الترتيل، في قوله تعالى: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾⁴، إلى مرتبة الترتيل لتمثل الإجادة الرفيعة والسياسة المتأمل في ملكوته، يقول "القشيري": ارتع بسرك في فهمه، وتأن بلسانك في قراءته"⁵، في حقل معرفته، لتتغذى طاقاته وقواه، حتى تكمل، إنها قراءة الحق، والقراءة بالحق، وهذا ما يعد عينا كماليا وسنة إلهية تحدث تبدلات عميقة في ذوات العظماء فتمنحها الأسرار، من أجلى ثمارها أن يقذف النور في ذات النبي ﷺ والثلة المصطفاة، يترتب عنها إفراس نجابة أهل الحق، من أولئك الذين يحملون البلاغ والموعظة والهداية للناس، قصد تزكيتهم وتعليمهم وتربيتهم، ومن خلاصة هذه المنافع: - تعطي درجة الترتيل في هذا المستوى صفوة نجبية من القيادة الروحية والمعنوية للأمة والمجتمع والناس والإنسانية، أي قيادة كونية/إلهية وإنسانية.

- يعد قيام الليل في حق النبي ﷺ وثلة الناس، فرضا واجبا، وفي حق عموم الناس من المندوب الحسن الذي يرفع من كمال المجتمع، والإمكانية الأولى التي تفتح أبواب الترقى إلى الكمال. - لا يمكن للثلة المصطفاة أن تكون مثلا إنسانيا، إذا هي لم تنتهج هذا الخط التعبدي بمشقتها. - يمكن أن يتحقق كمال الجموع الإنسانية من الناس، وكذا تغييرهم نحو الأفضل، وما يصنع مصيرهم الحسن، بوجود هذه الصفة في الصفوة، حيث يتم نقلهم إلى تمثل أنوار الحق والسعادتين.

¹ - محمد الغزالي : المرجع السابق، ص 485.

² - سورة النمل، الآية 92.

³ - سورة الإسراء، الآية 106.

⁴ - سورة المزمل، الآية 04.

⁵ - القشيري : لطائف الإشارات، مج 3، ص 642.

- يصبح قيام الليل وفق هذا الإجراء التسلسلي سنة نبوية، يتعين الأخذ بها، وهي سنة نبوية من سنة إلهية، وفكرة اقتداء وأسوة.

- تمثل مرتبة القراءة والترتيل خطأ استراتيجيا مقابلا لطريق الشيطان، لأن توافق القراءة والترتيل تضعف من تأثيره وتلغيه، عندها يكون قد خسر معركته مع الإنسان نهائيا فينتكس ويرتد ويتراجع.

3- الإسراء والمعراج : يمثل الإسراء والمعراج نقلة نوعية في حياة النبي ﷺ، نقلة ألطاف ونقطة كمال من الله ﷻ لعبده، وهذا بهدف تكميله، وتكميل إنسانيته به، وشهودا بالإسراء، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾¹، وشهود حضرة بالمعراج، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾². إنها كرامة الامتياز الإنساني، وتفرد بالقرب، فقد "دنا من ربه دنو كرامة، أن التذلي هنا معناها السجود"³، تحمل دلالة الشكر ودلالة التعليم، فأعطاه بسخاء الوهاب تعليما [= علما لدنيا روحيا]، ووحيا يؤدب به البشرية على منهج الحق. لقد خص هذا الإنسان كريم الإنسانية بهذا المعراج، لكي يكون كاملها وإمامها إلى الهدى، ولهذا كانت "رسالته العامة إصلاح الخلل في كل نفس - في أية قارة- إلى أن تقوم الساعة"⁴، من هذا الرجل المتعبد السائح في ملكوت ربه، معبد الناس لربهم.

4- القراءة بالله والقلم: جاء الأمر الإلهي لنبيه ﷺ بالقراءة ليرفعه إلى مراتب الكمال، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾⁵، فكان بذلك القارئ الأول في هذا الكون، حيث جمع القراءة الكونية بقراءة القلم، فتحرك نحو ذلك محبة واختيارا، فإذا كان "الناس كلهم يريدون"⁶، فهو ﷺ مخصوص، أي "مرادا"⁷ بالاصطفاء، قد عُلم القراءتين الإلهية والكونية، وبذلك نال المعرفة التي تلزم الكمال، قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾⁸، بالمعرفة التي تركي وتنمي ذاته وإنسانيته، قال تعالى: ﴿قَدْ

¹ - سورة الإسراء، الآية 01.

² - سورة النجم، الآية 09.

³ - القشيري : لطائف الإشارات، مج 3، ص 481.

⁴ - محمد الغزالي : المرجع السابق، ص 233.

⁵ - سورة العلق، الآيات 1-2-3-4-5.

⁶ - القشيري : المصدر السابق، ص 747.

⁷ - المصدر نفسه، ص 747.

⁸ - سورة الأعلى، الآية 06.

أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى¹ ، ولتكون بذلك القراءة كمالا وتزكية وفلاحا، بحيث يحدث تعلم القرآن إعجازا في تميز الذات بالأنوار، وإدهاشا كماليا يفردا عما سواها، لتصبح الذات عين الحق.

تثبت هذه المحاور الأربعة توجه النبي ﷺ إلى ربه، وتوجه الذات النبوية المحمدية نحو الحق، ذاتا متقلبة في جنة العباد، قائمة في محراب الحضرة الإلهية، وقارئة قراءة لدية، قراءة كشف وتزكية بالمعرفة، وبذلك تكون ذاته ﷺ قد نالت كرامة القرب، بهذا المعراج الذي فتح أمامها تجلي الحق بالحق، ونيل كمالها من ذات الحق ﷻ.

ب- التوجه الأفقي [التوجه الأخلاقي الاجتماعي مع الناس]: إن الخروج إلى الناس بدعوة الحق، وتغيير ما استقر في نفوسهم من داء الفترة يحتاج إلى طاقة وقوة وإرادة صلبة، ومعرفة أخرى غير المعرفة التي توجد عندهم، وعقلا خارقا ممتعا لا يحملونه، وبهذا يدرك المتأمل البصير "أن محمدا بلغ المدى وزاد"²، سيعينه هذا بعد ربه ﷻ على البلاغ والأداء، وستظهر في شخصيته المنفذة لهذا الأمر الإلهي تجليات نادرة من الكمال في علاقته بربه وصلته بالناس، وفي إرادته وصل الناس بخالقهم، على نور الهدى من العلم الرباني اللدني، وقد نطق القرآن بأبرز محطات هذا التوجه الأفقي مع الناس، نذكرها في الأتي:

1- الخلق العظيم: لقد نفى الله ﷻ عن نبيه الكريم ﷺ نعت الفظاظة والغلظة عن ذاته الكريمة، وقدم نتيجتها المدمرة والمهدرة للطاقة والجهد، عند الاتصاف بها، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظًا الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾³، انفضاض يعكس خسارة التوجه الأفقي الاجتماعي والوصلة بالناس. لقد ألغى وجودها خلقة العظيم من أن تكون سجيته فيه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾⁴، حيث يعد الخلق العظيم كمال نفس، وتفرد إنسان بأعلى الخلق، وتأدبا بأعلى الكرم، وإن هذه الندرة في الخلق، هي التي تعطي لعلاقته الأفقية بالناس فعاليتها وقيمتها، فقد استثمر النبي ﷺ هذا الخلق في بناء أمة من عدم، وبناء إنسانية من ضياع، وفي إعادة رسم أفق جديد أنقذ به من هلكة توشك أن تهز الكل، وتلغي كل الحلم، ولكنه بهذه الأخلاق العظيمة والضياء الذي معه، قد حملهم إلى ميلاد جديد والسعادة والنجاة. لقد اختار الله ﷻ لحمل كتابه [=القرآن] وتبليغه

¹ - سورة الأعلى، الآية 14.

² - محمد الغزالي: المرجع السابق، ص 530.

³ - سورة آل عمران، الآية 159.

⁴ - سورة القلم، الآية 04.

"الإنسان الأول في الوجود فكراً وشرفاً وسيرة"¹، وصحة وسلامة إنسان، فصار الآن إمكانية أن يبلغ الحق في قوته، وينفذ إلى النفوس بهذه الأخلاق التي هي محاسن الدنيا والآخرة، وأرضية بناء الأمة العظيمة، بكمال الخلق وكمال إنسانه، أو "بثبات الأخلاق"² بقول "الرافعي".

2- التزكية وتعليم الكتاب والحكمة: إن عظمة الخلق النبوي هي مفتاح الهداية عنده، حيث يتطلب فتح القلوب المقفلة خلقاً عظيماً، وبهذا يصبح هذا الفتح الإمكانية الكبرى للاستثمار في الإنسانية تذهيناً وتزكية وتعليماً، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾³، منة كاملة، تعليم الكتاب والحكمة، ونعمة تثمر كرامة الفلاح في استقامة الإنسان على منهج الحق من خلال تعليمه وتزكيتته، وهي تربية نبوية تسير على خط التنمية الأخلاقية الاجتماعية في تزكية الذوات البشرية، كي تنال الإضافية الإنسانية المطلوبة من النبي الكامل على مقتضى الكتاب والحكمة، وبمعيار الحق الذي يرفع الناس إلى المثال، وبكل دعوة واستقامة مرادة.

3- الحرص على مصائر الناس: إن الطاقة الكمالية لا تنشأ إلا في ذوات العظماء، فبينما يتفرغ أغلب الكل إلى ذاته أو أسرته أو دائرته الصغيرة، فإن النبي والعظيم يعنيه أمر الناس جميعاً، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾⁴، فالنبي ﷺ يحمل في ذاته الحرص على قيادة البشرية بالحكمة، يقول القشيري: "جاءكم رسول يشارككم في البشرية، فلما أفردناه به من الخصوصية فألبسناه لباس الرحمة عليكم، وأقمناه بشواهد العطف والشفقة على جملتكم"⁵، فقد أضاف من خصوصية الاصطفاء ومن كماله وخلق الرحمة العطف والشفقة على جملة الناس، وهو الخط الذي ستبرز فيه عظمته، حيث يتفنن في تعامله الرحيم مع كل مخلوق، وبهذا الأسلوب السحري الرحيم استطاع أن يغير به العتاة والقساة، فقد كان "أكبر همه إيمانهم"⁶، وهذا عين الحرص، الحرص على مصائر الناس الإيمانية، في استقامة دنياهم ومجتمعهم الإنساني، وقد تطلب منه هذا مضاعفة طاقة كماله، بالتعبد وشحنها بالروح الرفيعة،

¹ - محمد الغزالي : المرجع السابق، ص 474.

² - الرافعي : وحي القلم، مج 2، ص 64.

³ - سورة آل عمران، الآية 164.

⁴ - سورة التوبة، الآية 128.

⁵ - القشيري : لطائف الإشارات، مج 2، ص 76.

⁶ - المصدر نفسه، ص 76.

وبذل الجهد المتواصل لتغيير ما بالأنفس، لتكون على استقامة دنيوية وأخروية، وحرصه هذا ﷺ يعبر عن كمال معدن إنساني نفيس، فقد اعتبره "الرافعي": الإنسان الاجتماعي، حيث تجلت فيه "النفس الاجتماعية الكبرى"¹، فمن ذاته المحمدية الرحيمة، سينطلق ليصلح هذه النفس الاجتماعية الكبرى التي حملها في ذاته فجسدها واقع حال.

4- الإيمان والاستقامة: إذا كان الثابت الأخلاقي يمثل محور الحركة الاجتماعية، أو الخط الذي يتحرك إليه/نحوه النبي ﷺ بغية تثبيته وترسيخه قيمة خلقية في الحياة، فإن الإيمان والاستقامة والتوبة هي الأهداف المركزية لهذا الثابت، لأن الغاية النهائية التي ينتهي إليها سعي الإنسان وفكره هي تمثل الحق، منه ومن الناس. لقد جعل الله ﷻ الاستقامة هي التي تحفظ الإيمان، وجعل التوبة الموجه والمصحح لهذا الإيمان وطريقه، يقول تعالى: ﴿فَاسْتَقِمُّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾²، وهو نفس التوجيه الذي أرشد به ذلك الصحابي طالب النصيحة، قائلاً له: "قل آمنت بالله ثم استقم"³، وهذا هو التلازم الذي يحمي الحق من الضياع، والعبودية من الذوبان في متاهات الأهواء والشهوات، وعليه فإن هذه الصيانة هي صيانة أفقية الاتجاه، تصون التوجه الرأسي من التيه والضلال والفساد، وتحمي هذا الخط الأفقي من التحلل، من خلال إقامة علاقة تشابكية بين الفكرة الأعلى ودالها التوحيد، والسلوك الأدنى وداله إمطة الأذى عن الطريق، وهي وحدة لا تحميها إلا الاستقامة والاستغفار والتوبة، ببعدها الاجتماعي الذي يرسخ قيم الحق، ويعدل السلوك الفردي والاجتماعي ل يبقى دائماً متوافقاً مع الحق، يقول "الإمام الغزالي": "الإيمان الانتقال من الخلق إلى الخالق، ومن العالم إلى ربه الكبير"⁴، وتقتضي الضرورة إزاحة عوارضه من الاستكبار والطغيان والظلم، وحوائله من الشهوات والأهواء، وهو مقتضى اجتماعي مطلوب على طريق الكمال والحكمة النبوية، نعت التصق به ثابتاً خلقياً فيه، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾⁵، وهذا لكي يتحقق الكمال الاجتماعي. إن الوصف بالخلق والاستقامة هما تعريفية النبي القرآنية.

والآن هل يتفاعل التوجه الرأسي والأفقي في صناعة بنية إنسانية بقيم العدل والحق؟ وكيف يمكن أن يتكاملا في منح هوية الإنسان الكامل للنبي ﷺ؟

¹ - مصطفى صادق الرافعي : وحي القلم، ج 2، ص 6.

² - سورة هود، الآية 112.

³ - أحمد بن حنبل : مسند الإمام أحمد، ج 24، ص 141.

⁴ - محمد الغزالي : المرجع السابق، ص 417.

⁵ - سورة الزخرف، الآية 43.

ثانيا : الإضافية تجليات كمال النبي ﷺ: إن التوجهين الرأسي والأفقي، يمثلان معلمين دالين يثبتان كمال نبوة النبي ﷺ، في علاقته بربه ﷻ، بكمال عبوديته، وفي علاقته بالناس بكمال خلقه العظيم، وهي كمالات ترسخ القدرة والطاقة الإنسانية الهائلة التي تفتح الذات النبوية المحمدية على الأفق الأعلى بالدنو والقرب، وعلى المجال الدنيوي الحياتي [= على الناس] بالرحمة والهداية، وبهذا تصبح التجليات المتنوعة للذات المحمدية تمثل العصب والرافد الذي يقوي هذين المسلكين، كما يزيد من صقل هذه الذات تزكية وطهارة لها، ويمنح الروح إشراقه دائمة لا تنطفئ معها طاقاتها.

لقد حمل النبي ﷺ ذاته الشريفة على مالا تقوى عليه ذوات الآخرين، وألزمها أن تكون في دائرة الأحرار، ليكون بذلك الشاكر الأول على مقاس الحق والنبوة، وتقوية وتأهيلا يكون بها معلم ومؤدب الإنسانية الأول، يعلمها الكتاب والحكمة ويزكي أنفسها تزكية هداية وحق.

إن هذه التجليات الكمالية تمثل إضافية نوعية فارقية، تزيده كمالات على كمال، ونورا على نور على مقتضى كمال الإيمان وكمال الأداء، أداء الحق وتبليغ الرسالة، كما أن هذه الإضافية ليست زيادة بعد اكتمال، ولا تعويضا لنقص بعد نقص، وإنما إضافية تصقل الذات، كي تكون في قمة الكمال، وفي ذروة الإنسانية، وفي أعلى تجليات الجمال والرفعة، إضافية تهذيب الذات التعبدية، وإضافة تقويمية تهدي وترشد التائهين والضالين والحائرين، أي إضافية وظيفية صقلا وتهذيبا وتقويما.

تشكل هذه الإضافية مع التوجهين الرأسي والأفقي أهم مسارات حركة الذات النبوية المحمدية، وهي ترسم طريق الحق، وتجسد الأمر الإلهي بمثالية نادرة، كما تكشف عن أسرار هذا الكمال النبوي في تطبيقه وتجسيده الحي، ذلك الكمال الذي لا نجد له نظيرا في الإنسانية، العزيز على التحقق، ولكنه يبقى لها ﷺ مدرسة تعلم ومجال إلهام. نبرز تجلياتها في هذا الجدول:

الرقم	الآية	التجلي	التأويل
1	قال تعالى: ﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِمُْوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ الحج 78.	الشهادة بالحق على المؤمنين وشهادة أمته ﷺ على الناس.	تمثل الشهادة نطق الكامل العدل بالحق على غيره، شهادة هي مكافئ يعادل تمثله التام للحق، وقد نالت أمته ﷺ من كماله ومن تمثله، فكانت كمالات على غيرها شهادة عليهم.
2	قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ المائدة 67.	البلاغ:	يعد البلاغ أجل وظيفة للنبي، ووظيفة لا يؤديها إلا إنسان كامل، فقد كلف وحيا بهذا البلاغ العظيم، ويجلي البلاغ تمام الاتصاف والوصف، قال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، من ربه إلى الناس.

مدخل : الإسلام وميلاد الإنسان الجديد

<p>حدد النبي ﷺ هدفه أولاً ومنطلقاً، وطريقه بدءاً ومنتهاً، أي أن حياته وتعبده ومماته هي إلزام والتزام، معرفة ونسكا وأداء على مبدأ التوحيد والحق، فكان أول المسلمين معرفة وتطبيقاً.</p>	<p>المطبوق الأول ومتمثل الحق الأول:</p>	<p>قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ الأنعام 162-163.</p>	<p>3</p>
<p>لقد عرف الحق، وكان دليل الناس إليه، يعرفهم ببرهم ﷺ، بطريق واحد منه ﷺ، أي من الإنسان الكامل معرفة.</p>	<p>المعرف بربه:</p>	<p>قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ الكهف 110.</p>	<p>4</p>
<p>إن خفض الجناح صفة خلقية عظيمة، وبسط يزيد إنسانيته وضاءه، بسط على الآخرين من المعنى والرحمة التي عنده، يخفضه للمؤمنين رحمة بهم، وبهذا الإرفاق بهم يسلس عليه قيادتهم إلى طريق الحق.</p>	<p>خفض الجناح:</p>	<p>قال تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الحجر 88.</p>	<p>5</p>
<p>إن الأمر إليه بالتسبيح والسجود والعبادة، لأنه عين المثال والصديقية التي ترغب الكل في تأدية هذه الوظيفة الجليلة، والسير على هذا المثال الرفيع.</p>	<p>الأمر بالتعبد:</p>	<p>قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ الحجر 98-99.</p>	<p>6</p>
<p>إن العابد الأول ﷺ يتهجّد ليله، ليكون الشاكر الأول والحر الأول والمتعبد الأول، أي ممثّل الحق الأول.</p>	<p>التهجّد:</p>	<p>قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَنعَمَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ الإسراء 79.</p>	<p>7</p>
<p>أرسل النبي ﷺ رحمة للعالمين، هداية وإنقاذاً، وتعلّماً وتركياً ودعوة، ورفقا وشفقة، وقيادة للإنسانية من هلاك وخسران حتمي، فلا يرحم الناس إلا كامل تام.</p>	<p>الرحمة: نبي الرحمة</p>	<p>قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء 107.</p>	<p>8</p>
<p>تعد الخاتمية جوهر كمال الرسالة، وخلاصة التعبيد الإلهي للناس، من هذا النبي الخاتم الكامل، حيث يجسد انعطافة الحركة النبوية في ترقّيها وتماها، فالخاتمية تلغي الفساد وتصوراتها، وتدحض مداخل أهل الباطل ومحاولاتهم مسخ الحقيقة، ومع هذا ينتهي كل ادعاء ببصمة الخاتمية، فالخاتمية بصمة إلهية كونية تحارب الباطل بالحق وتلغي الفساد بالصلاح.</p>	<p>الخاتمية:</p>	<p>قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ الأحزاب 40.</p>	<p>9</p>
<p>يبشّر النبي ﷺ وينذر الناس، ويهدي الضال والحائر منهم، والتائه في دروب الغي والهوى والباطل، بوصفه سيد العارفين، وحامل الضياء إليهم.</p>	<p>النذير والتذكير:</p>	<p>قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّبِينًا﴾ الأحزاب 45-46، وقوله: ﴿وَذَكَّرَ فَإِنَّا لَذَكَّرِي تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذاريات 55.</p>	<p>10</p>
<p>لا أدل على تمام وكمال النبي ﷺ ورفعته مقامه من الأمر</p>	<p>الأمر بالصلاة</p>	<p>قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى</p>	<p>11</p>

مدخل : الإسلام وميلاد الإنسان الجديد

<p>الإلهي بالصلاة عليه، حيث أُلزم به ﷺ ذاته العلية، وأمر بها الملائكة عليهم السلام والمؤمنين، شهادة بالفضل على ريادة دور، وكمال في التبليغ، نال الصلاة لأنه كان في قمة الأداء وأشدّه، وفي أخذه الحق بقوة، والرحمة بالناس.</p>	<p>عليه:</p>	<p>النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿الأحزاب 56﴾</p>
<p>لقد نال النبي ﷺ النعت الإلهي له بأنه على الصراط المستقيم، بعد كل هذا التمام في التوفية في تمثل وأداء الحق تمثل حال. كان على الصراط المستقيم، وكان المثال الدال عليه، وبذلك صار يمثل نعتنا بالإتباع لهذا الصراط.</p>	<p>الصراط المستقيم:</p>	<p>قال تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الزخرف 43.</p>
<p>يمثل هذا التيسير طاقة وقدرة تمتعت بها الذات النبوية، تمكنه ﷺ من ممارسة تغيير الذوات بالقرآن، وتبنيه وتذكير الناس من الغفلة، وبهذا الكتاب المذلل = الميسر للناطق به ﷺ سببي أمة مؤمنة تحمل رسالة الحق إلى العالمين.</p>	<p>تيسير القرآن بلسانه:</p>	<p>قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ الدخان 58.</p>
<p>لقد أرسل النبي الخاتم ﷺ ليظهر دين الحق على كل دين، ولا يكتب الظهور إلا لتام حقيقة نبيا كاملا ودينا كاملا، بما جمعه من معرفة لكل مستجد في المكان والزمان.</p>	<p>إظهار الدين:</p>	<p>قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ الصف 9.</p>
<p>إن الصبر على الأذية في الحق يلخص كمال إنسان وتمام ذات وجمال روح، من شخص النبي ﷺ بصبر جميل يقوي عوده على البلاغ وأداء الرسالة، ويمثل الصبر القوة التي تواجه الأذية التي تعد المرح الذي يخدش عمق الذات النبوية.</p>	<p>الصبر:</p>	<p>قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ الطور 48-49.</p>
<p>إن من جمال النبي ﷺ صبره في البلاغ، وهجره لأذاهم وضلالهم وأذيتهم له، وإضلالهم لأهل الحق، ويمثلان للكمال العظيم زبدة التخلق بهذا الصبر والهجر الجميل.</p>	<p>الصبر والهجر:</p>	<p>قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ المزمل 10.</p>
<p>يمثل الإنسان الكامل ذروة الطهارة الروحية والعقلية والنفسية والجسدية، أي حالة الصفاء والطاقة الحرة المبدعة المتصرفه بمشيئة الحق، وجمال الروح والفكر، بعيدا عن تحكم الأهواء في النفس وتصرفها مع ميلها لغلبات الهوى، ونزعاتها ومكبوتاتها.</p>	<p>الطهارة وهجر الرجس:</p>	<p>قال تعالى: ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهَّرَ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ المدثر 4-5.</p>
<p>إن كمال النبي ﷺ وتمام صفاته، تجسد في كمال نطقه بالحق فلا يتعارض الحق الذي يأتي به من رب العالمين إلى الناس، وما يتكلم ويتحدث به. إن هذا التطابق يعبر عن كماله وكمال رسالته، وأن الحق الذي معه مصدره مشكاة واحدة.</p>	<p>عدم النطق عن الهوى:</p>	<p>قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ النجم 3-4.</p>

وعليه فإن كمال النبي يماثل كمال النبوة والدين، وأن ميزان هذا الكمال هو الوحي [القرآن] الذي يستقصي أهم تفصلات هذا الإمكان الحيوي في الذات النبوية المحمدية.

ثالثاً: أصل معدن الاصطفاء: تجمع الأخبار على أن النبي ﷺ من أسرة عريقة أصيلة، أصل ممتد في التاريخ، يقول الإمام علي عليه السلام: "فأخرجه من أفضل المعادن منبتا وأعز الأرومات مغرسا من الشجرة التي صدع منها أنبياءه وانتجب منها أمناه"¹، حيث تمثل هذه الشجرة نبتا ممتدا بجذوره في تربة الأصل الإنساني، ومن الشجرة الطيبة التي يجتبي منها حملة الحق من المصطفين وأهل الكمال، وقد أشار العقاد إلى هذا التميز في أسرة النبي ﷺ، حيث "يثبت من تلك الشعبة الوسطى له كرم النسب العريق"²، لجد النبي ﷺ، وهو ما يعد تأهيلا لهذه السلالة رشح به على غيره بالاصطفاء.

إن هذا الأصل الشريف يؤكد على أن كمال النبي ﷺ قائم على أساس صلب متين، وهو ما يمثل أرضية حقيقية ثرة لهذا الاستنبات المبارك، لإنسان كامل مختار مصنوع على عين الله ﷻ، يقول الإمام علي عليه السلام: "ومنته أشرف منبت في معادن الكرامة، ومماهد السلامة"³، فكان هذا الاختيار مؤسسا على هذا الأصل الكريم، وفي هذه المماهد، يقول "محمد عبده": "أي أنه ولد في أسلم موضع وأنقاه من دنس السفاح"⁴، سلامة نسب في أمة الأنساب تجعل منه إنسانا كريما جليلا عظيما، وعليه فإننا نضع هذا الأصل الكريم للنبي ﷺ أرضية هذا الكمال مع هذه الأعمدة وذلك التميز وتلك الإضافية، وهي تبرهن من كل طريق حقيقة كمال واصطفاء النبي ﷺ، وأن أصله يؤكد أنه من هذا المعدن. أنه سليل النبوة، يقول الإمام علي عليه السلام: "أسرته خير أسرة، وشجرته خير شجرة، أغصانها معتدلة وثمارها متهدلة"⁵، ولا يكون الاصطفاء لحمل الرسالات، وحمل الحق وتبليغه إلى الناس، إلا في هذه المنابت الكريمة، ولا يكون الكمال إلا في الأصول الثابتة.

رابعا: العقبة الكؤود: إن التوفيق بين التوجه الرأسي والأفقي يصعب تحقيقه على كل ذات طالبة للكمال، ما لم تكتسب كمالا في ذاتها [= داخل ذاتي]، وكمالا في أدائها [= خارج ذاتي]، فكرة وتمثلات، وهما من يحدد كمال الإنسان الحق، ويوضح هذه الفكرة نصيحة النبي ﷺ "الأبي ذر الغفاري" عليه السلام قائلا: "يا أبا ذر أحكم السفينة، فإن البحر عميق، واستكثر الزاد، فإن السفر طويل،

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 140.

² - العقاد عباس محمود: عبقرية محمد ﷺ، دار تحضة مصر للطباعة و النشر والتوزيع، ص 12.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 141، 142.

⁴ - المصدر نفسه، ص 142.

⁵ - المصدر نفسه، ص 217.

وخفف ظهره، فإن العقبة كؤود، وأخلص العمل، فإن الناقد بصير¹، حيث يقابل كمال الإيمان بفتن الحياة، وهي البحر العميق الذي يغرق هذه السفينة، وحتى ندقق حديثنا عن كمال النبي ﷺ، فإننا نضع حالة تقلبه في الساجدين في مقابلة العقبة الكؤود، لنثبت أن هذا الطريق الذي يسلكه إلى الكمال والمنزلة العالية التي يقود ذاته إليها، شاق مخوف بالمخاطر والمكاره يتطلب قوة.

إن بحر الشهوات والملذات والأهواء ينبغي أن يجد مقاومة متينة وإحكاما شديدا لقيادة السفينة، ودفعاً للأخطار التي تهددها، مع يقظة دائمة تكون شعلة متقدة على الدوام في الذات، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾²، وهو خسران ناتج عن عدم إحكام أمر السفينة.

لقد أشار النبي ﷺ إلى حلول منهجية تحقق سلامة السير والوصول الآمن، تمثلت في :

أ- ضبط التصورات الفكرية والمعرفية للنفس، بالتركيبية والتغذية النافعة بالعلم والمعرفة، وهو ما يعد إحكاما للسفينة، سفينة النفس من هذا التلاطم الموجي من الفتن، وما تحمله معها من مزاحمة للفطرة السليمة ولصوت الحق الذي أنبت في الذات بذلك التذهين القرآني، وصولاً إلى النفس السوية المطمئنة، يقول "الإمام الغزالي": "والقرآن منهاج الاستقامة أو معراج الرفعة"³، بمكونات ثلاثية: هي الإيمان والاستقامة والمعراج الروحي إلى الرفعة بالقرآن، أي إلى الكمال.

ب- الإكثار من الزاد: إن هذا الزاد يكون بالإكثار من العمل الصالح وفعل الخيرات وأرفعه الدعوة إلى الله، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، ومن أعظم هذا الزاد القول الحسن الذي يقود إلى الله ويصنع حياة إيمان جديدة حية، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾⁴، وهنا يتم الجمع ويتحقق التكامل بين التوجه الرأسي والتوجه الأفقي، كإحدى أكبر تجليات الكمال وأهدافه، وزاد التقوى توضحه الآية: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾⁵، التي هي أشرف تمثلات الحق، ومراتب العمل.

ج- خفة أحمال الظهر: لقد أشار النبي ﷺ إلى ضرورة التخفيف من الذنوب والمعاصي والسيئات، أي عدم حمل الأوزار التي تقض ظهر الإنسان يوم القيامة، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ

¹ - العفيفي طه عبد الله : من وصايا الرسول ﷺ، شرح وتعليق، دار التراث العربي، القاهرة، 1981، ص 767.

² - سورة العصر، الآية 2.

³ - محمد الغزالي : المرجع السابق، ص 417.

⁴ - سورة فصلت، الآية 33.

⁵ - سورة البقرة، الآية 197.

سَلِيمٌ¹، فعلى الفطرة السليمة الأولى يبقى، بجانب هذه الأحمال القاصمة، ويرتفع إلى مقامات الروح التي يعرج إليها بالسلام والجمال والخيرية، عروج لا يمكن أن يتحقق، إلا بالبقاء على الفطرة.

د- الخوف من الناقد البصير العليم الخبير: يقول تعالى: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾²، ويقول أيضا: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾³، وهذا ما يجعل من المراقبة مبدأ الإنسان الفاضل الكامل، ولذا فقد كان النبي ﷺ يكثر من التوبة والاستغفار طول يومه، لتكون [التوبة- المراقبة] هي الأخرى عبادة مراقبة وتصحيحا وتنمية تزكي ذاته الشريفة، وعليه فإن الخوف من الله ﷻ يعد مبدأ جليلا عند الكامل يضاف إلى سلسلة التوجيهات التي تحكم وتضبط سفينة النفس.

إن مقابلة القلب في الساجدين بالعقبة الكؤود يثبت أمرا واحدا أن طريق الكمال كؤود صعب على الناس، ويستثنى من هذا الكمل من الناس وأهل الارتياض النفسي، وقد أدرك النبي ﷺ ذلك فأحكم أمر سفينة، فجاز إلى مرتبة الإنسان الكامل الأول.

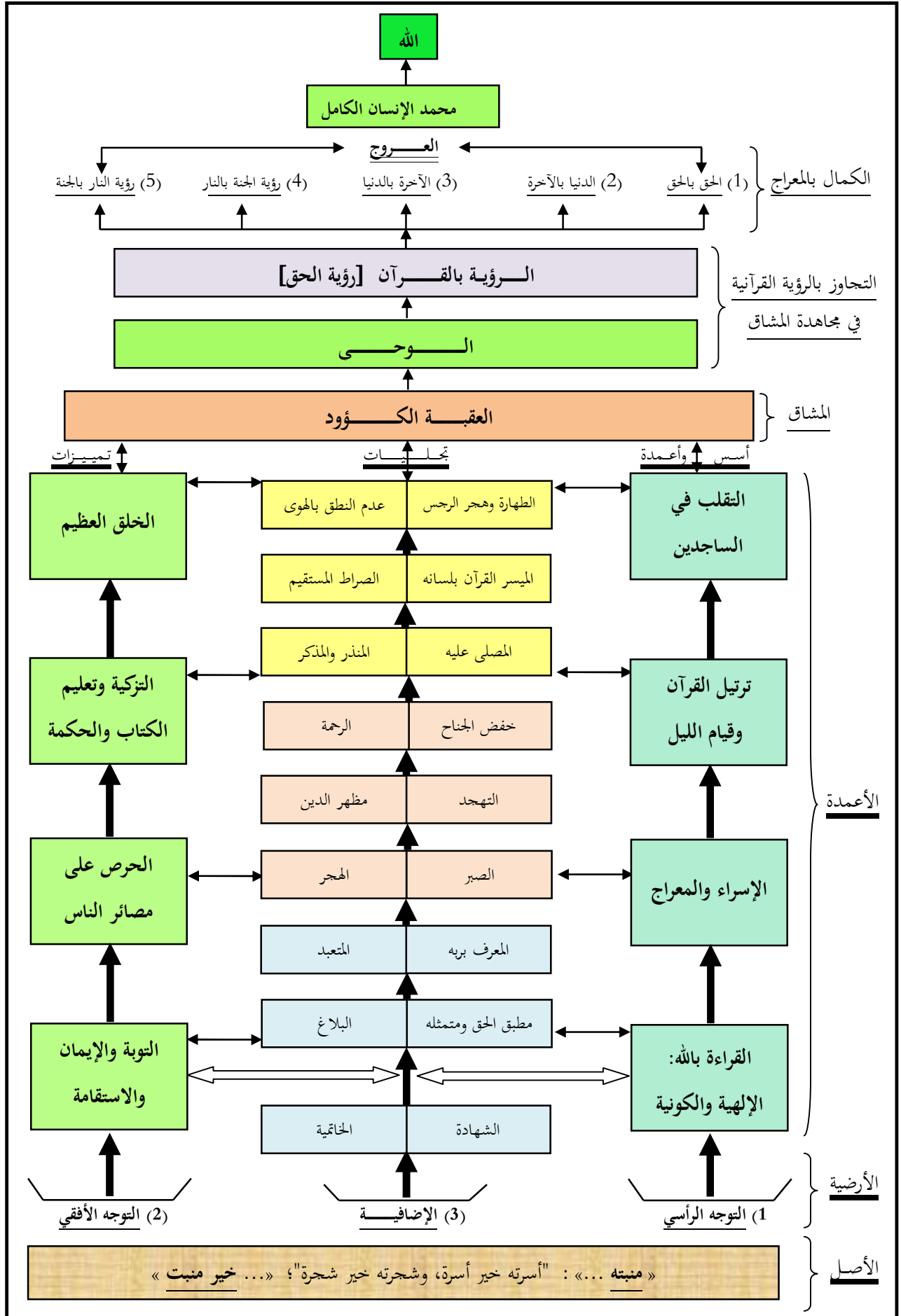
ننتهي إلى تلخيص هذه الكمالية النبوية بتجلياتها المختلفة في القرآن الكريم، بهذا الترسيمة:

¹ - سورة الشعراء، الآية 89.

² - سورة طه، الآية 07.

³ - سورة الحاقة، الآية 18.

مدخل : الإسلام وميلاد الإنسان الجديد



المفصل الأول :

صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

المبحث الأول :

الحياة الكونية (الطبيعية).

المبحث الثاني :

الحياة الاجتماعية

المبحث الثالث :

الحياة الفردية.

المبحث الرابع :

التفاعل القائم بين صورة الحياة بأنواعها الثلاثة.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

توطئة: جاء في لسان العرب في معنى الحياة: "الحياة نقيض الموت"¹، وهذا الضد قائم يوضح دلالة الحياة المغايرة لحقيقة الموت "وكذلك قوله "لينذر من كان حيا" أي من كان مؤمنا وكان يعقل ما يخاطب به، فإن الكافر كالميت"²، حيث نرى كيف يكون الإيمان فكرة نامية ونبته لها ما بعدها من الإثمارات، وفي معنى من يموت في سبيل الله فلن يكون غرسه، إلا امتدادا للحياة بدأها لتستمر فهو حي وشهيد، وهذا المعنى يدركه الإنسان، الذي يتعرض لهذه النفحات الربانية، التي تهب عليه فيصير إلى حياة لم يعهدها من قبل، ولهذا فقد اعتبر الله عز وجل القصاص حياة، فقال: "ولكم في القصاص حياة"، قال أبو عبيدة في هذا المعنى، "أي منفعة، ومنه قولهم : ليس لفلان حياة، أي ليس عنده نفع ولا خير"³، فالقصاص سنة حياة كي تبقى الحياة، فهذا نفع اجتماعي، وخير إنساني، ولذا فقد سنت لها القوانين لحفظها، فلا يمكن أن تفهم الحياة، إلا في ظل المعنى، والحياة بهذا هي معنى، وإن إخراج هذا الجوهر منها يجعلها فارغة، ومن ثم فإن الفهم والإدراك هو الذي يمكن من بلوغ معنى الحياة، وعتبة الارتقاء إليها، بل هو عتبة الحياة، والحياة بهذا "لا تكتسب معنى إلا في أعين أولئك الذين يجعلون من أنفسهم جسرا يعبر عليها الواقع نحو المثل الأعلى"⁴، أي حياة الفكرة والمبدأ، أي حياة الكاملين العظماء الذين يجعلون منها ذات معنى، ولا يمكن للمثل أن يرى النور، إلا بهذا الحضور المتفرد لهؤلاء، وعليه "فالحياة ليست إلا مظهرا أو أثرا للروح التي في داخل الإنسان"⁵، فمظاهرها وآثارها تتجلى بفعل هذه القوة الباطنة، التي تمنح و تصنع وتزيد.

يزخر نهج البلاغة بألوان وتلوينات مختلفة من الحياة، حيث يمكن رصد ثلاثة صور لمعنى الحياة، كما يدفع الإمام إلى تمثل هذه الأبعاد والصور وتجسيدها واقعا وفكرة ورؤية وتكاملا، وهذه الأنواع من الحياة التي يدعو إليها الإمام علي **عليه السلام** يمكن وضعها في ثلاثة أشكال حيوية، هي الحياة الكونية والحياة الاجتماعية والحياة الفردية الخاصة سنقف عليها في هذا الفصل، وهي حيوات متفاعلة فيما بينها، كما أنها أرضية ومصدر لقيام الحق وتطبيقه، وإمكانية لتحقيق الكمال الإنساني.

¹ - ابن منظور محمد : لسان العرب، دار الحديث، القاهرة، 2002، مج2، ص 691.

² - المصدر نفسه، ص 691.

³ - المصدر نفسه، ص 692.

⁴ - مصطفى ناصف : قراءة ثانية لشعرنا القديم، ص 127.

⁵ - الباليستاني أحمد محمد طه : هوية الإنسان بين الثبات والتغير، دار الكتب العلمية، بيروت، 2015، ط1، ص 17.



المبحث الأول : الحياة الكونية (الطبيعية) :

1/ المفهوم: قال صاحب اللسان: "الكون: الحدث، وقد كان كون وكيوننة"¹، وهذا الكون حادث بالخلق والإيجاد والتكون والاكتمال، وعند ابن فارس "الكاف والواو والنون أصل يدل على الإخبار عن حدوث شئ، إما في زمان ماضٍ أو في زمان راهن، يقولون: كان الشئ يكون كوناً، إذا وقع وحضر"²، فالكون حدث أوجد في الزمن، وفي التعريفات: "الكون: اسم لما حدث دفعة كإنقلاب الماء هواء (...). وعند أهل التحقيق: الكون عبارة عن وجود العالم من حيث هو عالم إلا من حيث أنه حق، وإن مرادفاً للوجود المطلق العام عند أهل النظر، وهو بمعنى الكون عندهم"³، يدل على طلاقة القدرة الإلهية في الخلق الذي يتم بقانون "كن"، وهذا العالم الذي نراه هو هذا الكون الحادث بعناصره وقواه وأسراره وبدائع صنعه وقابليته للحياة، "والطبيعة هي ما تسمى الخليقة، لأن الطبيعة نشأت عن قوانين سبق إعدادها من قبل، والطبيعة حادثة مؤقتة منذ خلقها ووجودها، وكلها تخضع لإرادة الله. "وإن من شئٍ إلا يُسبَّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ"⁴، وهذا الكلام يؤكد على النظام الدقيق الذي به تم خلق هذه الطبيعة، وفق ما أراده الله في علمه، وهي الأخرى منفصلة مسبحة، فالأرض والسماء أتت طائفة، وكذلك الإنسان يتصور [= يتعين] أن يكون سائراً في هذا النظام من التسبيح والخضوع والانقياد بطاقاته التي ترفعه إلى الكمال.

خلق الله هذا الكون، وهذه الطبيعة الفسيحة علامة على عظمته ودليلاً على بديع صنعه عز وجل، وهذا الخلق ليس عبثياً، وإنما هو مقصد إلهي يدخل في الضرورات التي تقيم الوجود وفق غايات سننية ووظيفية، ولهذا فإن ما يحكم نظام هذا الكون هو خضوعه لسننية منضبطة وقوانين علمية ثابتة، "فالطبيعة والكون كله إنما يخضع لإرادة إله واحد هو الله تعالى"⁵، وهذا النظام يقدم لنا مفتاحاً لتلك الأهمية التي من أجلها خلق هذا الكون، ومن ثم كان يتعين فهم وربط وإدراك العلاقات القائمة بين مختلف الموجودات، ولنتأمل هذا اللون الرمزي الذي سطره الإمام علي d في استهلال جميل لإحدى خطبه، وبلغه شفافة لغة ذلك الإنسان المتماوج مع عناصر الكون قائلاً: "الحمد لله كلما وقب ليل وغسق، والحمد لله كلما لاح نجم وخفق، والحمد لله غير مفقود الإنعام،

¹ - ابن منظور : لسان العرب، مج 7، ص 768.

² - ابن فارس أحمد : مقاييس اللغة، تح أنس محمد الشامي، دار الحديث، القاهرة، 2008، ص 797.

³ - الجرجاني الشريف : التعريفات، تح محمد صادق المنشاوي، دار الفضيلة، ص 158.

⁴ - أحمد أمين : يوم الإسلام، ص 12.

⁵ - رسول فاضل : هكذا تكلم شريعتي، دار الكلمة، لبنان، 1982، ط1، ص 226.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

ولا مكافأ الإفضال"¹، فمع حركة عناصر الكون والطبيعة [= الليل والنجم]، هناك فعل تعبدى واصل، وكأن الإمام يؤسس لعلاقة كونية جمالية ينبه من خلالها الإنسان إلى ضرورة الحضور الكوني في حالة من التعبد والإجلال والتعظيم لله، فهذا إنعام وإفضال مع إنعام وإفضال سابع في كل فضاء، تعبير من فنان وإنسان جميل، يقول "كلايف بل": "الجمال حالات ذهنية لا تقل قداسة عن أية حالة ذهنية يمكن للبشر أن يخبروها"²، فقد منح الإمام لعناصر الطبيعة طاقة هائلة، وحياة مفعمة بالحياة، وهي جميعها تنشط القوى والمدركات التي أعطيت للإنسان، وكذا المخزون المعرفي الذي يمتلكه والذي سيمتلكه بفعل هذا التحفيز النادر، ولكن كيف يتأتى هذا الأمر؟!.

إن طريق هذا هو التأمل! باعتباره يمثل "تفتح الفهم"³، وآلية فهم معنى الحياة، وهذه الميزات هي التي قادت الإمام إلى بيان هذا التفاعل. أن الحياة عبارة عن وجود أوسع، عتبة يمكن ارتيادها. لقد طاف وجمال في هذا الكون والطبيعة الجميلة المليئة بالأسرار في الأرض والسماء والجبال والموجودات المختلفة، حتى أصغرها كالنمل والجراد، وإن أعظم إنسان هو ذلك الذي ينشأ في الطبيعة وبين أحضانها تعلمه معنى الحياة، وفي بيئة عربية صحراوية بكنزها وسرها، وهي مفتاح لحكمة الحياة، وللإمام في إحدى خطبه تحليل ذكي وفكرة نبهية في سر اختيار الله لبيته الحرام في مكان خاص بمعالمه الطبيعية المعروفة*، فقد ربط بين هذا المكان [= الجذب] ومكان التعبد القداسة التي صار إليها، والجنة [= في الآخرة]، ومن خلال هذا التأليف الإلهي للمكان وهيئته بكل تناقضاتها وتفاعلاتها وعلاقاتها، جعلها دالة على حياة الإيمان، مادام أن الإنسان مركزا فيها يحرك هذه الهندسة. إن هذا دليل عبقرية وعظمة وتفرد، لإنسان حي جعل ما يبدو للناس جدبا متباعدا في المكونات، ذا معنى آخر ورسالة رمزية، يقول الإمام: "ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياما، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجرا وأقل نتائق الأرض مدرا وأضيق بطون الأودية قطرا بين جبال خشنة، ورمال دشة وعيون منقطعة لا يزكو بها خف، ولا حافر ولا ظلف، ثم أمر آدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه فصار مثابة لمنتجع أسفارهم وغاية لملقى

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 76.

² - بل كلايف: الفن، تر عادل مصطفى، رؤية للنشر، القاهرة، 2013، ط1، ص 279.

³ - كريشنا مورتى جدو: التأمل، ترجمة ديمتري أقيرينوس، معاصر للنشر، دمشق سوريا، 2008، ط1، ص 45.

* - تسمى هذه الخطبة "بالقاصعة" وهي خطبة متفردة تحتاج إلى قراءة نوعية ففيها شيفرة خاصة لتكبيبة عمل الشيطان وأدعيائه وكيف يشتغل؟! فهو فعلا يمثل سرا عجبيا، وأن المفتاح يوجد مع هذا السر، هذا إضافة إلى طبيعة هذا المكان والفضاء المقدس الذي يخلو من الجماليات الطبيعية.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

رحالهم. تهوي إليه ثمار الأفئدة من مفاوز قفار سحيقة... ابتلاء عظيما وامتحانا شديدا واختبارا مبينا، وتمحيصا بليغا جعله الله سببا لرحمته ووصلة إلى جنته¹، فهذا الوصف للمكان غاية في الدقة والبيان أظهر المعالم التي تحير الذهن وتغير حركة اتجاهه، يقول الإمام : "ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام ومشاعره العظام بين جنات وأنهار وسهل وقرار جم الأشجار داني ملتف البناء، متصل القرى بين برة سمراء وروضة خضراء وأرياف محدقة وعراض مغدقة ورياض ناضرة وطرق عامرة لكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء. ولو كان الأساس المحمول عليها والأحجار المرفوع بها بين زمردة خضراء وياقوتة حمراء ونور وضياء، لخفف ذلك مصارعة الشك في الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفي معتلج الريب من الناس. ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد ويتعبدهم بأنواع المجاهد وبتلبيهم بضروب المكارِه إخراجا للتكبر من قلوبهم وإسكانا للتذلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبوابا فتحا إلى فضله وأسبابا ذللا لعفوه"²، هكذا يصبح المكان [= الطبيعة الجذباء] صورة ناقلة لحياة ثانية، كما تراها البصيرة، فالمعنى الإيماني والروحي يتأسس على هذه الطبيعة بوصفها اختبارا، ومن ثم صارت رمزا مقدسا، رمزا نابضا معطاء عبر عنه الإمام بإخراج التكبر من القلوب وإسكان التذلل في النفوس، وفتح أبواب الفضل، ومن ثم فإن أسباب الرحمة قائمة في هذا المكان، هنا تصبح الطبيعة كونا تندمج فيه عوالم الغيب والشهادة، ومؤذنة بميلاد حياة كونية بمركزية مغايرة لا تقف عند حدود الأوابد التي طالما أرهقت الإنسان العربي في جاهليته³. إنه الانطلاق الحر الواعي المسؤول نحو الحياة التي ينبثق عنها نور الإيمان والفكرة، "لأن أجمل هزة نفسية نشعر بها هي تلك الهزة التي نعرونا عندما نقف على عتبة الخفاء من باب الغيب. إنها النواة لمعرفة الحق في كل فن وكل علم، وإنه لميت ذلك الذي يكون غريبا عن هذا الشعور"⁴، وإنها الحياة لمن عقل هذا المعنى، وعليه "فمن جهة نظر الصحة الذهنية يجب إعطاء الأولوية للجهود من أجل استعادة إنسانيتنا"⁵، ويأتي الهدف المباشر من خلال صور الطبيعة المختلفة، ليكشف عن معنى الحياة أولا، وبيان عمقها ثانيا، وتوسعا في المعرفة ثالثا، معرفة تجعل الإنسان كائنا يعرف إنسانيته التي تميزه، ولذا فاسترجاع هذه الإنسانية يتم بواسطة إدراك القيم الكونية، وقراءة علامات الكون.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 274، 275.

² - المصدر نفسه، ص 275، 276.

³ - ينظر مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 160، 177.

⁴ - الجسر ندع : قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، دار الهدى، عين مليلة الجزائر، ص 304.

⁵ - هانه تيك نات : المحبة في العمل : كتابات حول التغيير الاجتماعي اللاعنفي، تر: غياث جازي، معابر للنشر، دمشق، 2008، ص 164.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

2/ مظاهر الحياة الكونية (الطبيعية): يزخر نهج البلاغة بالعناصر المشكلة لهذا الكون الطبيعي المترامي، ورغم محدوديتها قياسا بموضوعات أخرى، إلا أنها تحتل قيمة رمزية لأهميتها ووظيفتها البنائية من مجمل موضوعات وعناصر أخرى تشكل معها أفقا متكاملًا لنظرية قد نستطيع تبين معالمها وخصائصها الدالة والكاشفة*.

أولا : العلويات : ونذكر من هذه العلويات الكون البديع وعالم الملائكة وخلق العالم.

عناصر الكون العليا : تصنف العلويات من عناصر الكون وتقدم لنا رؤية واضحة عن هذه الحياة الكونية، وهي :

أ/ جمال الصنع والإتقان: سبق وأن حرك إبراهيم الخليل عليه السلام عقله في الملكوت ليسأل ويجيل نظره ويقلب البصر بحثا عن المعنى، ليهتدي إلى تحقيق الاطمئنان النفسي، قال تعالى مخبرا عن هذا الموقف والتألق أمام أسرار العظمة الإلهية وبديع ما أوجده: **﴿قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنِ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيُطْمَئِنِّ قَلْبِي﴾**¹، فهذه السياحة في العالم والملكوت الإلهي، إنما هي أساس مثبت للإيمان وأركان التوحيد، كما أنها نقلة من الأرضي الحسي إلى السماوي الغيبي، ولهذا قال تعالى تأسيسا على هذا البحث: **﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾**²، فقد حقق له هذا التفاعل كشفا ورؤية أوصلته إلى اليقين، يقول الإمام في شأن هذا الكون البديع: "قدر ما خلق فأحكم تقديره، ودبره فألطف تدبيره، ووجهه لوجهته، فلم يتعد حدود منزلته، ولم يقصر دون الانتهاء إلى غايته، ولم يستصعب إذ أمر بالمضي على إرادته، وكيف وإنما صدرت الأمور عن مشيئته"³، يجلي هذا المقطع لعين الناظر المتأمل حقائق وعلامات هامة مفصلية، أولها إحكام التقدير، وثانيها لطف التدبير، ومن هنا نستخلص العلامة الأولى في هذه الصنعة، متمثلة في التقدير المحكم والتدبير اللطيف، مما يدل على عظمة الخالق أولا والنظام الكوني الدقيق ثانيا، الأمر الذي يجعل من هذا الكون حاملا لكل القابليات الممكنة، أوضحها بإمكانية الحياة فيه، أما العلامة الثانية فهي التوجيه، بما وضع له من غاية بينة، دون أن يتعدى هذه الحدود، ومن ثم الانتهاء إلى غايته، ذلك "أن هذا

* - تتعدد موضوعات نهج البلاغة وتتجه بالأساس نحو الإنسان، وتعد مظهرا ساميا في الوجود، وتكشف عن حقيقة الإنسان، والطرق التي يسلكها ليحقق السعادة التي طالما حلم بها، باعتباره طرفا وفاعلا رئيسا في معادلة الحضارة، وأحد عناصرها التي لن تكون إلا منفصلة، وهي واقعة في حكم التسخير وسنته.

¹ - سورة البقرة الآية 259.

² - سورة البقرة الآية 75.

³ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 125.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

العالم بكل مكوناته موجود بسابق علم الله، ونتيجة قدرة فائقة وحكمة بالغة، وتنظيم دقيق¹، مما يثبت القصد الواضح من وراء هذا الخلق الإلهي، باعتباره "مقصدا كونيا" الذي أوجد وفق هذا الصنع، من الانتظام والدقة والامتثال، وعليه فإن هذه العناصر يتحقق من خلالها جريان هذا الكون في عالم سني بديع، وهذا يؤكد ما أبرزه الإمام، بأنه "لم يستصعب إذ أمر بالمضي على إرادته" تحديدا لتلك المقاصد، وصدورا عن المشيئة الإلهية، يقول "محمد عبده": "وكل مخلوق خلقه الله لأمر أراد به بلوغ الغاية مما أراد الله منه ولم يقصر دون ذلك منقادا غير مستصعب"²، وهذا درس عملي في ضرورة الانقياد للأمر الإلهي، وإجابة دعوته وامتثال أمره وإرادته، "والواقع أن الطبيعة التي اكتمل صنعها وبلغت قدرا عظيما من الانتظام هي معجزة كبرى من معجزاته تعالى"³، فهو بهذه الدقة المتناهية العجيبة والأسرار المدهشة التي يقع معها العقل قليلا عاجزا، لهي برهان على أن الأمور صادرة عن مشيئة وتقدير عليم، ثم يذكر الإمام جملا أخرى مكملة لهذا المشهد البديع، فيقول:

"المنشئ أصناف الأشياء بلا روية فكر آل إليها، ولا قريحة غريزة أضمر عليها، ولا تجربة أفادها من حوادث الدهور، ولا شريك أعانه على ابتداء عجائب الأمور"⁴، حيث يتحول بالحديث إلى منشئ هذا الكون وجميع أصناف الإنشاء التي أوجدها الله ﷻ، إنشاء يدخل في الأمر الإلهي ويحدد بقدرة الإيجاد المطلقة والمترجم بفعل "كن"، حيث يقول القرآن ببساطة "أن الكون وغيره مما يريد الله تعالى خلقه وجعله على قيد الحياة يتحقق بأمره المطلق (كن)"⁵، وهذا يثبت صفات الكمال والقدرة المطلقة، ومن ثم ينزه الله عن كل نقص، ولهذا فقد ذكر الإمام هذه الكيفية التي أنشأ الله بها مخلوقاته وكونه الفسيح، بلا روية فكر ولا قريحة غريزة، ولا تجربة أفادها، ولا شريك أعانه على ابتداء ما خلق، فالله كامل قادر قدرة مطلقة لا يتسرب معها شك إلى عقل أنه خلق بعد تجربة، لأن هذا ينفي عنه سبحانه كل كمال وقدرة، قدرة تنزهه ﷻ عن كل شرك. فما هي هذه الحياة الكونية التي يريد الإمام أن يلمح إليها ويدفع إلى تحقيقها؟

إن هذه الحياة التي تثبت كل قدرة وكمال لله رب العالمين، وتنفي كل شرك عنه ﷻ، إنما تعني حياة الإيمان بتوحيد الله وتعظيمه وعبادته، وأن الحياة التي ستقام على ظهر هذا الكون هي

¹ - الأسمر أحمد رجب : فلسفة التربية الإسلامية انتماء وارتقاء، دار الفرقان، عمان، 1997، ط1، ص103.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 125.

³ - مالك فضل الرحمن: المسائل الكبرى في القرآن الكريم ت محمد أعيف ، جداول للنشر الكويت ، مطبعة لبنان، 2013، ط1، ص147.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق ص 125.

⁵ - فضل الرحمن مالك : المرجع السابق، ص 141.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

حياة العبودية التي تتأسس على التوحيد الخالص، "فهذا الكون ينطق بثلاث كلمات؛ ينطق بأن الله موجود، وبأن الله واحد، وبأن الله كامل"¹، ويدعو الإنسان إلى التفاعل مع هذه الحقائق، ومن ثم بناء حياته وفق هذه المعاني. ونستمر مع هذه السياحة الكونية، حيث يقول الإمام: "فتم خلقه بأمره، وأذعن لطاعته، وأجاب لدعوته، ولم يعترض دونه ريث المبطئ، ولا أناة الملتكيء"²، فبعد أن قام كل ما خلق بأمره، فإن هذا الخلق قد أذعن لخالقه سبحانه وأجاب دعوته بالفطرة التي فطر الخلق عليها، بلا تلكؤ وتعلل، قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾³، فالسما والأرض انفعلت فطرة أمام خالقها سبحانه خالق كل شيء، "وخلاصة ذلك، الإبانة عن نفوذ إرادته ومشئته"⁴. إن هذا الخلق العجيب المدهش ينفي كل عبثية وصدفة واحتمال ويضرب بهذه الأنوار تلك العقول التي خسرت معركة الطاعة والانقياد السلس لخالقها العظيم ومبدعها وصانعها، فقد "أقام من الأشياء أودها ونهج حدودها ولاءم بقدرته بين متضادها، ووصل أسباب قرائنها، وفرقها أجناسا مختلفات في الحدود والأقدار، والغرائز والهيئات، بدايا خلائق أحكم صنعها وفطرها على ما أراد وابتدعها"⁵، وفي ختام حديثه يذكر الإمام جملة هذا البديع من صنع الله، حيث أن جميعها تقوم على الاستقامة، ورسم حدودها والملائمة بين المتضادات والوصل بين النفوس والأبدان، أو عالم النور والظلمة، وكل هذا يعبر عن دقيق الصنع، والقدرة المعجزة، وهي في النهاية مفاتيح دالة على خالقها، وعلامات على الكمال الإلهي، وإشارات قائدة إلى تعظيم الله وتوحيده، وهي "أمور عجيبة بديعة مبتكرة الصنعة، غير محتذ بها على حذو صانع سابق، بل مخلوقة على غير مثال، قد أحكم سبحانه صنعها، وخلقها على موجب ما أراد، وأخرجها من العدم المحض إلى الوجود"⁶، ودليل حكمة لا يعلم سرها إلا هو، فمن أدرك سرها، أدرك المعنى من ورائها.

ويبين الإمام في كلام آخر له متحدثا عن حكمة خلق السماوات قائلا: "ولولا إقرارهن له بالربوبية وإذعانهن له بالطواعية لما جعلهن موضعا لعرشه، ولا مسكنا لملائكته، ولا مصعدا للكلم الطيب والعمل الصالح من خلقه، جعل نجومها أعلاما يستدل بها الحيران في مختلف فجاج الأقطار،

¹ - النابلسي راتب محمد: مقومات التكليف، دار المكتبي، دمشق سورية، 2010، ط2، ص 15.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 125، 126.

³ - سورة فصلت، الآية 11.

⁴ - ابن أبي الحديد عز الدين عبد الحميد : شرح نهج البلاغة، ضبطه محمد عبد الكريم النمري، مج 3، ج6، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ص253.

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 126.

⁶ - ابن أبي الحديد : المصدر السابق، ص 253.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

ولم يمنع ضوء نورها إدهام سحف الليل المظلم¹. إن انكشاف المقاصد ليتجلى أكثر بمثل هذه المعرفة، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾²، وهذا هو التقدير الإلهي في خلق الكون وما يترتب عليه من تقدير شرعي، "إنما ورد بقصد التشبيه إلى ما في خلق العالم من آثار الإرادة، والقدرة، والعلم، والحكمة، والإتقان، والاعتزان، الدالة على وجود الله، النافية للتكوين بالمصادفة"³. إن هذه العظمة هي مجلى التوحيد الخالص، والإتقان الدال على حكمة وإرادة إلهية مبنية على مقاصد رفيعة تجعل من كل هذا الخلق منفعلا فطرة بواجده، سابجا في سياحة تعبدية مسبحا بجلاله.

ب/ الحديث عن الملائكة: تعدد الخلق الإلهي وتنوع، وفي تعدده وتنوعه، دليل عظمة وقدرة مضافا إليها الحكمة البينة من ورائها، ومع العلويات من هذا الخلق الإلهي، فإن عالم الملائكة يدخل في نشأة وظيفية محددة الغايات، قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾⁴، وهو عالم يبقى بسره، وأعظم هذا السر أن تكون هذه المخلوقات في طاعة دائمة لا تبرح ولا تفارق هذا المقام، يقول الإمام: "ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه"⁵، وهذا حين شبه بهم الحجيج، وأما ما يستشف من هذا فهو درس الطاعة والامثال. أن معنى الحياة يتلخص في طاعة الله وهي سنة ثابتة، فإذا كانت حياة بعض المخلوقات في هذا الكون لها هذا الارتفاق السلس في الخضوع والطاعة، فالأحرى بالإنسان أن يمثل طائعا في توافق مع هذه المخلوقات التي لا تشذ عن مدارها، وأن يكون في قلب الكون، وقلب الطاعة، ومثلا على الامتثال الطوعي للأمر الإلهي.

ويصف الملائكة وصفا طويلا بديعا كشف من خلاله العلة من وجودهم، فقال: "ثم خلق سبحانه، لإسكان سماواته، وعمارة الصفيح الأعلى من ملكوته، خلقا بديعا من ملائكته، ملاء بها فجاجها، وحشى بهم فتوق أجوائها، وبين فحوات تلك الفروج، زجل المسبحين منهم في حظائر القدس، وسترات الحجب، وسراقات المجد، ووراء ذلك الرجيج الذي تستك منه الأسماع، سبحات نور تردع الأبصار عن بلوغها، فتقف خاسئة على حدودها"⁶. ما أعظم أن يكون المخلوق شاديا مترنما، في حالة من التسييح الكوني، متغنيا بالعظمة الإلهية والسبحات النورانية لرب العزة والجلال،

¹ - علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، ص 247، 248.

² - سورة القمر، الآية 49.

³ - ندم الجسر : قصة الإيمان، ص 209.

⁴ - سورة فاطر، الآية 01.

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 26.

⁶ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 127، 128.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

فهذه أعظم حياة يمكن أن يقف عندها مخلوق، وقد كان الملائكة الكرام عليهم السلام في هذا المحل، نالوا به هذه الخصيصة والميزة الرفيعة، ففي هذه المقامات القدسية يقام هذا الرجل السابح مع هذه العظمة، مسبحا بجلائل القدس، قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾¹، فتسبيح الملائكة عليهم السلام إنما هو نتيجة المعرفة بالله، حيث كانوا في درجة عالية من تعظيمه، وفي هذا التعظيم تاهوا مترنمين مسبحين لخالقهم العظيم سبحانه "الذي تعجز العقول عن أن تدرك صمديته، وتعجز الأبصار عن أن ترى - كما قال بعض العلماء - سرادقات عزته"²، وهذا هو معنى هذه الحياة، أن تكون زجلا من التسبيح مستمرا لا ينقطع، ومثالا رفيعا عن تلك الطاعة يدوم.

1/ نشأتهم : يقول الإمام في أمر نشأتهم : "أنشأهم على صور مختلفات، وأقدار متفاوتات، (أولي أجنحة) تسبح جلال عزته، لا ينتحلون ما ظهر في الخلق من صنعه، ولا يدعون أنهم يخلقون شيئا معه مما انفرد به، "بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْتَفْهِئُونَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ"³ [الأنبياء 26-27]، فهذه النشأة الإلهية للعالم الملائكي كانت بهيئة مخصوصة، وهم على صور مختلفات وتفاوت في الأقدار، والميزة الأخرى عدم التبدل ولا التطاول على الذات الإلهية التي لها صفة الخلق والإيجاد، فهذه النشأة وفق هذه الإرادة إنما هي لغايات إلهية تعبدية أولا، ومنه نستدل بها على ضرورة تعليمية من هذا العالم الطائع، كيف يتوجب على الإنسان أن يكون في الطاعة؟! فهم قد عرفوا فأدركوا، فعبدوا وأطاعوا، وهذه صورة للحياة الملائكية في هذا الكون البديع، وهذا ما يقره الإمام بقوله: "قد استفرغتهم أشغال عبادته"⁴. تفرغ تعظيم وإجلال وسياحة طوف في جمال مطلق، لم يستطيعوا عنه تحويلا ولا تبديلا، فكان التزم له خالصا، والشدو في ملكوته قائما.

2/ التكليف الملائكي وخصائصه: لقد كانت الغاية من هذه النشأة تحقيقا لعالم نوراني رفيع، يلهج ذكرا وتسبيحا بحمد الله وتعظيما للذات الإلهية، ومن ثم فقد أسندت للملائكة الكرام عليهم السلام، أعمال هي غاية في القداسة والطهر، فهم على هيئة تكليفية عجيبة، فقد "حنوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم، ولم ينفد طول الرغبة إليه مادة تضرعهم، ولا أطلق عنهم الزلفة ربق خشوعهم، ولم يتولهم الإعجاب فيستكثروا ما سكب منهم، ولا تركت لهم استكانة الإجلال. نصيبا في تعظيم حسناتهم، ولم تجر الفترات فيهم على طول دؤوبهم، ولم تغض رغباتهم، فيخالفوا عن رجاء

¹ - سورة الواقعة، الآية 74.

² - النابلسي محمد راتب : موسوعة أسماء الله الحسنى، ج2، دار المكتبي دمشق، سورية، 2009، ط5، ص 544.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 128.

⁴ - المصدر نفسه، ص 129.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

رهم¹. إن مثل هذا التكليف عظيم جدا، ومن عظمته أن يبقى الملائكة في نقطة الثبات لا تبرح إلى غيرها، ولو لطفة عين، وإن البقاء في نقطة الإضاءة [=المعظمة/المسبحة] يصعب تحقيقه وتمثله على غيرهم من خلقه سبحانه، ولكن الثبات في مثل هذا الجلال هو شرف وتعبير دال على معرفة بقدر الله العظيم، وحبذا لو استخلص الإنسان من هذا درسا جميلا، درس الثبات والمعرفة السليمة، ولو بمقدار معين ومراوحة بينة، بنص الحديث النبوي: "ولكن يا حنظلة ساعة وساعة"²، علما وتعظيما وأداء لذمة حسن التكريم، ولهذا فإن انشغالهم ما هو إلا تفرغهم لوظيفتهم الشريفة، أما الناس فكانوا بوصف الآية: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾³، عدم تقدير مرده إلى الجهل والغفلة وعدم تقدير الحق. إن هذا البيان ميزان ضرورة، يبرزه وضعهم الذي هم عليه، بحيث "لم تجف لطول المناجاة أسلوات ألسنتهم، ولا ملكتهم فتنقطع بهمس الجوار إليه أصواتهم.."⁴، فهذا الانشداد الذي يميزهم في ارتباطهم بخالقهم جعل شذوهم متوصلا مستمرا، وعليه "فلم تختلف في مقاوم الطاعة مناكبهم، ولم يثنوا إلى راحة التقصير في أمره رقابهم، ولا تعدوا على عزيمة جدهم بلادة الغفلات، ولا تنتضل في همهم خدائع الشهوات"⁵. سر عجيب يجليه هذا الانكباب والتفاني والسعي في تمثل الأمر الإلهي والثبات العبادي، والبعد عن ما يشوش هذه النزاهة القائمة، المعبرة عن فهم ومعرفة ما يتوجب عليهم في حق الله، فما هو السر في هذا الانقطاع؟

أوضح الإمام هذا السر بقوله: "قد اتخذوا ذا العرش ذخيرة ليوم فاقتهم، وبمموه عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين برغبتهم"⁶. هذا هو التعلق الجميل، وهو درس آخر واضح المعالم شاق بلوغه على الإنسان، لكن يمكن عده علامة على الطريق قائمة، عالم اكتفاء وانقطاع أخرجت منه كل المزاحمات، وأما الاهتزاز الذي يصيب البشر، فلا يعرف طريقا إلى عالمهم السامي، فهم "لا يقطعون أمد غاية عبادته، ولا يرجع بهم الاستهتار بلزوم طاعته، إلا إلى مواد من قلوبهم غير منقطعة من رجائه ومخافته، لم تنقطع أسباب الشفقة منهم، فینوا في جدهم، ولم تأسره الأطماع، فيؤثروا وشيك السعي على اجتهادهم، ولم يستعظموا ما مضى من أعمالهم، ولو استعظموا ذلك لنسخ الرجاء منهم شفقات وجلهم، ولم يختلفوا في رهم باستحواذ الشيطان عليهم، ولم يفرقهم سوء التقاطع، ولا

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 129، 130.

² - ابن العربي أبو بكر: النص الكامل لكتاب العواصم من القواصم، تح عمار طالي، مكتبة دار التراث، مصر، ج1، ص 31.

³ - سورة الزمر، الآية 67.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 130.

⁵ - المصدر نفسه، ص 130.

⁶ - المصدر نفسه، ص 130.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

تولاهم غلّ التحاسد، ولا شعبتهم مصارف الريب، ولا أقسمتهم أخياف الهمم¹، فانقطاعهم في العبادة لله يعود إلى أن مواد قلوبهم تحمل هذا التعلق، والزيادة فيه رغبة ورهبة، وعليه فقد كان الارتباط مسلكا شرطته أسباب ومتعلقات ذكرها الإمام منفية وبالتأول نقابل لها بحال الإنسان:

الملائكة	البشر
- لم ينوا في جدهم	ونوا في جدهم
- لم تأسره الأطماع	أسرتهم الأطماع
- لم يستعظموا ماضي أعمالهم	استعظموا أعمالهم
- لم يختلفوا في ربه	اختلفوا في ربه
- لم يفرقهم سوء التقاطع	فرقهم سوء التقاطع
- ولا تولاهم غلّ التحاسد	تولاهم غلّ التحاسد
- لا شعبتهم مصارف الريب	شعبتهم مصارف الريب
- ولا أقسمتهم أخياف الهمم	أقسمتهم أخياف الهمم

وعليه فإن ما امتنع في عالم الملائكة حصوله، كان ميزة عالم الإنسان في حياته.

3/ الثبات في الطاعة: نصل بعد هذا التوصيف الجميل لعالم الملائكة من خلال ما ذكر الإمام من ميزات وفضائل يتمتعون بها إلى قضية ثباتهم في الطاعة، وقد تجلّى صدقهم وعظمتهم عند خلق آدم عليهم السلام جميعا، وأثناء الاختبار الشديد الذي لا يقبل قسمة، الأمر بالسجود لآدم، رغم تلك المحاورة اللطيفة بينهم وبين الله في شأن هذا المخلوق الآدمي وما يحمل في طبيعته التكوينية من افساد، قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾²، وهذا السجود يسجل بحق امتياز حازته الملائكة وارتفاعا أثبتوا به أنهم: "أسراء إيمان، لم يفكهم من ريقته زيغ، ولا عدول، ولا وني، ولا فتور"³، في أسر، أي الثبات في نقطة الإيمان، لم يفكهم في رباطهم من ريقته عارض، بسير منضبط لعالم منضبط، وهو استخلاص يسجل في لوحة المعرفة، ليقرأ الإنسان جملة الإيمان، ومنهج الثبات عليه، وأن المتشعب عن غيره، إضلال وكفر يحول دون الله، لهذا كانت علامة هذا الإيمان القائمة في الملكوت أنك لا ترى: "وليس في أطباق السماوات موضع إهاب إلا وعليه ملك ساجد، أو ساع

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 130، 131.

² - سورة البقرة، الآية 73.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 131.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

حافد"¹، هذه هي صورتهم التي تثبت إيمانهم وأسرهم، وقد كان لهذا الإيمان أثر، لذا تراهم "يزدادون على طول الطاعة برهم علما، وتزداد عزة ربهم في قلوبهم عظما"²، حيث نلاحظ الأثر الحقيقي لهذه الطاعة وعزة الله في القلب وما يكسبه من منحة العلم، وتعظيم الله، وهذه المكاسب هي ثمرة هذا الثبات، بينما زاغ الإنسان وعدل وبنى وفتر، فلم يثبت على الحق.

ج/ خلق العالم: إن العبادة الحقّة والحياة المثلى التي يمكن لكائن أن يصل إليها، ويسبح في شطآنها هي عبادة وحياة التأمل في هذا الملكوت، والخلق البديع، والإتقان المدهش، والجمال المتناسق، وإن كل ما يعبر عن صور الإعجاز، لا يكون سبيله إلا التأمل، ومن خلال عملية الرصد تستجلى المعاني والأسرار الخفية، كما في خلق العالم، خلقا دقيقا متقنا، فقد "قدر ما خلق فأحكم تقديره، ودبره فألطف تدبيره، ووجهه لوجهته، فلم يتعد حدود منزلته، ولم يقصر دون الانتهاء إلى غايته، ولم يستصعب إذ أمر بالمضي على إرادته"³. إذا كان هذا العالم مخلوق بنظام بين من حيث التقدير الحسن والتدبير اللطيف، والتوجيه الحكيم، وكل هذا محدد بغاية داله لا تخرج عن فكرة النظام الدقيق الذي يتحكم في سير العالم والوجود، وما هو بالأمر المستصعب، فإن كل ناظر في هذا الملكوت الفسيح يكون قد "رأى الكون كله من الذرة إلى المجرة ينبض كالجسد الواحد، بحياة واحدة، يتجلى فيها ترابط الأجزاء وتواصلها وتعاونها وتساندها، تجليا باهرا، يخلق في نفوسنا ذلك الإلهام أو الإدراك المباشر لوجود الله الخلاق العظيم الحكيم"⁴، وواضح جلي أن التقدير والإتقان مبرز لعظيم الصنع وجميل الخلق، ومن ثم يكون مدعاة لكل تعظيم وإجلال من الإنسان، وهو يتأمل في هذا الإبداع معظما ومسبحا، وهذه هي الضرورة المترتبة، تجل بيديه وهو يعظم خالق الكون ويستعظم بديع صنعه، وما هذا إلا الانعكاس الطبيعي الجاذب، بين فاعل ومنفعل بمدعاته، ولذا فقد وضع الإنسان في رحم الحياة، يتأمل بديع الصنع وجماله، لينفعل انفعالا ضروريا، وينتهج خيار السياحة الإيمانية في هذا الكون، وهذه الصورة العالية من صور الحياة هي العبادة الكبرى، عبادة أولى الألباب، يقول الإمام: "وكان من اقتدار جبروته، وبديع صنعته أن جعل من ماء البحر الزاخر المتراكم المتقاصف، يبسا جامدا، ثم فطر منه أطباقا، ففتقها سبع سماوات بعد إرتفاقها، فاستمسكت بأمره، وقامت على حده، وأرسي أرضا يحملها الأخضر المتعنجر، والقم مقام المسخر، قد ذل لأمره، وأذعن

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 131.

² - المصدر نفسه، ص 131.

³ - المصدر نفسه، ص 125.

⁴ - ندم الجسر : قصة الإيمان، ص 150.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

لهيبته..¹، يشير "الإمام" في هذا النص إلى كيفية تشكل هذا الكون، مادة تحولت إلى صنعة عجيبة متقنة منتظمة، هي غاية في التماسك بأمر الله التكويني، واستوى استواء تتحقق بفضل الوضائف والغايات، لتصبح صالحة للعمارة والاستخلاف، وموضعا دالا يظهر آيات التجلي الإلهي، ودافعا محفزا للعقول إلى تأمل هذا الكون، لأنه يمثل آية التوحيد والعبادة، ولهذا ختم الإمام هذا الكلام بالآية الكريمة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾²، فهذا الصنع البديع قائم على علم ومعرفة وسننية، وهو طريق الفهم والعبادة، وعليه فإن "الجهل بطرق الطبيعة قاد الناس في العصور القديمة لابتكار الآلهة، التي تتحكم في كل مناحي الحياة البشرية"³، ولكن المعرفة المؤسسة على الرؤية الكونية هي أداة الكشف وطريق الإيمان والخشية والتوحيد، بهذا العلم وهذه المعرفة.

ثانيا/ السفليات: إن عناصر الكون ومظاهره الدنيا من السفليات، هي تبع لنظام متكامل بديع، يحقق مقاصد وغايات وظيفية، وقد أولى الإمام لهذا العالم اهتماما خاصا يعبر عن حس وروح متسامية تجدد في كل ذرة عالما قائما بذاته يثير الدهشة والحيرة، يدفع إلى تأمل واع مسؤول، قصد إيجاد علاقات بين الموجودات، حتى يتبين للناس أن الكل يطوف في الملكوت حول الواجد البديع.

1/ الإنسان: يعد الإنسان الكائن الرمزي بسر الذي استجمع الإمكانية الناطقة بأحوال هذا الفضاء الأوسع شمولاً، بما يمكن أن تترقى إليه المدركات الإنسانية، في حالة تكون بين رجوع صمت ونطق، وبسط وقبض، وإن الحيرة تتضاعف عندما يستعجم الأمر في معرفة من هو هذا الكائن؟ ولماذا هو موجود؟ وإلى أين يصير؟ وما هي الحكمة من خلقه؟ لقد تعدد ذكر الإنسان في النهج، وتنوعت خصوصياته، فالإمام قد "عالج موضوع الإنسان في شموليته مستفيدا من القرآن الكريم"⁴، ومن ثم فإن استجماع العناصر المختلفة لا محالة سيعطينا تصورا دقيقا نافذا عن الإنسان، وعموما فإن الإمام قد تناوله من خلال زوايا نظر، وأحوال تعبر عن وجود وسيرورة هذا الكائن، تتلخص في:

1. ظهور الإنسان في حقبة متقدمة من تاريخ الكون.
2. مميزات الإنسان وخصائصه مع ما يستتبع هذا الحال من تطورات علوا وهبوطا.
3. نهاية الإنسان بوصفه كائنا واستحالاته إلى الفناء.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص304، 305.

² - سورة النازعات، الآية 26.

³ - هوكينج ستيفن. مولدينو ليونارد: التصميم العظيم. إجابات جديدة على أسئلة الكون الكبرى، تر أمن عياد، دار التنوير بيروت لبنان ودار محمد علي للنشر تونس، 2013، ط1، ص 25.

⁴ - فلاق عريوات : النزعة المثالية في نهج البلاغة، ص 199.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

4. مآل الإنسان بعد الموت، وسعادته أو شقاوته بحسب ما قدم في حياته¹.

إذا كانت هذه هي المحطات التي يمر بها الإنسان، وهي مهمة، فإن مآله في الختام يجعل أمره معقداً وخطراً، لذا يأتي العمل للآخرة في مقدمة الأوليات وغاية الغايات، ويصرح الإمام بهذا، قائلاً: "فبادروا بأعمالكم تكونوا مع جيران الله في داره، رافق بهم رسله وأزارهم ملائكته"²، فهذه المبادرة التي يحفز عليها الإمام ويوجب السعي في سبيلها مرتبطة وظيفياً بالهدف الذي من أجله خلق الإنسان: عبادة الله والعمل وفق نهجه لبلوغ المراد ونيل الحظوة والشرف الأعلى، فكانت الجائزة أن "أكرم أسماعهم أن تسمع حسيس نار أبداً، وصان أجسادهم أن تلقى لغوباً ونصباً"³، فوز حققه الامتثال للأمر الإلهي، والسير على النهج الذي حدده للإنسان.

ولكن طريق الإنسان كان شائكاً مملوءاً بالمخاطر منذ تجربة الهبوط ومخالفة الأمر الإلهي، لتبدأ رحلته في الدنيا، "ثم اسكن سبحانه آدم داراً أرغد فيها عيشته، وآمن فيها محلته، وحذر إبليس وعداوته. فاغتره عدوه نفاسة عليه بدار المقام ومرافقة الأبرار"⁴، ومن المقام الذي كان لآدم عليه السلام مستقراً، أين كان للغواية أثرها، فقد "كان الحامل للشيطان على غواية آدم حسده له على الخلود في دار المقام، ومرافقته الأبرار من الملائكة الأطهار"⁵، بعد أنه أخذ غرة، وعليه فإن الغفلة هي داء الإنسان القاتل أمام الشيطان، "ثم بسط الله تعالى له توبته ولقاه كلمة رحمته ووعدته المرد إلى جنته وأهبطه إلى دار البلية وتناسل الذرية"⁶، إلا أن الرحمة قد أدركت آدم عليه السلام، فهبط من ذلك المقام إلى دار الدنيا، يقول "محمد عبده": "أهبطه من مقام كان الإلهام لانسيان قواه إلى مقتضى الفطرة السليمة، إلى مقر قد خلط له فيه الخير والشر، واختلط فيه الطريقتان، ووكل إلى نظره العقلي. وابتلي بالتمييز بين النجدين واختيار أي الطريقتين، وهو العناد الذي تكدر به صفو هذه الحياة على الآدميين"⁷، هنا بدأ الامتحان لبني الإنسان في رحلة محفوفة بالمكائد والابتلاءات، فكيف السبيل إلى نصر يعيده إلى المقام الأول؟! ولأن باب الغواية كان قد فتح، وجهله معرفة ربه، قاده إلى عبادة غيره، إلا أن لطفاً قد شمل العباد، "فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته،

¹ - ينظر تفصيل هذا المال في خطبة الإمام : نهج البلاغة، ص 199، 200.

² - المصدر نفسه، ص 254.

³ - المصدر نفسه، ص 254.

⁴ - المصدر نفسه، ص 12.

⁵ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 22.

⁶ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 23.

⁷ - محمد عبده : المصدر السابق، ص 23.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

ويذكروهم منسي نعمته"¹، وعليه فوظيفة الرسل التبليغية هادفة إلى إعادة نظام التوازن في النفس الإنسانية لتستقيم على الفطرة الأولى، وبالإلتباع لهذه السنن يكون سبيل الرجوع إلى المقام الأول، يقول الإمام : "ولكن الله سبحانه يتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله، تمييزاً بالاختبار لهم، ونفياً للاستكبار عنهم، وإبعاداً للخيلاء منهم"²، وجملة ما يطرح الإمام هنا يؤدي إلى تحقيق عناصر الكمال، حيث يقود الابتلاء إلى تحصيل المعرفة، كما يولد العمل من أجل النجاح، وينفي التكبر، ويثبت التواضع الذي يرفع الإنسان، كما أن إبعاد الخيلاء عنه يمكنه من معرفة قدره وأصل تكوينه، وبذلك يزداد خضوعاً لربه وتعبداً له.

2/ الأرض: لقد كان من التقدير الإلهي أن تكون هذه الأرض المنبسطة المتزامية الأطراف مسرح الحياة، والإقامة التي أعدت للإنسان لهذا الغرض، فالله سبحانه "كبس الأرض على مور أمواج مستفحلة، ولجج بحار زاخرة، تلتطم أوادي أمواجها"³، إشارة إلى هذه الحركة والنشاط الذي يسبق عملية تشكل الأرض، حتى وصلت إلى توازنها الطبيعي الذي مهد لصناعة الحياة عليها، "فخضع جماح الماء المتلاطم لثقل حملها، وكن هيج ارتمائيه إذ وطئته بكلكلها"⁴، فقد حصل هذا الهدوء بعد ارتطام شديد، بفعل هذا الكبس، فقد تم إدخالها بقوة وشدة في الماء لتتراص، لتأخذ مستقرها الطبيعي⁵، الأمر الذي جعل حالها بعد هذا الموج والمور أن "سكنت الأرض مدحوة في لجة تياره، وردت من نخوة بأوه واعتلائه"⁶، ومن ثم كان القرار والوضع الطبيعي الذي يمنحها كل القابليات، ومنها قابلية الحياة والعمارة بعد أن سُخرت للإنسان وللكائنات، وعليها تكون خلافته. يقول الإمام في شأنها وقد سكنت إلى مستقرها النهائي: "فلما سكن هياج الماء من تحت أكنافها، وحمل شواهد الجبال الشمخ البذخ على أكنافها، فجر ينابيع العيون من عرنيين أنوفها، وفرقها في سهوب بيدها وأخاديدها، وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها، فسكنت من الميدان، لرسوب الجبال في قطع أديمها"⁷. بعد هذا البسط أعطى الله مقومات الحياة والوجود، ففجر ينابيع العيون، إنه الماء، وإنها

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 23.

² - المصدر نفسه، ص 270.

³ - المصدر نفسه، ص 131.

⁴ - المصدر نفسه، ص 131.

⁵ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 3، ج 6، ص 266.

⁶ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 132.

⁷ - المصدر نفسه، ص 132.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

الحياة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾¹، وكان للجبال مثل هذه الوظيفة في تحقيق اعتدال هذه العناصر، فقد "ذكر كيفية خلق الأرض، وأن الله عز وجل خلقها من حيث تنهض بمصالح العباد، وصالحة للسكنى والحياة. عن طريق إيجاد المياه بسبب الأمطار وأهمية الجبال في ذلك، كما أشار إلى حركة الأرض وأنها ليست حركة واحدة، بل عبر عن ذلك بـ (حركاتها) وتكلم عن الأمطار وكيفية تكونها وأثرها في الحياة"²، فهذا خلق الله للأرض، تهيئة لحياة ستكون عليها، وعلامة إنسانية وكونية وإلهية بمقاصدها ودلالاتها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾³، مبدأ الصلاحية لتحقيق مشروع الاستخلاف عليها، وقيام حركة الوجود بسنتها الثابتة، قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا، وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾⁴، فلقد كانت هذه التهيئة والإعداد وفق علم إلهي دقيق، ونظام شامل غاية في الانتظام، ووفق قواعد من السببية والسننية، ثم "فسح بين الجو وبينها، وأعد الهواء متنسما لساكنها، وأخرج إليها أهلها على تمام مرافقتها، ثم لم يدع حرز الأرض، التي تقصر مياه العيون عن روايتها، ولا تجرد جداول الأنهار ذريعة إلى بلوغها، حتى أنشأ لها ناشئة سحب تحيي مواتها، وتستخرج نباتها، ألف غمامها بعد افتراق لمعه"⁵، فهذه الجمل تبرز بوضوح هذه الإمكانية الهائلة والطاقة العظمى، التي صبغت بها الأرض لتكون آية لظهور الحياة عليها، وترسم لوحة الجمال عليها، وبهذا يستمر الإمام "في رسم صورة جذابة لكيفية تكون الأمطار وكيف تخرج بعد ذلك النباتات من رؤوس الجبال لتحول الطبيعة الجرداء إلى حدائق نضرة تبهج النظر"⁶، وهنا يدخل الجمال عنصرا رئيسا أخاذا، بعلامة تمييزية/وجمالية، كي يمنح الحياة عليها، حيث "أخرج به من هوامد الأرض النبات، ومن زعر الجبال الأعشاب، فهي تبهج بزينة رياضها، وتزدهي بما ألبسته من ريط أزاهيها، وحلية ما سمطت به من ناضر أنوارها"⁷، وهذا الأمر جلي تكشف عنه الطبيعة عندما تتبدل حلتها وتلبس ثوب الحياة وصور الجمال، فتغدو بديعة تسر الناظرين، تدعو الأرواح الكبيرة إلى التدبر والتفكير، وتدفع الحيارى إلى فقه سر الحياة وهداية للضالين، وعلامة لبصيرة النفوس، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي

¹ - سورة الأنبياء، الآية 30.

² - العمري حسين : الخطاب في نهج البلاغة، بنيته وأمطاه ومستوياته، دراسة تحليلية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010، ط1، ص 235.

³ - سورة النبا، الآية 6-7.

⁴ - سورة النازعات، الآية 30-31-32-33.

⁵ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 132، 133.

⁶ - حسين العمري : المرجع السابق، ص 236.

⁷ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 134.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ¹، هذا الاهتمام بعلامة الأرض وعلامة الجمال، ما هو إلا سعي لخلق الحياة وجعلها صالحة، "فجعل ذلك بلاغا للأنام، ورزقا للأنعام"²، وهذا مجال فسيح للعقل ترتوي فيه الذات من كتاب الكون بنظرها في الآفاق.

لقد خلق الله الأرض لا لزينة تراءد، وإنما لتستقر حياة الكائن عليها، يعمرها بالخيرات، يقول الإمام: "فلما مهد أرضه، وأنفذ أمره اختار آدم عليه السلام خيرة من خلقه، وجعله أول جبلته، وأسكنه جنته، وأرغد فيها أكله، وأوعز إليه فيما نهاه عنه، وأعلمه أن في الإقدام عليه التعرض لمعصيته، والمخاطرة بمنزلته، فأقدم على ما نهاه عنه موافاة لسابق علمه"³، وقد كان التقدير الإلهي أن يوضع آدم في الاختبار بعد خلقه، ولكن مخالفته للأمر الإلهي أخرجته من هذه الجنة، إلى الأرض، حيث "أهبطه بعد التوبة ليعمر أرضه بنسله، وليقيم الحجة به على عباده، ولم يخلهم بعد أن قبضه مما يؤكد عليهم حجة ربوبيته، ويصل بينهم وبين معرفته، بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه، ومتحملي ودائع رسالاته"⁴، ومن رحمته تعالى بآدم ﷺ وذريته المتناسلة، ولتبقى الحجة قائمة، أن التعهد الإلهي لعباده لم ينقطع، فلم يترك هذا المخلوق منسيا يتخبط في التيه، وإنما وصلهم بمعرفته بواسطة رسله، ظل قائما بين الأرض والسماء، وعليه "فالأمر الموجودة تنقسم إلى ما لا يرتبط حصولها بقدره العباد أصلا : كالسماء، والكواكب، والأرض، والحيوان والنبات، وغيرها، وإلى ما لا يرتبط حصولها إلا بقدره العباد، وهي التي ترجع إلى أعمال العباد: كالصناعات، والسياسات، والعبادات والمجاهدات"⁵، وتتأكد الوظيفة الواجبة على الإنسان التي حددتها الغاية الإلهية من خلقه استخلافا وعمارة وفق منهج ونسق تحدده قيم التوحيد والعبودية، فما حوته الأرض من خيرات يدخل في نظام تقديري بالعلم، حيث أن الله "قدر الأرزاق فكثرها وقللها، وقسمها على الضيق والسعة، فعدل فيها لبيتلي من أراد بميسورها ومعسورها، وليختبر بذلك الشكر والصبر من غنيها وفقيرها، ثم قرن بسعتها عقابيل فانتهاها، وبسلامتها طوارق آفاتها، ويفرج أفراسها غصص أتراسها، وخلق الآجال فأطالها وقصرها، وقدمها وأخرها. ووصل بالموت أسبابها، وجعله خالجا لأشطانها، وقاطعا لمرائر أقرانها"⁶. لقد كان الهبوط إلى الأرض ليس غايته إلحاق العقوبة بآدم ﷺ

¹ - سورة الجاثية، الآية 13.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 134.

³ - المصدر نفسه، ص 134.

⁴ - المصدر نفسه، ص 134.

⁵ - الغزالي أبو حامد : المقصد الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، تح نجاح عوض صيام، دار المنظم، القاهرة، 2008، ط 1، ص 80.

⁶ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 134، 135.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

وذريته، ولهذا تاب الله عليه، وتعهد به بوصل حبله بالسماء بالوحي والرسالات، رافقه بالتقدير والحكمة، حيث أن "الله تعالى هو المخترع لمقدورات العبد بواسطة قدرته مهما هيا جميع أسباب الوجود لمقدوره"¹، فالتقدير له حكمة من وراء هذا الإنشاء البديع، "والقدرة عبارة عن المعنى الذي يوجد به الشيء متقدرا بتقدير الإرادة والعلم واقعا على وفقهما"². وبهذا يسير الكون وفق علم وتقدير إلى غاياته التي شاءتها الإرادة والحكمة الإلهية، وبالرجوع إلى القول السابق للإمام نجده قد تضمن جملة من الضرورات الكونية :

أ/. تقدير الأرزاق كثرة وقلة، وتقسيمها على الضيق والسعة عدلا.

ب/. الابتلاء بالميسور والمعسور، والاختبار بالشكر والصبر.

ج/. اقتزان السعة بالشدائد، والغصص بالفرح، وخلق الآجال ووصلها بالموت.

إن هذه الجمل بأفكارها الضاغطة تفرض روحها على الإنسان، وهو ما نعتبره كتلة حرجة³، تدعو إلى الأخذ بالأسباب والعلل والغايات والوظائف حتى تصنع الحياة وفق هذا التقدير والإرادة الإلهية، ومن ثم التماهي والسير مع هذا التصميم العظيم المبهر، ولذا فإنه من الجلي أن يكون الإنسان في النقطة المضاءة، ليفقه هذا المراد، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾⁴، فهم يقود إلى إدراك اللغز الكوني وما وراءه والغاية العظمى من الوجود، دفعت الإمام أن ينهي كلامه بتعظيم وتمجيد الله، كأحد أدوات التبعيد الكوني.

3/ الحيوان: ذكر الإمام في خطبه مجموعة من الأصناف من عالم الحيوان وكذلك الحشرات، كالخفاش والطاووس والنملة والجرادة، والحيتان والفيلة والغراب والعقاب والحمام والنعام، وقد تنوعت بين الإلماحة والتفصيل، وكل هذا ينم عن معرفة وارتباط بالبيئة والطبيعة، كما تعكس تأملاته في كل الموجودات الكونية، وإجلاء أسرار هذا الكون وغوامضه.

أ/ **الخفاش:** بعد استفتاح كان غاية في الجمال والروعة، أثبت فيه عظمة القدرة الإلهية، حيث "خلق الخلق على غير تمثيل، ولا مشورة مشير، ولا معونة معين، فتم خلقه بأمره، وأذعن لطاعته"⁵. يعرج إلى ذكر الخفاش كواحد من لطائف الصنع، وعجيب ما خلق، فقال: "ما أرانا من غوامض

¹ - أبو حامد الغزالي، المرجع السابق، ص 143.

² - المرجع نفسه، ص 143.

³ - ينظر خالص جلي: سيكولوجية العنف واستراتيجية الحل السلمي، دار الفكر دمشق، دار الفكر المعاصر بيروت، 1998، ط1، ص114، 116.

⁴ - سورة ص، الآية 27.

⁵ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 207.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء، ويبسطها الظلام القابض لكل حي¹، فهذا السر في التكوين يدفع المتأمل إلى أن يسأل ليستنبط الحكمة من وراء ذلك، ويتعين على الإنسان أن يقرأ ويدقق في أسرار هذا الكتاب العجيب، كتاب الكون، وقد بين "الجاحظ" ونبه إلى ضرورة تأمل عالم الحيوان، لأن بيانا واسعا وحياة متخفية يمكن للإنسان أن يستخلصها من هذا العالم، ليأخذ العبر منها وينال منها الفقه والمعرفة، ويلفت الإمام "النظر إلى كونه يعاكس طبيعة كل حي، أي أن عينيه تفقدان وظيفتهما في الضياء وتستعيدهما في الظلام. وهذا أمر يدعو إلى الغرابة وفي ذلك إحاء بضرورة الانتباه إلى ما في الحياة من حقائق وأسرار"²، وعليه فإن صرف الطاقة في الملكوت الفسيح من أعظم ما يمكن أن يجوزه الإنسان، نراها فيما يمتلكه أصحاب الكمالات العقلية والروحية بامتياز نادر، والخفافيش لا تستمد من نور الشمس طريقا تهتدي به، ولذا تراها "مسدلة الجفون بالنهار على أحداقها، وجاعلة الليل تستدل به في التماس أرزاقها، فلا يرد أبصارها إسداف ظلمته، ولا تمتنع من المضي فيه لغسق دجنته"³، فهذا الوصف يجلي عجائب هذا المخلوق، فهو ضعيف في النهار قوي في الليل، هذا التضاد يعطي روحا أخرى لهذا المخلوق تعمل أكثر ما تعمل في الفضاء الأصعب، وقد أتى الإمام "بالعلة الطبيعية في عدم إبصارها نهارا، وهو انفعال حاسة بصرها من الضوء الشديد"⁴، وهنا تتعادل القوى، وتتوازن العناصر، ليجد كل مخلوق حركته الطبيعية، وتناغمه الكوني، بفضل ما اكتسبه من عوامل الاندماج الطبيعي، ومما يلفت إليه الإمام النظر بعد هذا التأمل، أنها "تطير وولدها لاصق بها، لاجيء إليها، يقع إذا وقعت، ويرتفع إذا ارتفعت، لا يفارقها حتى تشتد أركانها ويحمله للنهوض جناحه، ويعرف مذاهب عيشه، ومصالح نفسه"⁵، فما اكتسبته من ملكات استثنائية لم يفقدها أدوارها تجاه من تعوله في حركة عجيبة، هي درس عملي لافت للإنسان، فهذا وغيره يدفع إلى تعظيم الخالق سبحانه وتعالى.

ب/ النملة: إن مع النمل هذا العالم الصغير أسراراً قائمة، وقصتها مع سليمان عليه السلام دليل شاهد، فهي "لأشباهها كالرائد الذي لا يكذب أهله"⁶. هكذا أخبر الجاحظ من أمرها، قال تعالى: ﴿قَالَتْ

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 207.

² - فلاق أحمد عروات : النزعة المثالية في نهج البلاغة، ص 207.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 207.

⁴ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 5، ج 9، ص 109.

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 208.

⁶ - ابن أبي الحديد : المصدر السابق، مج 7، ج 13، ص 34.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

نَمَلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانٌ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا¹، فهذه الآية تثبت رمزية خاصة هي القول مما يعطيها خصوصية "في أن لها قولاً وبيانا وتمييزاً"²، وهذه عظمة إلهية تدعو إلى التفكير، يقول الإمام: "ألا ينظرون إلى صغير ما خلق كيف أحكم خلقه، وأتقن تركيبه"³، وما هذه الدعوة إلا محاولة لنقل الأذهان إلى عالم من التدبر والتأمل، تلخص حياة كونية مبناها النظر، يقول الإمام: "انظروا إلى النملة في صغر جثتها، ولطائفة هيئتها، لا تكاد تنال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر"⁴، فهذا الصغر المتناهي صورة تعكس بجلاء بدائع القدرة الإلهية، وإن الالتفات إلى جزئيات من عالم هذا التكوين ضروري لإحداث هزة تنقل الإنسان من شفير العبثية واللاجدوى، والموت خارج حياة اليقظة إلى حياة التأمل والعبادة، وهذه هي إحدى عتبات تحقيق ومشاركة الاستخلاف في الأرض، وإن هذا النظر هو واقعي يقود الإنسان من خلال منطق استدلالى إلى تأمل حقيقتها، "كيف دبت على أرضها، وصبت على رزقها، تنقل الحبة إلى حجرها، وتعدّها في مستقرها، تجمع في حرها لبردها، وفي ورودها لصدرها، مكفولة برزقها، مرزوقة بوقفها"⁵، فهذا الإصرار والحزم الذي تظهر به يستوقف المشاهد، عمل دؤوب انطلقت فيه من أجل غاياتها، "حتى ربما كانت في ذلك أحزم من كثير من الناس"⁶، ومن ثم فهي آية ومثل يضرب في ضرورة السعي والنظام والأخذ بالأسباب، وعدم ترك أي فرصة لتحقيق وبلوغ كل مراد، وعليه فإن تتبع تفاصيل حياتها وكيفية خلقها يجعل الإنسان يملكه الإعجاب، يقول الإمام: "لقضيت من خلقها عجبا، ولقيت من وصفها تعبا"⁷، فهذا هو الفاطر القادر خلق العوالم جميعا، فالنمل والنحل وغيره أمم قائمة على هذه الأرض، يقول تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾⁸، تستدعي التوقف والتأمل والتدبر، لتحقيق إضافات تنموية ومعرفية وتعبدية وكمالية. إذن يتوجب على الإنسان أن يعقل هذه الصور العجيبة ويدرك الرمزية القائمة في كل هذه التفاصيل والتضاعيف، يقول الإمام: "ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلتك الدلالة

¹ - سورة النمل، آية 18-19.

² - ابن أبي الحديد : المصدر السابق، ص 35.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 255.

⁴ - المصدر نفسه، ص 255.

⁵ - المصدر نفسه، ص 255.

⁶ - ابن أبي الحديد : المصدر السابق، ص 34.

⁷ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 256.

⁸ - سورة الأنعام، الآية 38.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

إلا على أن فاطر النملة هو فاطر النحلة، لدقيق تفصيل كل شيء"¹، فالنظر العقلي في هذا العالم وما فيه يدل دلالة واحدة على أن خالقا واحدا وراء كل هذا، فهو الفاطر، وهذه إحدى طرق المعرفة التوحيدية التي تنمي الذات وتقويها، لتكمل في خط العبودية. إن الهدف الذي يتوخاه الإمام من خلال هذا الربط الذي يقيمه بين المخلوقات والعناصر، وينبه إليه الإنسان خاصة، باعتباره المعنى الأول بصناعة الحياة، تلك الحياة الإنسانية المثالية التي تبتغي الكمال في كل شيء وتسعى إليه النفوس الحية الراغبة في الترتي، وهو المحور الرئيس الذي تبنى عليه الحياة الكونية من خلال إقامة علاقات كونية وفق رؤية معرفية وإيمانية، ووفق مقومات ضرورية متمثلة في المحاور الآتية:

- 1- التأمل وتحريك الأذهان والأنفس في هذا الملكوت.
 - 2- التعظيم وإجلاء بدائع الخالق، وإبراز مواطن الجمال والكمال.
 - 3- نقد العقول المتحجرة الكافرة، والمعطلة للنعم والآيات.
 - 4- التفاعل مع صور ومشاهد الحياة الكونية تأملا وعبادة، وترقيا وكمالا.
- تقوم الحياة الكونية على مبدأ التأمل المنمي للمعرفة الذي يعطي أدوات التوحيد الخالص.

¹ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص256.



المبحث الثاني : الحياة الاجتماعية :

توطئة: في المجتمع: يدخل الكلام عن المجتمع والحياة الاجتماعية، في مقام المقاصد الكبرى والكلية التي تؤسس لنهوض إنساني، نحو قيم مسعفة تزيد المعنى (حقيقة الاستخلاف) جلاء في الأذهان والأنفس، ومن ثم ترقية لطاقة المبادرة والفعل الاجتماعي الذي يعطينا علامة على الحياة التي يربعاها المجتمع، ويسقيها بماء إبداعه الفكري والروحي الذي يصنعه التلاقي بين الناس لوضع لبنات العمارة البشرية، "فالاتماع الذي يتمثل فيه أول عمل يؤديه مجتمع إبان ميلاده يترجم ترجمة صادقة وقوية عن شبكة علاقاته"¹، وهنا يكون الانبثاق الذي يتولد فيه الاتماع الإنساني بالفكرة المنشئة لكل منجز تشترك في صياغته عقول اجتمعت واتفقت على تحديد الوجهة والحس بالاتجاه، وهذه الفكرة المنشئة هي فكرة الوحي، "من جهة مقدار تأثيره في تأسيس المدينة الصالحة"²، وهو قانون دقيق رفيع يعمل في المجموع بطريقة مخصوصة في رفعه وخفضه، يقول الإمام: "والعرب اليوم وإن كانوا قليلا فهم كثيرون بالإسلام، عزيزون بالاتماع"³، فالاتماع خميرة جامعة لأحاد متفرقة، في نظام متكامل، من خلال عنصر الخيرية والاصطفاء، بمعنى أن مقومات كمالها حاضرة، لإقامة حد الصلاح وإبطال عناصر الفساد، يقول الرسول ﷺ: "إن قوما ركبوا البحر في سفينة فاقتسموها، فأصاب كل واحد مكانا، فأخذ رجل منهم الفأس، فنقر مكانه، فقالوا: ما تصنع؟ قال: مكاني أصنع به ما شئت، فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا، وإن تركوه غرق وغرقوا"⁴، فالتأمل والمدقق في الحديث يجده رمزا عالي التمثيل في صوغ الفكرة التي ترفع مجد الأفراد وتذهرهم بعلامات تحرق صرحهم، فالمقاصد التي جمعها الحديث كثيرة من سنة الاتماع إلى علاقات الجوار، إلى قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تجعل المجتمع بإرادة وإدارة واحدة، يقول "مالك بن نبي": أنه "ليس مجرد مجموعة من الأفراد، بل هو تنظيم معين ذو طابع إنساني يتم طبقا لنظام معين (...)"، وهذا النظام في خطوطه العريضة يقوم بناء على ما تقدم على عناصر ثلاثة:

1- حركة يتسم بها المجموع الإنساني.

2- وإنتاج لأسباب هذه الحركة.

¹ - مالك بن نبي : ميلاد مجتمع، ص 31.

² - الطاهر عاشور : النظام الاجتماعي في الإسلام، ص 5.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 196 .

⁴ - البغوي أبو محمد الحسين : شرح السنة، تح شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، 1983، ط2، ج4، ص343.



3- وتحديد لاتجاهها"¹.

إن المحدد للمجتمع هو النظام الجسد لمظهره، فالتنظيم هو خميرته، تجمعهم وتصهره وتقويه فكرة الإنسانية، وهذه هي الأرضية المهيئة لميلاد مجتمع، يقول "مالك بن نبي": "فالمجتمع هو الجماعة الإنسانية التي تتطور ابتداء من نقطة يمكن أن يطلق عليها مصطلح (ميلاد)"²، ميلاد مجتمع ما من خلال فكرة مركز، "والمجتمع نظام متكامل لا يحافظ على هويته، إلا بقدر ما يستسيغ ويهضم من تناقضات وتحديات وأزمات بحثا عن الانسجام في الداخل والقدرة على التحرك الصحي في الخارج"³، فملمح المجتمع العام، يكمن في تجانسه العضوي، يؤدي إلى تكامل في هذا النظام البنائي لأفراد يشتركون هدفا وينجزون مسيرة واحدة، ولكن بمعامل امتصاص نوعي لكل مفرزات الصيرورة. إذن فالمجتمع هو روح متطلعة وطاقة متدفقة ترتفع بالأفراد إلى الذروة، وترعى أحوالهم وترقب تراجعهم عن النظام القيمي والثقافي الذي يقيم ترابطهم، ومن ثم فالمجتمع هو وحدة لمجموع، ومجموع يقيمه فرد، وفق المنطق العملي والأخلاقي والجمالي*، من النقطة الأعلى الإيمان بالله معتقدا إلى أدناها إمطة الأذى عن الطريق*، وهو ما يؤدي إلى بروز نظام اجتماعي يقوم على تراتب وظيفي دال، من شأن هذا أن يصنع مجتمعا متجانسا، ويبني حياة اجتماعية وإنسانية راقية.

أولا : تركيبة المجتمع وعناصره:

1/ الفرد والأسرة :

تعد الأسرة اللبنة الأم المهيئة أولا والمؤسسة ثانيا لفكرة المجتمع، فالفرد لا ينمو ولا يتطور ولا يتكامل إلا في هذه الحاضنة، وفي هذا الحقل الأسري يتلقى تغذيته ورضاعاته الأولى من تلك البرجمات والتذهينات التي تجعل منه كائنا اجتماعيا، فالفرد يولد في الأسرة الولادة الطبيعية، وفي المجتمع الولادة الاجتماعية، فهي الخميرة الأولى لمجتمع الأفراد والإنسانية، يقول الإمام: "ألا لا يعدلن أحدكم عن القرابة يرى بها الخصاصة أن يستدره، بالذي لا يريده إن أمسكه، ولا ينقصه إن أهلكه"⁴، وهنا يجعل الإمام لهذا المجتمع الصغير رأسا وأطرافا، ويقوم مجتمع الأسرة هذا على المودة،

¹ - مالك بن نبي : ميلاد مجتمع، ص 17.

² - المصدر نفسه، ص 16.

³ - مرجح محمد عبد الرحمان : الفكرانية، ص 509.

* ينظر مالك بن نبي في حديثه عن المنطق العملي والأخلاقي والجمالي في كتابه شروط النهضة.

* - جاء في الحديث "الإيمان بضع وسبعون شعبه أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق" ومن هذا الحديث يمكن استخلاص مضمونة مراتب النظام الاجتماعي، ومنها علاقة الإنسان بربه، والتأول هو للدكتور "طه عبد الرحمن".

⁴ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 51.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

وهي قاعدة أولى لمجتمع الإمام، ومودة القرابة هي فلسفة صناعة الأسرة المتماسكة وفكرتها، "فالطفل مثلاً يترتب في ظل ثقافة يتخذ فيها الواقع الاجتماعي أمراً مسلماً به"¹، بتذهين وتنشئة تصهر وتنقف وتصل، حتى تمنح للفرد الكائن الاجتماعي معالمه الاجتماعية يتواصل ويتفاعل ويندمج بها.

2/ الفرد والعشيرة: يأتي التشابك الثاني في بنية الواقع الاجتماعي بين الفرد والعشيرة، لتحقيق تعضيد ثان يشد من قوة الفرد أولاً ويدخله في نظام من الحماية ثانياً ويدفع به إلى فضاء من سنة الاجتماع ثالثاً، يقول الإمام: "أيها الناس إنه لا يستغني الرجل وإن كان ذا مال عن عشيرته، ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم وهو أعظم الناس حيطه من ورائه وألمهم لشعته وأعطفهم عليه عند نازلة إذا نزلت به ولسان الصدق يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال يورثه"². واضح من الكلام أن الفرد منزلته ورتبته تبلغ بعشيرة، وأن الحماية والعطف يحصلها بهذا المقوم، في أسرة وعشيرة تزكو شخصيته، وتقوى كلمته، ويكتسب لسان صدق في الناس، فالقرابة والعشيرة هي المنطلق في التفرع الشجري الاجتماعي، حيث تتحقق بالنواة وهي الأسرة، ثم العائلة المتفرعة [= العشيرة]، وإن من تحققت له هذه الحياة، فقد تحقق له الدخول الآمن إلى المجتمع، يقول الإمام: "ومن يقبض يده عن عشيرته، فإنما تقبض عنهم يد واحدة، وتقبض منهم عنه أيد كثيرة، ومن تلتن حاشيته يستدم من قومه المودة"³. نلاحظ كيف يصور الإمام الخسارة في حياة الفرد عندما يستغني عن عشيرته، لسان صدقه، فهذه القرابة هي المودة، الحياة المعنوية الثانية، منعة ومناعة ذاتية مؤهلة لكل ارتباط وترباط اجتماعي، وبهذا تكون القرابة رأس المجتمع أو نواة صلبة في تشكل قوام المجتمع.

3/ البنية القبلية: لقد عادت القبيلة وطلت برأسها وأبانت عن ذيلها لتصنع مشهد الدم والتناحر ترعى بيضة الفتنة، نمت هذه النزعة في أجواء عفنة تضاربت فيها الأهواء، وقلّ فيها الاهتداء، رغم حمل الإمام الناس على مبدأ الفضيلة والمثل، إلا أنه قد وجد اعتراض هذه الروح، ووجد الرؤوس المسكونة بهم المصلحة والنزعة الذاتية الهدامة أمامه، كما كان التحذير النبوي واضحاً بجملته الحازمة: "دعوها فإنها منتنة" الواصفة لخطرها، وكم كانت معاناة البشرية من هذه الروح العدوانية كبيرة، وكان الثمن خسارة الإنسانية ومعرفة الحقيقة، والأمر يثبت واقع التاريخ، وعليه فإن إرادة الإنسان والإعداد الروحي والفكري له وللمجتمع كفيل بأن يستأصل هذه النزعة.

¹ - ر- سيرل جون: بناء الواقع الاجتماعي من الطبيعة إلى الثقافة، تر. حسنة عبد السميع، المركز القومي للترجمة، ع1757، 2012، ط1، ص36.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 51.

³ - المصدر نفسه، ص 51.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

لقد لاحظ الإمام هذا التحول الاجتماعي الرهيب في عهده باصطفاف القبائل تقاتل بعضها بعضاً وروح الغنيمة والاستحلال تأخذ طريقها من جديد، ولهذا نجده يخاطب الناس محذراً من هذا الخطر المارد الذي استيقظ ووجد في الفتن مجالا خصبا له، فيقول: "ولا تكونوا كجفأة الجاهلية، لا في الدين يتفقهون، ولا عن الله يعقلون، كقيض بيض في أداح، يكون كسرهما وزراً ويخرج حضائها شرّاً"¹، وهذا من قلة العلم وانعدام العقل، والأکید أن غياب العقل والوعي والعلم في الرجل يجعله مهيناً، لأن يضرب في الأرض على غير هدى، وهو الفعل المعادي لروح الاجتماع ولروح الدين، حيث تغيب البصيرة التي تقود الإنسان بعقله إلى إدراك الحق ومعرفة موضعه، يقول الإمام: "صدقه به أبناء الحمية وإخوان العصبية، وفرسان الكبر والجاهلية، حتى انقادت له الجامعة منكم، واستحكمت الطماعية منه فيكم، فنجمت الحال من السر الخفي إلى الأمر الجلي"². يبين الإمام أن الضعف الذي كان عليه الكثير، كان مهادا لبزوغ هذه الروح القبلية لتظهر إلى العلن فبعد أن كانت وسوسة في الصدور وهمساً في القول، ظهرت إلى المجاهرة بالنداء ورفع السلاح"³. لقد كانوا أقرب إلى روح القبيلة التي تحدثت في داخلهم، فكانت عصبية وحمية ممزقة، "وكما أن المثل عرضة للكمال والاتساع كما بينا، كذلك هو عرضة للنقص والضييق"⁴، وهكذا كان تداعي المجتمع العربي الذي غير مثاله، وعرض فكرته الروحية للنقص، فكانت القبيلة ناطقاً، بالتكبر والتعاضم والفساد.

إن معالجة هذا تحتاج من المجتمع أن يدلف إلى صناعة الحياة وبناء هيكله الفكري وتنظيم أحواله، وترك الفرقة والفتنة، "وإن تعزيز السيكولوجية الاجتماعية والتطور المستقر يحتاجان أولاً إلى إيجاد البيئة الثقافية الاجتماعية المستقرة"⁵، وقد دأب الإمام في مسيرة حكمه إلى إعادة هذا البناء، وإلى رفع هممة الأمة وتوحيد كلمتها، ورسم السياسة العملية، لمواجهة الأفكار الغريبة التي دخلت على هذا النسيج الاجتماعي الطري فشوهته وأبدلت حالة أمنه صراعاً مفتوحاً، "ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها"⁶، وإن القبيلة التي تعني انتماءً واضحاً فأبنائها هم "بنو أب واحد"⁷،

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 229.

² - المصدر نفسه، ص 270، 271.

³ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 270، 271.

⁴ - أمين أحمد : كتاب الأخلاق، دار العالم العربي، القاهرة، 2012، ط01، ص 85.

⁵ - ووتن : الصينيون المعاصرون نحو المستقبل انطلاقاً من الماضي، ج2، تر عبد العزيز حمدي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، ع 211، 1996، ص 47.

⁶ - ابن نبي مالك: شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، 2015، ط6، ص 21.

⁷ - ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ص 761.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

تختلف أهداف اجتماعهم عن فكرة الحياة الاجتماعية، حيث تقوم على العصبية والحماسة والحمية، وضآلة الأهداف، في مقابل المجتمع وأهدافه، ومحاولة بناء اتجاهه الصحيح، نبرزه بهذه المقارنة:

(من) ... القبيلة	(إلى) ... المجتمع
- من نزعة الاستحكام المتأصلة.	- إلى مجتمع الفكرة والتنظيم.
- من العصبية.	- إلى روح الجماعة والخيرية.
- من الفرد والذاتية.	- إلى النزوع الجمعي والموضوعية والواقعية.
- من غلبة الأهواء.	- إلى حكم العقل والرشد.
- من حكم الفرد (شيخ القبيلة)، ومصالحه الضيقة.	- إلى حكم المؤسسات القانونية والمصلحة العامة.
- من الحمية والحماسة.	- إلى المبدأ القائم على سنة التدافع والتغيير.
- من الشطط.	- إلى التوازن.
- من انغلاق فضاء الرؤية، أفق القبيلة [=المحدودية الكونية].	- إلى أفق الإنسانية والكونية.

حاول الإمام إحداث نقلة جديدة في المجتمع العربي، وهو بهذا يحاول أن يستكمل عمل النبوة الأول في هذا السياق، وكما يقول ابن خلدون: "ومن أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه فقد امتدت يده إلى أخذه إلا أن يصده وازع"¹، فبين امتداد العين وامتداد اليد وقبل هذا القلب، دون وازع يصد نرى الفارق القائم بين سلوك الفرد في القبيلة، وسلوك الفرد في المجتمع الذي يضبطه الحق، ويحكمه القانون والعدل، يقول "مالك بن نبي" عن دور الفرد في المجتمع الحديث أن تأثيره فيه، يتم بمؤثرات ثلاث :

أولاً : بفكره، ثانياً : بعمله، ثالثاً : بماله.

وحاصل البحث أن قضية الفرد منوطة بتوجيهه في نواح ثلاث:

- أولاً: توجيه الثقافة.

- ثانياً: توجيه العمل.

- ثالثاً: توجيه رأس المال².

وإن كل هذا التنظيم المحكم لحركة الفرد في المجتمع هو ما يجعل سيره يكون معتدلاً نامياً، وهذا بالانتقال من نزعة القابلية للعصيان والعصبية والحمية إلى قابلية السير السنني المنهجي وفقه قانونه، وهذا ما يحدده الروح الاجتماعي والامثال للفكرة.

4/ المجموع؛ [= البنية الاجتماعية]: إن أي مجموع إنساني لا يستقيم في أي رؤية، إلا إذا تماثلت مكوناته، وتجانست عناصره، وتلاقت أهدافه وغاياته، فالبحث في الفاعلية الاجتماعية، في

¹ - ابن خلدون عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الجيل، بيروت، ص 140.

² - مالك بن نبي : المصدر السابق، ص 83.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

حركة المجموع، يكمن في معرفة الجامع المنظم له، "لأن المجتمع نسق من العلاقات المتداخلة التي يرتبط بها الأفراد بعضهم ببعض"¹. ويكشف لنا النبي ﷺ في حديث القصعة عن مخاطر تفتت هذا النسيج، حيث يقول: "يوشك أن تداعى الأمم عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال لا.. بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن، قيل وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت"²، وهو ما يعرف بمرض الغثائية فهذه الكثرة تعني انعدام القيمة، وانعدام الفعالية في هذا المجموع الذي لا تقوده الفكرة بل تقوده المصالح، وإن معادلة الفرد الحي الفاعل بالمجموع والمرتبط بهم، هو ما يمنح قوة انطلاق المجتمع.

ما هي صورة الحياة الاجتماعية كما يقدمها الإمام لمجموع الناس؟ وما معنى هذه الحياة؟ يتشكل المجتمع، والمجموع الإنساني بكل أفرادها بعامل الفكرة والنظام، يقول الإمام: "أيها الناس من سلك الطريق الواضح ورد الماء ومن خالف وقع في التيه"³، فهذه هي القاعدة في النظام الاجتماعي، وكذا الاهتداء إلى الطرق المنجية التي ينبغي أن يسعى إليها الأفراد عندما تجمعهم الفكرة والمصلحة المشتركة والغايات، فصورة هذه الحياة هي الصورة التي دعا إليها الإسلام، أي حياة الإيمان، ومن ثم فإن فكرة الوحي هي الطريق المفضي إلى تحقيق هذه الحياة، محددة في الاستقامة، يجليها بقوله: "وقد قلت ربنا الله فاستقيموا على كتابه على منهج أمره وعلى الطريقة الصالحة من عبادته، ثم لا تترقوا منها ولا تبتدعوا فيها ولا تخالفوا عنها، فإن أهل المروق منقطع بهم عند الله يوم القيامة، ثم إياكم وتزيغ الأخلاق وتصريفها واجعلوا اللسان واحدا"⁴، فأول ما يحقق هذا البعد الاجتماعي هو الاستقامة، على الكتاب والمنهاج والطريقة الصالحة، وبذلك تكون هذه الحياة الاجتماعية منضبطة بسنن الهداية التي تجعل الفعل الاجتماعي منتظما متوافقا في كليته، "وهذا يستلزم توفر ثلاثة عناصر بالتحديد: أن نسند وظيفة، وأن نقصد نحو الوجود فنفهمه ونعبر عنه بشكل جماعي، وأن توجد القواعد التي تصنع الأسس وتوفر المقومات"⁵، وهي عناصر ومقومات بناء المجتمع وميلاده، ثم إن الوظيفة المسندة للإنسان والمجتمع لا تقوم إلا على قاعدة الاستقامة المنبعثة من التوحيد، ويرتبط السعي بمحاذيره الضرورية من المروق والابتداع والمخالفة، وتزيغ

¹ - غدترت أنتوني : علم الاجتماع (مع مدخلات عربية) تر فايز الصباغ، المنظمة العربية للترجمة مؤسسة ترجمان، بيروت، 2005، ط1، ص 79.

² - السجستاني سليمان بن الأشعث: سنن أبي داود، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ج4، ص 111.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 298.

⁴ - المصدر نفسه، ص 240.

⁵ - جون، ر- سيرل : بناء الواقع الاجتماعي، ص45.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

الأخلاق وتصريفها، لأنها مفسدة كبرى لحياة المجتمع، والتطابق في وحدة اللسان ينجم عنه الصدق والإخلاص، ومجانبة الكذب والنفاق، ومختلف الأمراض الممزقة للنسيج الاجتماعي والمهدمة للحياة. ثم ينادي في الناس محللا الطبائع والنفوس، فيقول: "أيها الناس إنما يجمع الناس الرضاء والسخط، وإنما عقر ناقه ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا. فقال سبحانه: "فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ". فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة"¹، فالانحراف عن المبادئ والعصيان الذي يختمر بعض الرؤوس، ويجعل من الاجتماع الإنساني مهددا دائما، بأفكار مدمرة، "فعاقر ناقه صالح إنما كان إنسانا واحدا، فعم الله ثمود بالسخط لما كانوا راضين بذلك الفعل كلهم"²، فلا مجال للعريضة الفكرية والسلوكية في حياة الناس، حتى يسلم الجميع أولا، وتستمر الحياة وثابة نامية ثانيا، ولذا ينبغي أن يمنع الفساد والظلم، لأنه مهدد بزوال العمران³، وهذا من المقاصد المطلوبة، وضرورة تاريخية واجتماعية، ولذا فإن الامتثال للأمر الإلهي من المجتمع يظهر أثره في الحياة، كما يعبر عن منحى اجتماعي يتخذه الأفراد، أما التراخي في مقاومة الفساد لا يكون إلا علامة على نهاية حتمية، تلخص اجتماع سنن مهلكة، ومن هنا يتأكد بالسنن والآيات الدالة أن المجموع الإنساني الذي يتحلق مع بعضه في هذه الحياة ملزم بأن يتعاون على فعل الخيرات وألا تتباين أهدافه، وأن يكون ملمحه الفكري العام اتخاذ الرشده سبيلا، لذا يدعو الإمام إلى الأخذ بهذه المفازة، قائلا: "فالله الله أيها الناس فيما استحفظكم من كتابه واستودعكم من حقوقه فإن الله سبحانه لم يخلقكم عبثا، ولم يترككم سدى، ولم يدعكم في جهالة ولا عمى"⁴، فمعلم الاجتماع والحياة النابضة، هو القرآن، ومن جهة ثانية تتحدد الغاية من خلق الناس، فوجودهم الاجتماعي يخرجهم من دائرة العبثية، ومن ثم كانت مهمة الوحي والكتب والرسول ضبط القواعد التي تبني الحياة الاجتماعية على هذا الأساس، فلا قيمة لهيكل اجتماعي قائم على العدد والكثرة، "لأنه لا غناء في كثرة عددكم. مع قلة اجتماع قلوبكم. لقد حملتكم على الطريق الواضح التي لا يهلك عليها إلا هالك، من استقام فإلى الجنة، ومن زل فإلى النار"⁵، وبذلك يكون النفع موجودا مع اجتماع القلوب على كلمة واحدة، ووجهة واحدة، وعليه فكل من خرج

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 298.

² - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج5، ج10، ص 153.

³ - ينظر مقدمة ابن خلدون، ص 316.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 114.

⁵ - المصدر نفسه، ص 173، 174.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

عن هذا الاجتماع، فقد "حتم هلاكه لتمكن الفساد من طبعه وجبلته"¹. إن المجتمع الفاضل النامي هو المجتمع المستقيم على مبادئ واضحة، ومعالم نجاة قويمه، لأن "الهدف من الدين بعقيدته وشريعته هو إصلاح الحياة وتنظيمها، والسير بها إلى الأفضل والأكمل"²، وكمال الحياة يكمن في اكتمال عناصرها فكرة وتنظيمها وسيرا نحو الأفضل، لذا كان البلاغ الإلهي واضحا للرسول ﷺ: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾³، فمادة التأليف هي المعنى، أي الجمع بالمؤاخاة المؤسسة على المستوى العاطفي الوجداني، ومن ثم الذهني الفكري، وكذا الأخلاقي الاجتماعي والإيماني الروحي، حيث تتجلى منعطفة في البعد الاجتماعي. إن الحياة الاجتماعية تتحدد بقوام يتخلله أربعة من أصناف الناس متحركة فاعلة فيها، يقول الإمام: "يا جابر قوام الدنيا بأربعة عالم مستعمل علمه وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وجواد لا يبخل بمعرفه وفقير لا يبيع آخرته بدنياه"⁴. يلخص كلام الإمام الأدوار الوظيفية التي يؤديها كل من العالم والغني، وبفعلهما يستحثان الجاهل ليدخل في دائرة العلم، والفقير ليتأفف ويترفع عن بيع دينه بدنيا فانية، وهذا تحريك لطيف يعبر عن نمو اجتماعي وحياة مفعمة، عندما تشترك هذه الأصناف في رسم صورة حياة مجتمع متعاقد، ويشخص الإمام مخاطر عدم تحقق التضافر بين هذه العناصر [=الأصناف]، فيذكر صورة ضدية للأولى، قائلا: "فإذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بمعرفه باع الفقير الآخرة بدنياه"⁵، وبالتأويل نستخلص القاعدة الآتية:

- إذا ضيع العالم علمه = استنكف الجاهل أن يتعلم ← ضياع وبطلان مقصد الاستخلاف والعمارة.
- وإذا بخل الغني بمعرفه = باع الفقير الآخرة بدنياه ← ضياع وبطلان مقصد التوجيه والعبودية.

وعليه فإن استنكاف الجاهل، "لاستواء العلم والجهل في نظره"⁶، وبيع الفقير آخرته بدنياه، "لأنه يضطر للخيانة أو الكذب حتى ينال بها من الغنى شيئا"⁷، يعد مهلكة وانكماشاً عن أداء دوره الاجتماعي، وبهذا فالمجتمع إنما هو قوام بعناصره، لأن العلم روح الحياة، والمال عصبها، وعامل

¹ - محمد عبده : المصدر السابق، ص 174.

² - مغنية محمد جواد : في ظلال نهج البلاغة محاولة لفهم جديد، دار العلم للملايين، بيروت، 1979، ط3، ص 7.

³ - سورة الأنفال، الآية 63.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 490.

⁵ - المصدر نفسه، ص 490.

⁶ - محمد عبده، المصدر السابق، ص 490.

⁷ - المصدر نفسه، ص 490.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

بناءه، والصورة الدالة على التماسك الاجتماعي، وآيته أن لا يستنكف الجاهل على أن يتعلم وأن لا يبيع الفقير آخرته بديناه، وآية الآية، أن لا يضع العالم علمه، وأن لا يبخل الغني بمعرفه.

ويقدم الإمام بعد هذا صورة أخرى للنماء الاجتماعي مؤكدا على وظيفة ودور صاحب النعم، فيقول: "يا جابر من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه فمن قام لله فيما يجب عرضها للدوام والبقاء، ومن لم يقم فيها بما يجب عرضها للزوال والفناء"¹. إذن فكثرة النعم لدى فرد ما تجعل منه قطبا اجتماعيا له وظيفة اجتماعية، وكأن ضريبة هذه النعم اجتماعية بالأداء والقيام، وهو ما يمثل واجبا اجتماعيا وحياتيا، ومن توجيهات الإمام التي دعا إلى الأخذ بها تحقيقا للتماسك الاجتماعي ومنعا للفساد، وهيئة كل فرد منه إلى فعل الخيرات والصلحات، قوله: "فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، إلا بالحق ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب. بادروا أمر العامة، وخاصة أحدكم وهو الموت، فإن الناس أمامكم، وإن الساعة تحذوكم من خلفكم. تتخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر بأولكم آخركم. اتقوا الله في عباده وبلادته فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم وأطيعوا الله ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فأعرضوا عنه"²، فحرمة المسلم التي ركز عليها الإمام هي حقوق وعهود تحفظ الفرد في هذا المجموع الذي يعيش فيه، ولذا يتطلب الأمر المبادرة في أمر العامة قبل الأمر الخاص، وهذا يعني الحث على القيام بالواجب الاجتماعي وإصلاح هذا الشأن، ويصل هذا العهد إلى المسؤولية الشاملة بما فيها حتى البقاع والبهائم، يقول محمد عبده: "إذا انقضى عملكم في شؤون العامة، فبادروا الموت بالعمل الصالح كيلا يأخذكم على غفلة فلا تكونوا منه على أهبة"³، وهكذا نلاحظ كيف توضع قاعدة إصلاح الشأن العام والعمل الصالح موضع تقديس وأهمية، وعليه فالمسؤولية الاجتماعية هي الوعي بأمر العامة والبقاع والبهائم والأمر الخاص وتذكر النهاية، وبذلك تكون البنية الاجتماعية مبناهما المجموع المتضام ثقافيا وروحيا.

ثانيا: طبقات المجتمع: لقد اهتدى الإمام بعلمه وحكمته إلى النظر بعمق في المكونات الاجتماعية التي تتأسس عليها الحياة الإنسانية من خلال تعدد الوظائف وتنوعها، وقاعدة الواجبات التي تدفع كل أهل اختصاص إلى ضرورة تأدية وتوفية الشرط القائم في حقها وعنقها، استمرارا للحياة وتنمية للفعل الاجتماعي، حيث نراه يؤكد هذه الحقيقة ويبين ضرورتها قائلا: "والرعية

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 490.

² - المصدر نفسه، ص 230، 231.

³ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 230.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى لبعضها على بعض"¹، فإذا كانت الحتميات كلها تقر بحقيقة هذا التنوع الذي تفرضه الحاجة الإنسانية، فإن فكرة الصلاح هي الجامعة لكل ما يقيم الحياة الاجتماعية على هذه الأرض، "ولولا ذلك لما قامت الدنيا"²، ومن ثم فقوامها يكون بتضافر كل أبنائها كل في مكانه، وقد حدد الإمام أصنافا سبعة يشكلون طبقات المجتمع، وهذا التخصيص النوعي لأفراد المجتمع هو الذي يحدد استقامة الحياة الاجتماعية، ويحقق نموها وتكاملها، وهذا الترتيب في دنيا الحياة، هو تراتب وظيفي، بعيدا عن التسلط، يجمعه قوام الحرية والعدل والمساواة، وأداء الواجبات، وهنا تتضح الأدوار وتتوزع بدقة متناهية لا يبقى معها مجال لفرغ اجتماعي يؤدي إلى خلخلة تهم جسمه بحركة طائشة وعته عقلي، وهي تقوم على معايير تصنيفية.

1/ معيار التصنيف: وضع الإمام تقسيمه استنادا إلى الأدوار والمتطلبات التي تنهض بالمجتمع من دون أن يغفل عن ذكر معايير التوازن الاجتماعي، انطلاقا من مرجعية الإسلام، ولذا فتصنيفه علميا اعتمد فيه على معايير اجتماعية ووظيفة دقيقة، ونبين هذه المعايير في الجدول الآتي :

المعيار	المقولة	التأويل
التراتب	- "الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض" ³ .	تحدد الفئات السبعة تركيبة المجتمع، وهي ليست نهائية، فغايتها ووظيفتها تحريك وبناء الحياة الاجتماعية.
التقوى	- يقول: "فمن أخذ بالتقوى عزبت عنه الشدائد بعد دنوها" ⁴ .	تدفع التقوى كل العناصر المفسدة للكيان الاجتماعي، فهي ضرب للتراتب الظالم، وهذا ما يعطي للمجتمع توازنه.
العدل	" أتأمرني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟ والله ما أطور به ما سمر سمير، وما أم نجم في السماء نجما، لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله. ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف" ⁵	يرفض الإمام أن تقوى منعه بالرجال المصطنعين، لأنه يأبى أن تكون الحياة في تصوره من غير مثل، فالمثل هو مبدأ الصلاح الاجتماعي، والترقي الكمالي.
مبدأ المسؤولية	"إنه ليس على الإمام إلا ما حمل من أمر ربه، الإبلاغ في الموعدة والاجتهاد في النصيحة، والإحياء للسنة وإقامة الحدود على مستحقيها، وإصدار <u>السهمان</u> على أهلها" ⁶ .	لا يمكن لأي فلسفة اجتماعية تستهدف تنمية متوازنة، وتطوير الحياة، إلا إذا كانت على قدر من المسؤولية الواعية، لترى العقول الحق جليا، وتدرك وجوب تطبيقه بعدل.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 396.

² - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 9، ج 17، ص 28.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 396.

⁴ - المصدر نفسه، ص 293.

⁵ - المصدر نفسه، ص 180.

⁶ - المصدر نفسه، ص 152.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

2/ الطبقات الاجتماعية: وقد أوردها الإمام في عهده إلى مالك الأشتر، نبرزها في هذا الجدول:

الطبقة	المقولة	التأويل
الجنود والعسكريين	"فالجنود بإذن الله حصون الرعية، وزين الولاء، وعز الدين، وسبل الأمن، وليس تقوم الرعية إلا بهم"، ص397، "قول جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك، وأتقاهم جييا، وأفضلهم حلما، ممن يبطئ عند الغضب، ويستريح إلى العذر ويرأف بالضعفاء، وينبو على الأقوياء، وممن لا يثير العنف ولا يقعد به الضعف"، ص 397، 398.	إن الشخصية العسكرية، ذات المؤهلات والكفاءة والخبرة والمعرفة والدراية، والهمة والخلق الرفيع، تجمعها مؤهلات الهيبة والمنعة، والبعد الروحي النامي، حتى لا تتقوى وتتركز فيها عناصر الزهو والعدوان، لأنها تسهم في حفظ الحياة على أساس من العدل وإقامة الأمن والسلام والكرامة.
القضاة	"ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيته في نفسك: ممن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلة، ولا يحصر من الفياء إلى الحق إذا عرفه، ولا تشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أفصاه، وأوقفهم في الشبهات، وأخذهم بالحجج، وأقلهم تيرما بمراجعة الخصوم، وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرمهم عند اتصاح الحكم، ممن لا يزدنيه إطراء، ولا يستميله إغراء"، ص 399، 400.	إن القضاة هم سلطة تضع الموازين بالقسط، وتظهر القاضي صلبا في الحق مقتدرا في تنفيذه، فكلما توافر القاضي على عناصر التمييز التي تصنع السلطة، كلما كان دوره الاجتماعي مؤسسا على بصيرة، وقوة نفوذ، ويكون هذا بالرعاية المادية للقاضي، بالحفاظ على عزته ومنعته، ومع السلطة القضائية الحرة، يندفع الأفراد إلى أجواء الخيرية، وبناء الأمة الحية، والمجتمع الفاضل، مجتمع العدل.
الولاة	".. وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة، والقدم في الإسلام المتقدمة، فإنهم أكرم أخلاقا، وأصح أعراضا، وأقل في المطامع إسرافا، وأبلغ في عواقب الأمور نظرا"، ص 400.	إن الولاة هم من يقوم بتنفيذ السياسة التي يرسمها الحاكم، وإنما يتم اختيار الوالي بوجود شرط ملكة الحق فيه يضبطه عند كل حد، ففي كرم الأخلاق والعفة وبعد النظر، ما يحقق المسؤولية الاجتماعية، وفي التفاضل يتحقق وجه العدل والحق.
الكتابر	"ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك، وحسن الظن منك، فإن الرجال يتعرفون لفراست الولاة بتصنعهم، وحسن خدمتهم وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء، ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك: فاعمد لأحسنهم كان في العامة أثرا، وأعرفهم بالأمانة وجهها، فإن ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره"، ص 402.	ينبغي أن يكون أفراد هذه الطبقة مبدعي أفكار تنمو بها الحياة، ويوقف بها الفساد، وصيانة الحكم من كل المشوشات وعناصر الهدم، تمهيدا لخلق تضام بين المجتمع كاملا، وعندما تضر الأهواء والميول في المجتمع يفتح أفق الحياة وتوضع معالم الرشد في طريق الناس.
الزناة	"وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استحلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلا"، ص 401.	تأتي ضرورة هذه الفئة لما تنهض به من أعباء، ويربط الإمام أمر الخراج بقضية العمارة مهتديا إلى فهم سني في إقامة مجتمع متجانس، ضمانا لكرامتها لتندفع إلى البذل والاجتهاد، فهي عامل بناء وتمام وصلاح.
التجار والصناع	"استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيرا، المقيم منهم، والمضطرب بماله، والمترفق ببدنه، فإنهم مواد المنافع، وأسباب المرافق، وجلابها من المباعد والمطارح"، ص 403.	إن التجارة والصناعة تتوائم في الأداء والوظيفة، ومن ثم في الأهمية، والعناية بهما معناه العناية بالمجتمع، وتهيئة عناصر الحياة الاجتماعية، فهم مواد المنافع، وأسباب المرافق.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

<p>ينبغي أن ترتفع هذه الطبقة في سلم الكرامة الاجتماعية، والمنزلة الإنسانية، لتشعر بأنها عضواً مكملاً لنسيج المجتمع، والاهتمام بما معناه تفكيك ما في داخل المجتمع من أحقاد وأمراض قاتلة، فلها حق/واجب، تربية أبنائها في إطار من التوازن والصلاح والنفعة.</p>	<p>1- الطبقة السفلى "ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين، وأهل البؤسى والزمنى، فإن في هذه الطبقة قانعا ومعتزاً"، ص 404. "فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم"، ص 404.</p>
---	---

إن القوام الجامع بين كل هذه الطبقات، إنما يتمثل في الحرية والعدل والمساواة وأداء الواجبات، يقول أحمد أمين: "فلا يكون المجتمع عادلاً، حتى تتوافق لكل طائفة من الناس وسائل رقيهم"¹، وأعظمهم منزلة من يسعى في خدمة الآخرين وإصلاح الشأن الاجتماعي العام.

ثالثاً: بنية المجتمع وعلاقاته: إن التشكيل الاجتماعي يعد بنية عضوية نرى تجلياتها في تلك العلاقات القائمة بين أفراد المجتمع الذي "تكونه وظيفة، ويؤدي وظيفة، والأفراد فيه ينسجمون مع وظيفة المجتمع"²، فالبنية هي تفاعل يظهر في مستوى السلوك، وفي العلاقات التي نصنعها ونرغب في إقامتها، وهي عبارة عن متانة في الفكر والوجدان، واللحمة التي تكون حصن البناء الاجتماعي.

1- دور الأفضال والأقطاب في المجتمع: جاء في المقاييس: "الفاء والذال كلمة واحدة تدل على إنفراد وتفرق من ذلك: الفذ وهو الفرد والفذ: الأول من سهام القداح"³، وأفضال الناس بتمييزهم، هم أول السهام في عملية التغيير والبناء الاجتماعي وتشكيل بنية المجتمع وصناعة الحياة، فتاريخ الإنسانية كان بفضل أفكارهم المبدعة فهذا إبراهيم عليه السلام يصفه ربه بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾⁴، وفي شأن طالوت، قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾⁵. ارتكز الرافضون لقيادة طالوت على أساس عدم امتلاكه لسلطة المال وسعته، بينما أكدت الآية على اصطفاء يستند إلى قيمة روحية مؤسسة على قيم إلهية مطلقة، من سلطة العلم، وقوة الجسم وبسطته، وهو شرط الصحة وعناصر صناعة القيادة، بمعنى المؤهلات الكفائية القيادية، وعليه فإن الحياة الاجتماعية تتطلب مقدرة وكفاءة، وكما يتحرك المجتمع بشكل بنائي نمائي ليتغير نحو الأفضل يحتاج إلى ما يسميه الدكتور: "خالص جلبي" إلى فكرة المثلث الاجتماعي، وهو "يضم (أشخاص + مؤسسات + وعي فكري مطابق) فهذا هو مثلث النهوض،

¹ - أحمد أمين : كتاب الأخلاق، ص 215.

² - ابن نبي مالك : مجالس دمشق، دار الفكر، دمشق، 2006، ط2، ص 108.

³ - ابن فارس : مقاييس اللغة، ص 715.

⁴ - سورة النحل، الآية 120.

⁵ - سورة البقرة، الآية 247.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

بأي مساحة اجتماعية من خلال تشكيل الكتلة الحرجة والشبكة الاجتماعية المتوترة¹، ويدفع هذا المثلث إلى صناعة كتلة حرجة وشبكة مؤثرة تحفز على بناء اجتماعي، والانطلاق في الحياة وعملية البناء والتغيير الاجتماعي، ويحتاج هذا إلى موجه لمعرفة البوصلة، حتى يدرك المجتمع حسه بالإتجاه، يقول الإمام: "وإني لعالم بما يصلحكم ويقىم أودكم"²، فمعرفة القائد للمرض الاجتماعي الحاصل بعد تشخيصه معرفة دقيقة، ناتجة عن التأمل في أحوال الناس، باعتباره علمًا قائمًا على مجموع، فهو الذي يوجه البوصلة الاجتماعية، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾³، فهنا قيادة في مملكة النمل هذا المجتمع الصغير العجيب البالغ الدقة والنظام، فوحدة القيادة وقوة الإحساس والإدراك هو الذي وهبها هذا التطلع والاستشراق، ويستخلص الإمام "ابن باديس" رحمه الله صفات القائد انطلاقًا من الآية، حيث يقول: "فلا يصلح لقيادة الأمة وزعامتها إلا من كان عنده من بعد النظر، وصدق الحدس، وصائب الفراسة، وقوة الإدراك للأمور قبل وقوعها، وما يمتاز به عن غيره، ويكون سريع الإنذار بما يحس وما يتوقع"⁴، فهذه الصفات هي كفاءة القيادة، والعناصر التي تجعل ذلك الفذ مصباح استنارة وسبيل نهوض، ويثبت هذا المبدأ الذي اختاره الإمام بكلام آخر: "إنه ليس على الإمام إلا ما حمل من أمر ربه، الإبلاغ في الموعدة والاجتهاد في النصيحة، والإحياء للسنة وإقامة الحدود على مستحقيها وإصدار السهمان على أهلها"⁵، بحيث يبرز أن الإمام أمام مسؤولية واجبة، وأداء أمانة إلهية، أجمالها في خمسة قضايا متعينات، ولا يقدر على هذا إلا من كان نورا على الطريق، يقول الإمام: "أيها الناس! استصحبوا من شعلة مصباح واعظ متعظ، وامتاحوا من صفو عين قد روقت من الكدر"⁶، فالقائد مصباح المجتمع يرى به النور، وهو عين صافية من الكدر، "وهي عين علومه"⁷، وبهذا يضع أرضية التهيئة لحصول القبول والمنفعة، وعليه يصبح الصفاء والطهر ضرورة واجبة التحقق في الذات القيادية، ويوضح الإمام هذا من زاوية أخرى: "إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه وأعلمهم بأمر الله فيه (...)"، ولا يحمل هذا العلم إلا أهل البصر والعلم بمواقع الحق"⁸،

1- خالص جلي: سيكلوجية العنف وإستراتيجية الحل السلمي، ص 115.

2- علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 91.

3- سورة النمل، الآية 18.

4- ابن باديس: تفسير ابن باديس، ص 263.

5- علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 152.

6- المصدر نفسه، ص 151.

7- محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 151.

8- علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 235.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

فصفات القائد هي القوة والعلم وأن يكون من أهل البصر والصبر والعلم بمواقع الحق، ونجده في موضع آخر ينفي عن الإمام أن يتصف بصفات يراها لا توجب تقدمه لإمامة الناس، حيث يقول : "وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين، البخيل، فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلمهم بجهله، ولا الجاني فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول، فيتخذ قوما دون قوم، ولا المرتشي في الحكم، فيذهب بالحقوق، ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة، فيهلك الأمة"¹، فهذا الانتفاء الذي قطع به الإمام الطريق أمام أغلب الكل، إنما كان لمنح إطار الإمامة والقيادة لقضايا المجتمع بعدا خاصا منزها، لهذه الوظيفة الحيوية في حياة المجتمع، ليتحرك بشكل فعال، فالإمام مسؤول عن قضايا خطيرة تعد مقاصد كلية لقيام الحياة، ففي كل صفة يذكرها الإمام يقدم تعليله الدقيق المحكم لها، لأنها مانعة لكمال الشخص محققة لنقصه، وبهذا يمكن أن تصرف أفكار القبيلة من الفضاء الاجتماعي، وتحقيق النقلة الاجتماعية.

وعليه فإن صفات الإنسان الذي يتولى المهام القيادية تكمن في تصفية نفسه من كل الأمراض وتزكيته ببدائل مغايرة، يضاف إلى هذا نخبة متميزة مثقفة مختارة تبني الحياة الاجتماعية، قال تعالى : ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾²، فهذا مجموع ضروري يتحرك به هذا النبي بين الناس مبلغا رسالة الله إليه، وهذا ما حدا بالإمام إلى إطلاق صرخته بحثا عن شريحة المميزين والمثقفين والعاملين في قطاع الحياة، قائلا: "قد أنجابت السرائر لأهل البصائر ووضحت مجنحة الحق لخابطها، وأسفرت الساعة عن وجهها وظهرت العلامة لموتسمها مالي أركم أشباحا بلا أرواح، وأرواحا بلا أشباح ونسكا بلا صلاح وتجارا بلا أرباح، وأيقاظا نوما وشهودا غيبا وناظرة عمياء، وسامعة صماء، وناطقة بكماء، راية ضلالة قد قامت على قطبها وتفرقت بشعبها تكيلكم بصاعها وتخبطكم بباعها"³، وحتى تسير بشكل ضروري متلازم مع مقتضيات الحياة الاجتماعية، والروح المثوبة للقائد يحتاج إلى نسبة معينة كافية من المثقفين لتغطية المطالب وشغل الأماكن والحيز الطبيعي الاجتماعي الضروري لتكون هذه النسبة ملائمة لاستمرار تقدم الأمة، فقد بدا الإمام في حالة من السبق بفكره وبصيرته بأفكار متقدمة أمام حركة المجتمع الثقيلة المتباطئة ليمنحها الطاقة والديناميكية. إن القائد لا يشيخ، فهو مصنع الأفكار والإبداع والعبقرية، وتكمن وظائف الرجال الأفاضل

في المجتمع في:

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 185.

² - سورة الأعراف، الآية 155.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 155، 156.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

- أ- منح المجتمع حركته وحيويته ومرونته، وتقديمه لمختلف الحلول الاجتماعية.
- ب- يعد منشأ الأفكار العظيمة العبقريّة المؤسسة للحضارة والإقلاع التاريخي.
- ج- القدرة على القيادة السليمة الحكيمة للناس.
- د- يعد الفذ معيار تطوير الذوات الاجتماعية على مثاله و قانونه.

لقد كان الإمام في قيادته للمجتمع مثالا حيا للشخصية القيادية ذات التكوين المركب من كل الأبعاد، كما أنه سعى إلى رفع المجتمع المسلم في هذه المرحلة الحرجة المتوترة إلى عالم المثال، وهذا يعد في حد ذاته حافزا لاستلهاام الكثير من هذا النبع الصافي ومحاوله هذا العظيم دفعهم إلى هذه الريادة الاجتماعية، لذا نراه يذكرهم بهذا الدور عقب الكلام السابق، حيث يقول: "وتستخلص المؤمن من بينكم استخلاص الحبة البطينة من بين هزيل الحب"¹، اختبار ابتلاء يحقق فرزا نوعيا، حتى لا يقع الناس فريسة لدواعي الفتن، لذا يذكر بأهمية إتباع القائد والاستبصار بفكره: "وليصدق رائد أهله"²، ولكن عندما ينعكس الأمر إلى غير هذا يكون الناس كالإبل السائمة، فهذا أمر فيه زلزلة اجتماعية نوضحه بما ذكره "نوف البكالي" بعد مقتل الإمام عليه السلام وكانوا في حشد كبير من العسكر قال: "وتراجعت العساكر فكنا كأغنام فقدت راعيها تحتطفها الذئاب من كل مكان"³، فهذا أحسن توصيف لمجتمع يتمزق بفقد هدايته إلى الطريق، وحركته المتوافقة في كامل شرطها، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "إنما الناس كالإبل المائة، لا تكاد تجد فيها راحلة"⁴، وهو حديث كاشف لهذه الطبيعة الإنسانية ولأحوال الناس في المجتمع، ويعني: "أن القليل من الناس من يتمتع بالصفات القيادية والإيجابية، واستكمل المحاسن ممن يصلح لنفع وقيادة الناس"⁵، والحقيقة أن التفرد يعد ضرورة وأن تميز المجتمع في شبه من إلف ويقظة، يعدان عاملان رئيسان في عملية التغيير، وأن يكون مطوعا يقبل ويسمع، وهو ما يمثل علامات مجتمع حي، آتية من مضخة أفكاره ومن منشئها.

2- البنية الثقافية، المجتمع والكتاب :

تتأسس البنية الثقافية على قاعدة واضحة المصدر والمعلم، فمن القرآن يكون النبع الثقافي والأخلاقي الضابط لمسلك المجتمع، وكذلك لانطلاقه نحو العمارة، فعندما تتم برمجة ذكية وتذهين العقل المسلم بهندسة فكرية آخذة من الكتاب العزيز النظام الثقافي لها، فإن ذلك سينعكس على

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 156.

² - المصدر نفسه، ص 156.

³ - المصدر نفسه، ص 251.

⁴ - ابن حنبل أحمد: مسند الإمام أحمد، تح شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، ج 10، 2001، ط 1، ص 224.

⁵ - المرسوسي عبد الستار كريم : ضبط البوصلة، نحو علاقات بناءة لنهضة الأمة، دار المعراج، دمشق (ومداد العراق الرمادي)، 2011، ط 1، ص 48.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

حياة الأفراد داخل المجتمع، حفاظا على كيانهم و فطرتهم من كل زيغ ، وبالعنصر الثقافي يتحقق مجتمع الصلاح والعدل، يؤكد الإمام على هذا الارتباط في كتابه إلى معاوية، فيقول: "أجبنا، ولكننا أجبنا القرآن في حكمه"¹، والأکید أن هذا الاحتكام للقرآن هو ضبط لحركة المجتمع وسيره، وإرادة حرة وخيرة في صناعة الحياة، بينما "يندم من أمكن الشيطان من قيادته فلم يجاذبه"²، فالأفكار المتناقلة في الوسط الاجتماعي وبعدها الخطرة حاضرة بغتها وسمينها يوضحه الإمام بقوله: "إن في أيدي الناس حقا وباطلا، وصدقا وكذبا"³، في حديثه عن رواية الحديث، فالجهاز الذي ينبغي أن تخضع له هذه الأفكار دائما هو الكتاب، كي تسلم سنة النبي ﷺ من كل تحريف، ومن ثم مراقبة العناصر الناقلة لهذا الفضاء الثقافي ونوعية النواقل الاجتماعية، بتقسيم الناس إلى مركبات تكوينية ثقافية وفكرية لفرز أهل الحق من أهل الباطل، ويلاحظ قارئ النهج ذلك الاهتمام بتحليل هذه الطبيعة التكوينية، حيث يشكل قراءة تأويلية لهذا المعدن الإنساني بتلويناته، ووعيا بفهم الطبيعة الإنسانية، في مختلف تجلياتها، ونفاذا إلى عمق الذوات، لرصد النماذج التطبيقية [=الكمالية النافعة المصلحة]، من غيرها [=المفسدة]، وعليه فإن هذه التقسيمات تشكل إطارا معرفيا وفكريا يبني التصور المفاهيمي لبنية الإنسان والمجتمع وصناعة النموذج والمثال فيه، ولذا يمكننا عدده تصنيفا نوعيا نموذجيا/كماليا، وتصنيفا تحذيريا، وتصنيفا توجيهيا، وتصنيفا معرفيا/تطبيقيا. قد تجسد في تأطير هندسي رسم به الإمام معالم الأصناف الإنسانية، زمن الأداء والفعل والتطبيق، وبذلك يدفع الذهن كي يفتح عليها ويرصد تكوينيتها، باعتبارها بنية تكوينية اعتبارية، وتعليمية قيادية هادية، وكشفية دالة، وتقودنا تلك النصوص إلى تحديد تصنيفات ثقافية بمعاييرها الوظيفية، نبينها في هذا الجدول:

الرقم	التصنيف	البدائل	المعيار	المعنى : قراءة وتأويل
01	الناس أربعة (إيجابي) 1- عالم مستعمل علمه. 2- جاهل لا يستنكف أن يتعلم 3- جواد لا يخجل بمعرفه. 4- وفقير لا يبيع آخرته بدنياه. ص 490	مقلوب التصنيف : (سلي) 1- إذا ضيع العالم علمه. 2- استنكف الجاهل أن يتعلم. 3- إذا بخل الغني بمعرفه . 4- باع الفقير آخرته بدنياه.	تراتب قيمي	إن الهدف من هذا التصنيف أن تصبح مكونات المجتمع عاملة بانية للحياة، ومحركة للفعل الاجتماعي وبقلب التراتب ينهار المجتمع وخاصة إذا اختل دور العالم والغني فيه.
	(+)	(-)		

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص389.

² - المصدر نفسه، ص389.

³ - المصدر نفسه، ص302.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

02	نعم الله على العبد : 1- كثرة النعم على الإنسان. 2- كثرت حوائج الناس إليه. 3- القيام بما =الدوام والبقاء. ص 490 (+)	كنز الإنسان للنعم : 1- عدم الإنفاق على العباد. 2- عدم القيام بما = زوالها وهذا دال على = لا فعالية اجتماعية، ولا إفادة أداء. (-)	المسؤولية تتبين الوظيفة الخيرية لبعض أفراد المجتمع، وتعني أداء واجب اجتماعي ثقيل وأداء أمانة، فهي عبادة شكر للمنعم سبحانه، وعبادة اجتماعية، ذات نفع اجتماعي بيد العطاء.
03	رواية الحديث أربعة رجال: 1- رجل منافق. 2- رجل وهم في الخير. 3- حفظ المنسوخ وعدم حفظ الناسخ، لجهله. 4- عارف بالناسخ والمنسوخ. ص 303/302 (-)	رواية الحديث السليمة : 1- العلماء الراسخون : (+)	إن السنة النبوية بوصفها قانون صلاح إيماني واجتماعي وإنساني، يتعين فيها التحري بإسناد أمرها للراسخين في العلم، أين تظهر ثمرة هذا العلم في وحدة الأمة وتماسك بنائها الثقافي وانتفاعها بجليل الحكمة النبوية.
04	إحياء القرآن : 1- إحياء القرآن = الاجتماع عليه. - تطبيقا. ص 181 (+)	إماتة القرآن : 1- إماتته = الافتراق عليه. - مخالفة. (-)	يقوم المجتمع على فكرة ومبدأ ومثل أعلى، فالمجتمع فكرة مستقاة من الوحي الإلهي تحقق الاجتماع، ويكون هذا بإحياء القرآن، أي تطبيقه في الحياة.
05	أقسام الفساد [الناس] الأربعة: 1- مهان النفس (مهينها). 2- المصلت لسيفه والمعلن بشره. 3- طالب الدنيا بعمل الآخرة. 4- ضؤول النفس القاصر المتزين بالزهادة (عجزا). ص 63/62 (-)	القسم الخفي غير المعروف : 1- الأبرار الأتقياء [=الخائفون أهل الآخرة]. (+)	تتطلب الحياة الإنسانية نوعا خاصا من الناس الذين زكت نفوسهم بالتربية الإيمانية والروحية، أهل الهداية والقيادة، وهم ضرورة تغييرية وإصلاحية، حمل الناس على الكمال وطريق الحق. إن بناء مجتمع فاضل متكامل يحتاج إلى صفاء رجال، أبرار أتقياء يكونون طليعته.
06	الناس ثلاثة (الرباني - المتعلم) 1- عالم رباني. 2- متعلم (على سبيل نجاة). ص 453 (+)	الهمج : (الرعا) : 1- همج رعا (أتباع كل ناعق). (-)	يجسد هذا التصنيف حال التمايز الإنساني النوعي في رتبة الحق والإنسانية، ويمثله الرباني الكامل بالعلم والمعرفة، ويوجه الإمام إلى أهمية الرتب الكمالية التي تنال بالتعلم والتربية، فالعلم هو شرط القيادة وأساس الصلاح الاجتماعي وضبط الرعا.
07	الستر والمشورة والمحبة: 1- ستر العورة. 2- إطلاق عقد الحقد. 3- مشاورة أهل الرأي والعلم والكرم والعدالة، وتنمية المحبة ص 395/394 (+)	الافتضاح - المشورة الخادعة : 1- عدم مشاورة البخيل والجبان والحريص. (-)	إن القيادة الراشدة هي قيادة فاعلة وذكية محيطة وعليمة عارفة بمحيطها، تدفع المشورة الخادعة، حيث يكون ستر عيوب الناس، وزرع المحبة بينهم واجبا، وهي مبادئ تصنع بها مجد الأمة.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

08	أحوال الناس في المجتمع: 1- فقيرا يكابد فقرا. 2- غنيا بدل نعمة الله كفرا. 3- بخيلا اتخذ نعمة الله وفرا. 4- متمردا عن المواعظ (اتخذها وقرا). ص 184/183	أهل الصلاح والخيرية: 1- الصلحاء (الفئة الغائبة). [= الصلحاء، الأخيار، السمحاء، الأحرار، المتورعون، المنتزهون].	تراتب قيمي + التقوى	يدل هذا الترتيب على احتلال اجتماعي وانقلاب قيمي يجعل هذه العناصر داخل الجسم الاجتماعي فاقدة للفاعلية والتماسك، وهذا التأويل مستفّر يدفع إلى البحث عن الصلحاء الكمل بتميزهم النوعي لتنظيم المجتمع وتحقيق توازنه، ورفعته إلى مراتب المثال.	(-)	(+)
09	تصنيف السعي: 1- الساعي السريع. ص 43،42.	تصنيف التقصير: 1- الطالب البطيء. 2- المقصر في العمل.	قيمي	يقصد بهذا بيان الطريق وغاية القصد بالعمل، وتصحيح رؤية الطالب والمقصر، لأن الساعي حقق نجاحه بالجنة، بينما يمثل الطالب حالة رجاء، فيما المقصر فاسد هاوي في النار.	(-)	(+)
10	عدم الأهلية للحكم: 1- رجل الهوى. 2- رجل الجهل. ص 44،45،43.	الأهلية للحكم: 1- أهل الفكر والعلم.	تراتب قيمي	يطرح هذا التصنيف خطر القيادة في المجتمع من رجلي الهوى والجهل، فلا يمكن أن يعدا من الأبنية الفكرية والمعرفية والثقافية وعناصر القيادة والتوجيه الاجتماعي، ولذا يدفع الإمام إلى مخارج نسقية علمية وفكرية جديدة، أعطاها لأهل الفكر والعلم.	(+)	(-)
11	تصنيف العالم العارف: 1- العارف قدر نفسه. ص 149	تصنيف الجاهل المبغض: 1- المبغض غير العارف قدرها.	المثل الأعلى	إن العالم عارف قدر نفسه، عرفان بميزان الحق، وسعيا نحو الآخرة، وتقديرها يكون بالعلم والمعرفة، وهي سيما كمال إنساني، عكس المبغض.	(-)	(+)
12	تصنيف المتقين: 1- المتقون. ص 287،284	المفسدون: 1- الضلال. 2- المنافقون.	المثل الأعلى	يمثل هذا الصنف نموذج التزكية المتكاملة، أورد الإمام سيماهم على شكل مصنفات متنامية رسمت هذا البناء الإنساني المتفرد، ونموذجا روحيا يضعه الإمام مقابلا لتصنيف الضلال والمنافقين المفسدين للحقيقة الإنسانية.	(-)	(+)
13	المستضعفون: 1- المبتلون من المؤمنين الماضين. ص 279،278.	المستكبرون: 1- الفراعنة [= المستكبرون].	المثل الأعلى + التقوى	ويؤشر هذا إلى حال المبتلين من المؤمنين الماضين، أمام الفراعنة والمستكبرين، كانوا علامة على تلك المصايرة والمجاهدة، إلا أن أمرهم بعد هذا تحول إلى اختلاف وفرقة، وهي تحولات اجتماعية تستدعي التأمل، فحالمهم يشكل بنية تكوينية معرفية وعظمية، وآية تعليم واعتبار، لأنصاره.	(-)	(+)



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

14	تصنيف الأئمة: 1- الأئمة. ص204.	الناس في المجتمع: 1- الناس.	المثل الأعلى	ويبرز هذا التصنيف القيادة الإيمانية والروحانية في عملية توجيه الناس إلى الحق بعرفائه، ولذا فالأئمة والناس يمثلان حالة التكامل والتوجيه بالمعرفة وبهذه الإرادة يستخلص المؤمنون، وتحقق خصوصية الأمة.	(+)	(-)
15	تصنيف أهل القرآن: 1- أهل القرآن والهدى. 2- متخذ قوله دليلاً. ص197، 198.	تارك الكتاب: 1- تارك الرشد. 2- ناقض الكتاب.	المثل الأعلى	إن أهل الهدى هم أهل القرآن امتثالاً وتطبيقاً، وعلامة ذلك هي سنة الفصل: "لأن الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتماعاً"، توجيه يجيل الإنسان على الاستقامة بهدي الكتاب.	(+)	(-)
16	المستضعفون: 1- المبتلون من المؤمنين الماضين. ص278، 279.	المستكبرون: 1- الفراعنة [= المستكبرون].	المثل الأعلى + التقوى	ويؤشر هذا إلى حال المبتلين من المؤمنين الماضين، أمام الفراعنة والمستكبرين، كانوا علامة على تلك المصابرة والمجاهدة، إلا أن أمرهم بعد هذا تحول إلى اختلاف وفرقة، وهي تحولات اجتماعية تستدعي التأمل، فحالمهم يشكل بنية تكوينية معرفية وعظمية، وآية تعليم واعتبار، لأنصاره.	(+)	(-)
17	المستحفظون العلم: 1- النوعية الحافظة للعلم. 2- المهني، المستضيئ بنور العلم. ص307، 308.	المضيعون للعلم: 1- النوعية الغافلة المضيعه للعلم.	تراتب قيمي	إن هذه النوعية الحافظة للعلم، هي خلاصة تمحيصية، وعلامة كمال نوعي في القيادة الذين هدبت ذواتهم فكانوا عينا للعلم، ولذا تحولوا إلى مثل دال على الحق، استضاء وتوجيها إليه.	(+)	(-)
18	الرؤية زمن الفتن والتحويلات: 1- فرقة ترى ما ترون. ص231.	الرؤية المغايرة: 1- فرقة ترى ما لا ترون. 2- فرقة لا ترى هذا ولا ذاك.	تراتب قيمي	يكشف هذا التصنيف عن قراءة ذكية واعية أول من خلالها مواقف الناس زمن الفتنة، وعليه فالنظر في التركيبة الاجتماعية يمنح رؤية مواقع الناس وكشف مواقفهم، رؤية علاجية تعيد رسم الفضاء الاجتماعي بقيم فكرية جديدة تتجاوز المرهن، بالصبر والوعي.	(+)	(-)
19	أهل الذكر: 1- الذاكرون، أهل النفاذ. ص318.	أهل الغفلة: 1- الغافلون.	المثل الأعلى	إن الذكر هو خط إيماني تعبدي ورسالي، ونسق جمالي يقطعون به أيام الحياة، ويزجرون الغافلين، وأداة إصلاحية وتوجيهية، وآلة بناء الحياة الإيمانية، وكل مكاشفة روحية، ونقلة استشراق تضع الذاكر على أعتاب باب الغيب،		



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

		(-)	(+)	
وهذا الأمر بجيويته أعطاهم وعيا ثانيا بصيرا بممارسة وظيفة توجيهية: "فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا"، لأن الذكر منحهم رؤية مغايرة مجاوزة: "يرون مالا يرى الناس"، ببصيرة <u>الإيمان</u> ، ورؤية الحق بالحق.				
إن متبع الشرعة هو المنتفع بالتجارب والبلاء، يفقه هذه السنة ويتعلم من الوعظ الإلهي، بينما المبتدع غير منتفع غافل عن ذخائر الإيمان وكنوز الوعظ، فصار عامل هدم للنسيج الاجتماعي.	المثل الأعلى + التقوى	تصنيف المبتدع: 1- أهل البدعة.	تصنيف المتبع: 1- أهل الشرعة. ص241.	20
إن الإخوان هم حالة استحضار مقارنة وازن بها أنصاره، فهم بسببها تحل كماله ربيع، وهذه الطواعية في تقبل الحق وموافقته جعلتهم مثالا نوعيا غائبا، أمام مثل شاهد مهتز في الواقع.	المثل الأعلى	الإخوان الموجودون: 1- أنصار الإمام [=زمنه].	الإخوان المفقودون: 1- إخوان الحق [=السابقون]. ص250، 251.	21
تصنيف سببه تركهم مقومات الخيرية والبناء، ويهدف إلى إعادة توجيه الفعل الاجتماعي، ومن ثم إلى صناعة الخير والصالح، بالحلما والعقلاء.	المثل الأعلى + التقوى	أهل العدل و الحق : 1- الحلما تاركي التناهي. 2- السفهاء راكي المعاصي.	أهل التخاذل والفساد: 1- الحلما الناهون. 2- العقلاء الطائعون. ص281	22
تقوم تجربته الروحية والإيمانية على إحياء العقل بالعلم والفكر، لاكتساب <u>العقل الإيماني</u> ، وإماتة شهوات النفس، ويترتب عن هذه التجربة تحقيق مكاشفات نوعية، ونقلات عرفانية، وصولا إلى مستقره الأخروي، تعد تجربة كمالية منفتحة لتصويب مسارات الناس، وسالكي طريق الدنيا.	المثل الأعلى	طريق الدنيا: 1- سالك طريق الدنيا.	طريق الله: 1- سالك طريق الله. ص313.	23
تعمد هذه الرؤية على الكشف بالبصيرة الداخلية، هذه الإضاءة التي تقوم بوزن العمل وتحقيقه بمعيار العلم الذي ينتهي به إلى سلوك الطريق الواضح، وهي تمحيص نوعي يهذب الفعل، ليكون متوافقا مع الحق، وهذا من أكبر مفاتيح المعرفة الكمالية، عكس أهل الغفلة الذين ينزل سلوكهم عن رتبة الإنسانية، وإلى ما دونها.	قيمي	عدم توظيف أجهزة الوعي والمعرفة: 1- أهل الغفلة، وعدم النظر.	توظيف أجهزة الوعي والمعرفة: 1- الناظر بالقلب، العامل بالبصر. ص206.	24



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

إن هذا التصنيف للرجال يجعل من تصور الإمام للتركيبية البشرية للمجتمع في بعدها الثقافي الفكري ضروري لتماسك المجتمع وحتمية قيام الحياة الفاعلة، يقول "مالك بن نبي" إن الأفكار القرآنية: "تقوم بدور المصنفي بالنسبة للأفكار الدخيلة، المشتبه فيها، التي تحاول يد خفية أن تزجها في دائرتها"¹، وهذا التعيين المحدد للناس وفق شروط علمية موضوعية، يعد تصفية من كل فكر دخيل يمنع الجدل المهدم، والغوغاء من الناس أن يخوضوا فيما لا يعرفون، وإن الكامل هو من يصوب الحركة الثقافية للمجتمع، فوسط هذا المناخ الثقافي والفكري الملوث كانت الحركة الاجتماعية تروج وتضطرب والفتنة تستعر، لذا تعين عليه تصحيح هذه الصورة، وتنظيف الأجهزة المنشئة والمنشطة للأفكار الاجتماعية وإعادة تصنيفها وإسناد القيادة الثقافية لأهل العلم الراسخين، ووعي الإمام بهذه المخاطر المحدقة بالمجتمع، جعل تأوله المستند إلى الكتاب يراه في الكمل، "العلماء الراسخون في العلم"²، وأن تكون الجماعة متحلقة حول مبادئه وقيمه وتشريعاته، وتذهين الفرد الاجتماعي بأفكار القرآن، دفعا للفساد الاجتماعي، "لأن الإنسان أكثر تصديقا لما يراه مشكلا فيه (...)"، وهو التذهين الإنشائي المتلاحق، لذاكرة الانفعال الشخصي"³، وعليه فإن العملية التكوينية التذهينية هي عامل الحسم في كل تشكيل ثقافي وفكري، وإن برجة قرآنية يخضع لها الفرد والجميع من شأنها أن تجعل المهادت والخلفيات واضحة المعالم، والتصرفات الاجتماعية مستقاة من هذا النبع، لتكون متسقة تعبر عن كمال عقلي وروحي في أبناء المجتمع، تنعكس متجانسة فعالة في الحياة والأداء الاجتماعي، "ففي التكوين الاجتماعي الذي يتسم بالهيكل المستقر وبمستوى مرتفع نسبيا من الطبيعة المتشابهة، تكون مثل وجهة النظر تلك إلى القيم الأخلاقية منسجمة ويتجه التقييم الأخلاقي الاجتماعي إلى التوافق"⁴، لأن الثقافة تمنح الناس هذا الشعور المتميز بجملة الإيمان، وتدفع على الفعل والعمل والتشارك، وهي وحدة روحية عميقة في البناء الفردي والاجتماعي للأمة.

وعندما يدرك الإمام هذا الخطورة الحاصلة في هذا الجسد الاجتماعي الذي تحول عن مرتكزاته الرئيسة، فإنه يعلن صراحة حرصه الشديد على إعادة إصلاح الواقعة الاجتماعية حيث يقول: "وأيم الله لأبقرن الباطل، حتى أخرج الحق من خاصرته"⁵، وهذا موقف صريح من الفساد والتحول عن مبادئ القرآن والحق، من الرؤوس التي نصبت أعلاما للضلال، لإخراج الناس عن

¹ - ابن نبي مالك: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر الجزائر، دار الفكر دمشق، 1988، ط3، ص 79.

² - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 6، ج 11، ص 27.

³ - القلعة خالد آغا: السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة، ج3، ذهنية الانفعال. دار كنعان، دمشق، 2001، ط1، ص 127.

⁴ - وو تن : الصينيون المعاصرون التقدم نحو المستقبل انطلاقا من الماضي، ج2، ص 180.

⁵ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 150.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

- إدراك القوى - قوى الصراع المتحركة في حركة وسيورة المجتمع.

- وضع الأمثلة التطبيقية في الحياة [= الصالحة - الفاسدة] موضع التأمل والنظر والمقارنة والفرز.

- منح الوعي والرؤية للإنسان لإعادة بناء حياته وإدارة ذاته، وفق التصنيف النوعي الكمالي.

لقد برز الإمام مؤولا وفقهيا بالناس وأحوالهم وتقلباتهم، والذات المؤولة للطباع البشرية، هي ذات كمالية بامتياز، كما أن سيما هذه الأصناف تجمع مختلف مركبات وجزيئات الطبيعة الإنسانية.

3- العلاقات الاجتماعية: لا يستقيم بناء اجتماعي إلا إذا تحددت العلاقات فيه بشكل دقيق واضح، وفق سلسلة من الإجراءات والقواعد تكون معالم سير الناس، كما أن هذه العلاقات لا تكون لها القيمة الحقيقية والفعالية اللازمة، إلا إذا كانت متجهة أفقيا وعموديا في علاقة الحاكم بالمجتمع، والمجتمع بالحاكم وعلاقات الناس بعضهم ببعض، ويجمع هذا حكم راشد يستند إليه، فهو المقيم للفعل الاجتماعي على أرض الواقع، ولذا نجد الإمام يؤكد على هذه القيمة، وفوق كل هذا يعطيه رمزية وقداسة، حيث يقول: "السلطان وزعة الله في أرضه"¹، فالسلطان هو المؤسس والمنظم لعلاقات الناس على وجه العدالة والمساواة والاحترام، وإن السلطة الاجتماعية بآلياتها المختلفة هي الضامن لبقاء الحق، أي لاستمرار المجتمع متسلحا بأدوات البقاء، كي تنمو العلاقات بينهم بشكل وثيق، "وعلى هذا نستطيع أن نقرر أن شبكة العلاقات هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده"²، مثل فكرة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في المجتمع الإسلامي، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾³، وهنا يتركز العمل على الفرد الكائن الاجتماعي، لتغذيته بهذه الثقافة البديلة، يقول "مالك بن نبي": "إن العمل الأول في طريق التغيير الاجتماعي هو العمل الذي يغير الفرد من كونه (فردا) Individu إلى أن يصبح (شخصا) personne وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع، إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع"⁴، فمن نزوع فردي يكون به الإنسان خارج معادلة التاريخ، بعيدا عن الصورة الاجتماعية، إلى نزوع اجتماعي يتحقق بالروابط الاجتماعية.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص474.

² - مالك بن نبي : ميلاد مجتمع، ص28.

³ - سورة الأنفال، الآية 63.

⁴ - مالك بن نبي : المرجع السابق، ص21.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

أولاً: العلاقات العمودية : ونحددها في علاقتين تبادليتين :

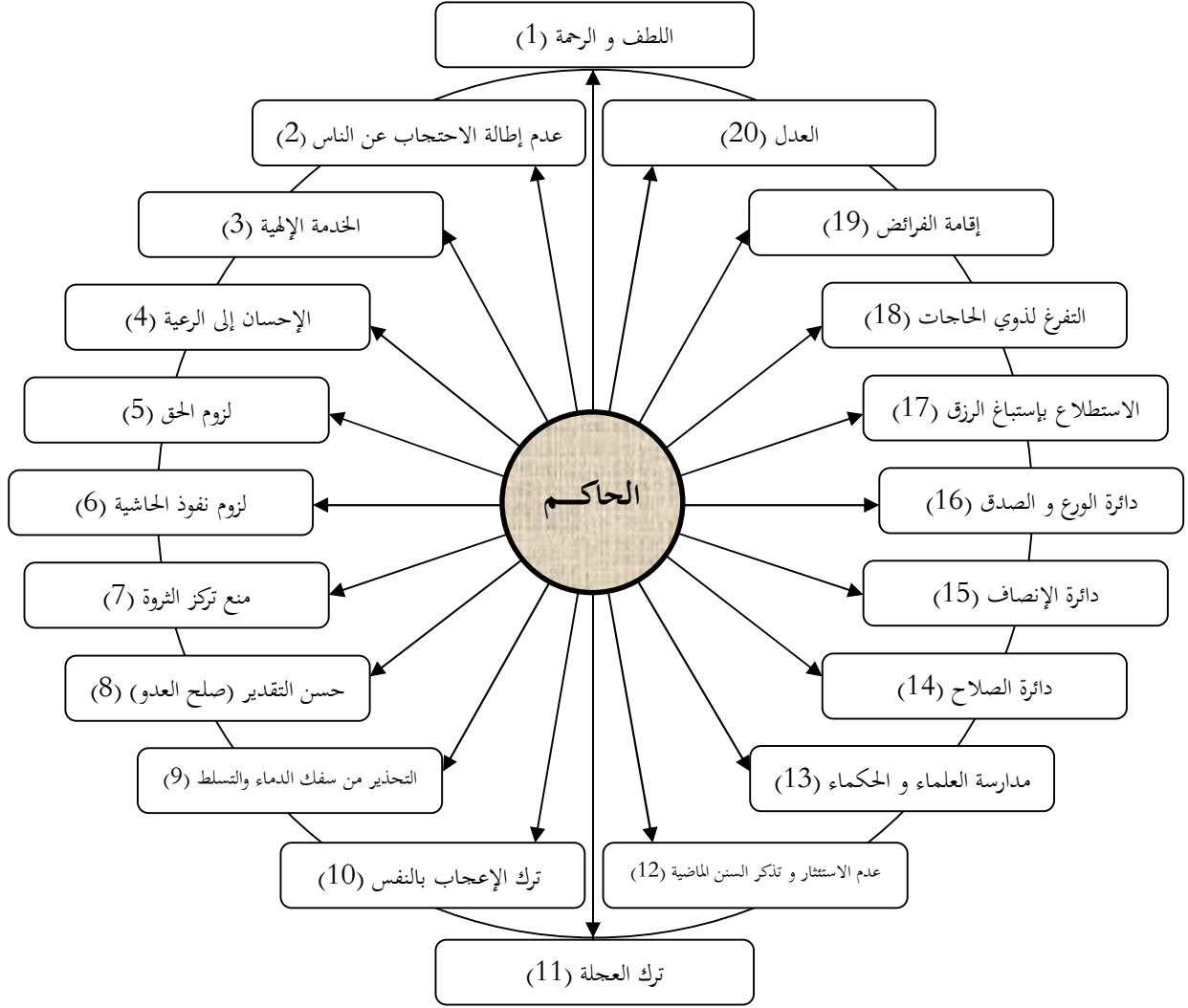
1/- علاقة الحاكم بالمجتمع: لقد جاء الإسلام ليحدد العلاقات الاجتماعية المختلفة، ويقيم أسس الحياة على سنن واضحة المعالم، يتبين فيها كل طرف دوره، وفق متلازمة وقاعدة الحقوق والواجبات التي بها يتم البناء الاجتماعي على قواعد العدل والمساواة والاحترام بمحدد الحرية المسؤولة لجلب المنافع والمصالح ودرء المفسدات، وحتى تتحقق هذه الغاية وضع الإمام مواد نجاح هذه الفكرة في نقاط مفصلة توضح الأدوار، وتحدد المسؤوليات الواجبة، يمكن إجمالها في هذا الجدول:

المقولة	الدائرة
"وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم، والल्पف بهم". ص 392	1- اللطف والرحمة.
"فلا تطولن احتجاجك عن رعبتك". ص 406	2- عدم إطالة الإحتجاج عن الرعية.
" وإياك والمن على رعبتك بإحسانك، أو التزيد في ما كان من فعلك". ص 409	3- الخدمة لا المنة.
"واعلم أنه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظن راع برعبته من إحسانه إليهم". ص 396	4- الإحسان إلى الرعية.
"وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد". ص 407	5- لزوم الحق.
"ولا تقطعن لأحد من حاشيتك، وحامتك قطعة". ص 406-407	6- لجم نفوذ الحاشية .
"فأصرفه إلى من قبلك": "فأحمله إلينا لنقسمه في من قبلنا". ص 423	7- منع تركيز الثروة.
"ولا تدفعن صلحا دعاك إليه عدوك، والله فيه رضى". ص 407	8- حسن التقدير، (صلح العدو).
"ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتمن أكلمهم". ص 392	9- التحذير من سفك الدماء والتسلط.
" وإياك والإعجاب بنفسك، والثقة بما يعجبك منها، وحب الإطراء". ص 409	10- ترك الإعجاب بالنفس .
" وإياك والعجلة بالأمر قبل أوانها، أو التسقط فيها عند إمكانها". ص 409	11- ترك العجلة.
" وإنما عماد الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء العامة من الأمة، فليكن صغوك لهم وميلك معهم". ص 394	12- عدم الاستئثار وتذكر السنن الماضية.
"وأكثر مدارس العلماء، ومنافثة الحكماء، في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك، وإقامة ما استقام به الناس قبلك". ص 396	13- مدارس العلماء والحكماء.
" وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده". ص 392	14- دائرة الصلاح.
"أنصف الله، وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهللك، ومن لك فيه هوى من رعبتك". ص 393	15- دائرة الإنصاف.
" وألصق بأهل الورع والصدق ثم رضهم على أن لا يطروك، ولا يبحوك بباطل لم تفعله، فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو، وتدني من العزة". ص 395	16- دائرة الورع والصدق.
"ثم أصبغ عليهم الأرزاق، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك". ص 400	17- الاستصلاح بإسباغ الرزق.
" واجعل لذوي الحاجات منك قسما تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلسا عاما". ص 405	18- التفرغ لذوي الحاجات.
" وليكن في خاصتي ما تخلص به لله دينك إقامة فرائضه التي هي له خاصة، فأعط الله من بدنك في ليلك ونهارك". ص 406	19- إقامة الفرائض
" وإن ضنت الرعية بك حيفا فأصحر لهم بعدرك". ص 407	20- العدل



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

إن هذه الضوابط التي وضعها الإمام، هي مدارات يتحرك فيها الحاكم في شبه مراقبة دورية مستمرة، تجعله ينهج في حكمه طريقاً يحكمه الصواب والضبط والإخلاص، والتدبير السديد، لأن الواجب على الحاكم أن "يعي حاجاتهم ومخاوفهم فيعمل لخيرهم ويضع كل شيء مما يصلحهم موضعه"¹، فالحاكم إذن يقوم بإنبات بذرة الصلاح الاجتماعية، نوضح مداراتها بهذه الدائرة :



دوائر ومجالات الضرورات الواجبة في حق الحاكم

فعندما نتأمل جملاً واضحة قوية المعنى في ذلك العهد "لمالك الأشتر" نحس بثقل القضية، وما يلقي على كاهل الحاكم من تبعات واجبة التنفيذ والرعاية، لأن "هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإلا لم يكمل وجودهم وما أَرَادَهُ اللهُ من اَعْتِمَارِ الْعَالَمِ بِهِمْ واستخلافه إياهم وهذا هو معنى العمران"²، وحتى يستمر المجتمع في أداء رسالته العادلة، فإن الحاكم كما بين الإمام ينبغي أن

¹ - شمس الدين محمد مهدي: دراسات في نهج البلاغة، الدار الإسلامية، بيروت، 1981، ط3، ص164.

² - ابن خلدون : المقدمة، ص47.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

يملك آليات من الأداء الراقي والنظر البصير في الأحوال، وأجهزة استشراق مستقبل مجتمعه، إضافة إلى تحذيرات أخرى من الإمام مكملة لهذا المنحى، وهي سنن وقوانين تشكل بنية المجتمع وتقيم علاقاته، وتدفع كل المخاطر عنه، من أجل قيادة هذه السفينة بذكاء وحكمة وبصيرة. وحتى يتحرك الحاكم في هذه المسارات المبينة يتعين عليه دائما أن يدرك بجلاء أن للرعية حقوقا واجبة في ذمته ينبغي أن تؤدي كاملة، مثل قوله: "فأما حقكم علي فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا وتأديبكم كيما تعلموا"¹. تركز هذه الأقوال على مختلف الأبعاد التي يحياها الناس في هذه الحياة من الجانب الاقتصادي إلى التعليمي إلى الوعظي إلى العمارة واستصلاح أحوال الناس، إلى إقامة الحدود وتحقيق الأمن الداخلي والخارجي، بحيث "أجمل الإمام حقوق الرعية على الراعي في توفير الأمن في الداخل والخارج، وتأمين الحياة الاقتصادية والتعليم والتوجيه الاجتماعي وإقامة العدل"²، فهذه بذور نظرية اجتماعية إصلاحية مبثوثة في النهج يمكن تطويرها واستخلاص نظام اجتماعي راقى منها يقيم حياة الناس.

2- علاقة المجتمع والرعية بالحاكم: لا يمكن أن تنمو العلاقات وتثمر إلا إذا كان طرفها الثاني على قدم من السواء مع الحاكم، وفي سواء هذا الطرف تزكو حياة الناس وتتفاضل الطاقات علوا مع نفاسة المجتمع، يقول الإمام الغزالي: "ومع ذلك، فإن أي حكم رفيع القدر لن يبلغ غايته إلا إذا ظاهره شعب نفيس المعدن عالي الهمة"³، فمن هذه النفاسة تكون القابليات ممكنة لحركة مجتمع ينطلق في التاريخ يرسم صورة مثلى للحياة، ولهذا فإن للرعية دورا حاسما في كل نهوض، وعليه يمكن أن نحدد مجموعة من الآليات الضابطة لهذا الحق تفعيلا لكل أداء اجتماعي مسؤول، وهي :

الضابط	الصياغة	مقولات وموجهات المفهوم
الحق	- الحق لا يسقط بحال من الأحوال.	"فالحق أوسع الأشياء في التواصف، وأضيقتها في التناصف، لا يجري لأحد إلا جرى عليه، ولا يجري عليه إلا جرى له." ص 309
التراتب	- الحقوق تكون بالتراتب.	ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقا افترضها لبعض الناس على بعض. 309
الامتياز	- حق الحاكم على الرعية ليس امتيازاً.	"وإياك والإستئثار بما فيه الناس أسوة". ص 410
التعاضد	- حق الحاكم على الرعية إبعاد الفخر والكبر عنه.	"وإن من أسخف حالات الولاية عند صالح الناس، أن يظن بهم حب الفخر، ويوضع أمرهم على الكبر". ص 311
المصانعة	- لا ينبغي تعظيم الحاكم ومصانعته.	"فلا تكلموني بما تكلم به الجبارة، ولا تحفظوا مني بما يتحفظ به أهل البادرة، ولا تحالطوني بالمصانعة". ص 311

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 67.

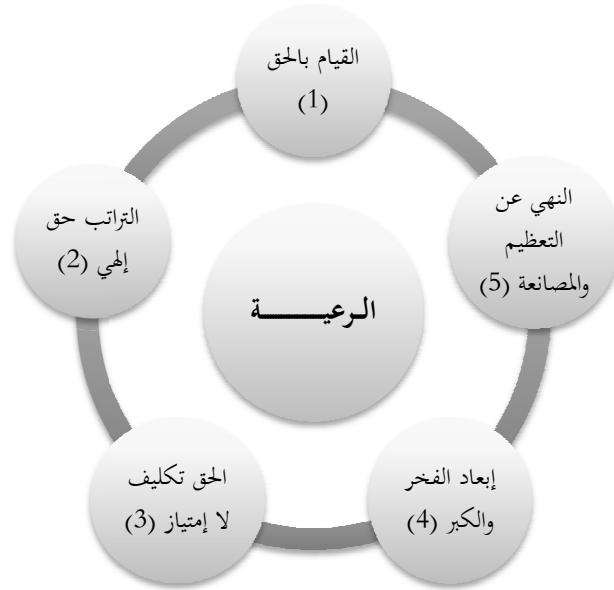
² - محمد مهدي شمس الدين : المرجع السابق، ص 174.

³ - الغزالي محمد : الطريق من هنا، دار المعارض، عنابة، الجزائر، ص 5.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

تبين هذه الجمل حق الرعية، حق يلخصه الإمام بقوله: "إن أعظم الخيانة، خيانة الأمة، وأفظع الغش غش الأئمة"¹، ومن ثم يتعين على الحاكم أن يتنزه عن كل نقيصة تلحق به، وتلحق ضررها بالأمة، وما عهد الإمام السابق إلا تأكيداً استقرأه من الواقع وأدرك مخاطره، فهذه الجمل المركزة من أقواله يعهد فيها إلى الرعية عدم التفريط في واجباتها وصيانة حقوق الحاكم عليها، وإن إدراك الرعية لهذه الصورة الملزمة لها يجعل حركة الناس تمشي متوازنة نامية بعيداً عن الفساد، "فهذا المجتمع عبارة عن مركب مكتمل شروط المجتمع الصالح بالنظر لصالح أفراد وأجزائه"². مركب قوامه الصلاحية والصحة في المجموع فكرة وإنساناً وسياقاً، واكتمال هذه الشروط مع اكتمال عناصر الفضيلة فيه تمثل اندفاع الرعية في عملية البناء، بين المركز ومحيط الدائرة من العدالة والحق، "غير أن هذا المركز الأفقي لا يساوي شيئاً من غير المحور العمودي الذي يربط تلك العناصر، هي وكامل المجتمع بالتالي، مع الحق"³، وتمثل هذه الضوابط تأطيراً واضحاً لحركة المجتمع، تمكنه من أن يتحرك في المدارات المفتوحة له، حتى لا تضطرب الحركة الاجتماعية وحياة الرعية، نوضحها بهذه الترسيم:



- دائرة تمثل حقوق و واجبات الرعية -

بعد أن أطر الإمام وضع المجتمع في علاقته بالحاكم بين حقوق هذا الحاكم على مجتمعه ورعيته، موجبات الحياة والفعل الاجتماعي، نراه يضبط هذا الأمر بمجموعة أخرى من الأقوال:

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 352.

² - ابن عاشور محمد الطاهر: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، دار سحنون تونس، دار السلام مصر، 2006، ط2، ص 111.

³ - كاظمي رضا شاه : العدل والذكر، تعريف بروحانية الإمام علي، تر سيف الدين القصير، دار الساقبي، ومعهد الدراسات الإسماعيلية، بيروت، 2009، ط1، ص 140.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

- 1- "وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين أمركم"¹.
- 2- "ولي عليكم حق الطاعة وأن لا تنكصوا عن دعوة، ولا تفرطوا في صلاح، وأن تخوضوا الغمرات إلى الحق"².
- 3- "فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل"³.

تحتوي هذه الأقوال على تحديدات ضرورية لمجتمع يعي دوره ورسالته في الحياة، من خلال التزام الأمة بعناصر العهد الاجتماعي في علاقتها بالحاكم، بحيث يستطيع أن يحملها بأفكار تصنع مجدها وتبني كيانها وتثمر قيادتها، ولقد كان سعي الإمام إعادة بناء المجتمع الإسلامي المفكك، وهذا بدفعه إلى كل فضيلة وخلق رفيع ومبدأ سام يجعل المثالية واقعا في الطبيعة البشرية من خلال رفع الرعية إلى قمة الحدث وحسن السلوك والتصرف، "فمسؤولية الطغيان لا تنفع - كما يؤكد القرآن دائما- على عاتق القيادات وإنما تتحمل القواعد نصيبا كبيرا منها لسكوتها وإقرارها وعدم رفضها ومقاومتها وتحركها"⁴، وبهذا تكون تأكيدات الإمام في حركته التأطيرية للمجتمع وبيان واجبه، هادفة إلى تحقيق الكمال الاجتماعي، وإن مثاليته محددة في معادلة الوجود الإنساني والمجتمعي:

$$\text{معادلة الوجود} = \text{الاستخلاف} - \text{العبادة} - \text{العمارة} + \text{التعارف} = \text{المجتمع} - \text{الإنسانية}$$

(1) التمكين (2) السلام = الجمال (3) الوحدة (4) التعاون

لقد كان الإمام "يسعى إلى إقامة مجتمع تسوده العدالة والأمن والرفاه الاجتماعي، وهذه ليست مثالية، بل هي في صلب الواقع"⁵، وهي محاولة ضرورية ذات مقاصد بمستوياتها الضرورية والحاجية والتحسينية، لذا نراه في خطاباته يركز على الوظيفة الوعظية التعليمية التربوية، لأنه يدرك أن تحقيق هذا مرتبط وقائم بذلك، حتى مع الولاة والحكام كانت نصائحه بضرورة مجالسة أهل العلم والحكمة دأبا نهجه في سياسته، ومن ثم فهي تعد برأيه نظام إلفة اجتماعية، ففي ظل هذا الوعي العالي تتأسس الحياة، فالأعلى في الهرم يتقبل دون عزة وتكبر، والضعيف يؤدي واجب النصيحة، لأنها مسؤولية وأمانة يكلف بها الكل، هذا مجتمع الإمام الذي أراده والدولة التي سعى إليها.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 67.

² - المصدر نفسه، ص 390.

³ - المصدر نفسه، ص 311.

⁴ - عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ، ص 287.

⁵ - حسين العمري : الخطاب في نهج البلاغة، ص 148.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

ثانيا: العلاقات الأفقية (الفردية): علاقات المجتمع ببعضه:

إذا أخذنا جملة من تنبيه النبي ﷺ: "فنقر رجل موضعه"، من حديث السفينة، وأن تركهم له هلاك ومنعهم له نجات، معلم إضاءة في تأسيس علاقات الجوار بين الناس، فإن هذا يعد مدخلا استراتيجيا في العلاقات الاجتماعية، كما أن هذه اللطيفة النبوية، تمثل إلماحة اجتماعية تسعى إلى جعل الجسد الاجتماعي واحدا متماسكا مرصوصا¹، وعليه فهذا المجتمع يتحرك بسنة وقانون ضابط ملزم لسلامته، يستند إلى آية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويرتكز على ضرورة حضارية تتمثل في مبدأ التدافع بين الصلاح والفساد، قصد الوصول إلى الحياة الاجتماعية المتوازنة، يقول الإمام: "أيها المؤمنون إنه من رأى عدوانا يعمل به، ومنكرا يدعى إليه، فأنكره بقلبه فقد سلم وبرئ، ومن أنكره بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الظالمين هي السفلى فذلك الذي أصاب سبيل الهدى، وقام على الطريق، ونور في قلبه اليقين"²، خطاب سياسي بترجمة اجتماعية يضع الحياة الاجتماعية في منعة من اللعب والاستهتار تجنبا لكل استكبار قد يحصل، واستضعاف قد ينشأ، ونقف هنا على لفظة ذكية هي ربط الإمام بين السنة الاجتماعية وقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسنة الهداية [=أصاب سبيل الهدى]، ومن ثم فإن الإيمان والفكرة الدينية تستهدف رسم معالم الحياة في دنيا المجتمع الإنساني، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾³، فالآية تحث على التحريك والدفع لإزالة الظلم، إن هذا المبدأ القرآني هو المؤسس للعلاقات الاجتماعية التي تحفظ الحقوق والمكاسب، وتمنع تغول البعض واستضعاف البعض للآخر، لأنه أخذ بالقاعدة [=السنة]، والأخذ بالسنة يعد سنة واجبة، لذا نجده يدفعهم إلى مراقبة جديدة تصحح أحوالهم وتقيم علاقاتهم: "فأعينوني بمناصحة خلية من الغش سليمة من الريب، فوالله إني لأولى الناس بالناس"⁴. وإن عملية المناصحة التي يشدد عليها الإمام هي محاولة لإعادة الحيوية لنماء العلاقات الاجتماعية، ويمكن إدراك هذا التوجيه من خلال كثير من النصوص، ومنها:

1- "خالطوا الناس مخالطة. إن متم معها بكوا عليكم، وإن عشتهم حنوا إليكم". ص 432

2- "قلوب الرجال وحشية، فمن تألفها أقبلت عليه". ص 438

¹ - إشارة إلى الحديث: "مثل المؤمن في توادهم وتراحهم وتعاطفهم مثل الجسد"، صحيح مسلم، ج4، ص 1999، وحديث "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا"، صحيح مسلم، ج4، ص 2585.

² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 491.

³ - سورة الحج، الآية 40.

⁴ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 173.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

- 3- "من ضيعه الأقرب أتيج له الأبعد". ص 432
- 4- "لا يكون الصديق صديقا حتى يحفظ أخاه في ثلاث في نكته، وغيبته، ووفاته". ص 451
- 5- "فقد الأحبة غربة". ص 439
- 6- "حسد الصديق من سقم المودة". ص 463
- 7- "من بالغ في الخصومة فقد أثم ومن قصر فيها ظلم، ولا يستطيع أن يتقي الله من خاصم". ص 479
- 8- "احصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك". ص 458
- 9- "الكرم أعطف من الرحم". ص 467
- 10- "الحلم عشيرة". ص 497

تأخذ العلاقات الفردية في النهج قيمة نوعية على اعتبار أن هذه الحياة البينية هي لبنة مؤسسة لمنظومة المجتمع الكلية، في مستواها البسيط في ظاهر الأمر، والمعقد من جهة ثانية باعتبار الكليات والمقاصد، فعندما يضع الإمام هذا الإلفات الخطير ليدركه الناس، فهذا يعني خطورته على الوضع الاجتماعي بجملته وعلى علاقات الأفراد فيما بينهم، عندما يتأسس على غير هدى، حيث يقول: "احذروا صولة الكرم إذا جاع، واللئيم إذا شبع"¹، وهذا الإلفات غايته إبقاء التوازن الجامع للصفوف، دون اختلال للمواقع، وكما يقول الأستاذ "مالك بن نبي": "فالعلاقات الاجتماعية تكون فاسدة عندما تصاب الذوات بالتضخم"²، ومن ثم فإن الضرورة المعنية بالبناء في كل مصلحة تقديرية، يجب أن ترعى هذا التوازن، وتحمي هذه العلاقات، نستنتج من خلال هذه الأقوال تأكيد الإمام على مجموعة أسس بانية للعلاقات الفردية بين الناس وفق معيار الفضيلة والأخلاق والتربية وكيمياء المحبة وخميرة الإيمان، مما يشع على الآخرين كمالات اجتماعية، ذلك أن "دور الثقافة إنما يتمثل على وجه الدقة في خلق هذه اللحمة الاجتماعية أولا وبالذات"³، وبهذا يكون تفكير الإمام منصبا على جعل تجانس المجتمع أولويته، وهذا بتنظيف العلاقات الفردية وتنميتها وبنائها وفق قواعد الأخلاق والعلم والعقل، والحفاظ على الأخوة ومراعاة أمر الصداقة، لأنها تمثل لحمة اجتماعية، تؤدي إلى بناء الثقة بين الأفراد، وهي وظيفة بنوية تهيكّل الجسم الاجتماعي هيكل منظمة فاعلة ونامية، متشاكلة مبنى ومعنى، وهذا معناه أن الروح الاجتماعي هو السر في هذا التمكين وهذه العضوية، وهو مبدأ التأليف والمآخاة القرآني، وعليه تصبح الأخوة والصداقة بهذا معنى، والبيئة هي

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 479.

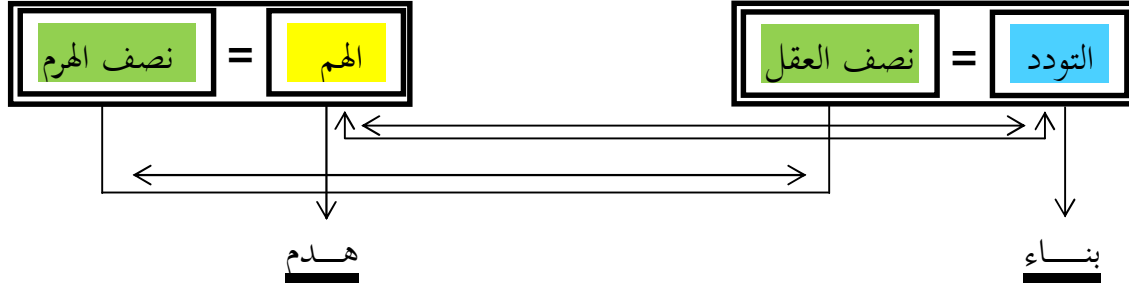
² - مالك بن نبي : ميلاد مجتمع، ص 43.

³ - مالك بن نبي : القضايا الكبرى، ص 85.

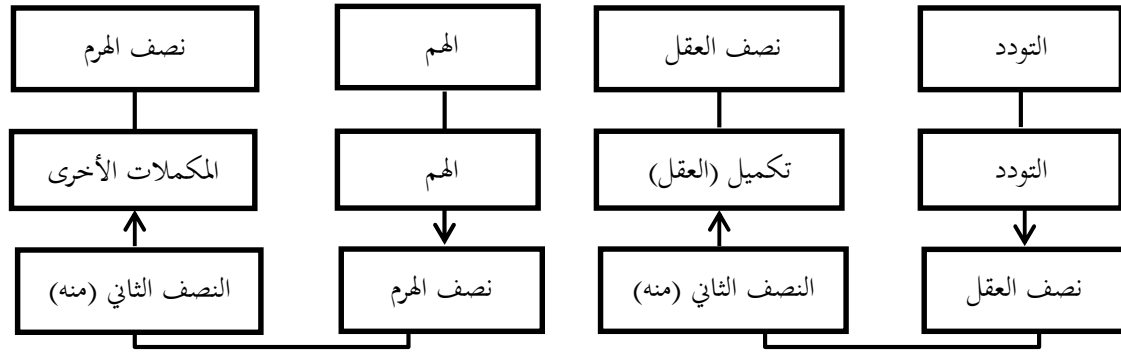


الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

الوسط الحامل للفكرة الاجتماعية، ومسقط نشأة الأفكار الاجتماعية العظيمة، وهذا معناه أن صحة العلاقات الفردية، تعني أو تماثل [= مجتمعا سليما]، وهذا الإصلاح هو الخط الذي يتوجب سلوكه من كل أفراد المجتمع باعتباره مبدأ قرآنيا ومبدأ كونيا، يقول الإمام في حكمتين له: "التودد نصف العقل"¹، ويقول: "الهم نصف الهرم"²، ويتبين من الحكمتين أن لفكرتيهما تأثير اجتماعي إيجابي/وسلي، نوضحه بهذه الترسيمة :



إن التوادد باعتباره سلوكا اجتماعيا يعد علامة لصحة للنسيج الاجتماعي، وفي صناعة العلاقات الفردية، بينما الهم له تأثير سلبي مهدم للبنيان الفردي، وهو خمول مقعد للنشاط والحيوية، ودليل عدم صحة، سببه في شق منه سوء العلاقات الاجتماعية، من مثل: [= العمل، الأسرة، الجوار، التعاملات، أخذ الحقوق، والاهتمام والرعاية...]. إذن فبالتودد والقضاء على دواعي الهم [=اجتماعيا]، في/وداخل [=المجتمع الصغير والكبير]، يتم إنجاح العلاقات الفردية والاجتماعية، وتحصين المجتمع من المخاطر، وهو ما نوضحه بهذا المخطط :



كامل - تمثيل كاشف لوظيفة بنيتي التودد والهم وأثرهما في العلاقات - ناقص

إذن ينبغي على المجتمع أن يكمل نواقصه، في ذوات أفراده، ويمنح كل فرد صحته الطبيعية، ليكتمل النسيج الاجتماعي، وتعضد علاقاته الأفقية. إن المحبة (التودد) التي تزرع بين أفراد المجتمع،

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 452.

² - المصدر نفسه، ص 452.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

منهج الكتاب. إن هذا التقسيم ناتج عن نظرة فاحصة للسلوك الاجتماعي، والأفكار التي تدور في عاقلة الكثيرين، ومن ثم فإن طبيعة هذا التصنيف دالة على استلهاهم مواطن النور التي ترتقي بها الحركة الاجتماعية والحياة النامية، وعليه "الثقافة وحدها هي التي تحولنا إلى بشر وترتقي بنا إلى المستوى الإنساني"¹، وإن المناخ الثقافي المؤسس اجتماعيا وفق معايير من القيم، هو ما يعطي صورة جلية عن التوحد والتدبير الاجتماعي في الحياة، حيث استمداد الأفكار الاجتماعية من المصب الحقيقي لها، من كتاب الله، مثل حال الرباني، كي تصبح الاسقاطات الاجتماعية تمثل روح هذا التنزل المباشر للوحي الإلهي، وتنضيده في مصفوقات تتعلق بمختلف دوائر الحياة الاجتماعية، في حين أن الهمج الرعاع الساقطون اجتماعيا، الساقطون حياة، يمثلون حركة تخبط وتيه وسير على غير هدى، وعامل كسر للمجتمع وإغراق لحياته في الفتن الممزقة لنسيجه، ذلك "أن نسبة ضعيفي الإرادة مرتفعة جدا في المجتمع وهم لا يفكرون ولا يشعرون بالحاجة إلى العودة إلى صوابهم، أما هدفهم الوحيد في الحياة فهو تلبية حاجاتهم وإشباع رغباتهم الآنية، وقلة قليلة تستدم قدرتها على التفكير العميق لتطوير شخصيتها"²، وواجب المراقبة لمثل هذه العناصر يصبح في حكم الواجب لتبقى الفطرة سليمة، ويبقى المجتمع محققا لتماسكه الطبيعي، "والدين هو وحده الذي يستطيع أن يؤسس مجتمعا"³، وتأكيدات الإمام تتمحور حول هذا البعد وأهميته في إيجاد المجتمع المثالي الفاضل، وكل ما يتعلق بالبيئة الثقافية التي "تعد إذن بمثابة الرحم بالنسبة إلى القيم الثقافية"⁴، وعليه فإن العبقرية الاجتماعية التي ترسخ في فضاء الحياة تمثل النموذج الأكمل الدال على التماسك ووحددة الهدف والحس بالتوجه، ولهذا كان من الضروري إعداد أرضيات ملائمة، لاستنبات جديد بأفكار جديدة تصلح البنيان الاجتماعي على قاعدة علمية صلبة تزيل من طريق الناس معيقات اجتماعهم وإنسانيتهم، وهذا عندما يصبح المركب الثقافي مستغرقا في البنية العميقة لأفراد المجتمع، ومن نبعه المغذي الكتاب الكريم، وإن الإمام يبدو لنا مؤولا من طراز رفيع، ولا يمكن للكامل الفذ أن يرى عمق الحياة من دون فهم المركبات الإنسانية بعناصرها وتشابكاتها، لأنها تسعفه في:

- بلورة مفاهيم دقيقة عن المكون الإنساني.

- فهم طبيعة النفوس وتقلب الأمزجة.

¹ - جون سيرل : بناء الواقع الاجتماعي، ص 79.

² - يحيى هارون: أهمية الضمير في القرآن، أحمد بنار مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، 2004، ط1، ص 47.

³ - ابن نبي مالك: مجالس دمشق، دار الفكر دمشق، 2006، ط2، ص 109.

⁴ - ابن نبي مالك: القضايا الكبرى، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر دمشق، 1991، ط1، ص 80.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

هي دليل على أن هؤلاء الأفراد يتمتعون بعقل أو سلامة عقل، نظرا لقيمة المحبة كخميرة جامعة للناس، وهي طاقة ومرتبة قريبة وفاعلة في تحديد الكمال العقلي، وعلى العكس من هذا فالهم نصف الهرم، ومن ثم فإن تأثير الهرموم على الإنسان هي سبب إضعافه وإضعاف قواه، فيهرم بسرعة والزمن كفيل بإلحاق ما تبقى، هذا الضعف الجسدي [=له مظهرا جسديا]، فإنما يتشكل من خلال آلية الأفكار، ومن خلال العلاقات الفردية بين الناس، لأن "المجتمع عالم معيش متهيكل رمزيا"¹، بتعريف "هابرماس"، وإن الإمام في جمعه للإطار النظري بالإطار العملي، إنما يريد تحقيق هذه الهيكلية والتنظيم الرمزي للمجتمع، ولكن في ثوب الفضيلة والمثالية والقيم والمبادئ.

¹ - محسن الخوي : من التوصل إلى التفاهم والاعتراف بين هابرماس وهونيت، مجلة التفاهم، ع 31، 2011، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية سلطنة عمان، ص202.



المبحث الثالث: الحياة الفردية:

أولاً: مفهوم الحياة الفردية ومقوماتها:

I- المفهوم: يقول "ابن فارس": في معنى "فرد": "الْفَاءُ وَالرَّاءُ وَالذَّالُّ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى وَحْدَةٍ. مِنْ ذَلِكَ الْفَرْدُ وَهُوَ الْوَتْرُ. وَكَذَلِكَ السُّدْرَةُ الْفَارِدَةُ، انْفَرَدَتْ عَنْ سَائِرِ السُّدْرِ. وَأَفْرَادُ النُّجُومِ: الدَّرَارِيُّ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ. وَالْفَرِيدُ: الدُّرُّ إِذَا نُظِمَ وَفُصِّلَ بَيْنَهُ بَعْضُهُ"¹، وهي تنفرد بالدلالة على تفرد الشيء الواحد عن غيره، وكذلك الفرد من الناس من استقل بحياته عن مجموع الناس، وفي اللسان: "[الفرد]: الله تعالى وتقدس هو الفرد، وقد تفرد بالأمر دون خلقه. الليث: والفرد في صفات الله تعالى هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا مثيل ولا ثاني"²، ويقول أيضا: "وقيل الفريد، بغير هاء، الجوهرة النفيسة، كأنها مفردة في نوعها"³، تسير دلالات هذه المعاني في اتجاه إثبات نفس الصفة، فالله تعالى هو الواحد الفرد، والفرد هو الوتر من المجموع، وتعطي نفس الدلالة والصفة، وعليه فدلالة الفرد على الإنسان لتمييزه بالتفرد والخصوصية والثبات والحيوية، تخصه بتفرد في حياته، فالحياة تبدأ أول ما تبدأ بالدائرة الفردية الخاصة، ثم تتعدى إلى دائرة الاجتماع والإنسانية والكون، يقول "الشريف الجرجاني" الفرد: "ما يتناول شيئا واحدا دون غيره"⁴، أي تخصص الفردية في الذات دون تعلق بذوات أخرى. إذن فما هو الفرد؟ يقول "محمد عبد الرحمان مرجبا": "إن كل فرد منا هو نسيج وحده في العالم"⁵. إنه الطبع الإلهي له بالتفرد الذي يعطي لحياته قيمة ومعنى، لأن "الذات هي مصدر كل قيمة"⁶، وتلك القيم هي رهينة بذات الإنسان منتج الفكرة والقيم وباني الحياة والتاريخ، "كذلك الإنسان نفسه هو أداة الحياة الكبرى"⁷، يتحقق بها إنجاز الحياة الفردية والاجتماعية، وحتى الإنسانية، وهذا الإنسان الفرد برؤيته هو من يعطي للحياة معناها، بحفظ ذاته من التلوث والفساد، وعليه "فالفرد ينشط حركة التاريخ، والفرد يعرقل حركة التاريخ"⁸، بمعنى أنه فاعل الحياة وصانع المعنى عندما يكون وعيه متماثلا مع مثل هذا الهدف، بانتصار القيم الإنسانية،

¹ - ابن فارس: مقاييس اللغة، ص 736، 737.

² - ابن منظور: اللسان، مج7، ص 53.

³ - المصدر نفسه، ص 55.

⁴ - الشريف الجرجاني: التعريفات، ص 139.

⁵ - مرجبا محمد عبد الرحمان: الفكر العربي في مخاضه الكبير، أضواء "السيكوسوسيوديناميكا"، دار الجيل بيروت، مكتبة السائح طرابلس، ص 468.

⁶ - أنس شكشك: فلسفة الحياة، ص 70

⁷ - مصطفى ناصف: قراءة ثانية لشعرنا القديم، ص 60.

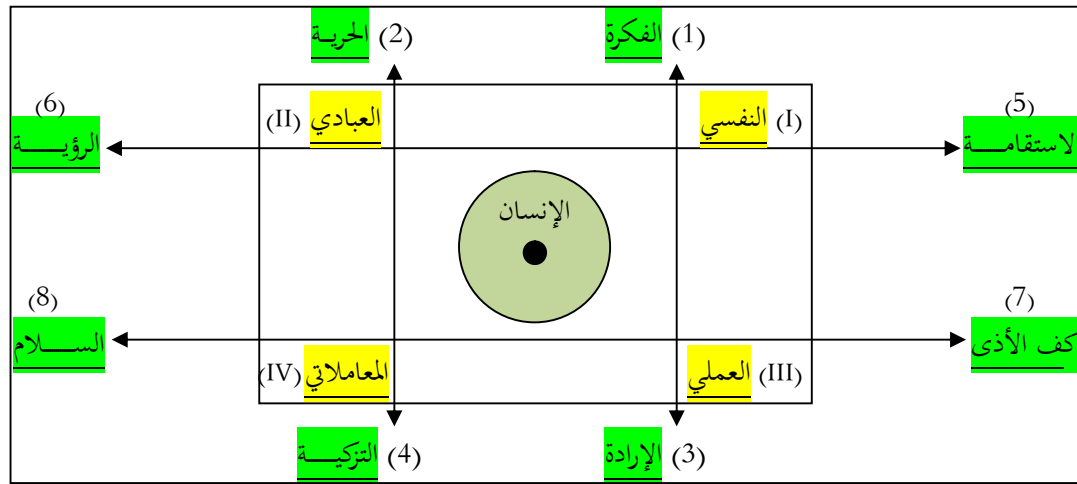
⁸ - محمد عبد الرحمان مرجبا: الفكر العربي في مخاضه الكبير، ص 540.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

وعلى هذا الأساس، فإن قيمة الحياة "ليست في متاع الحياة، بل هي في معنى الحياة"¹، ومعنى الحياة يفترض وجود إنسان القيم الذي يدرك أبعاد حياته وحياة مجتمعه والحياة الإنسانية.

إذن فالحياة الفردية هي تلك الحياة التي تتعلق بدائرة الفرد الخاصة، وهي تتوزع على محاور مهمة تقويم وجوده الحيوي، تتجلى بأبعادها الوظيفية، مثل البعد النفسي والعبادي والعملية والمعاملاتي، كما تركز هذه الحياة على مجموعة مقومات بنائية تمنح الحيوية والطاقة والرشد والفاعلية للإنسان، تعينه على إدارتها بوعي وبصيرة، وهو ما نوضحه بهذا المخطط:



II- مقومات الحياة الفردية: إن هذه المصنوفة من المقومات نراها بمثابة أساسات هذا البناء:

1- الفكرة: تمثل الفكرة بالنسبة للإنسان جوهر وجوده، فهي من يجعل منه كائنا مستقلا متميزا، يقول الإمام: "وفكر يتصرف بها"²، يتبين بها وجهته انطلاقا من نوعية الفكرة التي يحملها في حركته وعمله، ويقول: "الفكر مرآة صافية"³، صافية بمدخلها ومخارجها وفي الرؤية والهدف، على بينة في الوجهة التي يختار، وعليه فالفرد لا يمكن إلا أن يعد الفكرة التي يحملها. "إنه مع قدح زناد الفكر يتولد نور الوعي"⁴. إذن فالفكرة تعد نور الذات الفردية في حركتها وسيرها نحو الحق.

إن بناء الفكرة في الإنسان [= الفرد] معناه بناء الحياة الفردية على هذا الأساس، "فما الحياة العظيمة سوى شحنة من الأفكار العظيمة"⁵، فعظمة الحياة، من عظمة الفكرة، حيث يتأسس على الفكرة في ذات الفرد النظام الثقافي والأخلاقي، واكتساب الوعي والمعرفة البانية لمنظومة

¹ - محمد عبد الرحمان مرجبا : الفكر العربي في مخاضه الكبير، ص 195.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 22.

³ - المصدر نفسه، ص 431.

⁴ - خالص جلبي : فلسفتي، مركز الناقد الثقافي، دمشق، 2009، ص 100.

⁵ - محمد عبد الرحمان مرجبا : الفكرانية، ص 11.

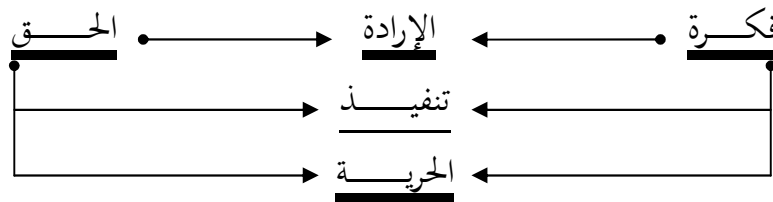


الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

القيم التي تصنع حياته، وبهذا فالفكرة هي جوهر الفرد وحقيقته، ووجهته التي يصيب ويريد، إلى دنيا، أو إلى إرادة آخرة. إذن فالحياة الفردية هي فكرة.

2- الحرية: تمثل الحرية مبدأ انطلاق الحياة الفردية، من آفاقية النفس إلى الآفاقية الكونية، والحرية هي الوعي بالوجود، والإمكان الذي يحرر الفرد من الحتميات والضرورات، حيث يحول الطاقة والفكرة إلى منجز حي، يقول الإمام: "ولا تكن عبد غيرك، وقد جعلك الله حراً"¹. إذن فالحرية هي تحرر من الأغيار ومختلف الحتميات، حرية تصنع الأحرار المتميزين، وعظمة العابدين، "فالحرية، قمة الحرية، أن يتجلى الإنسان بالوعي حراً"²، فالحرية الواعية تتأسس حياة الفرد، وبذلك تصبح الحرية تبصرة وفقها تعين على إدارة الحياة وتدفع مضادها من الاستعباد والإذلال، يقول الإمام: "الطمع رق مؤبد"³، لا يكون الفكك منه إلا بالحرية التي تمنح الاستقلال من هيمنة الأشياء والمزاحمات التي تصده عن إدراك الغاية من خلقه، غاية يوضحها الإمام بقوله: "فما خلق امرؤ عبثاً فيلهو"⁴. انتفاء [= العبثية واللهو] يدخل ضمن إدراك مقاصد خلق الإنسان محمداً في عبادته سبحانه، عبودية تقوم على فهم حقيقة مملوكيته لله سبحانه مرتبطة بالحرية، وهو ما يعطي انطلاقه الحر في الحياة، بعيداً عن كل الإكراهات التي تضعفه عن القيام بواجبه ودوره من الانحصار بين فكري الاستعباد والاستضعاف، وبذلك فالحرية تعد "قدرة على الفعل مع انعدام كل قسر خارجي أو داخلي متحققة بالإرادة"⁵، وعلى هذا الأساس تصبح الحرية مقوم رئيساً يبنى الحياة الفردية، بما تعطيه من فاعلية عظيمة للفكرة.

3- الإرادة: تعد الإرادة بمثابة القدرة الدافعة على تحريك الطاقة الذاتية على الإنجاز والعمل والفعل. إذن فالإرادة قوة تمكن من التغلب على القوى المعيقة للفكرة. إذن فمن ذلك العزم الثابت ينطلق الفرد كي يتمثل الحق، بتفاعل هذه الثلاثية.



¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 369.

² - حاج حمد محمد أبو القاسم: حرية الإنسان في الإسلام، مراجعة محمد العاني، دار السقاقي، بيروت، 2012، ط1، ص 109.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 458.

⁴ - المصدر نفسه : ص 490.

⁵ - شكشك أنس : فلسفة الحياة وحكمة الوجود، دار الحافظ للكتاب، حلب، 2002، ص 99.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

تلخص هذه المعادلات جوهر حركة الإنسان، بل إن الحق يحتاج إلى هذه الإرادة ليظهر، يقول الإمام: "قدر الرجل على قدر همته"¹، فمقدار التحقق بنسبته يماثل الهمة العالية والإرادة، وتنفيذ الفكرة يكون بهذه الإرادة، وكأنه يراه أمامه، وفق معامل الهمة والإرادة، وبذلك فإن "أعز شيء يملكه الفرد حركة شخصية في داخله"²، وهذه الحركة الداخلية، هي الفكرة الإرادة المنطلقة في فضاء الحياة من نبع الحرية، يقول الإمام: "ما أنقض النوم لعزائم اليوم"³، فالنوم عن الفكرة يذهب بالهدف، وبهذا فالإرادة تمثل يقظة الكائن في الحياة، وهي مناوئ العجز، كما أن العجز مناوئ لها، يقول الإمام: "العجز آفة"⁴، باعتباره يمثل المخرجات العملية للفكرة التي تصير آفات إنسانية.

وانطلاقاً من هذا، فإن الإرادة تمثل قوة المواجهة قصد الظفر بالمعنى، "فإذا أردت أن تكون رجلاً، فعش في خطر"⁵، بدافعية تواجه الخطر وتمكن للفكرة وللحق، يقول الإمام: "ثمرّة التفريط الندامة، وثمرّة الحزم السلامة"⁶، يمثل هذا القول قانوناً يؤسس للإرادة التي تصنع الحياة الفردية، بالهمة المتطلعة إلى المقامات الرفيعة والآفاقية الكونية، ويدفع الإمام إلى مثل هذا، فيقول: "إن الله سبحانه جعل الطاعة غنيمة الأكياس عند تفريط العجزة"⁷، فالإرادة تماثل الظفر وهذا ما يضيئه العجزة، وعليه فالحياة الفردية هي الإرادة المثمرة في الحياة.

4- التزكية: يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾⁸. تعد التزكية الصناعة الثانية للنفس الإنسانية بعد التسوية الإلهية، فقد أوكل الله ﷻ للإنسان مسؤولية تزكية نفسه وترشيدها على سلم القيم والحق والجمال والاستقامة والأخلاق، ترشيد يضع الأساسات الفطرية السليمة داخل الذات، والبرمجة الواعية لمنظومة القيم الأخلاقية والإيمانية التي ينطلق منها الفرد في بناء حياته، يقول الإمام: "وإنما قلب الحدث كالأرض الخالية، ما ألقى فيها من شيء قبلته، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشغل لبك"⁹، وقلب الحدث يعادل التسوية الإلهية للنفس، ويأتي فعل التزكية ليتماثل مع ما ألقى

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 438.

² - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 208.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 500.

⁴ - المصدر نفسه، ص 431.

⁵ - محمد عبد الرحمان مرجبا : الفكرانية، ص 13.

⁶ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 458.

⁷ - المصدر نفسه، ص 483.

⁸ - سورة الشمس، الآية 9.

⁹ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 362.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

فيها من شيء قبلته، مثله مثل الأرض، وتقود هذه العملية التربوية بالآداب إلى تحصيل حالة النفس المطمئنة بالتركيز، وعليه فهذه العملية تسير وفق هذا المنحى التراتبي؛ تسوية إلهية للنفس^(أ)، ثم تركيز إنسانية لها^(ب)، فنفوس مطمئنة^(ج) ترتبا ونتيجة، وعليه "فالتركيز هي التطور نحو الأفضل"¹، حيث تكون فتحا يحقق النماء بالإيمان والمعنى بالقيم والصالحات والخيرات، ومادام أن التركيز هي فعل إنساني، فإن الإمام يرى في أسلوب الوعظ الحسن أداة هذا النماء، قبل أن يقسو القلب فلا يقبل الحق، فيقول: "ولا تكونن ممن لا تنفعه العظة إلا إذا بالغت في إيلامه، فإن العامل يتعظ بالآداب، والبهايم لا تتعظ إلا بالضرب"². إذن فطريق التركيز يتم بالعظة والآداب، حتى تلين النفس للحق وترسخ فيها قابليات الهداية، وتثبت فيها معالم التوحيد والإيمان، وترشيد الفعل والسلوك ليتوافق مع الحق، فالتركيز تتعلق بتحقيق برجة إيمانية، قصد إضاءة الوعي الداخلي للذات تنطلق منه في الحياة.

5- الاستقامة: تمثل الاستقامة مراقبة تطبيقية للفكرة والسير الامثالي الحسن على طريق الحق في كل صغيرة وكبيرة، يقول الإمام: "العمل العمل ثم النهاية النهاية والاستقامة الاستقامة"³، فقد ربط الإمام بين العمل والنهاية بالاستقامة، حتى تتحقق الغاية، وهي راحة الفرد بالاستقامة في دنياه وآخرته. إذن فالاستقامة مبدأ مراقبة وتوجيه يضبط حركة وفعل الإنسان، تصرف عوارض الطريق ومعيقاته والمسارات الجانبية المنحرفة، يقول الإمام: "ترك الذنب أهون من طلب التوبة"⁴، فترك الذنب هو عين الاستقامة وسبيلها، لأنها تعني السير في طريق الحق، بدل طريق الباطل المنحرف الملتوي، وتمثل التقوى والأخلاق ضابطا وسنة ذاتية تتعلق بالوعي الداخلي والضمير الخلقى، الوازع الأكبر في عملية السير على خط الاستقامة، يقول الإمام: "التقوى رئيس الأخلاق"⁵، فالتقوى مبدأ عظيم، متفاعلة مع المنظومة الأخلاقية برمتها التي تحمي خط الاستقامة، وإن السير على هذا المبدأ يعني توازن الفرد، من خلال تحقيق تلبات متوازنة لمطالبه، توازن "هو الفاعل الأكبر في الاستمرار"⁶، لتكون بذلك الاستقامة توجيهها للفكرة والطاقة نحو الهدف، والهدف هو في الحياة المستقيمة، حيث الاهتداء بأنوار الحق والإيمان، وتمنح الفعل خاصية الصواب والرشد، بما تعطيه من مميزات أولها

¹ - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 223.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 372.

³ - المصدر نفسه، ص 239.

⁴ - المصدر نفسه، ص 457.

⁵ - المصدر نفسه، ص 496.

⁶ - خالد آغا القلعة : السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة، ج1، ص 79.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

توافقه مع الحق، وثانيها كماله قائده إلى الترقى في الأداء، وضابطه العقل الموجه، يقول الإمام: "كفأك من عقلك ما أوضح لك سبل غيك من رشذك"¹، فالعقل هادية الفرد إلى الحق، وأداة امتثال لخط الصواب والرشد الذي هو من أكبر تجليات خط الاستقامة، وبذلك فإن "الاهتداء بالأنوار الداخلية يقود إلى الراحة، بينما الاهتداء بالأضواء الخارجية يمنع الاصطدام بالناس"²، ومعناه الانطلاق من أنوار الاستقامة التي تفرز حالة السلام مع النفس ومع العالم، وتمنع أن "تزيغ قلوب بعد استقامة"³، وبهذا الضبط تحفظ الاستقامة النفس من التلوث والتفكك وتصون أقرب حياة لها.

6- الرؤية: يتطلب وجود الإنسان في الحياة ضرورة امتلاك الفرد لرؤية وبصيرة تكشف له عن الحقيقة، ومعالم طريق الحق، يقول الإمام: "بينكم وبين الموعظة حجاب من الغرة"⁴، وهي الحوائل التي تمنع من إبصار الحق، ولذا ينبغي أن يزال هذا التكثف وتلك الموانع، نواتج الذنوب والمعاصي والفساد، حتى يتحقق للفرد اليقظة والانتباه النوعي، وعليه فأمام المزاومات التي تفد على العقل وصفحة النفس، فإن الرؤية تعد الفرز الحقيقي بين المتعارضات المختلفة، يقول الإمام: "إذا ازدحم الجواب خفي الصواب"⁵، وبحضور هذه الآلية التي هي الروية والمعينة نبقي على مسافة أمان الرؤية، كي يتحقق الكشف والانجلاء أمام الذات، لتختار طريق الرشد والصواب، يقول الإمام: "ما شككت في الحق مذ أريته"⁶، حفاظا على سلامة الفطرة بالاستقامة، حيث تمكن الرؤية من إزالة عوارض الحق، وإن الرؤية هي التي جعلت الزهاد: "يرون أهل الدنيا يعظمون موت أجسادهم"⁷.

إن الرؤية مع المجاهدة والتجربة والفكرة تصبح بصيرة، وبقينا داخليا يستحيل معه أن يقع الفرد في التيه والضلال، بل وتبقى مسافة الأمان ثابتة، يقول الإمام: "إن معي لبصيرتي ما لبست على نفسي ولا لبس علي"⁸، بصيرة هي الرؤية التي أدخلت الإمام في هذه اليقينية وأبعدته عن كل تضليل مصدره النفس والملبسات الخارجية، ولذا صارت عنده "ضياء للعقل"، وبذلك تحدد خط سيره وجهة وعملا وإرادة وعبودية وامتثال للحق، يقول الإمام: "وربما أخطأ البصير قصده وأصاب

1- علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 498.

2- خالد آغا القلعة : المرجع السابق، ج 1، ص 116.

3- علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 202.

4- المصدر نفسه، ص 477.

5- المصدر نفسه، ص 466.

6- المصدر نفسه، ص 458.

7- المصدر نفسه، ص 327.

8- المصدر نفسه، ص 338.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

الأعمى رشده"¹، فالخطأ والصواب لا يتعلق بالرؤية الحسية [= البصر والعمى]، وإنما يتعلق بالبصيرة التي هي كشف داخلي، وبأدوات نوعية فارقة من أنوار الإيمان. إذن فالرؤية هي بصيرة قلب وضياء عقل، كما تعد إمكانية كبيرة تؤطر قضايا الإنسان المختلفة، وتمكنه من إدراك الحق والسير الحكيم نحو قصده، وتستمد الرؤية انطلاقاً من مصادرها، من الكون والواقع والقرآن.

إذن تعد الرؤية سلاح الإنسان في حركته وتنظيم وإدارة حياته، وصواباً في تنفيذ الفكرة.

7- كف الأذى: إن من أعظم ثمار التزكية والاستقامة على الحق، كف الأذى عن الناس، لأن من طبيعة النفس أنها نزاعة للأذى والظلم، وتتطلب هذه الطبيعة في النفس المظلمة تزكية، كي تشرق أنوار الحق والإيمان منها، ولذا "فالفرد يشعل الضوء، والفرد يطفئ الضوء"²، وأمر الكف والانطلاق يعود إلى إرادة الفرد، وهو ما يمثل مبدأ الحياة الصالحة ومقوم الإنسانية، لأن الفكرة ترتبط رأساً بأنبال العواطف والأخلاق، وهي المحبة التي تعد آلية وأداة جلييلة في عملية الدفع، يقول الإمام: "فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك وأكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم"³، يؤسس هذا التوجيه لتحصيل حالة سواء النفس، بالابتعاد عن الأذى والظلم، وهذا الأذى هو برأي "الرافعي": "لا يقع إلا في حيوانية الإنسان ولا يؤثر إلا فيها"⁴، حيث أن اعتدال القوى الغضبية والشهوية في الإنسان هو مقدمة لحصول النفس المشرفة التي لا يصدر منها إلا الخير والصلاح، أي من الروح الخيرة الطيبة، وهو ما جعل الإمام يدفع إلى مراقبة ذاتية دقيقة، فيقول: "بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة"⁵، ومراد الكف هو التوقف عن الاندفاع نحو الإساءة حتى في حق النفس وفي حق غيرها، من الناس والمخلوقات، لأن كف الأذى يتوافق مع إرادة الله، "وقد أوصيتم بما يجب لله عليهم من كف الأذى"⁶، وهذا المبدأ قويم في بناء الحياة الفردية على أسس ودعائم سليمة.

8- السلام: تقود التزكية والاستقامة الذات الفردية إلى الدخول في حالة السلام، انطلاقاً من الامتثال للحق وفق الهاديات القرآنية بالسير العادل، والتوقف عن الظلم وكف الأذى عن الآخرين، والدعوة إيمانية واضحة للدخول في السلم والأمن، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 372.

² - محمد عبد الرحمان مرجبا : الفكر العربي في مخاضه الكبير، ص 540.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 365.

⁴ - مصطفى صادق الرافعي : وحي القلم، مج 1، ص 118.

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 367.

⁶ - المصدر نفسه، ص 415.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

كأفّة¹، فالسلام من أعظم تجليات النفوس والأرواح العظيمة وأهل الطاقات الرفيعة، يقول الإمام: "خالطوا الناس مخالطة إن متم معها بكوا عليكم، وإن عشتم حنوا إليكم"²، وملخص هذه العاطفة يكمن في المعاملة الحسنة الرفيعة، معاملة خالية من الظلم والأذى، ولكنها مملوءة بفيض الإحسان والجمال، وهذا لأن "السلام يبدأ من المفهوم السليم من المعرفة الصحيحة"³، مبدؤه المعرفة، ولذا دعا الإمام ابنه إلى توجيهه وازن، فيقول: "فإنه لم يأمرك إلا بحسن، ولم ينهك إلا عن قبيح"⁴، دعوة إلى تمثل حالة اعتدال النفس وتحصيل جمالية إنسانية بالإحسان، وهي في الجمل فكرة تنطلق من ذات خيرة صالحة، ولذا نجده يقول: "احصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك"⁵، بهذا الأسلوب يتجسد السلام ويتحقق هذا الانتفاء بقلع الشر من النفس، حيث تستهدف فكرة السلام الآخر بجذبه إلى دائرة الفرد الخاصة بالخيرية، "فكلمة ظلم النفس لا تفهم بمعزل عن حرمان النفس من السلام"⁶، فهما مترابطان، ذلك أن الظلم يحرم النفس من السلام، ولذا فقلع الشر من الصدر يمنع الظلم ويمنح السلام، سلام يدفع إلى تحقيق إنجازات فردية عظيمة في حياة الإنسان ويلقي بظلاله على الآخرين، ولنلاحظ "كيف يكون المرء يائسا، وحيدا، شقيا، في نزاع، واقعا في شرك التنافس، العدوان، الفظاظة، العنف. هذه هي فعليا حياتنا كل يوم، وهي ما نسميه العيش"⁷، عندما ينعدم السلام في حياته، بفقدان الفكرة التي تصنع الحياة وتمنح الجمال. إذن فالخروج من هذا الحال البائس المتعب، إلى حالة الأمن والسلام سبيله الابتعاد عن الظلم والأذى، يقول الإمام: "ولا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان"⁸. إذن فالسلام قدرة وجمال ومبدأ الحياة الفردية العظيمة، والحياة الاجتماعية العادلة والإنسانية الرفيعة، ومع المخلوقات في هذا الكون، تخلقا باسم الله السلام، يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾⁹، فدار السلام ارتبطت بالاستقامة على الحق والبعد عن الظلم والأذى، وهي موجبة لدخولها.

¹ - سورة البقرة، الآية 208

² - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 432.

³ - سعيد جودت : الدين والقانون، رؤية قرآنية، دار الفكر، دمشق، 2002، ط2، ص 125.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 364.

⁵ - المصدر نفسه، ص 458.

⁶ - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 174.

⁷ - جدو كريشنامورتى : التأمل، ص 87.

⁸ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 371.

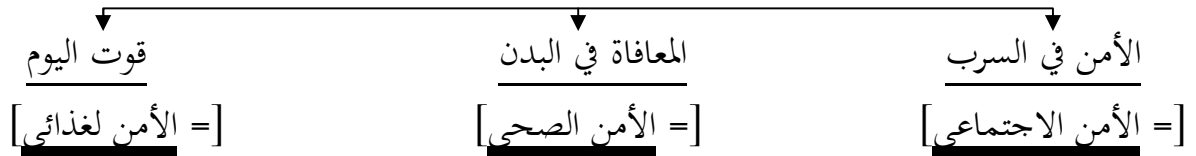
⁹ - سورة يونس، الآية: 25.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

تبدأ مقومات حياة الفرد بفكرة وتنتهي بعمل، وتبنى بالإرادة والحرية، وتصلق بالتركية والاستقامة، وتسيج بالرؤية والسلام، وتحفظ بكف الأذى، بهدف بناء الحياة بأنوار العلم والإيمان.

ثانياً: أبعاد الحياة الفردية: تتوزع الحياة الفردية على مدارات مهمة تشكل في النهاية دائرة هذه الحياة بمجالها الواسع، بدءاً من البعد النفسي إلى العبادي إلى العملي إلى المعاملاتي، وتمثل نقطة تركيز الفكرة في الذات وحركتها في الاتجاهات الحيوية لعالم الفرد ودائرة اهتمامه، بما تنميه من حس المشاركة والمبادرة والأداء، والروح الإنسانية والجمالية، يقول النبي ﷺ: "من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسمه عنده طعام يومه، فكأنما حيزت له الدنيا"¹. يعطينا الحديث تصوراً للحياة الفردية في حدها القليل، من خلال مكونات ثلاث، وإن هذا الأفق بحده القليل في تصور النبي ﷺ للإنسان يصبح حداً واسعاً، وكأن انطلاقه قد حقق له حياة الدنيا بأكملها، رغم طابع الزهد الذي يدفع إليه الحديث، إلا أن أثره فاعل في إقامة حياة متوازنة، لأنها تحققت فيها أبعاد الأمن المختلفة التي يسعى إليها كل إنسان غاية ومطمحاً، وعليه فالحديث قد لخص أهم أبعاد الحياة، في ثلاثة محاور رئيسة تقوم عليها كل حياة صالحة آمنة، وهي:



تشكل هذه المحاور فكرة بناء حياة الإنسان بأبعادها الفردية، وهي وتمثل مع مقومات الحياة أرضية بناء الحياة الاجتماعية الصالحة، والدخول الآمن إليها، في مجتمع صحي سليم من الأمراض المادية والمعنوية، يتجه نحو التطور والرفعة والكمال بأفراده، ينعم فيه الناس جميعاً بالأمن والراحة.

I- البعد النفسي: إن أول بعد ينبغي أن يتأسس داخل الحياة الفردية هو البعد النفسي، باعتباره مقوماً رئيساً في تشكيل بنية تركيبية الإنسان، ومعادلة بنائه، وقد أشار القرآن إلى أمر النفس، من خلال مجموعة أساسيات، تشكل فكرتها ومبدأ بنائها، وهي:

أ- آية ظلم النفس: قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾².

ب- آية الاهتداء بآية النفس: قال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾³.

¹ - الحميدي أبو بكر القرشي: مسند الحميدي، تح حسن سليم وأسد الداراني، دار السقا، دمشق، ج 01، 1996، ط01، ص 407.

² - سورة البقرة، الآية 57.

³ - سورة الذاريات، الآية 21.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

ج- آية سواء النفس: قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾¹، وتعلق بالمركب الإلهي في النفس بقابلياته من التقوى أو الفجور.

د- التركية: قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾²، وتعلق بالمركب الإنساني، وهي النفس المشرقة.

هـ- التدسية: قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾³، تنتج التدسية حالة مغايرة، وهي النفس المظلمة.

و- أنواع النفس: ينتج عن عمل الإنسان في تركية نفسه وتدسيته، ثلاثة أنواع وأحوال:

1- النفس المطمئنة: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾⁴.

2- النفس اللوامة: قال تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾⁵.

3- النفس الأمامة: قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾⁶.

ويطالعنا القرآن بتقسيم ثلاثي لوضع الإنسان في العمل، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ

الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾⁷، فالآية تقدم

تصنيفا مفارقا لبعضه، فهناك الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، تتماثل بالعمل مع أنواع

النفس، وبالتقابل تتماثل النفس الأمامة مع الظالم لنفسه، والنفس اللوامة مع المقتصد، بحراكه

ومدافعته كي تكون نفسه مقتصدة، وتتماثل النفس المطمئنة مع السابق بالخيرات. إذن لقد صار

مفتاح المعالجة بيد الإنسان.

وبمكنا تركيز هذه المفاهيم والمركبات النفسية، في هذه الترسيم:

¹ - سورة الشمس، الآية 7-8.

² - سورة الشمس، الآية 9.

³ - سورة الشمس، الآية 10.

⁴ - سورة الفجر، الآية 27.

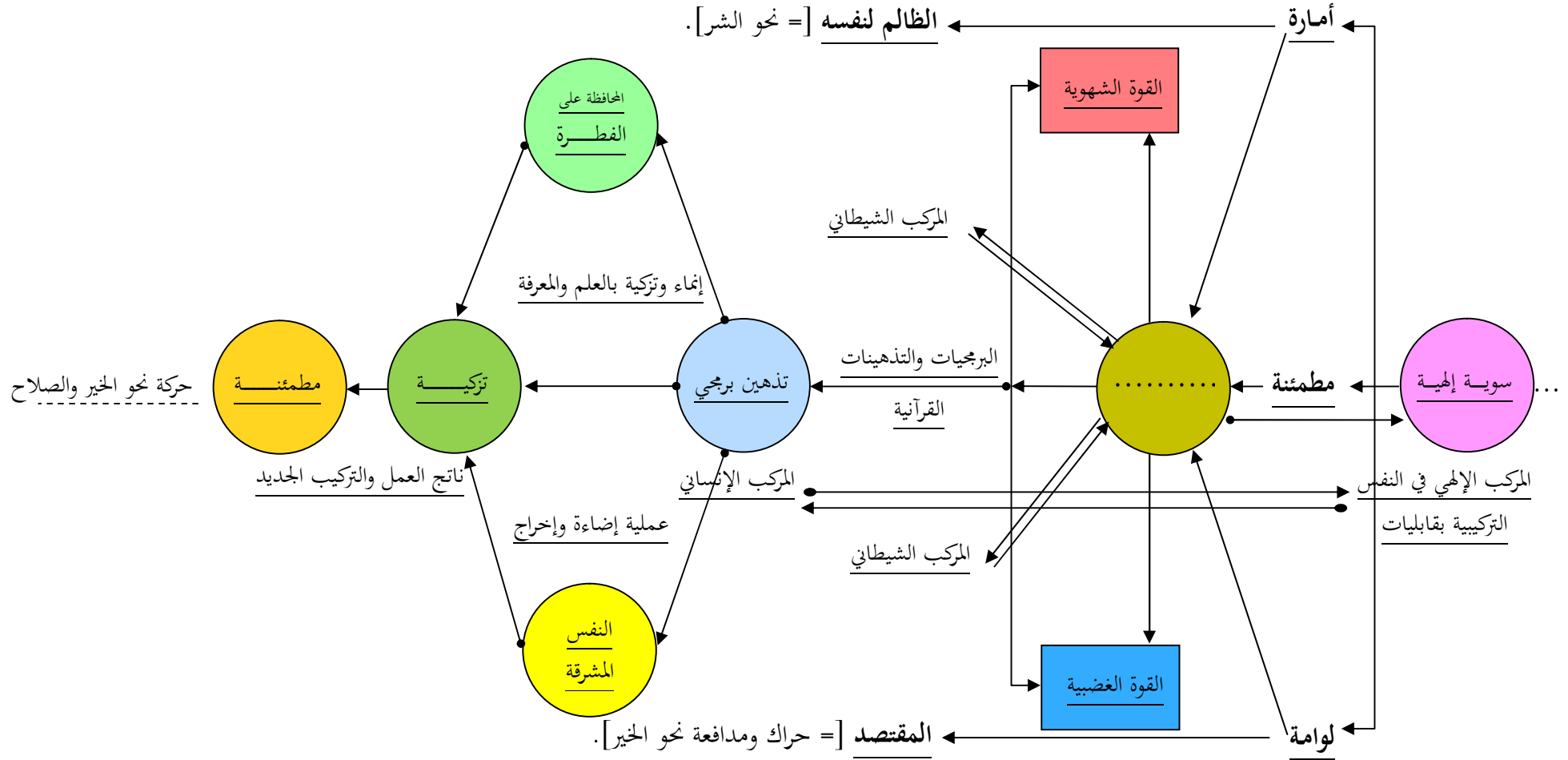
⁵ - سورة القيامة، الآية 2.

⁶ - سورة يوسف، الآية 53.

⁷ - سورة فاطر، الآية 32.



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة



الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

نرصد البعد النفسي في نهج البلاغة من خلال مجموعة محاور رئيسة تتعلق بحياة الفرد:

1- إصلاح النفس: يدفع الإمام الإنسان إلى تزكية نفسه والاهتمام لأمرها، حيث يقول: "أيها الناس تولوا من أنفسكم تأديبها، واعدلوا بها عن ضراوة عاداتها"¹، فالتأديب يعني إصلاح النفس وعدلها عن الأفكار والسلوكات المستحكمة من العادات الضارية، وطلب الإمام واضح، كفها "عن إتباع ما تندفع إليه عاداتها"²، وهذا أمر تكويني وتذهيني بالتزكية، بمخالفة عاداتها، وتوجيهها بهذا الضابط: "وأمره أن يكسر نفسه عند الشهوات ويزعها عند الجمحات، فإن النفس أمانة بالسوء إلا ما رحم الله"³. إن انطلاق النفس وحركتها نحو ملائمتها يتطلب كسر هذه الاندفاع، لأنها تأمر صاحبها بالسوء، وتوقع في المخالفة، إذا هي "لم تنقد لقائد العقل الصحيح، والشرع الصحيح"⁴، وتعالج بهذا التكسير، لأن من طبيعتها أنها "لا تهدأ"⁵، وهذا عين ما نبه إليه القرآن في حديثه عن أنواع النفس بحسب امتثالها أو مخالفتها.

وعليه يتعين الاستعانة بالرحمة واللفظ الإلهي الذي يعين الإنسان في حسم هذا الصراع والتناقض، قصد الوصول إلى حالة السواء والاطمئنان، "وبدون هذه الرحمة تميل النفس باتجاه الشر، إلا أنها تتحرر من هذا الميل الكامن فيها وتهتدي بفضل مساعدة الله لها، لتعود إلى طبيعتها الأزلية الصحيحة"⁶، وبذلك تلامس روح الإنسان ليتغير نحو الخيرية، كمبدأ يدخل في سنة تغيير ما بالنفس، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾⁷، حيث أوكل فعل التغيير الفردي والاجتماعي إلى الإنسان وفق هذه القاعدة التي تثمر بناء نوعيا في الذات، من عوامله:

عامل البرمجة	النص التذهيني الموجه	التأويل
عامل البرمجة القرآنية:	يقول الإمام: "وأن ابتدئك بتعليم كتاب الله وتأويله وشرائع الإسلام وأحكامه وحلاله وحرامه، ولا أجاوز ذلك إلى غيره، ثم اشفقت أن يلتبس	يقول "ابن باديس": "إن تكميل النفس الإنسانية هو أعظم المقصود من إنزال الكتب" ⁸ ، فهذا التكميل يعد ضرورة، أمر أبان عنه الإمام في وصيته لابنه، أن فعل التزكية في هذا العمر من مرحلة التأديب يدفع عنه قساوة القلب لتقبل الحق. وتعود هذه القاعدة الثلاثية إلى

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 487.

² - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 487.

³ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 392.

⁴ - محمد عبده: المصدر السابق، ص 392.

⁵ - ابن باديس: تفسير ابن باديس، ص 66.

⁶ - رضا شاه كاظمي: العدل والذكر، تعريف بروحانية الإمام علي، ص 113، 114.

⁷ - سورة الرعد، الآية 11.

⁸ - ابن باديس: المرجع السابق، ص 74.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

<p>فكرة <u>التذهين القرآني</u> لبناء منظومة الوعي، من خلال التذهينات الضرورية والوظيفية، بوضع القيم والمبادئ والكليات القرآنية على صفحة النفس في الصغر، ففي هذه المرحلة الغضة المشتهة يأتي هذا المنع وقاية من الانحراف والتدسيات ودفع الالتباسات التي تأتي بما الأهواء المفسدة للفطرة، حيث تسند التزكية إلى مصدر الهدى ومربٍ مذهب: أب، أم ..</p>	<p>عليك ما اختلف الناس فيه من أهوائهم وآرائهم مثل الذي التبس عليهم". ص 363</p>	
<p>إن التزكية هي ترويض للنفس بآلية التقوى أمام العوارض، وتقتضي معرفة "كيف يسوسها ويحفظ لها حرمتها"¹، وبهذه الرياضة الروحية تدفع إلى زهد ذكي يمنع جريانها وراء الشهوات، وتمثل قيادة هداية إيمانية، وعليه فالتقوى رياضة تصفية وظيفية تحقق مراد الإنسان، أي "موضع ما تحشى الزلة وهو الصراط"²، إلى الأمن، فبالتقوى يُغالب الهوى والجشع ومختلف الأمراض الروحية القاتلة، بكد يسمو بالروح "إلى هموم الحقيقة العالية"³، وعليه فالترويض سمو بالنفس بآلية التقوى، إلى معنى الإنسانية.</p>	<p>يقول الإمام: "وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر وتثبت على جوانب المزلق، ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العمل ولباب هذا الفج ونسائج هذا القز ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخير الأظعمة". ص 384.</p>	<p>عامل رياضة النفس</p>
<p>تمثل القدوة أحد عناصر التذهين الإنشائي الفاعل في رسم معلم الشخصية، لأن "عمل الحكيم أن يولد الحب عن طريق التربية"⁴، مخاض يقطع الكائن لتربية ذاته، ذلك أن "أعز شيء يملكه الفرد حركة شخصية في ذاته"⁵، ولذا كان لا بد أن تتركز على ساند حي، وعلم كمال ومؤدب بصير [= يرفع لي من أخلاقه علماً]، حتى صار الإمام هاديًا غلاقًا للضلالات، مفارقًا لغيره من الناس.</p>	<p>يقول الإمام: "ولقد كنت أتبعه إتباع الفصيل أثر أمه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالإقتداء به". ص 282.</p>	<p>عامل القدوة بالمثل</p>

يقول الإمام: "وإني من ضلالهم الذي هم فيه والهدى الذي أنا عليه لعلني بصيرة من نفسي، ويقين من ربي"⁶. إن العمل داخل النفس وفي هذه التكوينية تحول إلى بصيرة و يقين في رؤية ومعرفة الحق، بالنفس الملهمه لغيرها، القائدة المعلمة لباقي النفوس، "إنها النفس المسواة قمة العالم والتطور"⁷، النفس القدوة. وتمكن هذه الأدوات من تحقيق كمال الحياة الفردية في بعدها النفسي،

¹ - محمد عبد الرحمان مرجبا: الفكرانية ص 81.

² - محمد عبده: شرح نهج البلاغة ص 384.

³ - الرفاعي: وحي القلم، مج 2، ص 71

⁴ - أنس شكشك: فلسفة الحياة، ص 77.

⁵ - مصطفى ناصف، مسؤولية التأويل، ص 208.

⁶ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 417.

⁷ - جودت سعيد: الدين والقانون، ص 99.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

بوصفها آلية ذات طبيعة وأثر ومرتب من سلوك وخلق وما تعطيه من معرفة ووعي وعلم وإيمان ومنهج استقامة ورشد.

2- الاهتداء: إن جهد التزكية وترويض النفس يستمر بأدوات معرفية ومنهجية وبالعمل المتواصل، حتى تترسخ قيم الحق في الذات، وتأخذ هذه الرياضة طريقها في تثبيت معالم هذا البعد على أنوار العلم والمعرفة وهاديات التزكية الروحية، أولها الإعانة والألطف الإلهية مشفوعة بالمراقبة والتخفف.

أ- الإعانة الإلهية: يقول الإمام: "إن من أحب عباد الله إليه عبدًا أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف، فظهر مصباح الهدى في قلبه، وأعد القرى ليومه النازل به، فقرب على نفسه البعيد وهون الشديد، نظر فأبصر، وذكر فاستكثر وارتوى من عذاب فرات، سهلت له موارده فشرب نهماً وسلك سبيلاً جدداً قد خلع سراويل الشهوات، وتخلّى عن الهموم إلا همماً واحداً تفرد به، فخرج من صفة العي، ومشاركة أهل الهوى، وصار من مفاتيح أبواب الهدى ومغاليق أبواب الردى"¹. توجد النفس بين وضعين حرجين، فمن جهة هناك الضعف الذي يلازمها، وهناك الإجراءات التي تعرض عليها، ومع هذا الوضع تحتاج إلى تعزيز حي يقوي قدرتها على المواجهة، ولا يتم ضبطها إلا إذا تعهدتها العناية الإلهية ورعتها بتلك الألطف واللمسة الحانية التي تمنحها السكون والطمأنينة، فالهداية "تظهر حدة المقابلة المحتواة ضمن هذه الجملة القرآنية القوية أنها تغلف وعيا مطلقاً للنفس وغير محدود بحاجتها إلى الله في جميع الأحوال"²، تحول اضطراب الإنسان وتيهه إلى بصيرة اهتداء ولطف يسقي به شجرة حياته، حتى تكون خطواته منهجية موافقة للحق. إن الهداية التوفيقية تساعد في تحقيق عصمة الإنسان، بوصفها إعانة وتوفيق، ترفق بالعمل تحلية وتخلية.

ب- المراقبة: يقول الإمام: "رحم الله امرأ سمع حكماً فوعى، ودعى إلى رشاد فدنا، وأخذ بمعجزة هاد فنجا، راقب ربه وخاف ذنبه، قدم خالصاً وعمل صالحاً، اكتسب مذخوراً واجتنب محذوراً، ورمى غرضاً"³. إن هذه الشبكة من الأفعال السلوكية الجالبة لبعضها، والآخذة بأعناق بعضها بعضاً، تمثل هاديات النفس نحو الحق، وهي نظام سنني تذهيني وبرمجي بالتزكية، من أفعال: [سمع/وعى، دعي/دنا، أخذ/نجا، راقب/خاف، قدم/عمل، اكتسب/انتفع، اجتنب/دفع، رمى/حقق]، وتشكل مجموع هذه الأفعال أجهزة الوعي والمعرفة الهادية إلى طريق الحق، وهي بمثابة

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 116.

² - محمد رضا شاه كاظمي: العدل والذكر، ص 117.

³ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 97.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

الرقابة الذاتية التي تصوب الطريق، حيث أن "الرقابة الذاتية تجعل الإنسان يستمرئ الحق والخير والعدل ويستسيغهما، ويرفض الباطل والشر والظلم ويلفظهما"¹. إن هذا التشبيك يعطي مصفوفة متكاملة من الهاديات، ومعالم رقابة علمية وعملية، "تقود إلى الكمال الخلقى"²، تصنع الحياة بفعل الخيرات، وتمثل متلازمة ثابتة بين النفس والمراقبة الذاتية، تجلب الطمأنينة للفرد في دائرة حياته.

ج- **التخفف**: يقول الإمام: "وإن الساعة تحذوكم من خلفكم تخففوا تلحقوا"³، يمكن أن نضع هذه الجملة معلم اهتمام ترتكز عليه النفس في تحقيق كمالها بمعيار التخفف، فكلما تخفف الإنسان من الأثقال [= الذنوب]، كلما تمكن من الوصول الآمن، وعليه فإن "النفس الزكية أو الطيبة هي التي تخلصت بالمجاهدة من الخبائث الحسية التي تلوث الجسم"⁴، فخفة الروح سبيلها مجانبة الذنوب والمعاصي والاستقامة على الحق، فالخفة سحجية النفوس اليقظة والعقول الحية تستطلع بها أحوالها، وهذا الإمكان محقق باعتبار "الاستعداد العظيم من القابلية للفجور والتقوى"⁵، ويمد هذا التخفف النفس بالبصيرة، ويقود الفرد إلى الحياة الفاضلة المثلى والسعادة بالإيمان. إن هذا الضبط والتقيد بخطط العمل يمنح الطاقة التي تمكن الفرد من حمل رسالة الحياة، وهو "شعور الشخص البشري بأن حياته محكومة بخطة"⁶، باعتبارها عناصر وعي وأدوات تنفيذ، ورؤية جادة تعقب بعمل دؤوب، وصدق خالص، وهي ممكنة التحقق عند من "صار عارفاً بالخير والشر، هذا الذي يتعلم من التاريخ، من الأحداث ولا يكرر الخطأ"⁷، ممن يرى في الحياة فرصة لحمل الزاد لا مكاناً للعب.

II- البعد العبادي: لقد خلق الله الإنسان لغاية شريفة، هي عبادته وَتَعْبُدُونَهُ، يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾⁸، وبهذا صار البعد العبادي ركناً مكيناً في حياة الفرد يهيئ أرضية زرع المعنى الإيماني ثابتاً في النفس، مقصد يوضحه قول الإمام: "إن البهائم همها بطونها، إن السباع همها العدوان على غيرها، وإن النساء همهن زينة الحياة الدنيا والفساد فيها، إن المؤمنين مستكنون،

¹ - أحمد رجب الأسمر : فلسفة التربية الإسلامية، ص 453.

² - المرجع نفسه، ص 453.

³ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 231.

⁴ - محمد عز الدين توفيق: المرجع السابق، ص 89.

⁵ - سعيد جودت: حتى يغيروا ما بأنفسهم، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1993، ط7، ص 81.

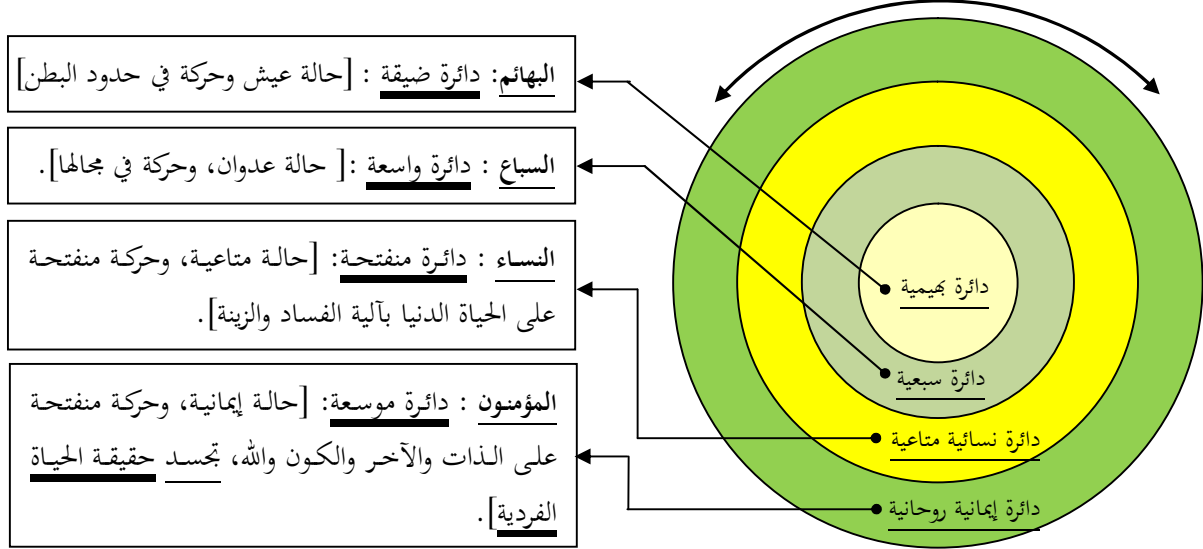
⁶ - أنس شكشك : فلسفة الحياة، ص 138.

⁷ - جودت سعيد: الدين والقانون، ص 100.

⁸ - سورة الذاريات، الآية 56.

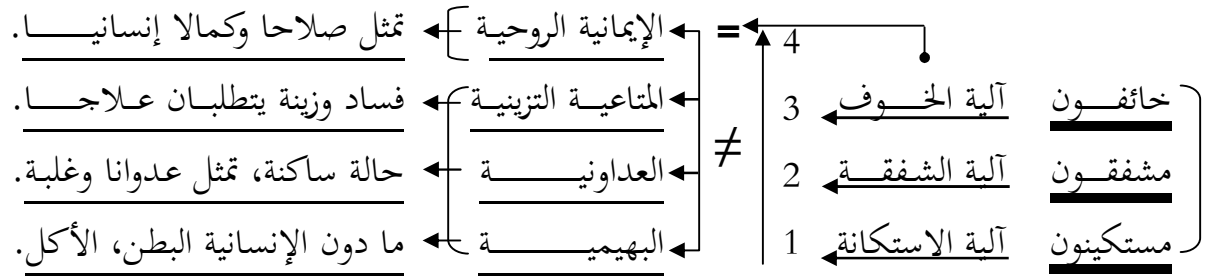
الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

إن المؤمنين مشفقون، إن المؤمنين خائفون¹، فعبادة الله تقع مقابلا لمغايرات الإيمان من مسالك الضلال، أوجهه الله على الإنسان شريعة وسنة وجمالا، المتماثل مع نعمة العقل الموجب للتكليف، ويمكن تشكيل هذه المسارات في دائرة تستغرق هذا التصنيف، بدءا من البهائم وانتهاء بالمؤمنين:



- تمثلات الدوائر الوظيفية في الحياة من الإنسان إلى الحيوان -

ومن هنا نلاحظ ذلك التدرج الذي يسير من عالم البهيمية إلى عالم الإيمان والمقامات، إلى الإنسانية بالفرد الصالح، وهي حركة تتجه إلى الترقى:



إن هذا التصنيف يحيل بالتأول على الكمال، وعلى الإنسان أن يتدرج في حياته الفردية، حتى يصل إلى مرتبة العبودية، بانتهاج خط الإيمان والعبادة، وبهذا المعنى تصبح الحياة الفردية تماثل مرتبة السعي نحو الكمال والدخول في معنى الإنسانية. إن كل صفة للمؤمن تعد الأسلوب الأمثل الذي يعالج بها أمراضه الفردية، تمكنه من أن يترقى في المقامات والابتعاد عن هذه العوالم الدونية [= أدنى من الإنسانية]، وهي غاية الخلق، "معرفة الله عز وجل وإيفاء وظيفة العبودية له بشكلها الصحيح واللائق"²، مقصد تتحرك فيه الذات الفردية، لتحصيل مرتبة العبودية.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة ص 205.

² - محمد فتح الله كولن : النور الخالد محمد مفخرة الإنسانية، ص 66.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

1- طرق تحصيل البعد العبادي: يقدم لنا الإمام مصفوفة متكاملة من طرق تحصيل البعد العبادي، وهي كثيرة من آياتها مخادعة النفس واعتقالها وحملها على الطاعة وإصلاح المثوى والذكر: **أ حمل النفس على الطاعة:** يقول الإمام: "عباد الله إن أنصح الناس لنفسه أطوعهم لربه، وإن أغشهم لنفسه أعصاهم لربه، والمغبون من غبن نفسه، والمغبوط من سلم له دينه، والسعيد من وعظ بغيره، والشقي من انخدع لهواه"¹، فالطاعة توجه برغبة ومحبة، لأن العبادة إنما "تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع"²، فالنصح المخلص للنفس واجب على الفرد، وإن وراء كل حالة ونتاج سلوكي، فلدينا ثلاثة أحوال إيجاب، ذات تدرج وظيفي، فبالنصح صارت النفس مغبوبة من غيرها، ومثلاً دالاً على الاستقامة والسلامة، ولدينا ثلاثة أحوال سلب، متدرجة وظيفياً من غش للنفس، أدى إلى غنبتها وقادها إلى الارتكاس، كان من ثمرته هذا الانتكاس والشقاء الحتمي.

ب- طريق الذكر: ذكر الإمام قضية الذكر في مطلع تأويله لقول تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾³، ويحمل تأويله تشفيراً هندسياً لآلية الذكر، من خلال أفكار وخطوات رئيسة تبني معماريته، وتقوم تأسيساته المنهجية على قواعد وثوابت منطقية مفتوحة المعنى والدلالة، يقول الإمام: "إن الله سبحانه جعل الذكر جلاء للقلوب، تسمع به بعد الوقرة، وتبصر به بعد العشوة، وتنقاد به بعد المعاندة"⁴، وتكشف أن هذه الممارسة تمثل وظيفة راقية تدفع إلى تحصيل أحوال كمالية ومقامية عظيمة، وتربط وصلات بين الدنيا والآخرة بعمارة القلوب، وعظم الفعل الإنساني وحدث التاريخ الفردي والاجتماعي بالذكر، يقول تعالى: ﴿كَي نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾⁵، فقد ربط الذكر الفردي بالفعل التاريخي، يقول تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾⁶، فقد قرن الله ﷺ بين حدث تبليغ الرسالة وممارسة فعل التغيير وبناء التاريخ بذكر الله وتسيححه، اقتران يتمثل فيه عالم الغيب والشهادة والدنيا مع الآخرة، وتغيير التاريخ مع بناء الآخرة بالذكر، ونحمل هذه التشفيرات الهندسية في معمارية الذكر بهذا المخطط:

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 115.

² - الجوزية ابن القيم: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ضبطه عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004، ط1، ص 50.

³ - سورة النور، الآية : 36-37.

⁴ - ينظر علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 318.

⁵ - سورة طه، الآية: 33-34.

⁶ - سورة طه، الآية: 24.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

(5) أهلية الذكر الخاصة	(4) الوظيفة التوجيهية	(3) تكوينية الذكر	(2) الوصلة بالذكر	(1) جلاء القلوب: وظيفة الإحياء
<p>مترابحة الدنيا الذكر: أهل الذكر: "أخذوه من الدنيا بدلا".</p> <p style="text-align: center;">الدنيا ← الذكر</p> <p>تجارة/بيع</p> <p>لم تشغلهم تجارة ولا بيع.</p> <p>يقطعون به أيام الحياة.</p> <p>يهتفون بالزواج عن محارم الله</p> <p>يأمرون بالقسط.</p> <p>ينهون عن المنكر ويتناهون عنه.</p>	<p>فاعلية التوجيه:</p> <p>من أخذ القصد: "حمدوا إله طريقه وبشروه بالنجاة" = فاعلية (1).</p> <p>من أخذ يمينا وشمالا: "ذموا إليه الطريق، وحذروه من الهلكة" = فاعلية (2).</p>	<p>البنية التكوينية الذاتية:</p> <p>- "يذكرون بأيام الله".</p> <p>- "يخوفون مقامه".</p>	<p>الذكر صلة بالله:</p> <p>- "ناجاهم في فكرهم".</p> <p>- "كلمهم في ذات عقولهم".</p>	<p>الذكر: عملية إحياء تمثل متواليه مكونة من: [الذاكرون، الله، الذكر، الآخرون].</p> <p>الذاكرون: فعل وممارسة.</p> <p>الذكر: النص الممارس.</p> <p>الله: المخصوص بالذكر.</p> <p>الآخرون: التأثير في الناس [التغيير].</p>
المرتبات	فواعل الذكر	المرتب والنتائج	ثمار الوصلة	المرتب
<p>يترتب عن هذه البديلة بالذكر، ذكر الله بدل الدنيا، ما يأتي:</p> <p>- رفض الدنيا والامتناع عن ملذاتها وشهواتها.</p> <p>- صقل وتنوير الروح والطاقت وقوى الإنسان.</p> <p>- تترجم فضيلة الذكر ممارسة الإنسان لفعل العبودية.</p>	<p>يربط الذكر وظيفيا بالقدرة على أداء مهمة البلاغ، وبذلك فهم:</p> <p>- "مصايح تلك الظلمات".</p> <p>- "أدلة تلك الشبهات".</p>	<p>وبهذا يصبح أهل الذكر معالم الهدى والحق.</p> <p>- "مصايح تلك الظلمات".</p> <p>- "أدلة تلك الشبهات".</p>	<p>اليقظة: يمثل الذكر قيادة واعية في حياة الفرد بأنوار المعرفة والذكر:</p> <p>- استصحبوا بنور يقظة.</p>	<p>ويتمثل في تفعيل أجهزة الوعي والمعرفة: [= السمع، البصر، الانقياد].</p>
(8) مقامات أهل الذكر	(7) تمثلات أهل الذكر	(6) الذكر: الرحلة إلى الآخرة		
<p>رابعا : الخاصيات: وتتمثل في جمع هذه المقامات الكمالية:</p> <p>- أعلام هدى ومصايح دجى.</p> <p>- قد حفت بهم الملائكة.</p> <p>- تنزلت عليهم السكينة.</p> <p>- فتحت لهم أبواب السماء.</p> <p>وبذلك فهم في حال افتقار، علامته: * رهان فاقه إلى فضله.</p> <p>* أسارى ذلة لعظمته.</p>	<p>ثالثا: تمثلات أهل الذكر بالعقل:</p> <p>المنزلة [في مقاومهم المحموده؛ ومجالسهم المشهوده]</p> <p>الصورة والتمثل الرؤية/الناظر</p> <p>المرتبات</p> <p>- نشروا دواوين أعمالهم</p> <p>- فرغوا محاسبة أنفسهم</p> <p>- حملوا ثقل أوزارهم ظهورهم</p> <p>- يعرجون إلى رحيم من مقام ندم</p> <p>لرأيت.....</p>	<p>أولا : بوابات الرحلة إلى الآخرة: القطع إليها بالذكر؛ فالذكر: بديل عن الدنيا وصله بالله ممارسة تعبدية رحلة إيمانية</p> <p>ثانيا : اطلاع الغيوب:</p> <p>المكاشفة: تحصيل الحقيقة من أهل البرزخ.</p> <p>الكشف: كشفها لأهل الدنيا.</p> <p>الذكر: يعتبر الذكر رؤية: [رؤية وسمع].</p>		

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

<p>(10) الجملة التوجيهية</p> <p>نص الجملة: "فحاسب نفسك لنفسك، فإن غيرها من الأنفس لها حسيب غيرك".</p> <p>محمولات الجملة:</p> <p>(1) ثقافية (2) تواصلية (3) أخلاقية (4) إيمانية تعبدية (5) توجيهية رقابية (6) جمالية تحسينية (7) معرفية واعية (8) عملية تفعيلية.</p> <p>المحاسبة: وهي ذاتية؛ فردية خاصة.</p> <p>تسهم المحاسبة من خلال آلية الذكر في بناء الحياة الفردية في بعدها العبادي، وهكذا تتأسس الحياة الاجتماعية والإنسانية على هذه القاعدة، ببناء الفرد في جميع أبعاده.</p>	<p>(9) العلامات : علامات وسيما الذاكرين</p> <p>خامسا : سيما الذاكرين: عدد الإمام سيماهم الإيمانية في:</p> <ul style="list-style-type: none"> - جرح طول الأسى قلوبهم وطول البكاء عيونهم. - لكل باب رغبة إلى الله. - يسألون من لا تضيق لديه المناوح. - من لا يخيب عليه الراغبون.
---	---

تلخص هذه العملية التأويلية ووظيفة الذكر في حياة المؤمن، حيث يدفعه إلى تحصيل إنسانية متميزة ومقامات رفيعة وكمال مشهود ترقية بالذكر وعبودية بالزام الذات الطاعة.

ج- مخادعة النفس في العبادة: يعطي الإمام كيفية تمكين طريق التبعيد في الذات، باعتبار أن العبادة هيئة نفسية تترسخ بالمجاهدة المستمرة، وبأسلوب الرفق بالنفس، وهي تمارس فعل التبعيد، فيقول: "وخادع نفسك في العبادة وأرفق بها ولا تقهرها، وخذ عفوها ونشاطها إلا ما كان مكتوبا عليك من الفريضة"¹. لقد استطاع الإمام أن يضع يده على ميكانيزم وآلية عمل النفس في العبادة، من المكاره التي تثقلها عن الطاعة، بريضة ترسخ هيئتها في الذات، وهي تركز على معاملة ذكية باعتماد أسلوب الرفق بالنفس، لغاية تحصيل ملكة العبادة، وتدريباً منهجياً متواصلاً، باستثناء الفريضة، لأنها واجبة، وعليه فإن التبعيد يعد فقها وعلماء ووعياً وإدراكاً ومعرفة بأحوال النفس.

إن هذه المرونة التي يلح عليها الإمام تعد بمثابة الفقه والعلم التجريبي المعرف بحقيقة النفس، وبذلك كشف الإمام طريقة قيادها، بمهارة وذكاء وإسلاس، وهذا منهج يوازن بين العلم بحقيقة النفس، والأسلوب العملي الذكي، يمكن من ترسيخ قدرتها على سلوك سبيل الرشد، ويكون هذا "بأن يأخذ عفوها، ويتوخى أوقات النشاط، وانشرح الصدر"²، وهو وقت "ارتياحها إلى الطاعة"³، رغبة ومحبة، وعلماء بالحال، وذكاء يعرف بزمن الإقبال وحالة النشاط والصفاء.

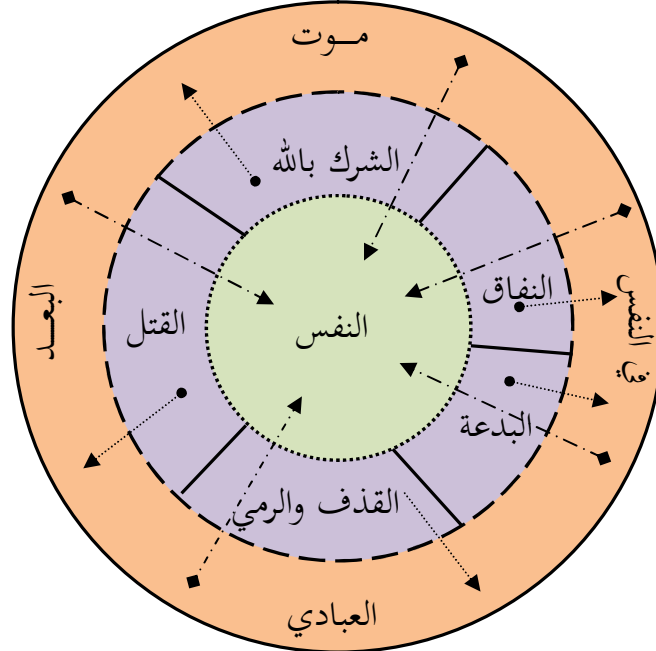
¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 425.

² - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 9، ج 18، ص 27.

³ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 425.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

2- مهددات حصول البعد العبادي: يذكر الإمام بعض مفسدات صحة النفس ومخاطر إعاقة حياة الفرد التعبدية، حيث يقول: "إن من عزائم الله في الذكر الحكيم التي عليها يثيب ويعاقب، ولها يرضى ويسخط، أنه لا ينفع عبداً، وإن أجهد نفسه وأخلص فعله، أن يخرج من الدنيا لاقياً ربه بخصلة من هذه الخصال لم يتب منها: أن يشرك بالله فيما افترض عليه من عبادته، أو يشفي غيظه بهلاك نفس، أو يعزَّ بأمر فعله غيره، أو يستنحج حاجة إلى الناس بإظهار بدعة في دينه، أو يلقي الناس بوجهين، أو يمشي فيهم بلسانين، اعقل ذلك فإن المثل دليل على شبهه"¹، يركز هذا القول على مهددات البعد العبادي، وفق محاذير ينبغي أن تراعى جيداً، وهي الشرك والقتل والقذف والاستنجاح بالبدع في الدين لتحقيق الحاجات والظهور بوجهين ولسانين، نوضحها بهذه الدائرة:



- دائرة تمثل مقاتل البعد العبادي في النفس وفي الحياة الفردية للإنسان -

إن هذه المخاطر تجعل أمر العبادة مهددة، وتنزل بالحياة الفردية للإنسان إلى أدنى من حياة التكريم الإلهي لها، وتزل بالإنسان من حسن تقويمه، وهي من الظلم بناطقات الكتاب التي لا تقبل تأويلاً*، حيث أن المتصف بهذه السلوكات مهما أخلص واجتهد "لا تفيد فيه العبادة"²، أمام هذه النواقض الإيمانية، والمفسدات الفطرية التي تبدأ بالشرك وتنتهي "بطلب نجاح حاجته من الناس

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 205.

* - كثيرة هي الآيات والأحاديث التي تنطق بهذا: الشرك بالله والقتل والقذف والنفاق والبدع...، وجميعها تدل أن لا حياة ولا نجاة للمتصف بصفة منها، ففي الشرك يقول تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ**، فهذه مقاتل لا تفيد معها عبادة، وهي من أشرس الذنوب التي تنخر النفس الإنسانية، حيث تحول الحياة الفردية حطاماً، وتُهوي بأعظم أبعادها، ويمكن الاسترشاد بآيات وأحاديث نبوية مجلية لهذه المخاطر.

² - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 5، ج 9، ص 95.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

بالابتداع في الدين¹، وتعلق بصفة قاتلة لجوهر الإنسان، بالسير في الحياة بوجهين ولسانين، ويربط هذه الحزم من الذنوب خيط رفيع يجمعها، فالشرك إغناء للخالق ﷻ، وقتل النفس إغناء لما خلق الله، ورمي الناس بما لم يفعلوا وطلب الحوائج بالبدع والنفاق تمثل حالة من أحوال إغناء منهج الله في الحياة، وجميعها تسوق إلى الذل، بإلحاق الأذى والإضرار بالنفس، وتمثل هذه المحاذير من جهة أخرى علامات تنبيه لكل فطن يستشعر هذا الخطر الذي يهدد النفس، وعليه فالبعد العبادي يتحقق عندما يكون الإنسان هو القائد المسير لهذه السفينة، قال تعالى: ﴿وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ﴾²، وبمثل هذا الادخار تقدمه من النفس في الحياة تجده أمامها، عندما تكون طليعة في العبادة والطاعة والثبات على المبدأ بعيدا عن تلك المقاتل المدمرة.

III- البعد العملي: إن المجال الذي يتحرك فيه الفرد، ما هو إلا فضاء العمل والاجتهاد واغتنام الفرص وكل متاح، وإذ ذاك يتعين أن يتحول العمل إلى ثابت منهجي، وهذا التذهين البرمجي للعمل يحتاج إلى تدريب و تثقيف، حتى يتحول إلى منهج حياة، باعتبار شروط كمال العمل الواجبة فيه، وهي الإخلاص والصواب، كي يثمر الخيرية والصلاح في الحياة، وتوافقا مع قاعدة الاستخلاف الكبرى في الأرض، وإن التفاضل في العمل أساسه الإرادة والصلاح والإحسان.

ويدفع الإمام إلى توخي هذه الإرادة، أي مبادرة العمل الصائب الصالح، فيقول الإمام: "وإنما أراد أن (يَبْلُوكُمْ أَئِيَّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)، فبادروا بأعمالكم، تكونوا مع جيران الله في داره، رافق بهم رسله، وأزارهم ملائكته، وأكرم أسماعهم أن تسمع حسيس نار أبدا، وصان أجسادهم أن تلقى لغوبا ونصبا (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) [الجمعة، 4]"³، فالإنسان في هذه الدنيا يوجد في حالة اختبار عملي دائم. إذن وعلى هذا الأساس يتعين مبادرة العمل والمجاهدة المستمرة، لنيل الجوار الإلهي، وبهذا فالعمل بشرطيه يدخله في دائرة الصلاح، ومرتبة العمل الصالح، إن النية في العمل تربطه بالفكرة [= الحق]، وإن الصواب يرفعه إلى الحالة الكمالية الحسنة، وإن نيل هذا المبتغى لا يتحقق إلا بمقدار من الصفات الواجبة، يقول الإمام: "قدر الرجل على قدر همته وصدقه على قدر مروءته، وشجاعته على قدر أنفته وعفته على قدر غيرته"⁴، وهي مؤهلات

¹ - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 205.

² - سورة البقرة، الآية 110.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 254.

⁴ - المصدر نفسه، ص 438.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

تدفع إلى نيل المرادات وعلو المراتب، وصفات تدل على كرم الذات بالبذل والعطاء، كي تتحقق حياة الفرد بمقوم الإرادة وعلو المهمة. إن فعالية الرجل [= الفرد] بهذا المقدار [= بمؤهل القدرة] تعني تحقيق نسبة الفاعلية الواجبة، وبعملية التأول نجدتها نسبة تزيد أو تنقص أو تضعف أو تنطفئ، تشكل في مجملها احتمالية ممكنات عملية، وبنية تركيبية ذاتية تبدأ بأس وتنتهي بمترتب.

إن كل صفة تحتاج إلى مقدار من أختها للتحقق وترسخ في الذات، بمقدار الاستمرارية في العمل، لأن "الكبير المهمة من لا يرضى بالهمم الحيوانية، ولا يقنع لنفسه أن يكون عند رعاية بطنه وفرجه"¹، وهي النفس التي تبحث في المعرفة الإلهية، وبديع الصنع، واكتساب الفضائل، وبهذا المؤهل يستحق الإنسان معنى الخلافة بالإحسان والعمل الصالح.

1- العمل فضائل ومكاسب: يعد العمل الصالح مكسبا من مكاسب هذا البعد، يقول الإمام: "من أعطي أربعاً لم يجرم أربعاً، من أعطي الدعاء لم يجرم الإجمالة، ومن أعطي التوبة لم يجرم القبول، ومن أعطي الاستغفار لم يجرم المغفرة، ومن أعطي الشكر لم يجرم الزيادة"²، ويتعين تأويل العناصر الكسبية للعمل بهمة وقصد النفس، وهو ما ينعكس على دنيا الإنسان وآخרתه، نبرزها بهذا الجدول:

المكسب	الثمرة	دليل تصديقه	التأويل
<u>الدعاء</u>	- عدم حرمان الإجابة.	- قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر 60).	تعتبر هذه المكاسب منحة إلهية وهي تنويج لإرادة العمل ومسلك فعل العبادة، وعليه فإن هذه العطاءات الأربعة هي غاية وامتياز،
<u>التوبة</u>	- عدم حرمان القبول.	- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء 17).	تدرك بالعمل لا بالتقاصر، وبالإرادة والهمة، لا بالضعف والخور.
<u>الاستغفار</u>	- عدم حرمان المغفرة.	- قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (النساء 110).	
<u>الشكر</u>	- عدم حرمان الزيادة.	- قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم 7).	

تمثل هذه الفضائل أمنية ومرادات العبد من عمله، وتفترض من الفرد أن يوازن بين مطالبه، بتحقيق تلبات الذات المختلفة، بتغذية نافعة ذكية، هذا البيان يجره الإمام بقوله: "للمؤمن ثلاث ساعات، ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يرم معاشه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويحمل، وليس للعاقل أن يكون شاخصاً إلا في ثلاث مرمة لمعاش، أو خطوة في معاد، أو لذة في

¹ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج 9، ج 18، ص 86.

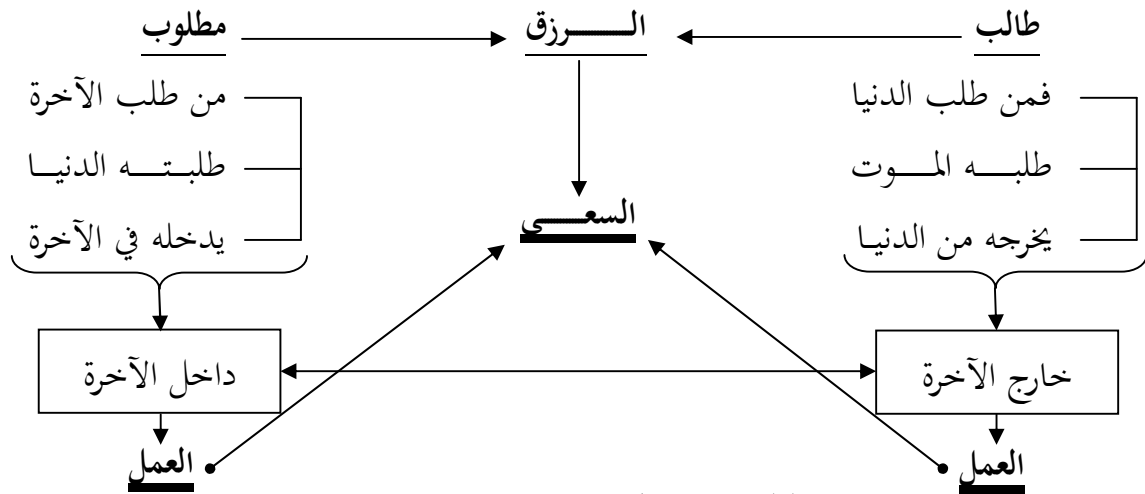
² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 451، 452.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

غير محرم¹، ويعلق الإمام المكاسب العملية، بالتقسيم النوعي لزمن العمل، وهو ما يمثل معالجة، تنسجم مع مختلف مطالب الإنسان، بتلبيات متوازنة نوضحه بهذا الجدول:

الساعة	نوعية العمل	المكسب	الطبيعة	التأويل
<u>الأولى</u>	- مناجاة الله.	- خطوة في معاد.	<u>أخروية</u> .	يستجيب هذا التوزيع لمطالب الفرد المختلفة، كما
<u>الثانية</u>	- يرم معاشه (يصلح).	- مرممة المعاش.	<u>دنيوية</u> .	يجسد تغذيات ضرورية في حياة الكائن، وبعملية تأويلية
<u>الثالثة</u>	- لذة فيما يحل ويجمل.	- لذة في غير محرم.	<u>ذاتية</u> .	يلخص أحوال الفرد الجسدية والنفسية والروحية.

إن تغذية الجسد والنفس والروح بهذا التقسيم يتميز بالإيفاء والملائمة الوظيفية، تقسيم تلبوي يثمر حياة متوازنة وكمالاً إنسانياً. ويربط هذا التوازن بفهم مركب ثنائية العمل والرزق باعتباره قواعد ومفاهيم إلهية، بجد وضعه الإمام قدره باليوم، فيقول: "فلا تحمل هم سنتك على هم يومك"²، ويقول أيضاً: "يا ابن آدم لا تحمل هم يومك الذي لم يأتك على يومك الذي قد أتاك، فإنه إن يك من عمرك يأت الله فيه برزقك"³، فالرزق مكفول بهذه القاعدة، بحمل هم يوم بمقدار السعي، قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾⁴، دون تجاوز، لأن الغاية من خلق الإنسان، عبادة الله، بينما يحرف الاستغراق في طلب الدنيا ومتاعها عن هذا القصد، لأن الرزق برأي الإمام: "رزقان طالب ومطلوب"⁵، يرتبطان وظيفياً بالدنيا والآخرة، ويتضح من كلام الإمام أن سعي الإنسان في الحياة يحدده قصده من وراء عمله، ويمكن تفكيك القول، وفق هذه الترسيم:



- مخطط تمثيلي دال على قصدية الإنسان وسعيه -

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 494.

² - المصدر نفسه، ص 492.

³ - المصدر نفسه، ص 474.

⁴ - سورة النجم، الآية 39.

⁵ - ينظر بقية القول : علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 499.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

وعليه فإن الرزق يصبح يماثل السعي، بينما يماثل العمل الطلب إرادة وتوجهها، قال تعالى: ﴿وَهَزَبِي إِلَيْكَ بِجَذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾¹، حيث دفع سبحانه وتعالى مريم عليها السلام إلى سعي بتحريك خفيف، هز الجذع، رغم وضعها، وبهذا القصد فإن المؤمن يتعين عليه أن يحدد خطه الحياتي، "بتحريض على طلب الآخرة"². إن حركته تصبح متجهة مباشرة إلى العمل للآخرة، دون تصرف عشوائي يعطل وظيفته، ويتيه به في الدنيا خابطا، لذا نجد أن "للرزق علاقة بالاستقامة"³، وتعني انضباط الفرد بالقيم، وتحقيق التوازن بين الوسائل والغايات.

2- العمر والحياة: يعد العمر منحة إلهية متاحة للإنسان يستغرقه في العمل الصالح والخيرات، وعليه فإن حركته إما أن تكون اغتناما لفرص تسعد بمتعها الذات، وإما أن تكون اغتناما يحقق مقاصد الاستخلاف المتنوعة، ويعد العمر سنة كونية إلهية، وحركة متقدمة بالإنسان نحو الأجل، يقول الإمام: "إن الدهر يجري بالباقيين كجريه بالماضين"⁴، فهذه حتمية زمنية وقدرية تجري على الناس وسنة دالة على نهايتهم، تتطلب تخطيطا يواجهه به مختلف الحتميات، "لأن الحياة معركة لا ينتصر فيها إلا من يبذل لها ما تقتضيه من عدة ويعرف كيف يسوسها ويحفظ لها حرمتها"⁵، بترسيخ عناصر النجاح وتفعيل حركة الفرد في انتصاره على المعوقات، لأن الساعة بقوله: "تحدوكم حدو الزاجر"⁶، وتعالج هذه الفكرة بمتلازمة المبادرة والعمل والإرادة، وبأدوات علمية وموضوعية:

1- العمل في الصحة والفسحة: يقول الإمام: "فالله الله أيها العباد وأنتم سالمون في الصحة قبل السقم، وفي الفسحة قبل الضيق"⁷.

2- التحقق وحمل الزاد: يقول الإمام: "واعلم أن أمامك طريقا ذا مسافة بعيدة ومشقة شديدة، وأنه لا غنى لك فيه عن حسن الارتياح، وقدر بلاغك من الزاد مع خفة الظهر"⁸، بزد الإنفاق والعمل.

3- الاستعداد: يقول الإمام: "من تذكر بعد السفر استعد"⁹، بالعمل الصالح يقدم أمام الأجل.

¹ - سورة مريم، الآية 25.

² - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة مج 10، ج 20، ص 39.

³ - محمد راتب النابلسي: المرجع السابق، ص 285.

⁴ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 210.

⁵ - محمد عبد الرحمان مرجبا : الفكرانية، ص 81.

⁶ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 211.

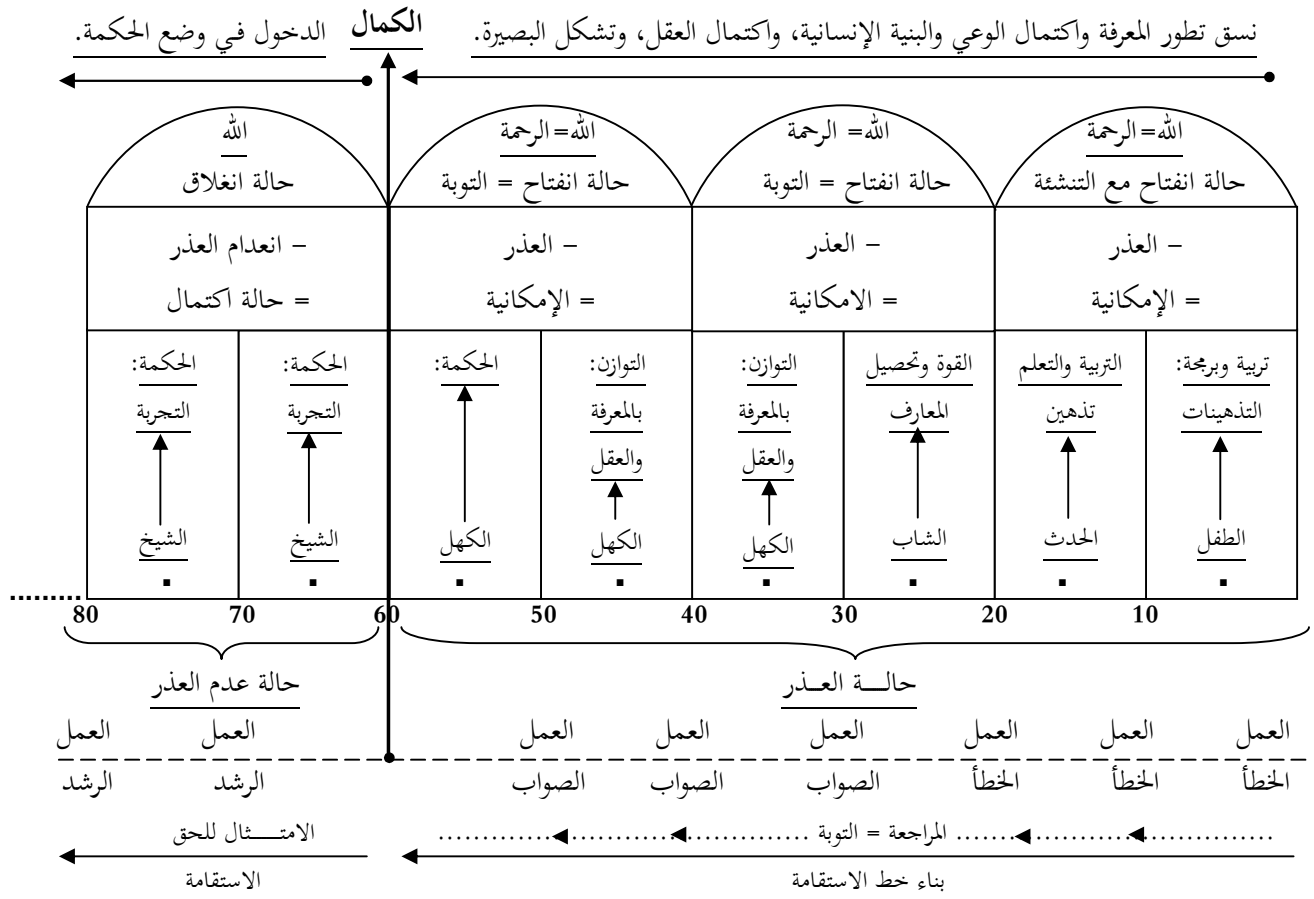
⁷ - المصدر نفسه، ص 253.

⁸ - المصدر نفسه، ص 366.

⁹ - المصدر نفسه، ص 476.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

إن إدراك الطريق يرتبط بكيفيات السير، والرؤية البصيرة لمعنى العمر والزمن، مبدؤها المؤسس ربط عالم الشهادة بعالم الغيب، بعد تعبيد مسار حركتها بالعمل، "إلا ساعة من الدهر"¹، فالعمل الواجب التأديبة حده الزمني: ولو لساعة، ومعناه محاولة حصر اهتمام النفس في السامي النافع لها. إذا كانت الكفاية المحصلة لرزق الإنسان محددة بيوم واحد، فإن العمر الذي حدد مجالا لإعذار الإنسان ستون سنة، يقول الإمام: "العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة"²، وبعده يتعين على الإنسان أن يعقل ويرشد ويتعد عن المفسدات والأهواء، بل ينبغي أن يتجه نحو إعمار آخرته، فإذا كان يعتذر "قبل الستين بغلبة الهوى عليه، وتملك القوى الجسمانية لعقله، فلا عذر له بعد الستين، إذا تبع الهوى ومال إلى الشهوة، لضعف القوى وقرب الأجل"³، فلا مجال بعد هذا لاجتراح السيئات التي تنسف بمصير الإنسان، هذا رغم أن الله قد "سوغ لابن آدم أن يعتذر"⁴، قبل هذا، والترسيمة الآتية توضح هذه الفكرة:



¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 354.

² - المصدر نفسه، ص 483.

³ - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 483.

⁴ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج 10، ج 19، ص 106.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

إن العمر عمل وحركة يطبعها الصواب والرشد، هذا المعنى يوضحه المثل القرآني الذي ضرب لبيان الفرق بين الإنسان الكل والعدل*، فقد مدح الإنسان العدل، لأن سعيه أتى بالخير والإيجابية والفعالية، وهذا تحفيز يقوي حركة الفرد في الحياة، ويدفع الإمام إلى مثل هذا التنشيط بقوله: "يا أسرى الرغبة أقصروا فإن المعرج على الدنيا لا يروعه منها إلا صريف أنياب الحدثنان"¹، فهذه دعوة صريحة للإنسان تدفعه أن يتحرك في اتجاه مخالفة النفس، ومجانبة الهوى والرغبات، وتصحيح معلم الحياة بالاستقامة، واستغلال الزمن الممنوح للإنسان [= قدرًا]، والمتاح له [= عملاً]، وفي هذا إمكانية التصحيح الذاتي، وتصويب منهج الحياة، "وإن عمرا واحدا لا يكفي لمن رأى نفسه أهلا لإنجاز عظيم يؤثر عنه"²، ببناء الحياة الفردية وعمل الصالحات على أسس قويمه، وجمال وإحسان.

VI - البعد المعاملاتي: تتجلى الحياة الفردية بشكل أدق في تعامل الإنسان مع غيره، ويجلي هذا البعد حالة استقامة الذات بعامل التزكية، وأبسط مظهر في المعاملة كف الأذى، والمعاملة بالحسنى، وتهدف هذه الثنائية إلى إقامة المصالح الدنيوية بين الناس وفق قاعدة الصلاح العامة التي تطرد جاذب الفساد، ويلفت الإمام إلى أهميتها، فيقول: "رحم الله امرأ رأى حقا فأعان عليه، أو رأى جورا فرده وكان عوناً بالحق على صاحبه"³، فالبعد المعاملاتي بنظره يتأسس على ثلاثة مقاييس:

بمعنى أن ما دعا إليه الإمام يقوم على فكرة إيمانية تسكن ذات الفرد، ولكنها ذات مخارج اجتماعية وإنسانية ودينية [= تعاملية]، وعليه فإن هذه الروح المليئة بهذه القدرة مؤهلة على أن تكون في جوهر العدل دون غمط أو ظلم، بل ذاتا مبادرة تعين غيرها، وتفترض استقامة الحياة الفردية، تتعدى إلى تحصيل اللحمة الاجتماعية، وتحقيق الغاية الاستخلافية والوظيفة التعبدية، بنصرة الحق ليظهر، وهذا تعبير عن جهد قد بذل في تزكية النفس، تماهيا مع الأمر الإلهي، بإنجاز هذا

* - يقول تعالى: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجَّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل 76]، حيث ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً لعبدين، واحد وصفه بالكلال والعطالة "كلا على مولاه" لا يأتي بخير، والآخر عدل فعال امتلك مواصفات النجاح وعناصر الخير، والاهتداء والاستقامة، ومثل هذا العبد "من يأمر بالعدل" يعد نموذج الحياة الفردية والاجتماعية، ومثلاً لمن رأى في العمر الذي وهب له إمكانية لصناعة الخيرات والصالحات وكل ما يبني الحياة. يمكن النظر إلى كتاب "جوودت سعيد": "الإنسان كلا وعدلا"، لمعرفة أسرار هذا المثل وفهم أعماقه، وعقل مراميه.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 487.

² - محمد عبد الرحمان مرجبا : الفكر العربي في مخاضه الكبير، ص 766.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 300.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

التهديب النفسي، وعليه فإن "الحياة لا تكتسب معنى إلا في أعين أولئك الذين يجعلون من أنفسهم جسرا يعبر عليها الواقع نحو المثل الأعلى"¹، وبهذا تظهر الحياة بالمبدأ المؤسس لكل معنى رفيع، ولكن من خلال مجاهدة النفس التي هي جسر المعنى إلى الحياة، وحتى يتحقق هذا يضع الإمام منطلقا شافيا لكل الاختلالات والاعتلالات الصادمة للكرامة الإنسانية، حيث يقول منها: "ولا تدخروا أنفسكم نصيحة"²، فالنصيحة بهذا المعنى قائمة في حد النفس، ومنطلقة إلى الآخر وإلى الحياة لتبنيها وتصنع كل جميل عليها، ويجعل حديث النبي ﷺ الدين كله في هذه القضية: "الدين النصيحة"³، وأوضح متعلقاتها، أنها "الله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"⁴، وهذا مدار شامل وكلية له حد وانطلاق وغاية واستشراق، حيث يصل إلى منزلة العبادة والعمل والتعامل، وبهذا البعد يتحول الدين كله إلى نصيحة ومعاملة، فالنصيحة تضبط وتوجه الحركة الإنسانية والاجتماعية، بينما تبقى المعاملة والعلاقات مبنية على أساس من المحبة والخير والجمال، وبذلك يتم المحافظة على النفوس سليمة، كي تستقيم حياة الفرد دون حدوث خدش في هذا البناء، ونجد الإمام يلتفت بذلك إلى ما يبقى هذا الكيان قائما في النفوس، فيقول: "كن سمحا ولا تكن مبذرا، وكن مقبرا ولا تكن مقبرا"⁵، وهذا معناه أن الإمام يقدم آليات تحقيق التعامل، بما يمنح الحياة صورة ألق، متمثلة في السماحة وعدم التبذير والبعد عن البخل وحسن التقدير، وهي حركة تظهر حرص الإمام على تثبيت الأخلاق والقيم الإنسانية والجمالية في النفوس، قصد ضبط العلاقات الاجتماعية ببعدها المعاملاتي، وعليه فإن هذه الحياة الفردية أساسها بناء نفس سوية زكية، تحسن التعامل والتصرف والنصح حفاظا على الحياة.

وتجري التعاملات بشكل سليم عندما يتمتع الإنسان بمقومات تحسينية تصبغ جمالية النفس، يقول الإمام: "يا بني احفظ عني أربعاً وأربعاً لا يضرك ما عملت معهن، أغنى الغنى العقل، وأكبر الفقر الحمق، وأوحش الوحشة العجب وأكرم الحسب حسن الخلق"⁶. تمثل هذه الآليات أخلاقا فردية وخصالا تصنع توازن الفرد، وتقوده إلى تبين طريقه وهذا بإقامة علاقات حسنة وتعاملات

¹ - أنس شكشك : فلسفة الحياة، ص 127.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 391.

³ - ابن حنبل أحمد: مسند الإمام أحمد، ص 335.

⁴ - المصدر نفسه، ص 335.

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 435.

⁶ - المصدر نفسه، ص 436.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

رفيعة، وإن قيام هذا التوازن يتطلب مراقبة الفرد لنفسه في علاقاتها بغيرها وخارج الدائرة الخاصة بها، لذا كان تحذيره الذي أتبعه في هذه الحكمة نهيته عن مصادقة الأحمق والبخيل والفاجر والكذاب¹، لأنها تمثل خطرًا يقود إلى إماتة الحياة والجمال في النفس وفي صور التعاملات الحسنة بين الناس، ولكي تستمر هذه الصورة يبرز الإمام أن هذا المسلك شاق في حياة الفرد، كثيرة عوائقه، لذا أكد على مفتاح هذه المغالبة، متمثلاً في الصبر، حيث يقول: "الصبر صبران، صبر على ما تكره وصبر عما تحب"²، هذا الصبر يمد الذات بالقوة والفرد بالتوازن، تقيه من مختلف الردود المتسارعة، وهذه آلية محافظة تجعل من هذه الدائرة الفردية، في حالة من الثبات والمنعة والتوازن والعطاء، كما تمكن من مواجهة اختبارات الحياة المتجددة، وهذا ترشيد مميز يمنح الاستقامة الفردية وينمي العلاقات بين الناس، بالتعامل الذكي خارج محيط هذه الدائرة اجتماعياً وإنسانياً بالأخلاق والصبر.

ويضيف الإمام إلى هذا مبدأً مكملاً لهذا الحسن، حيث يقول: "آلة الرئاسة سعة الصدر"³. وهذه القوة مهمة لطالب الرئاسة فردية واجتماعية، لا يستغني عنها أي فرد في دائرته وفي أداء وظيفته وتعامله، وهذه السعة في الصدر تمكن من تحمل أذى الآخرين ومختلف الضغوط، وتجنب النفس المهالك، يقول الإمام: "هلك امرؤ لم يعرف قدره"⁴، فمعرفة قدر النفس ثابت فردي صيانة لقدرها ويعني إقامة علاقات راقية، ومعاملات حسنة، تمكن النفس من أن تظهر كرمها وعطائها، يقول الإمام: "من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة"⁵، وهذا تعالق يقيمه الإمام بين اليد الفردية واليد الاجتماعية واليد الإلهية بالكرم، وبآلية العطاء والمنح، حيث تقوى الروابط والعزة والمنعة، وهذا أحد أوجه المعاملات التي تقيّمها الذات الفردية في حياتها مع الآخرين، وأحد أرقى صور الحضور والتواصل والتعارف، وتشكل مع الصبر فضاء هندسياً في برجة الطاقة الفردية ومنحها الفعالية الضرورية، لذا فالعطاء يمثل انفتاح الفرد على الآخر بالتعامل والتحابب والتواد، وهذا المعنى يؤهل النفس لتمسك أذاها عن غيرها، كتجل ثالث بعد الصبر والعطاء، انطلاقا من ثابت رئيس تصفية الحياة الفردية من الانحراف السلوكي باجتنابه، هذا مع العدل الذاتي وتوازن القوى والطاقة، يقول

¹ - ينظر علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 436

² - المصدر نفسه، ص 438.

³ - المصدر نفسه، ص 458

⁴ - المصدر نفسه، ص 455.

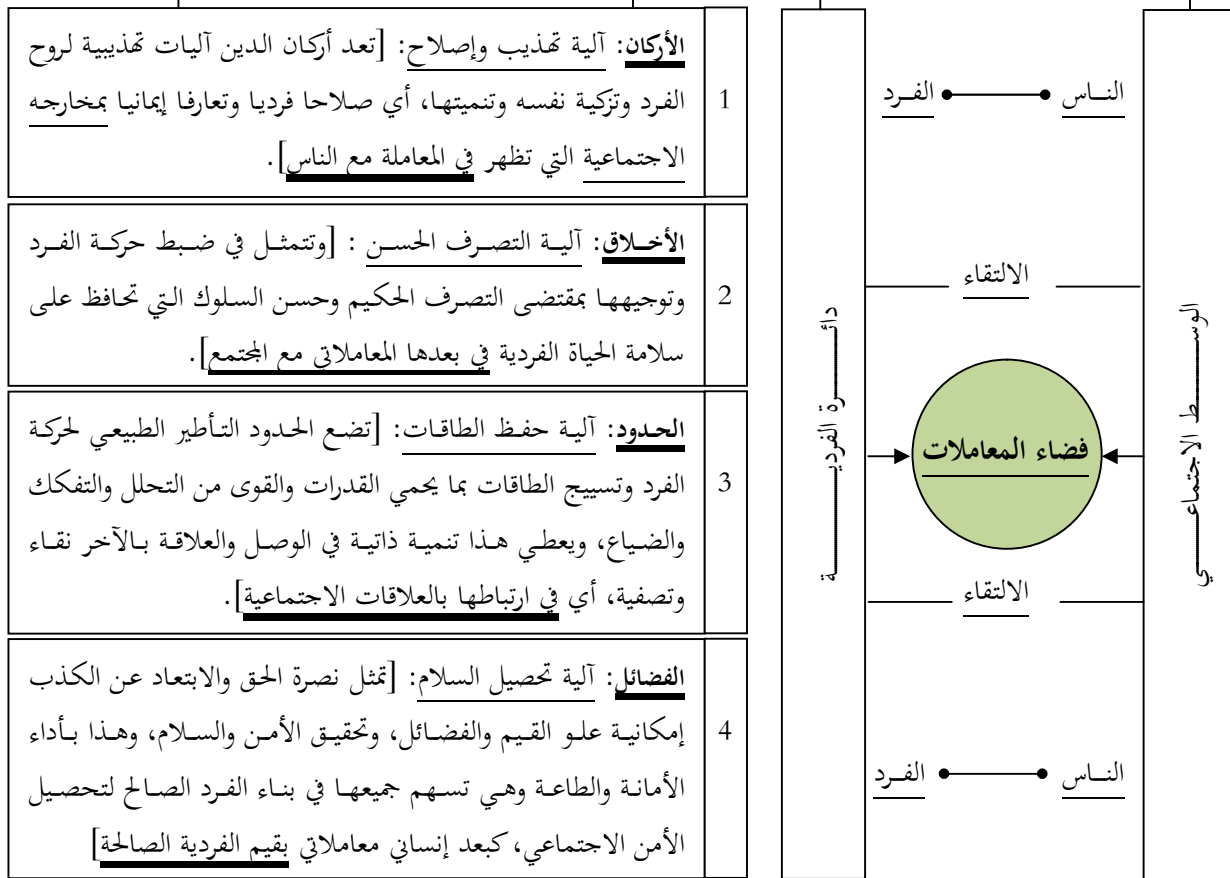
⁵ - المصدر نفسه، ص 465.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

الإمام: "كفأك أدبا لنفسك اجتناب ما تكرهه من غيرك"¹، وهذا أدب نفسي رفيع مبناه سنة التركية، ويمثل آلية لتصحيح صور التعامل وإقامتها على قاعدة خيرة صالحة وجمالية.

إن هذا البعد المعاملاتي الذي يعد ركنا ركينا في حياة الفرد يظهر جمالها المعنوي وارتباطها بالحياة بالعلم والفقه، وتصفية أجواء المعاملات من كل الملوثات الخلقية، يقول الإمام: "فَرَضَ اللَّهُ الْإِيمَانَ تَطْهِيراً مِنَ الشَّرِّ، وَالصَّلَاةَ تَنْزِيهاً عَنِ الْكِبْرِ، وَالزَّكَاةَ تَسْبِيهاً لِلرِّزْقِ، وَالصِّيَامَ ابْتِلاءً لِإِخْلَاصِ الْخَلْقِ، وَالْحَجَّ تَقَرُّبَةً لِلدِّينِ، وَالْجِهَادَ عِزًّا لِلْإِسْلَامِ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلِحَةً لِلْعَوَامِّ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ رَدْعاً لِلشُّفْهَاءِ، وَصِلَةَ الرَّحِمِ مَنَمَةً لِلْعَدَدِ، وَالْقِصَاصَ حَقْنًا لِلدِّمَاءِ، وَإِقَامَةَ الْحُدُودِ إِعْظَاماً لِلْمَحَارِمِ، وَتَرَكَ شُرْبِ الْحُمْرِ تَحْصِيناً لِلْعَقْلِ، وَجُنَابَةَ السَّرِقَةِ إِجَاباً لِلْعَقَّةِ، وَتَرَكَ الزُّنَى تَحْصِيناً لِلنَّسَبِ، وَتَرَكَ اللَّوَاظِ تَكْثِيراً لِلنَّسْلِ، وَالشَّهَادَةَ اسْتِظْهَاراً عَلَى الْمُجَاحِدَاتِ وَتَرَكَ الْكَذِبِ تَشْرِيفاً لِلصِّدْقِ، وَالسَّلَامَ أَمَاناً مِنَ الْمَخَاوِفِ، وَالْإِيمَانَ نِظَاماً لِلأُمَّةِ، وَالطَّاعَةَ تَعْظِيماً لِلْإِمَامَةِ"²، وبعملية تأويلية نقسم جسد هذا النص إلى أربعة مجموعات وظيفية وتمفصلات فكرية:

معاملات → فرض



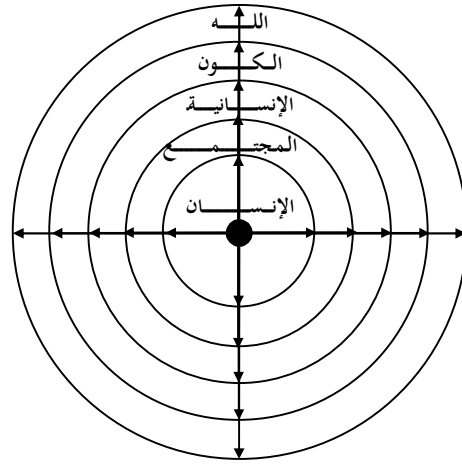
¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 496.

² - المصدر نفسه، ص 467، 468.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

لقد دفعت نصوص نبوية كثيرة إلى هذا البعد المعاملات، في وجوب رعاية المخلوقات والكائنات* رعاية جمالية وإنسانية، لأن مبعثها الفطرة، يقول النبي ﷺ: "عذبت امرأة في هرة"¹، ويقول أيضا: "إن قامت على أحدكم القيامة، وفي يده فسيلة فليغرسها"²، وفي حديث آخر يقول: "فياكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة"³، ويقول أيضا: "اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة"⁴، فالأدب مع الحيوان من الدين والمعاملة، وغرس فسيلة يعد إنماء للحياة، وزرع أكل للمخلوقات معاملة وإحسان وجمال.

إن نشاط الحياة الفردية في هذا البعد، هو نشاط السلام والجمال والحيوية، وهو إرادة تسعى إلى تثبيت معالم الحق داخل هذه الدائرة بتجلياتها، مشرقة على مختلف الدوائر الأخرى:



- تمثيلات دائرة الحياة الفردية وأبعاد المعاملات -

تمثل هذه المعاملة في الحياة الفردية حالة تبدٍ للذات الإنسانية بالأخلاق والجمال، وهي انعكاس لصورة الجمال الداخلي، ومن ثم فإن الإطار التكاملي وفق هذه الأسس، يترجم صورة من صور الحياة الفردية في علاقتها بغيرها، في انتظام العالم الفردي مع العالم الخارجي، ومع المجتمع والإنسانية والكون، والانتظام التعبدي في العلاقة بالله وتمثل الحق، وبهذه المقومات تتأسس في الحياة الفردية قواعد بناء هذه الذات وسننها التي من خلالها تخرج إلى أبعاد أخرى يفيض من عالمها الدافئ معنى خيرا يسح على الناس جميعا والمخلوقات والكائنات لطفًا وأدبا ورحمة وسلاما وتعارفا وتعاونًا.

* - لم نثر في النهج على نصوص توجيهية في هذا الباب، ولذا أخذنا ببعض الأحاديث نستكمل بها صورة هذا البعد في وجوب رعاية المخلوقات والتعامل الحسن معها، لأن حقيقة الحياة الفردية تكمن في الاستقامة الجمالية المهيبة للتفاعل الحي مع الكون، في رحلة سلام مع النفس والله ﷻ.

¹ - أحمد بن حنبل : مسند الإمام أحمد، تح شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ج29، 2001، ط1، ص 166.

² - المصدر نفسه، ج20، ص 251.

³ - البخاري محمد بن إسماعيل : الجامع المسند الصحيح المختصر، تح محمد زهير بن ناصر الناصر، ج3، 1432هـ، ط1، ص 103.

⁴ - أحمد بن حنبل : المصدر السابق، ج29، ص 166.

المبحث الرابع: التفاعل بين صور الحياة.

رأينا كيف كان الإمام ينتقل في سياحة معرفية على مدار كتاب نهج البلاغة من فضاء الإنسان إلى المجتمع إلى الكون، إلى زوايا متنوعة صغيرة وكبيرة وجزئيات وفتات يشكل نظام الحياة ومادتها، إلى حديث عن العظمة والأوصاف الإلهية، في وقفة اندهاش وانبهار، لأنه امتلك رؤية كبيرة واسعة أول بها جمل الحياة وعلامات الكون التي تعرض على العقل الإنساني، كما امتلك روحا كبيرة متطلعة، وذاتا كاشفة، وتدفق مشاعر من عالم وجداني كان عليه طالما حفزه على كل ارتياد، وإذ هو يتماس مع هذا التهيؤ والكمال كان لا بد أن يقدم تصوره للحياة الإنسانية، فقد أدرك أن الربط بين العنصر الكوني، والعنصر الفردي الخاص، والعنصر الاجتماعي يجسدون حقيقة الحياة المثلى، وأن الجامع بينها هو قانون التسبيح الكوني والسياحة في الملكوت الإلهي، ومن ثم يكون فعل العبادة خاصة عند الإنسان هو أداة شكر وزكاة وجود، وقد رأينا المثال عن ذلك في حديثه عن النملة والجرادة والطاووس والسماوات والأرض والإنسان والمجتمع، والعلاقات والعدل والرحمة والإحسان، ليثبت هذا التفاعل القائم بين الإنسان والكون والمجتمع، كما يؤكد على حيوية الفعل الإنساني عندما يرتقي إلى الآفاق الكونية.

إن هذه الرؤية المتميزة هي رؤية لا ترى انفصالا قائما بين مختلف المكونات، ومن ثم تلغي تلك الهشاشة الوجودية التي سيدفع ثمنها الإنسان أولا، وباقي الكائنات الأخرى ثانيا، عندما يصبح الفساد قانونا مشتتا ومدمرا، يقول النبي ﷺ: "ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة"¹، وهنا يتحدد الواجب وتظهر المسؤولية الكونية، بدفع الإنسان وتخفيفه على العمل الذي تنتفع به المخلوقات، وعليه تقوم قاعدة الصلاح الكوني، يقول الإمام في إحدى مخاطباته: "الحمد لله الذي جعل الحمد مفتاحا لذكره وسببا للمزيد من فضله ودليلا على آلائه وعظمته"²، فالحمد هو قانون الكون الذي به يحرك الإنسان مفاتيح الخير لا كتساب النعم، ويتمثل من خلاله مع حركة السياحة والتسبيح الكوني، ودلالة "على عظمة الصانع وآلائه"³، ومن ثم فإن رؤية الإمام لحياة الكائن هي رؤية كونية تتأسس على قاعدة الحمد والشكر، وقاعدة العمل أو الفعل كما أبرزها حديث الغراسة والزراعة، بمعنى عمارة الأرض لخير الكائنات وأهل الأرض جميعا، وقاعدة الحمد هي مفتاح الذكر، وسبب زيادة الفضل والنعم، وآيتها

¹ - أحمد بن حنبل : مسند الإمام أحمد، ج 21، ص 88.

² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة ص 210.

³ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 5، ج 9، ص 125.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

أنها الدليل القائم على الانفعال بالآلاء والعظمة الإلهية، وأن العظمة الإلهية تقرأ بأداة واحدة هي الحمد، ذلك "أن كل شيء في هذا الكون يقتضي الحمد"¹، وبهذا فإن البناء الحياتي هو بناء تفاعلي تشترك فيه كل المكونات التي تمنح الحياة والجمال.

ولكي تبقى صورة التفاعل قائمة بين العناصر، وحيوية انطلاق النفوس سائحة في الملكوت متدبرة في عظيم الصنع الإلهي نجد الإمام يوجه توبيخا يسفه به معتقد أولئك الذين ترفض عقولهم إحداث ربط بين المخلوقات وخالقها، فيقول بعد أن تحدث عن عجيب خلق النملة: "زعموا أنهم كالنبات ما لهم من زراع، ولا لاختلاف صورهم صانع، ولم يلجأوا إلى حجة في ما ادعوا ولا تحقيق لما أوعوا، وهل يكون بناء من غير بان، أو جنانية من غير جان؟"²، فهذا الفساد في النظر يؤدي حتما إلى تجزئة الحقائق والأشياء من دون ربط تتجانس صورته الكلية لتظهر الكمال والجمال الكوني، ومن ثم تبني كمال الحياة، وهذا لا يكون إلا بالنظر العقلي، واليقظة والوعي، لأن هؤلاء "لم يرتبوا العلوم الضرورية ترتيبا صحيحا يفضي بهم إلى النتيجة الصحيحة التي هي حق"³، فالله هو الذي أبدع هذا الخلق والصنع، ومن ثم فكل حركة وفعل هي حركة في فضاء تتنوع صورته ولن تكون إلا دليل عظمة وآية تجلي لقدرة الباني ﷻ، ومما لاشك فيه أن دعوة الإمام تدفع الإنسان إلى أن ينظر إلى الحياة نظرة آفاقية، قائمة على قوانين وسنن ثابتة، تمكن من تفجير الطاقات، وفهم معادلة الحياة التي تسير وفق سنن، ومن شأن هذا أن يبعث على تقديم تصور صحيح سليم عنها، وتنظيم المجال المتحكم في عملية البناء، مع الحيوية والتدفق الدائم، "فإذا ذلت الحياة ماتت النفوس، ورثت العقول، وفقدت الحياة معناها ومبناها"⁴، لأن المعنى يعد قيمة وروحا، ولا يكون إلا في النفس الحية المنطلقة في ثبات، يدفعها البحث عن هذا السر انطلاقا من داخلها، لذا "فالكون كله ليس إلا كذبا في النفس الكاذبة بحواسها"⁵، والكون يكون كمالا وجمالا في النفس صادقة الحواس والقلب، تلك النفس التي تحمل فكرة عظيمة وراقية عن هذا الكون، كي تبني الحياة الإنسانية وفق نهج تنظيمي سني منضبط يستند إلى الفكرة التي تصنع وتحرك، وبذلك يقدم مخارجه المصححة لمسار حياة المسلمين في عصره، وفق رؤية قرآنية كونية مبنية على التأمل في الآيات الكونية، قال تعالى:

¹ - الشعراوي محمد متولي : موسوعة الأحاديث القدسية وشرحها، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ج 1، ص 130.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة ص 256.

³ - المصدر نفسه: ص 237.

⁴ - محمد عبد الرحمان مرجبا : الفكرانية، ص 91.

⁵ - مصطفى صادق الرافعي : وحي القلم، مج 2، ص 38.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾¹، وفقه وإدراك السنن الاجتماعية، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾²، والنظر في الآيات النفسية، قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾³. فهذه الآيات القرآنية هي التأسيس العملي لصور الحياة، مما يعدها عن صور العبثية والعدمية، ويخرجها من السطحية والنظرة الميتة، دون غفلة عن غاياتها، وهنا نجد الإمام ينبه إلى مثل هذا الخطر المدمر الذي يعصف بتلك النفوس النائمة عن إدراك هذا المعنى، قائلا: "أيها الغافلون غير المغفول عنهم، والتاركون المأخوذ منهم! مالي أراكم عن الله ذاهبين، وإلى غيره راغبين! كأنكم نعم أراح بها سائم إلى مرعى وبني، ومشرب دوي، إنما هي كالمعلوفة للمدى، لا تعرف ماذا يراد بها، إذا أحسن إليها تحسب يومها دهرها، وشبعها أمرها"⁴. إن هذا التوصيف من الإمام ينبئ عن معرفة وفطنة، فقد خبر برجاجة عقله هذا التخبط والتهيه الذي كان عليه الناس، في وأدهم للحياة، وغفلتهم عن إبصار قوانين البناء، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾⁵. وقال حكاية عن الغافلين: ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ﴾⁶، فكما تكون القوانين سننية في عملية البناء تكون الغفلة بالمقابل قانونا مهدما للحياة تطمس به آياتها، وتجب عن إبصار الحق والعظمة الإلهية، وبهذا يختلف معنى الحياة من النفوس وسننها مع ذهاب العمر، "تطويها عنهم يد القدرة ساعة بعد ساعة"⁷، تشاركا أنتج إفلاسا حقيقيا: الذهاب عن الله، والرغبة إلى غيره، وهذه أكبر خسارة إنسانية تأسست على سنة الغفلة وأثرها المباشر، ومن ثم فقد كان توصيفه الدقيق لهم بالنعم السائمة دالا على حالة الغفلة التي هم عليها فأضاعوا الطريق، وبهذا التصور يحاول منح رؤية وبصر رحب للحياة والكون والمصير. إن التوازن الفردي تظهر أمارته عندما يتقن الإنسان إدارة حياته، واستثمار عمره، مدفوعا إلى جمالية من الأداء والصناعة.

تتجلى رمزية الحياة الإنسانية، وتلوح آفاق جماليتها عندما يدرك الكائن قيمة العمر والزمن، وأن خلاصته المجسدة له، هي تحويل مجراه إلى فعل وحياة، دون ترك أي فرصة لإضاعة لحظاته، ويمكن الوقوف على هذا المعنى من خلال خطبة نبوية تحمل الكثير من استشعارات التحذير،

¹ - سورة فصلت، الآية 53.

² - سورة الرعد، الآية 11.

³ - سورة الذاريات، الآية 21.

⁴ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة ص 237.

⁵ - سورة يونس، الآية 7.

⁶ - سورة الأنبياء، الآية 97.

⁷ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 237.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

وهندسة لدلالة الزمن الكوني، الإنسان بين مخافتين: "بين أجل قد مضى لا يدري كيف صنع الله فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري كيف الله بصانع فيه"¹، ولنلاحظ هنا من خلال هذا الرسم النبوي لمدلول الزمن كيف يصبح عنصراً ضاغظاً، وهذا ما يدفع الإنسان إلى كياسة في التصرف ما دام أن المعالم والنهية محددة، وهذا لما يتولد عنه في النفس من عنصر الخوف والقلق، المؤسس على العلم كي يتحول الزمن إلى إنجاز لا إلى هاجس مرعب، ويقدم النبي ﷺ كيفية التعامل مع هذا الحصر الذي رسم معادلة الزمن، فيقول: "فليتزود المرء لنفسه، ومن دنياه لآخرته"²، فالمحطات الحيوية للزمن ترتكز على الأخذ من نهره قبل انطفاء ملامحه بضدها، بتحفيز وتنشيط وتحريك ذاتي، فالزمن حياة وعمل وجمال وكمال.

يتفاعل الإنسان مع عالمه عندما يضع ترتيبات هذا الفعل، حيث تمزه لحظة تأمل، ورؤية منظر فيه حياة، فهنا وردة يسري منظرها في نفسه تحدث تحولاً عجبياً في ذاته، لحظة واحدة يقف من خلالها أمام عتبة الروح والجمال والحياة، إنه الأمل في ملامسة كمال من جمال، وجمال من كمال، أو نظرة في الآفاق ستكون المفتاح لإدراك صورة من صور الحياة، "وإن كل إنسان إنما ينظر إلى الكون بمنظاره الخاص وعلى وفق ما تصوره له مرآته الخاصة، فلقد خلقه البارئ المصور سبحانه على صورة يستطيع قياس الكون عليها، ويزنه بميزانها فتمنحه عالماً خاصاً به من هذا العالم العظيم فيصطبغ عالمه الخاص بحسب ما يعتقد الإنسان من عقيدة في قلبه"³، وكلما كان جلاء المرآة أكثر صفاء وإشراقاً، كلما كان تصوره أوضح وإدراكه أكبر للكون العظيم، لأن "خاصية الحياة الإدراك والعقل، وإليهما يطرق النقصان والتوسط والكمال"⁴، والفكرة والمعتقد في النفس محرك فاعل في بناء التصورات والمفاهيم، يقول الإمام: "خلق ما خلق فأقام حده، وصور ما صور فأحسن صورته، ليس لشيء منه امتناع، ولا له بطاعة شيء انتفاع"⁵، وأمام جميل الصنع هذا وحسنه يكون تأمل الإنسان، تأمل تعظيم، وتأمل عبادة، عندما تنفعل النفس بهذا الجمال فتمتلئ بطاقة روحية تتطلع بها إلى إدراك الكمالات وآيات العظمة، وعليه فإن التأمل هو المدخل إلى الحياة الكونية، والمدخل إلى تحقيق الكمال الفردي، ومنه إلى استقامة الحياة على هدي بين، وقد قاد التأمل أصحاب الإدراك والعقل إلى اكتشاف أسرار من هذا الكون، فاكتشاف قانون الجاذبية كان في لحظة استغراق

¹ - البيهقي أبو بكر: شعب الإيمان، تح عبد العلي عبد الحميد حامد، ج 13، 2003، ط01، ص 153.

² - المصدر نفسه، ص 153.

³ - سعيد النورسي بديع الزمان: رسالة الطبيعة، تر: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، القاهرة، ط5، ص 46.

⁴ - أبو حامد العزالي: المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنة، ص 47.

⁵ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 221.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

شديد من التأمل، وإن الاستتباع القائم هنا، استتباع التأمل بالحمد، بوصفه عبادة جمالية وإحسان بآثاره، "وإن من ينظر نظرة واسعة فاحصة إلى الكون، يرى أنه بمثابة مملكة مهيبه جدا في غاية الفعالية والعظمة"¹، مملكة تستحق فعلا أن تعظم ويتأمل فيها، لإدراك أسرارها المعجزة، كي يزداد الإنسان يقينية ورسوخ علم لاستنارة حياته، وهذه هي العبادة التي تفضل كل عبادة، وبهذا فإن "الإعجاز كل الإعجاز إنما يكمن في الحفاظ على المعادلة الصعبة بين شمولية الوجود وخصوصية الفرد في هذا الوجود، وبالتالي انبثاق الهوية من هذا الضباب الكوني"²، بالإدراك والعقل تنبثق هوية الفرد الإنسانية التي هي هوية كونية جمالية بنفسه الكبيرة المنطلقة في الآفاق.

ويأتي التفاعل بين الحياة الكونية والاجتماعية والفردية ليدل على متانة العلاقة والتشابك الحي بينها، فلا يمكن أن تؤدي أدوار الحياة كاملة من غير توازن، ومن غير رؤية تدرك قيمة هذه العوالم وأهميتها، وهذا النظر المتوازن ندركه في ذلك الابتهاال الصادر من الإمام، وفيه يقول: "اللهم انصاحت جبالنا واغبرت أرضنا، وهامت دوابنا، وتحيرت في مرائبها، وعجت عجيج الثكالي على أولادها، وملت التردد في مراتعها، والحنين إلى مواردها، اللهم فارحم أنين الأنة، وحنين الحانة، اللهم فارحم حيرتها في مذاهبها، وأنينها في مواجهها، اللهم خرجنا إليك حين اعتكرت علينا حداير السنين، وأخلفتنا مخايل الجود، فكنت الرجاء للمبتئس، والبلاغ للملتمس، ندعوك حين قنط الأنام، ومنع الغمام، وهلك السوام"³، مخاطبة هي دعاء استسقاء ويجلي لنا كيف كانت الضراعة لله طالبة الرحمة واللفظ بالحيوانات والمخلوقات الضعيفة من إبل وشاه، وهي ليست للإنسان وحده، هذه الشمولية التي تذكر الأرض والأنعام والإنسان والنبات، ويعد هذا تفاعلا حيا يقيمه الإمام واستجابة طبيعية أن الحياة معدة للكل، وقيمها الكل ويتفاعل معها الكل، لذا "فإن جميع ما في الكون جزء مني ومقوم من مقومات وجودي"⁴. هذا هو الإدراك السليم والمنطق المتوازن الذي يجعل من الحياة حياة، ومن صورها مثلا حيا دالا على تكامل العناصر والأجزاء، وحتى يبقى هذا المعنى حيا في النفوس لا يمكن تجاوزه يعطف الإمام إلى تذكرة جليلة أن الأرض والسماء في طاعة وامثال لأمر ربها، وهي إن دخلت في قانون التسخير، فقد ظهرت طائعة، فإن الإنسان بعقله ينبغي أن يكون أكثر تميزا وطاعة وعبادة: "ألا وإن الأرض التي تحملكم، والسماء التي تظلكم، مطيعتان لربكم، ولا

¹ - سعيد النورسي بديع الزمان: الآية الكبرى : مشاهدات سائح يسأل الكون عن خالقه، تر: إحسان قاسم الصالح، دار سوزلر، القاهرة/ الجزائر، 2015، ط1، ص 118.

² - محمد عبد الرحمان مرجبا : الفكرانية، ص 852.

³ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 169.

⁴ - محمد عبد الرحمان مرجبا : المرجع السابق، ص 834.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

لخير ترجوانه منكم، وما أصبحتا تجودان لكم ببركتهما توجعا لكم، ولا زلفة إليكم، ولا لخير ترجوانه منكم، ولكن أمرتا بمنافعكم فأطاعتا، وأقيمتا على حدود مصالحكم فقامتا"¹، ففي حركة الموجودات دليل وعلامة تفاعل، محققة لرمزيتين هما الطاعة والتسخير، ومجلية لحالة الانسجام والتوافق في النظام الكوني العام وحركته: "فالكل مسخر تحت القدرة الإلهية"²، فهذه الصورة الكونية تمثل دليل انطباق تجسده فكرة الطاعة لخالق هذا الكون، وهنا يدفع الإمام الناس إلى الامتثال إنسانيا [= طاعة خالقهم]، كما قالت السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾³، وبذلك تكون الطاعة والامتثال فكرة جامعة للمخلوقات، وهي كونية المعنى والإسقاط، إلا من الإنسان الذي يبدو أقل امتثالا وتماثلا، ومن هنا يقيم الإمام علاقة بين الكون وقانون الطاعة وحالة الامتثال السني، وبمحاولة توجيهية كي تتوافق الحركة الإنسانية مع الحركة الكونية.

إن هذا التماثل الذي تجليه الطاعة قانونا كونيا يؤكد على ربط ما هو إلهي بالمخلوقات والكون، أي أن الحياة المتناغمة هي التي تكون المخلوقات فيها منفعة مسبحة عابدة، ويقى التفاعل قيمة كونية يشترك في تعضيدها وتفعيلها كل الناس، أي المجتمع عندما يكون آلة واحدة في الانتظام والوحدة، وبحسه المشترك في التوجه، والاندفاع نحو تفاعل حياتي متكامل فيه النفوس والعقول إظهارا للجمال والكمال، يقول الإمام: "أيتها النفوس المختلفة، والقلوب المشتتة، الشاهدة أبدانهم، والغائبة عنهم عقولهم، أظأركم على الحق وأنتم تنفرون عنه نفور المعزى من وعوعة الأسد، هيئات أن أطلع بكم أسرار العدل، أو أقيم اعوجاج الحق"⁴، فكيف يكون هذا الوصف دالا على حال اجتماعي؟! مما لا شك فيه أن هذه الحالة الاجتماعية موجودة عدد الإمام ملاحظها العامة، من اختلاف النفوس، وتشتت القلوب، وحضور البدن وغياب العقل، والفرار من الحق، وجميعها تمثل تعطيلاً لعناصر صناعة الحياة الاجتماعية أولاً، وإعطاب للمجتمع والنفوس عن إدراك الآيات الكونية، وتقدير السياحة في الكون والملكوت لكشف أسراره، ومن ثم فإن مثل هذا المجتمع، يعد مجتمعا عاطلا عن بناء معنى الإنسانية، "فهيهات أن تلمع بكم لوامع العدل، وتنجلي أوضاعه ويبرق وجهه"⁵، وقيام العدل ووضوح الحق الذي اختلط بالباطل يصعب إيجاده في مثل هذه الوضعية ومع هذه النوعية من الناس، لأن العدل ميزان كوني، والحق صورة كونية لا تدرك إلا بالعقل

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 193.

² - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج 5، ج 9، ص 47.

³ - سورة فصلت، الآية 11.

⁴ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 184، 185.

⁵ - ابن أبي الحديد: المصدر السابق، مج 4، ج 8، ص 156.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

والنفس الكبيرة والحضور الحي، فثمة "فرق شاسع على كل المستويات الذاتية والاجتماعية والحضارية، وفي الناتج المتمخضة عن نشاط يبذله الإنسان وهو متساوق مع نواميس الكون، متناغم مع مسيره ومصيره، أو وهو منشق على هذه النواميس، متنافر معها بدءاً ومصيراً"¹، فالنتائج التي تأتي وفق رؤية متجانسة متساوقة مع النواميس الكونية، هي نتائج حياة مثالية متكاملة تستجيب بشكل تلقائي لحاجات فطرية في الإنسان*، ولهذا عبر الإمام عن حسرته من هذا المجموع الحاضر ببدنه الغائب بقواه التي بها يتفاعل اجتماعياً وكونياً، وبذلك يستحيل قيام العدل وتجسيد الحق، وهما من تجليات الكون القائم على الميزان، فهل يمكن أن تكون الحياة ميزاناً؟!

يمكن قيام هذا الميزان، إلا أن الأمر يحتاج إلى رؤية للعالم بديلة للوضع الإنسانية المادية القائمة، وإيضاحاً لهذا المعنى نرى كيف يعقد الإمام حالة التوازن المنبت من بعضه بعضاً، فيقول: "الحمد لله الواصل الحمد بالنعم، والنعم بالشكر، نحمده على آلائه كما نحمده على بلائه، ونستعينه على هذه النفوس البطّاء عما أمرت به، السراع إلى ما نهيت عنه"²، فإدراك النعم واستبقائها مرتبط بالحمد، وبهذا تتوازن معادلة الحمد والنعم، ويفيض الحمد على الآلاء التي تعطي، وعلى البلاء الذي يصيب، لأنه هو الآخر يحمل في طياته نعماً فباطنه خلافاً لما يرى من ظاهره، ميزان يقيم الحياة على أساس سنني وفق منهج ومقاصد شرعية ونفسية واجتماعية وكونية، لأن "الحق-سبحانه- يريد منهجاً يحكم حركة الحياة، ويضمن للخلافة في الأرض أن تؤدي مهمتها أداءً يسعد الإنسان فيها، وفي الدنيا وينعم في الآخرة"³، كما يقول الإمام "الشعراوي"، فالحياة وفق المنهج الإلهي هي حياة قائمة على ميزان، ومعادلة الحمد النعم معادلة محققة، بمعادلة وقانون ثان: هو قانون الاستعانة بالله على النفوس التي تتعثر عن الحركة والسير بميزان، وبوصف الإمام فهي النفوس البطّاء عن الأمر، السراع إلى المنهيات، وهي معادلة مناقضة لحالة الميزان، لهذا تأتي الاستعانة توفيقاً إلهياً وحركة من العبد ليظفر بالميزان، ميزان عمل النفوس، حتى تتحرك إلى الأمر بسرعة وتبطن عن الذهاب إلى المنهيات، عندها تحقق النفس حالة التوازن لتدرك الميزان في الحياة والكون، وفكرة النفس بوصفها

¹ - عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، ص 181.

* - تتجلى في سورة الرحمن دلالات هذا المعنى، حيث تقوم الحقائق والأشياء في هذا الكون على الميزان، بل وتمتد إلى الحياة الثانية، الحياة في الجنة، وبذلك يكون الميزان مظهراً كونياً يستدل عليه في الحياة الدنيا على الاستقامة، استقامة ميزان في كل جزئية، وفي الآخرة بميزان عادل يكافئ هذه الحركة المستقيمة التي تكون نعيماً، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن 9/8/7)، ويظهر باقي هذا مع تأمل كامل لكل ما جاء في السورة لعقد فكرة الميزان الكونية، ميزان العدل الذي يقيم الحقائق.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، 166، 167.

³ - محمد متولي الشعراوي : موسوعة الأحاديث القدسية وشرحها، ج1، ص 222.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

كتابا صغيرا عجيبا، تقوم على نظام وهندسة دقيقة، وإن علم وفقه سننها، يعني أن الحياة الفردية يمكن أن تجلي رؤية داخلية لهذا الكون الأصغر [= النفس]، رؤية تتيح للإنسان معرفة نفسه ومكوناتها وسننها البانية، وميكانيزم اشتغالها، وكيفية بناء الفكر والتصورات في داخل الذات، مثل التفاؤل أو التشاؤم من خلال داع أو عارض ما، ولذا نرى القرآن يدفع الإنسان إلى المسارعة في الإنجاز والفعل الحسن لنيل الاستحقاق الإلهي المغفرة والجنة، والاستثمار في الحياة الدنيا لتكون وصلا بالآخرة، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾¹، ويدفعهم إلى إحسان السبق لهذه الغاية، فيقول: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾²، ويدعوهم إلى سبق الخيرات فيقول: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾³، وهنا يمكننا أن نضع المسارعة والمسابقة إلى الأعمال والخيرات أساسا لبناء الحياة في مقابل البطء والتراجع الذي يهدد عناصر الحياة بالتلاشي والانهيار والإخفاق، تختفي معها معالم كثيرة أمام النظر السليم لإدراك الأسرار التي بنيت عليها حياة الفرد التي تدفع إلى قراءة نافذة للكون والمجتمع، قصد إقامة حياة إنسانية على أسس من العدل والرحمة والفضيلة، فالحياة سباق ومسارعة لتفجير الطاقات، حيث ينجح "من استعد له وتهيأ لمراحلته"⁴، امثالاً لحركة سننية كونية ونفسية واجتماعية، وإدراكا لسير هذا الوجود وفق حكمة وتقدير كفيلة بإنجاح الفعل البشري.

إن النفس الإنسانية نفس قائمة على سنن يتعين التبصر فيها، وهذا الإبصار هو دعوة إلهية للإنسان كما بينته الآية الكريمة: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾⁵، بمعنى أن معلم الحياة يسكن في نفس الإنسان، وكشف هذا ومعرفته فرض علمي وعملي يستحيل تجاوزه، لأن أمر النفس وتركيتها قد أسلم للإنسان، وهذا المبدأ هو أرضية حياة الفرد والمجتمع والكون، وسنة دافعة إلى ذلك، يقول الإمام: "هلك امرئ لم يعرف قدره"⁶، فالمعرفة النفسية هي فوز وحياة، وأن إدراك غائية الحياة يكون بالمعرفة، ويقول في موضع آخر: "نفسك نفسك، فقد بين الله لك سبيلك، وحيث تناهت بك أمورك فقد أجريت إلى غاية خسر ومحلة كفر"⁷، فالله سبحانه قد وضع القانون العلمي المتحكم في

¹ - سورة آل عمران : الآية 133.

² - سورة الحديد : الآية 21.

³ - سورة البقرة : الآية 148.

⁴ - محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي، ص 444.

⁵ - سورة الذاريات، الآية 21.

⁶ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 455.

⁷ - المصدر نفسه، ص 359، 360.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

النفس، ومعرفة هذا ييسر على الإنسان قيادة ذاته وحياته الفردية نحو الصلاح بعد فعل التزكية، ذلك "أن الصلاح جهد إيجابي في تقوية النفس وتركيتها، وليس قدرة على العدوان"¹، ولأن الصلاح كمال يحققه السعي الحثيث، وفي هذا المعنى الذي تحصله النفس في استكمال طاقاتها وعناصر الحياة الإيجابية تنطلق في وضع قواعد الاجتماع الإنساني الذي تتجلى فيه الحياة، وقد أظهرتها سنة الاجتماع، ومن ثم "فإن العناصر التي تتألف منها الحياة، وكذلك العناصر الضرورية لحياة المجتمع تعتبر كدوائر متداخلة بعضها في بعض، وأي فساد يعرض لإحدى هذه الدوائر مهما كان ضئيلاً يسري إلى الدوائر الأخرى بعد أن يتضاعف أثرها"²، وبهذا يندفع الإنسان بشكل فطري ليعبر عن تلقائية سلسلة في تفاعله واندماجه مع بيئته، وجميع هذه الدوائر ضرورية لإقامة الحياة من دائرة الأسرة إلى دائرة الحوار إلى دائرة الحرفة إلى دائرة المجتمع إلى الدائرة الإنسانية الكبرى، كما أن هذه الروابط المركزية، إنما هي تجسيد حي لمعادلة الوجود:

$$\text{معادلة الوجود} = [\text{الاستخلاف} + \text{العمارة} + \text{العبادة}] = \text{التعارف} \leftarrow \text{اختلاف الأمة/الإنسانية.}$$

وتفتح هذه المعادلة على الكون والحياة الكونية، وتنصرف في تجلياتها إلى أبعاد وجودية أكبر، لتجمع بين عالمي الغيب والشهادة، وإن كل هذا التحريك هدفه تنشيط القدرات الإنسانية لمعرفة الله وتوحيده وعبادته، ودفع كل عناصر التششت والاضطراب عن الإنسان، وهو ما يسهم في تحديد وجهته الحياتية بشكل متوازن بعد صراعه الكبير مع معيقات هذا الطريق، وبذلك تنتفي كل عبثية وعدمية وتصور شاذ في هذه الحياة، ولقد أدرك إبراهيم الخليل عليه السلام هذا المعنى فوجه عقول قومه إلى ضرورة تصحيح النظر في حياتهم وتحريك السنن التي تقيم الحياة الفردية والاجتماعية والكونية، ومن ثم يوجههم إلى خالقهم ليعبدوه، فاعتمد منطق السؤال لتنشيط العقول وإيقاظ الضمائر، "وهكذا فضل إبراهيم عليه السلام بفضته اختيار هذا السبيل لكي يظهر حقيقة "لا إله إلا الله" لكل فرد من قومه"³، وهذا التصويب الإبراهيمي إنما كان استجابة فطرية لتصحيح صورة الحياة، وتوجيهها لعقول قومه كي ترى ما في هذا الكون، وكله يقود إلى الحياة الحقيقية المتضاهرة، استناداً إلى مبدأ التعارف، وهذه حالة متقدمة، قائمة على الحرية والحوار بمبدأ القرآن: ﴿لَتَعَارَفُوا﴾⁴، فقد خلقوا شعوباً وقبائل مختلفين، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ

¹ - محمد الغزالي : المرجع السابق، ص 77.

² - فتح الله كولن : النور الخالد، ص 135.

³ - المرجع نفسه، ص 537.

⁴ - سورة الحجرات، الآية 13.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ¹. إن مبدأ التعارف آلية مهمة لإقامة حياة نافعة متجانسة حية، واختلاف الناس على أن يكونوا أمة واحدة سنة ثابتة، وعليه فإن التوافق بين الناس والانسجام والسلام يصنعه الإنسان بواسطة آلية التعارف [= بالعقل/الحوار]، وهذه هي الحكمة من وراء ذلك، "وكان الاختلاف سنة طبيعية في التكوين البشري"²، وعليه فإن الدخول في الأمة [السلام/الإنسانية] يعد ضرورة كونية، وأن ثمرته ونتيجته الجنة، بينما يؤدي تعطيل مبدأ التعارف والدخول في الخلاف وثمرته الخسران والنار، وعلى هذا الأساس فإن مسؤولية الإنسان قائمة بما منح من عقل وحرية، فالله "جعلنا بشرا مختارين، نستطيع الهبوط إلى سجين، أو الصعود إلى عليين"³، وعليه فإن "التغيير الاجتماعي المطلوب، يبدأ أولا من النفس من الفرد الذي هو وحده بناء المجتمع، والخطاب القرآني الذي يصر في كل آية من آياته على التغيير، يمازج هذا من ثلاث دوائر متداخلة: الفرد، المجتمع، الطبيعة"⁴، فإرادة التغيير والبناء تنطلق من النفس في بناء هذا الصرح، وتغيير الحياة الاجتماعية، "ومتى قعد الأفراد عن تعاطي أسباب الكمال فشت النقائص في المجموع"⁵، وقد كان درس "ابن خلدون" للمجتمع بحثا عن الإنسان فيه، من خلال زواياه المتعددة قصد تحديده، وهذا "لتوقه الشديد إلى إدراك الإنسان إدراكا متعدد الجوانب"⁶، من خلال النظرة الاجتماعية والكونية.

لقد طرح الإمام في نهج البلاغة كما رأينا في مبحث المجتمع رؤية متكاملة متجانسة هي بمثابة النظرية جمعت بين الصورة المثالية لفكرة البناء الاجتماعي وواقعية العمل من خلال تجربته كقائد وخليفة للمسلمين لتصحيح وضع الأمة المعقد والمتشابك، وتأتي هذه المحاولة لوضع المجتمع في مركز التاريخ وضبط وجهته، وترشيد حركته، فهو يريد اجتماعا بمعان وقيم ورافضا كل اجتماع مادي، فيقول: "أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهي الصم الصلاب"⁷، فوحدة الناس هي الأساس الذي تنطلق منه أرضية بناء الحياة، رؤية تهدف إلى إقامة مجتمع متماسك خال من الأمراض والمفاسد، مجتمع يقوم على العدل الذي يبرز الإمام فضيلته، قائلا: "العدل يضع الأمور مواضعها"⁸، باعتباره قيمة مجسدة للتفاعل الاجتماعي، تهيب للأفراد فرص الانطلاق في الحياة، بناء

¹ - سورة هود، الآية 118.

² - محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص 176.

³ - المرجع نفسه، ص 176.

⁴ - العمري أحمد خيرى : البوصلة القرآنية، إجمار مختلف، بحثا عن خريطة للنهضة، دار الفكر، دمشق، 2003، ط1، ص 146.

⁵ - محمد البشير الإبراهيمي: آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 201.

⁶ - مغربي عبد الغني : الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، تر محمد الشريف بن دالي حسين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988، ص 77.

⁷ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 59.

⁸ - المصدر نفسه، ص 500.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

واكتشافا وتحليقا في الآفاق، والعدل يؤدي إلى التعاون بين الأفراد على أساس المحبة، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾¹، والتعاون دفع إلى صناعة الحياة، وتمتين للروابط الاجتماعية وقيادة الناس إلى الترقى والكمال "وللوصول إلى هذه الدرجة من الكمال ينبغي أن تتوافر في المجتمع شبكة علاقات اجتماعية نامية، كما تمنح البناء الاجتماعي ما يلزمه من متانة واتساق"²، ولكن هذه العلاقات وضرورتها، وما تمنحه للناس من حيوية ومرونة وحركية على الفعل، لا بد أن يراعي فيها الضعيف من الفقراء والمحتاجين، يقول الإمام: "إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء فما جاع فقير إلا بما متع به غني، والله تعالى سائلهم عن ذلك"³، فعندما تكون شرائح من المجتمع في حالة من العدم، تصيبها سنة التراجع والنكوص، فلا تندفع إلى العمل والتأمل والعبادة ولا إلى الحمد، كما يأتي هذا على نفس أدوات تفاعل الإنسان مع الكون، ويضيف الإمام في قول آخر يحلل فيه مخاطر الفقر على المستوى النفسي وأبعد منه في قول لابنه "محمد ابن الحنفية": "يا بني إني أخاف عليك الفقر، فاستعد بالله منه، فإن الفقر منقصة للدين مدهشة للعقل داعية للمقت"⁴، ثلاثة مخاطر مهددة لقوام الإنسان ووجوده، بحيث تشكل عصفا بالطاقات الفردية، وتحرف محورية الإنسان في الحياة، لأنه "إذا اشتد الفقر فرمما يحمل على الخيانة أو الكذب أو احتمال الذل، أو القعود عن نصره الحق وكلها نقص في الدين"⁵، وهذا التعطيل السنني لحياة الفرد له ارتباطه بحياة المجتمع، وقد أجمع الإمام هذا الخطر بقوله: "الفقر الموت الأكبر"⁶، تجتمع فيه خسارة الحياة الدنيا والآخرة، ولهذا تقتضي المعالجة الاجتماعية توفير أجواء النجاح، بالاستثمار في الطاقات الإنسانية لتتحرك نحو كل خير وإتماء وصناعة.

وعليه فكلما كان السعي في غلق منافذ الفتن والاضطراب كان التفاعل بين الناس والحيوات ممكنا، وهذا ما جعل الإمام ينبه إلى عامل آخر قد يهدد هذا التماثل الروحي، قائلا: "فلا يعاب المرء بتأخر حقه، إنما يعاب من أخذ ما ليس له"⁷، فأخذ حقوق الناس بغير وجه حق صورة تزل بالتماسك والإلفة الاجتماعية، وتحرك المجتمع في طريقه المثالي الفاضل، تمنع تكالب الناس على

¹ - سورة المائدة، الآية 02.

² - مالك بن نبي : ميلاد مجتمع، ص 58.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 483.

⁴ - المصدر نفسه، ص 482.

⁵ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 495.

⁶ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 457.

⁷ - محمد عبده : المصدر السابق، ص 495.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

الدنيا وبميزان التقوى، وهو معيار يعتمد على الإمام في ترتيبه وتصنيفه للتراتب الاجتماعي، فيوجه إليهم موعظة بليغة: "وكونوا في الدنيا نزاها وإلى الآخرة ولاها، ولا تضعوا من رفعتة التقوى، ولا ترفعوا من رفعتة الدنيا"¹، وبهذا فالتوجه الاجتماعي نحو الهدف الأسمى والأرفع بمعيار التقوى والنزاهة، يجعل من حركة الحياة سائرة وفق قيم العدل والاحترام، وقاية من المخاطر المهددة للنسيج الاجتماعي وقيمته وأخلاقه. إن قيام مجتمع على مبادئ ثلاثية من العدل والقيادة الحكيمة مع التقوى، يجعل منه مجتمعا فاضلا متماسكا متفاعلا، ينتج عنها حياة مثالية متوازنة.

يتحرك الإنسان الحي الذي استكمل عناصر بنائه الفردي وحقق اندماجه النوعي مع مجتمعه في تأمل ذكي في الكون، فيرى مخلوقات أخرى تدب في الأرض أو تحلق في السماء، لتصنع حياة غاية في التنظيم المدهش، مثل مجتمع وأمة النمل، في القيادة والتنظيم والتجانس والتعاون، لأن "النمل من أحرص المجتمعات على حب الحياة، وتقدير هذه النعمة التي أنعم بها الله تعالى على كل مخلوقاته الحية"²، بينما نجد الإنسان أبعد عن هذا التقدير، يفسد في الأرض ويقتل معنى الحياة، بل وهي -أمة النمل- تسبح خالقها في هذا الكون. إذن فحياتها تنظيم وتسييح وقيم ورمزية، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾³، هذه أمم ومجتمعات كأمة البشر، ومن درس حياتها يستخلص الوحدة والتعاون. إن الاندفاع بحرارة وشوق لشكر المنعم هو أمانة في عنق المجتمع وأمة الإنسان، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾⁴، من هنا يصبح التسبيح قانونا كونيا يشمل جميع المخلوقات.

إن هذا الكون الفسيح يجعل من النفوس الحية منفعة انفعالا يقودها إلى فضاء الحمد والشكر والعمل والانتفاع، وتحقيق صورة التماثل الكوني [= المسبح] معه، كما تجسده المخلوقات الأخرى، وهذه النقلات ضرورية لكل حياة تتأسس على هذه القاعدة، على اعتبار أن "هذا الكون مسخر ومعد ومهيأ ليعيش الإنسان فيه وينتفع منه، وهذا لا يحصل إلا إذا فكر الإنسان وبحث ونقب فيه حتى يستطيع أن يستفيد منه، وبذلك يكون الكون مسخرا لخدمة الإنسان وتأمين مصالحه"⁵، في عملية واعية على مستوى الحياة الفردية، وفي علاقته بالآخر الإنسان في مجتمعه وفي

¹ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 267.

² - لهوير محمد: منظومة القيم عند مجتمع النمل، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2015، ط1، ص 28.

³ - سورة الأنعام، الآية 36.

⁴ - سورة الإسراء الآية 44.

⁵ - درنيقة محمد أحمد : القرآن والعلم، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ص 61.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

الإنسانية، وفي علاقته بالكون، ويمثل هذا تعبيد الإنسان لربه، وإبداء مظاهر الحرية والكرامة والعدل، حتى تتجلى الحقيقة أمامه، تمكن من اختيار مبدأه ومصيره بحرية وبلا إكراه ولا إماء ولا إخضاع، لتركيعة في قوته وعمله، تقوده إلى أحد النجدين، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾¹. إن رفع الظلم والبغي والقهر والإكراه هو الثقافة البديلة الدافعة إلى حالة الرشد التي تزيل حالة ذلك التلازم الحتمي بين الاستكبار والاستضعاف الاجتماعي والإنساني، وهنا تتعطل أسباب صناعة الحياة الكريمة والانطلاق الكوني*، يقول نيتشه: "إن الحياة الحرة لم تنزل تفتح أبوابها لكبار النفوس، والحق أن من يملك القليل من حطام الدنيا لا يناله إلا اليسير من تحكم المتسلطين، فطوبى لصغار الفقراء!"². هذا الانعتاق من المادة هو سبيل الانطلاق في الحياة، وإن النفس التي تنجح في معركة التصادم الحاصل بين النفس الإيمانية والأمانة بالشهوات يعتبر قمة النصر والإنجاز، في هذا الصراع وما يتجلى فيه من طلب ومنع، فالإيمانية تطلب أمراً، والأخرى تمنع والعكس قائم³، هذا الانتصار في هذه المعركة يعد حيازة تسجل له، وبهذا يستطيع أن يتفاعل مع وسطه الاجتماعي والطبيعي، وعليه فإن الأوامر والنواهي الإلهية هي أنوار الحياة، ومصايح لبلوغ الكمالات، "والإنسان كلما كان ذا إرادة أقوى، وعزيمة أمضى، وإيمان أعمق، وجهد وإبداع أشد تركيزاً، كلما أتيح له السفر إلى منطقة أبعد، لاكتشاف مزيد من المجاهيل في الطبيعة والعالم"⁴، فهذه هي عناصر النجاح والعوامل المهيئة لفهم سر الطبيعة، والكون العجيب، وإقامة صلة وربط تفاعلي معها بتفتح، "فكل ما يحصل في الكون له صدى في الإنسان، ولكنه صدى حي"⁵، وهذا ما يدفع إلى استبعاد كل سلبية، وتعامل حيادي، وكل حالة عدمية أو عبثية في الفضاء الاجتماعي وفي هذا الكون، يقول "عماد الدين خليل: "إن طاقات الكون كله تنسجم هنا وتتناغم وتعمل بتوافق رائع في خدمة الإنسان"⁶، ومن ثم فإن الموقع الإيجابي الذي يختاره الإنسان، هو تفاعله الحي الذي يقوده إلى إيمان حي، المؤسس على مبدأ ثابت حي، حيث "يتوجه إلى الله في أصغر فاعلياته وأكبرها حامدا شاكرا

¹ - سورة البقرة، الآية 256.

* - يمكن إدراك هذا المعنى في آيات كثيرة من القرآن الكريم في أوج الصراع البشري الذي انتهى بهذا التراب، وتاريخ الأنبياء حافل بهذا، فقد كانت مهمتهم إصلاح هذا الوضع المدمر للإنسانية، فحسر الجميع معركة الحياة، ومعركة الإيمان، وضيعت الإنسانية مع هذه الوضعية التاريخية فرص تجسيد التكريم الثاني، وكل إمكانية تؤدي إلى تفاعل بين في العالم، يمكن الاستضاءة في هذه الفكرة بما كتبه الدكتور "جودت سعيد" و"خالص جلي".

² - نيتشه فريدريك : هكذا تكلم زرادشت للمجتمع لا للفرد، تر فليكس فارس، الأهلية للنشر، عمان، 2009، ط1، ص71.

³ - ينظر محمد متولي الشعراوي : موسوعة الأحاديث القدسية، ج 1، ص 13.

⁴ - عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ، ص 200.

⁵ - الماجدي خرعل : العقل الشعري، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، 2011، ط1، ص 93.

⁶ - خليل عماد الدين: مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 2008، ط1، ص 140.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

عابدا للمنعّم الذي منحه هذا كله، ليختار موقعه الصحيح التي أنشئت الحياة على الأرض من أجله"¹، وهذا الاختيار هو العبادة شعارا إنسانيا وكونيا، لأن التّعبّد يمثّل صورة الجمال الإنساني، والحياة النابضة بالمعنى، وصورة لعلاقة الفرد بالآخرين التي تبنى على قيم الاحترام والتعاون، وإدراك كل تفاعلاته، "فتسلسل الطبيعة، المجتمع، الفرد ليس محض مصادفة، فالدوائر هنا متداخلة ومتشابكة، والبحث في أسباب الطبيعة لا يمكن إلا أن يكون نتيجة مجتمع، وهكذا فإن هذه الدوائر مرتبطة فيما بينها بأكثر من التماثل والتناظر، إنها مرتبطة بأصرة أساسية فيها جوهر العقل الذي أراد الخطاب القرآني تأسيسه"²، فنرى تفاعلا لا تناظرا، مما يقيم شبكة علاقات الحياة على متانة الفكرة، وإرادة تتصور الحياة على أنها ذات معنى وجمال، "لأن العالم قد خلق ليسفر عن كتاب رائع"³، ينبغي أن يقرأ بامتياز تبدأ هذه القراءة بقراءة الإنسان لسنن نفسه ومعرفتها أولا، ثم مجتمعه وتركيبته، وقوانين الكون وسننه، "فليس الإنسان مجرد كائن مشاهد لما يجري ويقع من حوله، إنما هو فاعل وخالق لما يجري وما يقع"⁴، فهذا تفاعل وتدامج بيني الحياة الفردية من هذه الجهة، كما يصبح حاملا للمعنى الاجتماعي من جهة ثانية، فالإنسان "هو حقيقة اجتماعية بقدر ما هو حقيقة فردية، فالحقيقة الاجتماعية للفرد هي سر وجوده، كما أن الحقيقة الفردية للجماعة هي عنوان حياتها ومبرر بقائها"⁵، مما يعطي للفرد رسالة ذات معنى واجبة الأداء، تمكن الفرد من أن يخرج من الولادة الذاتية، إلى الولادة الاجتماعية حيث ينمو فيه الروح الجمعي الذي يتفاعل به مع أبناء جنسه، ويدفعه هذا الروح ليعرف سر هذا الكون وتركيبه البديع يثبت به "أنه مخلوق كوني"⁶، وهذا هو الذي يعضد هذا الارتباط ويقويه، ويجعل من الحياة الفردية ممتدة لا تنتهي عند حدود الجسد، بل يصبح هذا الجسد دافقا بالطاقة، وبهذه الرغبة في الامتلاء بالفكرة التي هي طاقة هذا الامتداد، وسيمنحه الكون المعنى الذي يريده، وسيكون لانفتاحه ثمرة مبهرة في إدراك أبعاد وجوده، ويعد تسخير الكون له من تجليات التكريم الإلهي للإنسان الذي هو كما يقول "هايدغر": "كائن داخل الكون"، وهذا يعني: "أن الإنسان يتفتح على الكون بقدر ما يتفتح الكون عليه، والتفتح يعاش باعتباره متعة وأملا، والانغلاق هو الضيق والسأم؛ فعندما تنغلق السماء تنطفئ الروح ويتقدم السأم

¹ - عماد الدين خليل، المرجع السابق، ص 140.

² - أحمد خيري العميري: البوصلة القرآنية، ص 146.

³ - رانسير جاك: سياسة الأدب، تر رضوان ظاظا، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات العهدة العربية، الحمراء بيروت، 2010، ط1، ص 206.

⁴ - محمد عبد الرحمان مرجبا: الفكر العربي في مخاضه الكبير، ص 599.

⁵ - المرجع نفسه، ص 599.

⁶ - الأنصاري فريد : مفاتيح النور في مفاهيم رسائل النور، القاهرة، 2010، ط1، ص 101.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

ويعلن ظهور العدم¹، ولهذا نجد أن الحياة عند أغلب الكل هي موت وسأم تخلو من الروح والمعنى، يقيمها تفتح الكائن على الكون ليكون داخل المعنى، وثمرته الولادة الكونية للإنسان بعد الولادة الاجتماعية.

سيقود العقل الإنسان في بحثه واستقصائه إلى معرفة واكتشاف أسرار الوجود، "وأن اكتشاف الإنسان سيؤدي إلى اكتشاف الكون"²، وهي معادلة رياضية معلومة، إلا أن كیفياتها مجهولة، وهو ما يتعين الاشتغال عليه لإدراك هذا الكنز، يقول "إبراهيم الكوني": "حاكم العالم - واهم/قاهر نفسه - حاكم"³، لأن مفتاح المعرفة الإنسانية يتمثل في معرفة عالم النفس، فهي السلطة الأولى التي تفتح مغاليق الحقيقة الاجتماعية والكونية، "ولا يكون إلا ما يكون بالتفاعل والآخر"⁴، وبهذا تنتفي الصفة الانعزالية للكائن وينفتح أكثر على أنه كائن كوني، وهو ما يعد تويجا لجهد إنساني ليثبت كرامته وجمالته وعبوديته، بالتأمل والشكر والحمد، ويتعين عليه أن يفهم المعادلة الكبرى التي تتوزع في كل ذرة ونفس ومعنى، حيث تتجذر وتتشجر دليلا على وجود بعلم إلهي، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾⁵، وعلى هذا الأساس فإن النماذج الكمالية من البشر والنفوس الزكية والعقول النيرة هؤلاء جميعا، يصبحون هم أدلاء الصلاح في هذا الكون.

إن التفاعل يصنعه الإنسان، حينما يقرأ ذاته، ويقرأ ما في مجتمعه، ويقرأ ما في الكون ليدرك الأسرار، وبهذا الفهم يتم تحقيق معنى صور هذه الحياة.

- فكرة الخواء: إن من أخطر الأفكار والأمراض المدمرة للحياة فكرة الخواء التي تصيب ذات الفرد أو المجتمع، أو فيما يعرف "بالفراغ الكوني" الذي يهدد الحياة، وبهذا يكون الامتلاء ضرورة علمية لقيام الحياة، فكل نفس تخلو من فكرة مؤسسة هي نفس ميتة ينعدم فيها المعنى والحياة، وكل مجتمع يخلو من الأفكار الحية التي تكسبه الحياة وتمنحه الطاقة وتعطيه منعة تقيه من الأمراض مهدد هو الآخر بالانهيار والضياع والتشتت، وكذلك الأمر في الكون فالطبيعة لا تقبل الفراغ، كما أكد ذلك الفيزيائي "غاليلي"^{*}، وعليه فالحياة فكرة وامتلاء بالمعنى تقضي على كل صور العدمية والعبثية، وتحول الحياة إلى طاقة من المعنى، حيث تعطي للوجود دلالة وتميزا، وترجم واقعا يمكن تمثله.

¹ - كوهين جون: النظرية الشعرية، اللغة العليا، ج2، تر أحمد درويش، دار غريب- القاهرة، 2000، ص455.

² - خالد آغة القلعة: السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة، ج1، ص109.

³ - الكوني إبراهيم: نصوص الخلق، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 1990، ط1، ص11.

⁴ - محمد عبد الرحمان مرجبا: الفكر العربي في مخاضه الكبير، ص620.

⁵ - سورة البقرة الآية 30.

^{*} - أشار "غاليلي" إلى هذه الفكرة مؤكدا ذلك بقوله: "أن الطبيعة تخشى الفراغ".

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

إن كل امتلاء يعد إمكانية للحياة، تخرج الإنسان من العزلة، وطاقة توجيه للحياة الفردية والاجتماعية، وتمثل هذه الحقيقة أصعب عقبة تعترض الفرد لتحقيق ذاته، ويلاحظ المتأمل في التاريخ أن جميع المحاولات لإصلاح وضع الأفراد الداخلي قد فشلت وجانبت التوفيق، ذلك أنهم "لم يستطيعوا إملاء الخواء الذي يفترس أفراد الأمة، حينما تتقدمهم غرائزهم"¹. إذن فالخواء هو المؤسس للدمار الذاتي للفرد، ويؤدي إلى اختلال تركيبة النفس، حيث يجعل من الغرائز المختلفة تفترس الفرد، افتراس يواجهه الفرد بفكرة نيرة تملأ كيانه، ولذا يلزمه أن يتمتع بـ: الإرادة^(أ) و الحيوية^(ب) و الفكرة^(ج)، ويحتاج الإنسان إضافة إلى هذا إلى مفاتيح الحياة، متمثلة في هذه الثلاثة: الفكرة^(أ) + المخيلة^(ب) + الجمال^(ج)، حيث يشتغل هذا المعنى داخل الذات بفعل التذهين، "لأن منطق المعنى في كل إنسان هو الذي يوجه البوصلة الذهنية لديه، وإلا لتحول الناس إلى قطع من الخرفان"²، وعليه فالامتلاء الحي بالفكرة [= الفردية، الاجتماعية، الكونية]، مع الصفاء والحرية من شأنه أن يصنع حياة الفرد، والمعنى الذي يكونه بالإرادة والقوة وهو ما يصنع الحياة، "فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، إن الحياة على الخبز وحده هي حياة خواء وصرع وفراغ"³، وتجاوز حالة العيش في الحدود الضيقة للجسد، والأفق الضيق ناتج هذا الخواء وما يحدثه من تآكل في الذات، حيث تصغر معه الحياة وتفرغ من كل معنى، وإن فكرة الخواء في النفس هي علامة على انعدام السواء داخلها، وبالمقابل فإن فكرة الامتلاء تعني امتلاك الفرد لحالة السواء في حياته الفردية، تنعكس بظلالها على الحياة الاجتماعية والكونية، وهذا ما يمنح المعنى لهذه الحياة.

إن كل فهم يتأسس على فكرة واضحة تفتح في الذات ضوءا يهتدي به الفرد في الحياة، وانتصارا على المكبلات والمعيقات والمفسدات، أي ما يكبل قواه عن العمل، قصد المسك بالمعنى الحقيقي في الحياة، يقول الإمام: "من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهوته"⁴، وهذا التكريم للنفس الإنسانية هو الضوء الذي يقودها في الحياة، لأنها بهذا تكون قد أعدمت الخواء وحققت امتلاءها بالفكرة الحرة المضيفة للفرد وللمجتمع، تفتح كل المغاليق النفسية والكونية، وما تمنحه للحياة من معنى رفيع تتحقق من خلاله الإنسانية الأرفع، يقول مالك بن نبي: "إن كل فراغ أيديولوجي لا تشغله

¹ - خالد آغا القلعة : السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة، ج2، ص 65.

² - المرجع نفسه، ج3، ص 92.

³ - محمد عبد الرحمان مرجبا : الفكر العربي في مخاضه الكبير، ص 200، 201.

⁴ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 501.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

أفكارنا، ينتظر أفكاراً منافية، معادية لنا¹، وعليه فإن شغل الحيز الفردي والاجتماعي والكوني ضرورة وجودية، وهذا بحسب إرادة وهمة الإنسان، يقول "مصطفى ناصف": "فمن الناس من يأوي إلى قمة جبل، ومنهم من يأوي إلى غار، ومنهم من يلجأ إلى دار خربة، لأنه يحرص على ذاته الخالقة، ويفر بنفسه من المجتمع، وإذ ذلك يبدو المجتمع عقبة في سبيل الوحشة الضرورية التي تؤدي إلى تنبيه الذات لكل ما لها من قدرات"². إذن فالاندفاع في الحياة إندفاع بفكرة، يقول "نيتشه": "ومن الناس من يدب الهرم إلى قلوبهم أولاً، ومنهم من يدب الهرم إلى عقولهم، ومنهم من يشيخون في ربيع الحياة، غير أن من يبلغ الشباب متأخراً يحتفظ بشبابه أمدًا طويلاً"³، وإن المكان الذي يسكنه الإنسان هو فضاء يلونه من النور الذي في ذاته، يضيء به حياته، وعلى قدره يبني عالمه، باعتبار أن الحياة فكرة تملأ الوجود وتعطي الكائن طاقة التجدد والاستمرار، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾⁴، وصل المكونات ببعضها يقود حتماً إلى الوصل بالله والإصلاح في الأرض، ولا تتحقق إلا بشروط ضامنة:

1- انتفاء الخلل، وانتفاء الخواء.

2- امتلاء النفس والمجتمع بالفكرة.

3- تحقيق انطباق الدنيوي مع الآخروي وتمائلهما.

نتهي إلى استجلاء العلامة التأويلية من خلال ما تقدم من صور الحياة المختلفة:

أ- الكون: كتاب سر، ينتظم بقوانينه وسننه الثابتة، وهو حقيقة مجسدة لمعنى العبودية، فالأرض والسماء وجميع الموجودات قائمة وفق هذا التصور والنظام، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾⁵، وآية دالة على الخالق.

ب- المجتمع: إن العلامة المميزة للمجتمع لن تكون إلا في ما تظهره شبكة العلاقات القائمة بين أفرادها، وهي صورة التأليف بين الناس، هذا هو المظهر الأرقى للمجتمع، حيث يسود فيه العدل والرحمة والتعاون والحرية، وأما أدواته فهي التعارف، وصورة مقومه، أن:

الفرد ————— يقوم ب ————— المجتمع ←

¹ - ابن نبي مالك: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1969، ط1، ص45.

² - مصطفى ناصف: قراءة ثانية لشعرنا القديم، ص176.

³ - نيتشه: هكذا تكلم زرادشت، ص90.

⁴ - سورة البقرة، الآية 26.

⁵ - سورة النور، الآية 284.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

المجتمع ————— يقوم ب ————— الفرد ←

ج- الفرد: لا تقوم حياة الفرد، إلا إذا تميزت بفضيلة الثبات على المبدأ والإضاءة الداخلية، قصد تجميع طاقات الذات، حيث نجد الإنسان واقعا بين ضاغطين، النفس والشيطان ومختلف المزاحمات، ولا يحسم أمرهما إلا بالتزكية والتوازن الدافعين إلى الخيرية الصلاح.

إن بناء الحياة بهذا الشكل يفترض توفر عناصر هذا البناء ومقوماته الفاعلة التي تقيم البنيان الحياتي، مقومات بحملها في الآتي:

- أولا: مقومات الحياة الكونية: تقوم الحياة الكونية على المقومات الآتية:

1- التأمل في الكون لإدراك ما يقوم عليه من نظام وانتظام.

2- فهم قانون التسخير.

3- فهم السنن الكونية، وإدراك آياتها.

4- تعظيم الله، مع التسبيح والحمد والشكر، تفاعلا وتناغما مثل باقي الكائنات.

- ثانيا: مقومات الحياة الاجتماعية : وتقوم على الأفكار والمقومات الآتية:

1- إدراك البنية التركيبية للمجتمع وعلاقاته الجامعة.

2- قيام المجتمع على النظام التراتبي الوظيفي، ودور الطبقات الاجتماعية في صناعة الحياة.

3- أهمية دور الأفضاد والعباقرة والعظماء في قيادة المجتمع، فهم أنواره وهاديته.

4- العمل الاجتماعي هو سر صناعة الحياة، من خلال فقه سنة الاجتماع الإنساني.

- ثالثا: مقومات الحياة الفردية: وتقوم على العناصر والمركبات الآتية:

1- ضرورة فهم ميكانيزم عمل الفكرة داخل الذات الفردية.

2- تزكية النفس وفقه سننها التي تمنح الصفاء للحياة الفردية.

3- ضرورة إدراك أبعاد الحياة الفردية وتفعيلها واقعا.

4- تهيئ مقومات الحياة الفردية أرضية بناء الصلاح والخيرية، في حدها وأفقها الأبسط القليل.

إذن فمن تجليات الجمال الكوني ينطبع في نفس الفرد الجمال والحق والخير الذي يمتد إلى

المجتمع التي تسهم في تثبيت معالم الرشد فيه، والتوجه نحو/إلى الحركة والبناء، أي إلى الحياة. إن ما

يجمع صور هذه الحياة يعد مقومات صالحة لاستنبات فكرة الحياة وإنمائها، وتتمثل في:

1- يمثل قانون العمارة والاستخلاف والعبادة وآلية التعارف سنة جامعة لصور الحياة.

2- تتجسد الحياة الحقيقية من خلال إقامة علاقات فاعلة بين صورها المختلفة، وتتمثل في:

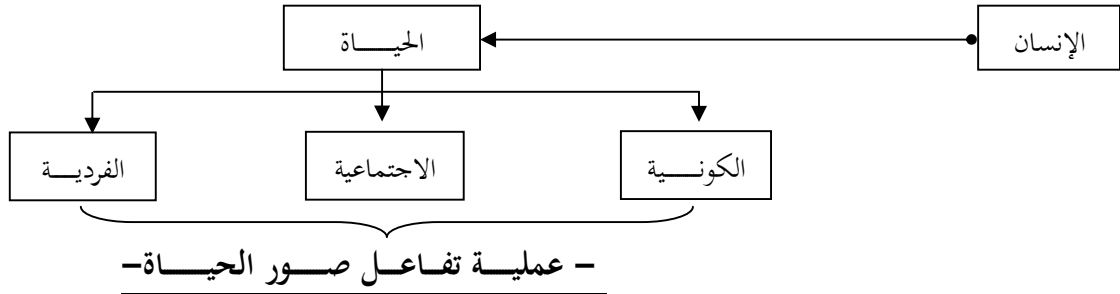
الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

أ- علاقة الإنسان بالكون.

ب- علاقة الإنسان بمجتمعه.

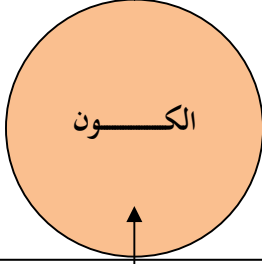
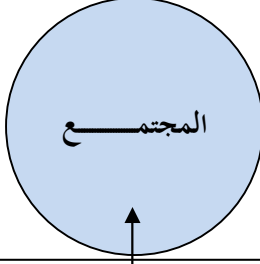
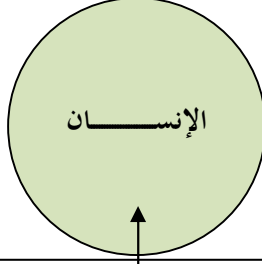
ج- علاقة الإنسان بنفسه.

إن ما يجمع صور الحياة هو قانون ومبدأ التعارف، نجسده بهذا السؤال: كيف يمنح الكون للإنسان حياة؟ وكيف يمنح المجتمع له حياة؟ وكيف يمنح الفرد لنفسه حياة؟ وكيف تأخذ هذه الصور الثلاثة من بعضها، كما تعطي لبعضها بعضاً؟! نركز هذا المعنى في الترسيم الآتية:



إن الحياة الجامعة لهذه الصور، تربطها العلاقة بين عالم الغيب والشهادة، وتحقق ب: معادلة الوجود: الاستخلاف + العمارة + العبادة = التعارف + الاختلاف = اختلاف البشرية = الإنسانية.

إن أمر الاختلاف بين الناس، لا يحل إلا بالية التعارف، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾¹، فقد أوكل للناس تذيب وتقليص فحوة الاختلاف، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾²، وهذه هي معادلة الحياة. إن الغاية من كل هذا إقامة الإنسان حياة تعبدية مع الله، وهذا بالانفتاح، انفتاح الإنسان على كل العلامات وتأويلها وقراءتها، وانفتاح على الحياة، يمثل في النهاية انفتاح الإنسان على الكمال، وعليه فالحياة لا تقوم إلا بعامل الفردية [= الفرد]، وعامل المجموع [= المجتمع]، وعامل التنوع [= الكون]، نوضح هذا بهذه الترسيم:

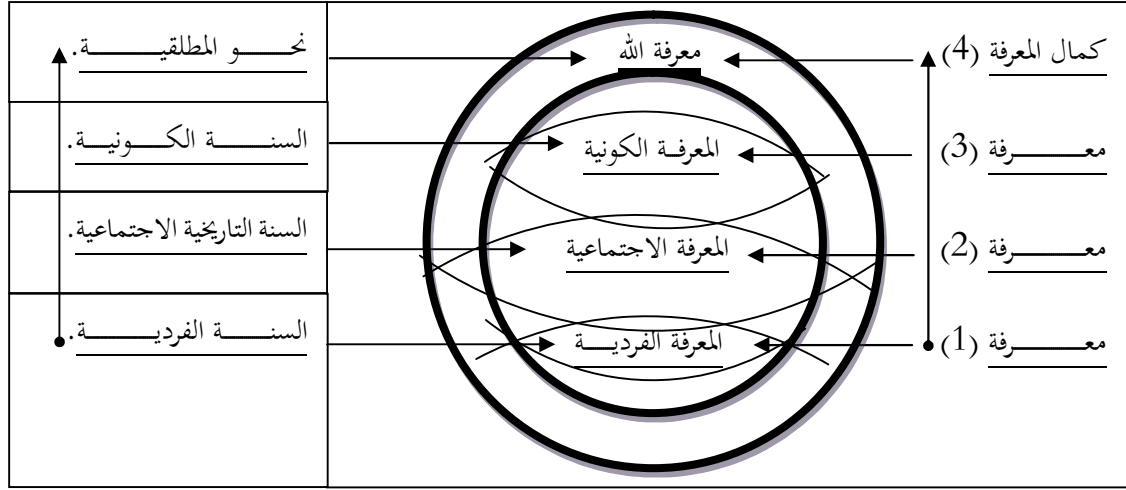
الحياة الكونية	الحياة الاجتماعية	الحياة الفردية
 <p>الكون</p>	 <p>المجتمع</p>	 <p>الإنسان</p>
العامل بالتنوع	العامل بالمجموع	العامل بالفردية

¹ - سورة هود، الآية 118.

² - سورة الحجرات، الآية 13.

الفصل الأول : صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة

إن الحياة النابضة بالحياة والتدفق تدفع إلى ارتياد كل الآفاق، والتفاعل بإيجابية مع قوانين الكون، تمكن الإنسان من أن يبدع حياته بكفاءة تعبيراً عن كرامة فيه، وحرية كبيرة ملأت جوانبه معنى لافتاً أخذنا نرى آثاره دالة في هذا الوجود المتزامي، تفاعل مبناه المعرفة، نوضحه بهذه الدائرة:



- دائرة تمثل تدرجات المعرفة البانية للحياة وتفاعل صورها -

إن التدرج المعرفي يعد ضرورياً، فكل فهم في درجة يؤسس لكشف لاحق، وصولاً إلى كمال الحياة الذي يقوم على كمال الإنسان وكمال المجتمع، ويعني هذا أن الإنسان قد عرف نفسه، وقادته معرفته هذه إلى معرفة ربه، وتتصاعد هذه المعرفة إلى معرفة هذا الكون، معرفة تمكن من تحقيق وبلوغ تمامها، بمعرفة الله التي تقود إلى عبادته.

الفصل الثاني:

الإنسان الشقي.

- المبحث الأول :

الإنسان الشقي.

- المبحث الثاني :

الانحراف العقدي (الفطري).

- المبحث الثالث :

الانحراف الفكري.

- المبحث الرابع :

الانحراف العملي السلوكي.

- المبحث الخامس :

معيقات الكمال.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

توطئة: تحدثنا في الفصل السابق عن صور الحياة في النهج، ولاحظنا أنها حياة تقوم على التأمل والعمل والسننية والفكر الحي والمعرفة، وتفاعل العلاقات الجامعة بين هذه الحيات، كما أن هذه الحياة نجدها مبنية على الكمال وتقود إليه وتؤسس له. إلا أن مثل هذه الايجابية التي تطبع الحياة، قد تأتي بنقيض هذا فنراها حياة باهتة عند الفرد والمجتمع، إذا اختار الإنسان منهج الفساد بدل الصلاح طريق حياته، وهو الأمر الذي سيطبع حياته بطابع وصور الشقاء الفطري والفكري والعملية، حيث تترجم حالة الانسداد الذي يمنع من السير الطبيعي نحو المعرفة والكمال، وهذه الموانع لن تكون إلا التجسد الحي لمعوقات طريق الكمال التي سنأتي عليها في مباحث هذا الفصل.

I- المفهوم اللغوي: جاء في معجم مقاييس اللغة في هذا المعنى، قوله: "شقو: الشين والقاف والحرف المعتل أصل يدل على المعاناة وخلاف السهولة والسعادة. والشقوة: خلاف السعادة، ورجل شقي بين الشقاء والشقوة والشقاوة، ويقال إن المشاقاة: المعاناة والممارسة، والأصل في ذلك أنه يتكلف العناء ويشقى به"¹. والمستخلص من هذا أن حركة الإنسان غير المنهجية هي حالة من الإجهاد والعنت وتكلف الطريق يشقى به صاحبه في حياته.

وقد وردت كلمة "الشقاء" في القرآن بمشتقاتها، بمعان ومدلولات متنوعة بحسب السياق، نجملها في:

- 1- الخروج عن الحق: قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾²، بعد أن تبين الهدى وسبيله، وتعقب بذكر نواتج هذا الموقف من عقاب وخسران وإحباط للعمل وعذاب، ودلالة الآية قاطعة في بيان هذا المعنى.
- 2- الانحراف: قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾³، مثل التولي عن الهدى، والاختلاف عن الكتاب، والظلم، فالوصف واضح لسلوك هؤلاء.
- 3- الشقاء في النار: قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فَنُفِيَ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾⁴، فشقاء الآخرة يتمثل مع الشقاء في الدنيا.

¹ - ابن فارس : معجم مقاييس اللغة، ص 454.

² - سورة الأنفال الآية 13.

³ - سورة البقرة، الآية 176.

⁴ - سورة هود، الآية 105-106.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

4- علامة على من يصلى النار: قال تعالى: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾¹، فالنار هي مثنوى الأشقياء، وبهذا تتحدد صفة من يسكنها، ووصفه بالأشقى.

5- الفتنة: قال تعالى: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾²، ومن يشعلونها، ومثلها عاقر الناقة، فهذا العاقر الذي أشعل هذه الفتنة قد شقي بنفسه وبقومه.

فهذه بعض الدلالات العامة في ضبط الحقل الدلالي لهذه المادة وفق السياقات القرآنية المتنوعة، وعلى العموم فهي دالة على عالم الشقاوة، ونجد بعض الآيات تدل على ضرورة التبرؤ من هذا السلوك، قال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿وَوَيْرًا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾³، فبره والدته، ورفضه أن يكون جبارا شقيا، دلالة على عالم كمال أوصافه.

II - مفهوم الشقاء: يقول الإمام الشعراوي: "والشقاوة وهي الألم الذي يملك كل ملكات النفس لا يترك منها جانبا"⁴. إن انطلاق الإنسان من قاعدة نفسية مرضية مفسدة متوقعة وانحراف سلوكي يصدر عنها، فالشقاء يعد انحرافا عن منهج الحق.

- المبحث الأول : الإنسان الشقي:

يضع الإمام علي **d** معيارا دقيقا لتحديد الإنسان الشقي ومميزاته، فيقول: "إن الشقي من حرم نفع ما أوتي من العقل والتجربة"⁵، ومن ثم يكون الانتفاع بتوظيف العقل وعدم إهمال التجربة، وهما أدوات تحقيق السعادة وتيسير الحياة وبخلافها يشقى، ومما يجلب حالة الشقاء، قول الإمام: "وإني لأعبد أن يقول قائل بباطل، وأن أفسد أمرا قد أصلحه الله، فدع ما لا تعرف، فإن شرار الناس طائرون إليك بأقاويل السوء"⁶، ومعنى هذا أن ما يوقع في الشقاء:

- 1- إصلاح أمر أصلحه الله، وهذا انحراف وإفساد، يجعل الحق باطلا.
 - 2- التنبه إلى أقاويل السوء التي تأتي من شرار الناس، إحداثا للفساد ونشر الشقاء بين الناس.
- وهكذا يتعين لنا أن عدم الأخذ بهذه المعالم الأربعة يعني التمهيد لطريق الشقاء، وتهدم الجوهر الإنساني، والمقوم الكمالي. إن الشقاء بوصفه طريقا متعثرا، يخرج صاحبه من دائرة الإنسان

¹ - سورة الليل، الآية 15.

² - سورة الشمس، الآية 12.

³ - سورة مريم، الآية 32.

⁴ - الشعراوي محمد متولي : تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، مصر، مج 16، 2015، ص 10166.

⁵ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 429.

⁶ - المصدر نفسه، ص 429، 430.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

السوي، ليدخله في نطاق الكفر، وهذه علامة كبرى لهذا الانحراف، يؤكد هذا المعنى قول الإمام: "الكفر على أربع دعائم، على التعمق والتنازع، والزيغ، والشقاق، فمن تعمق لم ينب إلى الحق، ومن كثر نزاعه بالجهل دام عماه عن الحق، ومن زاغ ساءت عنده الحسنه وحسنت عنده السيئة، وسكر سُكَّر الضلالة، ومن شاق وعرت عليه طريقه وأعضل عليه أمره، وضاق مخرجه"¹. إن لكل دعامة مترتب وثمرة، وعليه فالضلال يرتكز على أسس وثوابت تجعل من الإنسان أسير الشقاوة، هذا بيانها:

الدعامة •	النتيجة ←
1- على التعميق	يترتب عنه
2- على التنازع	يترتب عنه
3- على الزيغ	يترتب عنه
4- على الشقاق	يترتب عنه

يقول محمد عبده: "التعمق الذهاب خلف الأوهام على زعم طلب الأسرار، والزيغ الحيدان عن مذاهب الحق والميل مع الهوى الحيواني"²، مما يعني انحرافا حقيقيا عن المنهج وسنن الحق والهداية، وهو ما يمثل إرهابا وتكلفا وعنتا ومعاناة، لا يجد معه صاحبه مخرجا يقوده إلى الحق والصواب، بل علامة دالة على الكفر والخسران والتسافل يؤدي به إلى الفساد الذي "يأتي من تدخل الإنسان على غير منهج ربه"³، انحراف وتيه يفسد على الإنسان عالمه الروحي النقي.

1- مآلات الشقاء: إن هذا الانحراف الذي ينقاد إليه الإنسان في الدنيا له مترتب مماثل في الآخرة، حيث يشقى صاحبه في الدارين، يقول الإمام: "وَاللَّهِ مَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا أَمْرًاؤُكُمْ، وَإِنَّكُمْ لَتَشْقُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ، وَتَشْقُونَ بِهِ فِي آخِرَتِكُمْ، وَمَا أَحْسَرَ الْمَشَقَّةَ وَرَاءَهَا الْعِقَابُ، وَأَرْبَحَ الدَّعَةَ مَعَهَا الْأَمَانُ مِنَ النَّارِ"⁴، وهنا تنقسم تبعات هذا الشقاء في هذه الدنيا التي هي جسر الآخرة، وتتوزع هذه الخسارة وتعمق مأساة الإنسان، وليعلم أن خط السير عندما يكون منحرفا متعرجا، فإن هذا يؤكد على إفلاس يكون هنا، وزلزلة تكون هناك، نجمل هذا بهذا المخطط:

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 435.

² - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 435.

³ - محمد متولي الشعراوي : موسوعة الأحاديث القدسية، ج 01، ص 300.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 436.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

الحالة	الدينا	الآخرة	الآثار	النتيجة
الشقاء	-	-	العقاب	الخسارة [= النار]
السعادة	+	+	الأمان	الربح [= الجنة]

ويضع الإمام هذه الالاففة التحذيرية، قائلاً: "من أبدى صفحته للحق هلك"¹، فهذا إعلان صريح أن الانحراف الإنساني عندما يكون نية مستقرة وعملا بينا، فإنما هو تحد واضح ومجاهة للحق، نتيجه الهلاك، كحالة من الإعراض عن الحق ومقاومته، مقابلة صريحة²، وعليه فإن كل خروج عن المنهج يعني إفسادا لمقومات الكمال الإنساني التي يحقق بها فلاحه في آخرته، ومن المعايير المحددة لهذا المفهوم، المنذرة بالهلاك، وهي ضرورات اتقاء ما يبرزه القول الآتي³ الذي نفككه بجملة الدالة:

- 1- مَنْ أَصْبَحَ عَلَى الدُّنْيَا حَزِيناً • فَقَدْ أَصْبَحَ ← لِقَضَاءِ اللَّهِ سَاخِطاً.
- 2- مَنْ أَصْبَحَ يَشْكُو مُصِيبَةً نَزَلَتْ بِهِ • فَقَدْ أَصْبَحَ ← يَشْكُو رِزْقَهُ.
- 3- وَمَنْ أَتَى غَنِيًّا فَتَوَاضَعَ لَهُ لِغِنَاهُ • ذَهَبَ ثُلُثَا ← دِينِهِ.
- 4- وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ • فَهُوَ مِمَّنْ ← كَانَ يَتَّخِذُ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوءاً.
- 5- وَمَنْ لَهَجَ قَلْبُهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا • التَّاطَ قَلْبُهُ مِنْهَا ← بِنِثْلَاتٍ:.....

(1) هُمْ لَا يُعْبَهُ (2) وَحِرْصٍ لَا يَتْرُكُهُ (3) وَأَمَلٍ لَا يُدْرِكُهُ.

ويمكننا أن نستخلص من هذه الجمل علامات ودلالات الشقاء، في الآتي:

- حالة السلبية المتمثلة في السخط والتبرم وعدم الشكر.
- الخضوع لضغط الناس.
- الاستهزاء بالكتاب، وبسنن الهداية.
- حب الدنيا والتعلق بها والفناء فيها وفي متعتها.

وتمثل هذه الأفكار جميعها وضع شقاء مع نتائجها المدمرة المرتبطة بالجانب العقدي والإيماني، وإن هذه الحركة السلبية المضطربة المتفلتة هي آية الخسارة، يجليها قول الإمام: "إِنَّ أَحْسَرَ النَّاسِ صَفْقَةً وَأَخْيَبَهُمْ سَعِيًّا رَجُلٌ أَخْلَقَ بَدَنَهُ فِي طَلَبِ مَالِهِ، وَلَمْ تُسَاعِدْهُ الْمَقَادِيرُ عَلَى إِرَادَتِهِ، فَخَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا بِحَسْرَتِهِ، وَقَدِمَ عَلَى الْأَجْرَةِ بِتَبِعَتِهِ"⁴، هذا أكبر دليل على هذا الشقاء والانحراف

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة ص 459.

² - ينظر محمد عبده : المصدر السابق، ص 459.

³ - ينظر علي بن أبي طالب : المصدر السابق ص 464.

⁴ - المصدر نفسه، ص 499.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

والقصور، وإنما يحصل هذا للإنسان عندما يخرج عن خط الصواب، حيث يكون قد أفنى بدنه "في طلب المال ولم يحصله"¹، ولكن الحقوق تبقى عالقة تنتظر سدادا، فقد أضع هذا الإنسان حياته وعمره وجهده في طلب استحال تحققه، ولهذا قد يصلح أن يكون قول الإمام الموالي تعريفا لهذا الخط الإنساني المنحرف، حيث يقول: "والشقي من انخدع لهواه"². وقد تم هذا، أي انخداع الإنسان لهواه، لأنه لم يحتكم إلى العقل والتجربة وكذا للحق، فهذا الوصف صورة دالة على شقاء الإنسان، وعليه فتعريفنا له: أن الإنسان الشقي هو المنخدع لهواه.

2/ حقيقة الشقاء: يتبين من التوصيف السابق في تحديد المعالم الكبرى لصورة الإنسان الشقي. أن هذا الإنسان الذي صارت له هذه الميزة والتحقق، قد صار بحقيقة وميزة مكتسبة، ولنا في القول الآتي تحديدا وضبطا دالا على هذا الحال، يقول الإمام: "أَقُولُ بَعْدَ عِلْمٍ، وَعَفْلَةٍ مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ، وَطَمَعًا فِي غَيْرِ حَقٍّ"³، نوضح حقيقة هذا في هذا الشكل لبيان معالمها ومعاييرها:

المحدد	ضابطه	التقييم	المرتب	الحقيقة
1 - قولا	بغير علم	تعني هذه المحددات افتقار	- الخروج عن الحق	<u>الإنسان</u>
2 - غفلة	من غير ورع	الضوابط الكمالية والإنسانية	- الشقاء	<u>الشقي</u>
3 - طمعا	في غير حق	والتكريمة.		

إن ما نلاحظه هنا يعبر عن شلل منهجي وتنظيمي في قيادة الإنسان لذاته، ويقارن الإمام بين أولياء الله وأعدائه مستخلصا حقيقة كل نوع كما نرى في هذا الكلام: "فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ فَضِيَّائُهُمْ فِيهَا الْيَقِينُ وَدَلِيلُهُمْ سَمْتُ الْهُدَى، وَأَمَّا أَعْدَاءُ اللَّهِ فَدَعَاؤُهُمْ فِيهَا الضَّلَالُ وَدَلِيلُهُمُ الْعَمَى"⁴، ويضيف قائلا: "وَأَمَّا الْإِمْرَةُ الْفَاجِرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فِيهَا الشَّقِيُّ، إِلَى أَنْ تَنْقَطِعَ مُدَّتُّهُ، وَتُدْرِكُهُ مَبِيئَتُهُ"⁵، فالشقاء تمتع وفجور بلا ضابط ولا هدى، وندرك من خلال هذا التوصيف كيف تكون حقيقة شقاء هؤلاء الذين غلب على مسلكهم العام الضلال والعمى، أو من ارتسم طريقهم بهذه الأمارات المميزة في مقابل اليقين وسمت الهدى الذي حازه أولياء الله، وما دام أن الحياة محددة الأمد والمآل، فيتعين على الإنسان مراقبة نفسه، "فَمَا يَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ مَنْ خَافَهُ وَلَا يُعْطَى الْبَقَاءَ مَنْ

¹ - محمد عبده : شرح النهج، ص 499.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 115.

³ - المصدر نفسه، ص 60.

⁴ - المصدر نفسه، ص 70، 71.

⁵ - المصدر نفسه، ص 72.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

أَحَبَّهُ"¹. إن هذا الخروج عن الحق يمثل إيغال الإنسان في عالم تتزين فيه المعصية، دخول ناتجه الغفلة، ويعقبه الندم، حيث يربط الإمام بين الغفلة والشقوة في رسم هذه الحقيقة، فيقول: "فَيَا لَهَا حَسْرَةً عَلَى كُلِّ ذِي غَفْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمُرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً، وَأَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَى الشَّقْوَةِ"². إذن فالشقاء بناء فاسد، ينجز صاحبه أحجاره ولبناته مع الأيام، حتى ينتهي به إلى الهلاك، ويكون حجة عليه، "لأنه أوتي فيه المهلة ومكن فيه من العمل فلم ينشط له"³، فأنجز شقوته كاملة، وهدم عناصر الحياة والكمال فيه، ولقد وقف الإمام على هذه المعاناة والممارسات الشقية كثيرا، ولهذا نجده يصرح مخاطبا أهل الكوفة، وملخصا لسلوكهم الشقي المنحرف هذا بقوله: "يا أهل الكوفة مُنِيتُ مِنْكُمْ بِثَلَاثٍ وَائْتِنْتَيْنِ: صُمُّ ذُووِ أَسْمَاعٍ، وَبُكْمُ ذُووِ كَلَامٍ، وَعُمَى ذُووِ أَبْصَارٍ، لا أَحْرَارَ صِدْقٍ عِنْدَ اللَّقَاءِ، وَلَا إِخْوَانَ ثِقَةٍ عِنْدَ الْبَلَاءِ"⁴، ونوضح هذا بهذا التخطيط:

وصف الثلاث	الدلالة والتأويل	وصف الاثنتين	الدلالة والتأويل
1- <u>صم</u> ذوو <u>أسماع</u>	نلاحظ من خلال هذه الأوصاف الضدية تعطيل الحواس وتقلبها عن اشتغالها بالحق، وهو تضاد قائم في عمل الحواس، وكل هذا يدل على انعدام العمل المنهجي، والخلل الموجود بين فكرة الإخلاص والصواب.	- لا أحرار صدق - لا إخوان ثقة	الدلالة والتأويل [= عند اللقاء = عند البلاء] إن هذا الإنسان الذي انعدم فيه الصدق والثقة [= لا هو حر ولا هو أخ] يؤكد على انعدام الإنسانية فيه ويثبت من خلال هذه الصفات حقيقة الشقاء فيه.

وتتجلى حقيقة الشقي في عدم إتباعه منهج الحق، ويوضح هذه الفكرة قول الإمام: "فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا تَتَحَقَّقُ شِقْوَتُهُ وَتَنْفَصِمَ عُرْوَتُهُ وَتَعْظُمَ كَبْوَتُهُ وَيَكُنْ مَأْبَهُ إِلَى الْحُزْنِ الطَّوِيلِ وَالْعَذَابِ الْوَبِيلِ"⁵. إن إتباع البدع والأهواء والشُرور وترك السنة والعمل بالكتاب هو إتباع لغير منهج الإسلام، يضع الإنسان في قلب الشقاء، وبهذا تكون حقيقة الإنسان الشقي: أنه الإنسان الذي لا يتبع دين الإسلام، وترجم هذه الأفكار وفق هذه المعادلة:

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 71.

² - المصدر نفسه، ص 87.

³ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة: ص 87.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 143.

⁵ - المصدر نفسه، ص 218.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

حقيقة الإنسان الشقي ← الوجهة والمقصد ← ابتغاء غير الإسلام.

وناتجه: ← .. علامات دالة تكشف عن :

(1) انفصام عروته (2) تعظم كبوته (3) مآله: الحزن الطويل والعذاب الويل.

يقول تعالى في هذا المعنى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾¹، فالآية الكريمة بينت بوضوح أن المنهج المتبع هو المحدد لحقيقة المؤمن السوي ولخط حياته وعمله، ووجهته ومقصده، ابتغاء الإسلام سبيلاً، يقابل هذا السير سير الإنسان الشقي الذي تقوده الغفلة إلى الشقاء، على اعتبار أن الغفلة يمكن عدها قانوناً وسنة من سنن هلاك الإنسان، يقول الإمام: "أيها الغافلون غير المغفول عنهم"²، ويشند الأمر على الإنسان ويتعقد إذا سار عكس سنن النهوض، وتمثل حقيقة الشقاء حالة من أحوال الظلم يفرعه الإمام إلى ثلاثة أنواع³:

نوع الظلم	حقيقته	تأويله ودليله من القرآن والحديث
- لا يغتفر	- الشك بالهـ.	- "إن الله لا يغفر أن يشرك به". الناس 48.
- مغفور لا يطلب	- ظلم العبد لنفسه.	- "وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ". يونس 44.
- لا يتشرك	- ظلم العباد بعضهم لبعض.	- "إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا". حديث قدسي

إذن فحقيقة الشقي أنه إنسان ظالم لربه ولنفسه ولعباده، وفي هذا الظلم نرى تهديم العلاقات وفسادها، وفساد مقومات الإنسان بهذه التدسية، وما يبرز حقيقة هذا الإنسان الشقي قول الإمام: "فإياكم والتلون في دين الله، فإن جماعة فيما تكروهون من الحق، خير من فرقة فيما تحبون من الباطل"⁴، وهذا التلون إنما هو دليل تحبط وتيه، وفقدان لبوصلة الحق ووجهة ابتغاء الإسلام ديناً، وجماعه آلية العلاقات الإنسانية التي بها يجتمى الفرد من كل انحراف.

3- مآلات الشقاء : إن الشقاء هو نهاية حتمية ينتهي إليها كل إنسان انحراف عن الحق، نهاية في

الدنيا، بتحصيل التعب، ونهاية في الآخرة، بدخول النار، ولنا في هذا القول للإمام إجماع بيننا لهذا المال: "ألا ومن أكله الحق في الجنة، ومن أكله الباطل في النار"⁵، وهو ما يدل فعلاً على حالة استهلاك للطاقة والقدرات في الحق، بالنسبة للإنسان السوي، وفي الباطل بالنسبة للإنسان الشقي،

¹ - سورة آل عمران، الآية 85.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 237.

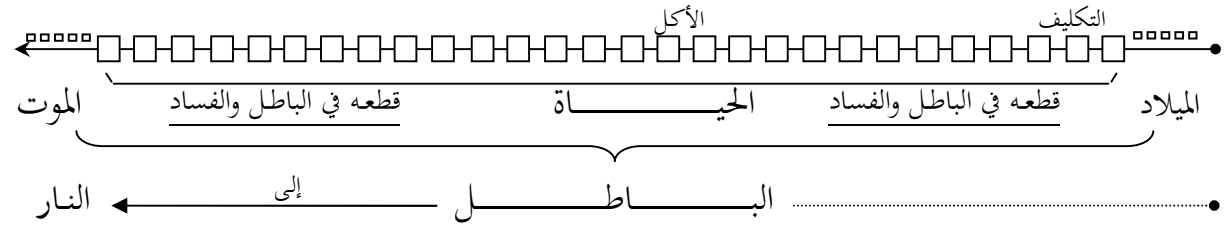
³ - ينظر القول : نهج البلاغة، ص 241.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 242.

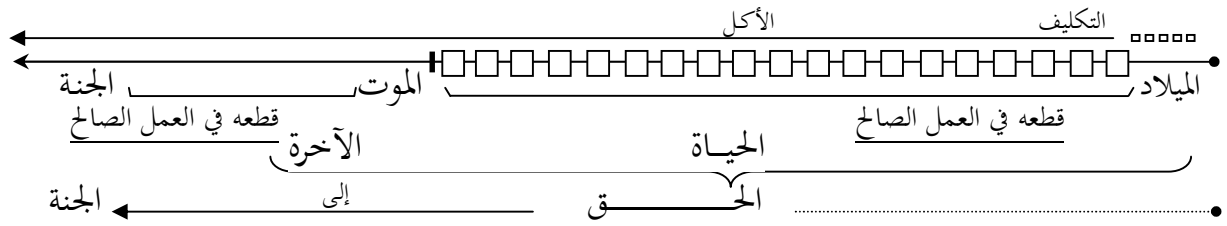
⁵ - المصدر نفسه، ص 345.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

وبملاحظة دلالة الفعل "أكل" يمكن أن نتصور كيف يأتي الحق أو الباطل على طاقات الإنسان، مستغرقاً هذا كله في الدقائق واليوميات، في الشر الموصل إلى النار، وهذا ما نوضحه بالرسم الآتي:



وبالمقابل نجد الإنسان السوي يستهلك طاقاته في يومياته ودقائقه في الخير الموصل إلى الجنة.



-رسم توضيحي لاستهلاك الطاقة الإنسانية في الزمن = شقاء أو سعادة-

ويضع الإمام مقياساً يمكن الإنسان من الابتعاد عن الظلم وينفلت به من الشقاء، فيقول: "وما على المسلم من غضاضة في أن يكون مظلوماً ما لم يكن شاكاً في دينه، ولا مرتاباً بيقينه"¹، فالظلم دال على حقيقة الشقاء، ومن علاماته: "أن ينصب الإنسان نفسه لحرب الله"². قمة الشقاء والانحراف، وبهذا الخروج الذي يتخذه الإنسان الشقي، يكون هلاكه محتماً، يقول الإمام: "ومن خصمه الله أدهض حجته، وكان لله حرباً حتى ينزع ويتوب، وليس شيء أدعى إلى تغيير نقمة وتعجيل نقمة من إقامة على ظلم"³، وعليه فإن الإنسان الذي ينصب نفسه لحرب الله، سيجد مقابلاً لظلمه هذا، لأنه أدخل نفسه في "مخالفة شريعته بالظلم والجور"⁴، فالله خصمه، وداحض حجته، وعليه فإن حقيقة الإنسان الشقي أنه من يقف في الطرف المناهض لمنهج الحق.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 357.

² - المصدر نفسه، ص 394.

³ - المصدر نفسه، ص 394.

⁴ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 393.

المبحث الثاني : الانحراف العقدي / الفطري:

رأينا في ضبط مفهوم الإنسان الشقي، وبيان حقيقته أنه ذلك الإنسان الذي اتصف بمسلك الانحراف والخروج عن المنهج الضابط لحركة الإنسان ووجهته. جاء في معجم مقاييس اللغة في معنى الانحراف، قوله: "والأصل الثاني: الانحراف عن الشيء، يقال: انحرف عنه ينحرف انحرافاً، وحرفته أنا عنه، أي: عدلت به عنه، ولذلك يقال: محارف، وذلك إذا حورف كسبه فيميل به عنه، وذلك كتحرير الكلام وهو عدله عن جهته، قال الله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾¹ [النساء 46]، يتبين لنا أن كلمة الانحراف تدل على كل خروج وعدول عن جهة الشيء، وأما دلالة كلمة العقيدة، فيقال: "عقد: العين والقاف والبدال أصل واحد يُدُلُّ على شد وشدة وتوقف، وإليه ترجع فروع الباب كلها. وعقد قلبه على كذا فلا ينزع عنه، واعتقد الشيء : صَلَبٌ"². وهذا معناه الدلالة على كل ثبات ورسوخ من دون نزوغ وتبديل، وتكشف لنا كلمة الفطرة عن دلالة: "الخلقة"³، أي عن ذلك الأصل والجوهر النقي، وعليه فإذا كانت العقيدة تعني الاعتقاد الفكري والتصوير الذهني الواضح، والفطرة هي المبدأ الثابت المستقر، حيث يعتقد الإنسان عقيدة يهتدي بمعاملها وينضبط بما تقرره، إيماناً منه بأنها هي الطريق والوجهة، والهدف والغاية، والوسيلة والأسلوب، والمنهج المتكامل البنية، يضيء به الطريق والعقل والنفس في عملية السير، وإن كل مجاوزة لهذا الخط وتركه وتعيده يعد انحرافاً عن الفطرة، وهو ادغال يشوه نقاء النفس وصفاءها، وإدخال لكل اعتقاد يتنافى مع أصل الخلقة فيها، وبهذا يكون الشقاء عبارة عن تلويث لروح الإنسان، بإقحام كل مغاير لطبعها، بعامل التدسية، وإن المنشأ لهذا الخيار تحدده فكرة الاعتقاد التي يكون عليها.

– أشكال الانحراف الفطري: يحدد الإمام أشكال الانحراف الفطري، من خلال توصيفين:

أ- انقلاب الحقائق والقيم والمفاهيم: يقول الإمام: "وَشَرٌّ جَيْرَانٍ نَوْمُهُمْ سُهْوٌ وَكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ بِأَرْضٍ عَالِمُهَا مُلْجَمٌ وَجَاهِلُهَا مُكْرَمٌ"⁴، وبرأي "محمد عبده" هم "عبدة الأوثان من قريش"⁵، وهذا الانحراف هو الذي أقلب حالهم، وجميع أوصافهم لا تنسب إلى ثبات عقيدة وصحة مبدأ، وبالتأول فهي علامة دالة على الإنسان الشقي وانحرافه، وتوضح جملة: "بأرض عالمها ملجم وجاهلها مكرم"،

¹ - ابن فارس : معجم مقاييس اللغة، ص 202.

² - المصدر نفسه، ص 587.

³ - المصدر نفسه، ص 740.

⁴ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة ص 27.

⁵ - محمد عبده : شرح نصح البلاغة ص 27.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

اختلالا حاصلًا في الترتاب القيمي، في دلالة على الانحراف الفطري، وصورة الشقاء الحقيقية، يبرزه قوله: "حتى يعود أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم"¹. تغاير ناجم عن ضباب في صحة المعتقد الذي يمنح الإنسان الرؤية والتوازن والفاعلية والقداسة، ويواصل الإمام هذا البيان الكاشف لانحراف الإنسان عن العقيدة السليمة، وهذا عندما تختل المنظومة العقدية عنده، حيث يؤدي هذا الانحراف الذي يصيب عقيدة الإنسان، إلى تشويش مسلكه العام، ترسم لوحة الشقاء في دنياه كما يتضح من خلال هذا الكلام: "باجتماعهم على باطلهم، وتفرقتكم عن حقائقكم، وبمعصيتكم إمامكم في الحق، وطاعتهم إمامهم في الباطل، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم، وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم"²، ويترجم هذا الانحراف الصفات المضافة إلى الإنسان، من مثل التفرق عن الحق والخيانة والمعصية والفساد، فهذا اختلال عقدي يكشف عن انحراف منهجي، لأن "مشكلة اختيار المثل الأعلى من أهم المشكلات التي تصادف الفرد في إطاره الخاص لتنظيم (الطاقة الحيوية)، وفي الإطار الاجتماعي (لتوجيه هذه الطاقة الحيوية)"³، وهذا المثل الأعلى يتأسس على العقيدة التي ينطلق منها الفرد في تنظيم طاقته وتوجيهها في الحياة، وما ذكره الإمام يعد مظاهر سلوكية أنتجها انحراف العقيدة، واهتزاز المبدأ في النفس، وهو الأمر الذي جعله يصف هؤلاء بقوله: "يا أشباه الرجال ولا رجال! حلوم الأطفال، وعقول ربات الحجال"⁴، ثلاثة صفات دالة على انعدام مقومات الإنسان من انعدام الرجولة والحلم والعقل، أي انعدام آليات الكمال، ويترجم هذا الانحراف حالة صغار وضعف في القيمة، من نتائجه الباهرة، أن "الحق ضعيف بتفرق أنصاره، والباطل قوي بتضافر أعوانه"⁵، وبهذا يتضح أن العقيدة تبني الرجولة وتمنح الإنسان العقل والحلم، وأن انعدامها يدفعه إلى الشقاء، فمن الناس "نوع يهدم روحه، وآخر يهدم وسائله"⁶، وعند هذا تتضاءل المكانة الروحية والقيمية التي تصنع سعادة الإنسان، ومن الملفت للنظر أن نجد صفات الشقاء تتوالد في الإنسان

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 41.

² - المصدر نفسه، ص 53.

³ - مالك بن نبي : ميلاد مجتمع، ص 73.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 57.

⁵ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 53.

⁶ - مالك بن نبي : المرجع السابق، ص 97.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

وتكبر، إلى درجة تتأزم معها وضعيته أمام هذا الانحراف العقدي، حيث يظهر بهذا الانغلاق البين، يقول الإمام: "فلا تسمعون لي قولاً، ولا تطيعون لي أمراً"¹، وهذا تأويله:

الجملة	شكل (الانحراف)	الإثبات
لا تستمعون	قـــــــولا	تدل هذه الأوصاف على علامات انحراف عن متطلب العقيدة فكرة وعملاً،
لا تطيعون	أمـــــــرا	لأن من مقتضيات العقيدة السمع والطاعة.

وكم سيكون الأمر فادحاً بهذا الإغلاق لمفاتيح المعرفة والفهم، وأدوات التنفيذ المنهجية. ويجنح الإمام عن الخواج ومروقهم عندما انحرفوا عن نبراس العقيدة الصحيحة التي تتوازن بفضلها حركة وفعل الإنسان. أن الأمر سينتهي بهؤلاء بعد أن تفرغ تلك الشحنة التي حركتهم في البداية كطاقة غير منظمة، ولا موجهة، وبعد أن تنضب كذلك معالم معتقدتهم الفاسد، وتضمحل الحقيقة فيهم شيئاً فشيئاً، إلى أن يكونوا لصوصاً، في استقراء الإمام لمعلم هؤلاء: "حتى يكون آخرهم لصوصاً سلابين"²، وهي نبوءة تشير إلى تفسخ يأتي به هذا الانحراف العقدي على البنيان الإنساني فيفسده نهائياً قيمة ورتبة، ومقولة "ابن خلدون": "إذا فسد الإنسان في قدرته على أخلاقه ودينه، فقد فسدت إنسانيته وصار مسخاً على الحقيقة"³، ليكون بذلك الشقاء دالاً على عدم قدرة الفرد على إدارة إنسانيته، ومن ثم فقد صار خارج هذه الحقيقة، انحراف جعلهم "لا يقومون بملك ولا ينتصرون إلى مذهب، ولا يدعون إلى عقيدة"⁴، وبذلك صار الانحراف والشقاء يمثل حالة انقلاب للحقائق والقيم والمفاهيم، وهذا هو التوصيف الأول للشقي.

ب- الضعف في العقيدة: يعد الضعف في العقيدة ضعفاً في الحق وانحرافاً في الانحراف، حيث ينقاد الإنسان في أحوال كثيرة في سيره نحو اشتراكه في الفتن والأزمات، وما انخرطه هذا إلا مسلكاً قاده إليه ضعف العقيدة وغياب العقل المدبر والموجه، وتكشف مادة فتن عن هذا التخطيط يحتاج إلى محارج، بحيث "يدل على ابتلاء واختبار، من ذلك الفتنة"⁵، والفتن هي حالة التباس عقلي، عندما تتشوش الرؤية، وتتلاشى المعالم والمبادئ اليقينية الثابتة التي تمنحها العقيدة للإنسان، باعتبارها رسوخاً وعلماً ثابتاً يضبط الحركة الإنسانية، يتعذر معه الضبط، يؤكد هذا المعنى قول الإمام:

¹ - ينظر هذا القول : نهج البلاغة، ص 71

² - المصدر نفسه، ص 84.

³ - ابن خلدون : المقدمة، ص 414

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 94

⁵ - ابن فارس : معجم مقاييس اللغة، ص 727.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

"وأدبتكم بسوطي فلم تستقيموا"¹، استقامة تمثل الامتثال للنزيه والحر أمام المبدأ والحق، وعندما تعرض الفتن على الإنسان يكون هذا الاختبار الشاق، وهو سؤال سأل الإمام للنبي ﷺ بعد توصيف من النبي ﷺ ذكر فيه أن الناس سيفتنون في المال والدين ويتبعون الأهواء والشهوات ويستحلون الحرام ويأكلون الربا بالبيع، فقلت: "فبأي المنازل أنزلهم عند ذلك؟ أم منزلة بمنزلة فتنة؟ فقال: "بمنزلة فتنة"²، ويعبر كل هذا عن تبدل وانحراف، وهو ثمرة لتضعف العقيدة في النفوس، واضطراب الأحوال، وأن خط الاستقامة سيكون بعيدا في مثل هذا التلوث الحاصل، حيث يعلمنا الله "أن الباطل لا يكسب قوة الحق، وإن كثرت أتباعه وطال عمره"³، ومن ثم فإن كل انسياق نحو الانحرافات لا يعد مكسبا إنسانيا، بقدر ما هو علامة دالة على الشقاء، وعليه فهذه المشاشة العقدية تجعل الإنسان ضئيلا أمام الحق، ضعيفا صوته، لأن الحق يحتاج إلى مبدأ راسخ.

وقد يصل الأمر بانحراف أولئك إلى إبطان الكفر، وهو ما صوره الإمام كي يبين درجة الانهيار العقدي عند الإنسان، في قوله: "ولكن استسلموا، وأسروا الكفر، فلما وجدوا أعوانا عليه أظهره"⁴، حيث يعلن الإمام صراحة أن هؤلاء ما أسلموا حقيقة، وهذا معناه أن العقيدة لم تتمكن منهم مبدأ مستقرا وفكرة ثابتة في النفوس، بمعنى "أن سبب الإنكار كان يعود إليهم"⁵، يشهد على ذلك مواقفهم وخروجهم عن خط إجماع الأمة وملزمات كلمة التوحيد، وبهذا يتجسد انحرافهم العقدي بصورة بينة من خلال استسلامهم، وإسراهم الكفر، ثم تأتي الفرصة الملائمة للإظهار. "إن العنصر الديني يتدخل في تكوين الطاقة النفسية الأساسية لدى الفرد، وفي تنظيم الطاقة الحيوية الواقعة في تصرف (أنا) الفرد، ثم توجيه هذه الطاقة تبعا لمقتضيات النشاط الخاص بهذه (الأنا) داخل المجتمع، تبعا للنشاط المشترك الذي يؤديه المجتمع في التاريخ"⁶، بوجود الوسط والأعوان، فعندما تثبت الفكرة الإيمانية والعقيدة في النفس تنشأ هذه الطاقة الضرورية في الفرد، وأداة تكوينية مع تنظيم الطاقة في غير تفلت، مثل حالة إسرار الكفر وإظهاره في اللحظة المناسبة داخل المجتمع،

¹ - علي بن أبي طالب : فتح البلاغة، ص 94.

² - المصدر نفسه، ص 210.

³ - جودت سعيد: حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص 187.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 245.

⁵ - فتح الله كولن : النور الخالد، ص 74.

⁶ - مالك بن نبي : ميلاد مجتمع، ص 74.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

وعليه فإن ارتسام ملامح العقيدة على الشخصية يعطي توازنا في الفعل والأداء، وتمنح العقيدة الإطار المنهجي للإنسان، أي إطار حركته في الحياة، باعتبارها المخارج الثابتة في خط السير.

وتجسد الصورة الأخيرة هذا الانحراف العقدي/الفطري، من خلال مجموعة من الصفات المعبرة عن الفساد والشقاء الواضح، كما يتجلى من خلال هذا القول: " .. الْعُمِّي الْقُلُوبِ، الصُّمِّ الْأَسْمَاعِ، الْكُمِّ الْأَبْصَارِ، الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، وَيَحْتَلِبُونَ الدُّنْيَا دَرَّهَا بِالَّذِينَ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِأَجْلِ الْأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ"¹. إن هذا التناقض الذي يظهر على هؤلاء يكشف بحق انهيار هذه المنظومة العقدية لديهم، لأنهم "كانوا دعاة يظهرون سمات الدين، وناموس العبادة"²، وهم خلاف هذا، لهذا أعطاهم الإمام صفات متناقضة متضادة، وما رسخ في نفوسهم، مما يعطي انطبعا جليا بهذا الانحراف، "وإن المرء يجد مشقة كبيرة في تكذيب الإلفة والعادة"³، وكما أظهرت تقلبات أدوات المعرفة وانصمامها هذه العطالة القاتلة، فإن الانحراف العقدي عن أصل الفطرة الإنسانية سيدمر الطاقة الحيوية في الإنسان، ومن ثم سيوجهه إلى أحوال الشقاء، ويمكن تلخيص هذا بنتائجه في هذا المخطط الذي يبين عطالة أدوات المعرفة عندهم:

التأويل	الانحراف العقدي	الحواس
تظهر هذه الدوال انحراف العقيدة وتبرز صورة من صور الشقاء وتناقضات الأحوال بفعل تقلب أجهزتهم المعرفية.	<ul style="list-style-type: none"> - يلتمسون الحق بالباطل. - يطيعون المخلوق في معصية الخالق. - يحتلبون الدنيا درها بالدين. - يشترون عاجلها بأجل الأبرار والمتقين. 	<ul style="list-style-type: none"> - العمي القلوب - الصم الأسماع - الكمه الأبصار
المترب	المترب	المترب
يمثل الانحراف عن العقيدة ضربا للأسس البنائية التي تنشيء الكمال..	- تبرز هذه الدوال حالة ادغال في الأفعال، حيث تدل على تناقضات بينة، توقع في الانحراف والشقاء.	- عطالة الحواس عن أداء وظيفتها الحقيقية.

إذا غابت العقيدة في النفس الإنسانية حل العمى والتيه، وانطمست مع هذا الطاقة الحيوية في الإنسان، باعتبارها إمكانية مفتوحة تدفع إلى الكشف والفتح والترقي، وإدراك الغايات والأهداف من وراء وجود الإنسان في الأرض، كما أنها تمثل ضوء وشعلة كل اهتداء، وفي غياب هذا النور تنحط غايات الكائن إلى منازل الشقاء والانحراف.

¹ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 374.

² - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 8، ج 16، ص 83.

³ - محمد عبد الرحمان مرحبا : الفكرانية، ص 651.

المبحث الثالث : الانحراف الفكري.

قلنا أن الانحراف العقدي/الفطري يدل على انعدام الصورة المنضبطة التي تؤطر حركة الإنسان ومنهجه في الحياة، بحيث تقوده إلى الشقاء، وتعطل قواه عن بلوغ مراتب الكمال، كذلك الحال مع الانحراف الفكري الذي سيؤدي إلى نفس الحتميات التي تنهي قدرة الإنسان على ضبط تصورات صحيحة للمفاهيم والحقائق، وفق منهجية معرفية واضحة المعالم.

أ/ مفهوم الفكر: جاء في مادة "فكر" قولهم: "فكر، الفكر والفكر: إعمال الخاطر في الشيء، والتفكير: التأمل"¹، وعند "ابن فارس" أن: "الفاء والكاف والراء، تردد القلب في الشيء، يقال: تفكر إذا ردد قلبه معتبرا ورجل فكر: كثير الفكر"²، فبين إعمال الخاطر، والتأمل، وتردد القلب، يتحرك الفكر الإنساني لاكتشاف قدراته، وقدرات الطبيعة، ومعرفة الأسرار، وانفتاح العقل يمنح الحيوية الفكرية للإنسان، لأن الإنسان "فيه إنسانية تتمثل في العقل والتفكير والاختيار بين البدائل، وبهذا كرم عن سائر الأجناس"³، فالإنسان يملك فكرا، ويملك خياره الأفضل، ويملك جماليته، ويفيض على حياته بهذا الفكر إبداعا وقيادة ذاتية واجتماعية.

ب/ تجليات الانحراف الفكري: يتجلى هذا الانحراف، في نهج البلاغة من خلال صور عديدة:

1- تعطيل المنهج: يتضح الانحراف الفكري أكثر ما يتضح عندما يعطل الإنسان المنهج الذي يسير عليه، صورة يرسمها الإمام لهذا النوع من الشقاء، حيث يقول: "وهو في مهله من الله يهوي مع الغافلين، ويغدو مع المذنبين بلا سبيل قاصد ولا إمام قائد"⁴، حيث أن الفكرة التي يحملها هذا الإنسان، فكرة تبعده عن المنهج القويم، وأما علامات هذا التعطيل، فقد أوجزها في نقاط؛ فهو يهوي مع الغافلين، ويغدو مع المذنبين، بلا سبيل قاصد، ولا إمام قائد، وتجلي هذه الدوال أن الفكرة في هذا الإنسان تبدو باهتة، لا أثر لها في قيادة حياته، ومن ثم فهي علامات دالة على انحراف في الفكر.

إن هذه العلامات تثبت تعطيل هذا الإنسان للمنهج، وأن انحراف الفكر يمكن عده من الضلال والتهيه العقلي الذي يرسم هذه الصورة الشقية في الحياة، "فما عاقبة أن يصبح كل منا حرا

¹ - ابن منظور : لسان العرب، مج 7، ص 146

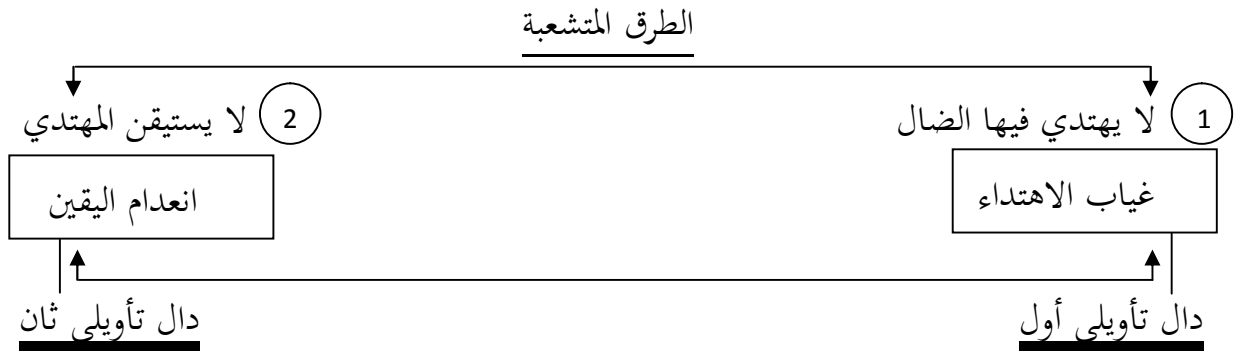
² - ابن فارس : مقاييس اللغة، ص 718.

³ - محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي، مج 16، ص 9807.

⁴ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 204.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

في تفكيره وميوله، وشخصيته واتجاهه في الحياة؟¹، مؤكداً أن هذا يقود حتماً إلى كل انحراف عن معنى الحياة والإنسانية، ومن معالم هذا التعطيل للمنهج، إضاعة الأصل وربطه، حيث يقول الإمام: "احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة"²، فالشجرة ذات الأصل تكون بشمرتها، وعلى هذا الأساس تكون الفكرة منهجا قابلاً للتمثل، "وإن المريض فكراً مريض بالجهل والكراهية"³، وهما من مفاتيح الانحراف، في غياب العلم والمعرفة والمحبة، ومن صور التعطيل ما أبرزه الإمام موضحاً ضياع المنهج، برحيل النبي ﷺ، بوصفه الجسد الحقيقي للمنهج المنضبط سننياً بالفكرة القرآنية، قائلاً: "رحل وتركهم في طريق متشعبة، لا يهتدي فيها الضال، ولا يستيقن المهتدي"⁴. وتعكس هذه العبارة صورة الاختلاف الذي كانوا عليه وصاروا إليه⁵، وما الاختلاف وتشعب الطرق إلا أمارات على انحراف فكري يعطل على إثره منهج الاهتداء، ترسم معه حالة تيه حقيقي، نوضحه بهذا الشكل:



وترتسم صورة الشقاء الحقيقي عندما يصل الحال بهذا الإنسان أن يبغضه الله، وحينها لن يجد له عوناً، يقول الإمام: "إن أبغض الرجال لعبدا وكله الله إلى نفسه"⁶، ما ينجم عنه ضلال وانحراف بين، شقاء يكتبه صاحبه لنفسه، "وإن علل هذه الأمراض الرئيسية منها ما هو فكري، ومنها ما هو نفسي، والفكر علاجه العلم والتأمل"⁷، وبانعدام الآليات العلمية والمعرفية يتأكد انحراف الإنسان، لأنه بذلك يكون قد عطل المنهج الذي يقوده ويهديه، وقد حلل الإمام حال

¹ - محمد الغزالي : جدد حياتك، ص 155.

² - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 90.

³ - جودت سعيد : الدين والقانون، ص 118.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 325.

⁵ - محمد عبده : شرح النهج، ص 325.

⁶ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 149.

⁷ - الجوزية ابن القيم: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ص 118.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

الإنسان الذي أبغضه الله ووكله إلى نفسه، حيث قدم الأسباب التي أوصلته إلى هذا الوضع المأزوم، نذكر هذه الترتبات ودواعيها على شكل حمل متتالية¹:

- 1- حائرا عن قصد السبيل.
 - 2- سائرا بغير دليل.
 - 3- إن دعي إلى حرث الآخرة كسل.
 - 4- كأن ما عمل له واجب عليه.
 - 5- و كأن ما وني فيه ساقط عنه.
- ← أمارات تعطيل المنهج بغياب فكرة الإيمان.

إن هذه الأوصاف والمترتبات هي رسم حقيقي للإنسان الشقي المعطل للمنهج، المنحرف في فكره المضيع لقصده، وللطاقة الفكرية التي يرتفع بها إلى درجة الكمالات الإنسانية، وتهيء له فرص النماء الإنساني والكمال الروحي.

2/ إتباع الرأي: إن من الآثار الجليلة التي تثبت حالة انحراف الفكر الإنساني وضلاله إتباع الإنسان لرأيه، وما إتباع الرأي إلا نتيجة لهذا الانحراف الأول، يقول الإمام في هذا الشأن: "فلا تستعملوا الرأي فيما لا يدرك قعره البصر، ولا تتغلغل إليه الفكر"². وإن هذا الإتباع لما لا يدرك قعره، يكون متاهة وشقاء يورث عن هذا السعي المتفلت في غير منهج، وعليه فإن الإنسان الشقي الذي أخذت به الآراء إلى مسارب مجهولة، لا يدرك قعرها، ولا يمكن أن يتغلغل إلى منتهاها، فإن الوصف المنطبق على مثل هذا الانحراف أنه لا يمثل من عمل "إلا قضم الذات واجترار الذات"³، حيث تأكل الآراء المتبعة الذات وتهدم قواها، وإنما يقتضي الأمر توازنا واعتدالا، وأن يحفظ بآليات ضابطة منها ما بينه الإمام بقوله: "الخلاف يهدم الرأي"⁴، فاشتغال المرء بإثارة الخلافات والاشتباك المحتدم في قضايا خلافية لا جدوى منها، تهدم هذه الرجاحة والاتزان، ويتضح لنا أن إتباع الرأي مرده إلى بعد الإنسان عن الاستنارة بنور الكتاب الذي يجعل الرأي حكمة وصوابا تشعان منه، وضبطا يظهر في كل استشراق، يقول الإمام: "وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق

¹ - ينظر علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 149.

² - المصدر نفسه، ص 112.

³ - محمد عبد الرحمان مرجبا : الفكرانية، ص 851.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 463.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

تلاوته، ولا أنفق منه إذا حرف عن موضعه"¹، ومعنى هذا أن مصادر الفكر يجب أن تنهل من الكتاب العزيز، وتجنبه مخالفته، ويلخص كلام الإمام الحقيقية الآتية :

1- جعل الكتاب في حالة بور عند التلاوة.

2- جعل الكتاب في حالة إنفاق عند تحريفه عن موضعه.

كل هذا دليل على إتباع الرأي، وترك الكتاب مصدر الإضاءة الفكرية والصواب والحكمة، لأن الفكر طاقة تجدد الإمكان الإنساني، "فالإنسان لا يشقى لأنه يفكر، بل هو يفكر لأنه يشقى"²، بحثا عن حكمة تتطلبها الحياة، ويبرز باقي الكلام من قول الإمام هذا الشطط والتهيه: "ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر، فقد نبذ الكتاب حملته، وتناساه حفظته، فالكتاب يومئذ وأهله طريدان منفيان وصاحبان مصطحبان في طريق واحد لا يؤويهما مؤو"³، وهذا كلام جاء في موضع استشراف يتحدث عن تقلبات الزمان وانحراف الناس عن منهج الحق الذي يبني حياتهم ويصنع سعادتهم، وهذه مخرجات إتباع الرأي وانعدام الفكر نيينها فيما يأتي:

وضعية 1 [لا أنكر من المعروف] ⇐ انحراف يعطل منهج الحق. [ولا أعرف من المنكر]

وضعية 2 [نبذ الكتاب حملته] ⇐ تعطيل نور الكتاب وإتباع الآراء والأهواء. [تناساه حفظته]

ويترتب عن هذا الوضع والسياق الحياتي، سياق الانحراف والشقاء، أن يصبح:

وضعية 3 [الكتاب] ⇐ [طريدان منفيان.]
[أهله] ⇐ [صاحبان مصطحبان في طريق واحد لا يؤويهما مؤو]
يدل على انحراف كلي وابتعاد عن المنابع والمصادر، منابع المنهج والفكرة والحق.

يوضح هذا الرسم بطريق التأول والاستشراف حالة الانحراف الفكري، ومن ثم الشقاء المعطل للكمالات الإنسانية، لأن الكتاب وأهله يومئذ "يطردهما ويقيهما أهل الباطل وأعداء الكتاب"⁴. فطالب الكمال أو المكمل لكمالات الإنسان الذي هو الكتاب في حالة نفي وطرده

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 197.

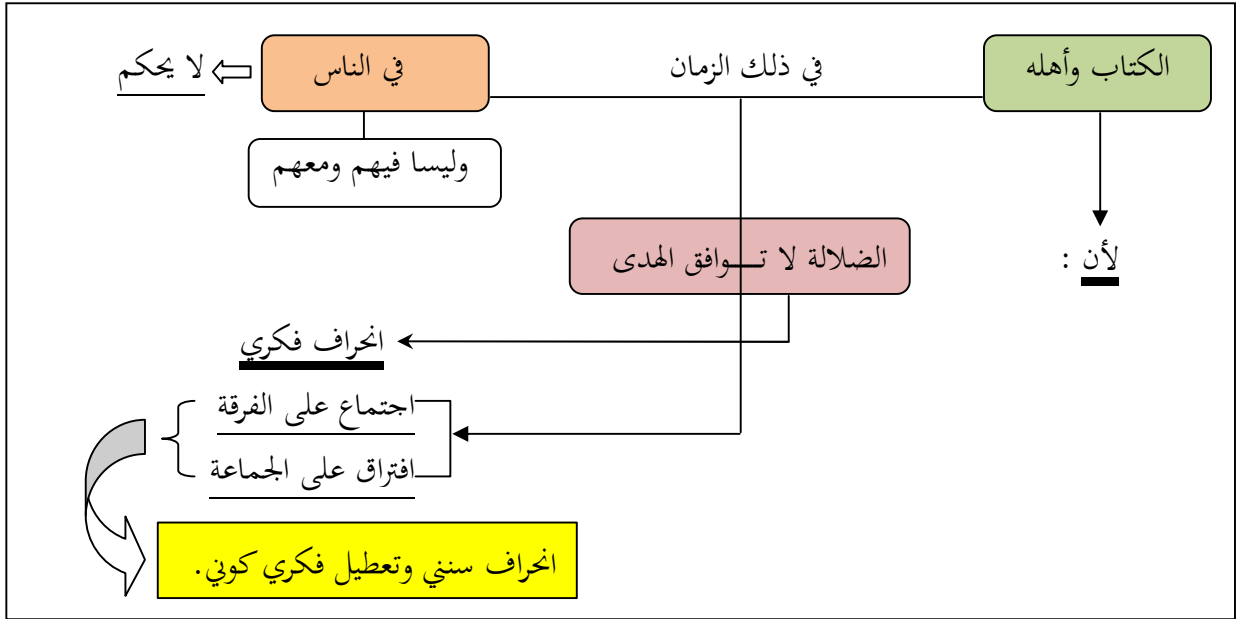
² - أنس شكشك : فلسفة الحياة، ص 129.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 197.

⁴ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة 197.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

وعدم عمل به، والكمالات هي طاقات تستمد من هاديات ومعالم الكتاب الكريم، ويواصل الإمام من خلال قوله هذا بيان هذا الاستشراف لحال الكتاب وأهله في ذلك الزمان، فيقول: "وليس فيهم ومعهم، لأن الضلالة لا توافق الهدى، وإن اجتمعوا فاجتمع القوم على الفرقة وافترقوا عن الجماعة"¹، وهذا القول يوقفنا على تشعبات الانحراف إلى درجات تجعل الاجتماع الإنساني الذي هو سنة كونية، وغاية استخلافية عرضة للدمار والتهديم والضياع، وهذا توضيحه :



ويبرز الإمام صفاتهم وحقيقتهم من خلال علاقتهم بالكتاب، وتتجلى في الصور والمفارقات ذات الحد النقيضي²، نوضحها بهذا الترتاب:

- 1- كأنهم أئمة الكتاب ← وليس الكتاب إمامهم.
 - 2- لم يبق منه ← إلا رسمه.
 - 3- لا يعرفون ← إلا خطه وزبره.
 - 4- و من قبل ما مثلوا ← بالصالحين كل مثله.
 - 5- سمو صدقهم على الله ← فريسة.
 - 6- جعلوا في الحسنة ← عقوبة السيئة.
- إن الانحراف عن الكتاب هو
انحراف فكري منهجي
سني وهذا ما تؤكد صفاتهم
العدالة على الشقاء.

ومن ثم نلاحظ كيف أن أماراتهم الفاسدة، مبنية على فساد معنى الإنسانية. إن هذا التخلي عن الكتاب بوصفه المنهج البين في بناء الفكر والعقل والحياة، هو ما يجعلهم يندفعون نحو إتباع

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة ، ص 197 .

² - ينظر نهج البلاغة، ص 197 .

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

الآراء الضالة، وعليه فإن "العالم لن يفسد إذا تصورناه فاسدا"¹، بينما الإنسان يفسده بفكره وآرائه وأهوائه الضالة، ويعلن الإمام تدمره وشكواه من أصحاب الضلال والانحراف الفكري، فيقول: "أشكو من معشر يعيشون جهالا، ويموتون ضلالا"²، نوضح صور هذا بهذا المخطط:

المعشر	الهيئة	صفاتهم	الحالة	البديل القائم	المغيب/البديل	التأويل
1-	يعيشون	جهالا	الجهل	- إتباع الآراء	- الكتاب، مصدر الفكر الحي	يدل كل هذا على انحراف فكري
2-	يموتون	ضلالا	الضلال			وشقاء وتهدم للمقومات.

هذه صورة ملخصة لأهم الصفات الإنسانية الفاسدة التي ترسم حالة الشقاء الإنساني، أو تحدد الوسم العام للإنسان الشقي الذي افتقد لأدوات المعرفة، يمثل صورة لانحراف الفكرة، بإتباع الرأي، أظهرتها مخالفته للكتاب ونبذه.

3/ التقلب وغياب العقل: إن من أهم التحليلات المظهرة للانحراف الفكري ما يكون عليه الإنسان من تقلب، وأمانة أخرى تعكس غياب العقل، وتقود مثل هذه الصورة لا محالة إلى درب الشقاء المهلك، وبهذا يفتقد للمعالم المنهجية التي تبني كمالاته، وأول مظهر لهذا التقلب وغياب العقل، يجليه قول الإمام: "أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع"³، فعندما تبرق المطامع أمام النفس فحتما يؤدي هذا إلى الانحراف، ونلاحظ أن لكلمة بروق هذه الجاذبية في تكسير عملية الرشد الإنساني، حيث يصرع العقل وتنهار الآليات الضابطة لكل توجه إنساني سليم، وعليه فإن انفتاح النفس على المطامع هو تهديد جلي للقدرات والكمالات الإنسانية، فإذا كانت "المثالية تستهدف فكر الإنسان.. والمادية تستهدف جسد الإنسان.. أما الإسلام فإنه يستهدف الإنسان فكرا وجسدا وروحا.. والمثالية والمادية وهما تتحركان إلى أهدافهما تمارسان عملية قتل الإنسان.."⁴، وهذا القتل هو إغراء يزيغ معه العقل، حيث يصبح الإنسان يتقلب في وسط مادي مائج، ومن مظاهر هذا التقلب وانعدام بصيرة العقل وظلام الجهل وما يصنعه من عداوات وشقايات، يقول الإمام: "الناس أعداء ما جهلوا"⁵، فالجهل يصنع العداوة، والجهل معارض لما هو عقلي، ونقيض للعلم، وانحراف فكري، على اعتبار أن الجاهل لا ينطلق من عقل وفكر يجمع ويبنى الحياة والإنسان، ومن

¹ - جودت سعيد : الدين والقانون، ص 131.

² - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 46.

³ - المصدر نفسه، ص 463.

⁴ - خليل عماد الدين : مؤشرات إسلامية في زمن السرعة، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 2008، ط1، ص 42.

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 500.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

ثم فهو باعث حقيقي على الشقاء والانهيار الحياتي، وأما المظهر الآخر الذي يعبر عن هذا التقلب الجسد لهذا الانحراف الفكري وصفه للغوغاء، أولئك الذين تتلخص فيهم مختلف صور الانحراف الفكري والشقاء الإنساني، ومن ثم فإن آثارهم السلبية في الحياة دالة على ذلك، وهذا وصفهم: "هم الذين إذا اجتمعوا ضروا وإذا تفرقوا نفعوا. (فقيل قد عرفنا مضرة اجتماعهم، فما منفعة افتراقهم؟) فقال: يرجع أصحاب المهن إلى مهنتهم، فينتفع الناس بهم، كرجوع البناء إلى بنائه والنساج إلى منسجه، والخباز إلى مخبزه"¹، ومن كلام آخر له يقول فيه: (وأُتِيَ بجان ومعه غوغاء فقال): "لا مرحبا بوجوه لا ترى إلا عند كل سوءة"². إن هؤلاء نفر من الناس يتضح خطرهم في ضربهم على غير هدى وبينة، فهم يفتقدون للعقل الذي يجعل لهم منزلة ومرتبة بين الناس:

الفاعل	صفتهم	آثارهم	التأويل
الغوغاء	- اجتمعوا. - تفرقوا. - وجوه لا ترى.	غلبوا = ضروا لم يعرفوا = نفعوا إلا عند كل سوءة	- إن الانحراف الفكري، ومن خلال هذا التوصيف صار علامة دالة على تدمير المقومات الإنسانية.

إن المكان الأليق هؤلاء عودتهم إلى أماكن عملهم، لينفعوا بهذه الوظائف المجتمع، وعليه فمن التقلب إحداث الفتنة، ومن العقل أن يؤدي وظائف حياتية اجتماعية وإنسانية:

(1) البناء إلى بنائه
(2) النساج إلى منسجه
(3) الخباز إلى مخبزه

إن هؤلاء الغوغاء هم أولئك الناس الذين "يجتمعون على غير ترتيب، وهم يغلبون على ما اجتمعوا عليه، ولكنهم إذا تفرقوا لا يعرفهم أحد لانحطاط درجة كل منهم"³، وهنا تظهر آثار انحرافهم، ومن ثم فإن حضورهم الاجتماعي [= السالب] قاصم للحياة، لذا يمكن أن نجعل جملة الإمام لافتة دالة على أنهم وجوه فتنة وسوء: "لا ترى إلا عند كل سوءة"، دليلاً ثابتاً على انعدام العقل والفكر والتقلب المزلل للقيم، وعليه سيكون غيابهم فيه كل النفع الإنساني، ويحمل كل صور الخيرية والجمال، ومن المظاهر الدالة على هذا التقلب قول الإمام: "هذا أمر ظاهره إيمان وباطنه عدوان، وأوله رحمة وآخره ندامة فأقيموا شأنكم وألزموا طريقكم"⁴، نوضح أبعاده بهذا المخطط:

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 460

² - المصدر نفسه، ص 461.

³ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 460.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 176.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

الأمر	ظاهره	باطنه	أوله	آخره	التأويل
قصة التحكيم	إيمان	عدوان	رحمة	ندامة	الدلالة على الفتن الحاصلة وآثارها

إيجاب سلب

حالة تقلب وغياب للعقل الوازن

"انحراف فكري"

← **المعالجة:** "فأقيموا شأنكم وألزموا طريقكم"، بتأويلية دالة على الفكر الصائب وعمليته التصحيحية.

إن هذا وصف لأمر الأمة والتحويلات السياسية التي شهدتها والالتباس الذي غطى هذا المشهد، وما يحمله من تناقض مبدئي، وهنا نجد شخص بعين الكاشف البصير هذا الوضع الذي يمكن عده تصحيحاً فكرياً ومنهجياً، ويكون بالعقل الوازن لا بالتقلب، يقول "جودت سعيد": "فعلينا أن نتمكن من فصل الجسد عن الأفكار. إن الجسد يولد وهو لا يحمل شراً، وإنما نحن الذين نضع في الجسد الشر ونصنع الشر"¹، لأن كل انحراف هو عبارة عن ملوثات فكرية يشحن بها الإنسان عقله، وهي عامل تدمير قوي مهلك له، "إنها الأفكار تغذي الإنسان بما هو إنسان"²، فالأفكار الحية الفاعلة تجعل الإنسان إنساناً، بينما الأفكار السلبية تجعل منه كائناً شقيماً منحرفاً.

4/ صفات الانحراف الفكري: إن كل انحراف فكري له مظاهر وصفات تمثل صورة ومثالاً عاكساً لذلك الشطط الفكري، فالفكرة نبات ينبت في حقل الذات، في العقل والنفس، بتمثيلات حية لكل معطى إنساني نذكر منها هذه الحزمة الفكرية السلبية:

أ/ **حالة القلب:** وفي هذا المعنى يقول الإمام: "فالقلوب قاسية عن حظها لاهية عن رشدها، سالكة في غير مضمارها، كأن المعنى سواها، وكأن الرشد في إحراز دنياها"³. إن الفكرة تمنح النضارة والحيوية للقلب ليتحفز ويعرف سبيله، وهذا عنوان كل قلب ذكي، إلا أن القلب الذي يجمع القسوة واللهو والشهوة هو قلب منحرف، وهو علامة دالة على إنسان شقي، نوضحه بهذا الشكل:

قاسية	لاهية	سالكة
عن خطها	عن رشدها	في غير مضمارها

¹ - جودت سعيد : الدين والقانون، ص 117.

² - محمد عبد الرحمان مرجبا : الفكر العربي في مخاضه الكبير، ص 195.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 108

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

وإنما يعود سبب هذا إلى فكرة عقلية، وهي :

1- اعتقاد الإنسان أنه غير معني بذلك.

2- الاعتقاد بأن الرشد في إحراز الدنيا.

إن حديث الإمام قد كان "عن قساوة القلوب وضلالها عن رشدها"¹، ومعنى هذا أن الضلال يشكل حالة ابتعاد عن الرشد، وانحراف فكري ومعرفي.

ب/ طبيعة الفكرة في النفس: يقول الإمام: "الأقاويل محفوظة، والسرائر مبلوطة (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةً) [المدرثر 38]، والناس منقوصون مدخولون إلا من عصم الله، سائلهم متعنت، ومجيبهم متكلف، يكاد أفضلهم رأياً يرده عن فضل رأيه الرضى والسخط، ويكاد أصلبهم عوداً تنكؤه اللحظة، وتستحيله الكلمة الواحدة"². وإن كل اختيار حراً وذكي يدفع إلى تنشيط العقل ليبدع أفكاره العظيمة التي تليق بكرامة الإنسان، ويكشف حديث الإمام عن طبيعة النفس الإنسانية المنحرفة عن منهج الحق، مما يبعدها عن طريق الكمال:

الصفة	الناس	التأويل
- الأقاويل محفوظة	- منقوصون	ويعنى هذا أن الإنسان يجيأ وهو بين هذه الأطر الثلاثة تضغطه وترهن حظوظه،
- السرائر مبلوطة	- مدخولون	وعليه فإننا نجد أن الناس منقوصون مدخولون، تغيب فيهم العدالة ويرشح الفساد من دواخلهم، وكل هذا دال على الانحراف والشقاء.
- سائلهم	- متعنت	
- مجيبهم	- متكلف	

إن في الفكرة سر الإنسان ودليله، وإن ما تقوم به ماكنة النفس وتعمل له يمثل ترجمة حية لهذه الأفكار التي تحفظها، فالنفس رهينة بهذه الأفكار، ويبقى الخطر المحدق بالإنسان أنه مدخول مغشوش بفعل المرض الداخلي في العقل والقلب، الأمر الذي يجعله مأخوذاً "عن رشد وكماله، كأنه نقص منه بعض جوهره"³. وهذا ما يدعونا إلى استخلاص الحقائق الآتية :

- أولاً : نلاحظ حالة قعود الإنسان عن طلب الكمال.
- ثانياً : نلاحظ حالة دافعة للنفس إلى الانحراف والشقاء.
- ثالثاً : إن الاعتصام بالله هو المنجاة من هذا الانحراف.

¹ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج3، ج6، ص 161.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 485.

³ - محمد عبده، شرح نهج البلاغة، ص 485.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

ج/ الانقباض عن الإحسان: ويقدمها الإمام من خلال هذا الوصف: "يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ عَضُوضٌ، يَعَضُّ الْمُوسِرُّ عَلَى مَا فِي يَدَيْهِ، وَلَمْ يُؤْمَرْ بِذَلِكَ، قَالَ سَبْحَانَهُ (وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ) [البقرة 237]، تَنَهَّدُ فِيهِ الْأَشْرَارُ، وَتُسْتَدَلُّ الْأَخْيَارُ، وَيُبَايِعُ الْمُضْطَرُّونَ، وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآلَهُ عَنِ بَيْعِ الْمُضْطَرِّينَ"¹، وفي هذا إشارة إلى تحولات الزمن، وتقلبات الفكر، حيث يتهيء وضع الشقاء، واستفحال خطره، وقد أعطى الإمام معالم هذا التحول والانحراف، وأن هذا الانقلاب الفكري قائم على تداخل مفتت، ذلك أن "بين الماضي الحي والمستقبل تنشر منطقة من حياة ميتة"²، وفي هذه المساحة ينشر القبح الذي هو تربة الانحراف والشقاء.

د/ الجهل مقلوب الفكرة والعقل: يعطي الإمام تصورا آخر وإحاطة كاشفة لشفرة ودلائل الانحراف الفكري، ويأتي بصفة الجهل بوصفها باب جراءة كبرى على الله، وانحراف عن منهجه المرتضى، فيقول: "فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقي"³، وإن الجاهل الشقي سيفعل بنفسه ما يأتي على كامل قدراته الفكرية والروحية، وإنهاء مشروع تحقيق وتجسيد فرص الكمال والإنسانية فيه، وبذلك يعد الجهل في الإنسان انحرافا يدفعه إلى الجرأة على الله، وهو وصف القرآن للإنسان بالظلم والجهول، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾⁴، ولذا فدلالة ظلوما أنه: "إن فهم هذا ولم يعمل به، وجهولا: إن ظل قانعا بجهله دون أن يتعلم وهو يستطيع أن يتعلم لو أراد"⁵، ويعد هذا قمة التقلب، وغياب العقل الهادي إلى حالة السوء، وما يبدع فكرة الاستقامة في حياة الإنسان.

هـ/ تحولات في الزمن والفكر: عندما تنعدم الفكرة التي تبني يتكسد العالم الذي يحيط بالكائن، وتتضخم الأنا، وتنعدم الرؤية، ويذهب جلاء العقل والقلب، وهذه مقدمة لانغماس الإنسان في الانحراف والشقاء بلا حد، وبذلك ينهد الإمكان الكمالي تحت هذه الصور، يقول الإمام: "يأتي زمان على الناس لا يقرب فيه إلا الماحل، ولا يُظَرَّفُ فيه إلا الفاجر، ولا يضعف فيه إلا المنصف، يعدون الصدقة فيه غرما، وصلة الرحم منا، والعبادة استطالة على الناس، فعند ذلك يكون السلطان بمشورة النساء، وإمارة الصبيان، وتدبير الخصيان"⁶، تقلب نجمه بدواله في هذا الجدول:

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 504.

² - باشلار غاستون: جدلية الزمن، تر خليل أحمد خليل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 48.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 408.

⁴ - سورة الأحزاب، الآية 72.

⁵ - جودت سعيد : حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص : 79

⁶ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 444.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

التأويل	الصفة
إن هذه الصفات هي صورة موضحة لكل تحول، وعلامة على غياب العقل والفكرة الوازنة، والمعيار القيمي الذي يجسد بنیان الذات الإنسانية، وعليه فإن هذه الأوصاف صارت دليلاً على انحراف الإنسان وشقائه، كما صارت شاهداً على تحولات الزمن والفكر ونعتنا لحالة الانتكاس الإنساني في التاريخ.	<ul style="list-style-type: none"> - يقرب فيه الماحل. - يظرف فيه الفاجر. - يضعف فيه المنصف. - تعد الصدقة غرماً. - تعد صلة الرحم منا. - تعد العبادة استطالة على الناس.

أما صورة الشقاء والانحراف التي تتولد من كل هذا التقلب الفكري، فتتمثل في تحول العبادة الاجتماعية/ في الحياة*، إلى قيادة لا تحمل الأفكار العظيمة التي تصنع الحياة، حيث أعطى الإمام أسبابها في تحول رأس القيادة الاجتماعية:

التأويل	العامل بالتغيير	فاعل التغيير
تمثل هذه الفاعلية الفكرية خطراً وانحرافاً عن المبدأ الاجتماعي، وعدم انتظام العبادة مع سنتي الاستخلاف والعمارة، حيث ترسم صورة الشقاء، وتنحسر صور العبادة بالمفهوم الاجتماعي والحياتي عن دورها.	<ul style="list-style-type: none"> - بمشورة النساء - إمارة الصبيان - تدبير الخصيان 	السلطان

نعم يعد هذا أخطر تحول فكري يصيب الحياة، ويهيء الأرضيات للشقاء والانحراف، "فالفكر يفرض سيادته على الحياة بأفعال قليلة العدد وحسنة الاختيار، ولهذا فإن فن الراحة يمكنه أن يتأسس على توفير بعض الاستدلالات الجيدة التوزيع"¹، ولكن مثل تلك الأفعال التي ذكر الإمام لا يمكن أن تكون حالة منشطة لفن الراحة وتأسيساته ذات الاختيار الحسن الفاعل، ومن ثم فإن الفكر هو إمكانية سيادية جالبة لفرص تجسيد الكمال الإنساني، كما أن الانحراف هو فرض لخيارات زاحمة لا تترك إمكاناً لفن الراحة والمراجعة والاستئناف، وما يسهم في تحقيقه وبصنع سبل النجاة وتحصيل الكمالات.

*- نقصد بالعبادة الاجتماعية في الحياة، انتظام فكرة العبادة في نفوس الناس بتمثل روحها ورتبتها، تلك التي تفيض سلاماً وتفاعلاً يظهر أثره في علاقات المجتمع ببعضه وفق قيم جمالية تضع الإنسان والموجودات هدفاً ومقصداً للتعرف كونيًا، تأتي ظلماً على السلوك الذي يجعل الفعل الإنساني مركباً، وهي تتحدد في أشكال من الأداء والتنظيم والتنسيق والحرية والجمال، بمعنى أنه المجتمع المهيكول لفكرة العبادة، والحياة بفكرة الاستخلاف والعمارة، وقد أعطى الإمام بعض صورها في حديثه السابق.

¹ - غاستون باشلار: جدلية الزمن، ص 171، 172.

المبحث الرابع : الانحراف العملي / السلوكي :

جاء في مادة "سلك" أنها "أصل يدل على نفوذ شيء في شيء، يقال سلكت الطريق أسلكه. وسلكت الشيء في الشيء: أنفذته"¹، ومنه يكون السلوك الإنساني انفاذاً، باعتباره فكراً ينتج عنه سلوكاً، أو هو ترجمة له، وفعل الإنسان وسلوكه هو خلاصة لداخل إنساني يعتمل فيه، واستجابة لدوافع ومؤثرات مختلفة، وكذلك الشقاء انحراف تجسده أفعال وسلوكات الإنسان، فإذا كان الانحراف العقدي يتعلق بفساد صفاء الفطرة ونور العقل، فإن الانحراف العملي هو ثمرة لكل هذا، بمعنى أنه نتيجة حتمية ظاهرة وعاكسة تجلّي حقيقة هذا الانحراف، تزيد من تعميق وتمزيق القدرات والطاقات الإنسانية في الكائن، قال تعالى: ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾²، فبحسب المبدأ الذي يرسخ في النفس، والفكرة التي توضع في العقل يتجلى نوع السلوك الإنساني.

1- حقيقة: يطالعنا الإمام بما يكشف عن حقيقة هذا الانحراف، قائلاً: "والله إن امرأ يمكن عدوه من نفسه يعرف لحمه ويهشم عظمه ويفري جلده لعظيم عجزه ضعيف ما ضمت عليه جوانح صدره"³. قلنا إن الانحراف بدءاً ينجم عن فساد الفطرة والفكرة، وهذا ما يجعل من الإنسان فريسة لأعدائه، تمكن اعتبره الإمام من عظيم العجز والضعف، "يريد ضعيف القلب"⁴، وضعيف القلب مهياً للانحراف في عمله وسلوكه. يتساق هذا العجز مع تعاون عوامل مختلفة لعل أبرزها انقلاب المفاهيم والتراتب القيمي، يقول الإمام: "لقد أصبحنا في زمان قد إتخذ أهله الغدر كيساً، ونسبهم أهل الجهل فيه إلي حُسن الحيلة، ما لهم - قاتلهم الله - قد يرى الحوّل القلْبُ وجه الحيلة، ودونها مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأى عين بعد القدرة عليها، وينتهر فرصتها من لا حريجة له في الدين"⁵، والسؤال المطروح ترى لماذا يحصل كل هذا؟! والجواب البسيط يتأكد من خلال هذه الحقيقة المقدمة أن الطمس الذي صاروا عليه حولهم إلى أدوات مهدمة، نرى صورتها في انقلاب القيم والمفاهيم واختلال التراتب القيمي في المجتمع، من درجاته أنهم "يعدون الغدر من العقل

¹ - ابن فارس : معجم مقاييس اللغة، ص 415.

² - سورة الإسراء الآية 84.

³ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 66.

⁴ - محمد عبده : شرح النهج، ص 66.

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 72، 73.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

وحسن الحيلة"¹، إضافة إلى عدم امتثال أمر الله والخوف منه، مما يخلط وضع الناس، ويدفعه إلى الانفتاح على الانحراف الذي يجلب عنه رؤية الحق.

ونتبين حقيقة الانحراف من خلال إغفال العمل، يقول الإمام: "وهفوة عن العمل"²، وهي أخطاء تجعل الإنسان يغفل عن أداء واجبه، بمعنى أنها "زلة وانحراف من الناس عن العمل بما أمر الله على ألسنة الأنبياء السابقين"³، وهذه الهفوة عن العمل وأداء الواجب، تفتح باب الانحراف، باعتباره برجة وتذهينا مقصودا، يقول الإمام في هذا: "فقد تصافيتم على رفض الآجل وحب العاجل، وصار دين أحدكم لعقة على لسانه، صنيع من قد فرغ من عمله وأحرز رضا سيده"⁴، فهذا التصافي هو اتفاق وبرجة على الانحراف، وعليه فالانحراف العملي يعد تربة وتهيئة مخصوصة بمعالمها، "فليس تاريخنا الشخصي سوى رواية أفعالنا وأعمالنا المفككة"⁵، تفكك من ثمراته انعدام المقومات التي تحول الطاقات إلى فكرة بانية للكمال الإنساني.

وإذا كان الإنسان الكامل هو ما ينشد ليكون صاحبه إمام نفسه وإمام غيره، فإن الإنسان الشقي هو إمام نفسه وإمام غيره كذلك، يقول الإمام: "حتى يكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة، وشيعة لأهل الجاهلية"⁶. إن قاعدة هذا الأمر أن رأس الضلالة هو العامل بإنبات الانحراف الذي يعمم على أغلب الكل، وقاعدته:

أهل الضلالة (أهل الجاهلية) ← أئمة = رأس قائد: [= المنحرفون]: يقود إلى الشقاء والانحراف.
إن هذه الحركة نحو الانحراف هي إطفاء لمعالم الحق، وهنا نجد الإمام يبرز هذا الخطر المحدق بالإنسان وبمصادر معرفته وأنواره، فيقول "حاول القوم إطفاء نور الله من مصباحه وسد فواره من ينبوعه"⁷. إن مصدر المعرفة الحقيقي لن يكون إلا الوحي والكتاب والنبي وصالح المؤمنين وأكملهم، ممن تجلت فيهم الأنوار الإلهية، وأنوار الحق والهداية، ولكن إطفاء هذه المعالم معناه إدخال الإنسان في متاهة الانحراف وطريق الشقاء، ويمكن توقع سلوك وعمل الإنسان وسط الظلام والتضليل على

¹ - محمد عبده : شرح النهج، ص 72.

² - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 141.

³ - محمد عبده : المصدر السابق، ص 141.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 166.

⁵ - غاستون باشلار : جدلية الزمن، ص 49.

⁶ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 192.

⁷ - المصدر نفسه، ص 219-220.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

هذه المنابع، بسلوك فاسد، من سرقة وكذب وقتل وإجرام وغيرها، ويأتي خطرهما كونها "تقوده إلى الإفساد في الأرض"¹ الذي ينتج عنه وضع الشقاء، المناقض للصالح.

يبين الرسم العام لكل انحراف وصفا وسمتا للمنحرفين، حيث ينطبع في مسلكهم صورة التباطؤ والتثاقل، وهي ميزة كل إنسان منحرف، يقول الإمام "أيتها الفرقة التي إذا أمرت لم تطع، وإذا دعوت لم تجب، إن أمهلتكم خضتم، وإن حوريتكم خرتم، وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم، وإن أجبتم إلى مشاققة نكصتم"²، وهذا دليل تباطؤ عن كل مسارعة إلى الحق وطريقه، ويمكن توضيح هذا في الجدول الآتي لإبراز انحراف السلوك والعودة عن العمل :

الفرقة	الحقيقة	الصفة	العلامة	التأويل
هي	- إذا أمرت.	= لم تطع.	دلائل	إن كل هذه الأفعال هي أوصاف تبرز
بلاء	- إذا دعوت.	= لم تجب.	انحراف	حقيقة المسلك العملي لهذه الفرقة،
الإمام	- إن أمهلتكم.	= خضتم.	وشقاء.	التي تتميز بالتباطؤ والكسل عن إرادة
	- إن حوريتكم.	= خرتم.		الحق، وهو ما يحمل صورة الانحراف
	- إن اجتمع الناس على إمام.	= طعنتم.		الضمني في الانحراف ورسم صورة
	- إن أجبتم إلى مشاققة.	= نكصتم.		الشقاء الإنساني.

إن هذه الحقيقة التي تلبس سلوك الإنسان المنحرف الشقي، "إذ تصبح هذه الأفكار حينئذ الجراثيم التي تنقل الأمراض الاجتماعية"³، فشقاء هذا الإنسان يجسد صورة لمنابع المعرفة الفاسدة والهاديات المضلة، وإن حقيقة هذا الانحراف العملي، يلخصه عمل الجوارح كاملة، يكشف عنه قول الإمام: "إن الله سبحانه لا يخفى عليه ما العباد مقترفون في ليلهم ونهارهم، لطف به خيرا، وأحاط به علما، أعضاؤكم شهود، وجوارحكم جنود، وضماؤكم عيون، وخلواتكم عيان"⁴، حيث يتجلى لنا أثر جوارح الإنسان التي تنطق وترجم سلوكه وعمله، فالجراثيم الثقافية والفكرية هي ما يتبدى عيانا من تلك الآثار المترتبة سلوكيا، حيث يبرز الإمام الحقيقة العلمية والعملية للجسد ومكاشفاته وعندما تكون هذه الحالة العاملة بكل الأدوات دون نظر ومراقبة لله وامتنال أمره، رغم أنه عليم محيط بتصرفهم، "وكأنه ينفذ في سرائرهم كما ينفذ لطيف الجواهر في مسام الأجسام بل هو أعظم

¹ - محمد متولي الشعراوي : موسوعة الأحاديث القدسية، ج 02، ص 21.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 245.

³ - ابن نبي مالك: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة و أحمد شعبو، دار الوعي، الجزائر، 2013، ط1، ص 158.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 297.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

من ذلك¹، وعليه فإن الشقاء هو خلاصة وثمره لانحراف كان مسلك حياة وعمل، ومن هنا يكون هذا التبدل في الطبيعة الإنسانية الخيرة المحضة، حيث نرى في مشهد هذا الزمان المتقلب أن "القائل فيه بالحق قليل، واللسان عن الصدق قليل، واللازم للحق ذليل، أهله معتكفون على العصيان، مصطلحون على الإدهان، فتاهم عارم، وشائبهم آثم، وعالمهم منافق وقارئهم ممدق، لا يعظم صغيرهم كبيرهم، ولا يعول غنيهم فقيرهم"²، ربما ليس أظهر من هذا في توصيف الانحراف الإنساني من تقلب الزمان والأحوال، حيث يشكل معلما دالا على كل انحراف، إضافة إلى شموليته للفرد والمجتمع والبسيط وصاحب المكانة، ومن ثم فإن الشقاء الذي يصيب الإنسان يجعل كل قواه تعمل في هذا السبيل، لأن هذا الانحراف يعد خروجا عن الحق وطريق الاستقامة والمنهج المرتضى، وهو بمثابة "عوج في التصور والسلوك"³، وربما هذا ما حدا بالإمام إلى أن يعلن في معرض وصفه للخوارج صرخته القائلة: "حذلو الحق، ولم ينصروا الباطل"⁴. إن مثل هذا الوضع يصبح شاقا جدا وعسيرا ومتفلتا في مختلف مخارجه. ومن الأوصاف المبينة لحجم الشقاء والانحراف العملي الخطر، هذا البيان لحال أهل الشقاء وانحرافهم السلوكي.

يبرز هذا المدخل التوصيفي تناقضا منهجيا ومبدئيا، من حيث التوجه والعمل، والمنطلقات والمآلات بين الدنيا والآخرة، يقول الإمام: "لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو الْآخِرَةَ بِعَيْرِ الْعَمَلِ وَيَرْجُو التَّوْبَةَ بِطُولِ الْأَمَلِ، يَقُولُ فِي الدُّنْيَا بِقَوْلِ الرَّاهِدِينَ، وَيَعْمَلُ فِيهَا بِعَمَلِ الرَّاعِبِينَ، إِنْ أُعْطِيَ مِنْهَا لَمْ يَشْبَعْ، وَإِنْ مُنِعَ مِنْهَا لَمْ يَقْنَعْ، يَعْجِزُ عَنِ شُكْرِ مَا أُوتِيَ، وَيَبْتَغِي الزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ، يَنْهَى وَلَا يَنْتَهِي، وَيَأْمُرُ بِمَا لَا يَأْتِي"⁵، ونفكك دوال القول بتأويلاته التي تجلي هذا الانحراف المبدئي والمنهجي، في الآتي:

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 297.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 329.

³ - مولاي سعيد : أضواء قرآنية على ظواهر كونية في الآفاق والأنفس، دار ابن حزم للطباعة، بيروت، 2006، ص 249.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 433.

⁵ - المصدر نفسه، ص 455.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

الشقي	الحقيقة	الصفة	تأويل ومميزات
[= الإنسان غير الكامل] عملاً وسلوكاً وفكرة.	- لا تكن ممن يرجو الآخرة - يرحى التوبة - يقول في الدنيا بقول الزاهدين - إن أعطي منها - إن منع منها - يعجز عن شكر ما أوتي - ينه - يأمر	= بغير العمل = بطول الأمل = و يعمل فيها بعمل الراغبين = لم يشبع = لم يقنع = ويتنغي الزيادة فيما بقي = ولا ينتهي = بما لا يأتي	إن حضور الإنسان الشقي في الدنيا يناقض سيره نحو الآخرة، بعمله وسلوكه، ويبرز التناقض بين الفكرة والعمل والمخارج المترتبة عن هذا الارتباك.

إن هذا التوصيف الذي أجلى تناقضات جوهرية ما بين التوجه والعمل والدنيا والآخرة

يقودنا إلى مواصلة تفكيك أوصاف هذا الانحراف العملي، و تقسيمه إلى ثلاثة مجموعات دالة:

المجموعة الأولى: يقول الإمام: "يُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَا يَعْمَلُ عَمَلَهُمْ، وَيُبْغِضُ الْمُنْذِرِينَ وَهُوَ أَحَدُهُمْ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ لِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِ، وَيُقِيمُ عَلَى مَا يَكْرَهُ الْمَوْتَ لَهُ، إِنْ سَقَمَ ظَلَّ نَادِمًا، وَإِنْ صَحَّ أَمِنَ لَاهِيًا، يُعْجَبُ بِنَفْسِهِ إِذَا عُوِيَ، وَيَقْنَطُ إِذَا أُبْتُلِيَ، إِنْ أَصَابَهُ بَلَاءٌ دَعَا مُضْطَرًّا، وَإِنْ نَالَهُ رَخَاءٌ أَعْرَضَ مُعْتَرًّا، تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلَى مَا يَظُنُّ، وَلَا يَغْلِبُهَا عَلَى مَا يَسْتَيْقِنُ، يَخَافُ عَلَى غَيْرِهِ بِأَدْنَى مِنْ ذَنْبِهِ وَيَرْجُو لِنَفْسِهِ بِأَكْثَرِ مَنْ عَمَلِهِ، إِنْ اسْتَعْنَى بِطَرٍّ وَفُتِنَ، وَإِنْ اِفْتَقَرَ قَنِطَ وَ وَهَنَ"¹، وهذا تفكيكه:

الشقي	الحقيقة	الصفة	تأويل ومميزات
<u>الإنسان المتناقض في سلوكه</u>	- يحب الصالحين. - يبغض المذنبين. - يكره الموت لكثرة ذنوبه. - إن أصابه بلاء دعا مضطراً. - تغلبه نفسه على ما يظن. - يخاف على غيره بأدنى من ذنبه. - إن استغنى. - إن افتقر.	- ولا يعمل عملهم. - وهو أحدهم. - و يقيم على ما يكره الموت له. - وإن ناله رخاء أعرض مغتراً. - ولا يغلبها على ما يستيقن. - و يرجو لنفسه أكثر من عمله. - بطر وفتن. - قنط ووهن.	- إن ما يمكن ملاحظته هنا، ذلك التناقض الواضح في سلوك هذا الإنسان، تناقضات تقود حتماً إلى حال التسافل، وتقضي على كل إمكانية تقود إلى الكمال.

يرمز هذا الخط ومنطلقاته التضاد بين حركة الإنسان نحو سعيه في الدنيا، وسعيه إلى الآخرة،

حيث تغيب آليات العمل السنني نحو السير الأخروي.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 455.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

المجموعة الثانية: يقول الإمام: "يُقَصَّرُ إِذَا عَمِلَ، وَ يُبَالِغُ إِذَا سَأَلَ، إِنَّ عَرَضَتْ لَهُ شَهْوَةٌ أَسْلَفَ الْمَعْصِيَةَ، وَسَوَّفَ التَّوْبَةَ، وَإِنْ عَرَتْهُ مَخْنَةٌ انْفَرَجَ عَنْ شَرَائِطِ الْمَلَّةِ، يَصِفُ الْعَبْرَةَ وَلَا يَعْتَبِرُ، وَيُبَالِغُ فِي الْمَوْعِظَةِ وَلَا يَتَّعِظُ، فَهُوَ بِالْقَوْلِ مُدِلٌّ، وَمَنْ أَعْمَلَ مُقِلًّا، يُنَافِسُ فِيمَا يَفْتَى، وَيُسَامِحُ فِيمَا يَنْبَغِي، يَرَى الْعُنْمَ مَعْرَمًا، وَالْعُرْمَ مَعْنَمًا، يَخْشَى الْمَوْتَ وَلَا يُبَادِرُ الْفَوْتَ، يَسْتَعْظِمُ مِنْ مَعْصِيَةِ غَيْرِهِ مَا يَسْتَقِيلُ أَكْثَرَ مِنْهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَيَسْتَكْثِرُ مِنْ طَاعَتِهِ مَا يَخْتَرُ مِنْ طَاعَةِ غَيْرِهِ"¹، وهذا تفكيكه:

الشقي	الحقيقة	الصفة	تأويل ومميزات
تناقضات	- يقصر	- إذا عمل	يقدم هذا الوصف تميزا آخر لحال شقاء الإنسان، الدال على الإرتكاس والتراجع،
الحقيقة	- إن عرضت له	- أسلف المعصية	حيث تخلو ذاته من أهم مقومات الفلاح، ومن أهمها:
في	- وإن عرته مخنة	- انفرج عن شرائط المللة	- العمل والمبادرة.
الإنسان	- فهو بالقول مدلل	- ومن العمل مقبل	- الإرادة والعزيمة.
	- يخشى الموت	- ولا يبادر الفوت	- فقدان حس المراقبة والتوجيه.
	- يستعظم من معصية غيره	- ما يستقل أكثر منه من نفسه	
	- ويستكثر من طاعته	- ما يحقره من طاعة غيره	

المجموعة الثالثة: يقول الإمام: "فَهُوَ عَلَى النَّاسِ طَاعِنٌ، وَلِنَفْسِهِ مُدَاهِنٌ، أَلْغُو مَعَ الْأَغْنِيَاءِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ مَعَ الْفُقَرَاءِ، يَخْكُمُ عَلَى غَيْرِهِ لِنَفْسِهِ، وَلَا يَخْكُمُ عَلَيْهَا لِغَيْرِهِ، وَيُرْشِدُ غَيْرَهُ وَيُعْوِي نَفْسَهُ، فَهُوَ يُطَاعُ وَيَعْصَى، وَيَسْتَوْفِي وَلَا يُوفِي، وَيَخْشَى الْخَلْقَ فِي غَيْرِ رَبِّهِ، وَلَا يَخْشَى رَبَّهُ فِي خَلْقِهِ"²:

الشقي	الحقيقة	الصفة	تأويل ومميزات
النكوص	- فهو على الناس	= طاعن	إن حالات التناقض في شخص الشقي، لا يمكن أن تعطينا هيئة واصفة لإنسان يجتهد في العمل، هذا النكوص يدفعه إلى تمهية وضع الانحراف في ذاته، كما أن صاحبه يفتقد إلى
وافساد	- ولنفسه	= مداهن	بعدين جوهريين يصنعان كمال العمل، هما النية والصواب.
خاصيات	- اللغو مع الأغنياء	= أحب إليه من الذكر مع الفقراء	
العمل	- ويرشد غيره	= ويعوي نفسه	
	- ويخشى الخلق في غير ربه	= ولا يخشى ربه في خلقه	

إن ما يمكن استخلاصه من هذا التوصيف لحقيقة هذا الانحراف أن هذه الصفات تبرز:

- التناقض السلوكي في الشخصية، والتفلت من القيم الوازنة.

- التقصير في العمل وعدم المبادرة إليه.

- التوجه الخالي من جلب مصالح النفس والمجتمع.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 455، 456.

² - المصدر نفسه، ص 456.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

إن حقيقة هذا الإنسان أنه يعلم "أن السعادة في الزهادة، والشرف في الفضيلة، ثم لا يقهر نفسه على اكتسابها"¹، وهذا ما يعرضه إلى الانحراف أولاً، ويضعف قدرته في بلوغ الكمال ثانياً، وترسم فيه صورة الشقاء ثالثاً، وفي النهاية تنعدم فيه صورة الإنسان السوي، ونحمل صورته في: الصورة الأولى: المتراجحة(1): الراضي بفعل قوم، كالداخل فيه معهم، و على كل داخل في باطل إثم: إثم العمل به وإثم الرضى به"².

الصيغة : الراضي بفعل قوم، كالداخل فيه معهم.

قاعده : وعلى كل داخل في باطل إثم:

← إثم العمل به [= إذا سنه في ذاته].

← إثم الرضى به [= إذا قبله في غيره].

ويتضح أن الرضا يحول كل ممنوع مسلكا اجتماعيا، يؤسس بعد ذلك لفساد يأتي على الكل، ويبدل القيم والمبادئ الفاضلة بغيرها من قيم الباطل.

الصورة الثانية: المتراجحة(2) : "إذا كان في رجل خلة ذائعة، فانتظروا أخواتها"³.

الصيغة : إذا كان في رجل خلة ذائعة، فانتظروا أخواتها.

قاعده : فانتظروا أخواتها:

← الخلة الذائعة [= الثابت السلوكي].

← انتظار أخواتها [= التفجر السلوكي].

إنه عندما تضيع من الإنسان خلة انحراف وزيف الصفات، فإن ما يحصل هو زيادة هذا الانحراف، وبذلك نشهد في هذا الشخص انهيارا يقود إلى عالم التسافل، "لأن العقل والطبيعة التي فيه المحركة له على فعل الحركة، لا بد أن تحركه إلى فعل ما يناسبها"⁴، فهذه تهيئة لعالم متماثل في هذا الإنسان، بحيث تصبح طبعاً في الذات تهيمن على كل مداركه، إلى درجة تنهار معها مقوماته.

2- ميزات وسلوك : إن أهل الانحراف لا بد وأن تنطبع شخصياتهم بميزات محددة لمظهر شقائهم وسلوكهم العملي، وهم بهذا يثبتون قطيعتهم مع إنسانيتهم ومقومات بنائها، وخصائص الإنسان

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 455.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 456.

³ - المصدر نفسه، ص 501.

⁴ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج 10، ج 20، ص 46.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

السوي، ويزودنا الإمام بمادة من الأفكار التي ترسم صورة الإنسان الشقي، وانحرافه العملي، حيث أن كل انحراف يعتبر تضليلاً وإفساداً إذا انطبع في النفوس، وفي هذا المعنى نجد الإمام يقول: "وقد أفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان"¹، فالإفساد هنا صارت له صورة أخرى بمغايرة ثانية، تتعلق بالموقف الإنساني، وعصيان الأمر الإلهي، وأمر القائد وتوجيهاته، وبذلك فإن العصيان والخذلان يصير إفساداً للصورة الإنسانية الحقة، ومثل هذه الأنفس لا يأت منها خير، وما هذا الفساد، إلا نتيجة حتمية لسوء التعامل مع النفس وقيادتها بشكل سليم²، ميزة وسلوك دالان على انحراف وشقاء يأتي على الفعل الاجتماعي برمته.

إن من العلامات التي ترسم في داخل النفس وتنطبع فيها لتدل على هذا التدمير، فساد العالم الداخلي، يقول الإمام: "وإنما أنتم إخوان على دين الله ما فرق بينكم إلا خبث السرائر وسوء الضمائر، فلا توازرون ولا تناصحون ولا تبادلون ولا توادون"³. فساد يترجم حالات سلوكية، عدم التوازن والتناصح والتبادل والتواد، "فالناس كلهم مخلوقون على فطرة واحدة، وهي دين الله وتوحيده، وإنما اختلفوا وتفرقوا باعتبار أمر خارجي عن ذلك، وهو خبث سرائرهم وسوء ضمائرهم"⁴، فمن أصل الفطرة إلى الانحراف، ومن فسادها إلى سوء السلوك، فصاروا بمثل هذا الحال:

الرقم	الميزة	الترجمة	السلوك	الدلالة التأويلية
1	لا توازرون	التوازر [= التعاون]	سليبي	إن فساد الداخل الإنساني/الفطري بتأثير العامل الخارجي
2	لا تناصحون	التناصح	سليبي	[= خبث السرائر وسوء الضمائر]، يؤدي إلى الانحراف
3	لا تبادلون	التبادل	سليبي	<u>السلوكي، ومن ثم رسم صورة الشقاء في الذات.</u>
4	لا توادون	التواد	سليبي	

وعليه يمكن التأكيد على هذه القاعدة :

1- أن صفاء الفطرة يؤدي إلى نقاء الداخل، ونتاجه: كمال الإنسان.

2- أن فساد الفطرة يؤدي إلى فساد الداخل، ونتاجه: شقاء الإنسان.

إن الشقاء الذي يرسم في النفس تتعدى آثاره إلى الآخرين، مما يجعل كل إنسان عالماً مفتوحاً على أنظمة الفساد والانحراف إلى درجة تنعدم فيها الأرضية المنبئة للصالح، صلاح

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 57.

² - ينظر جودت سعيد : الدين والقانون، ص 115.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 166.

⁴ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج4، ج6، ص 147.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

الإنسان، وتنعدم معه فرص تحقيق الكمال والسير فيه، وهذا ما جعل الإمام يعبر في حسرة عن مثل هذا الوضع الشاق، قائلاً: "أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي"¹، الأمر الذي جعلهم يكونون داء الانحراف عن خط الاستقامة، وعليه "فلا يشكن أحد في أن هذا الفساد سينقلب في وقت قصير إلى فساد مزمن وإلى سرطان لا يمكن علاجه"²، يعم جميع الناس، وهذه هي الحتميات والسنة المعلومة المقدمات، المؤكدة النتائج. أنهم أمراض اجتماعية، بدل أن يكونوا الدواء وأدوات الصلاح. ومن المفسدات لأرضيات نشأة الكمال وتحققه الأحقاد، لأنها منبت الانحراف، يقول الإمام: "كل واحد منهما حامل ضبّ [=الحقد] لصاحبه"³، فلا أفسد على الإنسان والإنسانية من الحقد الذي يقطع الأواصر، وبهذا يصبح الانحراف محاولة تدميرية لطاقات الإنسان، ناشئ عن سوء التربية، وكل إجراء مقحم على الفطرة، إنها البرمجة من الخارج، المقحم على أصل الفطرة، وإنه الانحراف الأخطر يظهر زمن التقلبات، وبيانه هذه المقولة: "وهل ترون موضعاً لقدرة على شيء تريدونه، إن هذا الأمر أمر جاهلية، وإن هؤلاء القوم مادة.

إن الناس من هذا الأمر -إذا حرك- على أمور : فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا ذاك، فاصبروا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق مسمحة، فاهدؤوا عني وانظروا ماذا يأتيكم به أمري ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوة و تسقط منة، وتورث وهنا وذلة. وسأمسك الأمر ما استمسك، وإذا لم أجد بدءاً، فأخر الدواء الكي"⁴. نلاحظ اتكاء هؤلاء القوم على مادة [= عوناً ومدداً]، مما يجعل أمر هؤلاء خطراً وانحرافهم العملي شديداً ممزقاً، ومما يمكن التنبيه إليه هنا أن الانحراف إنما يتأسس على أرضية وفكرة هي خميرة تكوينية في الذات، وتنشئة تكون في داخلها، ففكرة الجاهلية ومادة القوم تخرجان الأمر عن حده، مادة داعمة مفعلة، وأمام هذا اللبس الحاصل نجد أن موقف الناس من هذا الأمر إذا تم تحريكه قصد معالجته على أمور*، يشخص بموقف ورؤية تظهر حالة خلافية بين الناس، على النحو الآتي:

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص175.

² - فتح الله كولن : النور الخالد، ص 135.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 198.

⁴ - المصدر نفسه، ص 231.

* - يتعلق هذا الأمر بمن رأى ضرورة معاقبة قتلة الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه. وما دام أن الأمر واقع موقع الفتنة كان يتعين فيه التروي والتسكين، لا التهيج الذي تنفلت من ورائه القضية عن الحصر والضبط، على اعتبار أن هؤلاء لهم سنداً ودعمًا واتكاء يهدد الأمن الاجتماعي.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

التأويل	كيفية التعامل	التأويل	الرؤية والموقف
تمثل هذه الرؤية كشفاً للوضعيات التاريخية، مع تقديم الوسيلة الملائمة، لتفادي السقوط في الفتن المدمرة لتوازن المجتمع.	- فاصبروا حتى يهدأ الناس. - وتقع القلوب مواقعها. - وانظروا ماذا يأتيكم به أمري.	انقسام اجتماعي، فكما يكون طبيعياً كأي تكوينية في تركيبة المجتمعات، فهو يكشف عن انحرافات بيئية.	- فرقة ترى ما <u>تسرون</u> . - فرقة ترى ما لا <u>تسرون</u> . - فرقة لا ترى هذا ولا ذاك.

إن الموقف الإيجابي الذي به يتم تفادي مثل هذا الانحراف والمتعين سلوكه، هو ما أوضحه الإمام، بحيث يحمل قراءة ورؤية نافذة، وتأويلاً بصيراً، ثم إن الأخذ بعكس هذا يقود إلى الانحراف السلوكي، وإلى الفتنة التي تأتي بشبهة وتنجلي ببيان، بمعنى "إلى حين سكون الفتنة"¹، لهذا كان توجيه الإمام الناس بأخذ دواء هذه الضبابية:

1- الوازن الأول: "فاصبروا حتى يهدأ الناس"

2- الوازن الثاني: "فاهدؤوا عني وانظروا ماذا يأتيكم من أمري".

3- الوازن الثالث: "ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوة وتسقط منة، وتورث وهنا وذلة".

إن تفادي القرب من مسافات الانحراف يحتاج إلى مراقبة وبيان، ذلك أن "أحوال العالم وعوائدهم ونخلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج واحد مستقر"²، وتبقى المعاينة من أهل النظر واجبة وفريضة تملئها سنة الاجتماع، لمعالجة هذا السلوك الذي له صفة الرسوخ، المتعلق بفئات اجتماعية منحرفة. إذن فوضع الإنسان وهيئته الاجتماعية في تحريك واقعه، مصنفة بهذا الشكل: "فمنهم الآتي كارها، ومنهم المعتل كاذبا، ومنهم القاعد خاذلا"³، وما هذا التصنيف لمكونات حزبه وجيشه، ومن كان في صفه، إلا دليل نباهة من الإمام، بحيث استطاع أن يستقرئ أحوال مجتمعه، وهي قراءة لعلامات بدت من هؤلاء بتأويل سلوكهم وكلامهم وحركتهم الجسدية:

الصنف	الصفة	العلامة	التأويل
الآتي كارها	الآتي = الإتيان	خرج كارها	مشهد التركيبة الاجتماعية المتراجعة والمتخاذلة.
المعتل كاذبا	المعتل = الاعتلال	اعتل بالكذب	
القاعد خاذلا	القاعد = القعود	تأخر وخرج بالقعود والخذلان	

فأي هذا المشهد لتركيبة بشرية متراجعة عن أداء الواجب؟!

¹ - ابن أبي الحديد : شرح النهج، مج 5، ج 9، ص 170.

² - عماد الدين خليل : مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ص 148.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 375.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

إن هذه الوضعية/ الموقف/ الحركة، لن تكون إلا عاملاً قوياً يدفع إلى الانحراف العملي والسلوكي، وهذا الأمر طبيعي يتمثل مع أحوال فساد سرائرهم وضمائرهم، ومثل هذا التباطؤ وما ينتج عنه، يؤكد في توصيفه لحال قبيلة قريش، حيث يقول: "فدع عنك قريشا وتركاضهم في الضلال وتحاولهم في الشقاق وجماعهم في التيه"¹، وهو ما يعني أن الانحراف له منابت ينبت فيها ويبرعم في تربتها ويستفحل، إلى درجة أنه صار تركاضاً، وهذا "السرعة خواطرم في الضلال"²، وانحرافاً في موجباته، يوضح بشكل جلي ميزات الإنسان الشقي، بحيث لم تترك له فرصة لتصويب مواقفه، ويمكن تبيان هذه الحركة الدائرية للإنسان في انحرافه من خلال وصف يثبت صفة الظلم، أو أن هذا الرسم لصورة الشقاء هو صفة للظلم، وفي توصيفه يذكر الإمام حقيقته، قائلاً: "للظالم من الرجال ثلاث علامات، يظلم مَنْ فوقَهُ بالمعصية، وَمَنْ دُونَهُ بالغلبة، ويظاهر القوم الظلمة"³، تحديد واصف لمجال الظلم وأحواله، معصية وغلبة ومظاهرة، يمثل تصنيفاً لانحرافات السلوك في المجتمع.

إن الانحراف العملي والسلوكي هو الظلم بأنواعه وأحواله، والانحراف هو اللباس الذي يرتديه الإنسان الشقي، ومما يلخص حقيقة هذا الانحراف صفة البخل التي تقتل معالم الحياة، وتجمع الشرور في النفس، وتدفع إلى كل انحراف، يقول الإمام: "البخل جامع لمساوي العيوب، وهو زمام يقاد به إلى كل سوء"⁴، ذلك أن البخل هو بالكيفية مخالفة لأصل الطبيعة الإنسانية، بينما يكون الكرم فطرة يدفع إلى الخيرية ويرفع إلى السيادة والكمال*، بينما لا سيادة للإنسان مع البخل.

3- نتائج: يمكن أن نجمع بعض الأفكار القيمة من أقوال الإمام نجدها في مخاطباته، تعد نتائج جامعة لصور الانحراف العملي والسلوكي، ومؤذنة بملامسة حالة الشقاء الإنساني، وهي:

- أ- "وهل خلفتم إلا في حثالة لا تلتقي بدمهم الشفتان استصغاراً لقدرهم وذهاباً عن ذكرهم"⁵.
ب- "وإنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق ولا أظهر من الباطل ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله"⁶.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 376.

² - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 376.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 486.

⁴ - المصدر نفسه، ص 492.

* - وهنا نشير إلى الحديث النبوي الذي يقول فيه النبي ﷺ: "إن السيد لا يكون بخيلاً"، زين العابدين محمد الحدادي المناوي، فيض القدير، شرح

الجامع الصغير، بيروت، دار المعرفة، ج2، ط2، ص 346.

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 184.

⁶ - المصدر نفسه، ص 197.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

ج- "فلا معروف يستراح إليه، ولا منكر يتناهى عنه"¹.

د- "يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم"².

و- "ما ظفر من ظفر الإثم به والغالب بالشر مغلوب"³.

وأما العلامة النهائية الجامعة لهذه النتائج، وهذا الانحراف الذي يرسم صورة الشقاء ما قاله الإمام: "الحجر الغصيب في الدار رهن على خرابها"⁴. إن كل انحراف في مسالك المجتمع والحياة المتشعبة، إلا وله ثمن، ذلك أنه محاولة للأخذ بسبل الالتواء والتعرج والبعد عن الصواب، "فالاعتصاب قاض بالخراب"⁵، وفي هذا رمزية لافتة تستدعي تعقلاً وسيراً معتدلاً على منهج صائب، حيث يبدأ الانحراف في العقيدة متدرجاً ليصل إلى الفكرة، ليأتي الانحراف على العمل والسلوك، وعليه فإن انحراف الإنسان الشقي، يعني أنه يسعى في حركته لتدمير طاقات الكمال فيه.

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 477.

² - المصدر نفسه، ص 466.

³ - المصدر نفسه، ص 483.

⁴ - المصدر نفسه، ص 466.

⁵ - محمد عبده، شرح نصح البلاغة، ص 466.

المبحث الخامس : معيقات الكمال :

يعترض الإنسان في سيره نحو الكمال الكثير من المعيقات والتحديات، وهذا نظرا لنفاسة ونوعية الإنسان الذي سيكون ثمرة هذا السعي، وهو الإنسان الكامل، عين الحقيقة والكون والإنسانية، ولعل أبرزها أربعة مخاطر معترضة لطريقه، الشيطان والهوى والشهوات والدنيا.

أولا : إتياع الشيطان: يعد الشيطان أول وأخطر معيق يعترض طريق الإنسان.

1- حقيقته: قصته مع الإنسان وتأثيره في شقاوته:

أ- لغة: جاء في مادة "شطن"، كما في المقاييس: "الطاء والنون أصل مطرد صحيح يدل على البعد، يقال: شطنت الدار تشطن شطونا إذا غربت، ونوى شطون، أي بعيدة. ويقال: بئر شطون، أي: بعيدة القعر. والشطن: الحبل، وهو القياس، لأنه بعيد ما بين الطرفين. قال الخليل: الشطن الحبل الطويل، وأما الشيطان فقال قوم: هو من هذا الباب، والنون فيه أصلية، فسمي بذلك لبعده عن الحق وتمرده. وذلك أن كل عات متمرّد من الجن والإنس والدواب شيطان"¹، تؤكد دلالة الكلمة على التمرد والبعد عن الحق، والتمرد وصف لكل عات منحرف، وهذا معنى يدل على الشقاء والعصيان. وأما دلالة لفظة "إبليس" التي هي من الاطلاقات في هذا المسمى فقد جاء فيها أن "الباء واللام والسين أصل واحد...، فالأصل اليأس، يقال: أبلس: إذا يئس، وقالوا ومن ذلك اشتق اسم إبليس، كأنه يئس من رحمة الله"²، وعندما يضاف معنى اليأس إلى المدلول السابق، التمرد والبعد، فإن صفة الشقاء تصبح مكونا ثابتا ملازما لكل متصف بوصف الشيطنة من الإنس والجن.

ب- المفهوم: يندرج تحت هذا المعنى تصور مفهوم الشيطان وحقيقته، وكيفية عمله، "فالشيطنة مرتبطة كلية عامة لمظاهر الاسم المضل"³، وبهذا يكون فعل هذا التحريك [= شيطان]، الممارس من قبل إبليس هدفه إخراج الإنسان من طبيعته، بالأدوات والوسائل، من الوسوسة والإغواء التي يمارسها ضد الخلق، ليبعدهم عن الحق، وهذا طبعاً بالمخالفة والعصيان للأمر الإلهي، وعليه فإن الشيطان يصبح "أصل كل عدو يعادي معاداة جوهرية"⁴، وهذا مبدأ يقتضي المبادأة، والمماثلة، على اعتبار أنه اتخذ هذا طبيعة، فالشيطان حقيقة موضوعية، تثبت رمزية الوجود الإنساني، وترجمته

¹ - ابن فارس : مقاييس اللغة، ص 447.

² - المصدر نفسه، ص 111.

³ - الشريف الجرجاني : التعريفات، ص 111.

⁴ - الراغب الأصفهاني : مكارم الشريعة، ص 261.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

الضرورية، يدفع إلى المحافظة على الجوهر النقي في الإنسان، وإجلاء صورة الفطرة بقاء ونقاء وسلامة، بعد المقاومة والمجاهدة ورفض طريقه، ومن ثم فإن وجوده بالإضلال هو إثبات ثان لحقيقة التكريم الأول، بآلية الابتلاء، وبالانتصار على عداوة مترصدة، والخروج من مزلق تقتضيها طبيعة هذا اللقاء المتجدد بين الإنسان والشيطان، وفي صعود الإنسان يتأكد الدور النشط للشيطان لما يضيفه من حرارة وشحن على أجواء المعركة، وعندها يرتقي الإنسان ليلا مس عالم الملائكة، وهذا الأفق الكمالي، وإما أن يخسر الإنسان هذه المعركة، فينزل ليصبح شيطاناً إنسياً.

2- قصة الإنسان والشيطان؛ الخلق والعداوة: تبدأ قصة الإنسان مع الشيطان ببداية خلق آدم عليه السلام من طين، خلق تصاحب مع التعليم الإلهي له: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾¹، ومن ثم تكريمه وتفضيله، قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾²، هذا إضافة إلى أن الإنسان قد خلق في أحسن تقويم*، بعدها كان الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام، ولهذا الإنسان المسوى، فكان الامتثال ملائكياً، وكان العصيان شيطانياً [= إبليسياً]، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾³. وكان هذا الرفض إيذاناً ببداية هذه العداوة ودخولاً في مرحلة جديدة سيخوضها آدم وزوجه مع عدو متربص، حدد هدفه واتخذ أسلحته في هذه المواجهة. لقد كان هذا الرفض تعالياً وترفعاً منه، انطلق فيه من طبيعة الخلق أنه من نار وأن آدم من طين، وعليه فإن هذا الترفع أو التعالي الذي سماه القرآن استكباراً سيكون مدخلاً ولباساً في معركة الرصد الشيطاني التي ستنتهي بكل من لبس لبوس الجلال الإلهي [= التكبر] بغير حق إلى الخسار، بينما ستنتهي بالذين لبسوا من الجمال الإلهي أخذاً واتصافاً وكمالاً وكرامة، إلى الانتصار في معركة المصير، وفي هذا المعنى يقول الإمام: "مستثنيا إبليس الذي اعترته الحمية^(أ) وغلبت عليه الشقوة^(ب)، وتعزز بخلق النار^(ج) واستهون خلق الصلصال^(د) فأعطاه الله النظرة، استحقاقاً للسُّخطة واستتماماً للبلية وإنجازاً للعدة"⁴. يبرز هذا النص المفاضلة التي أجراها

¹ - سورة البقرة، الآية 30.

² - سورة الإسراء، الآية 70.

* - إشارة إلى ما ذكره الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز عند خلق آدم، حيث قال: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم فمدلولات الحسن والتقويم كلها مؤشرات جمالية كمالية تأهيلية تكريمية، نجد آثارها في تاريخ الإنسان تشهد، تفرض عليه حمداً وشكراً وعبودية تخضعه لربه ونخالقه.

³ - سورة البقرة الآية 34.

⁴ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 269.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

إبليس بينه وبين الإنسان، مفاضلة تلخص موقفه من الإنسان، تحدد هذا الموقف في هذه النقاط الأربعة، وهي دوال على العصبية والعصيان، والتكبر على آدم عليه السلام.

إن العصبية والعصيان والتكبر، هي منطلقات الشيطان، ومبادئ عداوته للإنسان، ومن هنا كانت البداية التي أسست لكل قادم في تاريخ هذا الصراع، منطلقات أخرجت الشيطان من الرحمة الإلهية مع الوعيد، ومكافئا لهذا الموقف والاعتراض أعطي النظرة لحكمة أرادها الله سبحانه استحقاقا للسخطة، واستتماما للبلية، وإنجازا للعدة، وهي دوال على الإفساد، والمنازعة، والعداوة. وسيمارس الشيطان على الفطرة الإنسانية غوايته، وعليه فقد "ظهر أن هذه المخالفة من فساد عقيدة، فكان كافرا"¹، وعاملا مجتهدا في سعي منه لإفساد الإنسان وإبعاده عن مسار الحق، فمن هذه الوضعية المستجدة التي طرأت امتحانا لإبليس، وامتحانا للإنسان كذلك، تبدأ رحلة الصراع، "ثم اسكن سبحانه آدم دارا أرغد فيها عيشه، وأمن فيها محلته، وحذره إبليس وعداوته"²، تبرز لنا في هذا القول نقاط رئيسة مركزية تمثلت في إسكان آدم دارًا، ثم إرغام عيشه، وإعطاءه الأمن، وتحذيره من إبليس، قال تعالى مخاطبا آدم عليه السلام: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾³. لقد كانت التهيئة الإلهية لآدم وزوجه تهيئة متناسبة سيرا مع أجواء الخلقة والتكريم، وإنعاما إلهيا يتطلب يقظة وذكاء لاستدامته أولا، وعدم مخالفة الأمر الإلهي ثانيا، وإن الجنة هذه المفازة تتطلب مثل هذا الوعي، وتحتاج إلى ثبات يحفظ خط السير من كل تفريط يعرضه لخسارتها. ويعرض الإمام للخلاف الذي حصل والعداوة التي ولدت لتوها، فيقول: "فقال سبحانه وهو العالم بمضرات القلوب ومحجوبات العيوب: (إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ) [ص: 71-74]، اعترضته الحمية فافتخر على آدم بخلقه وتعصب عليه لأصله، فعدو الله إمام المتعصبين وسلف المستكبرين الذي وضع أساس العصبية ونازع الله رداء الجبرية، وأدرع لباس التعزز وخلع قناع التذلل"⁴. إن في هذا الكلام نقاط مجلية لذلك الانحراف الرهيب من الشيطان، بحيث أدخل نفسه في متاهة أهلكته، أعلاها تطاوله على مقام وعز جلال الذات الإلهية، وبهذا سينطلق في فعل

¹ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 7، ج 13، ص 77.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 22.

³ - سورة البقرة، الآية 35.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 269.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

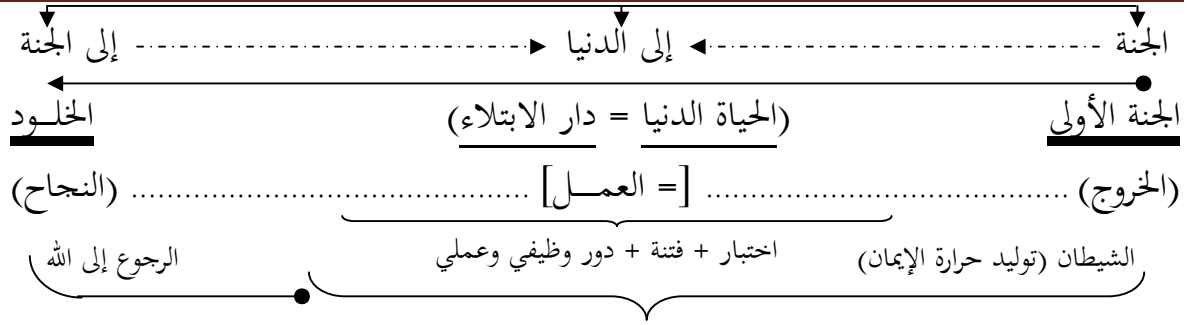
الإفساد لآدم وذريته مبديا تفاخرا عليه، وهذا ما يشكل قاعدة خروجه، حيث اعترضته الحمية، واغتر على آدم بخلقه، إضافة إلى تعصبه عليه لأصله، تمخض عنه عدائه لآدم عليه السلام، فمن نتائجه عداوته لله، فهو إمام المتعصبين وسلف المستكبرين، وهي دوال على كل انحراف وتطاول، وهذا ما يؤسس لهذه المتربات أنه واضع أساس العصبية ومنازعة رداء الجبرية وإدراع لباس التعزز وخلع قناع التذلل.

إنه موقف جنح إبليس إلى خيارات مهلكة، تحول بموجبها إلى عامل إفساد وتدمير، عهد قطعه على نفسه لاستكمال خط العداوة إلى يوم الدين، فهو "أول أولئك الذين تنافسوا مع الله" من جهة العظمة، فأصبح ينظر إليه كمجسد لمبدأ الاستكبار والغطرسة¹، وهذا المبدأ الذي يعلنه الشيطان وأتباعه يدخل في عدم تقدير الله ولعظمته وتنزيهه، ثم محاولته الحط من كرامة الإنسان واعتراض إمكانية ارتفاعه، ليعظم خالقه عليه السلام، وبعد هذا كان الإغواء الذي أفلح فيه، فخرج آدم من الجنة، ويبقى هذا الإغواء قائما والصراع مستمرا، كان هذا الخروج من الجنة الاختبار الأصعب والأخطر لذرية آدم عليه السلام، وعلى مسرح الدنيا ستكون المواجهات والصراع والافتتان، ومن ثم كان النزول، وكانت التوبة، "ثم بسط الله سبحانه له في توبته، ولقاه كلمة رحمته، ووعدته المرد إلى جنته واهبطه إلى دار البلية وتنازل الذرية واصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم لما بدل أكثر خلقه عهد الله إليهم، فجهلوا حقه واتخذوا الأنداد معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله. وواتر إليهم أنبيائه، ليستأدوهم ميثاق فطرته"². تعطينا هذه الفقرة جملة من الأفكار التأسيسية لمرحلة ما بعد الإغواء، ثم العصيان والخروج من الجنة، فمن الكرامة الإلهية لآدم عليه السلام أن بسط له في توبته، وهذه أكبر نعمة، فلقيه كلمة رحمته، وهذا إغمار بفضل كبير، ثم وعد المرد إلى جنته، حيث يشكل كل هذا عظمة وألظافا لا متناهية، وتوجب رحلة الإنسان في الدنيا [= قبل المرد]، معرفة هذا الفضل، وأداته معرفة الأسماء، وعليه فالعلم والمعرفة هما عاملا الحسم في هذه المعركة الثنائية، وهذا توضيحه :

¹ - رضا شاه كاظمي : العدل والذكر، ص 120.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 23.

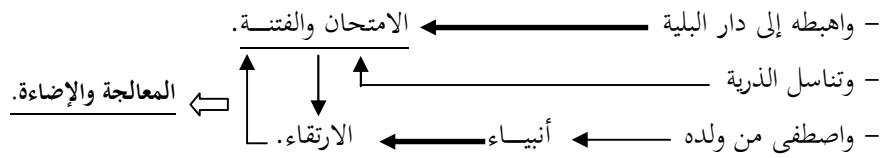
الفصل الثاني : الإنسان الشقي



- ترسيمة تبرز طبيعة الصراع بين الشيطان و الإنسان -

وما هذه الطاقة والحرارة إلا ترجمة عملية لهذا الصراع، وعليه "فإن الصراع بين الشيطان والإنسان، شامل واسع معقد متشابك، إنه تقابل بين الخير والشر على أوسع الجبهات، تقابل لا بد منه إذا ما أريد للحياة البشرية أن تتجاوز الكسل إلى النشاط، والفتور إلى التمخض، والسكون إلى الحركة"¹، صراع ضروري حتمي يتوجب فيه الانتصار، وإثبات القدرة على الارتفاع والكمال، وكل هذا يتحقق بهذا القانون: التوبة [= العمل] + الرحمة الإلهية [= الألفاظ] ⇐ المرد إلى الجنة.

3- الهبوط والارتقاء: لقد سمى القرآن الكريم مرحلة ما بعد الإغواء والعصيان هبوطاً، وتدل كلمة الهبوط "على انحدار..، والهبوط: الحدود"². مما يعني أن الهبوط يكون من مرتبة، كما أنه يحمل دلالة الصعود ومحاولته مجدداً، وفي هذا إرفاق ولطف من الله بالإنسان، قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾³، وهذا الإرفاق له متعلقه، وهو إتباع الهدى، يتضح لنا هذا المعنى من خلال قول الإمام السابق، وهذا بيانه:



يدل الفعل اصطفى على فكرة الكمال، ارتقاء له متطلباته، منها الابتعاد عن المفسد، قصد العروج إلى المقامات والمنازل، ومن هنا تتضح الأدوار الفاعلة والمتناقضة والمتصارعة في آن واحد بين:

1- دور الشيطان: ← في إحداث التراخي [= التثييط] نحو [= الهبوط بهم] = بالعمل الفاسد.

2- دور الأنبياء: ← في عملية الإنقاذ [= التعليم] نحو [= الارتقاء بهم] = بالعمل الصالح.

¹ - عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ، ص 236.

² - ابن فارس : مقاييس اللغة، ص 929.

³ - سورة البقرة، الآية 38.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

تمثل دور الأنبياء في أن الله ﷻ "أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم"، وهذا تكليف بمرتبة الوحي، ويظهر هذا الدور في فترات زمنية، مع تبديل الخلق للحق، يعهد إليهم عملية التبليغ قصد إبقاء الناس على العهد الإلهي، وعلى الفطرة السليمة التي فطرهم عليها، فعوامل التبدل تتعلق بتبديل الناس للعهد الإلهي، ويرجع هذا إلى عاملين رئيسين دافعين:

1- دور الجهل: قاد الجهل الناس بحق الله سبحانه وتعالى إلى اتخاذ أنداد معه.

2- دور الشياطين: وتمثل دورهم في اجتيال الناس عن معرفته واقتطاعهم عن عبادته.

لقد أنتج الجهل بالله عدم معرفته، وأدى إلى اجتيال الشياطين للناس عن الفطرة وسوقهم إلى الشرك، وعليه فإن كلا العاملين يشكلان خطراً وانحرافاً وجيهاً وعصيانياً ظاهراً، وكل هذا من تعليم الشيطان، والانسحاق وراء إغوائه، ولذا يأتي الأنبياء إلى تصحيح وتعليم الناس، والتعريف بالله، "ليستأدوهم ميثاق فطرته"، ليبقى الإنسان على الفطرة الأولى، وهو هدف الوحي، حيث "بعث إليه النبيين ليطلبوا من الناس أداء ذلك الميثاق، أي ليطالبوهم بما تقتضيه فطرتهم، وما ينبغي أن تسوقهم إليه غرائزهم"¹، فأداء الميثاق، وما تقتضيه الفطرة الإنسانية هو الضرورة المتشاكلة سننياً مع الطبيعة، لدفع اعتراض الشهوات، ونزغ الشيطان ومفسدات الفطرة والمنهج، وتكمن الآلية العملية في إزالة كل المعيقات والمشوشات من الطريق، ومن ثم تصفية أجواء عالم الفطرة النقية، ومن بينها التحذير من غواية إبليس، وهذا ما بينه الإمام في هذه الجملة: "واعلم أن الشيطان قد ثبطك عن أن تراجع أحسن أمورك، وتأذن لمقال نصيحتك"²، حيث يبرز الإمام الدور الذي يؤديه الشيطان، في تثبيط الإنسان عن القيام بالعمل والمراجعات الضرورية، وتقوم المناصحة بين الناس بمعارضة مسلك الشيطان وطرق إفساده، جاء في الحديث النبوي: "الدين النصيحة"³، فالنصيحة هي المبدأ الجامع الذي يدفع إلى الخيرية، والاقتصاد في عدم إهدار الطاقة الإنسانية، وإنماء الفعل الحيوي في الإنسان.

4/ عمله: يحسن بنا بعد أن ذكرنا قصة خلق آدم ﷺ وعداوة الشيطان له أن نقف عند العمل الحقيقي الذي يقوم به الشيطان في الإغواء والإفساد، وإذا تتبعنا السياقات القرآنية التي ورد فيها ذكر الشيطان، فإننا سنجد مجموعة من الأساليب والأعمال التي يتحرك من خلالها في عمله، وتشكل هذه الآيات إطاراً فنياً يضبط لنا أدائه الخطر والمميز في دفع الإنسان إلى الشقاء والانحراف،

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 23.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 427.

³ - أحمد بن حنبل : مسند الإمام أحمد، ج 30، ص 335.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

كما نجد في نصوص النهج صوراً لهذا العمل ولعل خطبة "القاصعة" علامة فارقة في تحليل هذا العمل الإبليسي وما يقود إليه من هلاك حتمي.

I- الآيات المجلية لعمل الشيطان وأساليبه* : ومن أخطر أساليبه، ما يبرزه هذا الجدول:

العمل	الآية	الأسلوب و الدلالة
1-التزيين والغواية.	- قال تعالى : "قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ" ¹ .	- أسلوب التزيين والغواية، وتحسين قبيح الأمر، ليبعد به الناس عن الرشد.
2-التضليل.	- قال تعالى : "وَلَأضِلَّنَّهُمْ وَلَأْمَنَّنَّهُمْ وَلَأْمُرَّنَّهُمْ فَلْيَكْفُرْ أَذَانُ الْأَنْعَامِ وَلَا يَسْمَعُ فَلَئِمَّا يَلْمِزُكَ أَمْحُكَ اللَّهُ" ² .	- يعني هذا الأسلوب إدخال العبد في الباطل وإبعاده عن الحق.
3-الوسوسة.	- قال تعالى : "فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ" ³ .	- أسلوب هامس خفي، يتسرب من خلاله إلى داخل النفس، ليكشف سوءة الإنسان، ويدفعه إلى العصيان.
4-النزع والفتنة	- قال تعالى: "يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِيَّاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ" ⁴ .	- أسلوب يفسد به العلاقات، ليقوع العبد في الشبهة ليفتنه، ظنا أنها حق.

تأتي هذه الأساليب ترجمة دالة على الفعالية التي يبيدها الشيطان في عمله وعهده، كإرادة منه لإفساد بني آدم وإخراجهم عن منهج الله، إضافة إلى وسائل أخرى يلتف بها على الإنسان، وهي تبدييات لا تخرج عن أسلوبه العام في عداوته للإنسان⁵، مثل الأمر بالسوء والفحشاء، وإيقاع العداوة بين الناس، وتخويفهم، ودفعهم إلى الغفلة والنسيان، وعوده الصراط المستقيم، والصد عن سبيل الحق، والدعوة إلى عذاب السعير، والتسويل وإحزان الناس، والاستفزاز والجلب. كل هذه الأساليب في صد الإنسان عن طريق الحق وعبادة الله تبقى ضعيفة، ما لم يضع الإنسان نفسه في طريقه، "فقوة الشيطان في نهاية الأمر تفسر بضعف الإنسان، لأن الشيطان لا يتمتع بقوة متأصلة فيه، ذلك أن مكره الكبير يتكون من تحميل وتزيين سقط الدنيا وحثالتها وجعلها في حلة بهية مبرقشة، أو جعل ما هو منطقي ومفيد حقيقة يبدو عبثاً ثقيلاً مخيفاً"⁶، وتكشف دنيا الناس وواقع

*- ذكر القرآن حوالي ستة عشرة أسلوباً من حالات الإغواء يقوم بها الشيطان، ليلتف بما حول الإنسان بغية إفساده ودفعه إلى الكفر والشقاء.

¹ - سورة الحجر، الآية 39-40.

² - سورة النساء، الآية 119.

³ - سورة الأعراف، الآية 20.

⁴ - سورة الأعراف، الآية 27.

⁵ - ينظر أساليبه في سور: [البقرة 167-168، آل عمران 175، الأنعام 68، الأعراف 16، النمل 24، لقمان 20، محمد 26، الإسراء 63].

⁶ - مالك فضل الرحمان : المسائل الكبرى في القرآن الكريم، تر محمد أعفيف، جداول للنشر، لبنان، 2013، ط1، ص 247.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

حياتهم هذه الحقيقة، وعليه فإن الإنسان كلما اكتسب قوة علمية وكمالاً في توحيده، ورشداً في عقله، كلما كان أقوى من أسلحته.

II- أدوار الشيطان في نهج البلاغة: تكشف نصوص النهج عن بعض الأدوار والأساليب التي

يسلكها الشيطان، لإعاققة الإنسان في كل لحظة ودون كلل عن بلوغ كماله وتحقيق إنسانيته، ومنها:

1- تقوية صف الباطل: يقول الإمام في هذا الشأن: "ألا وإن الشيطان قد دمر حزبه واستجلب

جلبه، ليعود الجور إلى أوطانه ويرجع الباطل إلى نصابه"¹، وإن هذا الحث والحض منه إنما هدفه

تأليف حزبه من الناس، لينهض الكل عاملاً في حقله، سعياً منه لمحو ما رسخه الأنبياء من قيم

الحق، بقصد تقوية صف الباطل، وإفساد مقاصد الحياة والاجتماع الإنساني.

2- مزج الحق بالباطل: يقول الإمام: "فلو أن الباطل قد خلص من مزاج الحق لم يخف على

المرتادين، ولو أن الحق خلص من لبس الباطل، لانقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا

ضعف ومن هذا ضعف فيمزجان، فهالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم

من الله الحسنى"²، ففي هذه المساحة بين الحق والباطل، وبين هذا التداخل يكون عمله الباطل

للارتباب، "إذا امتزج في النظر الحق بالباطل، وتركت المقدمات من قضايا صحيحة وفسادة، تمكن

الشيطان من الإضلال والإغواء والوسوسة إلى المكلف، وخيل له النتيجة الباطلة، وأماله عليها،

وزينها عنده"³، وعليه فإن خلخلة المفاهيم واضطرابها ومخالفتها لكل منطق يفتح أبواب الضلال.

3- إسناء طرفه: يمهّد الشيطان بهذا العمل لغيره، ليحل عقد الدين، ويحدث به كل فرقة، يقول

الإمام: "إن الشيطان يسني لكم طرفه ويريد أن يحل دينكم عقدة عقدة ويعطيكم بالجماعة الفرقة،

فاصدفوا عن نزعاته ونفثاته، وأقبلوا النصيحة ممن أهداها إليكم، وأعقلوها على أنفسكم"⁴، وإن

هذا التسهيل الذي يبديه الشيطان للناس يمثل إغواء قاتلاً يفتح أبواب الهلكة في الدين والوحدة،

"فإبليس يصور للإنسان أن ما منعه الله عنه هو الخير"⁵، وأسلوبه هذا يعد تسهيلاً لكل الخطوات

نحو الإغواء والضلال، ويأتي بعدها هدفه وإرادته المتمثلة في أمرين حل دينكم عقدة عقدة، وتغيير

الجماعة بالفرقة، بمعنى استبدال منهج بآخر.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 49.

² - المصدر نفسه، ص 78.

³ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 2، ج 3، ص 140.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 175.

⁵ - محمد متولي الشعراوي : موسوعة الأحاديث القدسية، ج 02، ص 9.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

إن الغاية من ذلك دفع الناس إلى استبدال الحق بمنهج الباطل، ولذا يصبح الشيطان من أبرز معيقات الكرامة والكمال الإنساني، ومن أساليب مقاومته الصدف عن نزعاته وقبول النصيحة.

4- الازدحام على الحطام: وهذا أسلوب يقود صاحبه إلى أن يكون لدعوة الشيطان مليبا ولطريقه سالكا، يقول الإمام: "ازدحموا على الحطام وتشاحوا على الحرام ورفع لهم علم الجنة والنار فصرفوا عن الجنة وجوههم، وأقبلوا إلى النار بأعمالهم ودعاهم ربهم فنفروا وولوا، ودعاهم الشيطان فاستجابوا وأقبلوا"¹. وإن الملفت هنا أن الإنسان هو من يعطي قياده للشيطان، من كفياته:

الإنكباب:	{ - ازدحموا على الحطام - وتشاحوا على الحرام	الانكباب على حطام الدنيا وملذاتها، وتعرضهم لمساقه.
التضليل:	{ - رفع لهم علم الجنة والنار	يمثل هذا بيانا تحذيريا، ومحاولة تضليلية خطيرة.
التحول:	{ - فصرفوا عن الجنة وجوههم - اقبلوا إلى النار بأعمالهم	تحول وإقبال وعمل.
الحزب:	{ - دعاهم الشيطان فاستجابوا وأقبلوا	تشكيل حزبه.

يفهم من هذا أن للشيطان دعوة وأتباع وحزب، يستجيبون ويقبلون، حتى تصبح "غرائز الإنسان السفلى تتحدث ليس لكونها إغراء على فعل الشر فحسب، بل كأمره على فعل الشر"²، وإن تحريك الشيطان لأساليبه يتتبع فيها حالات الضعف الإنساني، كي تكون الاستجابة طوعية له.

5- أسلوب الإتيان من الجهات: يقول تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾³. إن هذه الجهات الأربع هي التي يأتي منها الشيطان [الأمام والخلف واليمين والشمال]، مما يعني محاولة الإحاطة التامة بالإنسان ومعرفة مداخله، بهذا الأسلوب أسلوب الالتفاف يجهز عليه، يقول الإمام: "فاحذره فإنما هو الشيطان يأتي المؤمن من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ليقتحم غفلته ويستلب غرته"⁴، وهدف هذه الإحاطة الإيقاع بالإنسان وإبعاده عن الحق، عبرت عنه الآية بعدم الشكر، باعتباره يمثل مبدأ للترجمة والرد الطبيعي على نعم المنعم بالشكر، وتمثل لتأويلات الإمام وما ذكرته الآية بهذه الدائرة:

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 195

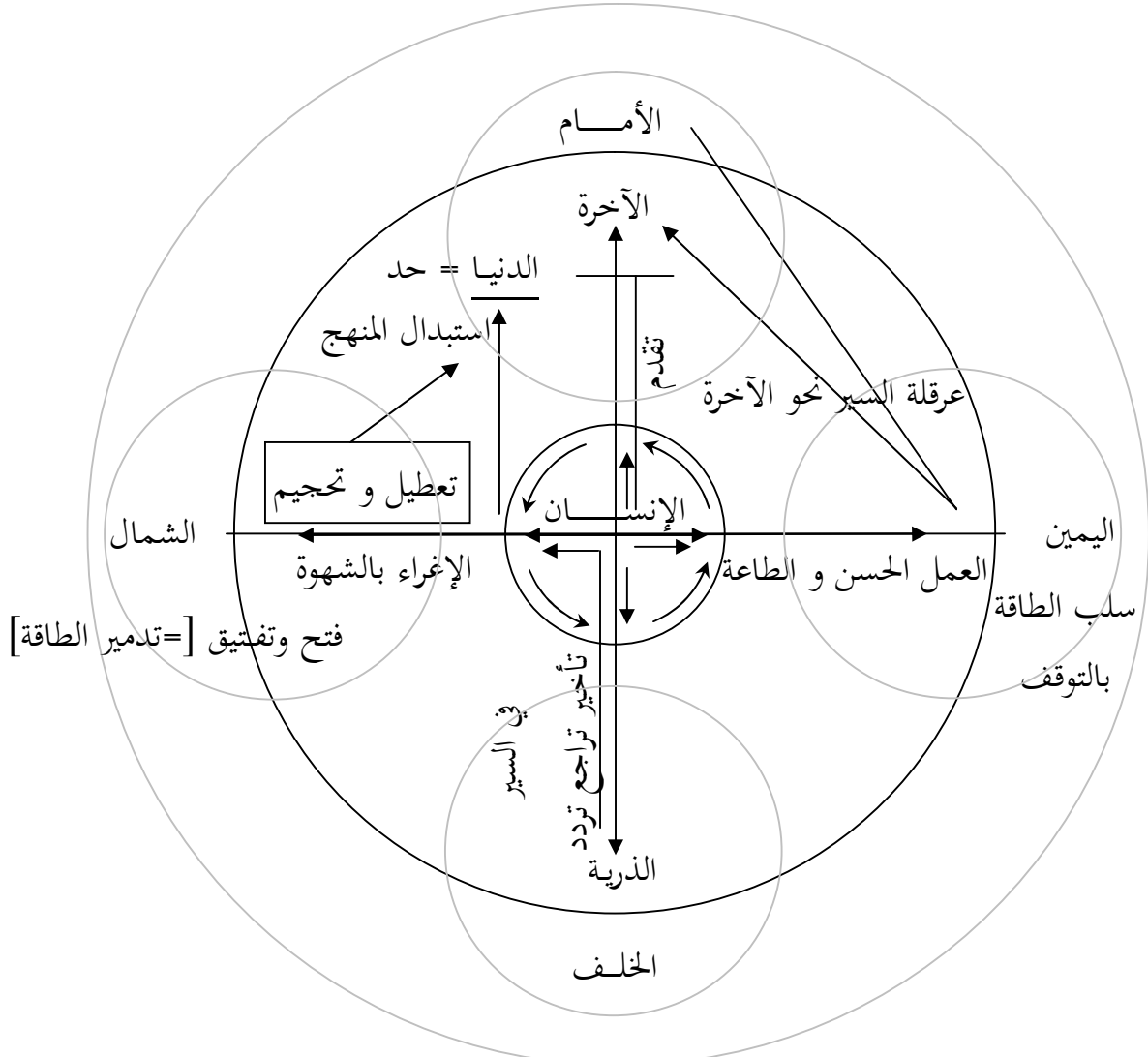
² - فضل الرحمان مالك : المسائل الكبرى في القرآن الكريم، ص 253، 254.

³ - سورة الأعراف، الآية 17.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 382.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

يقتحم غفلة



يستلب غرته = العقل الساذج

- مخطط يمثل أسلوب الالتفاف الشيطان على الإنسان وإعاقته لطريق الحق والكمال -

يقول "الإمام الشعراوي": "فالشيء الذي أمام العالم كله ونسير إليه جميعا هو "الدار الآخرة"، وحين يأتي الشيطان من الأمام فهو يشككهم في حكاية الآخرة، ويشككهم في البعث، ويحاول أن يجعل الإنسان غير مقبل على منهج الله... والشيطان يأتي -أيضا- من الخلف، وخلف كل واحد منا ذريته، يخاف ضيعتهم، فيوسوس الشيطان للبعض بالسرقه أو النهب أو الرشوة من أجل بقاء مستقبل الأبناء..، ويأتي الشيطان من اليمن ليزهد الناس، ويصرفهم عن العمل الحسن والطاعة، واليمين رمز العمل الحسن..، ويأتي الشيطان عن شمائلهم، ليغريهم بشهوات المعصية"¹.

¹ - محمد متولي الشعراوي : موسوعة الأحاديث القدسية، ج02، ص 13، 14.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

وقريبا من هذا المعنى ما أورده "ابن أبي الحديد"، موضحا أن الشيطان يأتي الناس "من بين أيديهم: يطعمهم في العفو ويغريهم بالعصيان، ومن خلفهم: يذكرهم مخلفيهم، ويحسن لهم جمع المال وتركه لهم، وعن إيمانهم: يجب إليهم الرياسة والثناء، وعن شمائلهم: يجب إليهم اللهو واللذات"¹، وواضح من التأويلين هذه الهندسة ذات الأسلوب الالتفافي، ومخاطرها في صد الإنسان عن الحق وسبله، فهذا الأسلوب يهدف به الشيطان أن يقتحم غفلته، ويستلب غرته، ليكون إجهازه عليه كليا، بحيث يحوله ويصده عن الحق، وبمقابل هذا يصبح الإنسان في حالة من الدوران حول ذاته، وقد ذكر النبي ﷺ وحذر من مداخل الشيطان، فقال: "إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا...، ولكنه رضي منكم مصغرات الأعمال"²، وصغار الذنوب، حصيات يجمعها ويدفع إليها لبني بها جبلا شامخا، يكون كافيا لصد الإنسان عن الحق، وإدخاله في غفلة وسذاجة عقل توقعه في الفساد، وتضعف إدراكه عن إبصار الحقائق، وهذا الإتيان ينبغي أن يقاومه الإنسان، مقاومة تبعده عن الانحراف. طرح الإمام الشعراوي سؤالا معللا فيه قضية الجهات، لم تم استثناء جهة الفوق والتحت، فقال: "لأن الفوقية هي الجهة التي يلجأ إليها مستغيثا ومستنجيا بربه، والتحتية هي جهة العبودية الخاصة...، فهو في هاتين الحالتين محفوظ من تسلط الشيطان عليه"³، إشارة إلى التوجه لله.

6- تشكيل الأدعياء؛ اللبوس الخطر: إن عمل الشيطان يتحرك نحو التقليل من العباد السائرين على منهج الله، بمعنى أنه يحاول أن يقوي حزبه وأدعيائه من أهل النفاق وغيرهم، وتكشف لنا خطبة "القاصعة"^{*} عن هذا العمل والأساسات التي يقوم بها لتنهض بها دعوته. إن ما يجمع بين هذه الأفكار جميعها فكرة الكبر التي بسببها طرد إبليس وستكون هي عامل هلكة أتباعه، يقول الإمام مبرزا فكرة الأدعياء الذين يكونون من حزبه الذي به يعمل ويشكله لصرف الناس عن الحق: "فاحذروا عباد الله - عدو الله أن يعديكم بدائه، وأن يستفزكم بندائه، وأن يجلب عليكم بخيله ورجله، فلعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد، وأغرق إليكم بالنزع الشديد، وركبكم من مكان قريب،

¹ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 8، ج 16، ص 103.

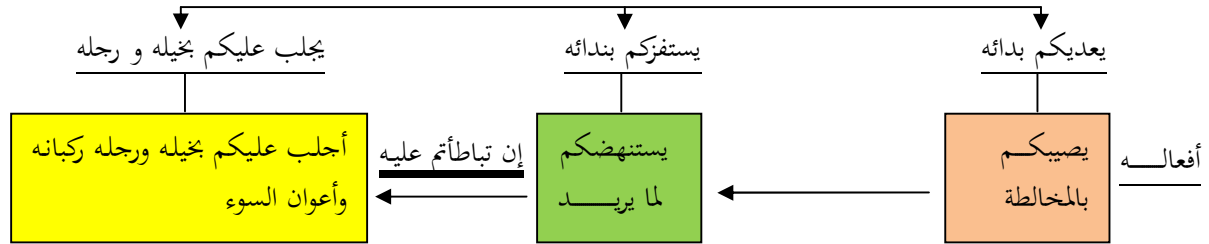
² - ابن نصر الكسي أبو محمد عبد الحميد: المنتخب من مسند حميد بن حميد، تح صبحي البدري السامرائي، ومحمود محمد خليل الصعدي، مكتبة السنة، ج 01، 1980، ص 270.

³ - محمد متولي الشعراوي : موسوعة الأحاديث القدسية، ج 02، ص 14.

^{*} - ينظر نهج البلاغة، خطبة القاصعة (ص 269-283)، لمتابعة هذه الأفكار والقضايا وقيمتها، وأهمها الحديث عن قصة الخلق ورفض إبليس السجود لأدم، والحمية والفخر والعصية ودعوى الجاهلية والاستكبار ومنازعة الله رداء الجبرية والكبرياء والعزة، والتحذير من إبليس والانقياد له، وفكرة الأدعياء، والتنبه إلى مصائد الشيطان، والدعوة إلى الاعتبار بالأأمم السابقة، مؤكدا على أهمية إتباع النبي ﷺ لمقاومة ومواجهة هذا الخطر.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

وقال: (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) [الحجر : 39]، قذفاً بغيب بعيد، ورجماً بظن غير مصيب. صدقة به أبناء الحمية، وإخوان العصبية، وفرسان الكبر والجاهلية، حتى إذا انقادت له الجاحمة منكم، واستحكمت الطماعية منه فيكم، فنجمت الحال من السر الخفي إلى الأمر الجلي، استفحل سلطانه عليكم، ودلف بجنوده نحوكم فأقحموكم ولجات الذل...¹ لقد عطف الإمام بهذا التحذير بعد بيان حقيقة إبليس، حيث بين عمله الذي يتوضح من خلال بعض الإشارات ويؤولها الشيخ محمد عبده بقوله: "أن يصيبكم بشيء من دائه بالمخالطة..، ويستنهضكم لما يريد، فإن تباطأتم عليه أجلب عليكم بخيله"². نكشف عن طبيعة هذا العمل بهذا المخطط:



إن ما يمكن أن نلاحظه هنا هو تدرجه في الغواية، وفق معادلة منهجية في العمل:

= من العدوى: إلى الاستفزاز بعد التباطؤ إلى الجلب.

يوضح هذا التدرج، قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِرْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾³، فهذا الاستفزاز والجلب والمشاركة في الأموال والأولاد، يعد محاولة لإيقاع الإنسان في الانحراف، ولكن الملفت أن التدرج في غوايته، من العدوى إلى الاستفزاز إلى الجلب يتم وفق أسس، حتى الاستحكام النهائي: أس الإنسان: يتعلق به، حيث يجعل نفسه عرضة لعدواه بمخالطة أفعاله وصفاته.

أس الشيطان: يتعلق به، حيث يقدم على هذه الخطوة المهمة فيستنهض العباد لمراده، ولكنها تبقى خطوة غير كافية، فقد يبدي المرء مقاومة فيتباطأ الإنسان عن النهوض لفكرته.

أس جلب الجنود: يجلب على الإنسان بجنوده وأعوانه [= أعوان السوء]، وهذه المصيدة يصطاد بها أبناء الحمية وإخوان العصبية، وفرسان الكبر والجاهلية.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 270، 271.

² - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 270.

³ - سورة الإسراء، الآية 64.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

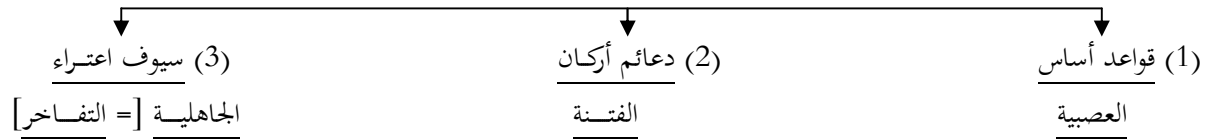
أس الاستعانة: وهنا يدلّف إلى الاستعانة ببعض من جنده، على من لم يطعه، وهي مرحلة تأسيس وعمل، وفكرة هذا الأس أنه "استعان ببعضكم على من لم يطعه منكم"¹، فمن نتائجه المترتبة:

مترتبات : فقد نجحت في الحال :

1	تبدأ بـ	الوسوسة في الصدور.
2	تحول إلى	الهمس في القول.
3	تصل إلى	ظهرت: إلى المجاهرة بالنداء ورفع الأيدي بالسلاح... ²

انجلاء الأمر = فنجمت الحال من السر الخفي إلى الأمر الجلي ..

7- الهيمنة وتشكيل الحزب: يقول الإمام: "استفحل سلطانه عليكم ودلف بجنوده نحوكم فأقحموكم ولجات الذل وأحلوكم ورطات القتل .."³، وهنا تم إحكام دائرته والتفافه على الناس. ويأتي تحذير الإمام متابعة في توصيف خطر الشيطان، كأحد المعيقات التي تعترض طريق الإنسان أمام الحق الذي يسعى إلى ولوج بابه: "ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم الذين تكبروا عن حسبهم وترفعوا فوق نسبهم، وألقوا المهجينة على رهبهم، وجاحدوا الله على ما صنع بهم مكابرة لفضائه، ومغالبة لآلائه، فإنهم قواعد أساس العصبية، ودعائم أركان الفتنة، وسيوف اعتراء الجاهلية"⁴، فالتحذير واضح هنا من طاعة السادات والكبراء، المتصفين بصفة التكبر والترفع، واحتقار الناس وتقبيح خلق الله، ومكابرتهم، وحاصل هذا الإتياع يكمن في أنهم:



إن عمل هؤلاء السادة، عمل يتشاكل في الصورة و المنهج مع صور عمل الشيطان ومنهجه في الإفساد والإضلال، وهذا ما تبرزه الآية الكريمة من قوله تعالى مخبراً عن هذا الإتياع وآثاره: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾⁵، وهذا الخسار إنما هو نتيجة حتمية لإتياع هؤلاء السادة وما يزرعون من عصبية وفتنة وتفاخر، "فاستحسان المرء لأعماله هو أصل ضلاله، وتزيين الشيطان لتلك

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 270.

² - ينظر محمد عبده، ص 270، 271.

³ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 271.

⁴ - المصدر نفسه، ص 272.

⁵ - سورة الأحزاب، الآية 67.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

الأعمال هو أحد أسلحة الشيطان"¹، حيث يترتب عن هذا الوضع تشكيل الأعداء، ويواصل الإمام حديثه وتأويله لآيات اشتغال إبليس في إضلال العباد، حيث يقول: "فاتقوا الله ولا تكونوا لنعمه عليكم أصدادا، ولا لفضله عندكم حسادا، ولا تطيعوا الأعداء الذين شربتم بصوفكم كدرهم، وخلطتم بصحتكم مرضهم، وأدخلتم في حقكم باطلهم، وهم أساس الفسوق وأحلاس العقوق، اتخذهم إبليس مطايا ضلال وجندا بهم يصول على الناس، وتراجمة ينطق على ألسنتهم، استراقا لعقولكم ودخولا في عيونكم، ونفثا في أسماعكم، فجعلكم مرمى نبله، وموطئ قدمه، ومأخذ يده"². إن الأمر ينقاد ويسلس بشكل آلي وطبيعي لإبليس، ولأدعيائه وجنوده الذين بهم يعمل ويضل ويفسد. وقد كانت الدعوة إلى التقوى منهجا قويمًا، لإبطال هذا الكيد والترص بالناس، حيث يريد إلحاق الناس بعضهم ببعض كفرا وبغيا وكبرا، "لأن البغي والكبر يقتضيان زوال النعمة وتبديلها بالنعمة"³، وهذا ما يحرص عليه إبليس في سعيه الدائم الحثيث، وقد انصب التحذير على نقاط ارتكاز يكون بها الفلاح، وأن إهمالها يدخل الإنسان في حزب الشيطان وحلفه:

(1) ولا تكونوا لنعمه أصدادا
(2) ولا لفضله عليكم حسادا
(3) ولا تطيعوا الأعداء

وعليه فإن كفر النعم، وعدم التزام التقوى، يقود إلى طاعة الأعداء، فمن هم هؤلاء؟!..

يقدم لنا الإمام أوصافهم، وعلامات تعريفهم، وكذلك فعلهم و عملهم في الناس، فهم:

(1) شربتم بصفوكم كدرهم
(2) خلطتم بصحتكم مرضهم
(3) أدخلتم في حقكم باطلهم

يقول ابن أبي الحديد: "ومراد هاهنا بالأعداء الذين ينتحلون الإسلام ويبطنون النفاق"⁴. فواضح جلي أمارات التناقض في السلوك والمعتقد والفكر، وهم بقول محمد عبده: "الأخساء المنتسبون إلى الأشراف والأشرار المنتسبون إلى الأخيار.. (ومن) خلطوا صافي إخلاصكم بكدر نفاقهم وبسلامة أخلاقكم مرض أخلاقهم"⁵. إن هذا التداخل المزاجي الفاسد يعدي ويلوث ويجعل

¹ - ابن باديس : تفسير ابن باديس، ص 275.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 272، 273.

³ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 7، ج 13، ص 90.

⁴ - المصدر نفسه، مج 7، ج 13، ص 90

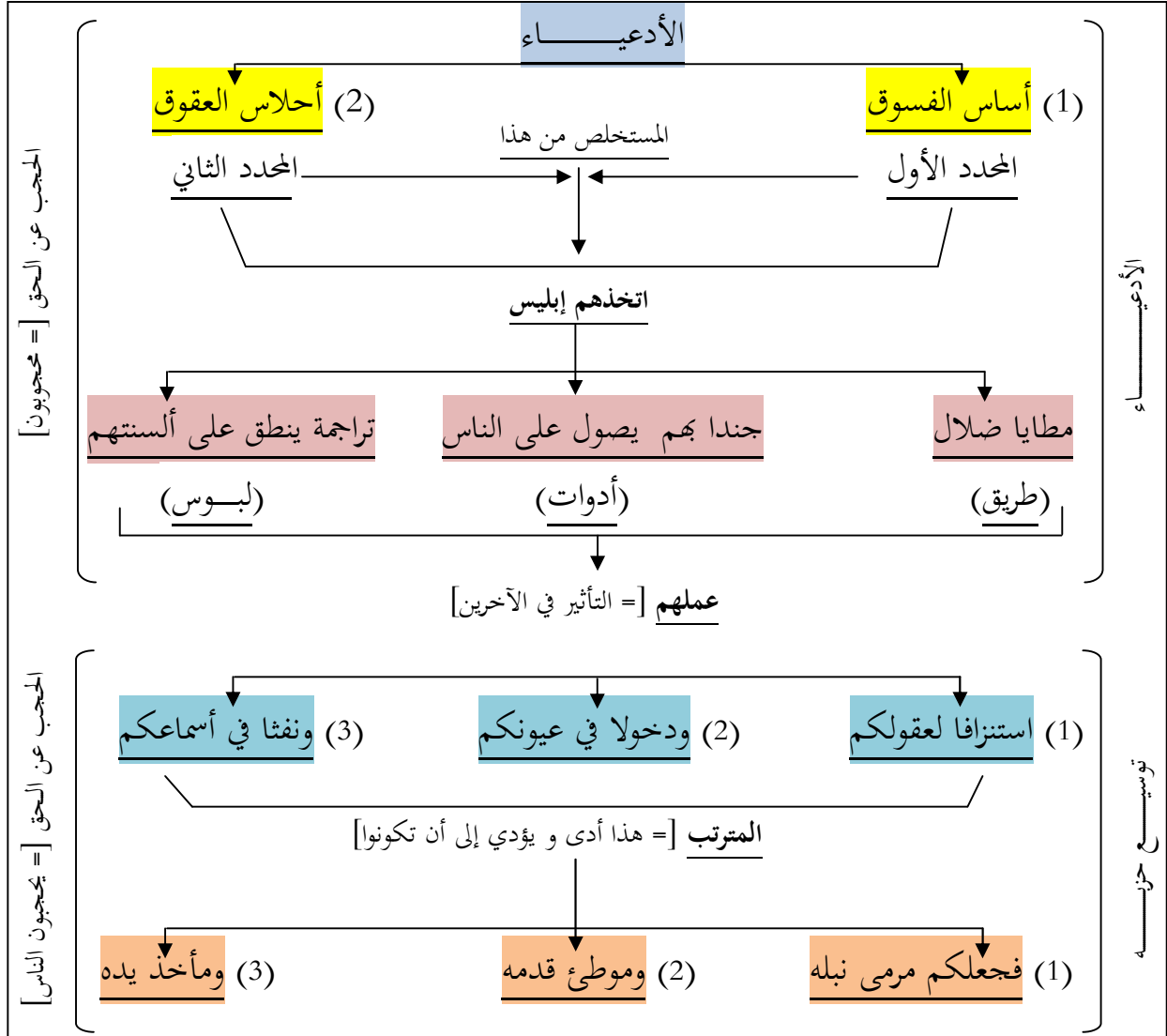
⁵ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 272.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

الصحيح سقيما والمستقيم أعوجا، وهذا أصعب ما يواجهه شخص ما في علاقاته بهؤلاء، مما يجعله عرضة لتلوث وإفساد خطير، نجدها بصريح منطوق القرآن ذات وجهين :

الوجه الأول: أن الشيطان لا يجبر أحدا، سوى استقطاب الضحية المحتملة وغوايتها.

الوجه الثاني: تؤدي خطواته إلى تدمير ذاتي للضحية¹، ليصبح إتباعه حالة انتماء طوعي:



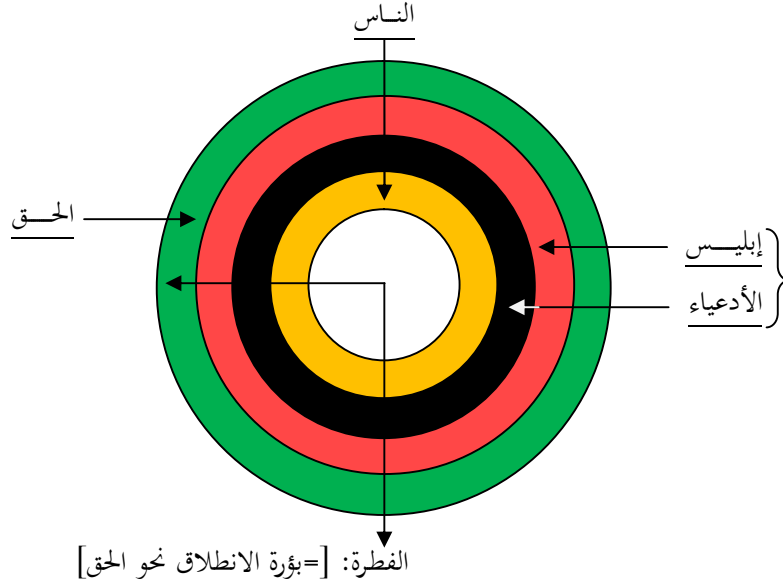
- ترسيمة مبينة لكيفية تشكيل الشيطان لحزبه وأدعيائه -

نلاحظ هذا العمل المحكم من الإيقاع والوسوسة الذي تتحدد نتائجه انطلاقا من الطاعة العمياء للناس للأدعياء، ثم تحولهم إلى أدوات لإبليس يعمل بها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيْقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّن

¹ - فضل الرحمان مالك : المسائل الكبرى في القرآن، ص 251.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ¹. إن هذا التصديق غلبة، فإبليس مسلط على أتباعه من الجن والإنس، وليس به من الإضلال شيء²، فكان هذا الانسياق دخولا في شركه، وإن هذا الخطر المتعظم يتحدد في نقطة مركزية، وقوف هؤلاء الأعداء مع الشيطان حائلا بين الناس والحق، نوضحه بالدائرة الآتية:



- دوائر متداخلة كاشفة لانغلاق الفضاء أمام الناس في سعيهم نحو الحق -

إذن كيف يمكن الخروج من هذه الحوائل المعيقة، حتى يتمكن الإنسان من أن يصل إلى الحق؟! إن الأمر يتطلب عملا كبيرا وجهدا متواصلا للخروج من حبال الشيطان، "ومن ثم فقد كان على الإنسان أن يعرف حقيقة الخير، ليعمله على علم وبصيرة"³. إن العمل المؤسس على العلم والبصيرة، هو ما يرفع من قيمة وكرامة الإنسان ويعلي من قدره، وما معرفة الخير، إلا مقدمة لمعرفة الشر وسبله، وإن الفعل الإنساني ما هو إلا اهتداء وبينه وترجمة واعية لفكرة الخير.

8- أهل النفاق، لمة الشيطان وحة النيران: ذكر الإمام في خطبة له يصف فيها المنافقين⁴، وأحوالهم، حيث عدد ما يزيد عن الثلاثين وصفا سيئا لهم، وبعد هذا التجميع الذي هو دلالة على انحراف وشقاء عد هؤلاء الخاسرين، أنهم: "لمة الشيطان وحة النيران، "أولئك حزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ"⁵ [المجادلة: 19]، فهذا التناقض السلوكي جعلهم من جماعة الشيطان وحزبه، وبهذا التعداد من الأوصاف يصبحون عمالا في حقل الفساد، وأدواتا تعيق طريق الناس نحو

¹ - سورة سبأ، الآية : 20 - 21.

² - القشيري : لطائف الإشارات، ص 181، 182.

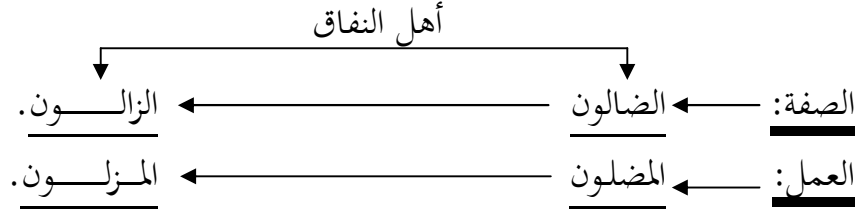
³ - العقاد عباس محمود: إبليس، دار تحضة مصر، القاهرة، 2005، ط3، ص 04.

⁴ - ينظر نصح البلاغة، الخطبة رقم 194 في وصف المنافقين، ص 287، 288.

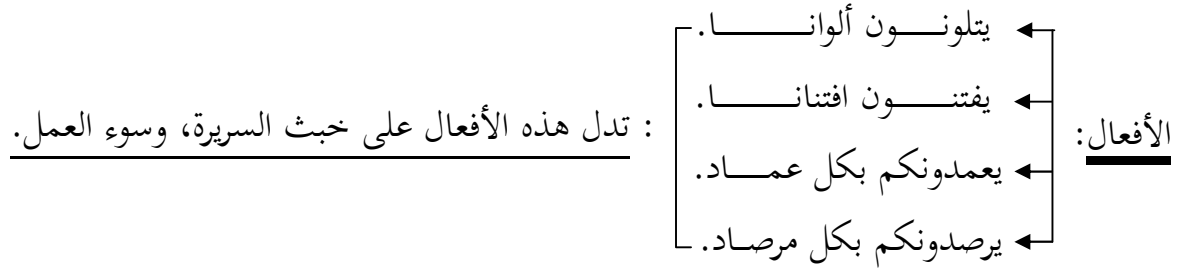
⁵ - علي بن أبي طالب: نصح البلاغة، ص 288.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

الحق وبلوغ الكمال، إنهم أدعياء بالوصف والسلوك والعمل، وعليه فإن من معيقات الكمال أهل النفاق، يقول الإمام: "أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحذركم أهل النفاق، فإنهم الضالون المضلون، والزالون المزلون"¹، وتأويل لحالهم، فقد استحكمت فيهم تلك الصفات السيئة وصارت لبنة في بنائهم النفسي وسلوكها في الحياة، وعملاً يوقفون عليه وقتهم وطاقاتهم في الإفساد وإعاقة غيرهم:



وهم بهذا قد وقعوا في الضلال، ويترتب عن هذا أنهم صاروا مضلين للناس يوقعونهم في الخطأ، وعليه فقد كانت أفعالهم كما بين الإمام في خطبته أنهم:



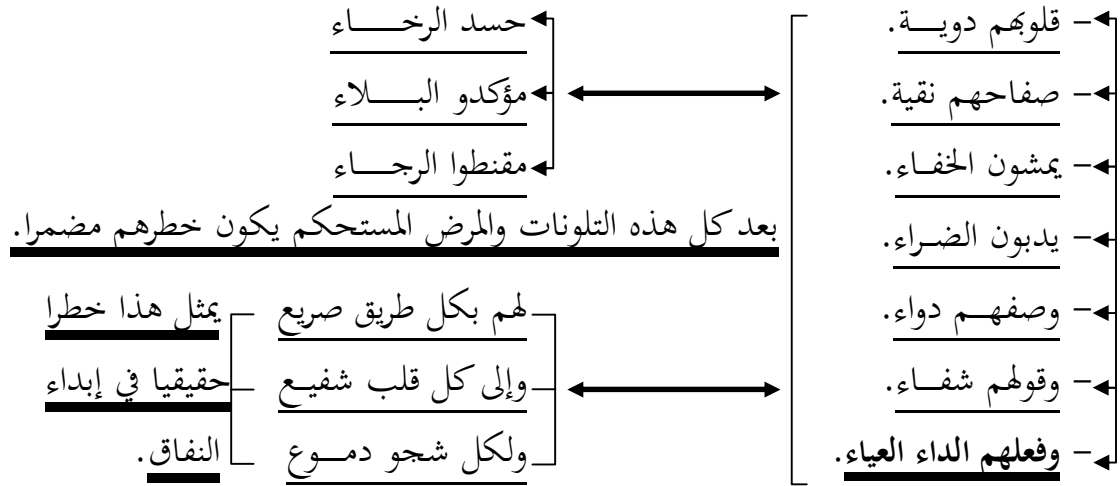
ما الذي يمكن ملاحظته هنا؟ وما الذي يمكن أن نستقرئه من نبا أفعال هؤلاء المنافقين؟! .. إن هذه الطبيعة في سلوك المنافقين وأعمالهم تجعلهم في حالة من التماثل مع طبيعة عمل إبليس وحركته في الإغواء والوسوسة، فالصد والتعميد سلوك شيطاني، "فإذا ملتم عن أهوائهم أقاموكم عليها بأعمدة من الخديعة حتى توافقوهم..، ويقعدون لكم بكل طريق ليحولوكم عن الاستقامة"²، فهذا النصب والقعود يتشاكل مع أسلوب الشيطان في رصده لبني آدم. وتظهر الحزمة الآتية من الأوصاف مخاطر سلوكية أخرى، دالة على الشقاء المبرم، والانحراف المدمر لكل إمكان إنساني وحياتي ومعيق كمالي، فهم بتوصيف الإمام لأحوالهم³:

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 287.

² - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 287.

³ - ينظر نهج البلاغة، ص 287.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي



إنهم وبعد هذا المعامل السالب الذي يتكون في ذواتهم، تأتي دورة العمل في الإفساد والإضلال بعد الإقامة في أبواب الرصد، "فقد أعدوا لكل حق باطلا ولكل قائم مائلا، ولكل حي قاتلا، ولكل باب مفتاحا، ولكل ليل مصباحا"¹. إن هذا النهج المتخذ منهم طريقا وعملا وغنما، هو تجسيد لخط يعيق حركة الناس جميعا نحو الترقى والكمال والكرامة والحرية التي بها يبنى الإنسان حياته على هدى من أمره، وبهذا يتحقق مقصدهم، حيث: "يتوصلون إلى الطمع باليأس، ليقيموا أسواقهم وينفقوا به أعلاقهم، يقولون فيشيهون، ويصفون فيموهون، قد هونوا الطريق، وأضلعوا المضيق"²، إسلاسا لأهدافهم كي تتحقق، حتى وإن كان الناس المنخدعين بهم هم وقود معركتهم وأدوات طريقهم، "فإذا اسلكوه إنسانا إعوج لاعوجاجه"³، وهذا هو الأسلوب المحترف في التضليل، فالفعلان: "هونوا وأضلعوا" ينبئان عن نفاق ومكر، فأن تهون طريقا، ثم تضلع مضايقه، فهذا قمة الكيد والاحتراف، أسلوب يقارب أساليب الشيطان واحتياله، لهذا وصفهم الإمام بقوله: "فهم لمة الشيطان، وحمة النيران"⁴. إذن فأهل النفاق هم حزب الشيطان، ومن هنا نستخلص:

- 1- أن أهل النفاق هم حركة تنهج طريقا مغايرا لكل سبل الحق، وطريق الإنسان وحركة التاريخ.
- 2- يتركز عمل أهل النفاق في نقاط مهمة وبالضبط في مساحة الداخل الإنساني [= النفسي]، قصد زرع السموم، حتى ترتكس عن طلب الكمال.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 288.

² - المصدر نفسه، ص 288.

³ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 5، ج 10، ص 99.

⁴ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 288.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

إن هذا التركيز على النفس هدفه إضعافها، وينتج عن هذه الخطوة انقياد العقل لأساليب النفس الخبيثة الأمامية، حيث يوهم ويخدع بكل الصور، يصبح بعدها الجسد تابعا منفذا لأوامر النفس، وبذلك تكون الهلكة الحتمية بعد أن أضلح أهل النفاق الطريق أمام الناس.

III- الآثار المدمرة للكمالات: نجل أهم هذه الآثار الخطيرة في:

أ- طاعة الشيطان وسلوك مسالكه: يقول الإمام: "أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه ووردوا مناهله بهم سارت أعلامه وقام لواءه في فتن داستهم باخفافها ووطئتهم بأظلافها وقامت على سناكبها، فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون في خير دار، وشر جيران، نومهم سهود، وكحلهم دموع، بأرض عالمها ملجم، وجاهلها مكرّم"¹، والمنطلق في هذا طاعة الشيطان وسلوك مسالكه، وورود مناهله، وأما المترتب عن هذا أنهم صاروا من هذا الإتياع أديعاء حاملين أعلامه ولوائه، مفتونين به تائهين خائفين. إن السقوط في الفتنة كان مرادفا لطاعة الشيطان وتوليه، حيث تولد عن هذا التيه والحيرة والجهل والفتنة، وهذه العناصر الأربعة المفترزة هنا تمنحنا خطوط هذا الشقاء، وتأثيره السالب في الوضع الصحي النفسي والفكري للإنسان والمجتمع، وبعملية تأويلية:

- 1- يمثل التيه والحيرة حالة اضطراب وإعاقة مبدئية.
- 2- يعني الجهل انعدام سبل المعرفة والعلم التي تدفع الإنسان إلى الاهتداء.
- 3- تقود الفتنة إلى الوقوع في حبال الشيطان، لا يمكن مبارحة ما يعرضه عليهم من فتن، هي قطعا متوالية* تنتهي بالإنسان إلى الأسر في شرك الشيطان.

ونلاحظ من خلال هذا البيان كيف تقتل القوى المحركة للإنسان، فينحرف عن مقاصده، "فهذا الشيطان الذي يجري من الإنسان مجري الدم يستطيع أن يقذف في قلبه وفكره أشياء كثيرة"²، فإذا كان الكمال مرتبة تشريف إنسانية وكرامة إلهية وخصيصة ربانية، يأتي بها اللطف الإلهي والمجاهدة والتدريب والتزكية الدائمة، فإن معيقات الكمال هي تلك الموانع الحائلة دون هذه الغاية المثلى. إن المعيقات كما هي محاولة للتعثّر، هي محاولة للارتقاء، ومن ثم تصبح ذات حدين، حدا

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 27.

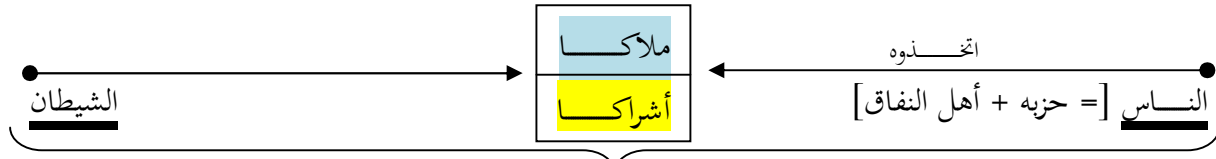
* - يجلي هذا حديث النبي ﷺ أن الفتن تعرض على الإنسان قطعة قطعة، كقطع الحصير، حتى يوقعه في شركه، مما يستلزم منهجيا مقاومة عالية واستقامة دائمة وترقيا روحيا في هذا المسار الطويل من الابتلاء الممتد بامتداد العمر والزمن، والقائم في كل الأنفاس المتجددة في الحياة، وعليه فإن سلوك طريق الكمال بوعي وعلم ومعرفة هو الضرورة السننية التي تثبت بأكثر من طريق، يقول النبي ﷺ: "بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، أو يمسي مؤمنا و يصبح كافرا، يبيع دينه بعرض الدنيا"، صحيح مسلم، ج1، ص 110.

² - فتح الله كولن : النور الخالد، ص 127.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

ينهي القدرات ويقود إلى التسافل، والآخر يكون نقطة بدء في مسار يتجه نحو الكمال بمغالبة ذكية لهذا المانع. إذن فالشيطان وجد لإذكاء الصراع، ويتعين أن تشحذ الهمم في مقاومته، وتوظيف كل الطاقات والقوى الحية¹، لمواجهة أساليبه الماكرة.

ب- تطابق عمله وعملهم: يبرز هذا التماثل قول الإمام: "اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكا، واتخذهم له أشراكا، فباض وفرخ في صدورهم ودب ودرج في حجورهم، فنظر بأعينهم، ونطق بألسنتهم، فركبهم الزلل، وزين لهم الخطل. فعل من قد شركه الشيطان في سلطانه، ونطق بالباطل على لسانه"²، ويجسد هذا التطابق تعاضد فكرة مع أخرى، سندا وقوة، نوضحه بالرسم الآتي:



- تطابق واندماج فكرة الشيطان والناس في تشكيل حزبه -

وعليه نؤكد على أن فعل الشيطان ودوره ينتج عن تكامل عمل شياطين الجن والإنس معا، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾³، ففي عملية الوحي المتبادلة يتم هذا التلقي لزخرف القول، مزينا بالغرور، ويشكل الفعل "اتخذ" مادة ملهمة في هذا الاتحاد والتوافق المبدئي في نشأة هذا الحلف والحزب والتكامل في الدور، وقد عبر الإمام عن هذا التأثير بأوصاف دالة مجلية لهذا التطابق النوعي:

الصورة	الأثر الحادث	الناس	الشيطان
تمائل الإيحاء	1- ركبهم الزلل [= الغلط]....	- باض وفرخ في صدورهم. - دب ودرج في حجورهم.	الفعل [= اتخذ] ← [= الناس]
تمائل الإيحاء	2- زين لهم الخطل [= أقبح الخطل]	- فنظر بأعينهم. - نطق بألسنتهم.	الفاعل (صاحب التأثير) ← [= الشيطان]

إن آية التأثير والمطابقة يبرزها الدال: "أنهم آلة الشيطان في الضلال"⁴، وهذه حتمية مشاركة طرفين، "لأن الطائر لا يبيض إلا في عشه"⁵، كذا أمر الشيطان مع الناس يتربى في حجورهم، وفيها

¹ - ينظر عماد الدين خليل: في النقد الإسلامي المعاصر، دار ابن كثير، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2007، ط1، ص 87.

² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 37.

³ - سورة الأنعام، الآية 112.

⁴ - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 37.

⁵ - المصدر نفسه، ص 37.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

"بلغ فتوته وملك قوته"¹، ومن ثم فإن هذا التعاون والتشارك هو صفقة خاسرة اتخذها الناس مع الشيطان، بل وجعل هؤلاء الأعداء هم الحوائل والمعيقات ذاتها التي تقف بين الإنسان وبلوغ الحق، وإن هذا التماثل في الأداء والفعل والأهداف يجمعه سرور الدنيا والعزة بالإثم، ويتفرق يوم القيامة فيصبح كفرا وبراءة، وتحللا وفككا من ضريبة قاسية، هي الحزن والحسرة والبكاء، تنتهي بالخسران.

ج- الإعجاب بالنفس: إن الإعجاب بالنفس يعد تمكيننا آليا للشيطان من النفس، بحيث يصبح الأمر أكثر اسلاسا لينفذ إلى الذات، يقول الإمام: "وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها، وحب الإطراء، فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين"²، فعمل فكرة الإعجاب في النفس يعد المدخل الذي يؤدي إلى انهيار المقومات الدفاعية والإبداعية في النفس الإنسانية، ومحصلة ذلك يكون انحرافا وشقاء ثابتا، وعليه تصبح العناصر المقحمة على الذات الحقة [= الصافية]، أدوات تدمير للقوى والطاقات، ويشكل هذا إيهاما للنفس بهذا البلوغ الواهي الذي سينهار أمام كل إغراء وتزيين من الشيطان، كما أن حب الإطراء تزيين هو الآخر، ويمثل هذا اجتماعا لفكرتين وكتلتين متمثلتين تعملان على الإغراق والإحباط، لذا "فإن العجب في الإنسان من أشد الفرص لتمكين الشيطان من قصده، وهو محق الإحسان بما يتبعه من الغرور والتعالي بالفعل على من وصل إليه أثره"³، إحباطا لعملهم وخسارة إحسانهم، وعليه فإن "إرادة الشيطان هي إرادة تزيين لا إرادة قدرة على القهر أو الإقناع"⁴، وبهذا يكون الإعجاب وحب الإطراء انفتاحا يزين العمل للنفس، وهذا هو وجه التلاقي مع إرادة الشيطان.

ثانيا: إتياع الشهوات: إن الحديث عن الشهوة، هو حديث عن تلك النيران الحارقة المنزرعة في نفس الإنسان، حيث تجعل هذا القوام الإنساني الجميل حطاما في لحظة من الزمن، وعرضة لتآكل قوى الإنسان الحية وطاقاته المتفجرة، فالشهوة افتراس للطاقة البشرية، وتهدم لأركان ومقومات الإنسان، وطمس لمقوم الجمال والتكريم فيه، قال صاحب اللسان: "شهية الشيء وشهاه يشهاه شهوة واشتهاه: أحبه ورغب فيه"⁵. وبهذا ينعقد فعل الاشتها على الميل المصحوب بالحب والرغبة

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 37.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 409.

³ - محمد عبده : المصدر السابق، ص 409.

⁴ - محمد متولي الشعراوي : موسوعة الأحاديث القدسية، ج 01، ص 231.

⁵ - ابن منظور : لسان العرب، مج 5، ص 222.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

في تحقيقه، وهذا مرتبط بهذا الانعقاد، وهي عند صاحب التعريفات "حركة للنفس طلبا للملائم"¹، بحيث تطلب مناسباً لها مع ما يحقق فعل الرغبة والابتغاء، وتسعى إلى تحقيق توافق ضامن لما تحبه النفس وتشتهيه، وهي بهذا تعبر عن أصل، أي "نزوع النفس إلى ما تريده، وذلك في الدنيا ضربان، صادقة وكاذبة: فالصادقة ما يختل البدن من دونه كشهوة الطعام عند الجوع، والكاذبة ما لا يختل من دونه. وقد يسمى المشتهي شهوة وقد يقال للقوة التي تشتهي الشيء شهوة، ومنه قوله تعالى: "زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ" [آل عمران 14]، يحتمل الشهوتين، وقوله "وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ" [مريم 59]، فهذا من الشهوات الكاذبة، والمشتهيات المستغنى عنها"²، وملائم النفس الذي تبحث عنه تجده فيما يحقق لها متعة مادية أو معنوية، ومن ذلك التزيين الدافع إلى تحصيل هذه الرغبة، والشهوات المزيّنة هي أشكال عددها الآية، قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾³، وهذا الحب المزين المشتهي يحمل الداليتين ويبقى معيار الإيمان هو الضابط الوحيد للشهوة التي ركبت في الإنسان، "لأن هذه الغرائز لا بد منها لقيام الحياة (...). والمهم ألا تتجاوز طور الاعتدال، وألا تضل سواء السبيل"⁴، وبهذا تصبح الشهوات المطلوبة من المستغنى عنه، والمشتهي الكاذب، حتمية هلاك الإنسان، ومنال الحركة اليائسة المنحرفة.

1- العمل بالشهوة : تأتي الشهوات بتأثيراتها وقوة كثافة حضورها على صفحة النفس لتعيق الإنسان عن رسم معلم صحيح في حياته، لأنها بفتنتها وسطوتها تصبح قوة مزاحمة لأي إرادة أخرى، تدخل الإنسان في دائرة مغلقة من التيه والاضطراب والاهتزاز، حتى تفقده توازنه، وتغرقه في بحر من اللذة لا يعمل فيها = معها بعقل، ولا يهتدي فيها لا بآية ولا دليل، يقول الإمام: "يعملون في الشبهات، ويسيروا في الشهوات، المعروف عندهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا مفزعهم في العضلات إلى أنفسهم وتعويلهم في المهمات على آرائهم كأن كل امرئ منهم إمام نفسه قد أخذ منها فيما يرى بعري ثقات وأسباب محكمات"⁵، ومع هذا الكلام النفيس وبالتأول نسأل: هل هناك علاقة قائمة بين الشبهة والشهوة؟! إن ما يمكن كشفه بالرصد الذي نسقطه على باقي القول،

¹ - الشريف الجرجاني : التعريفات، ص 111.

² - الأصفهاني الراغب : المفردات في غريب القرآن، تح : صفوان عدنان الداودي، دار العلم، دمشق، ج 1، ص 469.

³ - سورة آل عمران، الآية 14.

⁴ - محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، ص 33.

⁵ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 119.

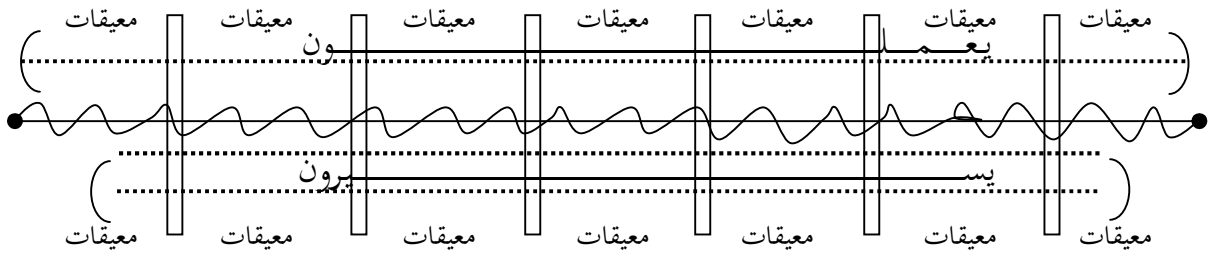
الفصل الثاني : الإنسان الشقي

فإن الأمر الجلي يؤكد هذا التداخل والترتب المبني أوله على ثانيه، ويتضح الآن أن الفعل الإنساني غير المنهجي مفلس من أساسه، وهذا عندما يصبح الناس :

- يعملون في الشبهات؛ وبيانه حديث: "الحلال بين والحرام بين، وبينهما مشتبهاً" ¹.

- يسيرون في الشهوات؛ وبيانه حديث: "حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات" ².

لا يوجد بين المشتبه والشهوة إلا فاصل الوقوع والحركة، وبين الفعل "يعملون" و"يسيرون" هناك حركة وتحرك في اتجاه واحد، يسير إليه الإنسان ويعمل له، هذا الأمر نوضحه بهذه الترسيم:



- رسم تخطيطي يبرز حركة الإنسان الشقي المكبل بمعيق الشهوات والشبهات -

إن العمل في الشبهات والسير في الشهوات يتم وفق كيفية واضحة، وهذه حقيقة تحددنا

جملة الدوال المعرفية الآتية:

الموقف التأويلي	الدلالة و المعنى	الجملة الواصفة لتداخل الدالين
إن الشبهة والشهوة توائم	← قلة المعرفة وضآلتها	المعروف عندهم ما عرفوا.
طريق الانحراف، علامة	← ضعف في التقدير	المنكر عندهم ما أنكروا.
شقاء، وأن الخيط الرفيع	← تمثل ارتداداً موضعياً	مفزعهم في العضلات إلى أنفسهم.
الفاصل بينهما لا يلغي	← نتيجة التحجر والانغلاق	تعويلهم في المهمات على آرائهم.
عملية التضافر القائمة	← بفعل تضخم الذات	كأن كل امرئ منهم إمام نفسه.
بينهما وقوعاً وحركة.	← دليل العمل بالشبهة والسير في الشهوة	قد أخذ منها فيما يرى يعرى ثقات وأسباب محكمات.

إن هذه الأوصاف التي تشكل المسلك العام للإنسان الشقي الذي استحكمت فيه الشهوات، وتحركت نفسه حتى أوقعته في الشبهات، ستعيق سيره الحقيقي نحو الحق، فهم بهذا الخلط الحاصل "يستحسنون ما بدا لهم استحبابه، ويستقبحون ما خطر لهم قبحه، بدون رجوع إلى دليل بين، أو شريعة واضحة، يثق كل منهم بخواطر نفسه، كأنه أخذ منها بالعروة الوثقى، على ما بها من

¹ - أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، ج 30، ص 324.

² - المصدر نفسه، ج 01، ص 228.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

جهل ونقص"¹، وهذا الاستحسان والاستقباح لا دليل فيه يستند إليه الإنسان في عمله وسيره،
يترجم لنا مجموعة من الحقائق الواضحة لطبيعة هذا الإنسان غير السوي:

- 1- افتقاد البوصلة في قيادة النفس، وفق سنن الحق.
- 2- الانغماس في أوحال الشهوات القاتلة لقوى الإنسان.
- 3- التخبط في هوامش الحق، ثم السقوط كلية في الباطل.
- 4- تضخم الذات المؤدي إلى الانسداد المعرفي وتعطيل القوى، لا يخرجها إلى أضواء الحق.
- 5- إن الشبهة والشهوة سياج يضع الإنسان في سجن نفسه والانغلاق عن الرؤية الآفاقية.

إن عالم الشهوات الذي يحف دنيا الإنسان ويعرضه لخطر تدمير طاقاته وقواه التي بها يحصل كمالته، تتنوع وتتلون صورته وأشكاله، وهي دافعة بالإنسان إلى الهلاك المحتم والشقاء المبرم، أبرزها طول الأمل وتغييب الأجل، لأن الانغماس في عالم الشهوات ينسي صاحبه أن يتفكر ويتدبر مصيره، وفي هذا يقول الإمام: "إنما هلك من كان قبلكم بطول أمانهم وتَغْيِيبِ آجالهم حتى نزل بهم الموعد الذي تُرَدُّ عنه التوبة، وتحل معه القارعة والنقمة"². إن طول الأمل و(تغييب) الأجل هو حصر وتضييق، وغلق لمنافذ التفكير، يؤدي إلى انحسار مجال العمل الصالح، وانطلاق الإرادة والفعل الإنساني في رحاب الحياة ليسجل حضوره الإنساني ويجسد وجوده الرمزي على أنه مخلوق مكرم، خلق ليعمل في الحياة وبينها، وليحقق مقاصد وجوده، من عبادة الله، وتعمير الأرض بالصالحات، بألية التعارف، لأنه خليفته في الأرض، وفي سبيل وحدة الأمة وخيريتها، وعليه فإن الأمل والأجل يفتحان باب الشهوات لضرب هذه المقاصد، وإعاقة طريق الكمال، وإن هذه النظرة القاصرة بهذا المعنى الذي قدمه الإمام تجعل منهما حدودا واهية مهلكة لها مترباتها في عقل هؤلاء الناس، تدخل الإنسان في الفساد، ومعها يتحول دوره إلى مقتنص لذة ومغتنم شهوة، وينتج عن هذا انغماس الإنسان في الشهوات، يمكننا تسجيل متعلقاته، ومتربات هذا التصور الخاطيء في:

- 1- إن طول الأمل يصبح الفعل الإنساني عبارة عن اقتناص للحظات.
- 2- يعد صاحب الشهوة فوت اللحظة التي تمر به، سرقة وضياعا باعتقاده.
- 3- إن الانكفاء على الذات والدوران في فلكها يدخلها في عالم الشهوات والأهواء والملذات.
- 4- إن طول الأمل الذي يحاصره الأجل، يقود إلى إنهاء كل إمكان إنساني يمكن من بلوغ الكمال.

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 119.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 197.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

إن هذا الأمل وطوله إنما يجد طريقه عندما تسكن في نفس الإنسان الأطماع، عندها يصعب تفادي هذا الخطر، ذلك "أن الدورة المتدرجة للانحلال والانحراف تقود الفاسق أكثر فأكثر بعيدا في تحديه للقانون الإلهي"¹، بحيث ينساق وراء شهواته وملذاته دون شبع، وإن هذا الخلل إنما نتج عن هذا التصور الخاطيء، لأن غياب الرؤية التي تفصل الخطيرين وعدم فهم حقيقة الأمل والأجل يفتح أمام النفس أبواب الشهوات، رغبة في تحصيلها والاستزادة منها، ظنا منها أنها منتهى الغاية من وجوده زيادة على ذلك تعلق الإنسان بالأطماع، يقول الإمام: "أزرى بنفسه من استشعر الطمع ورضي بالذل من كشف عن ضره وهانت عليه نفسه من أمر عليها لسانه"²، فاستشعار الطمع إزرء بالنفس، لأن الطمع قد "تبطنه وتخلق به"³، حتى ليصير خلقا متأصلا، يحركه في كل اتجاه تأثها عن كل رشد، ويزيد هذا الهوان الرضا بالذل، عندما يصبح طريقا يسلكه الناس، إذا "دعاهم للتهاون به"⁴، ومثل هذه النفس التي تبلدت تحت هذا الأسوار لا يمكنها أن تمتلك مفاتيح المقاومة وإمكان إقلاع الإنسان نحو الكمال، "فإذا أردت أن تتمتع أقصى تمتع سيطر أولا على رغبتك"⁵، وهذا هو التمتع الحقيقي الذي يخرج الإنسان من البهيمية بالسيطرة على رغباته الجامحة، بمعنى أن تكون المتعة واقعة تحت سلطان العقل وأنوار النفس السوية، وضوء الإيمان، مراقبة يحركها قانون الصلاح الذي يواجه تحرك الأهواء والغرائز، وهي الرغبات التي تطمس معالم الجسد وتجرح الروح الإنساني، وإن هذا القبح إنما يحصله نزوغ النفس نحو الفساد والشقاء.

إن مجرد استشعار الطمع إزرء مؤكدا في حق النفس، ويزيدها الذل إمعانا في المهانة. إن الطمع هذا الانفتاح القاتل على الدنيا، وعلى شهواتها دون حد، لا يمكن إلا أن يعد قييدا يكبل النفس، بل سيرهنها في مخاطر مدمرة، وتأتي آفة اللسان عندما يكون أميراً لهذه السيارة [= النفس] للدخول في المهانة، ثلاث مهلكات موبقات تضغط على نفس الإنسان، تجعلها ترتكس عن مطلبها في الكمال والترقي، والسير إلى أرفع، ولذا فإن "هذا العالم بسمائه وأرضه وأزواجه، هو فتنة للإنسان بما فيه من لذائذ ومن جمال، وما فيه من قوة وما فيه من سلطان"⁶، فتنة تتجدد تحت

¹ - بيار ماشيري: م يفكر الأدب تطبيقات في الفلسفة الأدبية، تر جوزيف شريم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، ط1، ص246.

² - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 431.

³ - محمد عبده : شرح النهج، ص 431.

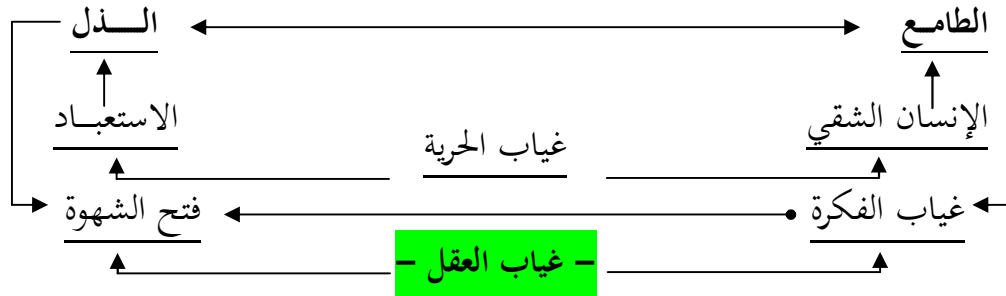
⁴ - المصدر نفسه، ص 431.

⁵ - بيار ماشيري : المرجع السابق، ص 242.

⁶ - ابن باديس عبد الحميد بن محمد : في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ط2، ص 361.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

سلطان الشهوة والطمع واللذة وإمرة اللسان محدث النفس بالسوء، لكل أولئك الذين عرفوا سطحا من حقيقة، فتنه تتجدد، وهي الامتحان الواقع تحت سلطان فكرة الحق التي تقود إلى الجمال، وإن عدم التبصر في الأمور لكشف مخاطرها وعواقبها الوخيمة، تؤدي إلى المضرات الحقيقية، والتمهيد لسبل الانحراف، ودرك الشقاء، ويؤكد الإمام فكرة الطمع بحكمة أخرى يثبت بها وزره وخطره على النفس الإنسانية، فيراه بنتائج قاتلا: "الطامع في وثاق الذل"¹، بمعنى أن الإنسان إنما يتحرك بأطماعه إلى غاية واحدة أكيدة إذلال نفسه، وتوثيقها بهذا الجبل، وثاق ذل يدخل إلى عالم الشهوة، وعليه "فإن النفس النزوعية تكون في النشاط على حال خارجة عن طبعها"²، من الفطرة النقية إلى الفساد، والنزوع نحو الشر والانحراف، فإذا كان الطمع بابا من أبواب الشهوات ومصدرا دافعا للانغماس فيها، فإن هذا يعد من أكبر المعوقات التي تمنع تقدير الإنسان لذاته وكرامته، فالشهوة ذل، والطمع ذل يقود إليها، يعيق عن تحصيل الكرامة والإنسانية والكمال، إذا فالطمع رصد لها، وكشف يفتح ولوج أبوابها، وهذا ما نوضحه بهذا المخطط:



إذا كان العقل والحرية مراتب كمالية، فإن الشهوة درك من دركات الشقاء والانحراف، والطمع جلباب الشهوات يرتديه الإنسان زينة، وهذا الدرك يعد قبعا إنسانيا، يلغي الجوهر الجمالي في النفس، عكس رتبة العقل والحرية التي هي جمال الكمال، على اعتبار أن الشهوة والطمع ذل، وقبح يشوه صورة الإنسان وخلق التكريم فيه، وعليه فإن الشهوات هي إفساد للجمال، وإضاعة للكمال، ولنا في الوردة مثلا حيا، فلزهرة تتغذى بالندى في الفجر، وبالضوء في الصباح، وبالهواء في لحظات الزمن، فهي تتمتع الناظر في النهار، وتعطره حتى في ليله فهي بهذا الجمال، لأنها لم تتغذى بالطمع، ولم تستزد عن متن حالها بغير ما يقيمها جميلة عطرة دون تركيبة شهوة ولا طمع، بل هي نسمة من الحرية متكلمة، لذا يكون الطمع ذل يقود إلى الشهوة، وهو إعدام لفضيلة الحرية، وهذا معناه خسارة فضيلة رتبة كمالية، وهذا ما نحدده من خلال التقابلات الآتية:

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 464.

² - ابن باجة أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ : تدير المتوحد، مطابع سراس للنشر، تونس، 1994، ص 69.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

الشهوة	← ≠ →	الحرية.
الطمع	← = →	شهوة.
الطمع	← = →	ذل.
الطمع	← ≠ →	الحرية.

الطمع مع الشهوة : انتفاء وانعدام الكمال والجمال في الإنسان.

ويؤكد الإمام هذه الفكرة بحكم أخرى داعمة، فيقول: "الطمع رق مؤبد"¹، ويقول: "أكثر مصارع العقول تحت بروق الطمع"²، بمعنى أن الطمع يصبح عبودية تنافي الحرية، يقود إلى فقدان العقل الذي يحقق كمال الإنسانية، وهذا ما يؤكد التناول السابق.

2/ الشهوات سيما الإنسان الشقي: يقول الإمام في إحدى خطبه مبديا العقبات التي اعترضته في سبيل إصلاح واستقامة الناس: "وترجعون إليّ عشية كظهر الحنية، عجز المقوم، وأعضل المقوم"³، حيث تفعل الشهوات والمطامع التي يجري وراءها الناس بهم كل هذا، يصعب بعدها تقويم ما هم فيه من اعوجاج وضبط لسلوكهم، لأن القاعدة تقول بتقويم المصلح للمعوج، ولكن عندما يصل الأمر إلى يأس المصلح من تقويم هذه النفوس التي انغلقت كل منافذها عن المعرفة والهداية، وهو ما شبهه بظهر الحنية [= القوس المعوج]، يدل على طبيعة فاسدة غير سوية، وسوء صار فيها سجية، وضع عبر عنه بالمقوم [= الإمام] العاجز عن إصلاح هؤلاء، وكذا استعصاء هؤلاء عن التقويم.

وعليه فإن الشهوات والمطامع تمثل حالة من الاعوجاج الحقيقي لا تستقيم به الحياة، ولا يقوم به مبدأ وبهذا يصبح الاعوجاج الخط الثاني الموازي لخط الاستقامة وطريق الكمال، فالشهوات هي سبيل كل انحراف، تثبت معالم الشقاء، وتزداد مأساة هذا الإنسان سوءا، إذا ركب قطار التسويف والإنظار حتى خط لنفسه اعوجاجا يقود إلى نهاية خاسرة، يبرز هذا حكمة الإمام التي يقول فيها: "كل معاجل يسأل الأنظار، وكل مؤجل يتعلل بالتسويف"⁴، الأمر الذي يقحم الإنسان في عالم الشهوات، ومن ثم ينسى ضروراته في هذا الوجود، مندفعاً نحو مطامع النفس التي لا شبع منها، يضعه أمام ضياع وتيه ينفث عليه الإنسان المتفلت من كل ضبط وحزم وإرادة

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 458.

² - المصدر نفسه، ص 463.

³ - المصدر نفسه، ص 143.

⁴ - المصدر نفسه، ص 477.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

وصواب، "وكل منهم قد أجل الله عمره وهو لا يعمل تعللا بتأخير الأجل والفسحة في مدته وتمكنه من تدارك الفائت في المستقبل"¹، وفي هذه الفسحة التي يمنحها الإنسان لنفسه [= تسويفا] تفتح أبواب الشهوات أمامه وتقوده مطامعه إلى هاوية وإحباط، صنيع ذاته الذي يفتق عالم الشهوات في مثل هذه الأجواء، فتأجيل كل عمل من شأنه أن يرتب وضع الإنسان بشكل سيء يغيب فيه التبصر والتثبت يوقع في أسرها، كذلك أمر "كل لذة لا يفسرها للنفس إلا تكرارها"²، تكرر تنعدم معه الحرية التي تحقق أصالة النفس أمام امتحان الشهوة، وفي استحكامها تنعدم الحرية ويذهب العقل الهادي إلى طريق الحق، نظرا للاستهانة بخطرهما، لأنها تغرق الإنسان في عالم مظلم، لذا نجد الإمام يلتقط هذا المعنى الدقيق، قائلا: "أشد الذنوب ما استهان به صاحبه"³، ففي مثل هذا التقدير الخاطيء في إقبال النفس على اقتحام عالم الذنوب وأسرهما، يصعب الإقلاع والمجاورة، "وإن فاعل ذلك الذنب قد جمع بين فعل الذنب، وفعل ذنب آخر، وهو الاستهانة بما لا يستهان به"⁴، وعظم هذا بوصفه معارضة مبدئية للحكم والصورة الشرعية، وفي تقحم النفس بتكرار الذنوب يعني الوقوع في الفساد، ومن ثم خلخلة البناء الإنساني السليم وهدمه، وبهذا نصل إلى تسجيل هذه الحقيقة. أن الذنوب هي مقتل طاقات وقوى الإنسان، وأن تخنيط المرء نفسه في لفافة الشهوات يفقده حيويته ومرونته وفتوته التي بها ينطلق في البناء والعمارة، وإن كل تحليل لهذا العالم المريض وما يسكنه من لذات وشهوات وغرائز هدفه "الكشف عن أسرار تنظيم الماكنة الإنسانية"⁵، وتتأول منهجي سني نجد أن تعريجات الإمام تريد منا هذا الفهم الذي يستعصي، إلا على أهل العلم والحكمة.

إن في مثل هذا العالم الذي يزل بالإنسان إلى درك الشقاء من ذنوب وشهوات نذكر توصيف الإمام لعالم لُدِّي قريب من الإنسان في كل لحظة، توصيف لحال الشباب، وقد مرت بهم امرأة جميلة، فتطلعت نفوسهم إليها، بعد أن رمقوها بأبصارهم، وللبصر نوافذ لهذا ولغيره، طمعا ورغبة وشهوة تنتظر، فقال: "إن أبصار هذه الفحول طوامع، وإن ذلك سبب هبابها، فإذا نظر

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 477.

² - الراجعي : وحي القلم، ج 1، ص 19.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 486.

⁴ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 10، ج 19، ص 116.

⁵ - بيار ماشيري : بم يفكر الأدب؟ ص 263.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

أحدكم إلى امرأة تعجبه فليلامس أهله، فإنما هي امرأة كامرأة"¹، وبالتأول للقول يمكن أن نستخلص نقاط منهجية تؤسس لعالم الشهوة، وهي دليل على انفتاح هذا المساق المدمر للذات:

- أولاً: النظر، يمثل بدءا وشروعا في عالم نزوي مهلك، بعيدا عن الضبط.
 - ثانيا: البصر، يسند طمح الفحول إلى هباب النفوس وهياجها، حيث يتماثل مع النظر.
 - ثالثا: التفتق، يمثل كل هذا تفتق الشهوة بفعل حركة النفس ونزوعها، نحو ملائمتها.
 - رابعا: التمائل، تتماثل كل امرأة وتتساوى في التحريك الغريزي، والإطفاء الشهوي فيما يحل.
- إن عدم تحقق المعالجة، كما بينها الإمام تغدو بعدها كل شهوة كاذبة واشتهاء مستغنى عنه، تعطى وإعاقة، وهي طريقة "تكمُن في حركة الدافع الجنسي وراء الحالة المعروضة لدى الإنسان والتي لا يملك قدرة السيطرة عليها"²، وعليه فإن الجمال [= جمال المرأة] يمتلك كل القابليات التفجيرية التصعيدية وفق ملائم النفس، ومن ثم نحصل على هذه الأبنية المعرفية التأسيسية :

1- النظرة الأولى: إن كل جمال يتقدم إلى الآخر بالتعارف الضيق بالشهوة، يمثل تفجرا ثنائيا بينيته [= رامقا ومرموقا]، وهي حالة نزوية قائمة على الإعجاب والتزيين الإبليسي، يمثل فكرة اللذة بجسد الشهوة.

2- الزوجية الثنائية: إن تفجره الثاني [= ثنائي]، عندما يكون بنية وتركيبية إنسانية، من خلال ثنائية التعارف، امرأة رجل، فإن الجمال يولد في النفس جمال الحضور في الحياة، من خلال التعارف الثنائي الأسري بينيته: [= رجل + امرأة = أسرة متوازنة] ويمثل فكرة ميثاق إلهي بجسد التزاوج.

3- التعدد الاجتماعي: ينطلق هذا التفجر الثنائي إلى حالة التعارف الواسع [= الاجتماعي]، بينيته: [= أفراد = تنوع + اختلاف = مجتمع متوازن]، اجتماع سني تظهره فكرة الاختلاف والعمارة، من خلال تركيبية اجتماعية تمثل فكرة إقامة الحق، وينتج عن هذا التفجر الجسد الاجتماعي الحي والمترابط.

4- التنوع الإنساني: يقود التفجر الواسع إلى حالة التعارف الأوسع [= الإنساني]، بالتفجر الأوسع بينيته: [= قبائل + شعوب + أمم = الأمة المؤمنة + الأمة البشرية]، من علاقات إنسانية، قصد إقامة فكرة العدل، وفق قيم الخير والعدل والجمال والحب والسلام، تعارفا والتقاء وتواصل، بالتعاون والتفاعل وفق قيم كونية جامعة، وينتج عن هذا تكون الجسد الإنساني.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 497.

² - خالد آغا القلعة : السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة، ج 01، ص 105.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

إذا لم يتم فقه هذه الحالات الأربعة، فإن الإنسان يتحول إلى أن يكون "هو الشيطان الذي يغوي نفسه، فيوقع نفسه في التهلكة وبعبارة أخرى نقول أن الإغراء كامن فينا"¹، وعليه فإن النظر إلى المحرمات يجعل طموح الإنسان يتوسع إلى ما هو أكبر من النظر، إلى الوقوع في الشهوة والمعاصي، يقول ابن باجة: "كل جسم فاسد"²، ولذا فمحركات الملائم نحو الشهوة المسترضاة قائمة تعمل، وهي تمتلك نزوعية نحو التحصيل والاستتمام، إلا إذا كان التدارك بما يعدل ويحقق الحفظ ويصنع التوازن، بموجه الحديث النبوي: "آرايتم لو وضعها في الحرام؟!*"، فإذا كان النظر تحريكا يقود إلى عالم الشهوات ومعطلا للكمالات، فإن المال هو الآخر باب آخر تفتح منه الشهوة وتقوى في أجوائه، وهذا وقود آخر يجعل عمر الإنسان حطاما يُخزن، إفناء للطاقة والجهد في تحصيل يحول المقصد الإنساني إلى نيل عاجل يستهلك الإرادة، ولذا فإن الخضوع إلى سلطة المال، نعتبره عبادة تورث الاستعباد، يقول الإمام: "المال مادة الشهوات"³، في حريق الشهوة المستعر تحتاج إلى مادة ووقود لهذا الاستعار، لذا نجد في المال هذا التفتق، وهو من الأشكال التي عددها الآية القرآنية لعالم الشهوات [= (القناطر) من الذهب والفضة]، نجد فيه إغراء وتزيينا وإغواء كبيرا، فشهوة جامحة، قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾⁴، فالمال زينة الحياة الدنيا، والدنيا شهوة يحاول الإنسان بلوغها، انفاذا لفكرة التزيين والإغراء والملائمة، وإمكانا عمليا وتنفيذا مباشرا، باعتبارها سلطة تأثير ووثن يتجند أصحابه في هذه المفرغة المنهية للقدرة والطاقة، وبهذا يكون المال هو المؤسس لهذا العالم الذي يحطم الإنسان ويكبله ويقيد حريته في البحث عن آليات يستثمر فيها طاقاته في النجاح، وارتياذ منازل سيما "الباقيات الصالحات" التي هي خير أملا ومردًا.

إن المحددات السابقة الذكر التي تشكل هذا العالم الشهوي/الإعاقبي ترسم لنا منحى اغلاقيا يترجم حقيقة التيه، تيه الإنسان وضلاله وانغماسه في عالم الشهوات المفتت للطاقة والقدرة، وإن هذه الحركة النفسية نحو ملائمتها تنطلق من تبئير مركزي يتصاعد إلى آفاق عديدة غير وازنة، نحو التدمير، تدمير البناء الإنساني الذي يقيم مملكة الحياة بمقاصدها الكونية والقرآنية بثوابتها ومعادلاتها

¹ - أنس شكشك : فلسفة الحياة وحكمة الوجود، ص 64.

² - ابن باجة : تدبير المتوحد، ص 33.

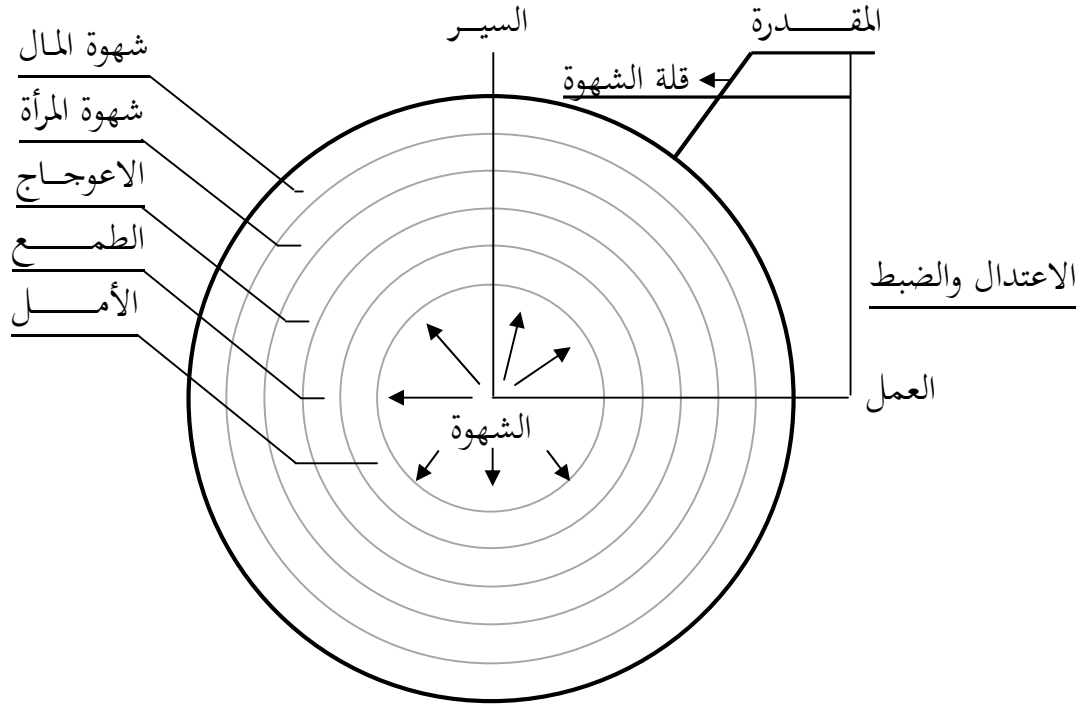
* - إشارة إلى الحديث النبوي الذي اعتبر فيه النبي ﷺ إتيان الإنسان أهله صدقة، "وفي بضع أحدكم صدقة" وفي حال كانت إفراغا في غير محلها "أتكون عليه وزرا"، ومن ثم فهي إشباع لشهوة، واشتهاء أملتته حركة النفس الأمانة بالسوء إلى ملائمتها.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 439.

⁴ - سورة الكهف، الآية 46.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

[= الاستخلاف + العمارة + العبادة = التعارف = وحدة الأمة المؤمنة - والبشرية]، ولهذا يحتاج الإنسان إلى ضبط من نوعه أطلق عليه الإمام مفهوما ذاتيا ينطلق هو الآخر من حركة النفس نحو اقتصاد في الملائم، اقتصاد في الحاجة واقتضاء في الأسلوب، فقال: "إذا كثرت المقدرة قلت الشهوة"¹، كفاية ضرورة ومطلب وجود وأعمدة العالم بينه الإمام في تأويلاته، نوضحه بهذه الدائرة:



- الدوائر المتنامية في بناء العالم الشهوي معيق كمال الإنسان -

هذا وبتوجيه الحديث، وإن "لنفسك عليك حقا"^{*}، فإن الخروج عن هذا يعد فسادا وباطلا وشقاء، فما "فضل عن الحاجة وقدر الكفاية فهو مادة الأحزان والهموم وضرب المكاره"²، لذا يأتي الخط المقتصد، هو الوازنة لكل ذلك الرصد والتطلع إلى الشهوات بالنظر والطمع وحب المال وغيره، وعليه فإن هذه المقدرة [= سنة الضبط] المانع الوازن، هي الدافعة الحقة إلى كل رفيع وأرفع، لأن "من ملك زهد"³، وهي قدرة امتناع وقيادة ارتقاء، وإن هذه المحددات التي تبنى عليها فكرة الشهوة هي صورة قابلة للتطبيق والنمذجة الفاسدة، حيث لا يمكن أن تبنى في مثل هذه الحال فكرة النمو الحيوي لإنسان يريد أن تكتمل فيه الفضيلة والأخلاق، وتتفتق منه قيم ومعنى الإنسانية.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 467.

^{*} - العبارة مقطوفة من حديث للنبي ﷺ يبين فيها حقوقا واجبة مرعية، ينظر محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تح محمد زهير بن ناصر

الناصر، دار طوق النجاة، ج3، 03، 1968، ط01، ص 38.

² - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 10، ج 19، ص 34.

³ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 467.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

ثالثاً: إتياع الهوى: يأتي الهوى ضرباً من التوجه غير البصير، وخبطاً لا هدي فيه، وهو ثالث المعينات التي تقف حائلاً بين الإنسان وإدراك كمالاته، ومن ثم فالهوى داعية قوية، وسلطان يدفع النفس لكي تنزع إلى الانحراف والشقاء، وتقرينا معاجم اللغة من رصد معنى الهوى تأسيساً لأرضية تضبط مفهومه ودلالته، ففي التعريفات: "الهوى، ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع"¹، حيث يتضح خط الانحراف جلياً من خلال الميلان إلى كل فساد، كما يتركز مدلوله على حركة النفس البعيدة عن المنهج الإلهي، والهوى هو أرضية الشهوات المستلذة، وهو كذلك "ميل النفس إلى الشهوة، ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة، وقيل سمي بذلك، لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية، والهويُّ: سقوط من علو إلى أسفل. (...). وقوله (وَلَمَّا اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ) [البقرة 120]، فإنما قاله بلفظ الجمع تنبيهاً على أن لكل واحد هوى غير هوى الآخر، ثم هوى كل واحد لا يتناهى، فإذا إتياع أهوائهم نهاية الضلال والحيرة"²، فهذا الميل داخلي إلى ما يعرض ويزين للإنسان في الدنيا، فينقاد إلى داعية هواه، وهنا تأتي الخطورة أن هذا الهوى خاص يؤكد على أن النفس عالم مفتوح على الأهواء، وأن منشأه داخلي يتعلق بنزوع الذات مما يتطلب مغالبتها. وإذا كان الهوى وإتياعه نهاية الضلال والحيرة وأحط درك تصل إليه النفس من دركات الشقاء والانحراف، فإن هذا الانحطاط يعتبر نزولاً من مرتبة التوازن إلى الاضطراب والتهيه، ولذا فهو بقول "المنأوي": "نزوع النفس لسفل شهواتها في مقابلة معتلى الروح المنبعث انبساطه"³، وهذا يعني أن الهوى حركة تدميرية تتخذها النفس، وهي تتجه نحو التسافل بالغرف من الشهوات، ويعد هذا تأذ يطال الروح المنبسطة المتجهة علوًا نحو الكمال، ومثل هذا المعنى نجده في المقاييس: "هوي: الهاء والواو والياء: أصل صحيح يدل على خلو وسقوط. أصله الهواء بين الأرض والسماء، سمي لخلوه، وأما الهوى: هوى النفس، فمن المعنيين جميعاً، لأنه خال من كل خير، ويهوي بصاحبه فيما لا ينبغي"⁴، فالخلو من الخير والسقوط في ما يزرى بالنفس، يعرضها إلى امتلائها بالشهوات المضرة،

¹ - الشريف الجرجاني : التعريفات، ص 218.

² - الأصفهاني الراغب: معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، تح ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008، ط3، ص579، 580.

³ - المناوي محمد عبد الرؤوف : التوقيف على مهمات التعاريف، تح محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت، دمشق، ج1، 1410، ط1، ص 251.

⁴ - ابن فارس : معجم مقاييس اللغة، ص 924.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

والأفكار المنحرفة التي تقود إلى الشقاء والانحراف، وعليه فإن "الهوى رغبات تتأثر بجنوح النفس نحو الدنيء من الأمور من غير نزو ولا تفكير ولا تعقل"¹، ومعنى هذا أن الهوى يقف مصادًا للعقل.

1- مركب الهوى وانطلاق قوى النفس النزوعية: يصدّم الخطاب القرآني عقل الإنسان عندما يتحدث عن الهوى المستحكم في النفوس ولعل أخطرها أن يكون الهوى إله الإنسان، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ؟²، فهو الإنسان هو إلهه المعبود، وهذا قمة الانحراف الذي تصله النفوس الأمانة المريضة، وهو منهج مخالف بالكلية لمنهج الحق، وضدًا مغايرًا يقف معارضة للحقيقة المنتزلة القائمة والناطقة والمتحركة، نقيض لا تتركب معه الحقائق، ولا تتأسس منه منطلقات معرفية ضرورية، ولذا فإن "الذكاء في فهم الدنيا مع الغباء في فهم الآخرة يحول الإنسان إلى عبد لشهواته، ويربطه بهذه الحياة وحدها، ويصرفه عن الاستعداد لما بعدها"³، لهذا كان توصيف الآية أن الإنسان يتخذ إلهه هواه معارضة لله المعبود الحق، وهذا إشراك واضح صريح.

إن هذا الإنذار الإلهي يدعو الإنسان إلى مجاهدة النفس المندفعة نحو الأهواء والشهوات، ولأن هذا التفلت يخرج الإنسان من وظيفته وغايته التي خلق من أجلها، فإن التحذير يدفع إلى وقفة ثبات ترسخ قدم الإنسان حتى لا تأخذ به هذه الأهواء، ولا تستغرقه بالكلية في كل لحظات حياته، وهنا نجد الإمام يصدر تحذيره من هذا الخطر المعيق لحركة الإنسان الذي يخلو من الصواب، فيقول: "وإن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: إتباع الهوى، وطول الأمل، فتزودوا في الدنيا من الدنيا ما تحرزون أنفسكم به غدا"⁴. إذن يتلخص خوف الإمام من إتباع الهوى، بما يحمله من تدمير وتشثيت لصورة الإنسان، وتماسكه العقلي والروحي، ولذا فإن اندفاع الإنسان نحو أهوائه مضيعةً لفرصه وخياراته الرشيدة، ينضاف إليه طول الأمل الذي يغرق الإنسان في سكرته وعماه، وجريا وراء أهوائه مهلك، وقد "ذكر القرآن كيف ينخدع الإنسان بصوره الذهنية (أهوائه) ويتخذها إلهًا، وكأن صورته الذهنية هي الحقيقة الحقيقية"⁵، ومن ثم فعالم هذه الصور الذهنية [= الأهوائية] التي تنشأ في العقل

¹ - بليل عبد الكريم : المفاهيم المفتاحية لنظرية المعرفة في القرآن الكريم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة، مكتبة الأردن، عمان - بيروت، 2015، ط1، ص 215.

² - سورة الحائية، الآية 23.

³ - محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي، ص 388.

⁴ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 58.

⁵ - جودت سعيد : الدين و القانون، ص 130.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

متوالية عليه ستدفعه إلى الجري وراء ذلك الوهم الذي تبشه الأهواء في فكره ونفسه. إن هذه التصورات الناشئة عن هذا الإتياع يحلل الإمام آثارها، بقوله: "فأما إتياع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة"¹. إن الهوى مسلك خطر يؤدي بالإنسان إلى هلكة حتمية:

- | | | |
|------------------|--------|------------------|
| (1) إتياع الهوى: | يصد ← | <u>عن الحق</u> |
| (2) طول الأمل: | ينسي ← | <u>عن الآخرة</u> |
- يشكل بنية إعاقية صادرة وصارفة عن إتياع
معنى الكمال وتحقيق التمام.

وهنا نطرح أسئلة منهجية وظيفية كاشفة: هل توجد إمكانية في مثل هذا الوضع محاولة لتحقيق النجاة والخلص؟! وهل بإمكان الإنسان أن يبني حياته الصحية السليمة؟! وهل بإمكانه أن يحافظ على قدراته العقلية والنفسية التي تساعد على بلوغ الكمال؟!

إن المتوقع واضح، وأن تأويله الدقيق القريب ما قدمه الإمام من كلام أعطى من خلاله مترتب هذه الوضعية، حيث يصد إتياع الهوى عن الحق وينسي طول الأمل الآخرة، باجتماع معيقين، يرتبط الأول بالمنهج، ويرتبط الثاني بالغاية. إن في وضع إتياع الهوى يكون انصراف الإنسان مؤكداً، عن الهاديات التي تقود إلى كل معرفة، معرفة الله، ومعرفة الحق، أما الوضع الثاني طول الأمل فهو اندهال بما يكون فيه الإنسان، أي ما يقعده عن العمل وعن طلب الكمال، والبحث عن الموصلات إلى الحق، فطول الأمل هو "استفساح الأجل والتسويق بالعمل طلباً للراحة العاجلة، وتسلية للنفس بإمكان التدارك في الأوقات المقبلة"²، ومن ثم تضييع عن الإنسان قوة الدفع اللازمة لتجاوز هذا الحال، وحتى نستكمل مختلف النقاط والجزئيات التي تبين لنا خطورة إتياع الهوى على الإنسان ومعيقاته نذكر قولاً آخر نوسع به تأويل دائرة هذا المعنى، "وكتاب امرئ ليس له بصر يهديه، ولا قائد يرشده، قد دعاه الهوى فأجابه، وقاده الضلال فأتبعه، فهجر لاغطاً، وضل خابطاً"³. يكشف هذا الكلام عن أفكار مهمة ضابطة لحقيقة الهوى نركزها في هذه النقاط:

I- دواعي إتياع الهوى ومسبباته، وقد لخصها الإمام في عملية الهداية: البصر الهادي، "ليس له بصر يهديه"، والقائد المرشد: "لا قائد يرشده"، وهذان عاملان رئيسان، يؤديان افتقادهما إلى إتياع الهوى، يمكن أن نسميها بافتقاد القوة المدركة، بحيث "تلعب التوقعات والميول الآتية والاستهواء دوراً مهماً في تحريف الإدراك للواقع، بحيث ينتفي الإدراك دون وعي ما يبرر الأفكار المسبقة ومن هنا يكون

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 73.

² - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 73.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 339.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

لمعنى الحقيقة دلالة مختلفة عما لها في العلم¹، فالبصيرة التي تهدي الإنسان إلى معرفة الحقائق، وتقليب نظره فيها، وإدراك عللها، تسهم في تحديد موقفه، على بينة ورؤية واضحة، لا تحول بينه وبين المعرفة والحق، ومن ثم يسلم قياد نفسه للأهواء، وأما العامل الثاني المؤثر فهو القائد والإمام الذي يرشد الإنسان في الحياة، وبه يهتدي في عملية إدراكه، وانعدام مثل هذا الضوء [= المصباح] في حياة الإنسان، يسهل انسياقه وراء الأهواء القاتلة المدمرة لطاقاته وقواه.

II- إسلام النفس للهوى، وهنا يصبح الإنسان فريسة سهلة القيادة، أشار إليها الإمام في دالتي: "قد دعاه الهوى فأجابته"، استجابة لداعية الهوى، و"قاده الضلال فأتبعه"، بإتباعه للضلال.

نلاحظ في هذه الوضعية المرونة والسلاسة التي يبديها هذا الإنسان الذي فقد عوامل خلاصه، ليسهل انقياده نحو الانحراف، "لأن عمق الآثار في النفس التي أحدثتها أعراف المجتمع تغلب على إرادة نفر محدود العدد"²، تتحقق معه الاستجابة الطوعية للهوى ودواعي الضلال.

III- متربات الوضعية: إن افتقاد القوة المدركة وإسلام النفس للهوى يقود حتما إلى نتائج تفقد الإنسان بوصلته، وهو ما عبر عنه الإمام بهذا الأثر الحادث المتمثل في دالتي: "هجر لاغطا"، وهذا بفقدانه للصواب، و"ضل خابطا"، دلالة على التيه، ولا يمكن وصف صورة للآثار الخطرة التي يصل إليها الإنسان الفاقد للصواب في سيره، والتائه في حياته، أي الضرب في الحياة على غير هدى.

ونذكر مثالا آخر يجلي فيه الإمام حالة من أحوال هذا التخبط واللغظ والتهيان يقود أصحابه إلى الشقاء، حيث يقول: "ما أنتم لي بثقة سجيس الليالي، وما أنتم بركن يمال بكم، ولا زواجر عز يفتقر إليكم، ما أنتم إلا كإبل ضل رعاتها، فكلما جمعت من جانب، انتشرت من آخر"³، وهنا نجد توصيفا دقيقا لهؤلاء الذين ضلوا وأخذت بهم الأهواء كل مأخذ، وصلت إلى حد انعدام الثقة، انعدمت معها إمكانية الركون إليهم في تحقيق النصر، إضافة إلى افتقادهم لكل قوى المنعة والقوة، فهم مثل إبل ضل رعاتها، إبل متفلتة عن كل جمع وقياد، وبهذا صاروا بلا قيمة نوعية، غياب الصواب والإنسانية، وافتقاد مؤهلات السير. إذن "فالأهواء هي جامحة بكل معاني هذه الكلمة تؤسس لنظام جديد"⁴، نظام الفوضى والانحراف والشقاء، وعندما تنتشر مثل هذه الأخلاق

¹ - أنس شكشك : فلسفة الحياة وحكمة الوجود، ص 152.

² - جلال السيد : علي بن أبي طالب، دراسة عن حياته، ص 193.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 66.

⁴ - بيار ماشيري : م يفكر الأدب، ص 226.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

بين الناس، تصبح ثقافة انحطاط لا تدفع على تماسك وتطور، ويشخص الإمام هذا الحال بقوله: "اصطلحتم على الغل فيما بينكم، ونبت المرعى على دمنكم، وتصافيتم على حب الآمال، وتعاديتم في كسب الأموال، لقد استهام بكم الخبيث، وتاه بكم الغرور"¹، حيث ينتج عن إتباع الأهواء فكرا قاتلا وثقافة مدمرة، فكان اتفاق هذه المنظومة القائمة على الأهواء واصطلاحها على أخلاق وقيم مادية مفككة لنسيج المجتمع، لا تصنع السلام والجمال، بل صورة محددة للانحراط في أفعال من وحي الهوى، بالاصطلاح على الغل والحقد المزين بظواهر النفاق والخداع، ثم التصافي على حب الآمال، والتعادي في كسب المال، وجميعها دالة على الأهواء المستحكمة، بحيث تصبح تشكل في النهاية منظومة ثقافية قيمية، واتفاقا [منهم] على تمكين ذلك في النفوس عملا وسعيا²، وهي أمراض تعد بمثابة الاسلاس الطوعي الذي يسر انحرافهم وأعاق كما لهم.

ويلخص الإمام هذا في صورتين سلبيتين فاعلتين في رسم حتمية هذا المرض، المحدد في دالي "استهام الخبيث بهم"، و"تاه الغرور بهم"، وهذا تأسيس مهد للشيطان عمله، وللغرور ركوبه، أدى بهم الأمر إلى أن أخرجهم "الشيطان من نور الفكرة وضيء الشريعة إلى ظلمات الضلال والحيرة"³، فهذه نتائج معبرة عن هذا الإتياع، وما التيه والهيام على الوجه، إلا تجليات ناطقة بأحوال الشقاء الذي يزيده الشيطان قتامة وإمعانا في الإبعاد عن الفطرة والإنسانية.

وإن أمر هذا الإتياع لا يحصل إلا بكل طاعة تكون لغير الحق، ولغير مستحق، يقول الإمام: "من أطاع التواني ضيع الحقوق، ومن أطاع الواشي ضيع الصديق"⁴، ويعني إتباع الهوى إتباع الطرق المضلة، مثل طاعة التواني والواشي التي يضيع معها الصديق والحقوق، والطريق الموصل إلى الكمال، وعليه فإن كل طاعة مزيفة لها ما يقابلها من الخسارة والشقاء والبعد عن الحق، وضياع الطاقات.

2/- الهوى تيه الإنسان وإساءة العمل: ربما قد نعجز عن وصف مقدار التيه والتخبط الذي يحل بإنسان فقد بوصلته وضاع وسط أهوائه، وإن ما ينطق بحجم خساره وضياعه، تجسده معادلة الإنسان الشقي ومركباتها الأربعة المعيقة، وبذلك فقد مبررات وجوده، وضرورات حياته، وسيرى كلفة هذا الأمر باهظة، كما أن النبهاء برصدهم يقدمون توصيفا دقيقا يشخصون به مخاطر الهوى،

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 188.

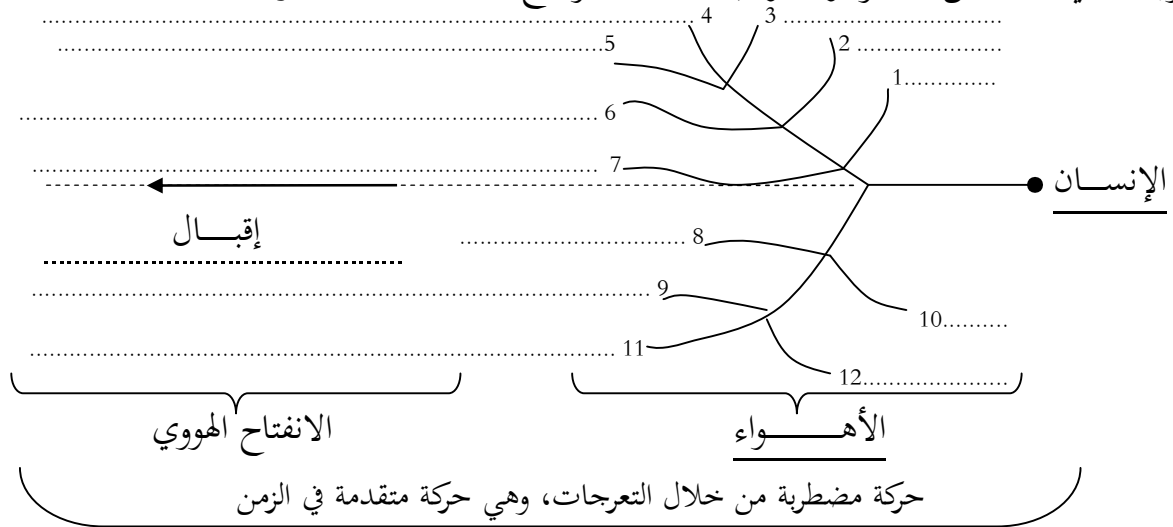
² - ينظر محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 188.

³ - المصدر نفسه، ص 188.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 466.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

حيث يضيع الإنسان وسط أحلامه من دون معرفة بالمآلات، وعليه نسأل هل إتباع الأهواء يمكن اعتباره حالة سكر للروح عندما يكثُر عليها تشعب الحظوظ؟! وفي ما يتحدد في افتقاد المقدار الضابط الموجه للإنسان، نحو هدفه الأصل وغايته المثلى، وإن معيقات الكمال تصيب العقل فيتيه عن القصد، وتصيب النفس فتتمرد، وتصيب الروح فتمرض، وتصيب الجسد فيتدمر. إن الأهواء قادرة على صنع كل هذا، ويعطينا الإمام جملة تحدد لنا حالة الاضطراب، حيث تنضغط طاقات وقوى الإنسان، عن العمل البصير، قائلًا: "إذا كنت في إدبار والموت في إقبال، فما أسرع الملتقى"¹، وهذا الانضغاط يحدده قرب المسافة وسرعة الملتقى، حيث "يطلبك الموت من خلفك ليلحقك وأنت مدبر إليه تقرب عليه المسافة"²، لذا يطرح السؤال : لماذا كل هذا التيه وسط الأهواء وإساءة العمل؟ وما جدوى قيمة هذا الإتياع الذي تنحصر به حياة هذا الإنسان وتتعطل به قواه التي بها يكمل ويشرف ويكمل؟! مادام أن الإنسان أقام حاله بين هذا، فقد "حق إذن الالتقاء سريعاً"³، فالهوى المتبع شقاء حتمي، وإرادة تؤسس للفساد في الأرض، وتعطيل لكل السنن التي تقود الإنسان إلى حالة التوازن الطبيعية، على اعتبار أن إتباع الأهواء هو حركة تيه وضلال، وإهدار للطاقة، وإمعان في البعد عن الله، وطرق مراتب الكمال، نوضح هذه الحالة بهذه الترسيم:



- ترسيمة تبين حركة الأهواء التي تقود الإنسان إلى الشقاء -

يتجلى الخطر في هذا الإتياع في إضاعة فرص الكمال، بحيث نجد أن عمل الإنسان يتركز في ما "يعيش به لا ما يعيش من أجله، ويتصل بكل شيء اتصالاً مبتوراً ينتهي في هوى من أهواء

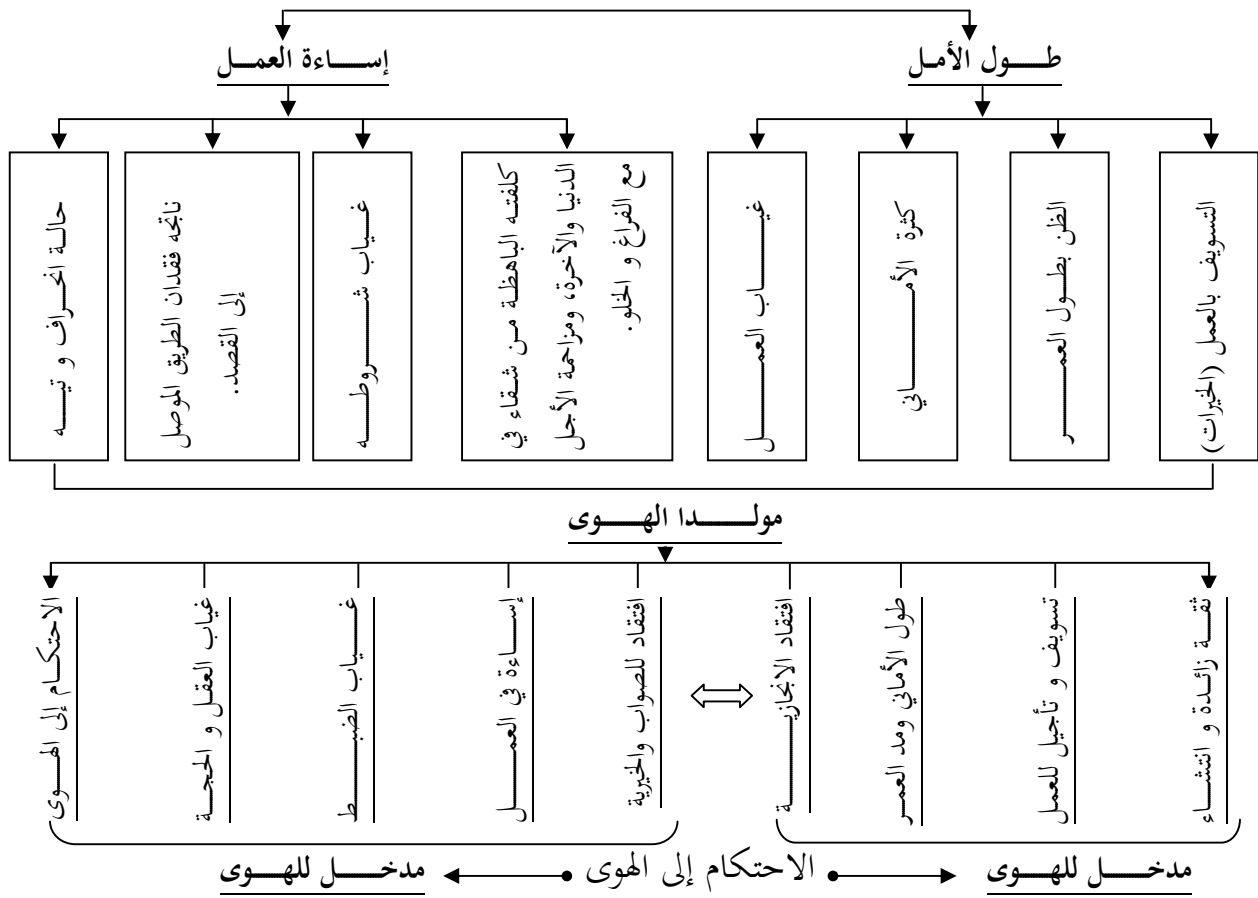
¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 434.

² - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 434.

³ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 9، ج 19، ص 69

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

الحيوان الذي فيه"¹، فهذه الحركة غير المتوافقة بين العمل والفكرة والهدف تعيق عملية السير، كما لا يمكن وصف مخاطرها وتأثيرها، وذلك لأن "الهوى يرى ما يرى بشهوة وميل"²، ويظهر تأثير الهوى بشكل دقيق في حقيقة العمل الذي يبني من خلاله الإنسان قيم حياته، ولكنه ينسحب من وظيفته - مخالفة - لمنهج الحق والخلو من الهدى، وبهذا فالهوى يعد من المعوقات المدمرة للطاقات والقوى المودعة في الإنسان، والقول الموالي للإمام يبين هذا بدقة: "من أطال الأمل أساء العمل"³، ففي هذه الفكرة تجتمع متربات ونواتج هامة نوضحها بهذا الشكل:



- تخطيط منهجي جامع لارتباط الهوى بطول الأمل و إساءة العمل -

- تأويل واستنتاج: يجمع الهوى بين طول الأمل وإساءة العمل، أو هو حال بين الإثنين، أي بين التصور الذهني والمنخرج السلوكي، قال تعالى في شأن الانقياد للهوى، إله الأشقياء: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ

¹ - مصطفى صادق الرافعي : وحي القلم، مج 02، ص 38.

² - الراغب الأصفهاني : مكارم الشريعة، ص 93.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 436.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

أَضَلُّ سَيِّئًا¹، لقد كان هذا الانقياد والإتباع للهوى مدعاة إلى تصنيفهم: أضل من الأنعام [= قرانيا]، لافتقادهم أجهزة الوعي، وهذا يعني إخراجهم من الإنسانية، وهو حكم قرآني فيه من التحقير الوظيفي الهادف، حتى تبقى الحقيقة مصانة ومهابة²، ومن ثم فإتباع الأهواء ما هو إلا ترجمة حقيقية لطول الأمل وإساءة العمل، فهؤلاء "كانوا يجرون على مقتضى ما يقع لهم"³، والهوى بهذا هو نقيض العقل، باعتباره مكونا رئيسا في التركيب الآدمي الذي به تساس هذه المملكة الإنسانية، وهو إساءة للتصرف في إدارة الماكنة الإنسانية، وما يقود إلى بلوغ الهدف بيسر، وضياح إمكانية بلوغ الكمال وتحقيق مراتبه، علما أن من شروط العمل الصواب، فالعمل الصائب يقود إلى الكمال، وإساءة العمل تعيق عن ذلك، ومن ثم التفرق في مسارات مبعدة عن الهدف.

وتأتي معيقات الكمال من عالم الأهواء الذي يُركب، لأن الناس فيه يكونون فاقدين لمنظار استشراق الحق، وما يزن الأمور ويوجه بوصلة الإنسان نحو هدفه، قال تعالى واصفا هذا التخبط: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾⁴، فقد قرن الله سبحانه وتعالى بين عدم الاستجابة لنبية وإتباع الهوى، وهذا دليل تيه وعمى، ومن ثم فقد صاروا إلى مرتبة أضل من حالة الإنسانية والكرامة التي نالوها، وعليه فإن امتلاك نور البصيرة يصبح شعلة في النفس تنقاد بها إلى داعي الهدى، وتتنجب به داعي الهوى، يقول الإمام: "لا والذي أمسينا منه في غبر ليلة دهما، تكشر عن يوم أغر ما كان كذا وكذا"⁵، واليوم الأغر يدرك بالحدس والبصيرة حتى ترى النفس انجلاء الحقيقة أمامها كالفجر الذي يلوح، بينما في غلبة الأهواء فالأمر يختلف، لأن "الأهواء التي تأتي من الجسد وتؤثر على انشغال الذهن"⁶، تكون حجبا عازلة عن رؤية الحق، وطريقا يعيق عن الكمال، وضدا مقابلا للعقل، وبهذا يصبح طغيان هذه الروح على الإنسان تجسيدا عمليا لتلك الإعاقة عن بلوغ الحق وإدراكه والترقي في أحواله ومراتبه، بل معها نجد أن أبواب الفساد مشرعة، تقود إلى دركات الشقاء وكل انحراف.

¹ - سورة الفرقان، الآية 43-44.

² - محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي، ص 281.

³ - القشيري : لطائف الإشارات، ج2، ص 637.

⁴ - سورة القصص، الآية 50.

⁵ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 476.

⁶ - الجيرداس - ج. غريماس : سيميائيات الأهواء من حالات الأشياء إلى حالات النفس، تر سعيد بن كراد، دار الكتاب الجديد، المتحدة، بيروت،

2010، ط1، ص154.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

رابعاً: زينة الحياة الدنيا: نأتي إلى المعيق الرابع والجدار الأخير الذي يحتم بناء هذا السجن المحكم القفل، ويتمثل في إتباع الدنيا ومزلق طلب المادة، وهي قوى دالة على عالم التسافل والانحراف، وبها ينغلق مربع الانحراف، وعند هذه النقطة ترسم سمة هذا الخط المنتهج الدال على سيما الإنسان الشقي، ذلك السائر من خفيض إلى أخفض بمقلوب عبارة "من رفيع إلى أرفع"، وباكتمال هذا المربع تضيع الكمالات الإنسانية، يقول صاحب اللسان: "دنا الشيء من الشيء دنوا ودناوة: قرب، وسميت الدنيا لدنوها، ولأنها دنت وتأخرت الآخرة"¹، ويقول "ابن فارس": "دني: الدال والنون والحرف المعتل أصل واحد يقاس بعضه على بعض، وهو المقاربة. ومن ذلك الدني، وهو القريب، من دنا يدنو. وسميت الدنيا لدنوها، والنسبة إليها، دناوي"²، وبالتالي فهي إمكان مستبعد أن يكون أملاً، ونهاية مقصد، "فالدنيا: نقيض الآخرة..، والدنيا أيضاً اسم لهذه الحياة لبعد الآخرة عنها"³. وتأمل المعنى يدرك ويصير بحقيقتها، أنها في عرف الإنسان الحي السوي مزرعة الآخرة.

I / زينة المال: لقد اعتبر القرآن الكريم الدنيا زينة، وهي علامة تمييزية، أنها ذات طبيعة شكلية، وهو ما تكون عليه، وما يعطيها طابعها المادي، قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾⁴، فالمال والبنون زينة الدنيا في مقابل الباقيات الصالحات زينة الآخرة، يقول ابن فارس: "الزينة: زين: الزاء والياء والنون أصل صحيح يدل على حسن الشيء وتحسينه"⁵، وفي اللسان: "تزينت الأرض بالنبات وازينت.. أي حسنت وبهجت"⁶، حيث يتحدد وجه الحسن والبهجة الدال على زينتها انطلاقاً من النظر في ملء الفراغ بالزينة أو بالباقيات، وهكذا تكون المجاهدة في هذا الوجود المفتوح، يوضح الأستاذ "مالك بن نبي" هذه الصبغة بقوله: "هناك أساساً طريقتان لملء الفراغ، إما أن ينظر المرء حول قدميه أي نحو الأرض، وإما أن يرفع بصره نحو السماء"⁷، فالنظر إلى الأرض ما هو إلا تعبير عن نزعة مادية تزيينية للدنيا، والنظر إلى السماء يعبر

¹ - ابن منظور : لسان العرب، مج3، ص 426.

² - ابن فارس : مقاييس اللغة، ص 301.

³ - ابن منظور : المصدر السابق، ص 427.

⁴ - سورة الكهف : الآية 46.

⁵ - ابن فارس: المصدر السابق ، ص 394.

⁶ - ابن منظور : المصدر السابق، ص 450.

⁷ - مالك بن نبي : مشكلة الأفكار، ص 17.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

عن نزعة روحية بالباقيات الصالحات للآخرة، وهذا عندما تتخذ الحقائق صفة الفكرة [= الإيمانية]، ولكن هذه النزعة المادية، "لعلها مغروسة بعمق في الفطرة الإنسانية"¹، مما يعني أنه في غياب الفكرة الإيمانية تصبح الحياة الدنيا [= زينة مالا أو بنياناً]، فهذه الرغبة الجامحة تصعد من النفس، وتستهلك زمن الكائن وتستغرقه، ومن ثم فهي نظر إلى سطح الحقائق، وميل إلى الأخذ من هذا العالم المادي، "فمادة الشيء: هي التي يحصل الشيء معها بالقوة، وقيل: المادة الزيادة المتصلة"²، وذلك عندما يكون الوقوف عند حدود قشرة الظاهر، وهذا الحال دال على تشييء الحياة، فتنحول إلى مادية صرفة، وعندها تكون خطراً وشقاءً وإعاقة.

ويأخذ المال مظهر المادة عندما يكون تقابلاً مضاداً لفكرة وغاية للمعنى الروحي، ولفكرة التكريم الإنساني يخرج الإنسان من دائرة الصلاح، لهذا اعتبر الإمام المال نقيضاً بخط الاستقامة قائلاً: "المال مادة الشهوات"³، وهذه المقولة تجعلنا نقر بجملة القواعد الآتية:

- 1- المال مادة، ومنه تكون فكرة المادية صبغة تدل على هذه الطبيعة.
- 2- المال وقود وطاقه، وقوة انفتاح على مسار الشهوات، المضاد لخط الاستقامة.
- 3- المادية زينة، وتعني الانغماس في جمع المال والإفساد به وعلامته الشهوات. وعليه فإن هذه الفكرة تعد نقيضاً تقابل الروح، كما يقابل الفساد الصلاح.

1- المال والصورة المادية: يمكننا أن نأخذ أفكاراً من أحاديث نبوية نستضيء بها في هذا التحليل، ونفتح بها مجالاً لتأويل ينسجم مع الضرورة السياقية لحركة الحياة، وما تتطلبه من إدارة ذكية لتنظيم هذا الشأن المالي، ليصبح أداة صناعة الخيرية :

- الأول: "إلا ما أكلت فأفريت، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت"⁴.
- الثاني: "الأنبياء، لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم"⁵.
- الثالث: "نعم المال الصالح للمرء الصالح"⁶.

تكشف الأحاديث عن التصورات والسياسة الضابطة لكيفية التعامل مع المال، وتحدد في:

¹ - العمري أحمد خيرى : الفردوس المستعار و الفردوس المستعاد، دار الفكر، دمشق، 2006، ط1، ص 220.

² - الشريف الجرجاني: التعريفات، ص 163.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 439.

⁴ - أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، ج 26، ص 247.

⁵ - المصدر نفسه، ج 36، ص 46.

⁶ - البخاري محمد بن اسماعيل: الأدب المفرد، تح سهير بن أمين الزهيري، مكتبة المعارف، الرياض، ج 01، 1998، ط1، ص 155.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

- أن المقدار المحدد في المال هو ما يقيم حياة الإنسان في يومياته.
 - ضرورة توظيف طاقة المال في سد الحاجيات الضرورية، وإنفاقه بالتصدق في عمارة الآخرة.
 - أن الوراثة الحقيقية تكون بالعلم، بينما يعد المال وسيلة وأداة العمارة.
 - يتحقق صلاح المال، بصلاح الفرد، وحركة الإنفاق الصالحة.
- يتحدد الشرط في المال، بقانون الصلاح في صاحبه وفي حركة إنفاقه، وهي نفسها قاعدة الكسب التي تحقق مقصد إدارته، وأما إذا خرج عن هذا الحد صار مفسدة تقود إلى الشهوات، وعليه صار هو المادة التي تشعل النفوس في هذا العالم بالإفساد في الأرض، بينما نستلهم من الباقيات الصالحات فكرة الباقي على الفاني، أي الامتداد في الآخرة، "فما كان للنفس فيه حظ فهو من زينة الحياة الدنيا"¹، وتفضيلها، لأنها تخرج عن دائرة حظوظ النفس، "وهي الأعمال التي بشواهد الإخلاص والصدق"²، ومن تلك الباقيات ما جاء في قول النبي ﷺ: "إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة أشياء، من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"³، فالحديث يشير إلى باقيات صالحات ممتدة في الإنماء والتزكية والرشد؛ فالصدقة الجارية، والعلم النافع، والولد الصالح، هي أساس تركيز فكرة الصالح من الأعمال لتبقى حركة الانتفاع إلى ما بعد الدنيا، والأداة المحسنة لهذا البقاء [= الباقيات]، وبالمقابل يكون المال الفاسد، والأبناء الفاسدون دون تربية، من الزينة، ولذا فهم مادة أخرى يدخل بها أصحابها الدنيا بمخالفة الحق ومبدأ الخيرية. وقد ورد لفظ المال في سياقات قرآنية بدلالات متنوعة، نجملها في:

الآية	الدلالة
1- قال تعالى: "وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا" [الفجر 20].	- محبة المال.
2- وقال: "وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِاللَّيِّ تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا" [سبأ 37]	- ربط المال بالإيمان والعمل الصالح.
3- قال تعالى: "وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا" [الاسراء 64].	- مدخل الشيطان، للسيطرة ومشاركتهم الفساد.
4- قال تعالى: "سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا" [الفتح 11].	- مشغلة المال.
5- قال تعالى: "إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ" [التغابن 15].	- فتنة المال.

¹ - القشيري : لطائف الإشارات، مج2، ص 398.

² - المصدر نفسه، ص 398.

³ - أبو داود: سنن أبي داود، بيت الأفكار الدولية، عمان، ص 336.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

6- وقال أيضا: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ" - الإلهاء عن ذكر الله. [المنافقون 9]	
7- قال تعالى: "اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ" [الحديد 20].	- التكاثر الزائل.
8- قال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ" [الأنفال 36].	- الصد عن سبيل الله.
9- وقال أيضا: "وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ" [المعارج 24-25]	- الحق الشرعي في المال.

لخصت هذه الآيات خطر المال على الإنسان، ولذا فهو صورة حية لمادية الحياة.

2- المال والشقاء: في رصد لأكثر من خمسة وعشرين آية قرآنية ورد فيها ذكر المال، جاء أغلبها

في سياق التحذير من سلطة المال ومخاطره، وكان توصيفه يقع في صورة الذنب، باعتبار توظيفاته التي تقيمه في خط الإعاقاة المنهجية عن الحق والذكر، وأهمها أنه فتنة وذلة وسلطة وهلاك وإضلال للإنسان، كما أنه عامل اغترار يقود إلى الفساد والشقاء، وخلاصة ذلك أنه إعاقاة لطريق الكمال، وهذا عندما ينفق في غير وجوه الحق، وفي هذا يقول الإمام: "ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة، ويكرمه في الناس ويهينه عند الله، ولم يضع امرئ ماله في غير حقه ولا عند غير أهله، إلا حرمه الله شكرهم، وكان لغيره ودهم، فإن زلت به النعل يوما فاحتاج إلى معونتهم فشر خليل وألم خدين"¹. فالقاعدة المبينة هنا من هذا القول أن إعطاء المال في غير حقه يعد تبذيرا وإسرافا، والأمر الثاني أن للمال بهذا الوجه آثار ومترتبات في الدنيا والآخرة، نوضحها في هذا الجدول:

أثره الأخروي	في وضع الفساد	أثره الدنيوي
- يضعه في الآخرة.	• في غير حقه : • لغيره وده	- يرفع صاحبه في الدنيا. - يكرمه بين الناس. - حرمه الله. - شر خليل وألم خدين.
- يهينه عند الله.	• لا عند غير أهله : • حرمان الشكر	
الصيغة : الصورة المادية - الفساد ← محدودية حركته في الدنيا : المال		

يحمل المال تأثيرات عجيبة على النفس، حيث يقود إلى الشهوات، كما أن توظيفه السيئ يحقق مكانة دنيوية بين الناس، بينما تبقى تبعاته قائمة، ويبدأ المال من جمعه واستخدامه، وينتهي

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 180.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

بمسؤولية إنفاقه في وجوهه، وقد اتبع الإمام من خلال هذا التوصيف أسلوباً نهج به إلى إظهار القاعدة الآتية في بيان العلاقة بين الإنسان والمال، فقد أثار القاعدة ببيان القاعدة، أن إعطاء المال وإنفاقه في غير أهله وحقه تبذير وإسراف، وخسران لسند العلاقات الداعمة، وخسارة للآخرة، ولا يجلب لصاحبه إلا الوضاعة والمهانة، و"لذلك نجد أن كل ما في المادية قوانين ليس فيها مسألة واحدة من مسائل نظام الحياة"¹، لأنها قوانين الانتفاع والريح الذي يرفع الإنسان في الدنيا بسلطة المال، بينما تنتفي معها مقاصد الخيرية من المال، وبذلك يصير معول هدم لنظام الحياة الصالحة، "فإن تحول المال من كونه وسيلة ليصبح غاية، يدمر إنسانية الإنسان، ويقوض أمن المجتمعات"²، فالمال بهذه الصبغة المادية مدمر الطاقات، ومعيق تحصيل الكمالات الإنسانية، ووسيلة لتحصيل المآرب والمنافع، يغرق الإنسان في الشهوات.

يتبين مما سبق أثر المال في إعاقة الإنسان لتحقيق سويته وصلاحه وتوازنه، ولخطره يبرز الإمام ضرره القاتل بهذا الأسلوب المرعب، فيقول: "ذاك حيث تكون ضربة السيف على المؤمن أهون من الدرهم وحله، ذاك حيث يكون المعطى أعظم أجراً من المعطى، ذاك حيث تسكرون من غير شراب، بل من النعمة والنعيم"³، فهذه المفاضلة التي راجح بها الإمام ضربة السيف أن تكون أهون من الدرهم، والأمر يأخذ هذا الوجه، لأن أهل الباطل يكونون كثرة في الزمن وظلمة في الأيام، وهذا سبب من أسباب هذا الانقلاب في المفاهيم، وحالة تشيء تترجم فكرة المادية التي "تجعل الإنسان نهباً للقلق والأرق والمرض النفسي القاتل"⁴، هذا التدمير الذاتي هو عنوان للإفلاس الإنساني، ولذلك الانحراف والشقاء، ويحمل المال معه آلاف القتلات، قتل عبر عنه الإمام بالسكر، سكر النعمة والنعيم من الرفاه المنعم، وهو وضع تحول يكون فيه "الخير في الفقراء، ويعم الشر جميع الأغنياء، فيعطي الغني سرفاً وتبذيراً، وينفق الفقير ما يأخذ من مال الغني في وجهه الشرعي"⁵، وصورة هذا الانقلاب تحصل عندما تبسط الدنيا بما لها ونعيمها على الناس، فتفتتح عليهم أبواب الشهوات، وتنعلم فرص ترقى الإنسان نحو الصلاح والأكملة.

¹ - محمد متولي الشعراوي : محمد الإنسان الكامل، ص 36.

² - راجي الأسمر: فلسفة التربية الإسلامية، ص 305.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 261، 262.

⁴ - محمد عبد الرحمان مرجبا : الفكرانية، ص 426.

⁵ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 262.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

إن هذا المال الذي لا يوظف ولا يصرف في وجهه الصحيح، يزيد الأمر سوءاً، عندما يتصف صاحبه بالبخل، حيث يبخل به عن نفسه ويتركه ورائه ويذهب دون انتفاع، يقول الإمام: "هذا ما يبخل به الباخلون، وهذا ما كنتم تتنافسون فيه بالأمس"¹، قال هذا الكلام عندما مر بمزبلة، تصرف بإنفاق وانتفاع يخلو من التصرف الحكيم، وهذا ما تنافس الناس في جمعه، يلخص ضياع الحياة في غير صواب، ونسيان الإنسان الرسالة الموكلة إليه، وكله ثمرة لحب المال وجمعه، والتنافس فيه ثم البخل به، والانغماس به في المادة والشهوات، وحاصله أنك أيها الإنسان "لا تستطيع أن تقترب إلى فهم الآخرة، وأنت غارق في ثبات الكلمة أو ثبات الدنيا"². وعدم فهم الآخرة سببه هذا الثبات على خط الدنيا وانعدام الحيوية والمرونة والحرية، وغياب الأدوات المحركة لمثل هذا الفهم وتجاوز كل راهنية مادية بالتححرر الذاتي من المادة، والتفاعل الحي مع الحقائق.

إن المال يعد وسيلة وأداة لتنفيذ فكرة الخيرية، وفكرة الصلاح والبناء والعمارة، وعليه فهو لا يغري إلا الفجار وهو غايتهم، يقول الإمام: "أنا يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الكفار"³، فالرجل الكامل والمؤمن السوي يكون قائداً يستضيء به المؤمنون، يقودهم إلى طريق الهدى، بالنور الذي معه، بينما أصبح القائد الثاني [= المال] رائد الفجرة والكفرة، يقودهم إلى الهلاك، حيث يجمعونه ويفسدون به، قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾⁴، فالمال رئيس الفجار ومذهب حياتهم، وهو ما يدخلهم في لب المادية نزعة وأسلوباً، وحركة متسافلة تستولي على تلك العقول الكليية والنفوس الضعيفة، وعليه "فالناس خاضعون للمادة بقانون حياتهم"⁵، لا بقانون الحق يخضعون ويتحركون، وتزيد الحسرة والوجع عندما يدخل الورثة والحوادث، فيضاعفون من نتائج هذا الإفلاس باعتبارهم الشراكة الضمنية لهذا الإجهاز، يقول الإمام: "لكل امرئ في ماله شريكان الوارث والحوادث"⁶، فالشراكة في المال بالوراثة والحوادث تشكل منغصات حقيقية تعرض الإنسان على الحسران، خسارة الإيمان وعمل الخيرات في الدنيا، وضياع المكسب الأخروي.

¹ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 460.

² - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 269.

³ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 481.

⁴ - سورة الفجر، الآية 20.

⁵ - مصطفى صادق الرافعي : وحي القلم، ج3، ص 36.

⁶ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 484.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

ويقودنا الإمام إلى إثبات هذه الترجمة، حيث لا يكون المال غاية وبديلاً، نظراً لتبعاته الدنيوية والأخروية، وأن شراكة الحوادث والورثة في المال، تجسد وسم الشقاء والانحراف، إلا أن المال هو مصدر نفع مع كياسة الأذكياء، وتأتي مضاعفة أخرى فتعظم من ثقل الخسار يعلن عنها الإمام بقوله: "إن أعظم الحسرات يوم القيامة حسرة رجل كسب مالا في غير طاعة الله، فورثه رجل فأنفقه في طاعة الله سبحانه فدخل به الجنة، ودخل به الأول النار"¹، يسلط الإمام الضوء على الشريك الأول: الوارث، وتحليله يؤول بإمكانية الانتفاع العظيمة، حيث يدخله ماله الجنة، بإنفاقه في هذا الوجه، بينما صاحبه وجامعه يدخل به النار، وهذا ما يلخص لنا حجم الانهيارات التي يصلها الإنسان في غياب الرشد وعدم سلوك طريق الصلاح. وكل ما يولج إلى مسخ الإنسانية، وفقدان الكرامة، "فلا إعطاء المال دليل الكرامة، ولا الفقر دليل الإهانة"²، التي هي أخلاق ومعنى وإنسانية، تمكن من إدارة الحياة بما فيها المال، وإدارة الذات بحكمة وعقل وضبط، إلا أن حب المال والسعي إلى تحصيله يصبح أداة لامتهان الكرامة وضياعاً يغرق الإنسان في المادية المقيتة، وعليه فإن الآثار التي تترتب عن انتهاج هذا الخط تتمثل في إعاقة الإنسان عن الكمال وإضاعة فرص عمره، والبطء في عمل الصالحات. إذن فالمال قائد إلى الشهوات، ووسيلة كل انحراف.

II / زينة الحياة الدنيا: إن من أكثر الموضوعات طرقت في نهج البلاغة الحديث عن الدنيا، والتحذير من خطرها، فهي من المحاور الرئيسية، ذات الحضور القوي، مثلها مثل التقوى والشيطان، وتدل في المحمل على نزول في المرتبة، وتفضيل الآخرة عنها لشرفها وعلوها وبقائها، ولذا ينبغي أن يسعف الإنسان نفسه بوعي عال وفكر بصير يمكنه من إدراك كنها، ليتأسس وجوده على مقاصد واضحة، أما إذا كانت هي الغاية والحد، فإنها لن تكون إلا صورة دالة على الشقاء، باعتبار هذه الحتمية.

1- المفهوم والحقيقة: إذا أردنا أن نعثر على مفهوم جامع للدنيا يبرز مدلولها وحقيقتها بشكل بين، فإن مصدر هذه الإحاطة هو القرآن الكريم، ثم نأتي بعدها إلى تصورات الإمام للدنيا ثانياً، لتكوين جهاز مفاهيمي مؤطر لحقيقتها.

أ- في القرآن الكريم: وردت هذه الكلمة بتوصيفات عديدة، ومن دالاتها:

1- الزوال بعد التمام: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 498، 499.

² - محمد متولي الشعراوي : موسوعة الأحاديث القدسية، ج 01، ص 45.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ¹، ينتهي هذا النماء إلى حصاد، "كذلك الإنسان بعد كمال سنّه وتمام قُوّته واستجماع الخصال المحمودّة فيه تَحْتَرُمُهُ الْمَيِّتَةُ"²، وهذا معناه أن الدنيا زائلة منتهية، ولذا ينبغي أن يكون نظر الإنسان فيها إلى ما أبعد منها، إلى الآخرة.

2- الزينة والمتاع: قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا³، فزيتها ومتاعها علامة مثبتة لإغرائها، "فالدنيا حلوة خضرة، ولكنها في التحقيق مرة مذرّة (فاسدة)"⁴، لذا كان الوعد الحسن لقيًا ومكافحة، بينما المتاع منقطع منته.

3- إرادة الحياة الدنيا وإرادة الآخرة: قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَّصِيبٍ⁵، وتمثل إرادة وموقفًا حرا لحارث الدنيا ولحارث الآخرة، فالأولى تتميز بالمحدودية ونهاية القصد، بينما تنفتح الآخرة لعاملها غاية وقصدا.

4- الموازنة بين ابتغاء الآخرة وتحقيق نصيب الدنيا: قال تعالى: ﴿وَأَنْتَعِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ⁶، إن قصد الإنسان يتعلق بالآخرة مع أخذ نصيبه من الدنيا باعتدال وإحسان، أي "ما يكون فيه فائدة بحيث لا يعقب ندمًا، ولا يوجب في الآخرة عقوبة"⁷، بمعنى حركة إنسانية وفق منهج الحق تدرك به حقيقتهما.

وجمّل أفكار هذه الآيات القرآنية وملخصها، أن الدنيا زينة مغرية وامتحان تتطلب تدبرا ونظرا لفقه حقيقتها، فهي تعد السلم والأرضية البيانية في استشراق الآخرة، تدرك عقلا من خلال علامات الدنيا الدالة على انتهائها، ينتهي به هذا إلى فهم ذكي، بأخذ نصيبه وفق منهج الحق.

ب- في نهج البلاغة: أخذنا أربع آيات مفصلة لتحديد المعالم التي ترسم طبيعة الحياة الدنيا، تقدم رؤية جلية عنها وتصورا سليما في الأذهان تهتدي به عقول الناس، لتدرك حقيقتها، وجمّل هذه النقاط تصب في أفكار ربانية كاشفة وبانية، فهذه الخلاصات ضرورية لفهمها فهما وظيفيا

¹ - سورة يونس، الآية 24.

² - القشيري : لطائف الإشارات، مج2، ص 88.

³ - سورة القصص، الآية 61/60.

⁴ - القشيري : المصدر السابق، مج2، ص 75.

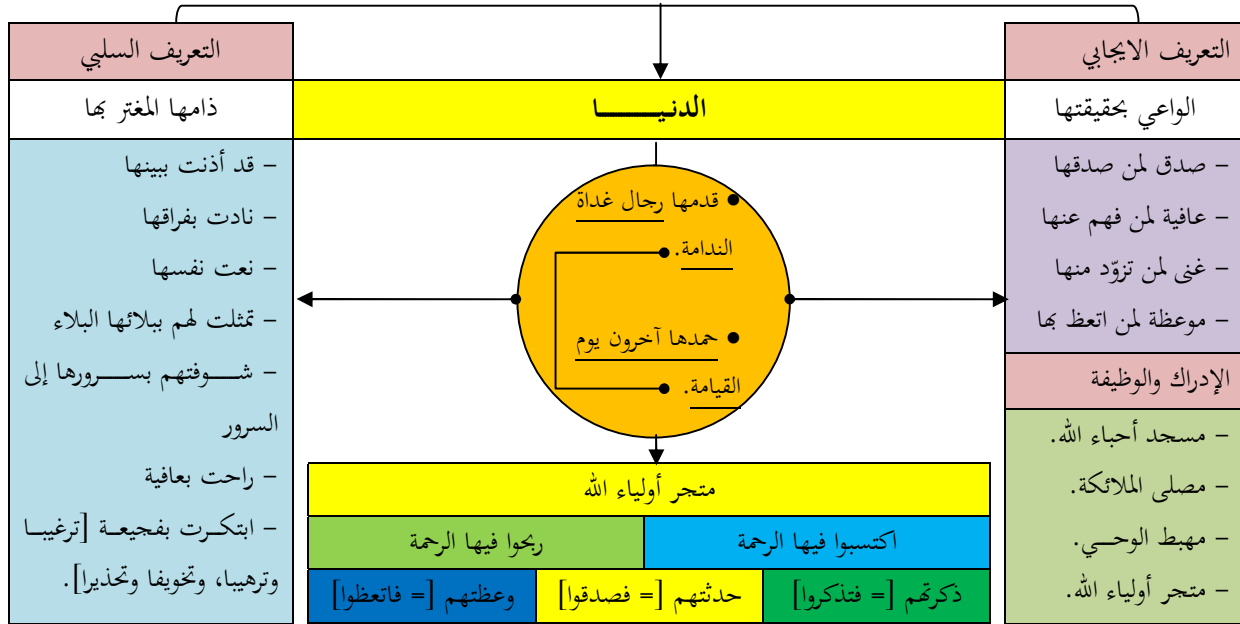
⁵ - سورة الشورى، الآية 20.

⁶ - سورة القصص، الآية 77.

⁷ - القشيري : المصدر السابق، مج3، ص 71.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

حيويا، وسنرى أن تحديدات الإمام هي توضيحات بينة لهذه الخطوط، ونبدأ مع توجيهه لرجل سمعه يذم الدنيا قائلا: "أيها الدام للدنيا، المعتز بغرورها، المخدوع بأباطيلها، أتغتر بالدنيا ثم تدمها؟ أنت المتجرم عليها أم هي المتجرمة عليك (...)"¹.



يمكن أن نعد هذا التوصيف تعريفاً أولياً للدنيا، ويعني هذا أن الدنيا لا تحمل الصفة السلبية فقط، بل وصفها الايجابي أنها مزرعة الآخرة، تحمل للناس العظمت، تذكيراً لهم، وندامة للبعض وتكون سرورا لآخرين، فقد "جعلت الهالك قبلك مثالا لنفسك تقيسها عليه"²، وهذا يلخص لنا فكرة مهمة أن معرفة جوهر الدنيا الحقيقي، وما يمنحها الصفة الحسنة يعود إلى الإنسان وإرادته، لتكون الدنيا هي المكان الوحيد الذي تكتسب فيه الرحمة وتربح فيه الجنة، فالذين حمدوها "هم الذين عملوا فجنوا ثمرة أعمالهم"³، نتيجة لنظرة حكيمة، احتكمت إلى منطق الصواب والعقل ونور البصيرة، يقول الإمام: "الدنيا دار ممر لا دار مقر، والناس فيه رجلان: رجل باع فيها نفسه فأوبقها، ورجل ابتاع نفسه فأعتقها"⁴، فهي دار عتق وممر إلى الآخرة بالعمل، ومعيق الكمال وحالة خسار للآخرة، ويقدم الإمام فهما دقيقا لمعنى الدنيا في رده على أحد عماله اشترى دارا له، قائلا: "هذا ما اشترى عبد ذليل من عبد قد أزعج للرحيل، اشترى منه دارا من دار الغرور من جانب الفنين، وخطة

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 450، 451.

² - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 450.

³ - المصدر نفسه، ص 451.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 451.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

المالكين، ويجمع هذه الدار حدود أربعة: الحد الأول ينتهي إلى دواعي الآفات، والحد الثاني ينتهي إلى دواعي المصيبات، والحد الثالث ينتهي إلى الهوى المردي، والحد الرابع ينتهي إلى الشيطان المغربي، وفيه يشرع باب هذه الدار.

اشترى هذا المغتر بالأمل من هذا المزعج بالأجل هذه الدار بالخروج من عز القناعة والدخول في ذل الطلب والضراعة، فما أدرك هذا المشتري في ما اشترى منه من درك، فعلى مبليل أجسام الملوك، وسالب نفوس الجبابرة، وكزيل ملك الفراغنة...، ومن جمع المال على المال فأكثر، وبني وشيد وزخرف، ونجد وادخر، واعتقد ونظر بزعمه للولد. إشخاصهم جميعا إلى موقف العرض والحساب، وموضع الثواب والعقاب، إذا وقع الأمر بفضل القضاء وخسر هنالك المبطلون.

شهد على ذلك العقل إذا خرج من أسر الهوى، وسلم من علائق الدنيا¹.

إن هذه الدار التي اشتراها شريح ما هي إلا رمزا يغطي على الطابع المادي الذي يدخله الإنسان في الحياة، حيث يبعه هذا عن أداء دوره والحفاظ على إنسانيته وقيمه الروحية، والفكرة التي تحركه نحو الكمالات، عند هذه النقطة تنفتح المخاطر أمامه وتشرع أبواب الخسارة، "فإذا أنت قد خسرت دار الدنيا ودار الآخرة" بتعبير الإمام، والملفت هنا أن الإمام استبدل حدود الدار التي تكتب في عقد الشراء، وتخط بعلامات محددة لفواصل جهاتها، بحدود رمزية وعلامات تدل على ذلك الانفتاح على عالم الدنيا وما فيه من مال وشهوات تقود إلى الانحراف، وحدودها هي:

الحد الأول: ينتهي إلى دواعي الآفات.

الحد الثاني: ينتهي إلى دواعي المصيبات.

الحد الثالث: ينتهي إلى الهوى المردي.

الحد الرابع: ينتهي إلى الشيطان المغوي. ← وعند هذا يشرع باب هذه الدار.

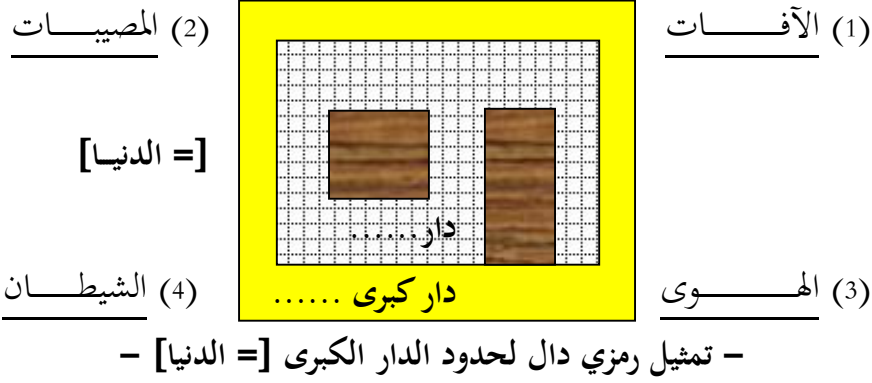
ونلاحظ هذه المزاوجة الذكية الهادفة، من خلال عملية الربط الرمزية بين الدار المشتراة ودار الدنيا، واضعا لها حدودا خطيرة مؤسسة على هذا الفعل، وهي حدود تسوق الواحدة إلى الأخرى، من الآفات، إلى المصيبات، إلى الهوى، إلى الشيطان، وهنا الخطر الحقيقي، وكأنه - الإنسان - يتقدم رويدا رويدا إلى الهلكة والفخ المنسوب له بإحكام، "ومن هنا ذم الله الحياة الدنيا، من حيث هي طول يُتلهف"²، والتلهف هو على تلك الحدود التي تشرع على باب الهلاك الحتمي، ولهذا قال

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 336، 337.

² - الأنصاري فريد : جمالية الدين، معارج القلب إلى حياة الروح، ص 122.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾¹، هذا المعنى عبر عنه الإمام بقوله لشريح: "اشترى هذا المغتر بالأمل من هذا المزعج بالأجل هذه الدار بالخروج من عز القناعة والدخول في ذل الطلب والضراعة"، وإن القناعة عز وعلامة مؤولة لذلك الأسلوب الذكي في فهم الدنيا وإحسان التصرف والإدارة المتوازنة بين المصالح، وإن مجانبة هذا يدخله في ذل مستدم، بخطه سلوك طريق الشقاء، إذن لقد صارت بهذا معيقات كمالها، ونوضح هذه المخاطر المعيقة بهذه الترسيمة:



ولقد كان الحد الرابع الذي وضعه الإمام، هو الذي ينتهي إلى الشيطان المغوي، يقول ابن أبي الحديد: "فإن قلت: لم جعل الشيطان المغوي في الحد الرابع؟ قلت: ليقول: وفيه يشرع باب هذه الدار، لأنه إذا كان الحد إليه ينتهي كان أسهل لدخوله إليها ودخول أتباعه وأوليائه من أهل الشيطنة والضلال"²، فدوره في الإفساد والإغواء كبير، وتلخص الدنيا باعتبارها أخطر معيق، وإذا أردنا استدلالاً يثبت تأويل الإمام هذا، فإنه أحال شريح ونحن معه إلى إعمال عقولنا الإيمان الحالي من تأثير الهوى وعلائق الدنيا: "شهد على ذلك العقل إذا خرج من أسر الهوى، وسلم من علائق الدنيا"، وهما شرطاً قوامه وكماله، وهذا ميزان حكيم لفهم منهجي وظيفي للدنيا، والعامل يدرك هذا المعنى، ويتحرك بتدبره وتأملاته ليفقه خطر الدنيا وتلبسها بمفاتيح مختلفة، وغيره ييسر دخول الشيطان إلى حياته، ليصنع به ما يعجز عنه بغيره، والمعنى من هذا أن الشيطان لا يفلح مع إنسان يملك عقلاً إيمانياً كاملاً خالصاً يدرك به مصرعها للملوك والجبابة.

ويأتي هذا الضبط لمفهوم الدنيا تصحيحاً لكل تصور خاطئ، ويدفع الإنسان إلى أن ينظر إليها نظرة متوازنة متكافئة، نظرة بناء لا تقف عند سطح الأشياء والحقائق، وإنما بالبحث عن المعنى الذي كثيراً ما يغيب ويحتجب وراء حوائل تقف دون تمثله، لذا وضع الإمام هذه الجملة الحكيمة

¹ - سورة الأنفال، الآية 67.

² - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج 7، ج 14، ص 18.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

فكرة كاشفة لهذه العلاقة القائمة بين الإنسان وهذه الدنيا: "الناس أبناء الدنيا، ولا يلام الرجل على حب أمه"¹، مما يعني أن هذا الحب طبيعي، لأنهم أبناءها، طبيعة تكوينية [= حب الدنيا] متأصلة فيهم وليست ملحقة، وما تحمله النفس الإنسانية من نزوع نحوها، إلا على الأحرار أصحاب العقل الإيماني، وتحمل هذه الفكرة بالتأويل الكاشف، أن البنوة تكون طاعة وصلاحاً، وعاطفة وعقلاً، تمكن من بناء الآخرة عليها، يراها الإنسان يقينا يتحقق بالعمل الصالح، على هذا المسرح المنبسط بعظمته، وهذا استثناء كمالي في الأمثال، وأما أبناءها فهم أهل الشقاء على ظهرها يفسدون.

2/ الوصف والنعته: يقول الإمام في كلام له يحدد فيه هذا المعنى أن الدنيا زينة: "والدنيا مُني لها الفناء، ولأهلها معها الجلاء، وهي حلوة خضرة، وقد عجلت للطالب والتبست بقلب الناظر، فارتحلوا عنها بأحسن ما بحضرتكم من الزاد، ولا تسألوا فيها فوق الكفاف، ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ"²، فما هي هذه الدنيا في نظره؟

إن حقيقة الدنيا أنها دار فانية بالتقدير الإلهي، قدر على أهلها الجلاء، مما يستدعي إعادة النظر في فهم حقيقة هذا الوجود، وهذا لما تحمله الدنيا من تناقض يعاكس الديمومة بـ:
أ- وجوب الحذر منها.

ب- معرفة الغاية من الوجود فيها.

ج- العمل بما يحقق هذه الغاية، ومقاصد الحياة عليها.

وعند النظر إلى صفاتها تنجلي حقيقتها، فهي حلوة خضرة، أي أن تأثيرها السحري في الإنسان عجيب، فهي طاقة جاذبة، أي أنها "عجلت للطالب"، و"التبست بقلب الناظر". ونتج ذلك أنها زينة تغري أهلها بمتاعها، فتنة وابتلاء، توقع في درك الشقاء بهذا الإغراء، بفعل العجز عن مواجهته، والقصور عن إدراك سحرها وتأثيره، ولذا فإن التعامل الذكي في إدارة هذه الحياة حتمي، لأن "الدنيا تقاس بعمر الإنسان فيها"³، هذه الحتمية أبرزها الإمام في شكل تحذير وحسن تصرف واع ومسؤول، أقامه الإمام بين ثلاثية تسييرية لمعيق الدنيا:

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 480.

² - المصدر نفسه، ص 75.

³ - محمد متولي الشعراوي: موسوعة الأحاديث القدسية، ج 1، ص 351.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

- ← - المتوجب: زاد فاضل الأخلاق، وصالح الأعمال.
- ← - الكيفية: الكفاف وهو مقدار القوت.
- ← - القص: الطلب فيها لا يتعين أن يتعدى ما يتبلغ به أو يقتات به.

إن هذا التحذير والبيان للكيفية التي يتطلبها قوام وجود الإنسان في الدنيا يتحدد بدوره فيها، وتجنبها معيقا يقود إلى الشقاء، وفي هذه الهندسة الكفائية التي يرسمها الإمام الجامعة بين فضائل الأخلاق، وصالح الأعمال، وبين الكفاف والطلب المبلغ تبني الدنيا، وهي الحقيقة التي يكشف عنها حديث النبي ﷺ: "من أصبح منكم آمنا في سربه، معافى في جسمه عنده طعام يومه، فكأنما حيزت له الدنيا"¹. إن هذا الحد، هو حد [= كفائي، كمالي، جمالي، تبصيري]، يعتمد أسلوب القناعة منهجا، والضبط والتحكم في شهوات النفس وهواها وشغفها بزينة الحياة الدنيا طريقا، وهذا الحد ينبغي أن يقف الإنسان عنده، حتى لا تفتح في وجهه باقي الحدود.

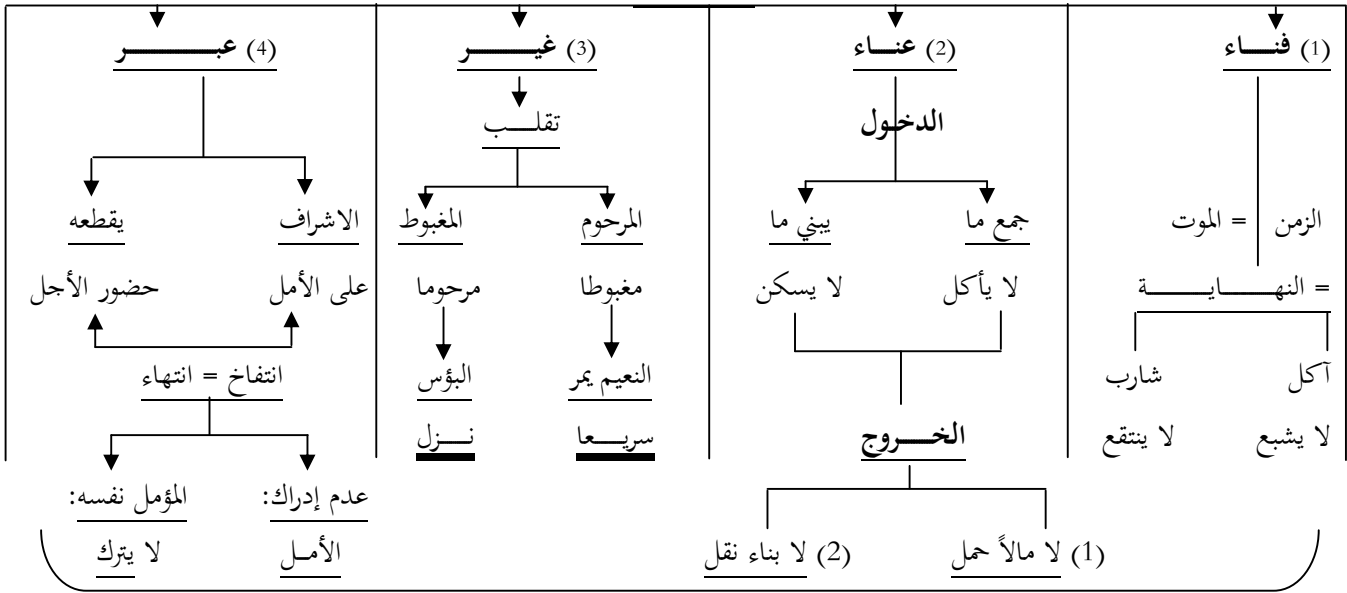
يمدنا القول الموالي للإمام بتوصيف آخر لحقيقة الدنيا، فيقول: "ثم إن هذه الدنيا دار فناء وعناء، وغير وعبر، فمن الفناء أن الدهر موتر قوسه لا تحطىء سهامه ولا توسى جراحه، يرمي الحي بالموت والصحيح بالسقم والناجي بالعطب آكل لا يشبع وشارب لا ينتفع ومن العناء أن المرء يجمع مالا يأكل ويبنى مالا يسكن، ثم يخرج إلى الله لا مالا حمل ولا بناء نقل... ومن غيرها أنك ترى المرحوم مغبوطا، والمغبوط مرحوما، ليس ذلك إلا نعيما زل، وبؤسا نزل. ومن غيرها أن المرء يشرف على أمله فيقطعه حضور أجله، فلا أمل يدرك ولا مؤل يترك، فسبحان الله ما أغر سرورها واطمأ ربها وأضحى فيئها، لا جاء يُرد، ولا ماض يرتد، فسبحان الله ما أقرب الحي من الميت للحاقه به، وأبعد الميت من الحي لانقطاعه عنه"²، وبهذه الصفات الأربع تتحدد قيمة الدنيا وحقيقتها، فهي:

¹ - الحميدي أبو بكر القرشي: مسند الحميدي، ج 01، ص 407.

² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 167، 168.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

الدنيا = دار



معادلة نهاية الدنيا: ثنائية ضدية: قرب الحي من الميت [=لحاقا واتصالا]، وثنائية تقابلية: بعد الميت من الحي [=لانقطاعه].

- ترسيمة كاشفة لحقيقة الدنيا وصفا ونعتا -

يكشف تأويل الإمام لدال الدنيا عن حقيقة اعتبارية متعلقة بالدنيا، فهي دار من جهة الحقيقة، وأما من جهة الصفة، فهي دار [= فناء + عناء + غير + عبر]، تدل على النهاية والعظة والعبرة، قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾¹، ويفترض وصف حقيقتها ضرورة تفضيل الآخرة عنها، والعمل والسعي لنيلها، باعتبار أن الدنيا أرضية تشييد الحياة الثانية، وبهذا يتم تجاوز معيق الدنيا، ومزلقها المردي إلى الانحراف والشقاء، وهذا ما يظهره الإمام بقوله: "واعلموا أن ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة خير مما نقص من الآخرة وزاد في الدنيا، فكم من منقوص رابح ومزيد خاسر!!"². إن هذه المعادلة الموضحة لهذا المعنى تستوقف الإنسان، ليعتبر ويرتب وضعه في الحياة بشكل يقوم على الحكمة والاتزان، فهي متقبلة تحمل عبرة تستدعي النظر، فإذا ما اعتبر الإنسان أن الدنيا غاية انتهائه، فإنه يجد نفسه بجدها، ويتمتع بما فيها، وهذا التمتع "بالدنيا ما هو إلا لمدة قصيرة"³، وبهذا التصور فإن الدنيا هي من المعينات التي تنهي طاقة الإنسان وقدراته التي بها يصل إلى الكمال، وعامل فساد إنسانية الإنسان، وإلغاء مقاصد وجوده، وفي وصف آخر للدنيا تجافى فيه تقديم نعوت أخرى، ليركز على

¹ - سورة العنكبوت، الآية 64.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 168.

³ - ابن عاشور محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ج 11، 1974، ص 141.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

تحذير منه، غلب عليه الوعظ والعظة، فيقول: "ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء، في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن، ومن ساعاها فاتته، ومن قد عنها واتته، ومن أبصر بها بصرته، ومن أبصر إليها أعمته"¹، في هذا القول كثير من المعاني الدقيقة والعميقة التي تحتاج إلى فقه يبصر بحقيقة الدنيا، فمن حيث الحد، فهي تتحدد بالعناء والفناء والغير والعبر، ومن حيث المحتوى ترتبط بفكرة العمل والأداء والتوفيق، إضافة إلى الاختيار والامتنال، إما الامتنال لمادية الدنيا، أو الامتنال للحق، وعليه فإن وجود الإنسان في الدنيا، ليس وجوداً من أجل اللعب أو اللهو أو للزيادة، وإنما لوظيفة وغاية، وهذه الغاية تشرط باستلزام، وهي المحددات التي كشف عنها الإمام، كقواعد ضبط، ومنهج سير يقود إلى النجاح، بل والامتياز في العمل والحضور، نحددها بهذه القواعد الثنائية:

قاعدة 1 : ثنائية أولى: حلالها حساب، وحرامها عقاب.

قاعدة 2 : ثنائية ثانية: من استغنى عنها فتن، ومن افتقر فيها حزن.

قاعدة 3 : ثنائية ثالثة: من ساعاها فاتته، ومن قعد عنها واتته.

قاعدة 4 : ثنائية رابعة: من أبصر بها بصرته، ومن أبصر إليها أعمته.

إن الملاحظ من خلال كل هذا أن الإمام قد بنى هذه القواعد على نظام من الثنائية الضدية، وهو يستهدف الحقائق الآتية:

أ- تقديم السلوك ومرتبته.

ب- إبراز الكيفية المثلى للظفر، بالإدراك والتعامل الذكي.

ج- بيان الأسباب التي تقود إلى كشف حقيقة الدنيا باعتبارها حالة عيش ورؤية مادية خالصة.

د- للدنيا وجهان حسن وسيء، والعبرة فيها عدم مجاراتها وتبع زينتها، وهذا من صواب الرؤية.

هـ- تفهم الدنيا بالقاعدة الذهبية الرابعة: "أن يبصر بها" حقائقها وأسرارها، كي يدرك الإنسان رسالته فيها، فيؤديها كاملة بامتياز وحيوية، باعتبارها حالة حياة برؤية إيمانية روحية.

إن الدنيا أرضية المتبصر يبني عليها آخرته، ويعد فيها نفسه الإعداد الكامل الذي يوصل إلى تلك الرفعة والمنزلة الشريفة فالذي أبصر بها هو ذلك الإنسان الذي "جعلها مرآة عبرة تجلو لقلبه آثار المجد في عظام الأعمال، وتمثل له هياكل المجد الباقية مما رفعته أيدي الكاملين، وتكشف له

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 101.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

عواقب أهل الجهالة من المترفين فقد صارت الدنيا له بصرا، وحوادثها عبرا، وأما من أبصر إليها، واشغل بها، فإنه يعمى عن كل خير فيها، ويلهو عن الباقيات بالزائلات، وبئس ما اختار لنفسه¹، فالدنيا بهذا هي مرآة الكاملين، ومسراهم إلى عالم تتسع آفاقه إلى الحياة الثانية، حياة الآخرة، حيث الخلود، فمن الدنيا تبدأ رحلتهم العملية وإلى الآخرة تنتهي، في مستقرهم النهائي، أما من وقفوا عند حدودها الواهمة المضللة للأبصار، فإنها ستنتهيهم في عالم من الشقاء والانحراف، وفي قول آخر للإمام يجلي هذا المعنى بشكل أوضح، حيث يقول: " وإنما الدنيا منتهى بصر الأعمى، لا يبصر مما وراءها شيئا، والبصير ينفذها بصره ويعلم أن النار وراءها، فالبصير منها شاخص، والأعمى إليها شاخص، والبصير منها متزود، والأعمى لها متزود"²، فمن الحقائق البينة التي يمكن الوقوف عليها، أن الأعمى من الناس هو من وضع الدنيا حدا ونهاية، ينتهي عندها، فهو لها متزود، ولهذا يحتاج الإنسان فيها إلى أن يستعين بمختلف القوى والادراكات ليفهم كنهها، حتى يبلغ الكمالات العقلية والروحية، فالبصير منها متزود لآخرته، ولهذا فإن "أهل الدنيا منتهى بصرهم دنياهم ..، وأهل الآخرة قد نفذت أبصارهم، فرأوا الآخرة"³، وعليه فإن فهم حقيقة الدنيا فهما ذكيا يحتاج إلى آلة شارحة مجلية، هي آلة البصيرة، بها ينفذ إلى جوهرها، ليستكمل بناء هذه الحقيقة، ولتحديد هذا التصور وتوضيحه نقف مع قول آخر يزيد هذا البيان نصاعة: " وأنتم بنو سبيل على سفر من دار ليست بداركم، وقد أودنتم منها بالارتحال، وأمرتم فيها بالزاد.

واعلموا أنه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار، فارحموا نفوسكم فإنكم قد جرّتموها في مصائب الدنيا، أفرايتم جزع أحدكم من الشوكة تصيبه، والعثرة تدميه، والرّمضاء تحرقه؟ فكيف إذا كان بين طابقين من نار، ضجيع حجر، وقرين شيطان؟! أعلمتم أنّ مالكا إذا غضب على النار حطّم بعضها بعضا لغضبه، وإذا زجرها توثّبت بين أبوابها جزعا من زجرته؟!⁴، يقدم لنا هذا القول مجموعة من المطالب المفتاحية، لإدارة واعية لشأن الدنيا، أوضحها الإمام وحددها في:

أ- أن العباد جميعهم بنو سبيل، على سفر مرتحلون من هذه الدنيا.

ب- يتطلب السفر من هذه الدنيا إلى الآخرة زادا واستعدادا تتطلبه هذه الرحلة.

¹ - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 101.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 187.

³ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج4، ج8، ص 162.

⁴ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 253.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

ج- تتلخص حقيقة هذا الزاد في المقومات الروحية والمعنوية والمادية المعين على استكمال مطالب هذا السفر، إلا أن الملفت في كلام الإمام ربطه الدقيق بين هذا الاستعداد وبين المآلات التي تأتي بعد هذا السفر بالترهيب من النار التي هي نتيجة حتمية للإفلاس في الدنيا.

واعتبر الإمام المصائب التي تحصل للإنسان في الدنيا، وما تتطلبه من صبر وجلد تعليم له، وتجريب منحج، وأخذ الإمام تمثيلات متنوعة من واقع الدنيا من الشوكة والعثرة والحرارة، لإجلاء وبيان خطر النار، وهو تمثيل دال يعبر عن تأويلية منهجية للموقف الإنساني في الدنيا، وحتى يكتمل مشهد هذا الرسم والتصوير الذي به يحدد المعلم الضابط للدنيا قدم تصورا ينطلق منه الإنسان في محاولة تعميمها بمقاصد وأدوات إجرائية ذات فاعلية، تجلي خطرها أولاً، ولتحفيز الناس لأخذ الحيطة ثانياً، ولن يكون هذا إلا لصاحب لب عاقل متبصر، وهذا ثالثاً، وإلا لكان السقوط الذي يهوي بهم في درك الشقاء، يقول الإمام: "مثل الدنيا كمثل الحية لين مسها، والسم الناقع في جوفها يهوي إليها الغر الجاهل، ويحذرها ذو اللب العاقل"¹، هذا تمثيل للدنيا بالحية، وعند التحليل يتبين لنا كيف تكون الدنيا معيقاً للإنسان عن إدراك سبل الكمال، ومن هذا التضاد القائم يتجلى خطرها، هذا الخطر الذي يتوضع أساساً في أسلوب الإغراء الموجود فيها، من خلال التقابلات الآتية:

التقابل الأول: ويقع بين لين مسها والسم الناقع في جوفها.

التقابل الثاني: يهوي إليها بالضعف أمام إغرائها [= الحسن الخارجي] وخطرها الموجود فيها.

التقابل الثالث: ويقوم بين الغر الجاهل والدنيا.

التقابل الرابع: ويقوم بين الدنيا وحذر ذي اللب العاقل.

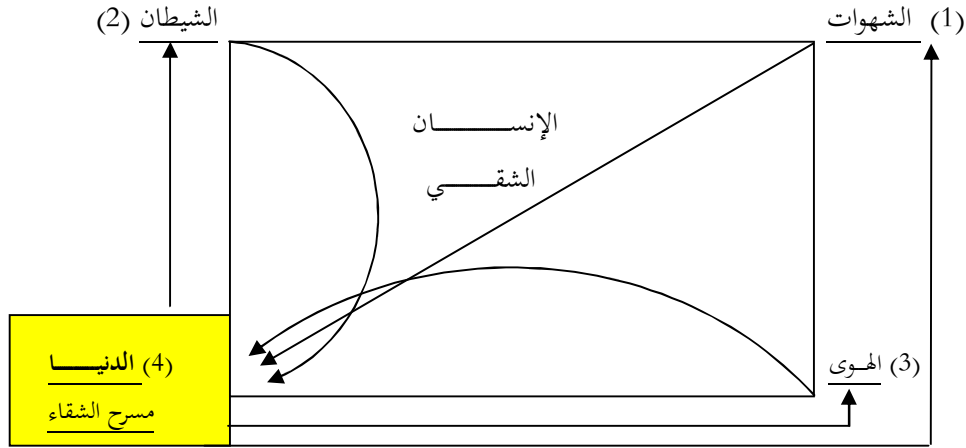
ويأتي هذا الخطر عندما يغتر الإنسان بهذه الدنيا فيبدأ في حرثها ويزيد، وهنا يكون مقتله، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾²، وما الإيثار إلا ترجمة فعلية لهذا الإغراء أو الاستهواء الذي يقع فيه كل غر جاهل ضعيف النفس، فاقد كمال العقل والتصرف، فيهوي إليها هذا المندفع الشقي المنحرف حقيقة في دروبها الوعرة والخطرة، وتلخص هذه الصورة فساده في الأرض، وفي النهاية فلن تكون الدنيا صورة للشقاء، إلا إذا كانت وجهة وخياراً وأسلوباً مرتضى، كما حدده حديث الأعمال بالنيات، بين فيه النبي ﷺ الهجرة إلى وجهة الإيمان لذي اللب والعقل، بينما تحددت الهجرة إلى الدنيا في الغر الجاهل، خطأ واختياراً وإرادة حرة، ولذا فإن الوسم

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 448.

² - سورة النازعات، الآية 37-38-39.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

الذي يطلق على هذا الإنسان الذي ضيع بوصلة الاهتداء. إنه الإنسان الشقي الذي انحرف عن منهج الحق، ودخل في الفساد، ويشكل في النهاية صورة تعبر عن نزوله إلى مختلف الدرجات التي يبلغها الكائن، حيث تتجسد في الدنيا مسرح الشقاء، وهو ما توضحه هذه الترسيمة:



تؤدي المعينات الأربعة [= الشهوات، إتياع الشيطان، الهوى، الدنيا] التي تحول بين الإنسان وبين بلوغ مراتب الكمال الإنساني، إلى تعطيل قواه وقدراته العجيبة المودعة فيه، كما تعد هذه المعينات نواقص ونواقض في إنسانية الإنسان، ويتعين مواجهتها بعملية منهجية واعية تتمثل في تحصيل مراتب الكمال الأربعة التي تشكل حزما بنيوية هيكلية ومعرفية في هذه المواجهة، والأهم من ذلك تأطير المعينات، وفق الشكل الآتي:

الحالة الثانية : تأطير المعينات للإنسان	الحالة الأولى : تأطير الإنسان للمعينات
الصفة : عدم فاعلية إنسانية - توطر	الصفة : فاعلية إنسانية - يوطر

تثبت الحالة الأولى وعيا إنسانيا رفيعا، يمثلها الإنسان السوي القادر على ضبط هذه المعينات وإبعاد خطرهما وإدارتها بشكل ذكي، فهو الفاعل في عملية التأطير، تمكنه من تحقيق كماله. وتثبت الحالة الثانية غياب الوعي، ويمثلها الإنسان الشقي الذي انهزم أمام هذه المعينات، فكانت هي الفاعل في تأطيره وقيادته إلى الانحراف، نتيجة فشله في إدارة هذه المخاطر. إن هذا الختم يرصد لنا حقيقة الطريق الشاق للخطر، ويفتح باب الوعي والمعرفة، وهذا بأخذ مقومات السير مع اليقظة والانتباه، نحو طريق الكمال وتحصيل مراتبه.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

يجسد الانحراف الفكري والعقدي والعملية صورة الإنسان الشقي بمختلف مظاهره، وتزيد معيقات الكمال من فداحة هذا الخطر الذي يتهدد الإنسان، وعليه فإن كل انحراف ومعيق من المعيقات يمثل خطراً، ويؤدي اجتماع الانحرافات والمعيقات إلى الانكسار والانهيار، وقد يجمعها معيق الدنيا، لأنها مسرح هذا اللقاء، وبما تحمله من تأثيرات سحرية عجيبة تجرح طهارة الروح الإنسانية، وقد قال النبي ﷺ: "وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا ولكن أخشى عليكم الدنيا فتنافسوها"¹، فانبساط الدنيا عليهم مهلكة، قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾². إن هذه الحدود المسيجة المحيطة بالإنسان وبهذا الإغراء الفادح، تحتاج إلى خروج سلس مطواع، بأسلوب ذكي يقوي القدرات الإنسانية التي تزيد من ثبات الكائن في هذه المواجهة، واكتساب معالم الكمال.

ونذكر جملاً توجيهية* للإمام هي بمثابة العلاج من هذه الانحرافات المعيقة:

- 1- "يا دنيا، يا دنيا إليك عني، أبي تعرضت، أم إلي تشوقت، لا حان حينك، هيهات غري غيري، لا حاجة لي فيك، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعيشك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير، آه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم المورد"³.
- 2- "إذا كثرت المقدره قلت الشهوة"⁴.
- 3- "فاتقوا سكرات النعمة .."⁵.
- 4- "الزهادة قصر الأمل والشكر عند النعم، والورع عند المحارم، فإن عزب ذلك عنكم فلا يغلب الحرام صبركم، ولا تنسوا عند النعم شكركم، فقد أعذر الله إليكم بحجج مسفرة ظاهرة وكتب بارزة العذر واضحة"⁶.
- 5- " فرحم الله رجلاً نزع عن شهوته، وجمع هوى نفسه"⁷.

¹ - محمد بن اسماعيل البخاري: صحيح البخاري، ج05، ص 94.

² - سورة لقمان، الآية 33.

*- يمكن الاسترشاد بنصوص القرآن والحديث التوجيهية، في بناء منظومة فكرية تبني الوعي وتحصل تمام العقل، وتنمي النفس بالتركيب، كي يتحقق للإنسان هذا الخروج الآمن السلس.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 440.

⁴ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 467.

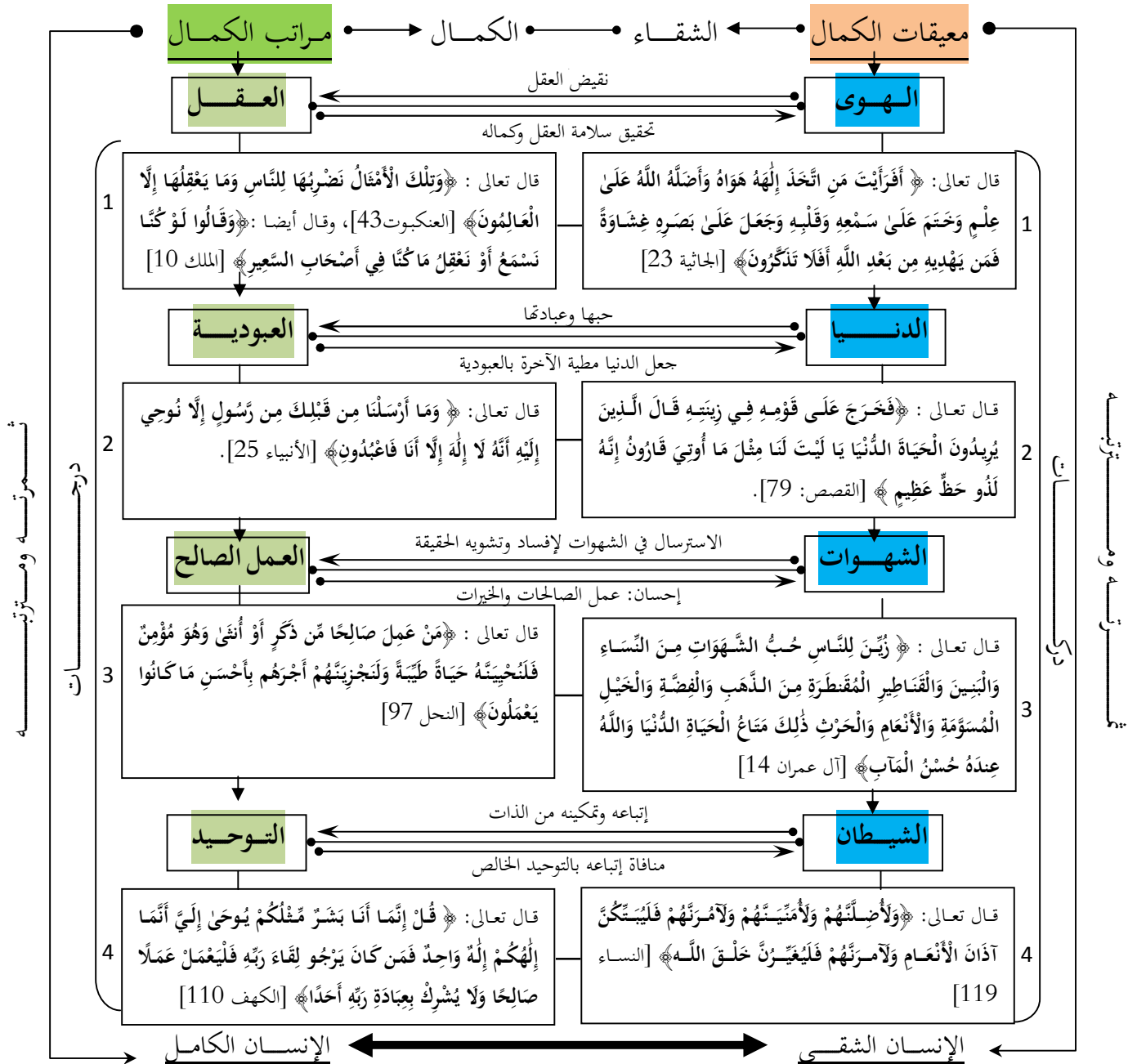
⁵ - المصدر نفسه، ص 201.

⁶ - المصدر نفسه، ص 100.

⁷ - المصدر نفسه، ص 238.

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

إن هذا الخروج يكون بآليات علاجية تقوي الفرد، وتوازن حضوره بين نظامي الدخول والخروج، ليكمل قوى ذاته بفكرة علمية وموضوعية، مع إرادة لازمة في هذا الطريق، علاج يتمثل في عدم الاغترار بالدنيا والزهد فيها، ومجابهة أساليب الشيطان، ومعالجة الانحرافات المعيقة والمهددة لحياة الإنسان في إطارها الفكري والعقدي والعملي، وبناء منظومة الوعي المفاهيمي والأخلاقي الضابط للتصورات، وضبط النفس وحسن تصريف طاقاتها. ويمكننا تصور كل عارض ومعيق بمقابله الكمالي الذي يواجهه به، وتمثل لهذه المواجهة الحيوية بهذا المخطط الدال:



مراتب الكمال، نواقض الكمال، نواقض الإنسانية، مراتب الكمال، بناء كمال الإنسان

شقاء (تمثلات معنى الضلال والإيمان) إيمان

الفصل الثاني : الإنسان الشقي

إن لكل معيق مضاده فالهوى يجابه بالعقل، والدنيا تعارض بالعبودية، والشهوات تقابل بالعمل الصالح، والشيطان يواجه بالتوحيد الخالص، وبمعنى آخر فإن الإنسان إذا هدم مراتب كماله صار بالنعته: "الإنسان الشقي"، بينما من واجه هذه المعينات بتحصيل كمالته، صار بالنعته: "الإنسان الكامل"، وهو ما يرصده القرآن ببيان معالم هذين الخطين في آيات كثيرة مع مآلتهما، رصد يقدم رؤية فكرية عميقة لمعلم هذا الصراع وإفرازاته دفعا إلى تحقيق توازن حياتي فعال.

لا يمكن أن يكون السير سهلا ما لم تتحقق مغالبة مزاحمات الطريق، وتحمل الآيات الآتية من التحفيز وطاقة التوجيه الكثير ليكون الانتصار والثبات على طريق الحق، وتحقيق الكمال الذي يعني تحقيق معنى الإنسان ونعته، فمواجهة الشيطان تمثل لها بقوله تعالى: "يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ" [الأعراف 27]، والدعوة إلى العبودية يجليها قوله تعالى: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" [يونس 104]، والعمل الصالح تحت عليه آيات كثيرة، منها قوله تعالى: "وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رُبُّكَ بَغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ" [الأنعام 132]، وقال أيضا: "لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ" [الصفات 61]، وتفصل آيات أخرى في أمر التوحيد، قال تعالى: "قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا" [الكهف 110]، وكذا تواجه الدنيا والهوى، قال تعالى: "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا" [الكهف 28]، وأما طريق الشهوات فنمثل له بقوله تعالى: "وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا" [النساء 27]، وفي النهاية فإن المدار الكلي يتحدد في إتباع إحدى الطريقتين، قال تعالى: "يَا أَبَتِ إِنَّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا، يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا" [مريم 43-44].

وسنكشف بشكل أدق في الفصل الثالث عن مراتب الكمال، حتى تتجلى صورة شقاء الإنسان في تقابلها مع صورة الكمال الإنساني، لغاية تحريكية نحو بناء وعي ينبه لأهمية سلوك هذا الطريق.

الفصل الثالث :

مراآببب الكمال الإنساني.

1- المبحث الأول:

التوحيد.

2- المبحث الثاني :

العبودية.

3- المبحث الثالث :

العقل.

4- المبحث الرابع :

العمل الصالح.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

إن الحديث عن مراتب الكمال هو حديث عن العناصر التي تعطي للإنسان خصائص تميزه، حيث تبني في ذاته فكرة الإنسان وفكرة الكمال. يقول صاحب اللسان في مدلول المرتبة: "رتب الشيء يرتب رتوبا، وترتب: ثبت فلم يتحرك، وعيش راتب: ثابت دائم، ورتب الرجل يرتب رتبا: انتصب"¹، فالدلالة الأولى المستخلصة هي الثبات والانتصاب، ويقول: "الرتبة والمرتبة: المنزلة عند الملوك ونحوها، وفي الحديث: "من مات على مرتبة من هذه المراتب بعث عليها"، المرتبة: المنزلة الرفيعة. أراد بها الغزو والحج، ونحوها من العبادات الشاقة، وهي مفعلة من رتب إذا انتصب قائما، والمرتب جمعها"²، فالمرتبة رفعة المنزلة، تنال بمشقة، وعليه "فكل مقام شديد مرتبة"³، إذن فمقام الكمال مقام شديد، فهو مرتبة، ورفعة تخضع لنفس السنة من المشقة والشدة، وأما عن مرتبة الإنسان الكامل، فيقدم له صاحب التعريفات مفهوما ضبطه الصوفية: "عبارة عن جميع المراتب الإلهية والكونية من العقول والنفوس الكلية والجزئية، ومراتب الطبيعة إلى آخر تنزيلات الوجود، ويسمى المرتبة العمائية أيضا فهي مضاهية للمرتبة الإلهية، ولا فرق بينهما إلا بالربوبية والمربوبية، ولذلك صار خليفة الله"⁴. إن الإنسان الكامل هو خليفة الله، الملتزم بمنهجه القويم، ولأن هذه الخلافة تحتاج إلى بذل جهد، وعمل متواصل يمكن من ارتياد هذا الأفق الشاق، وإن سبيلها تحصيل مراتب الكمال، من توحيد وعبودية وعقل وعمل صالح، وهي مراتب جامعة لشقين ضروريين علمي وعملي، وعليه يتطلب الكمال فكرة عظيمة، وعملا صائبا وسلوكا رفيعا.

أورد ابن أبي الحديد حوارا دار بين أحد العلماء مع راهب إلتقاه، فسأله عن الدنيا كيف يراها، ومن جملة ما سأله، "قال: فأبي الأصحاب أبر وأوفى؟ قال: العمل الصالح، قال: فأيهم أضر وأبكى؟ قال: النفس والهوى، قال: فكيف المخرج؟ قال: في سلوك المنهج، قال: وبماذا أسلكه؟ قال: بأن تخلع لباس الشهوات الفانية، وتعمل للدار الباقية"⁵، ففي هذا الحوار جواب تأسيسي لكيفية تحصيل الكمال، ومجابهة معيقاته وعوارضه المفسدة وموانع السير، بمراتب الكمال، وهي مجتمعة تبني وتقيم كمال الإنسان، كما تعد ترجمة ضرورية لحالة السواء التي تصل إليها النفس الإنسانية، حيث تتوجه إرادة الإنسان نحو عبادة الله وعمل الصالحات وفعل الخيرات التي تفتح أمامه رتب الكمال.

¹ - ابن منظور : لسان العرب، مج4، ص 57.

² - المصدر نفسه، ص 57.

³ - المصدر نفسه، ص 58.

⁴ - الشريف الجرجاني : التعريفات، ص 175.

⁵ - ينظر ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج9، ج18، ص 21.

المبحث الأول: مرتبة التوحيد:

1- المفهوم اللغوي: قال صاحب المقاييس: "وحد: الواو والحاء والذال: أصل واحد يدل على الانفراد"¹، ومنه الله المتفرد بالوحدانية، وفي اللسان "والتوحيد: الإيمان بالله وحده لا شريك له، والله الواحد الأحد: ذو الوحدانية والتوحد"²، حيث ينفي عنه التعدد الدال على التثنت، وبثبت في حقه سبحانه الكمال المتفرد، وفي التعريفات أنه: "تجريد الذات الإلهية عن كل ما يتصور في الأفهام، ويتخيل في الأوهام والأذهان"³، نظرا لعجز العقل الإنساني عن الإحاطة بالذات العلية، وهذا القصور يلزم تنزيها وتعظيما يليقان به ﷻ، وعليه فالتوحيد: "ثلاثة أشياء: معرفة الله تعالى بالربوبية، والإقرار بالوحدانية، ونفي الأنداد عنه جملة"⁴، دون غوص في حقيقة هذه الذات، وبعيدا عن كل التيه والحيرة المهلكة، والتثنت والاضطراب، بل بنظر ومعرفة تمنح الإنسان الاطمئنان النفسي، وهذه مقدمة ضرورية لحصول هذه المرتبة بالتوحيد الخالص الصافي النزيه.

2- المدلول والحقيقة: ينبغي أن يتحدد معنى التوحيد في عقل الإنسان بصورة تشبه اليقين الخالص، يقول الإمام: "التوحيد أن لا تتوهمه، والعدل أن لا تتهمه"⁵، فنفي التوهم والاتهام هو التوحيد، دون تشبيه وتصوير للذات الإلهية، لقصر إدراكه، فالتوهم أن "لا تصوره بوهمك، فكل موهوم محدود، والله لا يحد بوهم، واعتقادك بعدله أن لا تتهمه في أفعاله بظن عدم الحكمة فيها"⁶، أي ما يولد في نفس الإنسان اليقين القلبي والإيمان العقلي بالله، ويبعد عن التحديد غير اللائق لذات الله ﷻ، وفق مقتضيات التوحيد والقبول برضى خالص لأفعاله، علم الإنسان الحكمة من ذلك أو جهلها، ويتطلب هذا عقلا تاما يزن به الإنسان الحقائق ليصل إلى التنزيه الكامل والتام لذاته ﷻ، وبهذه الصورة يجسد فكرة عبوديته لله، ويعطي الإمام للتوحيد من خلال كلمة الشهادة دلالة أخرى ركز فيها مختلف الآثار والمنافع التي تحققها، فقال: "فإنها عزيمة الإيمان، وفتحة الإحسان، ومرضاة الرحمان، ومدحرة الشيطان"⁷، وهذا توصيف ذكي جامع وتأويل عميق، يمنح هذه الكلمة هذه الطاقة العجيبة في مستويات عديدة، بحيث نراه يحلل مرتبة التوحيد من خلال

¹ - ابن فارس : مقاييس اللغة، ص 948، 949.

² - ابن منظور : لسان العرب، مج9، ص 236.

³ - الشرف الجرجاني : التعريفات، ص 62.

⁴ - المصدر نفسه، ص 62.

⁵ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 505.

⁶ - محمد عبده : شرح نصح البلاغة، ص 505.

⁷ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 26.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

الشهادة، ويجري لها متعلقات قائمة بها هي: الإيمان، والإحسان، ومرضاة الرحمان، ومبعدة الشيطان، وتعطي أربعة فضائل تنمي حيوية الإنسان، فالأولى ترجع إلى المدار الإيماني ومتعلقاته، إيماننا وعملا ومرضاة، والثانية تكون أداة دفاعية يدحر بها الشيطان، وتطرده أكبر عدو يتصد الإنسان، والثالثة ما يتحقق في النفس من إنسانية وجمالية تدفع إلى الإحسان، وإخراج مكامن الخيرية منها، والرابعة أن هذا التصور يعطي للتوحيد قيمته العملية، ويبعد الإنسان عن مزالقات التوهم غير المنتجة، وهذا التشجير المعرفي يؤهل الإنسان إلى نيل مرتبة التوحيد، وهكذا "كانت كلمة الشهادة إذن ضوءا بواسطته يواجه المرء نفسه ويواجه العالم"¹، الضوء الذي طالما احتاجه الإنسان في مواجهاته، مواجهة تنهي كل صراع وتفضي إلى توازن. إن هذا التوحيد وكلمة الشهادة لن يكونا إلا رفعة وعلوا، يقول الإمام: "شهادتين تصعدان القول وترفعان العمل لا يخف ميزان تواضعان فيه، ولا يثقل ميزان ترفعان عنه"²، فشهادة التوحيد هي التي تعطي ناتجا عمليا وثمره جامعة، تجمع بين القول والعمل، "فإنما هما الشهادتان اللتان يقارنهما فعل الواجب وتجنب القبائح، لأنه إن لم يقارنهما ذلك لم يرفعا العمل"³، وهو المزج الذي يكون بين القلب واللسان في الشهادة مع الاقتران العملي يجعل منها حالة رفعة، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾⁴، وبهذه الكيفية يتم الصعود والرفعة، وقبول يناله الإنسان بالإخلاص والصواب والجمالية، وتدفعه إلى تحصيل كماله، نظرا لما يتطلبه الأمر من ثبات وصد مختلف معيقاته، ولهذا لا يكون هذا الخط التوحيدي التعبدي إلا امتحانا يتحدد بالتعظيم والتنزيه، ومن التعظيم له تعالى أن نذكره في الحق، يقول الإمام: "وعظم اسم الله أن تذكره إلا على حق"⁵، لأن المقتضيات التوحيدية والإيمانية لها توابع سلوكية تتطلب تأدبا وتنزيها وشكرا دائما، هذا المتطلب هو أن "لا تحلف به إلا على الحق تعظيما له وإجلالا لعظمته"⁶، وتأدب يرفع تأهب الإنسان، وعند هذا الحد من التعظيم يكتسب منعة تصرفه عن مخالفة أمره.

وعليه فإن مفهوم التوحيد يشمل الإسلام عقيدة وعملا، بمنطق متحرك يصنع الحياة ويعطي المعنى لقضاياها كلية أو جزئية، وهذا ما نراه في تقديم الإمام هذه النسبة لمفهوم الإسلام

¹ - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 208.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 167.

³ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج4، ج7، ص 150.

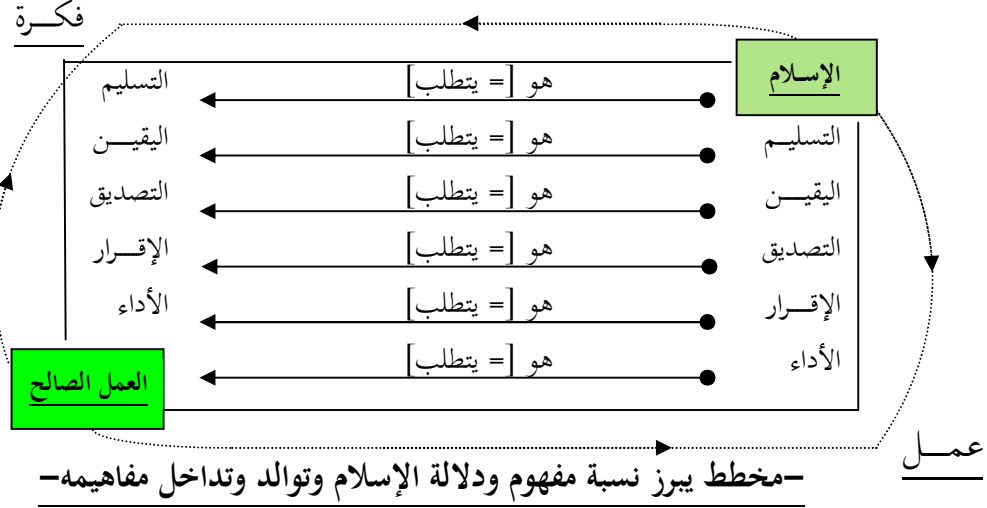
⁴ - سورة فاطر، الآية 10.

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 424.

⁶ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 424.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

قائلا: "لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي، الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل الصالح"¹، فمنطلق الإمام في نسبه الإسلام أن جعله فكرة مركزا تنسل منها بقية المفاهيم والتأسيسات، حيث يبدأ فكرة توحيد وينتهي عملا صالحا، وكل فكرة تعرف بالثانية وتترتب عنها، نجليها بهذا المخطط:



يلخص هذا التشفير الهندسي أن الإسلام هو: فكرة وعمل، "فإذا كان أول اللفظات الإسلام، وآخرها العمل، دل على أن العمل هو الإسلام"²، وهذه عين الفكرة التوحيدية الخالصة التي تعني "لا إله إلا الله" خالقا ومعبودا، وقمة الممارسة العملية تعبدا. إذن فما تعبر عنه كلمة التوحيد على المستوى القيمي نجدها دالة على ثلاثة معان مهمة الأولى أن الخليقة، هي المادة التي ينبغي تجسيد الإرادة الإلهية المطلقة فيها، وهي ذات طبيعة خيرة كاملة حسنة لا عيب فيها بإثبات القرآن، والثاني أن ما يعترض الإنسان في الحياة من مآزق، يحتاج فيه إلى العمل والجهد المكرس لأداء رسالته، والثالث أنه لا تتميز بين الأماكن والبشر كموضوع للفعل الأخلاقي³، وبنسبة الإمام للإسلام السابقة يكون مدار التوحيد هو الفكرة القابلة للتطبيق، والأداء الجمالي الراقي الذي يمنح الإنسان مرتبة الكرامة الذي يبدأ بفكرة وينتهي بمظهر سلوكي عملي، حيث تتلازم الفكرة والعمل، وهذا هو الطريق الذي يبلغ مراتب الكمال. إذن فالتوحيد فكرة وعمل، ومقتضيات ومتطلبات، ولا يمكن لهذه الأفكار إلا أن تعبر عن موقعة حقيقية للإنسان في هذا الوجود، فهي اختيار إيماني يتوافق مع خط التوحيد. وإن هذه القمة الإيمانية الإنسانية، هي مرتبة كمالية وأرقاها وأعلاها، باعتبار

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 449.

² - ابن أبي الحديد : شرح نصح البلاغة، مج 09، ج 18، ص 146.

³ - ينظر اسماعيل راجي الفاروقي : التوحيد، تر : السيد عمر، مدارات للأبحاث و النشر - القاهرة، 2014، ط1، ص 81، 83.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

المعوقات ومحنة الابتلاء، وتجاوزها هو الضرورة، يقول مصطفى ناصف: "كلمة التوحيد أو الإيمان في القرآن هي علامة تحرر الذات من كل ثنائية فرضت عليها"¹. إن تحررها سيقودها إلى تحصيل النسبة الإيمانية، بللممة قوى النفس لتعمل في صفاء، ونحو مقصد واحد توحيد الله وعبادته.

3/- طرق المعرفة وآياتها: يقول صاحب التعريفات: "الطريق: هو ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه على المطلوب"²، والتوصل إلى المطلوب يقتضي النظر الصحيح والطريق الواضح، وأما المعرفة فهي: "ما وضع ليدل على شيء بعينه، وهي المضمرات والأعلام والمبهمات، والمعرفة أيضا إدراك الشيء على ما هو عليه، وهي مسبوقة بجهل بخلاف العلم، ولذلك يسمى الحق تعالى بالعالم دون العارف"³، ونحن أمام جهلنا المستحكم فينا نحتاج إلى المعرفة التي تقربنا من الإدراكات الصحيحة لاستكمال نقصنا، فمعرفة الله تؤدي إلى توحيد خالص ينشأ عنها استقامة تثمر عبودية، تنبثق عن وعي وإرادة، وتزيد طرق النظر والاستدلال وغيرها الإيمان وترقيه، وتعالج الانحراف والتهيه، وبمعنى آخر أنها هي من يحقق رتب الكمال، وكمال التوحيد ومرتبته على الأخص، ولقد كان أول ما نزل من الذكر الحكيم يحمل هذه الدعوة الصريحة، قراءة كونية ونظر في الآيات وما خلق، قال تعالى: ﴿افْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾⁴، وقراءة علم بالقلم: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾⁵، وهي تشير إلى هذه الطرق، وهي المتلوة، والمشهودة، إضافة إلى الآيات التكوينية القصص أو آيات الاعتبار، يقول الإمام: "أيها الناس! من سلك الطريق الواضح ورد الماء، ومن خالف وقع في التيه"⁶، ويقول أيضا: "فأبان له الطريق، وسلك به السبيل، وتدافعت الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة"⁷، عندما يتبين الإنسان الطريق الواضح في توحيد من خلال آياته المعرفية البينة، ويحددها الإمام في:

أولا: الآيات المتلوة [= الكتاب]: تؤخذ فكرة التوحيد من هذا الكتاب كما تتغذى منه، وعليه فإن تحصيل معرفة إلهية من القرآن تسهم في تعميق جوهر الذات، وصفاء القلب، ونور العقل، وطهارة الجسد، كي تسلم فطرة الإنسان من الفساد، وكمال المعرفة والتوحيد يكمن في تدبره.

¹ - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 209.

² - الشريف الجرجاني : التعريفات، ص 119.

³ - المصدر نفسه، ص 119.

⁴ - سورة العلق، الآية 1.

⁵ - سورة العلق، الآية 4.

⁶ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 298.

⁷ - المصدر نفسه، ص 313.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

1- مفاهيم وميزان: يقول الإمام متحدثاً عن القرآن: "وإن ظاهره أنيق، وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تكشف الظلمات إلا به"¹، وجملة ما نقف عليه هنا من أفكار:

أولاً: أن للقرآن ظاهراً وباطناً، وهذا معناه أن المعرفة التي بين دفتيه عميقة عظيمة جلييلة.

ثانياً: ظاهره أنيق جميل، وهذا سر إعجازي جمالي بأسلوبه ونظمه، مثله مثل الكتب العظيمة.

ثالثاً: باطنه عميق، وهذا يعني قدرته التأثيرية وإحاطته، وذخائره وأسراره التي لا تنقضي.

رابعاً: أن القرآن كاشف ظلمات، يكشف الظلم والضلال وغيرها من الأفكار، فهو كتاب نور.

فهو إذن كتاب الهداية والإيمان، وكتاب التوحيد والفطرة، وكتاب المعرفة والعلم، وكذلك هو كتاب الكمالات الإنسانية، وكتاب الحياة والكون، وعليه فإن القرآن "إنما هو كتاب الإنسانية المفتوح ومنهلها المورد"²، فالتغذية المتكاملة إنما يحصلها الإنسان من خلال تلاوته وتأمله والتدبر في معانيه وحقائقه، وهي ما يحصل هذا الترتي، حتى يصل إلى تحقيق مرتبة التوحيد، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾³، فيهدي لما هو أقوم، حيث تنسج خطوط الاستقامة المتكاملة والرشد، يقول الإمام: "وهذا القرآن إنما هو خط مستور بين الدفتين، لا ينطق بلسان ولا بد له من ترجمان، وإنما ينطق عنه الرجال"⁴، فالقرآن هو الكتاب المسطور، ومن خاصياته أنه كتاب لا ينطق إلا بلسان قارئ مؤول، "فالقرآن لا ينطق بنفسه، ولا بد له من يترجم عنه"⁵، ففهمه وتفسير إشاراته للراسخين في العلم، والأمر الآخر يثبت أن الكتاب يحتاج إلى مطبق ومنفذ، وعملية التحويل هذه تكون للإنسان، أو الرجال الذين ينطقون بالحق، بمعنى أنه يحتاج إلى عقل مترجم منفذ، وهنا نلاحظ هذا الجمع بين القرآن [= الوحي]، وما فيه، وبين العقل الذي يتكلف بالكشف والإبانة، فهذا تبادل⁶ حتمي وضروري لجعل القرآن حقيقة ناطقة بالحق بانية للمفاهيم، وترجمان القرآن لأنه "حمل ذو وجوه"^{*}، لذا ينبغي له من راسخ، وناطق به في الحق، وهذه هي قيمته التي تجعل التوحيد إمكاناً حياً في الحياة، ولهذا وصفت السيدة عائشة **g** النبي ﷺ بقولها: "كان قرآناً يمشي"، وهذا ما يعطيه هذه القيمة الرمزية

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 46.

² - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 295.

³ - سورة الإسراء، الآية 09 .

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 179.

⁵ - ابن أبي الحديد : شرح نصح البلاغة، مج4، ج8، ص 60.

⁶ - رضا شاه كاظمي : العدل والذكر، ص 47.

* - ينظر نصح البلاغة، ص 429.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

المتعالية، ولكنها قابلة للتنزل [= بهذا الترجمان]، وعليه فإن الآيات المتلوة هي محفزات منشطة للعقول لتكبر مع عظمتها، وتتغذى من مآدبته تجسيدا لحياة مستقيمة، تسير بالإنسان نحو كل رفيع.

2/- هداية وعلوم: لا تكون هذه الآيات المتلوة مكملة للعقول والنفوس، إلا إذا تم الكشف عن المعرفة التي فيه وتمثلها، لتصبح الغذاء العقلي والروحي لإنسان خلق عطشا للمعرفة، يقول الإمام: "كتاب الله تبصرون به وتنطقون به وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعض على بعض، ولا يختلف في الله، ولا يخالف بصاحبه عن الله"¹. إن هذا الكتاب الذي يصبح مترجم الحواس [= أجهزة الوعي والمعرفة]، ومبرمج الفكرة [= المنتجة] من ورائها هو كتاب عظيم، يوقف قارئه على عتبة عظيمة من باب الغيب والشهادة، ويجول مسار الإنسان العلمي والعملي والسلوكي إلى مطابقة أساسية، "كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به"، بتعبير الحديث القدسي، مطابقة بين فكرة التوحيد الحية في النفوس، وبين السلوك العملي الذي يصدر عن الإنسان، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾². إذن فقيمة القرآن تكون في إتباع آياته امتثالا وتطبيقا، بمعنى إقامة خط تماثلي بين الكتاب المسطور، وكتاب النفس، بالاستقامة المتماثلة معه برجمة وفهما وعملا ورشدا، فهو حقيقة واحدة وكل متكامل، لذا فهو لا يختلف في الله، بمعنى "لا يختلف في الدلالة على الله وصفاته، أي لا يتناقض"³، فالصورة التوحيدية التي يقدمها عن الله واحدة إثباتا لربوبيته وألوهيته ﷻ، هذا أولا، والأمر الثاني ويترتب عن الأول، أنه يقود الإنسان إلى الله، بحيث "لا يأخذ بالإنسان المعتمد عليه إلى غير الله"⁴، وهذا معناه أن القراءة المتبصرة هي إنماء للجانب الفطري، وتثبيت لفكرة التوحيد في النفس، وإمكانية كمالية تقود إلى مرتبة التوحيد.

ولن يمر هذا إلا على قناة خاصة، قناة العقل، الآلية التي تمكن من إظهار دوائمه وعلومه، يقول الإمام: "ذلك القرآن فاستنطقوه، ولن ينطق، ولكن أخبركم عنه، ألا إن فيه علم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائكم، ونظم ما بينكم"⁵، بمعنى أن له هالته الخاصة وسيماه المتفردة، وتشفيره الفائق النادر، ولهذا يحتاج إلى مؤول راسخ في العلم، وهو برأي النورسي: "هو الترجمة

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 188.

² - سورة القيامة، الآية 18.

³ - ابن أبي الحديد : شرح نصح البلاغة، مج4، ج8، ص 173.

⁴ - المصدر نفسه، ص 173.

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 212.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

الأزلية"¹، المؤولة لمفاتيح الكون وما فيه، فهذه ذخائره التي تتكشف وتضئ بمهابة للعلماء فقط، وبه يقرأ العالم قراءة إيمانية توحيديّة وتأويلية، فعلومه ومعارفه ومحتوياته، أجملها الإمام في الخطوط الآتية:

أ- علم ما يأتي: وهو علم المستقبلات، ويمتد من الدنيا إلى الآخرة وأخبارها وأحوال أهلها.

ب- الحديث عن الماضي: يذكر أخبار الماضين ووقائع التاريخ والمجتمعات والسنن المتحكمة في ارتقائهم وسقوطهم، بقصد الاعتبار والمراجعة، وكذا فقه عملية البناء، بقراءة بصيرة لآياته التكوينية.

ج- دواء دوائكم ونظم ما بينكم: يذكر علم الحاضر، حيث يقدم القرآن علاجات لأمراض النفوس والمجتمعات والعلاقات والنظم، ورؤاه للحياة والموت، والعالم الروحي والمادي، فهو شفاء للناس من أمراض النفس والعقل والجسد والروح.

د- ونظم ما بينكم: وتعني قواعد العلاقات الاجتماعية والأسرية والدولية، وكل ما يقيم الحياة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾²، فحق التلاوة يعني تجسيده في واقع الحياة كنظام سني يبيّن العلاقات بين الناس.

يعتبر الإمام القرآن ناصح لا يغش، بمعنى أنه باب هداية تستقيم به أحوال الإنسانية: "واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، زيادة في هدى، أو نقصان من عمى. واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوا به من أداؤكم، واستعينوا به على لأوائكم، فإن فيه شفاء من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق والغبي والضلال، فاسألوا الله به، وتوجهوا إليه بحبه، ولا تسألوا به خلقه، إنه ما توجه العباد إلى الله بمثله"³، فهو يضعنا أمام جملة من الأفكار الإحاطية المبيّنة لفضيلة القرآن ورمزيته، والمزية التي يكتسبها الإنسان من سياحته في هذا الكتاب العظيم، فهو الصراط المستقيم، وأن مخارجه الإنسانية متماثلة المعنى في تطبيقات الحياة، وتمنح مجالسة القرآن الإنسان، زيادة في الهدى، ونقصان من العمى، ولذا فإن صاحبه لا يفتقر فهو مرشده في حياته إلى الأخلاق، وهو من الآيات القائدة إلى المعرفة والكمال، والشفاء من المفسد بفعل التذهين وتاريخ الأفكار من الكفر والنفاق والغبي والضلال، فلما زيا التكريمية يحصلها الإنسان من القرآن، لذا طلب الإمام من الناس الاسترشاد به، وذلك بـ:

¹ - سعيد النورسي بديع الزمان: كليات رسائل النور، إشارات الإعجاز في مظان الإعجاز، تح حسان قاسم الصالحى، دار النيل للطباعة، القاهرة، 2009، ط1، ص 20.

² - سورة البقرة، الآية 121.

³ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 239.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

أ- الاستشفاء به من الأدواء، من الأمراض الروحية والفكرية والجسدية والنفسية والاجتماعية.

ب- الاستعانة به على الشدائد، ففيه المخارج التنفيذية لوضعيات التاريخ المعلنة.

ويتمثل أعظم شفاء يصيبه العبد من تلاوته، الشفاء من الكفر والنفاق والضلال، وهي أمراض مهلكة، أي تقوية عالم التوحيد في الذات ليضاد ويناقض به حالات الكفر والنفاق والغبي والضلال، تلك الأمراض المفسدة لفترة الإنسان، وبهذا يتحدد مقصد التلاوة، وغايات القراءة، "فالقرآن شفاء لأدواء النفوس في عقائدها وأخلاقها وأعمالها: فليقصد الشفاء به من ذلك كله"¹، وعندها يتم الربط الوظيفي الدقيق بين الكليات والجزئيات والحاجيات والتحسينات في حياة الفرد والمجتمع، ثم إن تلاوة الآيات ينبغي أن تكون المعيار المحتكم إليه، تحقيقاً للهداية بالقرآن، وتحصيل الرشد بعلومه ومعارفه، وفي هذا المعنى يقول الإمام: "فإنه ينادي مناد يوم القيامة: "ألا إن كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله، غير حرثه القرآن"، فكونوا من حرثه وأتباعه واستدلوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم واتهموا عليه آرائكم، واستغشوا فيه أهوائكم"²، فكل كسب صاحبه خاسر، إلا حرثة القرآن العاملين به فهم ناجون فائزون، وإن نجح الإنسان لا يكون إلا إذا احتكم إليه وأخضع نفسه للسير على نهجه، لأنه يعد معياراً ضابطاً يوجه الإنسان، ودليلاً يقود إلى الله، فهو وجه الاستدلال، وأن المعرفة التوحيدية التي يبحث عنها الإنسان هي في القرآن، وأما الضوابط التي وضعها الإمام في رسم هذا المعيار، فجعلها في هذه القاعدة أن يعرض الإنسان نفسه عليه، ليهتدي بهديه، وقبول حكمه، واتهام رأيه عند هجوم الآراء والأهواء، فهو دليل الهداية، و"مرب للعالم الإنساني"³، لا يصنع إلا رجال الإيمان والصلاح.

3- تعريفية القرآن: يقدم الإمام في عملية تعريفية وتشريفية للقرآن عشر صفات تعريفية مع تقابلات ومترتب لكل صفة في شكل هندسي، كأنها الإلماحات والإشعاعات تعرض جواهرها ودررا يختزنها القرآن الكريم، ذكرها بعد حديثه عن بعثة النبي ﷺ، ليقراً الإنسان هذه التماثلية الرائعة بين كماليهما، وليدرك عظمة الكنز الذي جاء به ﷺ، حيث يقيم الإمام هذه العظمة على ذلك التشريف، فيقول: "ثم انزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحها، وسراجاً لا يخبو توقده، وبحراً لا يدرك قعره، ومنهاجاً لا يضل نهجه، وشعاعاً لا يُظلم ضوءه، وفرقاناً لا يخمد برهانه، وتبياناً لا تهدم أركانه، وشفاء لا تخشى أسقامه،

¹ - ابن باديس : تفسير ابن باديس، ص 35.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 239.

³ - سعيد النورسي : المرجع السابق، ص 20.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

وعزا لا تهزم أنصاره، وحقا لا تخذل أعوانه¹. عشر صفات تعريفية يمكن اعتبارها خط اهتداء، أو هي باب معرفة وطريق إلى العالم التعبدى الشامل* الذي يبنى الإنسان والحياة، ويصنع الآخرة، يقول "مصطفى ناصف": "وربما كانت النصوص العظيمة إجمالا أشبه بالآلات، كل فرد يستعملها بطريقته الخاصة"²، وهنا نتساءل كيف يتم إدارة هذه الآلات؟! وهل أغلب الكل قادر على استعمالها؟! ولمن تستعمل؟! ولماذا يتعين أن تستعمل؟! وتبقى الفكرة المركز أن القرآن يعد منهجا سلوكيا، حيث "لا يكون من سلوكه إضلال"³، ويضيف الإمام جملة من الحقائق والمرتبات فيقول: "فهو معدن الإيمان ومحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافي الإسلام وبنائه، وأودية الحق وغيطانه، ومجر لا ينزفه المستنزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الوردون، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام لا يجوز عنها القاصدون"⁴، فهذه المرتبات تبني على الإضاءات الأولى المشعة، وسوف تزيد الإنسان صقلا لعقله وإشراقا لروحه، وإضاءة لعالمه، أو به يستطيع أن يشكل هويته الإلهية التي تربطه بالله.

إن هذه المرتبات تعد تأهيلا لمنزلة عالية/رفيعة، ذكر بعدها الإمام مجموعة نتائج متولدات عن التقابلات الأولى بمرتباتها، وهي بمثابة الحقول المعرفية المغذية للإنسان، يقول الإمام: "جعل الله ربا لعطش العلماء، وربيعا لقلوب الفقهاء، ومحاج لطرق الصلحاء، ودواء ليس بعده داء، ونورا ليس معه ظلمة، وحبلا وثيقا عروته، ومعقلا منيعا ذروته، وعزا لمن تولاه، وسلما لمن دخله، وهدى لمن ائتم به، وعذرا لمن انتحله، وبرهانا لمن تكلم به، وشاهدا لمن خاصم به، وفلجا لمن حاج به، وحاملا لمن حمله، ومطية لمن اعمله، وآية لمن توسم، وجنة لمن استلأم، وعلما لمن وعى، وحديثا لمن روى، وحكما لمن قضى"⁵. تغذية متكاملة تحصل من مائدته، فهو دواء ونور، وطريق من طرق المعرفة الحقة، وهذا ما يمكن تمثيله بالترسيمة الآتية:

¹ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 295.

* - لا نقصد بالعالم التعبدى على الوجه الشرعي من التكاليفات، وإنما نقصد بذلك كل أداء، حتى الزفرة الصغيرة، وشربة الماء، والابتسام، و التحية، وغرس نبتة، وتأمل وردة، وشم عطر، وصدافة وتعارف، وصلاح وإصلاح يكون، كل هذا وغيره من الكل إلى الجزء عالم واحد متماسك يفضي إلى معرفة حقيقة التوحيد والعبودية، وقيام هذا العالم التوحيدي في هذه الكلية والعالم التعبدى في مسرح مترامي الأطراف مكانا وزمانا.

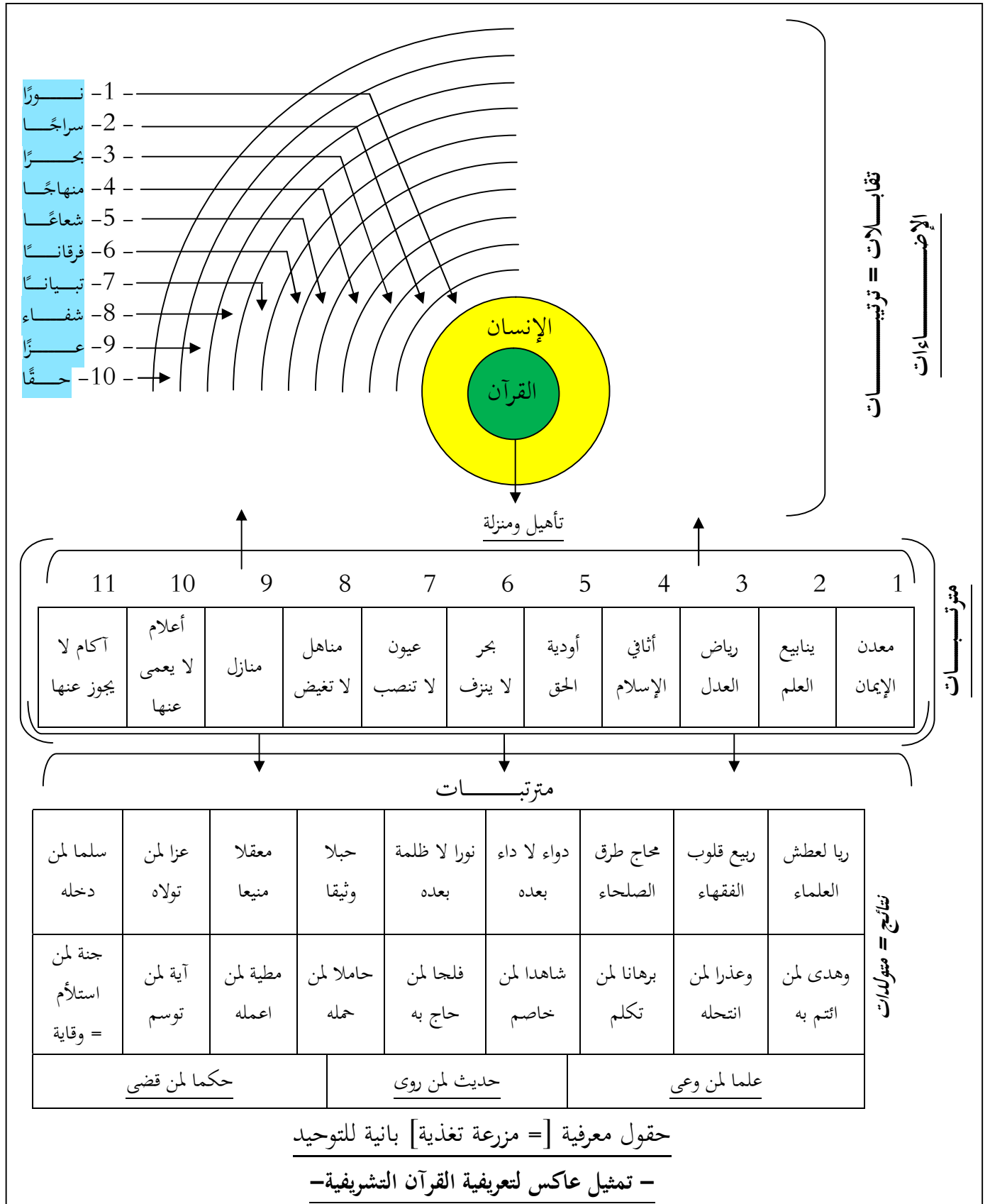
² - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 39.

³ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 295.

⁴ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 295.

⁵ - المصدر نفسه، ص 295-296.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني



إن من هذه الصفة التعريفية للقرآن، بخطوطها وأفكارها، وبينها وبين تلك التقابلات والمترتبات، وبينها وبين متولدات هذه السياحة القرآنية في تلك الحقول المعرفية التي جاوزت

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

العشرين، يحصل قارئ القرآن والمتأمل في آياته على تأهيل معرفي خاص ومنزلة عالية لاتنال بغيره، تلك المترتبات التي تؤسس لمشروع كبير للوجود الإنساني الكوني والجمالي الإنساني والإلهي، فمنه -من الله- وإليه، يبدأ وينتهي عاملاً وعابداً. إن نتائج الحقول المعرفية تمثل تغذية للإنسان وتنمية له، ليكون بذلك إنسان القرآن، إنسان التوحيد، حيث انعكاس هذا الروح القرآني على الإنسان، ليحوله إلى آخر مغاير يدهش الدنيا بعظمة وجلال باهر، ولكن يمثل هذا التصور الذي يدفع إليه القرآن، وبما يقودنا إليه من تأكيدات. أن التوحيد يبني على المعرفة القرآنية، وأن المعرفة القرآنية تبني توحيد الإنسان، وأن توحيد الإنسان يحصل رتبة كمال التوحيد.

ثانياً: الآيات المشهودة: إن الآيات الكثيرة المترامية في هذا الكون الفسيح دقيقها وعظيمها هي علامات اهتداء، قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾¹. تدعونا إلى تأملها والوقوف عندها، جاء في التعريفات: "المشاهدة: تطلق على رؤية الأشياء بدلائل التوحيد، وتطلق بإزائه على رؤية الحق في الأشياء، وذلك هو الوجه الذي له تعالى بحسب ظاهرته في كل شيء"²، وأما "الشهود: هو رؤية الحق بالحق"³، فأيات الكون المنظور هي علامات دالة على التوحيد تهدي إليه بالتأمل والتدبر، وهي من أحسن الطرق سلامة في معرفة الحق وتوحيد الله وتعظيمه، ودلائل ناطقة على هذا الكتاب الرائع المفتوح (الكون)، يقرأه الحائر الضال فيراه قائداً وهادياً إلى فطره، ويراه المهتدي فيزداد ويكمل إيماناً وإنسانية، ويزخر نهج البلاغة بالأحاديث الكونية التي تجعل من هذا العالم المشهود مداراً تبحر فيه العقول، لتحصيل معرفة عميقة تؤسس لعالم التوحيد، وعليه فإن إقامة المقارنات المبنية على النظر، إنما تعني السير وفق هاديات هذه السنن الكونية الكاشفة.

1/- الربط بين الحمد والملكوت: يكثر في افتتاح خطب الإمام المزج بين الحمد وذكر آلاء الله في الكون، تلك الآيات المشهودة التي تعبر عن عظمتها، وهي دليل الإنسان إليه ﷻ، يقول الإمام: "الحمد لله الذي انحسرت الأوصاف عن كنه معرفته، وردعت عظمتها العقول، فلم تجد مساعاً إلى بلوغ ملكوته"⁴، فالحمد يبقى قائماً رغم هذا الانحسار عن وصف كنه المعرفة الإلهية. إن هذا الربط الدقيق بين الحمد والعظمة الإلهية وتجلياتها في بديع صنعه تقيم برهان التوحيد والتعبد، "فدلائل وجوده ووحدانيته وقيوميته، وآثار فضله وإحسانه ورحمته - ماثلة في الكون بادية للعيان، داعية

¹ - سورة النحل، الآية 16.

² - الشريف الجرجاني: التعريفات، ص 180.

³ - المصدر نفسه، ص 111.

⁴ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 207.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

لشكر، هادية إلى الإيمان"¹، فالحمد والشكر هما قانون الوجود، وقانون الحضور والشهود، وهذا المعنى العظيم في حق الخالق العظيم هو التبعيد الواجب، ثم إن النظر في الملكوت مرفوقا بالحمد والتعظيم والتسبيح يمثل التعبير الجمالي من إنسان كامل يرى تعظيم ربه دليلا ومكافئا على ملازمة عبوديته، فهذه التوليفة بين وجوب الحمد، وبين العظمة الإلهية، وضعف الإنسان أمام إدراك كنهه، تضعه في مساق تأملي هادف يقوده إلى تحقيق توحيده وعبوديته، وهو دفع قرآني إلى النظر في هذا العالم، فهذه البصائر التي تستقبل في كل لحظة مختلف المدركات، حسية وسمعية وبصرية ولمسية وذهنية وكشفية جلالا ومعنى ما، بوعي وبصيرة، يتعين عليها تنسيق وتمحيص وموازنة المدركات، حتى تنتهي إلى معرفة الحق، من خلال علامات الكون الناطقة²، وهذا النظر المنتهي بالحمد، والموصل إلى الإيمان والتوحيد، هو مسؤولية الإنسان، في اكتشاف هذه الملكوت بالتأمل فيه.

2/- عناصر من الكون، الطاووس مثالا: لقد قال النبي ﷺ: "تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله عز وجل"³، لضعف الإنسان وقصوره عن الإحاطة بالذات الإلهية، لذا يكون النظر في الآيات المشهودة من أعظم الأبواب التي تفتح طريق المعرفة بالله، حيث يزداد تعظيم الله وتنزيهه، يرسخ به الإيمان في القلب، ويتحول يقينا في النفس، ومن هذه العجائب الكثيرة، خلق الطاووس، يقول الإمام: "فكيف تصل إلى صفة هذا عمائق الفطن، أو تبلغه قرائح العقول، أو تستنظم وصفه أقوال الواصفين، وأقل أجزائه قد أعجز الأوهام أن تدركه، والألسنة أن تصفه"⁴، وهنا يقوم الإمام بدمج ذكي بين بديع صنع الله لهذا المخلوق، والضعف الإنساني العاجز عن إدراك أسرار ما خلق، وأمام هذا العجز عن تعظيم الله، يقيم عطفًا يربط فيه بين بعض مشاهد الخلق الباهرة، وبين قدرة الخالق، بجمعها مشاهدات الإنسان الناطقة بالتسبيح والتوحيد، حيث يقول: "فسبحان الله الذي بمر العقول عن وصف خلق جلاله للعيون فأدركته محدودا مكونا، ومؤلفا ملونا، وأعجز الألسن عن تلخيص صفته، وقعد بها عن تأدية نعتة!"⁵، فنحن أمام آيات باهرات، وعقول عاجزة، وعظمة لا تنتهي، فهذه ذخائر تتجلى وتتكشف تبرز إلى بعض العقول الساجدة في هذا المشهد العظيم العجيب. "لقد أطلق الله كائنه (الإنسان) الذي خلقه بيديه، حرا طليقا، ليتدامج بقوة السمع والبصر والفؤاد مع الكون كله بحركته ومظاهره وآياته كما هي حالة الطير في جو السماء"⁶، وهذه

¹ - ابن باديس : تفسير ابن باديس، ص 25.

² - ينظر عماد الدين خليل : موقف الإسلام من العلم، ص 49.

³ - ابن حمدان أبو عبد الله: الإبانة الكبرى لابن بطه، تح رضا معطي وآخرون، دار الرسالة، القاهرة، ج6، 1994، ط2، ص 86.

⁴ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 227.

⁵ - المصدر نفسه، ص 227.

⁶ - أحمد حاج حمد : حرية الإنسان في الإسلام، ص 42.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

السياحة هي فرض واجب، وسبيلها توظيف أدوات الوعي والمعرفة، ليعقد علاقاته مع الكون، فالكون عتبة أمام السر! والسر وراء هذه العظمة! والعظمة دافعة إلى الانبهار!، ففي كل تأمل هناك معرفة، وفي كل معرفة هناك طريق إلى الله، وإلى توحيدِهِ وتَحْصِيلِ كَمالِ توحيدِهِ.

3/- آية السماوات والتجلي الإلهي : ينقلنا الإمام في سياحاته الكونية، يستنطق أسرار الآيات بفكره العميق وبلاغته الفذة، وعبقريته في الكشف، ويدفع العقول إلى هذه النقلة الإيمانية الرائعة وطريقها التأمل والسياسة، ليضع الإنسان أمام عتبة ولوج أبواب التوحيد الخالص، وهذه فرصة الإنسان ليكمل، ويستكمل عالمه الإنساني، وها هو الإمام ينشط المخيلة لتسبح في الكون، فيقول: "بل ظهر للعقول بما أَرانا من علامات التدبير المتقن، والقضاء المبرم. فمن شواهد خلقه خلق السماوات موطدات بلا عمد، قائمات بلا سند، دعاهن فأجبن مذعنات، غير متلكئات ولا مبطئات، ولولا إقرارهن له بالربوبية وإذعانهن بالطواعية، لما جعلهن موضعا لعرشه، ولا مسكنا لملائكته، ولا مصعدا للكلم الطيب، والعمل الصالح من خلقه"¹، وحيث يكون التجلي الإلهي لعباده ليعرفوه من خلال ما أَرانا من علامات التدبير المتقن، في هذا الملكوت، إذ أن طريق التدبير مفتاح هذه المعرفة، "وبذلك رسم العقل البشري مجال تشغيله، ومدرات تدييره. فوجه للتفكر في آلاء الله لا للتفكر في الله، لما فيه من تعويج لوجهة الفهم والتدبير، وتهديد بتحجير العقل"²، ذلك أن معرفة كنه الذات الإلهية لا تدرك بهذه الأدوات التي عند الإنسان، وإنما يتوجب تأمل عالمه المشهود لأخذ المعرفة والنور الذي به يهتدي إلى معرفة الحق، فالدرس المستخلص أن آيات الكون طائفة مذعنة وهو حال السماوات: "دعاهن فأجبن طائعات"، إلا أن عقول الناس محجوبة بستار الغفلة والأهواء عن دلائل العظمة³. طاعة وإذعان وتأهيل للقوى، وهذا هو درس التربية الإيمانية للإنسان يستفاد من خلال تأمله آية السماوات، وعليه فإن الدلائل الكونية هي علامات دالة على الخالق وقائدة إليه وإلى عبادته، يستنبط منها معرفة تقوي كمال توحيدِهِ لما ميز به من عقل وتكريم.

4/- تعجبات من طمس القراءة الكونية: إن المعرفة الإلهية، واختيار التوحيد منهج حياة، يمر عبر الآيات الكونية والمتلوة، حيث عرف الله ﷻ ذاته لخلقهِ، ولهذا قال الإمام: "لا يدرك بوهم ولا يقدر بفهم، ولا يشغله سائل ولا ينقصه نائل"⁴، فالآيات المشهودة تكمل نقصنا، وعجزنا عن الإدراك،

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 247.

² - زغواني رشيدة : المعمار المنظومي للرؤية العمرانية في القرآن الكريم، أعمال الندوة العلمية: الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط المغرب، 2015، ط1، ص257.

³ - ابن باديس : تفسير ابن باديس، ص 25.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 248.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

يقول الإمام: "فإنما يدرك بالصفات ذوو الهيئات والأدوات، ومن ينقضي إذا بلغ أمد حده بالفناء، فلا إله إلا هو، أضاء بنوره كل ظلام، وأظلم بظلمته كل نور"¹ يؤكد الكلام الأول والثاني على أهمية إبعاد كل التصورات والأفكار عن وصف ذات الله، حيث لا يدرك "بالفكرة والتوهم، ولا تستطيع الأفهام أن تقدره وتحده"²، وهذا التحديد لا يليق بذات الله، وبهذا فتنزيهه عن هذا هو الواجب، والتعظيم له هو المتعين، وتقودنا الآيات المشهودة إلى تقرير حقيقة ثابتة أن التأمل والنظر الراصد إلى ما في هذا الكون من دلائل، أنها دليل المعرفة بالذات الإلهية، القائدة إلى توحيد، وهي إحدى الأمانات التي تكون في رقة الإنسان، ويعلن الإمام تعجبه من الشاك في الله، فيقول: "وعجبت لمن شك في الله وهو يرى خلق الله، وعجبت لمن نسي الموت وهو يرى الموتى، وعجبت لمن أنكر النشأة الأخرى، وهو يرى النشأة الأولى، وعجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء"³، فتعجبه من:

- 1- الشاك في وجود الله: شك نتج عن قلة عقل فيه وفساد نظر، فلو نظر وتأمل لأدرك.
 - 2- ناس الموت: إن رؤية الموت يأخذ الناس، ويمثل علامة جلية تبعث على التذكر والתיقظ.
 - 3- ناكر النشأة الأخرى: يعد كل ميلاد نشأة جديدة، ودليلا يستقيم مع اعتقاد النشأة الأخرى.
 - 4- عامر دار الفناء تارك دار البقاء: إن محدودية الدنيا بفناء الناس، تدفع إلى التفكير في دار البقاء.
- ترجم هذه المواقف حالة الغفلة والشقاء، والبعد عن طريق الحق، وهي دلائل جميعها تحتاج إلى قليل من التفكير فيما هو مشهود، قصد تعديل النظرة وتصويب المفاهيم، فناكر النشأة الأخرى عليه أن ينظر في النشأة الأولى، فالجواب واليقين مائل فيها، بمعنى أن التماثلات قائمة عقدها الخالق ﷻ بين الأشياء والحقائق، وبين النشأة والنشأة، وبين استقامة الدنيا والآخرة، وبالتأمل الذي "هو تحرر من الفكر، وحركة في وجد الحقيقة"⁴، أي من الأوهام والمذعنات القبلية الفاسدة، قصد اكتساب معرفة جديدة، وبناء منظومة توحيدية، تمنح الإنسان الكمال، وتدفع عنه التشتت، "بطريق إعمال العقل في هذا الوجود ومحاولة التواصل"⁵ معه، سعيا منه لامتلاك المعرفة واليقين ورفع الدرجات، فكيف يمكن أن نرى الشواهد قرائن دالة؟! وكيف نراها قرائن ناطقة بالقدرة والعظمة؟! وكيف نحصل بها طريقا سالكا إلى مرتبة التوحيد ومن ثم إلى الكمال!؟

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 249.

² - ابن أبي الحديد : شرح نصح البلاغة، مج5، ج9، ص 52.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 449.

⁴ - جدو كريشناموري : التأمل، ص 76.

⁵ - حسين العمري : الخطاب في نصح البلاغة، ص 250.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

إن هذا لا يكون إلا بالتأمل والنظر في الآيات المشهودة في هذا الملكوت، حيث توجد المعرفة الخالصة المتحررة من القبليات وتذهينات التاريخ المفسدة، ثم إن التأمل تحرر وإفراغ من التذهينات السلبية والتحجر، إنه يمثل وقفة خالصة نقية مع الحق والخلق، يشهد بها العقل المؤمن الخالص السليم من الهوى، بهذا العقل يبدو لنا الدين، "وكانه مطبوع في النظام الكوني"¹، وآيات الكون تقدم مفاتيح الحقيقة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾²، فقد يكون النظر في الملكوت والمعرفة التي يحصلها طريقا لكثيرين إلى الإيمان، ولآخرين يكون استزادة، ولللبعض الآخر ترقيا وكمالا.

ثالثا: الآيات التكوينية: جاء في التعريفات: "التكوين إيجاد شيء مسبق بالمادة"³، فالتكوين بهذا هو ما توافر على عنصرين فعل الإيجاد ومادة هذا الإيجاد مع صفة له وهي السبق، بمعنى أن هذا التكوين يكون بمعطياته الظاهرة، وهو كذلك "إيجاد الشيء عن عدم بترتيب، ومن نقص إلى كمال"⁴، فالتكوين يحتاج دائما إلى مادة تكون خلافا للإبداع، وما يعيننا في مادة التكوين تلك القصص والأحداث التي يكون للإرادة الإنسانية دخل في إنشائها وإحداثها، فتكون تاريخا شخصيا أو عاما، وهي تتحول إلى آلية لأخذ العبرة والتعلم والمراجعة، وهذا كي يفقه الإنسان دوره في الحياة، كما في قصة أصحاب الكهف وقضيتهم الإيمانية، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاَهُمْ هُدًى﴾⁵. فقد قص الله على نبيه ﷺ نبأ الفتية، موعظة وعبرة وفقها، ومثل هذه القصص يعد آيات تكوينية دالة، وهي من العناصر الفاعلة في بناء المفاهيم المعرفية، وهي طرق ودلائل تقود كذلك إلى توحيد الله وعبادته، إذن فإن لوقائع التاريخ وقصص الأنبياء والحوادث اليومية المختلفة قيمة معرفية، وهي ذات بنية تكوينية تأسيسية، فالله لا يجري هذه الحركة وهذا الدفع بلا مقاصد، فتلك النهايات الحتمية لعملية الصراع والتدافع، إنما هي درس عملي/تطبيقي بمخارجه واستخلاصاته المرصودة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّئُ وَيُعِيدُ﴾⁶، فهذه الأحداث التي تقع، ويظن الإنسان أنه قد أمّهاها، يظهرها الله من جديد فتحا وكشفا، ومن ثم فإن الحركة التاريخية ليست كالمنطق الصوري الأرسطي الميت الجامد، وإنما هي حركة بمنطق القرآن حية تتجدد بمنطقتها

¹ - ابن نبي مالك: الظاهرة القرآنية، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر دمشق، تر عبد الصبور شاهين، 1987، ط4، ص 300.

² - سورة الأعراف، الآية 185.

³ - الشريف الجرجاني: التعريفات، ص 59.

⁴ - الراغب الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص 293.

⁵ - سورة الكهف، الآية 13.

⁶ - سورة البروج، الآية 13.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

ومآلاتها¹، وحركة نامية فاعلة بمخارجها. ولقد اعتبر القرآن قصص هؤلاء الأنبياء عبرة لأصحاب العقول، قال تعالى في مختتم قصة يوسف **التَّكْوِينِ**: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾². إن العناصر التكوينية في القصص حددتها الآية في العبرة، وتفصيل الحقيقة كاملة صادقة، فهي تحمل قوانين وسنن الهدى والرحمة، ولا يتم تمثل القيمة التكوينية، إلا بالعقل، فأخذ الفكرة و المعرفة من هذه الآيات [= مكون القصة]، هو المعنى الذي يتعين أن يتركز في النفوس، ولنلاحظ هذا الإعلان الذي يحرك به الإمام النفوس للتأمل والتبصر فيه، فيقول: "وقدّر لكم أعمارا سترها عنكم، وخلف لكم عبرا من آثار الماضين قبلكم، من مستمتع خلاقهم، ومستفسح خناقهم، أرهقتهم المنايا دون الآمال، وشدّ بهم عنها تحرّم الآجال، لم يمهّدوا في سلامة الأبدان، ولم يعتبروا في أنف الأوان، فهل ينتظر أهل بضاضة الشباب إلاّ حواني الهرم، وأهل غضارة الصّحة إلاّ نوازل السّقم، وأهل مدّة البقاء إلاّ آونة الفناء"³، حيث ينطلق في هذه الآية التكوينية من مسلمات بديهية تقتضي التأمل، أن تقدير عمر الإنسان محجوب عنه، وأن العبر من آثار الماضي، تؤكّد على قيمة الآية التكوينية، ولذا يبرز علامة هذه الآية التكوينية من أحوال الماضين كيف كانوا في استمتاع وخير، انتهى هذا إلى الانقطاع دون إتمام آمالهم في التمتع بالخيرات، وهنا نلاحظ كيف يجمع الإمام بين مدة العمر المستور عن الإنسان وذكر العبرة، وهدفه أن ينتهي الإنسان إلى تبصر ونظر ذكي يبني معرفة، ويحصل وعيا، يقوده إلى توحيد خالص، ولا يكتفي بهذا بل يعطي حيوية للآية التكوينية، من خلال اعتماد آية التساؤل، موجه للشباب وأصحاب الصحة المغتربون، وأهل مدة البقاء بطول الأمل والقوة، ويدخل في سياق الاعتبار، ذلك أن الهرم والفناء قبالة الكل، حيث يتطلب استدراكا وفقها ومراجعة، لذا كان التركيز على جملة من التحولات والآثار التي أتت على الجميع، وهم في مساكن القبور ودار الوحشة، بعد الاطلاع على المغيب عنها من أخبار آخرتها.

إن كل هذا التركيز التكويني يحمل ثقلا ومتاعب وأعباء ينهض بها أصحاب البصيرة، "فالإنسان يكشف قدرته خلال التاريخ"⁴، أي من خلال التعلم، فهذا التذكير المقدم لأهل القلوب والعقول، [العبر = التاريخ]، تمكن الإنسان من أن يرتقي، ليكشف قدرته على تجاوز كل راهينية قصد اختيار الأفضل والأكمل، ولهذا كان استئناف الحديث أن عاد الإمام إلى الحاضرين ليصلهم

¹ - ينظر محمد الغزالي : مع القرآن، دار الرجاء، عنابة، الجزائر، ص 94.

² - سورة يوسف، الآية 111.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 107.

⁴ - جودت سعيد : الدين والقانون، ص 69.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

بالسابقين في صيغة خطابية استفهامية متسائلا: "أولستم أبناء القوم والآباء، وإخوانهم والأقرباء، تحتذون أمثلتهم، وتركبون قدرتهم، وتطئون جادتهم، فالقلوب قاسية عن حظها، لاهية عن رشدها، سالكة في غير مضمارها، كأن المعني سواها، وكان الرشد في إحراز دنياها"¹، وهذا معناه أن هذه الآية الاعتبارية من خلال التاريخ، هي لصيقة بهم [= الحاضرين] وعبرتها قريبة منهم، حيث يتوجب النظر في تكوينيتها استخلاصا لدرس الحياة والإيمان المتكرر، "تحتذون أمثلتهم، وتركبون قدرتهم، وتطئون جادتهم"، حيث التماثل في الطريق والسير والمآل والطريقة، ولكن الناظر اللبيب لا ينبغي عليه أن يحقق التماثل العملي [= معهم]، بل إن مطابقته ينبغي أن تكون اعتبارية ناقدة، ومن ثم بناء قيمة معرفية توحيدية جديدة، تستلهم وتصوب فكرة الاعتقاد والعمل، قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾²، بل بمنطق الخليل عليه السلام، حيث قال تعالى على لسانه: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾³، فقد درس تكوينية الأصنام في مجتمعه نظرا وتحليلا وتأويلا، ثم قام بتفكيك هذه المنظومة، ودفع العقول لتأمل الملكوت لإعادة بناء النظام المعرفي، وإلغاء فكرة التعدد التي تدفع إلى الضياع، وتأسيس فكرة التوحيد الجامعة لقوى الإنسان، محذرا من تكوينية السابقين ونهائيتهم، وهذه مجافاة لروح الاستبصار والنظر الذي يجمع بين رؤية الهالكين وقصصهم، والقصة الجديدة التي يكون عليها الإنسان الجديد [= المعاصر]، وأن الآية التكوينية إذا تم قراءة بنيتها بشكل منهجي، وبأداة وأسلوب فني، فإن الاهتداء بقوانينها وسننها إلى حالة الرشد يكون محققا، وهذه القصص [= التكوينات]، تمثل لمسة الغيب التي تعلم الإنسان، ماثلة بقوة وبطلاقة القدرة الإلهية، وأن هذا الوعي ينبغي أن يتركز في العقول، من خلال:

أولا: قاعدة الآية التكوينية: إن من المسائل المهمة التي يتعين الالتفات إليها في الآيات التكوينية، أن العذاب النازل بالجبارين في زمن ما، لا يكون "إلا بعد تمهيل ورخاء"⁴، وهذا أعظم خطر يواجهه الإنسان، ويعود هذا إلى أن النعم التي تبطره، والصحة والقوة ومد الأمل التي تغريه، والغفلة التي تنسيه عن الإمعان في قاعدة سنة آية الإمهال، وبعد هذا الإمهال الذي تغيب فيه المراجعة، يأتي القصم والهلاك لهؤلاء الجبارين: "فإن الله لم يقصم جباري دهرى قط، إلا بعد تمهيل ورخاء، ولم يجبر عظم أحد من الأمم، إلا بعد أزل وبلاء"⁵، فالزمن الذي منح لهم يحمل اعتبارين. أنه رمزية وقيمة

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 108.

² - سورة الزخرف، الآية 23.

³ - سورة الأنعام، الآية 74.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 119.

⁵ - المصدر نفسه، ص 119.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

بالعمل، ولكن الإنسان يتمادى في الفساد، وأن الإمهال في هذا الكون تجري سننيتها على جميع الخلق في كل زمان.

ثانياً: معطل الآية التكوينية: إن المشكلة القائمة التي تحول بين الإنسان وبين نظرة الاعتبار، تعود إلى الخلل في الجهاز المفاهيمي ومنظومة الوعي، حيث تكون الغفلة معطلة للقراءة وحاجبة للمعنى والمعرفة، يقول الإمام: "وما كل ذي قلب بلييب، ولا كل ذي سمع بسميع، ولا كل ناظر ببصير"¹، فالإنسان دون استعماله لأجهزة الوعي، لا يمكنه أن ينظر في هذه الآيات والقصص التي تتداعى أمامه في المكان والزمان، بل يصل الإمام إلى نتيجة ومرتبة خطر: "لا يقتفون أثر نبي، ولا يقتدون بعمل وصي، ولا يؤمنون بغيب"²، وهذا معناه الضلال والتهيه والانحراف، ومنه نؤكد أن الآيات ناطقة، وأن الإنسان غافل غير قارئ، خلل يقود إلى خواء داخلي مزلزل، وحتى الحق يناله رذاذ الفساد، يقول الإمام: "ولبس الإسلام لبس الفرو مقلوباً"³. ذكر هذا بعد سلسلة تقلبات أخرى من الحق إلى الباطل بوجوهه، ولكن المنجاة لن تكون إلا لمن عقل ونظر وتبصر فأدرك وعرف وتعلم.

تمتاز الأمثلة التكوينية في النهج بالتنوع، وهي تشكل بنية متجانسة تسهم في صناعة الوعي وأخذ المعرفة التوحيدية من آيات الاعتبار، نحمل بعضها منها في هذا الجدول:

التأويل	نوعها	الآية التكوينية
إن ربح أهل الطاعة هو ثمرة عمل نتج عن تبصر و نظر في الحقائق التي كانت أمامهم، حيث تهيؤا لموعدهم تهيؤ العقلاء، وهذا النظر أوصلهم إلى مرتبة التوحيد الخالصة، وأماننا أهل المعصية عبرة وعظة، و درس تكويني كاشف عن خسارهم، ومن ثم فتكوينية المقارنة هادفة إلى زلزلة الأفكار السلبية وخلق المعرفة المتحجرة المنتهية، بهذه الوسيلة ندفع إلى إعادة البناء والتكوين الذهني والنفسي، الذي يقود في النهاية إلى بناء منظومة التوحيد بشكل صحيح.	بنية تكوينية مقارنية [أهل الطاعة وأهل المعصية]	1- "فأما أهل طاعته فأثابهم بجواره، وخلصهم في داره، حيث لا يطعن النزال، ولا تتغير بهم الحال، ولا تنوهم الأقرع، ولا تنالهم الأسقام، ولا تعرض لهم الأخطار، ولا تشخصهم الأسفار"، "وأما أهل المعصية فأنزلهم شر دار، وغل الأيدي إلى الأعناق، وقرن النواصي بالأقدام، وألبسهم سراويل القطران، ومقطعات النيران في عذاب قد اشتد حره، وباب قد أطبق على أهله في نار لها كلب ولجب، ولهب ساطع وقصف هائل، لا يظعن مقيمها، ولا يفادى أسيرها"، [ص 160، 161].
إن مصارع القوم وهلاكهم، وفقدان الوجود والعز، والسرور ووانقطاع النعيم، والتبدلات بعد الموت، ومفارقة ما كان إلى عالم فيه الوحشة.. كل هذا يدعو إلى أخذ العبرة، و لهذا "علينا أن نتنافس في ابتكار الأسلوب الأبسط والاقتصادي لنقل الذين عندهم قدرة على تأمل	التذكير العام نموذج تكويني	2- "فاحذروها حذر الشفيع الناصح والمجدد الكادح، واعتبروا بما قد رأيتم من مصارع القرون قبلكم، قد تزايلت وصالحهم وزالت أبصارهم وأسماعهم، وذهب شرفهم وعزهم، وانقطع

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 119.

² - المصدر نفسه، ص 119.

³ - المصدر نفسه، ص 157.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

<p>الموضوعات إلى حالة الوعي، حتى نصنع الخميرة البشرية التي ستحدد النموذج الإرشادي"¹، فهذه الآية التكوينية العامة هي تخطيط منهجي يدرس المآلات، ويدعو إلى ضبط شهوات النفس مع تحكيم العقل، ليتشكل الوعي المناسب يمثل هذا النظر الذي يقود إلى التوحيد، فهذا التذكير بزوال القوة والمنعة والتحرير، يكون للعقل البصير عبرة، تقوده إلى توحيد الله وعبوديته، وتحصيل معرفة توحيدية ضرورية.</p>	<p>هادف [القرون السابقة]</p>	<p>سرورهم ونعيمهم... "[ص218]. - "وإن لكم في القرون السالفة لعبرة. أين العمالقة؟! وأبناء العمالقة؟! أين الفراعنة وأبناء الفراعنة؟! أين أصحاب مدائن الرّس الذين قتلوا النبيين، وأطفئوا سنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبارين، وأين الذين ساروا بالجيوش، وحزموا بالألوف، وعسكروا العساكر، ومدّنوا المدائن!" [ص249، 250].</p>
<p>يمكن تنشيط الذاكرة والمخيلة، فما هو عالق بها من خبر هؤلاء ما يزال مستقرا، وفي هذا إمكانية لدفع قصصهم وتشكلاتها التكوينية لتؤسس لوعي جديد يستحضر الخطر والنهايات، فهذا تمثيل بالمشاهدة لتقريب الصورة، وإحداث الأثر البين في النفوس والعقول بزيادة تنشيط المخيلة على الاستدكار بطريق الترهيب من خلال التركيز على الجفوة المانعة عن الحق، والجهل ومخاطره، وضرورة بناء أجهزة الوعي، "فالذي يصنع التاريخ هو الإنسان، ومن ثم تمتد حركته إلى أكثر من بعد، وتتوغل إلى أكثر من عمق"²، وتنشأ من التذهين الذي يتلقاه الإنسان عبر التاريخ، ويستخلص من هذه القصة: - الحذر من الجفوة والجهل وخطرها. - يتعين على الإنسان أن لا يهمل نظره في القصص القريبة منه والتي تحدث يوميا، حيث يخرج الله خفاء هذه الأحداث ليعتبر بها، بعدما كانت في طوية الغيب، وأن يسأل نفسه: لماذا أظهرت؟ وكيف ظهرت، وما هي أسبابها التي شكلت حبكتها كاملة!؟</p>	<p>التذكير القريب بجفوة الجاهلية.</p>	<p>3- "ولا تكونوا كجفوة الجاهلية لا في الدين يتفقهون، ولا عن الله يعقلون، كقيض بيض في أداح يكون كسرهما وزرا، ويخرج حضائها شرا" [ص229].</p>
<p>لقد صار هؤلاء القوم مثلا وعلما في الإخلاف والجحود والإنكار، حيث قابلوا الجميل الإلهي بالعصيان والعداوة، وتيهيم نتيجة لانحرافهم وإعراضهم عن الحق، ويذكر الإمام هذا المثل بعد توبيخ منه للناس: 1- ربط التذكير ببني إسرائيل وبتخاذلهم ومخالفتهم. 2- محاولة خلخلة القناعات، والأجهزة المفاهيمية [= الوعي الخاطيء] التي تشكلت إثر التكوين الفاسد، حيث تستهدف مراجعة المواقف. 3- تهويل أمرهم، ورفع مستوى هذا الخطر، أن التيه سبضعاف: تية بني إسرائيل [= تيههم الآن] (في زمن الخطبة) مع قابليته للزيادة، أي "لتزاد لكم الحيرة أضعاف ما هي لكم الآن"³، وكله ناتج التخلي عن طريق الحق ومسلك التوحيد، والمعرفة الصحيحة.</p>	<p>التذكير الخاص : بنو إسرائيل</p>	<p>4- " .. ولكنكم تهتم متاه بني إسرائيل ولعمري ليضعفن لكم التيه من بعدي أضعافا، بما خلقتم الحق وراء ظهوركم وقطعتم الأذن، ووصلتم الأبعد" [النهج، ص 230].</p>
<p>إن من أكبر ما يتهدد الإنسان في هذه الحياة الكبير والفخر، حيث</p>	<p>معادلة =</p>	<p>5- "فاعتبروا بما كان من فعل الله ببابليس، إذ</p>

¹ - جودت سعيد : الدين والقانون، ص 174.

² - خليل عماد الدين : مؤشرات إسلامية في زمن السرعة، ص 25.

³ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 230.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

<p>يقوده إلى تعاضم وتناول ليس من حقه، ينسيه حقيقته، ليكون بعدها فريسة للشيطان، وداعيا من حزبه، أول قصة تكوينية حصلت في تاريخ الإنسان عند خلقه في البدء، وأول صراع ألقى بظلاله على مشهد الوجود الإنساني الأول، وفيه :</p> <p>1- استكبار الشيطان وترفعه، وفخره بأصله.</p> <p>2- إحباط عمله وجهده الدؤوب في العبادة، رغم طولها.</p> <p>وهذا معناه أن أول قصة تكوينية في عملية التذهين والبرمجة وتشكيل المفاهيم لدى الإنسان ينبغي أن تبدأ بهذه القصة، لاعتبارات مبدئية :</p> <p>أ- صعوبة المحافظة والبقاء في عالم التوحيد.</p> <p>ب- دور الشيطان المتكرر في زحزحة الإنسان عن فطرته.</p> <p>ج- تنزع نفس الإنسان إلى الخروج عن أصل الفطرة، إلى الاستكبار والشهوات والملذات والأهواء، وفي الجملة فإن هذا التذكير بتنويجات قصته أنه يدفع العقول إلى النظر والتفكير لتفهم المراد الإلهي بمبدء وفقه، وعدم نسيان واجبه ودوره وتكاليفه في النعم بالشكر، لا بالسكر، لأن توحيد الله مرتبة تشريفية وتكريمية، وأن النزول عنها ضياع وتيه يهلك كما هلك إبليس.</p>	<p>التذكير بإبليس: الاستكبار والفخر</p>	<p>أحبط عمله الطويل وجهده الجهيد، وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة ... عن كبر ساعة واحدة، فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصية؟... إن حكمه في أهل السماء وأهل الأرض لواحد" [النهج، ص 270].</p>
<p>إن المتعين التكويني في هذا القول جملتان دالتان هما :</p> <p>1- جملة : " فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمرهم".</p> <p>2- جملة : " وبقية قصص أخبارهم فيكم عبرا للمعتدين".</p> <p>وهما العلامة التأويلية الدالة على أهمية الآيات التكوينية، فقد أشارت إلى حالهم من العز، واجتماع كلمتهم، عز أنهار وتحول إلى التفرق والذل، فالحذر واجب من الانتهاء إلى نفس نهاياتهم¹، وبهذا تصبح الآيات التكوينية لها دورها الحاسم في تشكيل بنية معرفية تقود الإنسان إلى التوحيد الفطري الخالص، وبذلك تتحقق مرتبة كمال التوحيد، بالنظر في الآيات وما تعطيه من معرفة.</p>	<p>التذكير بالأمم السابقة</p>	<p>6- " فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهم، حين وقعت الفرقة، وتشتت الألفة، واختلفت الكلمة والأفئدة، وتشعبوا مختلفين، وتفرقوا منحازين، قد خلع الله عنهم لباس كرامته، وسلبهم غضارة نعمته، وبقية قصص أخبارهم فيكم عبرا للمعتبين" [النهج، ص 278-279].</p>
<p>على منهج القرآن الذي يدعو إلى مثل هذا الأسلوب، في استنطاق الموتى لكسر التجبر والتكبر، فإن الإمام يختار هذا الأسلوب لمثل هذه ليستوقف به العقول أمام مشهد الماضين للإخبار، والتكلم بحكمة المال، وحكمة من يزال، وهذا الاستنطاق، إنما يعني نظرة ثانية إليهم²، فكلامه "كله على طريق الهز والتحريك، وإخراج الكلام في معرض غير المعرض المعهود، جعلهم لو كانوا ناطقين متحيرين عن أنفسهم [لأنوا] بما وصفه من أحوالهم"³. وتمنحنا هذه الآية التكوينية، الدلالات الآتية:</p> <p>1- أن هذا الاستنطاق والكلام هو استنطاق عبرة.</p>	<p>بنية قريبة استنطاق الموتى</p>	<p>7- " ولئن عميت آفانهم وانقطعت أخبارهم، لقد رجعت فيهم أبصار العبر، وسمعت عنهم آذان العقول، وتكلموا من غير جهات النطق، فقالوا : "كلحت الوجوه التواضر، وحوث الأجسام التواضع، ولبسنا أهدام البلى، وتكأءنا ضيق المضجع، وتوارثنا الوحشة، وتمكمت علينا الرزوع الصموت، فامححت محاسن أجسادنا، وتكثرت معارف صورنا، وطالت في</p>

¹ - ينظر ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 7، ج 13، ص 102.

² - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 215.

³ - ابن أبي الحديد : المصدر السابق، مج 6، ج 11، ص 93.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

<p>2- كسر الغرور الإنساني.</p> <p>3- كل امتلاك [= جمال، مال، جاه، عز..] تجري عليه سنة الفقد.</p> <p>4- إثبات نهاية المتأخرين، بنهاية الأولين، وقصة المتأخر تتقدم لتكون مثلاً دالاً، مثل قصة المتقدم.</p> <p>5- يرتبط الامتلاك الحقيقي بمعرفة الله وتوحيده وعبادته.</p>		<p>مساكن الوحشة إقامتنا، ولم نجد من كرب فرجا، ولا من ضيق متسعا .. <u>فلو مثلتهم بعقلك</u>، أو كشفت عنهم محجوب الغطاء لك (...). <u>لرأيت أشجان قلوب</u>، وأفذاذ عيون، لهم في كل قطاعة صفة حال لا تنتقل، وغمرة لا تنجلي" [النهج، ص 315-316].</p>
<p>إن الآية التكوينية، لبنة معرفية، مؤسسة لنظام التوحيد، ومادام أن النهايات تصنع مستقبل الإنسان فيما وراء هذه الدنيا، فإن المستخلص منها متابعة الإنسان لهذه الآيات متأملاً وقارئاً ومؤولاً، ولهذا نضع هذه الآية التكوينية من قول الإمام جملة تحذيرية فيها تحفيز وتنشيط للمخيلة لتعمل في رخاء، وتبعث بخيوط أفكارها لتكون سلوكاً عملياً، جملة تمكننا من بناء هذه الضرورة، ملخصة في النقاط الآتية:</p> <p>- أهمية النظر والاعتبار والتذكير والتفكير.</p> <p>- تشكيل مفاهيم جديدة بديلة عن التصورات الخاصة المفسدة.</p> <p>- أن التنعم الحقيقي يكون في الحق والعلم، وما يبني الكرامة الإنسانية.</p> <p>- أن الجسد الحق، هو الجسد الذي يفنى في الطاعة والعبادة.</p> <p>- أن الحياة الوازنة السوية هي التي تجمع بين الدنيا والآخرة، وفق قيم الحق ومعايير جمالية وإنسانية.</p>	<p>الآية التكوينية التحذيرية [أكل الأرض لجمال الأجساد]</p>	<p>8- يقول الإمام : "<u>فكم أكلت الأرض من عزيز جسد، وأنيق لون</u>، كان في الدنيا غذي ترف و ريب شرف" [النهج، ص 316].</p>

ويجفل القرآن الكريم بالقصص والأخبار التي تشكل بنيات تكوينية معرفية هادفة، عندما يذكر ضعف الإنسان، "فأولا لكي يوقفه على حقيقته فلا يشذ ولا يطغى معتقدا أنه قادر على صياغة أي شيء والتحكم في أية واقعة، وصنع تاريخه ناجزا كما يريد، وثانيا لكي يستقره قوى التحدي والمقاومة"¹، فهي جزئيات بنوية ورافعات تمنح الحكمة، وتحت ظلها تتم المراجعات التقييمية، وفقه سنن الحياة، فالاعتبار قائم بها، جريا مع هذه السنة المقومة لسلوك الإنسان، كما يتعين النظر في زوايا تكوينية أخرى لاستكمال هذا البناء من مثل مذهبنا التربوية والتعليم، وأخبار السابقين، وقصص الأنبياء والصالحين، وأخطاء الإنسان وعثراته المختلفة في الحياة*، وجميعها أساليب إضاءة كاشفة تمدنا برؤى جديدة تصحح مواقف الإنسان، خاصة التوحيدية.

إن الطرق الثلاثة للمعرفة، هي أهم وسائل الهداية التي تبلغ مرتبة التوحيد الحق التي هي أشرف وأفضل مراتب الكمال.

¹ - عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ، ص 158.

* - يقترح رولان بارت هذا العلم في كتابه "شذرات من خطاب في العشق" علما جديدا أسماه "علم الهفوات"، يتأسس على قراءة الأخطاء والعثرات البشرية، قصد تعلم بصير و إصابة الحق و الاهتداء بعبر التاريخ.

المبحث الثاني: مرتبة العبودية:

1- مفهوم العبودية: قال صاحب اللسان: "وعبد الله يعبد عبادته ومعبدا أو معبدا: تأله له، والتعبد: التنسك، والعبادة: الطاعة.. ومعنى العبادة في اللغة الطاعة مع الخضوع، يقول: وقال ابن الأنباري: فلان عابد وهو الخاضع لربه المستسلم المنفذ لأمره"¹، وهذا التأله من العبد لربه، إنما يكون بالانقياد لأوامره وطاعته بإتباع نهجه وشرعه، "وأصل العبودية الخضوع والتذلل"²، بمعنى أن حقيقة العبادة ينبغي أن تكون إسلاسا ورغبة ومحبة، حيث يتفانى المخلوق في الإقبال على ربه وإرضائه فلا ينقطع في هذه الوصلة، أما في التعريفات، "فالعبادة: هو فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيما لربه"³، والفكرة الملفتة هنا أن العبادة الحققة هي التي تظهر وتنتصر على هجوم مخالفات النفس وهواها، حيث يختار العبد سلوك الطاعة والرضى، وعنده أن "العبودية: الوفاء بالعهود، وحفظ الحدود، والرضا بالموجود، والصبر على المعقود"⁴، فهذه العبودية مرتبة اشترطت هذه الصفات، الوفاء والحفظ والرضا والصبر، وهي عناصر مؤسسة تؤدي إلى هذه الحقيقة. وتتطلب العبودية من العبد عملا كبيرا تصفية وتنقية وصبرا ومراقبة، ليتم له كمال العبودية، ولهذا، "فالعبودية وهي أمر وراء العبادة، معناها التعبد والتذلل قالوا: العبادة للعوام من المؤمنين، والعبودية للخواص من السالكين"⁵، وبهذا يشق الإنسان طريقه من العبادة إلى العبودية، يقول الإمام علي: "نوم على يقين خير من صلاة في شك"⁶، قاله عندما سمع رجلا من الخوارج يصلي متهجدا، وهو ما عرف عن هذه الفرقة من تعبد ونسك، إلى درجة ملفتة، ولكن مسلكهم في الحياة كان برفع السيف في وجه الأمة والخروج عليها، وهنا يعطينا الإمام التصور السليم لمفهوم عبودية الإنسان "لربه"، نجمله في:

1- يمثل اليقين صورة العبودية، ومحدد هو العلم، وهذا يعني "النهي عن التعرض للعبادة مع الجهل بالمعبود"⁷، فالمعرفة مقدمة عن العبادة.

2- أولية اليقين على المظهر العبادي، من صلاة وقراءة ونوافل وطاعات.

3- ترتبط العبودية ارتباطا وثيقا بالإطار العملي السلوكي في الحياة.

¹ - ابن منظور : لسان العرب، مج6، ص 50.

² - المصدر نفسه، ص 48.

³ - الشريف الجرجاني : التعريفات، ص 123.

⁴ - المصدر نفسه، ص 123.

⁵ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج6، ج11، ص 121.

⁶ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 444.

⁷ - ابن أبي الحديد : المصدر السابق، مج9، ج18، ص 117.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

إذن فالعبودية وصلة بين العبد وخالقه بآثارها الحسنة، وهذا يعني أن "ترك التنفل بالعبادات مع سلامة العقيدة الأصلية، خير من الاشتغال بالنوافل وأوراد الصلاة مع عدم العلم"¹، أي ضرورة انبناء العبودية على اليقين والعلم، لأن الشك الذي يداخل العبد في عبادته إنما يعبر عن جهله واعتقاده الفاسد الذي ينبغي أن يصحح، يقول الإمام: "إذا أضرت النوافل بالفرائض فافرضوها"²، فكلمة الإضرار تعني الإفساد الملحق بالفرض وثمراته ونواتجه، صيغة أمرية هادفة إلى ضبط الإنسان لتعبده وفق المنهج الإلهي، فقيمة العبودية بالاستقامة على منهج الله، وبالأثر الذي تتركه ويترجم بصورة الصلاح، يقول الله الإمام: "عرفت سبحانه بفسخ العزائم، وحل العقود، ونقض الهمم"³، فهل يحتكم الإنسان إلى الخواطر التي تخطر عليه عندما يعتقد أمراً ما بهذه النية التي تفسخ؟! "فلولا أن هناك قدرة سامية فوق إرادة البشر، وهي قدرة الله لكان الإنسان كلما عزم على شيء أمضاه، لكنه قد يعزم والله يفسخ"⁴، وهذا من تمام المعرفة وكمال العبودية والإرادة، وعند تعارض الإرادتين، يختار الإنسان إرادة الله برغبة ومحبة، وفي هذا الاختيار يترقى إلى كمال مراتب العبودية، ومن ثم تصبح العبادة: "طاعة طوعية ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية"⁵، فهذه المعاني التي تركز على الامتثال الطوعي المؤسس على العلم والمعرفة هي العبودية، "ومن مقتضى الضعف أن يخاف ويوجل، ومن مقتضى الافتقار أن يرجو ويطمع"⁶، وبهذا تصبح العبودية معنى في داخل الإنسان يكونه بكل قواه وطاقاته، وينعكس على كل المكون الإنساني فيه.

ويسوقنا الإمام إلى مثل هذا الاستبصار، فيصحح لرجل معنى آخر من معاني العبودية، قال بحضرته: "استغفر الله"، فينقله من ظاهر الاستغفار إلى دلالاته العميقة التي تجلّى حقيقة العبودية، فقال: "ثكلتك أمك؟ أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليين. وهو اسم واقع على ستة معان: أولها: الندم على ما مضى، والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً، والثالث: أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة. والرابع: أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها فتؤدّي حقّها. والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان

¹ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، ص 117.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 476.

³ - المصدر نفسه، ص 467.

⁴ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 467.

⁵ - محمد راتب النابلسي : موسوعة أسماء الله الحسنى، ج 1، ص 51.

⁶ - ابن باديس : تفسير ابن باديس، ص 203.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

حتى تلتصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحمٌ جديد. والسادس: أن تذييق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: "أستغفر الله".¹ ونقف في هذا الكلام مع الإمام علي وجه من وجوه عبادة الله، بحيث يمثل الاستغفار منظومة فكرية وسلوكية متماثلة:

- الاستغفار مظهر تعبدي، وإحدى فروض استشعار التذلل والخضوع، وهذا وجه عبادي.
- للاستغفار مقتضيات وتبعات تقيمه، وفي هذا وجه عبادي.

- الاستغفار مرتبة العليين ووجه عبادي، يقود إلى مرتبة الكمال، فيمن تجلت فيهم حقيقة العبودية.
- الاستغفار درجات ومعانٍ عميقة، إلى مراجعة تقويمية شاملة تضع العبد على خط الاستقامة مباشرة، فهو فقه وندم وعزم، وأداء لحقوق العباد والفرائض، وإذاقة الجسم لألم الطاعة.

وكل هذه المعاني هي مجموع يقتضيه الاستغفار، يحقق توبة العبد التي ترفعه إلى مقامات العليين، ومن ثم فالعبودية يتعين أن تصبح "هي الهدف الذي يتوجب على الإنسان، فرداً أو جماعة، أن يصعد إليه كافة نشاطاته الحضارية"²، ولا يقوى على هذا التصعيد والانخراط الكلي، إلا إنسان انغمس في فضاءات الحرية والجمال، بحيث يحولانه إلى كائن عابد جميل، يعبد ربه كأنه يراه.

2- مقومات بناء نظام العبودية: تقتضي العبودية مقومات بنائية كالحرية والقلب واللسان:

أولاً: الحرية: ترى ما الذي يجعل الحرية مكوناً حاضراً مع قضية العبودية؟ وهل يحتاج الإنسان إليها في هذا الخط الذي يسلكه، وفي العهد الذي ألزم به نفسه مع ربه؟! أسئلة ضرورية، فالله يجب أن يأتيه عبده طائعا لا مرغما، كما أتت السماوات طائعة، فما هي المكاسب الإيمانية والروحية، وحتى الجمالية، التي تعطىها الحرية للمتعبدين؟! جاء في التعريفات، أن الحرية هي "الخروج عن رق الكائنات، وقطع جميع العلائق والأغيار، وهي مراتب: حرية العامة عن رق الشهوات، وحرية الخاصة عن رق المرادات لفناء إرادتهم في إرادة الحق، وحرية خاصة عن رق الرسوم والآثار لانمحاقهم في تجلي نور الأنوار"³، فالحر هو من استطاع أن يخرج من عبودية المخلوقات والأغيار ويخضع بإرادة حرة لله، وهذه مراتب تبدأ بالأدنى، حتى يتحرر العبد كلية من عبودية الشهوات والأهواء، ولهذا قال الإمام: "الشهوة رق مؤبد"، فهذا التحرر الأول يصبح حتمية الانتساب الإيماني، عندما يخضع الإنسان لإرادة الحق، ثم يستغرق في سعيه، حتى يتجاوز عبادة الظاهر لرسوم الشريعة، إلى معنى الحق وأنواره

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 497.

² - عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ، ص 179.

³ - الشريف الجرجاني : التعريفات، ص 76.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

المتجلية في الحقائق والأسرار الكونية، لتكون عبوديته هي عبودية العليين، ومرتبته مرتبة الكاملين، وكل هذا التدرج إنما تسوق إليه الحرية الخالصة، وفي اللسان أن "الحر من الناس: أختيارهم وأفاضلهم"¹، ومعنى هذا أن الحرية هي ما قادتنا إلى الأنتقى والأخلص والأخير، وهذا ما يلخصه زبدة الكلم النبوي، أن خيار الناس، خيار في الجاهلية والإسلام*، ولا شك أنهم أحرارهم، يمثلون خلاصة الإنسانية وثمره الحرية، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾²، بحيث تمنح الحرية الإنسان مسؤولية اختياره لخط الحق والرشد بحرية ووعي، يقول الإمام متحدثاً عن غائية خلق العباد: "عباد مخلوقون اقتداراً، ومربوبون اقتساراً، ومقبوضون احتضاراً، ومضمّنون أجداثاً، وكائنون رفاتاً، ومبعوثون أفراداً، ومدنيون جزاءً، ومميّزون حساباً، قد أمهلوا في طلب المخرج، وهدوا سبيل المنهج، وعمّروا مهل المستعجب، وشفّت عنهم سدف الرّيب، وخلّوا لمضمار الجياد، ورويّة الارتباد، وأناة المقتبس المرتاد في مدّة الأجل ومضطرب المهل، فيا لها أمثالا صائبة، ومواعظ شافية، لو صادفت قلوباً زاكية، أسماعاً واعية، وآراء عازمة، وألباباً حازمة!"³، يقودنا هذا القول إلى تحديد منهجي قائم بين المملوكية لله والحرية، ومهلة الزمن الممنوحة للعبد:

القسم الأول: "عباد مملوكون اقتداراً... ومميزون حساباً"، وفيه تتجلى مملوكيتهم لله، من خلقهم إلى الحساب، فلا آثار لحرية العبد هنا، "فهم مملوكون له بسطوة عزة لا خيرة لهم في ذلك"⁴، وتظهر آثار اسم الله الملك جليلة في رسم هذه المملوكية.

القسم الثاني: "قد أمهلوا في طلب المخرج... مضطرب المهل"، وهنا تأتي الحرية ضرورة وحتمية، وأن الاسترخاء الزمني، هدفه ممارسة الإنسان عبوديته في فسحة، بحرية واختيار، بحيث "أوتوا من العمر مهلة من ينال العتبي أي الرضا لو أحسن العمل وتركوا في مجال يتسابقون فيه إلى الخيرات"⁵، وفي مثل هذا المضمار التنافسي، فإن من كان أكثر حرية وتحرراً من كل قيد، هو من يستطيع أن يرتفع إلى مرتبة كمال العبودية، فالله منح الحرية لعبده، ووضع معها الهاديات التي يدرك بها الطريق، وإن الإمهال في طلب المخرج، أرفق بهدايته إلى سبيل المنهج، وكشف الظلمات والشبهات بالبراهين

¹ - ابن منظور : لسان العرب، مج2، ص 390.

* - إشارة إلى الحديث النبوي: "الناس معادن..."، فالحر أصل في الكرم والحقيقة والإنسانية.

² - سورة البقرة، الآية 256.

³ - علي بن أبي طالب : نخب البلاغة، ص 104، 105.

⁴ - محمد عبده : شرح نخب البلاغة، ص 104.

⁵ - المصدر نفسه، ص 105.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

الواضحة، وفتح مجال المسابقة إلى الخيرات، مع إعمال فكرهم في أمرهم، "ليأتي على أسلم وجوهه"¹، فهذا المتعلم، "لا بد له من أناة ومهل ليلبغ حاجته"²، بالعلم والعمل، مع وجود الحرية. وتظهر قيمة الحرية في علاقتها بالعبودية أنها شرط ينفي القسر على الكائن، ليكون واعيا مسؤولا بما يفعله، ويتقدم بحرية إلى خالقه، وبذلك يدفع عن نفسه أن يعبد الله بما لا يصح، وبما لا يتوافق ومنهجه الذي شرعه، أي أن العبودية تخط بالعلم وفق منهج، يقول العقاد: "من شروط التكليف طاعة وحرية... ولا معنى للحرية من وراء إرادة الخالق وإرادة المخلوق"³. وهذا هو معنى التقسيم الذي وضعناه لكلام الإمام بتأول دلائله، ويترتب عن هذا فهم آخر يقودنا إليه الإمام: "واعلموا عباد الله أنه لم يخلقكم عبثا ولم يرسلكم هملا، علم مبلغ نعمه عليكم، وأحصى إحسانه إليكم، فاستفتحوه استنححوه، وأطلبوا إليه واستمنحوه، فما قطعكم عنه حجاب، ولا ألق عنكم دونه باب"⁴، حيث يبرز الإمام الغاية من خلق الناس، فقد انتفت العبيثة "لم يخلقكم عبثا"، والصدفة "لم يرسلكم هملا" من وراء ذلك، مما يعني رفض الحرية المطلقة مع تحديد القصد من خلقه. إذن فحرية الإنسان هي حرية مقيدة، مرتبطة بالإرادة والقدرة التي بها تتجسد الحياة واقعا حيا وعمليا، فمملوكية العبد، هي الإطار الذي تتحصن فيه الذات من قيم الفساد، والقوى العابثة، والنفس الأمارة، وتحكم الفاسدين والمستكبرين، وكل هذا يحدد معنى هذه المملوكية، مع الحرية الممنوحة للإنسان، وداله عبارة "لم يرسلكم هملا"، والتي تعني الإبل بلا راع، ووضع الإبل هذا يعرضها للخطر، لذا تأتي الضوابط شروطا مقيدة لحرية الإنسان، بما يحدد مقاصده في الحياة: "لم يخلقكم عبثا"، مقصد يتحدد في عبادة الله وحده، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾⁵، وكفاية الإنسان المقصد الثانوي، البحث عن رزقه، من هنا تأتي الحرية إمكانية تفجيرية للطاقة الروحية المستثمرة في مضمار العبودية، وقدرة مانعة من الوقوع في أسر الغرائز.

ويمكن إدراك أبعاد الحرية وارتباطها بفكرة العبودية، من خلال معرفة عناصرها ومقوماتها:

1- المملوكية: إن ارتباط الإنسان بوصفه المخلوق السوي بخالقه، وهو يملك كامل حياته من بدئها حتى الحساب، وبحكم الابتلاء بمواده التكليفية، ومعيقات الطريق، إلا أن الله قد أعطاه الحرية

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 105.

² - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج3، ج6، ص 156.

³ - عباس محمود العقاد : الإنسان في القرآن، ص 39، 40.

⁴ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 289.

⁵ - سورة الذاريات، الآية 56.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

التي بها يجتاز هذا الطريق المحفوف بالمخاطر، ومن ثم فهو يرتبط أشد الارتباط بعبوديته لخالقه ﷻ، وفي هذا المعنى يقول الإمام: "فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره يملك منا ما لا نملك من أنفسنا، وأخرجنا مما كنا فيه إلى ما صلحنا عليه، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى، وأعطانا البصيرة بعد العمى"¹، فقد أكد على فكرة المملوكية والعبودية، وتعتبر هذه الفكرة، الفكرة المركز الداعمة لضعف الإنسان. إن هذه المملوكية المرفقة بالإمدادات التي تعين على الطريق لها ألق خاص، تمنحه حرية الاختيار بمسؤولية ووعي، ما يجسد حقيقة التكريم وحسن التقويم، وبهذه الحرية وضع الإنسان بين خيارين، ذلك "أنه بدون (حرية) لن يكون هناك أبدا معنى (للموقف الإنساني) أو مغزى للخير والشر، كما أنه لن يكون هناك هذا المعنى أو المغزى ليوم الحساب الذي يترتب بدهاة على اختيارات الناس الحرة"²، وبهذا تتجلى الحرية، قيمة مضافة تبني مملوكية الإنسان لربه.

2- الحرية تحرر من الأغيار: إن هذه الحرية المتعلقة بالمملوكية، هي قيمة ضرورية، ولكنها تصبح بلا فاعلية إذا لم يتحرر فيها الإنسان من الأغيار، ولذا فتحرره منها يعد واجبا وحتمية، يقول الإمام واعظا ابنه: "ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا، وما خير خير لا ينال إلا بشر، ويسر لا ينال إلا بعسر"³، يفصح الإمام بمقولة حرية الإنسان التي هي مقتضى تحرره من كل سلطة، وعليه فإن أي خير "سماه الناس خيرا وهو مما يناله الإنسان إلا بالشر، فإن كان طريقه شرا فكيف يكون خيرا؟"⁴، ومعنى هذا أن صاحبه يقع تحت تأثير الآخر وسلطته، وبالتالي فهو خضوع ينافي المملوكية والحرية، "فالإنسان لا يحيا حياة إنسانية خالصة إلا بقدر ما يتحرر من الضرورة العمياء التي يغلب فيها الانفعال على الفعل"⁵، فالضرورة العمياء [= هي عبد غيرك] التي تضاد منهجيا [= وقد جعلك الله حرا]، فمن هو هذا الحر برأي الإمام؟! إن هذا الحر هو الذي يناديه الإمام بقوله: "ألا حر يدع هذه اللماظة لأهلها؟ إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بما"⁶، أي أنه ذلك الفاعل العدل، تارك الدنيا، ومشتري الجنة، وبهذا تصبح الحرية كمالا وجمالا، وموقفا واختيارا، ويأتي هذا في طريق صعب شائك، ولهذا يربط هذا الترك للدنيا بالحر دون أن يتلصقا، بل يسارع إلى ما

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 311، 312.

² - عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ، ص 141.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 369.

⁴ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 369.

⁵ - أنس شكشك : فلسفة الحياة، ص 100.

⁶ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 502.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

يكسبه الجنة، بلفظة "اللماسة" وهي بقايا الطعام في الفم ويقصد بها لفظ الدنيا، والتحضيض مفاده، "ألا يوجد حر يترك هذا الشيء الديني لأهله"¹، ولذا فالتحرر شرط رئيس في الفهم والفعل وتحقق العبودية بالحرية، "فالمرء لا يستطيع أن يفهم شيئاً مادام مغلولاً"²، فالحرية تصنع عبوديته بإرادة واطمئنان. أنه "لا سلطان لغير من هو عبد ومملوك له، عليه"³، بمدافعة الموانع، حيث تصبح الحرية بهذا اطمئنانا يحفظ مملوكية العبد لربه، وممارسة فعل عبوديته بحرية وتحرر من الأغيار.

3- الحرية وعلاقتها بالقضاء والقدر: تعد هذه القضية من أعقد القضايا على الإدراك العقلي والمعرفي، ونعثر في النص الآتي للإمام على توضيح دقيق للمسألة، قائلاً: "ويحك لعلك ظننت قضاء لازماً وقدرًا حاتماً، ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد، إن الله سبحانه أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيرًا، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً، ولم يرسل الأنبياء لعباً، ولم ينزل الكتب للعباد عبثاً، ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً، "ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ"⁴ [ص:27]. يشير الكلام إلى نفي واضح لكل اضطرار وجبر وإكراه، وتظهر حرية اختيار العبد لأفعاله جليلة، ومسؤوليته كاملة مباشرة فيما يريد، فالقضاء والقدر ليس إكراهاً، ولا سيفاً مسلطاً، لأن هذا يتنافى مع عدل الله المطلق، فمن خلال الحرية يصنع الإنسان قدره، "فلا يجد شخص إلا أن اختياره دافعه إلى ما يعمل، والله يعلمه فاعلاً باختياره، إما شقياً به وإما سعيداً"⁵، وهذا يعني أن تجليات الحرية هي مساقات الإنسان إلى عبودية الله رغبة، "ففي الحرية قدرة المرء على التأثير في جسمه والتحكم في أهوائه وانفعالاته (...). ومعنى هذا أن الحياة الإنسانية تبدأ حيث تنتهي الحياة الحيوانية"⁶، ليقود الإنسان حياته ويوجه طاقاته نحو عالم أجمل وأفضل، وأعلى وأشرف من عالم الحيوان، ليصبح الإنسان بالحرية إنساناً، وبالفكرة جمالاً، كما أن في جريان الأقدار على الإنسان حكمة يتعين عقلها، يقول الإمام في تعزيبه للأشعث عند فقدان ابنه: "يا أشعث إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور. يا أشعث ابنك شرك وهو بلاء وفتنة، وحنزك وهو

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 502.

² - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 156.

³ - البوطي محمد سعيد رمضان : الحكم العظائية لابن عطاء الله السكندري- شرح و تحليل دار الفكر، دمشق، مج2، 2005، ط2، ص 132.

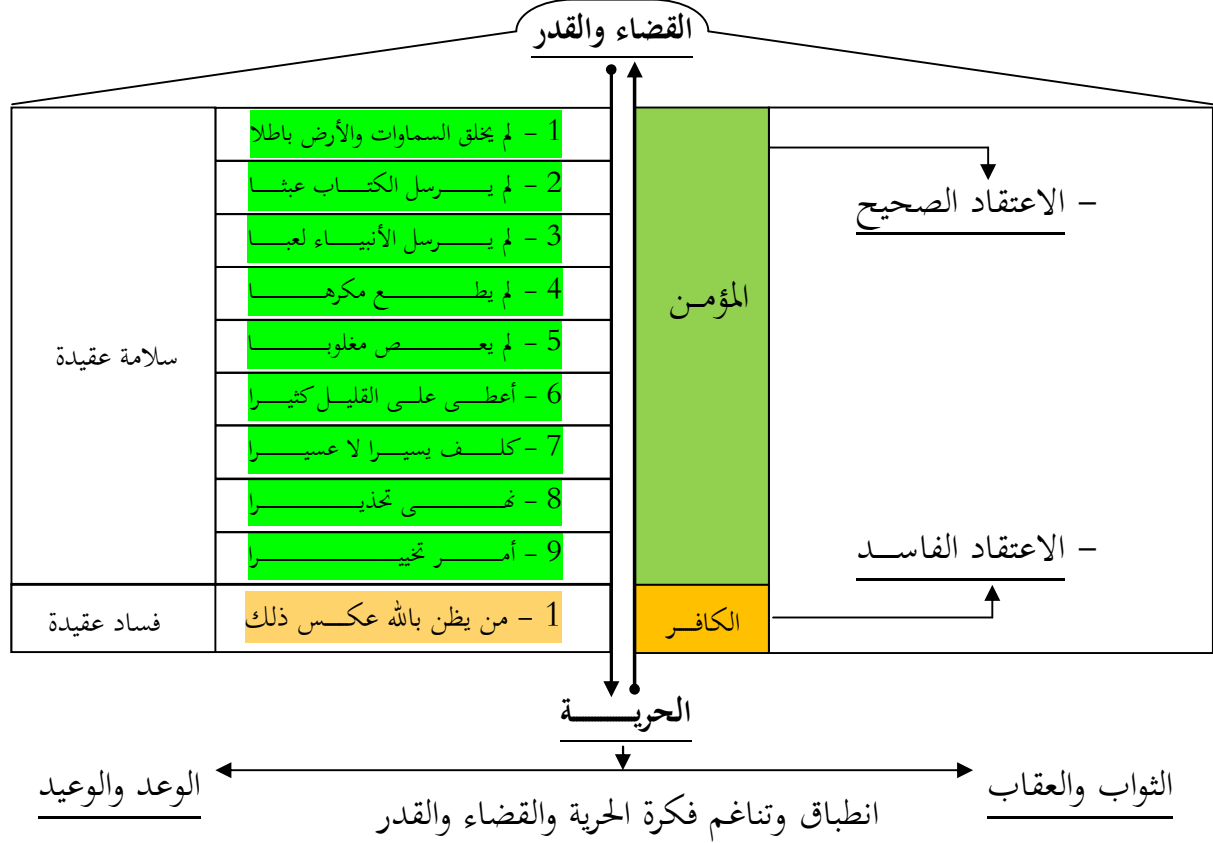
⁴ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 440، 441.

⁵ - محمد عبده : المصدر السابق، ص 441.

⁶ - أنس شكشك : فلسفة الحياة، ص 100.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

ثواب ورحمة¹، فمن تمام العبودية، أن تبقى المملوكية قائمة، والحرية سارية تنجز فعل العبادة في المسرات والمضرات ومختلف الابتلاءات، شعورا طوعيا، وإرادة حرة، "لأن الإنسان مقوم بالوعي وحرية الإرادة وذلك خلافا لإبداء العبودية قسرا في حال المملوك للمالك البشري"²، وبهذا تكشف الحرية عن قدرات هذا الكائن العابد المتدين لربه، عبودية تختيار لا جبر فيها، فالحرية تحريك لفكرة القضاء والقدر مع فهم الحكمة الإلهية المطلقة، وفكرة المملوكية، وهذا ما نوضحه بالرسم الآتي:



- رسم تخطيطي يبرز تكامل وانطباق وتوافق فكرة القضاء والقدر والحرية-

ثانيا: القلب واللسان: إن للقلب واللسان أهمية عظمى في حياة الإنسان، وبهما تتحقق استقامة العبد على الهدى الرباني، بوصفهما نواطق حق وإقرار، فمضغة القلب وقطعة اللسان لا يتوقف أمرهما في أنهما مكونا ماديا يؤدي وظائف عضوية، بل هما من أكبر وسائل صلاح النفس الإنسانية.

أ/1- القلب/المفهوم: جاء في التعريفات: "القلب: لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسماني الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان"³،

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 478.

² - حاج حمد : حرية الإنسان في الإسلام، ص 103.

³ - الشريف الجرجاني : التعريفات، ص 150.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

لطيفة ربانية أودع الله فيها الأسرار، وهي عالم عميق من الثنائيات المتضادة، يتجلى منها الطيب أو الخبث، الصلاح أو الفساد، وفي القلب الصالح ستنمو شجرة العبودية وتستقر كلمة التوحيد منعكسة على باقي القوى، يقول الإمام: "لقد علّق بنياط هذا الإنسان بضعة هي أعجب منه: وذلك القلب، وله موادّ من الحكمة وأضداد من خلافها، فإن سنّح له الرجاء أذله الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن ملكه اليأس قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتدّ به الغيظ، وإن أسعده الرضى نسي التحفّظ، وإن ناله الخوف شغله الحذر، وإن اتّسع له الأمن استلبته الغرّة، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع، وإن أفاد مالا أطغاه الغنى، وإن عضّته الفاقة شغله البلاء، وإن جهده الجوع قعد به الضعف، وإن أفرط به الشبع كظّته البطنة، فكل تقصير به مضرّ، وكلّ إفراط له مفسد"¹، وفعلا فإن القلب هو من الأعاجيب، نظرا لوظائفه المتعددة التي يقوم بها، فقد ذكر الإمام ما يحويه القلب من مكونات معنوية وما يجمعه من معان، ففيه مواد من الحكمة، وأضداد مخالفة لها، لذا يتوجب الاهتمام بأمره، وذلك بإدراك لا تقصير معه ولا إفراط فيه، ومجانبة هذا تكون بالتوسط والاعتدال في أمره، أي تحقيق العدالة فيه وهي الفضيلة، فقد ذكر الإمام ما "يعتور القلب حالات مختلفات، متضادات، فبعضها من الحكمة، وبعضها-وهو المضاد لها- مناف للحكمة"²، وما دام أمر القلب بهذه الثنائية المتلبسة، فإن الإنسان مطالب بتحصيل حالة الاعتدال بالتركيز التي بها يحقق الفضيلة، ويدفع الصور المفسدة التي تبعده عن إصابة الحق، وهو عالم تكون النفس.

أ/2- تغذية القلب: إن الاعتدال المنتج للفضيلة، لا يحصل في القلب إلا بالتغذية النافعة، حتى يثمر من المنافع ما يقوي البعد التعبدي في الإنسان، ومن مغذيات القلب الواردة في النهج نذكر:

أ- القرآن: يقول الإمام: "وتعلموا القرآن، فإنه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه، فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره، فإنه شفاء الصدور"³، فتغذية القلب بالقرآن هدفها أن يعمل هذا القلب، وعمله بوصفه جارحة إنما يتلخص في ذكر الله، تعلم يعطي الحياة للقلب، ولذا فهو ربيع القلوب، وبذلك فالقرآن أكبر مغذ للقلب، وأعظم ماد له بالحياة والمعنى والمعرفة والحكمة، والشافي من الأمراض، "وعبادة القلب طهارته ووجه للخير"⁴، وهو التجلي النهائي للقلب بطهارته وشفائه من الأمراض.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 446.

² - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، ص 124.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 161، 162.

⁴ - مصطفى صادق الرافعي : وحي القلم، ج1، ص 17.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

ب- طرائف الحكم: يقول الإمام "إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكم"¹، لأن طرائف الحكمة تجدد ماكنة القلب، كي ينمو ويثمر، وعليه فحياته مثلها مثل حياة النبات.

ج- الموعظة وحياة القلب: وتأتي أهميتها باعتبار ما يترتب عنها، بوصفها عاملاً يكسب القلب حياة، يقول الإمام: "أحیی قلبك بالموعظة وأمته بالزهادة وقوه باليقين، ونوره بالحكمة، وذلك بذكر الموت، وقرره بالفناء، وبصره فجائع الدنيا، وحذره صولة الدهر وفحش تقلب الليالي والأيام، وأعرض عليه أخبار الماضين، وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين، وسر في ديارهم وآثارهم، فانظر فيما فعلوا وعما انتقلوا، وأين حلوا ونزلوا، فإنك تجدهم قد انتقلوا عن الأحبة، وحلوا ديار الغربة، وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم"²، يقترح الإمام أسلوباً وعظياً، لإحياء القلب، يقوم على التضاد، فإحياءه بالموعظة، وإماتته بالزهادة، فالأولى جالبة للطاعة، والثانية دافعة للشهوة، "والمراد إحياء دواعيه إلى الطاعة، وإماتة الشهوات عنه"³، وهذا هو الأسلوب الأمثل، المحقق للعدالة والفضيلة فيه، إضافة إلى تقويته باليقين، وتنويره بالحكمة (ذكر الموت)، وتبصيره فجائع الدنيا، وعرض أخبار الماضين على القلب، تحقيقاً لعملية التذكر، وما أصاب الأولين، والسير في ديارهم وآثارهم، وكلها عناصر وعظ تُرشدُه، وتجعله حياً يقظاً عاملاً ذاكرة، ويعد هذا عملية إصلاح للقلب، وذلك لأن "كل معصية يأتي بها الجسد هي من مفاسد في القلب ومرض به"⁴، موعظة تصنع حياة القلوب وتمنع معصية الجسد، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾⁵، وصولاً إلى الوجع، موعظة يستقر بها الإيمان في القلب، ليخشع للحق ويستقيم على الطاعة. إن هذه المغذيات الثلاث تمنح للقلب الحياة وللنفس الصلاح، وتسهم في تحصيل مرتبة العبودية.

أ/3- القلب السليم: تأتي المواعظ وتغذية القلب هادفة إلى تحقيق سلامة القلب وطهارته لخصته الآية من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾⁶، ليكون محلاً للإيمان، يقول الإمام: "فطوبى لذي قلب سليم أطاع من يهديه، وتجنب من يريده، وأصاب سبيل السلامة ببصر من بصره، وطاعة هاد أمره، وبادر الهدى قبل أن تغلق أبوابه، وتقطع أسبابه، واستفتح التوبة،

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 460.

² - المصدر نفسه، ص 361.

³ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج8، ج16، ص 124.

⁴ - ابن باديس : تفسير ابن باديس، ص 36.

⁵ - سورة الأنفال، الآية 02.

⁶ - سورة الشعراء، الآية 88-89.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

وأماط الحوبة، فقد أقيم على الطّريق، وهدى نَحج السّيبيل¹، فسلم القلب، إنسان طاهر نقي من كل القبائح، "سلم من الغل والشك"²، مفرغ من كل الأضداد، بتهيئة ملائمة لزرع الخيرية فيه، وقابليته للطاعة بهذه البصيرة الهادية، وبهذا فقد صار يتمتع بخاصية جميلة، أي أنه صار سلس القياد نحو الطاعة والفضائل والخيرات، ومهياً في الجملة لعبودية الله، وبهذا "يكون القلب معراج سماوي فوق هذه الدنيا، ليشهد ببصيرته أنوار الحق، وجمال الخير وتجسد الأعمال الإنسانية في صورتها الخالدة"³، وهذه القيمة الرفيعة والتهيئة تجعله من القلوب "القادرة على استقبال أشعة الحقيقة الكبرى التي لا يطيق استقبالها أي قلب"⁴، لأنه صار محلاً لهذه الأنوار النازلة إليه من الغيب بالوحي، لينبعث النور متصاعداً في علاقة عامودية نحو خالقه، وأفقية نحو المخلوقين، يقول النبي ﷺ: "لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه"⁵، استقامة تعني استقامة قلبه ولسانه، الجارحة الثانية ذات القيمة الاعتبارية المهيئة لعبودية الله.

ب/1- اللسان/المفهوم : جاء في لسان العرب: "اللسان: جارحة الكلام، واللسان: اللغة، واللسان: الرسالة، والإلسان: إبلاغ الرسالة"⁶، فاللسان أداة التكلم، ووسيلة تلقي الخطاب، وتبليغه، وإحقاق الحق، وإشاعة السلام والجمال، وفي التعريفات: "اللسان: اللسن: ما يقع به الإفصاح الإلهي لآذان العارفين عند خطابه تعالى لهم، ولسان الحق: هو الإنسان الكامل المتحقق بمظهرية الاسم المتكلم"⁷، حيث يكون هذا النطق ذكراً لله، وتعبدًا يرقى الإنسان، وصقلاً يهذب الأخلاق، يقول الإمام كاشفاً عن حقيقته: "ألا وإن اللسان بضعة من الإنسان، فلا يسعده القول إذا امتنع، ولا يمهله النطق إذا اتسع"⁸، فاللسان بضعة من مكون فاعل من الإنسان، وتحتاج هذه الجارحة -مادامت بضعة منه- إلى حسن تصرف وإدارة ذكية، "فاللسان آلة للإنسان، فإذا صرفه صارف عن الكلام لم يكن اللسان ناطقاً، وإذا دعاه إلى الكلام نطق اللسان بما في ضمير صاحبه"⁹، فأمره يعود إلى الإنسان، حيث ينطق بداعية، ويصمت بصارف ما، "فاللسان هو آلة تحركها سلطة النفس

¹ - علي بن أبي طالب : نَحج البلاغة، ص 361.

² - ابن أبي الحديد : شرح نَحج البلاغة، مج8، ج16، ص 124.

³ - مصطفى صادق الرافعي : وحي القلم، ج2، ص 33.

⁴ - فريد الأنصاري : جمالية الدين، ص 134.

⁵ - أحمد بن حنبل : مسند الإمام أحمد، ج20، ص 343.

⁶ - الشريف الجرجاني : التعريفات، ص 160، 161.

⁷ - ابن منظور : لسان العرب، مج8، ص 74.

⁸ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 328، 329.

⁹ - ابن أبي الحديد : المصدر السابق، مج7، ج13، ص 7.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

فلا يسعد بالنطق ناطق امتنع عليه ذهنه من المعاني فلم يستحضرها، ولا يمهله النطق إذا هو اتسع في فكره، بل تنحدر المعاني إلى الألفاظ جارية على اللسان قهرا عنه، فسعة الكلام تابعه لسعة العلم¹، وهذه اللطيفة تقودنا إلى ضرورة تحصيل العلم والمعرفة في النفس، حتى يتساق مع الحقيقة ولا يجافيهها، ومن ثم فإن مسؤولية الإنسان في ضبط لسانه، تكون بضبط نفسه [= بالتزكية].

جاء في الحديث النبوي، قوله ﷺ: "أمسك عليك هذا"، توجيهه نبوي يبرز خطر اللسان، يقول الإمام كاشفا ضرورة هذا الضبط: "وإن لسان المؤمن من وراء قلبه، وإن قلب المنافق من وراء لسانه، لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبره في نفسه، فإن كان خيرا أبداه وإن كان شرا وأراه، وإن المنافق يتكلم بما أتى على لسانه، لا يدري ماذا له وماذا عليه..، فمن استطاع أن يلقي الله تعالى، وهو نقي الراحة من دماء المسلمين وأموالهم، سليم اللسان من أعراضهم فليفعل"²، فعلامة تميز المؤمن عن غيره تكون باللسان، فهو يفكر قبل أن يتكلم، ويتدبر في مآلات قوله، بمعنى أن "لسان المؤمن تابع لاعتقاده لا يقول إلا بما يعتقد. والمنافق يقول ما ينال به غايته الخبيثة، فإن قال شيئا أخطره على قلبه حتى لا ينسأه فيناقضه مرة أخرى فيكون قلبه تابعا للسانه"³، لأن للكلمة دورا نفسيا وأخلاقيا وتأثيرا إنسانيا واجتماعيا وتعبديا، وهي وظائف مترابطة متشابكة تصنع الخير والجمال، عندما تكون الكلمة طيبة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾⁴، كلمة هي ثمرة الضبط والتوجيه، وحكمة تصنع الخيرية، بينما تكون الكلمة الخبيثة مدمرة لكل معاني الجمال والخيرية والقيم، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾⁵، كلمة تفسد في الأرض.

وإن اللسان والكلام يعرف بصاحبه، يقول الإمام: "تكلموا تعرفوا، فإن المرء مخبوء تحت لسانه"⁶، فالعاقل عند تكلمه لن يكون إلا الصورة الحسنة الدالة على سيما نعتة الصالح، حيث تأتي التكتشفات مبينة عن قدر صاحبها، قال تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾⁷. دعاء الأنبياء الذين يعرفون منزلة اللسان الذي يكون ترجمانا للحق، وصانعا للحياة، ومفعلا لمعنى

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 328.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 240، 241.

³ - محمد عبده : المصدر السابق، ص 240.

⁴ - سورة إبراهيم، الآية 24.

⁵ - سورة إبراهيم، الآية 26.

⁶ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 494.

⁷ - سورة الشعراء، الآية 84، ص 296.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

الإنسانية، "وإنما يظهر عقل المرء وفضله بما يصدر عن لسانه، فكأنه قد خبيء تحت لسانه، فإذا تحرك اللسان انكشف"¹، وهذا العقل هو المعيار في عدالة الإنسان وأهليته.

ب/2- اللسان والعقل: لن تكون حقيقة اللسان ذات قيمة يعتد بها، إلا إذا امتلك الإنسان عقلا راجحا به تظهر قيمة اللسان، وتتكشف مرتبته وانتسابه للحق، أو انتمائه للباطل، يقول الإمام: "لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه"²، فاللسان الخير هو ما تقدمه العقل، حيث يمنحه الصواب، وهو تابع للقلب، لأنه يتحرك من وراء سلطة النفس المدبرة، وكما قال الرضي: "أن العاقل لا يطلق لسانه إلا بعد مشاورة الروية، ومؤامرة الفكرة، والأحمق تسبق حذفات لسانه وفتلات كلامه مراجعة فكره، ومماخضة رأيه، فكأن لسان العاقل تابع لقلبه، وأن قلب الأحمق تابع للسانه"³، ترى لماذا هذه المشاورة؟ يعود هذا برأي الإمام إلى خطورة اللسان، حيث يقول: "اللسان سبع إن خلي عنه عقر"⁴، سبع وتأويله بالمخاطر التي تنتج عنه عندما يفتقد لهادية العقل، وبذلك تكون المساوي سيما الذات، قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾⁵. قال ابن أبي الحديد أن "علمه" لم تأت معطوبة: "تنبيهها على أن خلقه له وتخصيصه بالبيان الذي لو توهم مرتفعا لارتفعت إنسانيته"⁶، خصيصة تميزه عن الحيوان وقدرة ترقيه إلى مرتبة الإنسانية، وعند هذه المرتبة من التكامل يشرف، ليتذوق العلم والمعرفة، ويسابق بها نحو إدراك مرتبة العبودية، فالإنسان بيان؛ لسان الارتفاع في الإنسانية، وباللسان الخاضع لروية العقل، ليبقى دالا على جمال الإنسان، ومن ذلك حفظه من اللجاج، يقول الإمام: "اللجاجة تسل الرأي"⁷، فبمسكه لسانه وضبطه عن هذا الجدل المتعب، تبقى صورة اللسان ناطقة بالمعاني الجليلة، واللجاجة "خلق يتركب من خلقين: أحدهما الكبير، والآخر الجهل بعواقب الأمور"⁸، وضبطه يسهم في صفاء النفس وتحصيل المعرفة، ليصير ناطقا بالحق.

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 240.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 494.

³ - الشريف الرضي : نهج البلاغة، ص 437.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 439.

⁵ - سورة الرحمن، الآية 3-4.

⁶ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج9، ج18، ص 95.

⁷ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 458.

⁸ - ابن أبي الحديد : المصدر السابق، مج9، ج18، ص 189.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

ب/3- اللسان الصالح: إن الإنسان العاقل الذي يضبط لسانه، يكشف عن أصالة تكسبه صفة الصلاح، حيث يسهم اللسان في هذا بشكل كبير، ومعه تصلح كل الجوارح وتستقيم معتدلة، بمعنى أن الأجهزة التنفيذية للنظام الفكري والسلوكي، ينبغي أن تتشكل فيها قواعد الصلاح وتنطبع فيها طبعاً، يقول الإمام: "ألا وإن اللسان الصالح يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال يورثه من لا يحمده"¹، فهذه هي الورثة النافعة من الباقيات الصالحات التي ترفع ذكر الإنسان، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَصْعَدُ الْكَلِمَ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾²، فالكلم الطيب هو ناتج استقامة اللسان، وصلاحه بصلاح الجوارح أداء للحق والذكر، وهو مقدمة تؤدي إلى حسن التعبد، ولا يتحقق هذا إلا بخزن اللسان وإخضاعه لمراقبة دائمة، يقول الإمام: "وليخزن الرجل لسانه فإن هذا اللسان جموح بصاحبه، والله ما أرى عبداً يتقي تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه"³، فحفظ المرء لسانه له ثماره من التقوى والصلاح، ولهذا قدم الإمام هذا الإشراف المبني على قاعدة واضحة أن [= التقوى النافعة؛ مشروطة بخزن اللسان]، ومبناها أن كل تقوى تتحقق للإنسان، هي من وراء خزن اللسان، وأن المراقبة الدائمة له تمكن الإنسان من أن يكون من المتقين، تهيؤه لتحصيل مرتبة العبودية.

ب/4- التصرف والإدارة: إن إدارة حكيمة لهذه الآلة وحسن التصرف في توظيفها في المكان والزمان، إدارة تجعل اللسان ذاكرةً لله، ومع الناس ناطقاً بالحق والعدل، وهو تصرف تقتضيه العبودية والتعامل الحسن، يقول الإمام: "الكلام في وثاقتك ما لم تتكلم به، فإذا تكلمت به صرت في وثاقه، فأخزن لسانك كما تخزن ذهنك وورقك، فرب كلمة سلبت نعمة وجلبت نقمة"⁴، فقبل أن يدفع اللسان إلى الهلكة وجب خزن الكلام مع توظيفه عند الضرورة، فحكمة الإمام فيها توجيه للعبد، "فإذا تكلمت به صرت مملوكاً له، فإما نفعك أو ضرك"⁵، وهذا الحرص يعني الإدارة الذكية لجارحة اللسان، يقول الإمام: "رب قول أنفذ من صول"⁶. إن هذا القول يعكسه سابقه، بحيث يؤكد على قيمة الكلمة الصادقة النافذة، فهنا وجوب أمله داعية الإنصاف، وضرورة تفتضيها العدالة والحقيقة، ولكن هذا الوجوب يقيده الإمام بما وراء الكلام، أي بمنافعه ونتائجه: "لا خير في الصمت عن

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 174.

² - سورة فاطر، الآية 10.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 240.

⁴ - المصدر نفسه، ص 492.

⁵ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 492.

⁶ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 494.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

الحكم، كما أنه لا خير في القول بالجهل¹، عند الحكم والفصل، فقاعدة هذا التصرف والإدارة: أن الصمت في الحق فساد، وأن القول بالجهل فساد، وهما عارضان نافيان لعملية إدارة اللسان في الحق. إن القلب واللسان من الآلات والوسائل التعبدية، وآية ذلك أن يتجه القلب بالتفكير في الآيات المختلفة التي بها تحصل المعرفة الإلهية. وأن ينطق اللسان بالحق، ذكراً وعدلاً، بمعنى استقامة، لنشاط أعظم الجوارح قيمة في التعبد، وكذا حركتهما في سبيل تحصيل مرتبة العبودية.

ثالثاً: مراتب العبادة: من المؤكد أن العبادة درجات بحسب الاجتهاد والمثابرة والعمل واليقين الراسخ، وبمنطوق الآية، يقول تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾². واعتبر أعمال البعض من الناس درجات ومنازل، فقال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾³. وإن المتتبع لحالة تعبدية لإنسان ما يجد هذه النقلات قائمة، ففيهم من يقف في مرتبة دنيا، ومنهم من يكون في مرتبة وسط، ومنهم من يرتفع إلى أعلى الرتب، وبذلك نكون أمام ثلاثة مراتب متباينة، يجليها توصيف الإمام بقوله: "إن قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوما عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار"⁴. إذن فمراتب العبادة ثلاثة:

الترتيب	عبادة التجار	عبادة العبيد	عبادة الأحرار
التوصيف	الرغبة	الرهبة	الشكر

وهي تقسيمات متدرجة، تتطلب معرفة، ويؤدي الانتقال في أحوالها إلى مرتبة العبودية الخالصة، والتحقق بشرف الحرية ومنزلتها، مع طهارة الداخل، والقلب واللسان ومختلف الجوارح.

1- عبادة التجار [= عبادة الرغبة]: ويظهرها الجزء الأول من القول: "إن قوما عبدوا الله رغبة، فتلك عبادة التجار"، وتعد هذه المرتبة منزلة دنيا تفتقد إلى خاصيات التأدب والتخلق والتذلل الحق والوعي والمعرفة، فهي: عبادة رغبة، أي عَوْضٌ. وعبادة عوض ومقابلها المغفرة/الجنة. وتبنى هذه المرتبة على التقابل والعوض، ولهذا "فإن العبادة لرجاء الثواب تجارة ومعاوضة"⁵، إلا أن هذا الثواب المرغوب تحصيله، يحتاج إلى محاسبة، يقول الإمام: "فحاسب نفسك لنفسك،

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 505.

² - سورة الحج، الآية 11.

³ - سورة آل عمران، الآية 163.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 466.

⁵ - ابن أبي الحديد : شرح نصح البلاغة، مدج 10، ج 19، ص 30.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

فإن غيرها من الأنفس لها حسيب¹، فقد يكون أصحاب هذا النوع مرتبطين رأساً بحاسبة النفس رغبة في خلاص تحصل به فائدة ترجوها، محاسبة ذاتية تحقيقاً لتلك الرغبة، وهي وليدة الحاجة المحصلة لرغبتهم، فتكون عبادتهم تجارة يداخلهم معها قانون الريح والفوز، قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾²، فهذه الزحزحة عن النار هي رغبة ومراد يبتغيه الكثير، ولا تكون إلا بإلحاء الإنسان أمره إلى الله، وذلك بـ:

- تحقيق الإخلاص في المسألة، فالعطاء والحرمان بيده.

- وفي هذا مستوى توجيهي تدريبي ينقل العبد من مرتبة عبادة التجار إلى مرتبة أخرى أرفع منها. ويبدأ هنا العمل بالتخلق بالفضائل، والمعرفة الصحيحة، وما تتطلبه العبادة من ضرورات، يقول الإمام: "لا يصدق إيمان عبد، حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده"³، وعلامة صدق الإيمان الوثوق في الله، وهذا معناه الوصول إلى حالة من اليقين.

يمثل هذا الكلام تصويبا في اعتقاد العبد، "حتى تكون ثقته بما عند الله، من ثواب وفضل، أشد من ثقته بما في يده"⁴، ليرسخ مبادئ التوحيد، ومن ثم يركب رحلة التعبد، بحيث ينتقل إلى حالة أرفع منها يؤكد بها كرامته الأولى والثانية، ومن جملة المطالب المتعلقة بهذه المرتبة:

- أن عبادة التجار فهم قاصر، عن تحقيق النقلة الضرورية من حالة العبادة إلى مرتبة العبودية.
- أن الرغبة في الله ليست مقايضة عمل العبد بعوض إلهي، فهذا فهم بعيد عن إدراك صورة التعبد.
- يمتاز هذا الأسلوب بالتقصير والنقص في التوفية، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾⁵.
- يدخل العوض الإلهي في الإنعامات الكثيرة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾⁶.
- أن الحمد والشكر سنة أوسع وأشمل، وعبادة التجار قد تسهي الإنسان، وتدخله في الغفلة.
- أن عبادة التجار، بميزان الربح تحمل دلالات عدم التأدب والتخلق بالأخلاق الإلهية.

إن عبادة الرغبة درجة يتعين إخضاعها لوسائل العلم والمعرفة، قصد إحداث نقلة نوعية أكثر وعيا في سبيل تحقيق فكرة التعبد الحق.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 319.

² - سورة آل عمران، الآية 185.

³ - علي بن أبي طالب، المصدر السابق، ص 480.

⁴ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 480.

⁵ - سورة الزمر، الآية 67.

⁶ - سورة النحل، الآية 18.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

2- عبادة العبيد [= عبادة الرهبة]: قال صاحب المقاييس: "رهب: الرء والهاء والباء أصلان:

أحدهما: يدل على خوف، والآخر على دقة وخفة، فالأول: الرهبة تقول: رهبت الشيء رهبا ورُهبا ورهبة. والترهب: التبعد"¹، فمن الناس من يمتثل رهبة، يقول الإمام: "وإن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد"، وهي تنشأ عن خوف من الله، حيث أن أصحابها تمثلوا الخوف، ولم يتمثلوا الجلال والجمال الإلهي ومبعثه وسلطة الحق، وعليه فإن الوقوف عند حد الخوف جمود وتسكين لانطلاقة النفس واندفاعها، وهذا حد فيه نقص في التوفية، وبهذا تتوضح محددات هذا التوجه:

- أن العمل الذي يكون منشؤه الخوف، يؤول إلى منتهى العمل [= توقيا من هذا الخوف].

- أن السعي له غاية، اجتناب المساوى [= تحقيق طاعات تجنب الغضب الإلهي].

- أن الخوف، يطبعه الخوف من سلطة ما [= خوف العبد من سيده يدفعه إلى العمل خوفا منه].

إن هذا الدافع الذي أنشأ عبادة، لم يحرر هؤلاء، ليتمكنوا من الوصول إلى مرتبة العبودية، وهذا قيد يقف في هذا الطريق، يقول الإمام: "وكل خوف محقق إلا خوف الله، فإنه معلول، يرجو الله في الكبير، ويرجو العباد في الصغير، فيعطي العبد مالا يعطي الرب"²، والخوف من الله لا ينبغي أن يكون خوفا فيسيولوجيا، يحدث الرهبة في النفس، وإنما يكون بمقتضياته من الخشية، "ولكنهم في رجاء الله وخوفه يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، مع أنهم يرجون الله في سعادة الدارين، ويخافونه في شقاء الأبد، فيعطون للعبيد مالا يعطونه الله"³، والناس لضعف عقيدتهم واهتزاز إيمانهم، قد يجعلون الخوف فيما دون الخوف من الله محقق، في الرجاء والموافقة والتهيب والامتناع، مما يستدعي فهما عميقا لمعنى الرهبة، حتى تنبني على أساس سليم من متانة العقيدة والتوحيد الخالص، والخضوع التام لله، مع طاقة إيجابية تدفع على العمل والموازنة بين المطالب*، ذلك "أن العبادة (رغبة) قبل أن تكون (رهبة)"⁴، والإنسان المتعبد لله يحتاج إلى الجمع بين المرتبتين، كما أن الخوف مقام رفيع إذا فهم بمقاصده، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾⁵، فالتجلي هنا رغبة ورهبة تجل بالخشوع، نتأوله بقول الإمام: "جرح طول الأسى

¹ - ابن فارس : مقاييس اللغة، ص 356.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 214.

³ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 214.

* - كما جاء في الحديث النبوي: "إن لنفسك عليك حق وإن لربك عليك حق..."، وهذا في حد ذاته وقاية، ورهبة تتأسس على العمل المغذي للتقوى لتشتغل جميعها في تحقيق معنى التبعد وسلوك منزله.

⁴ - فريد الأنصاري : جمالية الدين، ص 168.

⁵ - سورة الأنبياء، الآية 90.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

قلوبهم، وطول البكاء عيونهم¹، وهذا وصف للعابدين العارفين، فإذا كانت العبادة رهبة، فيتعين أن تتمثل هذا المعنى، بتمثل الحق وبلوغ درجة التقوى، ولكن هذا لا يكفي من دون فقه وروح عالية، لتصبح تلك الرهبة استثماراً محموداً، تُحرك الإنسان نحو الأرقى والأفضل، وفي الخوف والرهبة يقدم الإمام لافتة تحذيرية، فقد تزل قدم العبد في عبادته، والنعم مغدقة عليه، فيقول: "يا ابن آدم، إذا رأيت ربك سبحانه يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره"²، وهذا ما يتطلب الاحتياط الذي يقي الإنسان من الوقوع فريسة الجهل والغفلة، فمعادلة عبادة الرهبة: أن النعم الإلهية المتتابعة، قد تسهي العبد فينزل إلى حالة المعصية من سكرة النعم، وتمثل هذه المعادلة دالة تحذيرية وتوجيهية.

إذن فعبادة الرهبة ضرورية، ولكنها تحتاج إلى فقه، فهي حالة تعبد غير كافية، توقف العبد عند حدودها، إلا أنها لا تمنحه السلامة التامة لروحه من أن تصاب بالفساد، يتعين ضرورة أن تستكمل بفضائل أخرى داعمة نامية، يقول الإمام: "إن الله ﷻ جعل الطاعة غنيمة الأكياس عند تفريط العجزة"³. إن منظار الطاعة وفعل الخيرات لا يفتح إلا على الإنسان العامل الصالح المجتهد، يتطلب كياسة وفضيلة عقول، في حين يفرط العجزة، وهم "المقصرون في أعمالهم لغلبة شهواتهم على عقولهم"⁴، فالكيس يغتنم فرصته في عمل الطاعات، وهذا معنى رفيع لمعنى الرهبة، يقول الإمام: "إن الله سبحانه وضع الثواب على طاعته، والعقاب على معصيته، زيادة لعباده عن نعمته، وحياشة لهم إلى جنته"⁵، وفكرة هذا القول تشرح فقه عبادة العبيد، وعبادة الرهبة، حيث يكون هذا الالتزام سبباً يمنعهم عن المعاصي الجالبة للنقم، كما يصرفون نحو الطاعات التي تسوقهم إلى الجنة⁶، وهذا الضبط الإلهي لعباده، لعلمه بطبيعتهم، "إذ الطبع البشري يهوى العاجل، ولا يحفل بالذم، ولا يكون القبيح قبيحاً حينئذٍ في العقل، فلا بدّ من العقاب ليقع الانزجار"⁷، وهذه تربية تحدث التوازن بقوة الرغبة وداعية الخوف، تقي من التفلت، وتحقق الفلاح، نحمل مستخلصاتها النهائية في:

أ- أن عبادة الرهبة لا يمكن أن تعبر عن جوهر العبودية.

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 319.

² - المصدر نفسه، ص 433.

³ - المصدر نفسه، ص 483.

⁴ - محمد عبده : شرح نصح البلاغة، ص 483.

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 489.

⁶ - ينظر محمد عبده : المصدر السابق، ص 489.

⁷ - ابن أبي الحديد : شرح نصح البلاغة، مج 10، ج 19، ص 132.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

ب- أن الخوف يمنع العبد من الوقوع في المحذور، وقد يدفع به الضغط إلى ارتكاب ذلك المحذور، وحفل تاريخ العباد وقوعهم في أخطاء جسيمة في حالات من الضعف، انكسر معها ذلك الرهاب.

ج- أن عبادة الرهبة تفتقد لسلطان المعرفة والعلم، والمبادرة والحيوية في التعبير عن جوهر التعبد.

3- عبادة الأحرار [= عبادة الشكر]: إن الإنسان لما ميز به من تكريم وعقل وهاديات، ومن خلال طبيعة خلقته، وما وضع فيه من قابليات للخير والشر، فإن إدارة الإنسان لنفسه هي مسؤوليته، وهذا التركيب الثنائي فيه هدفه أن يخرج منه بإرادته وحرية منتصرا على هذه المعوقات، إلى حالة التوازن ثم إلى عبوديته ليقبل حرًا على ربه، وقد أعطي هذا المفتاح، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾¹، والإنسان الحر يتخذ الشكر منهجا يقدر من خلاله الله حق قدره، وبهذا مدح قرآنيا، قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾²، فهذا مدح إلهي لا يكون إلا للأحرار الشاكرين، يقول الإمام: "وإن قوما عبدوا الله شكرا، فتلك عبادة الأحرار"، تتركب هذه المرتبة في بنيتها البسيطة من معادلة: [فعل العبادة = الشكر + الأحرار (الحر)] = العبودية، وهي متلازمة طبيعية ووظيفية، فالشكر يحتاج إلى معرفة بالحق وبالمنعم المتفضل، فعبادة الشكر على النعم، هي عبادة نافعة، "لأن العبادة شكر مخصوص، فإذا أوقعها على هذا الوجه فقد أوقعها الموقع الذي وضعت عليه"³، ومن هنا يكون الشكر علامة العبودية، يتلازم مع النعمة المغدقة على الإنسان، ويتوجب فيها الزيادة تحقيقا لكفاء يتعين، "فهو الثناء (على) المحسن بذكر إحسانه، فالعبد يشكر الله: أي يثني عليه بذكر إحسانه الذي هو نعمة"⁴، فهذا الشكر ثناء على إحسان ونعمة، وتوفيق على طاعة، والأبلغ فيه أن تصرف الطاقات في ما خلقت له، فالشكر: "هو تصور المنعم عليه النعمة وإظهارها، وهو الامتلاء من ذكر المنعم عليه"⁵، هذا الإظهار للنعم هو ما عبر عنه القرآن بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾⁶، حديث الشاكر، حديث المتعبد بذكر النعم الموجبة للشكر، من نعمة الإيجاد والخلق والتكريم، إلى نعمة الإيمان، وكل النعم المتجددة من الفضل والخير التي لا تعد، ومع الخلق في العمل وتقديم الصنيع الجميل، وعلى كل توفيق، وعند رؤية أي نعمة،

¹ - سورة الإنسان، الآية 3.

² - سورة الإسراء، الآية 3.

³ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 10، ج 19، ص 30.

⁴ - الشريف الجرجاني : التعريفات، ص 109.

⁵ - الراغب الأصفهاني : الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص 198.

⁶ - سورة الضحى، الآية 11.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

حتى ولو كانت على غيره جلية. إن تقدير هذا الموقف في كلياته وجزئياته يكون بالتأمل في صور الإنعام، والآيات الحاملة لدلالة العرفان والشكر، وبهذا الإدراك والوعي والمعرفة تحصل مرتبة العبودية. ولقد ربطت عبادة الشكر بالإنسان الحر، لاعتبارات تتعلق بالمسؤولية في الاختيار تبني الموقف الحق، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾¹، فالآية تثبت الحرية، ومسؤولية الإنسان في اختياره، فالله يحب عبده أن يأتيه محبة ورغبة وطاعة، وهذا هو الأصل الذي تبني عليه العلاقة بين الإنسان وربّه، ولذا فإن التوجه إليه سبحانه بمحبة وحرية، يجعل الإنسان يندفع إلى عبادته وإلى فعل الخيرات، مع شرط المعرفة والعلم، يقول الإمام: "ولكن خلائق مريبون، وعباد داخرون"²، ويتضح من هذا مملوكية الخلائق لله فطرة، وخضوعهم طوعية وتذللًا لله عبودية.

- خلائق مريبون [= فطرة وقصدا]: وهي صفة الربانية (المملوكية) = صفة الرباني العارف.

- عباد داخرون [= عبادة وعملا]: وهي صفة التذلل (لله) = صفة المتعبد لله.

إن فهم صفة المملوكية يقود بالمعرفة إلى صفة التذلل، تعبيرا عن عبودية الإنسان لله صفة وحقيقة، وهذه المعرفة تزيد من حرية الإنسان، وترفع من أدائه في العمل وتضاعف من الشكر، يقول الإمام: "عظم الخالق عندك يصغر المخلوق في عينك"³، ويتجلى ذلك من خلال طاعة الله وإتباع منهجه وتعظيمه وتقديره، وهذه العلاقة القائمة هنا بين الأحرار وتعظيم الله، مبنية على: أ: المعرفة بالله، وتقدير نعمه وآلائه.

ب: تعظيم الله يقود الإنسان الحر الشاكر إلى مثل هذا الاستشراق، فينتهي إلى هذه النتيجة:

الفاعل	الدال	الصفة/ الصيغة	العلامة	الحالة
1- الحرية	تعظيم الله	تقدير الله	علامة عبودية	تقدير.
2- المعرفة	تعظيم الله	يصغر المخلوق	علامة عبودية	تقدير.

إن تعظيم الله ينفي جدلا ومنطقا تعظيم الآخرين، والتعظيم شكر عملي مبني على فكرة اعتقادية صحيحة، ومعرفة توحيدية خالصة قائمة على الحرية، بينما "الكافر إنسان لا يظهر، ولن يظهر، أية أمانة لعرفان الجميل في سلوكه"⁴، لذا تتلخص عبادة الشكر في إظهار كل فضل

¹ - سورة البقرة، الآية 256.

² - علي بن أبي طالب: نوح البلاغة، ص 88.

³ - المصدر نفسه، ص 449.

⁴ - ايزوتسو توشيهكو: المفاهيم الأخلاقية - الدينية في القرآن، تر عيسى علي العاكوب، دار الملتقي، حلب، 2008، ط1، ص 80.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

وعرفان وجميل، يترجم عمليا عبادة شاملة، موزعة في اللحظات والأنفاس، في الحلو والمر، والسكون والحركة، والفكرة والخطرة، والابتلاء والرخاء والضيق والسعة، وهذه هي سيما العبودية.

رابعا : معايير الشكر ومعادلة عبادة الأحرار: تتركز معايير الشكر في أحوال أربعة:

1- معيار الصبر: تتجلى رمزية هذه العبادة في حالة المصائب في التحلي بالصبر، يقول الإمام: "ينزل الصبر على قدر المصيبة، ومن ضرب يده على فخذه عند مصيبتة حبط عمله"¹، فمن الشكر الامتثال والرضا والتسليم لأمر الله وأقضياته، بوصفها اختبارات عملية، قال تعالى في معيار صبر أيوب الرَّحْمَنُ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نُّعَمِّ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾²، فقد تلقى هذا العرفان تنويها بهذا المقام العالي، لبقائه مع طول الابتلاء في خط الصبر والعبادة، فقد قادته المعرفة بالله إلى فقه هذا الابتلاء، فكان ممدوحا، والأمر الثاني، "وضرب يده على فخذه"، ففي هذا المقام من العبودية، يتعين إبعاد حالات السخط والتبرم والتأسف عند نزول النوائب، ومختلف الابتلاءات وما تقتضيه سنة التدافع، ومختلف القوى طبيعية/نفسية/اجتماعية/سياسية، قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾³، ليواصل سيره في تسليم تام ورضى خالص، وعمل صائب، فأصالة الحرية التي حققها تجعله شامخا لا ينكسر لا يلويه أحد، ولو كانت ضربة قدر خفيفة تأتيه لحكمة ما، وإلا "حرم ثواب أعماله"⁴، وفهم هذا يعني إدراك المقاصد من وراء الحكمة التي هي في القضاء والقدر، وأسرار العبودية.

2- معيار التأدية بالشكر: تتعلق هذه التأدية باللسان في حالة النعم، ثناء وشكرا وبالقلب تفكرا، وبالعمل أداء، يقول الإمام: "احذروا نفار النعم، فما كلّ شارد بمرود"⁵، حيث أن زوالها سببه عدم الشكر، وهو الشرط الرئيس الذي تقيده النعمة، كما تتقيد بأداء الحق، أي أن "نفورها بعدم أداء الحق منها فتزول"⁶، تحذير هدفه دفع الإنسان إلى القيام بأداء عبادة جليلة مغفول عنها، هي عبادة شكر النعم، "فهذا أمر بالشكر على النعمة وترك المعاصي، فإن المعاصي تزيل النعم"⁷، مجانبة مجدين عدم الشكر والمعصية تخرج من العبودية، وتقلل من نبل الإنسان وأصالته المعبرة عن حريته،

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 452.

² - سورة ص، الآية 44.

³ - سورة الملك، الآية 02.

⁴ - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 452.

⁵ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 467.

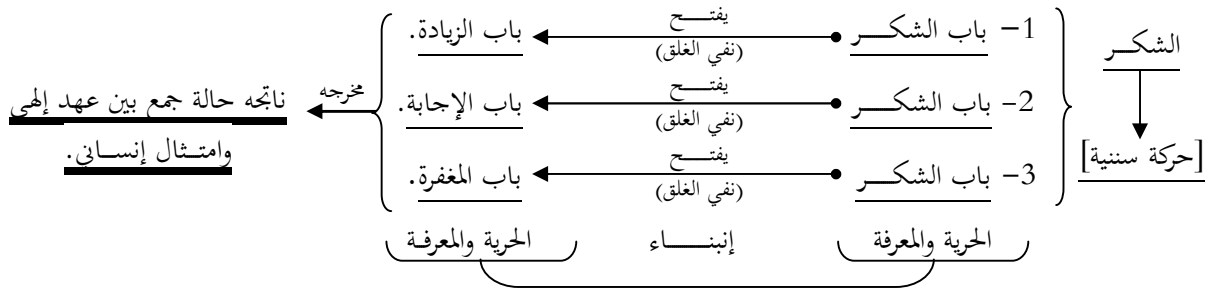
⁶ - محمد عبده: المصدر السابق، ص 467.

⁷ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج 10، ج 19، ص 35.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

يقول الإمام: "إن لله في كل نعمة حقاً، فمن أداه زاده منها، ومن قصر فيه خاطر بزوال نعمته"¹، وبهذا يتضح أن عبودية الشكر، هي عبودية أداء حق على النعم المغدقة، متجاوزة عبادة الرسوم الظاهرة، لتصبح كل عبادة بما فيها الظاهرة، مثل الصلاة رياضة روحية مسعفة على بلوغ كمال العبودية، وهذا فارق رئيس بين العبادة والعبودية، "فالشكر إذن، سلوك وتصرف"²، وبهذا يصبح الشكر تعبيراً عن أداء، وسلوكاً يمارس، يتكافئ مع حقيقة الاستخلاف في شموليته وكونيته.

3- معيار الشكر فتح طرق الأبواب: يدفع الشكر في حالة الفتوح إلى فتح أبواب الخيرات، يقول تعالى: ﴿وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾³، وما هذا التقييد الإلهي بشرطه القائم، إلا ليدفع الناس إلى البقاء في عالم العبودية والمراتب العليا الرفيعة، ففيه من الحث والتحفيز نحو هذه الحركة الفاعلة، إثباتاً لمبدأ عبودية الإنسان لربه وإيماء وتقوية للعلاقة التي توصله إلى علو المراتب، يقول الإمام: "ما كان الله ليفتح على عبد باب الشكر ويغلق عنه باب الزيادة، ولا ليفتح على عبد باب الدعاء ويغلق عنه باب الإجابة، ولا ليفتح لعبد باب التوبة ويغلق عنه باب المغفرة"⁴، ومراد الآية السابقة، حيث تعلقت الزيادة اقتضاء بالشكر، فإن الإمام يجعل من مختلف الفتوح مرتبطة ارتباطاً ثنائياً بين العبد وربه، فالشكر في عنق العبد، والزيادة فتح وتفضل إلهي عليه، "فالدعاء، والإجابة، والاستغفار، والمغفرة، إذا صدقت النيات، وطابق الرجاء العمل، وإلا فليست من جانب الله في شيء، إلا أن تنحرق سعة فضله سوابق عدله"⁵، فهي مشروطة بصدق النية، ومطابقة الرجاء للعمل، ويبني قانون الفتوح بفيضه على مترتبات سننية وسببية، نوضحها بـ:



- مقتضيات علاقة العبودية بين الشكر والزيادة -

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 467.

² - محمد سعيد رمضان البوطي: الحكم العطائية شرح وتحليل، مج 2، ص 150، 151.

³ - سورة إبراهيم، الآية 07.

⁴ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 500.

⁵ - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 500.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

إن المنفيات [= الغلق] تؤكد سنة الألفاظ، أي التعامل اللطيف بين الله والإنسان، وتؤكد إنجازه ووعد النافذ، وإن في الغلق حكمة، ولهذا "إذا استطعت أن تتجاوز النعمة إلى المنعم فأنت شكور"¹، لأن هذا التحرر يجعل من هذه العبادة تصل إلى مرتبة الأحرار، بانتفاء الرغبات، "لأنهم عرفوا حقاً عليهم فأدوه، وتلك شيمة الأحرار"²، وهذا ما يتطلب حرية ومعرفة، لأن "وجود الإنسان ينحصر في حريته"³، فوجوده، وجود في الحرية، وعبوديته تنشأ عنها، وتترقى بها، لهذا كانت التعاليم الشرعية تنصب جميعها في تصفية الأجواء من كل الإكراهات التي تفرض عليه (نفسية، اجتماعية، طبيعية، سياسية)، حتى يمارس عبوديته، وبهذا تصبح الحرية هي سنة قيام العبودية، وإن فهم هذا يعد ضرورة وسنة نافذة أولاً، تحتاج إلى معرفة وعلم به - أي فقه - ليعمل ثانياً، ومعنى هذا أن عبادة الأحرار هي علم ومعرفة مبنية على الحرية، لأن "أساس الشكر المعرفة"⁴، وهذه عملية انتقاء، فالله عندما يخاطب نبيه بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾⁵، فإن شق الآية الأول هو تعريفي بالذات الإلهية، والشق الثاني تحدد في العبودية، بمعنى أن معرفة الله مقدمة على عبادته، فهم يؤكد هذه القاعدة: "إذا عرفت عظمة الله عز وجل عبده"⁶، قوامها الحرية والمعرفة ومظهرها الدال الشكر، وصولاً إلى العبودية مرتبة عبادة الأحرار الشاكرين، ويمكن تمثل مرتبة الأحرار في العبادة بالشجرة، ذات الأصل والفرع، أصل هو دليل الإنسان الحر، وفرعه الشكر، تتحدث بها الأغصان التي هي الشكر متجلياً، في كل لحظة، ونفس، وتأمل، ورؤية (قبح/جمال)، وعلامة، وحق يؤدي، ونعمة وفضل ينزل ومصائب تتجاوز العبد وتصرف عنه، وكل ما يأتي به القدر من ابتلاء، وترجم العبودية حقيقة مهمة أن الشكر نبتة نامية، وهو وظيفة تواصل وتعبير وانفعال حيوي بين الله والإنسان، وهو اعتقاد وفكرة وقول وعمل وتأمل وأداء وروح تسري وغيره كثير.

4- معيار الخضوع الارتباط والاستجابة الإلهية: وتكون في حالة الدعاء، حيث ينبه الإمام في وصيته لابنه إلى أهمية الدعاء وضرورة التزامه، قائلاً: "واعلم أن الذي بيده خزائن السماوات والأرض، قد أذن لك في الدعاء وتكفل لك بالإجابة، وأمرك أن تسأله ليعطيك، وتسترحمه ليرحمك،

¹ - محمد راتب النابلسي : موسوعة أسماء الله الحسنى، ج1، ص 496

² - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 500.

³ - أنس شكشك: فلسفة الحياة، ص 108

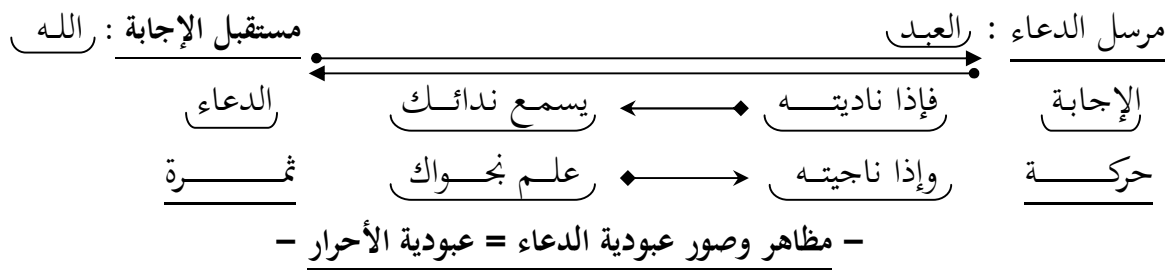
⁴ - محمد راتب النابلسي: المرجع السابق، ص 481.

⁵ - سورة طه، الآية 14.

⁶ - محمد راتب النابلسي : المرجع السابق، ص 96.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

ولم يجعل بينك وبينه من يحجبك عنه، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه، ولم يمنعك إن أسأت من التوبة، ولم يعاجلك بالنقمة، ولم يعيرك بالإنابة، ولم يفضحك حيث الفضيحة بك أولى، ولم يشدد عليك في قبول الإنابة، ولم يناقشك بالجرمة، ولم يؤيسك من الرحمة¹، فالإذن بالدعاء وضحته الآية، من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾²، فالدعاء إقبال على الله وممارسة لعبادة تفرضها حتميات كثيرة تقف في طريق العبد، ويمثل فتحاً لأبواب الرحمة بهذا العقد، حيث يربط العبد صلته بخالقه ﷻ وفي علاقته بواقعه المباشر، لتنظيم وتسيير حياته، وبهذا "فالدعاء سبب لجلب المنافع كما أنه سبب لدفع البلاء"³، في انتظام فاعل وعبودية مملوءة بصور الخضوع والتعلق، تشعره "بضعفه البشري فيستعين بربه في كل ما يعتريه"⁴، مجسداً علاقة ثنائية بتجليات جمالية مبهرة، يقول الإمام: "وفتح لك باب المتاب، وباب الاستعتاب، فإذا ناديته سمع ندائك، وإذا ناجيته علم بنجواك"⁵، وبهذا يفتح العبد على الإجابة وفق متلازمة وظيفية، تفضي إلى ثمرة، تجعل من الدعاء أداة ربط وتغيير استراتيجي:



وتتجلى ثنائية الدعاء واضحة بين العبد وربه حيث تتأسس على هذه الإفصاحية "أفضيت إليه بحاجتك، وأبثته ذات نفسك، وشكوت إليه همومك، واستكشفته كربك، واستعنته على أمورك، وسألته من خزائن رحمته"⁶، وتلخص هذه الثنائية الإقبال على الحق، كما تعبر هذه التنوعات عن مكاشفة روحية يتعري فيها العبد من لبوس التكبر، والعبثية والعنجهية، ليصبح أكثر شفافية يستقبل فيها من طاقة الدعاء ما يقوي به ذاته، ويقوي وصلته بالله، ويستجمع عناصر صموده في الحياة وعمق الأثر في تعبه، وكل ذلك يعد عطاء إلهيا عظيما، "من خزائن رحمته ما لا يقدر على

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 366، 367.

² - سورة غافر، الآية 60.

³ - العمري الحبيب بن سيدي عز الدين : الفهم المعبر للقدر، دار وحي القلم، 2008، ط1، ص 59.

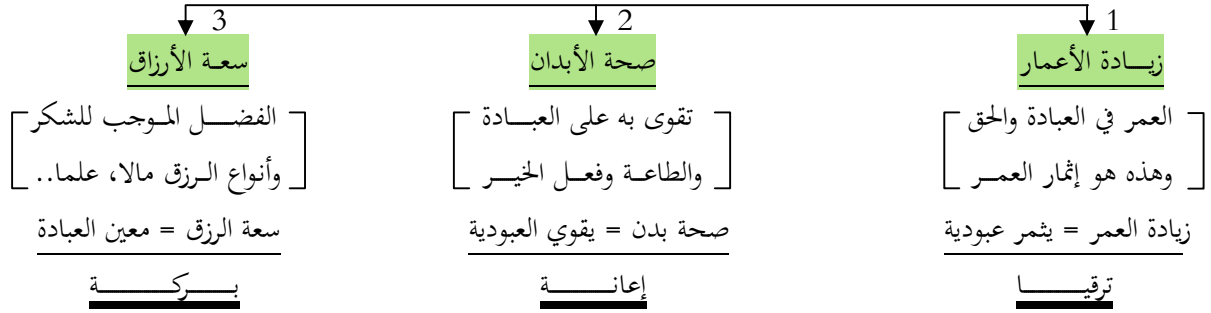
⁴ - الغزالي محمد : فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء والمرسلين، دار المجدد، سطيف، الجزائر، ص 39.

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 367.

⁶ - المصدر نفسه، ص 367.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

إعطائه غيره، من زيادة في الأعمار، وصحة الأبدان، وسعة الأرزاق¹. عطاء وضع له الإمام ثلاثة أقينية تلتقي في تحصيل القدرة والطاقة التي تصنع الإمكان التعبدي وتحوله واقعا:



- الأقينيات الجامعة لفضائل وطاقات الدعاء -

وهذا معناه تلاقي لأقينيات تجمع حياة الإنسان في فضاء متماسك متفاعل متداخل، يصنع دلالة تعبيره، بطاقة قوية، فالدعاء كرامة إلهية فاتحة لأبواب الرحمة والألطف، وأخذ معينات الطريق، وهو سنة تحركها ذات إنسانية عارفة تستمطر الرحمة والخير من ذات عليّة منعمة، وهذا بفهم حقيقة الدعاء أنه حالة جمالية، نابعة من إنسان جميل، وندرك هذه المعاني من خلال مآثورات الأدعية النبوية*، وقبلها أدعية القرآن، ونعثر في نهج البلاغة على أدعية ومناجاة تعبر عن عبودية الإمام لله، وكاشفة عن روح إنسانية تتفانى في ذكر الله وتعظيمه وإجلاله، تتنفس في كل لحظة هذا المعنى الجليل، وهي تظهر ارتباطه بالآخرة²، من ذلك دعاء يلتجئ فيه إلى الله أن يغنيه: "اللهم صن وجهي باليسار، ولا تبدل جاهي بالإقتار، فأسترزق طالبي رزقك، وأستعطف شرار خلقك، وأبتلى بحمد من أعطاني، وأفتتن بدم من منعني، وأنت من وراء ذلك كله ولي الإعطاء والمنع، "إِنَّكَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" [آل عمران 26]³، والدقيق فيه أن الإمام جمع بين قضايا عقدية واجتماعية وفردية، وبهذا نقول أن صياغة هذا الدعاء جاءت لتثبت مبدأ رئيسا، أن الدعاء يصنع شموخ الإنسان وكرامته، ويحقق لذاته ترقيا كماليا وعرفانيا، فهو يكشف كمال العبودية بفضل انفعال النفس وحركة القلب وتوجه الفكر ونداوة اللسان، ورقة الطلب، وفقه الحكمة الإلهية، والمعرفة بالله، وتفعل أسماء الحسنی

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 367.

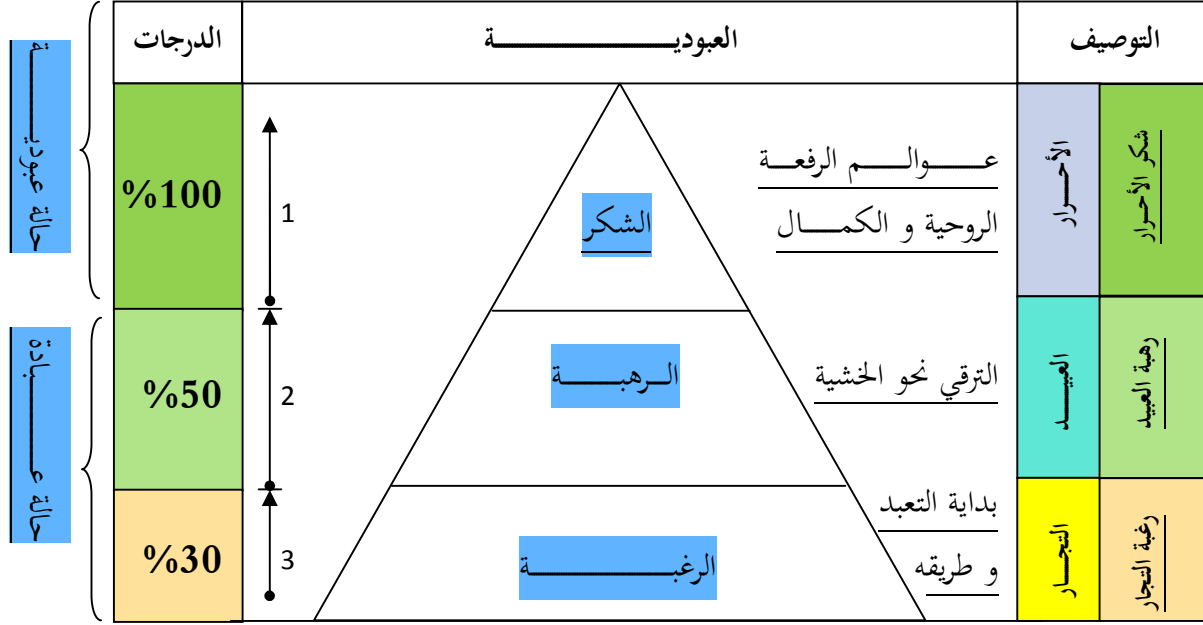
* - إن مآثورات الأدعية النبوية شاملة غطت كل جوانب الحياة وارتبطت مباشرة بالله، حيث ترجمت معنى العبادة، والتوكل والافتقار إلى الله والاستعانة به، ومعالجات النفس والعقل والحياة، والإمداد بالطاقة والقوة، ومن الأمثلة ما دعا به ﷺ في الطائف: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس. أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكليني إلى عدو يتجهمني أم قريب بتملكني. إن لم تكن بك سخطك علي فعافيتك أولى"، فعند تقلبات التاريخ واشتداد المحن والخطوب ينبغي أن يفرغ إليه بالدعاء، مع إظهار الانكسار وهذا الدعاء جماليته في الجمع بين البشرية والافتقار إلى الله. مع تلك الرقة التي تكسوه ومعانيه العميقة، وفي القرآن نجد محطات الدعاء التي هي تعليم إلهي للعباد، وبيان لعظمة الدعاء في تفسير مسارات التاريخ وبناء الشخصيات.

² - ينظر أدعية الإمام في النهج، (ص 98 - 308 - 325 - 505 ...).

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 323.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

وإظهار طاقاتها، إذن فالدعاء مظهر حي دال وترجمة ناطقة بعبودية الأحرار الشاكرين، وعلامة على مرتبة العبودية، يقول الإمام الشعراوي: "هكذا صنف الله الخلق بين قسم قسري يثبت القدرة، وقسم اختياري يثبت المحبوبة"¹، فالأحرار علماء عارفون، يتمثلون معنى العبودية، نوضح هذا بهذا المخطط:



- مخطط يمثل مراتب العبادة وتدرجها نحو العبودية -

إن مرتبة العبودية بمعانيها التي ذكرت سابقا هي العبودية التي يرتقي إليها بعض من أهل الكمال، بالعمل والمجاهدة المستمرة، وهم:

- الذين تحرروا من شهواتهم وهواهم، وانتصروا على الشيطان، وعلى نزوات الدنيا وزينتها.
 - الناظرون في آيات الله، في الآفاق والأنفس والتاريخ.
 - الذين طهروا القلب واللسان والجوارح، فصارت آلة ناطقة بالحق.
- وتتطلب مرتبة العبودية تدرجا سليما متوازنا، مصحوبا بالعلم والمعرفة والفقه والحرية، تبدأ هذه الرحلة بالرغبة، وتنتقل إلى الرهبة ثم تصل إلى الشكر من السالكين لهذا الطريق.

¹ - محمد متولي الشعراوي: موسوعة الأحاديث القديسة، ج1، ص 211.

المبحث الثالث: مرتبة العقل :

1- مفهوم العقل: قال صاحب اللسان "العقل: التثبت في الأمور، والعقل: القلب والعقل، ويسمى العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك، أي يجسسه، وقيل: العقل هو التمييز الذي به يتميز الإنسان عن سائر الحيوان"¹، فالعقل آلة التمييز والضبط، وفي المقاييس: "ومن ذلك العقل، وهو الحابس عن ذميمة القول والفعل"²، به يعقل الإنسان، وينضبط وتتنظم أموره،" ويروى أن العقل عقلان، فعقل عقيم: وهو عقل صاحب الدنيا، وعقل مثمر، وهو عقل صاحب الآخرة"³، ومن ثم فالعقل الحقيقي التام المفتوح هو الذي يتجاوز به حدود الدنيا وتبصر به الآخرة، وفي التعريفات: "العقل: جوهر مجرد عن المادة في ذاته مقارن لها في فعله، وهي النفس الناطقة التي يشير إليها كل أحد بقوله: أنا. وقيل العقل: جوهر روحاني خلقه الله تعالى متعلقا ببدن الإنسان. وقيل: نور في القلب يعرف الحق والباطل، وقيل العقل جوهر مجرد عن المادة يتعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف"⁴، فهذه المعاني التي تؤكد على هوية النفس، والنور المميز للحق من الباطل والتدبير والتصرف تعطي للعقل قيمته، وسلطته العليا التي بها تدار النفس والبدن، وبذلك فهو بمثابة الروح التي تمنح الحياة، "فالإنسان إنما هو إنسان بالعقل، إذ هو أعظم العناصر التي تميزه عن الحيوان"⁵، فالإنسان عقل، والعقل رتبة تكمل نقصه، وترفعه من منزلة الحيوان إلى مرتبة الإنسان، وبه يعرف.

وتزداد أهمية العقل ارتباطه بالتكليف الإلهي، وأداء رسالته، وقد رصد "العقاد" وظائف متنوعة للعقل، من الكتاب العزيز، فهو وازع ووقاية مانعة من مخالفة التكليف الإلهي، ثم هو فهم وفكر وروية وتدبير وبصيرة نافذة، وهذه حيويته وقوته المبهرة، وذكرى جامعة مستخلصة للعبر، وفوق كل هذا هو حجة تكليفية⁶، هذه المعاني هي من وظائف العقل الحيوية تقدم للإنسان مفاتيح إِبصار الحقيقة، وتحصيل منزلة الإنسانية، وعليه فهو جوهر روحاني ومملكة تنزه الفعل الإنساني، يقول الإمام: "ما استودع الله امرأ عقلا إلا استنقذه به يوما ما"⁷، فمنحة العقل، منحة لطف ورحمة، هادفة إلى إنقاذ الإنسان، ففي كل لحظة من اللحظات الفارقة يكون العقل فصلا، "فمتى أعطى شخصا عقلا

¹ - ابن منظور: لسان العرب، مج 6، ص 371.

² - ابن فارس : مقاييس اللغة، ص 581.

³ - المصدر نفسه، ص 583.

⁴ - الشريف الجرجاني: التعريفات، ص 583.

⁵ - النجار عبد المجيد: مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، دار الأدب الإسلامي، تونس، 2012، ط2، ص 126.

⁶ - ينظر عباس محمود العقاد: الإنسان في القرآن، ص 17، 18.

⁷ - علي بن أبي طالب: نصح البلاغة، ص 496.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

خلصه به من شقاء الدارين"¹، فهو هبة ومرآة وبصيرة ورؤية ترتب وتنظم الحياة الدنيا وأمر آخرته، فإنقاذ العقل يعني تحقيق فلاح الآخرة، أو دفع مهالك الدنيا²، وهنا تتبين الوظيفة العملية للعقل، لتخرج الأفعال على صورتها الفاضلة الكاملة، وفي كلام آخر للإمام يبين فيه هذه المنزلة الرفيعة للعقل، فيقول: "ليست الرؤية كالمعاينة مع الإبصار، فقد تكذب العيون أهلها ولا يغش العقل من استنصحه"³، ومعنى هذا أن الإنسان قد يضل بالحواس فتفسد الحقائق أمامه، لذا يكون إعماله لعقله جالبا للصواب واستقامة الطريق، حيث "أن البصر قد يكذب صاحبه فيريه العظيم البعيد صغيرا، وقد يريه المستقيم معوجا كما في الماء، أما في العقل فلا يغش من طلب نصيحته"⁴، فبصيرة العقل هادية منقذة، وكل حياة تراقب بمنارة العقل هي حياة صالحة مستقيمة، والحياة بالعقل هي التوازن الذي يقضي على التيه الذي يتخبط فيه الكثير لفشلهم في فض تضارب المتضادات في واقعهم، لأن "الرؤية الحقيقية مع العقول"⁵، وحياة الكمال الحققة هي حياة أصحاب العقول النيرة. إن ما يجعل الإنسان يجانب الفساد، ويحفظ كرامته وإنسانيته وذاته من أن تكون ضائعة هاربة تتفلت في كل ممارسة وعمل يقدم عليه، هي العقل، يقول الإمام: "الحلم غطاء ساتر، والعقل حسام قاطع، فاستر خلقك بحلمك، وقاتل هواك بعقلك"⁶، وبهذا الحلم والعقل تتجسد الحياة العاقلة المتزنة، لأن هذا العقل هو نور مصاحب للإنسان يجعل الهوى المعبود عند البعض، يتحطم أمام أنواره، وحساما يجهز به على المفسدات، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بكم عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾⁷، فقد كان كفرهم سببه تعطيل عقولهم، وعدم وعيهم، فالعقل هو عنوان الهداية، تهتدي به النفس إلى معرفة الحق، وهو كمال يقود إلى الإيمان والعلم والمعرفة، ووعي رسالة الحياة. مقصد بينه الإمام في كلام وصف به العاقل ردا على سؤال: صف لنا العاقل؟ فقال: "هو الذي يضع الشيء موضعه"⁸، فدقة وضع الأمور في مواضعها، هي علامة العقل، أي أن للعقل آثارا ومخارج، يقاوم الأهواء ويهدي إلى طريق الحق، ويقود إلى بلوغ

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 496.

² - ينظر ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 10، ج 20، ص 23.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 477.

⁴ - محمد عبده: المصدر السابق، ص 477.

⁵ - ابن أبي الحديد : المصدر السابق، مج 10، ج 19، ص 78.

⁶ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 498.

⁷ - سورة البقرة، الآية 171.

⁸ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 465.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

الكمال، يقول الإمام: "فاعقل عقلك، وأملك أمرك"¹، ومعناه: "قيده بالعزيمة ولا تدعه يذهب مذاهب التردد من الخوف"²، فعقل العقل هام في إدارة الشأن الإنساني، ليزداد توقده ونشاطه وتعرف الوجهة به، هذه القيمة تجعله في رفعة عند مفاضلته بالمال: "ولا مال أعود من العقل"³، فالأنفع للإنسان أن يمتلك عقلا، يجسد به طموحه الإنساني، ويبنى حياته وفق قاعدة الصلاح. يقول الإمام في وصية لابنه: "والعقل حفظ التجارب، وخير ما جرت ما وعظك"⁴، حيث يحدد له وظيفته ودوره الذي ينتفع به، هذا العقل الذي يرتبط بالواقع في أخذه لصور الأشياء والحقائق التي تصل إليه من هذا العالم ومن خلالها يقدم للإنسان المزودات التي تعينه في تحديد مواقفه المثلى، وهذا هو العقل العملي، من خلال تجربة الوعظ، "وأفضل التجربة، ما نصرت عن سيئة، وحملت على حسنة"⁵، وهي آية الاعتبار، فالإمام يشير إلى هذا العقل العملي الذي يرتبط جدلا بالعقل النظري، لأن "العقل ميزان صحيح"⁶، ولفظة العقل المتكررة في القرآن الكريم تثبت حيوية هذه القوة وتنوعها، وهي دالة في الجمل على السلوك الذهني والحركي وفق ما تمليه طبيعة العلاقات القائمة بين الإنسان والكون والله⁷، لإدارة الحياة وفق مقتضيات الفطرة، ومقاصد الاستخلاف.

2- العلم والفكر: إن من مخرجات العقل البينة أنه القوة المنتجة للعلم والفكر الذي سيقود الإنسان في هذه الرحلة الاستخلافية، وإثبات أهلية التكريم الإلهي، حيث علم آدم الأسماء، ويدل العلم "على أثر بالشيء يتميز به عن غيره"⁸، فهو منتج تبين قيمته في الوجود، وهو "نقيض الجهل"⁹، كما أنه عبارة عن "الاعتقاد الجازم المطابق للواقع"¹⁰، وهو بهذا يمتح من سلطة العقل الرهيبية ليكون سلطان الحقيقة، وأما الفكر فيعني "إعمال الخاطر في الشيء"¹¹، بحيث يؤدي إلى ثمرة متعينة، وهي الفكرة المتولدة التي تقود حركة الإنسان في الحياة، ومما لا شك فيه أن العقل العظيم

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 419.

² - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 419.

³ - المصدر نفسه، ص 447.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 370.

⁵ - محمد عبده : المصدر السابق، ص 370.

* - هذا القسم يقول به كانظ في العقل النظري والعلمي.

⁶ - ابن خلدون: المقدمة، ص 509.

⁷ - سعيد كموني : العقل العربي في القرآن ص 131.

⁸ - ابن فارس: مقاييس اللغة ص 596.

⁹ - ابن منظور: لسان العرب، مج، ص 415.

¹⁰ - الشريف الجرجاني : التعريفات، ص 130.

¹¹ - ابن منظور: المصدر السابق، مج 7، ص 146.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

الذي به يكون العلم والفكر، هو مرتبة كمال باعتبار نتائجه، وأن المفاصد الحاصلة ناتجة لغيابه، يقول الإمام: "عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية، لا عقل سماع ورواية، فإن رواة العلم كثير، ورعاته قليل"¹، مثل وصف القرآن لأهل الكتاب بالحمار الذي يحمل الأسفار، حيث يجهل ما يحمل من نفاسة، فالعلم دون فهم ونفع، هو علم بلا قيمة، بينما عقل الرعاية للدين هو "حفظ في فهم، وملاحظة أحكام الدين، وتطبيق الأعمال عليها، وهذا هو العلم بالدين حقيقة"². إذن فالعلم يحتاج إلى العقل وأدواته، ولذا فإن العلم ليس جمعا لروايات دون وعي، وإنما هو تأسيس عقلي، بمدخلات ومخرجات هذه العملية، يتطلب عقلا تاما يستقبل وينتج، بوصفه إضاءة لازمة لتحقيق وعي الذات، فالعلم يحصل بإعمال العقل، وهذا هو عقل الوعاية والرعاية، بينما يمنع العلم في حال عدم إعماله، وذاك هو عقل السماع والرواية.

إن هذه القاعدة تؤكد لنا "أن من يروي العلم ويسنده إلى الرجال، ويأخذه من أفواه الناس كثير، ومن يحفظ العلم حفظ فهم وإدراك، أصالة لا تقليدا قليل"³، فالحالة الأولى هي صورة تعبر عن الجهل، والثانية صورة تعبر عن العلم، يقول "أبو حيان" في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْقَهُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت 43]: "وفي نحوي هذا وما يعقلها إلا العالمون؟ فقد وصل العقل بالعلم، كما وصل العلم بالعقل، لأن كمال الإنسان بهما، ألا ترى أن العاقل متى عري من العقل قل انتفاعه بعقله؟ كذلك العالم متى خلي من العقل بطل انتفاعه بعلمه، أما قال تعالى "وَمَا يَدْرِكُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" [آل عمران] 4، واجتماعهما يؤهل لبلوغ الكمال، وإدراك الآية الإلهية يحتاج إليهما. ويحمل الإمام ما أشكل على الإنسان أمره، على الجهل حتى لا يقع في الخطأ والتأويل الفاسد، قائلا لابنه: "فإن أشكل عليك شيء من ذلك فاحمله على جهالتك به فإنك أول ما خلقت جاهلا ثم علمت وما أكثر ما تجهل، وما أكبر ما تجهل من الأمر ويتحير فيه رأيك ويضل فيه بصرك، ثم تبصره بعد ذلك فاعتصم بالذي خلقتك ورزقتك وسواك"⁵، ومعلوم أن القضاء والقدر والنعمة والابتلاء مما يعسر على الإنسان فيها الجزم، حيث تحتاج فقها وعلماء راسخا وعقلا راجحا يري الحكمة الإلهية من ورائها،

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 333.

² - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 333.

³ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج 7، ج 13، ص 191.

⁴ - التوحيد أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة، تح غريد الشيخ محمد، إيمان الشيخ محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، 2004، ط 1، ص 144.

⁵ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 364.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

حتى وإن غابت تجلياتها في الأول، وهكذا يتبين لنا أن: "العلم علما علم الجهل، وعلم المعرفة"¹، فالفقه والفهم هو المعرفة، تؤدي إلى امتثال الأمر الإلهي، وإن بين العلم الشرعي وعلوم الكون والحكمة الإلهية، تواشح يظهر منه سطح، تغيب من وراءه الأسرار، الأمر الذي يتطلب علما وعقلا نافذا، لبيتعد الإنسان عن كل صور التيه والتأول الفاسد، وكل ما يجعل جهله مركبا، وهذه المبادئ هامة لتحصيل العلم والترقي بسلطانه، وإدراك الحقيقة الإلهية، وإثمار المعرفة والعلم النافع، ولكن لماذا العلم؟ ولماذا اكتسابه؟! ولماذا اعتبرته الأحاديث النبوية فريضة؟! كما أن القرآن حث من بدايته على القراءة والعلم، فماذا يمثل هذا التوجيه؟!

إن من الحتميات ذات الترتب النوعي الذي به تتحقق إنسانية الإنسان، وما يبلغ كماله، حتمية وضرورة العلم نبع كل خير، وها هو الإمام يصنف الناس وفق معيار العلم، لتحديد هذا الترتب الدال على المنازل المتفاوتة بينهم، بحسب الإرادة في الطلب، فيقول: "الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على بسبيل نجاته، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، بمليون مع كل ربح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق"². إن هذا التصنيف مبناه العقل، لأن العقل هو منتج العلم، والعالم الرباني هو "المتأله العارف بالله"³، حيث صار بفضل العلم ونور العقل إلى العرفان الذي به تحقق له شرف الكمال الإنساني، ولذا اعتبر "مصطفى ناصف" مثل هذا العلم الذي يمنح هوية إنسانية خاصة أنه: "بحث رقيق عن كينونة الإنسان"⁴. تتبع يتلائم مع منحة العلم لتحقيق الكينونة، إلا أن الملفت أن أصحاب الصف الثالث يفتقدون للعقل ولزينة العلم، مما أفقدهم الصواب، فكانت حركتهم طائشة بإتباعهم لكل ناعق، ولهذا فالعلم دال على كمال صاحبه، و"هو واجب كل كائن في الانتماء"⁵، الانتماء إلى الإيمان والإنسانية، بوعي وبصيرة، وقد أتبع الإمام كلامه بمفاضلة كاشفة تميز العلم عن المال، فقال: "يا كميل: العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، وصنيع المال يزول بزواله. يا كميل: معرفة العلم دين يدان به، به يكسب الإنسان الطاعة في حياته، وجميل الأحدثثة بعد وفاته، والعلم حاكم، والمال محكوم

¹ - صالحة سليمان خراعي: الإنسان والوعي، دار البلد، السويداء سوريا، 2009، ط1، ص 19.

² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 453.

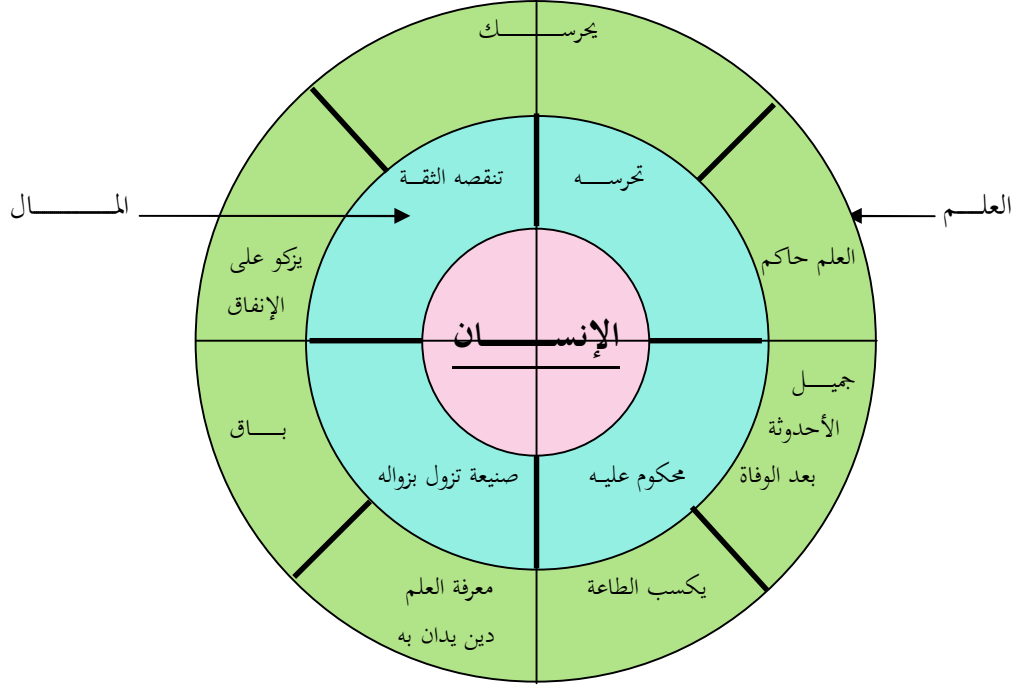
³ - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 453.

⁴ - مصطفى ناصف: مسؤولية التأويل، ص 195.

⁵ - المصدر نفسه، ص 191.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

عليه¹، توضح هذه الموازنة سعي إنسان يتجه نحو الرابنية بالعلم، وآخر إلى الدنيا بالمال، وهو من وسائل التزكية والرفعة إلى عالم الكمال، بينما يمثل المال حالة ضياع إنساني، نوضح هذا بهذه الدائرة:



- دائرة تفاضلية، العلم على المال -

إن العلم بما يمثله من قيمة عقلية، إنما ينشأ في نفوس مشرقة تتطلع بفضله إلى بلوغ مراتب الكمال، وهو "صقل النفس وتهذيب الشعور"²، إذا فهو وظيفة تنزيهية، ووظيفة تأسيس بها يتم بناء الإنسان، حيث يجسد حلمه الكوني/الجمالي، وهو آلية تجسيد فكرة الاستخلاف والعبودية، وفق منطلقات إنسانية، أي عمارة الأرض بالصلاحات، يقول أبو حيان التوحيدي: "لأن العقل ينبوع العلم، والطبيعة ينبوع الصناعات، والفكر بينهما مستمل منهما ومؤد بعضها إلى بعض بالفيض الإمكانى والتوزيع الإنساني"³، وما العمارة للأرض إلا صورة حية لهذا الالتقاء الفاعل بين عناصر الطبيعة والإنسان، يقول الإمام: "ولا علم كالتفكر"⁴، بالأفكار التأملية ينتج العقل المعرفة والعلم، ومظاهر السلوك، هذه العملية العقلية بمدخلاتها ومخرجاتها نجسدها بهذه الترسيم:

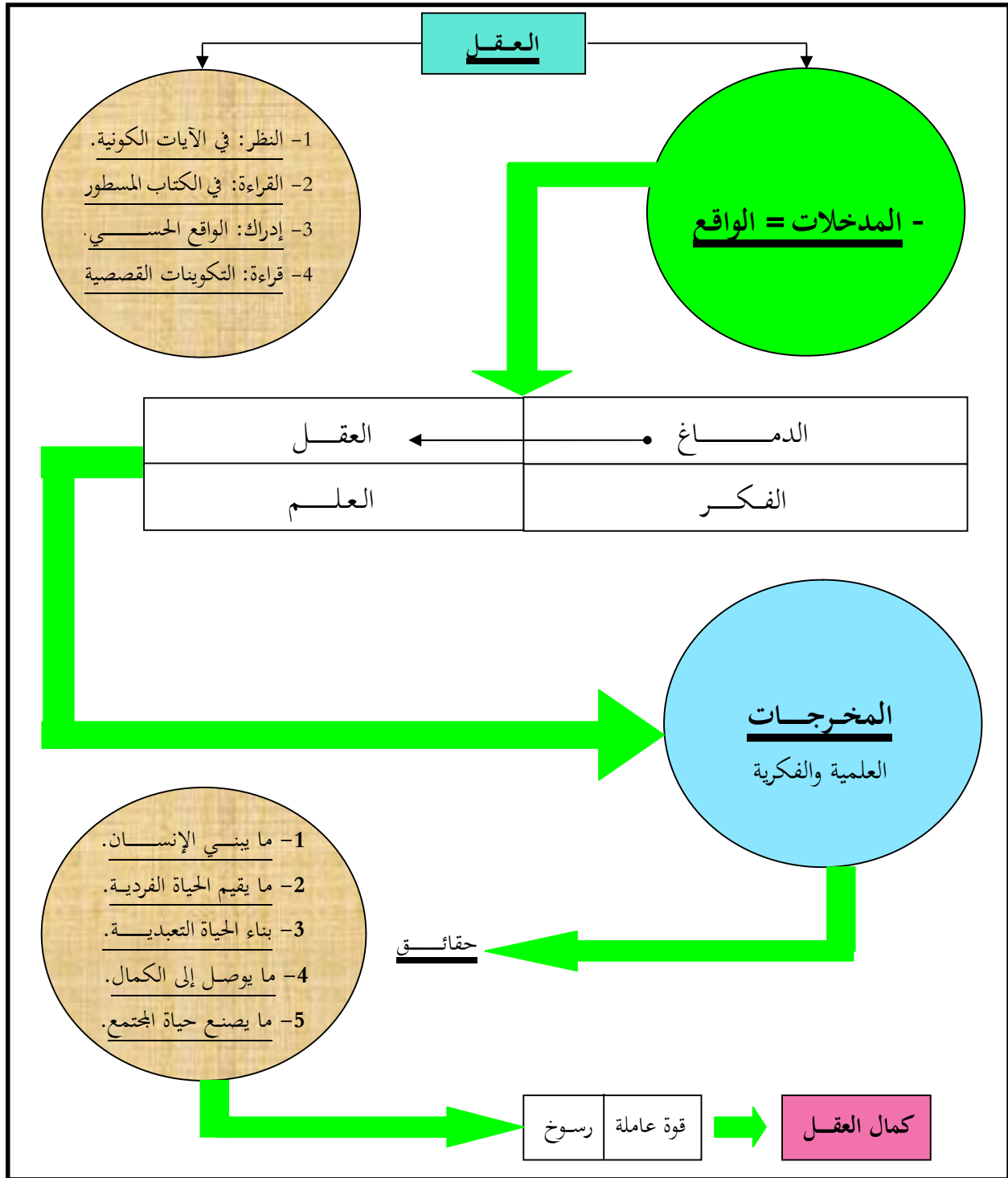
¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 453.

² - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 195.

³ - أبو حيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة، ص 87.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 447.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

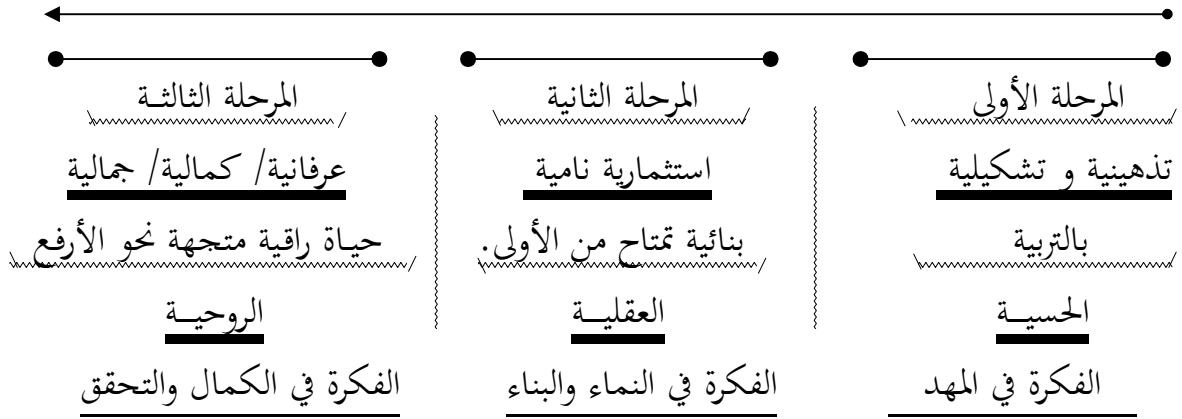


- مخطط يمثل كيفية عمل العقل من خلال مدخلاتها ومخرجاتها-

إن الإنسان هو فكرة تُحول بلى النفس إلى جدة، والذات من الانكفاء إلى النمو الذي يتناسب مع حركة زمن، ويتكامل مع مراحل العمر المفصلية، يقول تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ¹ نجسد مراحل هذا المخطط:



- مخطط تأثير الفكرة في الذات و شكالاتها -

لقد أكدت الآية على مراحل العمر وتحولات الذات من بلوغ الأشد، إلى الأربعين، سن الكمال العقلي والرشد، وصولاً إلى حال شكر النعمة والعمل الصالح، إلى حالة التقبل الإلهي لأحسن العمل، ومكافأته بالجنة، فكل هذا حركته الفكرة التي صنعت كماله الذي هو في النهاية فكرة تتحرك في النفوس العظيمة والعقول الكبيرة، ويتحدث الإمام في كلام آخر عن فضائل بعض الحقائق ومنها الفكر وإشراقه في النفس، فيقول: "نعم القرين الرضى، والعلم وراثه كريمة، والآداب حلل مجددة، والفكر مرآة صافية"²، فهذه الفضائل، هي عوامل رفعة، ودليل وجود إنساني حي، فالفكرة مرآة صافية، نظراً لأهميتها في بناء الذات، وهي المعنى الروحي في وعاء الجسد، والفكرة هي النور المشرق على هذا الطين العنصر الترابي بثقله، بمعنى ما يصبح بها كل من :

- الجسد: ← ترابا / موتا = حياة بالفكرة ← فكرة حياة.
- النفس: ← المظلمة = مشعة - مطمئنة ← فكرة مشعة.
- العقل: ← سلطة - قوة = آلية ← فكرة قوة.
- الروح: ← ذات : الثقل / الخفة = نورا ← فكرة نورانية.

إذن فدور الفكرة الصافية أنها فكرة تخترق عالم الإنسان، فتحوله من حال ووضوح الضعف، والظلمة والعدمية والعبثية والتراخي، إلى حقيقة الحياة، إلى المعنى الإنساني والتكريمي والجمالي، قال

¹ - سورة الأحقاف، الآية 16/15.

² - علي بن أبي طالب : نخب البلاغة، ص 431.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾¹، بالفكرة والإيمان، فالفكر مرآة صافية، تقود إلى تحصيل حياة روحانية وعرفانية مشرقة، "فصواب بديهة الفكرة من سلامة العقل، وصواب روية الفكرة من صحة الطباع"²، ما يعني تفاعل الروحي والجسدي بواسطة الفكر الموصل إلى العرفانية والروحانية، وإلى حياة الإرادة، وحياة الجمال، قال تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾³، أي كمال العلم والجسم، والفكرة التي حركته نحو التغيير ونصرة الحق، ليكون في معناه، ومثالا دالا عليه، أي أن فكره مرآة صافية، وبالمقابل عندما تكون الفكرة خاطئة مظلمة تعكس العتمة والشقاء، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾⁴، فقد قاده تفكيره في سلسلة من الاملاءات النفسية إلى الكفر المدمر.

ولذا فإن عمل العقل يتم من خلال مدخلات ضرورية، حيث يستقبل الدماغ مختلف الإشارات من الواقع بتنوعها، أين تختمر حتى تنتج فكرا وعلما ومعرفة بمخرجات سلوكية، وكذا بناء المفاهيم والحقائق والتصورات المختلفة التي يقوم بها الكيان الإنساني، لكن تبقى عملية التصفية والمراقبة في نقطتي ارتسام العملية مستمرة بمدخلاتها ومخرجاتها لإبداع فكر صاف، "وهكذا نرى أن الفكر والعقل صفتان متتامتان، فالفكر يفكك الأشياء بعضها عن بعض ويقلبها، والعقل يربط الأشياء بعضها إلى بعض، والفكر يفاضل ويحلل الأشياء بعضها عن بعض، والعقل يكامل ويركب عناصر الأشياء بعضها إلى بعض ليصدر حكما يتعلق بالوجود المادي الموضوعي، أو حكما يتعلق بالسلوك الاجتماعي والأخلاقي"⁵، وهذه العملية معقدة مترابطة ومتنامية تخدم بعضها بعضا، ومثل هذا العقل الذي يشغل بصورة ألقمة متكاملة، هو العقل التام الذي يحتاجه الإنسان الكامل.

3/- أساس المعرفة: يستند الأساس المعرفي إلى مصدر حي متنوع، يتمثل في الوحي والتجربة الحسية، وذلك لأن "الغيب الكلي والجزئي متحرك دائما باتجاه المعرفة"⁶، وبهذا يكون للمعرفة الحسية من خلال مجموع الأجهزة البانية في ارتباطها بالعالم المشهود، والمعرفة الآتية عن طريق الوحي، دورها في بناء المنظومة المعرفية للإنسان، وتتركز حول أمرين، استكمال الذات معرفيا،

¹ - سورة النحل، الآية 97.

² - أبو حيان التوحيدي: المصدر السابق، ص 87.

³ - سورة البقرة، الآية 247.

⁴ - سورة المدثر، الآية 21، 25.

⁵ - شحرور محمد : الكتاب والقرآن رؤية جديدة، دار الساقى، بيروت، 2011، ط1، ص 307، 308.

⁶ - المرجع نفسه، ص 295.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

ومعرفة الله ثانياً، معرفة سليمة ومتوازنة، أي أن معرفة الذات، ومعرفة الله، تمثل الغاية والوسيلة، لأن "الغيث الذي هطل من السماء، كان من أجل إرواء الحياة بماء الحقيقة"¹، وهذا الغيث [= الوحي] تستقبله أجهزة الوعي والمعرفة، ليثمر المعنى الذي يجعل من هذا المخلوق المكرم إنساناً أولاً وكاملاً ثانياً، بشرط أخذ هذه الأجهزة بروح المسؤولية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾²، ولهذا وضع الإمام قاعدة مهمة في نهاية كلامه مفادها أن المعرفة والوعي أساسها التحقق، وتاريخ البشرية ينطق بكثرة الرواة و تأثيرهم السيء، وقلة العلماء وتأثيرهم الفاعل في التغيير والبناء، "فغاية العلم هي المعرفة"³، أي البناء المعرفي الذي يقوي المنفعة في الذات، لترتفع وترتقي إلى مراتب الفضل والكمال، يقول الإمام: "يا كميل: هلك خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة"⁴. يوازن الإمام بين خزان الأموال والعلماء ليثبت شرف وفضل العلم والعلماء، والملاحظ أن الفارق الخفي الذي جعل المباينة بينهما قائمة هو العقل الذي افتقده أصحاب الأموال فضيعوا دورهم، واكتسبه العلماء فحازوا به الكمال، وهذه بعض أسس المعرفة الملهممة والضرورية البانية للذات الإنسانية:

أ- ضرورة التمييز بين الحق والباطل، وفك كل التباس، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾⁵.

ب- أهمية اليقظة والحيوية ومواجهة الأسئلة القائمة المستحقة بثبات.

ج- إن المعرفة هي ثنائية تأخذ من عالم الغيب والشهادة، تقود الإنسان إلى معرفة ذاته ومعرفة الله.

د- ضرورة توظيف أجهزة المعرفة للتعلم، ولتوليد المعرفة والفكر.

هـ- إن أعمال العقل والفكر واشتغالهما، لإنتاج العلم والمعرفة، يصبح فريضة شرعية/وكونية.

إن هذه الأسس مهمة في تحصيل معرفة نوعية تبني كمال الإنسان.

4- طرق العقل الموصلة إلى الكمال: ونحدها في ثلاث طرق:

أ- طريق التفكير: "التفكير تصرف القلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب، والتفكير: سراج القلب يرى به خيره وشره ومنافعه ومضاره، وكل قلب لا تفكر فيه فهو في ظلمات يتخبط، وقيل هو إحضار ما في القلب من معرفة الأشياء، وقيل التفكير تصفية القلب بموارد الفوائد، وقيل: مصباح

¹ - سليمان خزاعي صالحة : الإنسان والوعي، ص 67.

² - سورة الإسراء، الآية 36.

³ - سليمان خزاعي صالحة : المرجع السابق، ص 115.

⁴ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 453، 454.

⁵ - سورة البقرة، الآية 42.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

الاعتبار، ومفتاح الاختيار"¹، فالتفكير تصرف يحدد بفضله وبأنواره الخير من الشر، وهو تأمل وتعبد وتمييز بين الخير والشر وإدراك لسر العناية الإلهية من خلال التفكير في مظاهر الحياة والطبيعة والخلق، "وذلك لإدراك العلل والأسباب لتعزيز الإيمان وتقوية وإعمار الكون وبنائه"²، فالتأمل يدفع إلى تحصيل المعرفة التي تقيم خطي العلاقة بين الغيب والشهادة تطبيقاً عملياً نفعياً، بمعنى رسم منهج صلاح، فهو إذا "جولان تلك القوة العقلية بحسب نظر العقل"³، لامتلاك المفاتيح الضرورية لترقية الإنسان، وإكسابه الوعي الذي يقوده إلى الكمال.

ولقد دفع القرآن الكريم الإنسان في كثير من آياته إلى التفكير والنظر في الحقائق والأشياء ليعرف ويعلم، ويرتقي ويتدرج في معرفته وصولاً إلى تعظيم خالقه وتوحيده وعبادته على علم وبصيرة، فقد يكون لتفتح الوردة طريقاً إلى الحياة وإلى المعنى، وكذلك الأمر في كل سر من أسرار الكون، هي مدعاة للتفكير، بحيث يمكن أن يعد، وهو بهذه القيمة والضرورة فرضاً على الإنسان [= فرضاً كونياً] وواجباً لا يستغنى عنه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾⁴، فهنا ارتباط بين ذكر الله والتفكير في خلق السماوات والأرض، تفكر نتج عنه نفي العيشية من وراء هذا الخلق والدعوة إلى الوقاية من النار، ويبين الإمام نتائج التفكير كيف تصحح مسار الإنسان في الحياة، حيث يقول: "ولو فكروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق، وخافوا من عذاب الحريق، ولكن القلوب عليلة والبصائر مدخولة، ألا ينظرون إلى صغير ما خلق كيف أحكم خلقه و أتقن تركيبه وخلق له السمع والبصر وسوى له العظم والبشر أنظروا إلى النملة في صغر جثتها، ولطافة هيئتها، لا تكاد تنال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر"⁵. يضمن الإمام هذا القول اللبنات الضرورية التي يقوم عليها التفكير، يتضح هذا من خلال هذه الترسيم الكاشفة:

¹ - الشريف الجرجاني : التعريفات، ص 57.

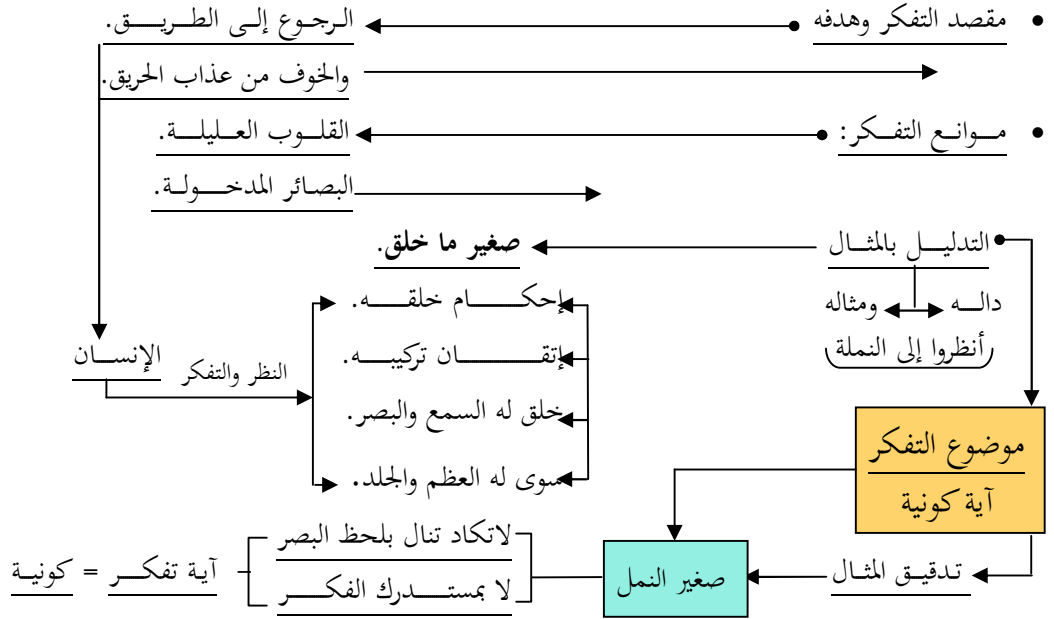
² - بليل عبد الكريم: المفاهيم المفتاحية لنظرية المعرفة في القرآن الكريم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي هرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة، مكتب الأردن، عمان، 2015، ط1، ص269.

³ - المرجع نفسه، ص 269.

⁴ - سورة آل عمران، الآية 191.

⁵ - علي بن أبي طالب: نصح البلاغة، ص 255.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني



- مخطط كاشف لبنية التفكير وثمراتها -

فهذا موضع للتفكير والتأمل ودافع لفقته ما يراد من الإنسان، وما يتوجب في حقه، فيلفت الإمام نظره إلى أهمية التفكير في "كل ما يحيط به من شواهد وأشياء وموجودات"¹، ثم إن كلامه مؤسس بدقة يعتمد على مقدمات ومنطقات ونتائج ينتهي إليها، وفق قاعدة منطقية استدلالية اعتمدت منطقاً منتجاً مفتوحاً فيه حيوية لا ينكفي على نفسه، حيث يحفز الإنسان على سلوك طريق التفكير، ليفهم حجة الله عليه، وغايته اكتساب المعرفة الصحيحة التي توصل الإنسان إلى معرفة الحق، وتحقيق كماله، ويقول: "ومن تفكر أبصر"²، فهذا التفكير له ثمرة ومرتبة، إِبصار الحق واضحاً جلياً، يقود إلى معرفة الله، واستشراق الكمالات الإنسانية، ومن ثم "فلا بد أن يدرك الأمر الذي فكر فيه ويناله"³. ثمرات هي مرتبة طبيعية للتفكير في هذا النظام الكوني البديع، وإبصار تجلّي به الحقيقة وتنداح به غشاوات القلوب والعقول، فهذه إرادة فعل تضع صاحبها في هذه المنزلة العظيمة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾⁴، فهذا الحض على التفكير يكسب الإيمان والمعرفة التي تبني فكرة العبودية، وإن الكثرة الكافرة من البشر، كافرة لأنها عطلت منهج التفكير والتأمل والنظر، فأهميته لأنه "حاجة

¹ - عماد الدين خليل : مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ص 53، 54.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 370

³ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة مج 8، ج 16، ص 58.

⁴ - سورة الروم، الآية 08.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

ضرورة لا تكتمل بدونها إنسانية الإنسان¹، وعليه فإن الإنسانية هي عمل في الذات بالفكر، وإضاءة للكائن بالمعرفة، عندما يتأسس العقل على طريق التفكير.

ب- طريق التدبر: قال صاحب التعريفات: "التدبر: عبارة عن النظر في عواقب الأمور"²، أي النظر في المآلات قصد المراجعة والاستقامة، فهو يقظة حية تثمر حافزية، "والتدبر في كل مواضعه (القرآن) يدور على الآيات المتلوة، والتفكر في غالب المواضع التي ورد فيها في الآيات الكونية"³، وهذا ما سيمنح الطاقة لإعادة الصياغات الفكرية وفق منطق القرآن، لينطلق في الحياة على هديه من جديد، إلى أن ينتهي به هذا إلى الإدراك السليم المتوازن، وتصريف حياته بحكمة وبصيرة وحسن نظر، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾⁴، فقد ربطت الآية عملية التدبر بالقلب، وإن سلامة هذه الجارحة، هو ما يدفع الإنسان إلى تدبر كتاب الله وتدبر مصيره، فالناس "إن تدبروا القرآن أفضى بهم إلى العرفان، وأراحهم من ظلمة التحير"⁵، وبهذا يعد نورا يضيء سبل العبد، وعرفان لأهل العرفان، ولذا نجد الإمام يعلي من قيمة التدبر فيراه آية العقل، حيث يقول: "ولا عقل كالتدبير"⁶، ويلفت الإمام إلى أهمية النظر والتبصر في أحوال القوم ومآلاتهم المفجعة بسبب مواقفهم الخاطئة وفسادهم، فيقول: "ولو استنطقوا عنهم عرصات تلك الديار الخاوية، والربوع الخالية، لقاتل ذهبوا في الأرض ضلالا، وذهبتهم في أعقابهم جهالا"⁷، استنطاق هو علامة سيميائية ناطقة بضلالهم. ويجمع هذا الاستحضار بين صورة العبرة والموعظة، وهي أنهم [= هم]: ذهبوا في الأرض ضلالا، فصاروا عبرة وموعظة، أي حالة تدبر [= لكم]: ذهبتم في أعقابهم جهالا.

إن التدبر هدفه إعادة بناء مراجعات فكرية منتجة، إرهافا للعقل، "ولهذا يزداد الإنسان بصيرة كلما نظر وبحث وارتأى وكشف"⁸، بوصفه عملية عقلية نشطة، محيية للقلب، تنتج بناء معرفيا جديدا، معرفة تركز على النظر في العواقب، وتحقق كلما ارتبط الإنسان بإعمال عقله دائما بالنظر المتواصل، لأن المواجهة تحتاج إلى هذا التدبر، مثل تعليل الكفار رفض الحق الذي أرجعوه إلى

¹ - أنس شكشك : فلسفة الحياة، ص 129، 130.

² - الشريف الجرجاني: التعريفات، ص 49.

³ - عبد الكرم بليل: المفاهيم المفتاحية لنظرية المعرفة في القرآن الكريم، ص 272.

⁴ - سورة محمد، الآية 24.

⁵ - القشيري : لطائف الإشارات، مج 3، ص 413.

⁶ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 447.

⁷ - المصدر نفسه، ص 314.

⁸ - أبو حيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة، ص 119.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

فكرة الآبائية، قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾¹، فهنا سطوة لأفكار السابقين يصعب معها الخلاص، ويدون التاريخ مصائب القوم الماضين واللاحقين، لتبقى عبرة قائمة ودرسا تستحضره الأيام وتجدده، حيث يعرض على العقول لترى وتنظر، ومن ثم تدرك عاقبة أمرها، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾²، والمشهد يقدم لنا عاقبة الظلم والإدبار عن الحق، "وقد كلفتهم كراهية الحق ثمنا غاليا"³، فالتدبر والنظر تبصرة تعرف بطريق الحق، واختياره سبيلا، وتحقيق المواظبة على السير فيه كمال الإنسان.

إن القرآن فصل وفرقان ونور مضيء، يقول الإمام: "لا تكشف الظلمات إلا به"⁴، بحيث يوصل الإنسان بتدبره فيه وتأمل حقائقه إلى هذه المعرفة اليقينية [= كشف الظلمات بالقرآن]، فهذا وجه تدبر في العواقب كاملة، وعليه فإن تأمله يحصل الهداية والأنوار التي هي صورة الحق والإيمان والاستقامة، "فالقرآن الكريم يعود إلى سنته في التعليم والإرشاد ومناشدة العقل الإنساني على الوعي"⁵، وهذا الوعي هو مفتاح الإدراك، وعين التدبر، وتبرز أهميته في صناعة مخارج حقيقية للإنسان، في زمن المحن والفتن، يقول الإمام: "ولما دعانا القوم إلى أن نحكم بيننا القرآن لم نكن الفريق المتولي عن كتاب الله تعالى"⁶، فتدبره يحمل على إدراك بصير، بالاهتداء إلى حلول ومخارج سليمة، وهنا تتجلى مخارجه في عملية كاشفة، فيقدم علاجه ورؤيته الشافية، حيث مزج الإمام صورة التأمل بالبعد العملي التطبيقي، لتكون ثمرة هذا التدبر إنجازا عمليا حيا يخلص الإنسان، ويمده بمراجعات فاعلة مثمرة، فيقول: "واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش والهادي، الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب"⁷، وتدبره يمنح الهداية إلى طريق الحق، ويحول تأمل آياته إلى إنارة ذاتية للعالم الجواني بعد أن يكون قد سطع نور الحق على العقل، فيتحرر من سلطة الهوى، يقول الإمام الغزالي: "إن تلاوة القرآن تتطلب يقظة القلب، وحضور الوعي، وتذوق المعاني، وشهود المتكلم سبحانه!"⁸، وهذه عملية متكاملة لقوى حية تنمي فاعلية الحضور وتمثل الحق، وكأنه - أي

¹ - سورة الزخرف، الآية 22.

² - سورة المؤمنون، الآيات : 66، 67، 68.

³ - محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، ص 269.

⁴ - علي بن أبي طالب: نصح البلاغة، ص 46.

⁵ - محمد الغزالي : المرجع السابق، ص 270.

⁶ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 179.

⁷ - المصدر نفسه، ص 239.

⁸ - محمد الغزالي: المرجع السابق، ص 284.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

القرآن- تنزل في اللحظة، بحيث يتجدد ويستحث خطابه الإنسان المتدبر لآياته أن ينظر في عاقبة أمره، وما يستلزمه من إعادة نظر وتوجيه يحول المتدبر، كي يتألق في كل أداء، وإن كل مخالف لهذا إلا ويقع في التيه ويخسر إمكانية امتلاك عقل قرآني تدبري، فيصير حاله مثل ما وصف الإمام: "جفافة عن الكتاب، نكب عن الطريق"¹، والوقف في تدبر القرآن إنما تتعلق بالنظر في العواقب والنتائج والمآلات، وهذه ثمرة لكمال العقل في الإنسان "فالتدبر أخص من التفكير، من حيث أنه في عواقب الأمور، لا في بدايتها، كأنه تنبه للنتائج وما يصاحبها، وهذا أعلى درجة من التفكير"²، وهذا هو الذي يعيد من خلاله الإنسان رسم مساراته وفق قيم الحق، ما يعكس قوة عقل وعظمته في المراجعات النافعة، يقول الإمام: "وأحسنوا تلاوته، فإنه أنفع القصص"³، فمجال القصص التي تذكر بنهايات الأقسام الذين صاروا مثلاً وعبرة، هي من حسن التلاوة، ومن ذلك التدبر الحي الذي يجلب الخير والانتفاع بتلك الخلاصات السننية الكاشفة البانية، وهذا وقف في الحقيقة على العقل الكامل، فمن تمام التدبر الحسن أن يصبح الإنسان خاضعاً متبعاً لأنواره، يقول الإمام: "يعطف الرأي على القرآن، إذا عطفوا القرآن على الرأي"⁴، إنه قيمة لتلاوة لا تستبعد القرآن أن يكون منهج حياة، ومنزلة عبرة، وهذا "بإتباعه ورد كل رأي إليه"⁵، بحيث تنفتح القوى والطاقات في المواجهة التي تنتظر الإنسان في قادمه ومصيره الذي ينتهي إليه، "لأنه ليس لأحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى"⁶. إن تدبر القرآن هو الغنى بالإيمان والحق، بحيث يرسم مشهد النهاية الطيبة لحياة الإنسان، وفلاحه في الآخرة، وينتهي فقيراً من ابتعد عن سبيله، "وفي أكثر من موضع يؤكد القرآن الكريم على أن النظر والبحث والتجوال في تاريخ البشرية، إنما هو جهد إيجابي لن يكون مردوده إلا على الحاضر والمستقبل، ولن يفيد منه إلا الذين يشحذون كافة حواسهم وقدراتهم العقلية، لكي يستخلصوا المغزى والمعنى ويسيروا هذا على هداهما، (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)"⁷ [النمل: 52]. إذن هكذا يكون التدبر عملية عقلية دقيقة، تؤدي بالإنسان إلى أن يستخلص المعنى الذي طالما يسعى إليه متعقبا، وبه يتحقق تمام العقل، لينفتح على

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 180.

² - عبد الكريم بليل: المرجع السابق، ص 272.

³ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 162.

⁴ - المصدر نفسه، ص 190، 191.

⁵ - محمد عبده: شرح نصح البلاغة، ص 190.

⁶ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 239.

⁷ - عماد الدين الخليل : التفسير الإسلامي للتاريخ، ص 112.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

العلامات والآيات الموثقة فيه، حتى يقف على مشارف من عظمته توصله إلى الحقيقة، وتدبر القرآن الكريم ينمي العقل ويزكي النفس وهذا الأسلوب يتكرر لشحذ الهمم، وبهذا الوعي الذي هو مفتاح الإدراك، ومحصل البصيرة في القلوب، وكما قال الإمام، فإن "لكل امرئ عاقبة حلوة أو مرة"¹، فالتدبر في العواقب له الأهمية الكبرى في رسم خط الحياة الفاضلة، والإنسانية الكاملة.

ج/ طريق التذكر: يرتبط هذا المفهوم بمفهوم التذكير الذي طالما حفزت عليه الآيات الكريمة، و"التذكر تفعل من الذكر. وهو ضد النسيان وهو حضور صورة المذكور العلمية في القلب. واختير له بناء التفاعل، لحصوله بعد مهلة وتدرج، كالتبصر والتفهم والتعلم"²، وتحتاج هذه العملية إلى نوعية مخصوصة من الناس من ذوي الألباب، "فالتذكر وظيفة إدراكية لتحصيل المعرفة"³، وهو "نشاط إدراكي ما بعد التفكير والتدبر، ولا يكون إلا للخلص وأولي العقول الزاكية"⁴، فهذه الوظيفة هي من الضرورات التي تقيم صاحبها في حال من الانتفاع العجيب، وكأنها ملكة تهيأت بعد مزاولة تطهير عميق للنفس حتى تصبح بهذه القابلية، "والذكر و"التفكير" منزلان يثمران أنواع المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان. والعارف لا يزال يعود بتفكيره على تذكره، وبتذكره على تفكيره، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الله الفتح العليم"⁵، بإثمار المعرفة وبانفتاح القلب تتهياً قوى الذات لتكون موضع استقبال للحق، ومن ثم تمثله، كي يراجع بها سيره، ويعيد بها ترتيب حياته، تذكر يواجه به دواعي الغفلة، نظراً لتكوينية النفس الإنسانية، أي لوجود مركب النسيان فيها، ونظراً للمعوقات الكثيرة التي تعترضها، وكذا الضياع وسط هذه الزحمة -الحياة- من كسب ومعاش وهو وغيره.

وهذا ما يؤسس إلى اقتراض إقامة حالة التذكر، تذكر البلاغ والعهد الإلهي للإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾⁶، تذكر يجعل قلب الإنسان حياً، يعيد تثبيت نفسه على طريق الحق، ويبقي على يقظته كاملة، يقول الإمام: "أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضرب لكم الأمثال، ووقت لكم الآجال وألبسكم الرياش وأرفع لكم المعاش، وأحاطكم بالإحصاء، وأرصد لكم الجزاء، وآثركم بالنعم السوابغ والرغد الروافع، وأنذركم بالحجج

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 456.

² - ابن القيم الجوزية : مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ص 275.

³ - عبد الكريم بليل : المفاهيم المفتاحية، ص 608.

⁴ - المصدر نفسه، ص 608.

⁵ - ابن القيم الجوزية : المصدر السابق، ص 275.

⁶ - سورة الزمر، الآية 27.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

البواع، وأحصاكم عددا ووظف لكم مددا في قرار خيرة ودار عبرة أنتم مختبرون فيها، ومحاسبون عليها"¹، فقد وزع الإمام هذا التذكير على مناحي متنوعة من الحياة، ومختلف الحقائق والأمثال والحجج التي تدمغ الإنسان ليعود إلى رشده ويستجمع قوى نفسه ويعي دوره وما خلق من أجله، ويمكن إجمال هذا التذكير في تنويعات هامة راصدة لأمارات تبين معلم الطريق، ليكون الاعتبار، وفقه حكمة الابتلاء من أهل العقل والعرفان، تتجه بعده نحو بناء حياة زاكية وإنسانية كاملة.

إن تذكر المطالب الوجودية، هو ثمرة العقل الكامل ومرتبته، بفضل ذلك الحفر المستمر الذي يأتي بالمعرفة المناسبة والمكافئة لهذا التحصيل العالي للرتب، "فالأسئلة يطرحها الإنسان على نفسه أحفز له على التفكير وأشحد لذهنه وأفتق لقرينته من أجوبة مكتملة ناضجة يتلقاها كالبيغاء"²، بمعنى أن هذا العالم العقلي الذي يتحرك فيه الإنسان هو بناء ذاتي، وجهد حر، وسعي مسؤول، ووعي تام بالأمانة الملقاة على عاتقه، إنها لحظات تذكر ومراجعة وإلهامات، والعقل الحي هو الذي يقف على كل العتبات بهذا التحريك الدائم لمفتاح السؤال، "وهي خطوة (عقلية) أبعد مدى من التفكير، إذ هي الحصيلة التي تنتج من عملية التفكير، وتجعل الإنسان أكثر وعيا لما يحيط به وأكثر إدراكا لأبعاد وجوده وعلائقه في الكون.. كما تجعله متفتح البصيرة دوما، مستعدا للحوار المسؤول عن كل ما يعرض عليه من أسئلة وعلامات"³، أي أن الإنسان يظهر محاورا ومؤولا يتلقى العرفان، إلى أن يصل إلى حالات عليا من المناجاة الإلهية والعبودية الخالصة، ولهذا "اختص التذكير بأولي الأبواب، وهم من آتاهم الله تعالى الحكمة، واختص بأهل الإنابة"⁴، وهم من يستطيع أن يدرك ما في التذكر من عظمة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَبْوَابِ﴾⁵، وقال أيضا: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾⁶، وهذا الحصر يثبت منزلة التذكر بوصفه طريقا، وغرلة تسقط البقايا العالقة، من مفاسد التذهين والتدسية، ليتحقق للعقل الصقل والصفاء وللإنسان الكمال وللذات العبودية.

وإن المزودات العقلية هي إمكان ذلك البلوغ، أي ما يتحقق به التذكر والمراجعة، يقول الإمام: "جعل لكم أسماعا لتعي ما عناها، وأبصارا لتجلو عن عشاها، وأشلاء جامعة لأعضائها،

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة ص 102.

² - محمد عبد الرحمان مرجبا : الفكرانية، ص 413.

³ - عماد الدين خليل : موقف القرآن من العلم، ص 55.

⁴ - عبد الكرم بلبل : مختصر المفاهيم المفتاحية لنظرية المعرفة في القرآن، ص 610.

⁵ - سورة الرعد، الآية 19.

⁶ - سورة غافر، الآية 13.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

ملائمة لأحنائها، في تركيب صورها، ومدد عمرها، بأبدان قائمة بأرفاقها، وقلوب رائدة لأرزاقها. في مجللات نعمه، وموجبات مننه، وحواجر عافيته"¹، فهذا التصوير العجيب للإنسان هو كرامة إلهية تبرز الحسن والجمال، فقد كان هذا الخلق نعمة، متلوة بنعم تتجدد في كل لحظة، تضطلع بقيامه أجهزة الوعي الحية من السمع والبصر والفؤاد، بحيث تكون مطالبة بالإدراك والتذكر الوظيفي، "ولا تكون مبصرة حقيقة حتى يفيدها الإبصار حركة إلى نافع وانقباضا من ضار"²، وهذا هو دورها، ووظيفة التذكر في حياة الإنسان تدفعه إلى أن يجعل العمر الإنساني والبدن موقوفا على حالات الشكر المختلفة والإنابة، أي إلى تلك العبودية الحرة، بينما ينعدم مع الأبصار العليلة ويتحول إلى ندم، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذُّكْرَى، يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾³، فقد ذهب الانتفاع بآلية التذكر، يقول الإمام: "فبينا هو كذلك على جناح من فراق الدنيا وترك الأحبة إذ عرض له عارض من غصصه، فتحيرت نوافذ فطنته، وبيست رطوبة لسانه، فكم من مهم من جوابه عرفه فعي عن رده، ودعاء مؤلم لقلبه، سمعه فتصام عنه، من كبير كان يعظمه، أو صغير كان يرحمه، وإن للموت لغمرات هي أفضع، من أن تستغرق بصفة، أو تعتدل على عقول أهل الدنيا"⁴، هذا مشهد بليغ، وصورة حية لعملية التذكر والتعلم، حيث لا تضاهي عظة الموت وعبرته غيرها، وإن الغفلة حائل وكثافة معطلة للتذكر أمام حالة الموت الذي هو نصبة وعلامة قائمة تحتاج عقلا يتذكر، وعقلا يتأول يستجمع كل هذا المبتدى والمنتهى بتجلياته وحضوره، وقلبا يبكي وينفطر، ويمتألاً إيمانا بالعبرة. إنه الموت اللحظة الفارقة في عملية الانتقال، حيث ترى الذكرى جلية، هذا المشهد الذي تتركز فيه كل دواعي الاعتبار والتذكر الحي، تبصرة، ليفقه كل مخنزل فيه، وخلاصة مستجمعة فيه (حوله)، وإن غمرات الموت هي عتبة استشراف تعيد الحساب عند تأمل ظاهر صورته، أما جوهره فيغيب عن العقول، "أي لغفلتهم عنها لا تتناسب عند عقولهم فيدركوها"⁵، ففهم حقيقته مستصعب، ولكن التذكر والاعتبار بالموت محقق، بإعمال العقل في هذا المشهد الختامي لرحلة الحياة المنتهية، وكما قال الإمام: "ما أكثر العبر وأقل الاعتبار"، لأن الغفلة حاجبة للناس عامة، إلا على أهل الألباب والإنابة، ويكون هذا عندما تتعدل معايير النظر والرؤية إلى الحياة بمقاسات تتكافئ

¹ - علي بن أبي طالب: نصح البلاغة، ص 106، 107.

² - محمد عبده: شرح نصح البلاغة، ص 106.

³ - سورة الفجر، الآيات 25، 26، 27.

⁴ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 317، 318.

⁵ - محمد عبده: المصدر السابق، ص 317، 318.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

والنظرة المتوازنة البصيرة، للحياة والموت والآخرة والمتعلقات الفاعلة في ذلك، ويقدم الإمام لنا معيارا في فهم الغنى والفقير مغايرا لمعتاد الأمر والتصور، فيقول: "الغنى والفقير بعد العرض على الله"¹، فهذا مناط تذكر ومعيار قياس، هو ميزان العارفين، وأولي الألباب، وأهل الإنابة، أما الناس في الحياة فالمعيار عندهم ربما هو:

أن : الغنى = يكون بكثرة المال، والفقير = يكون في انعدام المال وقلة اليد.

وبالنظر العقلي، فإن هذا المعيار صحيح شكلا، ولكنه خاطئ حقيقة بمعنى أن:

1- الغنى (بالمال) ← نظرة قاصرة ← لأنه ← عارض [= يتحول].

2- الفقير (بانعدامه) ← نظرة قاصرة ← لأنه ← عارض [= يتحول].

إن مراد الإمام يتمثل في سحب الإنسان من الرؤية المادية الضيقة الخاطئة، قصيرة النظر، لكي يتحرر من سطوة المال وجلبة الملمات والشهوات، ثم يدفعه بعد ذلك إلى البحث عن الحقيقة المتوارية وراء هذه الخطوط والرسوم الظاهرة، أي أن عملية التذكر تبقى دائما حاضرة ونتائجها قابلة للتجسيد الفعلي والمباشر، "فلا يعد الغني غنيا في الحقيقة إلا من حصل له ثواب الآخرة الذي لا ينقطع أبدا"²، وأما الفقير فهو عكس ذلك تماما، وهذا المعيار الدقيق هو الذي يربط الإنسان بعالم الروح، ويخرجه من حدود الزينة التي تفتنه وتلغيه، وتشوقه إلى شهواتها وتنسيه، لهذا فالتذكر المحفز هو ما استحضر فيه الإنسان العرض على الله يوم القيامة، وما يكون بعده، "وهناك يظهر الغنى بالسعادة الحقيقية، والفقير بالشقاء الحقيقي"³، هذه الرؤية البصيرة الصائبة تقود إلى العمل والإكثار من الخيرات والطاعات، وأما تعطيل هذه الوسيلة فيوصل إلى الدركات، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾⁴، ومن خلال الإرادة يجدد الإنسان طريقه بعد التذكرة ويتخذ سبيلا جديدا إلى ربه. إن كمال الإنسان لا يحققه إلا العقل الخالص، وكمال الإنسان هو من مرتبة العقل المحصلة، والعقل بتأول ثان هو توظيف لهذه الطرق الثلاث، يقول الإمام: "إني أحذركم ونفسي هذه المنزلة، فليتنفع امرؤ بنفسه، فإنما البصير من سمع فتفكر، ونظر فأبصر، وانتفع بالعبير، ثم سلك جددا واضحا

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 502.

² - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 10، ج 20، ص 77.

³ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 502.

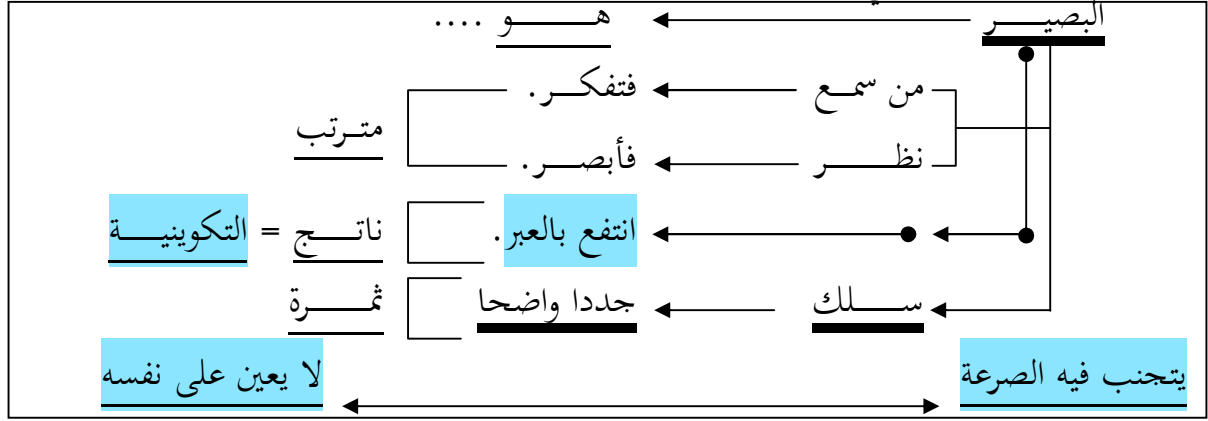
⁴ - سورة المزمل، الآية 16، 17.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

يتجنب فيه الصرعة في المهاوي، والضلال في المغاوي، ولا يعين على نفسه الغواة بتعسف في حق، أو تحريف في نطق، أو تخوف من صدق¹، فمن هو البصير إذن؟!

إن البصير هو المتأمل في مختلف الآيات، المنتفع بالعبء، بفضل هذه الآلات العقلية، ومن ثم

فإن إفادة الحق والصواب هي ممكنة بهذا الأسلوب، وهذا توضيحه:



- مخطط يبرز كيفية تشكل بصيرة البصير -

إن البصير هو صاحب النظر والتفكير، حيث يبصر طريقه، وينتفع بالذكرى أمامه.

5- العقل حجة (بين الله والإنسان) : قال صاحب "التعريفات" الحجة: "ما دل به على صحة الدعوى، وقيل الحجة والدليل واحد"². إثباتا لصدقيتها ووجوبها، وثبات دعواها وسلامة فحواها، ويكون العقل حجة بين الله والإنسان، لأنه أداة التمييز والتكليف في الإنسان، هذا من جهة، وهو الذي به حصل مرتبة العلم والتكريم بعد تعليم الأسماء لآدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾³. فما احتجب عنهم إدراكه فالله يعلمه، وهو تعليم الأسماء، أي العلم الذي به يكون الخليفة في الأرض، والمصلح فيها، والمعلم لها، إنه العلم علامة العقل ومنتجه، هذا العقل الذي به يفارق الحيوانية وينتسب به إلى الإنسانية، ينتمي به إليها انتماء عقل، ويعبد الله به على علم وبصيرة، "فإنما الإنسان في العقل"⁴، وبهذا العقل يخرج من دائرة الغريزة علامة انتماء الحيوانية التي يصح فيها قياسا أن نقول: إنما الحيوان في الغريزة، هذا التقابل الذي نوازن فيه بين قوتين هو ما يجعله محط اهتمام، وبيان هذه الحجة، وفق هذه التقابلات تتوضح بالصورة الآتية:

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 204.

² - الشريف الجرجاني : التعريفات، ص 73.

³ - سورة البقرة، الآية 30.

⁴ - سليمان خزاعي صالحة : الإنسان والوعي، ص 124.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

الأداة	الحيوان [= بالغريزة]	الإنسان [= بالعقل]	الأداة
غريزة			عقل
عالم الحيوانية	المرتب	المرتب	عالم الإنسانية
بالغريزة	- انعدام التكليف - غياب الأمانة	- التكليف والمسؤولية - أداء الأمانة	بالعقل
غريزة: غير نامية	- حالة انعدام للعبودية بشكلها الفني العلمي المتطور.	- الوحي - الكتاب - الرسل	خطاب بالعقل: عقل نامي بالفكر
بالغريزة	- يبقى في دائرة التسخير.	- خليفة الله - عمارة الأرض - عبادة الله	بالعقل
الحالة الحيوانية	نتائج ومرتبات		الحالة الجمالية
= ما دون الإنسانية بالغريزة	- تجمع القطيع - غريزة / اقتتال	- الأمة - التعارف	= الإنسانية بالعقل

- مخطط تقابلي يفرق بين العقل والغريزة وبين حالة التكليف والتسخير -

إذن فبفضل العقل ارتقى الإنسان وكان محلاً للتكريم، حتى أن الغريزة التي فيه ترشد بالعقل وتتمى وتغذى بالمعرفة لتلحق بالقوى الأخرى، حيث تسير جميعاً نحو الكمال، جاء في الحديث: "في بضع أحدكم صدقة"¹، ومن ثم تضاء حتى لا تكون وسيلة لإعاقة الإنسان وارتدائه في الأحوال المفسدة لفطرته وإنسانيته. كل تلك العملية التي تنتهي بالإنسان مسؤولاً مكلفاً، كانت بالعقل، ومن ثم يصبح العقل حجة قائمة بين الله والإنسان، حيث أوضح له وبين وأقام الأدلة الموجبة لإتباع نهجه وامتنال أوامره، ويوضح هذا المقصد الحديث النبوي: "رفع القلم عن ثلاث: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحلم، وعن المجنون حتى يعقل"²، فواضح من هذه الاستثناءات أهمية العقل في التكليف والمسؤولية والاستخلاف، ومن هنا صار كمالاً في الإنسان به يكون كل تحقق، وبه يرتفع الإنسان من عالم الحيوانية إلى عالمه الإنساني [= الإنسانية].

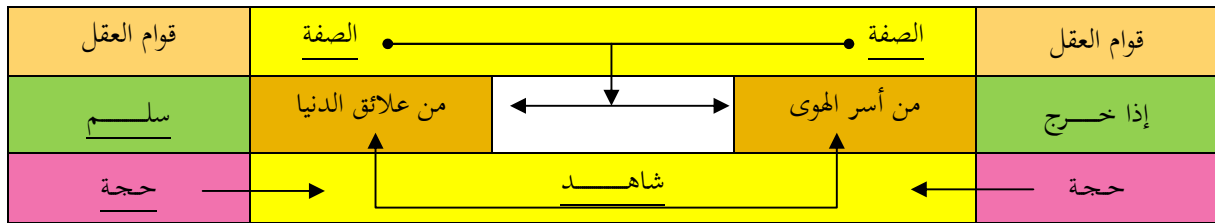
يورد الإمام أقوالاً كثيرة في شأن العقل ورفعة منزلته، لأنه هو ما يقيم جوهر الإنسانية ويعبر عن رفعتها وكرامتها واهتدائها بفضله إلى الكمال، يقول الإمام: "عباد ناجاهم في فكرهم، وكلهم في ذات عقولهم، فاستصحبوا بنور يقظة في الأبصار والأسماع والأفئدة، يذكرون بأيام الله ويخوفون مقامه، بمنزلة الأدلة في الفلوات، من أخذ القصد، حمدوا إليه طريقه، وبشروه بالنجاة، ومن أخذ يمينا

¹ - الدارمي محمد بن حبان: كتاب الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، تح شعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة، بيروت، ج9، 1988، ط1، ص475.

² - أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، ج01، ص229.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

وشمالاً ذموا إليه الطريق، وحذروه من الهلكة، وكانوا كذلك مصاييح تلك الظلمات، وأدلة تلك الشبهات¹، فحديث الإمام عن أهل الذكر المسبحين الله، هؤلاء الذين ارتفعوا عن مطالب الغرائز واللهو والتجارة، هو حديث عن العقل، فالمناجاة كانت في فكرهم بالإلهام والتكليم في ذات عقولهم، في أعماق الفكر [= العقول الخالصة]، لأنه لا يفقه عن الله خطابه، إلا من كان صاحب عقل خالص، وهذه هي الحجة القائمة بين الله والإنسان (فقتها وإدراكا وامثالاً حراً)، لأن أجهزة الوعي لديهم صارت نورا ويقظة، حيث "أضاء مصباح الهدى لهم بنور اليقظة في أبصارهم"²، وهذا النور المتجلي في ذواتهم هياهم لاستقبال الخطاب الإلهي، وقاموا بتحويله إلى غيرهم، تذكيرا وتعريفا بالله، ثم إن هذا الخروج بهذا النور إلى مساحات أخرى مظلمة صاروا بفضل أدلة في طريق الحق، والدليل في الطريق هو حجة [= بالعقل الخالص] الذي أكسبهم هذه المنزلة، "وإن مهمته هي أن يعي ذاته ويعي غيره، ويؤكد حضوره بعيدا عن ذاته"³، وهذا ما استبان لأولئك الأفاضل المخاطبين بقول الإمام، وهذا الدور ما كان ليكون لولا العقل، وفي حديثه عن الدنيا وتوصيف خطرهما انتهى بعد ذلك العرض الرائع في التحديد إلى ختم كلامه، بما أشار فيه إلى العقل الذي يقر بهذا الخطر، وهو العقل السليم، فقال: "شهد على ذلك العقل إذا خرج من أسر الهوى، وسلم من علائق الدنيا"⁴، فشهادة العقل حجة، وقد ذكر هذا بعد بيان مخاطر الدنيا، وجري الإنسان وراءها، بما يعد هبوطا عن مرتبة الإنسانية إلى عوالم الغرائز والشهوات والهوى، ومن أجل تصويب الوجهة والدفع نحو الارتفاع إلى عالم العبودية، من هنا صار العقل مرتبة كمالية وحجة بالشرطين السابقين، بمعنى عقلا كماليا لا عقلا [= بيولوجيا] يتحرك في حدود الغريزة والشهوة والهوى، وحب الدنيا :



ومن هنا نستخلص أن العقل السليم الخالص الذي يمثل حجة وكمالا وأداة تطبيق القواعد الآتية:

- يشهد بخطر الدنيا العقل السليم، المتحرر من الهوى.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 318.

² - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 318.

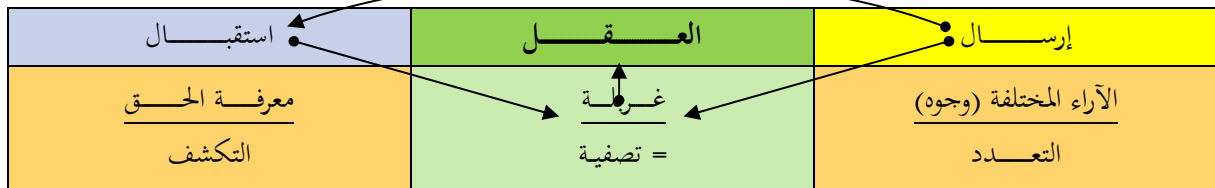
³ - محمد عبده الرحمان مرحبا : الفكرانية، ص 267.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 292.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

- العقل شاهد، إذا سلم من الهوى وعلائق الدنيا.
- يتعين ضرورة تحرير العقل وتحصيل كماله وتمامه.
- يحقق العقل السليم [= الخالص]، كمال الإنسان.

إن الإنسان دون العقل لن يكون، إلا صورة اللحم والدم مشاكلة لصورة الحيوان، وعليه فإن العقل الشاهد/الحجة، هو العقل الذي يحق الحق ويطل الباطل وينتصر لجهة الإيمان ويعلي المنهج الإلهي على غيره في كل موضع كان، يقول الإمام: "فانفذوا على بصائرکم، ولتصدق نياتکم في جهاد عدوكم، فو الذي لا إله إلا هو إني لعلی جادة الحق، وإنهم لعلی مزلة الباطل"¹، فالبصيرة هي ضياء العقل ونور وإشراق يهتدى به من الحيرة والاضطراب، لذا يدعوهم إلى هذا الهدى والنور: "اذهبوا إلى عدوكم محمولين على اليقين الذي لا ريبة فيه"²، وهذا اليقين المنبعث من ضياء العقل كم يحتاجه الإنسان في سعيه، وفي تفريقه بين الحق والباطل، وهو ما أقره الإمام في وضعه الدقيق الذي كان فيه، وهذا الفصل الذي يكون به العقل حجة ملزمة للإنسان هو عنوان الاختيار الصائب والانحياز إلى معلم الحق، ذلك أن "قوام الإنسان رأسي، وقوام الحيوان أفقي، فالحيوان يتجه ببصره إلى الأرض، بينما الإنسان يتجه إلى السماء"³. هذا الانتصاب الإنساني إنما يعود إلى خاصية العقل وتجلياته على الجسد الإنساني والذات المشكلة لهويته، وما اتجأه إلى السماء إلا دليل رفعة وحسن توجه لاستقبال التنزيل، هو العقل الذي يقود إلى مصادر الحق ومنابعه، حيث لا تختلف طريق صاحبه ولا تلتوي به، يقول الإمام: "من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ"⁴، وهذه عملية غريزة دقيقة تتطلب تمحيصا كاشفا، وبصيرة تفرز الغث من السمين، نوضحه بهذا المخطط:



- مخطط يكشف عملية تفكيك الأفكار وتمحيصها -

إن هذه التصفية للمتغاير والمختلف الذي يزدحم على الإنسان يحتاج إلى ضياء العقل وبصيرته من أجل فرز دقيق يصل به إلى إقامة الحق، "فهذا العقل الرباني ما دام مشرق النور في

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 292.

² - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 292.

³ - محمد عبد الرحمان مرجبا: الفكرانية، ص 250.

⁴ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 458.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

النفس فهي مطمئنة للحق راضية بأمره¹، وإن هذا الاطمئنان مرده إلى العقل الذي يقضي على الاضطراب والانتصار لجهة الحق وتمثله، لأن صاحب هذا العقل يدرك الأمانة والتكليف، يقول الإمام: "إذا ازدحم الجواب خفي الصواب"²، فكثرة وارد جواب السؤال فيه خلط وخبط لا يهتدى به إلى قرار، حيث يكون "تشابه المعاني حتى لا يدري أيها أوفق بالسؤال، وهو مما يوجب خفاء الصواب"³، ومن ثم تأتي أهمية المراقبة والنظر والتقليب لتحصيل معرفة صائبة موافقة للمنهج يرتضيها الحق، تحر يكون هدفه رؤية الإنسان الحق تحت ظلال العقل بوصفه حجة ملازمة له، حتى لا يجيد عن طريق الحق، ويتجلى هذا القاسم من خلال ناطقات القرآن، فمن خلال سياقات ثلاث نقف على جملة مطالب ومرتكزات فكرية تؤسس لهذه الحجية، القائمة بين الله والإنسان؛ وهي:

- 1- الرسول وأهل الأهواء وتمايز الأعمال: قال تعالى: ﴿اللَّهُ رُبُّنَا وَرُبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾⁴، حجة قائمة لبيان ومعرفة الحق والتزامه.
- 2- تقول المشركين على الله: قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾⁵، فالحجة البالغة، هي لله، تحتاج إلى العقل وسلطة العلم، لإبطال التصور الخاطئ والزيف والفساد.
- 3- وظيفة الرسل الإنذار والتبشير، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾⁶، وتتلخص مهمتهم في إلزام الناس الحق بالحجة والدليل. إن العقل حجة وبيان كاشف وقائد إلى الهداية، يقول الإمام: "ما استودع الله امرأ عقلاً إلا ليستنقذه به يوماً ما"⁷، وهنا يصبح العقل وظيفة حية في المركب الإنساني، وقوة كمالية منقذة للإنسان، ويقول: "كفاك من عقلك، ما أوضح لك سبل غيك من رشذك"⁸، فالعقل آلة التمييز بين الحق والباطل، وأداة الارتفاع من الحيوانية [الغريزة = الغي]، إلى الإنسانية [العقل = الرشد]. إن إدراك الكمال يتطلب عقلاً كاملاً بخصائصه ومقوماته التي ذكرنا، حتى يكون رتبة كمالية، وحجة فارقة وقائدة، وأسا من تكوينية الكمال بأحجارها الأربعة.

¹ - ابن سيدي محمد وفا سيدي علي وفا: الواردات الإلهية (الوصايا)، تح أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007، ط1، ص 288.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 466.

³ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة ، ص 466.

⁴ - سورة الشورى، الآية 13.

⁵ - سورة الأنعام، الآية 149-150.

⁶ - سورة النساء، الآية 146.

⁷ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 496.

⁸ - المصدر نفسه ، ص 498.

المبحث الرابع : العمل الصالح :

يلاحظ المتأمل في القرآن الكريم كثرة حديثه عن الصلاح ومقابله الفساد، وهذا تقسيم ثنائي يعتمد القرآن باعتبار واقع حال الناس، حيث يذكر الفساد ويذمه، ويمدح الصلاح والصالحين ويبين منزلتهم، وهذه الموازنة هادفة إلى ضبط رؤية الإنسان، وبيان اتجاهه الصحيح، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾¹، والعمل الصالح هو سعي ينبغي على الإنسان أن يتقنه ويجسنه، قال صاحب التعريفات: "الصلاح: هو الخالص من كل فساد"²، فشرط الصلاح خلوه من الفساد في نيته، وفي عدم إضراره، وقد حدد الحديث النبوي صحة العمل في النية الخالصة: "إنما الأعمال بالنيات"³، وفي صواب العمل وموافقته للمنهج، قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾⁴، أي صائب العمل، والعمل الخطأ، فإنه "يعمل لينال به غرض آخر"⁵. إن العمل الصالح هو الصورة المباشرة المنعكسة من حقيقة الاستخلاف والعمارة والعبادة، بمعنى الإصلاح في الأرض، نستشف هذا في اعتراض الملائكة عند خلق آدم عليهم السلام بجملة معللة: ﴿مَنْ يُفْسِدْ فِيهَا وَيَسْفِكْ الدِّمَاءَ﴾⁶، من منطلق طبيعة الخلقة [= الطين] وما يحمله هذا من قابلية للفساد، ولكن العلم الذي علم لآدم ﷺ سيكون سبيل ترقيه وكماله ومفتاح الصلاح والخيرية، ويتضح من هذا أن العمل قرين للعلم، بحيث يمنحه خاصيات الصواب والإتقان والحسن، أي صلاحيته، هذه الرؤية هي اختيار منهج، وعليه فالعمل وفق الطرح القرآني نجده مشروطاً "بالتكليف الذي تسعه طاقة المكلف، وبالسعي الذي سعاه لربه ولنفسه، "لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا" [البقرة 286]، "وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى" [النجم 39]، "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ"⁷ [الزلزلة 7-8]، وتكشف الآيات أن العمل يكون وفق ما تسعه طاقة الإنسان، إضافة إلى ارتباطه بالحساب واقتترانه بالجزاء، ومعياره ميثاق الذرة، وأن العمل هو سلوك منهج الخيرية في الحياة.

إن ربط العمل بالتكليف وفق الضوابط السابقة يجعل من العمل صورة دالة على هذه العلاقة القائمة بين الإنسان والله، أي عبودية الإنسان لله، فالعمل عبادة، والعبادة عمل، وفي

¹ - سورة الأعراف، الآية 56.

² - الشريفة الجرجاني: التعريفات، ص 112.

³ - محمد بن اسماعيل البخاري : صحيح البخاري، ج1، ص 6.

⁴ - سورة الملك: الآية 2.

⁵ - ابن باجة : تدير المتوحد، ص 11.

⁶ - سورة البقرة الآية 30.

⁷ - عباس محمود العقاد : الإنسان في القرآن، ص 11.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

حديث الغراسة والزراعة، وحديث الاحتطاب؛ يبع الإنسان حزمة حطب لكسب قوته، تتجلى المقاصد الرفيعة للعمل ورفعة شأنه، حيث يكون العمل في المحصلة علامة الإنسان المكرم، وتتركز محاور دعوة الحديثين في فكرة وجوبه وفريضته، فهو عبادة قائمة وصدقة ورعاية، أي أن العمل يتحدد في أنه إطار اجتماعي، كما هو إطار ذاتي/فردى يتعدى إلى ما هو كوني، ولكن العمل ليس مرتبطاً بما يستزق به فقط، وإنما دائرته تتعدى إلى فعل كل الخيرات، والأعمال الروحية والفكرية وغيرها، ومن ثم يكون العمل الصالح خيار الحياة الصالحة، ومحاولة بناء الحياة على أسس من العدل والخير والسلام، وإصلاح شأن الناس، بإصلاح دينهم وديانهم، قال تعالى حكاية عن نبيه شعيب الطَيِّبِ في إصلاح أحوال قومه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ¹﴾، حيث يظهر هذا النبي الطَيِّبِ في علاقته بقومه بمظهر المغير المصلح، وحمل الحديد الصالح، بينما يرتبط ويتركز القوم حول الإرث الأبائي الفاسد، ارتباط إلفة يصعب التحرر منه، وكى يتم هذا الإصلاح يحتاج إلى بيئة [= الحق]، وامتنال المصلح له قبل غيره، ومنهجية إصلاحية، تستند إلى العناية الإلهية.

إن العمل الصالح يمثل نقلة للإنسان من وضع فاسد مضطرب يتسم بالخلخلة، إلى وضع مغاير قوامه السير على منهج وسنن عاملة على رفعة الإنسان وكماله، وعليه فإن العمل الصالح تدفق تلقائي للخيرية في الإنسان، وفق عاملين وشرطين مهمين هما: الصحة والصلاحية²، بوصفه فكرة، ليؤتي ثمرته وتحقق فعاليتها، يقول الإمام: "شتان ما بين عملين، عمل تذهب لذته وتبقى تبعته، وعمل تذهب مؤونته ويبقى أجره"³، وبهذا يضع الإمام معياراً للعمل يميز صالحه من فاسده:

* أن العمل الفاسد: ما ذهب لذته وبقيت تبعته؛ ما كان عليك - الحساب [= الخسارة].

* أن العمل الصالح: ما ذهب مؤونته، وبقي أجره؛ ما كان لك - الجِزَاء [= الفوز].

وهذا ما يعني أن العمل له تبعات ولواحق، "فالأول عمل في شهوات النفس، والثاني عمل في طاعة الله"⁴، فما استقام فيه الإنسان على منهج الله وأخلص فيه وتحقق فيه الصواب كان صالحاً، وما انحرف فيه واتبع فيه شهوات النفس وهواها كان فاسداً، كما يضع الإمام العمل الصالح في صورة نامية مزكاة، فيقول: "ولا تجارة كالعمل الصالح"⁵، فالعمل الصالح هو أركى، ويقدم الإمام

¹ - سورة هود، الآية 88.

² - ينظر مالك بن نبي في كتابه "رسالة المسلم"، ففيه بسط وتحليل لهذه الفكرة بشكل مفصل دقيق.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 488.

⁴ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 448

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 447.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

تصورا ضابطا له، فيقول: "إن المال والبنين حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة، وقد يجمعهما الله لأقوام، فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه، واحشوه خشية ليست بتعذير، واعملوا في غير رياء ولا سمعة، فإن من يعمل لغير الله يكله الله إلى من عمل له"¹، يتحدد من خلال الإخلاص والمقصد وحسن التوجه، ومن حيث الصواب بموافقة المنهج، وعليه فنحن أمام نوعين من الأعمال:

أ - عمل الدنيا: حرث الدنيا وعلامته المال والبنون.

ب- عمل الآخرة: حرث الآخرة، وعلامته العمل الصالح.

إذن فقاعدة العمل للدنيا: أن من يعمل لغير الله "جعل أمره إليه"²، يكله لمن عمل له،

وهذا يعني دخول فكرة محورية فيه هي حرث الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾³، أي أنه ما ارتبط بالإيمان وكان ثمرته الجنة.

1- الإيمان والعمل: إن فكرة الإيمان هي ترجمة لفكرة العمل الصالح، هذه الموافقة يكشف عنها

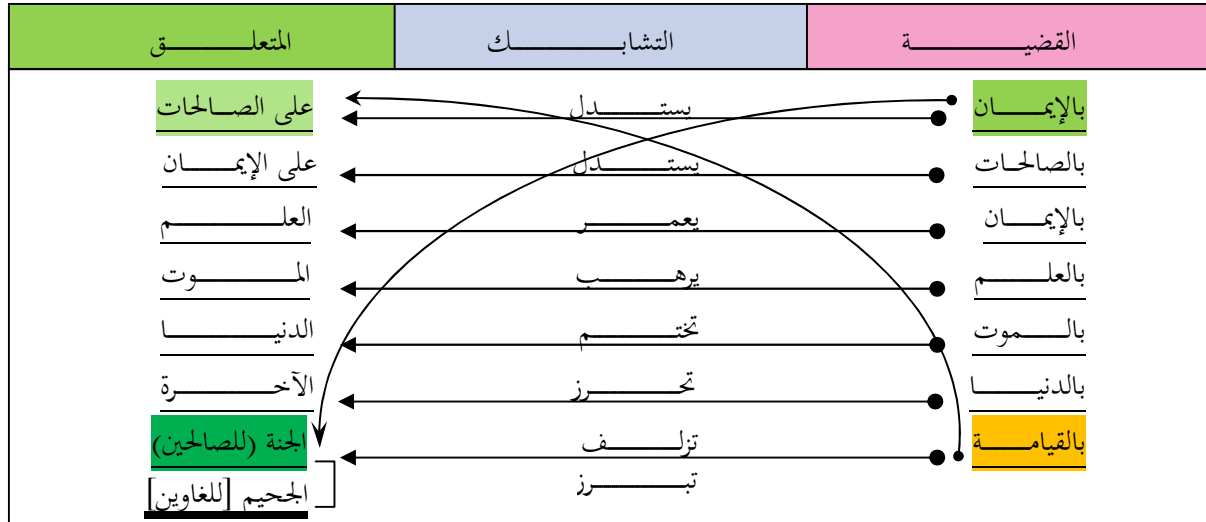
الإمام بقوله: "سبيل أبلج المنهاج أنور السراج، فبالإيمان يستدل على الصالحات، وبالصالحات

يستدل على الإيمان، وبالإيمان يعمر العلم، وبالعلم يهرب الموت، وبالموت تختم الدنيا، **وبالدنيا تحرز**

الآخرة، وبالقيامة تزلف الجنة، وتبرز الجحيم للغاوين، وإن الخلق لا مقصر لهم عن القيامة مرقلين في

مضمارها إلى الغاية القصوى"⁴، ونلاحظ كيف يضع الإمام هذا التراتبات المتشابكة، حيث تتعالق

مجموعة هذه القضايا لبناء مفهوم وتصور واضح المعالم يحدد وظائف الإنسان في الحياة، وهي:



- مخطط كاشف لبنية العمل وحقائق الدنيا والآخرة ومرتباتهما-

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 51.

² - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 51.

³ - سورة التغابن، الآية 9.

⁴ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 208، 209.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

إن هذا التفاعل يمكن بيانه بهذه الدائرة المشكّلة لمختلف هذه الارتباطات الجوهرية بين الإنسان = وجودا في الدنيا وتعلق هامته بالآخرة بآليات نّاجية من إيمان وعمل صالح وعلم، وترتبط قضية الإيمان بالجنة، وترتبط القيامة بعمل الصالحات بتأويل الإمام لهذه التعلقات والمترتبات:



- دائرة تخطيطية تمثل ارتباطات الإنسان الوجودية القائمة بين الدنيا والآخرة وتشابك قضاياها -

إن ما يجعل الدنيا مزرعة تؤسس لمشروع يستهدف الآخرة قصدا وتحققا، والقيامة منتهى ومآلا، ينطلق من ذروة وبؤرة يسير إليها ويصعد، هذه الحركة المتقدمة في الزمن هي الموت، فالإنسان "إذا رهب الموت وهو ختام الدنيا كانت الرهبة سببا في حرص الإنسان على الفائدة من حياته، فلا يضيع عمره بالباطل، وبهذا يحرز الآخرة"¹، وهذا ما يحققه العمل الصالح ويدفع إليه، كل هذا التوصيف المترابط المبني على مقدمات ونتائج نمائية، وكأنها منطق عقلي مؤسس على قاعدة بينة، وانتهاءات يخلص إليها الإنسان تقوده إلى تحريك قواه نحو الفعل والعمل الصالح بآليات العلم

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 209

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

والإيمان، ويرد "العلم والإيمان في القرآن مقرونان دائماً بالعمل الصالح"، قال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا"¹ [مرم 96]، هذه المحركات المنهجية هي الجامعة لحقيقة الوجود الإنساني، والدافعة إلى جعل الدنيا والآخرة متعلقتان متممتان لمقصد الوجود، حيث تتحقق وظيفة الاستخلاف والغاية من خلق الإنسان، ومادام أن الأمر يتوقف بداهة على العمل وضرورته، فإن المسارعة إليه تصبح قضية الكائن أخذاً بمبدأ التوتر الذي يصنعه الموت به، وينمي ذروة نشاطه وتحفزه، يقول الإمام: "فاعملوا وأنتم في نفس البقاء، والصحف منشورة، والتوبة مبسوطة، والمدبر يدعى والمسيء يرجى، قبل أن يحمد العمل، وينقطع المهل وينقضي الأجل، ويسد باب التوبة، وتصعد الملائكة"². إن العمل الصالح يزيد الموت بضغطه وهجومه على العبد في غير ما إعلان حيوية ودفاعاً ومسارة للاستزادة والإكثار منه، وقد بين الإمام علامات كاشفة لمثل هذه الوضعية الوجودية القلقة، أي أن العمل يكون في هذه الفسحة القائمة مع هذه الامهالات قبل الانتهاء، وسط هذه السعة والفسحة الزمنية، ونشر الصحف، وانبساط التوبة التي تغلق بالموت وانتهاء الأجل، وصعود الملائكة، ومعنى هذا أن الاندفاع نحو العمل الصالح يصبح حتمية ومخرجا من وضعية وجودية تتأزم وتتوتر في كل لحظة، وأن العلامات ناطقة مخبرة تهمس في القلب وتتكلم إلى العقل تحاطبه وتضع فيه مقولة الحديث: "الإنسان بين مخافتين"، وهو المعنى الذي كشف عنه الإمام في تمام كلامه السابق: "فأخذ امرؤ من نفسه لنفسه، وأخذ من حي لميت، ومن فان لباق، ومن ذاهب لدائم، امرؤ ألجم نفسه بلجامها، وزمها بزمامها، فأمسكها بلجامها عن معاصي الله، وقادها بزمامها إلى طاعة الله"³، وهنا يقدم الإمام أسلحة هذا الفوز، وعناصر البقاء والامتداد (في-إلى) الآخرة من خلال فكرة الإنجاز العملي في الدنيا بالعمارة الصالحة فيراها في إعداد العدة، واستثمار الأجل (العمر)، والخوف من الله، وإلجام النفس عن المعاصي، وقيادتها نحو الطاعة.

إن مثل هذه العملية الوازنة، إنما هي ذات منشئ إيماني بالأساس، فالمؤمن الحق هو الذي يرى الدنيا بعين الآخرة، ويرى الآخرة بعين العمل، وهذا ما يدفعه إلى "تعاطي الأعمال الجليلة لنفسه، أي لتسعد بها نفسه"⁴. تسعد في الدنيا بالاطمئنان الذي يمنحه العمل، وفي الآخرة بالجنة مكافئ العمل الصالح، أي المكافئ لكمال العمل، فالصالح من الأعمال هو التام الكامل منها،

¹ - سعيد جودت: كن كابن آدم، دار الفكر دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1998، ط 2، ص 31.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 230، 231.

³ - المصدر نفسه، ص 331.

⁴ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 331.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

وكمال العمل دال على كمال الإنسان، وهو من كماله، قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيُّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾¹. تمام يتحقق بمعادلة بينة، وتتركب من العناصر التي تشكل الكمال، و تؤدي إليه :

المعادلة : الإيمان + العمل الصالح ⇌ الجنة ← الحلول في السلام.

إن هذه المعادلة ممكنة التحقق لكل نفس تمتلك إرادة الخير وتسرع نحو الصالحات، كي ترفعها إلى المنازل العليا في هذا السلم، سلم مراتب العمل، واغتنام فرص الخير، يقول الإمام: "قرنت الهيبة بالخيبة، والحياء بالحرمان، والفرصة تمر مر السحاب، فانتهزوا فرص الخير"². إن الأعمال الصالحة لا تتجسد إلا في حضور الإرادة الخيرة، وانتهاز الفرص، عمر يمكن أن نطلق عليه العمر المسقي بالعمل، النابت بفكرة الإيمان، "فمن تهيب أمرا خاب من إدراكه، ومن أفرط به الخجل من طلب شيء حرم منه"³، فالتهيب يمثل خسارة العمل وخسارة الآخرة، أي خسارة عملية استخلاف إنساني ممكنة، وفق رؤية قرآنية كونية قائمة على عمارة الأرض بالصالحات، ومع إضاءات الإمام التي تجتمع أمام المتأمل، حيث تدفعه مستفزة بإشاراتها ليستكمل المفهوم المحدد للعمل الصالح ومكوناته، ومن ثم تقوده هذه الحقائق إلى تحصيل مرتبة كمال العمل الصالح الذي يعد المرآة التي نرى من خلالها الكمال يتجسد، والحياة تشرق وتزداد نضارة، والآخرة تحرز، يقول الإمام: "لا تكن ممن يرحو الآخرة بغير العمل، ويرجى التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين، إن أعطي منها لم يشبع، وإن منع منها لن يقنع"⁴، عمل يباشره الإنسان يقربه إلى الآخرة، لتكون الدنيا الصالحة من الآخرة، فلماذا تطرح أسئلة الدنيا في علاقتها بالآخرة؟! والآخرة بالعمل؟! والعمل بالإيمان؟! إن الإجابة بسيطة تمهد لبناء صورة واضحة، نبرزها بهذه المعادلة:

- أن الدنيا مزرعة الآخرة.
- أن الآخرة سبيل تحصيلها بالعمل.
- أن العمل فكرة / طاقة بالإيمان.
- أن الإيمان قوة تمنح العمل الصائب [أحسنه].

¹ - سورة إبراهيم، الآية 23.

² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 433.

³ - محمد عبده: المصدر السابق، ص 433.

⁴ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 455.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

إن هذه المقاربة المتفاعلة التي يحصل من خلالها هذا البعد الإنساني والكمالي، لاشك أنها تجعل من طرح فكرة العبيثية والعدمية لغو حديث، وهو موقف، وضرب باطل، وهذا بور عقلي يتأسس على منطق جامد بلا قيمة ولا فعالية، فرجاء الآخرة بغير عمل، و إطالة الأمل و تأجيل التوبة، وعدم مطابقة القول للفعل، والنهم من الحياة من غير شبع. إن مثل هذه الصورة لا يمكن أن تقود إلى إثمار فعلي وإنجاز عملي، ما يعني تعطيل العمل، وانعدام فكرة الإيمان المؤسسة والدافعة إلى العمل، وغياب العلم المبصر بحقيقة ومقصد الحياة. إن هذه الاشتراطات ضرورية لوجود العمل الصالح، "لأن الإيمان هو العلم الراسخ الذي وقر في القلب وصدقه العمل"¹، هذا الارتباط يقود إلى رفعة كمال العمل الذي يمتح من النبع القرآني وخلاصات منهج الحق.

وننتهي من كل هذا إلى تحديد الإمام لمفهوم الإيمان، واستكمالاً لهذا الإطار الواصف لحقيقة العمل الصالح، حيث تتأكد شرعيته بالإيمان، ومقصدية بالصواب المرتبط بالمنهج، يقول الإمام: "الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان وعمل بالأركان"²، وهذه مسألة حيوية ترتبط بالجهاز المفاهيمي من عقل وقلب، أي بفكرة معرفية، وأدوات وجوارح، وعلامته النطق الصريح به، وكل هذا لا يكفي لإعطاء بعد حقيقي للإيمان، إلا بترجمة هذه الاعتقادات سلوكاً، وهنا يظهر أثر العمل بإقامة أركان الدين، وهو هدف الإيمان وجوهره، "فمن لم يعمل لم يسم مؤمناً وإن عرف بقلبه وأقر بلسانه"³، وهذا بين الدلالة، حيث لا قيمة لهذا الإيمان وهذه المعرفة العظيمة إذا لم تصبح عملاً ونهجاً ثابتاً يدل على مرتبة العمل الصالح، وهو تمام عملي مؤسس على كمال فكرة الإيمان.

ويضع الإمام للإيمان علامة دالة على صواب هذه الفكرة، وصواب مخارجها العملية في الواقع، بمعنى أن الإيمان هو ما يقيم صاحبه في الحق، فيقول: "علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضررك، على الكذب حيث ينفعك، وأن لا يكون في حديثك فضل عن عملك، وأن تتقي الله في حديث غيرك"⁴، ففي تجليات الإيمان الكبرى، و أمام المستجد العارض من الحياة، يحدث تعارض المصالح بين الحق ومطالب النفس، ويندفع الإنسان إلى البحث عن مخارج لنفسه بدل الانتصار للحق، وهذا امتحان لإثبات حقيقة الإيمان، فالعمل اقتضاء وازن، هو علامة الإيمان، حتى أنه ليظهر البعد الاجتماعي للإيمان في تحقيق هذه الصيانة للحمته وحماية وصلته الإيمانية في الانتساب،

¹ - جودت سعيد : كن كابين آدم، ص 46.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 464.

³ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 10، ج 19، ص 21.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 502.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

وهذا من صميم الصلاح ودعوته، "فالإيمان، وهو التصديق الصادق المثمر للأعمال. والأعمال الصالحة، و هي المستقيمة النافعة المبنية على ذلك الإيمان"¹، وواضح أن المقاصد الحقيقية لحياة الإنسان أن يجيأ وراء مبدأ عظيم يسعى إليه، حيث يكون اعتقادا صحيحا، وعملا مستقيما، والجامع بينهما قيادة الحركة الإنسانية على ضوء من البصيرة، نحو تحقيق استخلاف مسؤول وعمارة صالحة، وعبادة صافية صادقة، وكل هذا يمثل حالة ترق ثمراتها العمل الصالح.

2- العمل الصالح والتقوى:

أ- التقوى مفهوما ومدلولها: قال صاحب التعريفات: "التقوى في اللغة بمعنى الاتقاء، وهو اتخاذ الوقاية، وعند أهل الحقيقة هو الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته، وهو صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك. والتقوى في الطاعة: يراد به الإخلاص، وفي المعصية يراد به الترك والحذر، وقيل: أن يتقي العبد ما سوى الله تعالى"²، هذه المعاني تقرب من إدراك هذا المفهوم الكبير، الذي يتجاوز به الإنسان كل ما يبغده عن صراط الله المستقيم ومنهجه القويم المحقق لفلاح العبد، وهو اتصاف الأنفس التي اطمأنت إلى الحق، فكان عملها محاولة اتقاء الموانع المهلكة وصيانة النفس من كل خطر يقود إلى المعصية، ويعتبر الإمام التميمي قمة هرمية في البناء النفسي للإنسان، حيث يقول: "التقى رئيس الأخلاق"³، فهذا البنيان يحتاج إلى رئاسة ضابطة، تمكنه من الوصول إلى أعلى المنازل، وقيادة الإنسان إلى الجنة"⁴، فالتقوى سراج يضيء طريق الإنسان، وعظمة تزيد في ضياء النفس.

ب/ العمل الصالح والتقوى: إن اقتران التقوى بالعمل الصالح شرف كماله ليس سهلا سلوكه ولا تنفيذه، وذلك لاعتبار منهجي قائم في حياة الناس، حيث تعترض الإنسان وهو يسعى إلى هذه الرفعة الكمالية من العمل الصالح عوائق وإكراهات تعطله عن إنجازها، وتقف سدا منيعا عن تحقيق هذا الإمكان، حتى يصبح العمل الصالح نهج حياة، وقابلية تحقق، لذا يكون دور التقوى هو مغالبة هذه الموانع، والانتصار على هذا الضعف، يقول الإمام متحدثا عن التقوى والعمل: "فإن تقوى الله مفتاح سداد، وذخيرة معاد، وعتق من كل ملكة، ونجاة من كل هلكة، بها ينجح الطالب، وينجو الهارب، وتنال الرغائب، فاعملوا والعمل يرفع، والتوبة تنفع، والدعاء يسمع، والحال هادئة، والأقلام جارية، وبادروا بالأعمال غمرا ناكسا، ومرضا حابسا، أو موتا خالسا، فإن الموت هادم لذاتكم،

¹ - ابن باديس : تفسير ابن باديس، ص 340.

² - الشريف الجرجاني : التعريفات، ص 58، 59.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 496.

⁴ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 10، ج 20، ص 26.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

ومكدر شهواتكم، ومباعد طبيّاتكم، زائر غير محبوب، وقرنٌ غير مغلوب، وواتر غير مطلوب"¹، ففي الجزء الأول من الكلام تظهر لنا التقوى هي المفتاح أمام انغلاقات الحياة بفعل معيقات الطريق، ومن ثم تصبح التقوى هي الوعي الجديد الممكن الذي يزيل العقبات التي تمنع من أداء العمل وإتقانه، وهي تنقية وتصفية له من نية السوء، وفي الشق الثاني يعطف الإمام على العمل، وكأن التقوى قد هيأت أرضيته، وأعدت سبيله، فوظف فعلين على سبيل الحث دافعين إلى العمل الصالح، وسط الإكراهات الضاغطة التي أبان عنها الإمام: (العمر الناكس والمرض الحابس، والموت الخالس)، بغية تنشيط القوى العاملة لتدبر هذا الحال فتتكب على العمل الذي يرفع صاحبه في منازل الآخرة والدنيا، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾²، لأنه وافق سنن الحق فيرفعه الله، ويورد الإمام كلاماً آخر يربط فيه مباشرة العمل بالتقوى، فيقول: "لا يقل عمل مع التقوى، وكيف يقل ما يتقبل"³، فالعمل قيمة ورفعة، والتقوى قيمة ورفعة، قال تعالى: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾⁴، فالأهلية بالتقوى هي من الضرورات المنهجية لتحقيق الرفعة بالعمل، ولأن هذه التقوى هي مفتاح سداد الإنسان في طريقه، فإنها بالمقابل تصبح زاد هذا الطريق، يقول الإمام مستنتظاً الأموات بحقيقة المخرج والخلاص للحَي، فيقول: "الأخبروكم أن خير الزاد التقوى"⁵، فالموت يتحول إلى موعظة متكلمة وحكمة ناطقة، لذا سيكون الإخبار ممن ذاقوا كأسه أن خير الزاد المنجي: "التقوى"، أي أن ما يعد لهذا السفر العمل الصالح مقروناً بها، وعليه فإن التقوى هي رسالة الأموات إلى الأحياء، والحكماء إلى الغافلين، ورسالة الله إلى العباد، وخلاصة توصيفية تيسر سبيل العمل وتدفع إليه.

إن سؤال العمل الصالح والتقوى يتجدد، حيث يسعى معه الإنسان إلى إبعاد التناوش الذي يأكل ذاته، والمؤلم الذي ينهشه من الداخل، وفي مقدمته الشهوات [= المَلَكَةُ] بتعبير الإمام تنزل بديلاً، وتصير مقصداً؟! وهنا نجد الإمام يسط هذه الفكرة في تعالقه الوجودي والكوني، أي سؤال المصير، وسؤال الهدف من الخلق، فيقول: "أيها الناس! اتقوا الله، فما خلق امرؤ عبثاً فيلهو، ولا ترك سدى فيلغو، وما دنياه التي تحسنت له بخلف من الآخرة التي قبحها سوء النظر عنده، وما المغرور

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 326.

² - سورة فاطر، الآية 10.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 443.

⁴ - سورة الفتح، الآية 26.

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 450.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

الذي ظفر من الدنيا بأعلى همته، كالأخر الذي ظفر من الآخرة بأدنى سهمته¹. كلام نفيس طالما كرره الإمام في مفتح خطبه، تدرك أسراره بالتأمل، ونزيده بالتأول كشفا عن سؤالنا.

أولاً: ربط التقوى بالغاية من خلق الإنسان، حيث يتبين من حيث المقصد نفي العبثية والعدمية، أي نفي لكل تلهٍ بالملذات، ولكل لغو يجعل من الدنيا عبثاً ومسرحة لانطلاق النزوات.

ثانياً: من حيث الوجود في الحياة، فالدنيا [= التي تحسنت له] هي معيقات، ملكة حاجبة، ليست بخلف للآخرة، لذا يقوم الإمام بتصويب منهجي، من وجهة عقدية فكرية عملية، يحمل تبصرة وإيضاحاً للرؤية، فيضع له مقداراً من ناحية كمية وكيفية:

- الكمية: ما يظفر من الدنيا المتحسنة [= كثيره].

- الكيفية: أدنى الحظ من الآخرة، بحيث يسقط الأول الفاني بكمه.

ثالثاً: وظيفة الرؤية: وهي تنقسم إلى قسمين:

- حسية (مادية): إدراك الدنيا الحاضرة، [= التي تحسنت له].

- معنوية (روحية): إدراك ما وراء الدنيا، أي الآخرة، الغائبة عنه [= بحسنها].

وعليه يحتاج الإنسان ليعقل هذا، إلى **مخيلة جنانية**، لتخيل الجنة بقرائنها الدالة، حتى يتمكن الإنسان من وضع نفسه في هذا الاستشراق العالي، وهذا ما سيكون انعكاسه مباشراً على إدراك قيمة الدنيا، والغاية من خلقه، أي أنه بهذا التصور يتجاوز الدنيا المتحسنة بالتقوى، وينال الجنة بالعمل الصالح، ولهذا تقبح الدنيا بمثل هذا النظر قصد نيلها [= المغربية] الذي يجعلها بديلاً للآخرة، وسيختلف الظافر بها عن الظافر بالآخرة، حيث أن "أدنى حظ من الآخرة أفضل من أعلاه في الدنيا"²، بالعيش المتوازن للآخرة بقواعد التقوى والعمل الصالح بمشقتة، لأن "العمل العظيم الذي لا يرافقه تعب ونصب لا متعة فيه"³، وهو المولد لحرارة الإيمان التي تبعث على تحسينه وصلاحه.

ج/ آليات دفاعية: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾⁴، يتبين لنا أن الأكل الطيب هو تقوى، ثم يأتي عمل الصالحات، وهي مقدمة عليه، ومن ثم فإن التقوى هي عملية تطهير وتنقية تهيي الجسد والجوارح إلى العمل الصالح، إذن فالعمل الصالح مؤسس جدلاً على التقوى، ومعنى هذا أن هذه الآية تطرح معادلة بمسلمة ثابتة :

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 490.

² - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 490.

³ - محمد عبد الرحمن مرجحاً : الفكرانية، ص 676.

⁴ - سورة المؤمنون، الآية 52.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

الأكل الطيب = التقوى ————— يؤدي إلى
 يترتب عنه ← العمل الصالح [= الجنة].

الأكل الخبيث (الحرام) = المعصية ————— يؤدي إلى
 يترتب عنه ← العمل الفاسد [= النار].

إن هذه القاعدة العملية ينبغي أن تصبح قانون حياة، يقول الإمام: "إن من صرحت له العبر عما بين يديه من المثالات حجزته التقوى عن تقحم الشبهات"¹، فالسنن تجري وتظهر، لتكشف الحقائق للمعتبرين، وهذا ما يستقرئه الإنسان الناظر في أحوال السابقين وما حل بهم، نتيجة فسادهم، ويدفع مستخلص العبر [= القارئ المؤول] إلى أخذ العبرة بفق هذا القانون، لينتهي بذلك إلى معرفة هذه الآيات التكوينية، وما يتأسس على قاعدة التقوى والعمل الصالح، بحيث تكون قد "منعته عن تقحم الشبهات والتردي فيها، فإن الشبهة مظنة الخطيئة، والخطيئة مجلبة العقوبة"²، وعليه فالتقوى هي سلاح الإنسان بها يتصدى لعوامل تفتتت قواه التي تقيم كماله، وتحفظ إنسانيته، "ومعنى التقوى هو أن تتقي معضلات الحياة ومشكلاتها، بأن تلتزم منهج الله"³، التزام يعني مغالبة الأهواء والشهوات، ولهذا فآليات التقوى الدفاعية، تتم بالمسارعة إلى الأعمال، يقول الإمام: "اتقوا الله عباد الله، وبادروا آجالكم بأعمالكم، وابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم، وترحلوا فقد جدّ بكم، واستعدّوا للموت فقد أظلمكم، وكونوا قوماً صريحاً بهم فانتبهوا، وعلموا أنّ الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا"⁴، يلفت الإمام إلى كيفية تحصيل هذه التقوى فيراها في مبادرة الأجل بالعمل، وشراء الآخرة بالدنيا، وأما داعيها فإنما يمليه الأجل يستدعي تهيئة وزادا لهذا الرحيل. ويتطلب كل هذا الحذر والانتباه، أي تشكيل حافزية توظف أسلحة النصر على المشتتات والمعيقات، ليكون الناس من أمرهم "حذرين إذا استنامتهم الغفلة وقتاً ما، ثم صاح بهم صائح الموعظة انتبهوا من نومهم وهبوا لطلب نجاحهم"⁵، من أجل حضور إنساني نوعي، تضع الإنسان في حصن منيع من الملوّثات الروحية، يقول الإمام: "اعلموا عباد الله أن التقوى دار حصن عزيز، والفجور دار حصن ذليل لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه، ألا وإن التقوى تقطع حمة الخطايا، وباليقين تدرك الغاية القصوى"⁶، وهذه موازنة تبرز فضائل التقوى ومكتسبات هذا التدرع بلباسها،

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 40.

² - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 40.

³ - محمد متولي الشعراوي: موسوعة الأحاديث القدسية، ج 1، ص 186.

⁴ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 85.

⁵ - محمد عبده: المصدر السابق، ص 85، 86.

⁶ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 211.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

في مقابل الفجور الذي يذل الإنسان بعد تكريمه، فهذه دار حصن بمنعة أمام "سطوة الخطايا على النفس"¹، فهي سلاح يدفع إلى عمل الصالحات، حتى "يكشف الإنسان فكرة التقوى من خلال فكرة الخطأ أو من خلال الشعور بأهمية المسافة التي ينبغي أن تفصل الإنسان عن تحقق كل الرغبات"²، فالخطأ تركيبة نفسية وباب كشف بنقيضه، فقبل أن يرى الإنسان الارتفاع، يرى السقوط، فيبادر إلى العمل، ويتقي المعاصي ويقف عند النواهي، هو من التقوى، ويكشف الإمام عن هذا للعقول لتعيه، فيقول: "فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ جِهَةً مَا خَلَقَكُمْ لَهُ وَاخْذَرُوا مِنْهُ كُنْهَ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ وَاسْتَحْضُوا مِنْهُ مَا أَعَدَّ لَكُمْ بِالتَّجَرُّ لصدق ميعاده، والحذر من هول معاده"³، ومن ثم فإن معادلة الاستخلاف الإنساني ليس لها من طرق التنفيذ المنهجية الحي والذكي، إلا التقوى والعمل الصالح، ولهذا ستكون "التقوى على الخصوص هي الجزء الثاني من عظمة الإنسان في غير غرور"⁴، والرافعة التي ترفع الإنسان من مرتبة الحيوانية إلى مراتب الإنسانية التي تحتكم إلى نور العقل والهدى.

د- التقوى وظائف وعلاج: لا يتحقق صلاح أي عمل، إلا إذا قدمت التقوى للإنسان النور والضياء، وهي تكشف بيان قاطع أنها ذات وظائف تعالج النفس، نوضحها في هذا الجدول:

الوظيفة	المعلم	التأويل
قيادة في الدنيا	"واعلموا أن من يتق الله يجعل له مخرجا من الفتن ونورا من الظلم، ويخلده فيما اشتتهت نفسه، وينزله منزل الكرامة عنده، في دار اصطنعها لنفسه، ظلها عرشه، ونورها بهجته، وزوارها ملائكته، ورفقائها رسله". ص. 252 "أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإنها الزمام والقوام، فتمسكوا بوثائقها، واعتصموا بحقائقها، تؤل بكم إلى أكنان الدعة، وأوطان السعة، ومعامل الجزر، ومنازل الغرف يوم تشخص فيه الأبصار وتظلم له الأقطار" ص 289-290 "فاعتصموا بتقوى الله، فإن لها حبلا وثيقا عروقه ومعقلا منيعا ذروته، وبادروا الموت في غمراته، وامهدوا له قبل حلوله، واعدوا له قبل نزوله، فإن الغاية القيامة وكفى بذلك واعظا لمن عقل، ومعتبرا لمن جهل" ص 264-265	وتعني مقابله الظلم والفتن والشهوات بالتقوى، تنتهي بنيل الكرامة والجنة. تعتبر التقوى عصمة وقواما، محصلة للدعة والعز، ولهذا فيوم التقوى، يعد نورا على المتقي.
التقوى مادة الصحة :	" فإن التقوى دواء داء قلوبكم وبصر عمى أفعدتكم، وشفاء مرض أجسادكم وصلاح فساد صدوركم، و ظهور دنس أنفسكم، و جلاء عشا أبصاركم، وأمن فزع جأشكم، و ضياء سواد ظلمتكم" ص 292.	يمد كل هذا الإنسان بصحة مادية ومعنوية، فهذا العلاج يمس ظاهر الإنسان وباطنه.

¹ - محمد عبده : المصدر السابق، ص 211.

² - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 247.

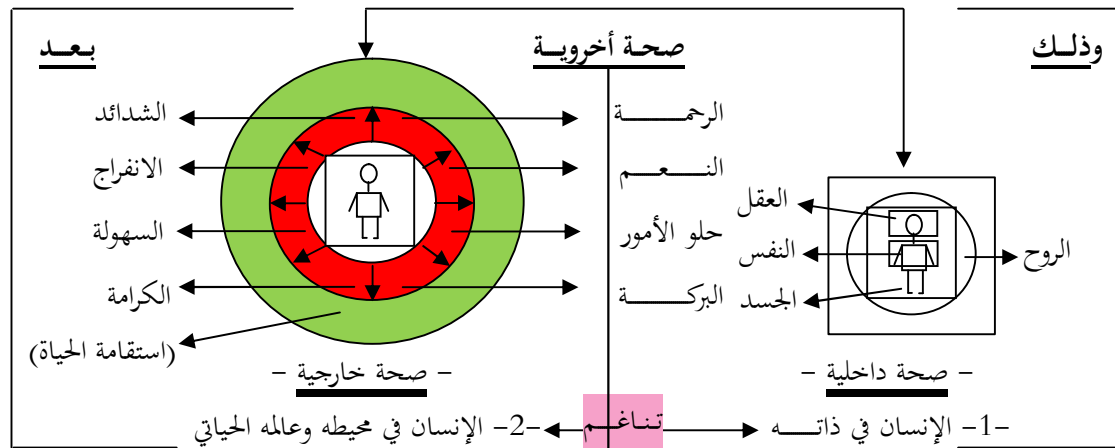
³ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 106.

⁴ - مصطفى ناصف : المصدر السابق، ص 223.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

<p>تمد التقوى بالقوة والطاقة والحيوية والأمل في كل انطلاق إنساني، وهي تمثل حالة التوازن لقوى الإنسان وطاقاته الحيوية.</p>	<p>"فمن أخذ بالتقوى، عزبت عنه الشدائد بعد دنوها، واحلوت له الأمور بعد مرارتها، واتفرجت عنه الأمواج بعد تركها، وأسهلت له الصعاب بعد إنصائها، وهطلت عليه الكرامة بعد قحوظها، وتحذبت عليه الرحمة بعد نفورها، وتفجرت عليه النعم بعد نضوبها، وبلت عليه البركة بعد إرذاذها" ص 293.</p>	
<p>تعد التقوى مطية ورود الجنة.</p> <p>تعد التقوى وعي الأولياء بالجنة.</p>	<p>"ألا وإن التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها و أعطوا أزمته فأوردتهم الجنة، حق و باطل، و لكل أهل، فلئن أمر الباطل، لقدبما فعل، و لئن قل الحق فلربما و لعل، و لقلما أدبر شئى فأقبل ". ص 41-42.</p> <p>"أوصيكم عباد الله بتقوى الله التي هي الزاد و بها المعاد، زاد مبلغ و معاد منجح، دعا إليها أسمع داع ووعاها خير واع، فأسمع داعيها، و فاز واعياها. عباد الله إن تقوى الله حمت أولياء الله محارمه، وألزمت قلوبهم مخافته، حتى أسهرت ليايهم، واضمأت هواجرهم، فأخذوا الراحة بالنصب، والري بالظلم، واستقربوا الأجل، فبادروا العمل، وكذبوا الأمل، فلاحظوا الأجل، ثم إن الدنيا دار فناء، و عناء، وعبر" ص 167.</p>	<p>وظيفة أخروية : الجنة طريقا</p>

وهكذا تبرز لنا أهمية القيادة الدنيوية بفضيلة التقوى وكل هذا يحتاج إلى عقل واعتبار، فكمال العمل بالتقوى يحتاج إلى كمال العقل، وهي قوة الأولياء الروحية والتعبدية الظاهرة بالآخرة، ولكي تعمل وفق منهجية سننية تجعل الدنيا أرضية بناء الآخرة، تقربها بالعمل الصالح، لتصبح يقينا يرى، فعلاج التقوى شامل النفع، لإنسان جديد إنسان التقوى، مهياً بهذه التزكية والطهارة إلى عمل الصالحات والخيرات، سليماً في عقله بمعتقده وفكره، وفي سلوكه بعمله، نوضح هذا بهذه الترسيم:



فإذا كان الجزء الأول قد تعلق بسلامة الذات كاملة وصحتها بفاعلية، فإن الجزء الثاني قد تعلق بتعدي هذه السلامة، إلى الأثر الخارجي الذي يبني الحياة، "حيث يكشف الإنسان فكرة

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

التقوى، من خلال فكرة الخطيأ، أو من خلال الشعور بأهمية المسافة التي ينبغي أن تفصل الإنسان عن تحقق كل الرغبات"¹، في دلالة على الارتباط الوظيفي بين الفكرتين في تحقيق كمال العمل.

3- الإحسان: لقد جاء لفظ الإحسان بمدلوله وصيغته التفاضلية ليرمز إلى استواء هيئة العمل والسلوك، أي ما يكون ارتقاء وتميزا وكمالا، جاء في اللسان قوله: "الإحسان ضد الإساءة"²، وفي قوله تعالى: "وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَإِحْسَانٍ": أي استقامة وسلوك الطريق الذي درج السابقون عليه"³.

وفسر النبي ﷺ الإحسان حين سأله جبريل صلوات الله عليه وسلامه، فقال: "هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك"، وهو تأويل قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ" وأراد بالإحسان الإخلاص، وهو شرط في صحة الإيمان والإسلام معا، وذلك أن من تلفظ بالكلمة وجاء بالعمل من غير إخلاص لم يكن محسنا، وإن كان إيمانه صحيحا، وقيل: أراد بالإحسان الإشارة إلى المرافقة وحسن الطاعة، فإن من راقب الله أحسن عمله"⁴، ومجمل هذه المعاني تؤكد على صفات جوهرية في العمل متعينة لإثبات حسنه، من الصحة والإخلاص والمراقبة وحسن الطاعة، ومجانبة السوء والاستقامة، تجعل العمل متقنا موافقا للحق، وفي المقاييس أن "الحاء والسين والنون أصل واحد، فالحسن ضد القبح"⁵، مما يعني موافقة العمل لمنهج الحق والصلاح، وفي التعريفات: "الإحسان لغة: فعل ما ينبغي أن يفعل من الخير"⁶، يظهر هذا من خلال استقامة الأداء الإنساني، وهو كذلك "التحقق بالعبودية على مشاهدة حضرة الربوبية بنور البصيرة، أي رؤية الحق رؤية يقينية، لا حقيقية، ولهذا قال ﷺ: "كأنك تراه؛" "لأنه يراه من وراء حجب صفاته، فلا يرى الحقيقة بالحقيقة؛ لأنه تعالى هو الداعي وصفة لوصفه، وهو دون مقام المشاهدة في مقام الروح"⁷، هذا الإحسان هو مرحلة متقدمة في العلاقة بين العبد وربه بأنوار البصيرة، حيث تنتفي مخالفة الحق في إرادة العبد، لأنه صار يرى الحق رؤية يقينية، بحيث تصبح العبودية صورة للتحقق الذي تطابق فيه الفكرة بالوصف، وكأن هذا التنفيذ هو صورة جمالية متألفة بالأداء الرفيع، فهذه الجمالية هي دعوة إلهية إلى العباد ليكون طريق تعبدهم دال على كمال ورفعة.

¹ - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 247.

² - ابن منظور : لسان العرب، مج 2، ص 451.

³ - المصدر نفسه، ص 450.

⁴ - المصدر نفسه، ص 451.

⁵ - ابن فارس : مقاييس اللغة، ص 207.

⁶ - الشريف الجرجاني : التعريفات، ص 13، 14.

⁷ - المصدر نفسه، ص 13.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

يقول تعالى دافعا إلى هذا المعنى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾¹، ففي كل وضع فيه شدة ومحنة أو رحمة أو فسحة ينبغي أن يكون الإحسان رفيقا، وأن يكون جمالا وكمالا مع كل فعل إنساني، وهذا الذي توضحه الآية الكريمة بوجه من وجوه الإحسان: ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلًا﴾²، صبر فيه رفعة وبصيرة، وإتقان وإيمان وقبول، وهو بيان لروح تشبعت باليقين والكمال والجمال، أما الإمام فنجده يقدم فهمه للإحسان من خلال تأول هذه الآية الكريمة، حيث "قال في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) [النحل: 90]: العدل: الإنصاف، والإحسان: التفضل"³، فالإحسان فيه دفع إلى حيوية تحرك الإنسان تجاه العمل والخير، وحث إلى تعدي صورة الواجب، واستكمال هيئة الفعل بالتفضل، فمعنى هذا ندب العبد في الأعمال⁴، ولذا فهو من وسائل جعل العمل غاية في الكمال والرفعة، وبالإحسان يرتفع العمل الصالح إلى مرتبة الكمال ويرتفع به الإنسان إلى الكمال، وتتهياً أرضيته بما يجعل ثمرته طيبة، وما مقام الإحسان إلا تعبيرا عن أصالة ونبل منبت، يقول الإمام: "واعلم أن لكل عمل نباتا وكل نبات لا غنى به عن الماء والمياه مختلفة، فما طاب سقيه طاب غرسه، وحلت ثمرته، وما خبث سقيه خبث غرسه وأمرت ثمرته"⁵، فالعمل بهذا التصور يتطلب تعهدا دائما ليأتي بثمرته، ومن ثمراته جماليته في الإحسان، أي عندما يتعدى إلى هذه المرتبة.

أ/ الإحسان والصلاح: يرتبط الإحسان وظيفيا بالصلاح، ولهذا يعتبر الصورة المثلى للعمل، ويمثل سعيا يفاضل به الإنسان بين الأعمال لاستكمال صورتها الحسنى، حتى يغدو مقاما رفيعا يندفع به إلى الخيرية والسبق إليها، حيث يندب نفسه لهذا المشروع الجمالي الصالح لينال مزية الحسنى، وإن تدفق هذه الخيرية من الإنسان، هي علامة دالة على روح متوثبة ترى في الطاقات المودعة في الذات سبيلا إلى حالات الشكر بالعمل، ويدل تجلي الذات بطابع الإحسان على ملكة نفسية، وتعلق بالعبودية الصحيحة التي تتحقق بطواعيه السلوك وتلقائية النفس، وجمالية السعي، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾⁶، هذه الأسوة الحسنة في الرسول الكريم ﷺ، هي التي تحفز على تمثل الحق تمثلا حسنا بسلوك الطريق [= الأسوة

¹ - سورة البقرة، الآية 195.

² - سورة يوسف، الآية 05.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 465.

⁴ - ينظر ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 10، ج 19، ص 25.

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 206.

⁶ - سورة الأحزاب، الآية 21.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

الحسنة] الذي نوجهه المطبق المثالي الأول لهذا الحق، وهو ما كان يصرح به في لحظات تعبده مع ربه: "أولا أكون عبدا شكورا"! مأخوذا في هذا بمقام الإحسان وقانونه، وهذا ما يفرض خطأ عباديا رفيعا، أدواته العمل الصالح مع الإحسان، وخط الأسوة الحسنة، المبني على المعرفة الإلهية، ويوجه الإمام الإنسان إلى هذا السلوك، فيقول: "ولا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان"¹، وهنا يتجلى واجب إدارة الذات بحكمة في صرف الفعل في وجوه الخير ومجانبة كل سوء، بمعنى تثبيت خط الاستقامة، وإن الفكرة الأساس فيه أن القوى - كمركز حيوي في الذات الإنسانية- ينبغي أن تسبق دائما بفكرة الخيرية مبدأ وسيطرة وإفاضة بالحسنى على المرء وأعماله، وعليه فالإنسان هو محرك الإحسان ومظهره، وما عبارة الإمام "أقوى منك" إلا ترجمة لتنازع داخلي، ينتهي حتما بجمالية إنسانية، جمالية الإحسان، ودقة هذا التوجيه أنه ضبط لبوصلة الإنسان في حركته وقصده وغائية عمله، أو ما يجعل فيض الإحسان على سلوك وعمل العبد سيمة دالة، وعلامة تؤول لقارئها فكرة الارتفاع والكمال، كمال العمل، المؤسس على كمال العلم.

ووفق هذا النسق الذي يعلي من شأن الإنسان صاحب التكريم والخلق القويم الذي تم في أحسن صورة، في جمالية الظاهر وجمالية القوام وجمالية النفس، مع البصائر الذاتية من عقل وغيرها كل هذا يدفع إلى تكميل هذا الطريق بالإحسان والعمل الصالح إثباتا لنقاء الكرامة، وأهلية الاستخلاف الذي يجعل الإنسان، هو الكائن المتعبد بالحرية والجمال والإحسان، يقول الإمام مجليا هذا المعنى: "وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده. فليكن أحب الذخائر إليك العمل الصالح، فاملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك، فإن الشح بالنفس؛ الإنصاف فيما أحببت أو كرهت"². إذن فعلا الصالحين هي جريان المدح لهم على الألسن وهي كرامة إلهية، وهذا الصلاح الذي عد قيمة رمزية، لأنه ثمرة من جنسه وهو العمل الصالح، لذا ربطت هذه القيمة والمنزلة بالقبول الإلهي، ومن ثم صار أحب الذخائر التي يتحقق بها هذا التشريف، ولكن ما هو متطلب تحصيل هذه الفضيلة؟! لقد أبان عنه الإمام في نهاية القول فأجمله في أمرين، الأول أن الإنسان يحتاج إلى قيادة النفس، ويكون بامتلاك هواها، والثاني أن يشح بنفسه عما لا يحل باعتدال، بمعنى إنصافها، وهذا من قمة العدالة، وعلامة الإحسان، يقول "ابن أبي الحديد": "فكما يجب أن يكون الإنسان مهيمنا عليها في طرف الفعل يجب أن يكون الإنسان مهيمنا عليها في

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 371.

² - المصدر نفسه، ص 392.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

طرف الترك¹، وهذه قيادة ضبط وتوجيه نحو الصلاح، تدفع نحو إدراك وجه الإحسان والعمل وفق هذا الوجه.

إن الإحسان هو سعي جمالي حثيث، ففي "نهاية الطريق نستطيع الوصول إلى مرتبة الإحسان"²، وهي سلسلة ترابطات تقود إلى نهايات كمالية ومراتب تنزيهية، وحالات جمالية هي روح التعب الخالص، وقد تصطدم الذات بمثبطات، أو بالأحرى بخدوش وجروح تحاول كسر رتم الذات المتصاعد في بناء مرتبة الصلاح العملية، ومن ثم جريانها إلى الإحسان، يقول الإمام ناصحا بضرورة تلافي هذا الكسر: "لا يزهدينك في المعروف من لا يشكره لك، فقد يشركك عليه من لا يستمتع بشيء منه، وقد تدرك من شكر الشاكر أكثر مما أضاع الكافر، والله يحب المحسنين"³، حيث يحتاج الإنسان إلى القوة والإرادة، والوعي والمعرفة، وأن تتوضح رؤية الحق في العمل والإحسان فيه بشكل جلي، من خلال ارتباط العمل بالله ﷻ، وأن يكون سنة ثابتة في سعيه ومفاضلاته.

إن الأخذ بهذا البيان الرفيع، ينتج عنه وضع قواعد تأسيسية للعمل، وعليه فإن ارتباط الإنسان بالله هدفا ومصيرا يدعوه إلى استشراق أرقى، إثباتا لعبوديته وكرامته، فمن تعريف النبي ﷺ للإحسان: " (أن تعبد الله كأنك تراه)، يرى المرء بوضوح العلاقة الخطيرة بين العبادة والإحسان، بين الروحانية والأخلاق، وبين الإخلاص للخالق، والإحسان للمخلوقات"⁴، وهذا معناه إقامة خط تكاملي بينهما يجعل الإنسان الممثل للحق تمثلا نوعيا بألق، يعبر عن روح متسامية في الأداء.

ب/ كمالية الإحسان: مما لا شك فيه أن الإحسان منزلة من المنازل الشريفة، وهو حالة من المجاهدة والمكابدة تحقيقا لغاية مثلى، الانتصار على النفس والعوائق، ليثبت الإنسان من خلال هذا أن إرادة الخير وطريق الحق، هما المسلك الطبيعي للإنسان المسؤول، ووعيه بهذه الحقيقة يدفعه إلى وسم عمله بالسمة الجمالية التي يمنحها الإحسان، كما تكتسب به الذات تلك الإمكانية الدافعة إلى الرفع، أو التحرك بخطى ثابتة نحو الكمال، أي أن يكون العمل متجها من حسن إلى أحسن [= إحسانا]، ومن رفيع إلى أرفع [= كماليا]، وهذا يعني أن كمال الإنسان، هو كمال بالإحسان والعمل الصالح، يقول الإمام: "من نال استطال"⁵، وحقيقة هذا المقام أنه يبني على ثلاثية

¹ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 9، ج 17، ص 18.

² - فتح الله كولن: النور الخالد، ص 551.

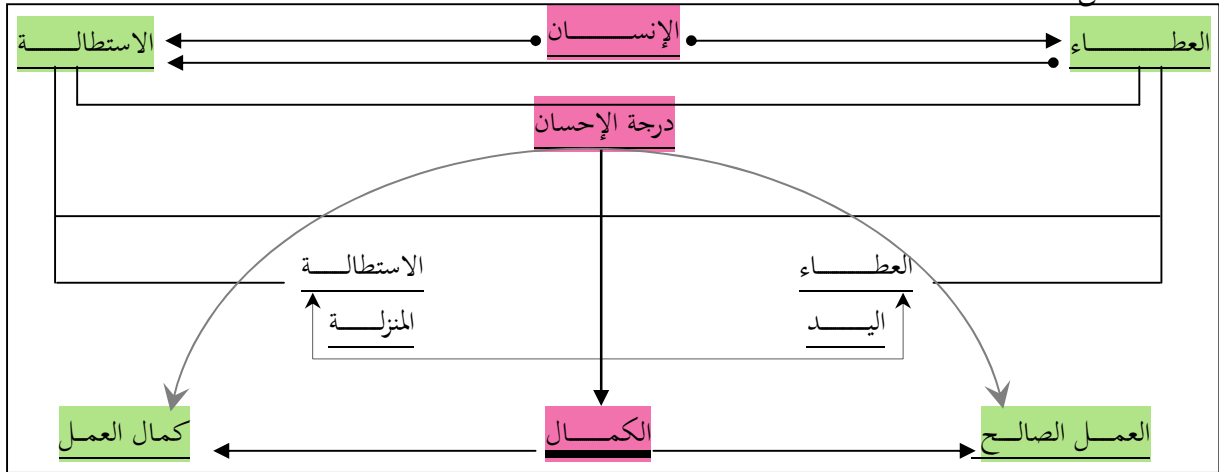
³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 461.

⁴ - رضا شاه كاظمي : العدل والذكر، ص 102.

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 463.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

موضوعية تتأسس على فكرة الخيرية والصلاح، مما يؤدي حتما إلى علو المرتبة التي تتحقق بمزية العطاء، المحصل لتلك الاستطالة التي هي "الاستعلاء بالفضل"¹، وهذه سيادة وعلو، "فمن جاد استطال بجوده"²، والعطاء هو صورة الإحسان بخدمة الآخر، أي بعنصر الخيرية الذي هو مزية النفوس الكريمة، وإن هذه العناصر الإنمائية من العطاء والخيرية هي الوجه الدال على الإحسان في الإنسان، أي هو بالتأول أيقونة الإحسان، وظل الجمال، وطريق الكمال، هذه الرفعة التي بناها العطاء هي ما عبر عنه الحديث النبوي: "اليد العليا خير من اليد السفلى"³، وخيرية هذه اليد العليا، هي خيرية العطاء والفضل، وهي اليد التي تصنع هذا الفضل، هي يد ممتدة إلى الآخر بالمساعدة والدعم، فهي يد اجتماعية، أي يد الإحسان، ويد النفس الجميلة بالخيرية، نوضح حقيقة هذا الأمر بهذا الشكل:



- مخطط كاشف لكمال الإحسان وجماله -

إن الكمال هنا مبني على فكرة العطاء، أي على فكرة الفضل، وهذا عنوان السيادة الاجتماعية [= اليد الاجتماعية]، مثلما يسقط البخل المنزلة، والحضور الاجتماعي الذي يعني حضور الخيرية فيه [= داخل المجتمع]، وإن هذا السقوط بالبخل سوف يمتد لينزل الإنسان البخيل من الكمال، وقبله تعريه من لباس الجمال، فسقوط الخيرية في الإنسان، تعني سقوطه من الكمال، وسقوطه من الجمال، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذُلُّكَ خَيْرٌ ذَلِكِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾⁴، فهذا التدرج في اللباس: لباس يوارى السوء،

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 463.

² - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 10، ج 19، ص 16.

³ - ابن أنس مالك: الموطأ، تح محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية، أبو ظبي، ج 05، 2004، ط 1، ص 1453.

⁴ - سورة الأعراف، الآية 25.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

ولباس هو ريش [= جمال]، ولباس التقوى الذي هو الخيرية، علامة الإحسان، وتمثل هذه الثلاثية في الغطاء [= اللباس]، علامة العطاء، فمن وصل بتدرجه إلى مرتبة لباس التقوى، لباس الكمال، فقد انفتح على عالم الفضل والعطاء والجمال، ومن ثم الكمال، كمال الظاهر وكمال الباطن. إن البخل الذي هو علامة السقوط [= الخروج]، قد عبر عنه الإمام في حكمة له قائلا: "البخل جامع لمساوي العيوب، وهو زمام يقاد به إلى كل سوء"¹، جامع لمعنى السقوط، وزمام قيادة نحو السوء، بحيث يمثل خروجنا بينا من دائرة الإحسان وكمال العمل الصالح، ومن ثم من كمال الإنسان، هذا الخطر الجامح هو ما جعل الرافي يقول: "إن البخل وحده لفي حاجة إلى نبي يصلحه!"²، نبوة تعيد ترتيب نظام النفس وسننها، فالإنسان ينال الاستطالة [= المكانة]، بالعطاء، أي بالإحسان، وعليه يصبح العطاء/الفضل/الإحسان مكافئ الاستطالة وواضع لبنة الكمال.

إن هذا الانتساب الجمالي بالإحسان [= بالخيرية]، هو ما يتعين فيه مجافاة العوارض المفسدة للنفس، من معاصي وأمراض نفسية [= بخل - شح...]، وبذلك يصبح الإنسان حقيقة كمالية في نفسه، بعيدا عن خط المعصية الموجبة للعقاب، بعد أن برز الإعذار إليه³، ولتتحرك الذات نحو صناعة الإحسان، قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾⁴. إن إحسان الله للإنسان يستلزم إحسان العبد إلى غيره، "فالإحسان الذي أمر به إنفاق النعمة في وجوه الطاعة والخدمة، ومقابلته بالشكران لا بالكفران"⁵، وبأدواته الجمالية بامتياز، يرتفع بها الإنسان ويكمل.

ج/ وظائف الإحسان: يتعلق الإحسان بالعالم الذي يحيط بالإنسان، أي أنه شكل دال على تفاعل الذات الإنسانية مع غيرها من باقي الموجودات، يمكن أن نرى هذا الوجه بصورته الوظيفية، وتعلقاته الكونية في حديث يوضح فيه النبي ﷺ هذه الفكرة، قائلا: "ما من مسلم يغرّس غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو بهيمة أو طير إلا كان له به صدقة"⁶، حيث تظهر وظيفة الإحسان الكونية جليلة في وجوب رعاية المخلوقات عامة، وهذه اللفتة النبوية تضع العمل فكرة كونية وأداة

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 492.

² - ينظر مصطفى صادق الرافعي : كتاب المساكين، دار ابن الجوزي، القاهرة، 2010، ط1، ص 29.

³ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 477.

⁴ - سورة القصص، الآية 77.

⁵ - الإمام القشيري : لطائف الإشارات، مج3، ص 81.

⁶ - أحمد بن حنبل : مسند أحمد، ج21، ص 88.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

بنائية ترى الكون وما فيه رأي الإحسان، رأي عين صانع [= مصورة بالعمل]، ورأي جمال، ومن ثم يصبح المحسن علامة قائمة بالتميز، وقائمة بالعمل والأداء، وقائمة بالوظائف الفردية والاجتماعية والكونية، حيث نرى روحا تعطف وترحم وتلطف شعورا منها بنبل الهدف، وأمانة الأداء، ووعيا بدورها ومسؤوليتها في ذلك. إن إدراك وظائف الإحسان، يمثل ذلك السعي الذي يعبر عن ترق دال وعن صورة إنسانية تحب الخير والجمال والحق، وتمثله وتبثه في هذا الوسط الحيوي من مسرح الحياة والكون، وجعله فضاء تستنشق منه الخيرية، وتتسم وروده الحرة الجميلة، يقول الإمام دافعا إلى هذا النبل وكرم هذه الفضيلة: "عاتب أخاك بالإحسان إليه، وأردد شره بالإنعام عليه"¹، فالوظيفة التي يؤكد عليها الإمام هنا هي وظيفة خيرية بالإحسان، ووظيفة تعضيد تجمع على الإخاء وتعزز عناصر اللحمة الإنسانية والاجتماعية، بناء للتوادد بلطف المعاينة ودفع الشر بالإقدام الذي يبني فكرة الأمة، ويقوي المنعة فيها، مما يجعل من هذه الحماية إمكانية محفزة على بناء العالم الإنساني للفرد، حيث التحرك نحو الكمال والرفعة، والعمل الصالح، "فالإحسان إذا كان بالمال فهذا يقتضي أن يحسن الإنسان الحركة في الأرض، ويعمل عملا يكفيه ويكفي من يعول، ثم يفيض لديه ما يحسن به"²، وهذه الإضافة هي إضافة قيمة تجعل العمل يزكو ويرفع من مقام الإنسان، حيث يسهم في بيان الوجه الحقيقي للوجود الإنساني، "فوجوه الإحسان في الأشياء كثيرة وكلها تخدم قضية الإيمان، وعندما يرى الكافر المؤمنين، وكل واحد منهم يحسن عمله، فإن ذلك يغريه بالإيمان"³، وهذه هي الوظائف العليا التي تحول الناس من الحالة السلبية، إلى فعالية الخير والجمال والكمال.

ثم إن الإحسان تتحدد به قيم الخير وتستمر آثارها في الزمان والمكان والإنسان، يقول الإمام: "أحسنوا في عقب غيركم تحفظوا في عقبكم"⁴، فالإحسان وظائفه فاعلة واعتبارية ذات قيمة توالدية، من خلال فعله الذي يبقى ذخيرة حافظة لامتداد الإنسان بالوراثة، ولذا فإن "أكثر ما يقع في هذه الدنيا يقع على سبيل القرض والمكافأة"⁵، حيث يبقى الصنيع الجميل في حياة الإنسان الكفة الأولى في ميزان ومتراحة عملية تلحق كفته الثانية في عقب الإنسان وذريته، مثل هذا الصلاح سجلته قصة موسى مع الخضر عليهم السلام في حادثة الجدار، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 447.

² - محمد متولي الشعراوي : موسوعة الأحاديث القدسية، ج 02، ص 211.

³ - المرجع نفسه، ج 02، ص 211.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 473.

⁵ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 10، ج 19، ص 69.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا¹ ، فصلاح الأب، والصلاح إحسان هو من حفظ هذا الكنز، ليبقى للغلامين قوة وسند حياة لهم، فهذا التحريك الذي تعلنه الآية بين الأب [= الصالح] وإحسانه لغيره من الناس، أدى إلى تدخل العناية الإلهية لحفظه، وحفظ الأبناء في قادم الزمن، رحمة وإرادة إلهية لا: "عن أمري". إذن فهذا التحريك قد انبنى على قاعدة العمل الصالح وثابت الإحسان الإنساني، فاستلزم الحفظ الإلهي، وخلاصة هذا أنه يجب على الإنسان أن يبتعد عن الظلم والفساد، وأن ينصب جهده في فعل الخيرات والاستثمار الحسن في الأبناء في مستقبلهم، وقاعدته بيان الإمام: "كونوا رحماء بأبناء غيركم يرحم غيركم أبنائكم"²، وبهذه القاعدة ستصبح الحياة الإنسانية صورة للصلاح، بعامل الإحسان كسرا للفساد.

4- علاقة العبادة بالعمل الصالح: تحتل العبادة مركزا محوريا في حياة الإنسان، ومقصدا وجوديا توجهها وحركة، حيث تمنحه تميزا نادرا، من حيوية وضبط وقدرة وإمكان واستقامة، ورفعة وكمال، ويأتي العمل ملحقا مباشرة بالعبادة، ومرتبطا ارتباط الرأس بالجسد، فلا عبادة من دون عمل، ولا عمل صائب صالح من دون عبادة، بل يتأسس هذا على ذلك، وهذا الارتباط الوظيفي يمنح العمل مقوماته وخصائصه، من الإخلاص، والصواب، والصلاح، والصبر الجميل*، والفعالية، والكمالية، فالعبادة هي ما يرفع العمل.

إن هذه الخصائص الإيجابية هي صنيعة هذا التفاعل والالتقاء، لأنهما يحتاجان إلى هذا الاقتران الطبيعي الذي يتحول إلى اقتران وظيفي تبرزه المخرجات النهائية لهذا التلاقي، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ³﴾، فالآية أوضحت المنطلق والنتيجة تأسيسا على صواب منهجي وفكرة صالحة وعمل مستقيم، ومن ثم نتائجها الخيرة، فلا يمكن لخط عبادة أن يتوارى وراء الفساد، يقول الإمام: "إن الذي أمرتم به أوسع من الذي نهيتم عنه، وأحل لكم أكثر مما حرم عليكم، فذروا ما قل لما أكثر، وما ضاق لما اتسع، قد تكفل لكم بالرزق، وأمرتم

¹ - سورة الكهف، الآية 82.

² - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 473.

* - إن ما تشير إليه الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلًا﴾، من دعوة إلى الصبر الجميل والعمل الحسن، يمثل دلالة على هذا التصور الجمالي للعمل الذي يأخذ من العبادة هذه القيم التي ترفعه إلى هذه المقامات، وكذلك الصبر، فإنه يمنح مثل هذه الروح العالية للعبادة.

³ - سورة الزلزلة، الآية 7-8.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

بالعمل، فلا يكونون المضمون لكم طلبه أولى¹، فالأمر والنهي والحلال والحرام هي الخطوط التي ترسم منهج العبادة من خلال قاعدة الاستقامة والرشد، فالأمر أوسع والحلال أكبر، بينما النهي أضيق والحرام أقل، هذه القاعدة يوضحها قول الإمام: "ذروا ما قل لما أكثر، وما ضاق لما اتسع"²، ومعناه أن العمل يتم في مجال فسيح، بحيث يحرر الإرادة من حسر النفس في الفساد وارتكاب الأخطاء، إلى فعل الخيرات، ولهذا "فإنه ليس كل شيء من اللذة ناله أهل الخسارة بخسارتهم إلا ناله أهل المروءة والصيانة بمروءتهم وديانتهم"³، ومن ثم فإن النواهي ما هي إلا ضوابط تحمي الخيار التعبدي من الانهيار والسقوط في الفساد، والإنسان من التآكل والتهيه والضياع، والإنسانية من حتمية الهلاك، ويدخل الإمام فكرة العمل مع قضية العبادة، حيث يكون العمل آخذاً نفس الصبغة الأمرية، "وأمرتم بالعمل"، في تأكيد بين على العمل الصالح يقدمه الإنسان لآخرته، مع تجنب التهالك على الدنيا، لأن الرزق مكفول، حتى يتوجه سعي الإنسان واجتهاده إلى تنفيذ الأمر الإلهي ملخصاً في العبادة⁴، ومما لاشك فيه أن هذا التنفيذ يحتاج إلى مسارعة، حرص يؤكد الإمام بقوله: "فبادروا العمل وخافوا بغتة الأجل"⁵، وهذه الدعوة التي جمعت بين العمل والأجل، إنما تحدد ضرورة منهجية تحقيق العبادة بالعمل، بآلية نهائية تمثلت في المبادرة والخوف، "فالعمر هو الظرف الذي يوقع المكلف فيه الأعمال الموجبة له السعادة العظمى، المخلصة له من الشقاوة العظمى"⁶، وكأن العبادة فكرة والعمل وسيلة، وهما أرضية بناء في هذا العمر بالوعي، ولذا يمكن عد العمل "همزة الوصل بين العالم الروحي والعالم الحيوي، أو حلقة اتصال بين النفس كقوة عاقلة، والبدن كأداة"⁷، فيه تتحقق هذه النقلة والوصلة، معلنة عن مرتبة العمل الصالح وكماله.

إن هذه العلاقة الحيوية الموجبة لحصول مرتبة العمل، ينبغي أن تأخذ طريق الحذر سبيلاً، والمراقبة المستمرة منهجاً، يقول الإمام موضحاً هذا: "فليقبل امرؤ كرامة بقبولها، وليحذر قارعة قبل حلولها، ولينظر امرؤ في قصير أيامه، وقليل مقامه في منزل، حتى يستبدل منه منزلاً، فليصنع لمتحوله،

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 168.

² - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة مج 4، ج 7، ص 153، 154.

³ - المصدر نفسه، ص 153، 154.

⁴ - المصدر نفسه، ص 154.

⁵ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 168.

⁶ - ابن أبي الحديد: المصدر السابق، ص 154.

⁷ - انس شكشك: فلسفة الحياة، ص 130.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

ومتعارف متنقله¹، وتتوضع فكرة الحذر البانية لهذه الإرادة على أسس منهجية، من قبول النصيحة، والنظر في قصر الأيام، وسبيله العلم والعمل. إن هذه القواعد إذا اجتمعت في ذات حية واعية تكسب صاحبها رؤية وبصيرة، تبني تصورا سليما للحياة، وتصل الدنيا بالآخرة بواسطة العمل، "ينتهي باستبدال المنزل بمنزل آخر"²، ووعي هذا هو الإمكانية الوحيدة لحصول النجاة والسعادة، أي الظفر بالبعد الأخروي، وهو ظفر عملي يجعل العبادة هي المسعى المتجدد، والعمل طريقها المعبد لها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾³، فهذه الآية جمعت مقومات هذا النجاح فحصرته في الإيمان والعمل الصالح والعبادة، حصر يقود مباشرة إلى تحقيق الأمن والسعادة والظفر، ويحتاج الإنسان المؤمن في تلك المراقبة والحذر إلى تعلم وتفهم، لكي يجانب مهالك الطريق، يقول الإمام في وصيته لابنه: "فليكن طلبك ذلك بتفهم وتعلم، لا بتورط الشبهات وعلو الخصومات"⁴، ومعنى هذا أن حركة الإنسان في الحياة، حركة محسوبة على عقارب زمن العمر بالامثال والعمل، تنتفي معها الصدفة والحركة الاندفاعية التي تورط في الشبهات والخصومات، ومبنى ذلك أن المطالب قائمة على الوعي والمسؤولية، أو هي عبارة عن فقه للحياة يحتاجه إنسان هذه الحياة.

يحتاج الإنسان الذي يضع هذه المقاصد أهدافا عليا في الحياة إلى نوع من الوعي، فالجنة التي تتشوق إليها النفس المطمئنة، هي غاية الأذكىاء العقلاء الذين يختارون طريق الرفعة، يقول الإمام: "شغل من الجنة والنار أمامه، ساع سريع نجما، وطالب بطيء رجاء، ومقصر في الهوى هوى، اليمين والشمال مضلة، والطريق الوسطى هي الجادة"⁵، فالعقلاء قد أدركوا الحقيقة ووعوا بفقده عال ما ينتظرهم في آخرتهم، فكان عملهم بمعيار إدراكهم ووعيهم، لذا وضعوا الجنة والنار أماما والعمل قبلا، والعبادة مسلكا، وبفراصة حكيمة تأول الإمام حقيقة الناس، فرآهم أصنافا ثلاثة:

الصورة	الطريق	المرتب	الوصف	المقوم	الصفة	الصنف
مطابقة [= هيئة كمالية]	الجادة	النجاة	السعي	العمل + العبادة	السعي	السريع
تناقض [= هيئة ناقصة]	المتعثرة	الرجاء	التهاون	- العمل / - العبادة	البطيء	الطالب
تضييع [= هيئة تسافل]	الضالة	الخسران	الهاوي	غير عامل + غير عابد	التقصير	المقصر

¹ - علي بن أبي طالب : فحج البلاغة، ص 308.

² - محمد عبده : شرح فحج البلاغة، ص 308.

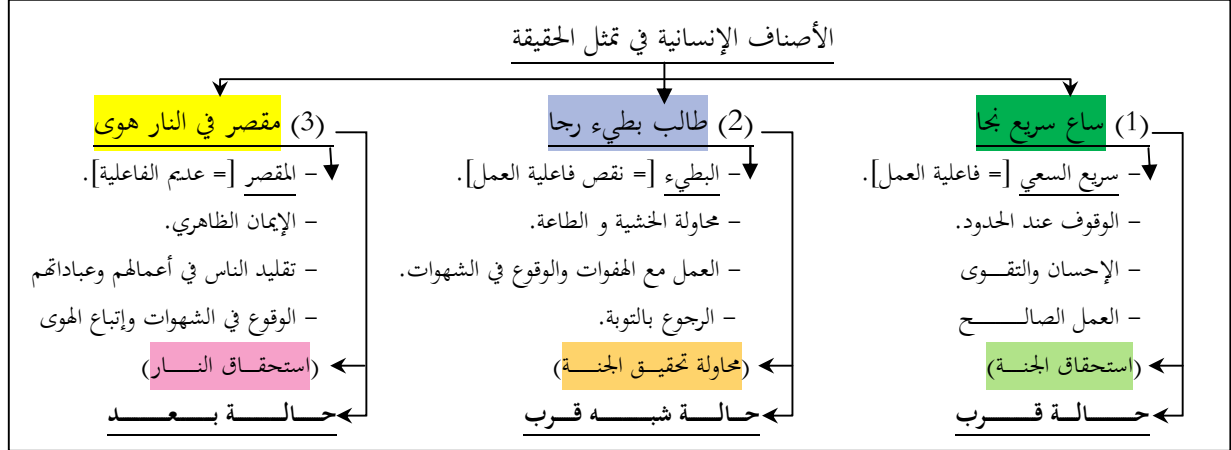
³ - سورة البقرة ، الآية 277.

⁴ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 308.

⁵ - المصدر نفسه، ص 42، 43.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

وبهذا، "فمن كانت أمامه الجنة والنار على ما وصف الله سبحانه فحري به أن تنفذ أوقاته جميعها في الإعداد للجنة، والابتعاد عما عساه يؤدي إلى النار"¹، وهذا هو التصور الدقيق، مؤسس على إدراك ووعي وبصيرة انبثق عنه مزاجية العبادة بالعمل، مرتبط بتصور الآخرة قريبة، يراها رأي العين، فالعامل فيها فاعل بالإعداد والابتعاد، إذن فالناس ثلاثة أصناف إزاء الحقيقة :



- مخطط يمثل أصناف الناس في العمل والعبادة-

وتتطلب الاستقامة على الطريق، تجنب سبيل اليمين والشمال الذي هو "مثال لما زاغ عن جادة الشريعة"²، إلى سلوك طريق الجادة، وهو بهذا "مثال للشريعة القويمة"³، وحدد "جودت سعيد" للعمل أربع حالات:

- 1- عمل خالص صائب، وهو الناجح المقبول.
- 2- عمل خالص غير صائب، وهو عمل فاشل.
- 3- عمل غير خالص، ولكنه صائب، وهو عمل فاشل أيضاً.
- 4- عمل غير خالص، وغير صائب، وهو عمل مغرق في الفشل"⁴.

ولذا فإن تفاعل قوى الذات في تحقيق هذا الإنجاز الإنساني، ضروري لجعل الجنة منالاً قريباً وبغية محددة، يقول الإمام: "وإن الله سبحانه يدخل بصدق النية والسريرة الصالحة من يشاء من عبادة الجنة"⁵، من أفعال الجوارح والقلوب، وصدق السريرة الصالحة، أي صفاء العالم الداخلي للإنسان الذي يتطلب طهارة وتزكية، وكثيراً ما يدفع القرآن الكريم الإنسان إلى الأخذ بفكرة العمل،

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 42.

² - المصدر نفسه، ص 43.

³ - المصدر نفسه: ص 43.

⁴ - جودت سعيد: كن كابن آدم، ص 297.

⁵ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 437.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

لأنها الوسيلة المثبتة لحقيقة الامتثال للمنهج الإلهي، "فالعمل في القرآن هو اختبار الفكرة وصهرها، وجلاؤها وبلوغها مدى لم تستطعه من قبل، العمل هو كرم الفكرة الحق"¹، وهذه طبيعة تمييزية تظهر فعاليتها المنتجة، بمزودات حقيقية تقود إلى الفوز، وصالح العمل والخيرات تقود إلى الجنات.

إن صواب الحركة الإنسانية، منوط بصلاح الفكرة، وصلاح الفكرة، تؤدي إلى صلاح العمل، فالعمل بمقولة "مصطفى ناصف": "هو كرم الفكرة الحق"، فكيف لنا أن نعرف حقيقة الفكرة دون العمل؟! إذن فهو كرمها الدال على صدقها، ومثل هذا التجاوب الذكي والجميل، هو ما جعل الإمام ينبه إلى ترسيخ فكرة المتلازمة الوظيفية بين العمل والعبادة، فقال: "إذا وصلت إليكم أطراف النعم، فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر"²، فتفاعل الإنسان مع أوائل النعم التي هي فضائل ورحمات إلهية تأتي على الإنسان بالشكر، وعدم تنفيرها هو فعل للخيرات وعمل الصالحات، والإنسان هو الذي يضع الباقية المتألفة بين مكونات هذا المشهد الذي يجمع العبادة بالعمل الصالح بالإنسان، وبالآفاق الأخروية أي الجنة ومختلف المقاصد، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾³، ليعمل الإنسان وفق ما تمليه قواعد الحق، بحيث يضعه في مغايرة منهجية مع كل عمل يفتقد لهذه القواعد، وقيمه العليا كرمزية، فمن ثمراته أنه يجنب الإنسان حياة الشقاء والتعب، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾⁴. إن هذا التفكيك [= نثر أعمالهم]، ناتجه الخروج عن قواعد المنهج وضوابطه في إصلاح التصور وإصلاح العمل.

إن مراتب الكمال الإنساني هي عملية بناء حية ومنهجية في ذات الكائن، تحفر في داخل الذات، وفي أركان الوعي التي تبني البنيان الإنساني، ولا يستقيم هذا إلا بتخطيط علمي وعملي لصناعة هذا الإنسان بفقته ووعيه وبصيرة، إلى غاية تحقيق كماله، مع حسن إدارة لعالمه وإدراك هذه الأحوال الرمزية، حتى ينال تكريمه النهائي:

- 1- التكريم الأول [= الإلهي] للإنسان، والتكريم الثاني [= الإنساني] لنفسه.
- 2- الاجتهاد في تفعيل التكريمين، والمزج الذكي بينهما، بالعمل الصالح والإحسان والخيرات.
- 3- تخطيط هدف حيازة التكريم الثالث، وهو نيل الجنة.

¹ - مصطفى ناصف: مسؤولية التأويل، ص 272.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 432.

³ - سورة آل عمران، الآية 57.

⁴ - سورة الفرقان، الآية 23.

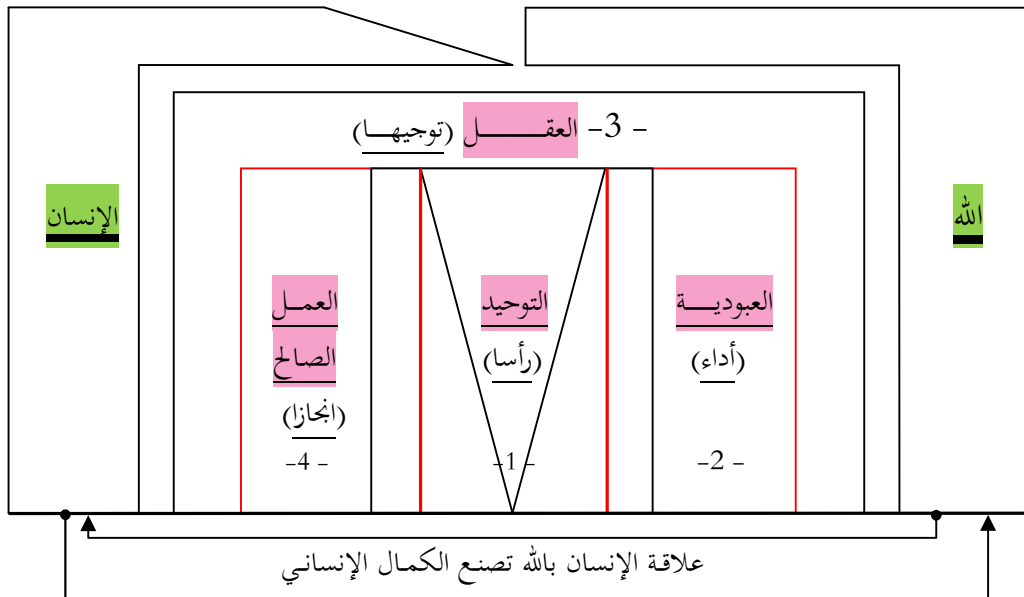
الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

إن هذا الإمكان متاح أمام الإنسان، تكشف عنه هذه الآية من قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا¹﴾، وأما مرفقات هذا الإدراك، فهي معرفة الله، ومعرفة النفس، والاستقامة على طريق الحق، ومجانبة سبل الانحراف: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا²﴾، والنظر المتوازن للحياة الدنيا، وأن تكون الجنة صورة عينية ومخيالية ملازمة لفكر الإنسان وعمله. إن تحقيق هذه الغايات الجديدة، يرتبط مباشرة بكمال الإنسان، بتحصيل مراتبه الأربعة، وهي مراتب كمالية مكافئة لنيل الآخرة، وأهمها الارتباط بالله في كل اللحظات والأنفاس، حتى يكون ذكر الله مكافئه ذكر الله للعبد:

- 1- التوحيد . البقاء/ في خط | مرتبة ← كمال.
- 2- العبودية . البقاء/ الثبات | مرتبة ← كمال.
- 3- العقل . البقاء/ الألق | مرتبة ← كمال.
- 4- العمل الصالح . البقاء/ الاستمرار | مرتبة ← كمال.

-درجات مراتب الكمال الإنساني-

ونجسد تفاعلات كمال هذه المراتب، في علاقة الإنسان بالله ﷻ بهذا المخطط الجامع:



- مراتب الكمال والعلاقة بين الإنسان والله -

إن متطلبات الكمال ترتبط مباشرة بتلك العلاقة النوعية بين الإنسان والله حيث يأخذ الإنسان كماله من الله، وإن الحيوية التي يتمتع بها الإنسان من خلال تنوع طاقاته وقواه، ثم وجود

¹ - سورة الشمس، الآية 9.

² - سورة الشمس، الآية 10.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني

قوة من العوارض تمنع تحقيق إنسانيته، جعلت الإمام يلتفت إلى أهمية وجود رأس قائد موجه لقوى الذات، فجعل للجسد رأساً وعقلاً، فيقول: "لا خير في جسد لا رأس معه"¹، وجعل للعقل [= عقل الإيمان] رأساً كذلك، فيقول: "شهد على ذلك العقل إذا خرج من الهوى وسلم من علائق الدنيا"²، وجعل للروح عقلاً ورأساً يتمثل في عقل الحكمة والبصيرة، فيقول: "قلوبهم في الجنان وأجسادهم في العمل"³، وقوله: "وتقلب أبدانهم بين ظهري أهل الآخرة"⁴، والمقصد من ذلك قيادة الإنسان لذاته وقواه الحية، بتسوية وتزكية نامية لنفسه، تفتح أمامه أبواب الكمال.

إن هذه التدرجات النوعية لطاقة العقل وما يتمتع به الإنسان من قوى، يدل على حيوية فيه، ومعنى آخر أنه يمتلك مقومات كماله وعناصر تمام إنسانيته، وهي أساس متين لتحصيل مراتب الكمال، بحيث تنتهي به إلى إدارة ذكية واعية حكيمة لطاقة الجسد وسلطة العقل والفكر والنفس، و طاقة الروح المتوثبة، حتى تضبط بميزان الحق، وتوجه بحكمة وبصيرة نحو الغاية المثلى، والهدف الأسمى [= الله-الآخرة]، أي رسم صورة الجنة مخيلاً بالعمل، وهذا هو طريق الحلول في هذا العالم بمغالبة دواعي الشقاء والانحراف وبالمقابل تحقيق الكمال، بتحصيل مراتبه الأربعة.

تعتبر مراتب الكمال أحجار بناء الحقيقة الإنسانية والإيمانية، لإنسان مؤهل للقيادة والاستخلاف والعمارة والتعارف، حيث يكون عنوان الإنسان الكامل هو عبادة الله وعمل الصالحات وفعل الخيرات، وإن كل هذا النشاط يتم في إطار صبغة جمالية تطبع فعله.

تشكل مراتب الكمال حركة وإتجاه النفس مطمئنة، وهي بمثابة سير إنساني من رفيع إلى أرفع، وثمره هذا الأفق هو الوصول إلى فضاء الآخرة، حيث تعمل المخيلة الجنانية على ارتياد وبلوغ درجة الكمال الحق، الحلول في الجنة، وهو التمثل الذي نوضحه بهذا المخطط:

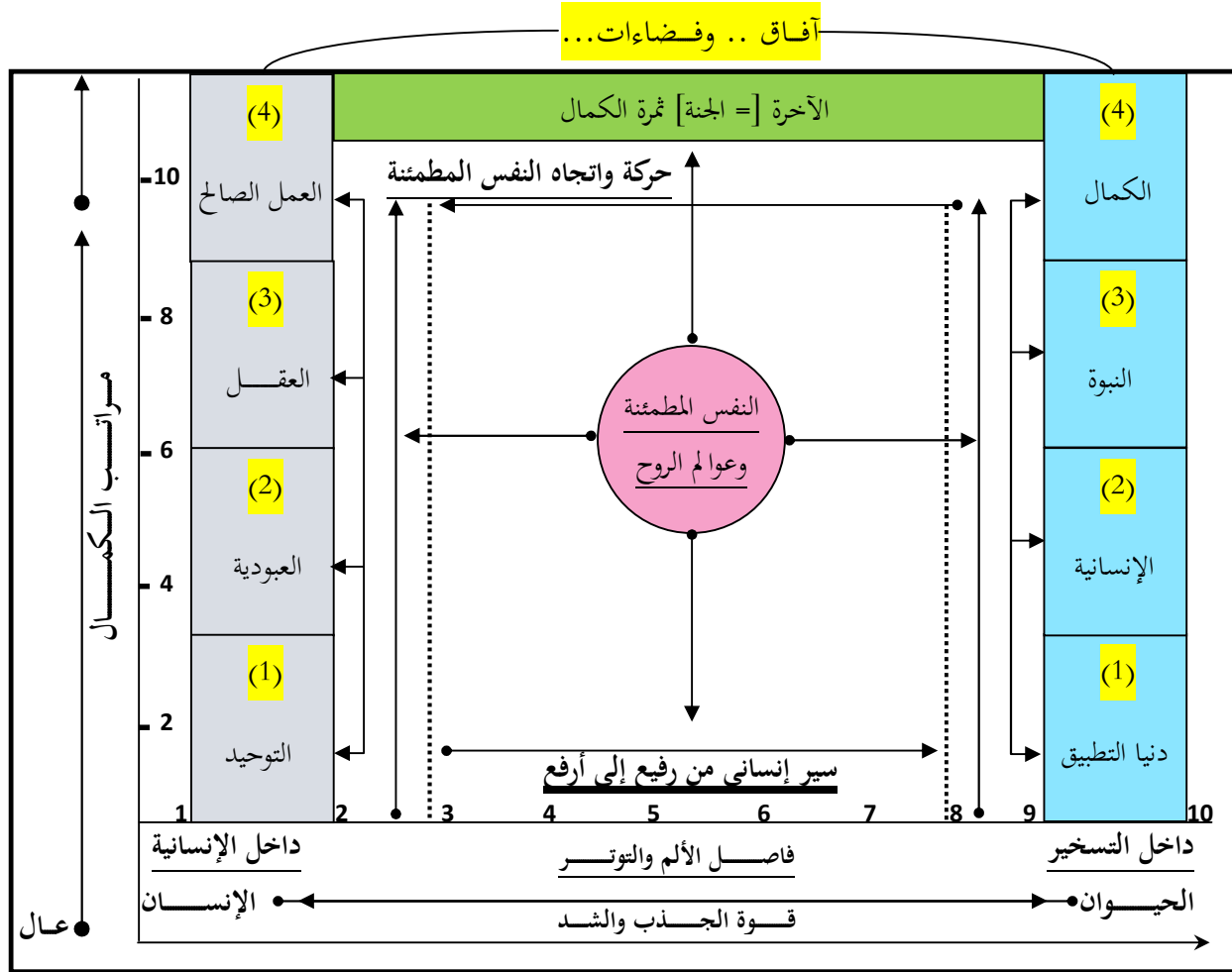
¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 441.

² - المصدر نفسه، ص 337.

³ - المصدر نفسه، ص 283.

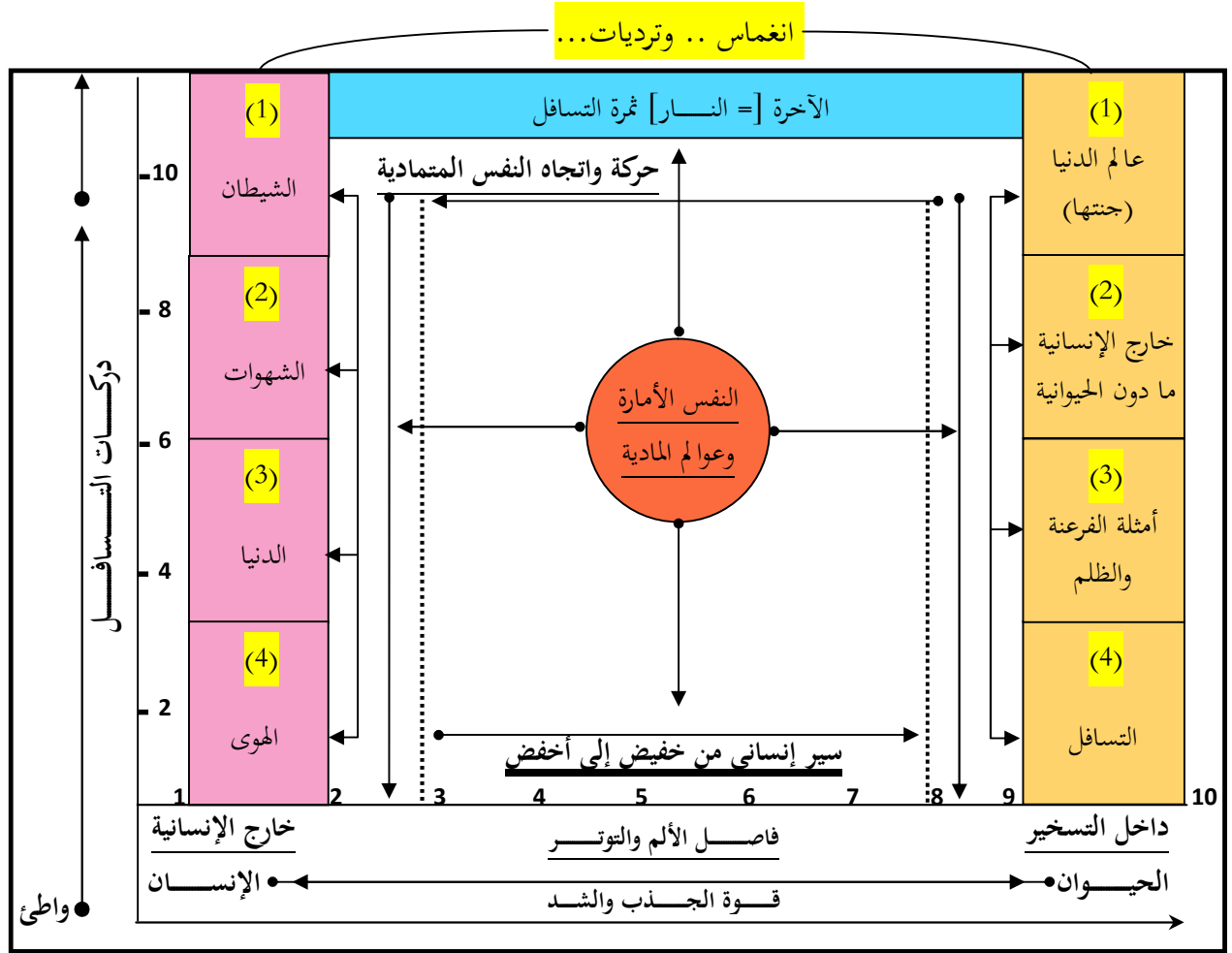
⁴ - المصدر نفسه، ص 327.

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني



وتشكل الذنوب بالمقابل حالة ارتكاس حقيقية دالة على حركة وإتجاه النفس الأمانة المتمادية في الباطل والغي، وهي بمثابة سير إنساني من خفيض إلى أخفض، كما أن الذنوب والمعاصي، هي جرح للروح تعتم صفحة النفس التي تشرق منها جمالية الإنسان، وتعتبر الذنوب والمعاصي ممهّدات وعوامل وفواعل قتل طاقة الكمال في الإنسان، فحزم الشهوات والهوى والشيطان وزينة الحياة الدنيا، هي عناصر تجليات النزعة المادية، وما انغماسه وتردياته في أحوالها إلا دليلاً على نقصانه، أي أن عالم المادية، هو العمل في المحدود الدنيوي، المعادل الوظيفي لبلوغ درجة السفلى، حيث النار مستقراً، لأن إنسانها كان خارج المتطلب، بمعنى نزوله إلى ما دون مرتبة الحيوان، وهو ما كان مع إنسان الشقاء والسفلى، والمخطط الآتي يوضح هذا التمثل:

الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنساني



إن حالة السفلى والانحدار إلى مراتب الشقاء كما أبرزناها في الفصل الثاني، هي مرتبة لا تليق بالإنسان، لما فضل وكرم به، ثم إن النعت بالإنسان يعود إليه تركية بعد التكرمة، ويدفع القرآن الكريم هذا الإنسان إلى تحقيق الكمال الإنساني لضرورته في تجاوز أحوال الانحراف والفساد والسفلى، من خلال سياقات كثيرة داعية إلى التدبر والتفكير والتأمل في الكون، والقراءة والنظر، والحث على بلوغ درجات العلم ومنازله، ودرجات العمل الصالح ومراتبه، وحالات الجمال والإحسان، وهو نفس الدفع رأينا الإمام يسوق ويدفع إليه.

الفصل الرابع :

تجليات الإنسان الكامل.

1- المبحث الأول:

الإنسان الكامل بين المعرفة والعمل.

2- المبحث الثاني:

الإنسان الكامل بين الخفاء والتجلي.

3- المبحث الثالث :

الإنسان الكامل بين الجوانية و البرانية.

4- المبحث الرابع :

تشاكل الظاهر و الباطن - صورة الكمال-

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

- توطئة: رأينا سابقا المراتب التي تؤهل الإنسان إلى بلوغ منازل الكمال، وهي مراتب صعبة المسلك، بحيث تحتاج إلى عمل ومجاهدة لتحصيلها وتأسيس فكرة الإنسانية في الذات، وهي حالة قائمة بين الوصل والفصل دخولا وخروجاً، والتقاء حيويًا، ومثلاً دالاً على تهيئ مبصر يتجانس فيه مع العالم، وبرهاناً دالاً على حضوره، بوصفه مخلوقاً ثابتاً في الطبيعة تحدده حقيقة الفطرة، وتكشف عنها صورة يقظته ووعيه، بعيداً عن الغفلة والخروج عن معالم الفطرة، فكيف يظهر لنا هذا الإنسان، وهو تحت النظر والرصد، يصنع حضوره النوعي في حياة كانت منحة إلهية بالكرامة، ومنحة إلهية بالحرية، ومنحة إلهية بالجمال، ومنحة إلهية بالإنسانية؟!.

إن هذه الذات بما أنها تجسد حمولة وعاء الجسد بما يثبت فيها من علم وفكر ومعرفة وجمال وإنسانية وخير وعطاء وعدل وسماحة وطيبة..، فإن هذه المعاني المختلفة فيها من صور صالحة أو فاسدة، تتجلى على صفحة النفس لتدل على حقيقة الإنسان وعلى كماله، أو على حركة تسافله. يتعلق هذا الحضور بمختلف تجليات الذات، حيث يكشف لنا عن جوهر كماله وجماله، نرصد من خلاله معنى إنسانيته من زوايا مختلفة، بحيث تظهر النفس جملة من الحقائق والأحوال والصور تتبدى منها لتخبر عن الجوهر الإنساني في عمق أعماق الذات، وإن من تبادياتها التي تدرك في وضع العلم والمعرفة عرفانها، من الإنسان العارف الفاعل المحرك، المنتفع بالموعظة، والإنسان العالم بتجليات يقينه، وكذا العامل المجاهد المصلح.

إن هذه الذات لها خفاؤها من حيث الفكرة، ولها تجليها من حيث الأداء تمثله صور الزاهد التقي والعابد بكمال توحيده، ملخصة بتجليات نوعية من سيما الكمال.

إن الإنسان الكامل هو إنسان تطابقت كليته فكرة وعملاً، في الجوانبية والبرانية، حتى لتصير يقيناً جوانبياً يترجم ثباتاً برانياً، وتعكس هذه الصور والتباديات حالة تشاكل نوعي بين الظاهر والباطن في امتثال الحق والحضور الفاعل، حقائق متجلية، دلالة على مثال الهيئة الصالحة التي تقود هذا الإنسان إلى حالات الكشف.

المبحث الأول : الإنسان الكامل بين المعرفة والعمل :

1- الثابت المعرفي وأحوال الإنسان : إذا كان الجهل عدو الإنسان، فإن المعرفة والعلم هي نوره المضيء، ولذا يتبدى لنا الإنسان من خلال هذا بمظهر عاكس لهذه الصورة، إما صورة الجهل أو صورة العلم، حيث يتجلى الجاهل بالخصائص المبرزة لهيئته التصورية [= حقيقته] في فكره وسلوكه ومواقفه، من تحبط في طريقه، واضطراب في الهدف، وضباب في الرؤية، وعمى في المسلك، وبعد عن الحق، صورة تعكس ظلم الإنسان لنفسه، والعصيان لربه، والاعتداء على الناس، وأخذ حقوقهم، فهذا تجل ذات بهيئة ذات طابع تدميري، ومنهج يتخذ من الفساد طريقة وأسلوب عمل، في مختلف علاقاته، حتى مع العالم والكون والمخلوقات، ومثل هذا التجلي هو صورة دالة على الانحراف والشقاء، والحالة الضدية لمنهج الصلاح في الكون، ويكشف الإمام عن هذا الخط وما فيه من آثار سلبية على الإنسان، حيث يقول: "الجهل أنكى عدو"¹، ويقول: "الجهل في الإنسان أضر من الأكل [الأكلة] في الأبدان"²، فهذه تجل تدميري دال على شقاء، وتجل نعته بالجهل، أما إنسان العلم والمعرفة فيكشف عن جوهر أصيل قد تظهر بأنوار العلم والفكر وترقى بأعماله الجليلة الصائبة، وكأنه حالة من الجمال الآخذ بالعقول والقلوب، يقول الإمام: "طبيب دوار بطبه قد أحكم مراهمه وأحمى مواسمه يضع في ذلك الحاجة إليه من قلوب عمي وأذان صم، وألسنة بكم، متبع بدوائه مواضع الغفلة، ومواطن الحيرة، ولم يستضيئوا بأضواء الحكمة، ولم يقتدحوا بزناد العلوم الثاقبة، فهم في ذلك كالأنعام السائمة والصخور القاسية"³. إن الكامل الذي تحقق بالمعرفة والعمل، استطاع أن يتعدى بهما إلى إصلاح وعلاج الأرواح والنفوس المريضة، وهذا تجل دال على وعي وبصيرة بالأدوار الحية لإنسان أكتمل فيه الحق، فأضاء الآخرين بما أشرق من ذاته على من يفتقدون إلى الصواب والحكمة.

وإن هذه الحالة الفارقة بين المكتمل بالمعرفة والعمل، وباقي الناس الذين هم كالأنعام، هو ما يعطيه دورا رائدا في قيادة الناس إلى الحق، لأولئك الذين "لم ينجح فيهم الدواء ممن صار الفساد من مقومات أمزجتهم"⁴، وتعديل هذا المزاج الفاسد في الناس لا يقدر عليه، إلا من امتلك العلم

¹ - الأمدي القاضي : غرر الحكم ودرر الكلم، المفهرس من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، تح عبد الحسن زهني، دار الهدى، بيروت، 1992، ط1، ص 25.

² - المصدر نفسه، ص 26.

³ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 155.

⁴ - محمد عبده: شرح نصح البلاغة، ص 155.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

والمعرفة، وكان بالعمل مثالا، وبهذه الأهلية صار عاملا بالحق، يقول الإمام: "إن أفضل الناس عند الله من كان العمل بالحق أحب إليه، وإن نقصه وكرثه، من باطل وإن جر إليه فائدة وزائدة"¹، والعمل بالحق تجل دال على حالة المعرفة المتأصلة فيه، امتثال غاير هوى النفس ورغبتها، حيث يصبح اشتداد الحق على الإنسان والحزن الذي يصيبه مسرة لديه، بعكس من أخذ مسرته بالباطل، فقد تحقق له ثمرته العاجلة، إلا أن الغم سيأتي عليه ويدوم²، فالمطابقة بين الإنسان والحق إنما تعني فوزا في الاختبار وانتصارا على معيقات مفسدة، "فليس ثم شك إذن في أن كلمة الإيمان هي هزة حياة النفس"³، وهي فكرة المعرفة التي حركته وحقت هذا الاهتزاز الذي هو الدفع الآلي للعمل.

إن أي طريق يعكس امتثال الإنسان لوجه الحق، يمر عبر اختبار مدى تمكن الفكرة من النفس ورسوخها، تعكسها التجليات الرفيعة، يقول الإمام: "إنما تسيرون في أثر بين، وتكلمون برجع قول قد قاله الرجال من قبلكم، قد كفاكم مؤنة دنياكم، وحثكم على الشكر وافترض من ألسنتكم الذكر، وأوصاكم بالتقوى، وجعلها منتهى رضاه، وحاجته من خلقه"⁴. يبرز لنا الإمام قيمة المعرفة ورمزيتها التي تبني البنيان الكامل للإنسان وتمنحه البصيرة ورسوخ الإيمان مع نواتجها العملية، ومعنى هذا أن السير ينبغي أن يتكئ على أدلة واضحة المعالم، فكلمة التوحيد لا بد أن تستند إلى علم ومعرفة، وهي تدرك بالنظر والدليل العلمي، وما نفي التقليد، إلا بيانا على أن الأمر يتأسس على المعرفة والعلم الصحيح⁵، وبهذا يتحقق صواب العمل، ومنه يتجسد نفعه، وفي حديث الإمام عن كمال النبوة والاصطفاء الإلهي للنبي ﷺ يربط فيه بين كمال المعرفة، وكمال العمل وآثار ذلك، كحالة تجل تبرزها أدوار النبي في التغيير، فيقول: "أرسله بالضياء، وقدمه في الاصطفاء فرتق به المفاتيح وساور به المغالب وذل به الصعوبة، وسهل به الحزونة، حتى سرح الضلال عن يمين وشمال"⁶. إن الاصطفاء دال على كمال النبي ونبوته، ومن ثم فما جاء به النبي ﷺ وأرسل به، هو الضياء والحق والمعرفة الصحيحة، حيث يظهر بمظهر كمال المعرفة، ويؤهله هذا الأداء وظيفته، فقد "سهل (الله) به خشونة الأخلاق الرديئة، والعقائد الفاسدة بتهذيب الطباع، وتنوير العقول حتى

¹ - علي بن أبي طالب: نصح البلاغة، ص 179.

² - ينظر محمد عبده: المصدر السابق، ص 179.

³ - مصطفى ناصف: مسؤولية التأويل، ص 216.

⁴ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 252.

⁵ - ينظر ابن أبي الحديد: شرح نصح البلاغة، مع 5، ج 10 ص 70.

⁶ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 306.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

سرح به الضلال"¹. هذه الأدوار الناتجة عن كمال معرفته، هي علامة دالة على كمال عمله التهديبي، وقد تجلّى في إبعاد الضلال من طريق الناس، ليسلكوا نهج الاهتداء، وهذا من تمام المعرفة والعمل، وبهذا يبني المفتاح الذهبي الذي به تفتح به مغاليق الحقائق، فصاحب المعرفة هو برأي الإمام من كان بهذا الوعي والفهم: "آخر الشر، فإنك إذا شئت تعجلته"²، فمتى يؤخر الشر؟! إن الشر لا يؤخر إلا إذا سبقه وعي ومعرفة، وإن تعجيله إنما يكون ملازماً للجهل، وهذا لا اعتبار مهم، "لأن فرص الشر لا تنقضي لكثرة طرقه، وطريق الخير واحد وهو الحق"³، بعيداً عن كل تشعب، وبذلك يتأسس العمل على المعرفة بقصد إدراك المخاطر وبيان الطريق، وهذا تجل كبير يدل على ولادة الحق في النفوس ورسوخه فيها، ينتج عنه صواب الفعل والاتجاه السليم في الحياة. إن من تجليات علامة المعرفة والعمل الابتعاد عن الشر ومجانبته، وتقديم الخير والعمل للحق، وليس هذا فحسب بل إن من تجليات هذا الكمال الخوف من المصير، في ارتباط المعرفة بقضية الموت والفناء، وهذا ما نستشفه من خلال جواب أمير المؤمنين على سؤال وجه له، حيث قيل له: "كيف تجردك يا أمير المؤمنين؟" فقال: "كيف يكون من يفنى ببقائه، ويستقم بصحته، ويؤتى من مأمّنه"⁴، وكأن الجواب المؤجل الذي جانبه الإمام بعلامات دالة على الحال، وبالتأول هو انعدام الهناء، مع ملازمة القلق والتوتر والخوف لذاته، وجميع هذه المصاحبات النفسية، وما يستخلص من جواب الإمام :

- أن جوابه هو جواب من حقق المعرفة.
- يستجلب انعدام الهناء، حضور القلق والخوف.
- يستدعي كل هذا انكباب الإنسان على العمل ضرورة.

إذن فما يحمله الإنسان من عناصر ضدية أشار إليها الجواب، تمثل معرفة ما ينتظره، وها هي عناصر المعرفة والعمل سيما ذاتية، ملتصقة بهذه الذات الإنسانية، بحيث يطرح لنا الإمام معرفة ووعياً جديداً، من خلال إرادة الفعل والعمل، لأن "الوعي يصنع الإرادة.. يصنع إرادة الحياة الحقيقية"⁵، وهذا الإمكان الذاتي، هو الذي يضع بنية الخوف في قلب الفعل، أو في إطار العمل، وهذا من تمام التجلي، وبهذا التصور ونسقه العالي يدخل الإمام مفاهيم المعرفة والعمل، بنيات رئيسة

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 306.

² - علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، ص 372.

³ - محمد عبده : المصدر السابق، ص 372.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 447.

⁵ - أنس شكشك : فلسفة الحياة، ص 47.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

تتكئ على الارتباط الصميمي بقضية الوجود، وأبعاد الغيب، أي أنه يزواج بين فعل الشهادة والغيب بخميرة المعرفة والعمل وفاعليتهما المحققة لانعكاس الآخرة على الدنيا، والدنيا على الآخرة، يقول الإمام مجليا هذا: "من تذكر بعد السفر استعد"¹، وتكشف هذه الفكرة الدقيقة عن حقائق بناها الإمام على مجموعة عناصر فاعلة تتمثل في: الإنسان المسافر [= الفاعل]، والسفر [= المسافة الزمنية]، المقطوع، والتذكر [= المعرفة]، ثم الاستعداد [= التزود بالعمل]، والإنسان هو الفاعل الذي يتوقف عليه أمر المعرفة والعمل، فالإمام "يجعل الإنسان يرتقي إلى المعرفة بنفسه"²، وهذا هو شرط عملية التهيؤ التي تقود إلى ذلك المرمي المتجسد في بلوغ الآخرة نهاية الرحلة، ويبنى الإمام هذا الحث على قواعد إلهية، حيث عهد إلى الإنسان أمر نفسه في قيادتها بحرية وإرادة، وهذا في مستطاعه، ومن هنا تصبح المعرفة هدفا وصناعة إنسانية، وهي سلاحه وزاده في هذه الرحلة إلى الآخرة، بما تتطلبه من إعداد، مثلها مثل السفر بمشقتة، وعليه "فإن المشقة الكامنة في السفر، بوصفه حركة مجهددة، سوف تدفع المسافر، لأن يستحضر لوازم لتلك الحركة"³، وهنا يأتي التذكر آلية تدفع الإنسان إلى تحصيل المعرفة التي بها يتبين طريق هذا السفر، ويجافي به قانون الغفلة والنسيان وشقاء السفر والجهد الذي يبذل لبلوغ الغاية، تذكر يستعد به لمواجهة فجأة الموت القادم، وفي هذا الخضم نرى أهمية الوعي الذي به يجافي الإنسان سقوطه، "لأن الوعي يحررنا من فعل الذنب ومن الخطيئة، ومن كل موبقات الحياة"⁴، فمغايرة خط السقوط، سبيلها العقل وطريقها الوعي وأداته التذكر، استكمالاً لمشروع بناء المعرفة في الإنسان، والعمل الذي هو صنو لها ويقترن بها، ومن هنا نخلص إلى إثبات تجليات عظيمة تترافق مع هذا التصور الذي كشفت عنه الحكمة بعناصرها الأربعة الموضحة سابقاً، بحيث يتجلى لنا الإنسان بهذه الأحوال:

- 1- حالة السعي: تحقيق مصيره وخلصه، بمبادرة ذاتية خاصة.
 - 2- حالة الحركة: حركة تحصيل المعرفة، ومباشرة العمل الذي تتحقق به النجاة.
 - 3- حالة ركوب مطية الزمن: وتكون بمواجهة المعوقات والمفاسد والنسيان والغفلة.
- وكل هذا يجلي حقيقة تلك الإشراق الذاتية، والوعي الألق، وبالتأول فهو علامة، أي سيما إنسان يصنع منه تميزه بالمعرفة والعمل أيقونة وظلا كماليا، من مؤشرات كماله الذاتي تكميل نقص

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 476.

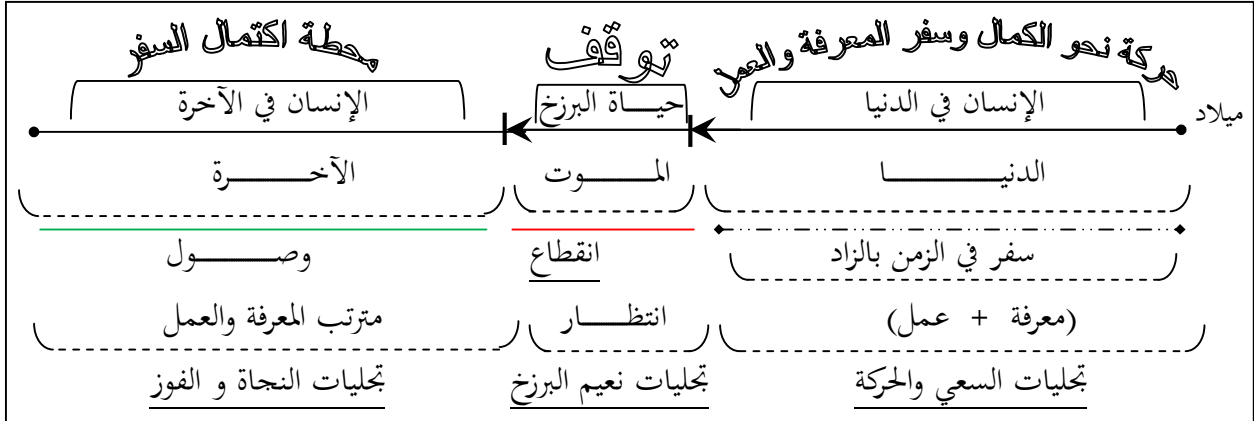
² - عودة ناظم : نقص الصورة، تأويل بلاغة الموت، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 2003، ط1، ص 52.

³ - المرجع نفسه، ص 57.

⁴ - أنس شكشك : فلسفة الحياة، ص 49.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

الآخرين بإصلاحهم، وهي سيما إنسان عَلِمَ دال، ونوضح كيفيات هذا السفر المعرفي بهذا المخطط، الشبيه بسفر موسى مع الخضر عليهما السلام:



- مخطط كاشف لتجليات المعرفة والعمل وصور الكمال الإنساني -

إن تجلي الكمال الإنساني هو تجل معرفي بالعمل، وتجل عملي بالمعرفة، فهذا يحتاج من الآخر إشراقه وبريقه، من الإحساس إلى المعرفة إلى العمل، وكأنه الأريج يعطره الطيب، والأريج هو "حالة الانبعاث الأولى التي تأتي إلى ذات تدرك العالم"¹، وهذا ما يحتاجه المسافر في رحلته الزمنية من الدنيا إلى الآخرة، حيث ينبعث بالفكرة، ويدرك بالمعرفة، ويصل بالعمل، ويتم هذا بضرورات التفقه والفهم والعمل، من أجل وصول آمن، وسفر بمتكثات متطلب الزاد، ويعطينا مثلاً لهذا التعانق الوظيفي بين المعرفة والعمل بالتاجر، كجزئية من مقومات هذا السفر وما يكون في رحلة تنبني على معطيات صناعة الحياة، يقول الإمام: "من اتجر بغير فقه، فقد ارتطم في الربا"²، فالفقه بوصفه علماً ومعرفة هو التجلي الأول لحالة تمظهرية للمشتغل بالتجارة، وأما التجلي الثاني هو هذا العمل والنشاط، في هذا السفر الذي يبحر فيه الإنسان مع الولادة العاقلة إلى نهايات رحلة طويلة تتداخل خيوط هذا النسج بين العبادي والعملي، والكلي الجزئي، والعظيم والبسيط، والإلهي والذاتي، بمعنى أن السفر يتم بطابعه الشمولي وتداخله مع الوجود الصغير الإنساني، والوجود الآخر الواسع الاجتماعي والأوسع الكوني، فهذا الارتطام، أي الوقوع في "الربا" يجلي حقيقة السقوط، كما يكون السقوط في "الربا"، تلك المتناهية السالبة التي يهندسها الجهل، "فالتاجر إذا لم يكن على علم بالفقه، لا يأمن الوقوع في الربا جهلاً"³، سقوطاً في الجهل، وهو وقوع آلي في المحاذير ونزول عن مرتبة الحق، لأن الحق لا ينتمي إليه الإنسان إلا بالمعرفة والعمل، وهذا مبدأ قرآني يطرحه على

¹ - ينظر سعيد بنكراد هامش كتاب سيميائيات الأهواء، تأليف ج غريماش وحاك فونتيني، ص 67.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 501.

³ - المصدر نفسه، ص 501.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

الإنسان، بمعنى "مبدأ التغيير الذاتي مقابل حتمية السقوط والمداولة كوسيلة للاستعادة"¹، ووفق هذا المنهج المبني على حتميات الدفع الفاعل، بوصفه نشاطا إنسانيا يظهر تجليات الذات الواعية، الذات التي امتلكت مفاتيح المعرفة من تذكر وفهم وفقه وإدراك وبصيرة، نافية حالة حضور الذات في مربع السقوط، في الجهل، ولذا فإن "تقوم الإنسان أو كفاءاته تحتاج إلى مشاورة وكشف وتكوين"²، نرى من خلاله صورة نيرة معبرة عن التجلي المعرفي والعملي، صورة تطابق دالة على تماثل كمال المعرفة، وكمال العمل.

2- الإنسان العارف: ذكرنا سابقا أن المعرفة هي هيئة تجل لصور الكمال الإنساني، ومن هذه المعرفة يصعد العارف، وبالوعي تتحقق هيئته الذاتية في مقام رفيع منبئة عن حالة كمالية، يقول ابن أبي الحديد: "والعرفان درجة حال رفيعة شريفة جدا، مناسبة للنبوة، ويختص الله تعالى بها من قربه يقربه إليه من خلقه"³. قرب ثمرته المعرفة والعمل والسعي والحكمة، ويأتي العارف في طبقة ثالثة من طبقات الأولياء برأي ابن أبي الحديد، حيث يوضح ذلك بقوله: "والطبقة الثالثة: حال العارف، وهو الواصل إلى الله سبحانه بنفسه لا ببدنه"⁴، وهذه حالة ذاتية تبنى على الباطن أو الجوانية، وهي معرفة داخلية تتأسس في النفس، وتنبعث إشراقها منها نتيجة عملية الصقل والمجاهدة المستمرة، ومن مستلزمات العرفان برأيه أن يكون العبد على قدر ثابت من توافر عاملين مهمين، أن يكون زاهدا وعابدا⁵، وهما حالان من أحوال التخلية والتخلي المحققة للصفاء بالمجاهدة الدائمة، تؤهله إلى الإدراكات العرفانية الثاقبة، لذا قال: "واعلم أن العارف هو العارف بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله وكتبه وبالحكمة المودعة في نظام العالم، لاسيما الأفلاك والكواكب، وتركيب طبقات العناصر والأحكام وفي تركيب الأبدان الإنسانية"⁶، وكأن العارف هو ذلك الإنسان الذي تدمج بالمعرفة مع خالقه ومع نفسه وما خلق الله في كونه، وهذه المعرفة ذات طبيعة شمولية متكاملة ومتفاعلة تعبر عن ترق مبهرا، وإدراك بصير بسر وحكمة هذا الوجود، فمن هو العارف بنظر الإمام؟! إنه ذلك الإنسان الذي يتجلى بهذا الحضور النوعي، بمحددات تعرفه وتميزه بخصائص نادرة متفردة:

¹ - عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، ص 261.

² - مصطفى ناصف : فلسفة التأويل، ص 219.

³ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 3، ج 6، ص 221.

⁴ - المصدر نفسه، ص 221.

⁵ - ينظر المصدر نفسه، ص 222.

⁶ - المصدر نفسه، ص 222.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

أ/ المعرفة القلبية: يقول الإمام: "لا تراه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان"¹، فهذه معرفة قلبية، وهي عنوان تمام، كما أن المفارقة القائمة بين الكمال الإلهي والضعف الإنساني تتجلى هنا واضحة، حيث تتحقق المعرفة بالله من خلال تنزيهه وتعظيمه، وهذا فارق يدفع الإنسان إلى تمثل الخط التوحيدي الخالص والصافي، ومسلك التعبد المنزه والمعظم لذات الله، بإتباع المنهج وتمثل الحق بروح شفيفة، ومحبة خالصة، وهي معرفة باطنية، لأن هذه الرؤية إنما هي: "رؤية البصيرة، لا رؤية البصر"²، تتحول بعد ذلك إلى يقين لا يزعزع، ذلك أن الحواس لا يمكنها إدراك الذات الإلهية رؤية عيانية، وإنما تدرك الدلائل التي تقودها إلى تلك المعرفة، والإدراك بالقلب درجة متقدمة، وإشراق مصدره الفكرة، فكرة الإيمان [= فكرة الله] التي أنارت النفس وانبعثت بفضلها المعرفة الباطنية، ففكرة الإيمان والتوحيد هي أساس هذا الإشراق النفسي الذي يكون عليه العارف.

ب/ المؤهل لتصويب حركة الناس: إن من تجليات الإنسان العارف، قدرته على تصويب حركة الناس في الحياة بحكمة وفقه، حيث يرد الشارد عن الحق، إلى مركز الانبثاق الذي تنطلق منه النفس الإنسانية في القيام بالوظيفة الاستخلافية الموكلة للإنسان بكل تجلياتها، يقول الإمام: "ولكنني أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه، وبالسامع المطيع العاصي المريب أبدا"³، فالإمام بوصفه عارفاً أكتمل بالحق، قد تجلى دوره في أزمنة التضارب والفتن، حيث تفسد الخيارات الإنسانية أمام البصيرة، وتأتي عملية الكشف من العارف، هادفة إلى إجلاء الغموض وفك تعقد الأحوال، وبتعبير القرآن الكريم دمع الحق للباطل حتى يزهق، كي تنجلي الحقيقة بسُلطان المعرفة، يقين يرى به العارف، قصد زحزحة تراكب الأفكار المضللة التي تحجب الإنسان عن رؤية الحق بأمثل الأساليب. إن درجة العارف، هي مقام يبلغه بالعلم والطهارة الروحية، ونور البصيرة، والعقل النير، والشجاعة في قول الحق، وإن تبليغ الأمانة إلى الآخرين هي رسالته، ومسؤولية يؤديها من كان وعيه بحملها يفوق حد مجموع الناس، يقول الإمام: "وما يبلغ عن الله بعد رسل السماء، إلا البشر"⁴، أي بفضل نوعية خاصة منهم، بحيث تمثل هذه الفئة النوعية بتميزها امتداداً لحالة الاصطفاء، وهنا يتجلى الدور الريادي للعارف، في متابعة خط النبوة، وإزالة الحواجز المانعة من معرفة الحق والحقيقة.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 244.

² - ابن أبي الحديد : المصدر السابق، مج 5، ج 10، ص 38.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 36 .

⁴ - المصدر نفسه، ص 48.

ج/ المحرك الفاعل: إن الظلام الذي يغشى النفوس، عند انطفاء جذوة النور، لا بد له من إضاءة، لإزالة كثافة الحجب عن إِبصار الحق، وهذا الإِبطاء لا بد له من تحريك، وباستطاعة العارف بما له من حمولة علمية ومعرفية ومنهجية، أن يغير هذا ويجركه، لذا فهو عامل رئيس من عوامل الدفع، وإذكاء جذوة يقظة عقلية وروحية، يقول الإمام متحدثاً عن ذاته العارفة، كيف تجلت في بث جذوة الحياة في النفوس لتبعث جديدها: "فقمتم بالأمر حين فشلوا، وتطلعت حين تقبعوا، ونطقت حين تعتموا، ومضيت بنور الله حين وقفوا، وكنت أخفضهم صوتاً، وأعلاهم فوتاً، فطرت بعنائها، واستبددت برهانها"¹، ومتى يتحرك هذا الفذ المميز صادحا بالحق؟! مما لا شك فيه أن هذا النطق تزداد قيمته عند السكوت والتردد والخوف والجب، وسيادة الباطل وجولان المنكر، هنا تصبح الكلمة المحركة الحاتة والمستفزة والمصلحة، كلمة الفصل، ينطق بها الدهر ويجري بها الحق، فقد "ظهر في إعزاز الحق والتنبيه على مواقع الصواب حين كان يختبئ القوم من الرهبة، فقد كان ينطق بالحق ويستقيم به لسانه، والقوم يترددون ولا يبينون"²، فهذه المبادرة والعمل، وهذه المرونة هي ما تزيد الشخص صلابة في قول الحق، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ سَمَاوَاتٌ وَبِلَاوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾³، فالعارف يدفع ويحرك ليبقى الحق والعدل والحرية، من أجل أن تنهياً في أجواء جمالية الفرصة أمام الناس لاختيار طريق الحق، وتحيا ذواتهم نحوه، وكأنه بهذا يزيل الالتباس الذي ينتاب النفوس، ويضيء عتمة ظلامها بأنوار الحق، هذه القدرة يكشف عنها الإمام في قوله: "وإني لعالم بما يصلحكم ويقىم أودكم، ولكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي، أضرع الله حدودكم، وأتعس حدودكم، لا تعرفون الحق كمعرفتكم الباطل، ولا تبطلون الباطل كإبطالكم الحق"⁴. هذه اليقينية العالية هي ثمرة لنور البصيرة وإشعاع الروح، حيث يترقى العارف كما الإمام هنا إلى إدراك مواطن الخلل، والمعرفة بالنفوس، وإبصار مرامي القوم، وفضح مزاعم رؤوسهم وأغراضهم الخبيثة، ومن ثم فالعارف هو من تأول بنفاد بصيرة وعبقرية هذه الأوضاع والأحوال التي ينجم عنها كشف وإدراك هذه التكوينية الفاسدة، حتمية سننية وتمام وعي الذي "هو يقظة أبدية، والضمير إنما هو جوهر تلك اليقظة"⁵، واليقظة هي مبدأ العارف، وتحريكه للأوضاع هي سنته.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 69، 70.

² - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 70.

³ - سورة الحج، الآية 40.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 91.

⁵ - سليمان خزاعي صالحه : الإنسان والوعي، ص 04.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

د / العارف بأقدار الناس: إن من تجليات الذات العارفة، ذات الكمال النوعي، أنها ذات تنزل الناس منازلهم، في علاقتها بأهل التميز والفضل والمنزلة، مع الذوات الفاعلة في الحياة، والبنائية للمعنى والحق، علاقة تعظيم وتقدير، وهذا ما يكشف عنه الإمام بقوله: "مع أي عارف لذي الطاعة منكم فضله، ولذي النصيحة حقه غير متجاوز منها إلى برئ، ولا ناكثا إلى وفي"¹، لأن هذا العارف، هو رجل بصير بالواقع وحركة وأداء الأشخاص فيه وتضارب الآراء والأفكار والأهواء في المجتمع، وأمام هذه الحركة المائجة في مستواها النفسي والاجتماعي والسياسي يتعين إبصار مختلف العينات [=الفواعل] في الحياة، كما أبان عن ذلك الإمام، فحدد لهم في ضرورة معرفة فضل وحق صاحب الطاعة والنصيحة، وعدم التجاوز إلى برئ بسوء، ونقض عهد وفِيّ.

وبهذه الرؤية يستطيع العارف [=الإمام] بوصفه حاكما لسلطة [=مادية/معنوية]، معالجة وضع الأمة وتسكين التحرك المبهم المفسد لدور الفواعل ونسيج المجتمع، وبهذا الوعي البصير والإيمان العالي، والنظر السديد يحاول الإمام "خلق شخصية ناضجة"²، بما يفسحه لأهل الفضل من مجال الأداء الإنساني الحر، ليتوافق مع صور الحق، ويسعى من وراء هذا إلى:

- تحقيق سيادة الإيمان والطاعة.

- تفضيل الفكرة [=الحسنة] في الإنسانية على عناصرها الضدية.

- تعضيد لحمة المجتمع، وإنماء بذرة الحياة الطيبة فيه.

إن تكريم هذه النماذج والإصغاء إلى أدوارها قيمة وأداء، يهدف إلى دفع الناس إلى معرفة مواطن الحق والفضيلة، حتى يرتفع الناس إليها ويهتدون بسنة الإقتداء في أهلها، فهم أدوات التنبيه واليقظة والتغيير التي تبني العلاقات الاجتماعية، ووسائل ترقية قيم الوعي والبناء، وإن هذه المعرفة هي الميزان الذي تتحول به الصراعات الإنسانية من الفتن والتدمير إلى التوازن والسلام والإخاء.

هـ / العارف المنتفع بالموعظة: كيف يكون حال المنتفع بالوعظة؟ أو من هو هذا المنتفع؟! يقول الإمام: "ولا تكونن ممن لا تنفعه العظة، إلا إذا بالغت في إيلامه، فإن العاقل يتعظ بالآداب، والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب"³، تقسيم كاشف صنف به الإمام الناس في وضع التقبل صنفين:

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 359.

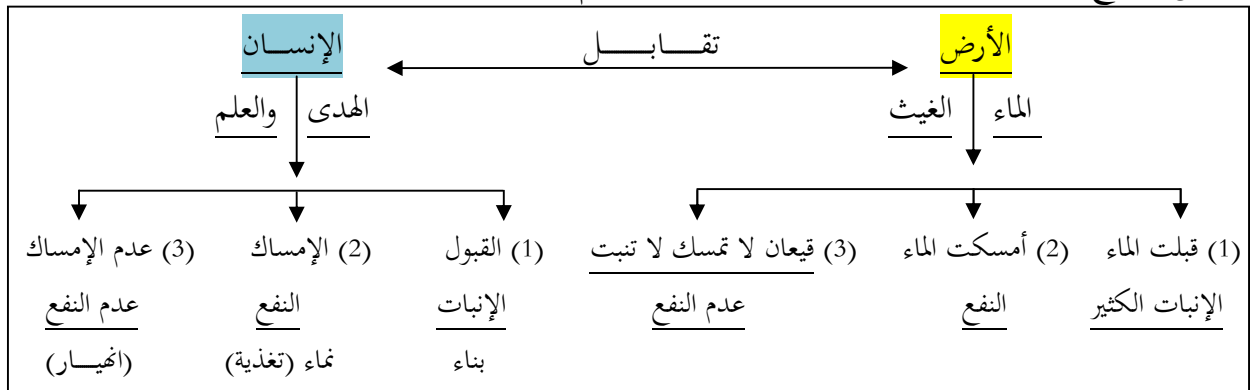
² - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 224.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 372.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

الحالة	الأسلوب	الأصل	بنيته	وضع التقبل
- نزول	الضرب أو الإيلام	حيواني / غريزي.	عدم طواعيته وتقبله.	- من لا تنفعه العظة إلا إذا بالغت في إيلامه.
- ارتفاع	الآداب، العلم، المعرفة	إنساني / بالعقل.	طواعيته وتقبله.	- العاقل الذي يتعظ بالآداب.

إن العارف الذي توافرت فيه مقومات الإنسانية، يتفاعل بتلقائية مع المواعظ، لأن بنائه الداخلي مؤسس على نور الفكرة، والاستعداد لتقبلها بالتجدد دفعا لبلى النفس، ولذا يكون انتفاعه ذكيا، مثل انتفاع النبتة بالماء لتنمو وتتميز وتثمر، كذلك تسقى النفس والروح بمثل حال النبتة، إن هذا التحلي الذي يثبته السلوك الإنساني بأكثر من طريق، يتعين معالجته بالتزكية والتنمية، ليتحقق الوعي بالإنسانية كاملة غير منقوصة، ولهذا "فإن من أسباب شقاء الإنسانية هي فصل الأشياء جملة عن الوعي الجوهري، وإحاقها بمصالح الفكر"¹. وهذا ما يستدعي انتباها ويقظة مثالية يترقى بها عقل الإنسان من أجل إدراك ثابستلهم الخصوصيات النوعية لذات مدركة يتوافر لها التقبل العالي والإحساس المرهف، وطواعية الاستجابة، ومن ثم يكون للعظة المجال الخصب للانتفاع والنماء، لتعلقها بتغذية النفس والروح، وتثبيت صور الكمال في الذات العارفة بتجليها الرفيع، وبمفهوم الحديث تقبل النفوس للحق مثل تقبل الأرض للماء والانتفاع به: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضا فكان منها بقعة قبلت الماء، فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها بقعة أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً"²، فالحديث قد بني على قاعدة التقبل والنفعة في مماثلة بين الناس والأرض بالهدى والعلم، وهذا ما نوضحه بهذا المخطط:



- تشاكل عملية التقبل والانتفاع بين الإنسان والأرض -

¹ - سليمان خزاعي صالحة : الإنسان والوعي، ص 03.

² - محمد اسماعيل البخاري : صحيح البخاري، ج 1، ص 27.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

يتحقق هذا النفع بفتح نوافذ المعرفة [= أجهزة الوعي]، ومعنى هذا أننا أمام قيمة عقلية نفسية تتحرك منها الذات العارفة، فقبول الموعظة، مسؤولية الإنسان العارف، وهي من تجلياته. و/ العارف الجامع بين أداء الحق والفقهاء: إن تبليغ الحق يثقل على النفوس، ويلحق العي بالعقول إذا أرادته، كما أن النفوس من طبيعتها الملل واستكراه قول كلمة الحق، إن هذا البطء في حركة النفس، المرتكز إلى الإعتماد والظلمة التي تكون عليها يجب إزالته بإضاءة كاشفة، ويتم بنقل الذات إلى وضع المبادرة والإنجاز والأداء حتى يسهل عليها تعود قول الحق والفرح به، يقول الإمام: "أما بعد فإن المرء ليفرح بالشيء الذي لم يكن ليفوته، ويجزن على الشيء الذي لم يكن ليصيبه، فلا يكن أفضل ما نلت في نفسك من دنياك، بلوغ لذة، أو شفاء غيظ، ولكن إطفاء باطل، أو إحياء حق، وليكن سرورك بما قدمت، وأسفك على ما خلفت، وهمك في ما بعد الموت"¹، والعارف من الناس يرى موضع النفس في النجاة التي تحصلها بعد الموت، "فإنما تفرح بما كان إحياء حق، وإبطال باطل"²، ومن خلال هذا يمكن أن نتبين طبيعة النفس:

أ- طبيعة النفس: في فرحها بما تناله من مقدور، وحزنها عند الحرمان.

ب- طبيعة الحق: وقاعدته عدم الفرح بشفاء غيظ، ولا للذة.

ج- طبيعة الفرح بالحق: ويتمثل في إحياء حق، وإبطال باطل والأسف على أعمال الخيرات التي تركت، والفرح بما يدم من خير للآخرة.

إنه ومع هذه التعارضات الثلاث، يقف العارف البصير ليوافق بينها ويحدد هدفه من الحياة، وما يعرض عليه، بمعيار امتثال الحق وعمل الخير، وبهذا يتجلى لنا العارف إنساناً يتحرك في حياته وفق المعايير الفاعلة، بحيث يوازن بين الفرح الطبيعي [= إرضاء النفس]، والفرح بالحق [= إرضاء الله]، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾³، وبتحديدنا لطبيعة النفس وطبيعة الحق، وطبيعة الفرح، يكون تحرك الإنسان العارف في الحياة على بصيرة، بصيرة إنسان كامل يمثل الحق ومنهجه، والدعوة على بصيرة معناها الدعوة بعلم ومعرفة وفقه، يقول الإمام: "الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يؤمنهم من مكر الله"⁴، مثل هذا الفقيه هو العارف بأسلوب البلاغ المبني على البصيرة

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 422.

² - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 422.

³ - سورة يوسف، الآية 108.

⁴ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 442.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

والعلم، ليقود الناس إلى بلوغ منازل الحق والنجاة، "فالفقيه هو الفاتح للقلوب يأبى الخوف والرجاء"¹. باعتدال وتوسط وكل واحد له منافع ومنافحه وعرفانه، وهذا ما يتجلى به العارف.

3- الإنسان العالم: إن للعلم أسرارته التي تلقي بظلالها على الإنسان فيظهر لنا بعلمه متميزا مختلفا عن غيره، تميز الكاملين، فأهل العلم وصلوا إلى مرتبة حيازة فضل الدرجات الفارقة بينهم وبين من فقدوا هذا الانتساب النوعي لعالم النور الذي يشرق على النفوس لتضيء وتبصر، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾²، فالآية تصرح بحقائق هذا التجلي الرفيع، من حيث درجة وعدم استواء العالم مع غيره، فإذا كان هذا التشريف يظهر بآثاره وسمته على أهله، فلأن هؤلاء يقربهم هذا العلم إلى الإدراك، حيث يكون الحق وتمثله التزاما مسؤولا يظهر بنتائجه، ويكشف عن طموح عال ويقين يجعل من المرضاة الإلهية الغاية، والاستقامة على المنهج هو الضرورة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾³، ويمثل هذا خروجا من الغفلة والجهل إلى الانتباه واليقظة والوعي، وبعلم يوصل إلى الخشية الإلهية، حيث يتجلى لنا تجلي خشية والتزام ومسؤولية، ومن ثم بناء الحقيقة الإنسانية في الذات، وإن رفعة الإنسان بالعلم معناه تكريمه الإلهي له، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾⁴، ولذا فانعدام هذه الهيئة الجليلة في الإنسان إنما يدل على صورة الانهيار والسقوط من رتبة الإنسان الخليفة ومقوماته التي هي خلافة علم، وعمارة علم وعبادة علم، ومن ثم فتجاوز هذا السقوط، هو تجل دال على إضاءة الإنسان لصورته، أن يصبح الإنسان العالم، ونجد الإمام يعبر عن مثل هذا التراجع الرهيب بقوله: "إذا أَرَذَلَ اللهُ عبدا حظر عليه العلم"⁵، فالعلم إعزاز وتكريم ونور تتحقق به معاني الإنسانية، أي مجموع المبادئ والقيم والمعالم التي تشكل هذا النسيج الرائع من قوى في الإنسان، حيث تبدو متعارضة، وهي كذلك من غير سلطان العلم، وهذا النور هو الصبغة النهائية للذات أين تتجلى في حال من التوازن الدقيق، يتماثل مع مدلول الخشية بتعبير الآية، وتتحول إلى قوة عاملة في منحى مطالب الفطرة السليمة توافقا وخيارا منهجيا، ودافعة إياه -الإنسان- إلى مسار من الترتي يبدأ من الأبسط إلى الأعلى درجة، وهذه علامة تستشرف الكمال، ومن ثم فإن قانون الخشية هو العلم، وقانون العلم يمنح العزة

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 442.

² - سورة الزمر، الآية 09.

³ - سورة فاطر، الآية 28.

⁴ - سورة البقرة، الآية 31.

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 477.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

والرفعة، بينما يكون على نقيضه قانون المعصية دالا على الغفلة، ومن ثم على الجهل، علامة الإردال والشقاء، أي فقدان الذات الإنسانية للقيمة الرمزية التي تعطينا الإمكان النوعي الدال على حالة التكريم والاختيار والاصطفاء، ومن تجلياته التي نرصدها:

أ/ العلم، تجليات لمعنى الإنسانية: إن طابع العلم في القرآن يبدو لنا بتجليات بمعطى دال على النفع والخشية الإلهية، يناقضه مقابله، وصف حامل الكم العلمي الفاقد لقيمة هذا الأثر النوعي، قال تعالى في وصف اليهود: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾¹، فهذه حالة سلب انعدمت معها صورة نفع العلم والعمل به رغم وجود هذه الأسفار، أي أن حقيقة العلم وأهميته لا تكمن في حمله، بل في رسوخه وثباته ونفعه، هذا المعنى الفارق بتجلياته الثنائية يعبر عنه الإمام بقوله: "العلم علمان: مطبوع ومسموع، ولا ينفع المسموع إذا لم يكن المطبوع"²، فعندما ينطبع العلم في النفس وترسخ هيئته ملكة ثابتة عندها تتحقق معالم الذات العاملة، وتظهر آثارها، "فمطبوع العلم؛ رسخ في النفس وظهر أثره في أعمالها... والأول هو العلم حقا"³، فعملية الطبع هامة في بناء الملكة العلمية الموصلة إلى تحصيل مرتبة الإنسان الكامل بالعلم، وهو الواقف في طرف الحق المناقض بصورة منهجية لإنسان الجهل، الناقص منزلة وإنسانية، يقول الإمام موضحا هذه الحقيقة: "منهومان لا يشبعان طالب علم، وطالب دنيا"⁴، وهذا النهم يمنح صفة العالم للإنسان، ويجرّكه نحو إجادة دوره، وأداء رسالته أداء تغالبه الحيوية، ويلزمه الوعي والمسؤولية، وامتنياز يضيف على أسلوب حياة الإنسان طابع الحق ونوره الدال على الكمال، وإن صاحب العلم يتسع بالعلم ليكمل ويبقى ذكرا قائما بدلالة التجلي المبهر، تجل نور العلم الذي يشرق به على ذاته لتخرج من عالم الظلمة والعممة، وعلى الناس بالإضاءة، يقول الإمام: "كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم، فإنه يتسع"⁵، وهذه الوساعة هي ما يجعل من الإنسان الكامل علما دالا على حقيقة الذات المكرمة المنزهة عن العوالم الناقصة من بهيمية وحيوانية، "ووعاء العلم هو العقل، وهو يتسع بكثرة العلم"⁶، وبالعقل تُوَظَر الهيكلية الجوهرية للإنسان، فكأننا الآن أمام تعريف للذات الإنسانية أنها

¹ - سورة الجمعة، الآية 05.

² - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 484.

³ - محمد عبده : شرح نصح البلاغة، ص 484.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 502.

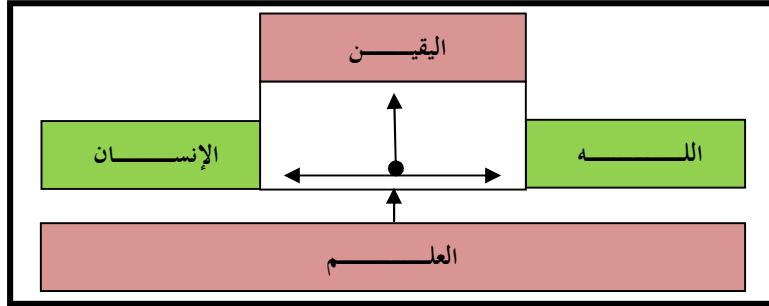
⁵ - المصدر نفسه، ص 461.

⁶ - محمد عبده : المصدر السابق، ص 461.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

ذات بالعلم، وهذا لأهميته في تكريمه وبناء عالمه وإنسانيته، تجل ذات عالمة بمقام رفعة وكمال، وبهذا التجلي الروحي يتحرك ويتفاعل العالم بعلمه، ليعطي المعنى والمعرفة والجمال، فهو حقيقة بالعلم.

ب/ العالم وحالة اليقين: ما قيمة العلم في حياة تنبسط على الإنسان مغرية بفتنتها وتلويحاتها؟! وما قيمة العلم بين حد الواقع المشهود وأفق غيب يقترب ويتعد بخيوط إشعاعه الغامر؟! إن الأهمية الحقيقية للعلم تكمن في انتشال الإنسان من عالم يتيه فيه، عالم تتقاذفه الحظوظ، انتشال يضعه في النقطة المضئية، ويوصله إلى حالة اليقين الذي تنعدم معه كل صور المخالفة والمعصية، يقول الإمام: "وإني لعلى يقين من ربي، وفي غير شبهة من ديني"¹، تكشف هذه الثلاثية المنهجية عن رؤية بصيرة، هي من ثمرة العلم، بحيث تحدد العلاقة بين الإنسان والله بنوره، وإن فكرة اليقين نراها البانية لحقيقة الاستخلاف والعمارة والعبادة، المحققة بالعلم، وعلى هذا الاعتبار يصبح اليقين حالة ثبات متقدمة، وإيماناً قاطعاً بمحدداته الضرورية، في وضوح الهدف والطريق، وأداء العمل، ومن ثم فإن الإنسان العالم هو ذلك الإنسان الذي يقيم علاقته بالله على أساس من اليقين الكاشف، المحقق لكماله، والموصل إلى الله على هدي بين، نوضح علاقاته في هذا الرسم:



- ثلاثية العلاقة العلمية -

إن هذا التجلي باليقين هو وضع ناتج عن الاستقامة والحياة الصائبة، يقين تأسس وخرج من عطف أنوار العلم، وإن صور اليقين وروحه، هي ما يجعل من الإنسان العالم مهياً بالعلم ليزن نفسه بميزان الحق، ويعرف قدر نفسه بدل الإزراء بها، يقول الإمام في هذا المعنى: "العالم من عرف قدره، وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره"²، فمن الجهل عدم معرفة قدر النفس، وفي هذا حظ من قيمة الإنسان وكرامته، لذا فإن المتعين دائماً أن يكون الإنسان عارفاً بأقذار الذات ينزلها منازل الرفعة، وهذه تجليات دالة على تمام العقل في تقدير النفس، أي أن حركة الإنسان في هذا المسار المترامي تنضبط بضابط العقل ونور العلم والحكمة، هذه الاستضاءة التي خطت بها حياة الإنسان

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص50.

² - المصدر نفسه ، ص 149.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

الكامل العالم، إنما هي استشراف منهجي يعتمد على روح وبلاغة الأداء، من خلال تصور الغايات الوجودية والمقاصد الكونية، ليتحول الفعل الإنساني إلى فعل حر مسؤول واع يتأسس في رحاب العلم والمعرفة، ولنرى مع الإمام كيف يجعل للآخرة بصيرة، يتحول فيها العمر/الزمن إلى علم بدقائقه ولحظاته، يقول الإمام: "فليعمل العامل منكم في أيام مهله، قبل إرهاق أجله، وفي فراغه، قبل أوان شغله، وفي متنفسه قبل أن يؤخذ بكظمه، وليمهد لنفسه وقدمه، وليتزود من دار ظعنه لدار إقامته"¹. إن الإدراك الواعي بخط النهاية الذي سيقف عند حده الفاصل الإنسان هو علم، وإن العمل مع هذا الوعي لتحصيل النجاة والفوز في نهاية الطريق هو علم كذلك، وبهذا الاعتبار العالي وأخذاً بروح التوثب، وحيوية الممارسة التي تقتنص اللحظات من أيام المهل يمكن أن نرى (معها/ فيها) صورة أخرى للتجلي بارزة، لأن اليقين الذي فاض على هذه الذات الكاملة جعلها تنتصب قائمة في الحياة، إظهاراً لجلال وجمال هذا الحضور الإنساني المتميز، وإثباتاً للطبيعة العالمة فيها، ثم إن عناصر الزمن وفكرته، هي فكرة وحقيقة قرآنية وكونية، تخرج الفعل الإنساني من إشكالات وهمية قاتلة، ومن سموم الروح السلبية والإعتماد الموقع في الحيرة، ومحدودية الأفق التي تجعل للزمن بداية ونهاية [= ميلاد-موت]، بمعنى العيش في أفق عالم الحس وانتهاء في سدس الفوضى والاضطراب، دليل على انعدام اليقين في الذات، وإن مواجهة هذه الفكرة تكون بـ:

1- نفي العدمية والعبثية، فالزمن عمل ومنجز فعلي.

2- إثبات فكرة الصلاح [= في الزمن]، وإلغاء الزمن الذي يماثل اللعب والشهوات.

3- التأكيد على ارتباط الرؤية الماورائية الغيبية، بالرؤية الواقعية المشهودة.

إن هذه اليقينية في فهم الحياة وفقه أسرار الزمن، هي دلالة على علم بالحق يسكن النفوس الكبيرة التي تتحرك على إثر هذا الهدى عاملة صانعة، أي أن تجلي الذات هنا هو تجلي لطبيعة إنسان حول علمه بالحقائق والأشياء إلى عمل مثمر [= علم نافع]، استطاع أن يصل الدنيا بالآخرة، وامتد إلى العالم الكوني الأوسع، وهذا من تجليات اليقين.

ج/ العالم إنسان متفقه بالعلم: إن العلم هو قبسة إلهية تقذف في قلوب، وتحرم منه أخرى، وكل حالة مغايرة لهذا الوضع، فإن صاحبها يقع في دائرة الجهل والوهم، القائد إلى هلاك الإنسان وانحرافه وتساقله عن علو المنازل أن يأتيها، " فالجاهل منقوص القدر والمكانة والمنزلة، لا يعلم للحياة معنى

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 114.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

ولا قيمة، ولا يلقي إلا على المبادئ والقيم"¹، لأن الجهل حاجب وحائل عن إدراك هذه الحقائق، قال الإمام لسائل سأله عن معضلة ما: "سل تفقها ولا تسأل تعنتا، فإن الجاهل المتعلم شبيهه بالعالم، وإن العالم المتعسف شبيهه بالجاهل المتعنت"²، وبالتأول الدال فنحن أمام عتبة العلم بعامل السؤال، "فالسؤال يصدر عن حنان ويصب في حنان"³، وبهذا يحصل الانكشاف وتنال هذه المزية، وتستكمل النفس نقائصها، ويضع الإمام بين أيدينا مفاتيح هذه الحقيقة التي تحصل بأساسين:

- 1- أساس السؤال : - سؤال التفقه : ← يكتسب به الفقه والعلم، [من حيث الوضع].
- سؤال التعنت : ← لا يكتسب به الفقه والعلم، [من حيث الوضع].
- 2- أساس المتعلم : - الجاهل المتعلم : ← شبيهه بالعالم، [من حيث الوضع].
- العالم المتعسف : ← شبيهه بالجاهل المتعنت، [من حيث الوضع].

إن هذه القواعد هي ما يترتب بها حصول العلم، ولهذا فإن العلم يحتاج إلى أرضية مهينة تتعلق بالنفس المنطلقة بمحبة نحوه ونحو المعرفة الدالين على تجلي الإنسان العالم، بينما الجهل وبصوره التي تظهر في أشكال مخادعة [= حالة التعنت] البادية على صاحبها، "كأحجية بقصد المعاياة لا بقصد الاستفادة"⁴، هي تجليات دالة على الإنسان الجاهل، وكذلك العالم المتعسف، ومن هنا يكون التفقه في العلم نقلة عقلية تلحق الإنسان بالمنازل الرفيعة من مراتب الكمالات الإنسانية، أي ما ينقله من علو درجة إلى أخرى أعلى منها، ولذا نجد أن "العلم في القرآن مسؤولية الإنسان عن النهوض من الأرض نحو السماء"⁵، فالعلم نهوض روحي، يمكن الإنسان من تنمية ذاتية ينتج عنها غلق لقنوات الفتنة وأدوات الهدم ومعاوله المختلفة، إضافة إلى إضاءة الحق، ليبقى الإنسان دائما في نقطة الضوء المبهرة، وإن الوظيفة الجليلة للعلم، إنما تتمثل في تطهير ساحة الرصد والتلقي من المشوشات، ولهذا يكون الفقه عملية متقدمة تصاحب الذات، "فالعلم الصادق المتحصل لدى العاقل هو في المراحل الأولى من هذه العملية، نوع من اكتشاف الذات المؤدي إلى سعادة العودة إلى البيت، أي العودة من شتات الجهل"⁶، عودة هي هدف العلم، وصورة تتجلى بها الذات الإنسانية

¹ - درنبة محمد أحمد : القرآن والعلم، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، ص 63.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 482.

³ - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، 195.

⁴ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 482.

⁵ - مصطفى ناصف : المرجع السابق، ص 195.

⁶ - رضا شاه كاظمي : العدل والذكر، ص 75.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

العالمية. إن من الاشرافات التي نثبتها في بيان صور التفقه العالي، وما يبنى عليه من تأسيس منهجي لحياة العلم والإيمان والعمل، ما يطالعنا به الإمام عندما يقول: "من أوماً إلى متفاوت خذلته الحيل"¹، وهذا معنى آخر يجلي به الإمام سبل الحقيقة ويوضح به المفسدات التي تعطل المرادات الإنسانية السليمة، وهذه قاعدة جليلة يضعها الإمام برهاناً دالاً على الطريق، "فمن طلب تحصيل المتباعدات وضم بعضها إلى بعض خذلته الحيل فيما يريد فلم ينجح فيه"²، لأن مثل هذه العملية هي صورة من صور التذاكبي، والحقيقة لا يمكن أن تتأسس على صحيح وفساد، ومستقيم ومعوج، "فمن بنى عقيدة له مخصوصة على أمرين مختلفين: حق وباطل، كان مبطلاً"³، وهذا قياس فاسد لا ينتج قيمة ومعنى، وعليه فإن كل منطلق لا يتأسس على علم وتجريب، هو منطلق عقيم غير منتج، ومن ثم فإن الفقه الحقيقي الذي هو علم، هو من يجلي صور الحقيقة خالية من التضارب والفساد والعمى الذي يقود إلى عي لا بيان معه، فأحدي تجليات الإنسان العالم إقامة تفرقة صميمية بين الحق والباطل وأدوات الحق، وأدوات الباطل، تفرقة تنحرف به إلى جهة العلم الصحيح الذي لا تصادر حقائقه الأباطيل والأضاليل، ولا يتحرك مع هوى النفس وخبيل العقل، ودخل المضلين، ولذا كان "العلم في القرآن صقل النفس وتهذيب الشعور، لكن الصقل لا يخلو من اعتراك"⁴، لعزته على الرسوخ، وبهذا تتجلى الذات العاملة وازنة سائرة على بصيرة، الفقه علامة امتياز الرجل العالم.

4- الإنسان العامل المجاهد: انتهينا سابقاً إلى إثبات فكرة مركزية تتعلق بعملية الصقل والتهذيب التي هي جوهر العلم القرآني وتحتاج إلى نشاط فاعل لإنسان بمواصفة ثانية يتجلى بها في الحياة و على الناس، تظهره عاملاً مجاهداً لينتصر في عراكه الدائم، ليكتسب معركة الحقيقة من يد الباطل، انتصار اعتبره القرآن سنة اجتماعية في الانحياز إلى إشراف الحق، والابتعاد عن كل متفاوت ينافي سننية هذا الفوز، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَّمتُ صَوَامِعَ وَبِيَعٍ﴾⁵، وفي آية أخرى تأفل معه بوارق الباطل، فيعلو عليه، قال تعالى: ﴿فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾⁶، عملية سننية ومفاعلة تحرك مختلف الخيوط ليكون الحق هو الدين الذي يظهر على غيره، والبقية الناهية عن

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 495.

² - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 495.

³ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 10، ج 20، ص 04.

⁴ - مصطفى ناصف: المرجع السابق، ص 195.

⁵ - سورة الحج، الآية 40.

⁶ - سورة الأنبياء، الآية 18.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

الفساد بتعبير القرآن هي ما تمثل نموذج ذلك الإنسان العامل المجاهد تماشياً مع هذه السنة، لاستعادة الاستقامة والمنهج المستلب، ولهذا ينفي ﷺ أن يكون الإهلاك مع وجود الصلاح، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾¹، فالوظيفة المتعينة إنجازها، عمل الصالحات ومنع الفساد، ليظهر الحق على الباطل ظهوراً بيناً، بنوعية وقدرة هذا العامل المجاهد.

أ/ العمل الطبيعية والحقيقة: إن العمل دال على العامل وجهاده ليتمثل الحق ويستقيم على منهج الله، ولعظم هذا الأمر واستعصائه على النفوس، فإنه يترافق مع مجاهدة دائمة لتحقيق الغلبة، على النفس والهوى والدنيا والشيطان، ولذا ففهم طبيعة وحقيقة ما يعمل العامل مهم، يقول الإمام: "الناس في الدنيا عاملان: عامل؛ عمل في الدنيا للدنيا قد شغلته دنياه عن آخرته، يخشى على من يخلفه الفقر، ويأمنه على نفسه، فيفني عمره في منفعة غيره، وعامل؛ عمل في الدنيا لما بعدها، فجاءه الذي له من الدنيا بغير عمل، فأحرز الحظين معاً، وملك الدارين جميعاً، فأصبح وجيهاً عند الله لا يسأل الله حاجة فيمنعه"² فكيف نستشف هذه الطبيعة والحقيقة من هذا الكلام؟! يمكن إدراك هذه الطبيعة من خلال عملية الموازنة التي يقيمها الإمام بين هذين النموذجين؛ العامل للدنيا يتمتع بخصائص تدل على تسافل وانحراف، بحيث يفرغ طاقته العملية في الشقاء وعدم النفع، بينما العامل فيها للآخرة يتمتع بخصائص كمالية عملية تعمل للآخرة وتحقق له الوجاهة والقبول الإلهي.

يتجلى لنا صاحب النموذج الأول ضائع القصد، مختلف الأهداف، لا منفعة في عمره وعمله، منشغلاً عن الآخرة، وهذا التجلي يعبر عن ضياع وشقاء، بينما يأتينا النموذج الثاني بطبيعة مغايرة مبنية على تجليات أخرى، فقد حدد هدفه، بحيث يرى عاملاً لآخرته، وقد ترتب عن هذا إحراز ما ضيع الأول من منافع جلييلة، فجاءته الدنيا بغير عمل جزاء ومكافئة، لينصرف عنها إلى الانشغال بالحق، فقد كفي فتنتها، فاكسب الوجاهة والقبول، وإحراز نعم الحظين والدارين.

وعليه فإن حقيقته تتمثل في ارتباطه بالحق، من خلال رؤية بعدية، "فالعامل في الدنيا لما بعدها هم أصحاب العبادة، يأتهم رزقهم بغير اكتساب ولا كد، وقد حصلت لهم الآخرة، فقد حصل لهم الحظان جميعاً"³، فما زهد فيه الأول وخسرته، ناله الثاني فصار "ذا منزلة عليّة من القرب

¹ - سورة هود الآية 117.

² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 474.

³ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج 10، ج 19، ص 72.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

إليه سبحانه¹، ومن أفضل تجلياته، أنه إنسان عدل، فاعل للخير.

وينبه الإمام إلى تلازمات حيوية تحقق مبتغى العمل ومقصده، حيث يقول: "فليصدق رائد أهله، وليحضر عقله، وليكن من أبناء الآخرة، فإنه منها قدم وإليها ينقلب، فالناظر بالقلب، العامل بالبصر، يكون مبتدأ عمله أن يعلم أعمله عليه أم له، فإن كان له مضى فيه، وإن كان عليه وقف عنه، فإن العامل بغير علم كالسائر على غير طريق، فلا يزيده بعده عن الطريق إلا بعدا عن حاجته². يضم هذا القول لبنات رئيسة في تصور طبيعة وحقيقة العمل ومباشرته على سنن وهدى، فبناء العمل من بناء الإيمان، ومبناه التصديق وإتباع رائد الحق الذي يقود إلى الفلاح في إشارة إلى آل البيت رضي الله عنهم، وكذلك الأفاضل من الناس من أهل القيادة الروحية والعلمية بالمعرفة، ومثل هؤلاء هم من يضع الآخرة في العقول والقلوب غاية وهدفا، ولا يحققها إلا الإنسان العامل، ونيل هذا الهدف يتكافأ في ارتباطه مع حضور العقل، نظرا لمزيمته ورفعته شأنه، قال تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾³. فحقيقة العمل أن تكون الآخرة هي هدف العامل وجهاده، ومعيار الإمام الذي يحدده في خط هذا السير يتركز على عاملين رئيسين الناظر بالقلب [= المعرفة الباطنية/القلبية]، والعامل بالبصر [= النظر - المعرفة - الوعي/العلم]، وبهذا يكون سبيل الاهتداء الذي يخرج الإنسان من العمل للدنيا، إلى العمل للآخرة، "فالإنسان يجب ما يعمل، ويعمل من أجل ما يجبه"⁴، تحديد يجعله يراقب عمله ويدقق فيه، وبجملة ذهبية فاحصة كاشفة هادية للإنسان، يضع الإمام تحقيقه في مسألته: أن يكون مبتدأ عمله أن يعلم: أعمله عليه أم له؟!؟ ومعنى هذا أن العامل ومن خلال هذه المراقبة الذكية الفاعلة. أن للإنسان في عمله حالتان، فأولا المضي في العمل عند موافقته الحق، وثانيا مراجعته إن غايره، وهذا يكون بمجاهدة وصبر، وتحمل مشاق هذا الطريق، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾⁵، فالإنسان الخاسر هو الإنسان غير العامل بالحق، وإن العامل بالحق يعمل بفكرة الإيمان ووحيتها، يقول "مصطفى ناصف": "أليس عجبا أن ننسى في

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 474.

² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 206.

³ - سورة النحل، الآية 32.

⁴ - أنس شكشك: فلسفة الحياة، ص 72.

⁵ - سورة العصر، الآيات، 1-2-3.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

كلمة الصبر تجنب العاجلة حتى نبلغ الغاية؟!¹، هذا الصبر الذي هو روح الكائن، ومادة انتصاره، وأداة مجاهدته ووصوله من الدنيا [= العاجلة] إلى الآخرة.

ويتضح بالرجوع إلى كلام الإمام أن التوسط والجمع بين الرفيع والوضيع لا يحقق الغاية، فالعامل ينبغي عليه الأخذ بالقوة، قال تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾²، فنقل الحق يحتاج إلى هذه القوة والعزيمة والإرادة الصلبة، "فلا يجتمع طلب المعالي مع الركون إلى اللذائذ"³، وإبعاد المركب اللذي عن الذات، يعني تحررها وانطلاقها نحو الغاية، وبلوغ منتهى الحقيقة، ولا يكفي هذا إلا بتعهد دائم وتواصل بالحق والصبر، وفكرة المجاهدة تعني المثابرة على الفعل، وإلزام النفس في كل الأوقات دون نقض لعزيمة، "فما أشد النوم نقضا لعزيمة النهار بعزم السائر على قطع جزء من الليل في السير، فإذا جاء الليل غلبه النوم فنقض عزمته، والظلم جمع ظلمة متى دخلت تحت تذكارات المهمة التي كانت في النهار"⁴، ويتوقف نجاح العامل على اعتبارين، حيث تسجل الذات حالة مجاهدتها:

1- عدم نقض العزائم بمخالفة تناقض الحقيقة، وعزيمة العمل.

2- المحافظة على تذكارات المهمة، والابتعاد عن ظلمة النفس القاتلة للهمة والإرادة.

إن هذا الاقتران بين العمل والمجاهدة هدفه بلوغ الغاية، "فالمجاهدة أمل لا يأس، وانقشاع لا ظلمة، وترفع عن السقوط"⁵، فهذه معالم السير، ومنطلق ينهض بأعباء الحياة بوعي ومسؤولية ومثابرة، ومثل هذا التجلي إنما يدل على ثبات وقوة نفس، وروح عالية، وهذا ما يتطلبه طريق الحق، ويحتاج العامل إلى مبادرة ما يأتيه من فرص الخير، وما يعرض عليه من نفحات الإيمان، حيث تنبسط النفس في العمل، قال الإمام ناصحا وموصيا ابنه إلى أهمية الخوض في العمل وكسب هذا الرهان: "بادر الفرصة قبل أن تكون غصة، ليس كل طالب يصيب، ولا كل غائب يؤوب، ومن الفساد إضاعة الزاد، ومفسدة المعاد، ولكل أمر عاقبة"⁶، والأکید أن العمل والمجاهدة التي يكون عليها الإنسان في حياته إنما تنشأ عن رؤية بصيرة تتحدد بمنطلقات واضحة، ويدفع الإمام إلى الاستثمار في هذا الإمكان المتاح أمام الإنسان، بمبادرة الفرصة، ولذا فعلى العامل أن يتزود "بزاد

¹ - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 224.

² - سورة مريم، الآية 12.

³ - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 334.

⁴ - المصدر نفسه، ص 334.

⁵ - مصطفى ناصف : المرجع السابق، ص 195.

⁶ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 370.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

الصالحات والتقوى¹ التي هي عنوان المبادرة والاعتنام، وبالمقابل يكون " لإضاعة المال مع مفسدة المعاد بالإسراف في الشهوات"²، معامل قتل تضيع معه الفرص التي تتحول بالإضاعة إلى غصة.

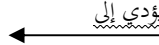
ب/ العامل على الطريق البين: يقول الإمام: "اعملوا رحمكم الله على أعلام بينة، فالطريق نهج، يدعو إلى دار السلام، وأنتم في دار مستعتب على مهل وفرغ، والصحف منشورة، والأقلام جارية، والأبدان صحيحة، والألسن مطلقة، والتوبة مسموعة، والأعمال مقبولة"³، فوضوح الطريق يقود إلى تحقيق الهدف، واختصار الزمن، والانتفاع بالزمن يكون بالمبادرة، وعدم التلكؤ، وإزالة المشوشات والمثبطات، لأن أعلام الطريق القائمة فيه قد أبانتها لذي عينين، ولكل ذي قلب وبصيرة، فما هو هذا الطريق البين ؟ طريق يوضحه الإمام في نقطتين رئيسيتين:

1- أن الطريق واضح قويـم، لا اعوجاج فيه [= مستقيم].

2- أن للطريق مخرج ينتهي بسالكة إلى دار السلام [= الجنة].

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾⁴،

ترسم هذه الآية طريق الحق والاستقامة، وتحيل على الطرق المتفرقة المعروضة على الناس تبيينها وتحذيرا لهم من سلوكها. إن اجتياز صراط الآخرة يتوقف على السير المستقيم في الدنيا على صراط الحق، وهذا دليل التشاكل القائم بينهما، بين صراط الدنيا وصراط الآخرة، وبين الصراط المستقيم والطريق المعوج، وعليه فإن طريق الحق يبنى على الصحة والمشروعية المثبتة بالوحي، بينما طريق الباطل، فهو قائم على التحريف والتدليس والكذب والوهم، وعليه فإن ضوء الحق بالامتثال يماثل ضوءا يكون بمقدار العمل، أما عن مشاكلة الصراطين فيمكن تمثلها بالتخطيط الآتي:

اجتياز الصراط الأول ←  اجتياز الصراط الثاني

إن علامة هذا الاجتياز تتمثل في غلق أبواب الأهواء في الأول لتغلق أبواب أهوال الثاني، بينما فتح عالم الشهوات والأهواء، فمعناه انفتاح أبواب الثاني بالهلاك والخسران، ويقوم هذا الاجتياز على قاعدة الإيمان الصحيح، والعمل الصالح، الموافق لنهج الحق، وأما مخارجه فهي بلوغ دار السلام وهي الجنة، وما جاء في باقي كلام الإمام هو دعوة إلى العمل بعد أن تبين معلم الطريق،

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 370.

² - المصدر نفسه، ص 370.

³ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 141.

⁴ - سورة الأنعام، الآية 153.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

وقد جاءت تلك الدعوة بقرائن غايتها تحفيز وتنشيط الإنسان ليعمل ويستمر في هذا الطريق:

الوصف	تجليات معالم طليق الحق	التأويل	الغاية
الإنسان العامل المجاهد	<ul style="list-style-type: none"> → العمل في المهل والفرارغ → الصحف منشورة → الأقلام جارئة → الألسنة منطلقة → التوبة مسموعة → الأعمال مقبولة 	<p>تمثل حالات إمكان قائمة متجددة تحفز على العمل، وتحث على المبادرة.</p>	<p>التجليات النهائية : دار السلام = الجنة</p>

ولا يمكن مجانبة سبل الضلال وطرق الأهواء إلا لمن حدد لنفسه خط سيره وهدفه وفق رؤية واضحة لا ضباب فيها تكتنف زجاج النفس، يقول الإمام: "طوي لمن ذكر المعاد، وعمل للحساب، وقنع بالكفاف، ورضي عن الله"¹، هذه تهنئة لعبد حدد طريقه بوضوح، وبين معلمه بالعمل، حيث توضحت في عقله غايات وجوده، وأعلام نهجه، فسلك الطريق المستقيم ونهجه،

تمايز تحقق بما ركز عليه الإمام في نقاط لا تحتاج تأويلا يبعد عن المقاصد، وذلك بـ :

- 1- التحديد: ذكر المعاد؛ يعني تحديد الطريق والهدف، والعمل للآخرة.
- 2- الانجاز: العمل للحساب؛ يعني إنجاز مشروع الحق في الحياة الدنيا.
- 3- الاقتصاد: القناعة بالكفاف؛ يعني الاقتصاد المانع من التيه والضرب غير الموفق.
- 4- القبول: الرضا عن الله؛ يعني تحصيل مناعة داعمة لإنجاز الحق.

إن هذه العناصر عبارة عن مفاتيح تولوج إلى باب الحق مباشرة وتبين عن الطريق ومخرجه دون تعرجات، وهذا مثال يرافع لصالح وعي المؤمن ويميزه باقتدار فراسته على التحديد والضبط والانتظام، يقول مصطفى ناصف: "هناك علامات كثيرة في القرآن على محاربة التلقائية، والسرف في المتعة، وضرورة فكرة المجاهدة"²، بغرض تحقيق توازن القوى لديه لتعمل متكاملة، والحفاظ على حيويته التي بها يحصل تلك المقاصد، وهي عملية صعبة وممتعة، وأن أسلوب المجاهدة فاعل في تذليل هذه الصعاب وبيان أعلام الطريق، ومثل هذا الإنسان العامل يتجلى بكماله ومجاهداته، ومع الزمن تتحدد له غايته، الزمن الإنساني، ففي هذا الزمن الذي يتحرك فيه الإنسان يتقدم به في عملية تآكل

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 437.

² - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 247.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

حياة، ونقصان بين، حتى يصل إلى تمام يقف في نهايته على محصول عمله ومجاهدته، يقول الإمام: "الدهر يخلق الأبدان، ويجدد الآمال ويقرب المنية، ويباعد الأمنية، من ظفر به نَصِب، ومن فاته تعب"¹. لقد جعل الإمام للدهر وظيفة ودورا يرى أثره في حياة الإنسان، فهو:

الدور والوظيفة	الأثر	الحالة (1)	الحالة (2)
- خالق الأبدان. - مجدد الآمال. - مقرب المنية. - مباعد الأمنية.	انتقاص الهيئة المادية والمعنوية للإنسان، فهو هارب بالتقدم، ومن ثم إضعاف الطاقة والقدرة في الإنسان.	الظفر به [= نصب]. وهي حالة فقه تمكن من إدارته الذكية.	فوته [= تعب]. وهي حالة غفلة تضيع معها إمكانية إدارته وتحصيل مقاصده.
		ظفر [= هندسة الزمن] +	تعب [= فوضى زمنية] -

إن المسافة بين الإنسان والزمن [= الدهر]، هي مسافة الوعي ومسافة الفعل والإنجاز الذي ينتهي بالإنسان إلى تقدير هذا العامل الحيوي في الحياة، بالعمل والمجاهدة، ومن ثم فإن "من ظفر بالدهر لزمته حقوق وحفت به شؤون يعييه ويعجزه مراعاتها وأداؤها، هذا إلى ما يتحدد له من الآمال التي لا نهاية لها وكلها تحتاج إلى طلب ونصب"²، والمعنى الدقيق الذي يمكن أن نقتنصه هنا أن إدارة هذا الشأن، إنما يتوقف على الوعي والمعرفة، بحيث ينبغي أن يقدر حجم كلفته وضروراته، ما يعطينا خلاصة دقيقة لوضع الإنسان في الحياة، حيث يتجلى الإنسان بالعمر الذي منح له عن آخر، عاملا مجتهدا، وآخر ساكنا عاجزا، يتجلى الأول بجمالية الإنجاز، ويتجلى لنا الآخر، مطموس المعالم والطاقات والهوية، وبذلك يصير ظالما لنفسه، مضيعا لمقصد وجوده.

ج - العامل، والإصلاح: إذا تحدد طريق الإنسان في الحياة على بينات من الأمر، وتوضحت الغاية لديه، وهي الآخرة، وعلم استقامة خط السير، فإن ما تبقى له في هذه المواجهة الحيوية، إصلاح حياته كاملة، عقيدة وفكرة وعملا، إصلاح يدفع به شبح الفساد الذي يخرج من بين جنبه، من نفسه المظلمة العتمة، والقرآن نفسه يحفزنا إلى سلوك منهج الإصلاح وتحقيق مفازته واجتناب وهدة الفساد، وعليه فإن الإنسان العامل هو إنسان يصلح أمر معاده بإصلاح دنياه وفق مقتضيات الحق وضوابط المنهج وسنة الأمر الإلهي والكويني، فالعامل المجاهد لن نراه إلا ذلك الإنسان المتجلي لنا في هذه الصورة، أي العامل الصالح المصلح، يقول الإمام: "ومن الفساد إضاعة الزاد ومفسدة المعاد، ولكل أمر عاقبة، سوف يأتيك ما قدر لك، التاجر مخاطر، ورب يسير أمني من كثير، لا خير في مهين، ولا في صديق ظنين، ساهل الدهر ما ذل لك قعوده، ولا تخاطر بشيء

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 439.

² - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 439.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

رجاء أكثر منه، وإياك أن تجمع بك مطية اللجاج"¹، وما يمكننا إدراكه من تأملنا وتأول هذا الكلام أن للصلاح قواعد، وأن للفساد علامات، وإبصار الإنسان العامل لهذه الحقيقة يقوده حتما إلى عمل الخيرات والصالحات التي تتفق ضمنا مع الطبيعة والعقل، والعمل على ضوء الهاديات، وبعملية تأويلية ننف عند هذه المعاني الملهمة، متمثلة في إدراك وجه الصواب في الحق، بفهم يمنح رؤية واضحة، ينتج عنها بناء الحياة على قواعد وسنن علمية جليلة الصورة.

وعليه فإن هذا المترتب النوعي هو التجلي الكمالي للإنسان العامل عمل الصالحين، منتهج مسلك الخيرية، محقق قاعدة الاستخلاف، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾²، تتمثل دعائم الاستخلاف والتمكين في: [= الإيمان + العبادة + العمل الصالح]، وهي من أكبر تجليات العمل والمجاهدة، ليصبح الإنسان علامة دالة على نوعه المكرم، يقول الإمام: "ولن يفوز بالخير إلا عامله، ولا يجزى جزاء الشر إلا فاعله، فأقم على ما يدريك قيام الحازم الصليب والناصح اللبيب والتابع لسلطانه المطيع لإمامه، وإياك وما يعتذر منه، ولا تكن عند النعماء بطرا ولا عند البأساء فشلا"³. إن جني الخير إنما يأتي بالعمل يحققه العامل بسعيه ونشاطه، وقد أوضح الإمام مفاتيح ومقومات هذا التحصيل في الحازم الشديد، والناصح اللبيب، والمطيع التابع لإمامه، والحذر من فعل يعتذر منه، ومن بטר النعمة، والفضل في البأس، وهذه ثوابت تقيم أركان الإنسان العامل المجاهد، الساعي إلى تحصيل الخير، وبناء منهج الحق والتمكين له، حيث يتجلى للناس ثابتا راسخا بمقومات تصنع الصلاح والخير، وفي مشهد استشهاد "محمد بن أبي بكر" رضي الله عنه نرى هذه المكاشفة الناطقة بقيمة الرجل الصالح العامل بإخلاص، مكاشفة هي علامة تسجل أثر الصلاح الذي يجسد سعي إنسان نبيل، ومجاهدة متواصلة تبتغي مطابقة الحق وإثبات جماليته، فقال: "نحسبه ولدا ناصحا وعاملا كادحا، وسيفا قاطعا، وركنا دافعا"⁴، فالإمام يثبت له أركان الرجولة الكاشفة عن سلطة معنوية هي القوة المثابرة التي من خلالها تمثل الحق، وهي تجسيد عملي لإنبات فكرة الصلاح، تتركز على نقاط رئيسة تعادل همة هذا الإنسان أبان عنها الإمام في هذه المكاشفة:

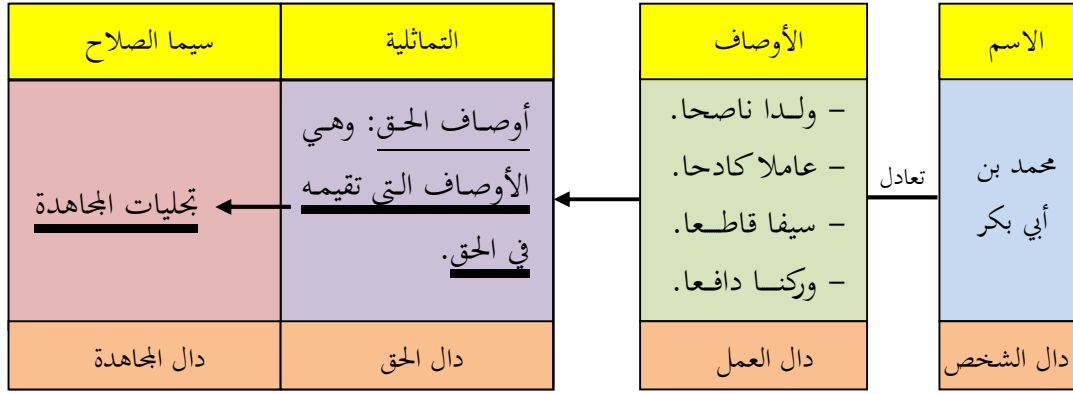
¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 370.

² - سورة النور، الآية 53.

³ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 374.

⁴ - المصدر نفسه، ص 375.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل



إن هذه الصفات تعتبر عناصر منهجية في البناء الإنساني، وما يترتب عنها من فرص وممكنات لإنجاح العمل الصالح، وحماية الحق، وإظهاره على الباطل بالموت في سبيله، كشهادة ذات قيمة فارقة ينهي بها الإنسان حياته، كإنسان عامل، حيث يختم لنفسه بعمل رفيع القيمة، ويبقى الصلاح من بعده أمانة وسيما صلاح دال على دمع الحق للباطل، وهذا التجلي يعد فارقا نوعيا متعاليا باقيا ببقاء الحق، وتساوقا مع تلك المكاشفة النادرة من حيث الاعتراف بفضل الرجال وصنائعهم، نرى مع الإمام موقفه الصريح من الانحراف والفساد، لإزالته وتطهير الأرض منه، وإعادة ترتيب البنيان الإنساني على قواعد وأسس الحق، ومقومات سننية فاعلة، وهنا يتوجه الإمام في عمله التغييرى إلى الإنسان رأسا، لأنه حامل فكرة الفساد، وفاعل الشر في الحياة، حيث يقول: "وسأجهد في أن أظهر الأرض من هذا الشخص المعكوس، والجسم المركوس، حتى تخرج المدرة من بين حب الحصيد"¹، ويتركز العمل التطهيري أو التغييرى في الإنسان، على ما يحمله من فساد، وهو "مقلوب الفكر"²، والمعكوس، أي "انعكاس عقيدته، وأنها ليست عقيدة هدى"³، والمعنى أن إصلاح عقيدة الإنسان وفكره، وإصلاح العمل، وهو في النهاية يمثل إصلاح القوة العاملة فيه، أي تقويم اعوجاج النفوس، "حتى يظهر المؤمنين من المخالفين"⁴، ووفق هذه الرؤية، ومنطق الحزم يأتي التمكين وإصلاح الإنسان والحياة الإنسانية، ولا يقوم بهذا إلا إنسان عالم صالح كامل عامل مثابر في الحياة، هذا الانتصار لجهة الحق والعدل في الرؤية والاحتكام إلى الطبيعة الخيرة في الإنسان يعبر عن مجاهدة، من إنسان مصلح معالج لأمراض الناس وأدوائهم بترياق الحق والعلم والمعرفة، ولا يقوم بهذه الوظائف العلية إلا أصحاب الكمال والرفعة، وهذا من تجليات الإنسان العامل المجاهد.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 385.

² - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 385.

³ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 8، ج 16، ص 174.

⁴ - محمد عبده : المصدر السابق، ص 385.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

وعليه فإن آثار هذا التغيير والتطهير، أو ما يرتسم بعد إثبات خط الشهادة، يمثل الصورة المثال للحياة الكريمة، حيث تتنفس أجيال ما بعد لحظة الشهادة روائح المعنى الجديد، وتتماهى مع بوارق الحق وإشعاعه، وتتكامل فيما بينها لصناعة وحدة الأمة الخيرة، مثل هذا التحول الرائد الذي يشع بأجواء الصلاح والكرامة يعبر عنه الإمام بقوله: "بقية السيف أبقى عددا وأكثر ولدا"¹، ومن منطلق هذا الصراع وتبعا لسنة التدافع تحصل ثمرات هذه المغايرة، وعليه "يكون الباقون شرفاء نجباء، فعددهم أبقى وولدهم يكون أكثر، بخلاف الأذلاء فإن مصيرهم إلى المحو والفناء"²، لتبقى الأجيال تولد في فسحة الحرية والكرامة والعزة، وحيث تأفل أصنام الباطل، ليتأسس عالم واسع فسيح من الصلاح والخيرية والجمال يعز فيه الإنسان، فمن يتخذ الشهادة سبيلا لانتصار الحق، هو إنسان يتجلى بموقفه ومبدئه كاملا شامخا أضاء حياة الناس وأبدلهم من ضيقهم وساعة، يقول "الرافعي": "وإنما يكون الكمال الإنساني، في الإنسان العامل المجاهد"³، وبهذا الارتفاع تترقى حياة الناس وتتوازن خطواتهم ويحسن سعيهم وتتجدد إلى حياة الخيرية والصلاح.

د- العامل، الصلابة: من المعلوم ضرورة أن أي عمل ينجز على مسرح الحياة لن يكون سهلا، لأن معيقات الطريق هي أقوى، معيقات تمثل سنة ابتلاء ممخضة لمساره الإيماني، وضريبة لذلك السير في طريق الحق وعلامة الانتماء إليه، وتحقيق ذلك المنال الرفيع، وعليه فإن الإنسان العامل المجاهد ينبغي أن يكون صلبا ثابتا، وقويا شامخا، منتصبا انتصاب الإنسان المستقيم هيئة وفعلا، إن هذا التحلي يتطلبه خط الصلاح، وفعل الشهادة، وسنة التدافع، وسنن العدل والحرية، وكله يحتاج إلى نهوض خالص، يقول الإمام: "ما انقض النوم لعزائم اليوم"⁴. إن من يفتقد الإرادة يتعطل ويتأخر، لأنه يفتقد للقوة والصلابة والحزم، وهذا لن يكون سيما الإنسان العامل، ومثل هذا التردد والوهن يجد من ذلك الطموح، "فقد أجمع العازم على أمر، فإذا نام وجد انحلالا في عزيمته، أو ثم يغلبه النوم عن إمضاء عزيمته"⁵. فأمام تحديات الطريق وهذا الخور الذي يتكرر يخرج الإنسان العامل من سعيه الحقيقي، ولا يواجه هذا إلا بمحبته لعمله والتفاني فيه والثقة في النفس، وقوة الإرادة، وإمضاء العزيمة. وعليه فإن كل تارك لعناصر العزيمة والإرادة التي تمنح صلابة للإنسان وتدفعه إلى العمل تمثل

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 441.

² - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 441.

³ - مصطفى صادق الرافعي : وحي القلم، ج2، ص55.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 500.

⁵ - محمد عبده : المصدر السابق، ص 500.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

ارتداد الإنسان إلى مواقع تمنحي فيها معالم القوة والقدرة، لذا يكون المترتب باهظ الثمن من جهة هذا الخسار، يقول الإمام موضحاً هذا: "من قصر في العمل ابتلي بالهم، ولا حاجة لله في من ليس لله في ماله ونفسه نصيب"¹، فمن علامة العامل المجاهد أن يكون محور حياته ارتكاز عمله حول خالقه، إرضاء له وامتنالاً للحق، فيجعل ماله ونفسه لله، وهذه من علامة الانتماء الإيماني، ففي ساحة الحياة التي يتبارى فيها الناس نرى كمال العمل في الإنسان العامل المجاهد الساعي في طريق الكمال، مغايراً لما دونه، يقول الإمام كاشفاً وموضحاً: "الولايات مضامير الرجال"²، فلا يمكن أن يرى وجه كرامة العامل ونبل فعله، إلا في ميدان تعرض فيه أفعال الناس وأعمالهم، حيث تصنف الإيرادات بين فاضلة ومفضولة، ورفيعة ووضيعة، "إذا تبين فيه الجواد من البرذون"³، كذلك الرجال في مضمار الحياة يتمايزون، وهذا التمايز إنما تحدده القوة التي في الإنسان والصلابة في الحق، "فمن الولاة من يظهر منه أخلاق حميدة، ومنهم من يظهر منه أخلاق ذميمة"⁴، فالتصنيف الفاضل إنما يتحقق بالمجاهدة والسعي، وهو ما يجلي هذه الروح القوية، ولذا فإن الإنسان يمكن تعريفه بأنه إنسان بالإرادة، أي أن يعرف الإنسان بخاصية العمل، حيث يتحدد في العرف الإيماني بأنه الإنسان العامل المجاهد، وهو وصف له يستخلص من معادلة الوجود التي حددنا أطرافها الفاعلة بـ: [= الاستخلاف + العمارة + العبادة + التعارف]، ولا يمكن أن تتحقق إلا بالعمل، لذا يصبح الإنسان العامل علامة دالة، يمكن عده تأويلاً ثابتاً، وبدون هذا تنساح حقيقة وجوده، كغيمة تهجر وتذهب، ومعها يكون المطر قد غادر إلى وجهة أخرى، ومن ثم فإن الملازمة المرافقة لهذا هي الصبر الذي يحصل النفع والمراد الرفيع، يقول الإمام: "لا يعدم الصبور الظفر وإن طال به الزمان"⁵، فمن طبيعة الحياة وسننها جريان أحداثها على المكار، وهكذا يكون العامل بين هدفه الذي يصير عليه، وبين المكار وعوارض الطريق، من خلال سعيه ومجاهدته يتجلى للناظر كاملاً عاملاً صلباً في الحق. إن الإنسان العامل، هو ذلك الذي حول فكرة الإيمان إلى منهج ممتثل، أي أنه من حصل كمال عمله بالحق، وبأشهر صورته في العمل، فكان النموذج المطبق لروح الفكرة، توافق أدركه بالرؤية الصائبة والبصيرة الحية، فكان مثلاً دالاً على نوع الإنسان العارف بمقاصد وجوده الغاية من خلقه.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 449.

² - المصدر نفسه، ص 500.

³ - محمد عبده : المصدر السابق، ص 500.

⁴ - ابن أبي الحديد : المصدر السابق، مج 10، ج 20، ص 43.

⁵ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 456.

المبحث الثاني: الإنسان الكامل بين الخفاء والتجلي:

1- الخفاء والتجلي: ذكرنا سابقا صورا من التبديات السلوكية الظاهرة على الإنسان، فالكامل من الناس له حقيقة ورسم يتحدد نعتة بعلامة دالة وبتأويل يجنح إلى كشف وبيان تمايز هذا الإنسان ومغايرته لمألوف معتاد عمل ومعرفة الآخرين، فظهر لنا إنسانا عارفا وعالما ومجاهدا، وفي كل مظهر من تلك المظاهر هناك إدهاش وحضور ممتع وظهورات وجودية، تدل دلالة قاطعة على هيئة كاملة وإحاطة شاملة، وكأننا نرى هذا الإنسان من زوايا متعددة، والأکید أن هذه الصورة المثل لنموذج إنساني فاعل، إنما تركز على داخل الإنسان، في ذلك العالم الخفي منه [= قوة ذاته وروحه]، وما يتجلى في الظاهر في المنجز الأدائي للإنسان، وفي النهاية نرى الإنسان المنطلق من فكرة الإيمان ومبدأ الحق الذي تشربه، أو نرى الإنسان الذي استحوذ عليه الشيطان، وغلبته الأهواء والشهوات.

جاء في المقاييس في معنى الخفاء قوله: "خفي: الخاء والفاء والياء أصلان متباينان متضادان، فالأول الستر، والثاني الإظهار. فالأول: خفي الشيء يخفى؛ وأخفيته، وهو في خفية وخفاء، إذا سترته، ويقولون برح الخفاء، أي وضع السر وبدا، يقال لما دون ريشات الطائر العرش، اللواتي في مقدم جناحه: الخوافي. والأصل الآخر: خف البرق خفوا: إذا لمع: ويكون ذلك في أدنى ضعف، ويقال: خفيت [الشيء] بغير ألف؛ إذا أظهرته، وخف المطر الفأر من حجرتهن: أخرجهن"¹، فالسر الخفي في النفس كقوة مركزة في أعماقها، لا بد وأن يظهر ويخرج دالا على هذا المعنى الكامن فيها، طاقة تدفع الإنسان إلى الحركة والفعل والعمل، وعليه فالخفاء: "هو لطيفة ربانية مودعة في الروح بالقوة فلا تحصل بالفعل إلا بعد غلبات الواردات الربانية، ليكون واسطة بين الحضرة والروح في قبول تجلي صفات الربوبية وإفاضة الفيض الإلهي على الروح"²، وهذه القوة المودعة هي سر يطبع الذات، ولنا في الأسماء الإلهية هذا السر، فأسماء الجلال المخصوصة بالذات الإلهية نجدها تلقي بظلالها على الإنسان، من حيث الامتثال والخضوع، وما تمنحه من قوة وتماسك تبعد عنه التشتت والضياغ، وأما أسماء الجمال فالانصاف بها يكسب النفس المعنى والإشراق، وعليه فتعليم الأسماء للإنسان نتج عنه قوة معنوية كبيرة، أولها أنه أعطي المعرفة، باعتبارها قوة وسلطة تقوي روحه، وسره الجلي بالعمل، وأما التجلي، فيقال فيه، كما في المقاييس: "جلو: الجيم واللام والحرف المعتل أصل واحد وقياس مطرد، وهو انكشاف الشيء وبروزه ويقال تجلى الشيء: إذا انكشف، ورجل أجلى:

¹ - ابن فارس : مقاييس اللغة، ص 264.

² - الشريف الجرجاني: التعريفات، ص 88.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

إذا ذهب شعر مقدم رأسه وهو الجلال¹، فمن خفاء القوة الكامنة إلى ظهورها وانكشافها فيضا وتدافقا ناتجه الفكرة والقوة المعنوية في الذات، وفي التعريفات: "التجلي: ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب"²، وذلك أن استبطان حقائق الإيمان في القلوب لها انكشاف يظهر في الآثار السلوكية والسمت الروحي الذي يطبع الذات وهي تمارس أدوارها دون تأثر بمعيقات الخارج ومزاحمات الحق.

أ- الخفاء والتجلي، الحقيقة والارتباط: قال تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾³. إن هذه الشمولية هي طلاقة قدرة، حيث يكون الإحصاء الإلهي الدقيق الكاشف للمعلن والخفي، من أسرار وأفعال ونوايا وخواطر، وإنه من الضروري أن تتطابق الهيئة الإنسانية مع منهج الحق في حقائقها وتجلياتها، وفي صورة التطابق مع الباطل، يقول الإمام في خطبة القاصعة مشيرا إلى استحكام الطمع في النفوس بتأثير الشيطان إجماء بفكرته في داخل الذات وسلوكا خارجيا، "واستحكمت الطماعية منه فيكم، فجمت الحال من السر الخفي إلى الأمر الجلي"⁴، فالخفاء والتجلي الذي يكشفه هذا السطر استناده إلى قوة خبيثة فاسدة عاملة فاعلة، وهذا يعني أن القوة الروحية في مثل هذه الذوات هي روح شريرة، وفكرة شيطانية تعتمل في النفوس، في عالم خفي مشوه سيفيض بآثاره على أفعال الإنسان وأعماله وسلوكه في حياته، "فبعد أن كانت وسوسة في الصدور وهمسا في القول ظهرت إلى المجاهرة بالنداء ورفع الأيدي بالسلاح"⁵، وما يمكن أن نقف عليه هنا أن الفكرة التي تتحرك في النفوس وتعمل عملها في داخل الإنسان هي رأس وأس المشكلة، تنبثق عنها أعماله، ولذا فإصلاح الفكرة في هذا الداخل الإنساني = الذات، هي التي تعطينا قوة الروح وسره، ينبغي أن تكون في مقدمة العلاجات، لأن الفكرة هي القائدة نحو الخيرية والصلاح أو نحو الشر والفساد، لذا نجد القرآن الكريم يشع في أحكامه ومواقفه التشريعية بالمعاني والأسرار الداعية إلى الخير، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ﴾⁶، لقد أفاضت الآية على الحكم الشرعي معنى، قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، بالإضافة نوعية جمالية، تنطلق من

¹ - ابن فارس : مقاييس اللغة، ص 171.

² - الشريف الجرجاني : المصدر السابق، ص 46.

³ - سورة الرعد، الآية 9، 10.

⁴ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 270، 271.

⁵ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 270، 271.

⁶ - سورة النساء، الآية 8.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

خلالها الذات نحو فكرة الخيرية¹، فمن الجوانية تسطع الخيرية، وكذلك ما كان يدور في تلك الأنفس التي استولى عليها الشيطان، فإملاؤه وهمسه في الخفاء ظهر إلى العلن، حيث "نجمت الحال في هذا الشأن المذكور بينه وبينكم من الخفاء إلى الجلاء"²، فنحن أمام تجلٍ شيطاني يبدو على هؤلاء من عداوة وفساد ومفاخرة، ومجاهرة بالمعصية والعدوان، نبرز صورة الحالتين بهذا المخطط:

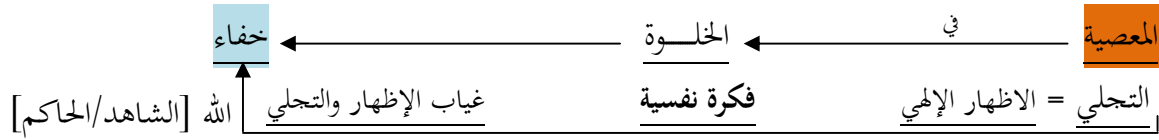
الحالة	الخفاء	التجلي	مصدر الفكرة	التأويل
1	- فكرة العداوة المميته، والخبث والتآمر (داخل النفس).	الأمر الجلي: رفع الأيدي بالسلاح والمجاهرة بالباطل.	- الشيطان. - النفس الأمانة بالسوء	تتجلى لنا هذه الروح الخبيثة وسر قوتها العاملة.

وبالمقابل يمكن أن نضع مقابلا لقوة الروح الخبيثة، بقوة مغايرة لها، وهي الروح الطيبة:

الحالة	الخفاء	التجلي	مصدر الفكرة	التأويل
2	الأمر الخفي: وتمثله الفكرة العاملة في الداخل: خير، صلاح، إيمان، سلام، محبة، نية حسنة، إخلاص، (إيمان/حق).	الأمر الجلي: رفع الأيدي للتعاون والبناء والتعارف والإصلاح، وامتثال الحق، بحثا عن الصلاح والسلام.	- الله (القرآن). - النفس المؤمنة - الكون والكائنات. - الفكرة الصالحة.	يكمن السر في قوة الروح الطيبة، قوة فكرة عاملة بالخير والصلاح، تنتهج خط الاستقامة ومنهج الحق.

إن هذا الخفاء والتجلي ودالها الخير والصلاح، يمثل علامة النفس المطمئنة، والإنسان العارف هو من يختار الحالة الثانية منهج حياة، تماثلا مع الدعوة الإلهية إلى الخير والسلام، وعليه "فإن أجمل هزة نفسية نشعر بها هي تلك الهزة التي نعرونا عندما نقف على عتبة الخفاء من باب الغيب"³. ومن هذا الباب بجلاله تنال النفس الزكية خفاء قوة الروح الذي به تكون سيده في الحق.

ويدعوننا الإمام إلى مثل هذه المكاشفات الروحية، وما فيها من أسرار مشرقة مضيئة للداخل الإنساني، حيث ينهى عن المعصية في الخلوة، نظرا لآثارها واهتزازها العنيف في النفس، فيقول: "اتقوا معاصي الله في الخلوات، فإن الشاهد هو الحكم"⁴، فالمعصية فكرة نفسية عاملة في الذات تخرج بعدها إلى العلن، وهذه الازدواجية السلوكية لا تواجه إلا بالتقوى، نوضح هذا بهذا المخطط:



وعليه فالحد في المعصية قائم ثابت، ولا يمكن أن تنتهي عملية التخفي بهذا التواري الحاصل،

¹ - ينظر مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر بسم بركة، أحمد شعبو، دار الوعي، روية الجزائر، 2013، ط1، ص 25.

² - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج 7، ج 13، ص 85.

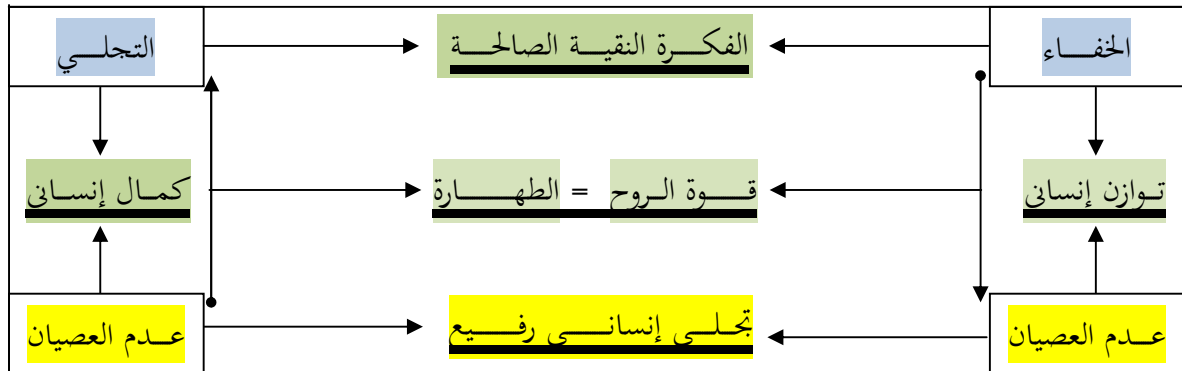
³ - ندس الشيخ : قصة الإيمان، ص 304.

⁴ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 483

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

ففي الاختفاء عن الناس في الخلوات يكون علم الله بالعبد المختلي موجودا قائما، ويتأسس على هذه السنة : أن الله هو [الشاهد/ الحاكم] = الخلوة (الخفاء) = جلاء [= عند الله].

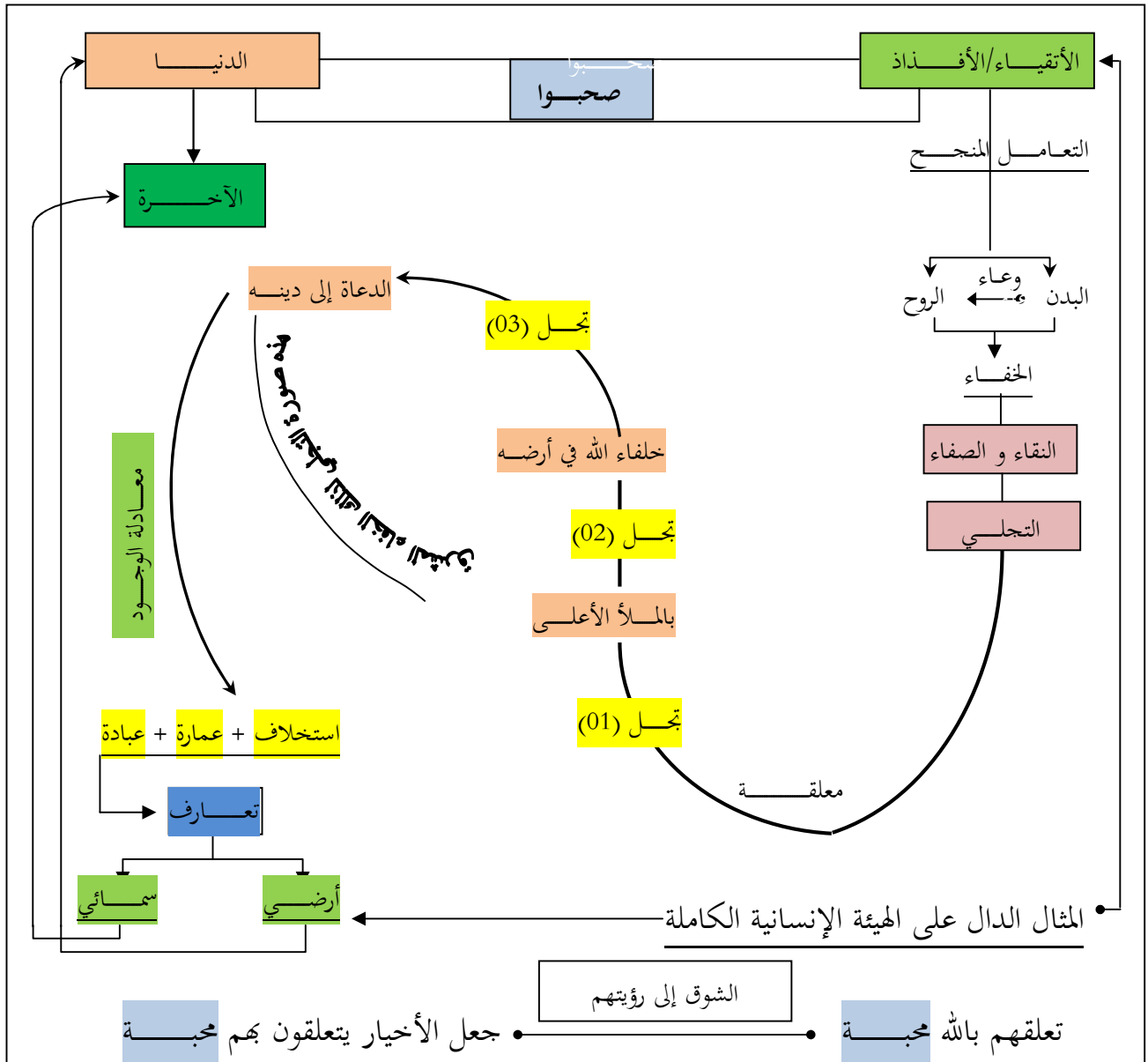
مما يعني زيادة في الحجة المقامة على العبد، فالله يمثل شهادة الحق والعدل والقوة والعلم، والمترتب عن هذا إبطال محاجة العبد بل كلفته، وستزيد من انكساره وخجله أمام خالقه سبحانه، وعليه فإن الإنسان الحي، هو من تمتع بصورة حيية في مراقبة نفسه، حتى لا تنجر وراء غيها، كما يمكن عد هذا ضربا لحقيقة السواء في النفس، حيث تظهر بمغايرة غير منطقية [= متناقضة] وهذا ما يحدث تآكلا ينهش الروح، ومن هنا ننتهي إلى هذا التقرير، أن الإنسان الكامل لا يكون كاملا، إلا إذا تحقق فيه هذا الامثال، أولا: عدم عصيان الله في الخلوات، وثانيا: عدم عصيان الله في العلن. وتجلي لنا هذه الصورة محاولة القضاء على ذلك التضارب داخل النفس الإنسانية، حيث يكون هذا التنازع مشتتا لقوى الإنسان، ينتج عنه ظهوره بين بهيمية وإنسانية، وتبدأ عراه في التفكك، ومع الزمن تنتصر فيه غلبات البهيمية، والمخطط الآتي يوضح لنا هذه الصورة:



- مخطط دال على تشاكل وتطابق العالم الإنساني - الخفاء والتجلي -

ويكشف الإمام عن الصورة البديلة لحالة الاضطراب داخل الإنسان، بحالة متألفة من الصفاء الروحي وأثره الحادث على الأبدان، حيث تندفع الذات الإنسانية التي نقي خفاؤها، إلى الألق العالي من الأداء التعبدي الجميل، بعد الانتصار على الغلبات المعترضة لخط السير، فيصف أولئك الأفاضل: "وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه، آه، آه شوقا إلى رؤيتهم"¹. صورة بديلة مفضلة على صورة هيئة فساد الداخل الإنساني، المريض بمرض الروح الضعيف في الحق القوي في الباطل، فما يقدمه الإمام هنا تجل آخر لعالم الأتقياء متسامق الروح، أفاضل الحقيقة وأحرارها وصورتها المثلى الكاملة، نوضحها بهذا الشكل:

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 454، 455.



- مخطط كاشف لتعالق عالمي الخفاء والتجلي عند الأتقياء -

وما هذا التعالق إلا ترجمة لقوة الروح وتجلي هذا المعنى على حياة الإنسان في امتثال فكرة الخلافة، حيث تبدى الذات، "من الظهور إلى حد الخفاء، وهي من الخفاء إلى حد الظهور، فخفاؤها في ظهورها، وظهورها في خفائها"¹، فألق الإنسان تبلغه النفوس التي أضيئت بأنوار الحق عالمها، فكانت قوة في ذاتها، وقوة خارج ذاتها، "وهذا مما يقوله أصحاب الحكمة من تعلق النفوس المجردة بمبادئها من العقول المفارقة، فمن كان أذكى كان تعلقه أتم"². تعلق يبصر من خلاله الإنسان حقيقته، والدنيا وأحوالها، والآخرة ومردها، والحق ومطلبه، والكمال وتجلياته والله ومحبه = عبوديته.

¹ - محمد عبد الرحمان مرجبا : الفكرانية، ص 290.

² - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج 09 ج18، ص 163.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

ب- الخفاء؛ المجازاة: إن في ذلك العالم الداخلي، وما يعتمل فيه، تخرج إلى العلن صور ذلك المظهر الذاتي، إنه السلوك الذي يطبع الحياة الإنسانية، ونظرا لأهمية الوجدان والأسرار التي فيه من خير أو شر، حيث يكون الجزاء مكافئا ضروريا لما استقر في الذات، مما يعني أن عملية تطهير الذات هي من حتميات الفوز والسعادة، وحجر الزاوية المتعينة، لأنه الإشراق الأول للماد نحو = خارج الإنسان، والنور المشع من الجوهر المكتمل الصورة، وقبله رسوخ فكرة الإيمان فيه، يقول الإمام كاشفا عن مثل هذه المجازاة التي تكون نتيجة لهذه المطابقة: "أنا حجيج المارقين، وخصيم الناكثين المرتابين، وعلى كتاب الله تعرض الأمثال، وبما في الصدور تجازى العباد"¹، فمن الواضح أن محاجة الإمام لما وصفهم بأهل المروق الناكثين المرتابين، هي تعبير دال على تجلي أصحاب هذه النفوس بأوصاف الانحراف، والأهم في هذا التوصيف والنعت أن الأمر يتعلق بما خفي في هذه النفوس التي أظهرت ما أضمرت من فساد، فساد يلخص في الخروج عن الدين، وانعدام اليقين²، بمعنى أن الفكرة التي توطنت الذات كانت سببا في هذا الانحراف البين، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾³، وهذا العمى إنما مرده إلى غياب الإيمان والعلم ودورهما في جلاء وصقل هذا الصدر الإنساني، ليشرق ويضيء بالفكرة الصالحة الخيرة، فافتقاد البصيرة الحية صار مسهما في هذه الضعضة الرهيبة في حياة الإنسان، فغابت صورة الكمال، "فالعلم بلا إيمان ليمشي مشية الأعرج، وإن الإيمان بلا علم ليتلمس تلمس الأعمى"⁴، وما دام أن البصيرة مفتقدة والتوازن غائب، فإن فساد الصدور بالأفكار المريضة هو الحاصل، وهذا ما جعل الإمام يحتكم في محاجته لسلطة الحق، وهي أمثال الكتاب، أي إلى "متشابهات الأعمال والحوادث تعرض على القرآن فما وافقه فهو الحق المشروع، وما خالفه فهو الباطل الممنوع"⁵، فموافقة ومخالفة الحق هي مخرجات الفكرة التي يبنى عليها الجزاء، وعلى حقيقة ما في هذه الهيئة من خير وصلاح وحسن، أو من سوء وفساد.

ويبقى اليقين الخالص هو الذي يجلي ظلمة الذات، ويضيء ما بهت، وينير ما عتم، ويمنح قوة الروح، ويخصها بسر وخصاصة تميزها، يقين يربط الإنسان بخالقه مباشرة، ينجم عنه الامتثال للحق طواعية، يقول الإمام: "وحتى يكون أعظمكم فيها عناء أحسنكم بالله ظنا، فإن أتاكم الله

¹ - علي بن أبي طالب : شرح نهج البلاغة، ص 97.

² - ينظر محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 97.

³ - سورة الحج، الآية 46.

⁴ - ندع الشيخ : قصة الإيمان، ص 305.

⁵ - محمد عبده : المصدر السابق، ص 97.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

بعاقبة فأقبلوا، وإن ابتليتم فاصبروا، فإن العاقبة للمتقين"¹، ففي عالم الذات الداخلي، حيث تحول الأفكار التي يحملها الإنسان من توحيد واعتقاد وإيمان، ومن زبدته وجوهره حسن الظن بالله، المحك الرئيس لإيمان الإنسان، امتحان يتكرر في لحظات فارقة، ويتجدد في محطات دائمة، يلخص في النهاية الثبات على الحق، ورسوخ الإيمان في القلب، أي اليقين الخالص الصافي من كل الشوائب، وهو ما عبر عنه الإمام بحسن الظن بالله، وهذا من تمام العقيدة وكمال التوحيد، ومن جلاء الفكرة المغروسة في النفس بقوتها وجلالها وجمالها، وثمره لذلك الاحتكاك والتضارب بوصفه حتمية دالة على الصراع بين الفكرة الخالصة وما يطرحه الواقع من مزاحمات، هذه الوضعية الدقيقة تجعل الإنسان "إزاء تجربة صراع ذاتي دائم، لمجاهة قوى الشر والسلب في نفسه والتقوي عليها، للاقتراب أكثر من جوهر الدعوة التي ينتمي إليها، والاندماج فيه، بعد طرح كل العوائق"²، ولهذا ذكر الإمام محددات هذا اليقين التي تحصل المفازة والسعادة، بالإقبال والصبر عند الابتلاء، حيث يمثل النجاح في هذا الاختبار الذي تتعرض له الذات في صمت، وتتعذب له بقوة في خفاء، مؤسسة لمبدأ رفيع: حسن الظن بالله، كما يتطلب من الإنسان وفي قرارة ذاته أن يتقوى بالمبدأ والحق، وعدم المخالفة والعصيان، وعليه فإن حسن الظن بالله يترتب عنه ضرورة الجزاء الحسن، وهذه المجازاة انبنت على هذا اليقين الذي جعل الذات تنتصر في هذا الاختبار تساوفا مع سلامة الفطرة والتوحيد الخالص، وما ينشأ عن هذا من أفكار مضيئة تشكل عالم الذات الداخلي، وتقوي الروح الإنسانية، وتصلق العالم الخفي، ينتهي بالإنسان إلى الإكثار من الخيرات والصلحاحات، يثمر مجازاة في الآخرة بالجنات.

ج- الخفاء والتجلي؛ الوظيفة، الفكرة، الأداء: إن الصورة المثال التي تكون عليها الذات، أي حقيقتها الداخلية، وما ينعكس منها من تجليات كمالية، تستند إلى ثابت مهم يتمثل في حضور القلب، أو إلى وعي كبير، لأن هذا القلب يرتبط في عمقه بمسؤولية الإنسان عن خياراته الحاسمة، خيارات الإيمان من الكفر، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾³، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾⁴، وقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾⁵، فقد أعطي الإنسان الإرادة والحرية في الاختيار ليصنع موقفه الإيماني دون إكراه، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 144.

² - عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ، ص 246.

³ - سورة الإنسان، الآية 03.

⁴ - سورة البلد، الآية 10.

⁵ - سورة الكهف، الآية 29.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

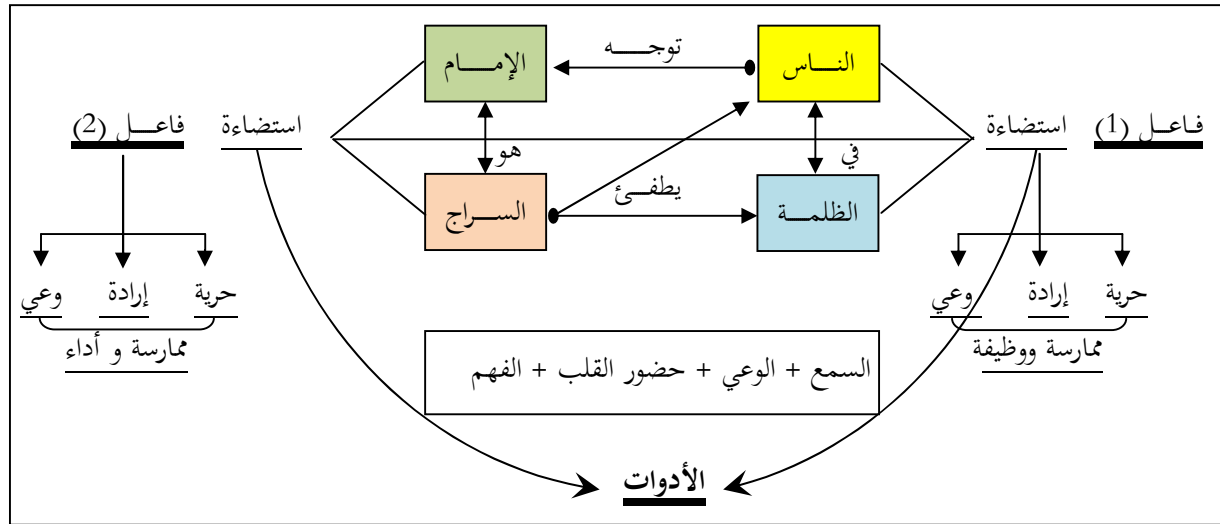
الرُّشْدُ مِنَ الْعَيْ¹، ثم يأتي المدح الإلهي لطريق الرشد وعلو منزلته، فذكر تعالى بعد هذا: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنَ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾²، وقد رتبت الآية خيار الإيمان بأسلوب زكي نافع تمثل في إزاحة الطاغوت والكفر به، ثم الإيمان بالله، ويهدف هذا الترتيب إلى تأسيس فكرة جديدة تتركز في ذات الإنسان، حيث يتم من خلال هذا:

- إفراغ الإنسان من الأفكار الخاطئة السالبة.

- تطهير النفس من التدسيات، من أجل نقاء الإنسان.

- ملاء الإنسان بفكرة جديدة صحيحة [= فكرة إيمانية]، بطاقتها الإيجابية الفاعلة.

إن هذه العملية دقيقة تنتهج أسلوب الهدم والبناء، أو الإفراغ ثم الملاء، وإن مثل هذا الوعي يضع الذات الإنسانية في نقطة الضوء ومركز الإشعاع الروحي، يقول الإمام: "إنما مثلي بينكم مثل السراج في الظلمة ليستضيء به من وجها، فاسمعوا أيها الناس وعوا واحضروا آذان قلوبكم تفهموا"³، فالظلمة التي ذكرها الإمام هي ما تحتاج إلى انتهاج قاعدة الهدم ثم البناء، إفراغ يأتي بعده ملاء بنور الفكرة، أي أن ظلمة الذات والحياة تنزاح بنور الفكرة، ولكن دائما في عملية التغيير نحتاج إلى مثال فاعل، إلى كامل يمتلك العلم والأنوار، وإلى الج مستضيء به ليتغير، هذا الإنسان الذي "دخل في ضوءها"⁴، ستشرق ذاته وعامله الخفي، تتجلى في أدائه وعمله، نوضحها بالترسيمة الآتية:



- ترسيمة كاشفة لدور الفكرة في إضاءة الذات -

¹ - سورة البقرة، الآية 256.

² - سورة البقرة، الآية 256.

³ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 262.

⁴ - ابن أبي الحديد : شرح نصح البلاغة، مج 07 ج 13، ص 58.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

يقودنا هذا التأويل لدور الفكرة في إضاءة الذات إلى استخلاص معادلة البناء الداخلي لها، متمثلة في: [= السمع + الوعي + حضور القلب + الفهم]، وبهذه الكيفية يمكن بناء عالم الذات الداخلي، وصناعة القوة الذاتية والروحية في الباطن، وهي العملية التي تترجم بدلالة واعية مسؤولة خارجية الذات، كتجليات ناطقة بهذا الخفاء، "وهكذا ينبغي أن يكون لكل زمان حسن التكوين، أن تكون له بداية مميزة بوضوح"¹، كذلك الإنسان يكون حاله يمثل هذه الصورة، إشراق بدايته بالنور على يد من يمتلك هذا النور مع رسوخ هذه المعادلة التكوينية في ذاته، ولا شك أن خاتمة هذا الإعداد هو التجلي بالإشراق، "فحضور آذان القلوب"، بعبارة الإمام يؤدي إلى تأسيس الفكرة في الداخل، وترسيخها بثبات ووعي لتكون مصدر ذلك الإلهام الحي في الذات المنبعث خارجها، وكما يقول النبي ﷺ، وقريبا من كلام الإمام: "مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن، كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل الثمرة لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن، كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر"²، فالطعم الطيب ذوق داخلي، والريح الطيبة عطر خارجي يشم، وهنا نلاحظ تكامل هذه الصورة في الخفاء والتجلي، وهذا بنسج المعنى الذي يتحقق في الداخل، ويفيض على خارج الذات، وهذه المرة مع دور سلبي في الفساد والتضليل، إنه الشيطان ودوره في الإظلام والإعتماد، يقول الإمام: "استفحل سلطانه عليكم، ودلف بجنوده نحوكم، فأقحموكم ولجات الذل، وأحلوكم ورطات القتل، وأوطأوكم إثنان الجراحة، طعنا في عيونكم، وحزا في حلوقكم، ودقا لمناحركم، وقصدا لمقاتلكم، وسوقا بخزائم القهر إلى النار المعدة، فأصبح أعظم في دينكم جرّحًا، وأورى في دنياكم قدحا من الذين أصبحت لهم مناصبين، وعليهم متألّبين فاجعلوا عليه حدكم وله حدّكم"³، هذا بيان لدور الشيطان في نشر سمومه في النفوس، وغرسه فكرة الشر فيها، وتناول كاشف نجد أن الإمام قد أشار إلى استفحال سلطانه من نواح عدة:

الأولى: نحو الداخل، إلى عالم الخفاء، ودالها: "استفحل سلطانه عليكم"، يفهم المعنى الضمني من العبارة، أن الوسوسة تتم في داخل النفس الإنسانية، لتثيت أركان الفكرة الشيطانية الهدامة، كي تتحول بعدها النفس إلى نفس عتمة مظلمة بهذه الأفكار، مما ينجم عنه تأسيسا على هذا الدخل:

¹ - باشار غاستون: جدلية الزمن، ص 57.

² - محمد اسماعيل البخاري: صحيح البخاري، ج7، ص 77.

³ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 271.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

- روح فاسدة.
- ذات قلقمة. ← داخل الذات [= في عالم خفائها].
- نفس ظالمة.

- عقل مدبر مخطط للفساد والظلم. { ← داخل الذات [= في عالم خفائها].

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾¹، فهذا الوحي هو إلهام يقذفه

الشیطان في النفوس، فتأتمر بأمره، وتنصاع خادمة مطيعة ناصرة لحزبه.

الثانية: نحو الخارج، إلى عالم التجلي، ودالها: "ودلف بجنوده نحوكم"، حيث تتحول هذه الأفكار إلى

عمل وأسلوب حياة يتخذ من الظلم والفساد خيارا ومنهجاً، وقد أورد الإمام من النتائج المترتبات

الكثير، بعد تهيئات أولية لأعمال متنوعة، وهي:

1. إقحام و لجات الذل.
 2. أحلوكم و رطات القتل.
 3. وطئ أثنان الجراحة.
 4. الطعن في العيون.
 5. الخبز في الحلق.
 6. الدق للماخر.
 7. قصدا لمقاتلكم.
- ← مهيات واستدراج شيطاني، و تجليات خارجية.

الثالثة: الخفاء والتجلي، اجتماع الهيئة: ودالها: "وسوقا بجرائم القهر إلى النار المعدة"، فقد بلغت أخطرها

سوق الناس إلى النار. والانتهاج إليها، ويعني هذا خسارة الآخرة.

{ 1. السوق إلى النار المعدة ← تحكم في الدنيا وفساد للآخرة ينتهي بالإنسان إلى الخسران.

الرابعة: الاستيلاء بالدور والوظيفة والأداء: ودالها: "أصبح أعظم في دينكم جرحاً، وأورى في دنياكم

قدحاً"، بعد هذا السرد لدور الشيطان ودفعه ونفته في رماد الفتن والفساد، يصل إلى تقديم تقييم

أجمل فيه أفضع أدواره، ليدل بذلك على استيلائه التام وتمائل هيئة الداخل والخارج.

تتمثل هذه الخطوة في تنفيذ الفكرة الشيطانية بعد النفث في الذات، وهذه مضاعفة للدور

والخطر، "وبالجملة فهو أضر عليكم بوسواسه من إخوانكم في الإنسانية الذين أصبحتم لهم

¹ - سورة الأنعام، الآية 121.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

مناصبين¹، ومن هنا ينبغي أن يرتب على أنه العدو الأول والأخير للإنسان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾²، وهذا بموقف عدائي منه وأسلوب يجابه به للحد من خطره، ومنع تسلل سحره إلى داخل الذات الإنسانية، مادام هو "أفسد لحاكم من أعدائكم"³، لذا حصر الإمام خطة المنع لديبيه ونفاذه في عالم خفاء أعماق الذات، في أسلوبين يصدان ويمنعان خطره:

1- اجعلوا عليه حدكم = بأسكم و غضبيكم ← هدم وإفراغ {عمل} = بناء.

2- وله حدكم = اجتهادكم و قطعكم ← هدم و إفراغ {عمل} = بناء.

ينبغي على الإنسان أن يكافح الفكرة الشيطانية المظلمة من أن تنفذ وتتسلل إلى داخل النفس [= عالم الخفاء]، بهدمها وإحلال محلها الفكرة الإلهية [= الإيمانية]، وهي عملية بناء تثبتنا وترسيخا للفكرة، داخلا [= خفاء]، وجعلها تفيض على النفس، خارجا [= تجليا].

إن عملية البناء للعالم الإنساني الداخلي، حيث قوة الروح، وإشراق النفس وجمال الذات، لا يمكن تحقيقه إلا إذا نبتت فكرة الإيمان في داخل النفس، في ذلك العالم الخفي، أي هيمنة فكرة الله على النفس، حتى تفيض متجلية على خارج الذات عملا وسلوكا، ليكون توافق الحق فكرة وعملا متشربا في الأعماق، كالدم الذي يجري في العروق، وأما أساسه الفاعل، فيكمن في تعظيم الله، يقول الإمام: "عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها، فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قدر رآها، فهم فيها معذبون"⁴. وكلام الإمام دقيق حدد فيه مكان التعظيم الإلهي وهو النفس، حيث يفيض هذا التعظيم متجليا على السلوك لدفع فكرة الشيطان.

ومنه نتبين أن الفكرة الإلهية التي تتوضع في الذات الإنسانية توضع مؤسسا على علم وبصيرة هي الطاردة بهذا التركيز للفكرة الشيطانية من النفس، فهيمنة هذه الفكرة، تعني هيمنة الحق مطلقا على الذات، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾⁵، على أساس متين راسخ لا يتبدل، وبصيرة حية نافذة يمثل هذا الدور الذي يصنع الحقيقة الإنسانية، وهو ما نوضحه بالرسم الآتي:

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 271.

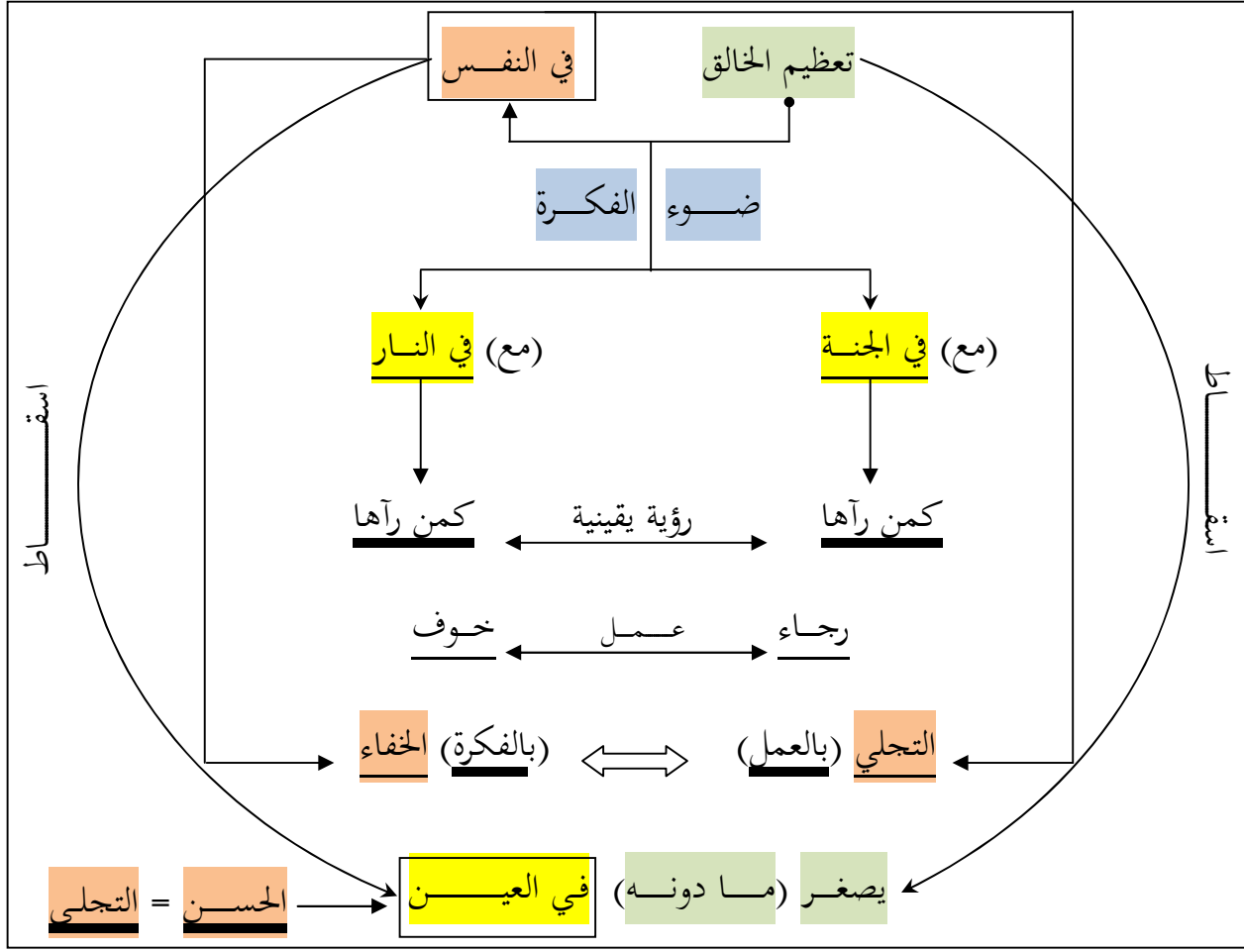
² - سورة فاطر، الآية 06.

³ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 7، ج 13، ص 85.

⁴ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 284.

⁵ - سورة يوسف، الآية 108.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل



- ترسيمة تبرز قيمة تعظيم الله وآثارها في خافيات وباديات الذات [= الخفاء/ التجلي] -

يتجلى الخفاء هنا من خلال قوة الإيمان، وكذلك في القوة الروحية للنفس، يأتي بعدها العمل للأخرة والإعداد لها، كعملية تجل مبنية على يقين وروح عالية وبصيرة نافذة، "فهم على يقين من الجنة والنار، كيقين من رأهما، فكأنهم، في نعيم الأولى، وعذاب الثانية، رجاء وخوفا"¹، لأن الداخل الخفي المضء بالفكرة الإلهية، قد قادهم إلى تبين الخطر وإبصار الطريق، وأما عين تجليه، فتتمثل في عمل العامل واستقامته على الحق، "ولا ريب أن من يشاهد هاتين الحالتين، يكون على قدم عظيمة من العبادة والخوف والرجاء"²، وكله ناتج عن ذلك الإدراك العظيم الذي يوقف العبد على عتبة استشراف خلاق لعظمة الخالق سبحانه، وقوفا معلوما، ووقوفا يقينيا مع تبعات مرفقة لهذا الإبصار الدقيق، يقول "مصطفى ناصف": "فأنا الذي أحول الشهادة واقعا من خلال انسجام النفس وتركيز الممكنات والقدرات"³، ويحتاج هذا إلى وعي وعقل تام كامل يدرك هذه العظمة، لتصبح

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 284.

² - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج 5، ج 10، ص 83.

³ - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 218.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

الشهادة موقفا في الحياة، تفعل في الواقع لثمر وتنتج، وفق سنن وهاديات، ويثبت هذا أن عالم الخفاء الإنساني لا قيمة له إلا بالفكرة الإلهية التي تسكنه، ولا معنى لهذا إلا بأداء حي فعال، واستشعار أنه وظيفة واجبة، وهو في النهاية ترجمة دالة على كمال إنساني، وجمال نفسي.

2- صور الخفاء والتجلي: إن أداء هذه الرسالة الجليلة من الإنسان في الحياة، حيث يشرق داخله بالفكرة الإيمانية الحية، وخارجه بالأداء الرفيع، تتجلى بصور متنوعة الأداء تخصه برمزية نادرة، تدهش الناظر وتبهج القلب، وتريح الآخر بالتعامل والتواصل [= التعارف] والعلاقة معه، كما أنها تعد الدليل الثابت على قيمة الفكرة وعمقها وعلى قوة الروح، وفي النهاية هي سر دال، أي أنها تترجم رسالة يؤديها الإنسان إلى الحياة، ضريبة ومطلب حياة، وثمنا يقدم [= قبولا في هذا الوجود]، أي تظهره في الحياة، على أنه الإنسان المكلف المسؤول، ليثبت من خلال هذا تكريمه واستحقاقه أن يكون خليفة الله في الأرض، ومن الصور العاكسة لحقيقة هذا الخفاء والتجلي نذكر:

الصورة الأولى: الفصل والوصل: يقول الإمام: "بعده عن تباعد عنه زهد ونزاهة، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة، ليس تباعده بكبر وعظمة"¹، هذه الصورة ناطقة بأحوال صاحبها، فصلا ووصلا، بعدا وقربا، وهي عملية تبدو بحال من التضاد والتناقض، ولكنها تبرز حالة توازن عظيم وقوة وتجانسا، مع ما تحققه هذه المراوحة من سلطة ذاتية وتأسيس لكل معنى حي:

المتباعد عنه: بعده ← زهد ونزاهة.

والهدف من هذا الإبقاء على عالمه الداخلي حيا نظيفا حتى لا يفسد.

المدنو منه: دنوه ← لين ورحمة.

والهدف من ذلك إبداء الاهتمام والعناية والمشاركة، وهنا تبرز قيمة محبة الآخرين، بعد أن حقق محبة نفسه بحمايتها من كل تلوث، وتأخذ هذه العملية طابع الفصل والوصل، ولهذا نجد الإمام يعلل مسلكه هذا بنفي الصورة السالبة، وبالتأول الذكي نحصل على الصورة الإيجابية المرادة:

فتباعده نفى ← ليس بكبر وعظمة ← والعملية ذات تخلية وتخلية ينتج عنها صفاء ونقاء الذات
ودنوه نفى ← ليس بمكر وخديعة

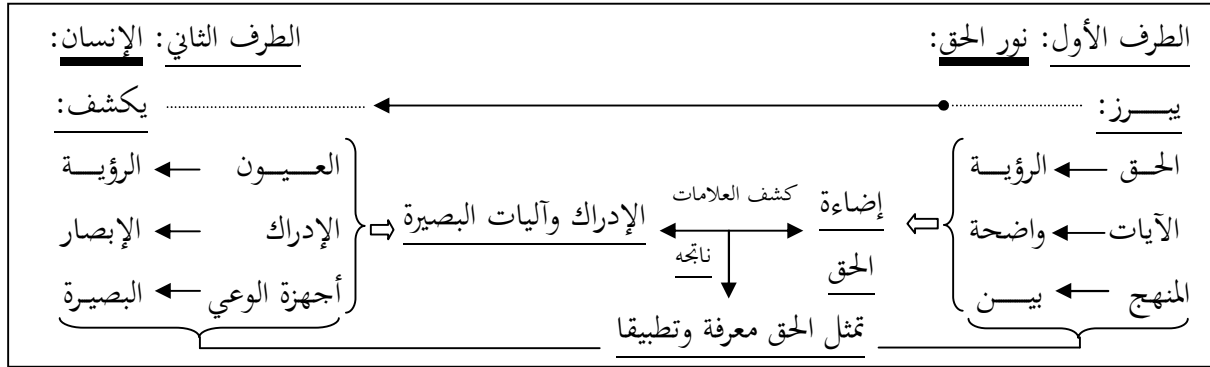
إن ما يحققه النفي غرضه إزالة التوهم الخاطيء، بمعنى أن الإنسان يبدو في تصرفه هذا وكأنه يسلك منهجا يعتمد فيه على أسلوب التخلية والتخلية، وبهذا العمل النوعي ينزه ذاته ويحميها من

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 286.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

الفساد لمخافة هذه الطبيعة، قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾¹، والغاية من ذلك أن يخرج الإنسان أكثر صقلا وجلاء، وأنفع وأخير، وأكثر أداء، وأكمل صورة وموقفا. إن ما يتعلمه الإنسان في وحدته، أو في تباعده عن الناس يقدمه في اجتماعه، حيث تتهدب القوى النزوعية والبهيمية فيه، وتنتصر الإنسانية فيه متجلية، تعبيرا عن كمال رفيع، وهي صور واجبة الإظهار.

الصورة الثانية: الإضاءة: يقول الإمام: "قد أضاء الصبح لذي عينين"²، وتعد هذه العلامة كاشفة عن سيمة طبيعية غير خافية، فكيف تكون صورة الحق أمام نظر الإنسان؟! وكيف يبصر هذا الحق؟! يتمتع الحق بكل تجلياته بالخصائص النوعية التي تجعله في حالة من الوضوح والبيان والقوة والجمال، بحيث يستهوي الناس ويجذبهم إليه، ويرمي إلى إِبصار خفي الحقائق والأشياء، ويمكننا جمع وتركيب هذه الصورة من خلال طرفين يمثلانها:



وعليه فإن الحق وطريقه قد صار واضحا للإنسان [= صاحب البصيرة] الذي يمتلك القدرة على إِبصار الحق وتمثله، وما ينتج عن هذه الرؤية الدقيقة الثاقبة في داخل النفس أن الإنسان بهذا يصبح أكثر تمثلا وتطبيقا، وأكثر وعيا ومسؤولية، وأكثر صقلا وإدراكا، وأكثر جمالا وكمالا.

إن مجموع هذا يمثل تجليات رفيعة للعالم الداخلي المشرق في الإنسان، المتجلي بقوة الروح، وقوة الفكرة، والأمر الملفت هنا أن الإضاءة تستلزم تأهيلا عقليا وأجهزة بصيرة، لتصبح هذه الصورة فاعلة مجسدة لكل تجل نوعي.

الصورة الثالثة: نور البصيرة: وتظهر قيمتها في عملية الفرز الدقيق الذي يبعد الإنسان عن الوهم والتوهم والشك والتذبذب، كي يكون في المعنى وفي الحق، يقول الإمام: "لا تجعلوا عملكم جهلا، ويقينكم شكاً، إذا علمتم فاعملوا، وإذا تيقنتم فأقدموا"³، كلام ذهبي يؤصل لضرورة منهجية في بناء الوعي

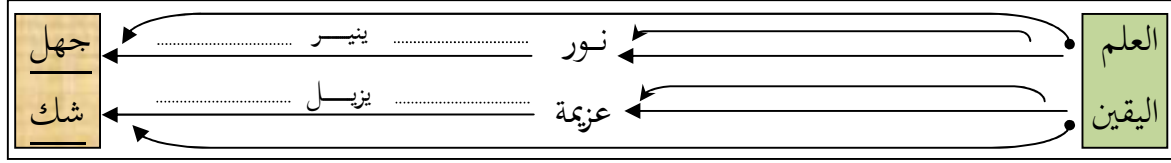
¹ - سورة القيامة، الآية 05.

² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 457.

³ - المصدر نفسه، ص 476.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

الإنساني على أسس بينة وقواعد ثابتة، ينتج عنها ما يسميه القرآن رسوخ العلم في النفوس، عندها يحصل التطابق بين الفكرة والعمل، في شبه عملية تَكُونُ بنائي توضح بالمقاسات الآتية:



- عملية تكون العلم واليقين في النفس وتحصيل نور البصيرة-

وعليه يتوجب تلافي هذا التناقض والتضاد وتضارب الحقائق التي تقضي على مقوم بناء الحق في النفس، "فمن لم يظهر أثر علمه في عمله، فكأنه جاهل وعلمه لم يزد على الجهل، ومن لم يظهر أثر يقينه في عزمته وفعله، فكأنه شك متردد، إذ لو صح اليقين ما مرض العزم"¹، ومن هنا نتبين أن المقياس المحدد لصورة الحق في النفس ورسوخ المعاني فيها أن له مدارا وحركة؛ أن العلم يظهره العمل، وأن اليقين يظهره الإقدام، وبهذا فإن صورة العلم واليقين داخل الذات تتجلى بارزة من خلال مخرجاتها التي تكون بالعمل والإقدام، وهي صورة ذات تماثل حي فاعل في مسار حركتها.

الصورة الرابعة: فقه التعامل مع حركة القدر في حال النعمة والنقمة: ويصنع لنا الإمام صورة رابعة تستكمل هذا المشهد الإنساني الذي يتجسد من خلال القوة الداخلية للذات، والقوة الخارجية المنفذة لهذا المعنى، حيث يقول: "أيها الناس ليراكم الله من النعمة وجلين، كما يراكم من النقمة فرقين، إنه من وسع عليه في ذات يده، فلم ير ذلك استدراجا، فقد أمن مخوفا، ومن ضيق عليه في ذات يده، فلم ير ذلك اختيارا، فقد ضيع مأمولا"²، بحيث يوضح من خلال هذه الصورة قاعدة جليلة مرتبطة في الأساس بحركة وفعل الإنسان في مقابل فعل القدر، بتعامل سليم رفيع، وهو ما يعبر عن امتثاله للحق، ويترجم كذلك استجابة سننية ضرورية، وانسجاما في حركته مع الحكمة الإلهية المطوية في تلك الأقدار، ويمكن أن نلخص ما في هذه المقولة في إطارين بارزين هما:

النعمة ← الخوف ← من المكر ← فتح باب الاستدراج ← الأمن من المكر.
النقمة ← الفرع ← البلاء ← الضيق = امتحان ← اليأس من الرحمة يضيع الأجر.

وإن ما يطلب تمثله من الناس في مثل هذا الحال أن يكونوا في إدراكهم لما يتنزل من نعم وما ينزل من بلاء، بوعي ومسؤولية، حتى " يراكم الله خائفين من مكره عند النعمة كما يراكم فزعين من بلائه عند النقمة، فإن صاحب النعمة إذا لم يظن نعمته استدراجا من الله فقد أمن من مكر الله،

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 476.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 487.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

ومن كان في ضيق فلم يحس ذلك امتحانا من الله فقد أيس من رحمة الله وضيق أجرا مأمولا¹، فهية العبد في تعامله مع النعم والبلاء ينبغي أن يكون تعاملًا ذكيًا، لإدراك الحكمة التي وراءها، وهذا ما يجعل حركة العبد متوازنة بصيرة مدركة للعواقب، فقوة الذات الداخلية تمنح البصيرة للإنسان، ولذا يتوجب عليه أن يكون رجلا في حال النعمة، كما في حال الفقر²، وهذا هو التعامل الرفيع مع حركة القدر الشاملة بتقديراتها الحكيمة نعمة أو بلاء، تعامل المؤمن المدرك البصير لكل فتح وامتحان إلهي، ويعد هذا من أرقى صور العبودية، وتجليات القدر الإلهي، وقد يكشف لنا هذا الحديث القدسي عن هذا المقصد حيث يقول الرسول ﷺ: "يا عبدي أنت تريد وأنا أريد، ولا يكون إلا ما أريد، فإن سلمت لي ما أريد أعطيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي ما أريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد"³، هذه قمة ما يصل إليه الإنسان من فهم وفقه للعقيدة والإيمان، حيث تلخص مقامين جليلين هما الرضا والتسليم، ومن دون هذا الفهم والتمثل فحركة العبد سيغلب عليها الكثير من الخبط والعشوائية والمجانبة، تذهب معها الأسرار والحكم في حالات الفرح والبطر، والجزع والنقم، وهنا تتفتت قوى الإنسان وتتضارب، وتبدأ عملية التيه التي تقود إلى الكفر والبغي والظلم والفساد وتؤسس للشقاء الإنساني، وعليه فإن تتمين القوة الداخلية للذات الإنسانية، هو المانع لإمكانية تعاضد قوى الإنسان لتعمل في اتجاه عبوديته لله، وهذا ما ينعكس عليه من تجليات تبين عن كمال وجمال إنساني، ليصنع وجه الخيرية والصلاح في كل لحظة، من عمره يمثل معالم هذه الصور.

3- الزاهد التقوي: إن قوة الخافيات في الذات الإنسانية تترجم قوة الروح، وهي علامة تأويلية دالة تكشف عن السر المتحكم في الذات التي تتحقق بعمل دقيق، وعملية صقل مستمرة من أجل بلوغ ذات شفيفة، وعمق مكين وقوة صلبة، سبيلها الزهد والتقوى، وعلاج المزاحمات المفسدة التي تأتي قوية بسلطانها، لتتمكن من الإنسان في قرارة وعمق ذاته. تتطلب زهدا وتقوى، في هذه السلطة المادية التي تعترضه بالإغراء والافتتان، تلخصها فكرة الشهوة التي تعارض وتضاد فكرة الحق، باعتبارهما فكرتان حيويتان تتصارعان لاكتساب وحياسة هذا الفضاء الخفي من النفس، وهي محاولة استيلاء جوهرى على الروح لتكون قوة عاملة في اتجاه الخير أو الشر، ولنعد إلى فكرة الشهوة المزاحم الفعلية لفكرة الحق، وفي محددات هذا العالم الشهوي الطاغى نذهب إلى الآية الكريمة لتبين بوضوح

¹ - محمد عبده : نهج البلاغة، ص 487.

² - ينظر ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة مج 10 ج 19 ص 121.

³ - المالكي أبو العباس : بلغة السالك لأقرب المسالك بحاشية الصاوي، دار المعارف القاهرة، ج4، ص 786.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

مؤتيات هذه الفكرة من قوله تعالى: ﴿رُزِقَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾¹، فالآية أوضحت الأثر القوي للشهوة وسلطانها العاتي على النفوس، فهي زينة تحب، وسلطة وقوة مؤثرة لها قدرة استيلائية على النفوس، هذا أولا، والأمر الثاني أن لها مآتيها المتنوعة، ما يعني تعدد خطر مزاحمتها، وتراكمها على الذات، وثالثا فهي قريبة من النفس، بحيث تغري وتزين وتحبب، وكل هذا من متاع الدنيا، وهي تنقسم إلى جانب معنوي لذي (اللذة)، ومادي بالإشباع الداخلي، تلخص البعد المادي للحياة، ولذا "فأصعب العوائق في هذه الطريق الشهوة الخفية"²، لأثرها وغلبتها، وبوصفها متاعا زائلا يتعين التنبه لخطرها، ولذا فهي:

- 1- تمثل إضعافا للطاقة في الإنسان.
- 2- تقتل القوة [= الخافية] الداخلية في الإنسان.
- 3- تقتل مقوم الزمن بالمحدودية والانتقاص.
- 4- تحجب الإنسان عن الإبصار.

أما الآية الموالية لها فقد أعطت بديلا، ووسيلة المواجهة، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوْتِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾³، فمستأنف الآية على سابقتها هدفه إعطاء البديل الحقيقي في محاولة لإخراج الإنسان من الرؤية المادية الضيقة الأفق التي تجعله يغمس في الزينة وشهوات الدنيا، إلى رؤية سماوية منفتحة على العالم الآخر، هذا البديل يكمن في الجنة، عالم الخلود وما فيه من أزواج مطهرة ورضوان إلهي، فالأزواج المطهرة هي مقابل وبديل لشهوات الدنيا، والرضوان مقابل لباقي الشهوات الأخرى:

شهووات الدنيا	الآلية	الوصف	البعد	النعيم الأخرى	الآلية	الوصف	البعد
الدنيا.	الغرف	متاع	المادي	الجنات بأثمارها.	التقوى	حسن	النعيم الروحي:
النساء.	والخوض	الحياة		الأزواج المطهرة.	والزهدة.	المآب	المادي والمعنوي
البنين.	فيها	الدنيا		الرضوان الإلهي.			الأخروي.
الذهب والفضة.	ومنها			الرضوان الإلهي.			
الخيال الموسومة والأنعام والحرث.				الرضوان الإلهي.			

¹ - سورة آل عمران، الآية 14.

² - القشيري : لطائف الإشارات، مج 1، ص 223.

³ - سورة آل عمران، الآية 15.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

إن هذا البديل بما يحمل من معان جليلة، كالحلود المقابل لمحدودية الحياة الدنيا، إلى ما في الجنة من أزواج ورضوان وأنهار ونعيم حقق امتداد الإنسان، امتداد بينى بفكرة الحق وما فيها من خيرية وصلاح، وأما وسيلة ذلك ما تقدمه الآية، وهي التقوى، الأداة التي يجابه بها الإنسان العالم الشهوي الزاحف والمدمر للذات، يقول الإمام الغزالي في معنى الآية: "وسوف يبقى أتباع الأديان الشكلية يلقون العنت من غرائزهم التي فقدوا السيطرة عليها، حتى يفهموا قوله الله تعالى"¹، وفهم ذلك، هو فهم للمزالق التي تجعل الإنسان يخسر أهليته وكرامته، لذا فإن الرؤية الواضحة المتكاملة التي تجمع بين النظر الواقعي للحياة، وتأمل خبر السماء سبيل الفلاح، عقيدة أساسها "الله لا إله إلا هو الحي القيوم" ثم تربية تقرر الطبائع البشرية في حدود الطهر، وتكره الإفراط والتفريط، وتجعل البصر بالحياة الدنيا بصيرة تهدي للحياة الآخرة، وتمضي على البصر على الصراط المستقيم"²، هي في النهاية بناء للداخل الإنساني وتقوية للروح، ولا تتحقق إلا لزاهد تقي، وبهذا يمكن تجاوز هذا العالم الشهوي الحارق، ومنح صورة مثلى مبهرة من تجلي الذات بأسلوب الزهد والتقوى.

أ/ الحقيقة والتعريف: يظهر الإنسان في الحياة زاهدا تقياً، لا متكالبا متهافتا على الحطام والفاني، هذا الظهور يقدم تعريفاً وحقيقة تميزه بأنه إنسان كامل، رؤية وبصيرة ومبدأ وموقفاً، يرى بوضوح ما يريد، يقول الإمام: "الزهد كله بين كلمتين من القرآن، قال الله سبحانه: "لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ" [الحديد: 23]، ومن لم يأس على الماضي، ولم يفرح بالآتي، فقد أخذ الزهد بطرفيه"³. إن حقيقة الزاهد، أنه جامع بين تضاد هئتين، هما عدم اليأس، وعدم الفرح، وهذا بخلاف ما يعرف من فهم للزهد على أنه التخلي جملة بالانسحاب من الدنيا والانعزال، وترك وظائف الحياة، يقول النبي ﷺ: "المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم، أعظم أجراً من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم"⁴، وبهذا فالزاهد إنسان طبيعي يمارس دوره ووظيفته في الحياة، ولكنه يبقى ثابتاً لا يتغير، شامخاً لا يتزلزل، يأخذ منها بمقدار واعتدال وحلية وجمال.

وعليه فإن محاولة التجاوز لصورة الأسي وما يأتي من آلام، حتى لا تستغرق الإنسان، وأن محاولة عدم البقاء في الفرح طويلاً، حتى تأخذ به النشوة فتسكره وتنسيه المطلوب منه، يمثل حالة

¹ - محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي، ص 33.

² - المرجع نفسه، ص 34.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 500.

⁴ - أحمد بن حنبل : مسند الإمام أحمد، ج 9، ص 64.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

اعتدال يُولد مع الأسي الصبر، ومع الفرح الشكر، وهي حالة تجل للزهد، ولهذا يأتي هذا الاعتدال، ليبيّن العالم الخفي للإنسان في شبه من توازن للطاقة والقوة، تظهر آثارها في أداء خارجي رفيع، "فعدم الفرح بما آتاهم هو من صفات المتحررين من رق النفس، فقيمة الرجال تتبين بتغييرهم - فمن لم يتغير بما يرد عليه - مما لا يريده - من جفاء أو مكروه أو محنة فهو كامل، ومن لم يتغير بالمسار كما لا يتغير بالمضار، ولا يسره الوجود كما لا يجزئه العدم - فهو سيد وقته"¹. وما ذكرناه في تحليل الآية السابقة في مزاحمة الشهوات للنفس وما يعرض على الإنسان، لإخراجه من مركزه يحتاج إلى مثل هذا الفهم والإدراك البصير، فهم كل حلو ومر يترتب عنه ما يأتي:

- عدم التوقف عند نقطة ما (مسرة/مضرة)، ومتابعة الهدف النهائي والغاية المرجوة (الآخرة).
- فهم قضية القضاء والقدر فهما بصيرا واعيا، وتقدير الله حق قدره.
- الإبقاء على الطاقة في الذات، والإمداد بالقوة من الله، قصد استئناف نوعي للحياة، وممارسة حركة واعية، مسؤولة تعبر عن كمال وتوازن، بعد كل وضع وحال.

إن هذا الزهد، وهذه الحقيقة لمعنى الإنسان الزاهد هي علامة كمال وسيادة، فالزاهد هو إنسان كامل، وهو سيد وقته، كما يدل هذا على الثبات في حالتي الفرح والأسي، في مقابل الإنسان المتلون المتغير الضعيف المهتز أمام التقلبات وحركة الحياة بتضادها وتناقضها²، فالزاهد ثابت مكين بقوة داخله، منتهج لنفسه طريق العمل على بصيرة ووعي، أداء لوظيفته ورسالته.

ويضيف الإمام في بناء تصور دقيق لحقيقة الإنسان الزاهد، فيقول: "ولا زهد كالزهد في الحرام"³، وقوله: "ولا ورع كالوقوف عند الشبهة"⁴، فالقول الأول يركز عملية الزهد في الزهد عن الحرام، وهذه صيانة، ورعاية للنفس من التفتت والتآكل الداخلي بفعل الشهوات الحارقة التي تأتي على طاقات الإنسان بالتدمير، "ولا ريب أن من يزهد في الحرام أفضل من يزهد في المباحات، كالماكل اللذيذة، والملابس الناعمة"⁵، فالحرام يبعد عن الحق، ولهذا يعد أفضل الزهد، نظرا للاشراقات التي يتركها في النفس وفي إضاءة علمها، وعلى الروح في الزيادة من قوتها، وما يقدمه للذات من منعة وعزة، وأما مقولة الورع، فتشير إلى تقوى توقف عند حد الشبهة قبل أن تداخل

¹ - القشيري : لطائف الإشارات، مج3، ص 543.

² - ينظر إبراهيم بسيوني تحقيق وتعليق للطائف الإشارات، مج3، ص 543.

³ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 447.

⁴ - المصدر نفسه، ص 447.

⁵ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 09 ج 18، ص 127.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

رجل الإنسان مضمار الحرام والشهوات وقاية حاجزة مانعة، وهذا الوقوف "هو حقيقة الورع"¹، ولا يمكن تصور المثال الرفيع الذي تكون عليه الذات، إلا وهي قوية متماسكة مضاءة، ذات تحركها الفكرة، ولا تستطيع الشهوات مهما علت في قوتها من اختراق هذا الفضاء الداخلي المسيج بالعميقة والإيمان والصقل الجيد وطهارة عالم الخفاء، لتصبح رسالة هذا الخفاء إلى الخارج، تجليات صور الحق في أعمال وسلوك الإنسان سيد وقته، فاضلة كاملة، ولذا "فتربيه النفوس تكون بالتخلية عن الرذائل، والتخلية بالفضائل"²، ومعناه تصفية خفاء الذات من الأدران والأوساخ، وهو مقصد الاتقاء بينه الحديث النبوي: "اتقوا الشبهات، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه"³، وهذا بعد أن ذكر حد الحرام والحلال المعلوم، مشفوعاً بذلك الاستبراء للدين والعرض ليبقى مصاناً.

وإن الزهد في حقيقته الآن صار عملاً منهجياً يجعل من حركة الإنسان في الحياة حركة هادفة منضبطة مستقيمة، وهو ليس هروباً ولا انزواءً، ولا عزلة ولا تركاً لواجب، ولا تضييعاً لحق، وبهذا فالزهد والتقوى هو تلك المحاولة الدائبة لإبقاء الذات في حال من الطهر والمنعة من الفساد، لذا قال الإمام: "أفضل الزهد إخفاء الزهد"⁴، ومعنى هذا أن العلامات الظاهرة التي يبيدها البعض تعبيراً على نوع من الزهادة، لا يحقق وصف الزاهد التقي، وإنما يتركز الزهد في تنقية النفس، وصقل الروح وتخليتها بالفضائل، وهي عملية تطهيرية للداخل، تنعكس ثمراتها سلوكاً حسناً وعملاً صائباً، فالزهد عملية تتعلق بالخفاء وبالداخل، وهناك تكون، "لأن الجهر بالعبادة والزهادة والإعلان بذلك أقل أن يسلم من مخالطة الرياء"⁵، والرياء والعجب وغيرهما من الأمراض الذاتية التي يتعين علاجها بالتقوى والزهد، لإحلال فكرة الإيمان المنعكسة في ظاهر الإنسان، لتكون دالة على نضارة داخله، وليكون فعله في عمومته يتجلى لنا بمواصفات الكمال والجمال، وموافاة صور الحق تحققاً وتصرفاً.

ب/ الزهد تصوب لحركة الحياة الإنسانية: تظهر عملية الزهد والتقوى في النهاية سلوكاً نوعياً وعملاً رفيعاً يميز الإنسان الزاهد عن غيره، وهذا ما يتساوق مع المقاصد الإيمانية في إصلاح حياة الإنسان، وفق سنن ومنهج إلهي، إصلاح يعالج كل فساد وانحراف وميل، يقول الإمام: "طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وطوبى لمن لزم بيته وأكل قوته واشتغل بطاعة ربه، وبكى على

¹ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 09 ج 18، ص 127.

² - ابن باديس : تفسير ابن باديس، ص 109 .

³ - أحمد بن حنبل : المصدر السابق، ج 30، ص 324.

⁴ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 434.

⁵ - ابن أبي الحديد : المصدر السابق، ص 68.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

خطيئته، فكان من نفسه في شغل، والناس منه في راحة¹. إن هذا التصويب بهذه الآلية، هو محاولة للحصول على حياة طبيعية خالية من المفاسد، مملوءة بمعاني السلام والفضيلة والرشد خفاء وتجليا، بآلية الزهد والتقوى التي تعد عملية تقويمية تنقل الإنسان إلى وضع العبودية الحقيقية. إن مراد هذه العملية الانشغال بالنفس بالتهذيب والتربية والصقل، قصد بناء الحياة الداخلية، وعالم الخفاء في الذات، ليكون في حالة من السلام تهيئه إلى منح الأمن، ومعناه مسك الأذى عن غيره، تسير بهم نحو الاستقامة والرشد، "بالترغيب في العزلة عن إثارة الفتن واجتناب الفساد، وليس ترغيبا في الكسالة وترك العامة وشأنهم"²، ففهم صور الزهد فهما منهجيا، يركز على الفعالية في الأداء، والرشد في الحركة، والصواب في الإنجاز، لتكون حياة الإنسان زيادة محسوسة معتبرة في ذاته وفي غيره، وفي كلام آخر للإمام نرى كيف يصبو حركة ورؤية بعض الناس التي تفتقد للفهم والبصيرة بالدين، ولذلك الرجل الذي تزهد بلبس العباءة والتخلي عن الدنيا، قائلا له: "يا عدي نفسه! لقد استهام بك الخبيث، أما رحمت أهلك وولئك! أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها؟ أنت أهون على الله من ذلك، قال: "يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك، وجشوبة مأكلك" قال: "ويحك إني لست كما أنت، إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبغى بالفقير فقره"³، فقد ركز الإمام على منهج تعليمي هادف إلى تصحيح المفاهيم الخاطئة في الأذهان التي يترتب عنها ضرورة حياة خاطئة فاسدة، وعليه فإن كلام الإمام فيه "بيان أن لذائد الدنيا لا تبعد العبد عن الله لطبيعتها، ولكن لسوء القصد فيها"⁴، فالتصرف السيئ يجعل من هذه اللذائد تقع في حكم الفساد، ثم إن الفهم الخاطيء يعد فكرة شيطانية، يمثل هذا الفهم للزهد يصير مدخلا شيطانيا يفسد دين الإنسان ودنياه، ثم إن دائرة الحلال واسعة متاحة للعبد، لا ينبغي على الإنسان أن يقع في تضليل ذاتي نفسه بتحريمها، فهذه مجانبة وتصور خاطيء بلا سند.

وفي الشق الثاني من الكلام تأتي إجابة الإمام المتعلقة بزهد الذي يظهر عليه في ملبسه ومأكله دالة على وضع خاص واستثنائي بدلالاته، لأنه إمام الناس، ولغايات ترتبط بالقيادة الحكيمة والسياسة الرشيدة للناس بأسلوب إدارة حية للاقتداء بها، وهو دفع للغني لينطلق نحو الخيرية، وأداء

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة ص 242.

² - محمد عبد : شرح نهج البلاغة، ص 242.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 302.

⁴ - محمد عبده: المصدر السابق، ص 302.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

الواجب الاجتماعي، وهذا خاص بأئمة العدل، من أجل أن "يقيسوا أنفسهم بالضعفاء ليكونوا قدوة للغني في الاقتصاد، وصرف الأموال في وجوه الخير، ومنافع العامة، وتسلية للفقير على فقره، حتى لا يتبيخ، [= أي يهيج به] ألم الفقر فيهلكه"¹، من هنا تتضح معاني الزهد على أنه حركة نامية تصنع الحياة، وتدفع الفساد وتحث على ممارسة معنى الخيرية والصلاح، هذا المعنى في القدوة، أو الزهد المقصود، يصبح قدرة محرّكة صانعة للصواب في الحياة، معنى يدركه أفاضل الناس والكامل منهم، في تحريكهم المجتمع نحو مستقبله راشدا صائبا، تحمى فيه جميع النفوس الغنية والفقيرة، ومن ثم فإن نقاء الفضاء الداخلي وقوة الروح، وإشراق الخفاء بالأنوار المؤسسة يعطينا جلاء [= خارج] فرديا/اجتماعيا، فيه عظمة وجلال من الأعمال والسلوك الرفيع، وجمال في الأداء يعبر عن كمال الإنسان، ومجليا أثرا بينا ومثلا لكل زاهد تقي.

ج- الزهد تقوية للنفس، وتوجه من الدنيا إلى الآخرة: يأتي زهد الإنسان الحقيقي وتقواه لتزيد في صلابته ذاته وقوة روحه، وصفاء عالمه الخفي، مضاء بقوة الفكرة، منعا لهجوم تلك المزاحمات الخارجية الغريبة من دخول النفس، حتى تتمكن من السير نحو طريق الآخرة على بينة وهدى، ودون هذا الزهد والتقوى لا يمكن أن يتحقق السير، فبهما يجانب ضعف الذات، ويتجاوز العيش في حدود يومه، ومستلذ دنياه، يقول الإمام معبرا عن حاله: "وما أصنع بـ (فدك) وغير (فدك)، والنفس مظانها في غد حدث"²، حيث ينعطف الإمام بنفسه عن مطامع الدنيا ويخلع تعلقه وارتباطه بمتاعها سواء كانت (فدك) التي كانت للرسول ﷺ، أو غيرها، ليثبت مبدأه الذي يعمل له ويشغل نفسه به، وتعليل الإمام المقدم منه: أن الموت هو التكشف الحقيقي على بطلان الأخذ والغب من الشهوات والمتع، الأمر الذي يدفع إلى مسائلة جوهرية للمتناقضات والأضداد والثنائيات وغيرها؛ لماذا الشهوة؟ لماذا الزواج؟ لماذا الحياة الدنيا؟ ولماذا الآخرة؟! ومجمل هذه المستلخصات التي تقرأ بالتأول لعبارة الإمام: "والنفس مظانها في غد حدث"، أنه لا يمكن إحداث تعلقين في القلب [= الله والذات - الدنيا والآخرة]، قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظَلِّمُونَ فَتِيلاً﴾³، مما يتعين وضع مقايسة دقيقة ومنهجية، بأن المترکز في الذات فكرة الإيمان مطية الآخرة. ويتضح من كلام الإمام الموالي حقيقة هذه المفاضلة، وقيمة الزهد النوعية في تحصيل الآخرة،

¹ - محمد عبد : شرح نهج البلاغة، ص 302.

² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 383.

³ - سورة النساء: الآية 76.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

فقد قال الإمام "نوف البكالي": "يا نوف طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة"¹، فهذه التهئة ارتكزت على مقومات الفوز ومنهجية النصر بالبصيرة، ومن خلال عملية الزهد الممارسة تتحقق قوة النفس، وإشراق العالم الخفي للذات، هذه الإنارة الداخلية هي التي حولت الزاهدين إلى أناس تجلت في حياتهم الزاهدة عبودية خالصة. إن الإنسان الزاهد التقى هو إنسان استصلح عالمه الداخلي، وأضاءه بنور الفكرة، حتى رسخ الحق فيها، ففاض من هذه القوة الخفية، الإبحار في الأداء، فارتقت الذات إلى مشاركة علو رآته في الآخرة، وفي الجنة وجودا وخلودا.

4- الإنسان العابد: إن الهدف الرئيس من كل هذه التكوينية بناء الإنسان العابد، باعتبار العبادة مقصدا وجوديا، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾²، فاختصاصه في وظيفة محددة هي عبادة الله، تجعل من الإنسان المثال الدال على نوعه، نظرا لما ناله من تميز وكرامات ومنها العقل، حيث كرم وعلم وقوم، ويظهر أثر هذا في التفرقة بين العبادة الشكلية الحرفية، والعبادة الحقيقية الخالصة، وسنجد أن هذا العابد يبدي في ذاته روحا وتمثلا للحق من خلال صفاء طويته.

أ/ العابد والمنهج: يوضح الإمام سبيل العابد في سلوكه طريق الحق، والسير على منهج الله، هذا العابد الذي تدل هيئته على نقاء تام في نفسه وعقله، حيث ترسخت الفكرة فيه، فكرة الإيمان والتوحيد قوية مع الامتثال لأمر الله وطاعته وشكره، وتمثل فكرة العبودية كل هذه المعاني السامية التي تجعل ارتباط العبد بربه في كل ما صغر أو عظم هو غايته العليا، وقد نبه النبي ﷺ إلى خطر استصغار الأمور في خطبة "حجة الوداع" التي رضي بها الشيطان، لأنه يبني عليها إغواءه، وبذلك تضعف من قيمة عبودية العابد، وتزل به عن مرتبة الكمال، وقد تجتمع وتتراكم تلك الصغائر لتكون عظام قاتلة وحوائل بينه وبين نيل الوصف بالعبودية، لذا فإن تصحيح النظام الداخلي للذات، وبناءه على فكر قويم، هو سمت حقيقة العابد، يقول الإمام مبينا عن هذا الأمر: "العمل العمل، ثم النهاية النهاية، والاستقامة الاستقامة، ثم الصبر الصبر، والورع الورع، إن لكم نهاية فانتهاوا إلى نهايتكم، وإن لكم علما فاهتدوا بعلمكم، وإن الإسلام غاية فانتهاوا إلى غايته، واخرجوا إلى الله بما افترض عليكم من حقه، وبين لكم من وظائفه، أنا شهيد لكم، وحجيج يوم القيامة عنكم"³. وإن رأس فكرة هذه الدعوة، قول الإمام: "واخرجوا إلى الله بما افترض عليكم من حقه، وبين لكم من

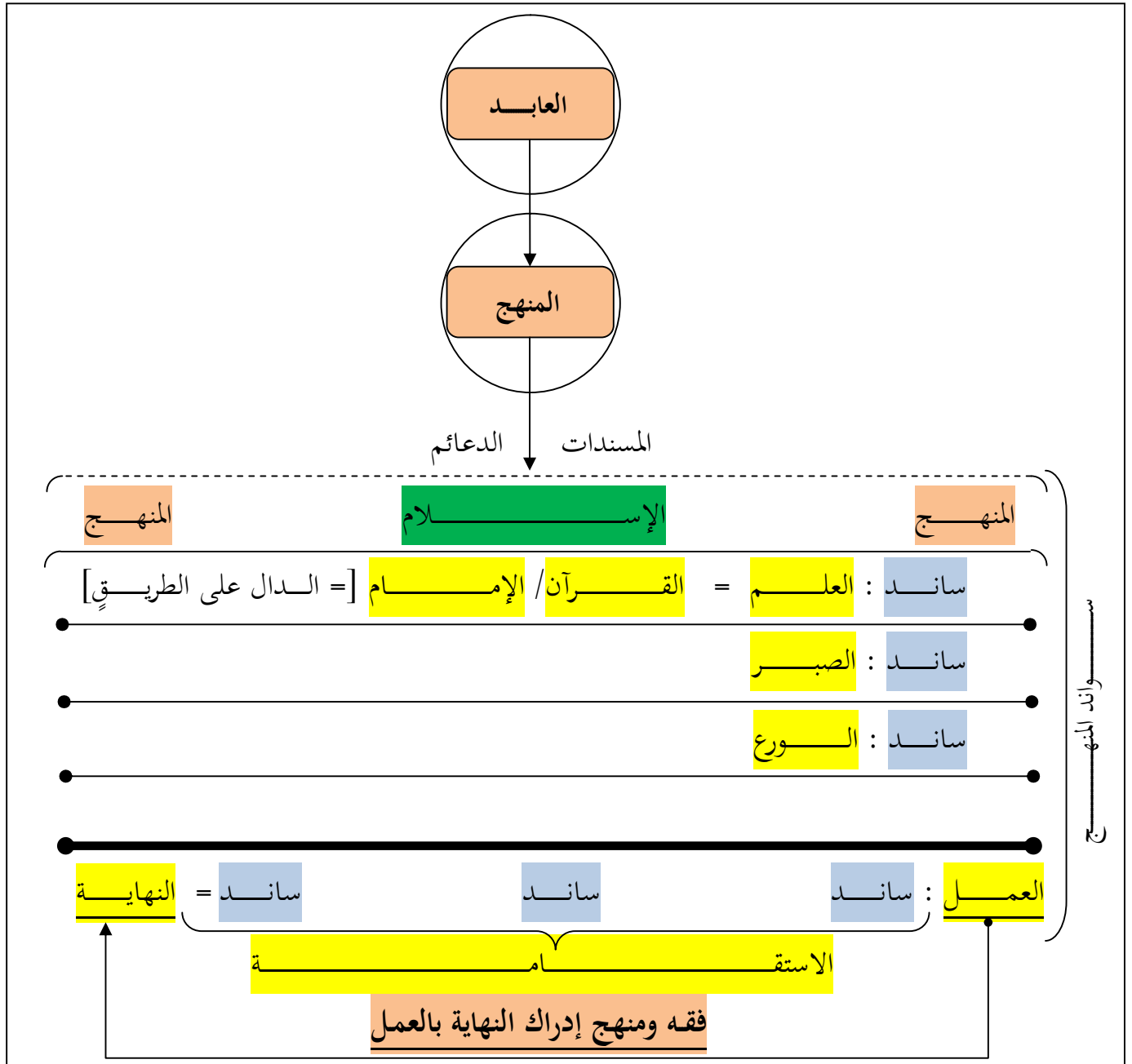
¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 445.

² - سورة الذاريات، الآية 56.

³ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 239، 240.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

وظائفه"، فهذا الخروج إنما يعني عبادته، وأداء المهمة التكليفية، والقيام بوظائف العبادة، وهذا بالسير على منهج محدد بمعاله الواضحة، ونوضح هذه العملية بهذه الترسيم الدالة:



- ترسيمة تبرز دور المنهج ومكملاته في بناء حقيقة العابد -

إن صورة العبادة الحقة، أنها عبادة علمية مؤسسة على علم و يقين، فإتباع المنهج يدل على الحق، وعلى إضاءة عالم الذات الخفي وانتظام أحوال النفس، لتبقى الروح حية مشرقة، تمكن الإنسان من تحقيق الرفعة، وهذه إمكانية التجلي الجميل في الإنسان، بواسطة مسندات ودعائم تصنع الصورة المثلى، وتنبئ عن كمال العابد في امثاله للحق، وترقيه بفعل الأداء المتميز إن طريق الحق على العبد شاق وصعب، ولذا فقد جعل الإمام له سواند داعمة له حتى لا

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

يتعثر في طريقه، ولا يضل عن قصده، من صبر وورع واستقامة وعمل وكتاب وإمام هاد، وتصور الخاتمة رحلة هذه الحياة، ولهذا يتعين على العابد القيام بوظائفه، أي "ما قدر الله لنا من الأعمال المخصصة بالأوقات والأحوال كالصوم والصلاة والزكاة"¹، وهذا دفع وتحضيض على العبادة والإغراء بإتيانها، وذلك لما للعبادات "من أثر في تكوين المسلم المثالي الذي يجب أن تكون له مكانة محترمة في المجتمع الفاضل"²، فالمسلم المثالي هو الإنسان العابد الفاضل مضيء درب الآخرين، وما يمكن ملاحظته أن هذه الأفكار التي طرحها الإمام هنا تتأسس على بعضها البعض في شبه لحمة تمنحنا في النهاية الإطار العبادي، ومنهج الحق الذي يتبعه العابد، حتى تتركز في داخله أنوار الإيمان والحق، وهذا ما يمنح لروحه القوة ولنفسه الضوء ولذاته الحيوية، ينعكس متجليا في سلوكه وعمله، وبهذه الكيفية يستطيع أن يجسد المراد الإلهي، من استخلاف وعمارة وعبادة وتعارف.

ب- أمارات العابد وهيئته: تجسد أفكار وأوصاف عالم خفاء الذات، تجليات هيئة إنسان عابد، وكما قلنا أن الإمام قد أسس لحديثه عن منهج العبادة بأفكار تأخذ برقاب بعضها بعضا وهي العمل، والنهاية، والاستقامة، والصبر، والورع، والعلم [= القرآن/الإمام]، والإسلام [= وهو المنهج في حد ذاته]، ثم الخروج إلى الله بما افترض بأداء الوظائف، فقد شكل العطف الدال على التراخي هذا البنيان المنهجي المنطلق من قاعدة العمل والمنتهي بامثال طريق الحق، وسيتجلى هذا العارف العابد للناظر بأمارات وهيئة دالة، من خلال تمتعه بخصائص نوعية تعبر عن كمال إنساني أخذها من معلم الحق وذلك المنهج الواضح، يقول الإمام واصفا هيئة هذا العابد: "تراه قريبا أمله، قليلا زلله، خاشعا قلبه، قانعة نفسه، منزورا أكله، سهلا أمره، حريزا دينه، ميتة شهوته، مكظوما غيظه، الخير منه مأمول، والشر منه مأمون، إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين، وإن كان في الذاكرين لم يكتب من الغافلين، يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، بعيدا فحشه، لينا قوله، غائبا منكروه، حاضرا معروفه، مقبلا خيره، مدبرا شره"³. إن هذه الهيئة التي يبدو عليها الإنسان العابد بأمارتها التي قدمها الإمام في متواليه من الصفات البديعة المشرقة، تجعل منه علما كماليا.

ذكر الإمام من أحوال هذا العابد، أو ما يشكل عامله الداخلي الخفي أنه: خاشع القلب، قانع النفس، فالقناعة والخشوع هي المكون الجوهر للإنسان العابد، حيث يضع الطمأنينة في

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 240.

² - محمد فلاق عريوات: النزعة المثالية في نهج البلاغة، ص 245.

³ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 268.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

الصدر، لتنتقل من هذه الإشراقة مختلف التجليات التي تكون صبغة العابد، ثم ذكر الإمام مجموعة هائلة من الأمارات الدالة على وصف هيئة العابد بلغت في هذه المقولة ستة عشر صفة، وفي باقي الكلام فاقت العشرين، وهي في مجموعها تعطينا صورة كاملة عن تشكيل هيئة هذه الذات العابدة، حيث تظهر فاعلة إيجابية، عادلة، سالحة، خيرة، مطواعة، ثابتة، مسالمة، معطاءة، زكية، قوية صلبة، شاكرة، صبورة، متوازنة، صافية، مؤدية للأمانة، معترفة بالحق، إنها هيئة كمالية بامتياز، ومن العناصر الملفتة في هذا التوصيف المبرز لهيئة العابد ما ذكره الإمام من أحوال هذا العابد، في قضية ارتباطه بخالقه، أي وضعه في الذكر، حيث يتجلى بحالين، وضع خفاء ووضع بادية:

أ- في وضع الخفاء: الذكر بالقلب: "إن كان في الغافلين ← كتب في الذاكرين".

ب- في وضع التجلي: الذكر باللسان والقلب: "وإن كان في الذاكرين ← لم يكتب من الغافلين".

يستخلص من هذا المعنى، أنه " كان بين الساكيتين عن ذكر الله فهو ذاكر له بقلبه، وإن كان بين الذاكرين بلسانهم لم يكن مقتصرًا على تحريك اللسان مع غفلة القلب"¹، وهذا قمة الإظهار التي يتصف بها الإنسان العابد، حيث يكون الذكر علامته، وهنا نضع هذه الهيئة الأخيرة المتعلقة بذكر الله والارتباط به، هيئة كمال العبودية وصورتها المثالي، خفاء وتجليًا علامة الإنسان العابد تعريفًا وتوصيفًا، ومع هذه الهيئة المطلوبة من العابد تمثلها، يلفت الإمام إلى هذه الأهمية من تذليل النفس لتركب الحق، وتمشي على طريق المنهج المعد، فيقول: "فاتقوا الله الذي نفعكم بموعظته، ووعظكم برسالته، وامتن عليكم بنعمته، فعبدوا أنفسكم لعبادته، واخرجوا إليه من حق طاعته"²، فالدعوة إلى التقوى هنا تزامنت مع تذكير الإمام بالنعم الموجبة للعبودية، والسير في طريق الحق بيقين وثبات، فالتقوى من العناصر المهيئة لكمال العبودية إنماء وتنقية لجوهر الذات، حتى تنتقل في هذا المسار البين الحق، ثم هي مرتبطة بأداء واجب الشكر على جلائل النعم المعنوية التي أنقذت الإنسان من الضلال، [= الكتاب والنبوة والإسلام]، وهنا يقف الإنسان العابد أمام هذه الأسرار العظيمة موقف التعظيم الذي يكون بألية واحدة كما حدد الإمام:

- تعبيد النفس لله: [تذليلها]، في العبودية.

- الخروج إلى طاعته: [= بأداء ما افترض]، في العبادة.

إن العملية المرتبطة بهيئة العابد بأمارات بينة نلاحظ أنها لا مست عالم الخفاء الداخلي

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 286.

² - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 293.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

للذات، وأما تجليها الخارجي، فتظهر العبد في صورة إنسان متجه بكليته إلى الله عابدا له. إن هذه الهيئة الجليلة التي تبرز صورة الإنسان العابد الحقيقية كدين يلازمه، تمثل أداء لوظيفة وضرورة ميسرة مع لحظات حياته، يرفقها الإمام بتأدب رفيع دال على كمال فهم ووعي وروح شفافة، حيث يقول: "لو لم يتوعد الله على معصيته، لكان يجب أن لا يعصى شكرا لنعمه"¹، فالمحددات في الطاعة والعبادة والنعم تخضع إلى سنة الشكر، وإن افتراض سقوط العقوبة يوجب الطاعة والعبادة لذات الاعتبار، وهذا التصور إنما يعبر عن عمق في الفهم وكمال صورة الإنسان وهيئته العاقلة، وهذا التأدب الرفيع الكامل، إنما يتأسس على المعرفة، أي معرفة الخالق، فمن عرفه سبحانه عبده، وهو ما يفترض ضمنا أن لا يتخاطر على النفس عصيانه، وهذه الهيئة، إنما هي أمانة دالة على تجل في أعماله وسلوكه كهيئات دالة على تعبد خالص.

ج/ العابد وكمال التوحيد: يرتبط الإنسان العابد في عبوديته لله بفكرة التوحيد، أي أن التوحيد هو الذي يمد الإنسان بهذه الروح، وما العبادة إلا الترجمة المباشرة لتلك الفكرة، وهي معرفة مستخلصة منها، وعليه فإن كمال توحيد الإنسان هي الدافع الذي يحث سير الإنسان إلى عبادة الله، يقول الإمام: "إن الإيمان يبدو لمظة في القلب، كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة"²، فالإيمان إنارة لداخل الإنسان، فكلما ازداد هذا الإشراق الداخلي، كلما ازداد ألقه المتجلي أداء وعبودية، ففي عالم الخفيات يكون القلب محتاجا إلى تغذية وسقي بالإيمان مستلخص التوحيد ومتولده، بحيث تتناسب الزيادة بين الفكرة والقلب، دليلا على هذا الارتباط الحيوي بينهما، حيث تثبت للقلب تغذيته بالإيمان والفكرة، كما يثبت الإيمان ازدياده، أي تغذيته بالمعرفة والتوحيد، حيث يقود إلى إحداث تغيير منهجي في حياة الإنسان، تبدل تصنعه كلمة التوحيد الجليلة، "فلا إله إلا الله تعني أن يرفع الفرد العادي البسيط المغمور رأسه، الفرد الذي دأب المجتمع على نسيان حقوقه"³، وهذا عين الكمال، ورأس العبودية، وأس الإيمان، ليحقق منعة الذات من الذوبان والضياع أمام مطارق القهر والظلم في المجتمع، وهنا يولد الإنسان الحق، إنسان الإيمان، الإنسان العابد.

ومن الصور المثبتة لكمال توحيد الإنسان العابد، فضيلة الدعاء باعتباره مفتاح ومخ العبادة، يقول الإمام: "ما المبتلى الذي قد اشتد به البلاء، بأحوج إلى الدعاء من المعافي الذي لا يأمن

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 478.

² - المصدر نفسه، ص 470.

³ - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 207، 208.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

البلاء"¹، والدعاء من أعظم صور العبادة إثباتا لروحها وإظهارا لحقيقة توحيد الإنسان لربه، وهو يتوجب في حق المعافي الآمن، لأنه عبادة كذلك، "لأن المعافي في الصورة مبتلى في المعنى، ومادام الإنسان في قيد هذه الحياة الدنيا فهو من أهل البلاء على الحقيقة ... فوجب أن يتضرع إلى الله تعالى أن ينقذه من بلاء الدنيا المعنوي، ومن بلائها الحسي"²، وتكمن فاعلية نشاط الدعاء في تحريك الإنسان تحريكا داخليا، ينمي فيه القوة الخفية، ويثبت فيه خضوعه وحاجته، ومن ناحية التجلي هو تزكية للفعل والسلوك، وإنجاح للعمل، فمتى تظهر العبودية؟!!

يعلن الإنسان من خلال الدعاء إظهار ضعفه ورقته، وهذه هي حقيقة العبادة، وبهذا يصبح

الدعاء دالا على حالين:

أ- حالة توحيدية خالصة؛ ارتباطا [= بالله].

ب- حالة تعبدية خالصة، عملا وسلوكا [= لله].

يعد هذا كمال توحيد، وكمال عبودية، وبه يتم تغطية نطاق الحياة بمشمولاتها الحسية والمعنوية، وينعطف إلى الآخرة لنيل الرضوان والرحمة والجنان والإمداد بالتوفيقات التي تحصل هذا المراد والمبتغى الحقيقي، وصل يربط الدنيا بالآخرة والعبد بالله، ففي عالم الخفاء تكمن قوة الروح، وصلابة النفس وإرادة الذات التي تتأسس فيها فكرة الحق، بعد تزكية وتهذيب وصقل مستمر من عمل الزهادة والتقوى، وهي الإضاءات الجوهرية التي تشرق بتجلياتها على ذات الإنسان، حيث تكمل فيه مختلف الصور التي تظهر كماله الإنساني في كل أداء وعمل وسلوك، وفي كل أسلوب يتطلبه وضع ما، إنها التجليات التي تشعره بأنه واقع تحت نظر الله يراه فيرضى عنه ويباهي به، ويراه الناس فيحمدون صورته، ويجلونه، ويقتدون بسيره، لأنه صار كمالا دالا على الحق، وقائدا إلى الحق.

5- تجليات جماليات سيما الكمال: إن تطبيقات المبدأ الكوني/الإلهي، نرى تجلياته في مختلف المناحي، أي رؤية الجمال الإنساني ثابتا متساوقا مع كل تجل، وكما يقول "الرافعي": "وما أسماها نظرة تكشف للإنسان أن الكل جماله في الكل"³، فالكل في جماله، يكون جميلا بفكره وروحه وأخلاقه وسيرته وأدائه وعلاقاته، وهذا عين الكمال، ولنرى بعض صور هذه التطبيقات بأحوالها

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 280.

² - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة مج 10 ج 19، ص 95.

³ - مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، مج 1، ص 24.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

يقدمها لنا الإمام، بإشرافها الوظيفي الحي، في دلالة على سياحة إنسانية كونية حكيمة تجسد منحى الحب والسلام والحق والتعبد والعلاقات، ومن صورها:

نوع الجمالية	التمثيل النصي الدال من النهج	التأويل
جمالية المسألة في الطلب.	- يقول الإمام : "فلتكن مسألتك في ما يبقى لك <u>جماله</u> ، وينفي عنك وباله، فالمال لا يبقى لك، ولا تبقى له" ص 367.	ويعني استثمار الإنسان في جمال الصالح من الأعمال الباقية، وقاعدته: ما يبقى جمالا وينفي القبح بأضراره.
جمالية الحلال والجمال = جمالية اللذة	- يقول الإمام : "... وساعة يخلي بين نفسه وبين لذتها في ما <u>يجل ويجمل</u> " ص 494.	إن الحلال صلاح وجمال، وقاعدته : قيام جمال اللذة على معارضة بين الحلال والاستحلال، فمن الجمالية الظفر به.
جمالية الأثر التعبدية :	- يقول الإمام : "وعن ذلك ما <u>حرس الله عباده</u> المؤمنين، بالصلوات والزكوات ومجاهدة الصيام في الأيام المفروضات، <u>تسكيناً لأطرافهم، وتخشيعة</u> لأبصارهم، <u>وتذليلاً لنفوسهم، وتخفيضاً لقلوبهم، وإذهاباً للخيلاء منهم</u> " ص 276.	يفيض الجمال الإلهي على الإنسان بذلك التعهد، بالحراسة الضابطة، وقاعدته : جمالية حراسة إيمانية، وألطف ورحمات إلهية، وأما ضابطه فما يظهر من الأثر الروحي/العبادة، والأثر السلوكي/التواضع، والأثر الاجتماعي/مع الآخر، والأثر الكوني/ التأمل.
جمالية وصف حسن الجنة.	يقول الإمام : " <u>درجات</u> متفاضلات، <u>ومنازل</u> متفاوتات، لا ينقطع نعيمها، ولا <u>يطعن</u> مقيمها، ولا <u>يهزم</u> خالدها، ولا <u>يبأس</u> ساكنها" ص 114.	وهي جمالية قائمة على المفاضلة، بذكر نعيمها، وأحوال السرور فيها، وقاعدته : تحفيز الإنسان للعمل لنيلها، وتعمل المخيلة على محاولة تقريب الصورة، فهي جمالية نبذ الدنيا بمخيلة جنانية، بهذا الوصف الرفيع العالي لها.
جمالية العفو والسلام	- يقول الإمام : "إن <u>أولى</u> الناس بالعفو <u>أقدرهم</u> على العقوبة" ص 484.	إن جمالية العفو والسلام هي قوة تغير الأوضاع والأحوال، وتحوّلها إلى عنصر بنائي كوني جمالي بالمحبة بين الناس، امتداداً لفكرة التعارف والتعاون، وقاعدته : أنه لبنة رئيسة تعطي الطاقة وتمنح فرص الحياة.
جمالية العلم والفكر والأثر العبادي	"انظروا إلى ما في <u>هذه الأفعال</u> من <u>قمع</u> نواجم الفخر، و <u>قدع</u> <u>طوالع</u> الكبر، ولقد نظرت فما وجدت أحد من العالمين يتعصب لشيء من الأشياء إلا عن <u>علة</u> <u>تحتل</u> تمويه الجهلاء، أو <u>حجة</u> تليط بعقول السفهاء غيركم، فإنكم تتعصبون لأمر لا يعرف له سبب ولا علة، أما إبليس فتعصب على آدم <u>لأصله</u> ، وطعن عليه في خلقته، فقال : "أنا ناري وأنت طيني". وأما الأغنياء من مترفة الأمم فتعصبوا <u>لآثار</u> مواقع النعم، فقالوا : "نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ". [سبا 35] ص 277.	إن جمالية الأثر العبادي تركز على معالجات نواجم الفخر، وطوالع الكبر، والمفاسد، وقراءة مشهد تعصب إبليس قراءة ذكية واعية، والنظر في أحوال المترفة وأهل العصبية، وقاعدته : - جمالية التواضع. - جمالية الشكر. - أهمية الإدراك و الوعي وتمثل الإمكان المتاح.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

<p>وهنا نجد تأكيد الإمام على جمالية الداخل، بالأخلاق التي تبني جمال الإنسان، وتبنت صور الإضاءة الداخلية، أي إنارة الداخل الجواني، بعين جمالية، جمالية تعني مخرجات حية في واقع الحياة، وقاعدته : العمل الذاتي المستمر لإنارة النفس بالأخلاق والأوصاف الحسنة، فالأمر يعتمد على <u>تحسينية ذاتية بالتركيب</u>.</p>	<p>"إن كان لا بد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأفعال، ومحاسن الأمور...، فتعصبوا لخلال الحمد من الحفظ للحوار، والوفاء بالذمام، والطاعة للبر، والمعصية للكبر، والأخذ بالفضل، والكف عن البغي، والإعظام للقتل، والإنصاف للخلق، والكظم للغيظ، واجتناب الفساد في الأرض" ص 277.</p>	<p>جمالية العصبية الحميدة، أو جمالية الداخل (الأخلاق والأوصاف)</p>
<p>إن الصمت عن الحكم لا ينصف الحق، كما يؤكد غياب الجمالية، وهو من الحكمة، تقتضي تمثل الحق، ولا جمالية في القول بالجهل، لأن ذلك حيف وتشويه لروح الجمالية، وقاعدته: أن الخيرية الحقبة القول بالعلم، وجمالية الصمت تكمن في الصمت عن الخوض في الباطل، وهي من مستلزمات انطلاق النفس الجميلة.</p>	<p>يقول الإمام : " لا خير في الصمت عن الحكم، كما أنه لا خير في القول بالجهل " ص 505.</p>	<p>جمالية الصمت جمالية القول :</p>
<p>يؤدي التواضع والخوف إلى رفعة الإنسان، بحيث يمكنه من استغلال قواه وطاقاته، وقاعدته : أنهما الأسلوب الأمثل ليعرف معنى الإنسانية، ولمعرفة الله، فهذه جمالية كمالية، وبصيرة لبصر الآخرة، جنة المتواضعين الخائفين، وهالة الجمال وظلاله.</p>	<p>يقول الإمام : "ضع فحرك، واحطط كبرك، وأذكر قبرك" ص 494.</p>	<p>جمالية التواضع وجمالية الخوف</p>
<p>يتعين أن ينظر المؤمن إلى الدنيا نظرة اعتبار، وتفادي تقلبات أحوالها، وقاعدته : النظر إلى يوم القيامة، حيث الفرح والمسرة، وعليه فالدنيا هي المرأة التي بها يرى الإنسان الآخرة، برؤية جمالية استشرافية.</p>	<p>" وإنما ينظر المؤمن إلى الدنيا بعين الاعتبار، ويقتات منها ببطن الاضطرار، ويسمع فيها بأذن المقت والإبغاض، إن قيل أترى، قيل أكدي، وإن فرح له بالبقاء، حزن له بالفناء، هذا ولم يأتم يوم فيه يبلسون" ص 489.</p>	<p>جمالية النظر إلى الدنيا</p>
<p>إن حسن العلانية = جمال الظاهر، لا يقيم اعتبار الإنسان، وقبح الباطن يهدم قيمته، فجمالية جوانية الإنسان هي حقيقته الثابتة، وهي ما يفيض جمالا على ظاهره، وقاعدته : الدعاء بالإعانة، لإضاءة هذا الداخل، أي جمالية الداخل، لخطورة الأمر وصعوبته.</p>	<p>- يقول الإمام : " اللهم إني أعوذ بك من أن تحسن في لامعة العيون علانيتي، وتقبح في ما أبطن لك سريري، محافظا على رياء الناس من نفسي بجميع ما أنت مطلع عليه مني، فأبدي للناس حسن ظاهري، وأفضي إليك بسوء عملي، تقربا إلى عبادك، وتباعدا من مرضاتك" ص 476.</p>	<p>جمالية الاستعادة من حسن الظاهر وقبح الباطن</p>
<p>تعتمد هذه الجمالية على الأحوال الجوانية، وفكرة روحية إيمانية، فظاهره البشر في الوجه، وباطنه الحزن في القلب، وتقوم سيما المؤمن الجمالية على تثبيت معالم العالم الروحي في ذات الإنسان، وقاعدته: أن جمالية المؤمن،</p>	<p>يقول الإمام : " المؤمن بشره في وجهة، و حزنه في قلبه، أوسع شيء صدرا، و أدل شيء نفسا، يكره الرفعة، و يشنأ السمعة، طويل غمه، بعيد همه، كثير صمته، مشغول وقته، شكور صبور، مغمور بفكرته،</p>	<p>جمالية البشر سيما المؤمن الجمالية.</p>

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

ضمين بخلته، سهل الخليقة، لين العريكة، نفسه أصلب من الصلد، وهو أذل من العبد" ص484.	جمالية جوانية، مستغرقة في العمل مشرقة على ظاهره.
---	--

إن العلامة الجمالية التي يمكن أن نضعها دالا على خاصية الكمال الإنساني، قول الإمام : "قيمة كل امرئ ما يحسنه"¹، فجماليته في الأداء ودوره الفاعل الحي، هو ما يحدد منزلة الإنسان، حيث يمتاح من هذه الأطر الجمالية، في تنظيم النفس جماليا، وتنظيم الحياة جماليا. إذن فالجمال فكرة تميز أداء الفعل الإنساني، وصولا إلى الرشد، وانطلاقة حية واعية في الحياة، وربط وظيفي قائم على مبدأ التعارف والتعاون يقيم جسر العبور من الجوانية، إلى الآخر، إلى الكون، إلى الله، إلى الجنة، ومن ثم فهي إضاءة داخلية للعالم الإنساني بالجمال، ليرى الجمال الكوني، وتجليات الجمال الإلهي، وخاصية وقائية للإنسان، فكل سقوط يكون معه إمكان ارتقاء فبعد كل عثرة ونزوة وخطرة وشهوة، هناك إمكان تصحيح وإضاءة لجوانية الذات، حتى تستعيد ألقها بتجليات العبودية.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 441.

المبحث الثالث : الجوانية والبرانية :

إن تحقيق معنى الإنسان لن يتعدى أسوار الجسد، ولن يخرج من دائرته الداخلية، ففي النفس تكمن الواقعة الإنسانية، في ذلك العالم الجواني يمكن العثور على المعنى، ولن تقول لنا هذه الواقعة إلا وصفا واحدا، الإنسان معنى، هذا المعنى الذي نراه يخرج من الذات إلى العالم البراني وتحدده تلك الحقائق البادية. إن الانطلاق من عالم الذات الداخلي قد يوصل إلى فهم عمق النفس وجوهرها، والفكرة المنشئة لهذا الداخل، وسيحدد الانطلاق من جوانية النفس إلى خارجها الطابع الذي تكون عليه الذات: التعريف والوصف والمظهر وخيرها أو شرها. إن الذي يصنع في داخل الذات هو الرجوع الذي نعود إليه في كل المحددات.

أ/ المفهوم التعريفي للحقيقة؛ الذات الجوانية إسقاطا على برانية الإنسان: يمكن تلمس هذا المعنى الداخلي للذات، حيث تصنع حقيقة الإنسان، من خلال حديث النبي ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات". إشارة واضحة إلى انعقاد العمل في داخل الذات، فمن الجوانية تخرج صور الأعمال، وقد أشار الحديث النبوي إلى خطوطها العامة، فالنية تماثل الجوانية، والوجهة تماثل البرانية، حددها في وجهتين، وهذا ما نوضحه بهذه الترسيمية:



وهذا معناه أن الخط البراني الخارجي الذي يظهر أعمالا، إنما يتحدد في داخل الذات في الجوانية، أي الفكرة التي تصنع الحياة والمصير النهائي، يقول الإمام في آل البيت: "فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع، وأراكم ما كنتم تأملون"¹، ويعود تكامل الصنائع فيهم إلى ذلك النور المنبعث من النفس، والإعداد والتهيئة الداخلية، المتعلقة بتنشئة الروح على قيم الحق والطهارة، مما يجعل من هذا العالم الجواني قائدا إلى إنجاز المحامد ورفيع الأعمال والأفعال الجليلة، فهذا العالم البراني الذي يظهر ذواتهم، هو ترجمة عملية لإشراق الروح، وما هو هذا الإشراق يتجلى في هذا المنح الإلهي، من خلال تلك الأنوار في رؤية المأمول الأخرى، وما هذا التكامل إلا نتاج الروح الشفيفة التي انبثقت من أنوار الحق، ومن روح الفكرة الإيمانية، وحتى تصفو عوامل الذات من الدخائل الممرضة يتعين دائما المحافظة على ذلك الصفاء الجواني، وما يمنحه من إشراق وتحصيل

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 146.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

معرفة روحية أصيلة تثبت كرامة الإنسان وتميز أدائه البراني بالرفعة وجلال الأفعال، يقول الإمام متحدثاً عن التحولات في الزمن وإغراقات الفتن فيه: "وذلك زمان لا ينجو فيه إلا كل مؤمن نومه، إن شهد لم يعرف، وإن غاب لم يفتقد. أولئك مصاييح الهدى، وأعلام السرى، ليسوا بالمساييح، ولا المذاييع البدر، أولئك يفتح الله لهم أبواب رحمته، ويكشف عنهم ضراء نقمته"¹. في تبدل الزمان ومتغير الأحوال وقت الفتن العاجلة بالشر والسوء، حيث عدوى الأفكار السيئة تصيب النفوس فتلوث الأرواح، وتفسد جوانية الإنسان، فإن الناجي من الناس هو ذلك المؤمن النومة، النائم عن مشاركة الأشرار شرهم، وهذا يعني بالتأول الدال ذلك الإنسان المحافظ على جوانيته، مستضيئة بنور الإيمان، ومن علاماته أنه في شهوده لا يعرف وفي غيابه لا يفتقد، "فإذا رأوه لا يعرفونه منهم، وإذا غاب لا يفتقدونه"². فبرانيته خيرة لا تتوافق مع برانية أهل الشر وما هم عليه من فساد، فقد منحته الطوية الحسنة، وروحه الصافية بالإيمان عالماً جوانياً خيراً ميزته بأوصاف كمالية تنزيهية، فهم:

- | | | | |
|------------------------------|---|--------|--|
| تخليّة جوانية لتخليّة برانية | [| تخليّة | - مصاييح الهدى = إضاءة غيره بالهدى. |
| | | تخليّة | - أعلام السرى = أعلام الطريق. |
| | | تخليّة | - ليسوا بالمساييح = السائح بين الناس بالفساد والنميمة. |
| | | تخليّة | - ولا المذاييع البدر = إذاعة أسرار الناس. |

إن الأعمال البرانية البادية، تظهر عظمة الإنسان، وعظمة فعله، فبعد أن حقق كماله في نفسه صار علماً لغيره، وهذه هي قيمة الإنسان صاحب الإشراق بالمعرفة، وقوة الروح، ومن تلك الجوانية الصافية التي يكون عليها والبرانية التي تبدو جلية في خارجه متوافقة مع عالمه الروحي يتحقق له الفتح الإلهي بالرحمة، وتنزاح النقم عنه، أو هو بهذا التأهيل يصبح برأي "ابن أبي الحديد": "ببركاتهم يكون الخير و يندفع الشر"³، وهذا تجلي براني ناتج عن صفاء داخلي جواني، وثمرّة الإيمان، كما يمكن أن تعني "كلمة التأمل الأرقى، وكلمة الخروج من الظلمات، وفيض النور الذي تتمتع به النفس في لحظات"⁴، لحظات إشراق روعي تظهر لنا الصقل والتميز والأناقة في الحضور. إن من تجليات هذه الموافقات بين العالمين الجواني والبراني، ذلك الارتباط الدقيق الذي

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 149.

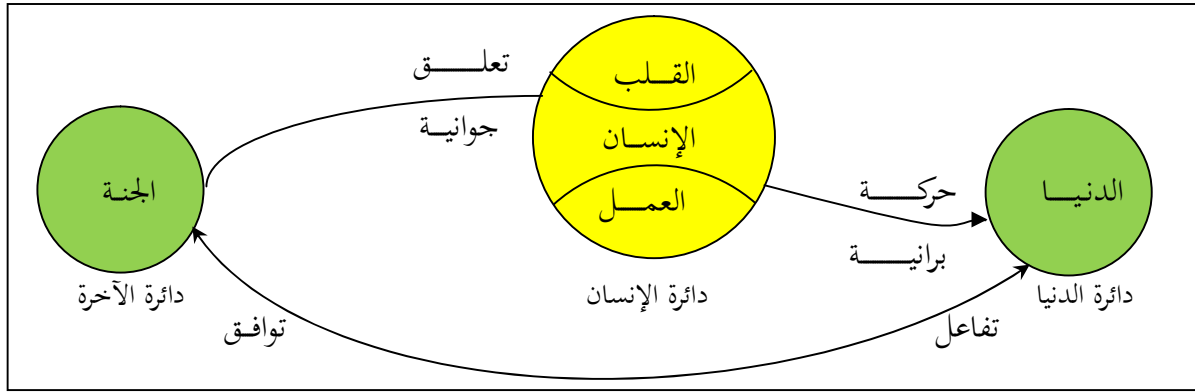
² - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 149.

³ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 04، ج 07، ص 67.

⁴ - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 215.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

يتأسس في الذات الإنسانية المؤمنة، حيث ينطلق من هذه الروح إشعاع بالإشراق المعرفي الممتد إلى خارج الذات، بل وإلى خارج حدود الأرضي المحدود، من نطاق الدنيا إلى الآخرة، وإلى عالم الجنة، حيث يصبح القلب حالا فيها، وتصبح الجنة ضيفة هذا القلب تسكنه فكرة وتضايفه رؤية وتشوفا وتشوقا، تزرع بفيضها على جسد تحركه عاملا لهذا الهدف الأسمى، وبذلك يصبح عالمه البراني ناطقا بهذه الفكرة المتسامية المحلقة في فضاء سماوي، يقول الإمام واصفا أحوال هؤلاء المدركين لمعنى وجودهم الحق: " .. قلوبهم في الجنان، وأجسادهم في العمل"¹. مقولة تكشف عن ارتباط العالم الجواني والبراني، من خلال القلب والجسد، فالقلب يمثل العالم الجواني، وأما تجليه فتعلقه بالجنان، والجسد يمثل العالم البراني، وأما تجليه فكونه في العمل، وهو ما نوضحه بهذه الترسيمة:



- ترسيمة كاشفة لارتباط عالمي الجوانية والبرانية وتوافقهما عملا وهدفا -

ويتحقق هذا التوافق عندما يتم القضاء على التضارب بين الفكرة في داخل الذات، والعمل والهدف والغاية التي ترسم خارجها، مما يعني أن أسرار هذا التحلي، إنما هي صورة دالة على تلك المحاولة الجريئة للوصول إلى حالة التوازن، وإن الدين والإيمان يمكن من هذا، حيث "يؤكد أن هناك مركزا جوانيا في كل إنسان يختلف عن بقية العالم، وهو أعمق ما في هذا الكائن الإنساني ألا وهي النفس، والنية خطوة إلى أعماق الذات، وهناك يتبنى الإنسان الفعل أو يحققه ويؤكد تأكيدها جوانيا، قد يقوم به في العالم الخارجي وقد لا يفعل، إنما العالم الجواني قد تحقق وانتهى، بدون الرجوع إلى هذا العالم الجواني يصبح عمل الإنسان عملا آليا، مجرد صدفة في العالم البراني الزائل"²، وبهذا يتضح لنا أن العالم الجواني هو الأصل في الإنسان، بينما يكون العالم البراني ملحقا به، ففي أعماق النفس يتم تبني الفعل، ولا معنى لأعمالنا من دونه، وبهذا تخرج المصادفات والترجمة الآلية للعمل من كل

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 283.

² - بيغوفيتش علي عزت: الإسلام بين الشرق والغرب، تر محمد يوسف عدس، مؤسسة بافاريا، دار النشر للجامعات، مصر، 1997، ط 02، ص 181.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

تقييم، والأمر الآخر الذي يثبت هنا يتمثل في ضرورة الاهتمام بالعالم الجواني الذي تتأسس فيه الحقيقة الإنسانية دون إقحام من خارج هذا الجوهر، وهذا يثبت المبدأ القرآني المقرر في حقيقة النفس، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾¹، فالتسوية إلهية، بما تحمل من تهيئة لتقبل الأفكار الخيرة والفاصلة، ثم تأتي نقطة المركز أن التركيبة والتدسية هي فعل الإنسان، وهو فعل حر لا إرغام فيه، وبالرجوع إلى كلام الإمام فإن الفكرة التي تتأسس في قلوب المؤمنين، هي فكرة الحق والصلاح، لأن النفس قد تعلقت بالمعرفة الصحيحة [= الإيمان] المنبثقة من أعماق هذه الروح من ذلك العالم الجواني، لذا تحركت بالعمل لا على سبيل المصادفة والآلية، بل بدفع من الفكرة المتركة في جوانية الذات، وأعلنها الخارج البراني عملاً متحققاً. وتزيدنا المقولة الآتية للإمام تأكيداً وصحة بيان دال على قيمة الفكرة التي توضع في عمق النفس إلى درجة تكون فيها هي والذات واحداً لا مضافة فيه، ورمزاً محققاً لأننا في إثبات ذلك الجوهر الداخلي الذي يكونه الإنسان، كوجهي العملة الواحدة يعبران عن محدد واحد هي نوع تلك القطعة، يقول الإمام: "ولا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق"²، وهذا من قمة المعرفة التي يصل إليها الإنسان، معرفة تعبر عن كمال، وترجمة مباشرة لذلك الإشراق الروحي الذي تكون عليه الذات، فقد أسس هذا الإنسان لهذه الفكرة الإيمانية العظيمة في عالمه الجواني، تأسيس علم ومعرفة وثبات، "فليس الإنسان بما يفعل بل بما يريد، بما يرغب فيه بشغف"³، لأن ما يحدد جوانية الإنسان هي الإرادة القوية، وهنا نرى أن فكرة الإيمان تصبح هي والإنسان واحداً، كالدم الذي يسري في العروق به يقوم هذا الجسد، وفكرة الإيمان هي روح الإنسان الجوانية، وهي الناطق ببرانيته، بمعنى أن العالم البراني تابع للعالم الجواني، لأن "الجسم بلا أفكار جثة هامدة، والأفكار بلا جسم ظلال باهتة"⁴، وهكذا تصبح الفكرة هي الإنسان في النهاية، هي مستقر جواني في النفس، بينما يمثل الجسد بهذه الفكرة تجلياً برانياً، وعلامة دالة على إشراق معرفي لخصه الإمام في ثابتين:

الثابت = تجلي الجواني البراني: لا يدخل: [= في الباطل] + لا يخرج: [= من الباطل].

¹ - سورة الشمس، الآية 7-8-9-10.

² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة ص 286.

³ - علي عزت بيغوفيتش، المرجع السابق، ص 181.

⁴ - محمد عبد الرحمان مرجبا: الفكرانية، ص 472.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

وما يمكن قراءته من خلال هذا التجلي العالي، أن العوارض الخارجية، وتلك المناوشات التي تأتي مراودة للنفس لإفسادها وإخراج الإنسان من مركزه من الفطرة والإقامة في الحق، وإحداث خلخلة في التنشئة الروحية، تصبح مع هذا العالم الجواني المشرق مستحيلة، ويزيد هذا الاختبار الذات ثباتا، بل وإشراقا، وقوة ومنعة ومعرفة، "فإنسان داخلي، هو حسي بطريقة داخلية، إنسان روحاني لديه المتع الحسية والجوانية، ذات الأبعاد الروحانية"¹، وهذا الذي رفض الدخول والخروج، إنما هو إنسان قويت روحه، وصفا عالمه الجواني، وثبت فكرة الإيمان فيه، فصار بهذه الهيئة والمكاشفة الروحية العالية، وهذا التمتع الخاص هو ما يمنحنا تلك التأكيدات المنهجية على الأهمية الجوانية التي تصنع الحياة، وكل إقامة خارج هذا الإطار هي مجرد ملامسة لقشرة الحياة، وعمي وتيه عن إبصار الحق، ولكن في الجوانية معرفة مشرقة بأنوارها، وبهذا نصل إلى هذه التقريرات:

- أن العالم الجواني، عالم عميق، وله كامل الأهمية.
- أن العالم الجواني، إنما يبنى على الفكرة.
- أن العالم الجواني، هو جوهر خارج كل إقحام وعنت.
- أن العالم الجواني، في داخل النفس، حيث يكون مصنع الحقائق.
- أن العالم الجواني، عالم يستند إلى وعي و عقل.
- أن العالم الجواني، ليس ضربة حظ، بما يتنافى معه احتمالية الصدفة والآلية والمادية.
- أن العالم البراني، هو امتداد للجوانية، وهو المعلن عن ذلك المخبر العميق للذات.

إن المؤمن بفكرة الحق إذا وصل إلى هذه اليقينية العالية، فقد صار في منطقة الرؤية، يرى الحق، ويرى ما يلزم لتلك الرؤية، وهذا ما تحققه الإرادة والوعي الرفيع بأهمية هذه الحياة، وقد تمت بفضل ذلك العمل الداخلي الجواني الذي يتم عادة في صمت بعيدا عن ضوضاء (الخارج البراني)، مما يثبت أصالة يكون عليها هذا الإنسان الساعي إلى كماله، قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾²، فعمل الصالحات في برانية الإنسان هو ثمرة لذلك الإمهاد في داخل النفس، حيث صفاء الروح يطغى ويفيض منجزا نوعيا، يمهد لخلاصها وسعادتها في الآخرة.

ب/ إصلاح الجوانية، إصلاح البرانية: يعد هذا الإصلاح بمثابة تنمية وتزكية لإنسان يكمل، يقولون: "من أصلح جَوَانِيهِ أَصْلَحَ اللَّهُ بَرَانِيَهُ"، إصلاح يعني امتلاكه لذاته وداخله وعالمه، إصلاح

¹ - تدهاريس وآن لاغرستروم : أنصت إلى ذاتك، تر إنمار عباس، دار نينوى، دمشق، 2012، ص48.

² - سورة الروم، الآية 44.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

ناتجه الحتمي ميلاد الإنسان الكامل، إصلاح يعني تحرره من تأثير ما هو خارجي، ولنا في موقف آدم عليه السلام بعد الإغواء الدلالة الصريحة في هذه النسبة، حيث أوعز خطأه إلى نفسه لا إلى الشيطان رغم وجود أثره في التحريك والدفع، قال تعالى مخبرا عن آدم اعترافه بذنبه وإعلان موقفه: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾¹، فقد اتجه آدم عليه السلام مباشرة إلى جوهر مشكلته التي تركزت في:

- الاعتراف بالخطأ، وإثبات ظلمه لنفسه.

- طلب المغفرة من الله.

- عدم إقحام الشيطان في قضيته.

فلو أن آدم عليه السلام لام الشيطان لكان خطأه مركبا، وفي مثل هذا الوضع لا يمكنه أن يهتدي إلى الحل الذي تكون به المراجعة والإصلاح، فقد بسط خطأه وسهل علاجه²، بتحملة لمسؤوليته، وهنا تم استبعاد الموقف الخارجي وطرحه بعيدا عن عالم الجوانية، مما يعني ممارسة النقد الذاتي في حق نفسه، وتصويب وإصلاح ما بداخلها من عطب وخلل روحي، يقول الإمام متحدثا عن ذهاب بصيرة الإنسان ورؤية ما في جوانيته من سر، في حين أن رؤيته لما هو خارج ذاته لا يغنيه: "ومن عشق شيئا أعشى بصره، وأمراض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع بأذن غير سمیعة، قد حرقت الشهوات عقله، وأماتت الدنيا قلبه، وولّحت عليها نفسه، فهو عبد لها، ولمن في يده شيء منها، حيثما زالت زال إليها، وحيثما أقبلت أقبل عليها، ولا يزدجر من الله بزاجر، ولا يتعظ منه بواعظ، وهو يرى المأخوذین على الغرة"³. يلوح الإمام من خلال حديثه هذا إلى تعلق الناس بما هو خارجي عن الذات، أي ما لا يصنع للإنسان قوته ويبنى قوامه الداخلي الذي به ينهض، والمنطلق الأول في التنشئة الجوانية هو الإبصار الذي به تتحدد الحقائق في النفس جليلة، ويكتب لها الرسوخ، والإمام هنا يبين المخاطر الحقيقية التي تنجم عن تحول الإنسان، باحثا عن ملائم لذاته بعيدا عن الحق، في العالم الخارجي الذي يهيم ويتعلق به الناس، ويقود هذا إلى الأخطار والمترتبات الآتية:

- المترتب الأول: عشق الشيء، ويؤدي إلى:

- 1- يعمي البصر.
 - 2- يمرض القلب.
- ← ومعناه تسلل المرض إلى الجوانية.

¹ - سورة القصص، الآية 16.

² - ينظر خالص جلبي : فلسفتي، ص 116، 117.

³ - علي بن أبي طالب : نوح البلاغة، ص 158، 159.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

- المترتب الثاني: عطالة أجهزة الوعي: وأما الأسباب التي دفعت إلى هذا فتعود بالأساس إلى آلة الإبصار، حيث يتم تعطيل أجهزة الوعي كاملة التي تعطي المعرفة، وهي بتحديد الإمام:

- 1- عين = غير صحيحة.
2- أذن = غير سمعية.
يقود مرضها وعطوبها إلى تحصيل معرفة خاطئة.

- المترتب الثالث: تأثير العالم الخارجي على الجوانبية: ويحدث هذا خلخلة تؤدي إلى اختراق المفسدات الخارجية للذات، وهذا يبرز تأثير الخارج البراني على العالم الجواني، ونحدده في:

- 1- الشهوات = مفسدة
2- الدينا = زينة
3- ولهُ النفس على الدنيا = إضعاف
تأثير العالم الخارجي بسلبيته على الجوانبية واختراقه لها.

ولن نتوقف هذا الآثار هنا، بل سنجد لها من النتائج المدمرة:

- 1- أن يصبح الإنسان عبداً للدنيا ولمن ملك منها شيئاً مزاولاً وإقبالاً.
2- أن موت النفس في الجوانبية، يكون ناتجاً عن التأثير البراني.

وبهذا تصبح النفس لا تزدجر ولا تتعظ، رغم العلامات التي ترى من المأخوذين = بالموت غفلة وبغته، والوصف الذي يمكن إعطائه لمثل هذا الإنسان هو مقلوب كلام الإمام: "دخل في الباطل، وخرج من الحق"، وهي علامة على فساد الجوانبية، وعلى ارتباط الإنسان بالعالم الخارجي المفسد، وإهمال داخله الجواني الذي تتأسس فيه الفكرة التي تصنع الإنسان، ولنرى هذا الموت من زاوية قرآنية، يقول تعالى في وصف المشركين: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ¹﴾، وهي المنزلة التي يكون عليها الكفار، ثمرة لذلك الانغلاق وتعطيل أجهزة الوعي، والانفتاح على العالم الخارجي/البراني بمفاسده، "فقد وصف الله الكفار بأهم دواب لا تعي ولا تعقل، وأنها تعيش في نطاق غرائزها لا تعدوه، وأن الطمس الذي شملهم جعلهم لا يسمعون شيئاً مما يقال لهم"²، وما هذه الحالة إلا نتيجة لتشارك عنصرين مهمين، طمس أجهزة الوعي والإدراك، والانغماس في الغرائز والشهوات والملذات. إن هذا الطريق لا يمكن أن يوصل الإنسان إلى المعرفة الحقة، "فمن صم عن إدراك ما حوَّط به سره، وعمي عن شهود ما كوشف به قلبه، وخرس - عن إجابة ما أرشد إليه من حجة -

¹ - سورة الأنفال، الآية 22-23.

² - محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي، ص 130.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

فهمه وعقله فدون رتبة البهائم قدره¹، فهذا الانفتاح على العالم البراني ظنا من الإنسان أنه سيجد فيه ضالته، تصورا خاطئا لفهم الحقيقة الإنسانية، وتحصيل المعرفة المشرقة التي تعلي من قيمة الإنسان وترفعه إلى الكمال، وعليه فالتنبه إلى هذه المخاطر والسير المباشر نحو ما يتوجب إنارتته بالفكرة وإصلاحه بالمعنى، هو الذي يكون هدفا لكل مهتم بمعناه، وفي مواجهة ذلك العالم البراني بما فيه من أمراض وأفكار قاتلة وأهواء وغرائز يقدم لنا الإمام آية التصويب والإصلاح الذي به تصلح جوانية الإنسان، وتصلح كذلك برانيته، فيقول: "يعطف الهوى على الهدى، إذا عطفوا الهدى على الهوى، ويعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي"². معلوم أن من المفسدات الحقيقية في حياة الناس إتباع الأهواء والآراء، وهي أفكار تساق إليها النفوس وتدفع إليها، كما يتخذها المضلون منارات لأهدافهم في تضليل الناس، والمتناقل بين الناس من هذا العالم الفاسد هو من متعلقات خارج الذات وخارج الحق، حيث تضطرب النفوس في حركتها واتجاهها، لذا يأتي الأعلام المصابيح فواعل بانية للحق، مصوبة لمسار الحياة، بإزالة المشوشات التي تتحرك في ذلك الفضاء البراني بزخمه متجهة نحو الجوانية، والاحتكام هنا يكون إلى ذلك الحامل للقرآن قصد الإصلاح، حيث: "قائم ينادي بالقرآن ويطالب الناس بإتباعه ورد كل رأي إليه"³، والخطر في كل هذا يعود إلى الأفكار الفاسدة التي تتحرك مع حركة الزمان والتاريخ، لتصبح هي الرضعات الفكرية والتاريخية* التي تغذي الذوات وتسكن العقول، ثم تتحول إلى سلوك بعد عملية التذهين الجوانية، ففعل التنشئة "فاعلية غير مباشرة تدخل إلى القلب عن طريق الحب والقدوة والتسامح والعقاب، بقصد إحداث نشاط جواني في نفس الإنسان"⁴، فالنشاط الجواني ناتج التذهين المباشر، فعلى صفحته البيضاء، تلك الأرض الخالية الدالة على قلب الحدث، يرمج الإنسان بالأفكار والحقائق، ويوضع فيه المعنى، وعليه فالعملية ستكون داخلية بامتياز، وإن مراقبة الملوثات تصبح مسؤولية ووعيا في عنق المذهن، كما جاء في كلام الإمام، حيث يكون للهدى وللقرآن الوظائف العملية في إعادة البرمجة والتكوين

¹ - القشيري: لطائف الإشارات، مج 1، ص 614.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 190، 191.

³ - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 190.

* - ينظر أعمال خالد آغا القلعة في سلسلته: السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة، لفهم أثر عملية التذهين في برمجة الإنسان، وأن هذه البرمجة هي ما يكون عليها الإنسان من خلال رضعات التاريخ المتوالية.

⁴ - علي عزت بيغوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ص 184.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

الجواني للذات، وهذا يقهر الهوى بفضل الإرادة وعمل الهدى، وكذلك يكون للقرآن هذا الدور في الغلبة¹، بالعمل على إصلاح نظام الأفكار في الجوانية تحقيقاً لاستقامة العالم البراني.

ولا تتحقق منظومات البناء الداخلي الجوانية للإنسان إلا بوسائلها، أو بالمفاتيح التي بها يفتح هذا العالم الداخلي على صعوبته لرصد الحقائق والأنوار، وتحصيل المعرفة الصحيحة التي بها تشرق الذات الجوانية، ويستقيم بها عالم الإنسان الخارجي/البراني، هذه المفاتيح يراها الإمام في النظر والموازنات بين الحقائق والأفكار والناس والحق والباطل، هذا النظر الوازن هو إحدى مفاتيح إصلاح جوانية النفس الإنسانية، وتصويب خارجها، يقول الإمام: "واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد، حتى تعرفوا الذي تركه، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب، حتى تعرفوا الذي نقضه، ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه، فالتمسوا ذلك من عند أهله، فإنهم عيش العلم وموت الجهل، هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم، وصمتهم عن منطقتهم، وظاهرهم عن باطنهم، لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه، فهو بينهم شاهد صادق، وصامت ناطق²؛ فهذا الإصلاح الجواني، إنما هدفه وضع فكرة صحيحة داخل النفس تنطلق منها على بصيرة وهدى، وهي تشير إلى مجموعة من الصور التذهينية:

- الصورة الأولى: تناقض الأحوال بتناقض الصور: ونراها عند النظر في الحالة الفاسدة للعالم البراني والجواني، لأولئك الذين تناقضت أحوالهم بتناقض صورهم:

التأويل	الآلية المعرفية	نقيض الحالة	الحالة
إن ملاحظة الصور والحقائق القائمة في أحوال الناس امتثالاً وتجلياً، تمكن من الاهتمام إلى المعرفة الجوانية والبرانية لإصلاح الحاليين.	الدعوة إلى النظر والمقارنة بالنظر في هذا الوجه التقابلي المتضاد لنحصل على المعرفة المرجوة.	- تركه - نقضه - نبذه.	1- الرشد 2- الأخذ بميثاق الكتاب 3- التمسك به

تبرز الصورة الأولى عملية التناقض الإنسانية وتجليها بين الحق باعتباره علماً قائماً، وبين الوضع الإنساني المتحافي عن الحق، وما يكون عليه في برانيته من تحبط وفساد وتناقضات هيكلية.

- الصورة الثانية: صورة الحق في أهله: ويتمثل في التماس الحال الجواني والبراني، من خلال صور الحق في أهله، ويتم بآلية النظر، وهي صورة مبنية على التقابل ومقاربة الحاليين لاكتشاف المعنى:

التأويل	الآلية المعرفية	الوضع	الحالة البرانية	الحالة الجوانية
يتجلى أهل الحق من خلال هذه الصورة بأنهم	ضرورة النظر في إصلاح الجوانية والبرانية	نرى التماس المعنى في أهله وهم الذين	- موت الجهل - علمهم	- عيش العلم - حكمهم

¹ - ينظر ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج 05، ج 09، ص 25.

² - ينظر علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 198.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

صمتهم	- منطقتهم.	أصلحوا علمهم الجواني	وتحقق وصف الحالتين،	مثال التكامل، حيث تم
- ظاهرهم	- باطنهم.	والبراني [= أهل العلم	بالانطلاق من الجواني	إصلاح جوانيتهم،
- لا يخالفون الدين	- لا يختلفون فيه	والمعرفة والحق].	إلى البراني بأدوات	فأصلح الله خارجهم
- شاهد/صادق.	- صامت/ناطق		المعرفة و العلم والحق.	وبرانيتهم.

وعليه فإن عملية التذهين والتنشئة لا تكون إلا بالقدوة والنظر، لتحصيل المعرفة الإشرافية التي يتجلى فيها الحق، حيث ينجم عنها صفاء الداخل وجلاء الخارج، "فالخير والشر في باطن الإنسان، ولا توجد تدريبات أو قوانين ولا تأثيرات خارجية يمكن بها إصلاح الإنسان"¹، فالإصلاح يتم بالتنشئة بالقدوة والنصيحة والنظر والمشاهدات والمثل وما إلى ذلك، بينما لا يعبر التدريب عن إحداث التغيير الحقيقي الجواني، وكأن العمل ينصب على إيقاظ صور الخير النائمة في الذات لتنتقل، وهذا ما بصر إليه الإمام من خلال نموذجين، فاسد في جوانيته، وآخر صالح في جوانيته وبرانته، وهو المثال الذي يرمز إلى صور الكمال الإنساني الرفيع، "وهذا هو الفرق بين الهداية الجوانية والتدريب"²، وبهذا يمكن الاهتمام إلى الحلول البسيطة التي تقدم فعالية كبيرة ليقظة الإنسان الروحية من الداخل، وإضاءة عالمه الجواني لتنتقل منه صور الخيرية في العالم البراني.

ج/ يقينية الجوانية ثبات البرانية: يمثل اليقين والثبات جلاء لإيمان الإنسان وكماله، وإن الفكرة في ذات الإنسان تصبح عديمة الفعالية، إذا انتهت أمام عوامل مسطحة خالية من الحياة والمعنى، أي تلك الفكرة التي أقحمت على هذا الفضاء الجواني في أعماقه، ولذا فإن الولادة الطبيعية لفكرة الروح، هي التي تنشئ ذاتية تلقائية، لأنها من منابع الخير والجمال، ففي هذا العالم الأثيري للنفس يتم التلقي الحيوي لفكرة الخير المتجانسة مع الطبيعة السوية للنفس، ومع منحى تركيتها، إلى أن يصبح الإنسان إرادة مندفعة نحو الخارج، هذا اليقين علامته ثبات براني يتبدى في المسلك العام للذات فعلا وعملا، يترجم هذه الحقيقة وينطق بهذه الروح، وفي النهاية يعبر عن تلك المعرفة ذات الإشراق العالي، يقول الإمام كاشفا عن هذه الحقيقة الذاتية: "ما أضمر أحد شيئا إلا ظهر في فلتات لسانه، وصفحات وجهه"³، فالإضمار صورة جوانية لمعنى يسكن الذات ويتخفى ويحتجب بهيئة النطق المعلومة، وهنا نقرأ قيمة رمزية كبيرة، أن هذا الإخفاء الممارس بالقصد على الفكرة لتحتجب لا يمكن أن يتم، ويكشف هذا عن علاقة وطيدة بين العالم الجواني الذي تصنع فيه

¹ - علي عزت بيغوفيتش: المرجع السابق، ص 183.

² - المرجع نفسه، ص 184.

³ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 433.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

الحقيقة، والعالم البراني الذي يظهرها، كما تتحدد العلاقة بين النفس والجسد تحددًا حيويًا، حيث يكشف عملية التبادل التلقائية بينهما، فالجسد لا يمكنه أن يغير الحقيقة كالكذب مثلاً بالصدق، لذا تتم عملية التفاعل الطبيعية بالإظهار، من خلال فلتات اللسان أو صفحات الوجه، أو العيون أو الجسد ناطقًا بالحقيقة، فصورة الداخل هي صورة الخارج متحدثة بعلامات متعددة، وكما تكون في صورة السلب تكون في صورة الإيجاب، ومن المتعين هنا رسم الصورة الحسنة في الذات، فما يكون يقينا في العالم الجواني مضمرًا لا بد أن يتحرك بقواعد الخيرية والصلاح، حيث يخرج إلى العالم البراني دالًا على استقامة يثبتها المنطق الخارجي، وهذا إنما مرده إلى تلك اليقينية الداخلية بصفتها، وعليه فالانتباه إلى هذه الحقيقة يصبح من الضرورات، فلا يمكن بناء العالم الداخلي على المغالطات والمفاسد، وكل صور التشويه، كما لا يمكن أن يخرج الإنسان من عالمه الجواني [= النفس - الروح] الصور العتمة، فالذات عالم شفيف ينبغي أن يدار بعلمية واعية ومسؤولة.

وإن من صور اليقين والثبات وتجلياتها ما يمكن أن نراه مع الإنسان المقيم للأمر الإلهي، الممثل للحق، بحيث لا يمكنه أن يتجانس مع المتناقضات والغش، وكما بينا سابقًا فإن التدريب والتعلم المقحم للأفكار على الذات لا يجدي نفعه في تغيير وضع الذات، يقول الإمام: "لا يقيم أمر الله سبحانه، إلا من لا يصانع ولا يضارع، ولا يتبع المطامع"¹، فالتعارض الذي نشهده حاصلًا بين الإنسان وحقيقته هذه وبين الحق، لا يعبر عن تمثل حي لروح الفكرة في النفس فتأخذ صبغة اليقين، وعند إقامة الحق يصبح الإنسان وهذه الفكرة المثلة لصورة الحق واحدة مثل الدم في العروق، لذا أخرج الإمام من هذه المماثلة حالة تناقض الإنسان في ذاته مع إقامة الحق، وركز هذا الانتفاء في:

1- المصانعة والمدارة في الحق.

2- المضارعة والمشابهة للمبطلين.

3- إتباع الإنسان للمطامع.

إن بينة التناقض هذه مفسدة لجوانية الإنسان، فهي تعد بمثابة الحجب الكثيفة التي تقف بين الإنسان [= في ذاته - جوانيته] والحق، وهو ما يشكل حالة ابتعاد وبهذه المسافة يصبح الإنسان بعيدًا عن "منطقة الرؤية"، والتأمل في هذه العناصر يجد أنها عبارة عن حوائل داخلية وخارجية، فالداخلية أن المصانعة والمضارعة صورة فيها دخل وفساد في الجوانية، والخارجية المتمثلة في إتباع

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 446.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

المطامع، والميولات وما يجده في الدنيا من مفسد، وإن كان الطمع منطلقه الذات، وهنا تبدو لنا صورة انعدام تجلي الحق وإقامته وإظهاره، مع مثل هذا الذات المدخولة في جوانبها المهترزة في برانيتها أمام الملذات، فيقينية الداخل مهمة لتحقيق ثبات الخارج، وإن ما يقال لهذا المنبري لإقامة الحق: "ابدأ من وضعية السكون وهدئ العالم الخارجي، بحيث يستطيع العالم الداخلي أن يعطيك رؤية"¹، لأنه مصدر المعرفة ومنبت الفكرة الحية، وامتلاك الرؤية اليقينية، وامتدادها نحو الخارج في ثبات، وعليه نؤكد على الاختلالات التي تكون في حالة تعارض مبدئي مع إقامة الحق، وهي:

- إقامة (الأمر) الحق ← تتعارض مع حالة من يصانع ويضارع ويتبع المطامع.
- الحق نور ← يتعارض مع المصانع والمضارع.
- النور ← لا يوضع في ذات مظلمة.

وعليه فإقامة [= برانية- خارجية]، تحتاج إلى ثبات، وينبغي أن تتأسس على جوانب صافية، حيث تصبح الفكرة فيها يقينا راسخا تنطلق منه الذات، ويقدم لنا الإمام صورا من الثابت اليقيني في الحياة، يتعلق بذلك الصراع القائم بين الأفكار والدعاوي، حيث نجد أن كل فكرة تنطلق من مكانها، وتذهب مذهبا، وهذا يعد معرضا للرؤى والحقائق أمام الناس، وللأفكار تأثيرها وسحرها وجذبها القوي، بما تمتلكه من عدوى تصيب النفوس والعقول بما تدعيه، بينما لا يمتلك الإنسان معها مانع الجذابه وتأثيره، حتى يقع في حبالها، يريخنا الإمام من ناحية مبدئية ببطلان واحدة، بطلانا ثابتا، هذه الإراحة تستتبع بعمل دقيق يكشف بطلانها، فيقول: "ما اختلفت دعوتان إلا كانت إحداها ضلالة"²، بمعنى واحدة منهما صحيحة، والأخرى ضلالة، "لأن الحق واحد"³، لا يتعدد ولا يتضارب، وأساس الحق التوافق مع العقل والطبيعة والنفس، حيث يهتدي إليه فطرة، ويدرك ثابته الذي يقوم عليه، دون اختلال وتعارض لا في شكله ولا في معناه، بينما دعوة الضلالة تتعدد، فلا توافق فيها، وتتضارب في مبانيها ومعانيها، ولا تميل معها إلا النفوس المريضة المعتلة والعقول الضعيفة، وهذا بين في مقدماتها، ويمكن للناظر أن ينظر في أتباعها ليكتشف موضع الشبهة فيها، حيث يغيب التجانس في تركيبة دعوة أهل الضلالة، وعندما قلنا أن الإمام أراحنا بقوله، أن واحدة من الدعوتين ضلالة، فإن تركيزنا يجب أن ينصب على كشف وإظهار الدعوى الضلالة:

¹ - وولش نيل دونالد : سماؤك الداخلية، حوار مع الذات الكلية، تر: عماد رافع، محاكاة للدراسات والنشر، دمشق، 2011، ط1، ص 66.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 458.

³ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 458.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

- أن يمنح الإنسان لنفسه فرصة النظر لكشف الدعوة الباطلة.
- على الإنسان ألا يتسرع في أحكامه واقتناعه.
- وجوب وضرورة إعمال العقل والنظر لكشف زيف الحقائق.
- وعليه يتعين النظر في باطن كل دعوة لمعرفة صحتها ويقينيتها وموافقتها للحق، وبما يمتلكه الإنسان من وعي ومواصفات كمالية مهمة تدفعه إلى:
 - التحرك على هدي بين.
 - مراقبة الأفكار والدعاوي المعروضة في واقع الناس ومقارنتها.
 - امتلاك الحس التمييزي للتفريق بين الحق والباطل.
 - عرض الحقائق على يقين المختبر الداخلي الجواني، من أجل الوصول إلى الثابت البراني.
- إن فكرة الحق لن تكون في صدام مع الذات ومع العالم، فأنا -الإنسان- في هذا العالم وما فيه "بين مخافتين: بين أن أخسر العالم وأكسب ذاتي، وبين أن أكسب العالم وأخسر ذاتي، أنا بين تهديد بالغياب والانهيار، وبين الاختلال والانفجار"¹، والإنسان الحي اليقظ هو من يسعى إلى امتلاك عالمه الذاتي بقيمه العالية، منطلقاً من يقين جواني بمعرفته الاشرافية، ليكون في هذا العالم مجسداً بروحه وقوته وهويته لحقيقته لا للحقيقة أخرى، غريبة عن الصورة الإنسانية، وأغلب الكل تنطبق عليهم مقولة الإمام السابقة، حيث نلاحظ تيهها حاصلًا، وضعفاً بينا عن فرز الحق من المتشابه الذي يهجم على الناس، فلا يستطيعون إبصار موطن الصواب من اختلاط الحقائق، وهذا يمكن أن نعوزه إلى عاملين، هما انعدام العقل، وضعف النفس ومرضاها.
- أما حجة الأدعياء ومنطقهم في مغالبتهم، فإنه لا يقوى أمام صاحب العقل والبصيرة، وهذا يحيلنا إلى وصف لحال الإمام الذي كان عليه في تعامله مع الحق واليقين العالي الذي بيديه في صورة تثبت كماله ورفعته، فيخبرنا قائلاً: "ما شككت في الحق مذ أريته"²، فذات الإمام التي أريت الحق وصلت إلى اليقين، "وهذه مزية له ظاهرة على غيره من الناس، فإن أكثرهم أو كلهم يشك في الشيء بعد أن عرفه يعتوره الشبه والوسواس ويُران على قلبه وتحتلجه الشياطين عما أدى إليه نظره"³، وتأتي أهمية هؤلاء الأفاضل الكاملين في المعرفة واليقين، فيما يمكن أن يمنحوه من ثبات

¹ - محمد عبد الرحمان مرجبا: الفكرانية، ص 245.

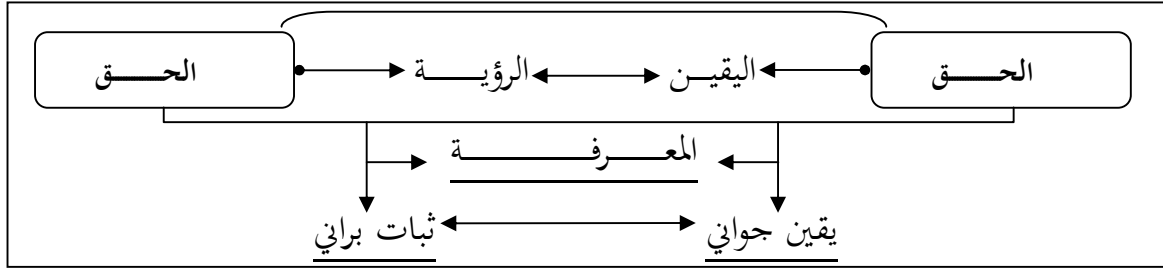
² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 485.

³ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 09، ج 18، ص 174.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

لغيرهم، حيث تكون الذات قوية في نفسها، مقوية لغيرها بتثبيت الآخرين خاصة عند الزعزعة وتبدل الأحوال والدعاوي المضللة، وعليه فإن ذاتا يقيين وثبات، هي مصباح إضاءة.

إن هذه اليقين داخل الذات، إنما يعبر عن رؤية نافذة وبصيرة، قد ولدت عندها هذه المعرفة الإشرافية، "والمراد من هذا الكلام ذكر نعمة الله عليه في أنه منذ عرف الله سبحانه لم يشك فيه"¹. وهذه من النعم الجليلة نعمة المعرفة التي أوصلته إلى عدم الشك، أي كونه في اليقين، وعليه فإن الهداية إنما ترتبط بيقظة الروح في العالم الجواني، إنما هداية أصل وطبيعة ليست مقحمة. إذن فهي حالة هداية وليست تدريبا ولا تعليما، وعليه فإن وضعية التقبل هي وضعية جوانية، حيث تدخل الفكرة إلى الذات، إلى داخل النفس وإلى الروح، حتى تستقر وتتحول يقينا يعطي ثابتا في العالم البراني، بصدقه في الفعل والعمل، وتعلنه حقيقة الفرد، وهذا ما نوضحه بهذا المخطط:



- ترسيمة تثبت رسوخ اليقين وثبات الحق في الذات -

إن لهذه اليقينية التي تتأسس على المعرفة الراسخة تجليات قيمة تزيد من قوة إظهارها، بحيث نرى ذلك التطابق المدهش بين حالي الجوانية والبرانية في ذات الإمام وتخرجها مع الذوات الأخرى، فيقول: "ما كذبتُ، ولا كُذبتُ، ولا ضللتُ ولا ضلُّ بي"²، هذه الجوامع من التجليات التي تبديها الذات الكاملة، ذات اليقين العالي تعبر عن روح نزيهة فطرية تلقائية، ذات تجاوب سلس يلخص حقيقة الصدق في الذات التي تتمتع بهذا الصفاء الجواني والاستقامة المبدئية مع الحق، حيث يصبح لها من الكفاءة وقوة الحضور والصلابة يمتنع معها ممارسة عملية التضليل والاحتواء والمخالسة والتمويه، وكل صور فساد النفوس، وهذا يكشف لنا بالتأول:

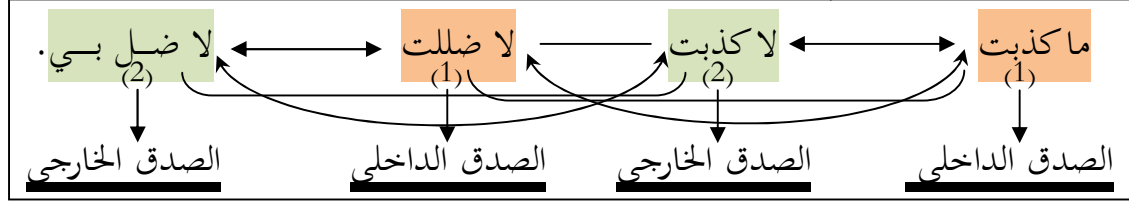
- أن اليقين في الذات يتكافؤ مماثلة ومشاكلة مع الإيمان والصدق.
- وأن ثبات الذات على الحق يعطي قوة تفرض على الآخرين بمنطق الثبات والصدق عينه.
- أن يقين وصدق الداخل، وثبات وصدق الخارج، هو التجلي السليم للذات.

¹ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 09، ج 18، ص 174.

² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 458.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

إن هذه الذات بروحها تفرض سحرها على الحياة مؤثرة فاعلة، قادرة على منح الإمكان غيرها على الثبات، بقوة هذا الجذب وسحره. إن هذه المواضع التي تتقابل فيما بينها بهذا الألق العالي لها تعبيراتها الدالة، فهي:



وهذا ما يظهر تميز عالمي الذات بصفاء الجوانية، وصواب البرانية.

وعليه يمكن القول والتأكيد على أن "العلل الجوانية يمكنها وحدها أن تفسر الخصائص الخصبية الغنية للكائن العيني الفريد الذي هو نسيج وحده"¹، فمنها تأتي الحقائق، فالذات تتقدم بأسرارها من هذا العالم الجواني، وكأنها به تخاطب (خارجا) كونا وحياة وذواتا، حيث تقدم خيريتها، وتفردتها وتميزها، وعندما تتخارج الذوات الإنسانية وفق هذا المبدأ، فإن ما يطبع صور الحياة هو الأداء الحسن وكمال الفعل، وجلال المعنى، وجمال الروح، والإنسانية الرفيعة.

د/ الحقيقة الجوانية والبرانية؛ علاقة اختبار وتمحيص: إن ما ذكر سابقا عن أثر اليقين الراسخ الذي تكون عليه الذات في داخلها الجواني، وما تأتي به من عظمة وإبحار كتجل دال برفعة قيمه، إنما يحتاج إلى محفزات ونواطق وتحريك، حيث تخضع هذه الجوانية إلى اختبار المعنى، لأن ما تتطلع إليه الذات حقيقة هو أن تكون في المعنى الذي أسلمته المعرفة والرؤية والروح إلى العالم البراني، لتقول بالخيرية التي تسكنها، والصلاح الذي يتوافق مع الحق، يقول الإمام: "من لان عوده كثفت أغصانه"²، إن ليونة هذا العود هي إشارة إلى الجسد حامل الروح، وإن ليونته لن تكون إلا بالفكرة والإيمان والمعنى ومغذيات الروح، هذه الطواعية والسلاسة هي ناتج الفكرة، ودليل نجاح في هذا الاختبار، ولذا فقد تكثفت أغصانه لتبرز حقيقة الإنسان ولتعطيه قوة الظهور، بفعل المؤثر الخارجي المختبر للحقيقة الداخلية، فقوة الذات الداخلية بالمحفزات الخارجية المحركة أعطت للإنسان هذه القوة الخارجية قوة الظهور، وهي كثافة الأغصان، "فطرواة الجثمان الإنساني ونضارته بحياة الفضل وماء الهمة [= نتج عنه]، كثرة الآثار التي تصدر عنه، كأنها فروعه، أو يريد بها كثرة الأعوان"³، فبين

¹ - محمد عبد الرحمان مرجبا: الفكرانية، ص 683.

² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 463.

³ - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 463.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

الحقيقة الجوانية والبرانية أسرار، وعلاقات جذبية ومعان من الخفاء ومن التجلي، والامتحان القائم في الحقيقة الإنسانية يأتي لإظهار المعنى [= الإنسانية]، ويتحقق بالتوازن بين العوالم المشكلة للإنسان، فما يأتي به الجسد بوصفه الظهور الأول والمباشر أمام العالم البراني، ينبغي للذات أن تحتاز امتحانه إلى حالة السواء التي يؤكد عليها القرآن، فالمؤثر الخارجي هو اختبار حقيقي لقوة الداخل، لقوة الروح التي في الذات، فلا يمكن في مثل هذا الحال أن يسير الإنسان أعرجا، وإنما يسير سيرا فيه صواب وتوازن، تتحرك معه قواه متعاونة متساندة في هذه الخدمة تحت هذا الإشراق، ولهذا عندما نتأمل المشهد الإنساني نلاحظ وجود هذه الصور والاختلالات المتناقضة، وفق هذه المعادلات:

أ- صور السير المتناقضة: وتمثل في:

- 1- السير جسديا. ← تغيب معه باقي الأحوال. ← غياب التوافق مع الحق.
- 2- السير عقليا. ← تغيب معه باقي الأحوال. ← غياب التوافق مع الحق.
- 3- السير نفسيا. ← تغيب معه باقي الأحوال. ← غياب التوافق مع الحق.
- 4- السير روحيا. ← تغيب معه باقي الأحوال. ← غياب التوافق مع الحق.

ب- صور السير المتوازنة: السير جسديا، عقليا، عاطفيا، روحيا، ونمثلها بهذه الصورة:

• السير الكلي المتوافق. ← تحضر معه كل الأحوال. ← التوافق مع الحق.

وبهذا نشهد توفيقا جوانيا برانيا، يتمثل في صورة التوازن وكمال المعنى والإنسانية في الذات، وقد جاء في الحديث النبوي الدعوة الواضحة إلى إحداث توازن إنساني يكامل فيه الاهتمام بين التغذية والتلبية الحاجية: "إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا"¹، فالحديث يجمع بين المتطلبات المتنوعة التي تحقق تلبية ضرورية تقيم قوى الذات، وهذه التغذية تؤدي إلى:

- 1- توزيع الطاقة بشكل منتظم على مختلف القوى والأحوال.
- 2- عدم استهلاك الطاقة في وجهة واحدة [= إفراغ - فراغ].
- 3- أهمية توازن حياة الإنسان وتكامل الأداءات فيها.

إن ما يغلب على أكثر الناس تحركهم بقوة الجسد وهوى النفس، وهو ما يكون طاغيا على غيره، فيميل الإنسان إلى إشباعه دون غيره، وما يبرز فيه من علائم القوة، كالشهوة مثلا مع ضعف

¹ - محمد بن إسماعيل البخاري : صحيح البخاري، ج3، ص 38.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

بيّن في القوى الأخرى، وعادة ما نرى احتياج هذا النوع إلى تنمية وجدانه بالروح مع هذا الميل إلى الشهوة، في حالة من البحث عن التوازن المفقود، ونتاج هذا يمكن صياغته في هذه المعادلة:

- أن القوة في جهة الجسد [= إهدار القوة + إضعاف القوة] ⇐ البحث عن القوة الوازنة المفتقدة.
- أن القوة في جهة الروح [= اغتنام الطاقة + تقوية للطاقة] ⇐ تحصيل القوة الوازنة.

ولا يمكن للإنسان أن يجد القوة الوازنة [= المعتدلة]، لأنه ضيعها في العالم الجواني، في النفس والروح، فالتركز في هذا العالم البراني للذات، أفقده قوته الجوانية الوازنة، ولذا يكون اختبار قوة الجوانية بالحدث الخارجي/البراني مزلزلا للنفوس، لا يثبت فيه إلا قلة تمتلك مقومات الكمال، وهنا يقدم لنا الإمام ثابتا خارجيا بقوته المضغضة للذوات، قوة اختبار بفاصل عالي الحجم، إنه تقلب الأحوال وما يأتي به الزمان من تغيرات عاصفة خصوصا أزمنة الفتن، وإذا علمنا ما للأفكار من أثر في خلخلة النفوس، ندرك أن المتغير في العملية هو الإنسان، لأنه فكرتها الأساس، يقول الإمام: "في تقلب الأحوال علم جواهر الرجال"¹، فالثابت البراني بقوته، هو الكاشف عن الجوهر الجواني، فتقلب أحوال الزمان/العالم الخارجي [= الفتن]، متغير فاعل بأثره الحادث على الإنسان، ونظرا لقوته يتلاشى الناس أمام عوارضه، مثل الفساد والشهوات والأهواء والإغواء ومتع الدنيا، ولا يستثنى من هذا إلا الأفاضل، ومن له قوة جوانية خاصة، وعليه "فلا نعلم أخلاق الإنسان إلا بالتجربة، واختلاف الأحوال عليه"²، وكأن الحقيقة متوارية وراء جدار هذا الجسد، فهناك يجتبي المعنى ولا يظهر إلا بتحريك خارجي. إذن فثبات ونجاح الأفاضل في هذا الاختبار يمثل مغالبة، مردها إلى:

- 1- القوة الذاتية، قوة النفس والروح والصبر والصرامة والمثابرة والعقل.
 - 2- امتلاك مقومات القوة، مثل الثقة والحيوية والحرية والإرادة والفكرة.
 - 3- امتلاك اليقين والبصيرة.
 - 4- التحرر من تعلقات النفس بسلطة الدنيا والشهوات والمال وغيرها.
- وعليه فإن نفوس الأفاضل، هي نفوس مرتبطة بالله وبالحق وبالفكرة الإيمانية وبالآخرة.

ويعطينا الإمام علامة هذا الانتصار على ما يقدمه العالم البراني، من عوامل الخلخلة البيئية، فيقول: "المؤمن بشره في وجهه، وحزنه في قلبه، أوسع شيء صدرا، وأذل شيء نفسا، يكره الرفعة، ويشنأ السمعة، طويل غمه، بعيد همه، كثير صمته، مشغول وقته، شكور صبور، مغمور بفكرته،

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 463.

² - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج 10، ج 19، ص 16.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

ضنين بخلته، سهل الخليقة، لين العريكة، نفسه أصلب من الصلد، وهو أذل من العبد"¹. وكل هذه الصلابة علامة تبرز قوة الداخل، وقوة الفكرة الجوانية في الإنسان الكامل، إنسان القرآن وعلامته: أ- بشره في وجهه: تدل على علامة الإيمان فيه، وهي علامة مرتسمة على برانيته.

ب- وحزنه في قلبه: يدل على التحمل والقوة والصبر، وهي علامة إيمان جوانية لصورة برانية. نلاحظ أن هذه الصورة تحمل تضادا وثنائية تعطيه -المؤمن- مغايرة وتميزا، من حيث أحوال التوازن والحيوية، والجمال والكمال، والاندفاع نحو الخيرية والصلاح، وتضادا دالا على حال المؤمن العارف، لأن "البشر قد يوجد في كثير من الناس"²، وبهذا يظهر تعريفه = بأنه الإنسان المؤمن، لا إنسان الدنيا، المحدود بمحدودها وشهواتها، وهذه المنزلة الرفيعة، هي ثمرة قوة جوانية حددها الإمام بمجموعة من العلامات الداخلية التي تنير الذات:

الجوانية	البرانية	قراءة وتأويل
- سعة الصدر.	- كره الرفعة.	وهي صفات قوة تدل على أن هذا الإنسان قد ربح معركة الخارج البرانية،
- نفس ذليلة.	- شناعة السمعة.	بمعنى أن هذا العالم البراني لم يحدث أثره السيئ في الذات، فصارت هذا النفس
- طويل غمه.	- ضنين بخلته.	وعالمها الجواني مصدرا للصلابة وهي أصلد، وبدا المؤمن في عالمه البراني
- بعيد هممه.	- سهل الخليقة.	متواضعا أذل من عبد لخالقه وللمؤمنين، حيث انشغلت ذاته بالحق ذكرا وفكرا
- كثير صمته.	- لين العريكة.	وشكرا، وهي ذات سياحة روحية تعبدية.
- مشغول وقته.	- صلب النفس.	وبهذه الصفات يتم وقف كل المعيقات والمزاحمات التي تريد أن تثبت بديلا
- شكور صبور.	- أذل من العبد.	آخر مغايرا ومختلفا عن صورة الحق.
- مغمور بفكرته.		

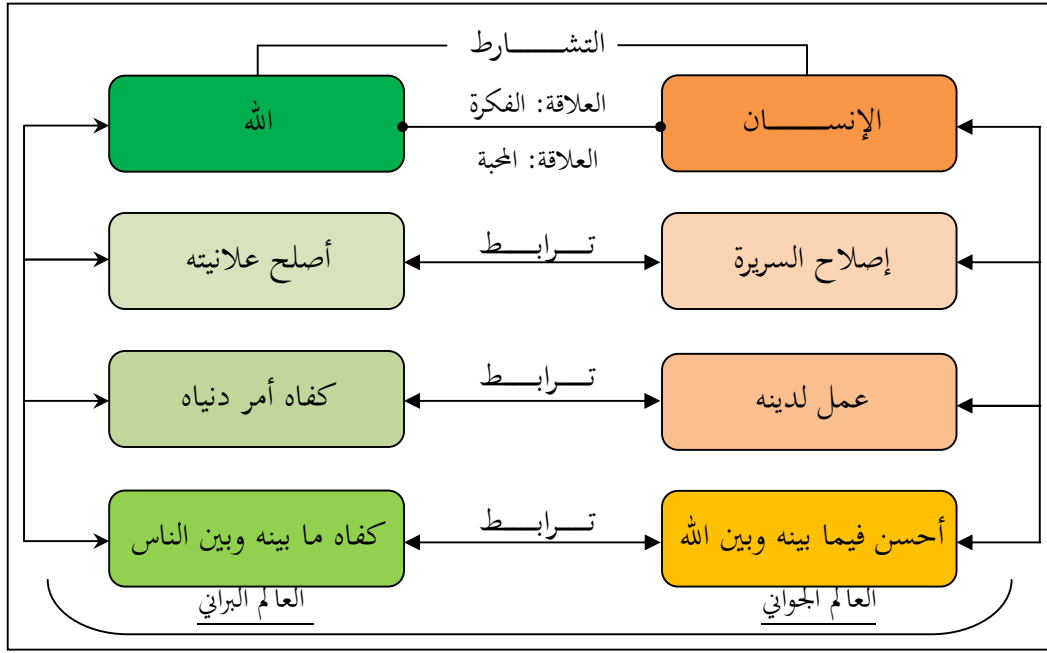
ومن ثم فإن اختبار الحقيقة الجوانية لا يتأسس، إلا على صفاء وفكرة حية وقوة في الداخل بحيويته ونشاطه النامي، ولهذا يلح الإمام على إصلاح العالم الجواني [= السريرة] لما لها من ترتبات تقييم صلة مع الفضاء البراني، وتتحدد بموجبه العلاقات الضرورية في حياة الإنسان، يقول الإمام: "من أصلح سريرته، أصلح الله علانيته، ومن عمل لدينه كفاه الله أمر دنياه، ومن أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس"³، لقد علق الإمام الأمر بالإنسان، ليصلح ذاته، وألقي على عاتقه أمر المبادأة في الإصلاح والعمل والإحسان، ليأتي التعهد الإلهي في الكفاية الخارجية، باعتبارها حالة تشارط منتجة، حيث تبنى مختلف القضايا ومعانيها، كما هي مبينة في هذه الترسيمة:

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 484.

² - ابن أبي الحديد: المصدر السابق، ص 109.

³ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 498.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل



- ترسيمة تجسد ترابط الجوانية والبرانية واختبار التجليات الإنسانية -

إن إصلاح السريرة، إنما يعني انتصار النفس على المفسدات الآتية من الخارج، ثم يأتي إصلاح العلانية من الله، حيث تتفق المتعارضات على خدمته، وهذا معناه، زوال الخطر المهدد له بالإفساد، "لأن الأعمال الظاهرة تبع للأعمال الباطنة"¹، ومن ثم تأتي ضرورات هذه التصفية الجوانية من هجوم تلك المزاحمات الخارجية التي تحاول أن تزيل النفس من تلك الأرض ومن مركز الحقيقة، أي من نقطة الرؤية، وأما محددات هذا الأمر فيمكن تبينه من خلال:

- 1- تكليف الإنسان بالتزكية: ودليل هذا ما يثبته قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾²، فتركبة النفس، تمثل إصلاح السريرة الجوانية من أمر الإنسان.
- 2- اللطف الإلهي الساند للمؤمن، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾³، وهو ثمرة لجهد العبد في الإصلاح والتقوى والتزكية، أثمر إصلاح العلانية.
- 3- عبادة الله: قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾⁴. إن وعي هذا يقود الإنسان إلى أن يوقف حياته لإقامة دين الحق وعبادة الله، وقف ينتج عنه كفاية الله الإنسان دنياه، لأنه استطاع

¹ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج 10، ج 20، ص 35.

² - سورة الشمس، الآية 7-10.

³ - سورة الطلاق، الآية 2-3.

⁴ - سورة الذاريات، الآية 56.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

أن يحول كل همه ووقته وجهده وحاله، إلى العبادة، وعليه فإن هذه الكفاية الخارجية تستمر في إنماء وتركية جوانية الإنسان، بينما تفسد جوانية من أصلح ديناه وعمل لها.

4- الإحسان ما بينه وبين الله، قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾¹. إن هذا الإحسان الثنائي يعتبر إنماء وإمدادا تترتب عنه كفاية خارجية، تقود إلى تحسن علاقات الإنسان بغيره، "وذلك لأن القلوب بالضرورة تميل إليه وتجه"²، وهذا منح إلهي براني، يستشعره في جوانيته لطفًا ورحمة.

هـ/ الجوانية دليل الأولياء في الكشف: تتجلى القيمة الحقيقية لصفاء العالم الجواني ونضارته وحيويته في أنه سبيل الكشف عن الخفايا والمخبات، وإدراك الحقائق، وأهمه إدراك حقيقة الدنيا، ويعد هذا نتاجا لصفاء العالم الجواني، يقول الإمام في إجلاء هذا المعنى: "إن أولياء الله هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذا نظر الناس إلى ظاهرها، واشتغلوا بآجلها إذا اشتغل الناس بعاجلها، فأمتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم، ورأوا استكثار غيرهم منها استقلالاً، ودركهم لها فوتاً، أعداء ما سالم الناس، وسلم ما عادى الناس، بهم علم الكتاب، وبه علموا، وبهم قام الكتاب، وبه قاموا، لا يرون مرجواً فوق ما يرجون، ولا مخوفاً فوق ما يخافون"³. إن إشارة الإمام إلى بيان حقيقة الدنيا، أنها تتكشف للناس بحسب حقيقتهم، فهي ذات ظاهر وباطن:

الدنيا ← لها ظاهر [= يعاش]، وهو خادع مزين يوقع إغراؤه في الغفلة، تقوم على سنة الغفلة.
← ولها باطن [= يحياها] يحتاج إلى بصيرة وفقه ويقظة وإدراك لحياتها، تقوم على سنة الفقه.

وهذا ما يدل دلالة قاطعة على أن المعنى والأسرار هي ما يقف وراء ظواهر الأشياء التي تتبدى لعين الناظر، ومن ثم فإن تنمية الرؤية والبصيرة يأخذ حكم الضرورة، لأن الإنسان في حاجة إليها، ليفهم بوعي دوره ووظيفته في الحياة، ومن خلال هذه العملية الوازنة بين إبصارين متميزين لحقيقة الدنيا، نستطيع أن نستخلص الخصائص النوعية الفارقة بين أولياء الله العارفين بالحقائق، وبين جموع الناس الواقفين عند حدود ظواهر الأشياء دون تعمق وتفحص، حيث لا تمنحهم هذه الرؤية إلا خطوطاً عتمة، وقليلًا من علم، لا تبني عليه الأساسات المعرفية التي تقيم كيانا إنسانيا مستقلا:

أولا: النظر إلى الباطن: حالة الأولياء مع الدنيا: وتبرز الأوصاف بالتأول نعت حقيقة الأولياء وعلامتهم:

¹ - سورة القصص، الآية 77.

² - ابن أبي الحديد: المصدر السابق، ص 35، 36.

³ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 499.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

نعت الحقيقة والوصف وتأويلاته	نظر الأولياء ودواله
1- امتلاك البصيرة، وتقوم على محاربة ملذات الدنيا وشهواتها، فتتحقق لهم: - الاستقلالية والتزهد. - إنكشاف حقيقة الدنيا. - إدراك باطن الدنيا.	- النظر إلى باطن الدنيا. - اشتغلوا بآجلها. - أماتوا ما يميتهم. - تركوا منها ما علموا أنه سيتركهم. - رأوا استكثار غيرهم منها استقلالاً . - ودركهم لها فوتاً.
2- تصفية الجوانية وضبط هجوم العالم البراني: ويقوم هذا الضبط على: - التزكية والتنمية، وطهارة وصفاء الداخل. - الرشد والاستقامة في السلوك. - فقه حقيقة الدنيا.	- أعداء ما سالم الناس الشهوات. - سلم ما عادى الناس.
3- التعامل بمبدأ وموقف: ويتعلق بالعلاقة مع الكتاب والإيمان: - يحقق القيمة العلية، بفضل الكتاب (القرآن) فهما وعملاً. - المزاوجة بين حقيقة الخوف والرجاء، تأهباً ونشاطاً ومضاعفة.	- بهم علم الكتاب، وبه عملوا. - بهم قام الكتاب، وبه قاموا. - رجاء الثواب وخوف غضبه.

ثانياً: النظر إلى الظاهر: حالة الناس مع الدنيا: وتبرز الأوصاف بالتأول نعت حقيقة أهل الدنيا:

نعت الحقيقة والوصف وتأويلاته	نظر الناس ودواله
1- افتقاد البصيرة: وقد أدى هذا إلى: - العمل للدنيا والانغماس في عالمها. - الوقوف عند ظاهرها. - التبعية والكلفة.	- نظروا إلى ظاهرها. - اشتغلوا بعاجلها. - أحيوا ما يميتهم. - اغتموا ما يتركوه واستكثروا منها.
2- مزاحمة العالم البراني للجوانية: وكان هذا سبباً في: - غياب التزكية والطهارة. - فساد السلوك والابتعاد عن الرشد. - عدم فقه حقيقة الدنيا.	- لا يفوتون ويتحسرون على ما فات. - مسالمة الشهوات، ومعاداة العظة والعدالة. - لا يعمل الكتاب عندهم ولا يعملون به. - لا قيام للكتاب معهم، ويقومون بغيره. - لا رجاء ولا خوف عندهم.
3- غياب المبدأ والوعي: وتمثل في: - إتباع الهوى والضلال والشهوات. - الخمول والرضا عن النفس.	

إن مثل هذا الفقه هو ناتج الوعي العلمي بحقيقة الوجود الإنساني، وفهم مستلزمات ذلك، ولهذا كانت تصفية العالم الجواني، من تأثيرات الخارج، خاصة الدنيا والتنافس على حطامها هو منهج الأولياء، فقد "أماتوا قوة الشهوة والغضب التي يخشون أن تमित فضائلهم، وتركوا اللذات العاجلة التي ستتركهم"¹، وكله دال على وعي وبصيرة بما يهدد النفس من مخاطر ومهلكات تؤدي

¹ - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 499.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

إلى الحُسران، وعليه فإن النظرة السليمة هي التي ترى للدنيا باطنا وأسرارا، وأن فيها وعليها ينجز الإنسان مشروعه الأخروي على هاديات العلم والكتاب وامتنال حقائقه بوعي وفهم وبصيرة.

لقد ركز الإمام في هذا الكلام على مجموعة من الأفكار القيمة التي ينجزها الإنسان في الحياة الدنيا، باستثمار ذكي ومعالجات بينة لكل ما يستجد من قوى تعصف بالعالم الجواني للنفس الإنسانية، وأن إنجاز هذا المشروع لا يتم إلا بريح هذا العالم الجواني، "فالإنسان أكثر تصديقا لما يراه مشكلا فيه"¹، وعليه فإن التذهين الذي يرمج الذات الإنسانية هو الذي يحدد خط السير الخارجي [= العملي] بكل تفاصيله، وباستخلاص بين يمكن استقرار مجموعة التفاصيل التي تدفع إلى كشف فعال، وإدراك نوعي وبصير للحياة، نجملها في النقاط الآتية:

- 1- يتعين الحذر من مفسدات الجوانية.
 - 2- يمثل كل ترك، تزكية وصيانة وتنمية روحية للإنسان.
 - 3- ضرورة امتلاك رؤية ثابتة وبصيرة نافذة تؤدي إلى حالات الكشف المبهر.
 - 4- عدم الانخراط في المتع والملذات والشهوات.
 - 5- إعلان التضاد الموقفي والمبدئي مع أهل الدنيا في العالم البراني.
 - 6- أهمية التبادل التماثلي في علاقة الإنسان بالكتاب علما وعملا، لإضاءة العالم الجواني/البراني.
 - 7- تحقيق مقام الرجاء والخوف، علامة صفاء الجوانية، ودال رفض الدنيا والارتباط بالآخرة.
- ويوصلنا الكشف بوصفه آلية وطريقا ضروريا للفهم والوعي والاستبصار، إلى حالة من تجاوز الوقوف عند حدود الحرفية، والمستخلص من ظواهر الحقائق، ومن هذا التنبيه النظر إلى أعماق الناس، وقراءة أحوالهم الداخلية، وما هم عليه من معنى، ذلك أن ظاهر الشخص وبرانيته ليست سيما دالة على حقيقة الصلاح فيه، فقد ننخدع بما يتبدى من خطوط تمتد على هيكل الجسد، تتراءى للناظر حسن حال، ولكنها قد تكون عكس هذا المترائي، يقول الإمام: "أُخْبِرْتُ قَلْبَهُ"²، وهذه دعوة صريحة إلى مزاولة الكشف والاختبار للوقوف على الحقيقة، فبدل الإعجاب أو البغض الناتج عن قراءة الظاهر، وما يقدمه لنا من صور العالم البراني، يتعين مطابقة الفكرة بالاختبار والكشف، "فإذا أعجبك ظاهر الشخص فاختره، وربما وجدت فيه ما لا يسرك فتبغضه"³، وهذه

¹ - خالد آغا القلعة: السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة، ج3، ذهنية الانفعال، ص 127.

² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 499.

³ - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 499، 500.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

كيفية عملية تؤدي إلى بناء علاقات سليمة، ومن ثم محافظة الإنسان على فضائله، وهي اختبار حقيقي للجوانية، "لأن التجربة تكشف لك مساويهم وسوء أخلاقهم"¹، وهذا أفضل من اعتقاد بالخيرية والصلاح دون تأسيس، وهكذا يعطينا الإمام علامة تمييزية هي سيما لاختبار جوانية الإنسان وهويته، اختبار لمعرفة باطنه في حال أعجبنا ظاهره، وبهذا يتم القول بفراسة جوانية، هادفة إلى تقييم مثالي للإنسان، بالنظر في أحواله الداخلية والتماس ذلك بالمعانية، لأن الخارج لا يقدم لنا حقيقة الشخص، "فكل تلك الأفكار التي قررت أن تجربها يمكن لها أن تظهر مرة أخرى، وجميع المشاعر والأحاسيس التي كنت قد بذلت جهدا كبيرا كي تبعدها عن رأسك تخرج من أماكنها المختبئة داخل النفس"²، وهذا الاختبار كفيل بكشف العالم الجواني وإظهاره، وعليه نؤكد على:

1- أن الظاهر والعالم البراني ليس معيارا للكشف عن حقيقة الإنسان.

2- تحتاج المعرفة إلى البصيرة والكشف.

3- تجنب مخادعة الحواس البصرية ومغالطاتها.

4- أن الإنسان، بالاعتبار الجواني يعرف.

إن الحقيقة الإنسانية لن نجد لها إلا مختبئة داخل النفس، ولن يفيد إصلاح خارجي [= خارج الذات]، لأن هذا البناء للعالم الخارجي سيكون بعيدا عن سنية النفس، حيث يراكم صاحبه على معناه بما لا يوصل إلى إجلاء حقيقة إنسانيته، وما العالم البراني إلا صورة للجوانية الخالصة، وأيقونها الدال عليها والقائد إليها. إن الإصلاح الجواني، وتصفية هذا العالم، وإنبات فكرة الخيرية فيه، وتذهين هذا الداخل بالأنوار، سيتجلى إضاءات وكمالات على خارجية الذات وتمظهراتها التي تجسد معناها الذي تعيشه بوعي وبصيرة، وبالنظر في أحوال الناس نجد أنهم يتفاوتون في إبراز حقيقتهم بحسب قوة التمرکز الحيوي للفكرة فيهم، وهذا ما يبرز تناظرا وتضادا وتماثلا عاما لأحوالهم، فهناك من تتجلى فيه قوة الجسد، وهناك من تطغى عليه قوة العقل، وهناك من يدور في عالمه النفسي، وهناك من تتجلى فيه قوة الروح، وإن العابد هو من يوازن بين هذه القوى جميعها تغذية وتلبية وتوظيفاً وأداءً.

¹ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 10، ج 20، ص 40.

² - تد هاريس وآن لاغرسنوم : أنصت إلى ذاتك، ص 196.

المبحث الرابع: تشاكل الظاهر والباطن - صورة الكمال-

إن العلامة التي نتأول بها صورة الكمال الإنساني، هي الصورة المحلية لذلك التشاكل بين الظاهر والباطن، أي أن ما يطبع حقيقة الإنسان، هو عدم تعارض وجهيه الداخلي والخارجي، فهذا معلم كمال تجسده الفكرة والسلوك، والإيمان والعمل، والحق والأداء، والحركة والسنية، ووجوده في الدنيا، وتعلقه بالآخرة، تشاكل يعبر عن تماثل عميق لذات الإنسان، بين ما يكشفه وما يضمه، يمثل صورة واحدة لا نشاهد معها تناقضات مبدئية تتعكس فيها حقيقة ما في داخل الإنسان، وما يعلنه في الخارج، مثل الإيمان يعاكسه بمخالفة الحق، من وجهة شرعية منهجية سننية، مادام يصدر عن مشكاة واحدة تضيء باطن الإنسان، وتنعكس على العالم البراني نورا هو قبسة من تلك المشكاة التي منها خرج، وهذا التماثل الدال على هذا الألق والكمال الرفيع، سيمنح الحياة الإنسانية الصواب والسداد، أو خط الرشيد الذي طالما افتقده الإنسان.

إن للإنسان ظاهرا وباطنا، وهذا ما يبرز من ناحية شكلية، فإذا كان هذا التقسيم قائما فإن التعارض بينهما حاصل لا محالة، وكما رأينا في مبحث الجوانية والبرانية أن صورة التلازم وحتمية تعالق العالمين هي التي تعبر عن هوية إنسانية، كذلك نجد أن القرآن قد ذكر أن للإثم ظاهرا وباطنا، هذا في الإثم كذلك في الخير، وما يمكن إثباته في النهاية أن حالة الإثم تعبر عن تشاكل بين الظاهر والباطن في حياة الشقي، وأن حالة الصلاح تعبر عن تشاكل في حياة الإنسان الكامل.

أ/ المفهوم: جاء في اللسان: "والبطن من كل شيء: جوفه، وفي صفة القرآن العزيز: لكل آية منها ظهر وبطن؛ أراد بالظهر ما ظهر بيانه، وبالبطن ما احتجج إلى تفسيره كالباطن خلاف الظاهر، وبطن الأرض وباطنها: ما غمض منها واطمأن، والبطن من الأرض: الغامض الداخل"¹، فالخفي الغامض هو تعبير عن عمق في الحقائق والأشياء والمعاني، وفي التعريفات: "البطن خلاف الظهر وباطن الأمر دخلته؛ خلاف ظاهره والله تعالى هو الباطن، لأنه بطن الأشياء خبرا. تقول: بطنت هذا الأمر: إذا عرفت باطنه"²، فهناك سر مخبوء في الباطن، والله هو الباطن وهو الظاهر، وأما الظاهر، فقد جاء في المقاييس أن: "الظاء والهاء والراء أصل صحيح واحد يدل على قوة وبروز، من ذلك ظهر الشيء يظهر ظهورا فهو ظاهر، إذا انكشف وبرز، لذلك سمي وقت الظهر والظهيرة، وهو أظهر أوقات النهار وأضوؤها، والأصل فيه كله ظهر الإنسان، وهو خلاف بطنه، وهو يجمع

¹ - ابن منظور: لسان العرب، مج 1، ص 466.

² - ابن فارس: مقاييس اللغة، ص 97.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

البروز والقوة"¹. إن هذا الانكشاف عبارة عن قوة دالة على جلاء عمق، وفي اللسان: "ظهر: الظهر من كل شيء: خلاف البطن.. قال بعضهم- في معنى للقرآن ظهر وبطن - الظهر لفظ القرآن والبطن تأويله، وقيل أراد بالظهر التلاوة وبالْبطن التفهم والتعلم، والظاهر: خلاف الباطن؛ ظهر يظهر ظهوراً، فهو ظاهر وظهير، وفي معنى قوله تعالى: "وَدَرُّوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ" .. ظاهره المحالة على جهة الريبة، وباطنه الزني، قال الزجاج: والذي يدل عليه الكلام، والله أعلم أن المعنى اتركوا الإثم ظهراً وبطناً، أي لا تقربوا ما حرم الله جهراً ولا سراً - وكذلك في الآية الكريمة- "يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"، أي ما يتصرفون من معاشهم"²، فالظاهر هو تلك التبديات التي تخرج من صور الأشياء متجلية للدلالة على أسرار فيها، وعمق يكتنز ما بداخلها، وأما التشاكل فيقولون: "الشكل، بالفتح: الشبيه والمثل. وقد تشاكل الشيئان وشاكل كل واحد منهما صاحبه. والشكل: المثل، تقول: هذا على شكل هذا، أي على مثاله. وفلان شكل فلان أي مثله في حاله. والمشاكلة: الموافقة. والتشاكل مثله"³. وأما في المقاييس: "شكل: الشين والكاف واللام معظم بابه المماثلة. تقول هذا يشكل هذا، أي: مثله"⁴، فمماثلة الحقائق تدل على وصف تكامل المثال.

ب/ الظاهر والباطن علامة امتثال الحق: تتحقق تجليات صورة الكمال الخالص، انطلاقاً من حالة امتثال الإنسان لمنهج الله، من خلال الثبات الذي يكون عليه في باطنه وظاهره، وهو ما تبينه حقيقة الفكرة في داخل الذات، وتطبيقها العملي في واقع الحياة، هذه هي الصورة المثال، الداله على نموذج كمالي في الإنسان، متشاكلاً باطنه وظاهره في السير والهدف والأداء نابضاً حياً بمعنى وحقيقة واحدة في مستوى الدائرة الفردية، والدوائر الأخرى، يقول الإمام مبرزاً هذا التماثل بين: "ولعمري ما علي من خالف الحق وخابط الغي، من إدهان ولا إيهان، فاتقوا الله عباد الله، وفروا إلى الله من الله، وامضوا في الذي نهجه لكم، وقوموا بما عصبه بكم، فعلي ضامن لفلجكم آجلاً إن لم تمنحوه عاجلاً"⁵، فموقف التعارض بشكله النفاقي عملياً دال على تعارض الظاهر والباطن، وعلى تناقض الفكرة والتطبيق، أي عدم وجود تماثل ضروري دال على هيئة الكمال، وهو ما فسره "جودت سعيد" برسوخ العلم في إشارة إلى تماثل الظاهر والباطن، فيقول معقبا موضحاً قوله تعالى: "قُلْ لَمْ

¹ - ابن فارس : مقاييس اللغة، ص 554.

² - ابن منظور: لسان العرب، مج 6، ص 33، 34، 36، 37.

³ - المصدر نفسه، مج 5، ص 169.

⁴ - ابن فارس: المصدر السابق، ص 455.

⁵ - علي بن أبي طالب: نصح البلاغة، ص 52.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ" [الحجرات: 9] " وعدم التنبه إلى تفاوت رسوخ العلم وزيادته، هو الذي أدى بالبعض إلى القول: إن هناك علما ظاهرا وعلما باطنا، أو علما عاديا وعلما لدنيا، وإنما هو علم ناقص أو علم لم يرسخ، "وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا"¹، فلو تحقق فيهم العلم ورسخ لتشاكلت صورتهم، وهذا ما بينه الإمام، من تناقض قائم في مثل وضعهم، حيث "المنافقة والمصانعة من مخالفة الظاهر للباطن"²، ولذا كان موقفه من هؤلاء يطبعه الحزم والثبات والبصيرة في مواجهة هذا الالتواء الحاصل لتصويب الحالة الإنسانية بترسيخ الفكرة على نهج العلم لتمثيل صورة الحق، ظاهرا وباطنا، أي الامتثال بما عصب به الله الناس، وهو عين ما بينه الإمام لهم في خطابه، أي ما "كلفكم به وألزمكم بأدائه"³، ارتباط بعيد عن روح التلبس التي بين الإمام معالمها، بضرورة تجنب المصانعة والمخالفة، والتستر والمنافقة، والاضطراب الشديد، بالتخبط في الغي، وما دام أن الحق قد أوضحه الله للناس، وألزمهم أدائه، فإن حقيقة الإنسان، هي التي تظهر عاملة متوافقة، ويزيد من نضارة هذه الحقيقة أن جعل من نفسه قائد هذه السفينة وسط أمواج الفتن المضطربة، حيث يتحرك دون أن يضعف، أو ليقوى من ضعف، مع هذا الخبط وغبار الفتن، وأساليب الالتواء والنفاق التي تتحرك في المجتمع، وهذا ما أخذه عهدا على نفسه بضمان الظفر والفوز، وهي بغية الإنسان المؤمن الواعي المتبصر الذي ترسخت فيه فكرة الإيمان وراح على هديها يمثل أسرارها عملا وسلوكا، يقول مصطفى ناصف: "ففي ظل لا إله إلا الله عرفنا أن الإنسان ظل وقتا طويلا منقسما على نفسه مهما يكن ظاهر أمره التماسك"⁴، فإبداء التماسك، لا يدل على الحقيقة الإنسانية، ولن يصمد أمام الضربات والعوارض وسيلقي الانقسام بظلاله على حركة الإنسان، ولذا تأتي كلمة التوحيد فكرة صانعة للحمة الإنسان وتجانس قواه الحية، وتوافق سعيه مع هذه الفكرة، لبلوغ صورة الكمال، بمعنى أن يكون الإنسان بهويته التوحيدية وروحه القوية، بحيث تظهر فيه فكرة الإيمان الباطنية، وتتجسد متجلية في ظاهره خيرية وصلاحا.

ومن صور هذا التجلي الرفيع الدال على هيئة الكمال الخالصة ما يقدمه لنا الإمام من تماثل بين فكرة العلم والعمل، كنموذج لمثال منشود من الإنسان، فقد بينه الله لعباده في سورة الفاتحة،

¹ - جودت سعيد: حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص 157.

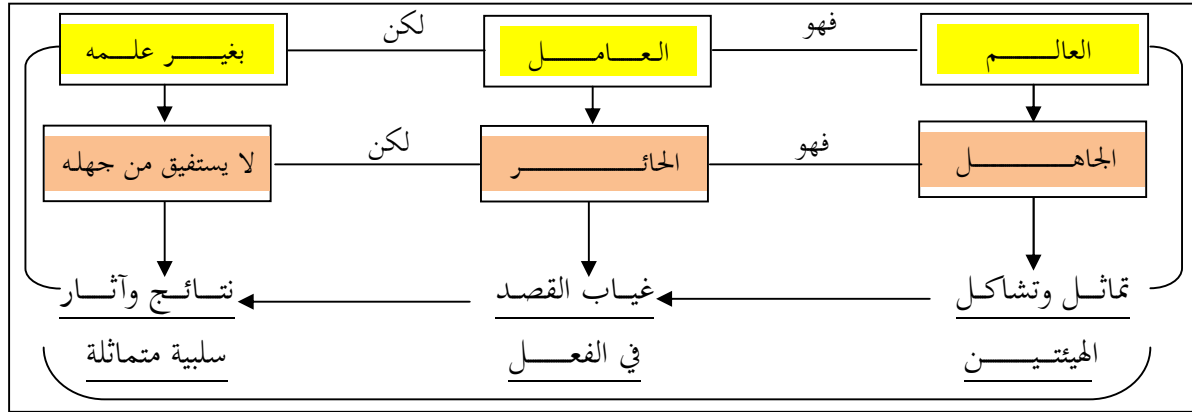
² - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 52.

³ - المصدر نفسه، ص 52.

⁴ - مصطفى ناصف: مسؤولية التأويل، ص 208.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

وهذا الوجه قال به "ابن القيم"، حيث يرى أن الكمال لا يتحقق إلا باستكمال قوتين مهمتين، القوة العلمية والعملية¹، وهي إبانة دالة على رسوخ تضافت فيه عناصر عديدة ضابطة لقوى الإنسان وموجهة لحركته، فقوة العلم وقوة العمل هي المثال المجسد لحقيقة تشاكل الظاهر والباطن، وكمال الصورة الإنسانية فكرة وتطبيقا، ويبرز الإمام صورة الإحلال بهذا التكامل في قوله: "فإن العالم العامل بغير علمه، كالجاهل الحائر لا يستفيق من جهله، بل الحججة عليه أعظم، والحسرة له ألزم، وهو عند الله ألوم"²، وقد جاء كلام الإمام هذا في معرض حديثه عن القرآن ووجوب التفقه فيه والاهتمام به، والغرف من علمه، وانتهاج سبيله، وهذا ما يكشفه المخطط الآتي:



- مخطط يبرز تشاكل هيئة انتقاص وتمائل صورة وحقيقة العالم العامل بغير علمه مع الجاهل الحائر -

إن هذا التماثل السيئ وبهذه الصورة المتناقضة في هيئة الإنسان العالم الذي لا يعمل بعلمه، بحيث يصبح في حالة تماثل مع الجاهل الحائر، وبذلك يصير في أدنى مرتبة من الإنسان العالم العامل بعلمه، وفي حالة توافق مع الجاهل الحائر، لأنه "يعلم الحق ولا يعمل به، فالحجة عليه أعظم من الحججة على الجاهل"³، وهذه الصورة تعبر عن خسار وضلال، فهي ليست دالة على ظفر، وهي هيئة تترجم النقصان والشقاء الجلي في الإنسان، لذا كان المترتب ثقيل النتائج من عظم الحججة عليه، وملازمة الحسرة له، وشدة لوم نفسه بين يدي الله، وهذه الحالة شبيهة بصورة أهل الكتاب الذين لم ينتفعوا بما عندهم من العلم فوصفهم القرآن بالحمار الحامل للأسفار، وهي هيئة تسافل بينة الدلالات، وصورة معبرة عن تناقض الباطن والظاهر واختلال التوازن في الإنسان.

¹ - ينظر ابن القيم، مدارج السالكين، ص 9.

² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 162.

³ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج 04، ج 07، ص 134.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

ويقدم لنا الإمام الصورة الحسنة الدالة على كمال الإنسان في كلام آخر يعارض الوصف الأول الهابط قيمة ومعنى، فيقول: "والعامل بالعلم كالسائر على الطريق الواضح، فلينظر ناظر أسائر هو أم راجع، واعلم أن لكل ظاهر باطنا على مثاله، فما طاب ظاهره طاب باطنه، وما خبث ظاهره خبث باطنه، وقد قال الرسول الصادق عليه السلام: "إن الله يحب العبد ويغض عمله، ويجب العمل ويغض بدنه"¹، فالكمال المبلغ للسعادة هو ما تشاكنت صورته العلمية والعملية وتماثلت هيئة الباطن والظاهر فيه، "فلا يكمل للإنسان حظه من السعادة، إلا إذا كان مؤمنا طيب العمل"²، وما الإيمان إلا فكرة متجلية دالة على العلم الذي يستبطن الذات، وتشربه النفس، ومنه تستلهم طريقها في العمل والأداء وإتباع منهج الحق وفعل الخيرات واستثمار الصالحات، "فللنفس وجهان: ما تعلن، وما تسر؛ ولا صدق لإعلانها حتى يصدق ضميرها، ولا صلاح لجهرها حتى يصلح السر فيها، ولا يكون الإنسان الاجتماعي فاضلا بمشهده، حتى يكون كذلك بغيه"³، فالصدق والصلاح والفضل ومختلف المعاني ينبغي أن ترسخ وتثبت في النفس، حتى يظهر هذا عليها، تجسيدا لحالة التماثل والتجانس، قصد تفادي صورة ما ذكره الإمام من تعارض الهيئة العاملة مع الهيئة العاملة للإنسان، حيث يقول: "فإن العامل بغير علم كالسائر على غير طريق، فلا يزيده بعده عن الطريق الواضح إلا بعدا من حاجته"⁴، ما يؤكد لنا أهمية امتلاك مفاتيح الظفر والفوز، وقيم الإمام هذا الأمر على قاعدة واضحة المعالم، نستنبط منها مجموعة من الضوابط:

- 1- العامل بالعلم يحقق حاجته.
- 2- العامل بالعلم يسير على الطريق الواضح، ويقرب من حاجته.
- 3- العامل بغير علم، لا يحقق حاجته.
- 4- العامل بغير علم، يسير على طريق غير واضح، ولا يقرب من حاجته.
- 5- البعيد عن الطريق، بعيد عن تحقيق الحاجة.

إن هذه المعادلات يمكننا أن نوضحها بهذه الترسيم:

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 206.

² - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 206

³ - مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، مج 2، ص 08.

⁴ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 206.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل



وهذا ما يعني أهمية اعتماد الإنسان في حياته على سنن ومعايير ترسم خطة نجاحه، وتبعده عن التيه والاضطراب التي تنحرف به إلى جهة الشقاء والفساد، وعليه، "فلا بد من إيقاع آخر لإعادة تصنيف القطع الداخلية المبعثرة في مساحات الانفعال"¹. تماثل يعبر عن تنظيم وهندسة بنائية للعالم الإنساني وتصنيف قطعه كاملة، يهدف إلى جعل قوى الإنسان عاملة جميعاً، غاية ووسيلة وهيئة وتصورا، ومنهجاً وفكرة وعملاً، وهذا ما يوضحه بصورة مجمل الجدول الآتي:

العامل	المقياس	الهيئة	التمائل	العلامة والتأويل
<u>بالعلم</u>	السائر على - فليُنظر أسائر أم راجع = النظر.	العلم + العمل	ظاهر متمائل مع الباطن.	طيب الظاهر طيب الباطن تماثل وتحقق ظفر وفوز.
<u>بلا علم</u>	السائر على غير الطريق.	لا يزيده بعده عن الطريق الواضح إلا بعدا عن حاجته [= لا نظر].	عدم تماثل ظاهرة و باطنه	خبيث الظاهر خبيث الباطن عدم تماثل خسران حاجته

هذه مقارنة كاشفة لقيمة تماثل الظاهر والباطن، بحيث يمزج الإنسان العلم بالعمل، لتحقيق مقاصده وحاجاته، فيظفر بما ابتغاه، تعبيرا عن توافقه مع الحق والمنهج دون فواصل تمنعه أو تحده.

ج/ حقائق واصفة لتجليات إنسان تشاكل ظاهره وباطنه: يظهر الإنسان الذي تشاكل ظاهره وباطنه بهيئة مغايرة لا يكون عليه أغلب الكل، هيئة عجيبة مدهشة تفاعلت فيها قوى روحه وفكره ونفسه وجسده، وهذا ما يراه كل ناظر إليه، يقول الإمام مجليا وصف هذا الإنسان: "ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض، ويقول قد خولطوا، ولقد خالطهم أمر عظيم، لا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون، إذا زكي أحدهم خاف مما يقال له فيقول: (أنا أعلم بنفسي من غيري، وربي أعلم بي من نفسي، اللهم لا تؤاخذني بما يقولون واجعلني أفضل مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون)"²، وهذا تعريج من الإمام على هيئة أولئك الذين تحلوا بالتقوى ولبسوا لباسها، وتشرّبوا روحها وما يصنع عظمة

¹ - خالد آغا القلعة: السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة، ج1، ص 116.

² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 285.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

الإنسان، ويبقى على جوهره قائماً محافظة على كرامته، صافية من الارتهان في الوسخ والفساد، والقول في عمومته يشير إلى ظاهر وباطن إنساني، يمكننا أن نجزئه إلى جزئين، وبالتأويل هما:

أولاً: الظاهر بالنظر والحقيقة بالكشف، وتتوضح بالعلامات الآتية:

التأويل	العلامة	التأويل	الحقيقة بالتأويل والكشف	الناظر(براهم)
تماثل بالحقيقة والكشف، حيث يظهر للناظر عدم تماثل هذا.	ظاهر/ باطن.	دلالة على الخوف	- ليسوا بمرضى. - خالطهم أمر عظيم.	- مرضى. - حولوا.

لقد تصور الإمام هيئة إنسانية، بمشهد يجسده ناظراً ومنظوراً إليه، فالناظر [= من الناس]، لم تتضح عنده صورة وحقيقة هذا المنظور إليه [= الإنسان الكامل العابد]، لأنه يفتقد أدوات الكشف والتأويل لفهم سر هؤلاء وما هم عليه من أمر يجليه ظاهرهم ويثبته باطنهم، بينما أهل الكشف، مثل الإمام لهم بصيرة تقرأ سرهم وتكشف حقيقتهم، وهذا السر يظهر خوفهم من الله، وهذا ما يبدو على هيئتهم الجسدية، كأثم مرضى ومجانين، وهذا السر في باطنهم، "فالأمر العظيم، الذي خالط عقولهم هو الخوف الشديد من الله"¹، وهذا الخوف له أمارات دالة، وهو ما يظهر في الصفات التي انتهجوها مسلوكاً في حياتهم والتزامهم تقوى الله في كل أمر.

ثانياً: صفاتهم الدالة على هذا التشاكل، فقد ذكر الإمام مجموعة من الصفات، تدل على التوصيف الأول، وتبرهن على تماثل ظاهر هؤلاء وباطنهم فكرة وعملاً، كما هو مبين في الشكل الآتي:

التأويل	العلامة	الصفة
يحمل باطن النفس استشعار الخوف من الله، وكذلك ظاهرهم دال على نفس المعنى، هذا التماثل يبرز صفات المتقين، حيث يعبر ظاهرهم عن باطنهم.	- إن الاجتهاد في العمل ينبغي أن لا يغري صاحبه ببلوغ الكمال، وإنما ينبغي أن يصاحب دائماً بالخوف والمجاهدة والعمل. - يتطلب الخوف من المدح محاربة مداخل الغرور والعجب وتضخم النفس التي تقتل المعنى.	- لا يرضون من أعمالهم القليل - لا يستكثرون الكثير. - لأنفسهم متهمون بالتقصير. - من أعمالهم مشفقون. - إذا زكي أحدهم خاف مما يقال له.

إن كل هذا يدفع النفس إلى العمل وتنشيط قواها لتستمر عاملة مجاهدة مستكملة لقوى وعناصر كمالها، وهذا المعنى أوحى به العلم والبصيرة لهؤلاء، ليكون ظاهرهم دالاً على تماثل عجيب مع باطنهم، وما هذا إلا الوجه المعبر عن رسوخ العلم في نفوسهم، وعليه "فإن ظهور كل باطن يحتاج إلى علم ومعرفة"²، فعملية التقوى والخوف مبنية على أساس، وهي مقصد، بمعنى أنها عملية واعية، وهي من آثار العلم وفيوضه على الذات، وحتى تأخذ هذه العملية القيمة التي تحقق الظفر

¹ - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 285.

² - سليمان خزاغي صالحاً: الإنسان والوعي، ص 13.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

والفوز يضع الإمام بين يدي الناس تذكيرا مهما يتحقق بفضل هذا التماثل الدال على رسوخ هيئة العلم في الإنسان، واختيار طريق التقوى أسلوب حياة، فما يضعه أمامهم هو البوصلة التي يكون بها الاهتداء، وبها يتحقق توازن الإنسان، وتعيينه في الجواز على الصراط، فيقول: "واعلموا أن مجازكم على الصراط، ومزالق دحضه، وأهاويل زلله، وتارات أهواله"¹، فصفة التقوى والخوف تصبح بلا قيمة من غير وجود ما يصنع هذه الحميرة ويعطي كيمياء هذا الإنجاز، وما يطبعه من رسوخ وتماثل، فما يصنعها هو تذكر الإنسان هدفه البعيد ومآله الذي يتحرك نحوه ويتقدم إليه، جوازه على الصراط، نظرا لما يحمله من دلالة رمزية ولحظة فارقة لها ما بعدها، باعتباره يمثل الطريق القائد إلى الجنة أو النار، مما يستدعي مضاعفة الأهبة والاستعداد والاندفاع نحو العمل، وهو طريق لا عدول عنه، مما يرفع من حجم توتر الإنسان وقلقه، وهذا هو النعت الذي أظهر به الإمام أوصاف هؤلاء. وذكر الصراط إنما المراد منه "التخويف والزجر"²، وبهذا يتساير ما ذكره الإمام مع الكلام السابق، ويكون الإيمان المرسخ بالعلم في النفوس والذي يظهره بالعمل، ناشئا بقوته وحضوره عن = من الخوف وثمراته التي تجعل فكرة التقوى حقيقة مجسدة، قائمة على استشراف بصير بالحقائق، وهذا الوعي والعلم المصاحب الذي يضاعف حافزية الإنسان ونشاطه، كما يقول "مصطفى ناصف": "في لغة النص الديني الثرية نرى أنفسنا أمام ظاهر وباطن يتمايزان ويتجادبان"³، هذه الحقيقة دافعة إلى رسم هيئة إنسانية متماثلة تنشط في الخوف والرغبة، وفي الدنيا والآخرة، وفي صراط الدنيا وصراط الآخرة، وفي كل أفق يرمي إليه هذا الإنسان السوي الذي اجتمعت طاقاته وقواه متشاكلة، وعليه فإن فاصل الخوف العالي في الإنسان من اجتياز الصراط يزيد من توتره وحافزته، والقلق الحبيس في الذات يمدّها بالإشعاع والتحذير، والاندفاع والترقي، والبحث عن كمال الأداء في حركة متوافقة متماثلة ظاهرا وباطنا، وكل من كان بهذه الرؤية البصيرة كان الظفر حليفه، وتصبح المراقبة لنشاطه علامة يرى بها هذا النصر رأى العين، يقول الإمام: "قد عبر معبر العاجلة حميدا، وقدم زاد الآجلة سعيدا، وبادر من وجل، وأكمش في مهل، ورغب في طلب، وذهب عن هرب، وراقب في نومه غده، ونظر قدما أمامه، فكفى بالجنة ثوبا ونوالا، وكفى بالنار عقابا ووبالا،

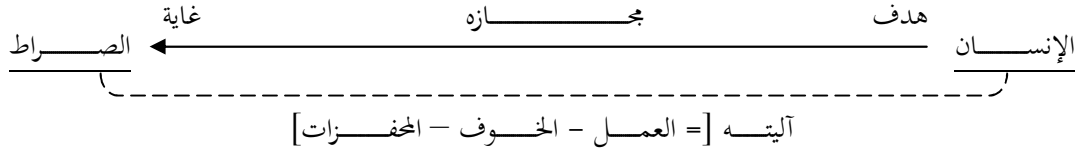
¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 108.

² - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج 03، ج 06، ص 162.

³ - مصطفى ناصف: مسؤولية التأويل، ص 253.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

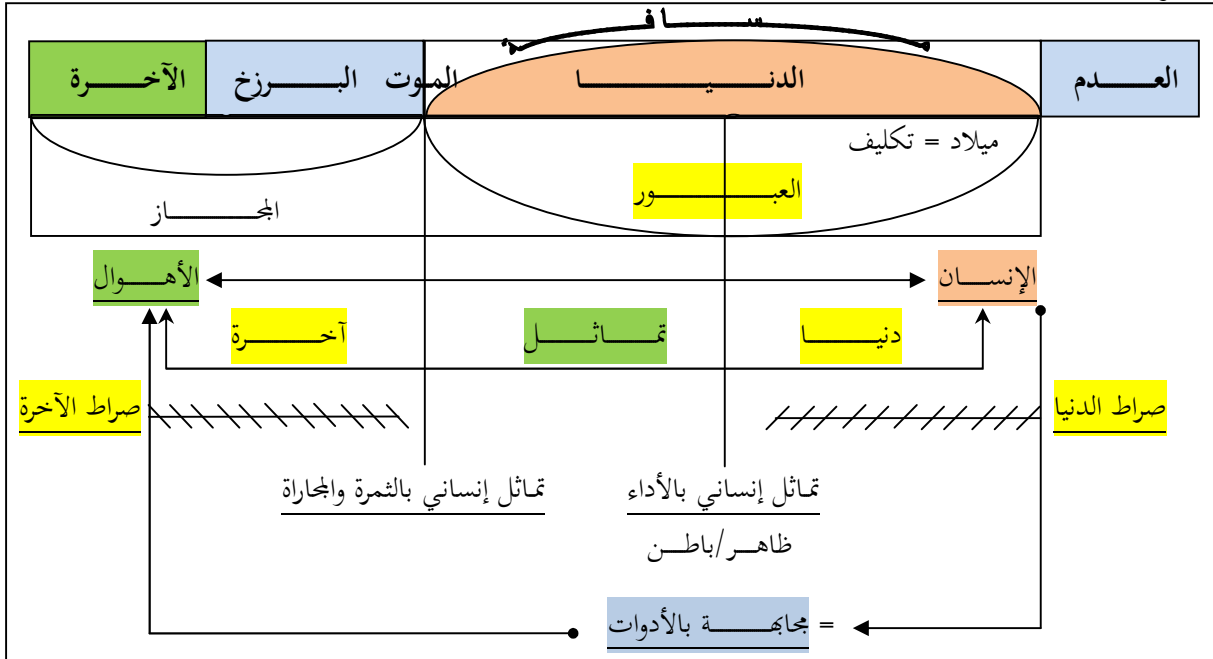
وكفى بالله منتقما ونصيرا، وكفى بالكتاب حجيجا وخصيما"¹، وكما ذكر الإمام أهمية أن يكون العلم سبيلا وتذكر مجاز الصراط غاية، يطرح وسائل هذا المجاز، ويرسمه للإنسان بهذه الكيفية الدالة:



- مخطط دال يرسم سبيل الجواز على الصراط -

ولهذا يذكر الإمام كيفية هذا الاجتياز المبنية على أسس ورؤية واضحة، ومعرفة منهجية، نبين

خطوطها بهذه الترسيم:



- ترسيمة دالة على عملية التشابك القائمة بين وجود الإنسان في الدنيا، ومجازه لأهوال الآخرة-

إذن فما هي آليات هذه المجاهدة؟ إن هذه المسافة التي يعبرها الإنسان من الدنيا إلى الآخرة تتطلب أدوات عملية، تكون بمثابة الإجراء الوظيفي المبلغ لذلك المقصد الذي يحمله الإنسان في ذاته فكرة، ويبحث عنه مخارج عملية في واقعه تقوده إلى الظفر، يحددها لنا الإمام في نقاط رئيسية:

1- تقديم الزاد، زاد قطع مسافة هذا السفر الذي يعبره الإنسان، من الدنيا إلى الآخرة.

2- المسارعة إلى الخيرات والأعمال والصالحات.

3- الجهد في السير، مع شدة الرغبة فيما ينبغي طلبه.

4- المراقبة والمحاسبة قبل الإقدام على الفعل بالنظر والتدبر والتبصر.

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 109.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

ويهدف الإمام من هذا إلى أن يكون فعل الإنسان متوافقا مع الحق، ومع سلامة مخبره وصواب ظاهره، وأن يتماثلا تحقيقا لهذا المقصد، ولا يتحقق إلا للسابق الذي لا ينتظر ولا يسوف، ولا يكفي الإمام بتقديم هذه الآليات، وإنما يسند لها من التحذيرات الضاغطة، ليكون الاندفاع والإقبال في قمته ورفعته، وتماثل نشاط الفكرة والجسد، لأن "الجسد يشير إلى مهام الفكر الكبرى"¹، وهذا هو المنتظر من الإنسان، إنجاز يتوافق مع المقاصد والحقيقة الكلية، ومع حالة الترافق الضرورية للوعي بهذا، وجعله موضع التنفيذ، لهذا وضع الإمام في نهاية كلامه تحذيرات محفزة تركز النشاط، وتقوي الاهتمام، وتزيد من فاعلية الذات، وهي:

- | | | | | | | | |
|-----------------------------|-------|-----|-------|---|---------|---|---------------|
| 1- كفى بالجنة ثوبا ونوالا | ----- | كفى | كفاية | ← | بالجنة | ← | ثوبا ونوالا |
| 2- كفى بالنار عقابا ووبالا | ----- | كفى | كفاية | ← | بالنار | ← | عقابا ووبالا |
| 3- كفى بالله منتقما ونصيرا | ----- | كفى | كفاية | ← | بالله | ← | منتقما ونصيرا |
| 4- كفى بالكتاب حجيجا وخصيما | ----- | كفى | كفاية | ← | بالكتاب | ← | حجيجا وخصيما |

فماذا تشعر هذه الكفايات الإنسان؟! ولماذا تركزت في كفايات الجنة والنار والله والكتاب؟!.. إن هذه الكفايات تشعر الإنسان بالخطر والأهوال المقبل عليها، وما هو مقدم عليه، وبذلك يستولي على الذات الخوف والرغبة، مما يزيد من توترها وقلقها، ينقلها إلى الوعي بالمهام الموكلة إليها، وما تتطلبه من تنفيذ عملي مباشر تشترك في صناعته قوى الإنسان وطاقاته، متماثلة في الإنجاز بثبات ورسوخ، وجامعة بين الضرورة العلمية والمتطلب العملي، واستكمالاً للبعدين العلمي والعملي والظاهر والباطن في الإنسان، وعندما توضع هذه الكفايات بمتعينات، فإنها تكشف عن جوهر وبصر بالطريق، ومنتديات السير، وفق رؤية تنتهج أسلوباً علمياً وعملياً فاعلاً:

- أن الجنة هي المآل الحسن وموطن السعادة.
- أن النار هي المآل السيئ وموطن الشقاء.
- أن الله هو كفاية الكفايات، انتهاء إليه، حيث تنتهي الحركة والسير إليه بالعبودية الخالصة، تدفع الإنسان إلى الاجتهاد الدائم إرضاء لربه، بالسعي والامتثال والتوفية.

¹ - مصطفى ناصف: مسؤولية التأويل، ص 214.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

- أن الكتاب هو صورة الحق، به يتمثل الإنسان مع الحق عملا وتطبيقا، لأن مخرجات الفعل الإنساني مصدرها الكتاب، وحيا يتنزل على الذات، وهو قائده إلى الله، وإلى الحق والجنة، والقوة التي تمنحه صلابة في سيره وترقيا واندفاعا وتحفزا ونشاطا، وقبلها معرفة وعلمًا.
 - وما نخلص إليه من كل هذا أن مجموع التحذيرات والكفايات النهائية، هي بمثابة الضبط المنهجي لحركة الإنسان وحماية له من التفلت، ومن ثم فهي:
 - محاججات وبرهان تضبط توجه الإنسان، وترشد فعله.
 - ضغط هدفه التركيز، أي تركيز الإنسان على العمل ليسهل مجازه.
 - الثبات حول الهدف والغاية والدوران حول المقصد الأسمى.
 - التركيز حول الذات، لتكون موحدة، حتى يستطيع أن يجانب المفسد المبعدة عن طريق الحق.
- ولا يمكن تحقيق هذه الغاية إلا بما يلزم تحصيلها، حيث يحتاج الإنسان إلى علم ورسوخ وثبات، وإلى تماثل لظاهره وباطنه، لتكون حركته واتجاهه واحدا متماثلا.

د/ امتزاج الظاهر والباطن مثال الهيئة الإنسانية: إن ما يميز المشهد الإنساني في عموم ما يلاحظه المتأمل البصير، تضارب الأداء وتقلب صور الفعل، وكأنها لا تعبر عن ذات واحدة، وإن صدورها من تعدد وتضارب يجعل زجاجة النفس حائلة إلى غير لون الصفاء، وما يكون عتما في العادة يحرف عن الانتساب إلى نور الإيمان، ولا تكون فيه حركة الإنسان متسمة بطابع التوافق، إلا إذا كان مصدر العمل دالا على نبع واحد، ومشكاة واحدة، مما يجعل من هذه الحركة لها إمكان الكمال والتفاضل، يقول الإمام في هذا المعنى المبني على هذا الامتزاج الرفيع: "يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل"¹، وبهذا يرتفع إلى الكمال، لأن أنوار الحق فيه قد منحت ألق الأداء والإنجاز وقربه من المثال، إلى النموذج المستند إلى العلم والعقل والحلم بمرتباته، عمل مصدره الفكرة المشعة في باطن الإنسان، والملمة لقصده وحركته لتتوافق، وكما يقول "الرافعي"، فإن من "معاني النية أنها قوة تجعل باطن الجسم متساوقا مع ظاهره، فتتعاون الغرائز المختلفة في النفس تعاوننا سهلا طبيعيا مطردا، كما تتعاون أعضاء الجسم على اختلافها سهولة وطبيعة"²، لأن النية أحد مرتكزات العمل وأسه الذي يجعل منه عملا خالصا لله، يصحبه الأثر الخارجي، صواب العمل وحسنه، توافقا مع الحق، وهو التساوق الذي تتجلى فيه صور هذا التوافق، ومردها أنه "لا يحلم إلا عن علم الحلم ليس كما يحلم

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 285.

² - مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، ج 2، ص 37.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

الجاهلون، - كما أنه- لا يقتصر على القول¹. امتزاج تتصاحب فيه النية الخالصة في باطن الإنسان مع صواب العمل وحسنه الظاهر، لتدل على تماثل الهيئة الإنسانية، وتوافق حركة فعله وأدائه، تبرز كمال هذا الإنسان وتميزه عن تداخل فاسد فكره مع النية السيئة والمقاصد المضللة.

إن هذا النموذج المتكامل من الناس يؤسس لنموذج الخيرية والصلاح في الحياة، ويبنى جوهر الذات بناء رصينا، صافيا يدفع بالإنسان إلى الترقى، والسير على خط الهدى سيرا مترقيا من رفيع إلى أرفع، وها هو الإمام يصف هذا المعدن الإنساني، فيقول: "وعلى ذلك عقد خلقهم وأخلاقهم، فعليه يتحابون وبه يتواصلون، فكانوا كتفاضل البذر ينتقى، فيؤخذ منه ويلقى، قد ميزه التخليص وهذبه التمحيص"². وإن هذا العقد الجسمي (هيئة) والنفسي (حالا) دال على تماثل الظاهر والباطن في وحدة متجانسة متكاملة تعمل لهدف وقصد واتجاه واحد، فالله سبحانه وتعالى "وصل خلقهم الجسماني، وأخلاقهم النفسية، بهذه الصفات وأحكم صلتها بها، حتى كأنهما معقودان بها"³، عقد هو ربط جامع في كل، يقود إلى غاية واحدة، "فظاهر أنه إذن، إنما يجب أن تحدد الغايات في الأفعال الإنسانية فقط"⁴، لتدل على التوافق والتماثل بين الظاهر والباطن، وهذا ما يصنع تمازجا بين الناس مبناه هذه الفكرة، ونتجته التحاب والتواصل فيما بينهم، وكأنه عقد اجتماع على الخيرية والصلاح، ومثل هذه الحركة المتوافقة بآثارها الاجتماعية تدفع إلى الترقى والكمال ومحاولة التفاضل التي ترفع هذا عن غيره وتسير بهم جميعا في توافق كمال/ تفاضلي من رفيع إلى أرفع بتراتب نوعي كمال، وإن هذه الثلة المختارة المصطفاة تظهر قيمتها الرمزية بمقارنتها بالسواد الأعظم من الناس، "فإذا نسبتهم إلى سائر الناس رأيتهم يفضلونهم ويمتازون عليهم، كتفاضل البذر"⁵، ولذا فإن الكامل بين الناس هو مرآة صافية عاكسة، يرى من خلالها الآخرون - وفيهم - منزلتهم الحقيقية، وتقصيرهم، واجتهادهم في التدارك، وتصحيح مسار العمل، هذه المنزلة التي تحققت لهذه الثلة لها عواملها المؤسسة، عوامل صنعت هذا التفاضل المميز، ركزها الإمام في عاملين:

1- التخليص: وهو التنقية، ويعني تهذيب النفس وتصفية ذاتية الإنسان.

2- التمحيص: اختبار تحدده سنة الابتلاء، لتمحيص الذات وصلها، وبيانا لإيمانها.

¹ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج 5، ج 10، ص 92.

² - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 207، 208.

³ - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 207.

⁴ - ابن باجة: تدبير المتوحد، ص 19.

⁵ - محمد عبده: المصدر السابق، ص 207.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

إن هذه الحركة التي يسعى من خلالها الإنسان إلى إحداث هذا التوافق النوعي التماثلي، إنما تتأسس على أسلوب منهجي فاعل مثمر، وكأن الإنسان يخضع لعملية تدريب، تثمر بناء متكاملا ومتفاضلا تميزه عن غيره، وتظهر تماثلا لعالمي الظاهر والباطن، يقول العقاد معلقا على ما فهم من قوله تعالى: "فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ"، قائلا: "وفهم الكثيرون أن التقويم الحسن هو الصورة الظاهرة لاعتدال قوام الإنسان، وليس جمال الخلق وحده مرتبطا باعتدال القوام، بل ترتبط به القدرة على العمل والإرادة"¹، فالتقويم الذي يبرز اعتدال صورة الظاهر وجمال الجسم، لا يكفي في تعبيره عن الحقيقة الإنسانية، ولذا تكون قدرة الإنسان على العمل وقوة الإرادة، مثلا دالا على الجهد الذي يبذله بمفرده، ليخرج من صورة الجسد، وأن ينمى بالمعنى والإنسانية، فلا يمكن أن يكون لصورة التماثل المصاحبة لهيئة الإنسان، المتوافقة مع حركته إلا دليلا على الإخلاص وطيب الجوهر والامتثال للحق، وهذا التوافق يعلنه سر الإنسان وعلايته، يقول الإمام مبرزا مثال هذه الصورة الرفيعة، "ومن لم يختلف سره وعلايته، وفعله ومقالته، فقد أدى الأمانة، وأخلص العبادة"²، فصورة التماثل المعبرة عن حركة التوافق حددها الإمام في عدم اختلاف السر والعلن، والفعل والقول.

إن ما يترتب عن هذا التماثل الحقيقي تمكين الإنسان من أداء الأمانة، على اعتبار أن الأمانة التي نأت بحملها السماوات والأرض والجبال، هي حمل ثقيل يحتاج إرادة وقوة ووعيا، وحتى تؤدي تحتاج إلى علم وعدل، ثم إخلاص في العبادة، وهذا الإخلاص يزيد الإنسان صلابة ونقاء جوهر، في عمق الذات، حيث يدعو الإمام إلى مجانبة النفاق والرياء³ الذي يضعف الإنسان ويهز كيانه على أداء واجبه، وتوافقه الحركي مع المرادات، و بلوغ الغايات، يقول "جلال السيد": "وأما الإسلام فهو عملية ظاهرية لا وجدانية فحسب"⁴، بمعنى فكرة إيمانية تتعمق الذات، وعمل يصدر عنها، وسلوك ظاهر يدل عليها، وكله يتوافق مع سير الإنسان وحركته في سعي متماثل ومتكامل.

إنه ليس بمقدور كل إنسان أن يحقق هذا التوافق، فأحوال الكثير من الناس لا تمثل صورة الحق، وما صفا لهم باطن ولا استقام لهم ظاهر، ولا توافق لديهم إسرار وإعلان، ومثل هؤلاء يحتاجون إلى دال على الحق يقودهم إليه، ويعلمهم تقصيرهم، ويصحح لهم خطأهم وتجاوزهم، وآل

¹ - عباس محمود العقاد: الإنسان في القرآن، ص 13.

² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 352.

³ - ينظر ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج 08، ج 15، ص 92.

⁴ - جلال السيد: الإمام علي دراسة عن حياته، ص 103.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

البيت هم مثال القيادة والالتجاء، والعلم والنور، يأتيهم هؤلاء ليسترشدوا بهذا الضوء، يقول الإمام: "نحن النمرقة الوسطى بها يلحق التالي، وإليها يرجع العالي"¹، وهذا التوسط في الحال، هو المؤهل لمزاولة نشاط التصويب والاهتداء، يمثل هذا الفهم والوعي والإدراك والبصيرة، بحيث مكنتهم من امتلاك مفاتيح النفاذ إلى أعماق النفوس لمعرفتها وتغييرها، لأنها قاصرة عن الإدراك لمحدودية أفقها، وبهذا الفقه والوعي صار "آل البيت على الصراط الوسط العدل، يلحق بهم من قصر، ويرجع إليهم من علا وتجاوز"²، ما داموا بهذه الأنوار والرفعة والعلم والكمال، فإن "كل من جاوزهم فالواجب أن يرجع إليهم، وكل من قصر عنهم فالواجب أن يلحق بهم"³. إذن فتكميل الذوات وهدايتها وقيادتها إلى الحق، يتوقف على الأفذاذ من الناس، وأهل العلم والخير والصلاح، وعليه فإن:

- المقصر والمتجاوز بعيدان عن الحق، ويضبطان على جادة التوسط والاستقامة، من هذه النمرقة.
- أن الأفذاذ، بوصفهم معلم إضاءة واهتداء، يزاولون عملية الضبط بترسيخ العلم والقيم في النفوس، تلحقهم بالاستقامة، يتمثل فيها ظاهرهم وباطنهم، وتتوافق حركة سيرهم مع الحق.

وهكذا تتكاثف الجهود الإنسانية في بناء الحق وإقامة المنهج الإلهي، بالثبات على الحق وترسيخ العلم، ينطلق بنوره ليصيب النفوس الحائرة التائهة وسط المفاسد والضلالات والأهواء.

ه/ تشاكل الحالة بالطلب والحضور: ذكرنا أن رسوخ الذات وثباتها يكون بالعلم والعمل، وضرورة توافق حركة هذا المنحى في سير الإنسان وتكامل قواه الحية في تثبيت هيئته التي تعبر عن كمال وتمائل وظيفي، تماثل يعلنه حضور الإنسان، أو يكشفه من خلال صور الأداء لطاقاته وقواه جسدا وعقلا ونفسا، تماثل لا يعبر عن اختلاف سر الإنسان وعلمه، لذا يحتاج الإنسان في ترسيخ هذه الفكرة إلى طاقة الدعاء لتحصيل فضيلة هذا التماثل والتوازن، ومن ثم الحضور العملي باعتباره أداءً متوافقا مع الحق، ولنستمع إلى الإمام كيف يخاطب الناس، يخاطب فيهم قواهم التي يتطلبها حضورهم الحقيقي، ويفرضها الموقف والمبدأ، فيقول: "أيها القوم الشاهدة أبدأهم، الغائبة عقولهم، المختلفة أهواؤهم، المبتلى بهم أمراؤهم"⁴، فحالة التناقض البينة عند هؤلاء القوم تطرح إشكالية تعارض الأحوال، من خلال شهود البدن، وغياب العقل، وشهود اختلاف الأهواء، وما يظهره من

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 446.

² - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 446.

³ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج 09، ج 18، ص 125.

⁴ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 143.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

تنازع، وغياب مقابله من الرشد، هذا التضارب جعل منهم مصدر فتنة وابتلاء وأزمة، وهي الإشكالية المعبرة عن عدم تماثل الظاهر والباطن والجهل وغياب العلم، مما يجعل الإنسان واقفا على مسافة [= شاسعة]، وبمراوحة جوهرية بينه وبين الحق وتمثله، وبين المبدأ والفكرة التي يحمل ومواقفه في الخارج، وهذا دليل على عدم تمكن الحقيقة والعلم من النفس، لتكون مصدر انطلاقتها وإشعاعها الظاهري، قال تعالى على لسان سيدنا موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾¹. إن هذا الموقف السليم الذي يكون عليه الإنسان العاقل، يعد بجانب ومظاهرة لأهل الباطل والضلال والجرمين، بجانب يميل من خلالها إلى الحق، مع ترسيخ فكرة الإيمان في النفس والعمل بمقتضاها، وهذا تدريب تثمره التربية الروحية والتزكية والعبادة، وللصلاة قوة الإظهار الجلية لمعاني الحق في الإنسان، "فإذا ما هيمنت (الصلاة) على حياة المرء الباطنة، فإنها تتغلغل عندئذ في حياته الظاهرة أيضا"²، وهذا هو الأسلوب الوحيد الذي يقضي على التعارض والتناقض داخل الذات، ومن ثم يكون شهود الإنسان يمثل شهود الحق، يشبهه بطاقاته الباطنة والظاهرة، وقواه الروحية والجسدية، كما عكس كلام الإمام من صور ينبغي أن تعدل إيجابيا، وتلخص في حالتين:

- في حالة السلب: ويكون إظهارها بعدم تماثل وتوافق قوى الإنسان الروحية والجسدية أداء وعملا:

التأويل	حالة الأظهار	الحالة النفسية	الحالة الروحية	الحالة الجسدية
تبرز هذه الدوال حالة ضعف وتناقض ومردها الإيمان السطحي الذي لم يلامس شغاف القلب، ويدل على عدم تشاكل صورة الإنسان الباطنة والظاهرة.	- المبتلى بهم أمراؤهم - سوء الصنيع [= غياب المبدأ] -	- المختلفة أهوائهم - الاختلاف مع الحق [= غياب الإيمان] -	- الغائبة عقولهم [= غياب العقل] -	- الشاهدة أبدانهم [= شهادة البدن] +
	أزمة فكرية واجتماعية	تشتت القوى	عدم وجود بصيرة	حضور هيكلية

- في حالة الإيجاب: ويكون إظهارها بحضور وتماثل قوى الإنسان الروحية والجسدية علما وعملا:

التأويل	حالة الأظهار	الحالة النفسية	الحالة الروحية	الحالة الجسدية
تبرز هذه الدوال: - هيئة كمالية. - صورة تشاكلية.	- سيرهم مع أمراؤهم - الصنيع الحسن [= حضور المبدأ] +	- المتفقة أهوائهم توافقا مع الحق [= شهادة الإيمان]. +	- الحاضرة عقولهم [= شهادة العقل] +	- الشاهدة أبدانهم [= شهادة البدن] +
	حالة بناء إنسانية واجتماعية.	توحد مع الحق والإيمان	البصيرة	حضور عملي.

¹ - سورة القصص، الآية 16.

² - رضا شاه كاظمي: العدل والذكر، ص 152.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

بناء على الصورة السلبية السابقة التي يغيب فيها حضور الإنسان من خلال قواه وطاقاته، فإن صورة الإيجاب المستتلة بالمخالفة من الحالة السلبية، إنما تعبر بالتأول عن تماثل ظاهر الإنسان مع باطنه، في الوقت الذي دلت فيه الحالة الأولى على عدم تماثل ورسوخ، ذلك أنه لو رسخ الحق والعلم والإيمان فيهم، أي في باطنهم لتحقيق التوافق في ظاهريهم، ولكان الحضور متجسدا قائما دالا على أن قواهم وطاقاتهم عاملة بتجانس يترجم تطابق الحالة الجسدية مع الحالة النفسية مع الروحية، ولهذا نجد الإمام يقدم علاجه لمثل هذه الحالات غير المتوافقة، علاج تشاكل الحالة بالطلب، وهي حالة الدعاء باعتباره استعانة وتقوية و طاقة مولدة للنماء والخيرية، تتركز في ضرورة التعوذ من التضارب، والدعاء بتثبيت القوى، ومجانبة الرياء وما يولده من نفاق عملي، يقول الإمام: "اللهم إني أعوذ بك من أن تحسن في لامعة العيون علانيتي، وتقبح في ما أبطن لك سريري، محافظا على رثاء الناس من نفسي بجمع ما أنت مطلع عليه مني، فأبدي للناس حسن ظاهري، وأفضي إليك بسوء عملي، تقربا إلى عبادك، وتباعدا من مرضاتك"¹، وواضح ما يرمي إليه الإمام، وهو ما أسميناه تشاكل الحالة بالطلب*، بالدعاء لتصنيف الأحوال وترابط القوى، وتحقيق التماثل بين ظاهر الإنسان وباطنه، برسوخ إيمانه وإخلاصه في عمله لموافقة الحق، وعليه ففي مثل هذا الوضع من التضارب والاختلاف يتعين على الإنسان الاستعانة بالدعاء، لتضميد جرحه الإنساني، بأمراضه المعنوية المتولدة من ظلمة النفس، وشطط قوى الجسد، قال تعالى: ﴿وَذُرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾². والآية صريحة في الدعوة إلى وجوب مزاولة التخلية من كل إثم ظاهر وباطن، تحقيقا لصفاء تام في الذات، يهيئ لأداء متوافق مع الحق، وهذا ما جعل الإمام "يستعيد بالله من حسن ما يظهر منه للناس، وقبح ما يبطنه الله من السريرة"³، وهو موقف حازم يدل على مواجهته لمختلف علل النفس الرابضة في أعماقها، أو ما يترجم حالة الرياء التي

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 476.

* - ومعنى بالطلب دعاء الإنسان ربه ليمنحه مختلف الإمدادات الإلهية التي تعينه على ضبط عوالمه وتماثل ظاهره وباطنه، ورسوخه في الحق، وهي إعانة أَلطاف تحقق له التوازن أمام العوارض والمعيقات المستفزة له، ومن ثم ينزود بما يضمن له حضور قواه كفاية، حيث يسبغ عليه هذا طاقة -استجابة- وأثرا وتميزا، تحقيقا لصفاء الذات، وترسيخ علاقته بره، تمتينا وإخلاصا، حتى تتجلى متوافقة في صورها المختلفة بفرضها كل متطلب.

² - سورة الأنعام، الآية 120.

³ - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 476.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

تصيب الإنسان، وتكون مقدمة محرّكة لنفاق يداخل النفس، ويعارض الحق، ودلالة على "إظهار العمل لهم -الناس- ليحمدوه"¹، بقوة إيمانية تواجه هجوم المخالفات.

إن من ثمار هذا التماثل الذي تكون عليه الذات الواعية، ما يحقق توازنها وتحديد إتجاهها بدقة، في موافقة تامة مع منهج الحق، ومراقبة دقيقة للعمل، من حيث الإخلاص والصواب، فلما كانت دعوة الآية السابقة الإنسان إلى ترك ظاهر الإثم وباطنه، امتثالاً لطريق الحق وإثباتاً لصورة العبودية في جزء يتعلق بترك المخالفات، وفي الجزء الآخر يكون معبراً عن شكر الله على نعمه الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾²، وهذا التسخير والاسباغ يتطلب شكراً وتوظيفاً لهذه النعم في مرضاة الله سبحانه وتعالى، وكأن الله يقول لعباده، لقد "أسبغت عليكم النعم ظاهراً وباطناً، فذروا الإثم ظاهراً وباطناً، فإن من شرط الشكر ترك استعمال النعمة فيما يكون إثماً ومخالفة"³، وهذا التماثل القائم بين ترك الإثم وشكر النعمة، وعدم استعمالها في المعصية، يدل على رسوخ إيمان وثبات عقيدة وصلاح عمل، لذا جاء الدعاء بتقوية السريرة والطاعة وموافقة الحق ترجمة عملية تنفذ هذا المقصد الذي أوضحته الآية الكريمة، ومن ثم فالدعاء يتركز على معالجة ذلك الاهتزاز النفسي، وأمراض الذات من خلال تحسين صورة الباطن والظاهر، وتعوذ من مفارقة الصحة الإيمانية، أو مقابله حسن الظاهر بقبح الباطن، وهذا دليل رياء ونفاق لا يليق بعبد سوي، "ففروض الدين الظاهرة تتطلب موقفاً باطنياً صحيحاً، إذا ما أريد لها أن تطبق باحترام، وأن يحافظ عليها مستقرة"⁴، ومن ثم ينصب الجهد في تطهير النفس والداخل الإنساني وإظهار العمل الخير الحسن، لأن فساد الحقيقة يترتب عنه، كما ذكر الإمام في نهاية الكلام مخادعة باطلة غير سوية، بعيدة عن صورة التماثل والحضور الفاعل، حيث يجمع هذا التضاد المتناقض التقرب إلى العباد، والبعد عن الله، وهذا محض رياء ونفاق، وضعف عقيدة يجانب حقيقة العبودية الخالصة لله رب العالمين.

إن الحضور الإيجابي المتطابق الأحوال تجلياً وخفاءً وجوانية وبرانية وظاهراً وباطناً، هو الشكل الناجز الدال على رسوخ العلم والإيمان في ذات الإنسان، وتوافق الحالة الجسدية مع الحالة الروحية،

¹ - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 476.

² - سورة لقمان، الآية 20.

³ - القشيري: لطائف الإشارات، ج 1، ص 498.

⁴ - رضا شاه كاظمي: العدل والذكر، ص 123.

الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل

ومختلف تمثلات المعنى المتجلي من هيئة الذات الإنسانية التي تكاملت صورها، وتكامل فيها الحق مع جوهر النفس، فلامس عمق تكوينية الإنسان، حيث انطلقها المشع نحو الخيرية والصلاح والإحسان والجمال، تعبيرا عن تجليات تشرق من الذات، وإظهارا للتكريم الإلهي له وتفضيله وخلقه السوي وحسن تقويمه، من خلال الأداء والحضور الجميل، وهذا ما يمكنه من أن يؤكد علوا إنسانيا، علوا يكشفه التكليف وأمانته ومسؤوليته، وكى يتواصل من خلال هذا التجسد مع ذلك الإدراك الواعي لحقيقة الاستخلاف وملحقاته النوعية، ومثل هذا البناء هام في تأسيس حقيقة الإنسان المؤمن/المسؤول/الكوني الذي يرى بأكثر من حاسة، ويترقى بأكثر من وسيلة، ويتذوق الحق بأدواته، ليكون الإنسان الجميل ظاهرا وباطنا، والكامل حقيقة وتجليا، والصافي جوانية وبرانية.

إن الإنسان الكامل ليس عالما منغلقا على ذاته، منكفئا في هيكله الجسدي في دائرة ضيقة، لكن هذا الإنسان هو تباديات خافيات مستقرة في أعماقه معرفته ويقينياته، هو العارف العالم العامل والزاهد التقي، والعاابد الموحّد، أي سيما جماليات التعبّد والسلام والأخلاق والبشر والإيمان، وهذا عندما أصلح جوانيته، فصلحت برانيتها، فصار من أهل الكشف بفعل هذا التشاكل بين ظاهره وباطنه، علامة على امتثاله للحق، وفي رحلة بحثه عن الحقيقة، فاعلا في ذاته، وفاعلا في غيره.

الفصل الخامس:

الإنسان الكامل

1- المبحث الأول :

الإنسان، الماهية والمفهوم.

2- المبحث الثاني :

مقومات الإنسان الكامل.

- الكونية. - الإنسانية - الفطرية. - الفكرية. - التوازنية.

3- المبحث الثالث :

خصائص الإنسان الكامل.

- الربانية - التكريمية - الروحية - الخيرية - الحكمية -

الجمالية.

4- المبحث الرابع :

سيما الإنسان الكامل في نهج البلاغة

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

- توطئة: تقدم لنا معاجم اللغة صورة حية عن الإنسان، فهو كائن حيوي له ماهية نوعية خاصة، ويعرفه العلماء بتوصيفات التدين والاجتماع والجمال، ويركز القرآن على إعطاء ماهية إيمانية له، فيذكر أحواله وتقلباته، يصفه بالوصف السالب كي يدفعه إلى وعي ذاته وتحويل هذا الوصف إلى إيجاب وفاعلية، ويذكر وصفه الموجب الذي هو أوصاف كماله، وينبه إلى حالات انتكاسه وجماله وأساليب مدافعتة الخسران الذي ينتظره.

لقد قدم القرآن أمثلة النموذج الكمالي الذي هو عين الحقيقة، فيذكر الأنبياء والصالحين نماذج كمالية للإقتداء بها، وقد مثلنا لها بنموذج النبي ﷺ في مدخل هذا العمل، فأوصافه تمثل هندسة واعية لتكوينية الإنسان المؤمن السوي، وهي أساسات بناء كماله، وعليه فإن طريق هذا الكمال هو طريق العمل والفكرة والمجاهدة والتمحيص والابتلاء، وطريق تأسيس وبناء من خلال المقومات والخصائص الكمالية، والوعي بهذه البرمجة الذاتية، فالقرآن يدفع الإنسان إلى تحصيل منعة فكرية وأخلاقية وإيمانية يجسد بها حقيقته، ويدفع بها مخالفات فطرته، وعلى الإنسان أن يتأمل هذا النموذج الإيماني والكمالي متمثلاً، بالخصوص في الأنبياء والاقتداء بهم، وهو عين ما يؤسس له نهج البلاغة يمثل هذا الدفع والضبط والتوجيه نحو المثال والأرفع، بإدارة ذكية واعية للنفس وتركيزاً وتنمية للذات، وتحصيل علم ومعرفة لإنارة هذا الكيان الإنساني في عقل الإنسان وروحه.

إن الإنسان الكامل الذي حاول الإمام توصيفه على مدار النهج له مفهومه ومقوماته وخصائصه وتجلياته، فمقوماته تمثل أبنية هذا الإنسان الضرورية، ولا يمكن أن تكتمل صورة هذا الإنسان إلا إذا أعطي ميزات نوعية فارقة ترفع من قيمة هذا الكائن، هي خصائصه الكمالية والجمالية بتجلياتها، وكذلك سيما مختلف إظهاراته الفكرية والتعبدية والسلوكية والروحية، وبما يحمله الابتلاء من جروح للذات، جرح الحق، وجرح الظلم.

المبحث الأول: الإنسان، الماهية والمفهوم.

أولاً: ماهية الإنسان:

أ- مادة "أنس، وحيوية الكائن: يقول ابن فارس في معنى "أنس": "الهمزة والنون والسين أصل واحد، وهو ظهور الشيء، وكل شيء خالف طريقة التوحش، قالوا: الإنسان خلاف الجن، وسموا لظهورهم، يقال: آنست الشيء: إذا رأيته، قال الله تعالى: "فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا" [النساء:6]، والأنس: أنس الإنسان بالشيء، إذا لم يستوحش منه"¹، فالأنس ضد التوحش خاصية تميز الإنسان، وفي اللسان، "والإنس: جماعة الناس، والجمع أناس، وهم الأنس"²، فالأنس يحمل معنى الاجتماع القائم ضد التوحش، ومقوم رفيع في الإنسانية، وبهذا يثبت للإنسان حيويته، ما يجعل منه ذاتا غير اعتيادية، فطرية إيمانية، اجتماعية إنسانية، فكرية عقلية، بالحوار والتواصل، ولهذا "يتميز الإنسان عن بقية الأشياء بأنه كائن عاقل مفكر"³، قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾⁴. تفضيل مرده تميزه بالعقل والنفوس، يقول أبو حيان: "ولم يكن بينه وبين الحمار فرق، بأن كان له روح ولكن لا نفس له"⁵، تأكيداً على انتمائه النوعي الفارق، "فهو الحيوان الناطق"⁶، كائناً عاقلاً حيواً.

ب- الماهية المعنوية: قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا وَاللَّهُ أُنَبِّتُكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾⁷، فقد وجه نوح عليه السلام النظر إلى آيات العظمة والإعجاز الإلهي في خلقه للإنسان والكون، ودعا إلى تأمل أطوار هذه الخلقة التي تكشف عنها سياقات قرآنية مختلفة*:
1- طور الطين: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾⁸، فالخلق من الطين أول طبيعة له، "بداية (أي آدم) بدأ من الأرض طينا (أي خلية)، ولا مكان مطلقاً في نص القرآن الكريم لأية خرافة من الخرافات"⁹، والعقل هو ما يجلي ويحدد هوية الإنسان ويزيل كل شك.

¹ - ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ص 56.

² - ابن منظور: لسان العرب، مج 1، ص 241.

³ - محمد شحرور: الكتاب والقرآن، رؤية جديدة، ص 275.

⁴ - سورة الإسراء، الآية 70.

⁵ - أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ص 200.

⁶ - الشريف الجرجاني: التعريفات، ص 35.

⁷ - سورة نوح: من الآية 13، إلى الآية 18.

* - ينظر كتاب سامي عابدين: أصل الإنسان في القرآن، دار الحرف العربي بيروت، 2005، ط1.

⁸ - سورة المؤمنون، الآية 12.

⁹ - سامي عابدين: المرجع السابق، ص 12.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

2- طور الصلصال: قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾¹، وهذا طور وظيفي، والمراد "المحافظة على بقاء مادة الخلية المتفاعلة"²، حفظا لعناصر الحياة فيه ونموها.

3- طور الحمأ المسنون: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾³، إشارة إلى الطين المنتن، المتغير، "فالحمأة مادة، ما أن تدخل على شيء حتى تغيره"⁴، وهي عنصر فاعل، "فالحمأ المسنون هو الذي ميز نوعه الإنساني"⁵، وبالنفخة الإلهية صار إنسانا.

4- طور الروح: قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾⁶، سر إلهي أبان نوع الإنسان، بتميزه بالنفس والعقل عن الحيوان، "وهذا الروح هو الذي يحفظ -بتوازن مادته- الخلايا من التفتت والتعفن، كما يمددها بالقوة والاستمرارية إلى حين الموت"⁷، ونفخة الروح بعد تسويته، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾⁸. وهذا بيان تفصيلي لتلك الأطوار الأولى، فالتسوية والنفخة أخرجت الإنسان إلى الوجود كما هو نوعا وطاقة وحياة ومعنى، "وبالروح -بعد ما اكتمل آدم بجسده- كان بطوره الأخير، خلقا جديدا "في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ"⁹. [التين:04]، وبذلك صار خليفة، تأهيل تجليه ظاهرتان مهمتان:

1. انتصاب الإنسان، واقفا، وتحرير يده، قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ". [الانفطار 6-8]، تقويم هيئة وجمالية وتكريم.
2. امتلاك الجهاز الصوتي، الدال على النطق، وما يهيئه فيه من قابلية على نشأة اللغة¹⁰، فاللسان هو البيان الأعلى، ويدل على حالة إنسانية جمالية وتكريمية.

إن الإنسان كائن نوعي بخصوصياته، قد أسندت له وظيفة استخلافية تعبدية، وتحمل أطوار الحلقة قابلية الارتفاع والهبوط في الإنسانية، والأمر المهم إثبات مسؤولية الإنسان في تزكية نفسه وتكريمه الثاني لذاته، فهو "مركب من جسم مدرك بالبصر، ونفس مدركة بالبصيرة وإليهما أشار

¹ - سورة الرحمن الآية 14.

² - سامي عابدين، المرجع السابق، ص 13.

³ - سورة الحجر، الآية 26.

⁴ - سامي عابدين: المرجع السابق، ص 48.

⁵ - المرجع نفسه، ص 14.

⁶ - سورة الإسراء، الآية 85.

⁷ - سامي عابدين: المرجع السابق، ص 14.

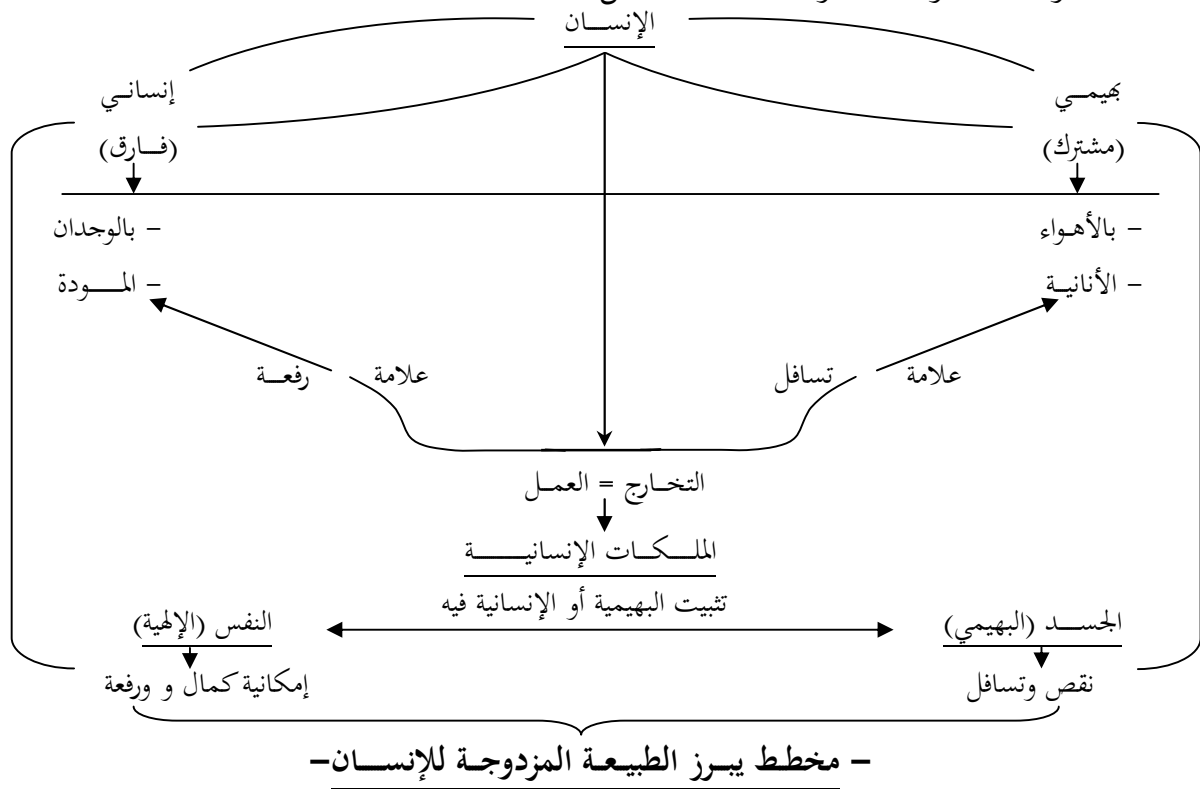
⁸ - سورة الحجر، الآية 28.

⁹ - سامي عابدين : المرجع السابق، ص 15.

¹⁰ - محمد شحرور: القرآن والكتاب، ص 314.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

تعالى بقوله: "إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ"¹ [ص: 71-72]، فالجسم المادي، والنفس الخفية هما ما يحدد الماهية الإنسانية، ومن هنا صار الإنسان ذا "طبيعة مزدوجة بهيمي بأهوائه الأنانية، وإنسانيا رفيعا بوجودانه (...)"، وبهذا فالإنسان بهيمة بنفسه وكائن إلهي بنفسه اللامادية"²، فهو مزدوج التكوين بتركيبة خاصة، وعليه فهذه الطبيعة المزدوجة ليست غريبة عنه، بل هي أصل تكويني فيه، وهذا ما "نرى تشخصه في أنفسنا"³، ومن ثم إمكانية قراءة سيما ممكنة قابلة للقياس والنظر، وبذلك يصبح الإنسان أيقونة معناه، وهوية ذاته الحقيقية بإرادته، تتحدد بالأداء، وبتعبير "العقاد" بـ "الكائن المكلف"⁴، لأن التكليف مطلب كوني يتجاوز حدود عالم الجسد وتأثيرات الصورة البهيمية، "فالإنسان بجوهره كائن واع، أي كائن روحي محض وقائم بذاته، لا يكون حيا إلا مع تكوين هذا الجوهر في حيز الحياة (الحيوية)"⁵، بأداء مفارق لحالة العبثية والعدمية، وهذا ما نوضحه بهذا الشكل:



¹ - الراغب الأصفهاني : الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص 72.

² - سليمان خزاعي صالحه : الإنسان و الوعي، ص 15.

³ - الباليستاني أحمد محمد طه: هوية الإنسان بين الثبات والتغير، دار الكتب العلمية، بيروت، 2015، ط1، ص 10.

⁴ - عباس محمود العقاد: الإنسان في القرآن، ص 17.

⁵ - رينهارد لاوت: إبراهيم و أبناء عهده مع الله، ص 393.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

وعليه فالإنسان إرادة واعية بقيمة الحياة، فحقيقته (هـ) أو هويته تتكون من عقل يعقل به وروح تثبت فيه الحياة فتدير أجهزته وتوجه ذاته، وجسده متضمن للنفس يريد إشباع حاجاته وتحقيق شهواته¹، وبهذا يصبح إثبات هوية الإنسان محتاجا إلى إدراك نوعي وبصيرة فائقة وإدارة متميزة لطاقاته، وإن إدارة هذه السفينة وقيادة أمرها تتم بالتزكية والتصرف الحكيم بميزان كوني/إلهي، وإنساني/اجتماعي، وروحي/جمالي، وذاتي/أدائي، يغير به جموح نفسه، وعلو صوت جسده، وارتفاع مطلب تحقيق شهوته ولذته المستعرة، بلا ضابط من عقل، ولا توجيه من إيمان، ولذا "فالإنسان هو الشيء المنظوم بتدبير الطبيعة للمادة المخصوصة بالصور البشرية، المؤيد بنور العقل من قبل الإله"²، وهو بزيادة نوعية على غيره بالعقل يرتفع إلى منزلة الملك ليفارق عالم الحيوان، أي تجاوز آثار الوعاء الجسدي وافرغاته القاتلة، وبمقولة "حاج حمد"، أن كلمة الإنسان "تعني قيمة إدراكية متعالية بالروح والإرادة على موجبات المفاهيم الوضعية"³، مما يعطيه بعدا كونيا وارتباطا روحيا بخالقه ﷻ، وهي الحقيقة الرافعة له، ناشئة بمقوم الروح والإرادة.

لقد وصف علم الاجتماع الإنسان بأنه حيوان ديني، فعناصر تكوينه ونسيجه الروحي ذات طابع بنائي ثقافي، يقول "مالك بن بني": "ومعنى ذلك أن الدين يتدخل أيضا في هذا البناء، أعني في تحديد العناصر الشخصية للفرد، أو (الأنا)⁴، أي أن الدين عنصر يدخل في تكوينيته، أما "أرسطو" فيعتبره بما يظهر به في علاقته بالآخرين عموما، فهو عنده "حيوان سياسي"⁵، فالعلاقات والنظم، هي المحدد الرئيس في بناء هويته الإنسانية، وكأن هذا (الحيوان) يحتاج إلى قدرة مؤهلة وقوة ضابطة يردع بها الشكل البهيمي، ويحقق بها الملائمة، بين الحيواني والإنساني، مع إضافة أهمية التصرف وسياسة العالم الإنساني المندمج ضرورة في سنة الاجتماع، لذا "فالإنسان بالنسبة إلى أرسطو الوثني. حيوان اجتماعي، إذا كائن حي بالدرجة الأولى"⁶، فهو يتطلع إلى البناء والتجاوز، وما يصنع الحياة الاجتماعية، وقد تسعفه المخيلة في هذا الاستشراف فيحلم بالأفضل، ويرى "هيدغر" أن "الإنسان هو المستقبل"⁷، حيث يتصور حاله ووضعه الذي يكونه، وهناك من يعتبره

1- أحمد محمد طه الباليستاني: المرجع السابق، ص 22.

2- أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ص 325.

3- محمد حاج حمد: حرية الإنسان في الإسلام، ص 69.

4- مالك بن بني: ميلاد مجتمع، ص 69.

5- جاك رانسير: سياسة الأدب، ص 68.

6- رينهارد لاوت: إبراهيم و أبناء عهد مع الله، ص 393.

7- سليمان خزاعي صالحة: الإنسان و الوعي، ص 62.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

الحيوان الجميل¹، وما يقتضيه من حضور نوعي حي يجلي البعد الإنساني فيه، ويمنحه هالة جمالية ومفارقة دالة تبرز قيمته النوعية، وفي هذا السر يرتكز البعد الحيوي في الإنسان، الذي يدفعه إلى الكمال والحلم بالمستقبل، كي يحقق مشروعه الإنسي، وما هو هذا الإنسان يتكون في أبعاد المادية والروحية، ليصبح برؤية أخرى أكثر فاعلية، الإنسان الكوني²، نلخص أحواله في هذا الجدول:

ديني	اجتماعي	سياسي	جمالي	مستقبلي	كوني
-	-	-	-	+	+
فكرة دينية عنصر ديني	فكرة اجتماعية عنصر اجتماعي	فكرة سياسية عنصر سياسي	فكرة جمالية عنصر جمالي	فكرة مستقبل، رؤية وتطلع مستقبلي إنساني (رؤيوي)	فكرة كونية جامعة يبعد دنيوي/أحروي.
إلهية إصلاحية	أرضية/علاقات جامعة	أرضية/ تنظيمية	طبيعة/تحسينية تشكيلية	عقلية تجاوزية استشرافية الزمان/المكان/المخيلة	أرضية / سماوية تفاعلية/ تعارفية
روحية/جوهريّة	مادية	مادية	مادية / فنية	حالة مادية - ارتباطية	مادية / فكرية تفاعلية
إضافة بنور الدين وإثبات النوع والكرامة	رسم علاقات بين أفراد النوع داخل فضاءه.	تنظيم الأحوال لاستمرار الدولة والحياة.	مقومات جمالية لجلب الرضا والثقة، تصنع الإنسانية.	تجاوز وبحث عن قوة وصورة مثلى ووضعية إنسانية جديدة توجد في قادم الزمن	تماثل منهجي سنني تفرضه معادلة الوجود وقيم العدل والخير.

يمكن أن نجتمع هذه الأبعاد المتنوعة في ترجمة متكاملة، لما هو أرضي وسماوي في الإنسان، فقد تلاقت الإرادة والطاقة على إثمار بيضة الإنسان هوية أرضية/سماوية، وعليه "فالإنسان من مبدعات العقل بالإرادة الإلهية"³، تلاقى أخرجته إلى النور، فعلا وإرادة وعملا وجمالا، وعليه فإن الإنسان يتحدد مفهومه بكونه [= إرادة + معنى + طاقة + فكرة + جمال + حرية + اجتماعي + تواصل/تعارفي + لغوي/ بالبيان + تجاوري/بالمخيلة]، ولا يكون إنسانا، "إلا بقدر ما يعلم من تاريخ الإنسان برسوخ ووضوح"⁴، حيث يكشف له هذا العلم أحوال الإنسان في هبوطه وارتفاعه، ليصحح مساره، مع "الأقدر على الرؤية"⁵، يتجاوز بها أن يكون حاله، مثل "الصفير قوته في عدم وجوده"⁶، وهذا بطريق القوة الذاتية، بما أودع فيه من طاقات وأسرار، والقوة الموضوعية، بإخراج الطاقة، أي فعاليته في الإنجاز، في حركة دائمة نامية تمنحه رؤية آفاقية. إذن بإمكانية التعديل

¹ - ينظر بيار ماشيري: سياسة الأدب ص 69.

² - المرجع نفسه: ص 69.

³ - سليمان خزاعي صالحة: الإنسان والوعي، ص 40.

⁴ - جودت سعيد: الدين والقانون، ص 15.

⁵ - محمد عبد الرحمان مرحبا: الفكرانية، ص 92.

⁶ - خالد آغا القلعة: السيرة المفتوحة للنصوص المعلقة، ج 1، ص 78.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

والتجاوز ممكنة، وعليه "فإن طريق الإنسان الأرقى يبدأ مع هبوطه"¹، وتسجيل بصمات إنجازاته الدال على رفعتة، ومعرفة طبيعة التضاد فيه، فإنه يحتاج إلى فقه ومعرفة بسنن النفس، لأنه لا يستطيع أن يجمع بين صور متناقضة، بين شهواته وحظوظ بدنه، وأداء فرائضه، ومحاولة ترقيه الكمال²، وعليه فإن هذه السفينة معرضة لأخطار الطريق، ونواقض التحقيق، ولذا فالإمكانية الإنسانية قائمة على حدين، حد القوة والطاقة الفاعلة مع الحظوظ والشهوات المهلكة، وحد الإرادة الإلهية الطالبة له، فالحد الأول تمثله الإرادة الإنسانية مع التلبات المختلفة للذات، وهي مضعفة لها، والحد الثاني وتمثله الإرادة الإلهية التي تفرض أداء المطالب التكليفية، وهذا مطلب قوة، وتقوده حالة التوازن إلى ارتياد المنزلة الرفيعة، كي يتمكن من تجسيد المراد الإلهي، ويحصل بهذه الإرادة والتوازن، على نيل الوصف بالنعته الذي أعطي له، أنه الإنسان، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾³، وكأنا نعرفه من خلال الآية بأنه: الإنسان الواعي المسوى، الحسن الجميل، وهو ما يتحقق بالمعرفة والجمع الذكي بين الإرادة والقوة الإنسانية، والإرادة والقوة الإلهية ليثبت نوعه انتماء وانتسابا، ويجسد إرادته فعلا وعملا، ويدرك بعمق حاله المزدوج، فهو "الكائن الواقعي بنقصه وضعفه والكائن المثالي بكماله وسموه"⁴، وما يكتنفه من صراع بين المثال، [ما يبرزه نص توجيهي حديث/ آية قرآنية]، وما صار وآل إليه من ضعف، نوضحه بهذا المثل:

العينة	الأم/ الأب	صانع الصورة التذهيبية	الابن	المرتب (الصورة)	النص التوجيهي المملفت [حديث]
1-	فاعل	- غش الأم.	منفعل	يغش الابن: غاشا	- "من غشنا فليس منا".
2-	فاعل	- كذب الأم.	منفعل	يكذب الابن: كاذبا	- "أكون المؤمن كذابا، قال: لا".
3-	فاعل	- النفاق من الأب.	منفعل	ينافق الابن: منافقا	- "إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" المنافقون 2
4-	فاعل	- رياء الأب.	منفعل	يرائي الابن: مراثيا	- "الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ" الماعون 6

إن البشر هم "مادة تبحث عن وعي أو تتحول إلى وعي"⁵، فالإنسان مادة وطاقة وقوة، فمن جملة محمولات هويته أنه وعي، وبهذا يصبح: "تلقائية إبداعية مفتوحة"⁶، أي تمتعه بخصائص

¹ - هيدجر مارتن : ماذا يعني التفكير؟ تر نادية بونفقة، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 2008، ص 81.

² - ينظر أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ص 15.

³ - سورة السجدة، الآيات، 7،8،9.

⁴ - سليمان خزاعي صالحة: الإنسان و الوعي ص 61.

⁵ - المرجع نفسه، ص 730.

⁶ - محمد عبد الرحمان مرجبا: المرجع السابق، ص 748.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

نوعية فارقة، وهذا "دليل الصحة النفسية"¹، تدفعه إلى تحقيق نقلات واضحة، من أفق إلى أفق، طلباً للكمال، "فهو نسيج وجوده وحده"²، هذه النفاسة هي مطلب وجودي، وهي ما يدهش بمخباته، "فإذا عقل فقد اتخذ القرار السليم، وإن شرد هوى"³، وعليه ينبغي أن يمنح الكائن صوراً تذهينية صافية، كما يشرب ماء صافياً ويأكل طعاماً نظيفاً غير فاسد، وكما تكتسب صحة الجسد، تكتسب صحة النفس، بتجنب حالة الأزواج التذهينية وما يخدمها [الغش، الكذب، التمويه، النفاق، الرياء]، وبالتأول فهي حوائل مانعة، وأحوال مركبة تبعد الإنسان عن إِبصار الحق، حيث تعبر الوراثة عن فساد الجوهر الذي يصادم المثل، ويقلل من إمكانية اختيار الأصوب*، وقد طرح "هابرماس" سؤالاً، قائلاً: "ماذا يجب عليّ أن أفعل بالزمن الذي يقدر لي أن أحياه؟"⁴، يجب أن يصنع معناه في الزمن الذي أتيج له، ليأخذ في النهاية الزمن شكل الوعاء الدال، وعاء المعنى [= الإيمان]، وعليه "فالإنسان بناء أبدي، وبناء للحياة بكل مقوماتها"⁵، أي ما يجدد الحياة، بإنهاء ما يهدم مقوماتها*، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾⁶، فالقصاص قد تحول إلى إنماء ومعنى تنمو به الحياة في وسط معد للبناء، وعلى هذا الحد يكون الإنسان هو فاعل المعنى، وصانعه، "فهو البناء، وهو الباني وهو القاطن"⁷، وعليه أن يحمي هذه البذرة من الفساد، وصيانة الحق بالوعي⁸، وكل ما يخرج من الذات من تعبيرات، مثل بسملة أو قطعة خبز تقدم لمحتاج أو وردة تبعث الجمال وتسكب عناصر الحياة في نفس جميلة، يحتاج تنفيذ هذا المطلب إلى معادلة كونية شرعية، وقوة وقدرة وإمكان، لتحقيق تطبيق متوافق مع الحق.

¹ - سليمان خزاعي صالحة: الإنسان والوعي، ص 136.

² - أنس شكشك: فلسفة الحياة، ص 58.

³ - محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي، ص 220.

* - إن صور التذهين من كذب وخداع وتمويه، وكل نعوت السلب هي صور تذهينية مفسدة للذات، تحدث فجوات عميقة تصعب على الردم، ولأن الخلل موجود يتحدد نتيجة فواعل كثيرة متعددة تفرضها المشكلة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والحروب، فأمامه من الفرص ما يعز ويندر، وأمامه من الأفاذ وصحة العظماء القليل، ضف إلى ذلك تعدد مصادر التذهين، خاصة مع العولمة وثقافة الصورة، وعمليات برمجة العقول في علم الوعي، وهي أداة استضعاف وإلحاق بمنظومات القهر والاستكبار، تنهي صورة الإنسان ومعناه، ومقاصد وجوده.

⁴ - هابرماس يورغين: مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية، تر جورج كتورة، المكتبة الشرقية، بيروت، ط 01، 2006، ص 07.

⁵ - سليمان خزاعي صالحة: المرجع السابق، ص 27.

* - يمكن ملاحظة موقف النبي موسى ﷺ مع الفتاتين، حيث وظف قوته الجسدية في السقي لهما، ليعيد بقوته وأمانته ترتيب وضع اجتماعي ظالم لا يعاب بالضعفاء، كما في موقف النبي ﷺ في فتح مكة: "اذهبوا فأنتم الطلقاء" مقدماً الحرية والأمان للجميع، وهي تمثل قواعد حياتية مؤسسة.

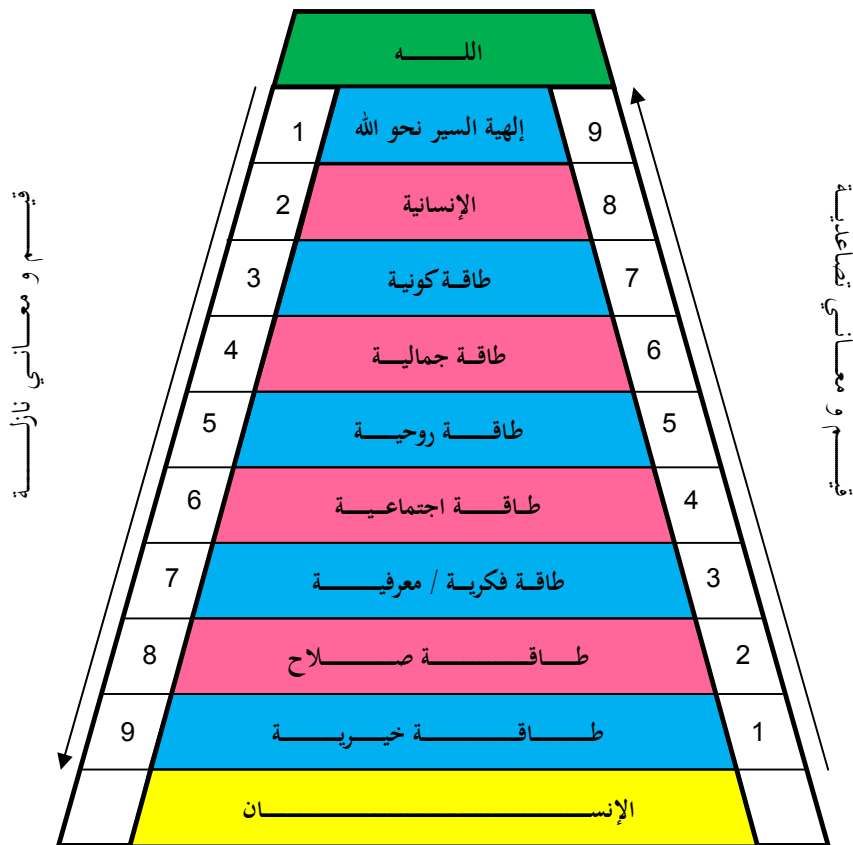
⁶ - سورة البقرة، الآية 179.

⁷ - سليمان خزاعي صالحة: المرجع السابق، ص 166.

⁸ - ينظر المرجع نفسه، ص 161.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

إن كمال الإنسان يطرد العوارض القارضة لمقوم إنسانيته، وهو خلاصة فكرة الإيمان المبني على المعرفة الإلهية، حيث يكون قد استكمل "قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح"¹، فالكمال إيمان وعمل صالح، "في فاعله كل فاعل، وفي قابله كل قابل، فهو على الصورة المحيطة بلا شك "فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ"². [الانفطار: 8]، جوهر فرد تام التكوين، في شبه عبقرية دالة، هي "كلام على المعنى"³، معنى بالفكرة والعلم، ينتقل به في سلم من الدرجات الرفيعة، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾⁴، بمعنى تحرر الذات بالإضاءة الداخلية بنور العلم، وعليه فإن الكمال حركة واعية نامية فاعلة. إن الإنسان العظيم الذي تكاملت قواه، المتفتح المتوقد حيوية، المتفجر طاقة، المنتشي بالحياة، حيث يمزج الفكرة بالعمل لأداء دوره، وتمده الأسماء الحسنى بالقوة والكمال وتنوع الطاقة والمعنى، نرصد هذا الإمكان لطاقة الأسماء بهذا الشكل الهرمي:



- ترسيمة محاور إمدادات أسماء الجمال -

¹ - ابن القيم الجوزية: مدارج السالكين، ص 9.

² - سيدي علي وفا ابن سيدي محمد وفا : الواردات الإلهية (الوصايا)، ص 126.

³ - محمد عبد الرحمان مرحبا: الفكرانية، ص 819.

⁴ - سورة المجادلة، الآية 11.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

وعليه فلن تكون ثمرات أسماء الجمال الإلهي إلا عوامل بناء الإنسان والحياة، وفواتح إلى الخير والحق والجمال وقيم العدل، بعطاء الكريم الرزاق معلم الإنسان البيان، وبهذا صار الإنسان مخلوقاً جميلاً، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾¹، جمال هيئة ونفس، خلقه كاملاً مهياً لكل القابليات، وسواه ومنحه مفاتيح قيادة النفس، وإن الكامل السوي هو من يحدد هدفه جلياً، في شبه من المدافعة والمزاحمة، لتأتي فكرة الخيرية منه، تصنع الحياة الفاضلة وتمنح الإرادة لجميع الناس ببناء حياتهم وإضاءة ذواتهم بنور الفكرة الحية، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ سَمَاوَاتٌ وَبِيعَ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾²، مدافعة يقوم بها أولئك الذين حققوا سوية تكوينية منحتهم كمالاً، أقاموا به الحق، نوضح هذا بهذه المعادلة البنائية:

سوية تكوينية فردية: تؤدي إلى **صالحا في ذاته** انطلاق نحو **الكمال** إمكانية **تكمّل نقائص المجموع**

يمزج الإنسان الكامل الصورة الواقعية بالمثالية، ويقرب بين عالمين يتضايقان ويتصالحان على غاية المقصد، ويتعاضدان على عمل مشترك، بسعي حثيث يوصل إلى الجنة ثمرة الانتهاء من رحلة مخوفة بالمكاره، ناضحة بالابتلاء، ومن ثم تصبح "الشخصية البشرية هي ملتقى العالم الواقعي والعالم المثالي"³، وهو جمع ينتج الخيرية يحققه الإنسان الحر، ومعنى هذا أن الإنسان السوي بتعبير القرآن، قد تأهل إلى ممارسة وجودية، لأداء دوره ووظيفته في دائرته الذاتية وفضاء تعلقها الأرضي والإلهي، وبفكره الحي المشع على الدائرة التي تقع خارج حدود ارتسام الذات، إلى دائرة المجتمع، ودائرة الإنسانية، ودائرة الكائنات، وبالنعته والتعريف، هو الإنسان الكوني، من خلال إسقاط نوعي بإضاءة عتمة الخطأ وتكبير نقطة كل خلل وقع فيه، ليدخل في مراجعة وظيفية بنائية تحسن تصنيف القوى بشكل طبيعي سوي، لهذا كان "لابد لهذا الإنسان مع كل صواب من جزء من الخطأ"⁴، حيث تتعدل الوضعية لإصابة طريق الحق بمتراوحات عالية التقدير، فإصلاح النفس يحتاج إلى آلية كمالية رفيعة تتمثل في هادية العقل، أو الدخول تحت حكم عاقل*، فالإصلاح هو فكرة واحتواء عقلي، مع كل وضع، يتم وفق هذه المعاملات البنائية :

¹ - سورة التين، الآية 04.

² - سورة الحج، الآية 40.

³ - سليمان خزاعي صالحه : الإنسان والوعي، ص 109.

⁴ - مصطفى صادق الرافعي : وحي القلم، ج 2، ص 74.

* - أخذنا هذه العبارة من كتاب "الواردات الإلهية"، حيث أشار إلى ضرورة دخول المرأة تحت سلطة رجل عاقل، ص 288.

المترب	الوضعية
فقـد فاقه غيرـه.	• فمن لا عقل له
فقـد فـاق غيرـه.	• من له عقل
احتـاج إلى من له عقل.	• من لا عقل له
استغـنى بعقله عن غيرـه.	• من له عقل
لا كـمال فيـه.	• من لا عقل له
فهـو كـامل بعقلـه.	• من له عقل
احتـاج إلى عقل كـامل.	• من لا عقل له
فهـو لعقول وضعف الآخرين كـامل.	• من له عقل

وبهذا يصبح الخطأ هندسة تجريبية تعيد التمثلات إلى أمكنة الإضاءة لإجلاء معنى الخيرية والصلاح في النفس وتفجيره في مواضعه، وما يسند هذا الميز، قول النبي ﷺ: "كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون"¹، بحيث يثبت الحديث أصالة الخطأ، وتركيبية هذه الجزئية في الكيان الذاتي من الإنسان، وإمكانية تصويب الفعل بالتوبة والمراجعة، تمكنا من قراءة ثانية لهذا العمق، وبعبارة "رانسيير" الداعية إلى مشاركة كلية فاعلة: "أن غير القادرين قادرين"²، وهو يرى أن هذا التحفيز هادف، "حيث لا يتطلب أمر اكتشاف قدراتهم وكفاءاتهم إلا مجرد تغيير موضع النظر"³، وعلى هذا الأساس يتحول الخطأ البشري معياراً لإصابة الكمال، "فمن لا يخطئ فقلما يصيب"⁴، ويصبح قدرة ومملكة وقانونا تعليميا تنبئها محفزا، وفي حياة الحر النبيل لا يتعاضم الخطأ عنده ليشكل جدارا سميكاً بينه وبين الحق، بقدر ما يكون الخطأ بوابة تفتح له طريق تكميل نفسه، يقول "أبو حيان": "ومرجبا بلاء يورث يقظة ويكون تمحيصا لما انتظم فيه"⁵، يختبر به الإيمان، ويتقوى من خلاله عود الرجل، ويقظة تجابه قانون الغفلة، وتمحيص يعرف بالأخلاق الحيوانية في النفس، وتأسيسا على هذا يكون الكمال إرادة إنسانية حرة، يقول ابن باديس: "إن طلب الكمال كمال، ولأن من كانت غايته الرتب العليا، إن لم يصل إلى أعلاها لم ينحط عن أدناها، وإن لم يساو أهلها لم يبعد عنها"⁶، فالكامل هو بصمة ذاتية خاصة، ويضيف قائلا: "ومن لم يطلب الكمال بقي في النقص، ومن لم

¹ - الترمذي محمد بن موسى : سنن الترمذي، تح بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج04، ص 240.

² - جاك رانسيير: سياسة الأدب، ص 08.

³ - المرجع نفسه، ص 08.

⁴ - محمد عبد الرحمان مرجبا : الفكرانية، ص 819.

⁵ - أبو حيان التوحيدي : الإمتاع و الموانسة : ص 87

⁶ - ابن باديس: تفسير ابن باديس، ص238

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

تكن له غاية سامية قصر في السعي، وتواني في العمل"¹، وبهذا يتراجع لافتقاده لهذا الدافع العظيم، حيث تلازمه خسارة المكانة، "والأيام ستكشف أن الإنسان له تطوعات عميقة"²، وفي عقول هؤلاء ترسم الأهداف الكبيرة واضحة، مثل الأنبياء عليهم السلام، غايتهم توجيه "الإنسان العادي إلى طريق الإنسان الكامل"³، على نور الوحي إلى سوية ذاتية تكوينية، وعليه فإذا كان الكمال أن تكبر على ضعفك، وترتفع عن الصغائر، وعلى الدنيا، والأهواء، وغواية الشيطان، فهو كاف في النعت.

ثانياً: الإنسان في القرآن: إن توجيه الخطاب إلى الإنسان في مواضع القرآن يصب كله في رسم الخطوط والأمارات التي يتحرك من خلالها، وقبله بيان طبيعته، ومقوماته وخصائصه التي تشكله، فقد وردت كلمة "الإنسان" في القرآن 58 مرة، تكرر له أهميته، يهدف إلى رسم ما يقيم البنيان الإنساني، وفق سنن تبني كيانه وتصنع هويته، فمن هو هذا الإنسان الذي يريده القرآن ويتبناه؟

1- الوصف السالب، وموجبات استكمال الصورة: إن الإنسان، الذي من أجله جاءت التوجيهات الإلهية لترشيد حركته، لن تخرج سمته المعنوية عن وصفه "بالإنسان المؤمن"، ويأتي وصفه في إطار سالب، وتأمل هذه الأوصاف الواردة في القرآن، نكتشف طبيعة هذا الكائن الحي:

الصفة	الآية الدالة	قراءة وتأويل
-01- <u>ظلم</u> <u>جهول</u>	قال تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾. الأحزاب 72.	إن وصف الإنسان بالظلم والجهل هو ناتج حتمي لانحراف فكري يتجاوز من خلاله العبد منهج الحق، وعلى هذا الاعتبار "فإنهم ليسوا دواباً محكومة بغرائزها الدنيا، ولا أرواحاً محكومة بخصائصها العليا" ⁴ ، مما يعني أن الإنسان حامل لفكرة الكمال بحمله للأمانة بمحبة، كما أنه حامل لفكرة التسافل عند تضييعه لها، وهذا قد عده "ابن عاشور" تقصيراً : "بعضه من عدم وهو المعبر منه بوصف ظلم، وبعضه عن تفريط في الأخذ بأسباب الوفاء وهو المعبر عنه بكونه جهولاً" ⁵ ، بتجاوز حد التكليف ظلماً مع العلم بذلك أو جهلاً مع القدرة على التعلم، وبهذا الاتصاف بالذم يصيب استعداداته ويعتدي على فطرته السليمة.
-02- <u>هلوع</u> <u>جزوع</u> <u>منوع</u>	قال تعالى في شأن المتصف بهذه الطبيعة: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ	تقود هذه الطبيعة الإنسان إلى حرص مدمر وبخل قاتل للقيمة، وهذا ما يتطلب مقاومة ومجاهدة تفضي إلى توازن محمود، ويكشف الإمام الغزالي عن وجه هذا الارتياح إلى الأرفع بالمقاومة: "إن الله خلق البشر على غرائز تشدهم إلى تحت، وطلب منهم أن يقاوموها

¹ - ابن باديس: تفسير ابن باديس، ص 238

² - جودت سعيد : الدين و القانون ، ص 111

³ - فتح الله كولن : أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص 29.

⁴ - محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي، ص 328.

⁵ - محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، د ط، 1984، مج 22، ص 129، 130.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

<p>صاعدين إلى أعلى فمن أخلد إلى الأرض هلك، ومن اتبع الوحي نجا، والإيمان في حقيقته قوة صاعدة طاهرة تتلمس الطريق إلى مرضاة الله¹، فالغريزة دافعة إلى التسفل، توصل إلى الإخلاق إلى الأرض، ويقول: "وما نعرف معادن الناس إلا بهذا الاختبار الجاد"²، فهذه النوازع تدفع إلى حالة من الاضطراب تستدعي حكمة، إذ "عليه أن يروض نفسه على مقاومة النقائص وإزالتها"³، لينطلق في عملية تكميل النفس وبناء كيانه.</p>	<p>هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا. المعارج، 19-20-21</p>
<p>تقدم لنا هذه الآيات مشاهد من تقلبات الإنسان أمام أوضاع ضدية، حيث ينقلب ويرتد بما يعاكس كل متطلب، يقول الإمام الغزالي: "مصيبة الإنسان أنه عبد لحظته الحاضرة وساعته العاجلة، وأنه عندما يستنجد بربه لضر أصابه لا يكاد يستقبل النجدة المرسله، حتى ينسى ما كان، ويحدد يد الرحمان"⁴، فلا تستقيم عبودية ظرفية تقودها دوافع ذاتية لتحقيق خلاص ما، ومن ثم فإن مجاهدة الإنسان داعي الغفلة وهجمات المعصية، هو ما ينقذه من هذه الطبيعة الماحقة لمعلم إنسانيته، وأسباب ذلك يرجعها القشيري إلى: "عدم علمه بربه، وانسداد الطريق على قلبه في الرجوع إليه"⁵، فمعرفة الله وسلامة القلب، هي مفاتيح تحصيل طبيعته الإيجابية، وتحويلها إلى إمكانية فاعلة، بالوعي والرؤية الواضحة، لتعديل طبيعته بسلوك "مسلك الاعتدال"⁶، حتى يثبت له وصف الإنسان.</p>	<p>-03- يُوسُ قِنُوطُ قال تعالى: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾. فصلت، 49.</p>
<p>إن صفة الخصام والجدال قريبة المعنى من فضاء واحد، هذه المبالغات في الخطاب تخرج الإنسان من حدود التأدب الإلهي وتقبل أحكامه، تفتح باب التمرد والفجور والعصيان، وأطماع النفس وأهوائها، وبذلك يكون الإنسان عرضة لنزغ الشيطان، يقول القشيري: "ينازعنا في خطابه، ويعترض علينا في أحكامنا بزعمه واستصوابه"⁷، ويقول الإمام الغزالي: "وعجيب أن يتحول الإنسان المعروف النشأة العاجز الطفولة إلى عدو لله الذي خلقه فسواه، وأسبغ عليه النعم ظاهرة وباطنة"⁸، فالخصام والجدال لا يعبر عن تقدير الله، لذا كان "أكثر الموجودات على الأرض جدلا"⁹، فهذه الطبيعة المؤدية إلى الجحود والنكران ينبغي أن تطهر النفس منها.</p>	<p>-04- خَصِيمِ مَجَادِلِ قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾. النحل 4. وقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾. الكهف 54.</p>
<p>يقول القشيري: "وصف بهذا فقرهم وضرهم"¹⁰، وعليه ينبغي أن تكون حركة الإنسان حركة واعية مقصودة تستكمل ضعفه من العظمة الإلهية، "ومن هنا كانت قوة الإنسان في</p>	<p>-05- ضَعِيفًا. قال تعالى: ﴿وَوُخِّلَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ النساء، 28.</p>

¹ - محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي، ص 478.

² - المرجع نفسه، ص 484.

³ - محمد الطاهر عاشور: المرجع السابق، مج 29، ص 168.

⁴ - محمد الغزالي: المرجع السابق، ص 175.

⁵ - القشيري: لطائف الإشارات، مج 3، ص 388.

⁶ - أبو عود أحمد: الإنسان في القرآن، دراسات فلسفية مقارنة، سلسلة منشورات الزمن، وزارة الثقافة، المغرب، 2014، ع 39، ص 131.

⁷ - القشيري: لطائف الإشارات، مج 03، ص 225.

⁸ - محمد الغزالي: المرجع السابق، ص 207.

⁹ - أحمد أبو عود: المرجع السابق، ص 141.

¹⁰ - القشيري: المصدر السابق، مج 1، ص 328.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

<p>ضعفه وكان كماله في نقصه، لأن الإحساس بالنقص والضعف، هو الذي يعمق في النفس الشعور بالذلة والرغبة في الخضوع والاستسلام، وعندما يكون ذلك في طريق السير إلى الرزاق ذي القوة المتين؛ يكون كمالاً في التعبد، وجمالاً في السير"¹، ومعنى هذا أن الإنسان مخلوق ضعيف يتقوى بالله، وهذا ما يتطلب منه "التسليم لخالقه في كل شيء"²، أي يحتاج إلى معادلة هذا الضعف، بقوة وازنة، ورؤية البرهان الإلهي، ومثال ذلك حالة يوسف <small>عليه السلام</small>.</p>	
<p>يكفر الإنسان ويعرض كلما شعر بالأمن وانبساط النعم، أو عند نزعتها، يقول "ابن عاشور" وذكر فعل "كان" إشارة إلى أن الكفران مستقر في جبلة هذا الإنسان؛ لأن الإنسان كلما يشعر بما وراء المعاني المستقرة في الحافظة والمستنبطة بالفكر"³، وهذا ما يتطلب قدرة تخرجه من قوة الحس المستولية عليه، إلى قوة العقل المنيرة، خاصة مع النعم المتدفقة عليه دون تقدير منه لها، ويقول الإمام الغزالي: "فإن هناك أهل كنود وجماح يسرقون العقائد، والفضائل، ويريدون فرض الزور والظلم على الناس"⁴. في محاولة لاستبدال القيم والفضائل بالمفاسد والمظالم، ويقول "ابن عاشور": "وهذا عارض يعرض لكل إنسان على تفاوت فيه ولا يسلم منه إلا الأنبياء، وكامل أهل الصلاح؛ لأنه عارض ينشأ عن إثمار المرء نفسه، وهو أمر في الجبلة لا تدفعه إلا المراقبة النفسية وتذكر حق غيره، وبذلك قد يذهل أو ينسى حق الله"⁵، هي صفة للطبيعة التكوينية لذات الإنسان، تحتاج إلى عمل ومعالجة.</p>	<p>- 06- قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْتُوسٌ كَفُورٌ﴾. هود 09. وأما صفة كنود فصي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ العاديات 06.</p>
<p>يقول النبي <small>صلى الله عليه وآله</small>: "وأي داء أدوأ من البخل"⁶، ولذا اعتبر الشح منقصة تزل بصاحبها، يقول القشيري: "إذا البخل غريزة الإنسان، والشح سجيته"⁷، فتر يتعين استبداله بخلق الكرم، ليثبت نعت الإيجاب في الإنسان أنه: <u>كريم</u>، وتحليله أن:</p> <ul style="list-style-type: none"> - العطاء : عبادة إلهية [الصدقة- الزكاة]. - العطاء : يمثل عبادة اجتماعية [= الخيرية]، وسيادة اجتماعية وحظوة. - العطاء : يحارب الأمراض القاتلة [الخوف - الجبن]. <p>تقود هذه المعالجة إلى محاربة انكماش الذات عن الجود وشكر النعم، بتوسط واعتدال.</p>	<p>- 07- قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا الْأُمْسُكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا﴾. الإسراء 100.</p>
<p>إن طغيان الإنسان وتجاوزه دال على عمى بصيرة، يقول القشيري: "ولم يقل إن استغنى بل قال: «أَنْ رَأَهُ اسْتَغْنَى» فإذا لم يكن معجبا بنفسه، وكان مشاهداً لمحل افتقاره - لم يكن طاغياً"⁸ تناول ينسيه حقيقته الإنسانية وضعفه وافتقاره إلى خالقه وما أعطاه من الآداب الجلية التي تكسبه كل صور التواضع والاعتدال والامتثال للحق، ويلفت الإمام الغزالي نظر</p>	<p>- 08- قال تعالى في سورة العلق واصفا الإنسان الذي يغالبه الطغيان بقوله ﴿كَأَلَا إِنَّ الْإِنْسَانَ</p>

¹ - فريد الأنصاري : مفاتيح النور، ص 115.

² - أحمد بوعود : المرجع السابق، ص 124.

³ - محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير، مج 15، ص 161.

⁴ - محمد الغزالي : المرجع السابق، ص 536.

⁵ - محمد الطاهر بن عاشور : المرجع السابق، مج 30، ص 503.

⁶ - محمد بن اسماعيل البخاري : صحيح البخاري، ج 4، ص 90.

⁷ - القشيري : المصدر السابق، مج 02، ص 371.

⁸ - المصدر نفسه، مج 3، ص 748.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

<p>الإنسان إلى ضرورة عدوله عن هذا الطبع، قائلا: "بيد أن كثيرا من الناس إذا أترى احتقر الآخرين وتمرد على الحق!"¹ هذا الطبع يثبته واقع الإنسان الذي تجاوز الحد في ظلمه.</p>	<p>لِيَطْفِي أَنْ رَأَهُ اسْتَعْنَى ﴿ العلق 6-7.</p>
<p>إن مكابدات الإنسان للصعاب مشقة صعبة تتجاوز، وسنة قائمة تعني ضرورة انتصاره في اختبار الوجود، ليفوز مبدأ الإيمان في نفسه وغلبة الحق فيه، قال القشيري: "أي مشقة تقاسي شدائد الدنيا والآخرة"²، توصله إلى الجنة، أي أن يريح دنياه بالاستقامة والعمل الصالح، وأخرته بثمرة مغالبة مفسدات هذا الهدف، ومن ثم "فالجنس الإنساني يحمل أفعال التكليف ولجام الشريعة يحجزه عن تحقيق شهواته"³، وتمنحه هذه المكابدة رمزية خاصة.</p>	<p>-09- في كبد قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ البلد 4.</p>
<p>لقد زود الإنسان بكل ما يدل على أمارات الطريقتين، قال تعالى: "إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا"⁴، فالهدى رسم كاشف بأدلته ورسومه الواضحة، مع تركيب ذاتي عجيب خاصة مكونين رئيسين هما سلامة الفطرة والعقل، يضاف إلى هذا ما متع به من قوة داخلية معينة على الاهتداء والإرادة الحرة المعينة على كل اختيار، يقول القشيري: "سعيًا ستلقى جزاءه، بالخير خيرا وبالشر شرا"⁵، لذا كان على الإنسان أن يحول تلك الطبيعة السالبة إلى طبيعة خيرة إيجابية، وطاقة فاعلة، وكدح بالخير والإيمان والاستقامة، هذا مع العلم أنه واقع تحت نظر الله، قال تعالى: "بَلَىٰ إِن رَّبَّهُ كَانَ بِهٖ بَصِيرًا"⁶، محيطا بأعماله، فمكابدته تجعل كدحه المتواصل علامة دالة على كرامته وانتفاعه بالموعظة الإلهية، وحمله الأمانة بمحبة وجمالية استشعر من خلالها عظمة هذا التكليف، ولذا فكدحه بالخير يوصله إلى السلام.</p>	<p>-10- الكادح قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهٖ﴾ الانشقاق 6.</p>
<p>يقول القرطبي: "أي طبعه العجلة، فيعجل سؤال الشر، كما يعجل سؤال الخير"⁷، ويقول الإمام الغزالي: "ومهما دعا المؤمن فلا بد من الصبر على سنن الله الكونية"⁸، ومن هنا يصبح الصبر أحد الأسلحة الفاعلة في ضبط حركة الإنسان وسعيه، وعليه فطبع العجلة السالب وضع لحكمة، وهو دافع يتحرر به من القيود والمعيقات، يشحن الإنسان بفاعلية روحية، ورغبة في التجاوز والانتصار وسط أهوال الحياة العاتية، والانطلاق نحو الكمالات.</p>	<p>-11- عجولا قال تعالى: ﴿وَيَسُدُّعَ الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ الإسراء، 11.</p>

2- تأويل الصفات السلبية اختبار الإرادة: تؤكد هذه الطبيعة السلبية على تكوينية الذات الإنسانية،

وصولاً إلى النفس المسواة بما أودع فيها من قابليات وطاقات تحتاج إلى توجيه وضبط، قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾⁹، فتزكية الإنسان لنفسه، هي الفاعل الحيوي في تكوين

¹ - محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي، ص 330

² - القشيري: المصدر السابق، مج 3، ص 730

³ - محمد الغزالي: المرجع السابق، ص 520

⁴ - سورة الإنسان، الآية 03.

⁵ - القشيري : المصدر السابق، مج3، ص 706.

⁶ - سورة الانشقاق، الآية 15.

⁷ - القرطبي محمد بن أبي بكر: الجامع لأحكام القرآن، تح أحمد البردوني وابراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1964، ط2، ج10، ص226.

⁸ - محمد الغزالي : المرجع السابق، ص 220.

⁹ - سورة الشمس، الآية 9-10.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

الإنسان السوي، وهذا هو إنسان القرآن، تنشيط يدفعه إلى مجاهدة تحصل تركيته بمكابدة، "فلا لذة للإنسان إلا في عذاب القلق، ولا سعادة له إلا في شقاء القلق، والموت الحقيقي، إنما هو موت القلق"¹، وفعلا فإن قلق الذات الإنسانية يدفعها إلى مجاهدة نوعية واعية، ولذا يخاطبه الله ﷻ بهذا التقرير قائلاً: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾²، مذكرا بضعفه، يقول "ابن باديس" في معنى الآية: "وذكر الإنسان لضعفه وعجزه أنجع دواء لمرض إعجابه بنفسه"³، والعجب مهلكة، وعقله هذه الأخطار مقدمة فلاحه وأداء رسالته، بعد أن يكون قد حقق تركيته وسواءه، ولذا "لم يكن ابتلاء الإنسان مهددا بالخسران، إلا لأنه ارتبط ابتلاؤه هذا بطبيعته الطينية التي تشده إلى الأرض وإلى علائق التراب، بينما غاية (ابتلائه) أن يرتقي إلى السماء"⁴، وفي هذا يتخاطر مع قيم الوحي ويتفاعل مع ذلك المطلق بفاعلية تظهر آثارها في حياته عامة، فحقيقة الإنسان تبرزها طبيعته، وهي "لا توحى بالأنس والطمأنينة والسلام، وإنما يوحى بالتكليف والحساب"⁵، فهو من يسعى إلى تحصيل هذه المعاني بمغالبة هذه الطبيعة الضدية، وكما يقول "أبوحيان التوحيدي": "هيئات لا تكون الرياسة حتى تصفو من شوائب الخيلاء، ومن مقابح الزهو والكبرياء"⁶، أولها رياسة النفس برياضتها لتتحرر من الطبائع الفاسدة، وهكذا يتبين بوضوح أن الإنسان واقع "بين طبيعته وهي عليه، وبين نفسه وهي له، كالمنتهب المتوزع، فإن استمد من العقل نوره وشعاعه قوي ما هو عليه من الطبيعة وضعف ما هو له من النفس"⁷، ولذا فهو يحتاج إلى علاج لهذه الطبيعة بالتوازن، حتى يتحقق كماله وإنسانيته، حيث يتعين ضرورة تكميل وتحويل الأوصاف السلبية إلى طبيعة ثانية إيجابية فاعلة باعتدال وتوسط وعلمية، بأن يأخذ من البرهان الإلهي (الوحي) وهديه، وإتباع الأنبياء وسننهم، والاسترشاد بأنوار العقل ومخرجاته من العلم والوعي.

تشكل جميع هذه الصفات مصفوفة متكاملة تترجم في كليتها طبيعة الإنسان، وهي حقيقته، وتؤكد على بنيات منبهة، وموجهة، ومصححة، وخالقة لسلامة ذاتية ومنعة طبيعية، وقائدة إلى تأصيل إنساني قويم، فهي مواد بناء حقيقة الإنسان.

1- محمد عبد الرحمن مرحبا : الفكرانية، ص 350.

2- سورة الإسراء، الآية 37.

3- ابن باديس: تفسير ابن باديس، ص 108.

4- فريد الأنصاري : جمالية الدين، ص 174.

5- المرجع نفسه، ص 175.

6- أبو حيان التوحيدي : الإمتاع و الموانسة، ص 19.

7- المصدر نفسه، ص 88.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

3- الوصف الموجب وتعديل الطبيعة: يقدم القرآن الكريم من خلال توجيهاته المختلفة جملة المبادئ التي بها يبنى الإنسان على أساس من العلم والوعي، يقول "ابن باديس": "فالإنسان دون بيان حيوان أبكم، والبيان دون قرآن كلام أجدم، وذو البيان والقرآن هو الأكمل الأعظم قدرا وتقديرا، والأحسن الأقوم عملا وتفكيراً"¹، هذا هو الإنسان الذي يريده القرآن كاملا عملا وفكرا، ورؤية وقصدا، هو الذي يأخذ من نبع القرآن علمه وهدايته وفكره، قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾²، فالإيمان هو ما يعطي وصفا قرآنيا للإنسان، وهو "القائم بحق الأمانة"³، وهذا إنسان القرآن، وتبرز سورة التين والعصر والمؤمنون والفرقان رسمة البياني، الذي يكون عليه صعودا إلى السواء والكمال وسفلا إلى التردّي والشقاء:

I- ثنائية الجمال والانتكاس: جاء في سورة التين وصفا ثنائيا للإنسان، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾⁴، فالثنائية الأولى قد أعطته معلم الجمال والقوام، فحسن القوام له بعد ظاهري يجعل من الإنسان قائما منتصبا بهيئة جمالية دافعة على الإحساس بالكرامة، والتمتع بقابلية النشاط والحيوية، لممارسة فعله بوعي، تشعره بالحرية والقصد، وحسن باطني، يشير إلى ما يتمتع به الإنسان من نفس وعقل حي يتميز به عن غيره، من فهم وتعليم، "ولذا فقد يكون القوام الممشوق بعض ما امتاز به بنو آدم، ولكن امتيازهم الأول، ولعله أيضا الأخير، هو ذكاء العقل واستقامة الفطرة"⁵، فهما اعتبار الهوية الإنسانية، وإن حسن الباطن يزيد من جمالية هذا الانتصاب، أما الثنائية الثانية، فقد أشارت إلى حالة من الارتكاس والانتكاس التي يكون عليها الإنسان، حيث يرد إلى أسفل بسوء صنيعه وانحرافه، "إلى حال الشقاوة والكفر إلا المؤمنين"⁶، وتؤكد على أن حالة التردّي إلى أسفل مسؤولية الإنسان في اختياراته، مع هذه الحرية والوعي والإرادة التي متع بها، فهذه الصورة الأولى بجديها هي المفتاح في كل قيادة حكيمة للإنسان.

II- الإيمان مدافعة الخسران: وتكشف عن هذا سورة العصر، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾⁷، فالتأكيد على

¹ - ابن باديس : تفسير ابن باديس، ص 40.

² - سورة الحجرات، الآية 14.

³ - فريد الأنصاري : مفاتيح النور، ص 148-149.

⁴ - سورة التين، الآية 4 - 5.

⁵ - محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي، ص 528.

⁶ - القشيري : لطائف الإشارات، مج 3 ص 746.

⁷ - سورة العصر، الآية 3.2.1.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

خسران الإنسان ثابت بسوء الصنيع، ذلك أن "السير مع الغرائز والأهواء ينتهي إلى الخسران"¹، وهذه هي الأسباب التي تؤدي إلى هذه الحتمية، ثم يأتي الاستثناء الذي يؤكد على الإنسان القرآني الفائز، وهو المعروف قرآنياً بـ: الإنسان المؤمن، عامل الصالحات، المتواصي بالحق والصبر، وهي أسس معادل الإنسان القرآني، وبهذا تكون سورة العصر قد "لخصت عواقب النشاط الإنساني كله، على امتداد الزمان والمكان، فالمقطوعون عن الله حطب جهنم، والمتمسكون بالإيمان والصلاح والحق والصبر هم الذين كسبوا معركة الحياة"²، وهي ثوابت فكرية وإيمانية، ومبادئ عملية، فإنسان القرآن قد توزع وصفه على مدار الكتاب ليكون المثل الدال عليه، وعلى هوية إنسانه، إنه إنسان المعنى القرآني، حيث نراه وصفاً، ونراه واقعا يتحرك: "كان قرآنا يمشي"، وعين مثاله وكماله النبي ﷺ، وهكذا كان يعلم أتباعه: "كان يفرغنا ثم يملؤنا" عن منهجه، بحيث يكون الإفرغ عملاً سننياً من الأفكار الجاهلية [= تكوينية الإفرغ]، بالأفكار القرآنية المثبتة [= تكوينية الملاء]، ليكون بذلك الإنسان إنسان القرآن وصفاً وعملاً، يقول الطاهر بن عاشور: "إن الإيمان والعمل الصالح هما سبب اتقاء إحاطة الخسران بالإنسان"³، مما يعني أن الإنسان مطالب بتزكية نوعية لذاته، وصقل وتهذيب لطبيعته السالبة، ليتحرك منجزاً هذا المتطلب من الإيمان والعمل الصالح بتوفية كاملة، فالفلاح هو "المؤمن الذي يعمل الصالحات"⁴ الذي تطهرت نفسه بالروح القرآني وأنواره الحية، وهذا المتحول إن حصله، يكون قد تحققت له إمكانية إدراك سر الاستخلاف هدفاً، وعبودية الله إرادة.

III- النموذج الإيماني الكمالي: يقدم القرآن وصف النموذج الإيماني الكمالي*، البنية والوصف الذي هو علامة إنسان الفلاح والعبودية، وأوصاف الكمال والرفعة والإنسانية، وتركز على تلك اللبنة الروحية، والأخلاق الطاهرة المضيئة، الموجبة لاستحقاق تكريمي بالفردوس، وهي تنقسم إلى مجموعتين، الأولى دالة على الإيمان والفلاح [سورة المؤمنون]، وهي تؤكد على روح الإيمان المقترن بالعمل، كما تمثل عملية انضباط وصقل تهذب النفس، وبموجبها ترتفع وتزكو، ومن ثم تفلح في آخرتها، "فقد وعدت المستمسك بها بالفلاح"⁵، هذا التنوع هو سيماء الإنسان القرآني، ومن ثم

¹ - محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي، ص 539.

² - المرجع نفسه، ص 539 .

³ - الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مج 30، ص 532.

⁴ - أحمد بوعود: الإنسان في القرآن، ص 151.

* - ينظر سورة المؤمنون، الآية من 01 إلى 11 ومن 57 إلى 63، وسورة الفرقان من الآية 63 إلى 77.

⁵ - محمد الغزالي : المرجع السابق، ص 268

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

تصبح فكرة الإيمان عقيدة راسخة ينتج عنها تصور حسن يعود إلى العمل الصالح وإقامة العلاقات الطيبة القائمة على منهج الحق، ونقاء الروح والكمال، وهي تنمة بانية تبحث في الصفاء الداخلي للإنسان وعالمه الجواني، في ألق الروح لتترقى وتزداد طهارة، تثمر قوة ارتباط الإنسان بالله، وتمثل قمة العروج النفسي، وهي "تكرار لهذا المعنى {السابق} في ثوب آخر"¹، وهذا ما يبيّن الذات، ويحقق المعرفة بالله، وأما الثانية فدالة على اقتزان العبودية بالله بالوصف الرفيع الكامل، [سورة الفرقان]، وهي أوصاف ذات نسبة تشريفية يمكن تركيزها في دوائر متكاملة تعطينا أنموذجا متوازنا متكاملا، مع أهمية السعي في تحصيلها، "فكل نفس لها ترتيب على محور الرسالة والنبوة، حسب خلاصها وصدق دعوتها لله تعالى"²، لا ينبغي أن يكون معها إخلال بصفة، "أي أنهم على استعداد لأن يتصفوا بها ولذلك فصلها إليهم تفصيلا"³، مما يشكل دوائر متماسكة الجوانب التكوينية، قوية الربط في وصل العبد بربه وبمقومات الحياة الصالحة، فالعبد الممثل بها "هو الذي يحقق الاتصاف الكامل، أي أن الإخلال بها أو ببعضها، يخرج الإنسان من كونه عبدا للرحمان، إن عنصر التكامل ضروري"⁴، ليكون بهذا التكامل مثلا دالا على نوعه الإيماني، فأوصاف المتقين وعباد الرحمان أمارات نموذج الإنسان القرآني الذي يمثل قاعدة التوجيه.

4- الأنبياء [عليهم السلام] نماذج الإنسان القرآني: إن إنسان القرآن هو نموذج الحق والفضيلة، بوصفه الشامل، وقد تحددت وظيفته في بناء القدوة والمثال*، فهو يأتي:

أولا: في سياق المدح المرتضى، ليكون مثلا دالا على نوعه، وإنسانيته وتكريمه، وجمال خلقه.

ثانيا: ودالا على ذلك المكلف بحمل وأداء الرسالة، والمؤهل لتحقيق الاستخلاف.

ثالثا: يبيّن على هذه الأبعاد، إنسان التعارف، وفق أسس الحق والعدل والجمال والخير ورؤية ومنهج وتهدف إلى صناعة الأمة الواحدة، الأمة المؤمنة ممثلة الأمر الإلهي، وهي الأمة الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر، والداعية إلى الخير والتعارف في إحدى تمثلاتها، والأمة البشرية [= الإنسانية]،

1 - محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي، ص 268.

2 - الرفاعي عدنان: الحكمة المطلقة، نظرية قرآنية في إطلاق النص القرآني، دار الخير، دمشق، بيروت، 2011، ط4، ص 149.

3 - الكواز محمد كرم: كلام الله، الجانب الشفاهي من الظاهرة القرآنية، دار السياقي، بيروت، 2002، ط1، ص 93.

4 - المرجع نفسه، ص 93.

* يمكن رصد هذه الأوصاف كاملة في الكتاب العزيز وهي تشكل المعنى الإيماني، وخصائص الكمال، وتثبت هوية الإنسان القرآني من مثل المؤمنين المتقين والصالحين والمحبين والسابقين والمستقيمين، وعكسها، ومع نماذج الصالحين والصالحات والصحابة، ويمكن رصد سنن تكوينه من المثل القرآني بقواعده وخصائصه الضابطة.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

حتى لا تتمزق بفواعل طاغية خارجة عن الحق والعدل، وهذا ما يتعين على البشر جميعا التعاون على تحقيقه، وإن هذا المبدأ يحتكم فيه إلى فاعل الفطرة والطبيعة الإنسانية ونور العقل.

ولم يكتف القرآن الكريم بذكر أوصاف إنسانية فقط، وإنما ذكر نماذج ذلك التميز في أولئك الذين تحقق مثالهم بكمالهم العلمي والعملية بيانا للإنسان، وهو إنسان لا نجدده مختلفا عن صورة الإنسان الكامل في نهج البلاغة، لأنه -صاحبه- يستقي مادته من نبع القرآن.

يعتبر الأنبياء أكمل البشر، والنموذج الحي، والمثال التطبيقي الدقيق لمنهج الحق، وإن النبوة هي مركبات تكوينية كمالية تبلغ أربعين جزءا، وكمال النبي هو قدرة وقوة تؤهله لقيادة الإنسانية على منهج الله، بفضل تلك الخصائص في ذواتهم، كي تمارس وظيفتها التبليغية، فهم المثال الإنساني الدال، وفي الحقيقة فإن هذا الميراث الروحي العجيب هو الضياء الذي به يشق الإنسان طريقه، ويبلغ أفقه الأرفع، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾¹، فقد أوضحت الآية الدور والمقصد الذي يعمل له الأنبياء، ويتمثل في توحيد الناس في أمة واحدة، هي الأمة الإلهية، الأمة المؤمنة العابدة، الخاضعة لمنهج الله ﷻ، فهم من يشكل هذه الأمة ويوحد قصدها ويوجه أبنائها إلى الله، ولذا "فقد كان حريا بأتباع الأنبياء أن يتعاونوا على البر والتقوى"²، أي بما يقود ويوصل إلى الحق، وعليه فلن يكون المثال [= النبي]، إلا الدرس العملي التطبيقي الواضح لإنسان القرآن، وظيفته تربية وتنشئة الإنسان المؤمن، بترسيخ الإيمان في ذاته وتثبيت منهج الحق فيه، لإيجاد الأمة الواحدة، أي أمة العبادة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾³، فالغاية تتمثل في تعييد الإنسان نفسه لله وفق قيم الوحي مصدر المعرفة الإلهية، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾⁴. إن هذا التفضيل من النعم الإلهية على تلك الصفوة المختارة من خلقه سينعكس بدرجاته على أدائهم، وإن إشعاع نورهم يمتد ليصيب الإنسان الذي شمل بالرحمة واللطف، فقد "جمعتهم الرسالة ولكن تباينوا في خصائص التفضيل، لكل واحد منهم أنوار"⁵، تفضيل نجد أثره في مسيرتهم. إن الصفات الجامعة في الأنبياء، هي أوتاد ومواد مقيمة لصرح الذات الإنسانية ولبناتها

¹ - سورة الأنبياء، الآية 92.

² - محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي، ص 257.

³ - سورة الذاريات، الآية 56.

⁴ - سورة البقرة، الآية 253.

⁵ - القشيري : لطائف الإشارات، مج 1، ص 195.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

الجمهورية، وهي أسس جامعة تتمثل في التوحيد والعبادة، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾¹، فالوحدة الإيمانية علامة دالة على توجههم العبادي، وعلى هذا الفرض الكوني، ثم التوصية بالاستقامة، قال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادُعْ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾²، إبعادا للانحراف والضلال، والربط بين الأكل الطيب والعمل الصالح، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾³، ففي الآية معادلة تقابلية، بين الأكل الحلال والعمل الصالح، ومضاده الأكل الحرام والعمل الفاسد، بتوجيه ضابط لتحقيق عبودية أرقى، وبلوغ منزلة روحية عالية، ومجاهدة لإتيان الصالحات، والأمانة، قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾⁴، وهي أمانة وزكاة ذات إنسانية في حمل الرسالة وتبليغها إلى الناس، فالحق لا يمضي إلا مع الأمين، والتأمل، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾⁵، فقد قادته تجربة التأمل إلى رفض القيم الخاطئة بعد مقارنات وتأمل في الملكوت الواسع، فراح يؤسس لتوحيد إلهي معرفي مبني على النظر والتدبر، منحه رؤية بصيرة و يقينا ثابتا، وزاد إيمانه رسوخا، ولكل هذا أهميته ومبرره الوجودي لإبطال التناقضات، وتصحيح المفاهيم وإثبات منهج الحق، والعدو المقابل للنبي أساس آخر يكون في حياته، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾⁶، فالعدو هو الذي يعطي حرارة لفكرة الإيمان ولمعنى حياة النبي، وعلامة صحة تحفز على الكمال والعظمة وهذا المعيار نقابله بمعيار الاصطفاء، قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾⁷، فالمسافة بين الاصطفاء بمحبة والعداوة بكره، هي علامة عظمة النبي، تتكرر مع إنسان القرآن وسير الكاملين والأخيار.

ثالثا: الإنسان في نهج البلاغة: يعرف الإمام الإنسان فيذكر ماهيته التي تميزه وخصائصه التي تؤهله لاستقبال الوحي الإلهي، فيقول: "ثم نفخ فيها من روحه فمثلت إنسانا ذا أذهان يجيلها، وفكر يتصرف بها، وجوارح يستخدمها، وأدوات يقبلها، ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل، والأذواق

¹ - سورة الشورى، الآية 13.

² - سورة الشورى، الآية 15.

³ - سورة المؤمنون، الآية 51.

⁴ - سورة القصص، الآية 26.

⁵ - سورة الأنعام، الآية 75.

⁶ - سورة الفرقان، الآية 31.

⁷ - سورة الأنعام، الآية 124.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

والمشام، والألوان، والألوان والأجناس، معجونة بطينة الألوان المختلفة، والأشياء المؤتلفة والأضداد المتعادية، والأحلاط المتباينة من الحر والبرد، والبله والجمود¹. لقد منحت النفخة الإلهية لهذا المخلوق من طين سر طبيعته، فكان هذا الخلق والإيجاد حاملا لبصمات هوية تنوعه وتميزه أعقب بتكاليف، فهو خليفة الله في أرضه، بفضل تلك القوى التي تمتع بها خاصة العقل، رشحته ليتلقى الوحي الإلهي، ويعقل عن الله مراده، فالإنسان برأي الإمام، هو إنسان بالأذهان ووظيفتها الإجابة في مختلف المعقولات والنظر والتأمل، وبالفكر ليتصرف، وبالحوارج ليستخدمها في مختلف الشؤون، وبالأدوات، يقبلها لتعمل فيما خلقت له، وبالمعرفة، كوعي وتمييزات تفرق بين الحق والباطل، وبامتلاك الأدوات والمشام والألوان والأجناس التي تصنع الأمزجة المختلفة بين الناس، تعطيه علامة تميز فارقة، وبهذا تصبح نفخة الروح هي القيمة النوعية، أي رمز السر الإلهي في الإنسان، وهي التي منحت خاصية النفس والعقل، بوصفهما طاقة محددة للكرامة الإنسانية، "فلاإنسان طاقة ضخمة من التفكير والاختيار"²، تتطلب توظيفا ذكيا مصحوبا بأنوار الإيمان والمعرفة، حتى يصل من خلالها إلى الإبحار والكمال والجمال، ومن ثم فالقيمة الأساس في كل هذا إدارة الإنسان لذاته ضبطا وتوجيها، وتنظيما لهذه الطاقة الهائلة، ولقواه وأسراره، وهي ما دفعت الإمام إلى أن يتعجب من هذا المخلوق: "أعجبوا لهذا الإنسان ينظر بشحم ويتكلم بلحم، ويسمع بعظم، ويتنفس في خرم"³. تعجب من مكونات، هي من الصغر بمكان، ومن وظائفه الحيوية، حيث تتوقف طبيعة وحقيقة الإنسان عليها، وهي قوى تسهم في تركيب أجهزة الوعي والمعرفة لديه، "فالإنسان يولد وكأن مخه قطعة من العجين التي تعمل في استقبال المعلومات"⁴، فهذه الأجهزة هي التي تعطيه مؤهلات التكريم، والقدرة على مزاوله كل نشاط يدخل تحت سلطة العقل، ويتوافق مع سنن الوحي ومطالب الحق.

وإن منها خاصية القلب الحي، المضاء بأنوار الحق، المغذى بالمعرفة والإيمان، هذا القلب الذي طالما اقترن في القرآن بآليات التمييز بين الحق والباطل، وتحصيل العلم والمعرفة، يلفت الإمام إلى أهميته في البناء الإنساني، فيقول: "فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان، لا يعرف الهدى فيتبعه، ولا باب العمى فيصد عنه، فذلك ميت الأحياء"⁵، يعطينا الإمام ضبطا دقيقا للإنسان،

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 21-22.

² - بوحدية عبد الوهاب : الإنسان في الإسلام، دار الجنوب، تونس 2007، ص 81.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 432.

⁴ - محمد متولي الشعراوي : موسوعة الأحاديث القدسية، ج1، ص 72.

⁵ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 117.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

فهو ليس الصورة والشكل الخارجي، بل الإنسان قلب، مع المعرفة واليقظة والانتباه، وافتقاده لهذا يجعله شبيها بالحيوان [= ميت الأحياء]، وبهذه الحيوية والدفق - في القلب - يستطيع إتباع الهدى، والابتعاد عن الضلال. إن حديث الإمام يدور حول من تسمى عالما وهو جاهل، "أراد لجهله"¹، وإنما المعنى أن ماهية الإنسان وحقيقته، هي الحقيقة القائمة على المعرفة والعلم الموصلة إلى الهدى، تعريف يحدد صورة الإنسان الباطنية، فالقيمة الروحية للعالم الداخلي الحي تعد المؤسس لجوهر الإنسان، بالقلب الحي أحد أجهزة الوعي الضرورية، وما تحتاجه من تغذية نافعة، ويقدم لنا الكلام الآتي للإمام أهمية تعريف الإنسان من خلال ذلك الجوهر الداخلي، وهو القلب وما يستقر فيه من أضداد وحقائق وطبع وجبلة، وحق وباطل، فيقول: "لقد علق بنيات هذا الإنسان بضعة هي أعجب منه، وذلك القلب، وله مواد من الحكمة، وأضداد من خلافها، فإن سرح له الرجاء أذله الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن هلكه اليأس قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ، وإن أسعده الرضى نسي التحفظ، وإن ناله الخوف شغله الحذر، وإن اتسع له الأمر استلبته الغرة، وإن أفاد مالا أطغاه الغنى، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع، وإن عضته الفاقة شغله البلاء، وإن جهده الجوع قعد به الضعف، وإن أفرط به الشبع كظته البطنة، فكل تقصير به مضر، وكل إفراط له مفسد"²، كلام نفيس مبين لحقيقة الإنسان وطبيعته، وسعيه في إثبات هويته، إما إيمانية متزنة، أو متفلتة طاردة، وجملة ما يمكن أن نقف عنده من أفكار مركزية بانية، أن:

1- القلب هو مركز الحقائق، أي أن الهوية والمعنى الإنساني تتركز وتستقر فيه.

2- التركيبة المزدوجة في الإنسان، بمكوناته المتضادة وقابلياتها للخير والشر.

3- المعاني والأخلاق المتعلقة بالقلب وما يلزم كل واحدة، كالأمثلة التي ذكرها الإمام.

وتبقى أهمية حالة التوسط في تصريف الطاقة والقوى والنوازع بثبات هي المتعينة، ذلك أن كل تقصير به مضر، وكل إفراط له مفسد. وإن كل نفس إنسانية تحمل هذه القابلية الضدية من الفجور أو التقوى، فهكذا ألهمت وسويت، ولكن تزكية النفس وتدسيثها تعود إلى الإنسان، كما ذكر الإمام في شأن القلب وما يحمله من مواد الحكمة ونقيضها، ليشير إلى أهمية القيادة والإدارة والمسؤولية المباشرة في ضبط هذا العالم، وإن الأمثلة التي ضربها الإمام تعني انفتاح هذا العالم الداخلي على فضاء رحب من المعنى، وهي ليست الحكمة وضدها برأي ابن الحديد، وإنما هو كلام مستأنف

¹ - ابن أبي الحديد : شرح نوح البلاغة، ص 227.

² - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 446.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

يبين الأشياء ولازمها¹، وهو ما يشتكي منه حتى الحكماء، من عدم التمكن من تلك الإدارة الحكيمة لأمر النفس، أي تحقيق التوافقات بين الأضداد والأحوال، ما يعني أن الإنسان هو حالة من التوازن قائمة بين متضادات وجواذب تتطلب توجيهها يهتدي بأنوار العقل والبصيرة، بذلك النور الداخلي المشرق من القلب الذي يفضي إلى نوع من العدالة أو الفضيلة²، وبجلب مقومات وعناصر الإنماء والبناء، ومن ثم البقاء في دائرة الوصف الإنساني، وذلك الدفع وتلك الحيوية من المعنى، وإنما يكون الإنسان محتاجا إلى العدل، لأن أخلاقه كما يقول "أبو حيان": "مقسومة على أنفسه الثلاث أعني النفس الناطقة، والنفس الغضبية، والنفس الشهوانية"³، مما يستدعي قوة أو هيئة ذاتية تحسم أمر التنازع لصالح الإنسان، المكرم بأجهزة الوعي التي تشحنه بذلك الإمكان المفتوح، ليكون فاضلا ومسؤولا، ومن ثم سائرا إلى الكمال ومترقيا في الدرجات، يقول الإمام: "قد ألزم نفسه العدل، فكان أول عدله نفي الهوى عن نفسه، يصف الحق ويعمل به، لا يدع للخير غاية إلا أمها، ولا مظنة إلا قصدها قد أمكن الكتاب من زمامه، فهو قائده وإمامه، يحل حيث حل ثقله، وينزل حيث كان منزله"⁴، وهو ما يعتبر المقابل الضدي للإنسان الصورة ذي القلب الحيواني، الإنسان الحقيقي الكامل صورة وقلبا، بخصائص دالة على معنى الكمل، أضواء اهتداء الإنسانية بعرفانهم وأنوارهم التي تجسدت في واقع حيوي واع ونام، وهي لا تتحقق إلا بإلزام الإنسان نفسه العدل بنفي الهوى عن نفسه، ثم إن العرفان في الإنسان يعني انطباع القرآن في كيانه، ليحدث معه كل هذا الانقلاب الرائع بفضل أنواره وهديه، فصارت صورته جوهرًا، بإمداد نور العقل والبصيرة، "فصار من درجات العرفان"⁵، بترويض قواه، وتهذيب ذاته، وزهادة مرقية، وعرفان يدرك به الحقيقة.

إن رؤية الإنسان في نهج البلاغة يريد الإمام عليه السلام من خلالها أن يؤسس لإنسان مثال تسند إليه مهمة تصويب الحركة التاريخية للأمة، وتجديد روحها وبث الحيوية والألق في عروقها، فحدده في ذلك: "الذي نصب نفسه" فأقامها على هذا الخط بعناصر وقيم رفيعة، وبذلك يتجلى هذا الإنسان حاملا لمقومات بنائه، وخصائص تميزه التي تكون ختما دالا على كماله، وطبعا مؤصلا لهويته الإنسانية والإلهية، بالتأديب والتزكية، وتكريم نفسه بالتعليم الإلهي لها.

¹ - ينظر ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج 09، ج 18، ص 124-125.

² - المصدر نفسه، ص 125.

³ - أبو حيان التوحيدي: الإمتاع و الموانسة، ص 89.

⁴ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 116-117.

⁵ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 116.

المبحث الثاني: مقومات الإنسان الكامل:

يقول "ابن فارس" في معنى "قَوْمٌ": "القاف والواو والميم أصلان صحيحان يدل إحداهما على جماعة ناس، وربما استعير في غيرهم، والآخر على انتصاب أو عزم... فقولهم قام قياما، والقومة المرة الواحدة، إذا انتصب، ويكون "قام" بمعنى العزيمة، قام بهذا الأمر، إذا اعتنقه، وهم يقولون في الأول، قيام حسيم، وفي الآخر قيام عزم.. ومن الباب، هذا قوام الدين والحق، أي: به قوم. وأما القوام؛ فالطول الحسن¹، أسس بناء تعطي للإنسان قيمة ورفعة وتميزا، وعنصر التركيب الرئيس الذي به يكون اعتدال هيئته، إذن فلكل أمر مقوم اعتماد، وكذا الإنسان يحتاج إلى مقومات ينهض بها، حتى تعتدل حياته، وفي اللسان: "قوام الأمر بالكسر: نظامه وعماده"²، أي ما يحفظ كرامته ويقوده إلى الصلاح، وحتى يستمر سيره نحو أرفع الفضائل. إن مقومات الإنسان من كونية وإنسانية وفطرية وفكرية وتوازنية لا يمكن أن يستغني عنها طالب الكمال، وإلا أخذ بنيانه وانهارت أساساته، وإن الإنسان يحتاج إليها ليصبح أكثر عمقا وتجذرا في الإنسانية، كي يتفاعل بجرارة وإيمان مع المشهد الكوني/الحياتي صغيره وكبيره، وليثبت جدارته، واستحقاقه الخلافة على هذه الأرض.

أولا- الكونية: كيف تكون فكرة الكونية مقوما من مقومات الإنسان الكامل!؟

تحدد طبيعة هذه البنية الحيوية لدى الإنسان انطلاقا من العلاقة والرؤية القائمة بينه وبين الكون، وبينه وبين الله، رؤية أساسها المعرفة المستمدة من هذا العالم الفسيح بأبعاده، رؤية تعمق وجوده وتمنحه وعيا وارتباطا بهذه الحياة وما بعدها، قال تعالى: ﴿سُنُرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾³، فالحق يتبين للإنسان بواسطة المعرفة التي تقدمها حقائق الكون وآياته الدالة على الخالق والهادية إليه، وستقدم آيات الآفاق كل مقومات القوة والطاقة والمعرفة والوعي التي تدفعه إلى الترقى، وبفضلها يحقق عبوديته الحقبة لله ﷻ ويجسد معنى استخلافه. وبمثل هذا الربط يجعل الإمام -في استهلالاته خطبه- من الكونية ثابتا يؤسس لوجود الإنسان.

أ/ الكونية تعرف بالخالق في تجليه على خلقه: يقود انفتاح الإنسان على الكون إلى زيادة معرفته بخالقه، فالآلاء المنتشرة في هذا الملكوت هي علامات ومفاتيح معرفية تعرف بالخالق ﷻ، وتؤدي إلى كمال عبوديته، وتقدير الله حق قدره، يقول الإمام: "الحمد لله الذي أظهر من آثار سلطانه،

¹ - ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ص 757.

² - ابن منظور: لسان العرب، مج 7، ص 546.

³ - سورة فصلت، الآية 53.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

وجلال كبريائه، ما حير مقل العيون من عجائب قدرته، وردع خطرات همام النفوس عن عرفان كنه صفته¹، فالكون ببديع صنعته هو علامة دالة على خالقه، تجلي صنعه الحكيم، ومن ثم فإن الإبحار في آيات الكون سيمد الإنسان برؤية معرفية عميقة تؤسس لعلاقة متينة مع الله تبنى على تعظيم خالق الكون، وبهذه الرؤية والمعرفة يستطيع أن يتحرر من أسر المادة والقيود والمكبلات تمنحه الحرية التي تدفعه إلى مرتبة عبادة الأحرار بآية الشكر والحمد، وعليه "فإن وضوح الرؤية الكونية وتماسكها يولد طاقة وحماسا للحصول على المعرفة، وهمة عالية للإبداع والاكتشاف"²، طاقة هي دفع محرك إلى النظر في آيات الله تولد المعرفة، حيث تثبت للصانع قوته وللمبدع عظمته، وللخالق إحاطته، وبالمقابل نرى عجز الإنسان عن إدراك كنه صفة الله، وعليه فالكون وآثاره حالة تعرف تستتبع بتوحيد وعبادة وإجلال، وهي عبادة الكاملين بذلك التأمل والعرفان ومبعثه ذلك التحفيز المبني على المحبة والمعرفة، يقول الإمام: "ليس إدراكه بالأبصار، ولا علمه بالأخبار"³، وأمام هذه الطلاقة في القدرة وعظمة ما أظهره الله لخلقه، فإن عجز الإنسان يزيد من شغفه في الطلب، وسعيه في إنارة دربه بالمعرفة، فهذا التحويل الذكي الواعي الناتج عن التأمل والإبحار في عالم الملكوت الإلهي، يحول ضعف الإنسان وعجزه إلى بصيرة ومعرفة يقينية ثابتة تتركز في القلب إيماناً، يقول الإمام: "لا تراه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان"⁴، فمعرفة هذا السلطان الإلهي هي مفتاح نمو الشخصية، وهي تسبح في هذا الكون لإضاءة الذات، وعندها تصبح الرؤية قلبية، لأنه "الكائن الوحيد من بين الموجودات الذي ينفتح على الوجود، ويكشف حقائق هذا الوجود المختفي"⁵، بعقله وعرفانه، فعبوديته هي ثمرة للمعرفة الكونية.

يذكر الإمام في خطبه* أسرار وعجائب تحير العقل وتبعث على الإدهاش والتعظيم، كيف تكونت هذه العوالم وفطرت بإتقان، وبالتأمل تقود الإنسان إلى تعرف واع، ولكن برؤية داخلية تستطيع أن تصل إلى الجوهر الحي الذي تنطق معه هذه الأسرار باليقين، بحيث يتخطى حدود المادة التي تغرقه في الفراغ، وتمنعه من تغذية روحية ضرورية، وما أعظم أن تتاح للإنسان مثل هذه الحاسة

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة 288.

² - إبراهيم محمد الحسن برعمة: "رؤية القرآن للعالم، الأهمية التعريف والقضايا"، القرآن الكريم ورؤية العالم، مسارات التفكير والتدبير، ص 215.

³ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 306.

⁴ - المصدر نفسه، ص 244.

⁵ - سيد عبد محمد: مفهوم الهرمينوطيقا في فلسفة هايدغر، الاتصال بالكائن كمنهج للعلم مجلة الاستغراب، 2016، ع5، السنة2، بيروت، ص302.

* - ينظر نهج البلاغة خطبة "صنعة الكون"، ص 304.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

التي تستنطق الحقائق والأعماق، لنيل تلك المعرفة وذلك الكشف، وهذا فرض كوني تعبدي يدعو إليه القرآن، تفكرا وتدبرا ونظرا، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾¹، فأيات الكون تولد الخشية، وهذا وجه يجعل الإنسان يقوى بالمعرفة والحرية والسياحة، ويرتفع شأنه بمقوم كوني عظيم، يقول مصطفى ناصف: "إن أعماق الكون لا تتجلى أمامنا بواسطة العلم الوضعي؛ إنها تتجلى من خلال حاسة روحية في وقت يبدو فيه الإنسان مشدودا إلى جزئي"²، بل تحرر منه ومن هنا كان الكون وما فيه هو التجلي الإلهي على العباد بمعرفة دالة تعرفهم بخالقهم وتوصلهم إلى تعظيمه وإجلاله وعبادته، وعليه فالكون هو إمكانية معرفية كبيرة، يقول الإمام: "الحمد لله المتجلي لخلقه بخلقه، والظاهر لقلوبهم بحجته، خلق الخلق من غير روية، إذ الروايات لا تليق إلا بذوي الضمائر، وليس بذوي ضمير في نفسه، خرق علمه باطن غيب السترات، وأحاط بغموض عقائد السريرات"³. إن القاعدة التعريفية الثابتة، أن الله يتجلى لخلقه بخلقه ليعرفوه، وهي عملية إدراكية تتم بالنظر والتبصر وهي كافية في الإثبات، فقد "ظهر وتجلي لخلقه، ودلهم عليه بخلقه إياهم وإيجاده لهم"⁴، ومن هنا نفهم تأكيدات القرآن على وجوب استعمال أجهزة الوعي، أدوات تحصيل المعرفة ووسائل الوصول، "ومن أساليب الهداية القرآنية إلى العلوم الكونية، أن يعرض علينا صورا من العالم العلوي والسفلي، في بيان بديع جذاب يشوقنا إلى التأمل فيها والتعمق في أسرارها"⁵، تعمق يثبت الإيمان وينميها، ويدفع إلى عبادة الله، عبادة العارفين.

إن في هذا العالم الواسع تنمو ذات الإنسان، مانحة إياه مقوم كماله، وإن الإنسان الحي لا يمكنه أن ينغلق أمام كون ناطق متكلم إليه، فأغلب الكل يؤكد الإمام أنهم في حال التقصير: "مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله"⁶، مما يستدعي منه - الإنسان - إنشاء متواليه من الثناء والحمد الخاص والتعظيم والإجلال الذي يليق بذاته ﷺ، وستقوده سياحته الكونية إلى تقدير الله حق قدره، ليزداد معرفة بخلقه، معرفة تزيده قربا وطاعة وامثالاً، ولهذا "فلا يستطيع المرء "تذوق" بحر الحق، إلا بالغرق فيه"⁷، ومن هذا الغرق الإبحار في الكون الذي يصنع الإنسان الكوني. وإن أعظم درس

¹ - سورة النازعات، الآية 26.

² - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 253.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 155.

⁴ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج4، ج 7، ص 168.

⁵ - ابن باديس : تفسير مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص 276.

⁶ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 137.

⁷ - رضا شاه كاظمي: العدل و الذكر، ص 88.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

يتلقاه الإنسان من هذه الطبيعة هذا الإدراك المتميز، أن الله لم يخلق هذا الكون عبثاً، وأن العدمية لا يمكن أن تسري على الأجزاء والمكونات، "فالإنسان كائن صغير في كون معقد بحكمة التداخل بين الغيب والشهادة، وليس للإنسان أن يلغي أي طرفين من المعادلة"¹، وعي يجعله يبصر طريقه وغايته، ويعرفه بخالقه، ولأي مقصد خلقه، يقول الإمام: "ولو فكروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق"²، وهكذا يكون للنظر والتفكير الدور الفصل في فرز الحقائق، ودفع الحوائل المانعة من إِبصار طريق الحق، فالكون بهذا مقوم الإنسان وهاديه، والبناء الحي ناطقاً بالحق، مسعفاً إياه بالصواب، ينشط الفكر ويوسع المعنى الذي يحياه العاقل العارف، ومن ثم فهذه الإرادة التي أوجدها تريد لحركته أن تكون متوافقة مع سنن الكون، يقول "مصطفى ناصف": "لقد علمتنا النصوص المقدسة أن الوجود جسد حي إذا جرحنا عضواً منه فكأننا نجرح أنفسنا"³. والإجابة موزعة في آيات الكون، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾⁴، دلائل كونية ناطقة بالمعرفة.

ب- الكونية تقدير الصنع؛ تعظيم وعبادة: إن تأملات الإنسان وسياحته الكونية تمثل العبادة الحقبة بامتياز، فلن يعرف عظمة الله إلا في فضاء هذا العالم، عبادة تفكر، وتعني الانتقال من الشكل التعبدي البسيط الجاري في حدود الحرفية إلى عبادة تأملية تأخذ بالألباب والأفئدة، في رحلة وسفر معرفي يعظم فيه الخالق سبحانه، بعد أن عرفه بطريق آياته، فنزهه ومجده بإعلاء ذكره، ويعلن طاعته لله عند معرفته أن الموجودات طائعة ساجدة، يقول الإمام في إحكام صنعة الكون: "قدر ما خلق فأحكم تقديره ودبره فألطف تدبيره، ووجهه لوجهته، فلم يتعد حدود منزلته، ولم يقصر دون الانتهاء إلى غايته، ولم يستصعب إذ أمر بالمضي على إرادته، وكيف وإنما صدرت الأمور عن مشيئته"⁵، فرؤية هذا التقدير المحكم مدبر بإرادة ومشئته، ولن يجد الإنسان إلا عالماً دالاً على قدرة مطلقة وكمال وعظمة، تنقله إلى تعظيم صانع الكون وفطره بالطاعة، وتجيئه حقائقه ببطلان العدم ومقولات العبثيين، قال تعالى: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾⁶، فتقدير الصنع الإلهي فيما أوجد بإعجازه يحرك النفوس لتبصر هذا، وتنفع له انفعالا حرا واعيما، وما يدركه الإنسان بجولانه الكوني يمثل

¹ - حاج حمد محمد أبو القاسم: العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعية، مج1، دار ابن حزم، بيروت، 1996، ط2، ص 475.

² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 255.

³ - مصطفى ناصف: مسؤولية التأويل، ص 253.

⁴ - سورة ص، الآية 27.

⁵ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 125.

⁶ - سورة الحائية، الآية 24.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

إعلاننا بخضوعه وطاعته لله ﷻ، يقول الإمام: "ولكن خلائق مريبون، وعباد داخرون"¹، فكل المخلوقات داخلية في نظام الطاعة، ويدخلها الإنسان بعقله واختياره الواعي، لذا فمربوبيته هي قيمة فارقة، تجلي رمزية الإنسان الكوني الذي حرره الكون من الخضوع للشهوات والهوى والضلال.

إن الناظر البصير السابح في هذا الملكوت سيزداد بتأمله ونظره كمالاتها، هنا ينمو ويعظم، ما يمنحه كشفاً عالياً تتمخص عنه رؤية جامعة وتفاعل حي، يقول الإمام: "بان من الأشياء بالقهر لها والقدرة عليها، وبانت الأشياء منه بالخضوع له والرجوع إليه"²، فهو ﷻ خالقها ومقدرها ومحكم صنعها، وإليه تخضع وترجع، وأما بيانها منه، ألا تخرج عن هذا الحد من التقدير والتدبير، وأن تخضع لمثل هذا السلطان، وأما الدرس الإنساني، فهو درس الاختيار الحر الذي يقود إلى التعبد الواعي، يقول الإمام: "ألا وإن الأرض التي تحملكم والسماء التي تظلكم مطيعتان لربكم"³، مكونات منتظمة كونياً، مطيعة لخالقها وفاطرها، ومن بيان طاعتها أنها مسخرة لتثبت طاعة ثانية مرة أخرى.

لقد كرم الإنسان وأعطى العقل، وألهم الهداية وأدعم بالوحي، لذا فإن طاعته ينبغي أن تكون الأجل والأرفع معجونة بخمائر الحرية والإرادة والعقل، وتمثلات عبادة الأحرار التي تلبس لباس الشكر، رداء سيد الخلق ﷻ: "أولا أكون عبداً شكوراً"، مثال كمال العبودية، ولذا تزيد رؤية أسرار الكون من ثقل الأمانة والمسؤولية عليه، "لأن الأحياء ولاسيما الإنسان من حيث الصنعة الجامعة المتقنة، يملك من الأجهزة والجوارح بحيث تعرف أنواع النعم التي لا تعد ولا تحصى"⁴، وعليه فإن الانتماء إلى الكونية، يعد تفتحاً على الكمال، ونماء وتربية تزكو من خلالها ذات الإنسان، وهي تقرن إدراك جمال بدائع الصنع الإلهي بالحمد، يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾⁵، كذا يتأدب الإنسان الحي بأدب الحمد، كلما نظر وتأمل في الكون، إلا وأبدى هذا الانفعال والشاعرية المتدفقة من وجدان مهذب عطر بالحمد لخالقه ﷻ، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁶، دالاً على جمال إنساني متناغم مع مشاهد الكون، ويكثر الإمام في مفتح مخاطباته من هذه العبادة الكونية، وشعارها الحمد، فيقول: "الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصي

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 88.

² - المصدر نفسه، ص 203.

³ - المصدر نفسه، ص 193.

⁴ - النورسي بديع الزمان : كليات رسائل النور، المكتوبات، تر إحسان قاسم الصالح، دار سوزلر، القاهرة، 2011، ط6، ص 289.

⁵ - سورة فاطر، الآية 01.

⁶ - سورة الفاتحة، الآية 01.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

نعمائه العادون، ولا يؤدي حقه المجتهدون"¹، وهذا الاقتران يأتي في سياقات التعظيم والإجلال، وإظهار بدائع الصنع والنعم المغدقة، ويظهر عجز الإنسان عن التوفية والضعف أمام قوة الله وعظمته، وبديع صنعه، ويقر الإمام بهذا الضعف، فيقول: "وما الذي نرى من خلقك ونعجب له من قدرتك، ونصفه من عظيم سلطانك، وما تغيب عنا منه، وقصرت أبصارنا عنه، وانتهت عقولنا دونه، وحالت سواتر الغيوب بيننا وبينه أعظم، فمن فرغ قلبه، وأعمل فكره، ليعلم كيف أقمت عرشك، وكيف ذرأت خلقك، وكيف علقت في الهواء سمواتك، وكيف مددت على مور الماء أرضك، رجع طرفه حسيرا، وعقله مبهورا، وسمعه والهيا، وفكره حائرا"². إنه ضعف الإنسان أمام العظمة الإلهية والإحاطة بهذه الآيات الباهرات، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾³، ولهذا يحتاج الإنسان إلى العلم ليفقه ويعرف آيات الله في كونه، ويعلق واجب الحمد به، ورغم هذه العبادة التشريفية، إلا أن الإنسان قاصر عن الإيفاء مع جلال ما أبدع، مدحا وإحصاء وأداء، فما بالك عن كماله وجلاله وجماله ﷻ، فلا يكفي الحمد الذي يصوغه الإنسان ليوافي تماما إلهيا وتأدية في حق الله، وعليه فأمانة الحمد بكل تجلياتها هي المتلازمة التي ينبغي أن تحيا في ذات الإنسان راسخة في قلب وجوانية الإنسان السائح في الكون، لذا كان الحض الإلهي لعباده بممارسة هذه العبادة الجمالية، قال تعالى حاثا مادحا: ﴿السَّائِحُونَ﴾⁴، وقوله: ﴿سَائِحَاتٍ﴾⁵، لهؤلاء السابحين والسائحين في أسرار العظمة الإلهية وعجائب الصنع، ودعوة لكي يخرج الناس من تلك السياحة في هذه الوساعة الكونية المبهرة بتقدير خالق الكون حق قدره، يقول الإمام: "عياله الخلائق، ضمن أرزاقهم، وقدر أوقاتهم، ونهج سبيل الراغبين إليه، والطالبيين ما لديه"⁶، وهذا ما يعضد رغبتهم في التعلق والارتباط القوي بخالقهم، بإتباع منهجه وبينات أمره، وستمدهم الرؤية الكونية بنشاط كبير للمخيلة عملا واستشرافا، وثمرة حية في الربط بين عالمي الشهادة والغيب، مشاركة لأعتاب الجنان، لأن الإنسان المزود بمقوم الكونية يكون قد تعلم كيف يربط الدنيوي بالأخروي، يقول الإمام في وصف الجنة: "فلو رميت بنظر قلبك، نحو ما يوصف لك

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 17.

² - المصدر نفسه، ص 213، 214.

³ - سورة غافر، الآية 57.

⁴ - سورة التوبة، الآية 112.

⁵ - سورة التحريم، الآية 5.

⁶ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 122.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

منها، لعرفت نفسك من بدائع ما أخرج إلى الدنيا من شهواتها، ولذاتها، وزخارف مناظرها، ولذهلت بالفكر في إصطفاق أشجار، عييت عروقها في كثنان المسك على سواحل أنهارها، وفي تعليق كبائس اللؤلؤ في عساليجه وأفنائها قوم لم تزل الكرامة تتماذى بهم حتى خلو دار القرار، وأمنوا نقلة الأسفار"¹. جاء هذا الوصف بعد أن ذكر الإمام بعضاً من الموجودات الكونية ومخلوقات تحيا فيه، وهو وصف عجيب يأخذ بالألباب ويتيه بالفكر، وغايته أن يشوق الإنسان إلى ذلك الارتياذ، حيث اعتمد فيه على المقارنة بين مشاهد الدنيا، وهذا العالم الخلب.

إن الناظر في الكون ينطلق عقله إلى تصورات متعالية متجاوزة لمشهد دار الفناء ليتعلق بالعالم الأخرى، بالعمل الصالح، يقول الإمام: "فلو شغلت قلبك أيها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونقة، لزهقت نفسك شوقاً إليها"²، يركز على أهمية النظر القلبي في إدراك هذه الصورة، والسعي بهذه الأداة والعمل الروحي للوصول، تحقيقاً لتلك الانعطافة الجلييلة، ومن ثم فالنظر الكوني يقود إلى نقلة ممتعة، "حيث تتضاءل أهمية جميع الظواهر الأرضية، في ضوء هذه المقابلة"³، ولكن من دون هذا المقوم الكوني والارتطام في عالمه لا يمكن أن تتحقق هذه النقلة العجيبة التي تجعل من الإنسان الكوني، إنسان الآخرة، يغيره هذا الملكوت بالسياحة فيه، والشوق والتوق إلى الجنان. إن مثل هذا العرفان يمثل تجلياً من تجليات القلوب الحية المفطورة على الإيمان والمعرفة النظرية، وعليه فإن ميزات الكونية التي تطبع الإنسان الكامل ستنتهي به إلى أن تدفع عنه الرؤية العبثية والعدمية، وتنفي عنه الخواء، "لأن اكتشاف الإنسان سيؤدي إلى اكتشاف الكون"⁴، ومعه نرى انعناقه من الأهواء وتحرره من القيود، وبامتلاك هذه الرؤية الكونية يكتسب معنى إنسانيته.

ثانياً - الإنسانية:

إن بين كتاب الكون، وكتاب النفس، والكتاب المسطور خيوط رفيعة، وعلامات هادية ناطقة بدلالات واحدة، بيان العظمة الإلهية، والهداية إلى الحق، هذا المساق هو سيما تعبدية، وآلة كشف معرفي تمكن الإنسان من أن يمتاح من مصادر ومناهل هذه الطاقة التي تجعله مضاءً بأنوار الهداية، حيث يتفجر المعنى الإنساني من النفس، وبهذا التميز يخرج الإنسان من الانتساب الدنيوي الضيق، إلى مقوم الإنسانية الرفيع، المؤسس على البعد الكوني، لأنه جزء منه وفي رحابه يعظم.

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 227، 228.

² - المصدر نفسه، ص 228.

³ - رضا شاه كاظمي: العدل والذكر، ص 86.

⁴ - خالد آغا القلعة: السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة، ج1، ص 109.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

ولا يمكن إدراك القيمة الرمزية لمقوم الكونية، إلا باستنطاق هذه العلامات بفاعل إنساني يجسد مقوم الإنسانية أسا دالا على هذا الجرم الصغير، قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾¹، فهنا كون ينطق بالعظمة، وفي النفس يستقر معنى الإنسانية، يظهر من جوانبتها، وبهذا يقع الإنسان في مقابل الدنيوي المادي المحدود في الزمان والمكان، ومن ثم فإن "الإنسانية هي الفطرة التبعدية لدى الإنسان ببعدها الكوني الشامل، واستعداداتها التفكيرية لتذوق الإيمان"²، بسلامة الأصل الفطري، فعندما تنهياً أرضية هذا المقوم، تنبعث الصورة الخيرة الجمالية المشعة بالقيم والرمزيات الإنسانية.

أ- تأسيسات وأفكار إنسانية : إذا كانت الإنسانية هي الفطرة المتعبدة، فإن حصول تركية ذاتية محضة، تمكن من تجاوز الحالة البهيمية الحيوانية يعد حتمية وخطوة تأسيسية قصد تحقيق ذلك الصفاء الجواني، تنطلق منه الذات الإنسانية إلى المعنى والحقيقة، تلك الذات التي تزودت بالأنوار المضئية، عاملة في الحياة، وهذا بقياس تلك المخرجات الذاتية بمقيار الإنسانية الكامل فكرة وجوهرها وروحها، يقول الإمام: "لا تضعوا من رفعته التقوى، ولا ترفعوا من رفعته الدنيا"³، فمقيار التقوى يدفع القيم الخيرة، لكي تتحرك في الحياة وتنمو متوافقة مع قيم العدل والرحمة، قائمة في مواجهة الحالات الضدية لمعنى الإنسانية، حفاظا على المقاصد المطلقة في هذا الكون، كالحق في الحياة والعدل والحرية والكرامة، ومراعاة شأن الضعفاء من الموجودات والخلق، على اعتبار "أن الإنسان إنسان بمقياس تبنيه للقيم الإنسانية، وعندما يفتقد هذه القيم يكون "كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ"⁴ (الأعراف:179)، تلك مجاهدة هي أساس لتجاوز النزعة المادية وما دون الحيوانية، حتى لا ينكسر معها أفق الإنسانية فيه، وفي الآخر معه قيمة واعتبارا، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾⁵، لتأخذ الإنسانية طابعها الإنساني بهذا التنوع، مما يجعل هذا النزوع سيما معنوية دالة وثابتا روحيا يؤدي إلى فطرية جمالية متفتحة على العالم الآخر، يقول الإمام واصفا حال العرب بعد الإسلام، "وإن كانوا قليلا فهم كثيرون بالإسلام، عزيزون بالاجتماع"⁶، حيث أدخلتهم هذه الفكرة في مسارات جديدة من العالمية والتمكين، ثم الإنسانية، بإخراج ونشر قيم الخير والجمال والحب والعدل، وعليه فالإنسانية

¹ - سورة الذاريات، الآية 21.

² - فريد الأنصاري: مفاتيح النور، ص144.

³ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 267.

⁴ - محمد فتح الله كولن : أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص 200.

⁵ - سورة الحجرات، الآية 13.

⁶ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 196.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

فكرة تتجاوز كل انغلاق، وغايتها أن يخرج الإنسان أعظم المكتسبات من جوانيته الصافية، ومن الوحي القرآني، ليصيب بها الناس جميعا، بعد أن حقق اجتماعه الإيماني، وكثرته بالحق، ثم انطلاقه الإنساني المشع على الكون. إن هذه المجاوزة لذاته هي إنسانيته التي يلتقي بها مع العالم لبينيه بصياغات جديدة تعيد الكرامة للإنسان، وتمنحه الحرية وتشعره بالأمان، وتعطيه البصيرة الكافية ليختار من الممكنات الإيمانية والإنسانية دون إكراه، ولذا فإن "الوحي الصادر عن الله- الذي هو مركز الكون، وضع الإنسان في مركز الحياة، وما عليه إلا أن يتجاوز ذاته"¹، وتثبيت مقوم الإنسانية في الذات هو الذي سيعطل الظلم والتمييز الظالم، يقول الإمام: "ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تباذير وإسراف"²، فهذه اللفتة وما فيها من لطيفة يقصد من ورائها إقامة الحق بالعدل، حماية لإنسانية الإنسان، وفي الأبعد معالجة ظاهرة الاستضعاف والاستكبار، وما يكون دولة بين الأغنياء التي تنمو في مثل هذا المهاد التي تسلب الإرادة والحرية وتفسد قيم الحياة، وتأسيس مبدأ اللاإكراه.

إذن فالإنسانية تعتمد على أسلوب حي دينامي بتفعيل أدواتها، فهي لا تتحقق إلا برصد عواملها المنجحة، وفي مناخ العدل والتراحم، وها هو الإمام يؤكد على تصفية جوانية الناس من تلك الأحقاد، تلك النيران التي تحرق هذا المعنى الجليل، وذلك البعد الإنساني الذي يكون علامة ودليلا على كمال الإنسان ورفعته، فيقول: "وما أعمال البر كلها، والجهاد في سبيل الله، عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا كنفثة في بحر لحي"³، ويقول أيضا: "وأطلق عن الناس عقدة كل حقد وأقطع عنك سبب كل وتر"⁴، فهذا العمل النوعي هو ما يعضد اللحمة الاجتماعية، ويصرف أسباب الكراهية وموجباتها، وهي تقوم على تطهير القلوب بالسيرة الحسنة وترك دواعي الإساءة الجامعة لمفرزات العداوة والبغضاء⁵، الأمر الذي يزيد من يقينية نماء الإنسانية في أجواء الصفاء والنقاء، مع هذه القلوب التي قطعت أشواطاً في السلام مع النفس، ثم مع الآخر، ثم مع الكون، وبهذا فالإنسانية هي نور يتدفق ضياؤه من النفوس، ليضيء الآخرين، "وتدفع الإنسان إلى تجاوز المستوى الغريزي العضوي، والتحرر من قيود الطبيعة والتجلي في المصالح الإنسانية في سبيل بلوغ غايات أخلاقية وروحية تعلو فوق مطالب الغريزة"⁶، ولا يمكن لهذا البعد أن يتأسس ثابتاً حياتياً، إلا

¹ - عبد الوهاب بوحدية : الإنسان في الإسلام، ص 46.

² - علي بن أبي طالب : تهج البلاغة، ص 180.

³ - المصدر نفسه، ص 491.

⁴ - المصدر نفسه، ص 394.

⁵ - محمد عبده : شرح تهج البلاغة، ص 394.

⁶ - أنس شكشك : فلسفة الحياة، ص 115.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

إذا أحيط بسياج حافظ، لأنه فكرة متعالية لا تفرق بين إنسان ونملة تدب في التراب، وطائر يغرد في السماء، ووحش يمشي في الفلاة، هي النفوس التي تنكر المنكر وتأمّر بالمعروف لتبقى الإنسانية، ولتبقى الموجودات ويبقى السلام، ويزهر الجمال في الكون، وهي وسائل فاعلة لاستنبات الإنسانية، وقاعدة هادفة إلى المحافظة على الحياة، ولولا العمل بالدفع، لماتت قيم الجمال والخير في النفوس، كما أنها تستهدف رسم معالم الحياة في دنيا المجتمع الإنساني، فمقوم الإنسانية هو خروج إلى الآخر بقيم السلام والخير والجمال، ناطقا بحقيقته، قائلا: إني موجود كوني، برهاني على ذلك إنساني.

ب- الإنسانية، تعريف بكف الأذى: إن المهاد المؤسس لهذه الحقيقة يتطلب وجود معايير بانية، من كف الأذى والظلم إلى العدل والإحسان والمعرفة التي تجنب التضارب والانحراف عن هذا المعنى:

المعيار	النص الدال	الدلالة والتأويل
العدل	"العدل يضح الأمور مواضعها، والجود يخرجها من جهتها، والعدل سائس عام، والجود عارض خاص، فالعدل أشرفهما وأفضلهما" ص 500.	إن هذه المفاضلة هادفة إلى بيان شرف العدل الذي تحتاج إليه الإنسانية، لكي يتحقق لها الوجود الحي الطبيعي المتحقق بفضيلة العدل، ووظيفته الإستراتيجية في التمكين، وبيان مقاصد الاستخلاف، هذه القيمة من العدل هي مادة بناء الحق في الوجود، ومن ثم إقامة صرح الإنسانية كبعد يراد منه إحداث نقلة نوعية في الإنسان من الإطار الغريزي إلى كمال الإنسان. إذن فتعريف الإنسانية هو تلك العلامات المخرجة من الخيرية في الذوات الإنسانية، وإن هذا المشروع العظيم ينجزه الأفاضل، ويتفاعل معه المجموع الآخر.
المعرفة	"الناس أعداء ما جهلوا" ص 458.	تقود المنظومة المعرفية الإنسان إلى تواصل إنساني حقيقي، وعلى هذا فالإنسانية إنما هي التجلي الأعظم للمعرفة، يقول مصطفى ناصف: "ثراء النفس في القرآن هو الرحمة والشعور بأن الله تعالى لا يريد للناس أن يتعذبوا وأن يظلم بعضهم بعضا" ¹ ، تغذيه بالمعرفة والتواصل والتعارف، لأن الجهل مقوض للإنسانية الإنسان.
الإحسان	"أحسنوا في عقب غيركم تحفظوا في عقبكم" ص 473.	إن جريان هذه الروح الإنسانية يتم بذلك المعنى المستقر في النفس من رحمة وإحسان بالآخرين الذي سيبقيه في الأبناء، وكأن الإنسانية هي بناء شامخ، فكل واحد من أبنائها مطالب بوضع لبنة فيه حتى يكتمل، وهنا يتم التأكيد على أهمية الوعي بهذه القيمة الكلية، وتهيئة النفس لتحويل الوجدان الإنساني إلى قيمة ناطقة بالخير والجمال.
الانتصاف للحق	"الحق أوسع الأشياء في التواصف، وأضيقها في التنصاف" ص 309.	إن المطابقة التماثلية بين الوصف والعمل هي ما يضع الإنسان في قلب الحقيقة الإنسانية ومفرزاتها، "فقول بغير عمل" ² ، أبعد عن تمثل الحق، وأضيق للإنسانية التي تعني "الانسحاب من فعل الشر والاستمرار في الخير" ³ ، وهذا وجه قوي في تعريفها، فالحق الذي منه شق الإنسانية، يقوم على المعرفة، وهي الصورة المثال الدالة على أفق الإنسانية.

¹ - مصطفى ناصف : فلسفة التأويل، ص 225.

² - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج 06، ج 11، ص 51.

³ - جودت سعيد : الدين والقانون، ص 113.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

<p>ك ف الأذى ومدافعة الشر</p>	<p>"بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد" ص463. وقوله: "أحمر الشر، فإنك إذا شئت تعجلته" ص 372.</p>	<p>تعد هذه المقولة ترجمة لميزان العدل الذي يخضع له السلوك الإنساني بأدوات ومعايير الحق لمنع العدوان ووفق هذا تنبع القيم الإنسانية، "فالشخصية الإنسانية عاطفة، وعقل، وضمير، وليست مجرد أعضاء ووظائف وخلايا وأعصاب"¹، ومعنى هذا وجود فكر يمنح القيم ويصنع الحياة، ويعطي إنسانية، وبهذا المعيار تنمو أخوة الدين والإنسانية، على أساس من المرونة الذكية التي تستهدف تخفيض وتذويب درجات العداوة إلى أقصاها منعا للشر والفساد، وإثماء للسلام بين الناس. وإن قانون ضبط المعنى في الإنسان وتصريفه وتوجيهه هو عمل ذاتي ذهني إرادي، يربطه الإمام مباشرة باستشراف مستقبلي، إدراك البعد الإنساني ممتدا في شبه من صناعة المعروف، وهي خميرة بناء الإنسانية.</p>
<p>التناصح</p>	<p>"ولا تدخروا أنفسكم نصيحة" ص 391 .</p>	<p>إن النصيحة هي طريق حفظ الإنسانية، لتكون متفاعلة مع مقاصد الحق والاستخلاف، وناشرة لقيم الخير والسلام، متدافعة إلى تواصل أرحمي يبني على قانون التعارف، يكون الإنسان فيه عدلا في نفسه، بمجانبة الرغبات الجاحمة النقيضة لهذا المقوم الرفيع.</p>
<p>القناعة</p>	<p>"الغنى الأكبر اليأس عما في أيدي الناس" ص 484.</p>	<p>إن هذا الغنى = القناعة، هو الطاقة العظمى في الإنسان التي منها تنبع إنسانيته، يقول الرافعي: "فمن البطن نكبة الإنسانية، وهو العقل العملي على الأرض"². إن على الإنسان أن يجمع صورته الذاتية والكونية، بتلك المفاولة والاتقاء، أمانة الكائن الإنساني.</p>
<p>المسؤولية و الرعاية</p>	<p>"اتقوا الله في عباده، وبلادته، فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فأعرضوا عنه" ص 231.</p>	<p>يرعى الإنسان في الحياة كل شأن، حيث يتولى قيادة نفعية، وحركة مقصودة، بمعايير تحدد نسقه الحيوي ومجال حركته بطابعها الإنساني والكوني، "فالمسلم إنسان ممتد بمنافعه في معناه الاجتماعي حول أمته كلها"³، وبإنسانيته إلى الأمم الأخرى من الناس والمخلوقات، ومعنى هذا انطباق الروح الإنسانية وقيم الحق والخير والجمال في ذاته، وهذا ما يمكن اعتباره قيمة من قيم العدل والسلام، مشرقة على غيرها، وتجليا إنسانيا تظهر آثاره في الإنسان الفرد الكامل، وفي مجموع الناس بالخيرية.</p>

إن المراد من ذكر هذه المعايير إحداث نقلة نوعية في الذات، من الإطار الغريزي البهيمي إلى كمال الإنسانية، وهذا ما يقودنا إلى تعريف الإنسانية، على أنها إخراج الخيرية من العالم الجواني، يقول العقاد: "وليس في الواقع ما يمنع" الشخصية الإنسانية "، أن تتحقق كما تحققت في الذهن، فكرة قابلة للتمام"⁴، وهذا عندما يترجم هذا عمليا بالوعي والإرادة والحرية، إلى فكرة إنسانية.

ج - الإنسانية كمال وتأول لإنسان كامل: إن الإنسانية مقوم كمال لاعتبار هام، امتناعها على كثير من الناس، وهي مؤهلات روحية وعقلية، ووعي وإرادة، وجمال نفسي يدفع هذه الفكرة العظيمة إلى أن تتجسد معبرة عن كمال إذا قارناها بمقابلات ضدية من مثل الأنانية والذاتية التي

¹ - عباس محمود العقاد : الإنسان في القرآن، ص159.

² - المرجع نفسه، ص 59.

³ - مصطفى صادق الرافعي : المرجع السابق، مج2، ص 15.

⁴ - عباس محمود العقاد : المرجع السابق، ص159.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

تعني العيش في حدود دائرة الجسد، وهذا شأن ذلك "الذي يعطل عقله، أو يستخدمه في غير ما خلق له، فهذا الإنسان ألغى إنسانيته، وتحركت فيه حيوانيته"¹، وتحرك الحيوانية، يعد نقيضة تلغي الحقيقة الإنسانية، وقد عد الإمام عاجزا من فشل في كسب الإخوان، فيقول: "أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم"². إن الإنسانية قيمة روحية بالأساس، وهي تظهر من خلال عملية التأليف والتآخي، بمعنى هي امتداد الإنسان خارج ذاته حيث ينقل إلى الآخرين كل معنى جميل، وعليه فإكتساب الإخوان يعني قوة إنسان امتلك مقومات التواصل، ومستلزم التعارف، والتفاعل الحي، وهذه قوة لأنها انتصار على الحتميات والمعوقات التي تجعل الإنسان عبدا لذاته، فالظفر بالإخوان، يعد ظفرا بالإنسانية، وتفجرا داخليا بمعناها. وإن الكامل هو من يرى ذاته من خلال الموجود الآخر، أي من خلال إنسانيته، فهذا الوجود النوعي الفارق، هو الوجه الناطق بالإنسانية، والمرآة العاكسة لحقيقتها، وإن العجز عن اكتساب الإخوان، إنما يدل على نقصان في هذا المعنى الجليل، يقول الرافعي: "وما يريد الإسلام إلا نفس المسلم الإنساني"³، أي ذلك الجوهر الدافئ المملوء بالمعنى والجمال، الباعث على الخير والنفعة، والقدرة على التواصل والحوار، وذلك بدغدغة العوالم الداخلية للآخرين، ليخرج منها الخير.

ويرجع الإمام هذه الصعوبة إلى المركب النفسي للأشخاص، لذا فالتحريك يتجه مباشرة إلى القلوب، فيقول: "قلوب الرجال وحشية، فمن تألفها أقبلت عليه"⁴، فمع هذه الطبيعة يصعب التواصل، وإقامة علاقات الأخوة، بينما يكون تألفها بأدوات هي من نبع إنسانية الإنسان، فالإمام "جعل أصل طبيعة القلوب التوحش، وإنما تستمال لأمر خارج، وهو التأليف والإحسان"⁵، استمالة بالمعاني النبيلة، وبملكة تأليف جامعة تعبر عن عظمة تجليات شخصية كمالية، لإحلال معنى الإنسانية التي تقف في مواجهة التوحش وما يزرى بالإنسان إلى الحيوانية وأضل منها، بدافع وفكرة مثال، "فالتجربة البشرية هي التي تظهرنا على أنه ليس في وسع الإنسان أن يحيا ما لم يهتد إلى شيء أعظم منه يكون عليه أن يعيش له"⁶، وما يعيش له هو قيمة كمالية مطلقة هي الله، تثمر إنسانية تمكنه من فتح كل أقفال القلوب الموصدة، أمام هذا المعنى، وهي خصيصة يتمتع بها أفاض

¹ - محمد راتب النابلسي : موسوعة أسماء الله الحسنى، ج 1، ص 48.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 432.

³ - مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، مج 2، ص 10

⁴ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 438.

⁵ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 9، ج 18، ص 87.

⁶ - سليمان خزاعي صالحه : الإنسان والوعي، ص 138.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

الناس، حيث يزرعون الإيمان والنشاط والحيوية في الذوات، ومن أساليب هذا التأثير والفاعلية الكرم، وهو قوة جذب رهيبية في جلب الأطراف التي تبعد عن هذا الجوهر الإنساني الجمالي الخير، حتى تسقى من هذا الماء القلوب والنفوس، فرابطة الدم ذات أهمية ويتعداها الكرم إلى تحقيق هذا الربط الإنساني، لأنه فكرة فعالة وقيمة إنسانية تنبع من ذات خيرة، يقول الإمام: "الكرم أعطف من الرحم"¹، وبهذا فكأننا ننتهي إلى نتيجة مهمة أن الإنسانية هي فكرة، وأن الكرم هو لبنة بناء صرحها، وكما يقول "الإبراهيمي": "ومغزاها البعيد يرجع إلى كمال الإنسانية"². إن الكرم من الناس يكون قد حقق إنسانيته وأضاف للإنسانية التي يتحقق كمالها بأبنائها الفاضلين، ولا يعتبر الإنسان كاملاً إلا إذا ظهرت منه فضائل الخيرية وكيمياء المحبة، ولأنها هي المقوم الدال على الكون الأصغر [= الإنسان] المقابل للكون الكبير*، تتجلى فيه قيمة الرشد، وحيث تفتح أمامه نوافذ الإبصار من أجل التواصل والتعارف، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾³، ومع هذه الحرية الإنسانية تنزاح الحجب والأضاليل ويلغى الاستعباد والظلم، ويدفع الجميع إلى مقاربة الحق، ولو على مستوى إزالة الظلم والعدوان بغية إسقاطه، "فالكلمات كلما زادت في الأفراد كانت مزيداً في قوة حيوية الأمم، كذلك النقائص هي نقص في حيوية الأمم، وقد تنتهي بالأمة إلى الفناء والعدم"⁴، لذا فتفرد الكامل بين الناس، هو الضوء الذي به يهتدون، يقول "الإبراهيمي" متحدثاً عن الإنسانية السامية: "وإنما حققها من ساد بالعدل، وقاد بالعقل"⁵، وهما قوتان إنسانيتان كماليتان، ولهذا دفع القرآن أهل الإنجيل لتحكيمه بغية جمع الناس على معايير عادلة، قال تعالى: ﴿وَلِيَحْكُمُ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾⁶، في مجتمعهم أولاً ومع غيرهم ثانياً، حتى تحظى الإنسانية بالسلام والجمال والخير، بالأفذاذ أضواء الإنسانية نحو الحق والعدل والإيمان.

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 467.

² - محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، ج 3، ص 190.

* - في الآيات التي تنسب إلى الإمام علي رضي الله عنه، حيث يقول: "دَوَاؤُكَ فَيْكَ وَمَا تُبْصِرُ

وَدَاؤُكَ مِنْكَ وَمَا تَشْعُرُ

أَتْرَعُمُ أَتَّكَ جُرْمٌ صَغِيرٌ

فَأَنْتَ الْكِتَابُ الْمُبِينُ الَّذِي

وَمَا حَاجَةٌ لَكَ مِنْ خَارِجٍ

بِأَحْرُفِهِ يَظْهَرُ الْمُضَمُّ

وَفِكْرُكَ فَيْكَ وَمَا تُصَدِّرُ

³ - سورة البقرة، الآية 256.

⁴ - محمد البشير الإبراهيمي: المرجع السابق، ج 1، ص 202.

⁵ - المرجع نفسه، ج 3، ص 260.

⁶ - سورة المائدة، الآية 47.

ثالثا- الفطرية:

يتأسس على مقوم الكونية والإنسانية البعد الفطري، داخل الكائن الذي يحمل قابليات الإيمان، وهو عالم يتمتع بصفاء وطهارة وتلقائية ومرونة، تمد الإنسان بحيوية تحركه نحو الإدراك، إلى ذلك الطبيعي والمستقر فيه، والطبيعة الخالصة التي خلق عليها، وهيء بها ليتقبل الحق، فهذه هي الصورة الأولى الطبيعية التي نبدأ منها في تحديد ماهية الإنسانية، قال تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾¹، فالإنسان مفطور على العبودية وعلى الحق، أي على حب الله. جاء في المقاييس: "فطر: الفاء والطاء والراء، أصل صحيح يدل على فتح شيء وإبرازه، والفطرة: الخلقة"²، وفي التعريفات: "الفطرة: الجبلة المتهيئة لقبول الدين"³، وفي اللسان: "والفطرة ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به"، (وفي شرحه لحديث "يولد الإنسان على الفطرة")، قال: "فلو ترك عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها، وإنما يعدل عنه من يعدل لآفة من آفات البشر والتقليد"⁴، فمن الواضح إثبات فكرة هذه الجبلة التي يكون عليها الإنسان، إلا أن العامل الخارجي هو من يهدد سلامة الفطرة، بمعنى أن المنظومة الاجتماعية بأجهزتها الفكرية الفاسدة، هي مهددها.

أ- الفطرية دافعة لالتباس الحقائق العارضة: يؤكد حديث النبي ﷺ: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"⁵، أهمية هذه الفطرية، وعلى ذلك الطبع الإلهي للنفس الإنسانية، على الفطرة المستعدة لقبول الإيمان، من الأفكار التي يتلقاها في وسطه الأسري والاجتماعي فتلوث هذه الجبلة، وبالتأول فالحديث يركز على مسألتين مهمتين، الأولى الولادة على الفطرة، ولادة إيمانية طبيعية، ودور الآباء والمجتمع في إفساد هذه الفطرة، مما يعني وجود صناعة وهيئة ثانية خارج هذه الطبيعة، حيث تعد بمثابة العملية الهادمة لمقوم الفطرية، والثانية أن الحفاظ على هذه الطبيعة مسؤولية الإنسان، بآلية التركيبية، يقول جودت سعيد: "وليس معناه أن يولد مسلما، فهو يولد مسلما بالاستعداد، أما تحويله إلى مسلم بالفعل، إنما يكون بعملية تركيبة النفس، لأن الإنسان الوليد لو ترك وشأنه منعزلا لما صار مسلما بل جعله مسلما أيضا في حاجة إلى عمل

¹ - سورة الروم، الآية : 30.

² - ابن فارس : مقاييس اللغة، ص 740.

³ - الشريف الجرجاني : التعريفات، ص 141.

⁴ - ابن منظور : لسان العرب، مج 7، ص 125-127.

⁵ - اسماعيل البخاري : صحيح البخاري، ج2، ص 94.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

البيئة والأبوين ومن يقوم مقامهما كما هو مشاهد"¹، فالإنسان حامل لإمكانية المعرفة والصلاح، والقابلية للفساد، وهذه مسؤولية اجتماعية، تتطلب إرادة ووعيا بالمخاطر التي تخرج الإنسان عن فطرته، إذن فمعنى الفطرة: "هو استعداد للميل إلى الحق، وهذا الاستعداد يجعله يختار الحق، حيث تترك له حرية الاختيار، على ألا يلحق هذا الاستعداد تشويه"²، فالفطرة ضياء، تنير طريق الإنسان، ومع الحرية يتمكن من سلوك طريق الحق، "فالنفس الإنسانية منذ تكوينها وتسويتها أهدمت في فطرتها إدراك طريق فحورها وطريق تقواها، وهذا هو الحس الفطري الذي تدرك النفس به الخير من الشر"³، إلا أن هذا الحس الفطري يحتاج إلى تعهد ورعاية، حتى لا تطمس معالم الفطرة.

يقدم لنا الإمام آية نافعة، هي الملاذ الذي تتحصن به النفس لتبقى على الفطرة، قائلا: "وأن أبتدئك بتعليم كتاب الله وتأويله، وشرائع الإسلام وأحكامه، وحلاله وحرامه، ولا أجاوز ذلك إلى غيره، ثم أشفقت أن يلتبس عليك ما اختلف الناس فيه من أهوائهم و آرائهم مثل الذي التبس عليهم"⁴، وتعد هذه الجملة الأخيرة منبهة لخطورة الالتباس المفسد لنور الفطرة في نفس الصبي، ومن ثم تأتي ضرورة صرف الأهواء والآراء عنه، ببناء معالم الحق وصوره في عقله ووجدانه، بالأفكار التذهينية الأولى التي تتمحور حول التوحيد والإيمان، لأن "الفطرة تعني قابلية النفس لتلقي عقيدة التوحيد وحدها"⁵، وهذا ما سيجده الابن في كتاب الله، مما يعني تذهينه بأفكار القرآن، فتعليم الكتاب هو الأساس الذي يحفظ الفطرة من التشوه والملتبس بمدافعة معترضها، يقول الإمام: "ألا وإن الشيطان قد جمع حزيه، واستجلب خيله ورجله، وإن معي لبصيرتي ما لبست على نفسي، ولا لبس علي"⁶، فتلبس الشيطان هو أحد معترضات الطريق التي تفسد الفطرة وتخرج الإنسان من حقيقته، وهو ما يحتاج إلى إزاحة علمية تتأسس على أنوار الحق، وهو الشق الثاني من إشارة الإمام التوجيهية، "وإن معي لبصيرتي" التي منعت عنه أي التباس يقوده إلى الضلال والانحراف، "لأن كل ضال عن الهداية، فإما أن يضل من تلقاء نفسه، أو بإضلال غيره له"⁷، والأمر دقيق يجابه بتحصيل تركيبة حقيقية، تحقق منعة الذات، من أهواء النفس، واجتياال الشياطين، فتأثرها بهذا يخرجها من

¹ - جودت سعيد : حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص 83.

² - المرجع نفسه، ص 84.

³ - النابلسي محمد راتب: مقومات التكليف، ص 95.

⁴ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 363.

⁵ - محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي، ص 117.

⁶ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 38.

⁷ - ابن أبي الحديد: شرح نصح البلاغة، مج 1، ج 01، ص 147.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

الفطرة¹، والأکید أن السياحة في عوالم كتاب الله تمثل بناء إستراتيجية الإنسان الفطرية، بحيث يتم تعريض الذات من البداية لتكون مع الملهمات الإلهية التي تستكمل بأساليب التركيبة المستمرة. ولا يحصل التباس الحقائق في النفوس، إلا بعوامل قوية حين يترك الإنسان لها المجال لتعمل على تدمير مقوماته، فالخروج من الصبغة الإلهية التي جبل عليها تعود برأي الإمام إلى عاملين رئيسين، الشيطان والنفوس الأمارة، فالنفوس الأمارة، هي نفس متمردة على شرائع الحق، تحمل صورة مناقضة لمقوم الفطرية، ومدمرة لتلك الاستعدادات التي تمكن من تقبل الحق، وأما الشيطان فيعمل بوسوسته ليضل الإنسان، لأنه وجد الفرصة متاحة أمامه، لإغراقه في الضلال والتهيه والفساد، يقول الإمام: "الشيطان المضل، والأنفس الأمارة بالسوء، غرتم بالأماني، وفسحت لهم بالمعاصي، ووعدتهم الإظهار، فافتحمت بهم النار"²، لتنهار بعدها الفطرة، ويؤكد النبي ﷺ على الطبيعة الفطرية التي خلق عليها الإنسان، ويثبت دور الشياطين في إفسادهم وتحويلهم إلى الكفر وإبعادهم عن الدين، فيقول: "إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنه أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم"³، على أن تعليق شرط هذا الاجتيال يعود إلى الإنسان الذي يعطي قياده للشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾⁴، فهذان عاملان كفيلا بإبعاد الإنسان عن الحق نهائيا، ومن ثم يصنف الناس إلى متبع للحق مهتد بسنن الفطرة، ومفسد لفطرته متبع للنفوس والشيطان، وهذا عين التباس الحقائق أين يتلاقى هوى النفس وضلال الشيطان على هدمها. ويضعنا الإمام أمام حتمية علمية في وصيته لابنه يمكن من خلالها إدراك أهمية التشكيل الأول في الصغر، وما ينطبع في ذات الولد من صور الأشياء والحقائق والأفكار، أي ما يبقى على سلامة الفطرة، من ذلك الاستعداد الطبيعي الأول، وهو ما يؤكد من وجه آخر أن الالتباس خارجي مقحم على هذه الفطرة، يقول الإمام: "إنما قلب الحدث كالأرض الخالية، ما ألقى فيها من شيء قبلته، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك، ويشغل لبك"⁵، فقلب الحدث دال على الطبيعة الفطرية التي جبل عليها، وهو أرض خالية، صالحة للحراثة، وزراعة فكرة الحق، وفي هذا الشق نجد الإشارة إلى تلك القابلية للتركيبة والتدسية، وأما الشق الثاني فيثبت دور التربية التي تحقق سلامة

¹ - جودت سعيد: المرجع السابق، ص 84.

² - علي بن أبي طالب: نصح البلاغة، ص 473.

³ - الطحاوي أبو جعفر الأزدي : شرح مشكل الآثار، ج 10، تح شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، 1994، ط 1، ص 05.

⁴ - سورة الحجر، الآية 42.

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 362.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

القلب، وثمرته ولادة الإنسان الفطري، إنسان الحق، وعليه "فإن أمراض الوعي لا علاقة لها بالتركيب العضوي للإنسان، لأنها نتائج طبيعية للخلل المعرفي المثبت من خلال التذهين الإنشائي لذاكرة الانفعال القادمة"¹، أوله الإمام في أمرين، قبل قسوة القلب، واشتغال اللب، فالوارد الخارجي من النفس الأمانة بالسوء، والشيطان المضل، والهوى الغالب يبقى دائما مزاحما قويا يقتل إرادة المواجهة.

لقد كان لتأمل إبراهيم الخليل عليه السلام في الكون بحثا عن اطمئنان روحي وفكري أوصله إلى نفي عبودية الأصنام، فأثبت فطرية السماوات والأرض لخالقها، وبذلك حدد وجهته، فالتأمل الكوني وإجالة النظر فيه قد زادته يقينا، وإيمانا راسخا، ولذا فالفطرية كونية، قال تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾²، لأنها إلهية صبغة وطبعها، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾³، فالحمد عبادة واجبة، تتوافق وتفاعل الإنسان مع مشاهدات بدائع الصنع الإلهي، ليكون الحمد في النهاية عبادة كونية جمالية فطرية، دالة على تجاوبه مع الحق، ويذكر الإمام فطرية الخلائق في موضع بيان العظمة الإلهية، فيقول: "فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتد بالصخور ميدان أرضه"⁴، فالخلائق مفطورون بالقدرة الإلهية على طبيعة ثابتة، تتوقف عليها مقاصد كونية مرادة أعلاها الطاعة والعبادة، ولذا يوجه الإمام بيانه إلى الناس محذرا إياهم من النفور من الحق والابتعاد عن أنوار الفطرة، حيث يجعل من الفطرية علامة على الانتماء الإنساني والكوني، فيقول: "لا تنفروا من الحق نفار الصحيح من الأجر، والباري من ذي السقم"⁵، فالنفور من الحق نفور من الطبيعة الفطرية، ونشاز يدخل تحت مظلة الفساد، يبطل تحقق كونية هذا الإنسان وتمائل كونية الفطرة، "فالطهارة الفطرية هي تمكن الناس من الهدى في أصل الجبلية والتهيؤ لقبول الدين"⁶، استجابة طوعية واعية حرة مسؤولة منقادة لأداء التكليف، وعليه فهذه المعرفة هي كونية بالتأمل والنظر وقرآنية بوحى الكتاب لمعرفة الحق، وهذه الرؤية الآفاقية هي ما يترجم إنسانية الإنسان، بوصفه مخلوقا مفطورا على الإيمان، بهذا التلاقي في أصل الطبيعة، ولكي يبقى في هذا الأصل، يحتاج إلى وعي وساند يقيه.

¹ - خالد آغة القلعة : السيرة المفتوحة للنصوص المغلفة، ج3، ص 23.

² - سورة الأنعام، الآية 79.

³ - سورة فاطر، الآية : 01.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 17.

⁵ - المصدر نفسه، ص 198.

⁶ - آيت لمقدم أحمد: "المشترك الإنساني في الرؤية القرآنية"، القرآن الكريم ورؤية العالم، مسارات التفكير والتدبير، ص 365.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

ب/ الفطرة ميثاق إلهي لسواء النفس الإنسانية: لقد ولد الإنسان على الفطرة، وعهد الله إليه موثيقها، أي ما يقيه عليها، لأن وضعه في الحياة تندافعه الأخطار التي تخرجه من إنسانيته، فهو مفتون مبتلى، وحر الإرادة في الاختيار، قد أعطاه الله ﷻ مقومات وموathيق هذا السير التي تحفظ طبيعته من الانسلاخ، وتنميتها في نطاق التعبد، وهي كما أوضحها الآيات تتمثل في:

1- أخذ الزينة وعدم الإسراف، وتمثل دائرة الحلال ووساعة الطيبات من الرزق، هذا الأصل يقيده ضابط يمنعه من الإفساد وما يخرج من الفطرية الجميلة، مثل تحريم الفواحش، والإثم والبغي، والإشراك بالله، والدفع إلى الميثاق الموضح للجمالية، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ¹، ولذا يتعين على الإنسان أن يتحرك في فضاء الحلية باعتدال وجمال.

2- التحذير من الشيطان، وعدم اتخاذه وليا، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِحَهُمَا إِنَّهُ يَرَائِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ²، بجانب واعية تبعده عن كشف سوءته، وليحفظ فطرته.

3- اللباس ووظائفه، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِحَكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ³، تمييز ثلاثي يدل على انتساب إيماني وجمالي، من دون أن يتعري من فطرته.

4- إشهاد الناس بربوبية الله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ⁴، ميثاق أبدي قائم في النفس، "مأخوذ على الإنسان منذ نشأته الأولى"⁵، يسنده دليل الكون ودليل الخبر ورسالة الأنبياء ووعظهم

الناس ليتعهدوه، ويجسده طاعة الإنسان لخالقه، نوضح موثيق هذه الفطرة بهذا المخطط:

¹ - سورة الأعراف، الآية 31، 32، 33.

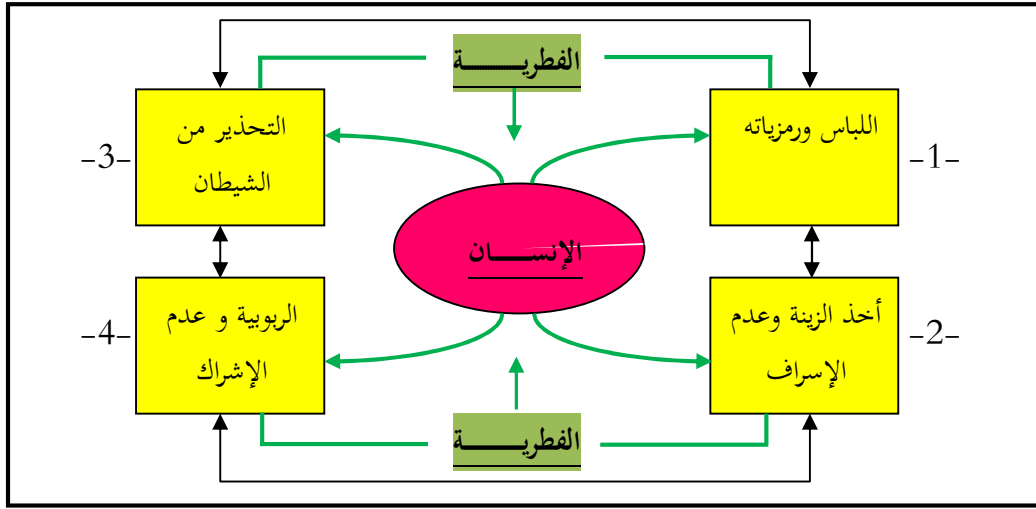
² - سورة الأعراف، الآية 27.

³ - سورة الأعراف، الآية 26.

⁴ - سورة الأعراف، الآية 172، 173.

⁵ - محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي، ص 116.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل



- مخطط يبرز أركان موثيق الفطرة الإنسانية -

يحدد الإمام في كلام له دور الأنبياء عليهم السلام الأساس في حقيقة واحدة، المحافظة على الفطرة وبيان موثيقها، فيقول: "فبعث الله فيهم رسله، وواتر إليهم أنبيائه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم التبليغ، ويشيروا لهم دفائن العقول، ويروهم الآيات المقدره"¹. إن أداء الميثاق والتذكير والتبليغ وإثارة دفائن العقول، وكشف الآيات، يعد تأهيلا يقوده إلى أداء وظيفته التعبدية والاصلاحية، ليبقى الإنسان على الفطرة. إذن فدورهم هو تأكيد "ذلك المركز في العقول، وهذه هي الفطرة"²، ومن ثم فالفطرة هي العلم الدال على المعرفة بالله وتوحيده، فبعثة الأنبياء تحمل رسالة عظيمة، هي رسالة الفطرة والحق، أي "ليطالبوهم بما تقتضيه فطرتهم، وما ينبغي أن تسوقهم إليه غرائزهم"³، وذلك الذي أبرزته الآيات السابقة من تحذيرات مخرجة عن الفطرة، ومهدمة لهذا المقوم الرئيس المؤسس لبناء الإنسان، ومن ثم فمطالبة الأنبياء بالاستجابة لمقتضيات الفطرة، مطالبة متماثلة مع سواء النفس وما ركب فيها من استعداد لتقبل الحق، وعليه فالفطرية هي أساس النفس السوية، والجوهر الذي يضيء الذات، وإن التحريك النبوي من خلال جملة الوظائف الحيوية، هو الذي دفع الإمام إلى إقامة هذا المزج الدقيق بين عالم الفطرة ودفائن العقول، والنظر في الآيات المقدره، لتحقيق هذه التنمية المعرفية التي تسير بالإنسان نحو الأرفع.

إذن لقد ربط الإمام ربطا وظيفيا، بين الوحي والعقل، بحيث "لا يمكن لجوهر الوحي المشاركة والانخراط إلا من خلال العقل من جهة، كما لا يمكن "دفائن" العقل أن تتكشف إلا من خلال

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 23.

² - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 1، ج 1، ص 75.

³ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 23.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

الوحي من جهة أخرى¹، فالإمكانية العجيبة في تفجير المعرفة كامنة في عمق أعماق النفس، وبهذا الجمع بين القلب والعقل والوحي الإلهي تتم إنارة وإثارة النفس الإنسانية، وأما دفائن العقول فهي: "أنوار العرفان التي تكشف للإنسان أسرار الكائنات، وترفعه إلى الإيقان بصانع الموجودات، وقد يحجب هذه الأنوار غيوم من الأوهام وحجب من الخيال، فيأتي النبيون لإثارة تلك المعارف الكامنة، وإبراز تلك الأسرار الباطنة"²، وبهذا تصبح العرفانية فطرية متجلية، ناطقة بالحق، تقود إلى كل كشف، كما تعد تصفية من المفاسد وصور الوهم، "فالوحي النبوي يوقظ أعماق العقل الإنساني ويسرعها"³، لتنمية القوى التأملية، وتحريك الذات، نحو تلك الحيوية المفجرة للمعرفة. وإن عمل الأنبياء عليهم السلام، يعتبر عملا تذهينيا، أو هو عبارة عن تزكية معرفية مغذية للنفوس تعتمد سبيل الإنارة والإثارة، من أجل برجة تتوافق مع الحق، ووصلة استثناء، غايتها إخراج الإنسان من السطحية، ومختلف مزاحمات الفطرة، يقول "سليمان خزاعي": "وما الوحي إلا تخاطر بين نورين في لحظة من بسط العقل"⁴، محاولة لملامسة روح الشريعة في أعماق الذات، بإنارة القلب، وإثارة العقل، في النظام والجهاز الفكري، وصولا إلى النفس السوية بالمحافظة على فطرتها، يقول الإمام: "وكلمة الإخلاص فإنها الفطرة"⁵، أي هي وعاء كلمة الإخلاص، المتماثلة مع الفطرة، لتكون الفطرية في النهاية أسا جوهريا يبني ذات الإنسان ويشيد كماله، وعليه "فلا بد أن يكون لدى البشر على التحقيق نواة من الاستعدادات الفطرية تصبح فيما بعد بتأثير التربية ما ندعوه لدى الراشد العقل التأملي، والضمير الخلقى"⁶، وهذه نقلة إنسانية وكونية، باعتبار أن الإنسان خليفة بالعقل، ومسؤولا بالوعي والحرية، ومكلفا بمراد الكتاب، وبهذا الإدراك اليقظ الذي يعد حتمية لبعث الفطرية في الإنسان مشفوعا بعملية التزكية المستمرة وصولا إلى حالة السواء، ومن تجلياتها سلامة القلب، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾⁷، تتويجا لمسار ما كان محافظة وعملا في الفطرية، وانتهاء هذه الرحلة بالسلامة، فلولا الفطرية لما حصل كمال الإنسان مطلقا.

¹ - رضا شاه كاظمي : العدل والذكر تعريف بروحانية الإمام، ص 52.

² - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 23.

³ - رضا شاه كاظمي : المرجع السابق، ص 51.

⁴ - سليمان خزاعي صالحه : الإنسان والواعي، ص 153.

⁵ - المصدر نفسه، ص 161.

⁶ - أنس شكشك : فلسفة الحياة، ص 11.

⁷ - سورة الشعراء، الآية 89.

رابعاً- الفكرية:

إن الأسس الأولى التي تقيم بناء الذات بناءً قويمًا متكاملًا، تعود إلى التصور الفكري الذي يستند إليه الإنسان في تشكيل مفاهيمه المعرفية، وتستقيم به منظومة الاعتقاد عنده، وما يصبو به خط العمل، وينتهج به سبيل العبودية الأمثل، بمعنى أن الفكر هو الذي يقدم صورة الإنسان عاقلًا مدركًا، وبهذا يكون الفكر خلاصة تكريمه، وهو: "ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول"¹، وهذه من مبدعات العقل وما ينتجه من عمل منهجي، لإدراك الحقائق والأسرار، وبناء المفاهيم والتصورات، وكشفا لكل معنى، وعليه تصبح الفكرة "كائنًا حيويًا له وحدة عضوية"²، وكأن العلاقة بين الفكرة والإنسان علاقة روحية وليدة العقل والنفس، فهذا المقوم هو النور المضيء لظلمة الذات، والقوة في مواجهة الخواء والفراغ والطاقة التي بها يتحقق الأمر الإلهي في خلقه ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يسين:82]، فكان "إنسانًا ذا أذهان" يجليها في الملكوت، "وفكر يتصرف به"، حيث تثمر الفكرية في صناعة رؤية تربط وتكامل بين الإنسان والله والإنسان والكون، بإقامة نظام تعبدية وحياتي.

أ- الفكرية بصيرة الكائن إلى الحق: إن آية تكريم الإنسان هي العقل، مناط التمييز، وجوهر التكليف الذي يخرج من قيد الغريزة إلى الإمكان الإنساني المفتوح على العلم والمعرفة والحرية، ومن ثم فإن عبوديته ستكون عاقلة حرة، وعمله بصيرا، ووجوده استخلافا وعمارة، وإنسانيته تعارفا وتوصلا مع بني جنسه، وتفاعلا مع الكون، وحياته في الدنيا هي فكرة الآخرة، وأن فكرة الإنسان تستدعي ضرورة فكرة الله، ومن ثم فتكامله لا يكون إلا من خلال إيمانه، وإن المترتب عن هذه الخلاصات أن "الإنسان هو صانع قدره"³، بالفكر الذي يقود إلى الحق، والفكرية بهذا هي قدرة على الجمع بين البعد المادي (الأرضي) والبعد الغيبي (السماوي)، يقول الإمام: "فإنما البصير من سمع ففكر، ونظر فأبصر، وانتفع بالعبر، ثم سلك جددا واضحا، يتجنب فيه الصرعة في المهاوي والضلال في المغاوي، ولا يعين على نفسه الغواية بتعسف في حق، أو تحريف في نطق، أو تخوف من صدق"⁴، وعلامة ذلك إخراج التصور الذهني في شكل متجسد عملي، وهذا من تمام كمال الفكرة، موافقتها للحق، وهنا تتقارب وتتداخل مدخلات الفكرة ومخرجاتها لتمنح للإنسان الرؤية المتوازنة البصيرة، رؤية تنطلق من الكون، ومن الكتاب، ومن الوجود، فالبصير بصير بالفكر والرؤية،

1- الشريف الجرجاني : التعريفات، ص 142.

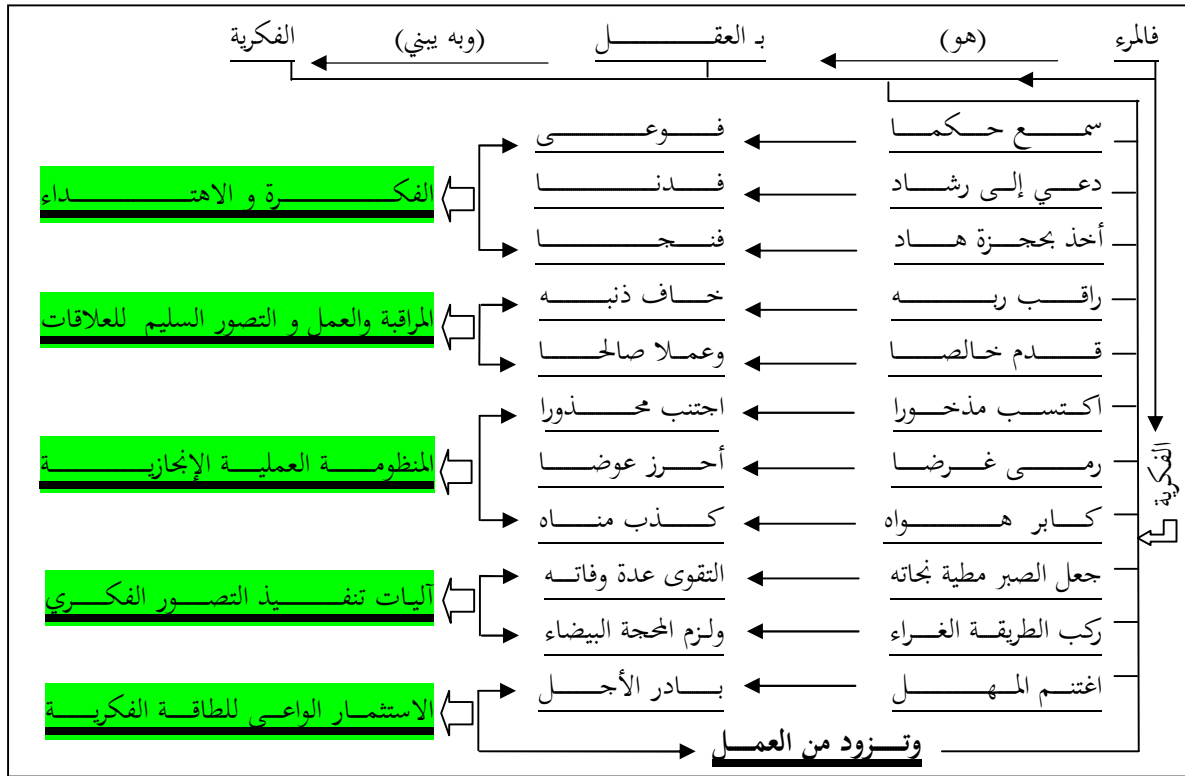
2- بن نبي مالك: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ص 125.

3- محمد عبد الرحمان مرجيا: الفكرانية، ص 265.

4- علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 204.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

وعليه فإن "الفكر، خالصا من المصادرات الفلسفية والإيمانية، هو الدليل الوحيد لاستكشاف السبيل السوي"¹، من كل الخلفيات الفاسدة، الأمر الذي يجعل الرؤية هي إمكان مفتوح على قراءة ذكية واعية تنتهي بهذا الاكتشاف، بعد أن أدرك بفكره الحق فأمثله، فالبصير ينتهج أسلوب وآلية السمع والنظر والنفع. إذن فالفكرية، هي في هذا البصير، قد منحت رؤية كافية، وبالتأول هي العمليات الثلاث، أي قدرة عقلية، وعملية فكرية، هي أساس البنية الذاتية التي تقود إلى امتلاك رؤية الحق، وهي العملية البصيرية، ويظهر هذا المقوم بقيمته في المخارج الأدائية لهذه الفكرية نحو (في) الحق، وهو وجه الفكرة العملي، وما يحقق وصولا آمنا إلى منتهى رحلة الإنسان، مؤسسة على مبدأ التيقظ الحي²، والتصور الفكري الذي يحدد علاقته بالله وفق رؤية فكرية تستتبع بعمل وتنفيذ، ولذا فالكامل هو من امتلك أس مقوم الفكرية، وهذا بيانها من خلال هذا الشكل:



- مخطط يمثل العملية الفكرية ومخرجاتها -

لقد اعتبر الإمام في حكمة له أن التفكير، هو عين العلم، حيث يقول: "ولا علم كالتفكير"³، بتلك الإجابة الحية لقوى العقل لتبحر في الملكوت تحصيلا للمعرفة، وتقوية للإيمان، وسياحة كونية، وأداة قراءة لعلاماته، وطريقة لمعرفة الله، فمبنى الفكرية، أنها مقوم يتأسس على قاعدة

¹ - القنطار كمال : فكر المعري، ملامح جدلية، دار الفارابي، بيروت، 2014، ط1، ص 151.

² - ينظر علي بن أبي طالب : نخب البلاغة، ص 97.

³ - المصدر نفسه، ص 447.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

التفكر في الآيات الناطقة، القائدة إلى الحق، "فالإنسان لا يعرف حياته ما لم يكتشف مداها من خلال تجربة فكرية خصبة يجد فيها تنمة ذاته، وترد إليه طمأنينة نفسه"¹، ومن هنا فإن عملية التفكير تقف مقابلا لكل حياة سطحية، لذا تكون الحياة بالكشف، هي التجربة الفكرية الخصبة، تنعكس عمليا في تنمة الذات وطمأنينة النفس، حيث يعد هذا امتلاء بالفكرة في مقابل الخواء، كما تقيم الكائن في الحياة [= بالفكرة]، لأن "أفكارنا هي عالمنا الحقيقي الذي يتضمن ذواتنا"²، وهي التي تمد الإنسان برؤية أفاقية وازنة، ومعرفة توصل إلى الحق بعلو الهمة، وتمنحه قدرة على التصور الصائب والنظرة الحكيمة، لذا كان تأكيد الإمام على أهمية الأخذ بمنبهات الوعي، وترشيد الطريق بمصايح الفكر، وهي التي تكون "بكثرة أفكاره الصائبة"³، كبصيرة قائدة إلى معرفة طريق الحق.

ب- الفكرية يقظة تمييز واهتداء: إن الهدف من وراء هذه الفكرية أن تزداد الذات يقظة ووعيا، وتفتح رؤية الإنسان بشكل واضح، رؤية تجعله قادرا على التمييز بين الحق والباطل، والهدى والهوى، لترتقي الذات بقوة المعرفة، وهو ما يضعها على أعتاب رؤية وازنة أمام المطلقات (الله، الكون، الحق...)، ونبدأ مع الإمام بفكرة المحاسبة، أو تمحيص الفكرة بالعمل⁴، لأن المحاسبة ميزان، عندما توضع الفكرة بعد التنفيذ أمام النظر والمراقبة لمعرفة مدى تطابقها مع الحق، وتلزم هذه المحاسبة الإنسان، لأنه واقع تحت نظر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِلْمُهُ، نؤول هذه المقولة بهذا التحليل:

المترببات	الآلية	قراءة استنتاجية	العلامة	تأويل وتمحيص	الجملة
إن هذه المتربات نراها أخذة برقاب بعضها البعض، مرتبطة ارتباطا معلولا، تكشف عن خضوع الفكرة للتمحيص بآليات نوعية.	<u>الاعتبار</u>	- أهمية الفكرة في تحقيق اليقظة والوعي.	نتج	= ريسح	1 من حاسب نفسه
			نتج	= خسر	2 من غفل عنها
	<u>المراقبة</u>	- إن الفكرة هي تمحيص ومراقبة ومحاسبة بغية الوصول إلى الاهتداء الحقيقي.	نتج	= أمن	3 و من خاف
			تدقيق	= بصير	4 من اعتبر
	تدقيق		= فهم	5 من أبصر	
	تدقيق		= علم	6 من فهم	
	<u>العلم</u>				

إن المحاسبة يقظة، واليقظة خوف، والخوف أمن، وهي ربح ثمرة هذا الجهد، يقول ابن أبي الحديد: "من اعتبر تنور قلبه بنور الله تعالى، ومن تنور قلبه عقل المقدمات البرهانية، ومن عقل المقدمات البرهانية علم النتيجة الواجبة عنها؛ وتلك هي الثمرة الشريفة التي في مثلها يتنافس

¹ - عبد الرحمان مرجيا : الفكر العربي في مخاضه الكبير أضواء من "السيكوسوسيوديناميا"، ص 200.

² - المرجع نفسه، ص 315.

³ - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 97.

⁴ - ينظر علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 461.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

المتنافسون¹، فهذه المحاسبة تحتاج إلى آليات وطرائق إلهامية تنفيذية وإدراكية؛ بمعنى أنها عمل واع إرادي، وإن في توجيه الإمام إلى مغالبة الهوى نقيض الفكرية، إنما يعني أن تلك المكابرة، هي التي تبقى همة الإنسان عالية، وبهذا فهي صقل متواصل تتجدد به هذه الفكرية، لأنها روح قرآني يستخلص منها استمرار الوعي الإنساني، وتجاوز معيقات الكمال، يقول الإمام: "رحم الله امرأ رأى حقاً فأعان عليه، أو رأى جوراً فرده، وكان عوناً بالحق على صاحبه"²، وبالتأول لهذه القيم تصبح الفكرية رؤية هادية، وآلية الرؤية هي الوعي المصاحب للإنسان الكامل الذي يعين على الحق، ويرد كل جور، وهي أساس لبناء مقوم الفكرية، حيث يكون الاهتداء إلى مواطن الحق وتجسيد فكرته، وبهذا فإن تحريك الحدث الواقعي يتم بأدوات منهجية، وهي: أولاً: الرؤية، وهذا بتفعيل أجهزة الوعي، وثانياً: الفكرية، وهي طاقة عقل ضرورية، وثالثاً: انفتاح الفعل على الزمن، ورابعاً: تجاوز الوضعية المرتقنة، الأكلة لروح الإنسان وطاقاته، والمربكة للذات، وخامساً: الإنجاز وتجديد الإرادة في الإنسان، ليصبح الزمن [= الوجود] فعلاً وأداءً حياً راقياً، وسادساً: إعادة تصحيح المسار التكويني/الذاتي/المجتمعي، بوضعية فكرية جديدة منتجة، ويتحقق هذا الأمر في مجال الذات التي تتحرك في نطاق الوعي [= الانتباه]، حيث تدفعها رؤية الحق، إلى تجاوز لحظة الغفلة، عندما تكون الفكرية هي الطاقة الدافعة، لأن "الأفكار قوة وشحنات من القوة"³، لتحقيق اليقظة الواعية المسؤولة، يقول الإمام: "وكونوا قوماً صريحاً بهم فانتبهوا"⁴، انتباه هو الوعي الفكري بقياسه:

النسبة	القياس	الحالة	الفكرية
+	فاصل عالي الشدة	الانتباه واليقظة	فكرة يقظة وتجسد
-	فاصل واطئ الشدة	ضعف الانتباه والغفلة	فكرة نوم وانتهاء

إن اليقظة المتوجبة في الإنسان، هي الانتباه النوعي، وإن مخرجاتها الفكرية هي مخالفة الهوى، وإتباع نور الهدى دفعا لتفلت الذات المتبعة للأهواء، آخذة من مشكاة الوحي، لترتفع عن العقل بمعايره الوضعية⁵، لأنها رشد، عطف وازن هدفه منح الفكرية بصيرة تنتج رؤية، وتثمر يقظة وعملاً:

¹ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج5، ج9، ص 12.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 300.

³ - عبد الرحمان مرجبا : المرجع السابق، ص 287.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 360، 361.

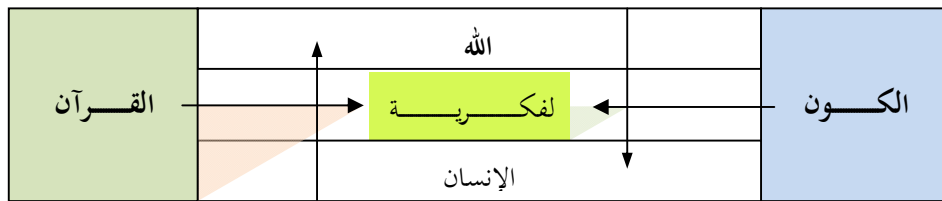
⁵ - ينظر المصدر نفسه، ص 190، 191.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

التقييم	الوصف	الطبيعة	المصدر	الحكم	عاطف(2)	عاطف(1)	
كمال فكرية	نور	ثنائي: الله / الإنسان	إلهي	صحيحة	المهدى	المهوى	1
نقص ونزول في الفكرية	ضلال	فردى / ذاتي	دنيوي	باطلة	المهوى	المهدى	2
كمال فكرية	نور	ثنائي: الله / الإنسان	إلهي	صحيح	القرآن	الرأي	3
نقص ونزول في الفكرية	ضلال	فردى / ذاتي	دنيوي	باطل	الرأي	القرآن	4

إن إخضاع أهواء الإنسان إلى عملية ترشيد عقلي وازن تتم بموازنة الهوى بالمهدى، وإن إخضاع الرأي للقرآن، وعطف الرأي على القرآن، يمثل إنارة لرأي الإنسان ليتوافق مع الحق، وبذلك يصبح الهدى ضابطاً لرأيه وهواه، أي أن الفكرية بالقرآن هي ما يضيء رأي الإنسان، ويحول الهوى إلى هدى، تمثل حالة رشد العقل، وهي عين الفكرية ويقظة التمييز والهداية انطلاقاً من مصادر الإضاءة الفاعلة في بناء الإنسان، بما تمنحه من رؤية تمييزية، "لأن الحق واحد"¹، بينما الضلال تشتت، وهو أقرب إلى الانعكاس المباشر لمعنى ظاهر الدنيا، فالإنسان إنما هو "قيمة فكرية"²، وهي معيار التمييز بين فكرة الحق والباطل، تقييم علاقة فاعلة بين الإنسان والله، والإنسان والكون.

ج/ مصادر الرؤية الفكرية: يمكننا أن نسأل: ما هو الفارق بين فكر وفكر، بل بين فكرية في إنسان واحد، وفكرية عند باقي الناس؟! ولماذا نجد أس فكرية في إنسان (أ) دالة على الإيمان وفي إنسان (ب) دالة على الكفر؟! إن الأمر يقودنا إلى معرفة المصادر التي تتأسس عليها الفكرية وتستقي منها قوتها، وما يحقق تميزها، ويجعل هذا بفكر إيماني، والآخر بفكر كافر، إن الأمر يعود إلى تشكيل النسق الوظيفي الذي تنتج عنه الفكرية برؤية جامعة بمتعينات العلاقة، وهذا توضيحها:



I- القرآن: إن القرآن كتاب إلهي مسطور جامع لحقائق الإيمان، والدنيا والآخرة، كتاب تعريف بالخالق ﷻ، وهو طاقة وقوة معرفية، بينما الإنسان هو الكتاب الأصغر، القابل للترقي بالمعرفة، والقادر على القراءة، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾³، فهذا الدفع الإلهي بالقراءة هدفه طلب معرفة الحق، في حركة ذاتية فاعلة، فالإنسان "مخلوق غائي هادف قادر عبر الخلق والعلم على أن يتحرك

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 458.

² - محمد عبد الرحمان مرحبا : الفكر العربي في مخاضه الكبير، ص 292.

³ - سورة العلق، الآيات [1-5].

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

نحو الأعلى¹، تحرك أداته الفكر الحي، ويوجه الإمام العقول إلى الاستعانة بمصادر حية في تشكيل عالم فكري وازن، فيقول: "فلا تستعملوا الرأي في ما لا يدرك قعره البصر، ولا تتغلغل إليه الفكر"²، نهي مرده أن من الحقائق ما يحتاج إلى مصادر كشفية وأدوات أخرى، هي القرآن، فيقول: "فكونوا من حرثه وأتباعه، واستدلوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آراءكم، واستغشوا فيه أهواءكم"³، وهذا بالغرف من معارفه وعلومه في عوالمه، وتصويب الفكر وتوجيهه وبناءه على أسس سليمة صحيحة فاعلة، تتحقق معها الإضاءة الفكرية ونورها الهادي، وبالتأول فإن هذا يعد ترشيدها حيا ضابطا لها، وبهذه المعرفة القرآنية يمتلك الإنسان فكرية تفك الغوامض، وتفتح المجاهيل.

ويبرز الإمام هذه الفاعلية الكبرى للقرآن، وهذا بقيد هام، الإبحار في عوالمه، قال تعالى في شأن آياته: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾⁴، فهي لأهل العقل، طاقة إمداد وحيوية وإثمار يبرزه قوله: "فاستشفوه من أدائكم، واستعينوا به على لأوائكم، فإن فيه شفاء من أكبر الداء، وهو الكفر^(أ) والنفاق^(ب) والغي^(ج) والضلال^(د)، فاسألوا الله به، وتوجهوا إليه بحبه^(هـ)، ولا تسألوا به خلقه، إنه ما توجه العباد إلى الله بمثله"⁵، فالفاعلية الفكرية الآخذة من نبع القرآن، هي طاقة حية، تظهر ثمار هذا المزج والتلاقح عندما يعرض العقل على القرآن، وما يحققه من "سعادة الدنيا والآخرة بإتباعه"⁶، ولذا فكلام الإمام يحمل بعدين الأول ذاتي إنساني تقويمي بنائي، قد حدده في معالجة أدواء الإنسان، ومواجهة الشدائد، متمثلة في: [= الكفر، النفاق، الغي، الضلال]، وهي أمراض تصرفه عن معرفة الحق، وتفسد رؤيته في إقامة علاقات ضرورية، والثاني علائقي ثنائي يقصد به وسيلة التوجه إلى الله، فهو المحدد لرؤية الإنسان، في علاقته بربه، وإن هذه الأمراض المعنوية لا يزال كلالها إلا بالقرآن، أي بالفكرية المستضيئة به، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾⁷، وفي المحصلة النهائية فإن القرآن يصبح مصدر جلاء للفكرية إضاءة وتوجيهها، ومصدرها الأول الفاعل في تغيير حياة الإنسان، ونقله إلى بعده الآفاقي الإيماني، ولذا يحدد الإمام أدواره الفكرية⁸، ملخصة في:

¹ - الطاهر ناجي بن الحاج: "ملاحم رؤية القرآن الكونية في أول ما نزل من الذكر الحكيم" القرآن الكريم ورؤية العالم مسارات التفكير والتدبير، ص 44.

² - علي بن أبي طالب: نصح البلاغة، ص 118.

³ - المصدر نفسه، ص 239.

⁴ - سورة العنكبوت، الآية 43.

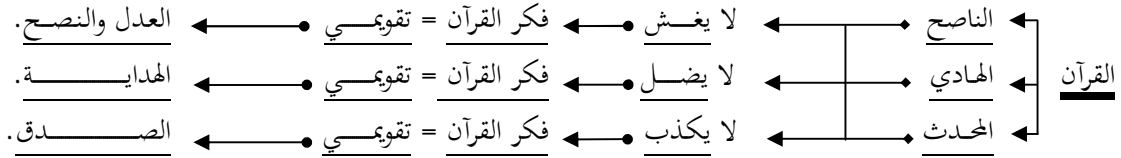
⁵ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 239.

⁶ - محمد عبده: شرح نصح البلاغة، ص 239.

⁷ - سورة الإسراء، الآية 82.

⁸ - ينظر علي بن أبي طالب: نصح البلاغة، ص 239.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل



إن هذه التغذية القرآنية بمجالسته في مآدبات فكرية معرفية متجددة، يحقق للإنسان كامل الإمكان التعريفي أنه إنسان القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ﴾¹، يظهره بفكر متميز، وكمال رفيع وهداية، يقول الإمام: "بهم علم الكتاب، وبه علموا، وبهم قام الكتاب، وبه قاموا"²، يحيل على قراءة كونية فائقة، ويجلي علاقة ثنائية بين وحي القرآن ومستقبل وحيه.

II- الكون: إن الكون، كتاب مفتوح آفاقي صامت، ونقطة عمياء تحتاج إلى إضاءة، وكتاب دال على خالقه، وينقلنا الإمام إلى إشراق كوني عبر فكرات كونية، ويضع أمامنا أن الكون هو أحد أكبر محطات إشراق الفكرية في عقل المتأمل الكوني، مع تنويعات هادفة ذات تنمية معرفية، وهي:

التأويل	الدال النصي	الفكرية
تعريفية هدفها أن تطبع فكرة الطاعة في ذات الإنسان، ليصبح جزءا متجانسا من مكونات منفعة طاعة، وفق نظام سنني ونسق منتظم.	"ألا وإن الأرض التي تحملكم، والسماء التي تظلكم، مطيعتان لربكم"، ص 193.	<u>فكرية كونية</u> <u>الطاعة</u>
درس عملي من الملائكة يبني على فكرة قائمة في الكون: عبادة المخلوقات وهيامها في الملكوت.	"زجل المسبحين منهم في حظائر القدس"، ص 128	<u>فكرية كونية</u> <u>التسبيح</u>
إقرار يجعل الكون بعناصره دال على انقطاع وتساق مع الأمر والإرادة الإلهية بتقديراتها، مأخوذة بفكرة الربوبية، وهي كونية مطلقة، لا ينبغي أن يشذ عنها الإنسان، وهو العاقل المكرم.	"ولولا إقرارهن له بالربوبية وإذعانهن له بالطواعية لما جعلهن موضعا لعرشه، ولا مسكنا لملائكته، ولا مصعدا للكلم الطيب والعمل الصالح من خلقه"، ص 247.	<u>فكرية كونية</u> <u>الربوبية</u>
يؤدي طول الطاعة بالعلم إلى تعظيم الله، وهي ري عطش من هذه الكأس الإلهية، فالمعرفة فكرية كونية جامعة، تغرف منها كل المخلوقات.	"قد ذاقوا حلاوة معرفته، وشربوا بالكأس الروية من محبته ... يزدادون على طول الطاعة برهم علما، وتزداد عزة رهم في قلوبهم عظما"، ص 129-131.	<u>فكرية كونية</u> <u>العلم و المعرفة</u>
إن الفكرية كونية دالة، يستخلص منها درس الفطرة والانقطاع الكوني الذي ينشط المحفزات الإنسانية للحفاظ على سلامة الفطرة.	"ولو ضريت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته، ما دلتك الدلالة إلا على أن فاطر النملة هو فاطر النحلة"، ص 256	<u>فكرية كونية</u> <u>الفطرة</u>
إن قراءة واعية لعلامات الوجود تنتهي إلى استثمار فاعل هو المحدد لفكرية التوحيد والعبودية.	"بل ظهر للعقول بما أرانا من علامات التدبير المتقن، والقضاء المبرم"، ص 247، ويقول: "وعجبت لمن شك في الله، وهو يرى خلق الله"، ص 449.	<u>فكرية كونية</u> <u>التجلي الإلهي</u>

¹ - سورة الإسراء، الآية 09.

² - ينظر علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 499.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

<p>إن التأمل الكوني يدفع الإنسان إلى تعظيم الخالق، وهي فكرة تعضد علاقة الإنسان بربه، وهذا ما يعد من تجليات روح هذه الفكرية الكونية، الآخذة من هذا النبع.</p>	<p>" فانظر إلى الشمس والقمر، والنبات والشجر، والماء والحجر، واختلاف هذا الليل والنهار، وتفجر هذه البحار، وكثرة هذه الجبال، وطول هذه الضلال، وتفرق هذه اللغات، والألسن المختلفات، فالويل لمن جحد المقدر، وأنكر المدبر"، ص 256.</p>	<p>فكرية كونية التعظيم</p>
--	---	--------------------------------

وبهذا تمنح مصادر الفكرية المستمدة من القرآن والكون لفكرة الإنسان ألقا وتميزا وصحة وصلاحية، وبالقراءة الواعية يدرك أن "القرآن تفسير الكون والحياة"¹، وهذه هي الرؤية الفكرية الراشدة التي تبث على تجليات الحضور الإنساني عملا وأداء واستقامة على منهج الحق.

خامسا- التوازنية :

يقول "ابن فارس": "الواو والزاء والنون: بناء يدل على تعديل واستقامة..، ويقال: قام ميزان النهار، إذا انتصف النهار، وهذا يوازن ذلك، أي هو محاذيه. ووزين الرأي: معتدله. وهو راجح الوزن، إذا نسبوه إلى رجاحة الرأي وشدة العقل"²، فهذه الاستقامة هي اعتدال القوة في الإنسان، وميزان يوجه الطاقة نحو الأصوب، والفعل نحو الرشد، ومثل هذه الإرادة تتطلب قوة ترجيح وازنة، ولقد وصف القرآن الإنسان بطبائع سالبة، تستدعي تسوية تركيبته ذات الإلهام الثنائي، حيث أسند إليه توجيه نفسه بالتزكية، إضافة إلى حيوية تركيب مكوناته وطاقاته الفاعلة، بمعنى أن هذه التكوينية تحتاج إلى ضبط دقيق بميزان عادل ونام، نصطلح عليه بالتوازنية. إذن فكيف يمكنه الإبقاء على توازنه، ولجسده حيا عاملا؟! وكيف يحافظ على طاقة العقل ورشده، متطلعا متألقا بتدفق عال؟!!

أ- التوازن؛ توازنية طاقات الإنسان: يقول الإمام: "هلك امرؤ لم يعرف قدره"³، هلاك بجعله لقيمته الإنسانية، وتقدير ذاته، الدافع إلى تقدير الله، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾⁴، وهو ما يحتاج إلى قوة إرادة وصدق في الإنسانية، يقول الإمام: "قدر الرجل على قدر همته وصدقه على قدر مروءته"⁵، يعد عملا في صميم التوازنية بجهد يبذل لاكتساب الهيئة الكمالية، وبذلك يكون في نظر الناس [= مقدرًا].

¹ - فريد الأنصاري: مفاتيح النور، ص 204.

² - ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ص 954.

³ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 455.

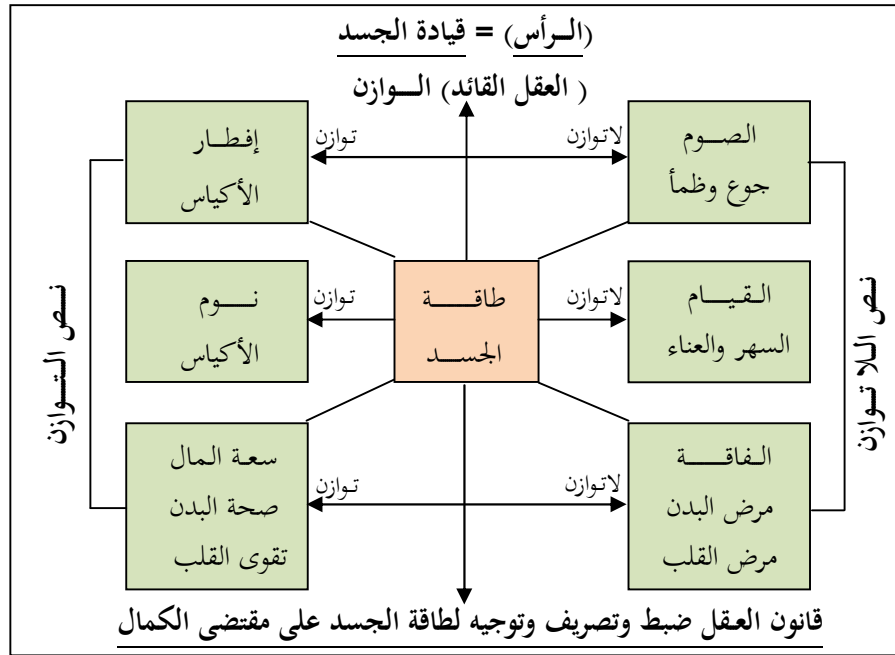
⁴ - سورة الحج الآية، الآية 72.

⁵ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 438.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

1- قراءة طاقة الجسد، أمثلة دالة وتأويل: يطرح الإمام جملة من الأحوال الدالة على وضعية الطاقة السلبية للجسد، تدل على انعدام التوازن في هذه القوة الحيوية في الإنسان: "كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظمأ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر والعناء، حبذا نوم الأكياس وإفطارهم". ص 452، وقوله: "ألا وإن من البلاء الفاقه، وأشد من الفاقه مرض البدن، وأشد من مرض البدن مرض القلب، ألا وإن من النعم سعة المال، وأفضل من سعة المال صحة البدن، وأفضل من صحة البدن تقوى القلب". ص 493، "إن أخسر الناس صفقة، وأخيبهم سعيًا، رجل أخلق بدنه في طلب ماله، ولم تساعده المقادير على إرادته، فخرج من الدنيا بحسرتة، وقدم على الآخرة بتبعته". ص 499.

ضابط توازنية الجسد: يجسده قول الإمام: "لا خير في جسد لا رأس معه" ص 441.



- مخطط كاشف لآثار توازن الطاقة في الجسد وانعدامها -

ولذا يتطلب الأمر فكرياً دافعاً يصل بالإنسان إلى فقه دوره في شكل متوازن، ألمح إليه الإمام بضرورة تمتع هذا الجسد برأس، أي عقل قيادة، ودفعه إلى تنشيط ذكي مقصدي، فيقول: "وخذوا من أجسادكم فجودوا بها على أنفسكم، ولا تبخلوا بها عنها"¹، جسد بقيادة وروح متطلعة، يقول "ابن عربي": "كل جسد لا ينتج همة فعالة، لا يعول عليه"²، فالجسد وعي وعقل وإدارة، أي طاقة إيجابية إذا كانت تحت قيادة العقل، ونلاحظ حالة اللاتوازن التي تصيب الجسد، فيبدأ في خسران مقوماته الحيوية، فتتآكل طاقاته عند الهم، يقول الإمام: "الهم نصف الهرم"³. إن الهم عبارة عن مشاكل نفسية عاملة في داخل الذات، بمخرجات جسدية عاصفة، يكافئ نصف الهرم، وعليه فالجسد الذي فقد طاقته الحيوية، جسد فاقد لوظيفته وفعالته، فهو الجسد، يماثل هرم العقل وهرم

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 253.

² - ابن عربي محي الدين: رسالة الذي لا يعول عليه، دار الكرامة، 2018، ص 69.

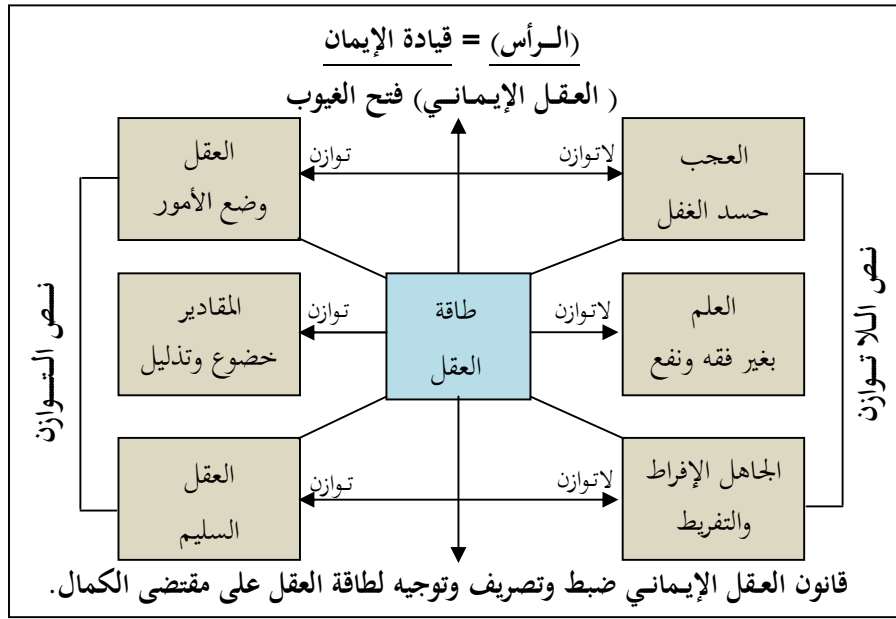
³ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 452.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

الروح، وهذا معناه **فقدان التوازنية**، ولذا "فالكبير الهمة من لا يرضى بالمهم الحيوانية، ولا يقنع لنفسه أن يكون عند رعاية بطنه وفرجه، بل يجتهد في معرفة صانع العمل ومصنوعاته، وفي اكتساب المكارم الشرعية ليكون من خلفاء الله وأوليائه في الدنيا ومجاور ربه في الآخرة"¹، فالإرادة والقيمة الذاتية مع مجموع الصفات الحسنة [= المروءة] يعطي اعتدال النفس، توازن يمنحها جمالية وحضوراً، بتأهيل عملي إجرائي ووظيفي، من أجل أداء أرقى وأكمل، لإقامة الحق ولتعلم القوى في اتجاه واحد، مجتمعة داعمة لهذه الغاية، توازن* لا يدفع إلى تغول الجسد، ولا يجعل العقل يشطط، ويخلو من الرشد، ولا يترك الروح تكبر وحدها فيما يشبه الرهبانية، أو الزهد غير المعتدل، أو الروحانية المنححة.

2- **قراءة طاقة العقل**، أمثلة دالة وتأويل: إن انعدام البصيرة في العقل يجعل منه قوة سلب دالة على غياب التوازنية، أو هي قائدة إلى ذلك، ومن صور تناقضه وتوقيفه ما تجليه هذه الدوال: "تدل الأمور للمقادير، حتى يكون الختف في التدبير". ص 432، "رب عالم قد قتله جهله، وعلمه معه لا ينفعه". ص 446، "لا ترى الجاهل إلا مفرطاً أو مفرطاً". ص 439، "عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله". ص 463، "العاقل: هو الذي يضع الشيء مواضعه، و عن الجاهل: قال : قد فعلت". ص 465.

ضابط توازنية العقل: يجسده قوله: "شهد على ذلك **العقل** إذا خرج من أسر الهوى، وسلم من علائق الدنيا"، ص 337.



—مخطط كاشف لآثار توازن الطاقة في العقل وانعدامها—

¹ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج 09 ج 18، ص 86.

* - شهد تاريخ البشرية نماذج من حالات اللاتوازن الكثيرة، فهناك من تمتع بطاقة جسدية كبيرة مع ضعف عقلي وروحي فكان بطشاً على غيره وحرباً على الحياة، لذا كان الوصف العادل والوازن للذات في حالة تجسد مثالي من طالوت، فقد أعطي العلم في إشارة للعقل والروح فكانت له القيادة، وشهدت البشرية أحوال عباد وزهاد بروحانية عالية، وقد عبث بهم الشيطان والأهواء، وكذلك من تمتع بعقل كبير لم يسعفه في تحقيق نهايات مريحة وأحوال سعيدة، وكشف هذا يسير بالتأمل في أحوال الناس واستقراء أخبار التاريخ.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

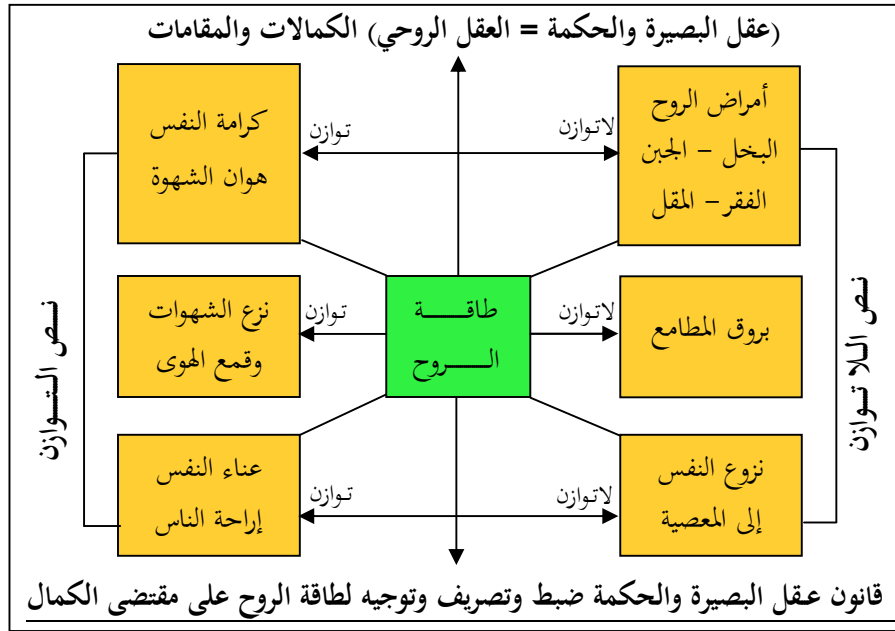
يقول الإمام: "التوحد نصف العقل"¹، فهذا العقل الذي يكون طاقة وقوة نامية أخذ هذا الألق من طاقة النفس الحية من هذه الكيمياء [= المحبة]، إنه النماء المحصل لتوازن/حياتي ينعكس على الروح والجسد، حيث ينشط الجسد بالود، ويتحرك إلى فعل الخيرات، وتنبسط الروح وترقى بالمحبة، وقد صفت من معكرات نفسية (الحقد، الحسد، البخل)، ولذا فتجاوز الهم يتخذ آلية التوحد، لأنه "يشيب القلب، ويعقم العقل"²، بينما يمنح التوحد التوقد، ويشمر في بناء حياة متوازنة.

3- قراءة طاقة الروح، أمثلة دالة وتأويل: تشكل الأمراض الروحية في الذات نظاما فكريا دالا على اضطراب الأحوال النفسية، ونقصان الأبنية الذاتية التي تقيم الروح الإنسانية، وبالمقابل فإن تركية النفس ينتج عنها ميلاد حقيقة النفس المطمئنة المسواة التي تمثل حالة التوازنية، بعروجها إلى تلك الروحية النادرة: "البخل عار، والجبن منقصة، والفقر يخرس الفطن عن حجته، والمقل غريب في بلده". ص 430، "من كرمت عليه نفسه، هانت عليه شهوته". ص 501، "أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع". ص 463، "فرحم الله رجلا نزع عن شهوته، وقمع عن هوى نفسه"، ص 238، "نفسه منه في عناء، أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه". ص 286، "فإن هذه النفس أبعد شيء منزعا، وإنما لا تزال تنزع إلى معصية". ص 238.

ضابط توازنية الروح: يجسده قوله: "قلوبهم في الجنان، وأجسادهم في العمل"، ص 283، وتقلب أبدانهم بين

(الرأس) = قيادة الروح

ظهراني أهل الآخرة"، ص 327.



- مخطط كاشف لآثار توازن الطاقة في الروح وانعدامها -

إن ترويض النفس، ترويض ذاتيا، نفسه منه في عناء، وترويض مع الآخر، إراحة الناس، وترويضاً أخروياً، إتباع النفس بالعبادة، تحقق الحالة الروحية بمشاركة طاقة العقل والجسد، في سعي لتحصيل مقوم التوازنية، القائد إلى إقامة الحق، يقول الإمام: "لا يقيم أمر الله سبحانه إلا من لا

¹ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 452.

² - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 9، ج 18، ص 158.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

بصانع، ولا يضارع، ولا يتبع المطامع"¹، ويتطلب توازن واعتدال القوى الذاتية، متمثلة في صفاء النفس، وإجمام مطامعها بالعقل النير، وعمل الصالحات، حتى لا يضيع الحق. إن التوازن هو وعي بالحالة الجسدية ومتطلباتها، والنفس ونوازعها، والعقل وقواه، ومن حيث المبدأ يطرح هذا توازنا أمام حتمية الصراع، وانطلاقا من هذه التعارضات القائمة في المركب الإنساني والمزاحمات الخارجية، ينبغي عليه إدارة الذات وضبط هذا الصراع على إيقاع الحق وسننه، بحكمة موجهة وضابطة، لإقامة كيان الإنسان على مقتضى الكمال، وتحقيق معادلة الوجود وتأهيل الإنسان كونيا، ليتجانس معه بقانون الطاعة، وتجنب أحوال الفساد، والمحافظة على القيمة الإنسانية والفطرية والفكرية للذات، لتتحرك عموديا إلى العبادة، وأفقيا إلى الخيرية، وعمقا [= صبغة] إلى الجمالية، وحركة إلى العمارة والتعارف نحو الإنسانية، وتفجير طاقات الإبداع لديه، لأن "التوازن هو الفاعل الأكبر في الاستمرار"². إذن فمقوم التوازنية يمثل سيرا كماليا بعقل الجسد، والعقل الإيماني وعقل البصيرة والحكمة.

ب- التوازنية عروج الطاقة نحو الأكملة: إن مقوم التوازنية يعني عروج الطاقة في الإنسان إلى الأرفع والأكمل، بعد التخلص من الجاذب الأرضي، واكتساب قدرة الصعود إلى الحالة الروحية، بفعل هذه السوية والتفاعل مع منزل الوحي، في رحلة مكاشفة تظهر قوة الفكرة والطاقة في ذات الإنسان، مع حضور نوعي جمالي وحرية عالية، يقول الإمام في وصف الربانيين، "وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه"³، فقد تحقق لهم تفاعل هذه الطاقات الثلاث، فمنحتهم عروجا بأداة العلم، وفقه حقيقة الدنيا، والارتباط الروحي بالآخرة، وهذا تجسيد بين لفكرة التوازنية، مصاحبة الدنيا بالأبدان وتعلق الأرواح بالمحل الأعلى، وفكرة استخلاف تجمع الدنيا والآخرة، ورأسها القائد، عقل البصيرة والحكمة على مقتضى الكمال. إن علاقة البدن بالروح هي علاقة فكرية تمثل عروجا خاصا، وتجسيدا رفيعا، ومزجا رائعا بين الدنيا والآخرة، بمقياس "قلوبهم في الجنان، وأجسادهم في العمل"⁴، حيث يكون الجسد في العمل بمخرجات الطاقة والفكرة، والقلب في الجنان عروجا روحيا يصل إلى السياحة في الجنة فكرة ورمزا ومخيالا، متحققا بطاقة الجسد في العمل وترجمة عملية لفكرة العقل، وأما طاقة الروح فقد أوضحته تلك الوضعيات المتنامية المثمرة: وصحبوا الدنيا⁽¹⁾ بأبدان⁽²⁾ أرواحها⁽³⁾ معلقة بالمحل الأعلى⁽⁴⁾، مجسدة

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 446.

² - خالد آغة القلعة : السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة، ج 01، ص 79.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 454، 455.

⁴ - المصدر نفسه، ص 455.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

ثمرة كل هذا، بتلك التوازنية الأرقى، يؤكد الإمام بقوله: "لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل"¹، ويعني هذا تصور الآخرة بطاقة العمل، المكافئ الحيوي لتفعيل الطاقات، "يرقى برقيها كلما زاد التوازن وضبط التعادل وفق معايير عقلية ومتطلبات روحية مستقيمة وحدود للحاجات الجسدية النافعة.. ويتدنى بانتكاسها عند اختلال التوازن وارتخاء التعادل لغلبة جانب على آخر عند مخالفة المعايير العقلية وتجاهل المتطلبات الروحية وتجاوز حدود الحاجات الجسدية"²، وبهذه الكيفية تتشكل هوية الإنسان بمقوم التوازنية، فكلما زاد تحققه بالتوازن، ازداد كماله، يقول الإمام: "قد أضاء الصبح لذي عينين"³، وهذه الرؤية جامعة تحقق العروج الإنساني الروحي، وفق ثلاثة رؤى:

أولها: رؤية الواقع، يمثلها الحدث والقصص بعبرته وطاقته التوجيهية نحو الحق، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾⁴، فتكوينية الواقع تحقق توازنية، بما تمنحه من رؤية ومعرفة. ثانيها: رؤية البصيرة، وتعني خروج الإنسان من العوارض والمعيقات، وموافقته للحق بنور البصيرة. ثالثها: رؤية الحق، تظهر جلية في هذا الكون بآياته الدالة، وفي الكتاب [= القرآن] الذي يعرف بالحق، بإلهاماته النورانية، حيث يدفع إلى تحصيل حالة التوازن والتعادل.

وإن ذكر المعاد الذي ينتهي إليه الإنسان سيكون الترجمة الذكية لهذه البصيرة، وتعني ربط الحياة بما بعد الموت، أي عروج بالطاقات نحو تلك الغاية بالعمل، ويتطلب توازنية راسخة في الذات⁵، فهذا الإنسان المهني نتيجة ومآلا هو المهني عملا وابتداء، المتوازن طاقة وحالا، لذا فهو:

الامتداد	اليقظة و الانتباه	السوعي	- <u>الذاكر للمعاد</u> :
تصرف الطاقات	توظيف الطاقة	توازن في الاستخدام	- <u>العمل للحساب</u> :
الاقتصاد	صحة الدنيا (فقهها و فهمها)	العفة	- <u>القانع بالكفاف</u> :
الإيمان	إدراك حقيقة الابتلاء الإلهي	تحقيق العروج	- <u>الراضى عن الله</u> :

ويقدم الإمام مثالا لقياس حالة الجمع بين الرؤى والحياتين، ويعطينا منظارا للتوازنية، حيث يرى الإنسان رأي العين فوزه المخرج بالعمل، المتوافق مع الحق، المتصف بطابع التوازنية، فيقول: "وأعمال العباد في عاجلهم نصب أعينهم في آجلهم"⁶، وثمرته في العاجل [= في الدنيا] وقت

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 455.

² - أحمد محمد طه الباليساني : هوية الإنسان بين الثبات والتغير، ص 23

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 457.

⁴ - سورة آل عمران، الآية 61.

⁵ - ينظر علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 437.

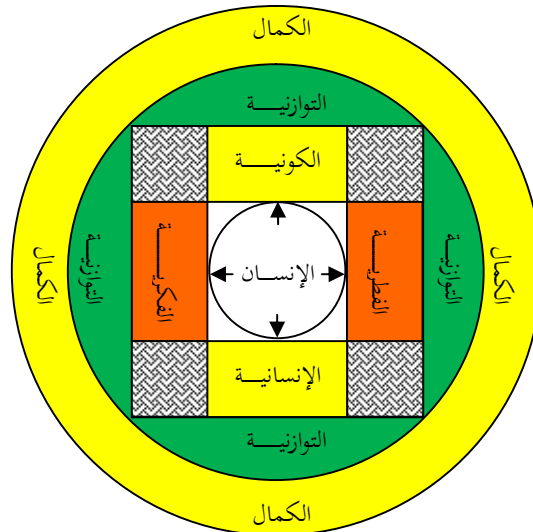
⁶ - المصدر نفسه، ص 431.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

تنفيذه، وفي الآجل [= في الآخرة]، زمن الحساب والمعاد والطمأنينة، رؤية اللجنة التي تتحقق بالعمل، ويضع الإمام تقسيماً للزمن إلى ثلاث ساعات، في صورة دالة على توازنية الطاقات بالعمل والتلبية، حيث يقول: "وليس للعاقل أن يكون شاخصاً إلا في ثلاث: مرمة لمعاش، أو خطوة في معاد، أو لذة في غير محرم"¹، تقسيم زمني للطاقة ولوظائف الإنسان الحيوية، يترجم فكرة التوازنية، محددته في:



يجيل هذا التقسيم على طاقات الإنسان، فتثليث الزمن النهاري والليلي، رمزي في بعده، يهدف إلى تنويع المطالب بتغذيات وتلبيات مناسبة، وتجاوز الاختلالات، والمناسبة بين الدنيوي والأخروي، والإنساني والإلهي، والأرضي والسماوي، والضروري والحاجي، وحتى التحسيني، ومن ثم دفع الاختيارات المفسدة عن الإنسان، يضع له الإمام ضابطاً : "كل تقصير به مضر، وكل إفراط له مفسد"²، دعوة واضحة إلى الاعتدال والتوازنية، لتصبح مقوماً ثابتاً فيه، وذلك لأن "أخلاق الإنسان مقسومة على أنفسه الثلاث، أعني النفس الناطقة، والنفس الغضبية، والنفس الشهوانية"³، وجميعها تحتاج إلى تغذية وضبط وتوجيه، ونوضح هذا المقوم مع المقومات الأخرى بهذه الدائرة:



- دائرة تمثل مقومات الإنسان الكامل -

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 494.

² - المصدر نفسه، ص 446

³ - أبو حيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة، ص 89

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

إن التوازنية هي حتمية بناء ذاتية العمل بالحق، وتجاوز التضارب والتعثر، وتصريف الطاقة لخدمة الإنسان في سيره نحو الأرفع والأكمل بصفات إيجابية، تثبت توازنه الذي "هو شرط أساس لمواصلة النمو والترقي"¹، وعملية هادفة لتحقيق الكمال، وعليه "فإن التوازن داخل الإنسان موجود ومفقود - موجود بالطبيعة ومفقود في القيمة- بسبب كثافة الوعي والحلم، فصور الرغبات المقموعة والأحلام المستحيلة التحقق تدفعه إلى التمرد"²، وهذا ما يدعو إلى ضرورة إيجاد الميكانيزم العملي لتحقيق سوية إنسانية بالتركيزية وبتغذيات مناسبة، وإتاحة الفرصة لانطلاق قوى الإنسان متنامية نحو الأرفع، ومن ثم عروجها إلى أنوار الحق، وعليه يصبح مقوم التوازنية وعي وإدراك، وقدرة على ضبط وتصريف وتوجيه طاقته وفق مقتضى الكمال بحكمة، لتحقيق كمال نعته الإنساني [= إنسانيته].

¹ - أنس شكشك : فلسفة الحياة، ص 139.

² - خالد آغة القلعة : السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة، ج 1، ص 82.

المبحث الثالث: خصائص الإنسان الكامل :

جاء في التعريفات: "الخصوص: أحدية كل شيء عن كل شيء يتعينه فلكل شيء وحدة تخصه، الخاص: عبارة عن التفرد، يقال فلان خص بكذا أي أفرد به ولا شركة للغير فيه"¹، وهذا التفرد هو تميز كاشف يتمتع به الشيء، وكذا الكائن يتفرد على غيره، وأما في المقاييس: "فالحاء والصاد أصل منقاس، وهو يدل على الفرجة والثلمة، فالخصاص الفرغ بين الأثافي، لأنه إذا أفرد واحد فقد أوقع فرجة بينه وبين غيره، والعموم بخلاف ذلك"²، فالخصائص المميزة للحقائق والأشياء بفرجة ووساعة فارقة مبينة لهذا عن ذاك، وعليه فإن تناول الإنسان ببيان خصائصه، يعد كشفا عن تمتع ذاتي تأهيلي وما يبرز من أعماقه من معنى ونوعية، فهناك اتفاق من الناحية الشكلية مع نوع الناس، إلا أنه ومن ناحية الجوهر الذاتي يختلف عنهم باعتبار القيم والمميزات التي يحملها، فإذا كانت المقومات تمثل هيكل كمال الإنسان وأعمدة بناء ذاته، يكمل بها وينقص بانعدامها، فإن خصائصه الربانية والتكريمية والروحانية والخيرية والحكمية والجمالية تدل على تميزه ونوعية ما في أعماقه من معنى، وهي من جهة أخرى تفتح لمقومات الكمال بشكل آخر، وهذا ما يعطي الألق والحيوية لذاته، ومن ثم تصبح لباسه المعنوي الذي يرتديه، مغايرة لعالم الحيوان وما دونه، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾³، لخروجهم من الإنسانية، وخسارتهم لهذه الصفة.

- أولا: خاصية الربانية:

يقول "ابن فارس": "الراء والباء يدل على أصول، فالأول: إصلاح الشيء والقيام عليه، فالرب المالك، والخالق والصاحب، والرب: المصلح للشيء، والله جل ثناؤه الرب، لأنه مصلح أحوال خلقه. والربي: العارف بالرب"⁴، فهذا العارف بما أوتي من علم قادر على إصلاح شأنه وشأن غيره، بما علمه الله، ومن ثم فالربانية خصيصة كمالية ورفعة إنسانية، أما في اللسان فهو: "الحبر، ورب العلم، وقيل الرباني الذي يعبد الرب، زيدت الألف والنون للمبالغة في النسب. والرباني: العالم الراسخ في العلم والدين، أو الذي يطلب بعلمه وجه الله، وقيل العالم المعلم، وقيل الرباني: العالي

¹ - الشريف الجرجاني : التعريفات، ص 87.

² - ابن فارس : معجم مقاييس اللغة، ص 245.

³ - سورة الأعراف، الآية 179.

⁴ - ابن فارس : المصدر السابق، ص 331.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

الدرجة في العلم. والرباني: المتأله والعارف بالله تعالى¹، بأخذ العلم الصحيح من مصدره بوعي وتعليمه، وترسيخ صفته لنيل الكمال، ولا ترتقي البشرية إلى الإنسانية إلا بتربية الربانيين لها.

أ/ تجليات إشراقه الخاصة الربانية: من المفيد أن نذكر أهم ما يجلي إشراق الربانية في الإنسان الكامل، وما يرفعه إلى منزلة المخلوق العبادي بالعلم، بمحدد القرآن: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾²، فوظيفته عبادة الله، دون مجاوزة، وإن ضبط هذه القاعدة في النفس يتم بفهم مسائل مهمة:

أولاً- الطاعة مفتاح عتبة الربانية: إن الطاعة هي الثابت المتجدد مع الأنفاس والعتبة الأولى في طريق الربانية، بشعار متجدد هو الحمد، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾³، فالحمد خضوع وعبودية، ويعد أحد أكبر تجليات خاصية الربانية، ثابتاً يماًلاً عالم الإنسان، يقول الإمام: "وأطع الله في أمورك، فإن طاعة الله فاضلة على ما سواها"⁴، يعرض قضاياها كلها على الحق، وتجنب الهوى ومسايرة شهوات النفس واملاءاتها، خضوع عملي بسيط، يثبت القوة في الذات، "فلو أن الإنسان واجه الأحداث بذاتيته البشرية الضعيفة المتغيرة لكان من الممكن أن يخور، ولكنه بالإيمان بالله الذي به يكون فوق الأحداث يجعل الإنسان يواجه الأحداث بقوة وعزم"⁵، فهذه الذاتية الضعيفة لها إمكان القوة بالله، بهذه الربانية التي تريح الإنسان من التيه والاضطراب، وتمنحه البصيرة والقوة، وتزيل من أمامه كل المزاومات التي تريد امتلاكه، وإضعافه، من مثل الاتصاف بالذاتية، والشيطانية، والديناوية، والأهوائية، وهذا بالانتصار للحق والميل معه، "وأن يعتقل نفسه على الله عز وجل"⁶، وهذا بتحرير النفس من عوالم الفساد المبعدة، وهذا دين الرباني في ارتباطه بخالقه، بدفع ما يزاحم هذه القيمة، ببرنامج توجيهي بصير، غايته أن يكسر جموح النفس، ولذا فمعادلة الخضوع والطاعة هي أول علامة في الرباني، ويقدم الإمام أسلوباً ذكياً عن إدارة الإنسان لذاته مفاده: "وإذا قويت، فأقو على طاعته، وإذا ضعفت فاضعف عن معصية الله"⁷، في حالة القوة، عند تمتعه بالطاقة، وضرورة صرفها في الطاعة، وفي حالة الضعف، أن يضعف عن معصية الله، وبمثل هذا الأسلوب يتحرك الإنسان ليبنى قوته في الحق، ويرسخ خاصيات كماله وتميزه، بأن يحصل فضائله، باعتقاد

¹ - ابن منظور : لسان العرب، مج 4، ص 26.

² - سورة الذاريات، الآية 56.

³ - سورة الفاتحة، الآية 01.

⁴ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 425.

⁵ - محمد متولي الشعراوي : الإنسان الكامل محمد ﷺ، ص 81.

⁶ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 208.

⁷ - المصدر نفسه، ص 439.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

الجميل وترك سيئات الفعل، وتعود حسن الفعال¹، وهذه عملية بنائية تقيم ذات الإنسان، وتضيء نفسه إضاءة بالحق، وفقه واقعه، يقول الإمام: "لا تجعل أكثر شغلك بأهلك وولدك"²، بإدارة حكيمة لشأنه، فمعيار الربانية يعني تثبيت الإنسان نفسه في الحق، من خلال قيم الطاعة، يقول الإمام: "فأصلح مثواك، ولا تبع آخرتك بدنياك"³، بأن يكون جل اهتمامه انشغاله بطاعة ربه.

ثانياً- قضية الرزق: إن الله هو الرزاق "الذي خلق الأرزاق وأوصلها إليهم وخلق لهم أسباب التمتع بها"⁴، ومن هنا يصبح الرزق في حقيقته حاملاً لمدلول السعي في تحصيله بالمقدار الذي حدده الإمام [= باليوم]، وهو مكفول قصد التفرغ للعمل والعبادة، لأن الله قد "أمرنا أن نسعى للدار الآخرة"⁵، وهذه القاعدة هي من ضرورات تحقق ربانية الإنسان، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾⁶، حيث يجني الإنسان ثمرة اعتقاد صائب، أعلى مرتبته، أن يرتبط بالآخرة بعد أن يتوقف عن مطاردة الدنيا، ويتطلب هذا الأمر وعياً وبصيرة، لأن الإنسان الرباني هو إنسان صار إلى هذه الدرجة من العبودية بالعلم الإلهي، حيث أدرك بوعي أنه مكلف بأداء رسالة، هي من ملاحق الإيمان، مبنية على تصور واضح المعالم، وهذا ما دفع الإمام إلى عقد مقارنة كاشفة بين رزق طالب ورزق مطلوب⁷، ويؤول كلامه هذا، فيقول: "الرزق رزقان طالب ومطلوب، فمن طلب الدنيا طلبه الموت، حتى يخرجها عنها، ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي رزقه منها"⁸، نستشف قاعدة إنسانية جليلة هي القصد في كل توجه، إما إلى الدنيا حتى تنهيه، أو إلى الآخرة فتسعه وتعليه، ومعنى هذا في عقل الرباني قد "أفردته -الله- بالقصد"⁹، فطالب الرزق هو الدنياوي، بجهله وعبوديته للشهوات، بينما الرزق المطلوب فيمثل الأخروي، الرباني طالب الآخرة، بعلمه وتحرره، وبهذا يوضح الإمام طريق الإنسان الرباني الصفة، من خلال فهم

¹ - ينظر الراغب الأصفهاني : مكارم الشريعة، ص 101.

² - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 486.

³ - المصدر نفسه، ص 361.

⁴ - أبو حامد الغزالي: المقصد الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، ص 86.

⁵ - محمد راتب النابلسي: موسوعة أسماء الله الحسنى، ج 1، ص 279.

⁶ - سورة طه: الآية 132.

⁷ - ينظر علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، 492.

⁸ - المصدر نفسه، ص 499.

⁹ - محمد راتب النابلسي : المرجع السابق، ج 1، ص 283.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

حقيقة الرزق، ومعنى اسم الله الرزاق برأي "أبي حامد"، معرفة وصفه ومستحقه، وربطه وظيفيا بالآخرة¹، إيمان يجنبه الضياع في الدنيا تائها باحثا عن حطامها، وهو ما نؤوله بهذا الجدول:

التأويل	صفة الرزق (2): ما يطلبك (طالبك)			صفة الرزق (1): ما تطلبه		
	الصفة	القاعدة		الصفة	القاعدة	
إن المقسدار في						
تحصيل الرزق محدد	- يطلبك	<u>الزمن</u> :	+	- تطلبه.	<u>الزمن</u> :	-
باليوم، بينما	- يأتي إليك.	<u>اليوم</u> .	+	- يأتي إليك/لا يأتي	<u>السنة</u>	-
الإنسان الذي	- لا تحمل همه.		+	- يحمل همه.		-
يطلب الرزق	- يتحدد (من الله) يجدده.		+	- يتحدد.		-
يستغرق فيه زمنه	- مقسوم لصاحبه.		+	- مقسوم / غير مقسوم		-
كله، وهذا ما	- مقيد بالحياة ومنتته بالموت (مكفول).		+	- مقيد بالحياة/منتته بالموت		-
يعطينا ملمحين	- لا يسبقك إليه طالب.		+	- لا يسبقك/قد يسبقك..		-
مختلفين، وارتباطين	- لا يغلب عليه غالب.		+	- لا يغلب عليه/قد يغلب.		-
متغيرين.	- لا يبطل عليه ما قدر منه		+	- لا يبطل/قد يبطل		-
التأويل	عقيدة+ إيمان = ربانية	إيجاب		أطماع+هوى+ميل = دنيوية	سلب	
<u>الأول</u> : طالب الدنيا.	- علامة على طلب الآخرة.	قوة و استقامة		- علامة على طلب الدنيا.	قراءة و استئناس	
<u>والثاني</u> : طالب الآخرة.	- تمتع الإنسان بفقده وعلم وبصيرة.			- دليل جهل وعدم فقه.		
	- قوة العقيدة والإيمان.			- ضعف في العقيدة والإيمان.		
	← رسوخ الربانية فيه = كمال الخاصيات.			← رسوخ الدنيوية فيه = نقص الخاصيات		

ثالثا: قضية الأجل: وتكمن أهمية الأجل في محدودية الزمن وجهل الإنسان بنهايته، وما يصاحب هذا من ضغط وتوتر، وتسويق في أداء عمله، حيث تطرح قضية الأجل إشكالاتها الحيوية باستغلال هذا العمر بجمالية، بالعمل الصالح والإحسان، والأخذ منه بما يكفي من الزاد، وأمام هذه الحتمية يزداد قلق الإنسان من الناحية الوجودية والنفسية، ليلعب توتر الذات قمته، يقول الإمام: "نفس المرء خطاه إلى أجله"²، فكل نفس يصدر معناه حركة إلى هذا المصير، و"خطوة يقطعها إلى الأجل"³، فالعمر حالة ضغط حقيقي، يصنع توتر الذات وقلقها، والإنسان في هذا محصور بين هروب الزمن وتفلاته، وتناقله في الاغتنام من نهره، وهذا ما يؤكد الإمام بطريق آخر: "كفى بالأجل حارسا"⁴، ولن يواجه هذا التوتر والقلق إلا بالعمل، وكما يتطلب هذا الأمر إدراكا نوعيا وتخطيطا

¹ - ينظر أبو حامد الغزالي : المرجع السابق ص 86-88

² - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 440.

³ - محمد عبده: شرح نصح البلاغة، ص 440.

⁴ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 440

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

منهجيا لتسيير العمر تسييرا عمليا جماليا بملء هذا المتاح من العمر بما يبني عالم الإنسان في الآخرة، وعليه فإن الرباني يقف بما عرف وعلم ليمنح حياته معنى وقيمة، وإن من التقدير العملي والجمالي، أن يهتم الإنسان بمحصل يومه لا يجاوزه، ليبعد عن نفسه تعلقها بالدنيا وبكل محدود، يقول الإمام: "يا ابن آدم لا تحمل هم يومك الذي لم يأتك على هم يومك الذي قد آتاك، فإنه إن يك من عمرك يأت الله فيه برزقك"¹، وهذا فقه يعبر عن تمام علم ومعرفة إلهية، وهي ميزة الرباني، وإن فهم قاعدة الربط بين الرزق والأجل تزيل عنه الأنتقال، وتيسر له تصويب أمر حياته نحو الحق.

رابعا: حقيقة البلاء: إن حياة الإنسان ابتلاء متجدد يعظم بعظمة الإيمان، لأن الدنيا ليست مستقرا نهائيا له، حيث يتعين أن يتجاوز تفاهة الحياة ليدرك الحكمة من وراء البلاء، يقول الإمام: "ومن لم ينفعه الله بالبلاء والتجارب لم ينتفع بشيء من العظة، وأتاه التقصير من أمامه، حتى يعرف ما أنكر، وينكر ما عرف، وإنما الناس رجلان: متبع شرعة، ومبتدع بدعة ليس معه من الله سبحانه برهان سنة، ولا ضياء حجة"²، فحقيقة التربية والتعليم الإلهي للعبد تأتي من التجارب والبلاء، وكأنها الغيث الذي يسقي الذات ويبني الإنسان، وهذا الانتفاع يمكنه من الارتفاع في الأداء، وإبصار الحقيقة، كي يدرك أن ضربات [= القدر] ليست ضربات كاسرة جاءت لتضعفه، وإنما هي تقوية وفتح وتجل من فيوض الرحمان اللطيفة، ولذا فإن البلاء هو أرفع من العظة، وتربية تزيد قوة ضياء توصله إلى إدراك تقصيره، ومعرفة إنكاره للباطل، وبذلك فقد قدر الإمام الناس برجلين:

التحديد النوعي	الصفة	العلامة	الطبيعة	الحال مع البلاء	القيمة النهائية
1 متبع شرعة:	- رباني	- يمتلك برهانا - يمتلك حجة	معرفة	الفقه والعلم [= الوعي]	الانتفاع، والاطمئنان
2 متبع بدعة:	- دنيوي	- لا برهان له - لا ضياء حجة معه	جهل	انعدام الفقه والعلم [= غياب الوعي]	عدم الانتفاع، والندم

إذن فالبلاء والتجارب تعطي لصاحبها برهانا، كما تقوي حجته في الحق، وهذا ما يحتاج إليه الرباني الذي يفقه ويعي معنى الابتلاء، " فالأول الحق، والثاني المبطل"³، قال تعالى في شأن يوسف **الْعَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾**⁴، فرؤية البرهان الإلهي تماثل العصمة من الزلزل، وتكافئ النور الذي يهدي للحق، وبنبه الإمام إلى أهمية التيقظ في كل المعارك المضنية حتى لا يخرج الإنسان

¹ - علي بن أبي طالب : فُحج البلاغة، ص 241.

² - المصدر نفسه، ص 241.

³ - ابن أبي الحديد : شرح فُحج البلاغة، مج5، ج10، ص19.

⁴ - سورة يوسف، الآية 24.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

عن طوع الحق، ويقف خصيما له يصارعه، فيقول: "من صارع الحق صرعه"¹، فالوعي الكامل له الأهمية في تحقيق ثمرات هذا الاختبار والتجربة المحصنة المستخلصة، وكأن الرباني العارف هو من استطاع أن يثبت في طريق الحق أولا، ثم يستثمر في تجربة الابتلاء لينال المعنى الخفي ثانيا، ويتقوى بالعرفان لترسيخ خاصية الربانية فيه ثالثا، ولن يكون الابتلاء والأقدار التي يتلقاها، إلا تنمية ذاتية وبصيرة داخلية وعرافنا يجمع أبعاد تجربته الإنسانية مضافا إليها الحكمة الإلهية.

ب/ الربانية ومعرفة الله طريق الكمال: إن هذه الربانية المتكلم الحقيقي بالعبودية هي نور يشرق على الذات، فتدرك معه أنها مقسورة على هذا المعنى، قسر يحمل معنى المملوكية بوصفها بناء ذاتيا حرا لا جبر فيه بمعيار العلم والفقه، معيار قسم به الإمام الناس إلى ثلاثة أنواع مختلفة²:

الناس	الخاصية	الصفة	القيمة و الأداة	الهئية	الحقيقة
الأول	رباني	العالم	العلم	راسخ	الإنسان الكامل العارف الرباني
الثاني	متعلم	المتعلم	التعلم	مُرسِّخ	الإنسان المتعلم سالك الطريق
الثالث	ناعق	المتبع	الميول و الأهواء	متفلت	الإنسان الشقي الناقص الدنيوي التابع الإمعة

لقد حدد الإمام وجهة كل إنسان، وتعرض لأولئك الذين لم يتغلغل نور الإيمان إلى ذواتهم ليكون مصدر الحقيقة ومجليها، حيث يصبح هذا العلم الذي لم يؤخذ على الحقيقة بهذا التأول:

النوع	الصفة	أحوال و تقلبات	قراءة و تأويل
<u>الإنسان</u> (الدرجة الثالثة)	الدنيوي [غير الرباني]	1- يستعمل آلة الدين للدينيا.	- يستعمل الدين لطلب مصالحه الدنيوية.
		- استظهار النعم على العباد.	- الإيذاء.
		- يستظهر الحجج على أوليائه.	لم ينطبع الحق في قلبه [فيه اختلال]
		2- منقاد لحملة الحق (التقليد).	- يقلد من دون رسوخ.
		- ينقدح الشك في قلبه مع كل شبهة.	- فهو معرض للزلل والشبهات.
		3- منهوما باللذة، سلس القيادة للشهوة.	- تقوده الشهوات فلا دين له.
		4- مغرما بالجمع والادخار.	- تقوده شهوة المال فلا دين له.

ويعطف الإمام بعد هذا إلى إجراء مقارنة بين العلم والمال، فالعلم يؤدي بالإنسان إلى الربانية، بينما يؤدي المال إلى الفساد، ويمثل الميلاد الطبيعي لخاصية الدنيوية، ولذا فالصفة الناطقة بحقيقة هؤلاء أنهم "أقرب شيء شبيها بهما الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامله"³، توصيف يميز الإنسان الرباني العالم العارف بالحق، عن غيره طالب المال والشهوات، أو مستعمل

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 496.

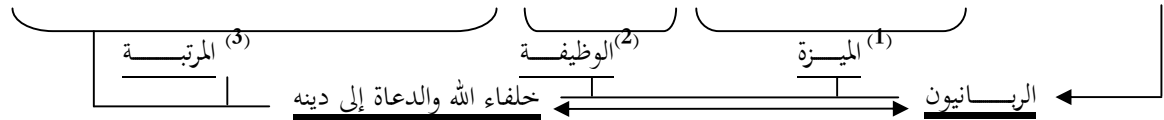
² - ينظر المصدر نفسه، ص 453.

³ - المصدر نفسه، ص 454.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

الدين والعلم لتحصيل منافعه الدنيوية، بينما يكون الرباني حجة الله في الأرض، فكماله تحتاج إليه الإنسانية في توجهها، يقول الإمام: "اللهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهرا مشهورا، أو خائفا مغمورا، لئلا تبطل حجج الله وبيئاته"¹، مما يعني أن الرباني هو إنسان فكرة الإيمان والحياة والحق، ومصباح هداية الإنسانية، قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّائِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّخْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾²، فالآية تحض الربانيين على ممارسة واجبه الإيماني، وعليه تظهر الأدوار الطبيعية للإنسان الرباني في عملية التقويم، نبين في هذا المخطط أهميته:

النوع	الصفة	ميزاتهم	وظائفهم	قراءة وتأويل أهلية صفة الربانية فيهم
الإنسان (الدرجة الأولى)	الأخروي الرباني الأولى	- الأقل عددا... - الأعظم قدرا... - يحفظ الله بهم حججه وبيئاته...	- يودعوها الآخرين - يزرعوها في القلوب	- همم بهم العلم على حقيقة البصيرة. - باشروا روح اليقين. - استلنا ما استوعره المترفون. - أنسوا بما استوحش منه الجاهلون. - صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى



إن الخاصية الربانية دالة على كمال إنساني، بالعلم والمعرفة الإلهية، وتعني "أن الصنعة الربانية التي في فطرة الإنسان قد فتحت زهرة الخطاب الإلهي"³، إضاءة قادمة من داخل الإنسان مشرقة خارجه، وصولا إلى نقطة الإضاءة، فالرباني هو المنتصر على طبيعته السالبة، المتجاوز حدود الجسد الفاني وشهوات نفسه، والدليل القائد إلى الحق، وهذه المقدمة في المعرفة الإلهية لها نتائجها الوضيئة البينة، فمن خلالها يثبت الربوبية لله الخالق الكريم، ويبعد الاستكبار عن نفسه، يقول الإمام: "وأنه لا ينبغي لمن عرف عظمة الله أن يتعظم"⁴، معرفة تجنبه مشاركته ﷻ في هذه العظمة، ولو كان هذا التعظم في نفسه أو على خلق الله، يقول الإمام: "فإن رفعة الذين يعرفون ما عظمت أن يتواضعوا له، وسلامة الذي يعلمون ما قدرته أن يستسلموا"⁵، وعليه فإن رفعة الإنسان، هي رفعة بالمعرفة التي تنبثق عنها صورة التواضع من الذات الإنسانية؛ وهذا من المطالب الإيمانية والربانية، من المستشعر

¹ - علي بن أبي طالب: فتح البلاغة، ص 454.

² - سورة المائدة، الآية 63.

³ - بديع الزمان النورسي: المكتوبات، ص 287.

⁴ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 198.

⁵ - المصدر نفسه، ص 198.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

لمعنى الربوبية، حيث تتأسس معانيها في ذاته (ربانية = عرفانية/علمية)، تعكس خاصية الربانية، فينتهي إلى تقدير الله حق قدره، يقول الإمام: "إن من استنصح الله وفق، ومن اتخذ قوله دليلاً هدي للتي هي أقوم"¹، لأن المعرفة والعلم هي التي تبني جوهر الإنسان، استنصح يعني تعرضه لنفحات الحق، وعرض ذاته على الهدى والكتاب، وتصفية الذات من المفسدات والطبائع السالبة، من أجل تلقى جمالي إيماني، يقول الإمام: "وإني على يقين من ربي"²، وهذا بالأخذ من أنوار المعرفة الإلهية التي توصله إلى بلوغ درجة النفس مطمئنة [= الاطمئنان، اليقين]، وهي الرشد المقابل للغي، نراه متجسداً في ذات الكاملين، أو في صور الحق، وفي تحبب الذي تركه وتجافى عنه، وهذا الراشد هو الموفق بمهاديات المعرفة والعلم الإلهي، ليصير الإنسان ربانياً، يقول الإمام: "واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد، حتى تعرفوا الذي تركه"³، فتارك الرشد هو تارك المعرفة والعلم، المضيع لمعالم الحق، واليقين الحق، ويزداد الرباني وضاءة، كلما كانت قواه حية بالمعرفة قوية عاملة، وبذلك يصبح كائننا ربانياً بقوة العلم الإلهي، "فكما يحتاج الإنسان إلى الرباني لئلا ينحل، فإن الرباني يحتاج أيضاً إلى البشر ليكون حقيقياً"⁴، فالإثبات يكون بالربانية باعتبارها خاصية كمالية، أي بالله المعلم للإنسان، وبالعلم الذي به يتفادى الانحلال بفعل المزاحمات [= الأهوائية، الذاتية، الشهوية، الدنياوية، الشيطانية..]، والحاجة إلى البشر لتظهر هذه القيمة، لأنه خليفة الله يعمر أرضه بالصالحات، ويأخذ الناس إلى الحق، فالربانية تخلصه من التيه تمتينا لعلاقته بالله وبغيره، وبما تمنحه من خصوصية وإشراق.

ثانياً - خاصية التكرمية :

جاء في التعريفات: "الكرم: هو الإعطاء بالسهولة.. والكريم: من يوصل النفع بلا عوض، فالكرم هو إفادة ما ينبغي لا لغرض.."⁵، كما أكرم الله الإنسان بكل كرامة من تفضيل وخير ومزية ورفعة، وكرامة الإنسان خلقه في حسن وتفضيله على كثير من الخلق، وبالمثال الحي الرفيع يكرم نفسه بعمل الصالحات والخيرات، فالكريم هو: "الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل، والكريم اسم جامع لكل ما يحمده.. والكرم: نقيض اللؤم يكون في الرجل بنفسه، وإن لم يكن له آباء"⁶، "وتكرم

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 198.

² - المصدر نفسه، ص 50.

³ - المصدر نفسه، ص 198.

⁴ - تسفانج ستيفان: بناء العالم، تر: محمد جديد، ص 43.

⁵ - الشريف الجرجاني: التعريفات، ص 154.

⁶ - المصدر نفسه، ص 154.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

عن الشيء وتكريم: تنزه. والمكرم: الرجل الكريم على كل أحد"¹، ومنه فالكرامة نزاهة ذاتية، وفضائل محصلة في الكامل النبيل والمؤمن الشريف، يقول "ابن فارس": "كرم: الكاف والراء والميم أصل صحيح له بابان: أحدهما: شرف في الشيء في نفسه أو شرف في خلق من الأخلاق"²، فمن تكريم الإنسان سجود الملائكة له، وتسخير ما في الكون ومنحة العقل، وطيبات الحياة والهداية.

أ- التكرمية بين ضرورات الحياة والتفضيل الإلهي: إن التكرمية معناها كرامة تفضيل إلهي حازه الإنسان رفعا لشأنه، لنيل شرف ومقام الخلافة، لأنه مكلف بأداء هذه الأمانة الجليلة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾³، فما حددته هذه الآية من كرائم إلهية تستدعي تأمل الإنسان في ما حازه من تكريم رباني، حيازة نوعية فارقة، ينبغي أن يعقلها ويعيها، ويحافظ عليها، فمع انطلاق هذه الرحلة كانت هذه الكرامة الأولى، ليقف الشيطان أمام هذا التكريم معترضا ومظهرا لعداوته البينة، قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَبِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾⁴، ومن هنا تبدأ المواجهة بين هذه التكرمية بفضائلها، وبين الحتميات التي تعترض سبيل الإنسان، وستكون الحياة ميدان الصراع بينهما، يقول الإمام: "عباد الله إن انصح الناس لنفسه أطوعهم لربه، وإن أغشهم لنفسه، أعصاهم لربه، والمغبون من غبن نفسه، والمغبوط من سلم له دينه، والسعيد من وعظ بغيره، والشقي من انخدع لهواه وغروره"⁵، فواقع الحياة يطرح أصدادا لطبيعة التكريم وغاياته، من الإغواء والوسوسة والأهواء التي تقف قوة تواجه هذا المعنى الأصيل، وهذا هو تحدي المحافظة على الكرامة، ويضع الإمام معادلات بناء تكريم الإنسان لنفسه، وتطلعه إلى التكرمية الثالثة:

أولاً: حالة تحصيل الكرامة الثانية: ويمثلها الأطوع الأسرع، اللين المبادر، متبع الحق، والمغبوط، سليم الدين، والسعيد، المتعظ بغيره الذي تعلم من القصص التكويني تكريم نفسه، لنيل الكرامة الثالثة.

ثانياً: حالة تعطيل الكرامتين وتضييعهما: ويمثلها الغاش لنفسه العاصي لربه، متبع الأهواء والشهوات، والمغبون، مورط نفسه، دون أن تنال حظها من الطاعة والتركية، والشقي، المنخدع لهواه وغروره، وكل ما يجب عنه رؤية الحق، وعوامل إفساد الكرامة الأولى والثانية، ومنه خسارة الثالثة.

¹ - ابن منظور : لسان العرب، مج 7، ص 644.

² - ابن فارس : مقاييس اللغة، ص 806.

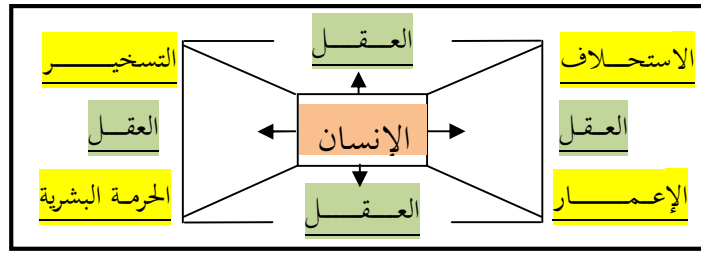
³ - سورة الإسراء، الآية 70.

⁴ - سورة الإسراء، الآية 61، 62.

⁵ - علي بن أبي طالب: نصح البلاغة، ص 115.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

ونقصد بالخاصية التكرمية الكرامة الثانية، تلك التي يعود تحقيقها إلى الإنسان ترسيخا ومحافظة، لذا يلح الإمام على عامل بناء تكريمية ذاتية، وهذا بمخالفة النفس الأمارة، أي الكرامة الخاصة التي هي كرامة الدين والإيمان، ويحتاج التكريم الإلهي للإنسان إلى عمل متواصل من التزكية والوعظ وأخذ العبرة [= الاعتبار]، والمجاهدة الواعية لترسيخها خاصة في الذات، وهذا تحريك مهم لقيام المسؤولية الواعية في حياة الإنسان والمجتمع، من خلال مربعات الكرامة، وبهذا تتحقق الرؤية القرآنية لبناء العالم من منطق قرآني وكووني¹، لذلك المتمتع بقوة العقل، نوضح هذا بالمخطط الآتي:



- مربعات تشكيل الكرامة الإنسانية -

وتتم المحافظة على هذه التكرمية برأي الإمام بواسطة أساليب معينة، ومنها:

- 1- مخادعة النفس في العبادة: يقول الإمام: "وخادع نفسك في العبادة وأرفق بها ولا تقهرها، وخذ عفوها ونشاطها إلا ما كان مكتوبا عليك من الفريضة..، وإياك أن ينزل بك الموت وأنت آبق من ربك في طلب الدنيا"²، بالتعامل الذكي معها، بهدف تحويلها من أمانة إلى مطمئنة، ومن بطاء إلى مسارعة في الخيرات، وهذا باغتنام ساعة الانبساط والانشراح في الإقبال على العبادة.
 - 2- ساعة من الدهر، يقول الإمام: "فأنت محقوق أن تخالف على نفسك، وأن تنافح عن دينك، ولو لم يكن لك إلا ساعة من الدهر"³، وهي عملية تدريب وظيفية يتقوى بها الإنسان في الحق، حتى يسلس انقيادها، تزيد من تميزه النوعي بكرامة الإيمان، وليحافظ على إنسانيته، وجلاء تكريميته.
 - 3- مجانبة مصاحبة الأشرار، يقول الإمام: "إياك ومصاحبة الفساق، فإن الشر بالشر ملحق"⁴، من خلال الاختيارات الإيمانية التعبدية أو الوصلية مع الحق وأهله، وتجنب حتميات مفسداتها.
- إن الأسلوب الذاتي الإبداعي الذي ينطلق منه الإنسان من تجربة إيمانية خاصة، من شأنه ترسيخ التكرمية، وتعليقه: "فإن الشر بالشر ملحق"، فالخارج عن الحق، خارج من التكرمية.

¹ - ينظر رضوان السيد: القيم القرآنية، مسارات التفكير والتدبير في القرآن الكريم، أعمال الندوة العلمية الدولية، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، ص 24.

² - المصدر نفسه، ص 425.

³ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 354.

⁴ - المصدر نفسه، ص 425.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

ب- التكريمية ثبات على الكرامة الأولى، وسعي نحو الثانية: أشارت الآية السابقة من سورة الإسراء إلى ذلك التكريم العام الذي أعطي للإنسان، ومن هنا نؤكد على تكريمين، الأول ويتمثل في تكريم الخالق ﷻ للإنسان الذي ينطلق به نحو الكمال، مع مختلف الامدادات والاسعافات، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾¹، وقال أيضا: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾²، والثاني تكريم الإنسان لنفسه، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾³، فالأمر بتزكية النفس، هو التكريم الثاني، وتأخذ الكرامة ثلاثة أحوال متدرجة، من الكرامة العامة، وهي كرامة نال كل إنسان حظها منها، حيث كرم بنو آدم جميعا، إلى كرامة الاعتقاد، وهي كرامة خاصة، تتعلق بعدم الإكراه في الدين، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾⁴، قصد وضع الإنسان في شروط صحية ليقبل على الله بحرية ووعي، إلى كرامة التقوى، وهي كرامة تتعلق بأخص الخاصة، وتدلل على حالة التزقي المعرفي، حيث يتجه في سيره بعد التزكية إلى خالقه مترقيا من رفيع إلى أرفع، عابدا شاكرا على فضله وتكريمه، ولذا كان حظ الإنسان من هذا التكريم من جهات ثلاث، من جهة ذاته، ومن جهة روحه، ومن جهة عقله⁵، يبنى عليه التكريم الذاتي الخاص، تكريم الإنسان لنفسه بالتقوى، بطهارة القوى الذاتية، وبهذا الجهد الذاتي تصبح التكريمية خاصة استثنائية تميز الإنسان الكامل وتظهره على غيره، يقول الإمام: "من نصب نفسه للناس إماما، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه سيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها، أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم"⁶، تحقيقا لإضاءة وكمال الذات، ونيل تكريمية خاصة، قبل طرح ذاته أمام غيره، بتكريمية تتعدى إلى الآخرين، بالتعليم والتأديب لهم، ويدخل هذا العمل في صميم التكريمية [= الكرامة الثانية]، حتى لا يضيع امتثاله للحق، وقيادته للناس، "وذلك لأن الفعل أدل على حال الإنسان من القول"⁷، هداية وتزكية، بأخذ نفسه على سبيل الكمال (عمليا)، ويؤكد الإمام هذا المعنى بطريق آخر موجها كلامه إلى من يهمل نفسه ويهينها بخسران خاصياته النوعية، والوقوع في مفسدات فطرته وإنسانيته، فمن

¹ - سورة الشمس، الآية 07.

² - سورة الإسراء، الآية 70.

³ - سورة الشمس، الآية 08، 09، 10.

⁴ - سورة البقرة، الآية 256.

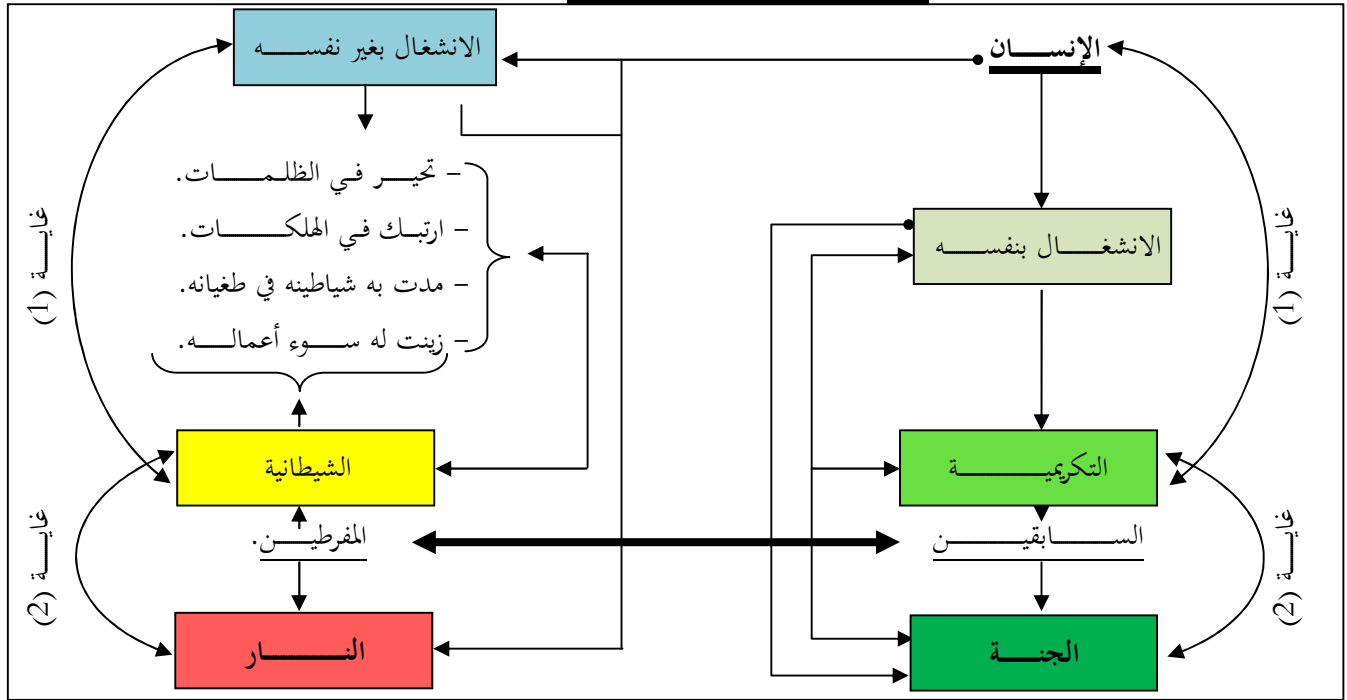
⁵ - ينظر ابن باديس : تفسير ابن باديس، ص 129.

⁶ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 440

⁷ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 09، ج 18، ص 105.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

المؤكد أن التكليف ذاتي، والتزكية والتدسية ذاتية، فانشغال الإنسان بنفسه هو الأسلوب الأمثل المحقق لهذه التكرمية¹، تلك التكرمية الذاتية الإيمانية الواعية، نوضحها بهذه الترسيم:



- ترسيمة دالة على كيفية تحصيل التكرمية الثانية أو إضاعتهما -

إن ما قدمه الإمام من نتائج سلبية مدمرة للذات، ذات نسق تراتيبي، تنتهي بها إلى حال التفريط، ونهاية الغاية النار مثوى، بحيث تصبح تجسيدا لضرب تكميمته الأولى بالتهديم، والثانية بالتدسية، والثالثة بالتضييع [= النار]، بينما المنشغل بنفسه، فإنه يحقق تكميمته إنسانية نوعية، وكماالية ذاتية وجمالية أدائية، تثمر نيل الكرامة الثالثة في الميعاد [= الجنة]، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾²، حيث يشكل الإيمان والاستقامة قاعدة التكميم الثانية، ويعادل الوعد بالجنة، التكميم الإلهي له، تكميمته الثالثة، ولذا نرى إصرار الإمام على حالة الصفاء وتجنب الازدواج في السلوك³، لحفظها وترسيخها، وقد أوله في أن لكل عمل معاكسه، وهو وصف دال على ازدواج الخطاب، والنفاق العملي، ومخالفة الحق، وضرورة الاتقاء، وحصاد اللسان، وأهمية الوعي والعقل، في صورة ثنائية ضدية، ولذا فإن ثنائية صورة الذات المتناقضة، بين الرضا والكراهة، والسر والعلانية، والقبول والإنكار، والظهور والاعتراض، والحديث والكذب، والرد والجهل، هي أحوال دالة على اضطراب

¹ - ينظر علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 211.

² - سورة فصلت، الآية 30.

³ - ينظر نهج البلاغة، ص 424.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

نفسى، وتناقضات سلوكية مفسدة لصفاء النفس، ولهذا فإن التقوى التي تعتبر كرامة الإنسان النوعي [= أخص الخاصة]، هي طريق التكرمية وثمرتها، وهذا التدرج في الكرامة دال، فالكرامة العامة، هي حبة وحظوة إلهية، مشرقة على الإنسان، لها تبعاتها على النفس المسواة بقابلياتها، والكرامة الخاصة، حيث يكون التزقي في الكرامة إلى مرتبة الإنسانية، والانطلاق من مبادئ قرآنية/كونية ثابتة، قائمة على عدم الإكراه، وصولاً إلى مجيئه طوعاً، إتياناً كونياً قرآنياً، (السموات والأرض)، بمرفقات العقل والهاديات، وأما كرامة أخص الخاصة، فهي سعي الذين عرفوا النجدين، فأخذوا بالتقوى أسلوب حياة إلى نجد الحق، وهذا هو المراد بكرامة التقوى، المحققة بالمجاهدة والمضاعفة، يقول الإمام: "اعلموا عباد الله أن التقوى دار حصن عزيز، والفجور دار حصن ذليل، لا يمتع أهله، ولا يحرز من لجأ إليه، ألا وبالتقوى تقطع حمة الخطايا، وباليقين تدرك الغاية القصوى"¹، فهي أسلوب تحقيقها وترسيخها في الإنسان، سبيل الأتقياء في الدنيا كمالاً ويقيناً يفضي بهم إلى الجنة، خاصة كرامة الآخرة، ثلاث تدرجات نوعية يجوزها الكمل والساعين في سبيل الكمال، أي على قاعدة الأمثل فالأمثل، يربطها الإمام بالعقل، فيقول: "فاتقوا الله عباد الله تقية ذي لب شغل التفكير قلبه"²، لأن التكرمية عملية معرفية واعية، وبأسلوب التقوى يتجنب الإنسان كل المفسد، "وجوهر إنسانيته، ولب بشريته، وأس ذاتيته"³، وهي إرادة الأحرار وظهورهم بميزان العدل، وميزان الحق، وميزان الصبر.

ج- بين الكرامة الإلهية، والكرامة الإنسانية: لقد منح الله الإنسان كرامة رفيعة نادرة، تميز كشفت عنه قصة الخلق الأولى، لحظة السجود لآدم عليه السلام وتعليمه الأسماء، وهي موضع امتحان، ويتطلب الأمر محافظة وإضاءة دائمة، لإبقاء التكرمية الإنسانية [= الثانية] في الدنيا، ولذا نجد الإمام يمزج بين المبادرة للعمل لإنجاز تكاليف الحق، والتكرمية الثالثة بالإنعام المغدق⁴، ليمنح الإنسان تكرمية ثالثة [= الجنة في الآخرة]، وهي ثمرة العمل والتزكية، والتنزه عن المفسدات، ومزاحمات الحق، فعدد الإمام خمساً من الكرامات- فوق دنيوية، أي أخروية = جنانية، وهي :

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 211.

² - المصدر نفسه، ص 108.

³ - أحمد آيت لمقدم : المشترك الإنساني في الرؤية القرآنية، الرابطة المحمدية للعلماء، أعمال الندوة العلمية، ص 359.

⁴ - ينظر نصح البلاغة، ص 254.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

الإنسان	الكينونة = تكريمية ثالثة	الصفة	الأسلوب	الكيفية	الثمرة
الكامل	1/ جيران الله في داره = الجنة.	تكريمية	المبادرة إلى	صيانة الكرامة	- الفضل العظيم
	2/ مرافقة الرسول الكرام.	إنسانية ذاتية	العمل	العامة وتحصيل	المضاعف.
	3/ مآزرة الملائكة في المأ الأعلى.	ثانية		الكرامة الثانية.	[= التكريمية الثالثة]
	4/ إكرام الأسماع عن سماع حسيب النار.	[= خاصة			
	5/ صيانة الأجساد من اللغوب والنصيب.	التكريمية]			

لقد نتج عن الكرامة الإلهية الأولى، والكرامة الإنسانية الثانية، الكرامة الثالثة، كرامة الإنعام، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾¹، ثمرة العمل والتقوى، ويقدم الإمام بعض صور أسلوب المبادرة بالأعمال، والمراجعة بعد كل خلل، حتى يعاد ضبط العالم الإنساني بالتركيز، والحفاظ على التكريمية: "من أعطى أربعاً لم يحرم أربعاً"²، الدعاء والتوبة والاستغفار والشكر التي تشكل خاصية إيمانية نوعية، وأمانة دالة على طلب وتحريك، تلخص عبادة قمة ورفعة، وعبادة تقويمية وتذليلية، بإظهار الضعف ونفي الاستكبار والعزة بالإثم، وإن هذه الأدوات التعبديّة هادفة إلى الحفاظ على خاصية التكريمية وتمييزها بسعي حي متواصل، وبأسلوب تصفية وتنظيف وتنقية للنفس والقوى، كما أنّها تشكل عملية نقد ذاتي للنفس الأمانة بالسوء، ومحاولة تجديدية، توصل إلى حالة النفس المطمئنة، تعبد يعتمد على أسلوب وآليات إعادة الوصل الإلهي، وتحويل صور القبح [= قبح النفس: الذنوب، الخطايا، المعاصي]، إلى أحوال جمالية تعبديّة وتكريمية للذات، وتشكل المترتبات الأربع أوضاعاً وصوراً لتكريمية ثالثة، أو هي مقدمات لها: [عدم حرمان الإجابة + القبول + المغفرة + الزيادة]، وهي معادلة وقراءة تأويلية لها، تجمع بين الدنيا والآخرة، وصور التكريمية الثالثة، وثمرّة مكافئة بتكريم يحققه لزوم الإنسان للحق، يحث الإمام عليه بإتباع تخطيط منهجي دقيق لتحصيل ذلك³، ورسم للكيفية التي تحفظ الكرامة، وتحدد منهج السير، فالعمل، والنهاية، والاستقامة، والصبر، والورع والحدود المنتهي إليها، والإسلام، هي تخطيط عقلي وجداني (قلبي) واع، يعتمد تحويل الفكرة إلى عمل وسلوك، وضابطها الجسد الاستقامة على الحق بوعي. إذن فالتكريمية هي فكرة عقلية قلبية واعية، بمعنى هندسة عقلية وجدانية في الذات تنال في النهاية، نجسدها بهذه الترسيمية:

¹ - سورة الحجرات، الآية 13.

² - ينظر جملة القول : علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 451، 452.

³ - ينظر نصح البلاغة، ص 239، 240.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل



-ترسيمة كاشفة لأدوات تحقيق خاصية التكريمية الثانية والثالثة-

إن عملية الانتقال النوعي من الدنيا إلى الآخرة، وفق هذا المخطط بمعامله الكبرى، يحصل صورة التكريم بزيادة التقوى، يقول الإمام: "فاتَّقوا اللهَ الَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ، وَوَعَّظَكُمْ بِرِسَالَتِهِ، وَامْتَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ، فَعَبَّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ، وَاخْرَجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ"¹، لجلب الألفاظ والرحمات، إلا أن ضابطها ومفعلها يتمثل في تعبيد النفس لله، بعد التزكية، والخروج إلى الله من حق الطاعة، وهو ما يمثل الكرامة الثانية، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾²، وسينتهي هذا السير بتحقيق الكرامة الثالثة، يقول الإمام: "أصابوا لذة الدنيا في دنياهم، وتيقنوا أنهم جيران الله غدا في آخرتهم، لا ترد لهم دعوة، ولا ينقص لهم نصيب من لذة"³، وقد تأسست على تكريمية الإنسان لنفسه في الحياة، ومن صورها مجاورة الله في الآخرة، مع التوفية كتكريمية أخروية، جنانية، إلهية يختص بها الله ﷻ الإنسان الذي كرم نفسه في الدنيا زهدا وعملا وتقوى، ولذا "فليس التقوى إلا العلم وتحري الأفعال المحمودة، فإذا كل من كان أتقى كان أكرم"⁴، فالزهد والتقوى، هما سبيل تكريمية إنسانية خالصة. لقد أعاد الإمام للإنسان مسؤوليته في تكريم نفسه، أو إهانتها، "فإن يعذب فأنتم أظلم، وإن يعف فهو أكرم"⁵، وكأن الإمام يعطيه تعريفا توصيفيا: أن الإنسان مكرم، قال تعالى: ﴿فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾⁶، وقال أيضا: ﴿فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾⁷، توصيف لتكريميته وتجليات التكريم الإلهي لإنسان الآخرة، نوضحها بهذه الترسيمة الجامعة لصور الكرامات:

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 293.

² - سورة الحج، الآية 18.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 353.

⁴ - الراغب الأصفهاني : مكارم الشريعة، ص 118.

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 353.

⁶ - سورة الصافات، الآية 42.

⁷ - سورة المعارج، الآية 35.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

الكرامة →	• الكمال •		← التكريمية
العامل	إلهية = الكرامة الأولى	إنسانية = التكريمية الثانية	إلهية = الكرامة الثالثة
الحالة	تفضيلية قبلية [= الإيجاد]	إنسانية [= عملية بالتقوى]	أخروية بعدية [= الجنة]
الفاعل	كرامة	إنجازية بنائية: بالعمل الصالح والخيرات	تكريم

ووفق هذه القاعدة فإن العذاب على الظلم، يدل على فقدان التكريمية الثانية وتضييع الثالثة، وإن العفو يدل على تكريمية إنسانية ثانية بفعل إنساني، وتحصيل تكريمية ثالثة بفعل إلهي.

ثالثاً- خاصية الروحية :

جاء في المقاييس في معنى الروح: "الراء والواو والحاء أصل كبير مطرد، يدل على سعة وفسحة واطراد. وأصل [ذلك] كلّه الرّيح.. فالرّوح رُوح الإنسان، وإنما مشتق من الريح.. والرّوح: نسيم الرّيح، ويقال أراح الإنسان، إذا تنقّس"¹، فالروح بهذا طاقة عالية، هي طاقة الحياة، وفي اللسان: "والروح أيضاً: السرور والفرح، واستعاره علي رضي الله عنه لليقين فقال: فباشروا روح اليقين، قال ابن سيده: وعندني أنه أراد الفرحة والسرور اللذين يحدثان من اليقين. والروح، بالضم في كلام العرب: النفخ، سمي روحاً لأنه يريح يخرج من الروح. والرياح: أن يراح الإنسان إلى الشيء، فيستروح وينشط إليه. والارتياح: النشاط. والروح هو الذي يعيش به الإنسان.. والروح إنما هو النفس الذي يتنفسه الإنسان، وهو جار في جميع الجسد"². إن المعاني المستفادة من هذه المادة الدلالة على الطاقة والنشاط، وما يحقق الانبساط، وكله مهم في بث الحياة في الكائن، أما صاحب التعريفات، فيقول: "الروح الإنساني: هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان الراكبة على الروح الحيواني، نازل من عالم الأمر، تعجز العقول عن إدراك كنهه، وتلك الروح قد تكون مجردة، وقد تكون منطبقة في البدن"³، فهي مصدر منح الحياة، ومحركة البدن بالطاقة اللازمة في كل نشاط، حيث تعطي سحراً خاصاً للإنسان بالحياة والإبداع، وتمكن من تجاوز الواقعي المهش، إلى الروحية الصافية التي تدفع المزاحمات الشهوية والغضبية، وهي قيمة رفعة تبصر بالجنة، وعالم الروح "هو عالم القيم والمثل والحق والخير والعدل والجمال والحقيقة"⁴، والإنسانية والارتفاع عن المطالب المادية.

¹ - ابن فارس : مقاييس اللغة، ص 359.

² - ابن منظور : لسان العرب، مج 4، ص 288، 289، 290.

³ - الشريف الجرجاني : التعريفات، ص 97.

⁴ - راجي الأسمر : فلسفة التربية الإسلامية، ص 154.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

أ- الروحية عروج ذاتي، ووعي بالزمن: يدرك أصحاب العقول الكبيرة أسرار نقلات العمر، فما معنى أن يبدأ الإنسان طفولته بعالم المحسوسات الظاهرة؟! وما معنى تدرجه، ليدرك بعقله الحقائق والمجردات، ويعيها؟ وما معنى امتلاكه لعين البصيرة، فيرى بذاته ما وراء الجرد والجامد؟! إن الأمر يتعلق بوعي الزمن بكشف عميق أدركه الإمام ببصيرته فجعله ثلاث ساعات: "للمؤمن ثلاث ساعات: فساعة يناجي فيها ربه، وساعة يرم معاشه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذتها في ما يحل ويحرم"¹. إن شخوص العاقل يبدأ بالأفق الأعلى، الصورة الروحية التي تبلغها الذات، وهي مناجاة الله، ثم ينتقل إلى ساعة تحصيل المعاش، بما يبذله من سعي لتحصيل رزقه، وساعة الخلو إلى النفس في لذاتها الحلية، ثم إن البعد الروحي في ساعة المناجاة، برفعته وكماله ينتصب بتأثيراته على الدلالة الثانية والثالثة من ذلك الزمن، بمعنى آخر أن الروحية تضفي على الزمن تقسيما [= تليويا، صالحا، موافقا للحق، إنجازيا، مقدسا]، فيه رفعة في كل أداء، وهي لا تحصل إلا بآليات علمية تحدث نقلة نوعية، توصل إلى مرتبة الاطمئنان للحق والارتفاع إلى عالم الروح، ومن أعظم هذه الآليات الصلاة، وما تحدثه من أثر في نفس الإنسان الساعي في طريق الكمال، يقول الإمام: "الصلاة قربان كل تقي، والحج جهاد كل ضعيف، ولكل شيء زكاة وزكاة البدن الصيام"². إن الصلاة هي أداة القرب، بوصفها نشاطا روحيا خالصا تتفاعل فيه كل الطاقات والقوى في إحداث عملية الوصل، والصيام زكاة البدن، ينال به حظه من التكرمة والنمو والطهارة، وتحصيل الطاقة والعروج الروحي، جاء في الحديث النبوي: "الصلاة نور"³ و"الصيام جنة"⁴، تقودان إلى الارتفاع بالنفس من عالم المادة والشهوات إلى عالم الروح، بهذه الرياضة ذات المنحى الشمولي الملامس لكل القوى والجزئيات والمركبات في الذات الإنسانية، ويقدم لنا الإمام فوارق لحالات هذا التدرج من الأدنى الذي لا يعقل [= الحيوان]، إلى المادية [= النساء]، إلى الأعلى الذي يرتفع إلى عالم الروح [= المؤمن]⁵،
بخلاصات نوعها:

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 494.

² - المصدر نفسه، ص 452.

³ - ابن الحجاج مسلم: صحيح مسلم، تح محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج 1، ص 203.

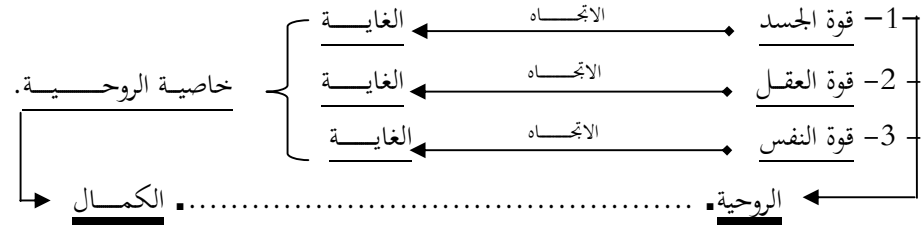
⁴ - مالك بن أنس: موطأ مالك، ج 3، ص 445.

⁵ - ينظر نهج البلاغة، ص 205.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

النوع	الانشغال / الهم	الخاصية	الأداة والأسلوب	الدرجة	الحالة	التوصيف
البهائم	البطن.	الحيوانية	- الأكل	1	غير عاقلة + غير مكلفة	الأنعام
السباع	العدوان والبطش	الحيوانية	- الاعتداء	2	باطشة / غير مكلفة	الأنعام
النساء	زينة الحياة الدنيا الفساد فيها	المادية	- الزينة - الفساد	3	غير عاقلة + مكلفة	حالة الأنعام دون الإنسانية
المؤمنون	مستكينون	الروحانية	- الاستكانة	4	عاقلة مكلفة	حالة الإنسانية
	مشفقون	الجسد	- الإشفاق		عاقلة مكلفة	حالة الإنسانية = الكمال
	خائفون	العقل النفس	- الخوف		عاقلة مكلفة	

إن الروحانية هي خاصية إنسانية تقع ما بين الحالة الحيوانية، وجامعها [= الأكل + العدوان]، وهي منزلة تفتقد للعقل والتكليف، والحالة المادية، وتمثلها النساء، وجامعها [= الزينة + الفساد]، ومن يمثلهن، وهي منزلة تكليفية معطلة للقوى، ومن ثم فالإنسان يتجه بالتعطيل إلى المادية أو ما دون الحيوانية، وبالاشتغال إلى الروحانية والكمال بتفاعل الطاقات وارتفاعها، من خلال:



إذن فصاحب خاصية الروحانية، هو من يقطع الزمن عاملاً، وعليه "فإن روح الإنسان هي سيدة مصيره"¹، وتمثل الإنجاز الإيماني التعبدي، والسير المستقيم والتوجه نحو الحق، وفي هذا السير الزمني المقطوع بوعي وتدرج، وصولاً إلى العروج إلى منزلة الروحانية، يتعين تخطي صور الحياة المادية المثبطة، يقول الإمام: "أيها الناس! اتقوا الله، فما خلق امرؤ عبثاً فيلهو، ولا ترك سدى فيلغو، وما دنياه التي تحسنت له بخلف من الآخرة التي قبحها سوء النظر عنده، وما الغرور الذي ظفر من الدنيا بأعلى همته، كالآخر الذي ظفر من الآخرة بأدنى سهمته"²، فالروحانية تفترض رؤية غيبية خاصة تجمع بين الزمن الدنيوي والأخروي، وتجعل الدنيا مطية الآخرة، بمعنى أن الزمن، هو زمن روحي ممتد يؤخذ بإرادة ووعي خاص، أي وعيه وعيا كونياً، ووعي إرادة وعمل، وعقله بمقاصد غيبية، بينما المادية، هي نظر ظاهري تنتهي بنهاية زمن الدنيا، كما أن المادية تلخص فكرة العيشية والعدمية، وما فيها من صور التمتع والظفر، أما الحيوانية، فهي بلا تصور ولا محددات ولا إرادة ولا عقل، وبهذا

¹ - عماد الدين خليل : موقف الإسلام من العلم، ص 40.

² - علي بن أبي طالب : نخب البلاغة، ص 490.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

فالإنسان الكامل هو من تجاوز بحسن نظره الإطار المادي، وتحرر من محدودية الزمن الدنيوي، يقول "ابن باديس": "الإنسان مهياً للكمال بما فيه من الجزء النوراني العلوي، وهو روحه، ومعرض للسقوط والنقصان بما فيه من أخلاط عناصر جزئه الأرضي الظلماني، وهو جسده. ولا يخلص من كدرات جثمانه ولا ينجو من أسباب نقصانه إلا بعبادة ربه التي بها صفاء عقله وزكاء نفسه، وطهارة بدنه في ظاهره وباطنه"¹، فالعبادة مرسخ فعلي لخاصية الروحية في الذات، وتحرر حقيقي من المادية القتالة، فكيف يمكن وعي هذا بأبعاد روحية، وكيف يتم وصل الدنيا بالآخرة؟!

إن هذا الإمكان قائم في العقل الإيماني الذي يتصور أن خالقا أعظم هو علة الموجودات، خلق الإنسان تحديدا لعبادته وعمارة أرضه، وكلفه بأداء أمانة واضحة، يقول الإمام: "عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها، فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذبون"²، كلام رفيع يشخص أحوال الكمل من الناس الأتقياء المؤمنين، بهذا اليقين والامتلاء بالله ﷻ، ومشكلة معادلة أن الروحية [= تعظيم الله + صغر ما دونه = المادية وصورها (= المال، البنون، الدنيا، الشهوات، المستكبرون)]، ولهذا كانت كلمة التوحيد زلزلة وانقلابا جوهريا في حياة الإنسان، ومآخذه تبدلات وظيفية، مثلت امتلاء الذات بالمعنى الروحي، وهذا من ثمرات تعظيم الله، يقول "مصطفى ناصف": "لا إله إلا الله مبعث الشعور الحي، تزلزل الجسد والروح"³، نلاحظ معها الآتي: أولا الرؤية والنظر: رؤية كونية ما ورائية، وثانيا الوصل الزمني: وصل الدنيا بالآخرة بقوانين الطاعة والامتثال، وثمره هذا، هو الجنة، "فهم والجنة كمن رآها"، وعليه فإن رؤية الزمن ببعديه يعد حالة وعي إيمانية روحية، وثالثا أحوالهم [= قلوبهم محزونة، شرورهم مأمونة، أجسادهم نحيفة، حاجاتهم خفيفة، أنفسهم عفيفة]، أوصاف دالة على أحوال وأبنية وظيفية هي طهارة النفس وعفتها، مع الخشية والتفكير، مرسخة لهذا البعد الروحي وتشكله في الذات بأسسه الفاعلة، وبهذا الأسلوب يفتح الإمكان أمام الذات لكي تمتلئ بالحيوية والطاقة الروحية، و**رابعا** البصيرة بالزمن، وإدراك حقيقة الدنيا؛ فلا يمكن تجاوز النزعة المادية بثقلها، إلا بوعي وفكر ثاقب، واكتشاف الأسلوب الأمثل في إدارة الذات، أسلوب الصبر، وقوة الإرادة⁴، ففي الدنيا (صبروا أياما قصيرة، أرادتهم الدنيا، أسرتهن)، وفي الآخرة (أعقبتهن راحة طويلة، فلم يريدوها، فدوا أنفسهم

¹ - ابن باديس : تفسير ابن باديس، ص 246.

² - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 284.

³ - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 223.

⁴ - ينظر نهج البلاغة، ص 284.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

منها)، وتمثل هذه الآليات امتداد الزمن من الدنيوي إلى الآخروي، وثمرته تحقيق الروحية، حيث الراحة، والتجارة المربحة، وبهذا يمكن إحداث نقلة طبيعية من المادي إلى الروحي بالوصل، من الزمن المادي (أرادتهم وأسرتهم) إلى الزمن الروحي (فلم يريدوها وفدوا أنفسهم منها)، لأن "العبادة صلة روحية عميقة للذات الإلهية"¹، تدرك بالوعي والإرادة، وهي عروج واع بالتركيز، وحالة من الامتلاء بالمعنى الإيماني، وتمثل الصورة المخيالية الإيمانية التي تنجز وترى بالعمل، ولا يمكن لها التحقق إلا بمعالجة مباشرة لما يمكن أن تتماس معه الذات، مع هذا البعد الروحي بالتقوى² التي هي علم رؤية إدراكية، لذا كان حال المتقين بهذا الفهم الرفيع، حيث تجسد لهم نيل الزاد:

أهل الدنيا	أهل الآخرة ...
- ذهبوا بعاجل الدنيا.	- ذهبوا بعاجل الدنيا و آجل الآخرة.
- لم يشاركهم أهلها آخرتهم.	- مشاركة أهل الدنيا دنياهم.
- سكنوا الدنيا.	- سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت.
- أكلوها.	- وأكلوها بأفضل ما أكلت.
- حظوا بالمترفين.	- حظوا بما حظى به المترفون.
- أخذ الجبارة المتكبرين.	- أخذوا منها ما أخذ الجبارة المتكبرون.

الانقلاب بالزاد المبلغ والمتجر الرابع

وقد كان من ثمرات هذه البصيرة أنهم حققوا حالة من الاعتدال والتوازن والجمع، بحيث لا ينقص لهم نصيب لذة [= سعادة الآخرة]، ولا نصيب الدنيا بالقسط [= سعادة الدنيا]، ثمرة الارتفاع عن الحيوانية والمادية، "وهو بهذا (الإنسان) يكون زاهدا في الدنيا، وهي مغدقة عليه"³، وتأتي أهمية إدارة الحياة بهذا الوعي والفقهاء لتكون عاملا حاسما في تحقيق خاصية الروحية، يقول الإمام: "وإن للذكر لأهلا أخذوه من الدنيا بدلا، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه، يقطعون به أيام الحياة، ويهتفون بالزواج عن محارم الله في أسماع الغافلين، ويأمرون بالقسط ويأتمرون به، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه"⁴، فالذكر يعد مفتاح الوصل يفتح أبواب المعرفة، وعملية شغل القلب بالتفكير الباطني وما يملأ داخل الإنسان [= الإيمان بالله]، فذكر الحق هو تنمية وجدانية روحية باعثة على ذلك العروج، وإحدى تجلياته، حيث تسبح الذات في العالم الآخر، "كأنما القيامة كشفت لهم عن

¹ - أنس شكشك : فلسفة الحياة وحكمة الوجود، ص 75.

² - ينظر نهج البلاغة، ص 353.

³ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 353.

⁴ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 318.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

الوعد التي وعد بها الأخيار والأشرار"¹، رؤية ومشاهدة وقربا وعروجاً، إلى المحل الأعلى بالعمل، ويحقق الجسد استتباعه بها، يقول الإمام: "قلوبهم في الجنان، وأجسادهم في العمل"²، فالعروج عمل، "ولن يفوز بالخير إلا عامله"³، وعليه فالروحانية هي سير سلوكي وعملي وتعبدي وإدارة ضابطة للخروج من نزعات الدنيا، والارتفاع عن حيوانية الجسد، إلى كمال الروح والإنسانية.

ج- الروحية والجنة، مآل وعي: إن تدرج الإنسان بالتركيبية والتهديب والتوبة، تمثل بداية تهيئة بالمراجعة للانطلاق نحو الأعلى، يقول الإمام: "وكانت أعمالهم في الدنيا زاكية، وأعينهم باكية، وكان ليلهم في دنياهم نهاراً، تخشعا واستغفاراً، وكان نهارهم ليلاً توخّشاً وانقطاعاً. فجعل الله لهم الجنة مآباً، والجزاء ثواباً، وكانوا أحقّ بها وأهلها، في ملك دائم، ونعيم قائم"⁴، وبالتأمل في المعنى نرى كيف كان تقسيمهم للزمن بالعمل لهذا المتاح الإمكان من العمر، بترقية واعية ونمو دافع إلى رفعة الروح لنيل النعيم المقيم في الجنة. إذن فالروحانية وعي بالزمن تقسيماً وتصرفاً وتمثلاً، وربطاً يؤصل هذا الجهد ويعلقه بالجنة، لتكون الجنة والإنسان، هي نبت الروحية، وملاءمة طبيعية تجمعهما، وعندما تكون الروحية نبتاً للعالم الآخر، فإنها تجعل الإنسان عبداً لله، يقول الإمام: "إن من أحب عباد الله إليه، عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن، وتجلّب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه، وأعد القرى ليومه النازل به، فقرب على نفسه البعيد، وهون الشديد، نظر فأبصر، وذكر فاستكثر، وارتوى من عذب فرات، سهلت له موارده، فشرب نهلاً، وسلك سبيلاً جديداً، قد خلع سراويل الشهوات، وتخلّى من الهموم، إلاهما واحداً انفرد به، فخرج من صفة العمى، ومشاركة أهل الهوى، وصار من مفاتيح أبواب الهدى، ومغاليق أبواب الردى"⁵، وهنا نؤكد على أهمية الهداية التوفيقية، والإعانة الإلهية الهادفة إلى تذليل النفس لعبادة الله، والأمر الثاني أهمية العمل الذاتي الذي يقطع به الإنسان هذه الرحلة إلى الآخرة، وتلخص الأوصاف العرفانية والذاتية مراحل هذه التجربة، حيث تبدأ بمرحلة التطهير والتركيبية، أين يزهر القلب بمعالم الهدى ويشرق بأنواره، ومرحلة الإنفاق والعطاء، بتنمية طاقة الإنفاق باليد، والتحرر من سيطرة النفس وأمراضها [= الشح والبخل والقبض]، ومرحلة

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 318.

² - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 283.

³ - المصدر نفسه، ص 374.

⁴ - المصدر نفسه، ص 265-266.

⁵ - المصدر نفسه، ص 116.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

رؤية الحق، وهي مرحلة الذكر والعرفان، ومرحلة التخلية، يتخلى فيها الإنسان عن لبوس الشهوات والمفاسد، ومرحلة تحصيل منزلة الإمامة بالترقي الكمالي، بالهداية إلى الحق، وسد سبل الباطل.

إن هذه المراحل هي مراحل متدرجة متصاعدة تنتهي إلى تثبيت خاصية الروحية، ونلاحظ مع هذه المراحل المتقدمة الواعية، اعتمادها على التخفف من النزعة المادية، والعروج إلى أحوال العرفان، وقيم الروح، يقول "محمد عبده" واصفا الملتزم بأمر الله ونهيهِ: "نفذت بصيرته إلى حقائق سر الله في ذلك، فصار من درجات العرفان، بحيث لا يرد عليه أمر إلا أصدره على وجهه، ولا يعرض له فرع إلا رده إلى أصله"¹، لأنه فقه ووعي الحق فتمثله، ولذا يؤكد الإمام على أهمية هذا السلوك، قائلاً: "وإن الساعة تحذوكم من خلفكم، تخففوا تلحقوا"²، حيث تلزم هذه المراقبة بالتخفف من كل ما تطرحه الدنيا [ملذات، شهوات، أهواء...]، بالمجاهدة والعمل، قصد اللحاق بالمبتغى عالم الآخرة [= الجنة]، ويعني هذا أن الخروج من الحيوانية [= الأدنى]، والمادية [= المفسدة] يتطلب تطبيق برنامج عملي [= اللحاق]، يبرزه الإمام بقوله: "وعن ذلك ما حرس الله عباده المؤمنين بالصلوات، والزكوات، ومجاهدة الصيام في الأيام المفروضات، تسكيناً لأطرافهم، وتخشيعة لأبصارهم، وتذليلاً لنفوسهم، وتخفيضاً لقلوبهم، وإذهاباً للخيلاء عنهم، لما في ذلك من تعفير عتاق الوجوه بالتراب تواضعاً، والتصاق كرائم الجوارح بالأرض تصاغراً، ولحوق البطون بالمتون من الصيام تذلاً، مع ما في الزكاة من صرف ثمرات الأرض، وغير ذلك إلى أهل المسكنة والفقير"³، بعد العناية الإلهية للإنسان "حراسة = هداية" توفيقية تستتبع "بحراسة ذاتية" تكون بالعبادات التي هي آلية تربوية وعناية إلهية جامعة، وذاتية من العبد، لأن هدف هذه الفرائض "تخليص النفوس من تلك الرذائل"⁴، تدخل وظيفتها في تزكية النفوس وأما ثمراتها فإنها تسهم في ترسيخ خاصية الروحية، ومن ثم عروجها بالإنسان إلى المحل الأعلى، وهي تزكية وتنمية بالتواضع ونزع كل صور التكبر، وغلبة حالة السكينة واللطف والرحمة والمحبة في علاقته بالناس، حفاظاً على إنسانيته وفطرته وجماليته، وانطلاقاً من هذا البرنامج العملي في التزكية والتهديب للنفس، فإن الإرادة الإلهية بالعبد تريده أن يرتفع، وإرادة الإنسان الذي فقه وأدرك بوعيه هذا المعنى يطلب هذه الرفعة، ويريد هذا المحل الأعلى وهو الجنة، وبالرجوع إلى تركيبية الإنسان [= الأرضية] من الطين، و[= السماوية] من الروح، فإن

¹ - محمد عبده: شرح نصح البلاغة، ص 316.

² - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 231.

³ - المصدر نفسه، ص 276-277.

⁴ - محمد عبده: المصدر السابق، ص 276.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

هذا الارتقاء يصبح ضرورة. إننا أمام مجاذبة قائمة بين مكونين رئيسين، الجسد والروح، تنتهي إلى حالة من الامتلاء الروحي، وهذا بصرف النزعة الترابية، وقطع الدنيا إلى الآخرة، والارتباط بالجنة بحالة واعية، وتتم بتشكيل مخيلة [= جنانية]، فوصف الجنة للإنسان يغيره بها، ترسم في الذات وتقرّب بالمخيال، وتدلل على عروج فكرة وصورة وحال وإمكان، وفق خطوات وظيفية:

أولاً: الرؤية والمشاهدة: يقول الإمام: "فلو رميت ببصر قلبك، نحو ما يوصف لك منها، لعزفت نفسك عن بدائع ما أخرج إلى الدنيا من شهواتها ولذاتها، وزخارف مناظرها"¹، وهي رؤية داخلية روحية، دالها: "بصر قلبك"، وتتكى على ما وصف منها للإنسان، وهذا بتحويل قوة الجذب إلى الجهة الروحية، قصد التحرر من الانبهار بالصورة المادية للدنيا، إلى الذهول بصور الجنة، وما فيها. ثانياً: الأوصاف: يقول الإمام: "ولذهلت بالفكر في اصطفاف أشجار غيّت عروقها في كثران المسك على سواحل أنهارها، وفي تعليق كبائس اللؤلؤ الرطب في عساليجها وأفنائها، وطلوع تلك الثمار مختلفة في غلف أكمامها، تجنى من غير تكلف، فتأتي على منية مجتنيها، ويطاف على نزالها في أفنية قصورها بالأعسال المصّفة"²، أوصاف تذهل الفكر وجاذب فاعل، بالحضور القلبي، لتحقيق العروج الروحي، قال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَها لَهُمْ﴾³، معرفة بالرائحة والأوصاف، وعلى الإنسان أن يعرج إليها بروحه.

ثالثاً: الحلول مع أهلها: يقول الإمام: "قوم لم تزل الكرامة تتماذى بهم حتى حلوا دار القرار، وأمّنوا نقلة الأسفار"⁴، تكريماً لكمال روح إنسانية، ونقله تغيير من طبيعة مادية دنيوية، إلى روحية أخروية. رابعاً: آلية التشويق: يقول الإمام: "فلو شغلت قلبك أيها المستمع، بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونقة، لزهقت نفسك شوقاً إليها، ولتحملت من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً بها"⁵، تشكل هذه الآلية التشويقية هزات ذاتية تطبع نفس الإنسان، بعد التحرر من الغاني، وتعبيد نفسه لربه، ليبصر بقلبه محله الأرفع الذي يتقدم إليه بوعي جمالي عرفاني.

وبهذا تكون النزعة الروحية قد استندت إلى أسس بانية من المجاهدة والوعي بالزمن والمعرفة البصيرة، والطهارة من الدنس، إلى رؤية الجنة، بمخيال جناني ثان تمنح الإنسان ألقاً، ومسحة كمال.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 227.

² - المصدر نفسه، ص 227-228.

³ - سورة محمد، الآية 06.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 228.

⁵ - المصدر نفسه، ص 228.

رابعاً- خاصية الخيرية :

جاء في المقاييس: "الحاء والياء والراء أصله العطف والميل، ثم يحمل عليه. فالخير: خلاف الشر؛ لأن كل أحد يميل إليه ويعطف على صاحبه. والخيرة : الخيار، والخير: الكرم (...). ثم يصرف الكلام فيقال: رجل خيرٌ وامرأة خيرة : فاضلة. وقوم خيار وأخيار في صلاحها [فاضلة في صلاحها]"¹. إن ميل وانعطف الإنسان إلى جهة الخير، يؤكد على انطلاق من ذاته الأصيلة، أما صاحب اللسان، فيقول: "الخير: ضد الشر.. وهو خير منك وأخير، وقوله عز وجل: "تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ" أي تجدون خيراً لكم من متاع الدنيا، وقال تعالى: "وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ" جمع خيرة، وهي الفاضلة من كل شيء.."²، فالخير هو العمل الفاضل الصالح الذي يبلغ الإنسان غاية الدنيا والآخرة، وتشكل كلمة الخير في القرآن معجماً متنوعاً، يدل على ارتباط المفردة بالمواقف والمعاني، كتفضيل الصدقة والتوبة والعمل الحسن، والأمة المخرجة، وخيرية القلب، والمسابقة والمسارة إلى الجنة، أي أن الخير موقف يتخذه الإنسان أمام خيارات تطرح أمامه ونزعة ذاتية تميل به إلى جهة ما هو فاضل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾³، أهل أخيار أفاضل أبرار، ومن ثم فالخيرية هي خاصية تمييزية، فهي توجه نحو الحق وقيم الجمال والإحسان والعدل.

أ- الخيرية أصل ذات جمالية: تنمّر خاصية الربانية والتكريمية والروحانية، معنى إنسانيا خاصا يدفع إلى الخير، لأن النفس الطيبة التي اطمأنت إلى الحق، هي نفس خيرة، تلخص جماع عناصر ذاتية دافعة إلى هذه الإرادة بوعي وقوة عقل وفكر، وإضاءة نفس وفطرة سليمة، وإنسانية رفيعة، من خلالها يتحرك العقل والعاطفة وتتحرك اليد، نحو فكرة الخير، وكأنها انطبعت صورة راسخة فيها، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾⁴، مع المضاعفة التي تشكل علاقة التقاء، وخيرية ترفع الذات الإنسانية بالأحسن إلى الجمالية، لتكون تنمية وتربية وتهذيباً لجوانية الإنسان، يقول الإمام: "من يعط باليد القصيرة، يعط باليد الطويلة"⁵. إن يد الإنسان القصيرة [= عطاء] تمتد إلى غيرها، بالخير والبر والإحسان، ويد الله الطويلة [= بعطاء الكرم]، تمتد إلى هذا المعطي (بالخير)، بالجزاء المضاعف، كما تسجل صورة

¹ - ابن فارس : معجم مقاييس اللغة، ص 275.

² - ابن منظور : لسان العرب، مج 3، ص 261

³ - سورة ص، الآية 47.

⁴ - سورة البقرة، الآية 260.

⁵ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 465..

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

التعارف الإنساني والإعمار بالصالحات والخيرات، ومن الملاحظات البينة في خاصية الخيرية دلالتها على إرادة الله من العبد، أن يخرج من ذاته المعنى الخير [= الجمالي]، وتنمية خاصيات المحبة والحرية والإنسانية في الذات، وتثبيت قانون الخدمة- خدمة الآخر، ومن ثم دفع الإنسان إلى المشاركة مع المجموع، وتركيبه العضوي الحي الفاعل الذي يثمر خيرية الحق، وتعني كلمة الخير ذلك "القصدي السامي والرفيع، ويعني اختيار الأعلى والأفضل والأحسن والأشوق على النفس والمصلحة بين قاصدين أو بين قولين أو فعلين فاضلين"¹، وهذا المعنى يستخلص منه كمال هذه الفضيلة في الذات، وبذلك فالخير هو الانتصار على نوازع النفس، ويؤول الإمام معنى الخير، قائلاً: "ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك، ويعظم حلمك، وأن تباهي الناس بعبادة ربك؛ فإن أحسنت حمدت الله، وإن أسأت استغفرت الله، ولا خير في الدنيا إلا لرجلين: رجل أذنب ذنوباً فهو يتدراكها بالتوبة، ورجل يسارع في الخيرات"²، وكلامه ﷺ يحمل تعريفاً ضابطاً لماهية الخير متمثلاً:

- 1- في نفي الماهية التكاثرية: وتعني نفي النزعة المادية التي تجعل الإنسان يخلد إلى الأرض.
 - 2- في إثبات الماهية المعنوية: بالعلم والحلم والعبادة وتصويب الوجهة نحو العمل الصالح الحسن.
 - 3- المجال الحامل لفكرة الخيرية: وتربط بحق النفس للمذنب المتدارك بالتوبة، والمسارع في الخيرات.
- إننا أمام تدرجات ضرورية، تجعل من الخيرية أصلاً ثابتاً، في النفوس الطيبة الجميلة، ولهذا جعل الإمام للخير أهلاً، كما أن للشر أهلاً، حيث يقول: "إن للخير وللشر أهلاً، فما تركتموه منهما كفاكموه أهله"³، تخصيص، يثبت الخيرية في الإنسان العاقل الكامل، والشر في الشقي، و"لا ريب أن العاقل يختار فعل الخير وترك فعل الشر، إذا أفكر حق الفكر"⁴، بحركة طوعية نحو الخيرية التي هي شجرة مثمرة يانعة، دالة على كمال النفس، وجمال الذات، ورفع الإنسانية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾⁵، يعلق الأستاذ مالك بن نبي على مختتم الآية، فيقول: "الآن اكتملت الآية: وزعوا أموالاً طبعاً، لكن أضيفوا إليها فكرة، أو كلمة، أو لفظة تعبر عن شعوركم، عن مفهومكم، عن فكرة (الخير) عندكم"⁶،

¹ - رضوان السيد: القيم القرآنية ورؤية العالم، مسارات التفكير والتدبير، ص 25، 26.

² - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 443.

³ - المصدر نفسه، ص 498.

⁴ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج 10، ج 20، ص 35.

⁵ - سورة النساء، الآية 08.

⁶ - مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 25.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

ففكرة الخيرية تعني ارتفاع الإنسان عن النزعة المادية، وكأنها خميرة جامعة لأهل الخير والإيمان، يقول "محمد سليم الكاظمي": "إذا كثرة الخير وزيادة البركة في الشيء وعظمة النعمة فيه تجعله غزيراً عظيماً العطاء وكثير الخير"¹، ومقصد الدعوة الإلهية إلى فعل الخيرات، أن تتأسس القيم الجمالية والخيرية المطبوعة بطابع المحبة في النفوس، بين الناس والمخلوقات، فهي أصل دال، قيم ذات طابع إنساني كوني وجمالي، كما بينه الحديث النبوي، "فأكل منه إنسان أو طير، أو بهيمة إلا كان له به صدقة"²، فيه دعوة إلى تشارك كوني من خلال فعل الخير من أجل بناء هذا العالم وفق رؤية قرآنية كونية وصبغة إنسانية، أي وفق رؤية إلهية، وتجسيدها بآلية التعارف، ولذا فإن الخيرية باعتبارها خاصية دالة على أصل كريم، فإن الله أشرف لها أنفساً، في الأخيار الأحرار، تنبلج من ذاتهم وعالمهم الجواني الخالي من الكدر [= البغض والحقد والحسد] معاني الخير، ولذا "فغاية الفاضل في الفضيلة أن تقع منه الفضائل أبداً من غير فكر ولا روية، لغلبة قواها عليه، وبعد ما ينافيها منه"³، فهذه تلقائية نفس منطلقة، في رحاب من الوساعة الكونية والإنسانية، آخذة من تجليات أسماء الجمال الإلهي، لتصبح تهيئة في أرض هي حراثة للخير، فهو [= الفاعل] للخيرية والإنسانية.

ب- الخيرية وإخراج مكامن الإنسانية: إن القيمة الحقيقية لهذه الخاصية ليست في كونها فكرة مجردة أو صورة ذهنية في العقل، وإنما هي فكرة عملية بالأساس، تنطلق من الذات الحرة الكريمة، الشفيفة الجميلة التي تمتعت بقابليات النمو والزكاة، الذات الحية التي هي ذات حياتية/كونية منطلقة، واعية بضرورة أداء الوظيفة الإنسانية الكونية، وظيفية محددة في معادلة الوجود، بنائية بالاستحلاف وتعمير الكون بالخيرات، وفق منهج الحق، وهي خيرية تقود إلى تحرير الناس من أسر الطغاة المستكبرين، المذلين لكرامتهم، تحرير انطلاق، ينتج تعارفية بين الناس، تعارف تبادلي، إثماري، إنتاجي، إبداعي، تواصل، تعريف بالقيم والجماليات والإنسانيات، تعارف: يعرف بالحق، وتعارف: يدفع إلى الخير بين الناس، وتعارف: يجدد الأمانة والمسؤولية تجاه المخلوقات، وتعارف: جمالي بيني العالم والكون، وتعارف: إنساني، في شمولية هذه الخيرية، يقول الإمام: "افعلوا الخير ولا تحقروا منه شيئاً، فإن صغيره كبير، وقليله كثير، ولا يقولن أحدكم: "إن أحداً أولى بفعل الخير مني"، فيكون والله كذلك"⁴، فالتحفيز بين في تنشيط النفس، لتخرج مكامن الإنسانية منها، وتدفع صور الخير من

¹ - الكاظمي محمد سليم : السر الأعظم (سر الأسرار) دراسة في أسرار وخفايا سورة الرحمان، دار المعتز، عمان الأردن، 2017، ط1، ص 294.

² - سبقت الإشارة إليه.

³ - الراغب الأصفهاني : مكارم الشريعة، ص 102.

⁴ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 117.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

هذه الذات نحو الآخر، نحو العمارة والتعارف المعضد للحمة الإنسانية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾¹، إننا نجد بين النصين استلهام لهذا المعنى، أخذه الإمام مشكلا إياه في معادلة مركبة: الإنسان + فكرة الإيمان [الركوع، السجود، العبادة] + فعل الخير تستلزم ضرورة تحقيق الفلاح، إذا فهذه معادلة استقامة، دافعة إلى تنشيط النفس إلى فعل الخيرات، بمعنى الانطلاق من المقوم الذاتي: [= الإيمان، الركوع، السجود، العبادة]، وهو مقوم بنائي، إلى مقوم إخراج الخيرية من الذات: [= افعلوا الخير]، مع الناس، ومع الآخر، لتحقيق الفلاح، من خلال البناء الإنساني، الكوني، الأخروي.

إن فعل الخير برأي الإمام يثمر بضابط: أن لا يحتقر منه شيء، حيث أن صغيره كبير، وقليله كثير، ولا ينوب فيه أحد عن آخر، وكل هذا يؤكد على أهمية هذا الفعل في تجسيد ورسم صورة الإنسان، الصورة المعلنة المخرجة [= فردا - أمة]، إلى الإنسانية، بالخيرية، وعليه فإن الخيرية تصبح دالة على الحالة الإيمانية التعبدية [= الخضوعية]، والحالة الإنسانية، بالتعارف والتعاون، والإعمار بالصالحات، والحالة الكونية [= تساوقا]، ودالها حديث الغراسة والزراعة الذي يجسد الرعاية الخيرية/الكونية، يقول ابن القيم: "وكل خير في الدنيا والآخرة فسببه الإيمان، وكل شر في الدنيا والآخرة فسببه عدم الإيمان"²، أي أن الخيرية فكرة إيمانية بتجليات إنسانية كونية، ولهذا كان فاعل الخير، خير منه - الخير، يقول الإمام: "فاعل الخير خير منه، وفاعل الشر شر منه"³، بحيث يصبح الخير كرامة إنسانية، أي سيما ذات خيرة، وبالمقابل فإن فاعل الشر يمثل سيما ذات شريرة دالة عليه، لأن "النفع والضرر إنما حصلا من الحي الموصوف بهما لا منهما على انفرادهما"⁴، ففاعل الخير علامة لسيما إنسانية ورمز دال على هذا المعنى، وهذا تحفيز ودفع إلى أن تصبح الخيرية والإنسان سيما كمال ورفعة تعلقو على الخير المقدم، وحتى يكون الخير وفاعله قيمة حياتية، وعلامة إنسانية، فإن الإمام يدعو إلى أن يصبح أسلوبا لمعالجة النفوس الحاملة للشر، أي أن نزعة الخير نزعة جمالية مغذية، ونزعة خيرية إنسانية بانية للعلاقات بين الناس، فهي تشاركية [= تعارفية]، تظهر من خلالها القلوب والنفوس، وتضاء به القيم، يقول الإمام: "احصد الشر من صدر غيرك بقلعه من

¹ - سورة الحج، الآية 75.

² - ابن القيم الجوزية: الداء والدواء، ص 161.

³ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 435.

⁴ - ابن أبي الحديد: شرح نوح البلاغة، مج 9، ج 18، ص 73.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

صدرك¹، فهذه عملية تطهيرية ذاتية، تمكن خاصية الخيرية في الإنسان بقيمتها، وتسلب منه طاقة الشر، وبهذا فإن طهارة الصدر [= النفس]، تصبح إشعاعاً وإضاءة، نحو الآخر الإنساني، والآخر [= المخلوقاتي]، والآخر الكوني، ومن ثم فلا خيرية من دون الإنسان فاعلاً في ذاته وفي غيره.

وما دامت الخيرية هي اختبار إلهي يتجدد، فإن الإمام ينبه إلى ضرورة صرف النفس عن عالم الشر، لأن طريقه قريب، لذا يتعين بناء حالة التدافع الإيجابي الفاعل بين الخير والشر، فيقول: "آخر الشر، فإنك إذا شئت تعجلته"²، أي دفعا لهذه الطاقة السلبية أن تكون سر الإنسان، وطاقة الوجود، لأن المترتب عنها هو عالم دال على الفساد وسوء الأحوال، بينما تكون الخيرية هي البناء الطبيعي لذات الإنسان في تفاعلها: الذاتي/الإلهي، والذاتي/الإنساني، والذاتي/الكوني، وعليه فطاقة الإيجاب هي بنية تكوينية نحددها كالاتي: الخيرية = خير (ذاتي) + خير (إنساني) + خير (كوني) [= خيرية: إنسانية، كونية، إلهية]، ومثل هذا التصور يحتاج إلى العقل، "لأن العاقل إنسان فاضل، فإنه يعمل على معارضة الرذيلة على المستوى الأخلاقي، لأنها مناقضة للفضيلة"³، أي أن الخيرية هي الإنسانية متجلية في واقع الحياة، وهي علاقة إنسانية إنسانية، وإنسانية كونية، وإنسانية إلهية، تحفز الذات لتخرج [= جوهرها الخير، وما فيه]، إلى الآخر جميعه بالنفع.

ج- الخيرية؛ المسارعة لامتلاك وساعة الحياة والآخرة: إن هذه الخاصية الكمالية [= في الفرد- الإنسان] ميدان تسابق، تمكن الكامل [= المؤمن]، من امتلاك وساعة الحياة والآخرة، فالإنسان فاضل سيد بالخيرية في الحياة، وفاضل سيد بالخيرية في الآخرة، يقول الإمام: "يا كميل مر أهلك أن يروحوا في كسب المكارم، ويدلجوا في حاجة من هو نائم، فوالذي وسع سمعه الأصوات، ما من أحد أودع قلبا سرورا إلا وخلق الله له من ذلك السرور لطفاً، فإذا نزلت به نائبة، جرى إليها كالماء في الخداره، حتى يطردها عنه، كما تطرد غريبة الإبل"⁴، فدعوة الإمام إلى فعل المكارم وصناعة المعروف، هي عملية مسارعة ومسابقة، لنيل شرف ذلك الامتلاك النوعي لمعنى الخيرية، بوصفها الخاصية المبرزة لإنسانية الإنسان، وحرصاً منه "أن يواصلوا أعمال الخير، فرواحهم في الإحسان، وإدلاجهم في قضاء الحوائج، وإن نام عنها أربابها"⁵، فحركة الوساعة [في/إلى الخيرية] يندفع إليها الإنسان

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 458.

² - المصدر نفسه، ص 372.

³ - رضا شاه كاظمي : العدل والذكر، ص 65.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 468، 469.

⁵ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 468.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

الكامل/المؤمن، ومن ثم فهي مجلية للبعد الاجتماعي فكرة في الواقع، وللبعد الإنساني، في إدخال السرور واللطف إلى النفوس، وللبعد الفردي في السعادة الذاتية، فهذه الوساعة تحصل ذلك الامتلاك، من الامتنان الحياتي، ويدعو الإمام إلى مسابقة تحقق المنازل العليا: "فسابقوا - رحمكم الله- إلى منازلكم التي أمرتم أن تعمروها، والتي رغبتم فيها ودعيتم إليها"¹، بالخيرية التي هي التحقيق الإجرائي لوساعة تشمل الإنسان في الآخرة بنيل منازل الجنة، والعمارة الثانية لمنازلها، بعد العمارة الأولى للأرض بالخيرات والصالحات، بحيث تتمكن الآخريين من نيل المراد الذي عجزوا عن تحصيله، فتتحقق لهم بفضل يد أهل الخيرية، يقول الإمام الغزالي معلقا على قوله تعالى "فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ" (البقرة 148)، "أي فاجعلوا الخير غايتكم في كل وجه تنبعثون إليه، فإذا تقرر الهدف كانت وحدة الأمة، وإذا كان الخير هو الغاية، كان الصلاح لا محالة"²، لأنها مرتبطة بالصلاح الإنساني.

إن هذه الخيرية تجعل الإنسان الكامل المتحقق بالخيرية خاصة، يتحرك في هذا الفضاء الواسع، بحيث يصبح كما يقول الإمام: "لا يدع للخير غاية إلا أمها، ولا مطية إلا قصدها"³، وجهة وقصدا، وهو المعنى الذي يظهر به الإنسان في الحياة، فقصدية الإنسان في الحياة هي نزوع طبيعي جمالي إلى الخيرية، ينبعث من ذاته، ويندفع من خلاله نحو هذا المعنى ليكونه، ويسابق إليه دون فوت، دافعا محققا لهذه الخاصية الكمالية فيه، ولهذا "يبقى الاختيار بين الخير أو الشر منوط بالفرد نفسه وفي قدرته على الابتعاد قدر الإمكان عن غروره وتكبره المعهود في أخذ المعلومة أو استقصاء الحقيقة"⁴، بمعنى دلالتها على الإرادة الحرة وحسن التوجه، ويجعل الإمام أمر الخيرية سبيلا واجبا وطريقا ضروريا يتعين سلوكه، مع نفي مضاده من الشر، بمدافعتة ومجانبتة، فيقول: "إن الله أنزل كتابا هاديا، بين فيه الخير والشر، فخذوا نصح الخير تهتدوا، وأصدفوا عن سمت الشر تقصدوا"⁵، فالشر والخير منوط بالنفس، ولذا فالمصدر الذي تؤخذ منه معلومة الخيرية له أهميته، وهو القرآن الذي به تتضح الرؤية نحو الخيرية، ويكشف أهميتها، ويبين عن وجه الشر ليدفعه إلى تلك الخيرية المنتظرة، بالمسارعة في الخيرات، وإنما تربط وظيفيا بما يأتي على الإنسان من لواحق تحدد مصيره الذي يؤول إليه، وفاصل هذا الحد إما أن يكون عاليا تدفع إليه صنعة الخير، أو واطئا يثمره فعل

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 263.

² - محمد الغزالي : جدد حياتك، ص 156

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 117.

⁴ - محمد سليم كاظمي : السر الأعظم، ص 298.

⁵ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 230.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

الشر، يقول الإمام: "فاحذروا عباد الله الموت وقربه، وأعدوا له عدته، فإنه يأتي بأمر عظيم وخطب جليل، بخير لا يكون معه شرا أبدا، أو شر لا يكون معه خير أبدا، فمن أقرب إلى الجنة من عاملها؟ ومن أقرب من النار من عاملها؟"¹، فهذا التحذير المرفق بالإعداد، يحدد قصد الإنسان نحو الخيرية، واستقرار الحقيقة على أحد المعنيين، حيث "يكون المقصود هو اليقين من الخير في نتيجة هذا العمل"²، وتوحي نهاية سعيدة، تصل حد اليقين في إمكاناتها، لأنها تستند إلى مصدر القرآن، ومن ثم فإن الخيرية هي الزاد الذي يوضع في محمول الإنسان الذي به يتقدم إلى الجنة، بإرادة قاصدة وساعة الآخرة بالمسارعة، عكس النفس البطيء، المنسحبة من فعل الخيرات، يقول الإمام: "ما خير بخير بعده النار، وما شر بشر بعده الجنة، وكل نعيم دون الجنة فهو محقور، وكل بلاء دون النار عافية"³، ومعنى هذا أن الخيرية هي إيمان واعتقاد، تستند إلى فكرة، فهي من هاديات القرآن معلومة واضحة المآلات = الجنة التي ينتهي إليها الإنسان المؤمن، كما أن أسلوب المكارِه [ما يلاقه = وما يعرض عليه] في الحياة لا يدل على حقيقة الشر، فالخيرية مقصد يتحرك من خلاله الإنسان إلى نيل نعيم الجنة، حتى وإن امتزجت بالمكارِه، وهذا من طبيعة الاختبار ونجد الاختيار، يقول محمد عبده: "أي لا خير فيما يسميه أهل الشهوة خيرا من الكسب بغير الحق والتغلب بغير شرع، حيث أن وراء ذلك النار، ولا شر فيما يدعوه الجهلة شرا من الفقر أو الحرمان مع الوقوف عند الاستقامة فوارة ذلك الجنة"⁴، بوضاءة ذات، لأنها الوجه المقابل لقراءة الكون، قراءة نافعة، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾⁵. إنها السر الإنساني الفطري والجمالي، والامتلاء بالحرية والكرامة لتصبح جمالية روحية، لذات تستبطن المحبة، وتخرج الإحسان والجمال، والدليل إلى الإنسانية، ووساعة الآخرة [= الجنة].

خامسا- خاصية الحكيمية :

جاء في معجم مقاييس اللغة: "الحاء والكاف والميم أصل واحد، وهو المنع، وأول ذلك الحكم، وهو المنع من الظلم، وسميت حكمة الدابة، لأنها تمنعها، يقال: حكمت الدابة وأحكمتها. ويقال: حكمت السفينة وأحكمتها، إذا أخذت على يديه، والحكمة هذا قياسها، لأنها تمنع من

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 353.

² - محمود سليم الطازمي : السر الأعظم، ص 296.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 493.

⁴ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 493.

⁵ - سورة طه، ص 73.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

الجهل. والمحكم المحرب المنسوب إلى الحكمة"¹. إن هذا المنع والأخذ على اليد يدل على إرادة مانعة من كل تفلت يصيب غير الحق، كذلك الحكمة تمنع من الجهل المهلك، وهي بصيرة نابعة من التجربة، ورجاحة العقل وقوة العلم، وسداد النظر وبعد الأفق، وأما صاحب "اللسان"، فيقول: "الحكيم ذو الحكمة، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم. الحكم الحكمة من العلم، والحكيم العالم صاحب الحكمة"²، إتقان ناتج العلم والمعرفة والقيادة والضبط، جاء في الحديث: "ما من آدمي وفي رأسه حكمة"، وفي رواية: في رأس كل عبد حكمة إذا هم بسيئة، فإن شاء الله تعالى أن يقذعه بها قذعة"³، فما يزن الإنسان العدل والاستقامة والعقل والتجربة، وفي التعريفات: "هي علم نظري غير آلي. وقيل: الحكمة في اللغة: العلم مع العمل، وقيل: كل كلام وافق الحق فهو حكمة، وقيل: الحكمة هي الكلام المعقول المصون عن الحشو"⁴، فالحكمة خاصية كل عاقل، تقود إلى إصابة الحق بيسر.

أ- الحكمية موافقة للحق: إن الإنسان كائن موجود بين جواذب كثيرة، فقد سوي تسوية ذات قابلية، ترك له إتمامها بالتزكية، وهدى النجدين، وركب تركيباً حاملاً لأوصاف سلبية [= ضعيف، كفور، مجادل... = مختبر، مبتلى، مفتون]، بما عرض عليه من شهوات ومتع، يحمل قابلية الفساد، ويعيش وسطاً اجتماعياً مملوءاً بالمتناقضات والأضداد، الخير والشر، ومنح قوة العقل، والهدى [= الوحي]، وأوجد معه العدو المعترض الشيطان المضل، والنفس الأمارة، والهوى والدنيا الغرور. إذن فالإنسان يحيا في عالم يموج بالاضطراب والصراع والتدافع، وهو مخلوق ضعيف أمام قوى آخذة بسلطة التأثير الرهيبة عليه، قد تدفعه إلى خيارات قاتلة، ولذا فإنسانية الإنسان مهددة بقوة ضدية نقيضة للطبيعة الخيرة فيه، والسؤال الذي يطرح بقوة، ما الذي يحتاجه الإنسان ليحفظ ذاته ومقوماته وخصائصه النوعية؟! وما الذي يحتاجه لكي تكون أفعاله صائبة نافعة بصيرة؟!!

إن الأمر يتطلب قيادة وتوجيها يدفع إلى موافقة الحق وبناء مثاله، من هنا يكون الخاصية الحكمية هذا الدور، دور المحافظة بغية ارتفاع الإنسان عن كل ما يفسد إنسانيته، وما يقوده إلى إصابة الحق، يقول الإمام: "خذ الحكمة أنى كانت، فإن الحكمة تكون في صدر المنافق فتتلجج في

¹ - ابن فارس : مقاييس اللغة، ص 221.

² - ابن منظور لسان العرب، مج 2، ص 540.

³ - المصدر نفسه، ص 540، 541.

⁴ - الشريف الجرجاني : التعريفات، ص 81.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

صدره، حتى تخرج فتسكن إلى صواحبها في صدر المؤمن¹. أمر بأخذ الحكمة لتسكن صدر المؤمن في تلاؤم طبيعي إلى صواحبها، باعتبارها خاصية وازنة تحقق الاعتدال الضروري، وبصيرة ونور تمكن من امتلاك رؤية سليمة، تفرز صائب الأمر من خاطئه، وتبين خيره من شره، وطريق الهدى من ضلاله، ولذا: "فالحكمة ضالة المؤمن"²، تؤدي إلى اكتمال إيمانه وبناء إنسانيته، البناء الأبدي المتوجب لإقامة مشروع الإنسان في الأرض، ولأن الحكمة أنوار رفيعة يقذفها الله في القلوب، فهي تكون بمثل هذه المتراجحة النامية، في قلب المنافق ابتلاء وحجة عليه، وفي قلب المؤمن بصيرة، وثابتنا إنسانيا، ورؤية تبصر بها الحقائق والأشياء، وضرورة بنائية ترسخ صورة الكمال الإنساني. إن الإنسان بالحكمة يكون مع الحق في حالة من المصاحبة أو الموافقة، أي أن طريقه وخط الحق واحد، سيرا وتحققا وامتثالا، يقول الإمام: "إن كلام الحكماء إذا كان صوابا كان دواء، وإذا كان خطأ كان داء"³، كلام آيته أن يكون صوابا، وأية آيته أن يكون دواء، يحتاج إليه الإنسان المؤمن الساعي إلى الكمال، في كل معالجاته اليومية لقضاياها الحياتية والإيمانية، لكونه "مشملا على ما تشهد به الحكمة المصادقة"⁴، آخذا من نبع العقل وأنواره، ويوصف بالصائب "لشدة لصوقه بالعقول"⁵، أي أن خط الحق، وخط الإنسان يتمثلان تماثلا محققا بالحكمة، ويعرج الإمام على ذكر بعض مقومات الحكمية من العلم والعقل التي تضبط توجه الإنسان، ليصيب منهج الحق ويرفع أداءه، بترقية فعله إلى منزلة الرشد⁶، فالعقل الحليم حكيم ذاته، إدارة وتصرفا، نبرز وظائفه العملية في:

الوصف	القيمة	الميزان	الوظيفة	مجاله	المعنى	البدال
حكمة	رفعة	صواب	ستر خلله	الخلق	غطاء ساتر	الحلم:
حكمة	رفعة	صواب	قاتل له	الهوى	حسام قاطع	العقل:

بمعنى أننا أمام معادلة حكمية، قائمة إلى الحق والكمال، وهي: حلم + عقل = صواب
[حكمة] = [صواب + بصيرة = إمكانية = موافقة الحق]، لأن معنى الحكمة دلالتها على "إماتة

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 441

² - المصدر نفسه، ص 441.

³ - المصدر نفسه، ص 473

⁴ - الطاهر بن عاشور: النظام الاجتماعي في الإسلام، ص 24.

⁵ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 473.

⁶ - ينظر نهج البلاغة، ص 498

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

الشهوات على ما يجب¹، وتمثل وجه الحق والعدل، ويقدم الإمام أمثلة حكيمة تطبيقية، تتعلق بما يعرضه واقع الإنسان اللصيق به، وجميعها يحتاج إلى الاهتداء بأنوارها، وهي:

1/ النظر إلى الدنيا، بمنظار الحكمة: يصور الإمام الدنيا بعقله البصير، وروحه الكبيرة، ومثاليته الرفيعة، بأوصاف محقرة ومهونة من شأنها، بضوء الحكمة رأى حقيقتها في ظاهر حسن فاتن وباطن عميق يغيب عن الناس، فهي عنده: "أهون في عيني من عراق خنزير في يد مجذوم"²، و"أزهد من عطفة عنز"³، و"أصغر من حثالة القرط وقراضة الحلم"⁴، تصوير غاية في الدقة، يحمل من عمق الفكرة والعاطفة الحية، وبمثل هذا المثال الكاشف، يجلي ما ستر منها بصورة مبرزة لزينتها وفتنتها:

	التطبيق	التصوير	الصيغة	الدلالة	العلاقة	الطاقة	الصفة	الصورة	الإمام
1	الدنيا	عراق خنزير	أهون	التهوين	ظاهر	-	قلة الشأن	مشوهة	الحكيم الوزان
2	الدنيا	عطفة عنز	أزهد	التزهيد	ظاهر	-	الاحتقار	مشوهة	[= الحكيمية]
3	الدنيا	حثالة القرط وقراضة الحلم	أصغر	التهوين	ظاهر	-	التصغير	مشوهة	

إن هذه الرؤية تمثل نظرة إنسان مثالي ارتفع إلى الأعلى، فيما صارت الدنيا مولية، لتكشف عن مثاليته وهوانها، ففي عقله [= وزنها وكشفها]، ومن قلبه [= أخرجها]، لأن الحكمة هي إِبصار الحق ومخالفة طبائع النفس، فمن الحكمة أن تتقى، وأن يرتفع الفاضل العاقل عن زينتها وإغرائها.

2/ الهوى [= الإله]: إن الهوى مزاحم كبير، يقف بالإنسان وكأنه أمام متراجحة ميزانها الثاني الحق، وأن مغالبتة تعد ترجيحاً للحق، يقول الإمام: "كم من عقل أسير تحت هوى أمير"⁵، لأن العقل صار معتقلاً، قد غلبه جموح الهوى، فأسر العقل معناه إحلال للهوى، ينتج عنه غياب الحكيمية، بينما يقود العقل الإيماني الإنسان إلى الانتصار في هذا الصراع على الأهواء وإثمار حالة حكيمية.

3/ العلم المقرون بالجهل: يقول الإمام: "كم من عالم قد قتله جهله، وعلمه معه لا ينفعه"⁶. إن نور العلم طاقة بصيرة هادية، لا قيمة له مع غلبات الجهل، "لأن ذهننا في نزاع ليس في مكنته يوماً أن يفهم ماهية الحقيقة"⁷، وعليه فمثل هذا التضارب من مخرجاته عدم موافقة الحق، وغياب الحكمة.

¹ - الراغب الأصفهاني: مكارم الشريعة، ص 141

² - علي بن أبي طالب: نوح البلاغة، ص 466.

³ - المصدر نفسه، ص 33.

⁴ - المصدر نفسه، ص 63.

⁵ - المصدر نفسه، ص 462.

⁶ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 446.

⁷ - جدو كرشتامورتي: التأمل: ص 92.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

4/ مواجهة الإنسان للحق: يقول الإمام: "من أبدى صفحته للحق هلك"¹. إن الحكمة تعني موافقة الحق وعدم الانحراف عنه، وأن تماثل الإنسان والحق يكون بفضلها، ومواجهته له بانعدامها.

5/ الطمع والذل وخطر اللسان: يقول الإمام: "أزرى بنفسه من استشعر الطمع، ورضي بالذل، من كشف عن ضره، وهانت عليه نفسه من أمر عليها لسانه"²، أحوال ثلاث مدمرة للذات مفسدة لها، واجتماعها دال على غياب هذه الحكمة التي هي ضبط للذات، يحقق عزة النفس.

ولذا يشدد القرآن الكريم على أجهزة الوعي، لتحصيل الوعي والمعرفة، ومن ثم الاهتمام إلى الحق، قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِيُونَ﴾³، ويظهر من الآية حركة التسافل التي تطبع كل إنسان يعطل توظيف هذه الأجهزة المحصلة للوعي الذي يقوده إلى معرفة الحق، ولذا فالإنسان بهذه الأجهزة هو الأكمل، وإن الحكمة هي: [معرفة + وعي] = حق، بينما المعطل لها هو الأضل: [جهل + لاوعي] = باطل، وهذا ظلام، وتبرز أهمية هذه الأجهزة كقوة إمكان مثبت لنور الحكمة في الإنسان، يقول الإمام: "جعل لكم أسماعا لتعي ما عناها، وأبصارا لتجלו عن عشاها"⁴، حيث تؤدي الأسماع والأبصار إلى عقل الحقائق، والوعي عن الله بفهم مراده، تمييزا له عن الأنعام، وإثباتا لصورة التكليف والمسؤولية، وما يثبت إنسانية الإنسان، بعد المطلب الإلهي له بالتركية بعد التسوية، ليكون بعدها الانطلاق نحو الكمال، حيث يتحول هذا السعي بعدها إلى حكمة مضيئة بنور الحق، وعليه فإن "الإنسان بالوعي، إنما هو أمام إنسانيته أبدا"⁵، فهذه هي الإنسانية التي بالوعي تبعد الإنسان عن الصورة الحيوانية وما هو أضل منها، يقول الإمام: "ولا عز كالحلم"⁶، إلى منزلة الحكمة، ورفيع القيمة ذاتيا واجتماعيا، وفوق هذا تنير درب الإنسان إلى الحق، قصد تعبيد نفسه لله، واستنطاق مكامن الفطرة والإنسانية واقعا، وهامي القيمة الرفيعة لأسرار هذه الأجهزة تظهر من خلال سلطان المقدر والمضبط المانع من إتيان الشهوات، يقول الإمام: "إذا كثرت المقدر قلت الشهوة"⁷، فالمقدرة قوة ومعرفة بالعقل، تمثل لجاما مانعا من الانزلاق نحو الشهوات، وهذا من

¹ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 459.

² - المصدر نفسه، ص 431.

³ - سورة الأعراف، الآية 179.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 106.

⁵ - سليمان خزاقي صالحية : الإنسان والوعي، ص 12.

⁶ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 447.

⁷ - المصدر نفسه، ص 467.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

أحسن وجوه تجسيد خاصية الحكمية، لأن منع الشهوة والانتصار عليها ناتجة الإدارة وال ضبط التي تجعل الإنسان يتوافق مع الحق، يقول "النورسي": "العداء ظلم في نظر الحكمة، إذ العداء والمحبة نقيضان"¹، وعداوة الحق بهذه الشهوات يعد ظلما ليس من الحكمة، وفي مثال آخر نرى صورة هذه الطاقات تثمر توازنا واعتدالا، وحكمة وازنة للقوى، يقول الإمام: "العفاف زينة الفقر، والشكر زينة الغنى"²، زينة تستنبت الحكمة جمال نفس، ويمثل العفاف عفة عن الشهوة، بمعنى وقف للطاقة السالبة، ويعد الشكر تعبدا وانطلاقا وارتفاعا نحو الحق، وكلاهما يمثلان توازنا هو من نبع هذه الحكمية في الإنسان، من خلال وعي بصير، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ ذِكْرِي لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾³، بحضور نوعي وإنساني بالوعي والمعرفة، وبهذه الحكمية في إدارة الحياة، وكذلك الاتعاض، وإنما نضعه في مكان التجربة التي هي من أهم وسائل تحصيل الحكمية.

ب- الحكمية مقارنة بالنبوة، ونور هداية: إن الحكمية حالة قريبة من أسوار النبوة، يمتاح الإنسان من عظمتها وإشراقها، على اعتبار "أن النبوة تكليف ثقيل، وعبء عظيم جدا، لا يحمل إلا بعد نمو الملكات العقلية ونضوجها وتكامل الاستعدادات القلبية"⁴ التي تجعل الإنسان الحكيم، يسوس بحكمته الحياة الإنسانية، فالحكماء هم الذين تقع على كواهلهم الإضاءة الكونية، والتوجيه الحيوي للطاقات، والأخذ بسنن الحق وهاديات الوحي، وعليه فإن بصيرة الإنسان بالحكمة، هي النور الذي يفتقد في التركيب الشخصي للإنسان، وإن ما يلاحظ على جميع الناس أن فشلهم في إدارة حياتهم، مرده إلى عقولهم المستغلقة مع غلبات الهوى، والعيش في حدود التافه من الأشياء، وعدم الانتفاع بالعلم، وموت الروح بزينة الدنيا ومغرياتها، ومن ثم تصبح الحكمية هي نور المهتدين في ظلم الحياة، والإنسان الكامل هو أشد المحتاجين إلى نورها، حتى ترفعه وتقربه من منازل النبوة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾⁵، فهي نور إلهي يقود إلى معرفة الحق، وهي "الفقه في الدين، والعقل والإصابة في القول"⁶، وما ذكر في بيان هذه الحكمة التي نالها لقمان عليه السلام، فإن وصاياه تعد بمثابة التوجيهات العقيدية والسلوكية

¹ - سعيد النورسي : المكنوبات، ص 325.

² - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 439.

³ - سورة ق، الآية 37.

⁴ - سعيد النورسي : المكنوبات، ص 349.

⁵ - سورة لقمان، الآية 11.

⁶ - عبد الرحيم محمد: لقمان الحكيم، دار الفكر، بيروت، 2008، ص 17.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

[= تربوية وأخلاقية]، أو هي تعبدية إيمانية واجتماعية، مرفقة بفقته مختلف السنن التي تضع الإنسان في موافقة مع الحق، بتلك البصيرة، وها هو الإمام يؤكد هذه الرمزية في الأصفياء المميزين، كيف تكون الحكمة لباس الإنسان الجميل، فيقول: "قد لبس للحكمة جنتها، وأخذها بجميع أدبها من الإقبال عليها والمعرفة بها والتفرغ لها، فهي عند نفسه ضالته التي يطلبها، وحاجته التي يسأل عنها، فهو مغترب إذا اغترب الإسلام، وضرب بعسيب ذنبه، وألصق الأرض بجرانه، بقية من بقايا حجته، خليفة من خلائف أنبيائه"¹، أي أنها السبيل الذي يسلكه الكامل العارف، وكلام الإمام يبرز الخطوات العملية لذلك السعي الرفيع، فالحكمة هي وقاية، فوق التزكية وبعدها، والكمال بهذه الدرجة علو قدر تكون قد شارفته النفس، "وما يحفظها على صاحبها من الزهد والورع"²، وهذا مهم يرتفع به العارف إلى تلك الأنوار، بالأخذ من أدب الحكمة التي تتحقق بالهمة والإرادة لتزيد من تميزه، وتجعله غريبا عن غيره، ولذا فالحكمة الحق والإنسان متلازمان، ولا يزهده الناس في هذا إلا لعزته، فهي بقية حجة الله على الأرض مجاورة لحكمة النبوة، لا يطرق الكمال إلا بها، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾³، فالحكمة لأولي الألباب هي الارتفاع إلى مراتب الكمال.

إن الحكمة قدرة إنسانية رفيعة، يحتاج تحصيلها إلى أسلوب مكين، غايته التركيب بين مكونات تشكل حقيقتها، ومنها مزج العلم بالحلم والقول بالعمل، وهذا ما يقرب الحكمية من عوالم النبوة، يقول الإمام: "يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل"⁴، توليف وصهر يحصل هذه الملكة الشريفة في النفس، فهي فاعلة عاملة في الذات بآثارها، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾⁵، فهذا جمع دل الله عليه، فالكتاب بوحيه، والحكمة بأنوارها تقود الناس إلى رفيع المنازل، لأن الكتاب دون عقل وحكمة، مجرد أسفار، وعليه فإن التركيب العضوي الدقيق بين مكونات الوحي والعلم والعمل والعقل والعظة والتجربة ينتهي بالإنسان إلى تحقيق مقصده الوجودي بأنوار الحكمة، ويجعل الإمام من الإنسان الحكيم طبييا معالجا للأمراض، له معرفة بها وبدوائها، عقلية وروحية، وهو الذي يستطيع أن يرفع معالجه إلى منازل الإنسانية والكمال⁶، وهي بالتأول:

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 250

² - محمد عبده : شرح نصح البلاغة، ص 250.

³ - سورة البقرة، الآية 268.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 285.

⁵ - سورة البقرة، الآية 231.

⁶ - ينظر نصح البلاغة، ص 155.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

الخطوات	محددات الحالة المرضية	نتائج العلاج	تحليل وتأويل
1- <u>الطبيب الحكيم</u>	- إحكام مرآته - أحى مواسمه	يضعها حيث الحاجة.	- تلاؤم صنعة خبير عارف بالصلاح، ومواضع الخلل، وبصيرة في التشخيص بقدرة ومعرفة.
2- <u>شخصيات مرضية</u>	- عمى القلوب - الأذان الصم - الألسنة البكم	- متتبع بدوائه.	- نلاحظ مرض الأجهزة، والضعف عن قول الحق، وضعف الحجّة، وهذا لعدم موافقتهم له.
3- <u>مواطن العلاج</u>	- مواضع الغفلة - مواطن الخيرة.	- تحديد مكان الداء.	- غياب الوعي واليقظة. - أحوال التيه والضلال.
4- <u>تشخيص الحالة</u>	- لم يستضيئوا بأضواء الحكمة - لم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة	- فساد الطبيعة - وبيان أسبابها.	- تشخيص أسباب المرض: عدم تعرض الذوات للاستضاءة بأضواء الحكمة وزناد العلوم.
5- <u>وضعهم وحالمهم</u>	- صاروا كالأنعام السائمة - والصخور القاسية	- مآلات طبيعية.	- فسوة محكمة، وموت الطاقات والأجهزة فيهم، يتطلب هذا حكمة تحيي القلوب والعقول.

إن الحكمة فاصل نوعي بين الحق والباطل، تصرف الباطل والهوى، وتجلب المسرات، بل إن الحكيم يصبح "الحزن بالحق مسرة لديه"¹، وما هذا إلا كمال ووعي، وأحوال عارف بالله، فالحكمية هي وضع ذات مترقية بهذه البصيرة، تحسن صنع ما تريده، يقول الإمام: "قيمة كل امرئ ما يحسنه"²، ولذا فهي ضرورة كمالية وليست خاصة إضافية، تهدي الحركة الإنسانية، ومعناها إصابة الحق بجمال وكمال، وإن جمع القرآن بين الكتاب والحكمة والنبوة دال على علو الدرجة التي تبلغ أهل الكمال منازلهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾³، منزلة هي النور الإلهي، والضوء الهادي لميثاق الفطرة، وتركيب ثلاثي يشكل معادلة كمال الإنسان، يقول الإمام: "ويعقبون كأس الحكمة بعد الصبح"⁴، بالأخذ من أنوار الحق الهادية، والمراد أنها تفاض عليهم الحكم الإلهية في حركاتهم وسكونهم وإعلانهم"⁵، والإنسان بهذه الإفاضة الجليلة يتوافق مع الحق بحكمة وجمال، ولذا "فمن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار"⁶، يحتاج إليه الناس للاهتمام بأنوار حكمته، وعليه فإن الحكمية خاصة جليلة، قريبة من منازل النبوة بمكوناتها الأربعين، يحتاج إليها الإنسان ليعقل عن الله، وهي بصيرة وعرفان باطني تدرك به الأسرار وعلم يعرف بالحق، "ولا يبلغ الحكمة إلا أحد رجلين: إما

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 179.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 441.

³ - سورة آل عمران، الآية 80.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 200.

⁵ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 200.

⁶ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 10، ج 20، ص 174.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

مهذب في فهمه، موفق في فعله، ساعده معلم ناصح وكفاية عمر، وإمام إلهي، يصطفيه الله فيفتح عليه أبواب الحكمة بفيض إلهي¹، منزلة ينالها المهذب والمصطفى، وضوء معرفة تقود نحو الكمال.

سادسا- خاصية الجمالية:

يقول صاحب اللسان: "الجمال: مصدر الجميل، والفعل جمل، وقوله عز وجل: "وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ". بهاء وحسن، ابن سيدة: الجمال الحسن يكون في الفعل والخلق (وفي) حديث: إن الله جميل يحب الجمال، أي حسن الأفعال والأوصاف²، فهذه المعاني تؤكد على حسن في الشيء والفعل والخلق والزينة في الإنسان وغيره، وعند "ابن فارس": "أصلان، أحدهما: تجمع وعظم الخلق، والآخر: حسن. فالأول قولك: أجملت الشيء، وهذه جملة الشيء، وأجملته حصلته، والأصل الآخر: الجمال، وهو ضد القبح"³، فالجمال حسن بارز، تطرب له الذات، يثمر فاعلية انطلاق نحو الفعل والإبداع، وفي التعريفات: "الجمال من الصفات: ما يتعلق بالرضا واللفظ"⁴، فالجمال بآثره في النفوس التي تستشعره، وبذلك الرضا والانبساط، ولكن الجمال الحق هو ما يزيد عن هذا، بذلك المعنى الحسن من التأدب والاعتدال الخلفي، إنه اللطف، "الجمالية) في الشيء تعني أن (الجمال) فيه حقيقة جوهرية، وغاية مقصدية، فما وجد إلا ليكون جميلا"⁵، فالجمال جوهر ثابت في الشيء لا يعرف إلا بالقوة التي فيه، "لأن الجمال بهذا الاعتبار هو كمال الانسجام والتناغم والتوافق والتناسب في بنيات الكائن الظاهرة والباطنة"⁶، وفي عناصر بنية تشكيله، وإن الإنسان يرى الدنيا مزينة بالجمال، ويرى فوارق الأداء [= بين الحق والباطل]، ويرى في فطرته وإنسانيته هذا النزوع، يحتاج إليه لتمييز، وحيوية وفاعلية وإحساسا بالإيجابية، ولباس تمتع يوحى بالخيرية، وطاقة انطلاق نحو الآفاق، يعد الجمال مع الفكرة والمخيلة مفاتيح الحياة، لا ينكسر أبدا من تمتع بذلك.

أ- الجمالية القرآنية مرتكزات وأسرار: تدفع آيات القرآن الإنسان إلى بصر الجمال الذي يتوزع على حقول معرفية هامة ومتنوعة*، وإن كل جمال يستمد من الجمال المطلق ويتساق مع الجلال

¹ - الراغب الأصفهاني : مكارم الشريعة، ص 142.

² - ابن منظور: لسان العرب، مج2، ص 208، 209.

³ - ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ص 175، 176.

⁴ - الشريف الجرجاني: التعريفات، ص 26.

⁵ - فريد الأنصاري: جمالية الدين، ص 26.

⁶ - أحمد بالحاج آية وارهام : الرؤية الصوفية للجمال، منطلقاتها الكونية وأبعادها الوجودية، المطبعة الورقية الوطنية، مراكش، 2008، ط1، ص 34.

* - يدفع القرآن الإنسان إلى تمثل جمالي عال متكامل في بنيته الفكرية والمعرفية، وبرصده يمكن تشكيل نظام جمالي يعتبر رمزية هذا المخلوق، وسيما واصفة ضابطة لنعته الإنسان القرآني المؤمن من مثل (جمالية الدنيا والخلق والأنعام والإنسان والتعارف والجنة...)، يتجاوز العشرين حالة جمالية منفتحة على الكون والمطلق، بمدف تحقيق مقاصد معادلة الوجود، أداء ورفعة.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

والكمال الإلهي، ومنه نور الإيمان والهداية، ومن ثم فإن تجلياته جمالية إيمانية تعبدية كونية، دالة على عظمة وبديع الصنع الإلهي، تدفع الإنسان إلى التبحر في المعرفة، وإقامة علاقة كونية حية فاعلة منمية للطاقة وموصلة إلى معرفة الحق وعبودية الله، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾¹، جمالية تصنع الخصوصية الإنسانية، لذا "فالزينة والجمال إنما يطيبان للروح الطيبة المؤمنة، ولا يبعثان في النفس الخبيثة إلا المتعة"²، وباعتنا على الخيرية والإيمان، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾¹، فحزمة الاستثناء تشكل نقيض الجمالية، وبهذا تتحدد مقاصد الجمالية القرآنية في مقصدين: مقصد عرفاني- تربوي روحي، وإمتاعي-وجداني ذوقي²، حيث تهدف هذه العرفانية والإمتاع إلى الاستثمار في كل هذا المتاح الحيوي الجمالي، وتحويله إلى طاقة فاعلة، لينبثق الفعل الإنساني بخيرته وحكمته وأبعاده الإنسانية، وتطبيقاته الحية في الحياة إلى بسط الجمالية الأخروية، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾³، فهذا النزاع للغل، يعد فضا للتضارب، وثمره جمال أمام الشهوات وتزيينات الدنيا، بالحمد وجمعا لجمال الدنيا والآخرة، كي تصبح الذات أكثر حكمة وبصيرة، ولذا تأتي التأكيدات الإلهية هادفة إلى إبعاد الإنسان عن كل ما يفسد جماليته وكماله، تحذيرات من:

أولاً: زينة حب الشهوات، قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾⁴، وجميعها من متاع الدنيا، وتقتضي الجمالية القرآنية، تعلق الإنسان بجمال حسن المآب.

ثانياً: التنبه إلى مخاطر تزيين العمل، قال تعالى: ﴿لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾⁵، وهو تزيين يزيد في الكفر، ويبعد عن الحق.

ثالثاً: تجنب حالة الضلال الفكري، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾⁶، يقوده اعتقاده بحسن صنيعه، إلى الخسران. ولذا ينبغي على الإنسان أن يستثمر في هذا الإمكان الجمالي المفتوح بوعي، وما ينبثق عنه

¹ - سورة الأعراف، الآية 33.

² - ينظر الصديق بن محمد بن قاسم : جمالية الإحسان مدخل إلى الرؤية الجمالية الإسلامية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011، ط1، ص 49.

³ - سورة الأعراف، الآية 42.

⁴ - سورة آل عمران، الآية 14.

⁵ - سورة التوبة، الآية 37.

⁶ - سورة الكهف، الآية 103، 104.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

من خيرية وعمارة وتعارف إنساني وتعاون وعلاقات كونية، بالصبر باعتباره جمالا*، قال تعالى: ﴿فصبر جميل﴾ [يوسف، الآية 18] الذي به تتم المواجهة ومغالبة عوارض الإمكان الجمالي.

ب- الجمالية أحوال داخلية، طهارة ونقاء ذات: تنبثق الخاصية الجمالية من الحكمة، وتدل على تلك القيم الذاتية والأحوال الإنسانية، من الحب والود والسلام والخير، كما أنها تسهم في تثبيت قيم التعارف وتعزيد العلاقات، على أساس إنساني جمالي، من السلوك والخيارات والمواقف، وجمال الروح، وهذا بيان تأويلي لجمالية هذه القيم في الذات¹ أشار إليها الإمام، نوضحها بهذا المخطط:

قيم جمالية	الصورة	الصفة	النواتج
العقل	جمالية العقل	اعتدال الطاقة	أغنى الغنى
الحمق	قبح الحمق	إهدار الطاقة	أكبر الفقر
العجب	قبح العجب	إفراط	أوحش الوحشة
حسن الخلق	جمالية الخلق	اعتدال	أكرم الحسب

← مكاسب جمالية تزيينية.
← قبح فيه خسارة للذات والتعارف.

ولذا فإن الجمالية حالة انطلاق فعلية نحو الحياة الفاضلة، بمجانبة نواقضها المفسدة للذات:

قيم ضد الجمالية	الوصف	الدلالة	التحذيرات	بدائل الوصف	الدلالة
1- مصادقة الأحمق	الحمق	مفاسد	ضرورة تجنب	الحليم	الحليم
2- مصادقة البخيل	البخل	جمال	البحث عن	الكرم	الكرم
3- مصادقة الفاجر	الفجور	النفوس	مصادقات غير	العفيف	العفة
4- مصادقة الكذاب	الكذب	[في الجوانية]	جمالية.	الصادق	الصدق

- فهي جمالية ذاتية.
- فهي جمالية إنسانية.

إن التحذير من مصادقات مفسدة أمر لا بد من تجنبه لمن يريد الكمال، "ألا ما أروع أن يكون الإنسان جميلا!"²، لأن الجمالية هي مخبر جواني، وهذا أمر حيوي في بناء الإنسانية، فالمرأة التي تتمتع كما يقول "جبران": "بجمال النفس مشفوعا بجمال الجسد، هي حقيقة ظاهرة غامضة"³، فهذا التمتع الجمالي الذاتي هو ما يصنع قيمة الإنسان، وهذا عين قرآني، حين فضل جمال الإيمان [= الباطن]، للعبد والأمة المؤمنين، على المشركين، بجمالهما الظاهر لكفرهما، جمال ناتج عن وعي ومعرفة، لأنه إيمان، حتى وإن أحزنه الحق⁴، فالمسرات والمضرات تتساوى، وتقبل جماليا قبول محبة

* - وهذا ما تشير إليه تجربة يوسف عليه السلام الذي احتاج إلى الصبر الجميل، لانهاز تجربته الإيمانية الدعوية بكمال وجمال إنساني وكوني، وفق قيم الحق والعدل والحرية، وهي تتحرك في نسق من الجمالية الرفيعة، ولأنها تجربة بشرية بقيم السماء، فهي تحتاج إلى الصبر الجميل لتخطي عقبات السير، وما يفرضه منطق الصراع، وصولا إلى تلك التوازنية العالية التي تأخذ من أسرار الحكمة الإلهية قوتها، و من ذلك الجمال الحي إشعاعها.

¹ - ينظر نصح البلاغة، ص 436.

² - ستيفان تسفايج : بناء العالم، ص 392.

³ - جبران خليل جبران : الأجنحة المتكسرة، المكتبة الثقافية، بيروت، ص 25.

⁴ - ينظر محمد عبده شرح نصح البلاغة : "من كان العمل بالحق أحب إليه. وإن نقصه وكرهه من الباطل، وإن جر إليه فائدة وزائدة"، ص 179.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

وإيمان وتمثل حق وإرادة اختيار، فالصبر فكرة إيمانية، واطمئنان وراحة، مع عدم إظهار الغضب، ولو أتبح إمكانه، فقد كان يوسف عليه السلام في محنته بصبر جميل، صبر الكاملين، من ذات إنسانية نظيفة الجوانية طاهرة الداخل، يقول الإمام: "الصبر صبران، صبر على ما تكره، وصبر عما تحب"¹، فالصبر قوة وإرادة وطاقة مواجهة، أمام امتحانات التمحيص، قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾²، من هنا تبرز قيمة الجمالية في الصبر باعتباره تمحيصاً وإرادة توجه نحو قيم الحق والخير، وعاملاً اعتدال الهيئة النفسية، وكأن هذا الصبر يمثل مصفوفة دوال مترابطة بمحولات دلالية ورمزية، فهو: الصبر^(أ)، وصبره [= الإيماني^(ب)]، وصبره [= العبادي^(ج)]، وصبره [= لأنه يتمثل خط الحق بعقباته وإكراهاته ومحبوباته^(د)]، وصبره [= الجميل^(هـ)]، وعليه فإن الصبر جمال يؤسس لرحلة الإيمان، باعتبار المآلات والمخارج، ليثبت الإنسان على الحق بمزاحماته، "فليس في الكون إلا الحب والجمال والخير إذ سقطت الشهوات"³، وتسقط بالصبرين، كما تتحقق الكونية بالجمال. ويقودنا الإمام إلى ضرورة التنبه إلى مخاطر تهدد جمالية الإنسان، ذاكراً مجموعة من الأوصاف السلبية⁴ التي إذا اجتمعت في ذات حولتها إلى حطام، بفعل هذه التدسية، نؤوله بآثاره كالاتي:

السلوك السيء	الأثر	طبيعته	التقييم	الوضع النهائي
يسير الرياء	- شـرك	ذاتي [= طمس]	تعد هذه القيم قيماً سلبية، وإن هذه الأوصاف تقع نقيضة للقيم الجمالية الإيجابية.	تمثل هذه السلوكيات حالة القبح والتشوه، وهي نقيضة للجمالية.
مجالسة أهل الهوى	- منساة للإيمان - محضرة للشيطان	ذاتي [= طمس]		
الكذب	- بجانب للإيمان - على شفا مهواة ومهانة	ذاتي [= طمس]		
الحسد	- يأكل الإيمان	ذاتي [= طمس]		
البغض	- الحالقة	ذاتي [= طمس]	تمثل قمة السوء والقبح.	
الأمل	- يسهي العقل - ينسي الذكر	ذاتي [= طمس - غرور]	يمثل الأمل قتلاً لأرقى القدرات والقوى الجمالية الموصلة للحق.	
الصدق	على شرف منجاة وكرامة	ذاتي [= إحياء]	يمثل الصدق طاقة وجمالية إيجابية	جمالية الصدق

تتركز الجمالية في عمق الذات، باعتبارها طهارة ذاتية داخلية، تجنبها المفسدات وتحقق لها الإضاءة الذاتية [= الجمالية]، "لأن معاني الجمال في الدين من صفاء الروح، ومنازل الإيمان،

¹ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 438.

² - سورة آل عمران، الآية 141.

³ - الراجعي مصطفى صادق : أوراق الورد، رسائلها و رسائله، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، 2003، ص 150

⁴ - ينظر نصح البلاغة، ص 115.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

وأحوال الإحسان¹، لذا فعملية التنقيح الذاتي للوصول إلى أحوال الإيمان الرفيعة، ومخرجاتها من الإحسان تخلية، هي الشرط المقدم لتلك الإضاءة الجمالية، وهي انعكاس لصورة الجمال الداخلي، بالمحافظة على ألق الذات، والابتعاد عن كل ما يدمر المنجز الإيماني، بالنظر إلى الدنيا من [= زينة- سابلة] إلى نظرة وازنة حكيمة وجمالية [= زينة-إيجابية] بالعمل، تدخل في خانة الابتلاء والتمحيص، يقول الإمام: "الدنيا تغر، وتضر، وتمر، إن الله تعالى لم يرضها ثواباً لأولياءه، ولا عقاباً لأعدائه"²، وهذا بالوقوف عند حدود رسمها الخارجي القاتل، وهنا تتحول الدنيا وفق هذه الرؤية [= الجمالية]، إلى دار عمل بمعادلة: فزينة الدنيا تغر، وهي الحالة السالبة، بتأثيراتها المفسدة التي تعبّر عن ضيق أفق وفهم محدود، إلى جمالية الدنيا بالعمل الصالح، وهي الحالة الإيجابية البنائية، تعبّر عن وساعة الأفق الأخروي، يقول الإمام: "ومتجر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة"³، تصنع المصير الحسن، وتمثل جماليات الخير والعلاقات والتعارف، وبنية فكرية مفضية إلى التعاون والعمارة⁴، جمالية تتركب بنية عضوية في الذات المزكاة، متمتعة بخاصية الخيرية والصلاح:

الخلق الجميل = الحسن	الأثر	الفاعل	الجمالية = الأنا والآخر	وظائف الجمالية
كثرة الصمت	تَكْوُنُ الهَيْئَةِ	طاقة فاعلة	جمالية ذاتية/اجتماعية	جمالية الوقار
الصفحة [= الانصاف]	يكثر المواصلون	طاقة/علاقات/تواصل	جمالية ذاتية/اجتماعية	جمالية التواصل
الافضال	تعظم الأقدار	طاقة/فاعلية.	جمالية ذاتية/اجتماعية	جمالية التعاون
التواضع	تمام النعمة	طاقة/ مكاسب	جمالية ذاتية/اجتماعية	جمالية الخلق
احتمال المؤمن	يوجب السؤدد	طاقة/فاعلة في الرفعة	جمالية ذاتية/اجتماعية	جمالية العزة
السيرة العادلة	قهر المخالف المعاند	طاقة/فاعلية الانتصار	جمالية ذاتية/اجتماعية	جمالية الانتصار
الحلم عن السفيه	تكثر الأنصار عليه	طاقة/فاعلية اجتماعية	جمالية ذاتية/اجتماعية	جمالية الحكمة

تنطلق الجمالية من الذات الجميلة إلى الآخر، ثم إلى الكون بمحققات المحبة والود والسلام، ومن ثم فإنه "وبصقل السلام في داخلنا نوجد السلام في المجتمع"⁵، وهذا هو المراد الجمالي، مع النفس (الذات)، والآخر (في الدين)، والآخر (الإنساني)، والآخر (المخلوقاتي)، والآخر (الكوني)، آخذة من أسرار تجليات الجمال الإلهي قصد بناء جمالية الأمة المؤمنة من خلال قاعدة الاستخلاف والعمارة والعبودية والتعارف الكوني، وتتجه المعرفة الإلهية نحو بناء الأمة البشرية، بجمالية تأفف

¹ - فريد الأنصاري : جمالية الدين، ص 21.

² - علي بن أبي طالب : نخب البلاغة، ص 496.

³ - المصدر نفسه، ص 451.

⁴ - بنظر نخب البلاغة، ص 464.

⁵ - تيك نات هانه : المحبة في العمل، ص 96.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

وتعفف من الزينة والشهوات، "وتبين لنا الأسرار أن من لم يتطهر يظل غارقاً في الوحل"¹، وعليه فالعفة طهارة، وزينة تحلية للذات، تطرد النسيان والطغيان بهذا التحلق الإنساني والكويني.

ج- نواقض جمالية الإنسان الكامل: لقد خلق الله الإنسان في حسن مقوم جمالياً، وسواه في نفسه، تسوية ذات تركيب جمالي منتج لطاقة الخير، ودفعه إلى تزكية ذاته، تزكية جمالية تكريمية بحكمة ينتج عنها حالة النفس مطمئنة، وأعطاه العقل زينة وجمالاً يقوده إلى طريق الحق، وأنزل إليه الوحي والكتاب، فعلمه البيان جمالاً، ليرفع من شأنه وقيّمته، كل هذا يجعلنا نصفه بأنه الكائن الجميل، حسن التقويم والصورة، لكن هذه الجمالية قد تسلب من الذات إذا داخلتها أضداد نقيضة ليست من طبعها، مثل الإعجاب بالنفس والفخر، يقول الإمام: "الإعجاب يمنع الازدياد"²، حالة نقصان جمالي، ونقيض مضاد لبناء الكمال الإنساني، إعجاب مهدم لقوى الذات، فصاحبها "لم يطلب لها الزيادة في الكمال، فلا يزيد، بل ينقص"³، لتندفع بعد هذا الطاقات السلبية، الحمية والعصبية والأنانية نحو الفساد، وعليه فإن الفساد بالتوصيف الحقيقي الضابط هو فساد جمالي، يقتل المعنى في الإنسان، وكما يقول "أوشو": "على الإنسان أن يكون حذراً، لأن (الأنا) سوف تمتطي تجارئك الروحية"⁴، أي أن انتفاخ الأنا [= أنا الإعجاب]، يمنع الازدياد من فضائل الروح والكمالات، ويتواصل هذا الأثر السيئ للإعجاب بالنفس على العقل، يقول الإمام: "عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله"⁵، مهتماً لأعلى طاقة إنسانية وأشرفها، على اعتبار أن "العقل أرقى من القوة، لأنه كمال مطلق"⁶ في الإنسان، وهكذا يقف الإعجاب ناقضاً جمالياً وحجاباً، "بين العقل وعيوب النفس"⁷، ويقف الحسد ناقضاً فعلياً، "يحول بين العقل ونعمة الكمال"⁸، واستكمال النفس لمقوماتها، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾⁹، تزيين مضاد لمعنى جمالية الذات التي تنبعث منها صورة الحق والخير، ولذا "على الإنسان أن يجعل على نفسه عيوناً تعرفه عيوبه"¹⁰، ومنه

¹ - سليمان خزاعي صالحية : الإنسان والوعي، ص 84.

² - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 457.

³ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 457.

⁴ - أوشو : الإنسان الجديد، تر، متيم الضايغ، دار الحوار للنشر، اللاذقية سورية، 2014، ط1، ص 237.

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 463.

⁶ - سليمان خزاعي صالحية : المرجع السابق، ص 73.

⁷ - محمد عبده : المصدر السابق، ص 463.

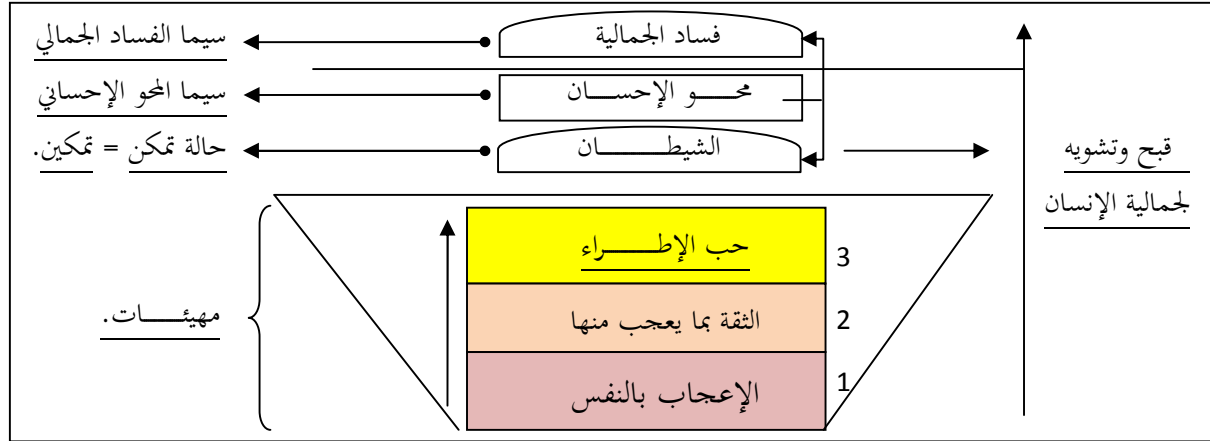
⁸ - المصدر نفسه، ص 463.

⁹ - سورة فاطر، الآية 08.

¹⁰ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 9، ج 18، ص 181.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

فالجمالية تعني عدم تعظيم النفس بأكثر ما تستحق، لتبقى في دائرة الحق، يقول الإمام: " وإياك والإعجاب بنفسك، والثقة بما يعجبك منها، وحب الإطراء، فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين"¹، لأن الإحسان يعتبر جمال النفس المحسنة، بينما الإعجاب قاتلها ومهدد جمالها، وهي تتدرج متصاعدة في عتبات ثلاث، وفق هذا الشكل:



- ترسيمة كاشفة لفساد جمالية الإحسان في النفس بمعامل الإعجاب -

إن هذه التدرجات تصل إلى الذروة، لتصبح مدخل الشيطان، أو تترجم قبحا شيطانيا، يحول النفس إلى نفس خبيثة سيئة مريضة، وتأسيسا على ما سبق يقودنا الإمام إلى معالجة مهمة لقضية الفخر التي تداخل الذات، والمضاد الحيوي الفاعل في بطلان الحكمية في الإنسان، والعنصر الإبليسي الشيطاني المفسد، المرتكز على الأنانية والعصبية، ممد سبيل الخروج عن الحق، يقول الإمام: "ما لابن آدم والفخر، أوله نطفة، وآخره جيفة، لا يرزق نفسه، ولا يدفع حتفه"²، في تركيبته الطينية عناصر الفساد، فهو من نطفة، لكن آخره جيفة، ضعيف لا يرزق نفسه، ولا يدفع حتفه، هذه جمالية ظاهر، وهي عرضة للفساد. إن طبيعة تركيبته تحتاج إلى إنارة جمالية، وعليه "فإن جمال النفس مستمد من العقل، والجمال والخير متحدان، وبالتالي أن الجمال هو الخير ومن الخير يستمد العقل جماله ومن العقل تستمد النفس جمالها"³، فهذا الربط الدقيق بين المكونات الذاتية هام في تصويب حركة النفس وعقل الحقائق، وبهذا العقل الجمالي يستطيع الإنسان أن يطرد الفخر باعتباره ناقضا جماليا، لتنتقل هذه النفس الجميلة إلى صناعة الخير. إن هذا الفخر الذي كان سببا في إخراج إبليس من الرحمة الإلهية، يعتبر قبحا وتشويها، وحصرا لمركبات الإنسان عن الانطلاق الجمالي نحو

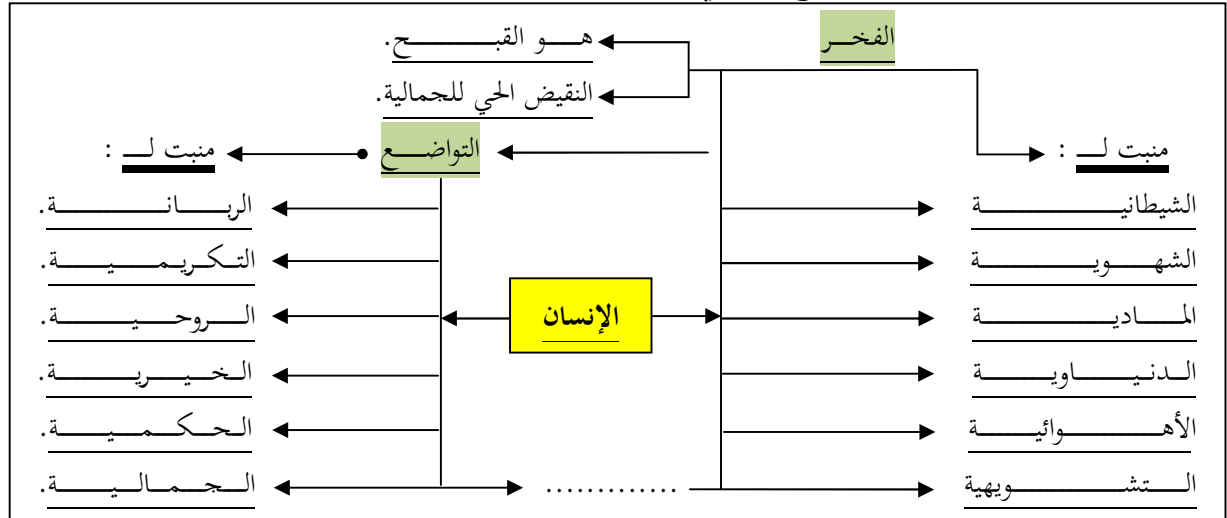
¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 409.

² - المصدر نفسه، ص 502.

³ - انس شكشك : فلسفة الحياة والوجود، ص 84.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

الخيرية، فالإعجاب أول مقتل للجمالية، والفخر مقتلها الثاني، ومحصلان لصورة القبح والتشويه، وعليه فإن تضخم الذات بهذين الناقضين يعد قبحا وتشويها وانغلاقا أمام القراءة الكونية الجمالية الواعية، كما أن الكبر منازعة إلهية لرداء الحق، يحجب وصول إشراقاته إلى النفس الإنسانية، وعليه فهذه الطبيعية السالبة للفخر تعالج بالوعي الجمالي:



- ترسيمة قائمة على بيان التضاد النقيضي بين الفخر والتواضع -

وعليه فإن النفس تقع في وضعية تدميرية حقيقية تخرجها عن الحق، لتصل إلى منازعة ومضاهاة الخالق ﷻ في جلاله وجماله المطلق، ولذا فإن الجمالية التي تزين نفس الإنسان الكامل، وتضيء بإشراقها على قواه الحية، تمنحه قوة انطلاق رهيبة في الأداء، إلى وجه الإحسان، كي يتمثل مع الجمال الكوني، فالإنسان وبصريح النص نال من هذا النور إفاضة جليلة بالغة، وتكفيه لينال الرياضة والتهديب الذاتي⁽¹⁾، تكفيه وتيسر له أن يدخل أنوار الحق إلى ذاته⁽²⁾، تكفيه ليكون كائنا جميلا⁽³⁾، وتكفيه لينطلق في البناء بهاديات الحق⁽⁴⁾، "ولذلك هناك صفات أخرى تشكل "قوام" الجمال الداخلي، وليس جمال "القوام" الخارجي، ومن هذه الصفات: الطيبة، الذوق، الحساسية، الحنان، التعاطف، الإبداع، الذكاء الاجتماعي"¹، تتمثل هذه الكفاية الجمالية في كفاية العقل والجسد (الصورة والتقويم الحسن)، والنفس [المطمئنة] بالتركية، وكفاية الروح بالانتصار على الأهوائية والمادية التي تعد المؤسس الجوهرية لأدنى أحوال الطاعة والعبودية وفي حدها الأول جمالية عدم المعصية، "أقل ما يلزمكم الله أن لا تستعينوا بنعمه على معاصيه"²، أي الشرط المبقي على رابانية

¹ - نصر ملاك : الجمال من بيوت التجميل إلى بيوت العبادة، دار العين، القاهرة، 2013، ط1، ص 133.

² - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 483.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

الإنسان لخالقه، مع الإرادة في ضبط النفس عن الشهوات المزيّنة، مع استحضر عوامل المحافظة على جوهرها الصافي النقي الجميل، متمثلة في:

أ- القناعة: "القناعة مال لا ينفد"¹، جمالية تحسينية تزيينية تواجه بها النفس أطماعها ورغباتها، فالجمال "هو تجربة إنسانية ونزوع إلى السمو"²، تنبثق عنها جمالية النفس المطمئنة.

ب- حسن الخلق: "ولا قرين كحسن الخلق"³، جمالية تحسينية تزيينية بالأخلاق، المؤسس الفاعل في تزكية النفس، قال تعالى في وصفه نبيه الكريم ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾⁴، وتكاد تكون تعريفا له وللإنسان، فالإنسان أخلاق، جمالية أضواء وازنة معينة له، يتفادى به الخروج عن الحد الأول الملزم [= عدم الاستعانة بالنعم على المعصية]، ولهذا فالجمال "هو أيضا الأخلاق والحكمة والاعتدال، أو عدم الإفراط وحسن الأفعال"⁵، أي الجمال الداخلي، ضابط حركة الذات.

ج- الابتلاء: "ورب منعم عليه مستدرج بالنعمة، ورب مبتلى مصنون له بالبلوى"⁶، جمالية تمحيص، زينة طهارة الداخل، ويسعف العقل وقوة البصيرة الإنسان ليقوم بتكاليفه بوعي، وهذا بفق هذه المعادلة: أن إغداق النعم اختبار وتمحيص، ونزول البلاء اختبار وتمحيص، وهذا من الجمالية.

إن "الجمال إمكان"⁷، مفتوح أمام نص الذات التي تتشكل معرفيا وجماليا في علاقتها وتواصلها الكوني، ثم إن "الوعي بالجمال هو قمة الوعي بالوجود"⁸، ووعي جمالي ينمي قوة إدراكية رفيعة لوعي كوني، وهو جمالية في شموليته، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾⁹، عبادة حرفية خالية من الوعي والجمالية الذي يعيق عن الحق وعن تحصيل جمالية العبودية، يقول الإمام: "بينكم وبين الموعظة حجاب من الغرة"¹⁰، وقطع هذا يعني الوصول إلى بحر المعرفة، ويكون ببصر البصير، وبتلك اليقظة الحية، وذلك الميلاد النوعي للإنسان الذي يولد ثانية، الولادة الجمالية، فهذا الإحساس يمكن أن يسمو بالبشر إلى مصاف الإنسانية"¹¹، وهذا الميلاد النوعي، هو ميلاد جمالي،

¹ - المصدر نفسه، ص 464.

² - أحمد بلحاج آية وارهام : الرؤية الصوفية للجمال منطلقاتها الكونية وأبعادها الوجودية، ص 63.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 447

⁴ - المصدر نفسه، ص 438.

⁵ - ملاك نصر : الجمال في زمن القبح، ص 55.

⁶ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 475.

⁷ - خالد آخه القلعة : السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة، ج1، ص 99.

⁸ - أحمد بلحاج آية وارهام : الرؤية الصوفية للجمال، ص 34.

⁹ - سورة الحج، الآية 11.

¹⁰ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 477.

¹¹ - شريط ياقوت : الجمال سحر الحياة، مجلة العربي، ع 02، 7 مايو 2017، وزارة الإعلام، الكويت، ص 173.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

وميلاد كمالي، يؤهل الإنسان كي يكون في موافقة مع الحق، وهذا هو سموه الطبيعي الحيوي، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾¹، وواضح من الآية أن الغفلة كانت المانع من إِبصار الحق، حيث تشوهت صور الحقائق في ذاته فكان الخسران، وهو الناتج العملي لغياب الوعي الجمالي، مع وجود أحوال من التمتع بالمحفزات المحدثثة لتلك النقلة الجمالية العجيبة، وعليه فما يمكن استقراءه أن الجمال يعد "إحساسا إنسانيا متجذرا في جوانية الإنسان وبرانيته"²، يتعين أن تظهر آثاره في انطلاق الإنسان في تجسيد المقصد من خلقه ووجوده بارتباطاته الدالة وعلاقاته الحيوية، ولهذا "فالإنسان حين يتحرر من التافه والمباشر فإنه يغرق في عالم متميز بعيد جد البعد عن عالمنا المحسوس"³. تحرر من كل ما يسلب الإنسان جمال الإمكان وانطلاقه، وعليه فالجمالية هي طاقات وتحفيزات ذاتية، وشعور بالصحة يمد الجسد والنفس بحيوية، وتمتع يعد تفجيرا للطاقة، وسياحة في سحر العالم، وإمكان جمالي دافع إلى تمثل الحق.

وعليه فإن الإنسان الكامل، هو الإنسان الكوني، إنسان السؤال، إنسان الحضور، إنسان المعرفة، وهو الأمل لإنسانية قادمة، يفتح لها أفق الترقى، ويزيل عنها موانع وحجب السير، ويسير بها نحو الأرفع والأكمل، يقول ستيفان تسفايج: "إنما تكتسب البشرية من كل عظمة إنسان بعدا جديدا أعظم"⁴، وهذا ما حاول الإمام أن يقدمه ليصنع المجتمع المثال، بصناعة الإنسان الكامل، في زمن تردى فيه الناس، وتراجعوا عن نور الفكرة، إلى العتمة [= حب الشهوات ومتاع الدنيا]. لقد كان السعي نحو اليقظة والعرفان، مجاهدة أخذ بها من أجل إضاءة إنسانية، وستستمر مع الأخيار الأحرار، فكرة تسكن عقول العظماء بحثا عن نموذج راق يكافئ حقيقة الاستخلاف.

إذن ننتهي من كل هذا إلى التأكيد على أهمية خصائص الكمال ومقوماته في البناء المعنوي

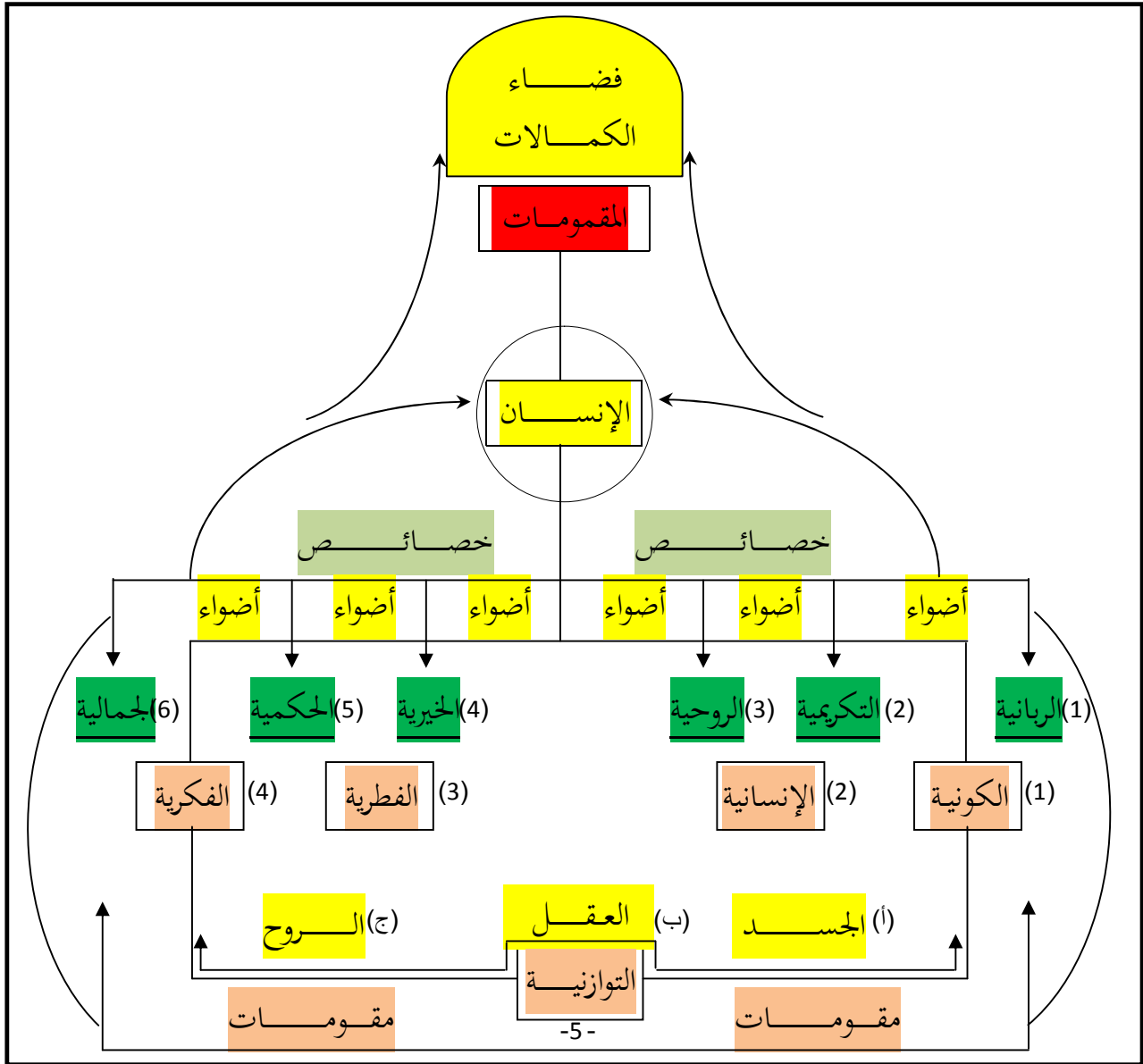
للإنسان الكامل، إنسان الإرادة، تمثلها بهذا المخطط الهرمي الجامع :

¹ - سورة ق، الآية 22.

² - أحمد بلحاج آية وارهام : المرجع السابق، ص 63.

³ - محمد عبد الرحمان مرحبا : الفكر العربي في مخاضه الكبير، ص 316.

⁴ - ستيفان تسفايج: بناء العالم، ص 525.



- مخطط جامع لمقومات وخصائص الإنسان الكامل -

تتلخص إذن ميزات الإنسان الكامل في الإرادة والحق والعدل والخيرية والخير، فهو إنسان
الفكرة والتأمل والنظر، وعليه فإن :

- 1. مقومات الإنسان = هي مقومات الكمال. [مع خميرة الوعي والمعرفة].
- 2. خصائص الإنسان = هي خصائص الكمال. [مع خميرة الوعي والمعرفة].
- 3. مقومات + خصائص = هي الكمال. [مع خميرة الوعي والمعرفة].
- 4. مقومات + خصائص = هي الإنسان. [مع خميرة الوعي والمعرفة].
- 5. مقومات + خصائص = هي كمال الإنسان. [مع خميرة الوعي والخيرية].

المبحث الرابع: سيما الإنسان الكامل في نهج البلاغة :

أولاً: العلامات التأويلية في الإنسان الكامل: كيف يمكن أن نرصد الإنسان من زوايا مختلفة؟ وكيف له أن يكون إنساناً؟! إن طبيعة الإنسان تشي بمفارقة بينة، من تلك الضدية التي في بنيانه النفسي، تنازع الإنسانية والحيوانية فيه، يقول "أبو حيان التوحيدي": "إن الإنسان أشكل على الإنسان"¹، يدرك هذا كل إنسان يرى تناقضه في ذاته، يقول الرافعي: "يحمل الإنسان في نفسه نقيضين، هما عقله وهواه، أو دافعه ووازعه، فإذا أطلقهما معا أفسداه، وإذا قيدهما معا أفسداه"²، حقيقة تدفعه إلى البحث عن ميزان يضبط فعله وحركته، ويمنحه الحكمة الكافية في إدارة ذاته، ويضيف "ولكن تمام الإنسان ونظامه أن يطلق العقل ويحد الهوى فيصفي بعضه في بعض، فإذا هو قد خلص وتحرر"³، تمام هو كمال من الصفاء والقوة والإرادة، وحالة وعي تسندها رؤية وكشف.

إن هذا الانتصار الذي ينتهي بالإنسان إلى أحوال من التوازن والحكمة يمثل محاولة للتعمق في أسرار الحقيقة، لأن "الغيب الكلي والجزئي متحرك دائماً باتجاه المعرفة"⁴، وسؤال الغيب هو دفع حثيث نحو المعرفة التي تحقق البناء الإنساني، كما يستهدف استشراف الكون، فيقرأ علامته في ارتباطها بعلامة الإنسان، حيث يمثل وجه التلاقي الحي لهذا السعي والحركة التي "هي لقاح الجد العظيم"⁵، ومن هذا يولد الإنسان الكامل العظيم، وهو إنسان جدير بالحياة، بينما يكون الإنسان المتسافل أدنى منها، وعليه فإن "من انفرد بالكمال كان هو القدوة"⁶، ويعني هذا حركة الوعي والعلم التي تجعل الإنسان علامة دالة على أنه سليل نوعه بالمعرفة، يقول الإمام: "فإن الجاهل بقدر نفسه، يكون بقدر غيره أجهل"⁷، قدر يضعها في حال من الاستقبال للتنزلات لاستحقاق الإنسانية، ويقول أيضاً: "أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها، وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرون عنها"⁸، لأنه بهذه التغذية النامية من نبع الحكمة والموعظة تسقى النبتة الإنسانية، لتبسق حتى تصير من شجرة العظمة، يقول "حاج حمد": "قد خلق الله الإنسان لا ليقهره بالعجز ولكن ليرتقي به إلى مصادر

¹ - التوحيدي أبو حيان : الهوامل والشوامل، تح أحمد أمين والسيد أحمد صقر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، 1951، ص 180.

² - الرافعي مصطفى صادق : تحت راية القرآن، دار ابن حزم، بيروت، 2011، ط1، ص 224.

³ - المرجع نفسه، ص 114.

⁴ - محمد شحرور : الكتاب و القرآن، ص 295.

⁵ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 10، ج 20، ص 153.

⁶ - مصطفى صادق الرافعي : وحي القلم، ص 199.

⁷ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 402.

⁸ - المصدر نفسه، ص 142.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

القوة والقدرة والعلم، وكل ما تعطيه حيوية الإبداع ليكمل مسيرته في الوجود، عبر معاودة الاندماج بالوعي في الحركة الكونية ضمن منهجيتها الإلهية¹، والترقي إلى الإنسانية هو إمكان قائم بهذه الأدوات، كي يربط الإنسان خيوطا رفيعة بينه وبين الكون، وبينه وبين المنهج الإلهي الضابط والموجه لهذا المسار الحيوي، وبينه وبين الناس [= المجتمع - الإنسانية] وتكشف لنا مختلف السنن المتبعة باعتبارها قواعد حياتية عن هذه الزوايا التي تنوع من حضوره، وتجعل منه كائنا جديرا بالحياة، نرصد منها نوعين من التجليات والتنوع والإمكان الحي في الذات الكاملة:

1- تجليات علامة كمال العقل: يمثل العقل الإيماني سيما الهوية الإنسانية المؤمنة، ومن سننه:

أ- سنة إحياء العقل وإماتة النفس: يقول الإمام: "قد أحيأ عقله وأمات نفسه، حتى دق جليله ولطف غليظة، و برق له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق، وسلك به السبيل، وتدافعت الأبواب إلى باب السلامة، ودار الإقامة، وتثبت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة، بما استعمل قلبه، وأرضى ربه"². إن العقل طاقة إنسانية، تقود الإنسان إلى تحصيل سعادته وراحته الأبدية، وهذا بفضل العقل الإيماني الذي ينفذ في الأسرار الإلهية، والأمر الثاني، المصاحب لهذا التوقد الفكري، إماتته شهوات النفس، بمخالفتها ومجاهدتها، وهما أمارتان دالتان على نبض حي في القلب والعقل، وفاعليتان ينال بهما المراد الأخروي، واستقامة الطريق، ووضوح السبيل، بذلك التدرج العرفاني في المقامات، وانتهاء بالوصول إلى مرتبة الكمال، وبهذا يصبح الهدف الراحة والطمأنينة والسعادة في الآخرة. إذن فسيما الإنسان الكامل هي سيما العقل الحي بالفكر والعلم، وسيما القلب السليم بالإيمان، وهو المشتغل بالمعرفة الإلهية وأسرارها، وهذه علامة عقل تام وقلب حي.

ب- سنة المعرفة، العيان والسماع: يقول الإمام: "إنه ليس شيء بشر من الشر إلا عقابه، وليس شيء من الخير إلا ثوابه، وكل شيء من الدنيا سماعة أعظم من عيانه. وكل شيء من الآخرة عيانه أعظم من سماعه، فليكنكم من العيان السماع، ومن الغيب الخبر، واعلموا أن ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة خير مما نقص من الآخرة وزاد في الدنيا، فكم من منقوص رابح ومزيد خاسر!!"³. إن النظر في الحقائق، ومعرفة آليات إصابة الحق، لتحقيق متطلب الدنيا والآخرة ضرورة متعينة، ويكون هذا بألية السماع والخبر، وكأن المعرفة يجعلها الإمام حسية وغيبية، بحيث تحقق مضاعفة

¹ - محمد أحمد حاج حمد : "العالمية الإسلامية الثانية، مج 2، ص 30.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 313.

³ - المصدر نفسه، ص 168.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

نوعية، تجعل من الإنسان يتحرك في العمل للآخرة والاستزادة من الصالحات، فالشر يكافئه العقاب، والخير يشاكلة الثواب. إذن فسيما الإنسان الكامل هي سيما جمع للمعرفة الحسية بالغيبية التي تثمر سلوكا نوعيا فارقا، كثرة العمل الصالح وفعل الخيرات، وهذه علامة تدل على كمال العقل. ج- سنة توافق حقيقة الإيمان الظاهرة والباطنة: يقول الإمام: "وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة يوافق بها السر الإعلان"¹، وهي سنة تجلي فطرة التوحيد، فلا يمكن لحقيقة الإيمان والتوحيد أن تكون ثابتا إنسانيا فكرة وعملا، يتوافق فيها القلب واللسان في إعلان هذه الحقيقة، إلا بهذا التماثل الرفيع، حيث تتشاكل حقيقة هذا الظاهر مع صورة الباطن، أي سر الإنسان وإعلانه، ليصبح حقيقة إيمانية واحدة، تعبر عن سلامة الفطرة. إذن فسيما الإنسان الكامل، هي سيما توافق السر والعلن والقلب واللسان، وفكرة التوحيد والعبادة والفطرة والسلوك.

د- سنة الهداية القرآنية، بامثال الكتاب: يقول الإمام: "من قال به صدق، ومن عمل به سبق"². إن الإنسان المؤمن له حقيقة تطبع ذاته، أن حقيقته قرآنية، تتمثل الحق الذي نطق به الكتاب، وهذه الموافقة الواعية تعد صدق حقيقة، وسبق عمل. إذن فسيما الإنسان الكامل، هي سيما امتثال الحق الذي قال به الكتاب، والسبق بالعمل وفق مقتضياته.

2- تجليات سيما الصديقية: يقول الإمام: "وإني لمن قوم لا تأخذهم في الله لومة لائم، سيماهم سيما الصديقين، وكلامهم كلام الأبرار، عمار الليل ومنار النهار، متمسكون بجبل القرآن، يحيون سنن الله وسنن رسوله، لا يستكبرون ولا يعلون، ولا يغفلون ولا يفسدون، قلوبهم في الجنان، وأجسادهم في العمل"³، يبدأ الإمام بإعلان رمزية الانتساب الإيماني إلى سلطة الحق، وعلامة إثبات هذه الرمزية التحرر من سلطة الأغيار، بحيث يصبح فعل الإنسان الكامل هو إرادة ذاتية، وفكرة إيمانية مصدرها الحق، كما أن تنفيذها يكون بنفس هذه القوة، وتؤسس هذه الإرادة إلى نشأة تكوينية ذاتية/إيمانية، وهذه علامة تفرد دالة على سيما هذه الصديقية، وتعني الانتساب إلى أهل الحق انتماء وامثالاً إيمانيا، حيث الصدق في اللقاء هو الانتصار للحق، في مقابلة ضدية مع الذات والآخر والقوة والسلطة والدنيا، وكل ميل لهوى، ويضيف الإمام تفرعات أخرى، هي تكميلات بناء لهذه السيمة، وتقوم على مكونات الصدق في الحديث، والفكر والعبادة، والتمسك بجبل القرآن،

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 147.

² - المصدر نفسه، ص 209.

³ - المصدر نفسه، ص 283.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

وفي إحياء السنن (المنهج)، والصلاح والتواضع والأمانة. إن لب وذروة الصديقية أن تكون الأسلوب العملي والتطبيقي لكل هذا التحقق، أو بالأحرى هي الحقيقة الكمالية في الإنسان السالك هذا الطريق التي تتطلب وعياً نوعياً يلخص هذا المسعى في الآلية والغاية حددها الإمام في علو الدرجة من المفارقة للعالم الأدنى [= الدنيا، الشهوة، الشيطان، الهوى]، إلى عالم أرفع [= عوالم الروح والجنان]، وسبيل تحقيقها يكمن في:

أ- عروج القلب، بمفارقتة عالم الدنيا الكثيف إلى عالم الجنان، ومن حبية الدنيا، إلى حبية الآخرة.

ب- تعبيد الجسد لهذه الغاية، بالعمل الصالح والمسابقة في الخيرات.

وكأن عروج القلب يتحول إلى ممارسة عملية، بتعبيد الجسد الذي يحيا بهذه الانعطافة

الروحانية [= العروج]، وبهذا الخضوع النوعي، والتحرر من الملبيات الإعاقية بسطوتها. إن سير الإنسان

في طريق الكمال، من رفيع إلى أرفع يوصله إلى مقام الصديقية، سيما خاصة:

- أن يكون هو والحق واحداً، بحيث يخلص له إخلاصاً تاماً، مع تحقيق الصواب في العمل.

- أن يتجاوز كل ما يخرج من طريق الحق [= المعينات].

- أن يخضع كل وارد يرد عليه لميزان وسنة الحق.

وعليه فعلامه الصديقية، تتمثل في عروج القلب بالإيمان، وتعبيد الجسد بالعمل، والجمع بين

الدنيا والآخرة غاية وعملاً، ودالها قوله: "قلوبهم في الجنان، وأجسادهم في العمل".

3- تجليات سيما الإنسان المناجي: يشكل الدعاء سمة تمييزية تسم الإنسان الكامل، وإحدى

علامات تجلياته، فهذا الإنسان المؤمن النوعي السوي، قد نهج لنفسه خط العبودية والتزم طريق

التوحيد ومسلكه، تأسيساً في بنيانه الذاتي، وقوة إظهار وتحويلات بنوية تجعل منه ذاتاً ناطقة، وذاتاً

متفاعلة مع أسرار الجمال الإلهي والكوني والإنساني نجد تمظهره الأبرز في المناجاة الإلهية بالدعاء

الذي يعد مفتاح الإدراك، حيث تستمطر به الخيرية وعناصر الحياة والجمال، ويعبر الدعاء عن

مناجاة تعبدية، هي صفة الكمال، ولم يشأ الإمام أن يكون الدعاء كلاماً عادياً يخلو من الشعرية

والجمالية، بل كان بلغة دالة على إنسانية وجمالية، تتوجه بهذا الصفاء إلى الذات الإلهية بجلالها

وجمالها، قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ (الإسراء: 84)، دالة على سيما تعبدية، وذات شفيفة:

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

أ- الدعاء رمزية نقدية للذات أمام الله: يعرض الإمام ذاته لمكاشفة ونقد ذاتي صريح¹، هدفه تنقية عالمه الجواني، بمراجعة دقيقة تعيد للذات ألقها وحيويتها ووجدتها في النشاط من خلال الإقبال الطوعي على الله ﷻ، وتبرز تجليا لجمالية الذات التي تتأسس على بكاء النفس بدمع النقد الذاتي.

ب- الدعاء والمناجاة تنزيها وتعبدا: إن هذا الدعاء، هو دعاء تعبدي تنزيهي للذات الإلهية²، ويقوم على أركان تعبدية، الاستمطار من الكنوز والخزائن الإلهية بالتحريك ومباني هذا الدعاء الأفراد بالتوحيد، والمحامد والممدوح، وإظهار الفاقة، وجماليته هي المدح الإلهي، المحقق للتمكين.

ج- الدعاء والمتطلب السياسي التغيير: يشكل هذا الدعاء بيان إظهار للغاية السياسية التي يهدف إليها الإمام، وهي نصرته منهج الحق³، وذلك من خلال التبرء من التماس السلطة لفضول دنيوي، برد معالم الدين والإصلاح والأمن، وبيان مقومات ذلك المتطلب، وهذا بذكر خاصيات الإمامة، أو موانعها، من البخيل، والجاهل والجاني، والحائف للدول والمرتشي، والمعطل للسنة، وتكمن جماليته في جمالية الذات القيادية التي هي جمالية موقف يتمثل الحق.

د- الدعاء وطلب الإغناء و الاستغناء: ويتجلى هذا من خلال ربط قضية الرزق بالعبودية والخضوع لله، والتحرر من الأغيار⁴، فالإغناء والاستغناء قضية إيمانية، تتمثل في كفاية النفس من الآخر، ويفعل الإمام أسماء الله ﷻ، بما يحقق هذه الصيانة والمنعة: (الرزاق، المعطي، الولي، المانع)، بما يتوافق مع سنة الخضوع للحق، وتتجلى جمالية الذات هنا في تحقيق صيانة وحماية الذات من الأغيار.

هـ- الدعاء وطلب الهداية والرشاد: تستفتح الذات هذه المناجاة بتلك الرغبة المعلنة التي تتمثل في طلب تحقيق الأانس بالحق⁵، وهي مكاشفة تظهر قمة لذة الذات وذوقها، المنفتح على هذه المؤانسة، ويتحول طلب الهداية إلى لطف ورحمة، وأعلاه إلى رشد، وإن زينة هذا الدعاء التوفيقي، يمثل رغبة الذات أن تحمل على العفو والرحمة والأوسع، لا على العدل، وهذا الميزان يستشعر الضعف والفاقة، وإظهار صور التعبد، وتمثل هذه الجمالية مكاشفة تعبدية تبحث عن الأانس بالحق.

و- الدعاء فتح ليوم الإنسان بالمناجاة الإلهية: يلخص هذا الدعاء حركة الإنسان اليومية في كل صباحاته⁶، ومن ثم نلاحظ أن الذات تفتح قانون الحمد على الحياة الممنوحة لها والمجددة عليها،

¹ - ينظر نهج البلاغة، ص 98.

² - ينظر المصدر نفسه، ص 137.

³ - ينظر المصدر نفسه، ص 185.

⁴ - ينظر المصدر نفسه، ص 323.

⁵ - ينظر المصدر نفسه، ص 325.

⁶ - ينظر المصدر نفسه، ص 308، 309.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

معلنة الإقرار بالملوكية لربها، وبظلم النفس، والتعوذ من الفقر والافتقار، ومن التحول عن الحق والافتتان وإتباع الهوى، وأن تكون كريمة النفس أول الكرائم المنتزعة. إن جمالية الذات الكاملة، هي المتعبدة بالحمد، المفتحة صباحات يومها بتعبيد ذاتي خالص وجمالية شفيفة.

ي- مناجاة تحصيل جمالية الظاهر والباطن: إن من أعظم ما ترغب فيه ذات الإنسان الكامل أن ينطبع فيها الحسن¹، وأن يتجلى منها/عليها الجمال باطنا وظاهرا، أي جمالية الحق، ومن ثم فهذه المناجاة الشفيفة تستمد قوة هذا التحقق من الله ﷻ، ليتوافق ظاهرها وباطنها، وأن يتحقق لها جمال الجوانية والبرانية (الإيمان والسلوك)، وإبعاد كل صور النفاق عن الذات، وإن جماليتها هي رغبتها في الاستمداد من اللطف الإلهي، لكي يمنحها كل حسن، حسن الإيمان، لتتوافق مع الحق وبه.

ن- كونية الدعاء، دعاء الاستسقاء انفعال النفس بالحق وبالمخلوقات والموجودات: ينطلق هذا الدعاء من استشعار حالات الضعف الذي يعمره الإمام على مختلف المخلوقات، ولهذا يلحق هذا النسق من الدعاء بالعناصر الكونية²، لاستمطار الخيرية وعناصر الحياة، ومن ثم إثبات حقيقة التفاعل الكوني، ولهذا ينتهج خطة من أربعة مراحل متكاملة، تتصور تلك التحولات بالالتجاء إلى الله بالضراعة بأضعف المخلوقات، والخروج إليه بإظهار الضعف، والدعاء بالسقيا المحيية، وبيان مسوغ طلبها، إنعاش الضعيف، وإحياء البلد الميت، والسقيا المحددة، وبيان آثارها من الإعشاب والإثمار والإخصاب، بلغة انفعالية تعبيرية كشفية، لغة تضرع وخشوع، تنقل الضراعة واقعا والتجاء.

تكشف سيما الإنسان المناجي الله ﷻ عن جمالية وتميز، تثبت خضوع هذه الذات، وتنطق أحوالها بعبودية شفيفة، تلخص لطافة هذه الذات التي تحررت من كل تكثف وسلطة، ليصبح الدعاء فكرة مكاشفة روحية ومناجاة ثنائية تجعل من هذا الخضوع سيما جمال إنسان يعبد نفسه لخالقه بشعرية نادرة، هي بلسم الروح، وقد انعتقت في اللحظة والمكان بجمالية من كل المزاحمات.

ثانيا: تجليات سيما الإنسان بين جرح الظلم وجرح الحق: تعتبر حياة الإنسان، وحياة الكامل كدحا نوعيا، وهي فاصل ألم عالٍ بشدته، حيث يجرح ذاته الظلم بجذبه الذي يقع فيه، وجرح الحق بقوة سلطانه ونوره المشع وفرقانه الذي يفصل هذا الحق عن الباطل، إنها رحلة إنسان شاقة كادحة إلى الحق، وإلى الله، وهي سيما تعريفية بيانية له، ونعت تمييزي يرفعه إلى منزلة الحق بتمثله وموافقته، وتتعدد صور هذا التحلي في نصوص النهج، وهي تبهر المتلقي بتنوعها وألق متمثلها سيما ووصفا،

¹ - ينظر نهج البلاغة، ص 476.

² - ينظر المصدر نفسه، ص 169، 170.

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

وعليه فتردد هذا الرصد النوعي إنما يكشف عن أصالة إنسانية وعمق معرفي، وجوهر وعي، وتوثب روح متطلعة إلى الأفق الأخرى من المجاورة الإلهية، وسكن تدثره الرحمة الإلهية، ومن هذه الصور الجلية لهذه الإشراقه نجد هذه الحزم من أحوال تجليات وتميز الإنسان الكامل، ومن علاماته:

السيمة	الدوال المعرفية	تأويل العلامة
1- <u>العباد: عباد زاهدون = سيما</u> <u>خص البطون وأسى</u> <u>القلوب.</u>	- "خص البطون من الصيام ذبل الشفاه من الدعاء صفر الألوان من السهر على وجوههم غيرة الخاشعين" ص175، و"حرج طول الأسى قلوبهم، وطول البكاء عيونهم، فحاسب نفسك لنفسك" ص319.	تدل هذه العلامات على أحوال جوانية ناطقة بمعاني التعبد والخشوع، وتشكل هذه السيمة رغبة جانحة بصاحبها إلى تحقيق مصفاة جوهر الروح، وتخليص النفس من المفساد، وإبعادها عن علائق الدنيا، فسيما العابد الزاهد، هي <u>تعييد ذاته لله ﷻ، حتى تلتطف وتصفو من التكثف.</u>
2- <u>الأنس بالحق:</u> سيما موافقة الحق، علامة محبة: <u>الأنس</u> <u>من وحشة.</u>	- "ولا يؤنسك إلا الحق، ولا يوحشك إلا الباطل، فلو قبلت دنياهم لأحبوك، ولو قرضت منها لأمنوك" ص184، و"لا يزيدني كثرة الناس حولي عزة، ولا تفرقهم عني وحشة" ص376.	تقع هذه العلامة في مواجهة الإنس بالباطل ومحبته، وقبول الدنيا وأهلها، وتبرز وعورة طريق الحق على سالكه، <u>طريق الأفذاذ، الأحرار، وتمثل تعريفية هذا الأس في: عدم تعدي الحق، وأن العزة والوحشة لا يمنحها كثرة الناس وتفرقهم، كما أن الأنس هو طريق طمأنينة ذات متميزة.</u>
3- <u>إعداد الزاد:</u> سيما الإعداد والاستعداد	- "وخذ ما يبقى لك مما لا تبقى له، وتيسر لسفرك" ص321، و"طوبى لمن ذكر المعاد، وعمل للحساب، وقنع بالكفاف، ورضي عن الله" ص437، و"بئس الزاد إلى المعاد، العدوان على العباد" ص463، "ومن الفساد إضاعة الزاد، ومفسدة المعاد" ص370.	<u>تلخص</u> سيما رحيل وسفر إنساني معرفي وإيماني، وسيلته العمل والمجاهدة، وتركيز الهدف في محقق الفوز، على المنجز الأخرى بالعمل والكفاف والرضا عن الله، وهي خطوات مرحلية، تنتهج أسلوب التخلية والتحلية، واحتساب كل عدوان وفساد، لأن قانون الفساد يحقق سوء المعاد، بينما قانون الصلاح يحقق حسنه.
4- <u>مفارقة</u> <u>الحيوانية: سيما</u> <u>الإنسانية ..</u>	- "أتمتلى السائمة من رعيها فتبرك؟ وتشبع الربيعة من عشبها فتربض، ويأكل علي من زاده فيجع؟ قرت إذا عينه إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة، بالبهيمة الهاملة والسائمة المرعية" ص386، و"إن البهائم همها بطونها، وإن السباع همها العدوان على غيرها، وإن النساء همهن زينة الحياة الدنيا والفساد فيها، وإن المؤمنين مستكينون، إن المؤمنين مشفقون، إن المؤمنين خائفون" ص205.	1- <u>ويتم</u> ذلك بالخروج من عالم البطن والشهوة إلى عالم العقل والروح والإنسانية، أي أن محرمة الإنسان فكرة الحق، لا فكرة البطن، وعليه فإن: - فكرة الاقتداء لا تكون بعالم السائمة والبهيمة. - لا تتحقق إنسانية الإنسان، إلا بمفارقة الغريزة. 2- يتلخص هم البهائم في شهوة البطن، والنساء في الزينة، والسباع في العدوان، وإن الاستكانة والإشفاق والخوف هي سيما المؤمن الحقيقي، المفارق للمادية <u>والحيوانية.</u>
5- <u>قدر الذات:</u> سيما تقدير الذات، سيما القيمة النوعية	- "قدر الرجل على قدر همته. وصدقه على قدر مروءته وشجاعته على قدر أنفته وعفته على قدر غيرته" ص438، و"قيمة كل امرئ ما	تبنى هذه الحالة الإيمانية على قيم الصدق والمروءة والشجاعة والأنفة والعفة والغيرة، وتعد هذه القيم الجوانية أبنية ومركبات ذاتية، تمنح سيما هذا القدر العالي الرفيع

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

<p>لذات الإنسان، فمركز هذه السيمة هو القوة الداخلية، والصنيع الجميل، وتعد المعرفة فاعل تقدير الذات، تجنب معارضة الحق، والصراع معه. إذن فسيماه امثاله للحق.</p>	<p>يحسنه" 441، و"هلك امرؤ لم يعرف قدره" 453، و"من أبدى صفحته للحق هلك" 459، و"من صارح الحق صرعه" 496.</p>	<p>للذات، أو الهمة بالكينونة.</p>
<p>إن المعصية هي مخالفة الحق، ولذا فإن عين العدل، عدم معصية الله، خاصة في الخلوات، حيث تتضاعف الحجة عندما يكون الله ﷻ الشاهد والحاكم على الإنسان. وإن من أكبر التجاوز للحق الاستعانة بالنعم الإلهية على معصية المنعم ﷻ، فسيما المؤمن الحي الطائع. أنه تحت نظر الله.</p>	<p>- "اتقوا معاصي الله في الخلوات، فإن الشاهد هو الحاكم" ص483، و"أقل ما يلزمكم الله أن لا تستعينوا بنعمه على معاصيه" ص483، و"ولا تدخلوا بطونكم لعق الحرام، فإنكم بعين من حرم عليكم المعصية، وسهل لكم سبيل الطاعة" ص203</p>	<p>6- <u>المعصية</u> : سيمًا بجانب المعصية، تقدير الله ﷻ، سيمًا تميز ودرجة وعي وعقل.</p>
<p>إن سيمًا التأسى بالنبي ﷺ، هي معرفة وقودة، أي التأسى بالمثل لبلوغ الكمال وبناء المثل في الذات، وذلك بفهم: 1- حقيقة الدنيا، بالرفض والتجاوز. 2- الإعراض عن الدنيا بالقلب، وإماتة ذكرها في النفس. 3- تغييب زينتها في حياته، لارتباطه بجمالية الحق. إن هذه السيمة التي تحتاج إلى المعرفة والوعي، هي رسم بالأداء، أو تطبيق فكرة الحق بالمثل الحي واقعا وسلوكا.</p>	<p>- "فأعرض عنها بقلبه، وأمات ذكرها عن نفسه، وأحب أن تغييب زينتها عن عينه لكيلا يتخذ منها رياشا، ولا يعتقددا قرارا، ولا يرجو فيها مقاما، فأخرجها من النفس، وأشخصها عن القلب، وغيبها عن البصر، وكذلك من أبغض شيئا أبغض أن ينظر إليه وأن يذكر عنده" ص216.</p>	<p>7- <u>الأسوة</u> : سيمًا التأسى معرفة وقودة.</p>
<p>تعد سيمًا إقدام الإنسان على الله مظلوما لا ظالما مفازة، باجتناب مسببات الظلم ومدخله، من اتقاء مدارج الشيطان والعدوان وأكل الحرام، ويكون هذا بإدراك: 1- سيمًا التحرر (الذات) بنيل لذة النفس وشفاء غيظ. 2- سيمًا إطفاء الباطل وإحياء الحق، والأسف على كل ظلم بأنواعه معصية، وغلبة، ومظاهرة، مع تقديم الخيرية. إن هذه الدوائر تعني حركة ظالمة أو حركة فساد وانحراف عن منهج الحق.</p>	<p>- "وأقدموا على الله مظلومين ولا تقدموا عليه ظالمين. واتقوا مدارج الشيطان ومهابط العدوان" ص203، "فلا يكن أفضل ما نلت في نفسك من دنياك بلوغ لذة أو شفاء غيظ، ولكن إطفاء باطل أو إحياء حق" ص422، و"للظالم من الرجال ثلاث علامات: يظلم من فوقه بالمعصية، ومن دونه بالغلبة، ويظاهر القوم الظلمة" ص486.</p>	<p>8- <u>الظلم</u> : سيمًا الابتعاد والمحافة.</p>
<p>تطرح حقيقة موت الكائنات بعدا كونيا بفناء المكونات، وبمعرفة ووعي يصحح المسارات والخيارات الإنسانية، وهذا بإدراك نهاية المحدود، وبداية الحياة الأخرية، ويتولد عن هذا الوعي بالآخرة عملا ومآلا، والجنة مستقرا ومقاما.</p>	<p>- "ووأى على نفسه أن لا يضطرب شبح مما أوج فيه الروح إلا وجعل الحمام موعده والفناء غايته" ص227.</p>	<p>9- <u>كونية الموت</u> : سيمًا تذكر ووعي بالمآل والمصير.</p>
<p>تعد سيمًا شغل النفس بعبئها عدالة وتكرما، ويجعل الإمام ضوابط هذه العدالة في محاور اشتغال وظيفية، هي لزوم الإنسان لبيته، وأكل قوته، والاشتغال بطاعة الله، والبكاء على خطيئته، والانشغال بعبئ النفس، وتهوين الشهوات،</p>	<p>- "أيها الناس طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وطوبى لمن لزم بيته، وأكل قوته، واشتغل بطاعة ربه، وبكى على خطيئته، فكان من نفسه في شغل، والناس</p>	<p>10- <u>شغل النفس</u> : سيمًا عدالة الذات.</p>

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

<p>ومنح الراحة للآخرين، بكف الأذى عنهم، لترسيخ قيم الفضيلة، تكريم يعادل صورة النفس المطمئنة، المهينة.</p>	<p>منه في راحة" ص242، و"من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهواته" ص501.</p>	
<p>يضع الإمام عدم القدرة عن اكتساب الإخوان وتضييعهم في خانة العجز، أي تضييع أنصار الحق في هذا الطريق الشاق الذي يحتاج إلى إضاءة هؤلاء وسندهم، فهم قوام الإنسانية، ولذا فإن وسم الأخ في الله وعظم قدره وقيمته لاعتبار إيماني قيم: صغر الدنيا في عينه، وخروجه من سلطان بطنه، وأما ميزانه الاكتفاء بجدين، الصمت في أيامه والقول النافع في مكانه، ضعيف مستضعف، ليث في الجدد، مخالف للهوى، ويدفع الإمام بعد هذا التعداد للفضائل إلى الأخذ والتخلق بها، لتكون سيما هؤلاء سيما كل إنسان عملاً واقتداءً.</p>	<p>- "أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان" ص432، و"كان لي فيما مضى أخ في الله، وكان يعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه، وكان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان أكثر دهره صامتاً... وكان ضعيفاً مستضعفاً، فإن جاء الجدد فهو ليث غاب، وضلّ وإد...، وكان إذا بدده أمران نظر أيهما أقرب إلى الهوى فخالفه، فعليكم بهذه الخلائق فالزموها" ص477-478.</p>	<p>11- الإخوان : سيما الشوق إلى الحق وأهله.</p>
<p>وتتم سيما هذا الخوف بآليات وخطوات تدريبية بينة : أ- التحريب في مصائب الدنيا. الجزع من إصابة الشوكة، وإدماء العثرة، وإحراق الرمضاء. ب- نقل المطابقة بالمتخيل، بالتقريب وعقد المماثلة، الحلول بين طابقين من نار، ضجيج حجر، قرين شيطان. إن هذه المقاربة بين طبيعة الألمين، وصورة الواقع التحريبي الحسي والمتخيل الغيبي تبعث في النفس حالة من الخوف العملي، وهذه سيما الإنسان الخائف من النار ومتقيها بالعمل، وسيما الرحمة بالنفس، فالألم الذي يصيبه، يصبح وقاية وتجربة، بل تبصرة وتعلماً.</p>	<p>- "واعلموا أنه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار، فارحموا نفوسكم فإنكم قد جرتموها في مصائب الدنيا. أفرايتم جزع أحدكم من الشوكة تصيبه، والعترة تدميه، والرمضاء تحرقه؟ فكيف إذا كان بين طابقين من نار، ضجيج حجر وقرين شيطان. أعلمتم أن مالكا إذا غضب على النار حطم بعضها بعضاً لغضبه، وإذا زجرها توثبت بين أبوابها جزعا من زجرته" ص253.</p>	<p>12- الخوف من النار: سيما الخوف العملي، وتناول علامات الألم الدنيوي، زيادة في الاتقاء. [= علامات المجانبة].</p>
<p>إن الموعظة هي سنة إلهية جارية وهي الوعي الذي تحدده اللحظة، وينبعث من التجربة خلاصة فقه تقدم المعرفة، حيث تدفع الإنسان إلى تصويب حركته عملاً واستقامة، ومن أبرز وأكبر أمارات الوعظ: أ- المعاينة: "الوعظ بالموتى"، من خلال: الحمل إلى القبور، مفارقة عمارة الحياة، الوحشة، والانتقال = الرحيل والترك. ب- القيامة: الغاية والمنتهى، والانتظار في الأرماس، وعظ للعاقل، وعبرة للجاهل، باستحضار أهوالها، زيادة في التيقظ. ج- التداوي من داء الفترة بالعزيمة واليقظة والطاعة. د- المصائر: تقريب صورة الدهابين بأحوالهم.</p>	<p>- "فكفى واعظاً بموتى عاينتموهم، حملوا إلى قبورهم غير راكبين، وانزلوا فيها غير نازلين، كأنهم لم يكونوا للدنيا عمارة، وكأن الآخرة لم تنزل لهم داراً. أوحشوا ما كانوا يوطنون، وأوطنوا ما كانوا يوحشون" ص263، و"فإن الغاية القيامة، وكفى بذلك واعظاً لمن عقل، ومعتبراً لمن جهل. وقبل بلوغ الغاية ما تعلمون من ضيق الأرماس، وشدة الإبلاس، وهول المطلع، وروعيات الفزع، واختلاف الأضلاع، واستكاثك الأسماع، وظلمة اللحد، وخيفة الوعد، وغم الضريح،</p>	<p>13- الوعظ : سيما الإنسان المنتفع بالموعظة.</p>

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

<p>هـ- <u>الدنيا الغرارة</u>: الوعظ بغدرها وغرورها وخذاعها ومنعها.</p> <p>و- <u>الاتعاض بأهل الصلاح</u>: الذين تجنبوا غرور الدنيا، وكان معيارهم، أنهم فيها بالأجساد، مع مجاوزة لها بالعمل.</p> <p>إن سيمما الإنسان الكامل، <u>الاتعاض بمختلف آيات الاعتبار</u>، ومحصلة فقه هذا الوعظ تمتين وعي الإنسان بهذه <u>النقلات الفارقة</u>.</p>	<p>وردم الصفيح" ص264-265، " فتداو من داء الفترة في قلبك بعزيمة ومن كرى الغفلة في ناظرك بيقظة وكن لله مطيعا وبذكره آنسا" ص320، " وكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه وارتمنكم ذلك المضجع وضمكم ذلك المستودع..." ص342، " فاحذروا الدنيا فإنها غدارة غراره خدوع، معطية منوع، ملبسة نزوع، لا يدوم رخاؤها، ولا ينقضي عناؤها، ولا يركد بلاؤها" ص327.</p>	
<p><u>المنافق</u>: يتعين على العاقل أن يجذر من تلون الحقيقة بين أفواه المنافقين، الوعي بحقيقتهم، وقراءة باطنهم، وتلحظ في: أ- تقديم الإمام علامات الهوية [= الوصفية للمنافق]. ب- بيان خطرهم [= مضلون مزلون].</p> <p><u>الشقي</u>: وعلامته الحرمان من الانتفاع بالعقل والتجربة، وهذا بيان كشفي وسيمما يقظة وحيوية ووعي وبصيرة.</p> <p><u>الفتنة</u>: ضرورة اعتزال الفتنة، فلا يكون رأسها المدير، ولا مستعملا فيها ولا مشاركا، وإن هذه السيمة تجعل الإنسان بعقله ووعيه وذكائه، في حالة اتقاء حفظا وبراءة وخلاصا.</p> <p>- <u>اختلاف الدعوة</u>: إن لكل من الحق والباطل أمارات ودلائل، والعارف بعقله يفرز الضالة من الهادية، ويتجنب الضالة بإتباع الهادية، ويميز التشابه، ويفض التناقض، وهذا الوعي التمييزي يضعه في موافقة مع الحق، لينتصر في عملية الاختبار والتحميص.</p>	<p>- " وأحذركم أهل النفاق، فإنهم الضالون المضلون، والزالون المزلون، يتلونون ألوانا، يفتنون افتنانا، ويعمدونكم بكل عماد، ويرصدونكم بكل مرصاد، قلوبهم دوية، وصفاحهم نقية، يمشون الخفاء، ويدبون الضراء، وصفهم دواء، وقولهم شفاء، وفعلهم الداء العياء، (...) قد أعدوا لكل حق باطلا، ولكل قائم مائلا، ولكل حي قاتلا، ولكل ليل مصباحا..." ص287-288، " فإن الشقي من حرم نفع ما أوتي من العقل والتجربة" ص429، و"كن في الفتنة كابن اللبون لا ظهر فيركب ولا ضرع فيحلب" ص431، و"ما اختلفت دعوتان إلا كانت إحداها ضلالة" ص458.</p>	<p>14- <u>المنافق الشقي</u>: سيمما التحذير من تلون الحقيقة بين الأفواه. وسيمما الحرمان من الانتفاع بطاقات العقل والتجربة.</p>
<p>ينبغي أن تتحول الطاعة إلى فكرة ثابتة راسخة مركوزة في النفس، وهي المحققة لكل زاد، تدفع بها ظلمة القبور وتوقد النيران، فالطاعة قانون إدارة الحياة الإنسانية ضبطا وتوجيها وعدالة وقيادة.</p> <p>إذن فسيمما الإنسان الكامل، وعي قانون الطاعة وسنة الهداية.</p>	<p>- "فاجعلوا طاعة الله شعارا دون دثاركم، ودخيلا دون شعاركم..، وشفيعا لدرك طلبتكم وحنة ليوم فزعكم، ومصايح لبطن قبوركم، وسكنا لطول وحشتكم، ونفسا لكرب مواطنكم. فإن طاعة الله حرز من متألف مكتنفة، ومخاوف متوقعة، وأوار نيران موقدة" ص292-293.</p>	<p>15- <u>الطاعة</u>: سيمما الإنسان الطائع بوعي وفقه.</p>
<p>إن الصبر هو القوة التي بها تتم مجاهدة معيقات الحق، وهو سيمما الجمال الإنساني، به تفقه سنة الابتلاء، تحقيقا للنجاة ودفعاً للجزع، وطاقة عملية وقوة ثبات، في نقطة</p>	<p>- "من لم ينجه الصبر، أهلكه الجزع" ص459.</p> <p>- "الصبر يناضل الحدثان، والجزع من أعوان</p>	<p>16- <u>الصبر</u>: سيمما الإنسان العابد الصابر.</p>

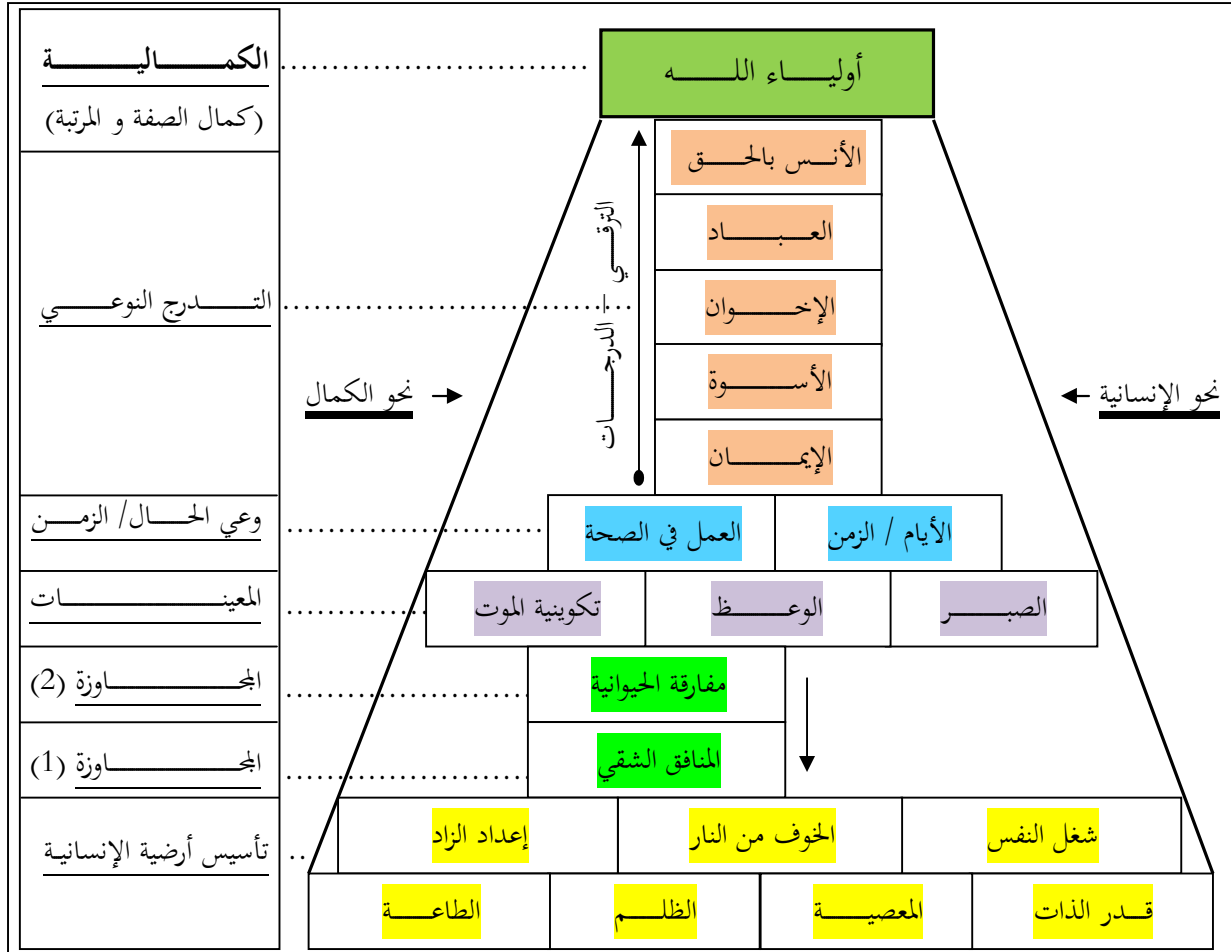
الفصل الخامس : الإنسان الكامل

<p>الإضاعة الجمالية والنعته بالإنسانية، بينما الجزع يعد تشويها لها وللحقيقة.</p>	<p>الزمان" ص462.</p>	
<p>إن هذا الزمن الذي يتقدم بالإنسان نحو نهاية رحلته يتطلب منه استدراك بقيته بالعمل، وصبر النفس عليه، باليقظة والموعظة، وإلزام النفس الحق، وترك المداينة التي هي سبيل ممهّد للمعصية، حيث يفتح وعي الإنسان إدراك الزمن والبصر بحقيقته، أي <u>زمن المؤمن</u>؛ بحسن إدارته. ومن هنا ينطلق الإنسان في الحياة لتنمية وتغذية مركباته التكوينية، بتبليبات وازنة حكيمة، وتحقيق عملية الوصل الزمني، زمن الدنيا بالآخرة، بفقّه ووعيه، أي <u>سيما تقسيم متكامل للزمن</u>..</p>	<p>- "فاستدركوا بقية أيامكم، واصبروا لها أنفسكم، فإنها قليل في كثير الأيام التي تكون منكم فيها الغفلة، والتشاغل عن الموعظة، ولا ترخصوا لأنفسكم، فتذهب بكم الرخص مذاهب الظلمة، ولا تداهونوا فيهجم بكم الأدهان على المعصية" ص 115. "للمؤمن ثلاث ساعات: فساعة يناجي فيها ربه، وساعة يرم معاشه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل" ص494.</p>	<p>17- <u>الأيام</u> : <u>سيما وعي الزمن، وعي بالعمل ..</u></p>
<p>إن الإيمان فقّه ووعيه وربط لعالمي الشهادة والغيب، وعلامته الثقة في الله، وإيثار الصدق، ولو مع المضرة، والتقوى في حديث غيره، وعدم الاستعلاء بفضل العمل. إن هذه الدعائم والعلامات تجلّي صدق هذا الإيمان، وحقيقته باعتبار <u>بنية فكرية عميقة في الذات بأماراتها</u> مشكلة سيما المؤمن الخاصة.</p>	<p>- "لا يصدق إيمان عبد حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده" ص480، و"علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك، وأن لا يكون في حديثك فضل عن علمك، وأن تتقي الله في حديث غيرك" ص502.</p>	<p>18- <u>الإيمان</u> : <u>سيما المؤمن.</u></p>
<p>تعتبر هذه السيمة محاولة لانتهاز الفرص تستثمر في عناصر الطاقة وزمنها وفوراتها، بحضور فاعل، وفكّك يتم به: - اسهار العيون ← علامة التفكير والعلم. - اضمار البطون ← علامة الصيام. - استعمال الأقدام ← علامة القيام. - انفاق الأموال ← علامة الصدقة. - الأخذ من الأجساد ← علامة الطاعة/العبادة. ويضع الإمام مجالا لهذه الطاقة والصحة والحيوية، بحيث تنتهز فرص الخير ويستدرك المآل بالعمل لفك أسر النفس وارتخائها، وتكشف هذه السيمة عن حالة حيوية في الذات وتفجرها بالطاقة، وتمثل تجليا حيا للإمداد بالقوة وحالة <u>إظهار بالعمل</u>.</p>	<p>- "فالله الله معشر العباد وأنتم سالمون في الصحة قبل السقم، وفي الفسحة قبل الضيق، فاسعوا في فكّك رقابكم من قبل أن تغلق رهائنها، أسهروا عيونكم، وأضمروا بطونكم واستعملوا أقدامكم، وأنفقوا أموالكم، وخذوا من أجسادكم وجودوا بما على أنفسكم، ولا تبخلوا بما عنها" ص253، و"عباد الله الآن فاعملوا والألسن مطلقة، والأبدان صحيحة، والأعضاء لدنة والمتقلب فسيح، والمجال عريض، قبل إرهاب الفوت، وحلول الموت، فحققوا عليكم نزوله، ولا تنتظروا قدومه" ص291.</p>	<p>19- <u>العمل في الصحة</u> : <u>سيما الأخذ بقوة الجسد وطاقته عند الصحة.</u></p>
<p>يترجم هذا النعت بدواله حضورا نوعيا خاصا، فمن متطلباته الحية الوعي والمعرفة والفقّه، والبصيرة والقلب الحي، وأما مؤديات الحالة، فإنها تجلّي لنا العلامات الآتية: - النظر إلى باطن الدنيا، والانشغال بأجلها (الآخرة).</p>	<p>- "إن أولياء الله هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذا نظر الناس إلى ظاهرها، واشتغلوا بأجلها إذا اشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم وتركوا منها ما علموا</p>	<p>20- <u>أولياء الله</u> : <u>سيما الأولياء ..</u></p>

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

<p>أنه سياتركهم، ورأوا استكثار غيرهم منها استقلالاً، ودركهم لها فواتاً، أعداء لما سالم الناس، وسلم لمن عادى الناس، بهم علم الكتاب، وبه علموا، وبهم قام الكتاب، وبه قاموا، لا يرون مرجواً فوق ما يرجون، ولا مخوفاً فوق ما يخافون" ص 499.</p>	<p>– إمامته شهواتها وإغراءاتها وزينتها، وأخذ قليلها، وتفويت فرصها، فهم أعداء للباطل وأهله، وسلم للحق وأهله. – موافقة الحق والكتاب وامثال أمره، مصدر كل قيام. إذن فسيما أولياء الله، التميز والتفرد والوعي والمعرفة بالمقاصد، فالدنيا لهم هي أرض الحق يبني عليها عالم الآخرة، ونقطة الانطلاق [= نحوها].</p>
---	--

ويمكننا تمثيل هذه القيم الذاتية من سيما الإنسان الكامل، بهذا المخطط الهرمي البنائي:



– البناء الهرمي التدرجي لسيما الكمال بالأوصاف والخصائص –

يجسد هذا المخطط تدرجاً نوعياً من مبتدى انطلاقه إلى قمة عروجه، بحيث يؤسس لبنية الكمال، بقوتها وطاقته الفاعلة في هذا التشكيل الحيوي الذي يبني المكون الإنساني ويرسم هويته الإيمانية والإنسانية والكمالية. لقد تبين لنا من خلال رصدنا لطبيعة وحقيقة الإنسان وحركته وتحليلاته وخصائصه ومقوماته في نهج البلاغة، تميز تصور رؤية الإمام له بـ:

1- الإحاطة والدقة، وتنويع زوايا النظر إلى الإنسان [نفساً وعقلاً، مجتمعاً وكوناً، إنسانية وروحاً، ذاتاً وهوية، فاعلاً ومنفعلاً، قبحاً وجمالاً، مثلاً ونازلاً، خيراً وشريراً، حكيماً بصيراً، وجاهلاً أعمى].

الفصل الخامس : الإنسان الكامل

- 2- تناوله في أبعاده الكونية الوجودية، باعتباره مشروعاً إنسياً أهلاً للاستخلاف.
- 3- يبدو متناقضاً في تصرفه، عميقاً في معناه، وخاوياً في ذاته، ويتجلى صالحاً وفساداً ومفسداً، مضطرباً وملتوناً، وخيراً جميلاً.

إنه ذلك الإنسان الذي يبني فكرته في الحياة، وعلى الأرض، وتبرز هذه الأصباغ التي يكون عليها مشهد هذا الصراع، وسط الإكراهات والمعيقات، ومزاحم الفطرة والإنسانية، ومعنى هذا "فنحن أمام هيكل إنساني فيه بذور صفات تفتتح مع تفتح وعيه"¹، فهذه التربة والحالة النامية تمثل قابلية تشكل هويته الإنسانية، تمكنه من تحقيق التزقي، حيث يتعين انتهاج خط تكميل هذه البنية وفتحها نحو مسارات أخرى هي مقوماته وخصائصه الإنسانية والكونية، ولكن بتعلق ضروري ودال، الوعي بهذه القيم وتنميتها، يقول الإمام: "وربما أخطأ البصير قصده وأصاب الأعمى رشده"²، مما يدل على أن الوعي هو سيد كل إصابة وتوفيق، ولذا فإن تفتح تلك البنية فيه، تسهم في تشكل ذاتيته التي تعني "الوعي الداخلي"³، أي أننا في الجوانبية نشهد هذا الميلاد والتفتح والإمكان، بمعنى وعيه بإنسانيته، وإرادته كمالها، وهو ما يجعلنا نؤكد هذه الحقيقة: "لا يتطلع الإنسان إلى أن يكون ملاكاً، بل يتطلع إلى أن ينمو من باطنه فحسب"⁴، هذا الوعي يمثل إدراكاً لما ينتظره، وهذا بأداء مهمة إنسانية بامتياز، وإرادة تغلب نواقضها، يقول "أبو حيان": "والهوى عدو العقل، والخطأ -أبداً- مع الهوى، فإذا حضر الهوى غاب العقل، وحيث يغيب العقل يغيب الخير كله"⁵، وعليه فإن خيريته، ومن ثم إنسانيته، هي نفي الهوى ودفعه، وتحليه بالعقل، بامتلاكه لطاقته وقوته التي هي سبيل كل تحقق، ورفعة وكمال، يقول الإمام: "ومن لا ينفعه حاضر لبه فعازبه عنه أعجز"⁶، بمعنى أن الموقف الإنساني الذي يكون عليه الإنسان، حيث يقاس في كل لحظة من اللحظات، أن توفيقه وإصابة طريقه، وتوافق الفكر والعمل كل هذا يحتاج هذا الحضور النوعي لفاعلية العقل.

ولذا فإن الكمال إذا أوجزناه فإنما يعني تحقق معنى الإنسان والإنسانية في كل ذات.

¹ - عرابي غازي : الإنسان الكبير، حوارات في الفلسفة الصوفية، دار المعرفة، دمشق، 1999، ط1، ص 161

² - علي بن أبي طالب نصح البلاغة، ص 177.

³ - ولد أباه عبد السيد: الحدأة والدين، في نقد تأويلية الانفصال، مجلة التأويل، مركز الدراسات القرآنية الرابطة المحمدية للعلماء، ع1، 2014، الرباط المغرب، ص 177.

⁴ - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 214.

⁵ - أبو حيان التوحيدي : الهوامل والشوامل، ص 144.

⁶ - علي بن أبي طالب : نصح البلاغة، ص 174.

الفصل السادس :

أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

المبحث الأول:

اللغة والأسلوب

المبحث الثاني :

شعرية التشكيلات الإيقاعية، نظم الصوت والإيقاع

المبحث الثالث:

نسق الاستمتاع، وجماليات التشكيل

المبحث الرابع:

تداولية الخطاب في نهج البلاغة

المبحث الخامس :

أثر النهج في الفكر والعلم

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

توطئة: تميز نهج البلاغة بلغة وبلاغة متفردة، فهو من طبقة الكلام الرفيعة والبيان العالي، بما استلهمه الإمام من أسس البيان والبلاغة القرآنية والنبوية، وأسس البيان والبلاغة الجاهلية، فكان بيانه البيان الإنساني العالي الذي جسد بجمالياته وشعريته فكرته التي دافع عنها والوعي الذي كان يسعى إلى أن يتحقق في الذوات.

لقد أراد الإمام أن يعيد المثال الذي فقده الإنسان وضيعه المجتمع، باللغة والبلاغة، ولهذا فالمنحى الجمالي والبياني كما أصبح أداة التشكيل الفني صار طريق الرؤية. إن هذا الجمع بين الفكرة والتشكيل والرؤية يعد أسلوب الاستعادة للمثال الذي فقد، فبهذه اللغة وبهذا التشكيل قدم الإمام تصورات عن الإنسان والحياة والكون والإيمان بالله ﷻ، فقد نطقت اللغة بنظمها وإيقاعها بهذه الشعرية والجمالية، وبهذه الشعرية حققت اللغة الاستمتاع الجمالي والدلالي بحقوله المعجمية وتشكيلاته المجازية، ولأن الخطاب يستهدف متلقيا، فقد تفاعلت فيه الذات المتكلمة والذات المخاطبة في إبراز أهدافه، والأمر ذاته احتاج إلى محاججات لغوية وعقلية تراهن على تغيير فكرة وإرادة الآخر وسحبه إلى نقطة الإضاءة، ليرى المثال والكمال أمامه متجليا، وخياره متاحا.

إن كتاب النهج بعلمه وفكره وبلاغته الرفيعة صار ملتقى العلماء والأدباء وأهل الفكر ينهلون من فيضه، وهو ما شكل نقطة التقاء وفضاء قرائيا اجتمعت وتخلقت حوله العقول للأخذ من علومه ومعارفه، وبذلك صار فاعلية قرائية بأثره البين الذي يعثر الدارس على ما أحدثه في الذوات الفكرية والعلمية بعده، وبهذا صار سلطة حية ممتدة تفرعت وتفاعلت وتطورت، بأثرها في المتلقين تجلى عند علماء الكلام والتصوف والفكر الإسلامي عامة.

المبحث الأول: اللغة والأسلوب:

يقول "ابن جني": "إن اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"¹، أصوات دالة، ذات معنى تعبيرية، وقصد تواصلية، ولذا "فإن كل لغة مختلفة عن الأخرى تتنفس روحا خاصا بها"²، روح هو المعنى الذي يعطيه الإنسان لها، فهي كائن حي، وعليه يمكن القول أن واضع اللغة، هو واضع الحياة، وما دامت اللغة هي روح إنسانية، فهي ما يربط الإنسان بغيره باعتبارها وسيلة تواصل فاعلة، وبذلك تصبح حاملة لرمزية إنسانية وجودية، يعرفها "فان ديك": "بأنها مجموعة منسقة من العبارات الرمزية"³، ذات تمثل ثقافي خاص وصياغة خاصة بأسلوب المبدع، يقول "الجرجاني": "وأن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتيب معانيها في النفس"⁴، فترتيبها في النفس، هو الذي يعطي صنعة الأسلوب والنظم الخاص المميز، وما تحمله من رمزية ومختلف المقاصد والأغراض، يقول ابن خلدون: "وأعلم أن اللغة في المتعارف عليه عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني، فلا بد أن تصوير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان"⁵، فهي ملكة لسانية تواصلية، وملكة إنسانية مجسدة لرمزية وتراث فاعل ثر، ولها قدرة في إحداث ذلك التفاعل الحي والحيوي مع الموجودات والكون، باعتبار أن الإنسان تقوم حياته على التفاعل والتعارف، فهو كائن بأبعاده، فهو لساني تفاعلي، يتحاور وينتج، ويتلقى ويستجيب لغويا، وعليه "فإذا أردنا فهم اللغة بأسلوب تطوري في مثل هذا، فإنها أجوبة الكون عن تساؤلات الإنسان"⁶، أي أنها شيفرات كونية دالة، وعلامات سيميائية دالة على علاقة تفاعل وتواصل حتمي وضروري بينهما، فكيف يمكن أن نقرأ كتاب النهج في ضوء اللغة؟!

إن نص النهج هو عبارة عن خطاب بلاغي/بلغة ثانية عليا وبأدوات فنية خاصة، يمثل نظما مخصوصا، وقراءة ذاتية/كونية للعالم والوجود، ويعبر عن رؤية فنية تصنع الحياة بأسلوب عالي البلاغة، بنظمه المتفرد، وتضطلع أدوات التشكيل الفني بمهمة صناعة الرؤية الإبداعية للحياة

¹ - ابن جني عثمان : الخصائص. تح: عبد الحكيم بن محمد، المكتبة التوفيقية، مج 1، ص 44.

² - رينهارد لاوت : إبراهيم وأبناء عهده مع الله، ص 13.

³ - فان ديك : النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر عبد القادر قنيني، أفريقيقا الشوق، الدار البيضاء، المغرب، 2000، ص 37.

⁴ - الجرجاني عبد القادر: دلائل الإعجاز، تح محمود محمد شاكره، مطبعة دار المدني، السعودية، مصر، القاهرة، 1992، ط 3، ص 56.

⁵ - ابن خلدون : المقدمة، ص 603.

⁶ - إدريس رنا : رولان بارت ودلالاته، مجلة الآداب، ع 3، 4، سنة 1981/29، بيروت، ص 28.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

والإنسان والكون، فنص النهج يعد تشكيلا فنيا إبداعيا يواجه الحقائق برسالة وأدوات جمالية، ولغة خاصة، هي سره، ذلك "أن اللغة أسرار"¹. إن الأسلوب صنع ليدل على مبدعه، بما اختار له من ترتيب ذاتي من ممكنات اللغة، ولأنه "يعطي النثر الفني قيمته"²، بميزات رافعة تحقق له خلوده وحضوره الحي بعجنة اللغة وسرها، حاز هذا الإبحار بشعريته وجماليته وأساليبه البيانية، "ويبلغ هذا الأسلوب ذروته في نصوص نهج البلاغة الشعرية، حيث يعبر عن التفاصيل بإشارات تكاد تكون أبرز ملامح أسلوبية المؤلف"³، وهي تحتاج إلى تأويل لاستجلاء مكامن الجمال فيها، فهذا النظم البليغ يحفز المتلقي، ويستفز قواه الحية، الذوقية والإدراكية الذي امتاحه من أسلوب القرآن المعجز الذي يقول فيه الرافعي: "وهذا الأسلوب وإنما هو مادة الإعجاز العربي في كلام العرب كله"⁴. أخذنا بأبلغ الكلام وأرفع النظم الذي تتقوى به ملكات الإنسان ويتهدب به لسانه، ويرتفع به أسلوبه، ليكون كلامه ثالثا في الطبقة بعد الكلام الإلهي والنبوي، وعليه يصبح "الأسلوب مزاج في الكتابة وعلامة شخصية"⁵، بمعنى أن المبدع يكون خلف هذا الكلام، ويكون كلامه دال عليه، فهو سيما ذاتية. إذن فالشكل علامة الذات، وهو ما يجعل الذات والشكل يصبحان إمكانا تأويليا، ووضعنا قرائنا كاشفا عن تلك الكثافة الإشارية، والبعد المجازي للغة وما تحمله المخيلة من تشكيلات وصور، فالذات المبدعة تقدم نفسها باعتبارها التحلي الأكبر الذي تنطق به أسرار اللغة، لغته.

يتحرك مبدع الكلام في فضاء رحب، كما ينطلق من علاقات يقيمها مع العالم والمجتمع والتاريخ واللغة، وانتهاء بميلاد النص، ومن شأن التأويل أن يقوم بمباشرة مهمة جلييلة لفتح مغاليق النص، وعليه "إن اللقاء التأويلي لا يقوم إذن على رفض أفقنا الخاص ونفيه، فذلك أمر مستحيل، وإنما يقوم على شيء غير قليل من تحدي هذا الأفق، ومحاولة المخاطرة في سبيل تفتح حر"⁶، فهذا التفاعل تشاركي كاشف، يعطي المتلقي رؤية جديدة داعمة موسعة لآفاقه، لأن الاصطدام بشيفرات النص وعلاماته وطريقة بنائه، يمثل فتحا معرفيا، وتفتحا على المدرك الجمالي، لذا يصبح "التأويل

¹ - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 10.

² - إحسان سركيس : الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والعصر الأموي، ص 159.

³ - أبو رغيف نوفل هلال: المستويات الجمالية في نهج البلاغة، دراسة في شعرية النثر دار بغداد، 2011، ط2، ص 36.

⁴ - الرافعي مصطفى صادق : تاريخ آداب العرب، دار ابن حزم بيروت، ج2، 2008، ط1، ص 299.

⁵ - إحسان سركيس : المرجع السابق، ص 159.

⁶ - ناصف مصطفى: اللغة والتفسير والتواصل، سلسلة عالم المعرفة، ع 193، يناير 1995، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص177.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

فعل اكتشاف كنز¹، للمخبات الكامنة في اللغة بوصفها طريقا جديدا ينتهي إلى الذات المبدعة، بإنسانها القائم بنفسه على أعتاب مفارقة المؤلف، وفتات الحياة وما ترميه موائد اجتماع الناس.

إن نصوص النهج المبدعة في سياق تاريخي وحضاري، هي علامة دالة على هذا التاريخ، وتلك التحولات في مسيرة الأمة، وعليه فإن هذه اللغة في خطابات الإمام، تظهر لغة مخاطبة ومكاشفة، وتصوير وتشخيص لمختلف التحولات التي أصابت بنية وتركيبية المجتمع، يقدم صورة عن اضطراب الأحوال، واختلاف الأهواء، كما ينبه إلى انخفاض المخزون الروحي والإيماني للإنسان.

ولنرى مشاهد من تلك اللغة المصنوعة ببلاغة النظم، المشحونة ببلاغة الواقع الناطقة بذلك الترددي والتراجع، ولهذا كان سعي الإمام أن يصنع بلاغة المثال الحي في النفوس، وها هو هنا يسند إلى اللغة وظيفة التصوير، في حديثه عن المستقر النهائي للإنسان يشخص هذا ويجسده، فيقول: "فكلنا الغائتين مدت لهم إلى مباءة، فأنت مبالغ الخوف والرجاء، فلو كانوا ينطقون بما لعيوا بصفة ما شاهدوا، وما عاينوا"². تكشف اللغة عن توتر الذوات أمام تجلي نهاية الرحلة، وما أصابهم من عي، في أسلوب شرطي دال، مشهد اختار له الإمام اللغة لتصويره، واستحضار واستدعاء الذوات الغائبة - بالموت - لتتطرق بالحقيقة بفجائعتها، معتمدا تقنية التجاوز باللغة لتتطرق بالغيب المحجوب عن الأحياء، وهو مشهد يحمل شعرية كبيرة، ووساعة أفق قابلة للتأويل والكشف عن عمق الفكرة، ودقة التصوير، ويحدد المقطع الثاني من الكلام، أحوال نصبة* ناطقة، كعلامة دالة على أحوال تلك الذوات، لذا تقوم اللغة بنقل هول ذلك المشهد، فيقول: "ولئن عميت آثارهم وانقطعت أخبارهم، لقد رجعت فيهم أبصار العبر، وسمعت عنهم آذان العقول، وتكلموا من غير جهات النطق"³، وينقسم هذا الإخبار إلى شقين حالة الغياب: "ولئن عميت آثارهم، وانقطعت أخبارهم"، وحالة الحضور: "لقد رجعت فيهم أبصار العبر، وسمعت عنهم آذان العقول، وتكلموا من غير جهات النطق". إن الغياب يستبدل بحضور الحال، ونطق العبرة، وحديث التفكير، والتدبر والتذكر والتأمل، وخلاصة هذا أن الإمام يقرب المشهد إلى المتلقي بوسائل تعبيرية، حيث استطاعت اللغة إمداده بطاقة تؤهله إلى أن يكون في وضع التذكر، فقد جسّد أسلوب التصوير باللغة هذه الأحوال وتقديمها ناطقة

¹ - الغانمي سعيد : الكنز والتأويل، قراءات في الحكاية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، 1994، ط1، ص 05.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 315.

* - ينظر الجاحظ : البيان والتبيين، ج1، مطبعة الخانجي، القاهرة، تح عبد السلام محمد هارون، 1998، ط7، ص 76.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 315، 316.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

متحدثة إلى العقل والقلب، من أجل وعي ثان، أي الوعي باللغة التصويرية، وهو أمر يحرص عليه الإمام، من أجل استعادة ثانية وجديدة، ولأن "الموضوع يفترض الأسلوب"¹، وبهذا فإن أسلوب الإمام ولغته تحاكي تمثلاته ورؤاه، فنص الإمام حامل لشيفرة كونية، تستحضرها علامة اللغة، وعليه فهو مؤول لأفق كوني، وبذلك تصبح [= اللغة - النص] سيرة مفتوحة تغري بتأويلية متجددة.

1- نظم الإيجاز وشعريته: يحتل نظم الإيجاز مكانة معتبرة في خطابات النهج بوصفه وسيلة هامة من وسائل التشكيل اللغوي، المشحون بالشعرية والجمال، وهو أسلوب يعتمد على الإمام في تقديم رؤيته الفنية، وإبراز فلسفته الفكرية، ويتلخص حد الإيجاز كما يقول ابن الأثير في "دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه"²، حيث تتحقق كفاية الخطاب بتحقيق الإفادة أولاً، وتركيز الكلام باقتصاد اللفظ ثانياً، والأهم في هذا تحصيل نسبة الجمالية، وشعرية النظم ثالثاً، مما يفتح أفق تأويله، فالإيجاز شعري وجمال، إذا خاض فيه صاحبه بمهارة واقتدار فني، وبنظم موجز دال يستوفي التعبير عن الأحوال والمعاني، والإيجاز قسمان برأي ابن الأثير، "ما لا يحذف منه شيء: وهو ضربان: أحدهما: ما ساوى لفظه معناه، ويسمى التقدير، والآخر ما زاد معناه على لفظه، ويسمى القصر"³، هذه بلاغة تنطق بشعرية سامية، لخص من خلالها الإمام ذلك التحول الذي أصاب الأمة، بانحرافها عن الحق، ودرب التقوى، فيقول: "ولا يعرف ما أقول إلا من ضرب في هذه الصناعة بحق"⁴، فأبي الإشارات إليها يدفع، وأي المنازل يختارها لهؤلاء القوم المتراجعين عن مسلك وخط النبوة الأول؟ لقد اهتدى إلى إدراك هذا التحول وهذا لا يعني تبدل في القيادة تسعى إليها طائفة طامعة، وإنما هو انقلاب جوهري صميمي، هو خلاصة كشفية تشخص هذا التبدل، وهو ما أوجزه في هذه العبارة، قائلاً: "ولئن قل الحق فلربما ولعل، ولقلما أدبر شيء فأقبل"⁵، فهذه الصياغة تحمل من المرارة والحيرة، وتكاد تجزم باستحالة الرجعة، بهذا الإيجاز وأسلوب الشرط، فركز الكلام في حيز قصير، وبإجابة موجزة اعتمدت على أدوات موحية: "ربما ولعل"، وما تحمله من دلالة على المشقة، وما يتضمنه السياق من قدرة الحق مع قلة أنصاره بتحقيق الغلبة، إلا أن "هذه الكلمة

¹ - إحسان سرقيس : الظاهرة الأدبية، ص 159.

² - الجزري ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ج 2، 1990، ص 70.

³ - المصدر نفسه، ص 74.

⁴ - الشريف الرضي : شرح نهج البلاغة، مج 1، ج 1، ص 42.

⁵ - المصدر نفسه، ص 42.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

صادرة عن ضجر بنفسه يستبعد بها أن تعود دولة القوم بعدما زالت عنهم¹، وتمثل هذه الكلمة قدرة استشرافية من الإمام تقرأ أحداث التاريخ وتحولاته، ولذا يصبح هذا الدمج بين البلاغة وعبقرية القراءة وتأويل الحدث دالا على عظمة إنسان قارئ للكون، مع تطويع اللغة لتكون في قلب هذا الحدث تصنعه وتشكله، وتمنحه رؤية ناطقة بشعرية لغوية ونظم متين، وإيجاز رفيع، فهي إشارية تستحث المتلقي ليؤول أفقه، كما أن تكرر الأدوات [= فلربما ولعل، ولقلما] يعد صورة مجسدة لخلاصات شيفرات خطائية، علاماتها هاربة بتقنية الإيجاز، وكذلك التضاد القائم بين أدبر وأقبل، وبين قل وجوابها المقدر، واحتمالية أن يكون بكثير، أخذا بأثره وسلطته، وجميعها تشحن التركيب بطاقة إيقاعية وبنية صوتية تمنح سحرا وجمالا للتركيب، وشعرية ذات طاقة إبلاغية توصيلية.

تعطي اللغة التي يختارها الإمام نظما متفردا بأسلوب وإشارات موجزة وعلامات كاشفة، وتعبيرات فنية تجسد رؤية الإمام للحياة، حيث يحاول دمج عالمي الغيب والشهادة والدنيا والآخرة، والإنسان والكون، دجا وظيفيا يعيد من خلاله توجيه حركة التاريخ، ففي كلام له عن التقوى ودورها في تحقيق هذه الإعادة والمراجعة، يوجز هذه الوظيفة التي تكون للتقوى في عملية تشخيصية ذات طبيعة تصويرية مجازية، تمنحها شعرية وجمالية تأثيرية شديدة، فيقول: "لا يهلك على التقوى سنخ أصل، ولا يظمأ عليها زرع قوم"²، بحيث يوجز دور التقوى في رسوخ قدم الإنسان في الحق، جامعا بين المادي والمعنوي في صورة تقريبية استعار لها النبات الذي تمتد جذوره في الأرض، وهذا أصل فيه، مما يلزم مشابهة تشاكل التقوى والنبات في رسوخ جذريهما وإثمارهما، تجسيد يكشف المعنى، ويفتح العبارة على احتمالية قرائية واسعة الأفق، وهذا هو الكفيل بضبط بوصلة الإنسان، وتوجيه حركة التاريخ، فالإنسان ينبت في التقوى كما النبات في تربته، قصد تثبيت جذوره الإيمانية والروحية، ولقد حمل هذا الإيجاز شعرية ذات تحفيز، وبيان لغوي رفيع هادف إلى إيضاح الطريقة التي تمكن من عملية الاستعادة، ومن ثم فناظم الإيجاز بشعريته قد شخص المراد المثالي ليرتفع عن هشاشة الواقع، قصد إعادة بناء دولة الحق، بناء باللغة أولا، وبناء فكريا تعقبه ترجمة بالسلوك ثانيا.

وتكشف العبارة الموالية هذا المعنى، عبارة جمعت المنجز الإنساني لمجتمع الإمام السائر على درب النبوة بألية يمثلها هذا النظم الجمالي: "تخففوا تلحقوا"³، بفعلين دالين وصيغة شرطية، كلام غاية

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 42.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 43.

³ - المصدر نفسه، ص 49.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

في الإيجاز، ركز فيه على المتوجب فعله [= إنسانيا ومجتمعيا]، وأعطى المترتب الطبيعي له، ثمرة ونتيجة حتمية، " فهذه جملة مكثفة تقبل الانفتاح على نفسها لعرض مزيد من الدلالات المرتبطة بها"¹، فتحقيق اللحاق بالحق، كلام تشرحه عملية التقوى التي تكون سنخا، فهذا الإيجاز استند إلى فعل الأمر بوجوبيته، بحيث يسقط تزيينات الحياة، ويقدم حصرا دالا، وتجسيدا بليغا، أن يياشر الإنسان فعل التقوى بآلية التخفف، أي أن اللغة تحين الزمن، ولا تحيده، [= تخففوا]، وتكشف قدرته على تحصيل الثمار، [= تلحقوا]، فبين اللحظة الحاضرة، ولحظة المستقبل تغيب الفواصل، وينتهي مع هذا التدامج الزمن الماضي بثقله الذي ينسحب متواريا، أمام التجدد الحي، وهذا المعنى يدرك، وكأنه لحظة شعرية مؤثرة، وينبسط جمالا يهز النفس لتتحرك بفاعلية، وهذا التركيب قد وضعه الإمام بين صياغات إيجازية تزيد من فاعلية معناه وتشحن طاقته الإيقاعية بروح مرغبة ومحذرة: "فإن الغاية أمامكم وإن وراءكم الساعة تحذوكم، تخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر بأولكم آخركم"²، ويبدو الكلام وكأنه رسم يشكله الإمام باللغة، ليصبح بكثافة وحمولة تزيد من شحنها للفاعلية الإبداعية، بما تحمله من طاقة تأثيرية أسهمت فيها مختلف الدالات اللغوية المشخصة لمشهد يتراءى وكأنه تمثيل حي، وتصوير لفكرة إيمانية اعتقادية تجمع ميلاد الإنسان ومنتهاه على رقعة من جغرافيا مدركة بالعمل.

إن هذا الموقف العظيم يحتاج فيه الإنسان إلى مفتاح يزيل الانغلاق وانسداد الرؤية، وعليه فإن التشكيل اللغوي غايته أن يصنع رؤية خاصة، تتمتع بخصائص نوعية، فهي استشرافية نافذة وبصيرة، لذا يكون تعريض الإمام بحقيقة الدنيا وكشف متواربها ينصب في هذا الباب، وها هي هذه الجملة توجز بشعرية نظامية هذه الخلاصة المهتدى إليها، فيقول: "من أبصر بها بصرته، ومن أبصر إليها أعمته"³، بحيث يتحدد إيجاز هذه العبارة وشعريتها انطلاقا من دلالة حرفي الجر: "الباء، وإلى"، فالجملة الأولى: من أبصر بها بصرته، إنما تصبح سيما دالة - علامة على آلة إدراكية ووسيلة اهتداء، فهذا الإبصار يحمل تعدية بالباء، لما بعدها، ولحقيقتها، ومن ثم فهي واسطة، ويفيد حرف الجر هنا معنى "المجاوزه"⁴، فمكان الدنيا التي توجد عليها حياة الإنسان، تصبح آلة يتجاوز بها هذا الموضع، أي يرى بها ما بعدها، وقد لخص حرف الجر وأوجز الأدوار والغاية من الوجود، واستشراف ما بعد

¹ - نوفل هلال أبو رغيف : المستويات الجمالية في نهج البلاغة، ص 130.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 48، 49.

³ - المصدر نفسه، ص 101.

⁴ - جمال الدين ابن هشام : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ج 1، 1991، ص 122.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

الحياة الدنيا، لأن ضبط هذه الرؤية الموضحة ضروري، وبالتالي فهي عملية تدقيق تكبر الدنيا صورة ومشهدا، وتصغر بعد ذلك = رؤية عبرة واعتبارا، إدراكا لباطنها، ينتج عن هذه الرؤية البصر والمعرفة بحقيقتها، بينما الجملة الثانية من أبصر إليها دالة على [= الانفتاح، الانبهار، الطمع، الوقوع، السقوط]، حيث نلاحظ عدم ضبط الرؤية، فكلما كبرت الدنيا صورة ومشهدا [= شهويا]، إلا كان وراءها الانسياق الأعمى الموقع في مفاسدها، وقد جاء الفعل "أعمته" مزيدا واقعا جوابا للشرط، وكأن عماء الذي كان عليه سيزداد، وبهذا يصبح الفعل اللغوي "أبصر" دالا على رؤية إدراكية واعية وازنة، مرفقة بمسؤولية، ونتائج المترتب عن ذلك، الفعل "بصر" الدال على الكشف، عكس الحالة الثانية الدالة على طمس وزوال معالم الاهتداء، ومن خلال هذين التعالين، وبالمقارنة والتقريب، يقدم الإمام مشهدا مركزا بدلالات كثيفة، بحيث تضطلع الدالة اللغوية "أبصر"، بهذا البيان الشعري الإيجازي، "لأن الملمح الملائم للشعرية هو الكثافة"¹، مع الأدوات الفنية المصاحبة لعملية هذا النظم الأسلوبى: "بها - إليها"، لتصبح شعرية إيجاز، ورؤية فنية مجلية، ولغة ثانية تتساقق كنسق دال مع اللغة الهدف، فكرة الإعادة والمراجعة، وبالتأول بناء إنسان جديد، إنسان المثال.

2- شعرية كسر النظام: ويتجسد هذا الكسر بشعريته وجماليته وكثافة دلالاته، في النظم الآتي:

أ- نظم التقديم والتأخير: يقول "عبد القاهر الجرجاني": "هو باب كثير الفوائد جم المحاسن..، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان"². إن ناظم التقديم والتأخير، هو من أرفع منازل الإبداع باللغة، يجلي قدرات الفنان المبدع، بما يمنح من وظائف حيوية للغة وتوسع في الدلالة، بأبعادها الصوتية والإيقاعية والبلاغية، ومختلف التحويلات الركنية، وأسرارها الجمالية، وهو ما يدل على مرونة الأداء اللغوي، من خلال كسر النظام المعتاد، كسر يحمل دلالة شعرية جمالية منفتحة على عملية التأويل والقراءة، يقول ابن جني: "وذلك على ضربين: أحدهما ما يقبله القياس، والآخر ما يسهله الاضطراب"³، وكفاءة مبدع اللغة، تمكنه من إظهار براعتها الجمالية، وهو ما يبرزه "ابن الأثير"، فيقول: "يشتمل على أسرار دقيقة"⁴، أي الأسرار الشعرية والجمالية في اللغة التي تمنح الأسلوب فاعلية تركيبية وأدائية، وتشكيلا لرؤية فنية

¹ - جون كوهين : النظرية الشعرية، ج2 اللغة العليا، ص 503.

² - عبد القادر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص 106.

³ - ابن جني : الخصائص، مج 02، ص 26.

⁴ - ابن الأثير : المثل السائر، ج 02، ص 35.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

قائمة على طاقة النحو ومدخراته، وهذا ما يتجلى واضحا في نصوص نهج البلاغة، وما اقتضته السياقات الإبداعية المنشئة لرؤى الإمام في خطابه وتأملاته، وعليه فإن اللغة هي الفاعل الحي والضرورة البنائية، والانعطاف الممهدة والمهيئة لهذا الوجود الحيوي، وأداة فاعلة في إبراز الفكرة في ثوب البيان والجمال والشاعرية، كما أن مختلف الإحاطات السياقية، وإملاءات المقام وأحواله تدفع إلى كسر ترتبه الطبيعي المعهود، لذا يأتي التقديم والتأخير دالا على شعرية هذا الكسر، كسر بيان وجمال، كي يصبح أفق التعبير أوسع في الاقتضاء، بل يكون الكسر هو الإدهاش، كسر توقع أفق القارئ، إلى أفق جمالي جديد مفتوح، وحالة شعرية تتجاوب مع هذا النسق، حيث تجاذب الذات الأشكال، وما تحدته من تماوج نفسي، يقول الإمام متحدثا عن الصفوة التي تسعى إلى إقامة الحق ودفع الباطل: "يجاهدهم في سبيل الله قوم أذلة عند المتكبرين، في الأرض مجهولون، وفي السماء معروفون"¹، ويبرز هذا الكلام منزلة هؤلاء وقيمتهم بوصف دال على تعريفية تثبت أحقيتهم بالصفوة والاختيار، بمعنى أنهم يتمتعون بفضائل الاستقامة المتكاملة، وإبراز هذا فقد قام بمجموعة من التبديلات النحوية والتركيبية، وكسر الترتيب المألوف، تحقيقا لشعرية وجمالية وبلاغة عالية، وتمايز للمعنى، فقدم شبه الجملة في موضعين [= في الأرض، في السماء]، على المبتدأ [مجهولون، معروفون]، لغايات وظيفية، ولبيان القيمة والأهمية، لأن فعل الجهاد: "يجاهدهم" يدل على شمول فخصه وركز دلالاته في فئة معينة موصوفة: (قوم أذلة + في الأرض مجهولون + في السماء معروفون)، لكسر توقع أفق المتلقي، ليتحدد بتوصيف ومغايرة أجلته هذه الفنية من تقنية التقديم، وتزيد سجعات هذه الفواصل، وتوازي العبارات من خلق هذا الفضاء الحيوي، ليصبح حاملا لطاقة إيقاعية محرّكة، ذات إبلاغ دال، ولغاية تخصيص هذه الفئة، وجعلها في موضع الاهتمام والمسؤولية، فهم أخفياء في ميزان أهل الأرض، بما يخالف معايير الناس في التأهيل، ولهذا كانت هذه المسافة القائمة بين الفعل "يجاهدهم"، وما جاء بعده، هادفة إلى منح مسافة معرفية تصحح أدوات الرؤية، وتبني مسافة جمالية تكسر الأفق وتفتحه من جديد، دافعة المتلقي إلى البحث والتأمل لإدراك الدلالة التي تجلّى بعملية التأويل، وهذا بالإحالة إلى البصر والوعي بمعادن الناس، وكأن الإمام يحدث تقليبا ضروريا مفاده: "أنظر في الأرض، ستجدهم مجهولين، وأنظر في السماء، فلا يمكنك أن تعرفهم"، وبذلك يقدم هذا الكسر نفاسة هؤلاء وندرته، وقيمتهم في إحداث التغيير، لإحقاق الحق.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 148.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

إن من الأمثلة الدالة على هذا الكسر الشعري، تقديم شبه الجملة على المفعول به، يقول الإمام: "قد قدم للوثبة يداً، وأخر للنكوص رجلاً"¹. إن تقديم الإمام لشبه الجملة في موضعين، وهو يتحدث عن دور الشيطان في الشحن والشحن والتشبيط، فإن لهذا التقديم وظيفة، الاهتمام من ناحية دلالية للكشف عن مقاصد القول. وتحمل الجملتان تضاداً بين تقديم الوثبة وتأخير النكوص، ليعزز هذا الضعف والخور والإملاء الفاضح الذي لن تكون نتائجه إلا الخسارة والتراجع عن المبدأ والحق والعدل. وبذلك تتمثل وظيفة هذا الكسر ومقصديته في بيان دور الشيطان في الإفساد، ويوجه الإمام النظر إلى عواقب هذا الفعل، لخصه في هذه العدمية، وعليه فالتقديم نظم فني يحمل "طاقات تعبيرية يديرها المتكلم اللقن إدارة حية وواعية"². يبين عنها الكلام، وقد أعطى نظام التوازي مع السجعة في نهاية الفواصل والتضاد شحنات تعبيرية كثفت من الدلالة، وبالمخالفة يركز الإمام الدلالة في ضرورة الخروج من الغفلة، ويدعو إلى انتباه نوعي دلالي بشعريته، وعليه يصبح هذا الكسر حاملاً لشعرية وبلاغة وجمال منفتح على أفق التأويل، وبهذه المعاني يحرك الوجدان والذهن لإدراك وعقل هذا، بهدف تأسيس نموذج مثالي حي ينهض بالحياة من جديد، من خلال تقويم فساد النظر، ويمكن تسجيل الجملة بناظمها ومخالفتها في هذا الجدول :

الجملة	المقدم	المؤخر	الأصل	شعرية الكسر	جماليته
1	للوثبة - للنكوص	يداً - رجلاً	قدم يدا - آخر رجلا	سياق توجيهي	التنبية من الغفلة وعواقب الفعل

وفي كلام آخر يأتي نظام اللغة مغايراً لسابقه، فيقول: "فأنظر أيها السائل! فما ذلك القرآن عليه من صفته فأتم به، واستضىء بنور هدايته"³، فقد جاء الكسر لنظام التركيب هنا بشعرية أخرى، بحيث بدأ بالأمر قبل النداء، وقد ورد هذا الكلام رداً على سائل طلب منه وصف الله ﷻ كأنه يراه عياناً، فأجابه بعد استهلال معظم، مجل لبداية القدرة، ثم التفت إلى السائل بفاعلية تركيبية اعتمدت فعل الأمر "انظر"، بحمولته الدلالية وقوة خطابه وتوجيهه يريد من ورائه دلالة أخرى، تحيل على إجابة سليمة دقيقة يجدها السائل في القرآن، فهناك الوصف والتعريف، والدقيق هنا أنه جاء بعد أن أحال السائل إلى نظر أول، وهو النظر الكوني، وبدائع الخلق والصنع الإلهي الدالة عليه ﷻ، فهذه المعرفة هي كونية مشهودة تتطلب النظر، ومسطورة في الكتاب تفترض النظر، لمعرفة الله ﷻ بما وصف به

¹ - علي ابن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 89.

² - أبو موسى محمد محمد: دلالات التراكيب، دراسة بلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة، 1987، ط2، ص 170.

³ - علي ابن أبي طالب : المصدر السابق، ص 123.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

نفسه وعرف ذاته العلية، فالتقديم هادف يبرز جهل السائل وعدم تأدبه، وفي كل هذا السياق ببسطه يظهر بعد المسافة المعرفية، بين رؤية السائل وتوقعه، وبين التوجيه الدلالي لهذا التركيب، قصد إزالة هذه المغالطة والتضليل، لضعف العقل، يقول الغدامي: "فكسر النمط ينعش حركة القصيدة، ويأخذ في تأسيس إيقاع متجدد لها"¹. إذن فغاية هذا كسر الرتابة والجمود، وتنمية فاعلية الذات، وهي تتلقى الرسالة بشحن تعبيرى شعري وجمالي، يحقق استجابة نوعية، "فالمهم أن النشر ينبض أو يتحرك حركة حية هذا هو الكفيل بالنظر إليه على أنه شعر"²، وهذه الفاعلية ذات النبض الحي حققتها تقنية كسر رتبة أركان التركيب، ويمكن تسجيل الجملة بناظمها ومخالفتها في الجدول الآتي :

الجملة	المقدم	المؤخر	الأصل	شعرية الكسر	جماليته
1	أنظر (فعل أمر)	أيها السائل (نداء)	أيها السائل	سياق تعليمي تربوي	تسفيه السائل لجهله وعدم تأدبه.

وقد حوى التركيب على صياغات إيقاعية جمالية أثيرية تزيد من قوة وطاقة الإبداع وتمدد التركيب بإمكان شعري نابض وجمال محفز، من توازي دلالي وإيقاع صوتي في نهايات الكلام وجملة الأصوات المتقاربة المنتظمة، وبهذا تقوم اللغة من خلال هذا الانزياح بجمالياته، بإعطاء التركيب مطاوعة وقدرة على المغايرة، هادفة إلى خلق أجواء من التحفيز أو المكابدة من أجل الوصول إلى مكاشفة المعنى، بفعل شعرية وجمالية هذا الكسر، ومن هنا يدفع الإمام إلى مجابهة بيانية وموقفية مع اللغة والحدث الإنساني والكوني، رغبة في تحصيل بديل ثان، بهذا القلب الخطابي، كما يسميه "أوليفي روبول"، حيث يعرفه على "أنه إذن وسيلة ممتازة لتقديم الحجج، ليس فقط، لكن أيضا، وخصوصا"³، ومن هنا تطرح مسألة الرؤية الفنية التي تحرك النظام الركني، ورتابة الحدث اللغوي إلى طاقة فاعلة، لأن "بناء العبارة في الحقيقة بناء خواطر ومشاعر واختلاجات قبل أن يكون هندسة ألفاظ وتصميم قوالب، وإذا كان السياق سياقاً فياضاً وحافلاً أبدت هذه الزخزعات الخفيفة للكلمات غنى وفيضا"⁴، ولهذا اعتبر "عبد القاهر" ترتب الكلم في النطق بحسب ترتبها في النفس، وهو ما يدعو إلى ضرورة تأويل هذا الأفق الذي يفتحه المبدع بإشاراته، ونقدم حزمة من تراكيب بكسرهما ودلالاتها التأويلية:

¹ - الغدامي عبد الله : الخطيئة و التفكير، من البنيوية إلى التشريعية، مقدمة نظرية و دراسة تطبيقية، دار سعاد الصباح، ص 315.

² - الماجدي خزعل : العقل الشعري، ألفا للدراسات و النشر و التوزيع، دمشق، 2011، ط1، ص 105.

³ - روبول أوليفي: مدخل إلى الخطابة، تر رضوان العصبية، إفريقيا الشرق - الدار البيضاء - المغرب، 2017، ص 159.

⁴ - محمد محمد أبو موسى : المرجع السابق، ص 171.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

التأويلات الشعرية والجمالية	الأصل	النوع	المؤخر	المقدم	الجملة
كسر شعري يجعل أهل المعصية في إزاحة، وهي سنة تدافع تبرز دور أهل الطاعة: <u>جمالية الوقع</u> .	من عصاه بمن أطاعه.	شبه جملة	من عصاه	بمن أطاع	- فقاتل بمن أطاعه من عصاه ص 150.
كسر دلالي تبرز جماليته في بيان قيمة الفوز والمنجاة والفرز: <u>جمالية الوقع</u> .	يبادر الساعة بهم.	شبه جملة	الساعة	بهم	- و يبادر بهم الساعة أن تنزل ص 150.
كسر جمالي يحفز على الامتثال للحق أولاً، قبل أمر الناس به إجلال هذه الوظيفة: <u>جمالية الوقع</u>	فإنما أمرتم بالتناهي بعد النهي.	شبه جملة	بعده التناهي	بالنهي	- فإنما أمرتم بالنهي بعد التناهي ص 152.
تركز كسر الجملة في تقديم النعت السليبي بنتائج الحرب أنتم ص 180.	لبئس أنتم حشاش.	مبتدأ	أنتم	حشاش	- لبئس حشاش نار الحرب أنتم ص 180.
إبراز نوع الداء وخطورته، وتأجيل العلاج لينفتح العقل على معرفته ويسابق إليه: <u>جمالية الوقع</u>	فتداو بعزيمة من داء.	شبه جملة	بعزيمة	من داء	فتداو من داء الفترة في قلبك بعزيمة ص 320.
تقدم يثبت سنة الابتلاء، وهذا بقصد إدراك هذه السنة بالمجاهمة: <u>جمالية الوقع</u>	دار مخفوفة بالباء.	شبه جملة	مخفوفة	بالباء	- دار بالبلاء مخفوفة... ص 323.
إن ملازمة البلاغ، رفعا وهمسا، يبرز ثقله وتنوع أساليبه لأن في القوم ثقل عن الحق: <u>جمالية الوقع</u>	أناديكم يوما. أناجيكم يوما.	ظرف	أناديكم أناجيكم	يوما	- يوما أناديكم ويوما أناجيكم ص 180.

إن جمالية شعرية كسر النظام، تعد تقنية إبداعية بلاغية، بهذه الشعرية والجمالية، بل إن تميز رفعة العمل الفني، لا تكون إلا بهذه الفنية، بهدف تنشيط قوى المتلقي وتحفيزه = شعريا، لتلقي الرسالة تلقيا جماليا بسحره البياني، قبل تلقيه معرفيا، "لأن قيمة الصنف الرفيع من الفن لا تتمثل في قدرته على أن يصبح جزءا من الحياة العادية، بل في قدرته على أن يخرج بنا منها"¹، فخطاب النهج يبحث عن الإنسان والحياة، برؤية جديدة تتشاكل فيها اللغة والإنسان في تحقيق تمثلات المعنى.

ب- نظم الاعتراض وشعريته: يقول "ابن الأثير": "كل كلام أدخل فيه لفظ مفرد أو مركب لو أسقط لبقى الأول على حاله"²، ويشكل زيادة واقعة بعد اكتمال، ذات وظائف، فإذا كان التقديم والتأخير يعتمد زحزحة مواقع الكلم، فإن الاعتراض يفترض موقعا بينيا بين المكونات، ولهذا فإن ابن هشام يوضح الأهمية الفنية والأسلوبية لهذه الجملة، فيقول: "لإفادة الكلام تقوية وتسديدا أو تحسينا"³، فمنزلة الاعتراض بكسر النظام يمنح طاقة تعبيرية إضافية لم تكن من دونها، وهي التقوية

¹ - بل كلايف: الفن، تر، عادل مصطفى، رؤية للنشر، القاهرة، 2013، ط1، ص 269.

² - ابن الأثير: المثل السائر، ج2، ص 172.

³ - ابن هشام: مغني اللبيب، ج2، ص 44.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

والتوكيد، بحكم التلازم بين كلام الاعتراض، وأما الجانب التحسيني فهدفه الرفع من قيمة جمالية التركيب، ويشير "محمد حماسة عبد اللطيف" إلى قيم دلالية في الاعتراض، وهي :

1- أن الاعتراض يثير الانتباه، ويلفت التفكير.

2- لا يمكن أن نجد الاعتراض معزولا في معناه عن معنى الجملة بطرفيها فهو جزء من الجملة¹.
إذن فالاعتراض يعد من التركيب الأصلي، ولكنه يحمل قيما أسلوبية وبلاغية، ويحتوي كسره على شعرية ثرة، ويزخر بجمالية تحسينية، يفتح معه باب التأويل، يثير المتلقي ليغير من أفق توقعه، فهذه الزيادة هي زيادة بنائية تسهم في تقديم شعرية وظيفية دالة، وتبين عن قوة عقلية في ذهن المبدع، حيث ينصرف إلى قارئه بكلام يعترض به الأصل لينبهه ويحفزه ويمتعه، ببلاغة رفيعة وإضافة حية للكلام، تعطي له أبعاده الفهامية والتواصلية والتعبيرية، وفوقها وظائفه الشعرية الجمالية المتعالية، يقول الإمام: "وإن غائبا يحدوه الجديدان - الليل والنهار- لحري بسرعة الأوبة"²، فالجملة من دون الاعتراض ذات إفادة تامة مكتملة الدلالة، إلا أن هذه الإضافة نوعية، أكسبتها مزية بقيمتها الشعرية والجمالية، فالمتلقي الناظر في ناظم الاعتراض [= الليل والنهار]، يتحفز نحو استجابة جمالية حيوية، تنشط لها النفس، فالليل والنهار بدالتهما الزمنية المتقدمة إلى الأمام، تزيد من ضغطها على الإنسان، والغائب -وهو الموت- يشخصه الإمام في قادم يتقدم، فالفعل "يحدوه" دال بموقعه الهام، من التركيب: "يحدوه الجديدان" ليصبح بثورة تتعالق معها الدلالة من خلال الاعتراض، وهي ذات تحويل شعري جمالي يعدل بالكلام من الاعتياد إلى النظم الفني، "وإن الاستعمال المدهش في اللغة يعني استعمالا جميلا لها، لأنه يعني أيضا خروجا على أعرافها السياقية المتداولة"³، وهذا دفع حيوي جمالي يخص ذات المتلقي بتحريك واع مسؤول، وهو ما أوضحتها عبارة: "لحري بسرعة الأوبة"، ويقدم التوكيد دورا كبيرا في تركيز الدلالة وتثبيت جملة الهدف [= إن + اللام + الاعتراض] ويمنح شعرية للكلام بتحفيز يراه الإمام أوبة تكون بعدة وهي "الأعمال الصالحة، والملكات الفاضلة"⁴، ففي الكلام تشديد على الضرورات المتعينة في هذه المواجهة، فالاعتراض بتحسينه ينشط المتلقي على تزيين أدائه، وبهذا تصبح اللغة فاعلا في الحدث الواقعي باهتزازه.

¹ - عبد اللطيف محمد حماسة: بناء الجملة العربية، دار الشروق، القاهرة، 1996، ط1، ص 70، 71.

² - علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، ص 86.

³ - خزعل الماجدي: العقل الشعري، ص 216.

⁴ - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 86.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

ويبرز الإمام في كلام آخر منزلة العمل بالحق، ويفاضله على الباطل بفوائده الآنية، فيقول: "إن أفضل الناس عند الله من كان العمل بالحق أحب إليه - وإن نقصه وكرهه- من الباطل، وإن جر إليه فائدة وزائدة"¹، فشبه الجملة المتعلقة بأحب تبرز قيمة هذه المفاضلة، ولكن الاعتراض يزيد من تخصيص الأمر، بحيث يحدث كسرا دالا في طبيعة التركيب يفجأ المتلقي بحمولة من الدلالة المعترضة، يهدف إلى خلخلة الموقع المتوهم في ذهنه، ليصبح الكسر حاملا لطاقة تنبيهية دالة، وهي الطاقة الشعرية التي تولدها جمالية الاعتراض، بأفقه التأويلي، ويعتمد الاعتراض بشعريته على إقامة علاقة أفقية بين المكونات في البنية من حيث البعد والاقتراب²، مما يضفي حيوية وفاعلية تخرج الخطاب من وضعه الرتيب، تمكن من إحداث اهتزاز أثيري في النفس، نحأ به الإمام إلى مقاصد دلالية وبيانية، ليخرج الإنسان من غفلته وما يعترض طريقه، فيلاقي إحباطا، أو أذية، أو انكسارا، وهو يرى أهل الباطل في مسرة، فالاعتراض يشدد على الأخذ بالحق ويقوي عزم صاحبه، ليرى أبعد من سلطة هذا -ما يلاقه- وتحسين هذا التركيب بهذا الاعتراض يمنحه شعرية تزيد من سلطة الكلام التأثيرية، وهي متأية من الطاقة الإضافية الكامنة في البنية القائمة على التقابل والتضاد، بين مفاهيم الحق والباطل والتوازي الذي تقيمه شبه الجملة المتكررة "أحب إليه وجر إليه" بتوكيدها الشعري وطاقتها الصوتية، وبين فائدة وزائدة وتساويها الإيقاعي، دافعا إلى إرادة قوية في الفعل، ورؤية بصيرة، لأن "اللغة هي الشرط الأساسي للوعي الذاتي"³. إذن فنصوص النهج هادفة ببلاغة نظمها إلى إحداث بيان جديد يرتكز على مقومات جمالية وفكرية توحى بها علامات اللغة، تجعل منه سلطة أقوى من الواقع.

إن شعرية الاعتراض الذي يأتي مزاحمة أفقية مع أصل التركيب، يعد بيان بلاغة وإبلاغ وظيفي، قصد إحداث أثره البين في المتلقي لتغيير مسارات التاريخ، فلغة الإمام، هي بلاغة دولة.

3- شعرية التحول الوظيفي؛ نظم الاستفهام: يقول "عبد القاهر الجرجاني": "الاستفهام: استخبار، والاستخبار هو طلب من المخاطب أن يخبرك"⁴، فهو طلب معرفة ووعي حقيقة، "والفهم يعني حصول صورة المراد فهمه في النفس وإقامة هيأته في العقل"⁵، تفرضه السياقات والأحوال، إلا أن القيمة الرفيعة للاستفهام تكون في انزياحه الدلالي وتحوله الوظيفي، بكسر طبيعته الاعتيادية إلى

¹ - علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، ص 179.

² - نوفل هلال أبو رغيف : المستويات الجمالية في نهج البلاغة، ص 141.

³ - حب الله عدنان: الجدلية العقلانية عند لاكان، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع16، 1981، مركز الإنماء القومي بيروت، ص 57.

⁴ - عبد القادر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص 140.

⁵ - أبو موسى محمد محمد: دلالات التراكيب، دراسة بلاغية، ص 203، 204.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

حمولة شعرية وشحونات تعبيرية مضاعفة، ودلالات فكرية موسعة، "فالاستعمال الخاص للاستفهام يفرغ هذه الأدوات من دلالة الاستفهام إلى دلالات بديلة يعكسها السياق الذي ترد فيه"¹، وهذا التبدل هو ما يجعل الكلام نوعياً، أي له صفة الشعرية التي تجعله في مغايرة نسقية وجمالية منفتحة على كل تأويل، وإن نظام اللغة يتمتع بمرونة كبيرة في عملية تأليف أنساقه، ذلك أن الاستفهام: "له قدرة ذاتية على جذب انتباه المتلقي"²، وفي شعرية التحول الوظيفي للاستفهام تبرز طبيعة هذا الخطاب فاعلاً لغوياً له قيمته في بناء الدلالة، وفاعلاً تداولياً = تلفظياً، يحرك المتلقي بتحفيز قواه، لينشط ذهنه ومخيلته، حيث "أن ثمة انتقالاً هائلاً تتضاعف فيه هذه الحيوية أضعافاً كثيرة، حين يتجاوز الاستفهام دوره المألوف في تحقيق معرفة بسيطة ليشرع في اكتساب دلالة جديدة ينضاف فيها بعد شعوري وظل دلالي إلى الاستفهام البسيط"³، لذا تجنح لغته إلى الأخذ بتمثلات الواقع وإحالاته الناطقة، لغة تنشأ في هذا الفضاء والبيئة المساكنة بمثل هذا الحضور، ليحفز ويثير، ويحدث التقليل الضروري، "وكان لغة الشاعر ليست لغة للتفاهم أو الاتصال، بل هي معادلات رياضية إلهية الجوهر تفك المغاليق الشاردة"⁴، فكيف يستفهم الإمام الحقائق؟! وكيف يسأل مختلف الفواعل؟! وهو يبني عالمة الشعري، أي كيف يرفع هذه الفواعل لتكون البناء وأداته؟!

يمكن إدراك تجلياته الكونية في مواقف يعدد الإمام تكرارها بصيغ ذات طبيعة تحويلية في نصوصه، حيث يحرك الفاعلية الذهنية للمتلقي لتأمل الحقائق، وتفكك العلامات والإشارات المتناثرة راصدة مجازاتها وجمالياتها، بما تحمل من شحن وتحفيز وبيان بهدف بناء جديد للإنسان، بناء إيمانياً وروحياً، ليرفعه إلى عالم المثال والإنسانية، ويبعده عن كل تسطيح يقتل جوهره الكوني، فيستفهم عن أولئك الذين يقيمون هذا التفاعل الحي، الإنساني/الكوني، كما يعيد الإمام جولانه ونظره في الواقع والبيئة العربية، فيقرأ مشاهدتها، قراءة قادتة إلى استخلاص دقيق، وتقريرات صورتها اللغة، ونطقت متكلمة بأحوال الوضع الاجتماعي والإنساني وتراتباته، فيقول: "اضرب بطرفك حيث شئت من الناس، فهل تبصر إلا فقيراً يكابد فقراً، أو غنياً بدل نعمة الله كفراً، أو بخيلاً اتخذ

¹ - عبد المطلب محمد: جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، لوجمان، 1995، ط1، ص165.

² - شليبي طارق سعيد : جماليات التلقي. الاستفهام والتلقي ونشاط لغة النص، مجلة الرفاد، ع31، 2000، دائرة الثقافة والإعلام الشارقة، ص23.

³ - طارق سعيد شليبي : المرجع نفسه، ص24.

⁴ - خزعل الماجدي : العقل الشعري، ص473.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

البخل بحق الله وقرأ، أو متمردا كان بأذنيه عن سمع المواعظ وقرأ¹، ففي هذا الاستفهام نجد تقريرية بينة، وتشخيصية مجسدة، من أجل إعطاء فاعلية لهذا التحول الوظيفي يكسب قوة في الدلالة، وخرقا جماليا، يحول هذا التركيب إلى نظم حي بلغته وتشكيله، وماحنا رؤية فنية، تبحث عن ترجمات فكرية واعية، وكان لاستهلال الصيغة بالأداة "هل" التي تفيد النسبة والتصديق² قدرة كبيرة في ممارسة هذا الشحن الحيوي الذي تزيده تكرارات العطف بـ "أو" فاعلية عجيبة في رسم منحى هذا التحول، وما يمنحه من طاقة وتصعيد لتوترات الذات، بحيث يصبح سياق الاستفهام وجعي ينطق به الواقع الاجتماعي، وتسهم فيه عناصر التحول الموقعي، ومسافة التوتر، وحيوية اللغة، على اعتبار أن "اللغة هي الأداة التي تنقل الأشياء للوجود، فعناصر الكون متعددة، ولكن الذي يكتسب وجودا بالنسبة لي هو ما أعبر عنه باللغة، فأينما وجدت لغة تجد عالما"³، عالم يصنف فيه الناس في واقعهم إلى أربعة، ولكن بعيدا عن سؤاله بغرضه التطلبي المباشر، فيعيد صياغته، بتحول أدواته من "هل" إلى الأداة "أين" التي يسأل بها عن المكان، ليفاجأ المتلقي بنقلة تحمل نبرة الغضب والحسرة والألم، فيقول: "أين خياركم وصلحائكم؟ وأين أحراركم وسمحاؤكم؟ وأين المتورعون في مكاسبهم، والمتزهون في مذاهبهم؟"⁴، وهذا هو الصنف الخامس المفقود يذكره ذكر متسائل عن وجوده، بأوصاف الخيرية والصلاح والحرية والسماحة والورع والنزاهة، وهذا هو النوع المثال الذي تحفز إليه اللغة بشعريتها وجمالياتها ليكون بديلا للطبيعة التقريرية الأولى المشخصة لسليته، وتزيد السجعة في أواخر الاستفهامات طاقة وشحنا يعلي من هذا التوتر، مع العطف الذي يجمع الأوصاف التي ينبغي أن تكون طبيعة في ثلة مختارة تقود المجتمع، وهي الفئة التي يريد الإمام لتعيد ترتيب البنية الواقعية بخصائص بديلة هي المثال، بمعنى ذلك الإنسان المثال الذي يبني به دولة الحق، إلا أن التحويلة الثالثة في سلسلة هذا التراسل من الثابت الموجود إلى المنتظر، إلى الأفق الذي يعدم وجودهم، تؤكد رحيلهم من الدنيا، فقدان باللغة، وفقدان بالواقع، فيقول: "أليس قد ظعنوا جميعا عن هذه الدنيا الدنية، والعاجلة- المنغصة؟"⁵، لتكون الصيغة التي تقابل سؤال الإمام عن ذلك الإنسان المثال، في سياق توكيدي [= الهمزة + ليس + قد + جميعا + الأوصاف = الدنية + المنغصة]، يزيد من قوة

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 183، 184.

² - ينظر محمد محمد أبو موسى : دلالات التراكيب، دراسة بلاغية، ص 205.

³ - غفيري خديجة : سلطة اللغة، بين فعلي التأليف والتلقي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2012، ص 26.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 184.

⁵ - المصدر نفسه، ص 184.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

الدلالة وجمال التركيب وطاقته الإيقاعية، وتلوينات نظمه، ليصبح توتر الذات يتصاعد في نسق عال، دالا على فجائية الواقع بآلامه، وهو ما تأتي به التحويلة الرابعة الصادمة، وما تحمل من مرارة ويأس، فيقول: "وهل خلفتم إلا في حثالة لا تلتقي إلا بدمهم الشفتان، واستصغارا لقدرهم، وذهابا عن ذكرهم؟"¹، تحولات تنبئ عن "تجربة نامية لأنها تتشكل أمامنا وبمشاركتنا، فروح الاستفهام تمكن الشاعر من تقديم تجربة أكثر عمقا وشمولا، حيث يرينا نفسه في حيرتها، ونزوعها نحو التعرف على الحقيقة، أو الانتهاء إلى ما يريد"²، وحيرة الإمام تجليها طبيعة الاستفهام، وهو ما يعمق وعي المتلقي بدلالة مفتوحة، وتحفيز حي، وشحنة شعرية تأثيرية إبلاغية، توصل رسالة ذات جوهر ونفاسة، وهي تتطلب تضحية ومجاهدة، ولتكون الإمكان التأويلي القائم والمفتوح أمام الإنسان الذي يريده الإمام.

ويعيد بالتحويلة الخامسة فتح سؤال الحقيقة، سؤال الوجود، فيقول: "ظهر الفساد فلا منكر مغير، ولا زاجر مزدجر، أفبهذا تريدون أن تجاوروا الله في دار قدسه، وتكونوا أعز أوليائه عنده؟ هيهات لا يخدع الله عن جنته، ولا تنال مرضاته إلا بطاعته"³، فهذه الفئة ليست مثالا يستحق تلك المجاورة الحميدة، فلا مكان لحثالة القوم من هذا الإعزاز، وقد صدره بإخبار دال يثبت فساد الناس، من أجل خلق توتر شديد نراه يتصاعد بشكل دقيق من بدئه، إلى أن يأتي إلى غاية هذا المنعرج وما يحمل من توبيخ وتعجب وإنكار، وهو لا يقف هنا بل يستمر في الذاكرة والوعي لمباشرة يقظة جديدة، تعيد بناء الواقع بفاعلية اللغة، "فاللغة قوام الإنسان، وماهيته المفتوحة"⁴، تقرأ وجود الإنسان، قراءة حية آفاقية، فالإنسان كائن لغوي جمالي، يفتح بإثارة السؤال على الكون والوجود.

4- شعرية نظم التوكيد والحذف : تبني شعرية التوكيد والحذف فضاء جماليا يوسع مجال الرؤية، ويفتح الأفق، رؤية تعيده من خلال اللغة إلى رحم الحقيقة بعيون الجمال، وعقل تأويلي منفتح بشعرية نامية على الكون، وفاعلية لغوية بطاقتها المبهرة، من خلال خلخلة الموقع لتحفيز الذهن وتنشيط الذات، لتتحرك نحو إدراك غايات معرفية وجمالية رفيعة.

أ- شعرية التوكيد: يقول عبد القاهر الجرجاني: "لأن حد "التأكيد" أن تحقق باللفظ معنى قد فهم من لفظ آخر قد سبق منك"⁵، تقوية حاملة لقيمة دلالية وموسعة لأفق المعنى، تمد بسر جمالي

¹ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 184.

² - يوسف حسين عبد الجليل : أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي، مؤسسة المختار، القاهرة، دار المعلم الثقافية، الإحساء، 2001، ص 07.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 184.

⁴ - بومسولي عبد العزيز: الشعر والتأويل، قراءة في شعر أودنيس، أفريقيا الشرق، المغرب، الدار البيضاء، 1998، ص 104.

⁵ - عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص 230.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

مؤثر، وتمنح طاقة تهمز المتلقي، ويجعل التوكيد من الرسالة الكلامية ذات بيان يزيل الشك، وقد اقتضت خطابات الإمام على تنوع مداراتها، اللجوء إلى هذا الأسلوب الحيوي بقوته وفاعليته، يوجه مقاصده إلى غايات يريد أن تتحقق باللغة في وعي المخاطب، وفي الواقع تأويلا وتمثلا.

إن حاجة الكلام إلى توكيدات يعد ملمحا جماليا يمنح اللغة قوة وحجة وبيانا، يقول الإمام: "شغل من الجنة والنار أمامه، ساع سريع نجا، وطالب بطيء رجا، ومقصر في النار هوى"¹، فجملة شغل المبنية للمجهول، تفتح على كل راغب وطالب، لتحفزه، وتحده، وقد تم توكيدها، بما جاء بعدها من تقسيمات لصور الناس، ذلك أن الساعي السريع، هو ذلك الذي شغل نفسه بالعمل للأخرة، ليتم التأكيد بما تتطلبه الجنة، وكذلك طالبها البطيء، يتأكد انشغاله بمقدار إعداده بالعمل، كما يتم التأكيد في حال المقصر بما تتطلبه النار، بصورة التكني التي تزيد من قوة الكلام، وقد تكون غايته أن تواجه النفس تطلعاتها الكثيرة والكبيرة، لحسم باب الأمل الذي يفتح أمامها²، وعليه يظهر التوكيد شعرية نظم، يفتح بتأويل ومكاشفة نوعية لتحصيل المفازة بالهمة.

إن ناظم التوكيد يمنح اللغة قوة شعرية، تجعل من هذا الأسلوب لافتة ومسجلة ذهنية تضع الأهم الأبلغ فكرة وصورة يتعين الأخذ بها، ويوضح الإمام الثبات على الحق في زمن الفتن والتقلبات، حيث تصبح الرؤية أكثر ضبابية، تفتحها اللغة بأدوات التشكيل لتقود إلى بيان طريق الحق، يقول الإمام: "فصمدا صمدا حتى ينجلي لكم عمود الحق. "وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَالِكُمْ"³ [سورة محمد الآية 35]، فالصمد الثانية تؤكد الأولى، وتعني القصد والثبات عليه، فحتى يبلغ الإنسان سبيله، يستدعي منه قوة الإيمان، فهذا الترادف يمنح دلالة وبيانا وشعرية ومعرفة تزيل أحوال التردد، ولهذا يأتي هذا التوكيد الذي شفعه الإمام بالآية الكريمة، ليوضح نهاية درب هذا الثبات بنيل المراد والمستحق، وعليه "فلكي يحقق النص وظيفته، ينبغي أن يتحمل معها بعض الوظائف الإضافية"⁴ الشعرية والجمالية، وتشكيل رؤية فنية بشعرية جمالية حاملة لأفاق تأويلية.

وحتى تستبين معالم الحق وتتوضح طرقه، يلفت الإمام إلى أهمية التأسسي في هذا الطريق الشاق بالنبي ﷺ، ويزيد عليه بتثنية وتثليث، وأخرى رابعة ببعض الأنبياء الآخرين، في كلام طويل

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 42، 43

² - ينظر محمد أبو موسى : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، دار التضامن، القاهرة، 1986، ط2، ص 416.

³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 90.

⁴ - لوثمان يوري: تحليل النص الشعري- بنية القصيدة، تر محمد فتوح أحمد، دار المعارف، القاهرة، ص 22.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

يبرز من خلاله أسلوب التوكيد الدلالة على الثبات والتأسي في مجابهة الدنيا وإغرائها، مما يعطي للكلام شحنات إضافية لتجسيد هذا المبدأ في صورة مشخصة قابلة للإعادة، فيقول: "ولقد كان في رسول الله ﷺ كاف لك في الأسوة، ودليل لك على ذم الدنيا وعيبيها، إذ قبضت عنه أطرافها، ووطئت لغيره أكنافها، وفطم عن رضاعها، وزوي عن زخارفها.

وإن شئت ثنيت بموسى، كليم الله ﷺ إذ يقول: "رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ" [القصص: 24]، والله ما سأله إلا خبزاً يأكله لأنه كان يأكل بقلّة الأرض، ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه، لهزّاله وتشذب لحمه.

وإن شئت ثلثت بدّاود ﷺ صاحب المزامير، وقارئ أهل الجنّة، فلقد كان يعمل سفائف الخوص بيده، ويقول لجلسائه: أيكم يكفيني بيعها؟ ويأكل قرص الشعير من ثمنها، وإن شئت قلت في عيسى ابن مريم ﷺ، فلقد كان يتوسّد الحجر، ويلبس الخشن، ويأكل الجشب، وكان إدامه الجوع، وسراجه بالليل القمر، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغارها، وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يذلّه، دابّته رجلاه، وخادمه يداه.

فتأسّ بنبيك الأطيب الأطهر ﷺ فإنّ فيه أسوة لمن تأسّى، وعزاء لمن تعزّى¹، إن مجمل هذه التوضيحات ترسم بفضل اللغة وجه الإبصار الصحيح للدنيا، بألية نيل الأسوة، اعتمدت على توكيدات أسلوبية، تمثلت في تكرار الحروف والأدوات، والتكرار بالمرادف، واللفظ، والتكرار بالضمير، وتكرار الفقرات التي تؤكد بعضها وتنمي الدلالة وتوسع المعنى، وتشحن الكلام بشعيرة قوية الدلالة، بحيث ذكر ضرورة التأسي بالنبي ﷺ، في ذم الدنيا، ولكي يوضح هذه الحقيقة، ويبني مفهومها واضحاً مستقراً في النفوس جاء بفقرات مؤكدة مزيلة لكل شك، لتتحول هذه الفكرة إلى يقين، وبهذا يصبح هذا الناظم دالاً على تقرير المعنى في النفس، حتى وإن خلت من كل إنكار، لأن هذا المراد متطلب تصعب مواجهته، كما أنه وبفضل تكرارات الفقرات يزيد من اطمئنان النفس²، فترتاح له، تشخص نفس الأحوال وتنوع في سبل التزهيد وصوره، ليجز صعبوبة هذا المسلك، وكبي يبني تصوراً سليماً من خلال شعيرة التوكيد، وما تحمل من شحن دلالي، وسع المعنى، ومن ثم فإن ما تنهض به اللغة من مهام، ينصب في بناء رؤية واضحة تترجم مفهومها رفيعاً، يتحول من فكرة إلى سلوك واقعي، من

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 215.

² - ينظر محمد أبو موسى : البلاغة القرآنية، ص 413، 416.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

خلال هذا المنجز التعبيري، زادته القوة التصويرية للغة متانة وجمالاً، تحول معه هذا الرسم إلى تمثلات قائمة بالتشخيص، كالكناية في قوله: "دابته رجلاه، وخادمه يده"، ليرز معه اعتماد هذا النبي الكريم على نفسه وزهده فيما هو في يد الناس، وليترجم توكلاً وإرادة قوية في تحقيق متطلبه ولو على بساطته، فالتوكيد يقدم نظرة غير مألوفة، تلخص مسافة حاصلة بين الواقع القائم والمثال الغائب، وذلك لأن انهيار الأمة مرده إلى هذا التكالب على الدنيا والجري ورائها، ولذا فلغة الإمام هي لغة جمالية، لغة المثال تنزل إلى الواقع لتعيد هندسته وصياغته، "ولا شك في أن الحافز الدلالي له القدرة على توجيه الصياغة التركيبية لكل عبارة منغلقة باتجاه يضمن لها تأدية ما تريد إيصاله"¹، وهنا يرتفع الإمام بهذا الواقع من جديد إلى مستوى ذلك المثال، بفضل هذه المسافة الجمالية والمسافة المعرفية، تأول ينمي قدرة المتلقي بما يمنحه من رؤية ومعرفة تساعد على إعادة بناء تصوراته وضبط بوصلته، يقول "عبد القاهر الجرجاني": "فتعيده مرة ثانية لتثبته، وليس يثبت الخبر غير الخبر، ولا شيء يتميز به عنه فيحتاج إلى ضام يضمه إليه"²، تقوية وضما للدلالة تضيف إمكانا يجلي الحقيقة، ويبدع صور الجمال، بشعرية تفتح أفق المتلقي، وتوسع مخياله ورؤيته، وتستحثه ليتقدم في الحياة برؤى جديدة.

ب- نظم الحذف، شعريته وجماليته: يقول عبد القاهر الجرجاني: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبين"³، فدقة النظم مردها ذلك الذي يخفيه صاحبه بفنية وبهذا الاقتصاد، بتحفيز المتلقي ليملاً فراغات الكلام، "فالحذف في بناء الجملة أحد المطالب الاستعمالية"⁴، يقتضيها السياق والمقام لأن التواصل قائم على تفاعل حيوي معرفي وجمالي، يرمى تحقيق استجابة دالة، بعبارة "الجرجاني": "وأن رب حذف هو قلادة الجيد، وقاعدة التجويد"⁵، يعود إلى حرق في النظم، بتعبيرية وجمالية تختزن دلالة غائبة، حاضرة بالتأويل.

لا يمكن أن يرتقي كلام، إلا إذا توفر على قدر من الطاقة مصدرها الإيجاز بالحذف الذي يختاره المبدع أسلوباً بليغاً بقدراته التأثيرية، وإمكانه الإيصالي = التواصل، لرسالات الكلام بقوة أكثر من الإظهار، وهنا تبرز قدرات الإبداع وانعطافاته، فبيان هذا النظم يظهر لمتلقي الكلام دوراً لا بد

¹ - نوفل هلال أبو رغيف : المستويات الجمالية في نهج البلاغة، ص 155.

² - عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص 227.

³ - المصدر نفسه، ص 146.

⁴ - محمد حماسة عبد اللطيف : بناء الجملة العربية، ص 208.

⁵ - عبد القاهر الجرجاني : المصدر السابق، ص 151.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

أن يؤديه في إحداث التكميلات الضرورية = شعرية وجمالية، وتنشيط قواه بالتحفيز في صناعة الموقف الكلامي، وتحقيق فاعلية الخطاب، يقول الإمام: "سيروا على اسم الله"¹، فهو يدفع من خلاله الناس إلى ترك تعلم النجوم ومؤدياتها، ثم يعطف إلى الأسلوب الأمثل والاعتقاد الصحيح بأهمية السير على اسم الله، وبلاغة الكلام تقدر بتأول يأخذ من دلالة المعنى، أن هذا السير يتم بالتوكل عليه: "سيروا متوكلين على بركة اسم الله"، تركيب قد أخذ اختصاره بالحذف وتعلقت دلالاته باستحضار المعنى المؤجل، وبيان هيئة واصفة لاعتقاد المؤمن، وهنا يعطي لاسم الله "المتوكل" أهميته في رسم حركة الإنسان وتقديرها على أساس من صحة العقيدة والسير على منهجه، كما أن في هذه الحركة مباركة أتها من دلالة الاهتداء بالأسماء والآيات ونور الإيمان والعلم، يقول "الجرجاني": "ليبرئ السامع من هذا الوهم، ويجعله بحيث يقع المعنى منه في أنف الفهم"²، يجريه في موضع الحال، وهنا نجد مناسبة مع حالة نفي صورة الاهتداء بالباطلة بالنجوم، وعليه فالحذف طاقة وإمكان وجمالية تعبيرية، أخرجت الكلام إلى سمة شعرية جمالية ذات شحن دلالي، لأن "الدلالة على المحذوف يتكفل بها التركيب المنطوق"³، وهكذا تحمل اللغة فكرا فاعلا مؤسسا لاستقامة الإنسان.

إن هذا الحذف الذي يكون في الكلام وتسمح به ضوابط اللغة، أو لنقل مرونة النظم، وخصائص التشكيل، يجسد رؤية الإمام الفنية، وترتفع من خلاله اللغة إلى شعرية جمالية تبلغ الأوج، ومعه تتحرك الذات المتلقية للخطاب، في حالة من تفاعل حي لبناء مفاهيم جديدة متجاوزة، ويحذف الإمام عنصرا رئيسا من التركيب له الأهمية في الكلام، بحذف الركن الأول من الجملة الاسمية، وهذا عند حديثه عن وصف الجنة، فيقول: "درجات متفاوتات، ومنازل متفاوتات"⁴، حذف بليغ، يجعل من هذا النظم تتكشف دلالاته في الإخبار عنه، وبهذا الوصف الذي أعطي للجنة، يصدم المتلقي بهذا الحذف، ويحفزه السياق على مثل هذا البيان، لأن "الدلالة على المحذوف يتكفل بها التركيب المنطوق"⁵، ولأن الإمام يدفعه إلى العمل والسعي لنيل هذا الأعلى والأرفع من درجاتها ومنازلها المتفاضلات المتفاوتات، خاصة وأن هذا الإخبار عن هذا المفرد [= الجنة] جاء بصيغة الجمع لبيان المنزلة والأهمية التي تكون عليها، وبذلك تكون الدلالة منفتحة بالتوسع والتأويل،

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 99.

² - عبد القاهر الجرجاني : المصدر السابق، ص 172.

³ - محمد حساسة عبد اللطيف : المرجع السابق، ص 211.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 114.

⁵ - محمد حساسة عبد اللطيف : المرجع السابق، ص 211.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

مع تقنية الحذف ملخصة في شعريته، وجمال نظمه المحفز، وبما تدفع إليه اللغة وتضعه قيمة ورمزا ينبغي العمل له، "فمن حذق الشاعر أن يوقع المعنى في نفس السامع إيقاعا يمنعه به من أن يتوهم في بدء الأمر شيئا غير المراد، ثم ينصرف إلى المراد"¹، وهذا التحول جمالي، أحدثه هذا الخرق الذي عدل بنظم اللغة إلى دلالة جديدة وجهة شعرية، أعطت كثافة دلالية، بأسلوب يدفع المتلقي إلى تأويل أفق هذا النظم، والانفتاح على هذا التوسع في حيز التركيب، وعليه "فالحذف ellipsis هو استبعاد عنصر سطحي مفهوم المحتوى، لا سبيل إلى استرجاعه إلا بالعودة إلى الورا داخل النص باعتماده على وعي المتلقي الذي يشير إلى عنصر سابق anaphoric"²، وهذا هو الإمكان الذي يجعل من شعرية الحذف علامة مستفزة وشيفرة قرائية، لنص جمالي خاص مفعم بالطاقة والتوليد الحي للدلالة، وقابلية تأويلية منفتحة، "فالحذف علاقة اتساق معجمية تتم داخل النص"³، تتكشف دلالاته بالتلميح الإشاري وتوفره على عناصر الجمال والإبهار وقوة التحفيز تجعل المتلقي فاعلا في إنتاج الدلالة وتكميل المسكوت عنه، وملاً فجوات اللغة، بجمالية محرّكة على فعل التأويل برؤية جديدة تعيد ترتيب صياغات الواقع بفكر معرفي جديد.

5- شعرية نظم التوازي، وجماليته: إن من الظواهر الملفتة لعملية التشكيل الفني لنصوص النهج، اعتماد الخطاب فيها على تقنية أداة التوازي الدلالي، حيث أن اندفاق الكلام وسلسلته، يبدأ من نواة تركيبية ثم تتنامى اللبنة اللغوية، تشكل يعتمد على نظام متناسق، تحقيقا لاستجابة نوعية، انطلاقا من محاولة هز ذلك الترتيب الموقعي في النفس، لذا فإن عملية التوازي الدلالي تستهدف إحداث هذه الخلخلة، وتحقيق إصابة الأثر الجمالي للأسلوب، وتوازي البنات هو ما يحدث تلك التوقية الجميلة في الكلام الذي هو "بنية تركيبية تربط بين عنصرها علاقات دلالية منطقية"⁴، بمعنى أن الكلام الذي يبنى على تعادلات متقاربة في البنية، يعطينا تركيبا بجمولة شعرية وجمالية، ومن ثم فجران المعاني من خلال أنظمة الكلام ذات الطبيعة المتوازية يمنح تماثلا وتساوقا حتميا فيما بينه.

تنوع القطع التركيبية للنظم بدلالاته في نصوص النهج، لتحقيق الإبهار، فهذه الشعرية والبيان الذي يحركه الإمام ويلتقط إشارات الدالة من الكون إلى الإنسان إلى المخلوقات، إلى

¹ - عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص 172.

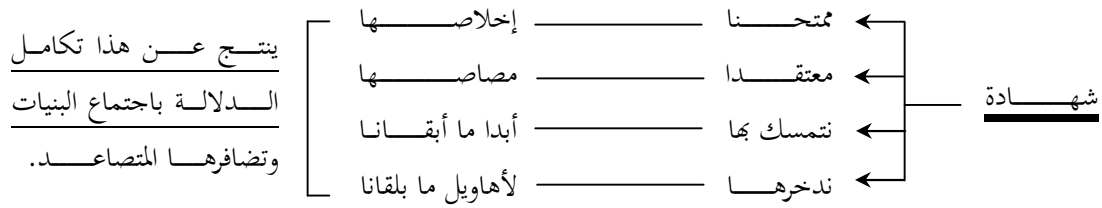
² - فهد السعيد سعاد: بخلاء الجاحظ، دراسة تطبيقية في علم لغة النص، نادي أمها، السعودية، دار الانتشار، بيروت، 2014، ط1، ص 198.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 198.

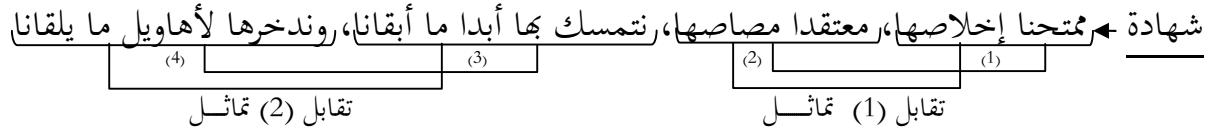
⁴ - العبد محمد : النص الخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، 2005، ط1، ص 272.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

العلاقات، إلى الدقيق والجليل، يعطي شعرية وجمالية ودلالة تفتح الأفق على قراءة جديدة واعية، يقول الإمام متحدثاً عن أهمية الشهادة، ودورها في بناء مرتبة التوحيد: "فإنها عزيمة الإيمان، وفتحة الإحسان، ومرضاة الرحمان، ومدخرة الشيطان"¹، فهذه التوازيات التي تقيم فكرة التوحيد وتعطي دلالة لكلمتها، نستخلص منها نظاماً متكاملًا من الدلالة، بحيث تجمع هذه المعاني وتولف بينها من أجل صناعة المفهوم الذي يبني المعرفة العقلية للإنسان، وقبلها أورد الإمام بشأنها جملة خطوط متوازية، فقال: "شهادة ممتحنًا إخلاصها، معتقدا مصاصها، نتمسك بها أبدا ما أبقانا، وندخرها لأهاويل ما يلقانا"²، فقد بنيت هذه الفقرة على ثماني توازيات هامة تشكل دلالة معنى التوحيد والشهادة، مع وجود علاقات متداخلة بين البنات، تتصاعد في خط يقدم إضاءة معرفية ودلالية، وهذا ما تقيمه التقابلات، والضمائر والتضاد، فالجموعة الأولى تتفرع إلى أربعة توازيات ذات طبيعة ثنائية تتقابل مزدوجة، الأمر الذي ينتج عنه طاقة إيقاعية هائلة تزيد من جمال التركيب:



وهي تتشكل وفق التردد الصوتي والإيقاعي بطاقاته، كما يأتي:

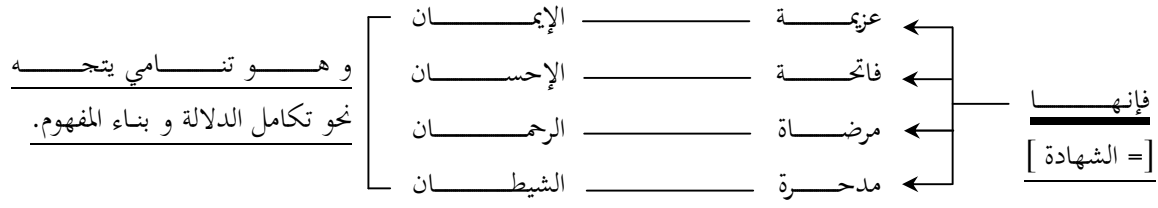


وبهذا تبنى هذه التوازيات بطريقة متعادلة من حيث المبنى، ومتماثلة من حيث المعنى، هي امتحان الاعتقاد، وخالص الإخلاص، تواجه بها أهوال الزمان، وتعطي الضمائر المتحولة من الهاء العائدة على الشهادة والهاء مع النون العائدة على المؤمنين زيادة في إحكام التركيب، وتفعيل طاقة الإيقاع وتكثيفه، ومنح جماليته، ليصبح هذا التوازي حاملاً لأسرار هذا النظم الجمالي البديع، وتستأنف المجموعة الثانية بالفاء التي دخلت على "إن" التوكيدية، لتقوية الكلام وتفعيل الدلالة، مع الضمير المتصل بها، قصد إحداث تقابلات جديدة هادفة إلى تنمية المعنى بغية تشكيل الدلالة الكلية التي تنطلق من بؤرة مركزية، هي فكرة الشهادة، وتتنامى بهذه التوازيات من التقابلات والتضاد والضمائر والإيقاع، لإبراز حقيقة التوحيد وفاعليته، وهذا ما تشكله المجموعة الثانية بتوازيات ثنائية.

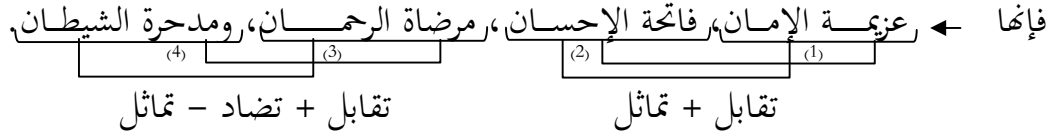
¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 26.

² - المصدر نفسه، ص 26.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة



وهي تتشكل وفق التردد الصوتي والإيقاعي بطاقاته، كما يأتي:



إنه وبهذه التشكيلات الشائبة ذات الطبيعة المتوازية تتضافر جميعها، لتحدث هذا التنامي في إتجاه اكتمال الدلالة، ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه المركبات اعتمدت على صيغ صرفية شكل ترددها حصول طاقة إيقاعية مسهمة في إحداث هيمنة جمالية، (عزيمة، فاتحة، مرضاة، مدحرة)، لتصبح العزيمة إرادة فاتحة، تبدأ بالإيمان لتصل إلى مرتبة الإحسان، وتكون المرضاة طاردة للشيطان، وليصبح التوحيد كمالاً في الإيمان والعبودية، ومن ثم يتحقق اكتمال المعنى أو التعريف الوافي بحقيقة التوحيد وآثاره الفاعلة، فالتوازي "مركب ثنائي التكوين، أحد طرفيه لا يعرف إلا من خلال الآخر وهذا الآخر يرتبط بدوره مع الأول بعلاقة أقرب إلى التشابه، أي إنها ليست علاقة تطابق كامل"¹، وهذا يعود لتنوع التركيب ومرونته، فالتوازي هو نظام لغوي، يجعل من اللغة لغة شعرية جمالية، فما يريده الإمام هو تحديد الصياغات الحية في النفس الإنسانية، حتى تستيقظ في أفق الكمال ومنازله، قصد إعادة بناء الهوية الإنسانية، وهي إعادة بناء باللغة، وسط عالم منفتح على آفاق التأويل.

ويحدثنا الإمام في موضع آخر عن تلك النقلة الرهيبية في المجتمع، وقف عليها ببصيرته كمؤول لتمظاهرات الواقع، وليدفع المتلقي من خلال ذلك إلى إحداث خلخلة لموقعه، ليهتز هو الآخر، وليتحول هو كذلك إلى مؤول ثان للرسالة اللغوية، حيث نرى الشيطان كيف يدفع بالنفوس إلى الهلكة، وكيف يزين لها، ويصبح قائدها، وهذا ما تكشف عنه هذه التوازيات الدالة على معنى هذا الانهيار، وهي دلالات مصورة لتشاكل بين، فيقول: "اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً، واتخذهم له أشراكاً، فباض وفرخ في صدورهم، ودبّ ودرج في حجوهم، فنظر بأعينهم ونطق بألسنتهم، فركب بهم الزلل، وزين لهم الخطل، ففعل من قد شركه الشيطان في سلطانه، ونطق بالباطل على لسانه"²، يفتح الفعل "اتخذ" هذه المصاهرة العجيبة بين الناس والشيطان، ليصبح هذا التشارك [= اتخذوا-

¹ - نوفل هلال أبو رغيغ : المستويات الجمالية في نهج البلاغة، ص 202.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 37.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

اتخذهم] دالا على مزاجية وتداخل وتفاعل، وبؤرة تشكّل الدلالة ومحور تنامي حي يجسد صورة هذا التقاطع، وتبرز مفاعلة هذا التوازي من خلال الفعل "اتخذ" المكرر، في دلالة على انفتاحهم الإرادي عليه، إقبالا فاعلا، مما يدل على تمكنه منهم وانتهاز فرصة إقدامهم ليحدث فعلته، وكأنهم أدواته يوظفهم أذعياء في حربه، وهذا ما تفعله كلمتا "ملاكا وأشراكا" ذات الطبيعة التماثلية، "فكأنهم آلة الشيطان في الضلال"¹، وصل مكنه بيسط سلطانه على الذوات الراغبة في الشيطنة.

اتخذوا ← تعالق دلالي ← اتخذهم

ملاكا ← تعالق دلالي ← أشراكا

يدل على استحكام تام.

وقد نجم عن هذا التعالق، وما يحمل من دلالة الاستحكام بفعل هذا التوازي الموقعي والصوتي بإيقاعه الدال، جملة جديدة تنامت من هذه البؤرة، فجاءت الثنائية الموالية مصعدة للتوتر وإضاعة الدلالة، ذات التساوي المقطعي، فالتركيب الأول يعادل الثاني لتحقيق التماثل الإيقاعي والدلالي، من خلال تناميه على شكل تقابلات حيوية منجزة لجمالية نظمية مبهرة:

العطف	جملة فعلية	العطف	جملة فعلية	شبه الجملة	الصورة الكنائية	طبيعة التوازي
الفاء	باض	و	فرخ	في صدورهم	عن توطئة في الصدور	توازي معنى ومبنى
الوار	دب	و	درج	في جحورهم	ترى في جحورهم حتى بلغ الفتوة والقوة	

فهذه توازيات تسير وفق نظم متساقق بطابعه الجمالي ينمي دلالة الخطبة التي تتحرك في فضاء فكرة ذم الدنيا، هذا المعنى يتنامى مع استمرار هذا الدفع الدلالي/الشعري، والإيقاعي/الجمالي، حتى نهاية اكمال الدلالة "فنظر بأعينهم" توازي "نطق بألسنتهم"، مكنية عن شدة هذا التملك. و"ركب بهم الزلل" توازي "زين لهم الخطل"، تعبيرا عن فداحة الأخطاء وعظم المحظورات التي يوقعهم فيها، وهذا وجه من بلاغة الصورة الكنائية يظهر مع هذا التقابل بتمثلاته التي توسع من أفق المعنى، وكذلك التوازي الأخير الممتد في بنيته التركيبية فعل من نطق بالباطل على لسانه، وتظهر الكلمات المسجوعة إيقاعا بليغا يزيد من شحن الدلالة بطاقات إيقاعية وجمالية، الأمر الذي يستدعي تأويلا يفتح مشخصات هذا الكلام بتأويلات لتلقي شيفراته وفك سره، وإن من مهيئات هذا الانتظار، انتظار حالة جمالية إنسانية، لن تكون إلا بالتركيبية والتنمية الذاتية، ولذا يأتي الإمام بهذه التوازيات التي تبني هذا المعنى، حيث يقول: "فاتقى عبد ربه، ونصح نفسه، وقدم توبته، وغلب شهوته"²،

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 37.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 86.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

فهذا التوازي ينطلق من طبيعة متماثلة المعنى، حيث تنبني على الفعل "اتقى" يتسلسل بتعقيبات متجانسة ومتنامية، وهي: "نصح، قدم، غلب" تتجه نحو بناء مفهوم التقوى الذي يتطلب مجاهدة مستمرة، ومن خلال هذه التوازيات الثنائية تتقابل المعاني بهدف اكتمال نظام الدلالة، "لأن ما يعطي للتوازي قيمة، هو وظيفته داخل الخطاب"¹، ومع هذا التوازن الإيقاعي، تشخص صورة التقوى، ويكتسب التركيب فاعلية وجمالا، ولأن التقوى والمناصحة والتوبة، ومغالبة الشهوة، ستكون هي الأسلوب الأمثل الذي يجعل الإنسان يتجدد ويتقدم نحو الخيرية والصلاح، وهذه الحمولة الدلالية، تمثل شعرية جمالية منفتحة على المتلقي، حيث تتطلب تأويلا فاعلا.

وعليه فإن التوازي كما يوضحه "محمد العبد" ملخصا مفهوم "هاليداي"، هو "ربط بين عناصر متساوية الحال، هناك عنصر سابق...، وعنصر آخر متصل به أو لاحق، كل من هذين العنصرين حر، أي له كيانه الوظيفي الكامل"²، تجسد الواقع وتصوره، كما تحاول هدهدة العالم الساكن لهذه البيئة المنقلبة داخل "بنية تركيبية أثيرة"³، لها قدرة على إحداث كل اهتزاز موقعي تصله الدلالة، وبهذا تسهم اللغة في دفع الإنسان ليصنع نموذج، ويبيّن مثاله، ويرتقى إلى بلاغة الحق، وإلى جمالية البيان الشعري ومصادره وتفاعلاته الإنسانية والكونية، وما اللغة إلا أداة هذه الرؤية، تصنع الفعل وتبنيه، وتؤول النظم وتنثره، ذلك أن "التأويل هو أسلوب حفظ الحياة من الانهيار"⁴، ليتأكد الدور الذي يعطيه الإمام للغة، فتصبح لغة الاستعادة والمثال والحياة والكون، وهي المفتاح لبناء سيمياء = سيما الإنسان الكامل، وعلامة البيان الإلهي في الإنسان (فيه)، فهي لغة مكاشفة وأسرار وتأويل، لاستعادة رمزية البيان الإنساني، بفاعلية البيان اللغوي، ليدله على بيان القرآن وبيان الكون.

¹ - بندحمان جمال : الأنساق الذهنية في الخطاب الشعري، التشعب و الانسجام، دار رؤية، 2011، ط1، ص 206.

² - محمد العبد : النص والخطاب والاتصال، ص 253.

³ - المرجع نفسه، ص 266.

⁴ - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 17.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

المبحث الثاني: شعرية التشكيلات الإيقاعية، نظم الصوت والإيقاع:

لقد قال "ابن جني" أن اللغة أصوات تعبيرية، أي بنية صوتية دالة، وطبيعة نسقية ونظمية. إن الصوت عبارة عن بنية منتجة لمختلف الإيقاعات الدالة؛ ومبرزة لدلالات شعرية وجمالية، وعليه فإن الصوت هو "الذي يحظى في لغة الفن بقيمة بنائية محددة"¹، وخاصية الجمال لا بد وأن تتحدد من خلال الاختيارات النوعية للأصوات، بطبيعتها الإيقاعية التي تأنس لها النفس، "وترجع أهمية الصوت إلى كونه وسيلة تعبيرية وإيضاحية"²، بمعنى أن هناك ارتباطا بينا بين الصوت والمعنى، وأن الدلالة [= الشعرية] هي نتاج طبيعي لهذا التلاحم، وهي ضرورية لتحويل اللغة إلى منطقة الشعر، لأن هذه "اللغة هي في الأساس نسق سمعي من الرموز، وبقدر ما هي نسق ملفوظ، فإنها نسق حركي"³، حركية منشئة لطاقة إيقاعية ذات أثر إبلاغي حادث، يرفع من قيمة الكلمة، ويخصها بمهالة عجيبة تحدث تأثيرا واهتزازا أثريا في نفس المتلقي، ومادام أن النظم وحدة تتكامل فيها عناصر التشكيل بمستوياته المتداخلة، منها الصوتية، فإن حضورها فاعل في إنشاء الخطاب وبلاغته وقدرته التأثيرية والإيصالية، ومعنى هذا أن النص الشعري، كما يرى "خزعل الماجدي" عبارة عن طبقات، توازي طبقات الجسد، وهي تتقابل على النحو الآتي⁴:

طبقات الجسد:	طبقات النص الشعري:
1- الطبقة الفيزيائية.	1- الطبقة البنائية.
2- الطبقة الكيميائية.	2- الطبقة المعرفية.
3- الطبقة البيولوجية.	3- الطبقة الإيقاعية.
4- الطبقة العاقلة.	4- الطبقة التوليدية.

وتبرز هذه الطبقات عمق تشكيل النص، وشدة تلاحم عناصره، ليصبح كيانا خاصا قويا في بنيته الرمزية، ثم إن لهيئة العمل الفني سحرها المتميز الذي جاء من القوة الداخلية فيه [= النظم]، ولهذا يجعل "الرافعي" عند حديثه عن إعجاز النص القرآني الكلمات أصواتا ثلاثا متدرجة:

1- صوت النفس، الصوت الموسيقي، وباعثه النظم المتسق للحروف والكلام المنضد، بأثره الدال.

2- صوت العقل، وهو الصوت المعنوي، ونتاجه لطائف التركيب.

¹ - يوري لوتمان : تحليل النص الشعري، ص 101.

² - السعدني مصطفى : المدخل اللغوي في نقد الشعر، قراءة نبوية، منشأة المعارف، الإسكندرية، ص 55.

³ - ساير إدوارد: اللغة والخطاب الأدبي، تر سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، المغرب، 1993، ط1، ص 22.

⁴ - ينظر خزعل الماجدي : العقل الشعري، ص 447، 448.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

3- صوت الحس، وناتجة دقة التصور، وتلوينات الكلام، وهو أرفعهم ويتجلى في الكلام الإلهي¹. وخالصة الكلام أن للصوت منزلة رفيعة في كل كلام بليغ، وأن النظم الرفيع بشعريته وجماليته سبيله حصول هذه النسبة، مع هيمنة إيقاعية صوتية على الكلام بنغمه الذي يتكرر متساويا متسقا منضدا، بطبيعته النسقية الناتجة عن توازنات يحدثها التكرار والتضاد ومجاورة الأصوات والكلمات، وتقابلات العبارة، في عملية دقيقة متشابكة، ذات طبيعة متناغمة سلسلة مرنة، زيادة في الوقع والتأثير، ولهذا "تكمن أهمية الصوت في قدرته الإيحائية التجريدية وفيما يكونه في النفس المتلقية من صور ورؤى يهتز لها السامع"²، حيث ينتج هذا الإيحاء الصوتي طاقة إيقاعية تهز المتلقي، كما أن "إيقاع الشعر يجيء من تردد زمني يمتع الأذن"³، تردد متناسب بشحنات دلالية تترجم شعرية، تعطي للتركيب أسرارها الجمالية، وتتوفر نصوص النهج على زخم إيقاعي دال، لأن طبيعة الخطاب ومقاصده تفترض مثل هذا الحضور الجمالي بفاعلية البنية الصوتية، والإيقاع وارتباطاته الدلالية، متجلية في:

1- نسق التكرار: إن اللغة هي انتظام لترددات صوتية وإيقاعية، أو ترددات نظامية، هي بمثابة النسق، أو البنية التي تتكرر مع كل انتظام، وهي تبرز قوة المبنى وتنوعه الحيوي، وتكشف عن شعرية مغذية للدلالة، بهذه الطبيعة التكرارية، "فالنسق ظاهرة تتضح من خلال التميز والتكرار"⁴، بأسلوب لافت يستدعي النظر والتأمل لمعرفة أسرار تشكيله، وقيمته في إبراز الدلالة. ويقدم لنا التكرار في نهج البلاغة تصورا دقيقا عن تجليات لحظة الخطاب وملاساته، يقول ابن الأثير: "واعلم أن هذا النوع من مقاتل علم البيان، وهو دقيق المأخذ، وحده هو: دلالة اللفظ على المعنى مرددا"⁵، وهذا نظرا للقيمة الإضافية التي يعطيها للتركيب، حيث تبعده عن الحشو والإطالة الزائدة، بمعنى أن التكرار وظيفة فنية مبرزة لفاعلية الخطاب، تمد الدلالة بطاقة وزخم، كما تضيف طبيعته النسقية جمالا مؤثرا في المتلقي، وعليه فإن التكرار الذي نصادفه في النهج يصبح دالا على تأكيدات ضرورية يدور حولها الخطاب، فهو حالة تعبيرية بلغة جمالية ثانية محفزة ومنشطة وموجهة لتلك المقاصد الدلالية، يقول الإمام: "أيها الناس الزهادة: قصر الأمل، والشكر عند النعم، والورع عند المحارم، فإن عزب ذلك عنكم، فلا يغلب الحرام صبركم، ولا تنسوا عند النعم شكركم، فقد أعذر الله إليكم بحجج مسفرة،

¹ - ينظر مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب، ج2، ص 314.

² - نوفل هلال أبو رغيغ : المستويات الجمالية في نهج البلاغة، ص 62.

³ - جون كوهين : النظرية الشعرية، بناء لغة الشعر، ج1، ص 114.

⁴ - مصطفى السعدني : المدخل اللغوي في نقد الشعر، ص 105.

⁵ - ابن الأثير : المثل السائر، ج2، ص 146.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

ظاهرة، وكتب بارزة العذر واضحة¹، وكأنه أراد به: أن الزهادة هي قصر الأمل، وهي الشكر، وهي الورع، والهدف من وراء تكرار هذه الجمل بناء المفهوم، بمكملاته ومكوناته من خلال هذا التفريع. إن تكرار المعنى يعطي تركيزا كبيرا لبؤرة الكلام الذي تنطلق منه الدلالة، ليزيد الخطاب فاعلية وتأثيرا، كما أن قصر العبارات يجعلها حاملة لإيقاع دال بطاقته وجماليته، ويعطي عطف هذه الجمل الاسمية تشخيصا يصور هذا المفهوم، ثم إن تباعد دلالة هذه الكلمات (الأمل، الشكر، الورع)، هدفه توسيع دلالة مفهوم الزهادة بتدقيقه وإحالاته على مخرجات سلوكية، حيث يتماس الإنسان في واقعه معها، وتزاحمه على ترسيخ هذه القيمة، فهذا العطف يمنح مصدرا إضافيا لتجميع الطاقة الإيقاعية والبعد الدلالي الذي تتطلبه الرسالة الكلامية، ويستأنف الإمام الكلام: "فإن عزب"، استئناف بياني دال اعتمد فيه الطبيعة الفعلية في مغايرة أسلوبية لطبيعة التركيب الاسمي الأول المتجانس مع الوظيفة التعريفية للزهادة، وفي سياق شرطي إمكاني هدفه إعطاء حد آخر لمعنى الزهادة بوصفه مقاما عرفانيا خاصا لا يقوى عليه إلا أهل المجاهدة، فأمام مزاحمة العوارض والأهواء الغالبة يتعين الأخذ بحده الأدنى، وربما يتوافق هذا مع طبيعة الخطاب الذي بدأ بالنداء الدال على العموم "أيها الناس"، فحدد بهذا زهد العامة، في اجتناب المحرمات، وشكر النعم، وهو كفاية دالة. نستخلص من هذا أن الزهد حتمية واجبة في حق كل إنسان بجدها القليل، وفي هذا التركيب الذي تطلب جوابا، موسعا بالعطف والنهي، لتفعيل الدلالة، حيث يزيد النهي من أحداث خلخلة الموقع، مما يستدعي توقفا دالا، لأن الغاية هي معرفة الحد الثاني من الزهد، وأردف كل هذا بكلام هو بيان توجيهي قصد الأخذ بالزهد، وقد تكرر فيه الفعل "أعذر" بالاسم "العذر"، تكرر باللفظ، لإجلاء الصورة، وتكرار بالمترادفات: "مسفرة، ظاهرة، بارزة، واضحة"، يحدث إيقاعا صوتيا مفعلا لدلالة هذا التوجيه: "حجج، كتب"، مما يعطي فاعلية لهذا التكرار وإيحائه الجمالي، وتسهم السجعة التي تنتهي بها تراكيب الكلام وخاصة روي الميم في مد البنية الصوتية بطاقة إيقاعية، ليصبح هذا التنعيم الذي يتكرر، يشد الوظيفة السمعية للمتلقي، لينفتح على دلالة النص وإدراك المقاصد²، بحيث تضعه هذه الفاعلية الناتجة عن هذا النسق التكراري أمام إمكان تأويلي حقيقي، بفعل كسر نمط التشكيلات التعبيرية، تقود إلى أفق يحتاج مؤولا، بفاعلية القراءة والتلقي الجمالي.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 100.

² - ينظر نوفل هلال أبو رغيف : المستويات الجمالية في نهج البلاغة، ص 72.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

وقد استطاع الإمام بفعل هذا النسق الحيوي لطبيعة التشكيل أن يخرج مفهوم الزهادة من المعنى السطحي الذي يتعارف عليه الناس، حيث يحتاج إلى وقفات مع كل بنية صوتية/إيقاعية/دلالية تتوزع على تضاعيف النص، لإدراك بعد الدلالة، ومن ثم توجيه الأذهان بشد الوظيفة السمعية، فهي تبرز أن لهذا المفهوم إسقاطات وتوابع ومقتضيات، ويقوم النسق بإعادة بناء الدلالة، وعليه فنسق التكرار يعد أداة بنائية تشكل رؤية المبدع نحو حقائق إيمانية يجليها، ومن ثم تحاول اللغة أن ترفع الإنسان من مستوى انتكاس السلوك في الواقع، إلى رسم المثال والدفع إليه.

وفي كلام آخر بينه الإمام وفق نسق تكراري يحمل طابع التوجيه، ضبط الحقائق في العقول، حتى تتوضح للإنسان مدارات انطلاقه، وفق رؤية بصيرة، ليعرف حده، ومساحة المنهي عنه، وفضاء وساعة الحلال، فيقول: "إن الذي أمرتم به أوسع من الذي نهيتم عنه، وما أحل لكم أكثر مما حرم عليكم، فذروا ما قل لما كثر، وما ضاق لما اتسع، قد تكفل لكم بالرزق، وأمرتم بالعمل، فلا يكونن المضمون لكم طلبه أولى، بكم من المفروض عليكم عمله، مع أنه والله لقد اعترض الشك ودخل اليقين، حتى كأن الذي ضمن لكم قد فرض عليكم، وكأن الذي فرض عليكم قد وضع عنكم"¹. تدور تكرارات هذه الفقرة حول معنى الأمر والنهي والحلال والحرام، فكل جملة تتكرر، هي نسق داعم للأخرى، حاملة لشحن إيقاعي هدفه إجلاء هذه الدلالة وكذلك تكرار الحروف الذي يعطي حيوية إيقاعية لكسر رتابة التركيب، خاصة وأن الكلام يدور حول مطلقات إيمانية فلسفية تحتاج إلى إيضاعات جمالية حتى يسهل تلقيها، مع هذا الدفق الصوتي بإيقاعه، نبرزها بهذا الجدول:

الرقم	الحروف	التكرار	الرقم	الحروف	التكرار	الرقم	الحروف	التكرار	الرقم	الحروف	التكرار
1	اللام	34	7	التاء	13	13	العين	7	19	السين	2
2	الميم	33	8	الغاء	14	12	الراء	8	20	الثاء	2
3	الألف	30	9	الياء	15	11	الياء	9	21	الزاي	1
4	النون	19	10	الباء	16	8	القاف	10	22	الطاء	1
5	الكاف	17	11	الذال	17	8	الضاد	11	23	الشين	1
6	الواو	13	12	الجيم	18	7	الهاء	12	24	الخاء	1

إن هذا التوزع الذي شارف 24 صوتاً أعطى حضوراً قوياً للإيقاع، أبعد عن التركيب الرتابة، وعن المتلقي الملل، نظراً لطبيعة الموضوع الذي يحتاج إلى فواعل جمالية، وبهذا يتعزز الإيقاع الصوتي في بث روح شعرية مميزة بطابع جمالي يأخذ بالنفس، ومن الإضافات الإيقاعية البارزة مضاعفة حرف

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 168.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

النون لخمس مرات، ليزيد من فاعلية النسق الصوتي، وتتنوع الحركات الإعرابية للجمل، لتمنح لهذا النسق جاذبية توفر طاقة إيقاعية وجمالية يتطلبها السياق، وتنوع طبيعة تكرار الجمل والكلمات والأدوات، وصيغة "أفعل"، أحدثت جميعها رشقا إيقاعيا، قوت الدلالة وأوصلت المعنى.

ومنح التضاد الذي يتكرر في النص إيقاعا خاصا، بين "أدل، حرم، قل، كثر، ضاق، اتسع، فرض، وضع"، لترسيخ هذه الحقيقة، ومن ثم يدفع إلى إنماء البعد الدلالي الذي يكون التكرار عامله، وسيرا مع هذا التراكم الصوتي نلاحظ التقابلات التي تحدثها شبه الجملة المكونة من الضمير وحرف الجر، وهي: [به، عنه، لكم، عليكم، عنكم]، حيث تمنح إيقاعا منغما داخليا وخارجيا، ليصبح الكلام نظما أكثر شاعرية وجمالا، ولهذا كان للعطف الذي يتكرر قوة في مراكمة البنية الصوتية، بتسلسل دال على قوة موسيقية، ومن ثم دلالية وجمالية، ذات قابلية للقراءة منفتحة على أفق التأويل، في عملية نامية تسند للمتلقي، ذلك أن "أقوى عناصر الجمال هو الموسيقى الكلامية، فهي طريق السمو بالروح، وأعظم سبيل للإيجاء، للتعبير عما يعجز عنه التعبير"¹، وتبقى خفايا كثيرة في النص ينبغي أن تفتح، تستحث المتلقي على جبر هذا بتأول فاعل لهذه الترددات المتواترة.

وما دام الإمام يبحث من خلال شعرية هذا النظم، وبهذا الإمكان التأويلي، عن بناء مفهوم الإيمان، أو لنقل مفهوم المثال بتجلياته المسقط على [الدنيا، الآخرة]، فإنه يدفع المتلقي إلى أن يتحرك في فضاء الحياة، حركة نامية غالبية للأهواء، محققة لتوازن من صراع محتدم بين القوى، وما هو يبين من خلال هذا النسق التكراري صورة إدراكية للدنيا، ويوضح معنى البصير والأعمى، انطلاقا من طبيعة كل رؤية، فيقول: "وإنما الدنيا منتهى بصر الأعمى، ولا يبصر مما وراءها شيئا، والبصير ينفذها بصره، ويعلم أن الدار وراءها، فالبصير منها شاخص، والأعمى إليها شاخص، والبصير منها متزود، والأعمى لها متزود"²، فقد بنى هذا النص على تقابلات دالة، تحدث بتكرارها تناظرا إيقاعيا يزيد من جمالية النص، من خلال تنعيم حادث، وتركيز للدلالة في رؤية الدنيا، من البصير والأعمى، ومحصلة هذا التراكم الإيقاعي تستحث المتلقي لإدراك الدلالة، بتأمل كاشف يؤول ويدرك:

- إنما الدنيا منتهى بصر الأعمى. ← والبصير ينفذها بصره.
- البصير منها شاخص. ← الأعمى إليها شاخص.
- البصير منها متزود. ← والأعمى لها متزود.

¹ - هلال محمد غنيمي : النقد الأدبي الحديث، نخصة مصر للطباعة، القاهرة، 1997، ص 435.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 187.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

فهذا النسق التكراري ذي الطبيعة التقابلية المتوازية يحدث تكراره إيقاعا صوتيا، يحمل شعرية صوتية، كما تمنح هذه الترايب التي تتكرر بشكل دال وبطبيعة توافقية جمالية، يتكسر من خلالها النمط، يمنح فاعلية أخرى للنص، وعليه فإن التكرار يصبح "وسيلة مهمة لاكتشاف أبعاد الواقعة الأدبية ولاحم أجزائها"¹، حيث تتشاكل المكونات، وتتحرك وفق نسق حي لإنتاج الدلالة، فهذا النسق بتنغمياته المصاحبة يستوعب ذلك الدفق الفكري والمعرفي الذي يطلقه الإمام لتشكيل رؤاه.

ويجسد النص الموالي واقعة حية لإطلاق يرتكز على بيان القيمة مصدر الرؤية والبصيرة التي ترى الحقائق واضحة جلية، فيعمد إلى تكرار إيقاعات صوتية، تتمحور حول مركز سابق لها، لفظ الكتاب، ومنه تتفاعل أنساق هذا التكرير لصهر الدلالة، فيقول: "كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، لا يختلف في الله، ولا يخالف بصاحبه عن الله"²، فمركز الدلالة وبؤرتها كتاب الله، تفتح منه سلسلة تكرارات موضحة لدوره ووظيفته، وهذه التنويعات التي تكررت سبع مرات تمنح وقعا جماليا ناتجا عن هذه الشحنة الإيقاعية، ومصدرها تكرار الجملة الفعلية ومتعلقها من الجار والمجرور [= به]، ثم إن نهايات الفواصل تمنح لهذه البنية الصوتية قوة إيقاعية تسهم في بناء شعرية وجمالية النص، في عملية تنامي حي للبنية الإيقاعية بتأثيراتها، مع هذه المجانسة التي تحدثها الحروف كالتاء والصاد والهاء والشين والنون، حيث أن ترددها فاعل في كسر النمط، وتكرار لفظة بعض بزيادة صوتية، تفعل بتراكمها الإيقاع وشعريته، وكذلك السجعة [= الهاء] التي انتهت بها العبارات، كل هذا أعطى قوة لشعرية النظم وجماله، وانفتاحه على عملية التأويل، فالإيقاع الموسيقي "جوهر الشعر وأقوى عناصر الإيحاء فيه"³، قد أحدثته تكرارات تلاحقت بشكل تلقائي أسهمت في تشكيل الدلالة النصية، كما أن للفعلين المنفيين: "لا يختلف - ولا يخالف" في شبه تناظر وبطبيعتيهما الترادفية بالمعنى زادا من قوة الطاقة الإيقاعية.

ويحدث هذا التكرار الأخير الذي نقف عنده وقعا خاصا في النفس، بما يتوفر عليه هذا النسق من دوال صوتية تشكل حزمها الإيقاعية بنية صوتية شعرية، تفصح عن دلالات عميقة، تنسج مع هذه التلوينات الصوتية، المحسدة في النص، فيقول: "وهو في مهله من الله يهوي مع الغافلين، ويغدو

¹ - شطاح محمد وبوقرة نعمان : تحليل الخطاب الأدبي والإعلامي بين النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب، القاهرة، 2006، ط1، ص 132.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 188.

³ - محمد غنيمي هلال : المرجع السابق، 445.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

مع المذنبين، بلا سبيل قاصد، ولا إمام قائد¹، فمن تنويعات الإيقاع الذي يعطي حيوية للكلام، في حديث عن الإنسان الضال عن سبيل الهدى، إلى هذه التكرارات التي تحدث نوعاً من التوصيف الذي يشخص حال هذا الإنسان، حيث كرر قوله ووصفه؛ يهوي مع الغافلين بالوصف يغدو مع المذنبين، فيجمع صفة الغفلة، وإتيان الذنوب، والمهل من الله، في دلالة على بعده عن الله، ويزيد التكرار الموالي من هذا التوصيف، بلا سبيل قاصد، ولا إمام قائد، للتعبير عن أحوال التيه والبعد، ومن النسق المغاير الجناس في قوله "قاصد، قائد"، يلخص رحلة الضياع في الحياة، وهذا التقليل بين: "مهله-يهوي"، يمنح حرف الهاء توافقاً صوتياً، يسهم في بناء الإيقاع ومدته بزخم قوي، وقد تكرر أربع مرات، ينمي في النهاية البعد الإيصالي، وقبله الإيقاع الجمالي الذي يسهم في بناء الدلالة التي عملت هذه العناصر المتكررة على صهرها، وكما يقول "ابن الأثير": "فأنظر إلى سوابقه ولواحقه، لتتكشف لك الفائدة منه"²، فموقعية هذه الظاهرة من الكلام تلقي بظلالها بهذا الإيحاء الجمالي وتكثيف الدلالة وتركيز شعرية الكلام، وتكريس هيمنة البنية الصوتية، المشعة بطاقة إيقاعية تأثيرية، وعليه يصبح هذا النسق التكراري الوظيفي طريقة نظمية تجمع إلى مختلف التشكيلات الإيقاعية لإعطاء أبعاد الدلالة، وشد انتباه المتلقي، ليتفاعل مع الفضاء النصي، مؤولاً لأسراره الجمالية.

2- نسق التضاد وجماليته: تتنوع الأنساق اللغوية في تراكيب الكلام، وهو الأمر الذي يمنح خصوصية النظم ويفرز شعرية النص وجماليته، يقول الجرجاني: "و ضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه/ موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض"³، فهذا التنوع الحي له فاعلية تنتج عنه قوة الخطاب، والأکید أن هذه الأدوات الفنية، بلمحها التعبيري الجمالي، تسهم في بناء رؤيته الفنية، ومن هذه الأنساق الحيوية التي يحتاجها الخطاب ظاهرة التضاد منشئة هذه البنية الصوتية، أثرها الإيقاعي بجماليته، وفاعليته الدلالية، وينهج الخطاب الإبداعي إلى هذه الخيارات الأسلوبية، قصد إحداث أثر بين في نفسية المتلقي وهزه، ليتفاعل مع أسرار شيفرة النص الجمالية، فنسق التضاد يستند إلى النظام الثنائي يبرز به المبدع هذه التناقضات الحيوية، ليضعها في قلب الرؤية الفنية للنص. وقد عرف النقد العربي هذا في مبحث الطباق الذي هو "قرن الشيء بضده، أما المقابلة فهي طباق

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 188.

² - ابن الأثير : المثل السائر، ج 2، ص 149.

³ - عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص 262.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

متعدد، ومن شأن هذا التضاد أن يزيد الفكرة وضوحاً، وأن يزيد المعنى تأثيراً، إذ تبدو صفات كل من الضدين، أو الأضداد أوضح وأقوى وأبرز¹، بمعنى أن الدلالة تكتسب أبعادها من خلال هذا الإيضاح الجمالي والإيقاعي الفاعل، كما "يراد به مقابلة الكلمات من حيث التضاد"²، وهو ما يعطي للنسق هذه الطاقة الإيقاعية والأسرار الجمالية التي تمنحها هذه الظواهر المنتشرة في النص.

يقدم الإمام في نسق من التضاد قائم على طباق يبرز من خلاله حركة الزمن الضاغطة على الإنسان، أين يتجه إلى نهاية حتمية له، في سياق دال قابل للتأويل، يمثل لافتة موجبة للعمل والاجتهاد، أمام طبيعة هذا الصراع القائم، فيقول: "وطالب للدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وعلى أثر الماضي ما يمضي الباقي"³، وتبرز هذه التضادات وضع الإنسان في الحياة، حيث يأمل فيها ويغفل عما ينتظره، وفي طيات الزمن يختفي مطلبه، ويبني هذا النظم بأركان ثلاثة تمثل أحجار هذه الطبيعة النسقية لخلق شعرية النص وجماليته، وينفتح بدلالته العميقة على آفاق التأويل، وشحن الكلام بطبيعة إيقاعية قوية، تتقابل لإنتاج الدلالة النصية، وهي تتوزع كالاتي:

1- طالب للدنيا ≠ والموت يطلبه.

2- غافل فيها [= الدنيا] ≠ وليس بمغفول عنه [فيها].

3- على أثر الماضي ≠ ما يمضي الباقي.

وهنا تتعاكس الدلالة، لتمنح هذه الطبيعة الضدية نتائج متغايرة، واحدة كامنة في خلد الإنسان، والأخرى هي في طي الزمن والغيب، وهو ما يدعو إلى مثل هذه الوقفات، ليتم كسر توقع أفق المتلقي، ويحدث إلفاتا ضرورياً، يحقق طاقة إيقاعية ويضعف الدلالة مع هذا التحفيز، فالركن الأول يكون طالب الدنيا في مواجهة مع الموت الذي يطلبه، فتتغاير نتيجة الطلب التي يعطيها اسم الفاعل "طالب" شحنا دالاً على تفاعل وحضور بارز في طلب الدنيا، إلا أن جملة التقليل تحدث عكس هذا التوقع، بدخول عنصر بنيوي جديد هو "الموت"، مع الفعل "يطلب"، ما يدل على حث بين، يزيد من فاعلية هذا الإطلاق الدلالي، وهو ما يثمر كسراً وتوقعاً ثانياً يتطلب وقفة دلالية/جمالية أخرى، فالطالب ويطلب، يتقدمان في اتجاه متعاكس نحو بعضهما، مما يضعف من خلق التوترات، وينمي طاقة الإيقاع، ومع الركن الثاني يحصل تضادا آخر بين غافل ونقيضه الذي

¹ - الحوفي أحمد محمد: بلاغة الإمام علي، نخصة مصر للطباعة، 2005، ط3، ص 165.

² - محمد محمد أبو موسى : البلاغة القرآنية، ص 588.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 145.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

ورد بصيغة النفي + حرف الجر الزائد + شبه الجملة، مما يضع الإنسان [= المتلقي] في أجواء أكثر شحنا، تترجم إيقاعا صوتيا بليغا يحدث هو الآخر وقفة دالة تستدعي مواجهة ذهنية لإدراك الأسرار الجمالية التي نمتها طبيعة هذا النسق من التضاد بشعريته الدلالية وطاقته الصوتية الحادثة، أما الركن الثالث من هذا الكلام، فهو يؤشر إلى تعاكس جديد، يمتد من خلال عملية التضاد في إحداث تراكم صوتي يقوي البنية الصوتية بأبعادها الدلالية، ينميها عامل الزمن الذي يمضي إلى نهايته، فعلى أثر الماضي منه يمضي الباقي، ويبنى الإمام هذه الشعرية المستفزة بهذه البنية، بأسلوب طبيعته إلحاق الثاني بسابقه، وهذا ما يخلق توقفا ثالثا بتواتره المستحثة، ليزيد من هذا الجذب بإيقاع جمالي بطاقته وفعاليتها، والأکید أن هذا التحول النسقي بتأثيراته الإيقاعية والجمالية قد عمق الدلالة، وكثف المعنى ووطنه، "لأن هو هكذا، لغة الكثافة، فن الجدة، تقنية الإنعاش، أو من باب أولى إعادة الإنعاش لهذه الطاقة الأصلية للغة التي كبحها النثر، وما عدا ذلك ليس أدبا"¹، وكما اعتبرنا سابقا أن لغة الإمام هي لغة الاستعادة التي تتحرك من خلال هذه الجمالية الرفيعة، وما هذا الإيقاع إلا وسيلة لجعل هذه اللغة استثنائية، ذات خصوصية شعرية، وبهذا النسق من التضاد يقدم عملية الطي التي تأتي على الإنسان، وتلفه بإحاطة لا مفر منها، ولهذا يصبح لإيقاع التضاد قوة إنتاج الدلالة، من خلال تداخل هذه التكرارات، كما يؤكد على تلازم البعد الدلالي والخاصية الإيقاعية، أثمر هذه الحمولة الكثيفة التي بنيت بطريقة دالة على متعاكس في نفس الإنسان، والمطلق الأبدي، فكان اقتصاد الطاقة، مع الطاقة الإيقاعية مع كثافة الدلالة، وبهذا تلاحمت العناصر لتستفز المتلقي، بما حوته من أسرار تعبيرية جمالية وشعرية، غايتها رسم صورة إيمانية عقديّة.

ومما يلفت انتباه المتلقي في طبيعة المقولة النسقية، أنها ذات طبيعة تناظرية وتكرارية، الأمر الذي يضاعف إيقاعها ويزيد من جماليتها، فهذا التناظر يقيمه الإمام بين: (وطالب للدنيا= الموت يطلبه)، و(غافل = وليس بمغفول عنه)، و(على أثر الماضي = يمضي الباقي)، فهذا التناظر بتضاده وإيقاعه، يعني " أن تبدال الكلمات مواقعها راسمة صورة جديدة هي من ألفاظ الصورة الأولى التي سبقتها"²، بحيث يضاعف الطاقة الإيقاعية ويكثف دلالة النسق، ويزيد التكرار الحادث من هذه القوة "طالب/يطلبه، غافل/ليس بمغفول عنه"، وكأن هذه المقولة تنفلق من بؤرة، وتكرار المفردات يكتمل النسق بطاقته ودلالته، فقد أسقط المتضادين على محور تتكرر فيه مفردات (طالب، غافل،

¹ - جون كوهين: النظرية الشعرية ج 2 ، ص 468.

² - نوفل هلال أبو رغيف : المرجع السابق، ص 76، 77.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

ماض)، ومع تضاد التركيب بتشكيله، تحصل الوقفة في النص، لتجذب القارئ وتشده إلى موقع جمالي يتطلب تأويلا وتأملا عميقا بين ما يستقر في نفس المتلقي، وما يلازمه من رؤية للعالم والزمن، وما هو مقبل عليه من طي الغيب، ليهتدي إلى إدراك نوعي بصير تتحدد معادلته بشكل واضح.

تمتلك اللغة دائما طاقة هائلة تفجر المعنى بطرق كثيرة، بالأساليب التي تتشكل بها رؤية المبدع، واستكمالاً للبيان السابق في محاولة منه التعرية وكشف الأحوال، تشخيصاً وتحلية ملفتة، يقول الإمام: " فلا يغرنكم كثرة ما يعجبكم فيها، لقللة ما يصحبكم منها"¹، فكثرة الإعجاب بما يوجد في الدنيا من صور مفتنة وزينة مغرية، يقع في تضاد مع ما يصحب الإنسان منها، في دلالة هادفة إلى التزهيد في مفتتها، في سياق ينطلق من جملة فعلية ناهية تنفرع إلى تضاد جاء في صيغة تناظرية توازت فيها عبارتان دالتان: فلا يغرنكم : (كثرة = لقللة)، و (ما يعجبكم = ما يصحبكم)، و (فيها = منها)، حيث تتكرر الصيغة متساوية ومتوازية لتمنح طاقة صوتية، يفعلها إيقاع التناظر، وتكرار المفردات، وكل هذا يبدأ من النهي الذي صار رأس هذا النسق من التضاد مما يعطي قوة إيقاعية، تنمي الدلالة التي تتحرك من خلال شعرية التضاد لتمنح جمالا للمقولة، وتفتح باب تأويل الكلام، وتدفع المتلقي إلى تأمله، وهذا ما أحدثته الوقفات الصوتية، والخرق الدلالي في الكلام، "فلا يغرنكم"، لتوقف الذهن بعدها ليتأمل هذه البنية الصوتية الناهية التي تنبه لما يأتي بعدها، إلا أن هذا النهي لا يتخذ طابع نهي عن إثم أو فعل سيء: "لا تسرق؟! وإنما عن "كثرة ما يعجب"، مع المضاعفة الآتية من البنية الصوتية، "قللة ما يصحب"، وكأنها بيان لعللة النهي السابق تفصح عنه اللام الجارة، ذات الدلالة التعليلية، وبهذا الخرق في النظم ومساحته الجمالية يسحب الإمام المتلقي إلى فضاء آخر يتعين أن يدرك، ولاشك أنه دلالة عميقة تدرك بتأول هذا النسق، ينبغي أن تشغل الإنسان نفسه بعمل الصالحات، وتقع إشارات الضمنية في مستوى الدلالة العميقة، دلالة الأمر على إتيان الصالحات، في تضاد باطني يقف في مواجهة مع النهي الظاهر في البنية.

يقوم نسق التضاد بكشف الدلالة، وإخراج الفاعلية اللغوية إلى حيز الوجود من خلال تفعيل البنية الصوتية، في سياقات تعبيرية موضحة، ومقوية للمعنى، ودائما مع تأملات الإمام في حال الدنيا، يصور الإمام حال الذهابين عنها، في وضع يدعو إلى التبصر واليقظة، فيقول: "جميع وهم أحاد، وجيرة وهم أبعاد، متدانون لا يتزاورون، وقريبون ولا يتقاربون"²، فقد حاول الإمام من وراء هذا تصوير

¹ - علي ابن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 149.

² - المصدر نفسه، ص 164.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

حال الموتى في قبورهم فجعلهم موضعا للتأمل والنظر، حيث اجتمعت المفردات المتضادة على تشخيص حالهم وإبرازه ناطقا، وتعطي الطاقة الصوتية لبنية التضاد إيقاعا خاصا يوحي بوحشة أهل القبور، ونلاحظ طبيعة الكسر الذي يحدثه الضمير الفاصل بين التضاد، فكلمة "جميع" تفتح دلاليا على وصف حال، كقولنا: "جلوس مع بعضهم" أو "نائمون"، إلا أن الضمير "هم" يصدم المتلقي، فيأتي بخارق لغوي يتوضح بالتضاد "آحاد"، كاشفا عن حالهم، مما يفعل الطاقة الإيقاعية من خلال المد الصوتي في الألفين، وكذلك مع "جيرة" و"أبعاد"، خرق يدعو إلى تأمل، فالضمير "هم" يمنح شحنا خاصا، وشعرية وطاقة إيقاعية مضاعفة بالتكرار لتصبح جمالا دالا، وتضاد الكلمة يحقق نغما وموسقة، تزيده السجعة قوة وحضورا، ومن ثم تأثيره في المتلقي، وهكذا تتآزر الكلمات لإحداث الإبلاغ الفاعل في كل لحظة من لحظات هذا التلقي، ومما لا شك فيه أن هذا التضاد القائم في مفردات العبارة: "يضاعف الشعور بإيقاعية اللغة في النص فضلا عن العبارة الأخرى"¹، فالبداية بالركن "جميع"، الدال على الجمع الموحى بالاجتماع، يتحول مع الضمير "هم" والدال "آحاد"، إلى دلالة الفرقة والوحشة، ومن ثم فهم "جيرة وأبعاد"، كما كانوا "جميع وهم آحاد"، هذا الأمر فعلته التكرارات الصوتية لتواتر شبكة الحروف المشكلة لهذا النسق، ومجموعها 16 صوتا تكررت ما عدا الحاء والزاي، مع طغيان للألف ثماني مرات، وكذلك الواو، والميم والنون والراء أربع مرات، ما يعزز البنية الصوتية، ويثمر إيقاعا يوحي بأجواء الوحشة والحزن، يلقي بظلاله على الجانب الدلالي للنص وملمحه الجمالي، وهكذا يتصاعد الإنماء الدلالي، ليصور التضاد مشهدا مشخصا ومجسدا لأحوال أهل القبور، حيث تجمعهم الوحشة والفرقة والغياب، فهم "لا يتزاورون ولا يتقاربون"، والغاية هي تحفيزية تذكيرية، منشطة للمتلقي، ليعمل على تفادي مثل هذا الحال، وكأن ظاهر هذا النسق من التضاد بما يحمل من فاعلية إيقاعية يطلق الفاعلية الدلالية على كل احتمال للتأويل في إشارة إلى العمل الصالح أنيس أهل القبور في وحشتهم، هذا البعد الدلالي الغائب، تستحضره بنية التضاد وإيحائها الجمالي.

يقول الإمام في وصف الزاهدين، كاشفا حقيقتهم من خلال نسق التضاد بجماليته وتحفيزاته: "إن الزاهدين في الدنيا تبكي قلوبهم وإن ضحكوا، ويشتد حزهم وإن فرحوا، ويكثر مقتهم أنفسهم، وإن اغتبطوا بما رزقوا"²، حيث يبني فاعلية هذا الإيقاع على التركيب، بتحويلاته الوظيفية، "فتبكي

¹ - نوفل هلال أبو رغيث : المستويات الجمالية في نهج البلاغة، ص 81.

² - علي ابن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 166.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

قلوبهم" جملة فعلية واقعة خبرا للناسخ، قد ضادها الإمام بقوله: "وإن ضحكوا" جملة مصدرية تعليلية سياقها اعتراضية، ويفعل هذه الطاقة الإيقاعية الدلالة الكنائية "تبكي قلوبهم" بتشخيص المشهد، وإحداث وقفة دلالية، وهي ضرورية ليكون الخرق اللغوي فاعلا في النقلة، هذه الزيادات في الكلام تمنح تراكما في الإيقاع وقوة في الدلالة، لأن "اللغة بالإيقاع والتصوير هي ما نسميه لغة الشعر"¹، ف لغة الإمام، هي لغة الجمال الحي، حيث نرى كيف تبني هذه المقولة على ثنائية ضدية من المعاني: (تبكي قلوبهم = وإن ضحكوا)، و(يشند حزنهم = وإن فرحوا)، و(يكثروا مقتهم أنفسهم = وإن اغتبطوا بما رزقوا)، فأى وصف هذا الذي تقيمه هذه الصياغة اللغوية، وبينه التضاد؟!

إن هذا النسق الإيقاعي للتضاد يكشف حمولة من الحقيقة الإيمانية الثقيلة التي يكون عليها الزاهد في ظاهره وباطنه، تضاد يفرض نعمه الإيقاعي، وبعده التأثيري في المتلقي، ومما يزيد هذا النغم قوة، تكرار الحروف والصيغة التركيبية المكونة من: "إن والفعل"، مع الأفعال "ضحكوا، فرحوا، اغتبطوا"، وهو تكرار بحمولة إيقاعية جمالية، فالتكرار يمكن أن يؤثر "على مجمل الملامح الصوتية الملائمة، أو غير الملائمة"²، يؤدي إلى توفر البعد الشعري والجمالي للنص، ويقود إلى تقديم توصيف لأحوال الزاهدين المتغيرة مع الآخرين، ذلك أن: ضحكهم الظاهر يتعاكس مع حزنهم الباطن.

إن هذا المعنى العميق تكشف عنه هذه الدالات اللغوية، الواقعة في تشكيل نسق التضاد، بدلالته الإيقاعية المحفزة، ويشكل علامة سيميائية تؤول بالتأمل إلى الإشارة الباطنية، فهذا التركيز على هذا الجانب الشكلي في البنية، له مقاصده التأثيرية البليغة في إثارة المتلقي، وتحريك المعنى في داخله، تقوم اللغة بدور بناء المفهوم الجديد بالجمال، والانفتاح على تأويل سيميائية هذه الأنساق.

ينوع الإمام من أدوات التشكيل لبني رؤية جديدة مغايرة، بجمال وشعرية، ولكي يوضح اضطراب الوضع الثقافي والعلمي في النقل، وما أنتج من فتن وصراعات، مرده التأويل الفاسد للنصوص والرواية الكاذبة، قدمه في بنية نسقية متعاكسة المعنى، فيقول: "إن في أيدي الناس حقا وباطلا، وصدقا وكذبا، وناسخا ومنسوخا، وعاما وخاصا، ومحكما ومتشابها، وحفظا ووهما"³، ويعني هذا أن ما بين أيدي الناس ليس هو العلم والحقيقة، ومن هنا تكون غاية هذا النسق إحداث وقفة تأملية، تكسر أفق التوقع، والمستقر في الذهن، وبهذا يشحن الإيقاع بالمد الصوتي، وما يحدثه من

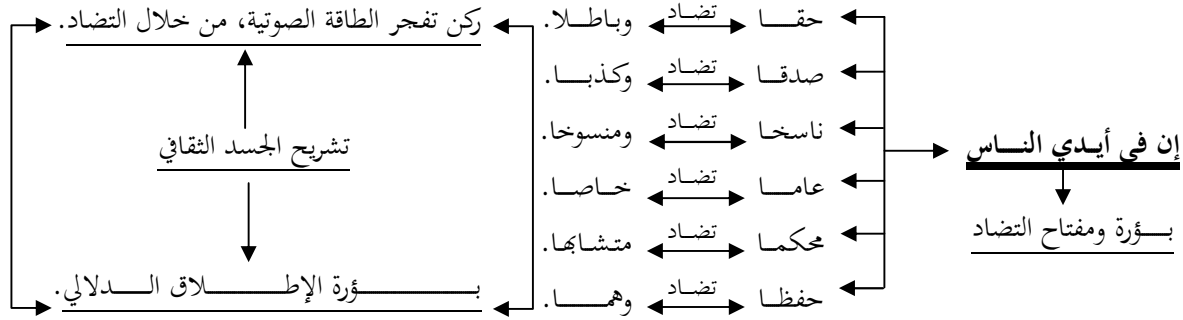
¹ - جون كوهين: النظرية الشعرية، ج 2، ص 468.

² - المرجع نفسه، ص 468.

³ - علي ابن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 302.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

تحولات في الدلالة من خلال الخاصية الإيقاعية، وتحليل النسق بنجده يتركب من بؤرة تنطلق منها مجموع التضادات وتعود إليها، محدثة خلخلة موقعية، تدفع إلى وقفة تأمل وتأويل.



وهذا ما يمنح هذا النسق شعرية، ويؤسس لقوته الجمالية التأثيرية ومن هنا يكون إطلاق الدلالة دافعا إلى فك هذه الشيفرة المعقدة في بنيتها، فهي تدفع إلى ضرورة الرجوع إلى أهل العلم الراسخين فيه، القادرين على تأويل الآيات، فكل هذه التفرعات وبحكم الطبيعة الضدية، تحمل صورة من صور التناقض يشحنها العطف، لينسف ما في أيدي الناس، وعليه "فإن الدلالة بنية ذهنية، يفترض أن دلالة الكلم بنية ذهنية مستقلة عن اللغة الخاصة التي يتم بها التواصل"¹، وهذا ما أحدثه نسق التضاد بطاقته الإيقاعية وخرقه مما يستدعي وجود متلق نوعي مقصود، يعمل ذهنه ويتأمل واقعه، وهذا إلفات ينم عن قراءة بصيرة لواقع ثقافي مأزوم، تأوله الإمام، وشكلت أدوات اللغة، وشعرية التضاد رؤية تتجاوز إسفافه، ويكشف هذا النص عن تداخل صميمي بين المركبات الكلامية، بينه الإمام على بؤرة ركنية، تنطلق منها الدلالة، ويفعل تكرارها المتعكس بالبنية الصوتية بإيقاع شعري جاذب ودال، يقول الإمام: "كانوا قوما من أهل الدنيا، وليسوا من أهلها، فكانوا فيها كمن ليس منها، عملوا فيها بما يبصرون، وبادروا فيها ما يحذرون. تقلب أبدانهم بين ظهراي أهل الآخرة يرون أهل الدنيا يعظمون موت أجسادهم، وهم أشد إعظاما لموت قلوب أحيائهم"²، ويمنح النفي هذا الاقتران في تكرار الكلمة "أهل"، لتصبح تضادا بحمولته الإيقاعية والدلالية، يحدث كسرا في التوقع وخلخلة للموقع، فتتكشف الدلالة من خلال هذه البؤرة المركز، حيث انطلاق المعنى.

وتشكل هذه الطبيعة الضدية حالتين متعاكسين: الحضور [كانوا فيها]، والغياب [كمن ليس منها]، ومن ثم يفك هذا الارتباط بالدنيا، أهل [=ها]، وليسوا من أهلها، فهذا تكرار وتوازي مبني على التضاد، يثبت وجودا وعدمه، لتزداد كثافة البنية الصوتية تناميا، وصولا إلى قوتها الحاسمة،

¹ - جاكندوف راي : علم الدلالة العرفانية، تر عبد الرزاق بنور، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010، ص 25، 26.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 327.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

في خلخلة المعتاد، حيث تتقلب أبدانهم بين ظهري أهل الآخرة، وهذا ركن ثان يصاد الأول وينمي الدلالة، وتتصاعد طاقة الإيقاع محدثة هذا الاهتزاز وضاربة بقوة لتوسع فحوة التلقي، إلى جمالية تهدد الذات المتلقية لتأمل هذا التصوير باللغة، وكأنه يضع مشهدا في الذهن يتقلب داخل الذات، كي تبحث عن وجود آخر باهتزاز جمالي شعري مغاير مستفز، وبهذا يحاول الإمام بفاعلية الإطلاق الدلالي دفع المتلقي ليسافر مع هذه الشيفرات اللغوية، بفاعلية المطلق¹ الذي يتحرك به إلى عوالم الآخرة مسابقا هذا المحدود القائم في هذه الدنيا، وعليه فإن هذا التضاد الذي يتأسس من الناحية الإيقاعية والدلالية على لفظ "أهل"، المتفرعة دلاليا إلى الدنيا/ والآخرة، إنما يجسد هذا الحضور النوعي الإيماني والروحي، يحتاج إلى متلق يتأول إشارات المحفزة على استقبال إشاري بالتأمل.

3- نسق التقابلات والتناظر الإيقاعي: تزخر نصوص النهج بطبيعة تشكيلية متنوعة، وأنساق جمالية حاضرة في النص بقوة، ذات تأثير وفعالية في المتلقي، فالبعد الصوتي يحمل طاقة إيقاعية هائلة موصلة للدلالة، ويفتح عوالمها على إمكان تأويلي مستفز، وهذا ما نجده مع نسق التقابل والتناظر الإيقاعي، والمقابلة قد تكون بين لفظين متقابلين، كما قد تعني الموافقة في نظم الجمل²، فهناك تقابل حيوي يكون بين الألفاظ، بهذا الإمداد الصوتي، الأمر الذي يجعل من هذا النسق بنية كلامية = شعرية حية، ويقودنا الإمام من خلال هذا النص إلى وقفة اعتبارية، يتوجه من خلالها إلى الإنسان قصد ترتيب حياته وضبط سلوكه بأسلوب التقوى، ولكي يمنح لهذه الفكرة قوة شعرية نافذة، أجرى تقابلات متناظرة ومتوازنة، لإحداث شحنة إيقاعية ناتجة عن البنية الصوتية التي تهتز لها نفس المتلقي، فتبادر إلى اللحاق بموقع مثالي وجمالي آخر هام، فيقول: "فاتقوا الله تقيه من قد سمع فخشع، واقترب فاعترف، ووجل فعمل، وحاذر فبادر، وأيقن فأحسن، وعبر فاعتبر، وحذر فحذر، وزجر فأزجر، وأجاب فأجاب، وراجع فتاب، واقتدى فاحتذى، وأري فرأى، فأسرع طالبا، ونجا هاربا"³، تفتح فكرة النص على أفق دلالي له مركز ركني فاعل في توليد الفكرة، وتتصاعد من بؤرتها سلسلة كلامية قائمة على تقابل وتناظر إيقاعي مشع ببنية الصوتية، تتفرغ إلى 14 تفرعة إيقاعية بالعطف، ذات طبيعة متناظرة، تقيه يخصصها الموصول [= من] بما جاء بعدها من تناظر إيقاعي يحمل شعرية صوتية، تحدث تعالقا دلاليا بفعل هذه التنويعات الإيقاعية المفتوحة.

¹ - ينظر نوفل هلال أبو رغيف، المستويات الجمالية في نهج البلاغة، ص 83.

² - ينظر محمد أبو موسى : البلاغة القرآنية، ص 587.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 105، 106.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

ثم إن كل تفرعة لها ناتج حيوي، تنمي البنية الصوتية، وتشحن إيقاع النص، ليعطي شعرية وجمالية، في عملية إطلاق دلالي منفتح على إطلاقية كبرى تستهدف ذات المتلقي، لتجعلها ساجحة في عوالم إيمانية روحية متجاوزة، بفعل طبيعة الاستقامة السلوكية التي تمنحها التقوى، وبالرجوع إلى النص لتفكيك حزمه الصوتية. نجد أن هذا الإيقاع هو ثمرة لتوازن بنية العبارة وتساويها في الصيغة في بعض الأحيان، مثل "اقرتف، اعترف"، مما يمد بطاقة إيقاعية تأثيرية تتكرر مع صيغ أخرى، تتوازن هذه السلسلة المتنامية إيقاعيا ودلاليا، لتصبغ النص بطابع جمالي مستفز بهذا النظم ونسقه الإيقاعي، منشؤه هذه الحيوية القائمة على تقابلات نوعية تتوازي فيها الخطوط في حركة متنامية، "فالإيقاع يعتمد على توازن العناصر، وهو توازن يقوم على مبدأ (التعارض الثنائي)، بين العناصر: الحركة في مقابل السكون، والتوتر في مقابل الاسترخاء، والارتداد في مقابل التعاقب"¹، تعطي وقفاتها مساحة للتأمل، وهي ثمرة لهذا العطف المنفتح المضاعف للطاقة الإيقاعية، بمعنى أن خروج الأسلوب عن نمطه الاعتيادي هو الذي قدم هذه الزخم الصوتي وفاعليته الدلالية، ومن صور الإنماء الصوتي ما تحدثه عملية تكرار صيغة الفعل التي بنيت عليها هذه التقابلات المتناظرة: (سمع = خشع، اقرتف = اعترف)، وهذا ما يجعل الكلام أكثر فاعلية، لأن المراد هو إنجاز سلوكي، يتحقق بالتقوى، وتزيد السجعات بتلويناتها المختلفة في نهايات الكلام طاقة فاعلة، وهكذا نرى أن هذا التفرع التقابلي المنفتح يهيمن على النص ليشكل فكرته ويعطي بعده الدلالي، فهذه التقيية لا تكون إلا بهذا التفرع، ومن ثم ينزل هذا المفهوم إلى مستوى الأداء السلوكي يكون بعده الارتفاع الذي يرفع صاحبه إلى عالم روحي خالص منزه عن مفاسد الدنيا، "ولذا فإن طريقة انتقائه لمادته [المبدع] الفنية، وطريقة تشكيلها تعبران دائما عن هذه الروح الثقافية"²، حيث أن طريقة التشكيل المنتقاة لصناعة الجمال، والتعبير عن الفكرة، بهذا النسق الإيقاعي الفاعل يمنح شعرية للنص، ويفتح إشارات الجمالية على آفاق التأويل، وبهذا يدفع الإمام المتلقي إلى التماهي مع مطلق الدلالة لبناء المثال.

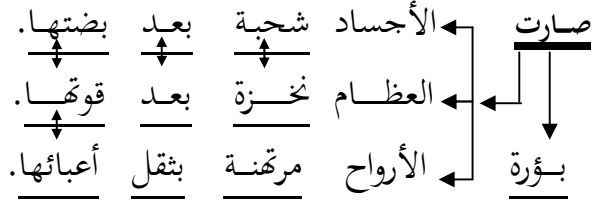
ويمكن أن نرى تحول الفاعلية الإنسانية في الحياة، إلى وضع يصبح فيه الإنسان بالموت عبرة، في جو رسمه الإمام بهذا النسق يدعو إلى التأمل، تكشف عنه هذه التقابلات الثلاثية المتناظرة، فيقول: "وصارت الأجساد شحبة بعد بضتها، والعظام نخرة بعد قوتها، والأرواح مرتحنة بثقل

¹ - الغدامي عبد الله محمد: الخطيئة و التفكير، من البنيوية إلى التشرحية، مقدمة نظرية ودراسة تطبيقية، دار سعاد الصباح، ص 23.

² - كلايف بل: الفن، ص 18.

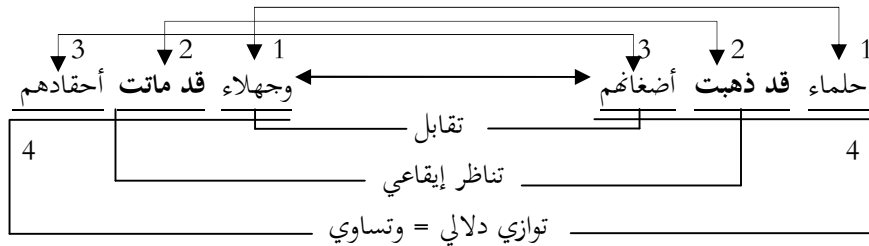
الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

أعبائها¹، فهذا النسق التقابلي المتناظر، نرى أن عباراته متنامية، متساندة في خطوات جلية معبرة عن تحولات نوعية، فهي تمس إذن: (الأجساد = العظام = الأرواح)، مع تشابه صوتي تزيد ألف هذه الدوال البنية الصوتية كثافة إيقاعية، وهذا ما يمنح إمدادا شعريا فعلته طاقة الإيقاع، وتكافئ هذه العلاقة بفروعها مقدمة حزمة صوتية، بانية لنظام إيقاعي نلاحظه من خلال هذا التقريب الشكلي:



لقد كان انطلاق هذا النسق من بؤرة مركز هي مصدر إنماء البنية الصوتية بالفعل " صار " الدال على التحول، وشمولية هذا الأثر الذي يصيب بالموت كامل طاقات الإنسان. إن مختلف التكرارات الحاصلة في التركيب، وما أشاعته من طاقة إيقاعية، والصيغة الصرفية [= نخرة، شحبة] متساوية الوزن، والظرف بعد، والنهايات السجعية بالهاء الممدودة ألفا، لمضاعفة الطاقة وتنغيم الكلام، مع تكرار صوتي للحروف بشكل متناسب، تحدث مضاعفة في البنية الصوتية، لترسم هذا الجوّ الذي يبعث على الرهبة والخشية، وهو تصوير نمته هذا التقابلات المتناظرة، ذات الخطوط المتوازنة والمتساوية، ونرى كذلك هذا الحضور المجازي للكنايات: " شحبة، نخرة، مرتهنة"، بحيث تزيد من تنمية التعبير بشحن البنية الصوتية بإيقاع موح ودال، وهذا ما أبرزته هوية المتحول الذي جاء معرفة، لأنه يعبر عن الوضع النهائي الذي تنتهي إليه الأجساد، هذا الإطلاق الدلالي يدفع إلى التأمل، لأن طبيعة النظم شكلت وقفات مكسرة لتوقع المتلقي، تشعره هذه الطاقة الإيقاعية بجمال يفتح آفاق المعنى نحو البحث عن المطلق الذي يمكن الإنسان من تجاوز الحدود التافه.

يمكن ملاحظة هذا التأثير الحيوي للبنية الصوتية للغة الإمام في قدرتها على تصوير الحقائق وتشخيص المعاني، وكأنه رسم مخيلة بأدوات اللغة، ففي سياق وعظي حكيمي يقول: " حكماء قد ذهب أضعفهم، وجهلاء قد ماتت أحقادهم"²، نسق تناظري بتقابل ثنائي بطاقة صوتية وشعرية:

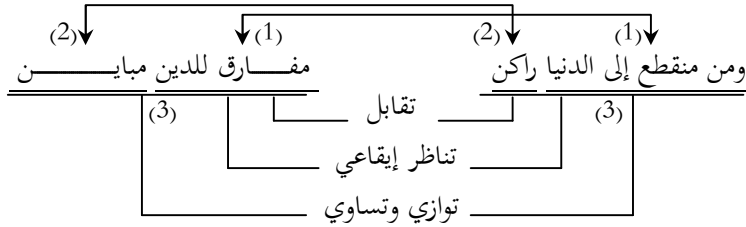


¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 107، 108.

² - المصدر نفسه، ص 164.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

يبرز هذا الشكل قيمة هذا التفاعل الصوتي الذي تقيمه التناظرات الإيقاعية، فالصيغة الصرفية: "علماء - جهلاء"، المتضادة والمتساوية في الوزن والنهائية السجعية مع التقفية، تشع بطاقة إيقاعية منمية للدلالة، وكذلك "أضغانهم وأحقادهم"، ذات التقفية والوزن تفعل الإيقاع وتمنح شعرية مسهمة في بناء الدلالة، وإثمار الجمالية، تدفع المتلقي إلى أهمية إحداث هذا الانقلاب في حياته ليكون حليما سليما في قلبه من الأحقاد، وهذا إطلاق دلالي، يفتح على المطلق، تجسده تمثلات اللغة التصويرية بذلك الخرق اللغوي الدال، الصارف عن إرادة مألوف التعبير، فالبنية الصوتية "حكماء وجهلاء"، موحية بنظم شعري كثيف الدلالة، "لأن اللغة بوصفها إشارة لسانية هي أداة شعرية، بعد أن تخلت عن قداستها التي اكتسبتها من عمقها التاريخي"¹، وهذا ما أراد الإمام أن يمنحه للغة من أسرار وتوسعة دلالية ذات خصوصية تنهض بهذا الإيقاع والتصوير الحي، وعليه "فالنص الأدبي عمل على درجة عالية من التنظيم"²، وتشكيله الفني هو ما يعطيه سره الجمالي، ويمنحه روحا أخرى تجذب المتلقي، وفي توصيف آخر يشخص الإمام أحوال الناس وتبدلها، فهم برأيه صنفان، يبرزه هذا التقابل التناظري، فيقول: "من منقطع إلى الدنيا راكن، أو مفارق للدنيا مباين"³، طبيعته ثلاثية العلاقة، تبنى تناظراتها كما يأتي :



إن حروف الجر التي تتوضع في هذا التركيب [إلى، لـ] تشير إلى مخالفة صوتية دالة مضاعفة لهذا الإيقاع ومبرزة للدلالة، تزيد فاعليته وحيويته عندما يحدد وجهة وخيار الناس، هذا مع نظام السجعة بتنغيمه الدال وما يحدثه من موسيقى جاذبة، ومن ثم يتحدد هذا التقييم المشخص لوضعية اجتماعية فارقة بين صنف المنقطع إلى الدنيا، المباين للدنيا، بتركه شرائعه، وكل هذا يطلق الدلالة بهذه الفاعلية الإيقاعية والصوتية التي تمنح هذه الشعرية بتأثيراتها التي تحتز لها ذات المتلقي، أمام هذا المطلق الذي تفتح عليه هذه الأنظمة الإشارية، أسهمت في مد جمالي منفتح على آفاق التأويل.

¹ - عبد المطلب محمد: مناورات الشعرية، دار الشروق، مصر، 1996، ط2، ص 11، 12.

² - يوري لوتمان : تحليل النص الشعري، ص 201.

³ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 174.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

ويجسد الإمام حقيقة رسوخ الإيمان في ذات الإنسان وانعكاسه على ظاهره في كلام هو أقرب إلى القانون والسنة التي تنتظم بها الحقائق، فيقول: "واعلم أن لكل ظاهر باطنا على مثاله، فما طاب ظاهره طاب باطنه، وما خبث ظاهره خبث باطنه"¹، نسق رباعي ينطلق من بؤرة إخبارية تؤكد هذه الحقيقة، ثم يبدأ النسق في النماء بشكل تقابلي تناظري، وتوازي تساوت فيه الفواصل، مع بروز لظاهرة التكرار الصوتية، وانتهاء هذا التقابل بتقفية ووزن واحد، بتكرار نفس الكلمة والتضادات، بين [ما طاب، ما خبث]، كل هذا يعطي زخما من الطاقة الصوتية الفاعلة، أي أن هذا الإيقاع المتنامي بمواده يرفع هذا النظم إلى مستوى عال من الجمالية، كما كان للحروف التي تردت بشكل متكرر ما عدا الميم والفاء، بين الألف (14 مرة)، والهاء (8 مرات)، والباء (7 مرات)، إضافة إلى اللام والنون والطاء، يكتف البنية الصوتية، ويمنح مضاعفة لطاقة الإيقاع ليزداد جمال النص بهذه الحيوية الصوتية، مما يعطيه مرونة وقابلية لإطلاق هذا القانون في طبيعة نسقية ذات بنية شعرية يفتح لها القارئ، وبالتأمل والتأويل يدرك تلك المطلقة التي يريد المبدع، "وكأن لغة الشاعر ليست لغة للتفاهم أو الاتصال، بل هي معادلات رياضية إلهية الجوهر تفك المغاليق الشاردة"²، تجسدها الوظيفة الشعرية والجمالية، وهي إشارات هذه اللغة السيمائية، وإشارات الكون، حيث يكون لتلاقيه الحيوي = المتلقي معها قد فك شيفرات انغلاق أنظمة الحياة والوجود.

4- نسق السجع والجناس المزدوج: يقول "ابن جني": "وأخر السجعة والقافية أشرف عندهم من أولها، والعناية بها أمس، والحشد عليها أوفى وأهم، وكذلك كلما تطرف الحرف في القافية ازدادوا عناية به، ومحافظة على حكمه"³، وذلك لما يمد به الكلام من بنية صوتية ذات طاقة إيقاعية هائلة تسهم في الإبلاغ والتوصيل، وترفع من القيمة الجمالية للكلام، يقول "ابن الأثير": "واعلم أن للسجع سرا هو خلاصته المطلوبة، فإن عري الكلام المسجوع منه فلا يعتد به أصلا"⁴، لإسهامه في إبراز خصوصية النظم الشعرية، يقول "عبد القادر الجرجاني" في بيان مزية الجناس: "قد يتوهم في بدء الفكرة، وقبل إتمام العبرة، أن الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس، إلى ما يناجي فيه العقل والنفس، ولها إذا حقق النظر مرجع إلى ذلك ومنصرف فيما هناك، منها: التجنيس والحشو"⁵، فهذه

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 206.

² - خزعل الماجدي : العقل الشعري، ص 473.

³ - ابن جني : الخصائص، مج 1، ص 87.

⁴ - ابن الأثير : المثل السائر، ج 1، ص 199.

⁵ - الجرجاني عبد القاهر: أسرار البلاغة، تح محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1991، ص 6، 7.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

الجمالية في النظم لها دور رئيس في تحريك المتلقي وجذبه نحو مقصد الخطاب، يقول "محمد أبو موسى" أن موضعه من النظم: "أن يضعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى، وسداده"¹، ويبرز هذا بشكل واضح في النهج من إتقان بارع، ومن هذه المقدرة نرى دمج النسقين، يقول عبد القاهر: "إنك لا تجد تخنيسا مقبولا، ولا سجعا حسنا، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه"²، وهذا من طبيعة ومقتضيات النظم، لأن الجمال يقع فيه، والمعنى يأتي من طريقه.

تتنوع تشكيلات الإيقاع الشعري في نهج البلاغة مثمرة بنية صوتية دالة، وللسجع بروز لافت فيه، مع اقترانه أحيانا بالجناس، هذا مع ظواهر أخرى تمنح فاعلية إيقاعية جلية، تبرز جمالية النص، وتفتح على آفاق التأويل، يقول الإمام: "جاهل خباط جهالات، عاش ركاب عشوات"³، حيث اجتمعت فاعلية المجانسة والسجعة لشحن البنية الصوتية:

نوعه	نسق السجع	نوعه	نسق الجناس	
اعتيادي	جهالات	اشتقائي	جهالات	جاهل
اتفاق في حرف واحد	عشوات	اشتقائي	عشوات	عاش

ويزيد التناظر الإيقاعي، وتوازي الجملتين من هذا الإمداد الصوتي، وكذلك التضاد: خباط = ركاب، تعبيرا عن آليته، في تنوع البنية الصوتية، مما يحقق الانحراف المطلوب في النظم، ليقدم شعرية تستوقف المتلقي، وعليه فهذا التنوع لمصادر المادة الإيقاعية من خلال البنية الصوتية، تمنح دفعات من الطاقة الفاعلة تؤدي إلى إدراك سره الجمالي، يقول "عبد القادر" مبرزا وظيفة الجناس: "يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفأها"⁴، وهذه الخلخلة المتوقعة، هي التي تجعل الكلام حسنا جميلا، ويدفع الإمام بهذا التحفيز إلى انفتاح الأفق الدلالي على الإطلاق، ثم إلى المطلق، مستهدفا متلقيا نوعيا يهتز بهذه الآليات الشعرية الجمالية، وهذا من متطلب المرحلة وتذهب به نحو أفق تأويلي يصور فيه الناس وضلالهم وخبطهم بعيدا عن الحق، وقد رسم هذا بريشة اللغة، وهندسة بنظمها الجمالي بواسطة هذا النسق، وعليه يصبح هذا القول بفكرته الدلالية الموحية حاملا لتجربة حكمية وعظمية، وبنظمه الشعري، وجماليات الإيقاع الصوتي، صار أسلوبا جانحا إلى الوظيفة المتعالية للغة، الشعرية والجمالية.

¹ - محمد أبو موسى: البلاغة القرآنية، ص 592.

² - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 11.

³ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 45.

⁴ - عبد القاهر الجرجاني: المصدر السابق، ص 8.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

ويصور الإمام في هذه العبارة المختصرة ذات نسق الجناس، وضعا عاما ومناخا مأزوما، دالا على مرض ذاتي مستحکم، فيقول: "أعاليل بأضاليل"¹، جناس ناقص، بحيث تتعلق علل الناس بضالهم، فالعلة المقدمة هي ضلة مستحكمة، والباء هنا تفيد الإلصاق المجازي، تزيد من فاعلية الإيقاع بتوكيدها الأمر في تعلقها مع الصيغة الصرفية لمنتهى الجموع، تجمع كثرة هذا الخبط واستفحاله، والأمر لا ينبغي أن يكون بأكثر من هذا التهوي الفاضح، ويهيئ هذا التوافق في السجعة هذه البنية الصوتية إلى تثبيت طاقة إيقاعية تنغم هذا النسق، وتسهم في بناء الدلالة، وبهذه الشعرية المحفزة والأسرار الجمالية يستهدف المتلقي، لينفتح على الإشارات اللغوية محلا ومؤولا.

ويصور الإمام الدنيا التي خلقها الله ﷻ في صورة عميقة الدلالة، غائرة المعنى، من خلال الازدواج الصوتي لظاهرة الجناس والسجع والتصوير المجازي، فيقول: "خلقت دارا وجعلت مأدبة: مشربا، ومطعما، وأزواجا، وخدما، وقصورا، وأنهارا، وزروعا، وثمارا، ثم أرسلت داعيا إليها فلا الداعي أجابوا، ولا فيما رغبت رغبوا، ولا إلى ما شوقت إليه اشتاقوا"²، وهذا الازدواج نوضحه في هذا الجدول :

نسق السجع			نسق الجناس		
الطبيعة	نوعه	الفواصل المسجوعة	نوعه	فاصلة 2	فاصلة 1
الازدواج	اعتيادي	مشربا مطعما أزواجا خدما	اشتقائي اشتقائي اشتقائي	الداعي رغبوا شوقوا	داعيا رغبت شوقت
		قصورا أنهارا زروعا ثمارا			

لقد كرر الإمام مفردات منتهية بسجعات حاملة لتنغيم منوع، مع طاقة الجناس الصوتية، تجعل من هذا الازدواج بطاقته الموسيقية موحى بالمعنى، حيث يشحن الطاقة الإيقاعية لتكون أكثر قوة وتأثيرا، وهو من خلال هذه السجعات يجعل الصوت ينساب بدلالة شعرية، يكون مجموعها رسما مبرزاً لبهجة الدنيا، ليصبح الإيقاع جمالية هدفها إطلاق الدلالة، وقد أحدث هذا بالخرق الصوتي والمجازي لطبيعة النظم [دارا، مأدبة]، بالصورة البيانية المجازية الاستعارية، كاشفة بعمق عن وجه المشابهة، بين الدنيا التي تستضيف الناس [= فيها]، وما تقدمه لهم من متع وشهوات، وبين مأدبة الطعام التي تقدم للضيوف لمدة منقضية، فالخرق الصوتي بالجناس - السجع، وضع تفعيلا

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 60.

² - المصدر نفسه، ص 158.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

لطاقاة الإيقاع، بحثا عن جمالية فنية، وعليه "فالفن الحي ضرورة"¹، وإطلاق الدلالة من الإمام هو خط تعبيرى، من خلال ظواهر شكلية برؤية فنية تقصد إلى المطلق، أين يضع المتلقي في قلب المطلقة [= الكونية- الإنسانية - الإلهية]، ليمارس حضورا دالا بمقاصده، ويترقى على هذا الاعتبار ويصف في كلام آخر هذه الدنيا من خلال نظام من المجانسة، يزدوج بعملية سجعية، تزيد من تفعيل الطاقة الصوتية، وصولا إلى الجمال، وممسكا بأطراف المعنى، حيث يقول: "ثم إن هذه الدنيا، دار فناء، وعناء، وغير، وعبر"²، وهذا ما نوضحه في هذا الجدول:

نسق السجعة		نسق المجانسة		
نوعه	السجعات	نوعه	السجعات	الفاصلة
اعتيادي	غير	ناقص	عناء	فناء
	عبر	ناقص	عبر	غير

تقوم محصلة هذا الاجتماع الصوتي المتنوع على إمداد الكلام بطاقة شعرية جمالية، تسهم في مركزة الدلالة، وتصور هذا النسق بما يحمله من بنية صوتية ذات خرق دال أن هذه الدنيا مشقة، فهي غير دائمة لها أهل وتعد آية اعتبار. إن هذا الاستنباط هو ترجمة للبنية الصوتية، والإيقاع الجاذب، لتكون أمام إطلاق دلالي يدفع إلى البحث عما وراء هذه الدنيا، وأن هذه الدنيا وسيلة لإعمار الآخرة، ويشكل حضورهما المزدوج، ميل المبدع إلى الاستثمار في البنية الصوتية لدوال اللغة بصبغتها الفنية الجمالية، ومن ثم فطغيان هذه الطاقة يعد فاعلية توصيلية وتصويرية تشخص الحمولات في إطار جمالي مثير³، وهذا ما يحقق ضمان انفتاح النص، وقابليته ليمتد جماليا وتأويليا. ونرى في هذه المقولة كيف ينبه الإمام إلى منزلته انطلاقا من الفاعلية الصوتية التي يجسدها نسق المجانسة والسجعة، في كلام لم يكن ليرز هذا لولا هذه الهيمنة لشعرية الصوت وإيقاعه، فيقول: "وتعرفوني بعد خلو مكاني، وقيام غيري مقامي"⁴، مقولة مجتزئة تختصر رمزية وحضورا دالا، وغيابا يصبح أكثر دلالة، وتبين توزيع هذه البنية، كما هو موضح في هذا الجدول:

¹ - كلايف بل : الفن، ص 272.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 167

³ - ينظر إمام عبد العزيز رضوان بدر : بلاغة الصورة السردية، دراسة في رسالة الغفران للمعري، دار الانتشار العربي، بيروت، 2015، ط1، ص 279.

⁴ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 199

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

نسق السجعة			نسق المجانسة		
نوعه	فاصلة 2	فاصلة 1	نوعه	فاصلة 2	فاصلة 1
اعتيادي	مقامي	مكاني	ناقص	مقامي	مكاني

يحدث هذا النسق الصوتي خرقا دالا يعاكس توقع المتلقي، من خلال بؤرة المقولة: "تعرفوني" التي تنطلق منها الدلالة، بهذا التفجر الصوتي والازدواج ومضادها المعرفي [= خلو مكانه، قيام غيره مقامه]، عندها تنكشف بالمقارنة وبالرؤية والمعانية قيمة ما فقد في إشارة إلى تقدير الناس ومعرفتهم به، ودوره وأهميته في الحضور، نظرا لوجود حوائل مانعة من إدراك منزلته، وقد قام الجناس والسجعة بهذا التقليل، وعليه فإن للسجعة وظائف ذات مسحة سحرية وعجائبية، وكذلك الجناس له قدرة على إيهام المتلقي وتنظيم بنية الجملة، وإحداث تداخل في مكوناتها¹، يزيد من تفعيل الأسرار الجمالية، وينمي شعرية الكلام، بما يحدثه من كسر لتوقع أفق المتلقي وجذبه وسحبه إلى مساجلة نامية، يفعلها التأويل الحي، ليقود الإمام متلقيه إلى مطلقة تبحت في العظمة التي تبني الإنسان والحياة، وتقرأ كتاب الكون، وتفك شيفرة بناء الإنسان بمعرفة معادن الناس خيارهم وأحرارهم.

ويصف المتقين الزاهدين في كلام طويل مملوء بالجمال والشعرية، ليرز ما يقع على عاتق هذا الزاهد العابد الذي سلك درب الحق، وما تتمتع به من أوصاف بلغته هذه المنزلة، في بنية نظامية غلب عليها السجع والتوازي فيقول: "تراه قريبا أمله، قليلا زلله، خاشعا قلبه، قانعة نفسه، منزورا أكله، سهلا أمره، حريزا دينه، ميتة شهوته، مكظوما غيظه"². إن هذه التوازيات التي تنطلق من بؤرة الفعل "تراه" في سلسلة متنامية، تحدث إيقاعا صوتيا جميلا ومؤثرا، تزيد السجعات والتقفية الحاصلة في نهاية هذه الفواصل قوة في مد البنية الصوتية بزخم صوتي كبير، متمثلة في منظومة أوصاف دالة على جوهر هذا الزاهد التقوي، وكيف أخضع نفسه لمنهج منضبط أوصله إلى هذه المنزلة الرفيعة، بحيث توحى البنية الصوتية بهذا الاقتصاد السلوكي للمتقي، في إيقاع يتفجر بالشعرية وقوة الدلالة والتكثف الذي يمنح أسراراً جمالية للنص، تنطلق من خلاله الدلالة نحو المطلق الذي يدفع إليه المبدع المتلقي ويشده إلى آفاق قصية، "فجوهر الشعر انفعال شامل بما حوله من الوجود"³، ولهذا نرى هذا الحضور القوي لعناصر الجمال في نصوص تبتغي غايات بعيدة، لا يمكن أن تتحقق إلا بمتعاليات اللغة، حيث تسحب المتلقي إلى ريادة جمالية في هذا المطلق، بتأويل يقود إلى ارتياد شعري جمالي.

¹ - ينظر إلهام عبد العزيز رضوان بدر : المرجع السابق، ص 279، 280.

² - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 286.

³ - خزعل الماجدي : العقل الشعري، ص 64.

المبحث الثالث: نسق الاستمتاع، وجماليات التشكيل:

أولاً: جمالية المعجم الشعري: يتخذ الإبداع الفني مادته البنائية من مفردات اللغة، بما يتوافق ورؤية المبدع وتصوراته، وينطلق من الذات المبدعة إلى مختلف العوالم، ويحتك المعجم الشعري المختار بالراصد الخارجي، احتكاكا يسفر عن انتقائية دالة، يبرز تفاعل الذات الحي مع فواعل أخرى بنيوية، فكرية ذهنية، وبيئية واقعية، وكونية وجودية، ونفسية اجتماعية، وتاريخية زمنية نسقية، بمعنى أنه يقيم علاقة جوهرية ثلاثية الأبعاد بين الذات المبدعة، والموضوع، والمادة اللغوية [= الكلمة]. إن هذه المكونات التي كانت منفصلة في الواقع تحولت إلى حالة ثانية، للتعبير عن تجربة فنية حققها هذا الانصهار، ومن ثم فالمعجم الشعري "هو كل من كامل مفردات العالم الشعري الخاص، ومعجم قصيدة ما، هو نموذج لذلك العالم الضيق الخاص"¹، وبهذا يتولد المعجم الانتقائي، بتلاحم مادة النص الأدبي/ الشعري، بما يحمله من مخزون معرفي فكري ولغوي ثري، وتشكيلات نسقية تصويرية، وتشابكات عضوية بين مختلف العناصر، وإثراء البعد الدلالي وتطوره، وبهذا يصبح معجم المبدع، من معجم اللغة، عبارة عن بصمة مبدعه، يمثل خصوصية ذاتية نرى تجلياتها في نظمه، وتتجلى قيمة إبداعيته/شعريته في هذه الهندسة من التشكيلات المبهرة المهيمنة على النص، وقدرته على تحويل العناصر المفككة واقعا، إلى بناء متكامل منسجم، ومن ثم تحويلها إلى رؤية جمالية.

يحفل كتاب النهج بمعجمية خاصة، من حيث تنوع مادتها، وقيمة هذه المادة وكثافتها وغزارتها، مما يشكل في النهاية معجما واسعا بجمولة دلالاته²، الأمر الذي يجعل منه كتابا متفردا، كتاب بلاغة الدولة بتعبير "محمد عبده"، أو لنقل كتاب مبدعه: هذا الإنسان الكوني، وكتاب حلمه: "لو استطعت غيرت أشياء"، كتابا مفتوحا يمثل معجمه شيفرات تفتح بالتأويل على قدر واسع من آفاق رحبة، هي في ذاتها تأويلية [= تأويلات الإمام]، يستفز بها متلقيا، ويدفعه للانفتاح على قراءة أخرى، وسياق تأويلي وجمالي جديد، يتجدد بالكلمة كائن المعجمة الحي.

1- البنية الفكرية والدلالية للمعجم: يتأسس المعجم الشعري عند الإمام على رؤية إلهية/دينية خالصة، ويرتكز على كلمة محور [= الله ﷻ] وهي مفتاحه، فقد بلغ تكرار هذا اللفظ [1342]³،

¹ - عزام محمد: النقد والدلالة، نحو تحليل سيميائي للأدب، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، 1996، ص 78.

² - ينظر كاظم محمدي محمد دشتي: المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، بحث حوت مجلداته مادة هذا الكتاب الصغير، العظيم بلوحاته وكثافة لغته ورمزية إشاراته، وعمقه العجيب المبهر، ذلك أن مادة معجمه قد خرجت من التسطیح إلى لغة ثانية، إلى علامة جمالية.

³ - دشتي كاظم محمدي محمد : المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، دار الأضواء بيروت، باب الألف، ص 46.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

وتعد هذه البؤرة المعجمية منطلق الإمام في التعبير وبناء الدلالة، والأکید أن هذا اللفظ الجليل يحمل لوحده شعرية وجمالية نادرة، فهو متفرد عن كل مشاكلة، يمنح استثناسا تستشعره النفس، واطمئنانا ينعكس على الذات، فترتوي روح الإنسان من سره وطاقتاه فتسكن لجلاله، وبذلك يكون المحور الذي تدور حوله الدلالة الكلية، بحيث يحرك الإمام الذات المتلقية إلى أن تتفاعل مع الحقائق والموجودات وفق هذا الإيحاء، والدفع بحركة الإنسان لتكون متجهة نحو المطلق، وعليه "فالكلمة في الشعر أكبر قيمة من تلك التي في نصوص اللغة العامة، وليس صعبا أن نلاحظ أنه كلما كان النص أكثر أناقة وصقلا، كانت الكلمة أكثر قيمة، وكانت دلالتها أرحب وأوسع"¹، وهذا ما يحاوله الإمام أن ينقل القارئ إلى تلك الرحابة، حيث جلال المعنى وكماله ليحصل من أسراره معنى الإنسانية، تتجلى هذه العظمة على إنسانية هذا المخلوق المكرم ليمجد الله ويعظمه ويعبده على يقين، وعلى إيقاع هذا الاسم وجماليته تفتح هذه الذات قارئة مؤولة لآيات العظمة بالحمد، يقول الإمام: "الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصي نعماءه العادون، ولا يؤدي حقه المجتهدون"²، هكذا يعبر الإمام بهذا الجمال عن عجز الإنسان عن أداء هذا الحق، والتماهي الإيجابي بجمالية مع دلائل العظمة، حيث يتجلى توحيدا وعبودية وتأملا وإنسانية، وكل هذا ينبثق من هذه المعجمة ذات الدلالة المطلقة، يقول الإمام: "كل شئ خاشع له، وكل شئ قائم به"³، حيث يجعل "الله" محورا ومركزا لكل الموجودات تدور في مداره لا تخرج عنه أبدا، ومن ثم فإن هذه المعجمة تصبح علامة سيميائية كونية/ إلهية/ إنسانية، ذات طبيعة روحية عرفانية، وعليه "فإن الروحية الخلاقة التي تتناغم مع حركة الكون في وجوده المنفتح زمنيا دون النظر إلى وحدة المكان المحدد تعد المنتج الطبيعي للبنية الشعرية في الخطاب"⁴، وهذه الحركة التي يقيمها الإمام من خلال هذه المحورية المرتكزة على هذا الدال المعجمي [=الله] هدفه بيان العلاقات الحيوية التي ينبغي أن تمنح لمختلف المدلولات، ومن ثم فإن التغذية المعرفية التي تبني المفاهيم والحقائق تستقى من هذا النبع الإلهي، يقول الإمام: "الحمد لله الدال على وجوده بخلقه، وبمحدث خلقه على أزلته"⁵، حيث نرى أن هذا المدار المعجمي هو الذي تبني عليه شعرية نصوص النهج، وبذلك تصبح هذه النواة المعجمية، هي النص

¹ - يوري لومتان: تحليل النص الشعري، ص 126.

² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 17.

³ - المصدر السابق، ص 157.

⁴ - حسين العمري: الخطاب في نهج البلاغة، ص 87.

⁵ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 203.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

الذي يشكل رؤية المبدع، تتنامى منه مختلف دوال المعجم الفني، حيث يضعه الإمام مركزا بفعل قوة الإيجاد، وسنة الخضوع له ﷺ، فيقول: "بان من الأشياء بالقهر لها والقدرة عليها، وبانت الأشياء منه بالخضوع والرجوع إليه"¹، الأمر الذي يجعل من تصور الإمام لحياة الإنسان قائمة على توثيق هذه العلاقة بين الله والإنسان، ووصلها المتجدد عن طريق آليات النظر والتدبر والمعرفة، ثم التدرج والانتقال في المقامات حتى يصبح الوجود الإنساني وجودا إنسانيا جماليا، ووجودا روحيا عرفانيا يبنى هذا التحريك على جمالية شعرية منفتحة ومستفزة للمتلقي، قصد سحبه إلى فضاء المطلق.

ويلفت الإمام إلى أهمية هذا الربط بين الله والإنسان والكون، فيؤكد على مجموعة مسلمات مهينة لأرضية انطلاق الإنسان في الحياة على هاديات إلهية كونية قائمة على معالم سننية جليلة، مثل الربط بين دلائل العظمة والقدرة، وتنزيه الله، وهي دعوة للتأمل والنظر، فيقول: "اللهم أنت أهل الوصف الجميل، والتعداد الكثير، إن تؤمل فخير مؤمل، وإن ترج فأكرم مرجو"²، جاء هذا الكلام بعد سياحة كونية دالة، مجلية لعظمة الخالق، باستنطاق آيات القدرة المحفزة على النظر والتأمل، ويدفع نفي العبثية والعدمية، فيقول: "زعموا أنهم كالبنات ما لهم زارع"³، حيث ينبه القارئ إلى تمثل هذه العلامة السيميائية التي تقود إلى كشف بصير يربط الواحد بالموجود والسبب بالنتيجة، وكذا سنة التكليف بالتخصيص، يقول الإمام: "إن الله تعالى خصكم بالإسلام واستخلصكم له"⁴، تخصيص بالتميز، وحظوة بالاصطفاء والكمال، وفي الإغراء بالامتثال، يقول الإمام: "فالله الله أيها الناس فيما استحفظكم من كتابه، واستودعكم من حقوقه، فإن الله سبحانه لم يخلقكم عبثا، ولم يترككم سدى، ولم يدعكم في جهالة ولا عمى"⁵، حيث تظهر أمانة التكليف الإلهي واضحة، بجلاء مقاصد الخلقة بينة ومرفقات بالعلم وسنن الهداية.

إن معجمة لفظ الجلالة [الله] ﷻ تصبح نسقا يتكرر في كامل نصوص النهج، ومنه يستمد الإمام رؤيته وتصوراته، وعليه فقد صار هذا الدال قطبا لكل المعجم، يصبغ بصبغته، ويأخذ من معناه ودلالته، وهذا ما يسقط على الدلالة الشعرية العامة، وبذلك يمنح جمالية وفنية خاصة مميزة

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 203.

² - المصدر نفسه، ص 137.

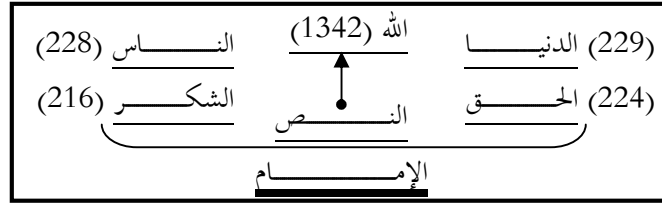
³ - المصدر نفسه، ص 256.

⁴ - المصدر نفسه، ص 204.

⁵ - المصدر نفسه، ص 114.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

لهذا الكتاب، باعتبار "أن الاستمتاع الجمالي في النص يتأتى من حركة الفكرة بين تراكيب النص"¹، وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال فكرة الله التي تشمل مختلف تراكيب نصوص النهج، أين نتبين هيمنة هذه المعجمة بدلالاتها وظلالها على الكتاب كله، من خلال تكرار معجمي آخر يتفاعل مع هذا القطب، حيث نرى تكرار ألفاظ "الدنيا" بتعدد بلغ [229 مرة]، و"الناس" [228 مرة]، و"الحق" [224 مرة]، و"الشكر" [216 مرة]²، ومعنى هذا أن معجم الإمام يتأطر بثوابت وركائز معينة وواضحة تسهم في رصد مختلف شيفرات المعجم الأخرى، وتجذبها نحو هذا المركز، ليصبح بناء بهيكله بينة المعالم، وبهندسة دلالية وفق أنساق وتشكيلات تمنح شعرية النصوص حضوراً لافتاً، وعندما يمتح هذا الكتاب من هذه القطب المعجمي، "فإنما يعني أن النسيج الأساس لنصوص النهج هو نسيج ديني"³، وبهذه الرؤية فإن الإمام يبحث عن تفعيل إدراك المتلقي وتنشيط قدراته، ليصير واعي وجوده، وليرزق من أمامه مختلف المشوشات التي تعطل رؤيته في هذه الحياة:



- مخطط يبرز مفاتيح معجم نهج البلاغة -

لا يمكن أن يكون لمعجمية لفظ الجلالة "الله" قيمة دالة على فاعلية دلالية وجمالية، إلا إذا برز تأثيرها الحي في كامل ألفاظ المعجم وبالأساس الكلمات المفاتيح السابقة بهيمنتها الدالة، فلفظ الجلالة، هو ما يترجم في النهاية صورة الحق والمنهج الذي اختاره الله ﷻ للناس، وعليه فإن الحضور الإنساني في الدنيا له صبغته الخاصة، يمر من خلال قاعدة الشكر التي تعد سنة دالة على عبادة نعمة الإيجاد والتفضل، وبذلك فإن هذه التمظهرات تجلي لنا طبيعة هذا المعجم، "وستكون مصبوغة بصبغة (الله) من جهة أخرى، تلك الصبغة التي تقيم توازناً بين (الدنيا) بصفاتها نعمة إلهية، والشكر بصفته عرفاناً بقيمة تلك النعمة"⁴، وبهدف إعادة صياغة الواقع الاجتماعي والإنساني، وفق هذه الرؤية، وكذا لحركة التاريخ سيرها المثالي، وترفد هذه القيم بمعجم آخر يسهم في بناء هذه التصورات الفكرية والروحية، ومن ثم الدلالية التي هي نتاج لتشكيل معجمي متفاعل، فهي كلمات

¹ - حسين العمري : الخطاب في نهج البلاغة، ص 118

² - ينظر علي مهدي زيتون أدبية الخطابة الإسلامية، مدرسة نهج البلاغة نموذجاً، دار الفارابي، بيروت، 2012، ط1، ص 27، 28.

³ - المرجع نفسه، ص 29.

⁴ - علي مهدي زيتون : المرجع السابق، ص 28.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

مفاتيح لعالم هذا النص الشعري، تظهر مقاصده وغاياته، وتكشف عن كلية الدلالة في النهج، المنطلق بمعجميته نحو المطلق، من بؤرة دلالية واحدة، هي لفظ الجلالة "الله" التي تنفتح على النسيج المعجمي المتنامي، كما يظهر في استهلالات خطبه، ولهذا فما يمكن تسجيله هنا أن معجم الإمام يتمتع بإمكان دلالي كبير، يظهر تنوعه وسعته، وقدرته في منح النصوص ملامح جمالية خاصة، معززة لهذا البعد الشعري الذي يسم هذا الإبداع¹، فقد خصه الإمام باهتمام أراد منه تحفيز المتلقي على تأويل إشاراته، لأن هذا النص [= الكتاب]، هو كتاب للحياة والمعرفة يتعين رصد رموزه.

2- الحقول المعجمية: يتوزع معجم النهج على حقول دلالية، كروافد تسند المركب النحوي وتنميته، تتعالق مع باقي المستويات في صناعة الدلالة، حيث ينطلق الإمام في بنائه من الطبيعة والبيئة والواقع ورصد أحداثه، إلى الموضوعات المتنوعة، إلى أسماء الأعلام التي تشكل فواعل سرد الحدث، ولأنه نص يتمحور حول الله ﷻ معبودا وخالقا، فقد نحا به منحى الفكرة والتصورات، والوعظ والرشد، مصبوغا بطابع الحكمة، وبذلك يتبدى لنا مصلحا ومرييا، أراد إعادة ترتيب الحقائق في النفوس، ورسم حياة جديدة، حياة المثال المتكئة على البعد الروحي:

الحقل	المثال الدال	القراءة التأويلية
الحقل المعرفي	"إن من حق من عظم جلال الله في نفسه، وجلّ موضعه من قلبه، أن يصغر عنده لعظم ذلك، كل ماسواه" ص310، وقوله: "ومن لا ينفعه حاضر لبه فعازبه عنه أعجز" ص174.	يتوزع على فضاءات واسعة من بينها موضوعات المعرفة الإلهية، والزمن والحكمة، وفلسفة الزهد والوعظ والعقل والنفس ومختلف المفاهيم التي أراد تأسيسها وفق ناطقات الكتاب.
الحقل الاجتماعي	"والعرب اليوم، وإن كانوا قليلا، فهم كثيرون بالإسلام، عزيزون بالاجتماع"، ص 196.	تناول فيه قضايا سياسية وقضايا الأخلاق والقيم والدين والحرب والتاريخ، والمجتمع وبنائه الثقافية وعلاقاته ونسجه، ومخاطر عدم تكامله، مثل الفتنة.
حقل الطبيعة	"وكان من اقتدار جبروته، وبديع لطائف صنعته، أن جعل من ماء البحر الزاخر المتراكم المتقاصف، ييسا جامدا، ثم فطر منه أطباقا، ففتقها سبع سموات بعد إرتاقها، فاستمسكت بأمره، وقامت على حده، وأرسي أرضا يحملها الأخضر المتعنجر، والقمقام المسخر، قد ذل لأمره، وأذعن لهيبته" ص305،304.	وقد عالج فيه كونيات مختلفة من أرض وسماء ونجوم وأفلاك، وعالم الطبيعة، وعالم الحيوان والنبات والكواكب والمعادن والجواهر والأماكن.
حقل الدنيا	"إن الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد أحبباء الله، ومصلى ملائكة الله، ومهبط	أخذت الدنيا اهتماما كبيرا من الإمام، وصفا وحقيقة وبيانا، فهي بظاهر يبيد زينتها المغربية، وباطن يغيب عن الأغلب، حيث تنال وصف الاحتقار في بعدها

¹ - ينظر نوفل هلال أبو رغيف : المستويات الجمالية في نهج البلاغة، ص 161.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

الأول، والتحذير من خطرهما في بعدها الثاني، وأرضية بناء الآخرة في باطنهما، وهي نظرة العقل والحكمة.	وحي الله، ومتجر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة" ص 451	
تحدث فيه عن هذا الكائن، من حيث خلقته الجسدية وأمزجته، وقواه الحية، وأحواله النفسية والعقلية، وصوره السلبية والإيجابية، وارتفاعه وهبوطه، وكماله وسفله.	"إنما فرق بينهم مبادئ طينهم، وذلك أنهم كانوا قلقة من سبحة أرضها وعذبها، وحزن تربة وسهلها، فهم على حسب قرب أرضهم يتقاربون، وعلى قدر اختلافها يتفاوتون " ص 329	حقل الإنسان
إن من أكبر تحليلات المعجم الشعري في نصوص النهج لفظة الجلالة "الله" ﷻ، فهو محوره، وركن هذا الارتباط الإيماني والإنساني الكوني، ومن المتعاليات الحديث عن الجنة والآخرة والملائكة والإيمانيات التي تلخص الحالة الروحانية والعرفانية والربانية، مثل الحديث عن الزهاد والعباد والمتقين والأولياء والصالحين، وفي البعد السلي الحديث عن الشيطان والنار والضالين والمنافقين.	"فلو رميت ببصر قلبك، نحو ما يوصف لك منها، لعزفت نفسك، عن بدائع ما أخرج إلى الدنيا من شهواتها، ولذاتها، وزخارف مناظرها، ولذهلت بالفكر في اصطفاق أشجار" ص 227، وقوله: "فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين، وحزما في لين، وإيمانا في يقين، وحرصا في علم، وعلما في حلم، وقصدا في غنى، وخشوعا في عبادة" ص 285.	حقل المتعاليات والهوية الروحية

يشكل هذا المعجم بنية فكرية ومعرفية توّظر المسلك الحياتي للإنسان في انطلاقه نحو المطلق: [الله، الكون، الإنسان]، وعليه فإن خصوصية المعجم تتمثل في انطلاقه دائما من نواة تنفتح عليها الدلالة، يتحرك فيه الإمام من الجزئي إلى الكلي، ومن الكلي إلى الجزئي، ومن البيئة والواقع إلى المجتمع إلى التاريخ إلى الكون، إلى المحبة إلى المعرفة إلى الإلهيات، وإن ربط الإنسان بخالقه هي مهمة الإمام، انطلاقا من الحمد كما تتجلى في الاستهلالات الممجدة المعظمة لله ﷻ، ثم الربط بين دلائل العظمة والقدرة، والتنزيه عن الوصف الذي لا يليق به ﷻ "اللهم أنت أهل الوصف الجميل"¹، فالمعجمة تمثل التوجه نحو التوحيد الخالص، كما أن "الحمد" يكلل مفتاحية الكون، يقول الإمام: "الحمد لله المتجلي بخلقه والظاهر لقلوبهم بحجته، خلق الخلق من غير روية"²، ذلك أن "كل شيء خاشع له، وكل شيء قائم به"³، معجمة عبارة عن جملة سيميائية كونية/إلهية: "سبحانك ما أعظم شأنك"⁴، جملة سيميائية تعظيمية، وبالتأول فإنها تؤكد على أن الإنسان منفعل بهذا التعظيم. نخلص من هذا إلى أن المعجمة هي مادة بناء النظم الفني، والإمكان الجسد لخيارات فنية ونفسية وفكرية وإدراكية وروحية عميقة الغور في النفس، بمعنى أن المعجم ذاتي مركزه النفس، وموضوعي منفتح على الخارج = الواقع أخذا وعطاء وإتماء، وهو ما نوضحه بهذه الترسيمة :

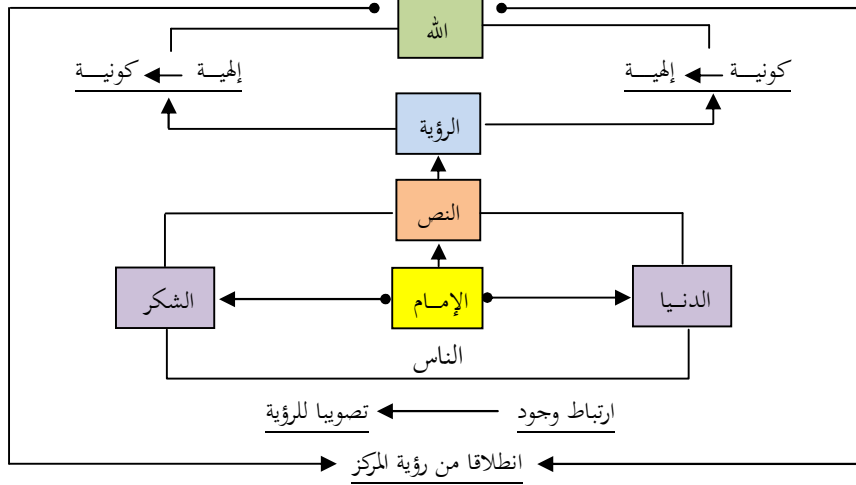
¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 137.

² - المصدر نفسه ص 155.

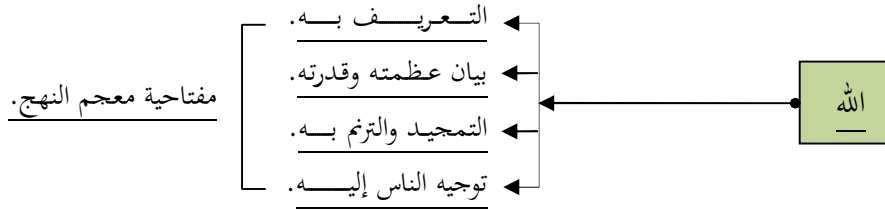
³ - المصدر نفسه، ص 157.

⁴ - المصدر نفسه، ص 158.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة



وكل هذا يتم وفق منهج ورؤية الحق، فوسيلة وأداة الرؤية = تعبدية - إنعام وجود = شكر، ويقودنا هذا إلى إثبات حقيقة تلاقي المعجم - النهج بالمعجم القرآني ومع البيئة، وأما مداره فالله ﷻ :



إن ميزة وخصوصية المعجزة المعتمدة في النهج أن الألفاظ التي اختارتها عملية التداعي لهذا الخطاب الشفوي ذات قيمة عالية، من حيث الجمالية ودقة الدلالة، والتوظيف الدقيق والملائمة الصوتية والموقعية، وأثرها في بناء الصورة الفنية، وجماليات التصوير باللغة، وفتيات هذا الاختيار.

3- روافد المعجم: تتمثل روافد هذا المعجم في:

- أ- القرآن: بألفاظه وصيغته وتضمنياته ورؤيته وجماليته.
- ب- نص الواقع: يتمثل حضور معجم البيئة بكثافته، وارتباطه بالسياق، قراءة وتأويلا وإعادة بناء.
- ج- نص الثقافة: وتمثله نصوص الثقافة واللغة والشعر والأدب، وكذا نص الحديث النبوي. وكل هذا ينم عن أصالة إبداعية، وقدرة وتحكم ومرونة شديدة وفعالية هضم وإبداع.

4- خاصيات المعجم: نحمل خاصيات معجم النهج، في:

- أ- تركزه حول الذات الإلهية "الله" ﷻ، وارتباطه الوثيق بالبيئة والواقع.
- ب- ارتباطه الدلالي بالمطلق، وإطلاقه الدلالي.
- ج- تنوعه واتساعه، ليكون بذلك دالا على شمولية وكونية.
- د- جمالية وشعرية المفردة، من حيث الإيجاء والقوة والملائمة والاختيارية.
- هـ- قوة الرصد ودقته في جذب الشيفرات والعلامات التي تشكل فضاءه.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

و- رفعته، أي اتخذه طريق المثالية أسلوباً، وصبغته العرفانية والروحية والمعرفية.

والأكيد أن تحريك كل هذا يحتاج إلى معرفة متكاملة وفكر حر وحي ورؤية ثابتة تمكن من إدارة هذا الزخم الفكري والمعرفي، وأزمة المستجد بفعل الاحتكاك أو سنة التدافع، لإعادة بناء مسار حركة التاريخ، وهو ما تكشف عنه حقول المعجم المنفتح على الحياة والكون والآخرة.

ثانياً: البنية المجازية وتشكيل المفهومات: يقول "ابن الأثير": "فأما الحقيقة فهي: اللفظ الدال على موضوعه الأصلي، وأما المجاز فهو ما أريد به غير المعنى الموضوع له في أصل اللغة"¹، فهناك دلالة بالحقيقة تقرر بما المواضعة، وهي ضرورة لبناء الدلالة وإقامة التواصل، ويذهب المجاز إلى إرادة تتجاوز هذا الأصل إلى التوسعة في الدلالة وأسرار الجمال، وبرأيه فإن الأمر يعود إلى "أهل الخطابة والشعر توسعوا في الأساليب المعنوية، فنقلوا الحقيقة إلى المجاز"²، بالارتفاع إلى مستوى الفاعلية الشعرية والجمالية، بحثاً عن اقتناص اللحظة الممتعة للإنسان، ولهذا فإن مختلف أنواع المجاز كما يرى "الجرجاني"، هي "من مقتضيات "النظم" وعنه يحدث وبه يكون، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو"³، فالنظم يكشف هذا المنحى الجمالي، لاقتناص تلك اللحظة الشعرية، ولأن الذات تستهدف المعنى الجميل والجميل، فهي ترتاد الأقباصي باحثة عن كنزها وسرها، وكما يقول "المسيري": "لأن التجربة الإنسانية تجربة مركبة، ولذا لا بد من المجاز. ومرة أخرى سنجد أن التواصل بين الإنسان وأخيه الإنسان يأخذ شكلاً حلزونياً"⁴، وبحثاً عن هذا العمق ببعده، يحاول الإنسان = المبدع أن يمنح لحضوره قوة ورمزية ولوجوده معنى، وإن ارتياد هذه الحقيقة يصبح منطلقاً إنسانياً، وضرورة حياتية، ومطلباً كونياً يقلل من هذه الفجوة، ويحقق الامتلاء الذي يبدأ من هذا الأفق العالي الاستمتاعى، إلى مسافات معرفية وتأثيرية وإفهامية تواصلية، أي إلى كونية متجهة نحو المطلقية، باستثمار الإمكان الوجودي الحي.

إن عملية إتمام الدلالة ببعديها الحقيقي والمجازي هام في هذا البناء الذي تتفاعل مقوماته بمظهر الشعر والجمال، يقول "مصطفى ناصف": "ولهذا قلنا إن مفهوم الدلالة الحرفية كان نحياً ضئلاً، فضلاً عن مفهوم الدلالة الاستعارية ذاته"⁵، فهو يؤكد على الخصب الكامن في الداليتين

¹ - ابن الأثير: المثل السائر، ج 1، ص 74.

² - المصدر نفسه، ص 77.

³ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 393.

⁴ - المسيري عبد الوهاب: الحقيقة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود، دار الشروق القاهرة، 2002، ط1، ص 161.

⁵ - ناصف مصطفى: عن الصيغة الإنسانية للدلالة، مجلة فصول، ع02، 1986، القاهرة، ص 94.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

دون تسطيح، فالصورة الأدبية التي يبدعها الفنان هي رهينة بمفارقات نظمية مذهشة ومحفزة للمتلقي، على ارتياد كل إمكان تأويلي، بين فجوات النسيج، وقد سبق وأن لفظ "المحافظ" هذا، فقال: "فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسيج وجنس من التصوير"¹، فتشكيل المعاني في صورة حسنة تلقى الإطراب عند المتلقي هي مهمة الشاعر والمبدع، بحيث يعمد إلى المعاني البعيدة فيعيد بنائها ومنحها حياة جديدة، وبث مثل هذه الروح هو من صميم عملية التصوير التي تحول معهود الأشياء وتقوي أسرارها لتولد ثانية، ميلاد شعر وفن، "فالصورة إذن، حياة الشعر وقوته واندفاعه وكم سيبدو الشعر شاحبا هزيبا عقيما إذا افتقر إلى الصور وكم ستبدو اللغة الشعرية ثرثارة إنشائية لو لم تستفزنا بصورة قافزة نشطة نابجة"²، فالصورة الأدبية هي النقل الحي لمادة الكلام إلى الجمالية المدهشة، وحيويتها تكمن في نفاذها السريع إلى ذات المتلقي، لتمكينه من وعي ذاته وإدراك وجوده. إن تحويل هذا الوجود بزخمه وتنوعه إلى حالة ثانية إبداعية وشعرية، يعبر عن انفعال النفس بالأشياء المحيطة، لإقامة علاقات جديدة حية معها، هي مهمة الصورة الأدبية، وبهذا تصبح بحضورها النوعي في النص وجودا حيا، ومن ثم قدرتها العجيبة على الإدهاش والتأثير، "فالصورة انفعال وفعل، استقبال وإرسال، تتجاوز المطابقة النظرية إلى الأثر العملي"³، وذلك أن الصورة تعتمد على وظائف لغوية رفيعة، فهي إلى الوظيفة الجمالية أقرب، وبالوظيفة الشعرية ألصق، فالصورة التشبيهية مثلا، هي عمل دقيق من المخيلة، ونقله نوعية في الدلالة، وتعديل في الرؤية، ولهذا "فلا يعتبر التشبيه صورة إلا إذا عبر عن خواص تؤدي إلى تعديل رؤية الأشياء"⁴، تمنحها وظيفة حيوية في بناء الدلالة، وإحصاب المعنى الشعري، وتقوم الكناية بالتقاط دوال اللغة، ثم إطلاقها الدلالي، وعنها يقول عبد القاهر الجرجاني: "ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه"⁵، دال لغوي يقصد إليه، وبهذه الإلماحة وخفاء المعنى يكون جمال الصورة وشعريتها، على اعتبار أن "الكناية صورة بلاغية قائمة على تداعي المدلولات"⁶، تحتوي على قدرات هائلة تدفع المتلقي إلى آفاق دلالية، يسحب إليها دالها الجاذب، لأنها جملة ذات طبيعة إشارية تعتمد

¹ - المحافظ عثمان بن بحر : كتاب الحيوان، مكتبة الخانجي، القاهرة، تح عبد السلام محمد هارون، ج3، 1965، ط2، ص 132.

² - خزعل الماجدي : العقل الشعري، ص 276.

³ - حنفي حسن : عالم الأشياء، عالم الصور، مجلة فصول، ع62، 2006، القاهرة، ص 24.

⁴ - خزعل الماجدي : المرجع السابق، ص 256.

⁵ - عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص 66.

⁶ - عمران علي : حجاجية الصورة الفنية في الخطاب الحربي، خطب الإمام علي (نموذجا)، دار نينوى دمشق، 2009، ص 117.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

التلميح، وهي شكل شعري وجمالي لما تتمتع به من بيان عال¹، وأداة من أدوات تشكيل الرؤية الفنية، وأما المصور بالاستعارة فإن عمله يعد مضاعفة في الشعرية، وتوسعة في الدلالة، وإيغالا في الجمالية، ولذا فقد نفى "عبد القاهر" أنها نقل اللفظ، بل "هي إدعاء معنى الاسم للشيء، لا نقل الاسم عن الشيء"²، وهذا يتلائم مع طبيعة القول الشعري، تفتح الدلالة فيه، وتكسب الصورة الاستعارية قوة تأثيرية رهيبية، فهي ذات ظلال نوعية خاصة متميزة ومدهشة، وإمكان جمالي بحمولاته الدلالية، وعليه "فالجوهر البلاغي للشعر إذن هو الاستعارة"³، وروحه التي بها يتنفس.

مصنفات مجازية لحقول دلالية: سنحاول في تطبيقنا العملي لتأويل هذه الأسرار الجمالية للصورة الأدبية في النهج، أن نقوم بتصنيف مختلف المجازات الدالة إلى محاور تعبيرية ارتكزت عليها البنية الدلالية في النهج، مثل الدنيا والفتنة والتحويلات، بهدف إبراز أسرار التشكيل المجازي وإسهامه في بناء الدلالة ومنح جمالية النص، وكى نتبين رؤية الإمام للعالم، وبناء تصوراته لمختلف المفاهيم التي يريد إعادة صياغتها شعريا وداليا بهدف إثارة الذهن ودغدغة عواطف المتلقي وتحفيزه لينشط أمام تلك الوقفات الجمالية التي تدفعه إلى أن يتأمل وضعه الإنساني والوجودي بشكل واع، وإعطاء رؤية متكاملة عن أهم الحقائق والأشياء، نظرة تستهدف هذا المتلقي ليستكمل تلك المشاهد، ويعدل في الصورة قراءة وإضافة وتأويلا واستعادة تصوراتها وتمثلاتها، تنتهي بتشكيل نصوص نسقية مجازية.

1- مجازية الدنيا : كيف يتصور الإمام الدنيا، وكيف يصورها؟

إن الدنيا بفضل الصورة وعمل المخيلة الشعرية تصبح دالا سيميائيا حاملا لشيفرة، ونسقية شعرية خاصة، تكشف حقيقتها، فالدنيا ليست فكرة فلسفية فحسب، وإنما هي حالة موضوعية، لها سيما ظاهرة هي الزينة المستهوية، ولذا يحاول الإمام من خلال تصويره لها أن يتجاوز هذه العلامة، بمعنى أن يقدم قراءة في عمق هذا الدال الظاهر منها، وهي رؤية فنية توصل إلى إدراك دلالتها العميقة، يقول الإمام: "ألا وإن الدنيا قد تصرمت وأذنت بوداع، وتنكر معروفها، وأدبرت حذاء، فهي تحفز بالفناء سكانها وتحذو بالموت جيرانها، وقد أمرَّ منها ما كان حلوا وكدر منها ما كان صفوا، فلم يبق منها إلا سملة كسملة الإداوة، أو جرعه كرجعة المقلّة، ولو تمزّزها الصديان لم ينقع، فأزمعوا عباد الله الرحيل عن هذه الدار، والمقدور على أهلها الزوال، ولا يغلبنكم فيها الأمل،

¹ - خزعل الماجدي : العقل الشعري، ص 256.

² - عبد القاهر الجرجاني : المصدر السابق ص 437.

³ - خزعل الماجدي : المرجع السابق، ص 431.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

ولا يطولن عليكم فيها الأمد"¹، يحفل هذا النص بكم هائل من المجازات التي حشدت لرسم هذه الصورة الفنية لمشهد الدنيا، وبيان حقيقتها، لأن "الصورة المجازية هي جزء أساسي من عملية الإدراك، وهي مرتبطة تمام الارتباط بالنماذج المعرفية والإدراكية، ورؤية الكون، وخير وسيلة للتعبير عنها"²، وقد كان في استهلال الإمام هذا النص "بألا" الاستفتاحية مؤشرا دالا على شدة تنبيهية، وطاقة مضاعفة لتحفيز المتلقي لينشط لأهمية ما يريد الإمام أن يلفت إليه، أعقبها بإخبار فيه توكيد "إن الدنيا"، بنية صوتية إيقاعية، تلقي موادها بظلالها التأثيرية في شد القارئ نحو المراد، وهنا تدخل البنية المجازية لصرف المتلقي عن الانحسار في حدود الدلالة المباشرة والمعنى الضيق، فيذكر الإمام سلسلة من متتاليات كنائية دالة، هي بمثابة المهيات لأجواء الصورة، وعلامات سيميائية حاملة لدلالة نوعية، ونقل للدنيا من الهوية المرجعية إلى الهوية الفنية، "فتصرمت، وأذنت، وتنكرت، وأدبرت"، جميعها صور كنائية جزئية، ولبنات وظيفية تبني الصورة، بحيث تصبح الدنيا كالحبيبة المتصرم جبل ودها، وهذا إلفات شعري دال، يحمل جمالية فنية، مع ما يجمع طرفي هذا التجاذب من انفعالات وآلام وتوترات، وهي تتضاعف مع كل دالة جديدة بشحنها الصادم للمتلقي الذي يرى في هذه الدنيا خلاصة وجوده، ويصل الإمام بالمتلقي إلى بؤرة مركز، ونقطة محورية تجمع بين الاستعارة والتشبيه المكرر بالعطف الذي يعبر عن ضالة هذه الدنيا، وانعدام قيمتها، كما تبرزه الصورة الاستعارية "فلم تبق منها إلا سملة"، فيعطي للدنيا هذه الهوية الجديدة التي تجعلها في عين المتلقي ضئيلة، وهذا ما تشخصه العلامة اللغوية السملة، الدالة على بقية الماء في الحوض، هذا مع قيمة هذا الماء المتبقي، وهذه الصورة الاستعارية الدقيقة هي ذات إظهار شعري دال، وصورة تشبيهية ذات زخم دلالي يكشف هذا المعنى، تشبيه ينطلق فيه من هذه الاستعارة التي تصبح دالا لغويا لهذه المشابهة وهدفها سحب الحقيقة البسيطة ذات المرجع المستقر في ذهن المتلقي، وتوجيه الدلالة إلى وظيفة ثانية أخرى: "فلم يبق منها إلا سملة، كسملة الإداوة، أو جرعة كجرعة المقلة"، ليكون تشبيه ضالة الدنيا بسملة الإداوة، أي بقية ماء الإناء الذي يتطهر به، أو الحصاة التي تحد قياس جرعة الفرد الشارب، وهذا التصوير يتدرج بالمتلقي إلى هذا البيان، حيث طي الدنيا، وهي تتقدم بالناس نحو النهاية من خلال فاعلية الزمن، ويمنح الإمام للمخيلة نشاطا إضافيا، لتأمل مشهد ضالة الدنيا ونهايتها بهذا التمثيل.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 79، 80.

² - عبد الوهاب المسيري : اللغة والمجاز، ص 18.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

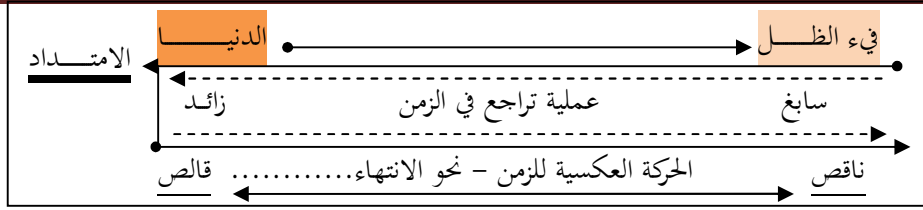
إن المتاح أمام الإنسان من هذه الدنيا قليل عديم القيمة، هي "شربة ماء كدرة"، فالدنيا بهذه الهوية، وبهذا التوسع في التمثيل يمنحها الإمام رؤية فنية جديدة، يخلق مسافة للتوتر والتأمل، لإطلاق شعرية الدلالة، وقد عملت الكاف التشبيهية المكررة وحرف العطف "أو" كفاعل في الطاقة الشعرية تؤدي إلى هذه الفسحة ذات الإمكان التأويلي، هدفها بناء الرؤية الفنية، كما أسهمت بعض العناصر التكوينية في الصورة في منح جمالية هذا الإطلاق من النفي والحزم والاستثناء والعطف، وتكرار "سملة وجرعة" في رصد بنية صوتية شعرية فيها إمتاع وجمال، وحركية حية، كما يبرزها الشرط "لو تميزها" بدلالاتها الكنائية، لنكون أمام هذه السعة الدلالية وهذا الرصيد الإضافي من الشعرية، والنظم الدقيق يسهم في رسم معالم جمالية النص. إن هذه العلاقة بين المكونات في الصورة (الدنيا، الزمن، الإنسان، الماء)، يعبر عن تحولات عميقة، وتعاكس في الإتجاه بين الحب، وصرم حبله، وبين العطش للماء وكدره، وبين الزمن وانصرامه، الأمر الذي يزيد من إحداث توتر هائل في ذات المتلقي، يحدث وقفات للتأمل، ومن ثم التأويل، فلماذا تسيطر فكرة الماء على هذا النص؟! وهي فكرة تتكرر في نصوص النهج، فسملة وجرعة ومقلة صيغ ذات تقاربات صرفية، ومادة صوتية، تكسب الدال اللغوي "الماء" جمالية، وانفتاحا قرائيا يتراوح بين صورة الأمل في الدنيا والتساير مع الزمن، وبين صورة انقضائه، وهو ما يخلق هذا التوتر، قد يكون "كدر الماء" هو الصورة المضيفة والجانب الموجب الذي يبعث على الوعي واليقظة، فكدر الماء يمثل صفاء العقل والنفس بهما يرى باطن الدنيا.

ويصورها الإمام كفيء الظل لأهل العقل، هؤلاء الذين أدركوا كدرها، فيقول: "فإنها عند ذوي العقول كفيء الظل، بينا تراه سابغا، حتى قلص، وزائدا حتى نقص"¹، فهذه الصورة التشبيهية ذات الطبيعة التمثيلية التي تصور الدنيا ظلا، وتعطي للظل سيما دالة، فهو سابغ وممتد، ولكنه يحمل نقيض هذا، حيث يصبح هذا الوضع إلى ذهاب وزوال، يدفع إلى قراءة واعية لهذا التضاد الذي يحملة المشبه به "فيء الظل"، وهو تشخيص يقرب هذا المشهد إلى الدنيا لتكون بهذه الهوية، وهذا كله من عمل "الصورة المشحونة المتوترة في الشعر"²، فهذا التمثيل للدنيا بالظل يوتر المتلقي ويجفزه على التأمل، ويقدم له الشحن الضروري الذي يحتاجه في عملية الإدراك، لوعي الحقيقة :

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص85.

² - خزعل الماجدي : العقل الشعري، ص 254.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة



إن هذه المماثلة لا تدرك إلا عقلا، أو هي ناتج وقفة التأمل والنظر وها هو الظرف "بيننا" يزيد في هذا الشحن، ويحقق مضاعفة دلالية للمعنى، ظرف بحمولته الزمنية، يتعلق بغائية يحددها الحرف "حتى"، وما يلفت أن الإمام جعل الفعل الواقع بعد "حتى" ماضيا، عكس الفعل "تراه" الدال على الحضور، دلالة على هذا التحول والانقطاع المفاجئ، فدلالة الفعل "رأى" البصرية التي ترى هذا الظل ممتدا ينقلب فجأة، أي أن وراء غاية سبوغه الانقباض، وزيادته النقص، وهذا ما ينشط عمل المخيلة، ويجعل مشاهد هذه الصورة ماثلة تستحضر معها كل الرؤى والتمثلات، "والمخيلة هي قرينة الشعر"¹، هذه المصاحبة تمد النص بطاقة شعرية وهالة جمالية، مع هذه المعينات الصوتية في تشكيل هذا النظم المجازي وتمثيله الدال، وما يحمله هذا النسق الاستمتاعي من إثارة ذهنية وانفعالية، تشخص معنى الصورة، من خلال عملية الشد بين الأطراف فكرة منزلة بالمخيلة: سابغا، حتى قلص، وزائدا، حتى نقص، يجمعه دال الدنيا فيء ظل، وهي دوال سيميائية ينتج عنها بناء الدلالة، وبهذا يوتر الإمام المتلقي ويشحن انفعاله، وبهزه من أعماقه. إن البنية الصوتية من التضادات والتوازي الدلالي وتنغيم السجعة وكاف التشبيه وما تحمله من وقفة دالة بين طرفي العملية تمنح حضورا جماليا للنص، لينفتح أفق التأويل أمامه، تعمل جزئيات الصورة المأخوذة من مواد الواقع "فيء الظل" بواسطة المخيلة الشعرية على إعادة بنائه، تحقيقا لفاعلية التمثيل وتأثير الصورة الوظيفي. يعدد الإمام في تصويره للدنيا وجوانبها، ومن خلالها يتأمل وجوده ودوره ومصيره، بحيث يلخص بوقفاته حضورا شاهدا على وجود دال ونوعي، فيقيم مثلا هذه المماثلة بين الدنيا، وبين عقد شراء الدار، وتحديد ملكيتها في صورة دالة على مشاكلة، وهي تمثلات رائعة في بناء الصورة وتشخيصها، يقول الإمام: "هذا ما اشترى عبد ذليل من عبد قد أزعج للرحيل، اشترى منه دارا من دار الغرور من جانب الفنانين، وخطه الهالكين، ويجمع هذه الدار حدود أربعة: الحد الأول ينتهي إلى دواعي الآفات، والحد الثاني ينتهي إلى دواعي المصيبات، والحد الثالث: ينتهي إلى الهوى المردي، والحد الرابع ينتهي إلى الشيطان المغوي، وفيه يشرع باب هذه الدار"². إن رسم حدود الدار في عقد

¹ - خزعل الماجدي : المرجع السابق، ص 434.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 336، 337.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

الملكية يستعيرها الإمام إلى الدنيا بهذه الصيغة، ومن ثم ينقل دلالة الدنيا المرجعية إلى دلالة فنية مجازية، ليعقد هذه المماثلة بينهما على سبيل الاستعارة التمثيلية، وبهذا الإلفات المتميز ندرك هذه العبقرية الفذة للإمام التي مكنته من إحداث هذه الصياغات الخصبية المثيرة، لأن "جوهر الشعر انفعال شامل بما حوله من الوجود"¹، ومثل هذه الاستعارة هي انفتاح كلي أمام أهم الحقائق التي تتجلى في حياة الكائن، وتقوم الاستعارة التمثيلية على أمثال عربية، "إذ هي مبنية على تشبيه التمثيل ووجه الشبه فيه هيئة منتزعة من متعدد"²، وتوسعها بهذه التمثيلات يزيد من قوتها، وفعاليتها التأثيرية والدلالية، فحدود الدار رمزية يستعيرها في تمثيله للدنيا، كل جهة بمتعين يقابلها، ولهذا يأتي الإمام في تنمة مكتبته إلى "شريح القاضي": "اشترى هذا المغتر بالأمل، من هذا المرعج بالأجل، هذه الدار، بالخروج من عز القناعة، والدخول في ذل الطلب والضراعة"³، وهي تحولات دالة على كسر في سياقات الحركة الاجتماعية والتاريخية، حيث انقلاب المعنى والمفاهيم، ومن ثم يصبح هذا التمثيل الاستعاري صادما للمتلقي بهذه الوقفات "اشترى منه دارا من دار الغرور"، فهذه الصورة الجزئية مهينة لهذا التمثيل تدعو إلى وقفة تأويلية، وكذلك الكناية "وخطة الهالكين" التي ترمز إلى ترسيم حدود الدار، فمماثلة "الحد الأول بالآفات" يدل على حرق لغوي يقود تأمله إلى إبطار حقيقة الدنيا، فهذا المجاز مبتكر في تحقيق مماثلة تقرب خطر الانفتاح على الدنيا والاطمئنان إليها، والخوض في زينتها، فالوقفة قائمة بين المستعارين، حيث نرى جليا عمل الخيال في هذا الرسم، "لأن المخيلة لا تعيش في زمن ما، بل تكاد تعيش في المطلق"⁴، حيث يكثف هذا النسق الاستمتاعى الدلالة، ويطلق المعنى منفتحاً على ملء الفجوات وقابليات التأويل، مع باقي الحدود.

ويصور الإمام لابنه في وصيته له زينة الحياة التي تنقلب صورتها إل حالة نقيضة، من الزينة المبهرة ذات الافتتان الساحر إلى انحسار معالمها، هذه الصورة مثلها بالمنزل الخصب، المغربي ولكنه متحول، فيقول: "ومثل من اغتر بها: كمثل قوم كانوا بمنزل خصيب فبنا بهم إلى منزل جديب، فليس شيء أكره إليهم، ولا أفضع عندهم من مفارقة ما كانوا فيه إلى ما يهجمون عليه، ويصيرون إليه"⁵، وتكشف هذه الصورة مفارقة ضدية بين المنزل الخصب والجديب، تماثل المفارقة الضدية في

¹ - خزعل الماجدي : العقل الشعري، ص 64.

² - السيد أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، ضبط يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ص 275.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 337.

⁴ - خزعل الماجدي : المرجع السابق، ص 434.

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 365.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

حال الدنيا التي تتزين مغرية وتنقلب موحية بالمرارة، ولهذا جاء بهذا التشبيه التمثيلي الذي هو من عمل المخيلة ليقرب به صورتين متقابلتين، تحققان تكاملا وظيفيا وجماليا يوسع من الدلالة ويزيد من شعرية هذا النص، فالفعل "كانوا" يوحي بذلك الاطمئنان القبلي، وتحوله إلى عكسه، فجماع الصورة يبني على زوايا نظر مهمة، تقوم بالأساس على تفعيل الحاسة البصرية لإحداث هذه المقاربة، وبتشكيل المكونات الضرورية نصبح أمام صورة بصرية يعمل فيها الخيال على استثارة الذهن وتحريك الفكر في نقلات بيانية، فما يرى من المنظر الجميل المفرح باطمئنانه وسكينته، والحلول في الحياة الرغيدة، يؤول إلى ذلك المنزل الجديب بإيجاءاته الذي لا يبعث لا على اطمئنان ولا راحة. إنه تمثيل للدنيا، وقد أحدثت الوقفات الموجودة في النص [الكاف، أكره، أفضع، ما كانوا فيه] تحفيضا مستثيرا لانفعال المتلقي ووعيه، ليتجه إلى تأمل رمزي بصير، فهذه الصورة "تنقله من حالة الرؤية البصرية المباشرة إلى حالة الرؤية الذهنية بما ينسجم وما يراه الخطاب العلوي من آفاق"¹، فنحن أمام صورة ذهنية تمثيلية بخرقها الدال، وما تحمل من رؤى ومشاعر وتأويلات حية تمكن من إدراك دلالة الدنيا. ويكون هذا بطرح الدنيا وتجنب زينتها وظاهرها المبهرج المغربي بانعتاق جمالي أثيري، بمعنى مغالبة روحية لهذه السلطة الإغوائية، فهل تسعف مخيلة المتلقي في قصر هذا الطريق؟! فما دام أن الإمام يضع الدنيا في مرتبة أدنى، "من ورقة في فم جرادة"²، بل ويرتفع هذا المكنى به عن الدنيا منزلة، وحتى هذا الأدنى [= الدنيا- الورقة] لا يتعين الوثوق به، وهذا مبدأ انطلاق التأويل وانفتاحه، فعندما يحط الإمام من شأن الدنيا ويزهد المتلقي فيها، فإن غايته إنشاء عوالم [= أعلى] جديدة، وهي نقلات وظيفية قائمة على الوعي والفكرة، إنه ينشئ على أنقاض هذه الدنيا المغرية، دنيا العمل، دنيا بناء الحياة الآخرة، ومتجاوزا يرتاده بالمجاهدة والمصابرة، ولذا يدفع الإنسان المحقر لها إلى الابتعاد عن رسومها الظاهرة، ويجفزه إلى أن ينشط قواه لإدراك حقيقتها وغايتها، فيقول: "ألا وإن الدنيا قد ولت حذاء، فلم يبق منها إلا صباغة كصباغة الإناء اصطبها صابها، ألا وإن الآخرة قد أقبلت ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا"³، يصور الإمام في هذا النص ضالة الدنيا ومحدوديتها، فهي كبقية ماء في إناء، مما يوحي بأنه لا يمكن أن تحقق ربا من عطش، لذا كان تنبيهه من البداية إلى هذا بحرف الاستفتاح بطاقته الصوتية ودلالته وتنشيطه، أين

¹ - حسين العمري : الخطاب في نهج البلاغة، ص 97.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 323.

³ - المصدر نفسه، ص 83.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

يحتاج إلى تأمل ونظر، وهذا ما تكشف عنه الكناية "ولت حذاء"، في دلالة على الانتهاء يتركها الإنسان خلفه، وعليه فإن هذه الكناية هي صورة ممهدة لما يأتي بعدها، فهي دال لغوي يوسعه الدال الاستعاري بعدها: "فلم يبق منها إلا صباية كصباية الإناء"، استعارة مشخصة لهذه المحدودية، وصورة منشطة للذهن لكي يتجاوز هذا الحد، ويتأمل عالما آخر غيرها، وهذا ما تتيحه الاستعارة للمتلقي بنقلاتها الوظيفية والجمالية، "لأن المجاز يصدر عن إدراك الإنسان لحدوده الأرضية، ولكنه أيضا وسيلتنا لتجاوز المسافة بين الدال والمدلول بشكل جزئي"¹، وهو ما تفصح عنه الجملة التي أعقبت الصورة الاستعارية التي استهلها بأداة الاستفتاح "ألا" المنبهة والمنشطة، الهادفة إلى قطع الصلة بذلك المحدود والاستغراق في عالم آخر هو الآخرة: فكونوا - ولا تكونوا، ومبنى هذا حرية الإرادة والاختيار، لأن الأمر لا يتعلق بفرز تصنيفي، وإنما يرجع إلى تأصيل فكري ومعرفي ومبدأ عملي ومجاهدة، أي أن هذا الاختيار الحر ينبع من إرادة الاعتقاد من الدنيا، برؤية وقوة إرادة، وهذا ما يتطلب من المتلقي أن يفقه متأملا ومؤولا، وبهذا يصبح نسق الاستمتاع نقلة واعية، وتنشيط لطاقة المتلقي الذهنية والنفسية في رسم خيارات حاسمة تصنع وجوده وعالمه الحر المسؤول.

2- مجازية التحولات الاجتماعية: أدرك الإمام بوعيه وبصيرته وحسه الدقيق. أن المجتمع العربي في هذه الفترة لم يعد كما كان، وأن تغييرات في تركيبته وبنيته قد طرأت عليه، ولأنه كان في موقع القائد فقد عناه هذا التحول السلبي والانحدار إلى القعر، بعد أن بدل المجتمع مثاله وغير هدفه، لذا فقد رصد هذه التحولات ونقلها بالمخيلة من عالم الواقع إلى عالم أكثر شعرية محملة بدلالات وعلامات التوبيخ وإشارات التنبيه، وأول ما يطالعنا به هذا التشبيه المجمل الذي يلخص حال المجتمع وما صار إليه، فيقول: "أشهود كغياب، وعبيد كأرباب"²، والملاحظ أن هذا التحول يبرزه بواسطة هذا النسق من التضاد القائم بين المكونات "شهود- غياب/عبيد- أرباب"، تضاد لا يفضي إلى حال متقدمة، وإنما هو تأصيل لوضع ساكن راكد يحمل تناقضاته الجوهرية، فتشبيه الشهود بالغياب، يمثل صورة حية دالة على هذا الجمود والسلبية، وفي تشبيه العبيد بالأرباب، يشخص انقلابا في معنى الإنسانية، فالشهود دال على حضور بالأداء، يفترض حضورا نوعيا وجماليا، والغياب دال على تخل وتراجع وتقصير، وعبيد دال على فاقد الأهلية = غير الحر، ومن لا يعول عليه في القيادة الذاتية والاجتماعية، وأرباب أسياد، أهل القيادة والعظمة ولكنهم عبيد، ومادامت الصورة التشبيهية تقدم

¹ - عبد الوهاب المسيري : اللغة والمجاز، ص 159، 160.

² - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 450.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

هذا التناقض والهيئة المقلوبة، فهي ترسم لنا وضعاً بئيساً، وجسماً اجتماعياً باهتاً، يخلو من الفكرة والروح، تنعدم فيه أهم وأبرز مقومات الحياة من حيوية ونشاط وحرية وإرادة، وبهذا يحول هذا النسق الاستمتاعى " المعنى إلى خشبة التجلي الشعري عابراً من الاعتيادية إلى الاستثنائية في الكلام"¹، وهذا ما يستوقف المتلقي في هذا العبور، بما يصنعه الاستفهام الإنكاري، ودور الهمزة الدالة على "الإنكار التوبيخي"²، والكاف التشبيهية المكررة من طاقة صوتية تتطلب تأملاً وهي مفتاح التأويل. وعند هذا الحد يصبح الإنسان المتحول عن حقيقة إنسانيته ناقلاً للسوء والمفاسد في كل حركاته وتنقلاته من مكان إلى آخر، وهذا ما اختار له الإمام البنية الاستعارية لتشخيصه، فيقول: "ينقل الردى على ظهره من موضع إلى موضع، لرأى يحدته بعد رأى، يريد أن يلصق ما لا يلتصق، ويقرب ما لا يتقارب"³، فالصورة الاستعارية تصور تلك الحمولة والأثقال من البدع المهلكة والآراء الفاسدة والأهواء والضلال، "فهو في كل رأى ينتقل من ضلالة إلى ضلالة، حيث أن مبنى الكل على الجهالة والهوى"⁴، تعبيراً عن تركيب فاسد، وهي استعارة دقيقة في تصوير مشهد التحول الاجتماعى ورؤوسه الضالة المفتنة المفتة، ولذا " فالاستعارة تقرب للفكرة من ذهن العوام"⁵، تنذر المتلقي بهذه المخاطر ليتأملها، ومن ثم تصبح الصورة وخزات ذهنية منشطة دافعة إلى تأمل دال، وتأويل جمالي رفيع، يراقب نزول المجتمع من مرتبة الإنسانية إلى ما أدنى منها، ويواصل الإمام متابعا لمشهد التحول الاجتماعى لرصد جزئيات هذه التكوينية الغريبة عن النسيج الاجتماعى، فيضيف على الصورة الأولى من نفس الخطبة أمانة أخرى تزيد من توضيح الرؤية وتعديلها وضبطها، وهذه المرة يقدم لنا استشرافاً دالاً، فهؤلاء منتهون إلى وضعية بالغة الأسى: "فلا يبقى يومئذ منكم إلا ثفالة كثفالة القدر، أو نفاضة كنفاضة العكم"⁶. إن في حركة التاريخ المتنامية هي في النهاية إلى مستقر، تسير نحو هبوط من عالم المثال والفكرة والروح، حيث تنطلق الغرائز والأهواء من نفوس هي في درجات السوء، لذا حملت الصورة التشبيهية هذه الحقيقة، مستفزة عقل المتلقي ليقرأ هذا المشهد، حيث تدل كلمة ثفالة القدر، ونفاضة العكم على ما يسقط من النفض وما يبقى بعد تفرغ

¹ - نوفل هلال أبو عوف : المستويات الجمالية في نهج البلاغة، ص 220.

² - ابن هشام : مغني اللبيب، ج 1، ص 24.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 450.

⁴ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 63.

⁵ - علي مهدي زيتون : أدبية الخطابة الإسلامية، ص 155.

⁶ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 156.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

الذخيرة لينظف¹، في إشارة دالة على الأردأ من الأشياء مكافئ الأردأ من الناس. إن هندسة النص "هي هندسة بناء الصور فيها قبل أن تكون هندسة بناء الأفكار على سبيل المثال"²، وتكمن هذه الهندسة في هذا التشكيل الفني الذي راكمت فيه الإمام بين الصور بالتشبيه المكرر، والمعنى الاستعاري الذي يتبطن التركيب، وهو تصوير يطلق عنان مخيلة المتلقي لإعادة تشكيل البنى الفكرية والمعرفية، مادام أن هذا الوضع الاستشراقي يحيل على هؤلاء النماذج البشرية من الأراذل والسفلة³، فالصورة الفنية تحمل كثافة دلالية وجمالية، بهذه القوة التأثيرية وبالتأويل تمكن المتلقي من ارتياد عوالم جديدة. ولا نترك هذه التحولات تذهب مع هذه الصورة المدوية، إلا وتخبرنا سماعة الطيب عن أحوال الداخل الإنساني، وفي شقها التفاعلي من العلاقات، يقول الإمام: "واستعملت المودة باللسان، وتشاجر الناس بالقلوب"⁴، لا يوجد أبلغ دلالة على هذا التحول بمثل هذا التعبير، فالكناية القائمة في الجزء الأول "المودة باللسان" التي توحى بأن هذه العلاقات صار مصدرها اللسان وليس القلب، في دلالة على خلوها من المحبة، هذه العجنة الروحية التي تصنع الأخلاط الروحية بين الأفراد، لأن المجتمع نسيج يترابط بالأواصر المعنوية، كما أن "العلاقة بين الإنسان والعالم ليست فقط علاقة معرفية، بل علاقة شعرية"⁵، مبنهاها الجمال الذي يفجر الطاقة ويحفز ذات المتلقي، وينجز الجزء الثاني من الصورة هذا الكشف في مستوى آخر من الدلالة، حيث المعنى الذي يتبطن الاستعارة "وتشاجر الناس بالقلوب"، فيعطي للفعل "تشاجر" بعدا رمزيا، ودلالة فنية ذات رؤية عميقة، تخرجه من التشاجر المادي بالسيوف والأدوات المستعملة في الاحتراب إلى التشاجر بالقلوب، وهذا أفضح من الأول وسبب للثاني، وتشخيص يسحب معه هذا، حيث الأحقاد والبغضاء قد ملأت هذا البيت الإنساني، حتى الشغاف، وهي علامة دالة على سيما أهواء هذا الداخل الإنساني وعلى تفتت وتشتت، ومن ثم "فذهن الإنسان مبني بالاستعارة وقائم عليها مع ما يستتبع ذلك من عقد المشابهات والمماثلات وقراءة عالم بعالم، ونقل مجال إلى آخر"⁶، وعالم الذوات هنا عالم مشحون بالأحقاد والأمراض النفسية، وهو منته إلى وضعية تاريخية مأزومة، وتقوم الشيفرة

¹ - ينظر محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 156.

² - خزعل الماجدي : العقل الشعري، ص 254.

³ - ينظر محمد عبده : المصدر السابق، ص 156.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 157.

⁵ - حسن حنفي : عالم الأشياء أم عالم الصور، ص 24.

⁶ - جمال بندهمان : الأنساق الذهنية في الخطاب الشعري، ص 413.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

الاستعارية بقراءة استشرافية استنتاجية، فبقدر ما تحيل على هذا التراكم، بقدر ما تفتح الذهن ليتأمل، والعقل ليتأول، والنفس بالمخيلة لتستمتع بالجمال، بحيث تشكل رؤية متكاملة.

ويعيدنا هذا النص المكتمل في بنيته وتصويراته المجازية إلى بيان ذلك الانحسار للإسلام في جغرافيته، وقبله في جغرافية النفوس، ليصبح هذا النص بنية دالة على عمق التحول البنيوي في هذا المجتمع الفتي، يقول الإمام: "أيها الناس! سيأتي عليكم زمان يكفأ فيه الإسلام كما يكفأ الإناء بما فيه"¹، وهذه قراءة استشرافية وتأويلية للحدث التاريخي وسياقاته، حيث ينتهي إلى وضع الانكفاء، ولكي ينقل المتلقي إلى هذه اللحظة التاريخية، فقد أطلق العنان للمخيلة لتذهب به في هذا الزمن باحثة متأملة وكاشفة مؤولة لتلك الإمارات، لذا يختار لهذا التقريب صورة الماء في الإناء، فيصبح الماء بؤرة تنطلق منها الدلالة، كما يصبح الماء فكرة شعرية نامية، وهذا المركب الذي تشكلت منه الصورة، هو دال سيميائي من إجماعه أنه عنصر تقوم عليه الحياة ومصدر الطاقة، فالماء رمز الأمان والخصب والحياة، يقع نقيضا لصورة الانكفاء، إلا أن الماء يعدل بهذه الطبيعة هويته الخاصة، إلى دلالة أخرى، بحيث تقوم القرائن السياقية بتحديدده، فأولا هو "ماء في إناء"، دلالة على محدودية سعته، وثانيا "يكفأ" علامة على نضوبه، وهذا التقريب بين صورة الإسلام التي هو عليها، وفكرة الماء في الإناء في محدوديته ونضوبه، يخلق في ذات المتلقي توترا كبيرا، وتحدث الكاف التشبيهية وقفة تأملية مستفزة، إضافة إلى النداء المنبه، وجملة الإخبار "سيأتي عليكم زمان"، علامة التحول الزمني/التاريخي انطلاقا من مؤشرات واقعية، حيث المقاربة بين الفكرة وواقع الحياة توحى بهذه الأسرار، ولذا "يأتي الشعر ليحول عالم الأشياء وعالم الصور الثابتة والمتحركة إلى عالم الصورة الفنية من صنع الخيال"²، وهذه الفاعلية بهذه الأدوات مكنت من منح حياة أخرى، هي حياة الفن وحياة الكشف، وعليه "فالصورة ليست صورة مرئية على أي مستوى كانت: بل هي صورة ذهنية في عالم إنساني للانفعال والتأثير والإيصال"³، وهذا هو المراد الوظيفي من وراء هذا النسق الاستماعي بشعريته وجماليته، توقف المتلقي أمام حتميات موقعية قائمة على التأمل والتأويل، وللدلالة الاستعارية دورها في هذا العطف إلى جهة التوسع في الدلالة ومحاولة القبض على المعنى، وهذا

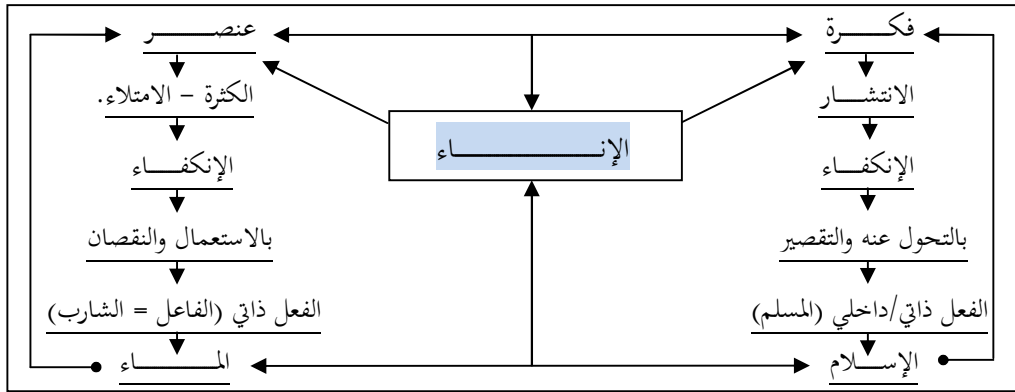
¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 149.

² - حسن حنفي : عالم الأشياء أم عالم الصور، ص 25.

³ - المرجع نفسه، ص 25.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

الخصب هو الذي يفوح في استعمالات الاستعارة¹، وعلى عادة الإمام في إطلاق الدلالة يدفع إليها المتلقي، ليكون في عالم المثال، نوضحها بهذا التقابل الموضح لمعنى الصورة وفق هذين العالمين:



إن جزئيات هذه الصورة المفككة تعمل المخيلة الشعرية على إعادة تشكيلها، لإبراز فاعليتها بهذه الاستثارة الذهنية، وكثافة دلالتها الشعرية، وإمكانها التأويلي، بحيث تحول الإسلام ومن خلال طبيعته وقوته، مع هذه الهوية الجديدة، وكأنه "ماء في إناء"²، بكل إيجاباته، لا تتحقق معه وظيفة ري الظمأ والحضور الفاعل الحي، يشخص بها هذا الهوان والتحول الاجتماعي الرهيب، "فلا ينتعش الشعر إلا بغناء المخيلة لأنه تمزيق مستمر لمحدودية الزمان ومحدودية المكان وكذلك لمحدودية الأسلوب"³، هذا الإنعتاق من أسر الواقع وفتات الحياة هو الذي يستهدف المتلقي في عمقه قصد سحبه إلى فضاءات روحية تتجاوز هذا المحدود وتمنحه حرية السعي، فنحن أمام نص التحولات الاجتماعية، بشعريته وجماليته، ونسق استمتاعي شكل رؤية فنية، تدفع المتلقي إلى إنتاج عالم جديد بمقومات إنسانية وفكرية وكونية، "فلا يدرك الإنسان العالم، بل يصوره"⁴، وهذا التصوير هو تشكيل جديد بلبنات لغوية ومعرفية، ورسم بالمخيلة، لإعادة الروح لهذا الكائن، ومن هذا الانهيار والهشاشة إلى عالم حي من الإنسانية، وبهذا نحصل على نص متكامل الجمالية بإظهاره الاستمتاعي، رصدا لهذا التحول الاجتماعي بعين شعرية وحاسة جمالية، ومقدرة عقلية تأويلية، بحثا عن دلالة جديدة.

3- مجازية الفتنة والشيطان: إن التحولات الاجتماعية التي عبرت عن ذلك الانتقال السلبي، حيث انعدمت الفكرة والبصيرة والإرادة، فلا شك أن هذه المكونات الفاسدة، ستجد مادة اشتغالها في الفتنة، كما أن الشيطان سيجد في هذه العناصر محركات إثارة، ويصور الإمام هذا الجانب، وما

¹ - مصطفى ناصف : عن الصيغة الإنسانية للدلالة، ص 94.

² - علي مهدي زيتون : المرجع السابق، ص 148.

³ - خزعل الماجدي : العقل الشعري، ص 432.

⁴ - حسن حنفي : المرجع السابق، ص 24.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

شهده في مرحلته من ركوب الناس أمواج الفتن، واستسلام لمكائد الشيطان وحبائله، ويمكننا من خلال رصدنا لمجموع الدوال التصويرية ذات البنية المجازية أن نشكل نصا واحدا متكاملًا يدور حول مشاهد مختلفة تحيط بالوصف العام لهذه الحقيقة الثنائية التي تتراكم بصورة دقيقة تفاعلا وتضافرا، وأول اللفتات التصويرية لمشهد الفتنة ما يطالعنا به قول الإمام: "تبدأ في مدارج خفية، وتؤول إلى فظاعة جلية، شبها كشباب الغلام، وآثارها كآثار السلام"¹، وتعمل الصورة الفنية هنا على تشخيص الواقع الطبيعي لميلاد الفتن، فهي لا تنزل ضربة قاسمة من عل، وإنما هي فكرة تولد في العقول ونبت ضار في نفوس مريضة لها قابلية فعل السوء والشر، وقد شبه ذلك بفتوة الغلام، كقوة فوارة متصاعدة وقبل هذا فهي متدرجة ونامية، فأولا: تبدأ نموا طبيعيا، فلها بداية ونضج وقوة اكتمال، وهذا ما أوضحته الكناية في قوله: "تبدأ في مدارج خفية"، أي فكرة نفسية وعملا خفيا بين أهلها، أو رؤوسها، وثانيا: تشتد قوتها لتبلغ اكتمالها، تبرزه الكناية: "وتؤول إلى فظاعة"، عن خروجها إلى العلن، خروجها بفظاعات مرتكبة، وثالثا: قوتها المدمرة يبرزها التشبيه: "شبها كشباب الغلام"، رمزا دالا على فتوتها وشدة عنفوانها [= طاقة الشباب] الذين هم وقودها وأوارها، ورابعا: أشار الإمام إلى نتائجها، حيث أن "آثارها كآثار السلام"، فقد جعل لها آثارا وعلامات، وهذا ما أبرزته الصورة التشبيهية، "والسلام بالكسر الحجارة وآثارها في الأبدان: الرض والحطم"²، وهذه علامة سيميائية دالة على أثر ظاهري، وقد تخفي كناية عن الجراح والدماء التي تصيب الأبدان بفعل ذلك الاقتتال، ومن ثم فهي فتنة بعلامات مقروءة يراها الناس، ومراحل طبيعية تخطوها.

لقد جمع الإمام في هذه المشاهد أربع صور شخصت الفكرة كائنا ينمو ويتطور، يفترس ويقضم، ويجرق ما حوله بفظاعاته، فهي قوة فتية، مثل طاقة الجسد الفوارة المتدفقة، وهذا التكتيف الدلالي يمنح قوة شعرية إيجابية وقدرة إيصالية يمثل هذا الحضور الجمالي، حتى يتحقق من ورائها الوعي الحقيقي، "ولما كان الوعي بالذات هو أيضا وعي بالحياة، فإن الإدراك الحسي ينتقل من مستوى الصورة الحسية إلى الانفعال والمشاعر والوجدان"³، انفعال يجعل من المتلقي يقف وقفات واعية، فهذه الصورة عميقة الدلالة، ذات ظلال حية، تحمل وظيفة كشفية وتحذيرية من ذلك الطيش وغياب

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 201.

² - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 201.

³ - حسن حنفي: عالم الأشياء أم عالم الصور، ص 23.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

البصيرة، ويضع هذا النسق الاستمتاعي بطاقته الإبداعية المتلقي أمام مواجهة حتمية لأكبر امتحان وابتلاء تتعرض له البشرية، فهو يتحدد برؤوسه في كل الأزمنة، يستحثه، لينتصر عليه/فيه.

ويواصل الإمام استكمال صور الفتنة واضطرابها وتضارب أهلها، كأنهم حمر في عانة تتقاتل بلا عقل هاد، فيقول: "يتكادمون فيها تكادم الحمر في العانة، قد اضطرب معقود الحبل، وعمي وجه الأمر، تغيص فيها الحكمة، وتنطق فيها الظلمة"¹. تنطلق هذه الصورة المجازية التشبيهية من بؤرة دالة يحددها الفعل "يتكادمون"، [يعض بعضهم بعضاً] الذي يوحي بافتراس وعنق شديدين، واللفتة الأخرى فيه أن هذا العض متداول بين الكل، فطرف الصورة الأول العائد على انخراط الناس الطوعي والعلني فيها، جيء له بصورة مشعة بالبيان، فكان المفعول المطلق المبين للنوع دالاً كاشفاً: "تكادم الحمر في العانة"، ليرز ويشخص هذا الاقتتال العنيف الذي يطيش فيه الكل، ويغيب معه العقل، وتوحي شبه الجملة "في العانة" بمسرح الفتنة بفضاعاته، وهما دالان سيميائيان يجيلان على وقفة تأملية ضرورية، لأن هذا المشهد حال ناطقة، دالة على غياب الأخوة والتحضر والإنسانية، فالصورة ذات بعد تخيلي ومحفزات ذهنية، "فعالم الصور عالم إبداعي، لا يكتفى فيه الوعي بإدراك العالم، بل يعيد إنتاجه وخلقه، ويحوله من عالم مصمت إلى عالم حي، من صورة مطابقة إلى صورة خلاقية"²، هذا الطابع التخيلي للصورة يمكن تمثله، بحيث يقود ذهن المتلقي إلى تأملات وتأويلات بليغة، بفعل قوة الدلالة الشعرية للنص، وإرداف هذا التشبيه بصور كنائية ليكشف وجه هذا التفلت من عقاب الفكرة وأنوار الحكمة، حيث اضطراب معقود الحبل ورمزيته الدالة على اللحمة بين الناس ورابطة الروح الجامعة، وهنا سيصبح مسرح الفتنة مجالاً تنطق فيه الظلمة، كمسرح الحمر في العانة، وهذا وجه آخر للفتنة يتجسد قائماً وساحقاً لمعنى الحياة والجمال، يستحث المتلقي إلى قراءة تأويلية دالة.

ويحذر الإمام الناس من هذا الانخراط الأعمى في الفتن، فيقول: "ولا تكونوا كجفافة الجاهلية، لا في الدين يتفقون، ولا عن الله يعقلون، كقيض بيض في أداح يكون كسرهما وزرا، ويخرج حضانها شراً"³، أي صورة هذه؟! يحفل هذا النص بمشهد التصويري بمعجزة قوية الدلالة، "القيض - الأداحي"، أخذها من مرجعها الواقعي بإحالتة ووظيفها في سياق تمثيلي تخيلي، "فالقيض

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 201.

² - حسن حنفي : المرجع السابق، ص 23.

³ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 229.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

هي القشرة العليا اليابسة على البيضة، والأداحي، مبيض النعام في الرمل¹، إلا أن المفارقة التي يطالعنا بها الإمام أن هذا البيض يخادع الناظر ويخدعه، فإذا هو بيض ثعبان، وهذا تصوير رائع للفتنة كيف تنشأ في مهادها، في تلك النفوس المظلمة، فهي وسوسة مستترة خفية، فإذا خرجت صارت نيرانا حارقة وسما قاتلا للكل، ولكي يبني الإمام هذا التشكيل الفني للصورة بدأ تركيبه بنهي صريح غايته مجفاة الإنسان حمل فكرة الجاهلية، وبهذا يؤسس لهذه العملية التشبيهية طرفاها عرب الجاهلية قبل الإسلام، وحالمهم الذي هم عليه من الجفاء والجهل، بلا فقه في الدين، ولا عقل عن الله، والصورة الثانية بطرف آخر يمثله المسلمون في زمن الإمام وانقلابهم عن الحق، والأكثر من ذلك انغماسهم في هذه الفتنة العمياء وكأنهم بلا دين ولا عقل، هذه الصورة يماثلها الإمام بمشهد بيض النعام في الرمل الذي يظنه المار أنه كذلك، إلا أن الحقيقة تحمل في باطنها خلاف ذلك، بمعنى أن التمثيل يبني على الخطر الرابض في البيض [= بشره] يفسس عن ثعبان بسمه، ومشهد البيض بحمولتيه الداليتين، الشر والخير: بيض النعام = بيض الثعبان، يقرن إلى الفتنة والجهل والجفاء وانعدام العقل والدين، ويكشف الدال "كسرهما" عن هذا التفقيس، إخراج الإنسان لشره [= الفتنة] من نفسه المريضة بالجهل وغياب العقل والدين، وكل هذا المزج صهرته مخيلة الإمام لتقديم مشهد نمو فكرة الشر في النفوس وخروجها إلى العلن بإرادة الإنسان الفاعل، ولذا "فالخيال هو الوزن الشعري للحقيقة المرسله، وتخيل الشاعر إنما هو إلقاء النور في المعنى ليكشف به، فهو بهذا يرفع الطبيعة درجة إنسانية ويرفع الإنسانية درجة سماوية"²، وهذا التشبيه التمثيلي المعتمد على المخيلة، يحمل ظلاله الدلالية، وفكرته الشعرية الشفيفة، يهز موقع المتلقي، ويدفعه إلى تأمل بصير، "لأنه بجعله يكون أشد ضررا على الناس من الثعبان بسمه"³، وبتأويله لذلك، يدرك أن الوعي ضروري في عملية المجابهة، فهذا التمثيل الملتقط من الواقع يشخص هذا المشهد [= مشهد الفتن] بمخاطره.

وكما تركب النفوس العليلة والعقول المريضة أمواج الفتن ماضية في تحطيم الطاقات، وكسر آفاق انطلاق الإنسان في عالم الحق والخير والجمال، فإن الشيطان يعتبر أكبر مغذ لهذه الفتن، فهو يصور ويزين ويشحذ ليشكل حزبه، ليحارب به الحق، لذا كثيرا ما تكون تنبيهات الإمام في هذا الشأن تأخذ الصبغة المجازية، فيقول: "فإن الشيطان كامن في كسره، قد قدم للوثبة يدا، وأخر

¹ - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 201.

² - مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، ج3، ص 224.

³ - محمد عبده: المصدر السابق، ص 229.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

للكوص رجلا، فصدما صدما، حتى ينجلي لكم عمود الحق"¹، يتجلى الدور الدقيق والحيوي للشيطان خاصة وأنه يتحرك برشاقة عجيبة، داخل بنيان الإنسان ليوجه ويحرك، حتى تنطلق شرارات الفتنة نحو الخارج، بينما يتوارى خلف موضوعاتها، وعندما يجعل الإمام من التركيب الاسمي المؤكد "بأن"، حاملا للصورة المجازية، فإن الأمر لا يتعلق بعارض يأتي ويذهب ويستريح، وإنما الحديث يدخل في دائرة الرصد الدائم، وتأتي الكناية "كامن في كسره"، دالة على "الجوانب التي يفر إليها المنهزمون، والشيطان الكامن في الكسر مصدر الأوامر بالهجوم والرجوع"²، فالدال اللغوي "كامن"، هو علامة سيميائية توحى باحتلال الشيطان موقعا فاعلا يستطيع من خلاله أن يمارس تزيينه وإغوائه، والكسر هو الشق الأسفل³، تشع بدلالة قوية، موحية بعمق في النفاذ، والسيطرة المعنوية، ومن ثم إدارة وتوجيه صاحبه، وفي ممارسته هذه يظهر أن له قدرة تحريكية عجيبة، فالأمر لا يتعلق بقوة مادية وغلبة بآلة، وإنما المدار في ذلك إدارة لطيفة ذكية، أي أنه يعرف الثغرة التي ينطلق منها في ممارسة دوره، فالإنسان كائن يحيا "وسط عالم من الصور"⁴، وعالم الشيطان وصورته تحيل عليها هذه الصورة الكنائية بتحفيز المتلقي ليدرك حقيقتها وكيفية ممارسته، أي إنتاجه للفتنة، وكأن الإمام بهذا المخرج الكنائي التصويري يعطي للشيطان هوية مغايرة لما استقر في الأذهان، وهو أن له برمجة، إدارة وتوجيها، مشيرا بهذا إلى أن هذه الحقيقة الغائبة عن العقول، أدت إلى سقوط ضحاياه في فخ الفتنة، ومثل هذه الإدارة التي تأخذ شكل الصراع الداخلي على مناطق نفوذ وتماس مع البرمجيات الفكرية والإدراكية، لكل الخرائط المفاهيمية، حيث يضع مفاعله في مركز الإدارة والتوجيه والضبط، لإدارة الإنسان وثنيه ودفعه، وفق المقتضى، وهذا ما تبوح به الكناتيان "قدم للوثبة يدا"، و"أخر للنكوص رجلا"، فالأولى عن تجييشه لجنده عند الفشل، والثانية تراجعها وبثه لروح الانهزام والخور، وعجيبة هي هذه الصورة بما فيها من روعة التعبير والبيان، وتمثلاتها الذهنية، فهو مصدر الأوامر يقود من خلف، لا تظهر إلا آثار أفعاله، أو تزيينه، "فإن جبنتم مد يده للوثبة، وإن شجعتم أخر للنكوص رجله"⁵، ففي نقطة عمياء عتمة تتحرك هذه اليد السحرية لتصنع عجيبها، وعليه فإن الشيطان يصبح فاعلا خفيا ورئيسا في هذه الممارسة التي تتبدى لنا مظاهر إنسانية لسلوك ساقط نازل عن مرتبة ومقياس

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 89، 90.

² - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 89.

³ - ينظر المصدر نفسه، ص 89.

⁴ - حسن حنفي: عالم الأشياء أم عالم الصور، ص 26.

⁵ - محمد عبده: المصدر السابق، ص 89.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

الحق، ولأنه "المكون المحوري من مكونات بنية الفتنة"¹، حيث يستحث المتلقي جمالياً وشعرياً ليذكر أن دور الشيطان تزييني، وتبرز مسؤولية الإنسان أنه أتاح له الفرصة وترك له الثغرة لينفذ إلى ذاته*، فهي صورة تستفز المتلقي على تأول رائد، ولذلك "يظهر جوهر الشعر وكأنه جوهر جمالية كل نص أدبي"²، ينبه قوى المتلقي لتصحو متأملة، أملاً في يقظة مثالية في عالم جديد، عالم الإنسانية بامتياز.

4- مجازية توصيف النبي والقائد العظيم: إذا كانت الصورة المجازية التي يشكل بها الإمام نص

التحولات، ونص الدنيا والفتنة والشيطان تستقطب المتلقي وتستثير فيه كوامن روحية وتشحذه دافعة إياه إلى أوضاع من الانتباه واليقظة، وتسحبه إلى تأملات تأويلية ليرتفع إلى عالم شعري جديد، فإن مجازية الحديث عن النبي محمد ﷺ، تأتي في سياق تشخيص صورة الكمال والجمال، وغايته أن يحمل الإنسان على النموذج التطبيقي لصورة الحق ومثاله الدال على أكمل البشرية، ليكون منارة الإحياء، ولا شك أن تنشيط المتلقي بصورة مبنائها الجمال والخيال، يدفع إلى تأول حياتي قائم على روحية تستهدف علامات الباطن الراكدة خلف الحجب العتمة، وينطلق الإمام في بناء الصورة الفنية المتعلقة بنص مجازية وصف النبي ﷺ من مادة لغوية مشعة بالإيحاء الشعري الدلالي والجمالي، لذا اختار الدال اللغوي "سراج"، علامة تأويل تقرأ بها حقيقة هذه النبوة ودورها التي هي رمز إمامة الكمال الإنساني، يقول الإمام: "فهو إمام من اتقى، وبصيرة من اهتدى، سراج لمع ضوءه، وشهاب سطع نوره، وزند برق لمعه"³، فقد ربط الإمام الإمامة بالمصباح وجامعها النور، حيث تنبعث صورة التقوى الخالصة والهداية الحقيقية أمام طالبها، كما ينبعث النور من السراج ليزيل ظلمة المكان، لتتركز الدلالة في نقاط مهمة، اختصار مسافة الكشف عن تجلي الحقيقة، وتحديد معلم الطريق، لتحقيق الخلاص والوصول الآمن، ومنح بصيرة إيمانية، لذا جاء بصورة عدد مشبهاتها، وهي تعود إلى حقل دلالي واحد، فهو سراج وشهاب وزند في دلالة على النور بوظيفته الجمالية في إزالة الظلمة المادية والمعنوية، فالضوء والنور واللمعان دوال لغوية، تعبر عن إشعاع إنساني ممتد، لإحياء العالمين، وإعادة البشرية إلى منابع الفطرة، وأصول الإنسانية، وتتآزر هذه الصور لتوسيع الدلالة، وتكثيف شعيرية هذه

¹ - علي مهدي زيتون : المرجع السابق، ص 152.

* - يمكن قراءة مواطن الصورة التي يقدم بها القرآن الشيطان، حيث يبدو فاعلاً مباشراً ومستتراً، وكأنه أعطي له هذا الدور أو لنقل خلي بينه وبين ذلك، وكذا أسلوبه في العمل، تنتهي برصد عالمه وصورته التي تكون المهاد لأرضية تبني شبكة معرفية مفاهيمية، مقاومة ومجاورة لعمله، ومن غيرها يبقى التعثر إمكاناً مفتوحاً، ستدفع البشرية ضريبة قاسية يقصر دورها حصول الجمالية الإنسانية.

² - خزعل الماجدي : العقل الشعري، ص 450 .

³ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 140، 141.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

الصورة، وهي صورة مركبة يمثل فيها وجه الشبه مجازات أخرى من كناية واستعارة، مما يدفع المتلقي إلى تأمل هذا المعنى، مستحثاً إياه إلى مراجعة موقفه، ومن ثم فإن هذا التصوير الذي يأخذ من مواد الإضاءة لنحت هذه الصور، يجلي وظيفة جديدة لإنسان جديد جاء عقب ضلالات وعمة كونية وإنسانية، لاستئناف مسار النور بهذا الميلاد، بل ويزيد بإحداثه نقلة نوعية في تحرير الإنسانية، وشق طريق جديد مغاير لسابقه، أي أن تاريخ البشرية يولد وكأنه ضياء نبوة ولمعان رسالة، ونور كتاب، وإضاءة إنسان فهو كالشمس المشرقة على الكون، إذا فالنبي ﷺ هو سيما النور والإضاءة الشاملة، فالصورة "هي الوسيلة الفنية الجوهرية لنقل التجربة الشعرية"¹، لذا يبهر الإمام المتلقي بهذا التوارد المعجمي لألفاظ هذا الإشراق الإلهي بختم النبوة [= سراج، لمع، ضوؤه، سطع، نوره، برق]، دوال تشخيصية محدثة لتمثالات النبوة التي تجدد الإنسان، ولكن من هو هذا المتلقي الذي يتماهى مع ذلك؟! إنه المتلقي الذي يترك الدنيا ورائه، يسحبها من تحت قدميه برشاقة النبوة وعطر الحق، ولأن ميلاد نبوة النبي ﷺ فارقة وواصلة لمسار، فإن مجيئها في الزمان والمكان قد عصفت بعصر الظلمة، وهو ما تجلي هذه الكناية بعض أماراته: "دفن الله به الضغائن، واطفاً به الثوائر"²، فقد كنى بالضغائن عن الأحقاد وبالثوائر عن العداوة الواثبة على الاقتتال، لتصبح هذه الدوال مجازات سيميائية دالة على أكبر التمفصلات البنيوية المتنامية في الجسد الاجتماعي الأحقاد والعداوة [= القتل]، فهي التركيب العضوي للفتنة، لإنهاء هذا المشروع الإنساني على الأرض، لذا جاء النبي ﷺ لدفن وإطفاء هذا الفساد، بما أبدله من إفة وسلام، وهذا الدور العظيم لأكبر قيادة تاريخية، هو محاولة لاستئناف الرحلة الجمالية، بهذه القيادة الروحية التي تبنيها المخيلة المبدعة، لأن "الإبداع يكمن في تحويل المادي إلى مثالي والعكس أيضاً"³، ويستشعر المتلقي من خلال هذا أمرين:

- 1- النجاة من مذبح الفتنة الكبرى المتنامية مع الزمن، وهذا ما يشعره بمسؤولية إنماء هذه الروح.
- 2- أن دوره أصبح فرضاً كونياً لدفن الأحقاد وإنهاء العدوات.

وعليه فنحن أمام متلق تأملي، ومؤول منفتح على ذاته والعالم، قارئاً وكاشفاً، ولأن إشعاع النبوة يتواصل بطرقه وأعلامه المرشدة، فإن الإمام يجعل من آل البيت نجوم الهداية وأهل الرفعة، فقد حافظوا على هذه القيادة الروحية، فهم أهل لحمل الناس على هذا الطريق، فجاء بالتشبيه التمثيلي،

¹ - علوان قصي سالم : الصورة الشعرية النواسية في النقد العربي القديم، جريدة الأعلام العراقية، ع11، آب 1980، ص 77.

² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 142.

³ - خزعل الماجدي : العقل الشعري، ص 436 .

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

في قوله: "ألا إن مثل آل محمد ﷺ كمثل نجوم السماء إذا حوى نجم طلع نجم، فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع، وأراكم ما كنتم تأملون"¹، يأتي حرف الاستفتاح بفسحة جمالية، و طاقة منبهة محفزة تحيل المتلقي على آل البيت، وتوجهه بوصلته نحوهم، ويزيد التأكيد "بأن" تقوية وتشديدا على هذه الأهمية، وهذا ما يبرزه تكرار أداة المماثلة "مثل"، لتصرف وتقطع الطريق أمام غيرهم، وهذا ما تعمل عليه الكاف المتصقة بمثل، محدثة في الذهن وقفة تأملية يتواصل بعدها سرد الصورة والوصف، وهنا يأخذ الإمام مواد الصورة وجزئياتها ذات الطابع التخيلي من عالم النور والرفعة [= نجوم، السماء، طلع]، ليشخص دورهم في هداية الناس ومواصلة مسيرة الإيمان، وتبليغ رسالة الحق، فهم أولى بها نظرا لهذا التميز، فخواصهم الروحية، وتمتعهم بأنوار العلم والحكمة، وكما لهم، وقربهم من نبع النبوة، يؤهلهم ليكونوا قدوة، فلهم قدرة توجيه الناس وإسعافهم، ولهذا فإن العمل الوظيفي لمبدع الرسالة المجازية، عمل تحويلي، بحيث "تحول الصورة الشعرية الإنسان في العالم إلى العالم في الإنسان، وتجعل الأشياء والأشخاص في الزمان حوامل لمعان ودلالات أبدية"²، يسحب المتلقي ليرتبط بإشعاع هذه البؤرة الروحية التي يتجدد بأنوارها، وليتمكن من تحقيق ولادته الثانية، الولادة الإيمانية.

إن هدف هذه المقتطفات المقتضبة من مشاهد صور توصيف النبوة، يمكن جمع ما رصد منها في نص- ولو بدا مجتزأ- من لفتات أخرى، بحيث تشكل لنا نصا شعريا جماليا وإيحائيا، تكمن مجازيته في بسط منزلة النبوة فراشا لراحة المتلقي، تبعده من كدمات ورضوض الواقع بثقله المادي الذي يجرح روح الإنسان، ويزيل الحقيقة من طريقه، ولكن تأويله المنفتح يبلغه ذروة الجمالية وكنه الأسرار، بهذه الشعرية العالية، وإذا كانت النبوة هي الكمال التشريفي للإنسان الذي لا يتكرر إلا باستثناءات خاصة محددة كما ونوعا وكيفا، أي "بالأمثل فالأمثل"، و "الأكمل فالأكمل"، ومثاله الحي هو الإمام، والعلماء الربانيون الذين يسرون بالناس على مثل هذا الدرب، وأول هذه المطالعات الدالة حديث الإمام عن نفسه وبيان منزلته، حيث يقول: "إنما مثلي بينكم كمثل السراج في الظلمة يستضيء به من ولجها، فاسمعوا أيها الناس وعوا، واحضروا آذان قلوبكم تفهموا"³، فيبدأ بتأكيد وظيفي مثبت لقيمته ورفعة شأنه، أمام جموع الناس، ويشكل مع الأداة "مثل" والياء المضافة إليها فاصلا تمييزيا، ومن ثم فإن التشبيه التمثيلي المبين لمنزلة الإمام وسط الناس بعلمه وروحانيته،

¹ - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 146.

² - حسن حنفي : عالم الأشياء أم عالم الصور؟! ص 25.

³ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 262.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

وهم في ضلال الجهل وبعد عن الحق، هي في تماثل دال مع صورة السراج وسط الظلمة، يلتقط الإمام جزئيات هذه الصورة من البيئة والواقع، وينحت من مواد النور، [= السراج، يستضيء] يقابلها بمعجم عتم، [الظلمة، ولج]، حيث يحتاج إلى إضاءة من الأول، لتنجلي وتنكشف الحقيقة أمام الإنسان، وعليه يتضح "أن الشعراء الذين ينتمون إلى منطقة الخيال الإبداعي هم شعراء عظام لهم فن عميق راسخ ونقي"¹، وعلى هذا يكون التأسيس لبناء مثال حي في النفوس، فالإمام بوصفه ممثلاً لهيئة العلم والدين والإمامة الروحية، يصبح علماً يمثل الحالة العرفانية والصورة الروحية المتعالية.

ويعقد عملية تشاكلية قائمة على عناصر فاعلة وتنمية روحية تعمل من الباطن لإضاءته، ولكي تتم العملية: الإضاءة [= مادية، معنوية]، يفتح إشعاعات التأثير على كل من أراد، وهذا ما يكشف عنه الاسم الموصول في دلالاته على الوساعة، وقد بنى الإمام ذلك من خلال هذا التمثيل على حرية الاختيار والإرادة، وبذلك يعيد للإنسان المسؤولية في ترشيد نفسه، وإخضاعها للتعلم والإرفاق بها لتنال من هذه الرحمات واللطائف، ولا يتحقق هذا الأمر إلا إذا استصحب بحضور نوعي قائم على انفتاح أجهزة الوعي أثناء التلقي، لإزالة الحوائل، وبهذه الكيفية تتم القيادة النوعية للأمة، والملاحظ هنا أن الإمام لا يركز في دعوته على البعد السياسي القائم على الحشد والتهييج الجماهيري، وإنما يختار أسلوب الإصلاح العلمي والنقلة الروحية مازجا بين الأمرين، وعلى المتلقي أن يستحضر ذهنه وقواه لوعي هذا وتمثله وتأويله، تأويلاً ثانياً، ولكي يرسم هذا الطريق جيداً، فإنه يشدد على العلاقة بين العظيم والناس التي هي بمثابة علاقة ارتباط النور بمصدره، والثقة في أن ذلك النور يمثل إضاءة لتلك الأرواح، لا ظمأ بعدها، يقول الإمام: "من وثق بماء لم يظماً"²، في سياق شرطي، يلخص لافتة رمزية، بيان الطريق بالحق، هذه الفكرة الرمزية، اختار لها الإمام هذه الجمالية في التصوير والشعرية في التعبير، فأخذ المجاز بلاغة الإنجاز، فبين الفعلين "وثق" و"لم يظماً" علاقة دلالية تلخص إيماناً في يقين، وهذا ما تعمل الكناية على إبرازه، إذ تمارس دوراً وظيفياً في إشعال الحوافز الذهنية وهز موقعية المتلقي، وتدخل فكرة "الماء" رمزا حيا في بناء الدلالة، كدوال لغوية منفتحة موحية سيميائياً: فكل إنسان يثق بماء ما، وليس كل من يثق بماء لا يظماً، من الماء ما يكون شربه ربا، لا ظمأ بعده، ومن الماء ما يكون شربه ظمأ لا ري معه.

¹ - خزعل الماجدي : العقل الشعري، ص 436.

² - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 35.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

إن هذه الاحتمالات تستثير ذهن المتلقي، ليعرف ويجتهد، ليجد ماء ربه، وبهذا الدال المجازي بجماليته، جمالية كناية الماء، "لأن الجمال هو المظهر والسمة البارزة التي تشير إلى طبيعة هذا الفن وماهيته، فضلا عن بيان قدرته على حمل الأفكار والتوصيل إلى المتلقي"¹، ولذا ينبغي على المتلقي أن يقوم بتأويلية ذهنية، أن يبحث عن عنده "الماء"، لري عطشه الروحي والفكري، والبحث يأخذ طابعه الجمالي الشعري، وبذلك تشكل هذه المجتزآت البيانية من هذه الصور المجازية صورة موحدة، تسهم في بناء نص مجازي جمالي، نص دالة سيميائية مجازية، نص مفتوح على سيرة قد تبدى منغلقة أمام عقول الأغلب من الناس، ولذا فإن النسق الجمالي بوظيفته الاستمتاعية، يحفز المتلقي لفك شيفرة حياته وأبنيتها التي لا تستقيم إلا بمقابلة حاسمة، وقدر زناد - عقله - بعقل النبوة ومثاله الأكمل، ومن ثم فإن الصورة الفنية تتنامى دوالها لتبني نسقا جماليا متكاملا، بكسر أفقه، ليعيد رسم حياته، كي يرتفع إلى مستوى الإنسانية الكاملة من نور النبوة.

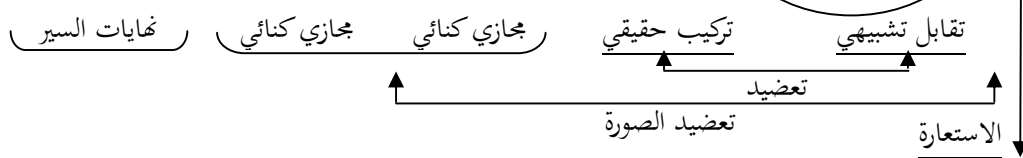
5- مجازية الإيمان والعبادة: لم يكن الهدف من وراء تلك المجازية في تصوير مثال النبوة والقيادة العظيمة، تقديم عرض تقديس، وإنما كان هذا التخطيط الهندسي لنظام الصورة، بناء المثال في النفوس لتنهج سبيله، ولذا يحضر الإمام المتلقي جماليا إلى أن يرصد الوسائل التي تحقق في كل ذات عناصر صعودها وانتصارها على ذلك الثالوث المفسد القاتل: "الدينا، الفتنة، الشيطان"، ليبنى أسلوب هذه المحاجة من خلال الصورة المجازية، بمثابة العبادة والإيمان، وتمثل التقوى واليقين أسلوب بناء المثال في الذات، ومن مطالعات هذا الوصف الجمالي هذه اللوحة الفنية التشبيهية التي تشخص ثنائيتين متقابلتين، الخطايا والتقوى، فيقول: "ألا وإن الخطايا خيل شمس، حمل عليها أهلها، وخلعت لجمها، فتقحمت بهم في النار، ألا وإن التقوى مطايا ذلل، حمل عليها أهلها، وأعطوا أزمته، فأوردتهم الجنة"²، وميزة هذه الصورة قيامها على طبيعة تركيبية متقابلة، "فألا" الاستفتاحية تحمل هذا الانفتاح الدلالي بطاقتها التنبيهية، وتوكيد الحملتين "بأن"، ليزيد من تركيز المتلقي على التأمل، وبهذا الابتداء والتوجيه الدلالي يفتح الإمكان التأويلي أمامه، بحشد قواه ومخيلته لتعيد بناء تصورات مثالية جديدة، وبهذا النسق التقابلي، المبني على التوازي الدلالي من خلال بنيته التشبيهية:

¹ - حسين العمري : الخطاب في نهج البلاغة، ص 112.

² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 80.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

الأداة	المؤكد	المشبه	المشبه به	الوسيلة: حقيقة	مجازية 1	مجازية 2	مآلات النهاية
ألا	إن	الخطايا	خيل شمس	حمل عليها أهلها	خلعت لجمها	تقحمت بهم	في النار
ألا	إن	التقوى	مطايا ذلل	حمل عليها أهلها	أعطوا أزمته	أوردتهم	الجنة



= إن استعارة الخيل في تصور رحلة الحياة، رحلة الإيمان والكفر، هو السفر الذي ينتهي إلى المصير النهائي [جنة- نار].

لقد حشد الإمام مختلف البنى التركيبية، لإنجاز شعرية هذا النسق وجماليته، وهو ما يمكن أن نحده في بناء الصورة وتكثيف الدلالة بقوة شعريتها، وخاصياتها الجمالية، ودور المخيلة في عملية الرصد والنقل، حيث تم تشخيص طريقي الإنسان [= خطايا، تقوى] بالعمل، وترك الحرية أمام المتلقي في اختياره، لأنه يريد منه أن يسير سيرا حرا بطريق التقوى، ينتهي به إلى عبودية الأحرار.

إن تصوير الخطايا خيلا يركب في رحلة الزمن التي يقطعها الإنسان في عمره، تنتهي بجملة إلى مصير محتوم فيه هلكته، وهذا لاعتبار بين، أن صاحبها قد ركب خيلا شمسا جامحة نافرة تمنعه من ركوب آمن، تجري به إلى نهايته، وهي النار، فدلالته تستدعي الحذر، بينما الإنسان الذي يتخذ التقوى طريقا، شبهها بالمطية الذلول، قيادها في يد صاحبها، هذا الإسلاس في القيادة، دليل على قيادة حكيمة من الإنسان لنفسه، "لأن الاستمتاع الجمالي في النص يتأتى من حركة الفكرة بين تراكيب النص"¹، هذه الحركة التي ميزتها صيغة تقابلات الصورة التشبيهية، والتوازي الدلالي بطاقته الصوتية منح لهذا النص شعرية حية تلقي بظلالها على المتلقي، ولذا نلاحظ أن تضمين مشهد الصورتين بالتعبير الكنائي، لتزداد الصورة كثافة في معناها وقوة في دلالتها الشعرية، "فخلعت لجمها" عن عدم إجمام النفس وضبطها، "وتقحمت" عن الإهلاك، وهي دوال سيميائية مجازية، تبرز مخاطر هذا السير، ومناهة الرحلة، في مضمار ركوب الخطايا، لتمنح هوية إنسانية جديدة، وفي المشهد الثاني أتى على وجه التقابل بكنايتين دالتين: "أعطوا أزمته" عن قيادة النفس، و"أوردتهم"، عن النجاة والأمن والاطمئنان، كما أننا نلاحظ هذا التداخل بين الجمل البلاغية، حيث تبرز العملية الاستعارية جلية في استعارة الخيل/المطايا، للخطايا والتقوى، في تصويره الإنسان في زمن العمل، في رحلة وسفر طويل يتطلب زادا وتذكرا لمستلزماته بالنسبة لسالك درب التقوى، وعكسه صاحب

¹ - حسن العمري: الخطاب في نهج البلاغة، ص 118.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

الخطايا، فهو مندفع بجموح دون إعداد وضبط، وهذا من قمة التصوير الذي ينتج المعنى وعالم المثال، و"يعني ذلك أن تصوير الاستعارة، مثلها مثل التشبيه استعارة رسالية"¹، وعليه فإن هذا التصوير الدقيق المتوازن تركيبيا بين المشهد الأول والثاني، منطلقا ونهاية وبنية، ينشط ذهن المتلقي ليتصور طريق خلاصه، بما منحه من محفزات ليختار بوعي وإدراك طريق الإيمان بأسلوب التقوى، تأول تنشطه هذه الوقفات التعبيرية والمجازية، بحيث يجعل إعادة بناء العالم مسؤولية إنسانية بحتة.

إن سياق رحلة التقوى الذي اختاره له الإمام هذا النسق الجمالي الاستمتاعى، يحفز متلقي الرسالة لسلوك طريقها، وهذا عندما يشخص له التقوى سماقاتلا للخطايا، تبرزه هذه اللفتة اللطيفة في هذا التركيب، فقد حول مسار الخطايا الذي يتجه أماما بقطعه بمسار معاكس له، وبذلك تصوير التقوى علاجا، فيقول: "ألا وبالتقوى تقطع حمة الخطايا، وباليقين تدرك الغاية القصوى"². استعار الإمام إبرة الزنبور والعقرب إلى الخطايا، بهوية وفاعلية جديدة، وبالمقابل شخص التقوى دواء فاعلا يقطع هذه الحمة، تكمن وظيفتها في مواجهة الخطايا وضبط النفس، وإجماعها الحق، لأن المراد من هذه الصورة إبراز "سطوة الخطايا على النفس"³، ولم يقف الإمام عند مشهد التقوى والخطايا، بل انتقل في الجزء الثاني إلى بيان منزلة اليقين، مبلغ الغاية النهائية، وكأن هذا اليقين هو الملح والمادة المقوية المنشطة لطاقة التقوى، ويحمل هذا التركيب كناية خفية، واستعارة دقيقة، جعل اليقين وكأنه مطية، ومن ثم فقد شخص اليقين في صورة مادية، ذات طاقة رمزية، حيث "يلتقط قوتها ويصف شحنتها"⁴، وهذا ما يفتح مجال الرؤية واضحا أمام المتلقي، وأمام خياراته الحرة الواعية، ومتطلبات الحضور الإنساني الفاعل، مع وقفات تأملية تفسح مجال التأويل بحوافر اللغة وتشكيلاتها الجمالية.

ويقدم لنا الإمام في هذه المجازية البيانية بنسقتها الاستمتاعى أحوال العارفين في تماثلهم لمعنى اليقين والتقوى، وما أثمرته سياحاتهم الروحية في دنيا الإيمان والعبادة، حيث تجلت حريتهم صافية، وقد انعتقت نفوسهم من أسر استعباد الشهوات، فيقول: "فاستشعر الحزن، وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه، وأعد القرى ليومه النازل به، فقرب على نفسه البعيد، وهون الشديد"⁵، وتقوم الكنايات المتكررة في بناء صورة المتقين العباد، وبيان منزلتهم الرفيعة: "فاستشعر الحزن" عن تقصير

¹ - علي مهدي زيتون: أدبية الخطابة الإسلامية، ص 157.

² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 211.

³ - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 211.

⁴ - خزعل الماجدي: العقل الشعري، ص 430.

⁵ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 116.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

في أداء الواجب، "وتجلبب الخوف"، عن ابتعاده عن كل ما يغضب الله، ومسارعتة إلى إرضائه ﷻ، وهي دوال سيميائية تكشف عن أحوال الذات في تقلبها الروحي، وصولا إلى حالة الإشراق، وهو الذي تجسده هذه الاستعارة من قوله: "فزهو مصباح الهدى في قلبه"، حيث شبه نور الإيمان في القلب بالنبات عندما يزهر، عن نور البصيرة فيه، هذا التداخل الكنائسي الاستعاري يمنح شعرية عالية، ويقوي من الحمولات الدلالية، ويجعل من التركيب جامعا لمقومات جمالية تأثيرية، "فرؤية الأديب في الاستعارة رؤية مهيمنة تهدف إلى إلحاق رؤية المتلقي بسبببها الخاصة"¹، إلحاق يقود إلى مساقات تأويلية كاشفة، وتقوم الكنايتان المتبقيتان بتتمة بيانية، توسع الدلالة الشعرية، وتستكمل مشهد حال العباد المتقين، وهم ينشؤون حالة روحية خاصة، "فأعد القرى"، عن الاستعداد لموته بالعمل الصالح، "فقرب البعيد، وهون الشديد" من تقريب الموت بالعمل والصبر على الشدائد، ومسارعتة في الخيرات، وبهذا تتضح الصورة من خلال جزئيات بنائها ودلالاتها التعبيرية الواصفة لعبودية أهل الصفوة من العباد، وهذا النص بمجازيته يؤكد على أن "الشعر يكتب أساسا وفق تصميم تأويلي عبر الخيال والبلاغة ويدعو القارئ لمساحة أوسع من التأويلات القرائية"²، حيث يصنع هذا الحشد المجازي متتالية جمالية قائمة على المخيلة في نسج رؤية فنية، وهذا التتالي من الدوال يمنح شعرية دلالية واسعة وطاقة أداء وقوة إبلاغ رفيعة، تستهدف ذهننا وقادا، ونفسا حية مشعة، من أجل أن ترمي في أحضان الحقيقة وتبذل جهدها في الترقى، لنيل منازل العرفان ومراتب الكمال، وإن تحفيز المتلقي بهذا الكم التصويري يعطيه إرادة الصعود إلى عالم المثال، على أسس من العلم والروحية. يحاول الإمام من خلال هذا النص الذي يتراكب مع باقي المجتزئات النصية الأخرى، أن يقدم أنموذجا لذلك الكمال الحي في النفوس، ويبني الطريقة التي توصل إلى ذلك المنزل، وإذ ذلك يكون الأسلوب المجازي بحيويته البنائية إمكانا لعروج الذوات نحو عالم المطلق، حيث مشاهدة أنوار الحق متجلية في القلوب، ولقد أعطت اللغة بنسقتها الجمالي كل هذا الفيض الروحي لانبعاث إنساني يتجدد بالفكرة والكلمة، ويتسامى بالمخيلة والصورة، ويستعيد ألق الإنسانية بالجمال، فالنسق الاستمتاعى بمجازيته، يجعل من نص النهج نصا شعريا مفتوحا، تستدعي إشاراته تأويلا خاصا، ومتلقيا نوعيا.

¹ - علي مهدي زيتون: المرجع السابق، ص 142.

² - خزعل الماجدي: المرجع السابق، ص 380.

المبحث الرابع: تداولية الخطاب في نهج البلاغة:

التداولية مفهوماً وحقيقة: يقول ابن فارس: "الدال والواو واللام أصلان أحدهما: يدل على تحول شيء من مكان إلى مكان، والآخر يدل على ضعف واسترخاء، أما الأول: فقال أهل اللغة: إن دال القوم: إذا تحولوا من مكان إلى مكان، ومن هذا الباب: تداول القوم الشيء بينهم: إذا صار من بعضهم إلى بعض"¹، فعملية التحول تبرز حقيقة إجراء التداول، ويدل في اللسان على معنى التناقل، كما جاء "في حديث الدعاء حدثني بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يتداوله بينك وبينه الرجال، أي لم يتناقله الرجال وترويه واحداً عن واحد، إنما ترويه أنت عن رسول الله ﷺ"²، وهذا ما يعطي للتداول صبغة التواصل الثنائي، ويقول: "وتداولنا الأمر: أخذناه بالدول، وتداولته الأيدي: أخذته هذه مرة وهذه مرة"³، أي تداول الخطاب في شقه التواصلية الاستخدامي، ويوضح "ابن خلدون" هذا القصد بقوله: "بالتداول من اللغة الكثير الاستعمال تسهيلاً لحفظها"⁴، فتداولية الكلام والخطاب يعني استعماله بين الناس، وهو ما يجليه ابن الأثير: "معرفة اللغة مما تداول استعماله"⁵، أي جانب الاستخدام من اللغة المستعمل بالتداول، وهذا يعني أن التداولية معناها الاستعمال.

يشكل الجانب التداولي للغة بين الناس في تواصلهم أهمية كبيرة، لأن قيمة اللغة هي في استخدامها وتعبيرها عن الحالة الإنسانية، ونقلها لحالة التجاذب الحاصل بينهم في تواصلهم، يقول "طه عبد الرحمن": "هو وصف لكل ما كان مظهرًا من مظاهر التواصل، والتفاعل بين صانعي التراث من عامة الناس وخاصتهم"⁶، فهو يشكل عملية تداولية استعمالية حيوية بين مختلف الفواعل الاجتماعية والثقافية، إذن فالتداولية "هي دراسة العلاقات بين الصيغ اللغوية ومستخدمي هذه الصيغ"⁷، أي خصوصية الاستخدام اللغوي بأبعاده التأثيرية والتوجيهية، ويضيف "جورج يول" قائلاً: "التداولية مستساغة لأنها تتعلق بالكيفية التي يتمكن من خلالها الناس فهم أحدهم الآخر لغويًا، ولكنها قد تنقلب لتكون ميدانًا دراسيًا محبطًا لأنها تتطلب منا فهم الناس وما في عقولهم"⁸،

¹ - ابن فارس : معجم مقاييس اللغة، ص 305.

² - ابن منظور: لسان العرب، مج 3، ص 451.

³ - المصدر نفسه، ص 451.

⁴ - ابن خلدون : المقدمة، ص 608.

⁵ - ابن الأثير : المثل السائر، ج 1، ص 37.

⁶ - عبد الرحمن طه: تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط 2، ص 244.

⁷ - يول جورج : التداولية، ترقيصي العتايبي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، دار الأمان، الرباط، 2010، ط 1، ص 20.

⁸ - المرجع نفسه، ص 21.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

بالبحث في الآليات اللغوية المستخدمة لتسهيل إدراك مقاصد الخطاب، وتحقيق تواصل فاعل، وتتناول ثلاثة أقسام، هي النظرية التلفظية والحجاجية، ونظرية أفعال الكلام، ولدواعي منهجية تقتصر على الأولى والثانية.

أولاً: النظرية التلفظية: جاء في المقاييس: "اللام والفاء والظاء كلمة صحيحة تدل على طرح الشيء، وغالب ذلك أن يكون من الضم: تقول لفظ بالكلام يلفظ لفظاً، ولفظت الشيء من فمي، واللافتة: الديك، ويقال: الرحي والبحر. وهو شيء ملفوظ ولفيظ"¹، عمل يتعلق بطرح الكلام لأغراض وظيفية متباينة المقاصد، وفي "التعريفات": "اللفظ: ما يتلفظ به الإنسان أو في حكمه مهماً كان أو مستعملاً"²، ويقتضى لساناً لفظاً، أي مقتضى يتعلق بحضور المتكلم بضميره، وملفوظ اللغة اللساني وسياقه المنتج، والمقتضى الثالث المخاطب المقصود المتوجه إليه بهذا الملفوظ الكلامي، أي أن عملية التواصل تستدعي مختلف الملابس الكلامية عند هذا الاستعمال، "الملفوظية تفترض وجود متحدث locuteur ومخاطب Allocutaire، وهي تتموضع في الزمن عند لحظة محددة، أما عاملاً (قوة ملفوظية فاعلية) Actants الملفوظية (المتحدث والمخاطب) فيقعان في الفضاء Espace أي في مكان معين لحظة حصول الملفوظية"³، وهي مكونات عملية تداول الكلام. ولا يمكن لهذه العملية أن تتم إلا بتداول الكلام واستعمال اللغة في سياق وشروط معينة تعين في إنتاج الخطاب، فهذه النظرية هي "فعل الاستخدام الفردي للسان، بينما الملفوظ يعني نتيجة هذا الفعل"⁴، وهذا البعد الذاتي هام وحادث في إثمار العملية التلفظية، بمكوناتها التي تخرج في نسق علامي دال، ذات طبيعة حيوية، وحضور نوعي فاعل، "الملفوظ ليس مجرد حالة مادية لكنه أيضاً بناء نظري يمكن تعريفه كتسويق لعلامات Agencement marqueurs (أي آثار العمليات) تم كشف موقعه بالنسبة لنسق معقد من الإحداثيات التلفظية"⁵، دلالة على مشاركة إنسانية، فجوهر الملفوظية إذن وجود الفواعل الحقيقية التي تبني هذا الخطاب، بمقاصده ووظائفه، وفي الحقيقة فإن هذا النسق إنما يبني بمكوناته، ومرجعيات ملفوظ الكلام التي هي عبارة عن "علامات تحيل إلى

¹ - ابن فارس : معجم مقاييس اللغة، ص 838.

² - الشريف الجرجاني : التعريفات، ص 161.

³ - سيرفوني جان : الملفوظية، تر قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1998، ص 27.

⁴ - مزهود سليم: نظرية التلفظ <http://salim-mezhoud.hooxs.com/t820-topic>, 2019/08/31.

⁵ - كوليو أنطوان: نظرية التكلم، لسانيات الخطاب وخطاب اللسانيات، تر زهور جوي https://www.aljabriabed.net/n89_zhour.htm, 2019/08/31.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

ملفوظيتها، ويقال أحيانا أنها تعكسها (الملفوظية)¹، وهذه الإحالة ضرورية في ربط عناصر الملفوظ بسياقه المنتج، "ومرجعيات الملفوظية، ومجموعتها الأكثر تمثيلية: أنا، أنت، هنا، الآن، عبارة عن كلمات تشير، من داخل الملفوظ، إلى تلك العناصر الأساسية المكونة للملفوظية. وهذه العناصر هي: المتحدث، المخاطب، ومكان وزمان الملفوظية"²، وهو ما يطلق عليه بالإشارات، أو معينات التلفظ وحيثياته المصاحبة عند استعماله وتداوله في سياقات التواصل.

I. المعينات التواصلية الإشارية في النهج: تطلق الإشارات على العناصر المنتجة للخطاب من قبل

المتكلم من ضمائر وأسماء الإشارة وظروف الزمان والمكان، "وتعتبر الضمائر المرتكز الأول من أجل إضاءة الذاتية في اللغة، وتتعلق بهذه الضمائر طبقات أخرى من الضمائر بدورها، تتقاسم نفس القانون. إنها أسماء الإشارة والظروف والصفات التي تنظم العلاقات الحكائية والزمانية حول "الذات" المأخوذة باعتبارها نقطة للاستدلال"³، هناك محور فاعل في إنتاج الكلام مسند بمعينات تلفظية وسياقية كاشفة تتعلق بالذات المنتجة للخطاب والمخاطب، مع مختلف القرائن الدالة، من ضمائر التملك والتفويض والحكم وأسماء الأعلام والصيغ الانفعالية، وصيغ النداء، والموجهات (أفعال الجهة).

أولاً: الذات المتكلمة والضمير الشخصي: يقصد بالمعينات التواصلية "مجموعة من العناصر

اللسانية التي تحيل على السياق المكاني والزمني لعملية التلفظ الجارية بين المتكلمين أو المتحدثين أو المتلفظين"⁴، ويكون للذات الدور البالغ في الإنتاج، فهي الطرف الحي في هذه المرسله، ويجسد الإمام الذات المنتجة لخطابه الذي يبثه إلى المتلقين، وتنوع هذه الوضعية التي تتجه نحو المخاطب من حال اندماج الذات مع المخاطب، إلى حالة اللاندماج، هذه الوضعية تكشف الحالة الواصلة، أو البنية العاملة [= العوامل المساعدة]، وكذلك المعاكسة في وضع النقيض، ويترجم السياق النصي بتجاذباته هذه المآزق التواصلية، وإن القرائن التي تكررت على مدار نصوص النهج هي كشف وتأشير دال على تقديم قراءة سيميائية لوضع الذات المبدعة، وهي تربط المبدع بالنص، وتبرز حضوره واندماجه وتجذر هذه الذات في الزمان والمكان لتتأصل الأبعاد التداولية والاستعمالية للغة بما تحمل من وظائف ومقاصد، يقول الإمام: "إن من حق من عظم جلال الله في نفسه، وجل موضعه من

¹ - جان سيرفوني : المرجع السابق، ص 27.

² - المرجع نفسه، 27.

³ - بنفيسست إميل : الذاتية في اللغة، تر: حميد سمير - عمر علي، مجلة نوافذ، ع09، 1999، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ص 69.

⁴ - حمدادي جميل : سيميوطيقا التلفظ بين النظرية والتطبيق، موقع الألوكة www.alukah.net. ص 6.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

قلبه، أن يصغر عنده لعظم ذلك، كل ما سواه وإن أحق من كان كذلك لمن عظمت نعمة الله عليه، ولطف إحسانه إليه، فإنه لم تعظم نعمة الله على أحد إلا ازداد حق الله عليه عظما، وإن من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس، أن يظن بهم حب الفخر، ويوضع أمرهم على الكبر. وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم أني أحب الإطراء واستماع الثناء، ولست بحمد الله كذلك، ولو كنت أحب أن يقال ذلك، لتركته انحطاطا لله سبحانه، عن تناول ما هو أحق به من العظمة والكبرياء، وربما استحلّى الناس الثناء بعد البلاء، فلا تثنوا علي بجميل ثناء لإخراجي نفسي إلى الله وإيكم من التقية، في حقوق لم أفرغ من أدائها، وفرائض لا بد من إمضائها، فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة، ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالا في حق قيل لي، ولا التماس إعظام لنفسي، فإنه من استثقل الحق أن يقال له، أو العدل أن يعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل، فإنني لست في نفسي بفوق أن أخطئ، ولا آمن ذلك من فعلي إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني، فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره، يملك منا ما لا نملك من أنفسنا، وأخرجنا مما كنا فيه إلا ما صلحنا عليه، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى، وأعطانا البصيرة بعد العمى"¹، تبرز القرائن في هذا النص كاشفة عن حالات إنسانية في سياق كلامي بأحوال مقامية وتداولية، فوضع الذات يشخص صورة قلقه من نواجم الفخر والكبر، نتيجة الثناء الذي تلقته الذات، وخوفا من أن يشرع هذا الباب أمامها، فقد أغلقت على نفسها هذا الخطر القاتل، وقد عبر ملفوظ الكلام بقرائنه الإشارية عن هذا الرفض، ومن ثم تصحيح العلاقة الثنائية الذات/المتلقي، الإمام الخليفة/ والناس، بموجهات إشارية، يلخص ملفوظها، وخاصة من خلال الضمير الشخصي المتكلم، حمل الآخر [(أنت، أنتم)= الناس] على المثال ببيان معالم العلاقة الحقيقية بين الإنسان وخالقه مستحق الثناء وحده، ويبرز ضمير المتكلم الذات المبدعة، وعلاقتها مع فواعل أخرى منتجة للخطاب، لذا يصبح هذا الضمير سيما دالة على ذات الإمام يجلي موقفها الكلامي ومقامها الحالي في مقابل الآخر، وهما يتفاعلان لإنتاج ملفوظ لغوي عاكس للحظة تاريخية وسياقات ثقافية واجتماعية، وبمكنا من خلال تصفح هذا النص أن نرى تجليات هذه الحركة لصوت المتكلم من خلال الضمير "أنا"، حيث تتركز بنية الخطاب مع بقية القرائن المسعفة، ومن خلال ذلك تجسد الذات موقفا كلاميا ثابتا ورؤية

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 310، 311، 312.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

خاصة لتبني مرسله كلامية، حيث تظهر مسافة قائمة بين وضعي القرب والبعد، ومشكلة فجوة حاصلة، نلخص مختلف تأشيراتها الدالة على هذا التمرکز بوظائفها ومقاصدها:

الصيغ التعبيرية والانفعالية	ألفاظ القرابة والعلاقات الحميمة	صيغ التقييم والحكم	صيغ التملك	الأفعال المضارعة	الضمائر متصلة منفصلة
- إن من حق من عظم جلال الله في نفسه.. - وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم أي أحب الإطراء، واستماع الثناء.	"فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره".	- العظمة والكبرياء: <u>حكم محايد</u> . - الثناء بعد البلاء: <u>حكم سلبي</u> . - بمجمل ثناء: <u>حكم محايد</u> . - عبيد مملوكون لرب لا رب غيره: <u>حكم إيجابي</u> . فأبدلنا بعد الضلالة: <u>حكم إيجابي</u> - بالهدى وأعطانا البصيرة بعد العمى: <u>حكم إيجابي</u> .	أنني، عليّ لإخراجي نفسي، مني بي، لي لنفسني فإنني في نفسي فعلني	- أحب. - تركته. - لا تخالطوني. - لا تكلموني. - أن أخطئ. - أخرجنا. - آمن.	- أنا - منّا - كنا
تدل هذه الصيغ على تجذر واندماج المرسل داخل عملية القول.	منح الذات (أنا) و الآخر (أنتم) هوية جديدة، تتمثل في الانتماء الإيماني.	تمثل حالة اندماج ولا اندماج بحسب طبيعة السياق.	تثبيت حضور ذات الإمام في السياق الذاتي والتواصلي، وإثبات ذاتية المبدع وإظهار حال الضمير الشخصي.	الدلالة على التحذر في سياق الزمان والمكان حضور ذات متواضعة متخيلة عن جلباب الفخر	تدل على حضور الذات والمخاطب وتفاعلهم: الحدث والتواصل.

إن الضمير الشخصي يصبح هوية مثبتة لذاتية المبدع، من خلال فاعلية اللغة التي صارت سيما لهذه الذات المبدعة التي تخرج إلى الآخر بموجهات ومعينات تشحن ذلك المخاطب وتستفزه، لتحقيق تفاعل ما بحثنا عن اندماج وقيم حالية، "ولأجل تعلم هذه التعابير التأشيرية علينا أن نعرف أن كل شخص يواصل الانتقال من "أنا" إلى "أنت" باستمرار أثناء المحادثة"¹، وهذا ما يكشف عمق التبادل والانجذاب في حالي القرب والبعد، فالضمير الشخصي هو التحذر الذي يؤصل حضور أطراف العملية التواصلية في سياق مشبع، ومقام حي، "وهكذا فإن اللغة منظمة بشكل يسمح لكل متكلم بأن يمتلك اللسان كله عن طريق تحديد نفسه، باعتباره ضمير متكلم"²، والإمام هنا صار ضميراً متكلماً، وذاتية تتشخص من خلال هذه القرائن التلفظية يسعى إلى إيصال مرسلته التي تثبت موقفه وتحدد مسلكه في التواضع وتعظيم الله ﷻ، وهي الملفوظات التي ينقلها إلى الآخر،

¹ - بول جورج : التداولية، تر، قصي العتاي، الجار العربية للعلوم، ناشرون بيروت، دار الأمان، الرباط، 2010، ط1، ص 28.

² - إميل بنفينيسيت : الذاتية في اللغة، ص 68.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

ليتخذ من خلال هذا الخطاب التداولي السلوك الملائم الذي يليق بالإنسان ويظهر سيماه الإيمانية والإنسانية، وهو ما يتحدد في النسق الختامي من النص، حيث تتحول القرائن اللغوية من الضمير الشخصي الدال على المتكلم بصيغة الإفراد "أنا" إلى صيغة الجمع "نحن"، والمقرون بضمير المخاطب "أنتم"، وهذا ما يفصح عنه هذا السطر اللغوي التداولي وملفوظه: "فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره، يملك منا ما لا نملك من أنفسنا، وأخرجنا مما كنا فيه إلى ما صلحنا عليه"، وبهذا يتحدد وضع الاندماج بين الذات والآخر، وبينهما وبين خالقهم، في حق الربوبية وحقيقة العبودية، وهي السمة التي تحدد صيغة القرابة والعلاقة الحميمية الإنسانية الإنسانية، والإنسانية الإلهية التي تتخذ هذا الوسم الجمالي بنزع أردية المفاخرة وتعظيم الذات، وإلباسها حلل التواضع.

ويتضح من خلال هذا مقاصد الملفوظ الشخصي ووظائفه التداولية، لأن "الوظيفة التي أنشء من أجلها الخطاب هي وظيفة النص التي يمكن تحصيلها عن طريق تداولية الخطاب"¹، وهذا ما تؤسس له البنية العاملية، حيث أن الذات تبدو متوارية خلف حلة المتكلم [= المتواضع] أمام العظمة الإلهية، وذات متلقية مندججة في هذا المسلك، أو هكذا تظهر كما في المقطع الأخير من النص، حيث يكشف الخطاب عن عامل مساعد للذات، فإذا كان الثناء والمدح يعد عامل معاكسة للذات، ويقع في إطار الرفض، فإن ما يتعين في حق الذات المتلقية، هو الرفض كذلك، حيث نرى هذه الحوارية بأصواتها المتكلمة، صوت الذات المتكلمة، وصوت الذات المتلقية ينتهيان إلى وضع الاندماج، أي أن صوت الذات المتكلمة يحمل هذه القوة والحضور والتجذر والتمركز حول رفض سبل المدح والإطراء، لأن "أساس الذاتية يكمن في ممارسة اللغة"²، وهو ما جعلها تبقي على مسافة اللاندماج مع الذات الإلهية، يكشف عنه ضمير الغياب، "الإخراج نفسي إلى الله وإليكم من التقية"، وهذا التحديد يبني وضع الاندماج من خلال ملفوظ الضمير بين الإنسان [= الذات المتكلمة]، والإنسان [= الذات المتلقية]، لينتج الملفوظ اللغوي حالة اندماج جديدة بين الإنسان والله، القائمة على العبودية والتعظيم والإجلال، ولا شك أن التأشيرية التي يسفر عنها الضمير الشخصي، وحال التباعد والقرب، تفعلها قرائن لغوية تكررت في الخطاب، من أسماء الإشارة (ذلك وكذلك)، وظروف الزمان والمكان (عند- بعد)، لتتجلي صورة التجذر في ذات المتلقي الذي يريد الإمام أن يحمله إلى مستوى رفيع من الروحية والعلاقات المثالية أفقيا وعموديا.

¹ - حسين العمري : الخطاب في نهج البلاغة، ص 122.

² - إميل بنفينسيت : الذاتية في اللغة، ص 68.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

ثانياً: الذات المخاطبة: إن العملية الإبداعية هي عملية تداولية، ذات طابع تواصلية مع الآخر، ولهذا نجد أن الذات المخاطبة تشكل حضوراً نوعياً باعتبار أن الخطاب يتوجه إليها، وأن مقاصد الملفوظ تتحدد انطلاقاً من المراد الذي يتعين تحقيقه في تلك الذات، وتشكل الصيغ اللغوية المتعلقة بهذه الذات مرجعاً يربطها بالملفوظ، ولنرى هذه المعينات كيف تكشف عن هذا التشبيك بين الذاتين، وكيف يمكن أن يتحذر ويتأصل فيها، يقول الإمام مخاطباً أبا ذر الغفاري رضي الله عنه: "يا أبا ذر! إنك غضبت لله فارح من غضبت له، إن القوم خافوك على دنياهم، وخفتهم على دينك، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه، وأهرب منهم بما خفتهم عليه، فما أحوجهم إلى ما منعهم، وما أغناك عما منعوك، وستعلم من الراح غداً، والأكثر حسداً. ولو أن السماوات والأرضين كانتا على عبد رتقا، ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجاً، ولا يؤنسك إلا الحق، ولا يوحشك إلا الباطل، فلو قبلت دنياهم لأحبوك، ولو قرضت منها لأمنوك"¹، وتقوم مجموعة المعينات الشخصية الآتية: (الضمائر المتصلة، صيغة الفعل، والنداء)، ببيان تفاعل الذات المخاطبة مع الملفوظ، وتكشف عن حضور يتجانس موقفياً مع السياق الكلامي الذي تطرحه الذات المتكلمة، وهي حالة اندماج مبدئي تداولي، ويكشف ملفوظ الكلام عن تأشير دال على الدنو مع الذات المتكلمة، إلا أن المفارقة قائمة مع الضمير غير الشخصي، ضمير الغياب "هم"، الدال على تحول موقفي بين الذات المخاطبة [= ذات أبي ذر]، والضمير غير الشخصي [= هم]، ومقاصد هذا الملفوظ يبرزها هذا الجدول:

الضمائر المتصلة	التأويل	صيغة الفعل	التأويل	صيغة النداء	التأويل
- إنك..	يبرز حضور	غضبت، فارح	وهي تدل على تحذر	يا أبا ذر	تدل على الانتباه،
- غضبت	المخاطب في هذا	خافوك، خفتهم فاترك،	المخاطب في السياق		حيث يحضر
- دينك..	السياق التلغظي	أهرب خفتهم،	التلغظي في الزمان		المخاطب ذاتاً
- قبلت..	فاعلية وظائف	منعتهم، أغناك،	والمكان، حيث يجمع		متفاعلة مع
	تنبيهية وتأثيرية	ستعلم، لا يؤمنك، لا	بين الزمن		المتكلم، تعين
	وإبلاغية تكشف	يوحشك، قبلت،	[= الـدنيوي]		مقصد الملفوظ
	مقاصد المرسله.	قرضت	والأخروي [= غدا].		وتوجهه.

يتجلى من خلال هذه المعينات اندماج ذات المخاطب مع الذات المتكلمة، بفعل هذا الالتصاق الذي يندمج بين الفعل وضمير المتكلم، مما يؤكد على غياب أي صراع حدي بين الذاتين، "وهكذا فإن ضميري الشخص الأول والشخص الثاني الدالين على طرفي التواصل هما حقا

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 184.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

ضميرا شخص¹، بحيث ينسحب موقف الذات المتكلمة على الذات المخاطبة في وضع الزهد، والموقف من الدنيا، وإعلان الرفض لمسلك الانحراف القائم، وهذا ما جعل الذات المخاطبة تقف موقفا صراعيا مع الضمير الثالث، الدال على الغياب "هم"، أي مع الضمير غير الشخصي، وهو موقف الذات وتفردا عن موقف الجماعة، فهو داخل الملفوظ مع الذات المتكلمة، وخارج الملفوظ مع الضمير غير الشخصي، ولهذا يعتبر "ضمير الشخص الثالث الدال على فرد/غائب اللاشخص²". علامة ذات تأشير دال على تباعد، وتأشير لا يحقق الاندماج، وهنا نرى تلك المفارقة التي يجذرها الملفوظ الإشاري الزمني "غدا"، "في صيرورة كلية تشرف على المستقبل لتقرأ نهاياته المفضية إلى الحقيقة المثلى"³، هذا الزمن الذي يقيم جدلا بين حقائق الدين والدنيا، يكون ملفوظه التداولي حاملا لمرسلة متعالية عن الاسفاف الواقعي، ومتجاوزة لمحاولة تحذر اللحظة في الفعل ومقصده الذي يتحرك من وراء/خلف الدنيا، فالعلاقة بين المرسل والمتلقي، هي علاقة تألفية ممتدة في الزمان، فهي "تفتتح زمنا باتجاه الماضي والمستقبل فضلا عن الحاضر، وتفتح فكريا لتؤشر إلى ذلك التعامد الفكري والتقاطع بين المبادئ والقيم"⁴، وهنا يتحرك الملفوظ ليرسم هذا المساق التداولي، فقد غضبت: الآن وهنا [= في الدنيا]، وأنت الرابع: (غدا)، و(هناك) [= في الآخرة].

ثالثا: المعينات السياقية: التأشير المكاني والزمني: لا يمكن لعملية التواصل أن تتم إلا في إطار متعين في المكان والزمان، حيث يتشخص الحدث، وتتفاعل عناصر إنتاج الخطاب بين المتكلم والمخاطب في اندماج دال يفضي إلى تشكيل لساني تداولي متشابك، يقول الإمام: "وأخذوا يمينا وشمالا، طعنا في مسالك الغي، وتركنا لمذاهب الرشد فلا تستعجلوا ما هو كائن مرصدا، ولا تستبظئوا ما يجيء به الغد، فكم من مستعجل بما إن أدركه ود أنه لم يدركه، وما أقرب اليوم من تباشير غد. يا قوم! هذا إبان ورود كل موعود، ودنو من طلعة مالا تعرفون، ألا وإن من أدركها منا يسري فيها بسراج منير، ويخذوا فيها على مثال الصالحين، ليحل فيها ربقا وتعثق رقا ويصدع شعبا ويشعب صدعا، في سترة عن الناس لا يبصر القائف أثره، ولو تابع نظره، ثم ليشحذن فيها قوم شحذ القين النصل، تحلي بالتنزيل أبصارهم، ويرمي بالتفسير في مسامعهم، ويعبقون كأس الحكمة بعد الصبوح.

¹ - موشلر جاك - ريبول آن : القاموس الموسوعي للتداولية، تر، مجموعة من الأساتذة، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010، ط2، ص58.

² - المرجع نفسه، ص 358.

³ - حسين العمري : الخطاب في نهج البلاغة، ص 132.

⁴ - المرجع نفسه، ص 132.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

وطال الأمد بهم ليستكملوا الخزي، ويستوجبوا الغير، حتى إذا اخلولق الأجل، واستراح قوم إلى الفتن، وأشالوا عن لقاح حربهم، لم يمنوا على الله بالصبر، ولم يستعظموا بذل أنفسهم في الحق، حتى إذا وافق وارد القضاء انقطاع مدة البلاء، حملوا بصائرهم على أسيافهم، ودانوا لرتهم بأمر واعظهم، حتى إذا قبض الله رسوله (صلى الله عليه وآله)، رجع قوم على الأعقاب، وغالتهم السبل، وأتكلوا على الولاة، ووصلوا غير الرحم، وهجروا السبب الذي أمروا بمودته، ونقلوا البناء عن رص أساسه، فبنوه في غير موضعه، معادن كل خطيئة، وأبواب كل ضارب في غمرة، قد ماروا في الحيرة، وذهلوا في السكر، على سنة من آل فرعون: من منقطع إلى الدنيا راكن، أو مفارق للدن مبان¹. إن تكرار التأشير المكاني والزماني في هذا النص لافت، يوحي بتكامل الصيغ في تحقيق التواصل، وتأشير الملفوظ بحمولته الدالة على التباعد والدنو، والاندماج والاندماج، وهنا يبدو أن الخطاب وفي بعده التواصل والتلفظي إنما يتأطر من خلال هذا التأشير الزماني والمكاني، حيث يتم تفعيل وإثبات الفاعلية التواصلية من خلال حضور المتكلم كمنتج للنص، والمخاطب كمقصد ومرجع يؤول إليه²، حيث تشير مختلف الملفوظات الزمانية والمكانية إلى حالات التحول عن الحق وسياقه وسيرورته، ومكانه الذي فيه تأسس، والنص مشبع بهذا التأشير، نلاحظ فيه حضورا لافتا لهذه الصيغ التي بلغت حوالي [34 صيغة]، تتنوع بين تأشير التباعد عن معالم الحق الدال على (لا اندماج)، والدنو من معالم الضلال الدال على (اندماج).

يتحرك هذا الملفوظ وسط تماوج تداولي تبرزه تأشيريات الضمير الأول والثاني والثالث، ضمائر المتكلم والمخاطب و الغياب، حيث أن ضمير المخاطب يأخذ موقع الغياب [= أخذوا يمينا وشمالا، وطال الأمد بهم]، ليرز حالة التحول، ومن ثم "يبدو الأساس النفسي للتأشير الزماني مشابها لأساس التأشير المكاني، ويمكننا معاملة الأحداث الزمانية كأشياء قادمة إلينا (إلى مجال رؤيتنا)، أو مبتعدة عنا (خارج مجال الرؤية)"³، وهذا ما عملت الذات المتكلمة على تقريبه إلينا، أي مشهد الخسار لهذه الفئة من أهل الضلال بواسطة الصيغتين "يمينا وشمالا، الأمد" وكذلك حالة التباعد "نقلوا البناء إلى غير موضعه، مفارق للدن ليتجسم هذا التحول ويتجذر، بحيث ينصرف أهله عن الاندماج "قبض، رجع"، وهذا ما يجعل من الخطاب عبارة عن رصد يلتقط حالة التحول التي تنطق

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 199، 200، 201.

² - ينظر جميل حمدوي: سيميوطيقا التلفظ، ص 16.

³ - جورج يول : التداولية، ص 35.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

بها هذه الملفوظات، مؤشرا للملفوظ "تباعده" عن الحق "دانية" من الضلال، وفي المكان الذي يشهد تحولا عن مقصده المؤسس، إلى ما تدل عليه صيغة الفعل مع المكان "نقلوا البناء"، البعد عن الحق والقرب من الخسار، إلى "زمن الملفوظية أي الزمن الذي يتحدد فيه الحدث الذي هو إنتاج الملفوظ"¹، وهو حدث التحول بمآلاته، "فما أقرب اليوم من تباشير غد"، وهذا كشف عن حالة اللا اندماج الحاصلة بين الذات المتكلمة [= الإمام]، والذات المخاطبة [= أنتم] التي يعيدها الضمير غير الشخصي = الغائب (هم) إلى حالة الانقطاع، ويتوضح الأمر عندما يبدأ الملفوظ النصي في بدايته بظرفي مكان دالين على هذا الخبط في الجهات: "يمينا وشمالا"، والفعل "أخذوا" الدال على هذه المباشرة، ويتضاعف مع الملفوظ "مسالك ومذاهب" الدالين على مكان التحول.

وتشكل هذه المصنوفة من الصيغ تأشيريا دالا على التباعد النفسي بين الإمام والمخاطب، ويفقده التواصل معهم تجذر الذات = المتكلمة فيهم، ليكون في غربة روحية تنطق بمسافة فاصلة، فهذه الصيغ (يمينا وشمالا، الغد، اليوم، هذا إبان، دنو، بعد، مدة، الأمد، ورود، مسالك، الأجل، وارد، منقطع، الدنيا)، هي إضافة في الزمان والمكان من الدنيا إلى الآخرة، ومن الحق إلى الضلال، ذلك أن "للمكان فاعلية تأثير"²، وهاهي الدنيا مكانا بفاعلية و تأثير أنتج ملفوظه انقطاعا ومباينة، "من منقطع إلى الدنيا راكن، أو مفارق للدين مباين"، والأفعال "أخذوا، لا تستعجلوا، تجيء" الدالة على الماضي والمستقبل، والصيغ: "ما أقرب اليوم، هذا إبان، دنو" تتآزر في هندسة لحظة الحدث وملفوظه في الزمان والمكان، "لأن العقل إذا أراد تمثل الزمن فإنه يستخدم القدرة التي يملكها لكي يتمثل الفضاء (المكان)"³، وهذا التمثل هو تجذير فاعل تحاول من خلاله الذات المتكلمة تحقيق تواصل إيجابي، وإيجاد القنوات اللغوية لتمرير الرسالة في بعدها الاستعمالي التداولي الذي يصنع الحياة، وكى يصل ملفوظه إلى الآخر بغية سحبه في عملية اندماجية تواصلية.

II. الذاتية والموضوعية: المعينات وثنائية الذات والموضوع: لا يمكن للخطاب أن يرتقي إلى

مستوى من الإبلاغ وقوة التأثير إلا إذا تجسدت ذاتية المبدع حاضرة متجلية في النص، ولا يكون هذا الحضور إلا بواسطة الملفوظ اللغوي المجذر والمؤصل له، ولذا يحتاج المبدع إلى قرائن مهمة ودالة

¹ - جان سيرفوني : الملفوظية، ص 37.

² - النعيمي حسن محمد : سلطة المكان المغلق، قراءة في قصة "النور في اليوم العاشر"، لتركيبا تامر، عالم الفكر، ع03، مج41، 2013، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص26.

³ - جان سيرفوني : المرجع السابق، ص 40.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

تكون علامة سيميائية لتلك التجربة الحية بتفاعلاتها وتشابكاتها النفسية والاجتماعية والوجودية والواقعية، أي تلك العملية الواعية التي تستحضر معنى ذلك الحضور، إن هذا الحد يضع الذاتية في قلب الحدث الإبداعي، وهو ما يعكسه الملفوظ اللغوي الذي لا ينبغي أن يكون فارغاً من هذا التجسد، ويتطلب حده الآخر الذي يجعل من الذاتية المنغرس في تربة حياة المبدع ناطقة متكلمة، وهذا ما تسفر عنه عملية التبادل، والتداول للملفوظات، وكذلك انفتاح هذه الذات مع الآخر ليتحقق الكشف، ما يعني "إنساناً ممثلاً كاملاً هو الآخر"¹، موجوداً يضيء الذات ويجاورها، وما تقتضيه تداولية الكلام من وجهة تواصلية ومقصدية اندماجية تفاعلية، يقول الإمام: "إنما أنا قطب الرحى تدور علي وأنا بمكاني، فإذا فارقت استبحار مدارها، واضطرب ثقلها، هذا لعمر الله الرأي السوء! والله لولا رجائي الشهادة عند لقائي العدو - لو قد حم لي لقاءه - لقربت ركابي، ثم شخصت عنكم فلا أطلبكم ما اختلف جنوب وشمال. إنه لا غناء في كثرة عددكم مع قلة اجتماع قلوبكم. لقد حملتكم على الطريق الواضح التي لا يهلك عليها إلا هالك، من استقام فيلى الجنة، ومن زل فيلى النار"²، وفي نص آخر تتجلى فيه هذه الثنائية بملفوظها الدال، حيث يقول: "أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرأوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلى القتال فولهوا وله اللقاح إلى أولادها، وسلوا السيوف من أعمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً وصقاً صقاً، بعض هلك وبعض نجا لا يبشرون بالأحياء، ولا يعزّون بالموتى، مره العيون من البكاء، خمص البطون، من الصيام، ذبّل الشّفاه من الدّعاء، صفر الألوان من السّهر، على وجوههم غبرة الخاشعين، أولئك إخواني الدّاهبون، فحقّ لنا أن نظماً إليهم، ونعضّ الأيدي على فراقهم. إنّ الشّيطان يسّي لكم طرفه، ويريد أن يحلّ دينكم عقدة عقدة، ويعطيكم بالجماعة الفرقة، فأصدفوا عن نزغاته ونفثاته، واقبلوا النّصيحة ممّن أهداها إليكم، وأعقلوها على أنفسكم"³، وفي نص ثالث تبدي الذات المتكلمة تطلعها إلى الصفوة النموذجية بعد انحصار هذه الفئة الإيمانية، فيحن إلى تلك الأخوة الغائبة، فيقول: "أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن النبهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنية، وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة.

¹ - اميل بنفينيست : الذاتية في اللغة، ص 63.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 173.

³ - المصدر نفسه، ص 175.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

أوه على إخواني الذين تلووا القرآن فأحكموه، وتدبروا الفرض فأقاموه، أحيوا السنة وأماتوا البدعة، دعوا للجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتبعوه.

الجهاد الجهاد عباد الله! ألا وإني معسكر في يومي هذا فمن أراد الرواح إلى الله فليخرج¹، حفل هذا النص بقطعه الثلاث بعناصر تلفية متنوعة أسهمت في تداوليته، ومنح المرسل الكلامية خاصيات ذاتية وموضوعية، تجمع بين الحضور والغياب، والاندماج واللا اندماج، وإذا كان الإمام يعد محورا في هذا الخطاب، فإن هذه الذات تستدعي مقومات هذا الحضور وتجذره، انتماء يحققه الملفوظ، وطرذا ينفيه بالغياب، وهنا يكون الحديث عن الشيطان موضوعا يقع في خانة الهامش، في مقابلة ضدية لتمرکز الذات، ويمكن حصر العملية التداولية لهذه الملفوظات في ثلاث سياقات تحدد توجه الخطاب وتجاذباته بين الذات والموضوع، والحضور والاندماج واللا اندماج.

1- سياق الذاتية: أنا - أنتم: وتشكل من مصفوفات تلفية، هي المعينات التأشيرية لهذا الحضور والاندماج. إن الضمير الشخصي الدال على الذات المتكلمة زمن التلطف "أنا" يظهر بقوة دلالة، فهو محور تركز مع الصيغة التقويمية للحكم: "قطب الرحي"، كما يتجلى في الجزء الأول من القول، ليصبح بذلك هذا الضمير مدارا جاذبا يفعله بصيغة التملك "علي - بمكاني"، ومن خلاله يثبت هذه السلطة المعنوية الروحية القيادية، ولذا فالذاتية "هي مقدره المتكلم على طرح نفسه باعتباره "ذاتا"² يؤول إليها الكل، إبعادا لصور الاضطراب والتخالف، وهو ما تسعى إليه مختلف صيغ الفعل والضمائر، لأن هدف هذا التحذر للضمير الشخصي حمل المخاطب "أنتم" على "الطريق الواضح"، وهذا يعد من صيغ التقييم والحكم، "فمن استقام فإلى الجنة"، ولذا فإن هذا السياق الأول يطرح حالة لا اندماج بين ضميري "أنا" و"أنتم"، وتثبته صيغ التقويم والضمائر: "والله لولا رجائي الشهادة"، يقع هذا الموقف في مواجهة الصيغة: "لقرت ركابي، ثم شخصت عنكم فلا أطلبكم ما اختلف جنوب وشمال"، وهي حالة مفرغة من وضع الاقتراب والتفاعل والاندماج، "مع قلة اجتماع قلوبكم"، تعبيرا عن توتر يزيد من قلق الذات في محاولة تجذرها وتجسدها ذاتا [الإمام].

2- سياق الموضوعية: أنا - هم: ويكشف عنه المقطع الثاني من الكلام، حيث تغيب الذات المتكلمة، بينما يكون الضمير اللاشخصي بارزا من خلال المعينات التأشيرية، فالضمير "هم" يحيل على القوم بصيغ التقويم والأفعال، ومتتالية الصيغ التعبيرية والانفعالية، "أولئك إخواني الذاهبون"،

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 250، 251.

² - إميل بنفينيست : الذاتية في اللغة، ص 64.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

ويوضح الملفوظ الإشاري "أولئك" هذا الحضور الدال على جانب الموضوعية في غياب الذاتية، في محاولة لإثبات موقف نقيضي لما هي عليه حالة تشخص الضمير "أنتم"، وهو ما يظهر من خلال مطارحة اندماجية "فحق لنا أن نظماً إليهم"، هذه الرغبة في التجذر تحاول أن تتجاوز وضعاً جديداً يطرحه سياق الموضوعية مع الضمير اللاشخصي "هو" الذي يؤشر إلى متعين هو الشيطان الذي يقف كحالة موضوعية تقابل الضمير الشخصي "أنتم"، حالة مفرغة من القيمة والتواصل، إلا أن وضع الغفلة أمام سعيه: "يسني - يريد - يعطيكم"، تبرزه هذه الأفعال وكذا تجذر ضميره اللاشخصي ليتحول هذا الوضع إلى صورة من الاندماج أمام تراخيهم، "فأصدفوا، وأقبلوا، وأعقلوها"، وهي حالة اندماج في مقابل لا اندماج بين الضمير الشخصي "أنا" الذاتية، و"هو" الآخر، وعليه "فإن الوعي بالذات غير ممكن، إلا إذا تحقق عبر التضاد"¹، وهو ما يكشف عنه السياق بتأثيراته ومعيناته.

3- سياق الذاتية والموضوعية: أنا- هم: يبرز الجزء الثالث من المقول هذه الوضعية التلفظية بين السياقين، وقد نوع الإمام من المعينات الدالة على التأشيرين، بحيث تبرز تجذر الذات في التشوق إلى الإخوان، بدأتها الصيغة الانفعالية: "أين إخواني"، ليثبت هذه القرابة المعنوية، وأبرزت الضمائر والأفعال، وصيغ التقويم، وألفاظ القرابة والعلاقات الحميمية، حقيقة تلفظية بحضور الذات واندماجها مع الغياب الذي يظهره الضمير "أنتم"، لإعادة بناء هذا القائم الموجود، كما تثبت صيغة الإغراء التقويمية محاولة الذات تحقيق اندماجها من جديد مع هذا القائم من خلال صيغ المكان والزمان "معسكر في يومي"، واسم الإشارة "هذا" في تحديده لمقصد الملفوظ الذي يفعل بصيغة الفعلين "أراد- فليخرج"، مع صيغة التقويم "الروح إلى الله"، وهي محاولة الوصل والاندماج التي تسعى إليها الذات لتحقيقها، "فما نجد في العالم هو الإنسان المتكلم"²، بواسطة اللغة أين تجذر الذات عبرها وتعلن رغبتها في التواصل والحضور والاندماج مع أهل الحق بإرادة الشهادة.

ثانياً: النظرية الحجاجية:

- **مفهوم الحجاج:** يقول "ابن فارس": "يقال حاججت فلانا فحججته، أي غلبته بالحجة، وذلك الظفر يكون عند الخصوم"³، وتقتضي الحياة بوصفها طبيعة صراعية هذه المغالبة بالحجة لتصحيح التصورات والظهور، وفي التعريفات: "الحجة: ما دل به على حجة الدعوى، وقيل الحجة

¹ - إميل بنفنيست : الذاتية في اللغة، ص 64، 65.

² - المرجع نفسه، ص 63.

³ - ابن فارس : مقاييس اللغة، ص 197.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

والدليل واحد"¹، ومعنى هذا أن كل إدعاء يتطلب حجة ودليلاً يحقق الإقناع والقبول أو الخضوع لتلك الحجة، أو لسلطة الأمر، "والحجاج أصلاً لا ينشأ إلا إذا كانت هنالك مشكلة تتطلب الحل وتحتاج إلى الحسم والعمل الجاد لمواجهتها"²، أي ظهورها على مقولات الخصم، وهذا ما يجسد هذه الغلبة، وهي قوة في الخطاب تمنح للفكرة طاقة تمتد من خلالها إلى الذوات الأخرى، لخلخلة موقعها وتغييرها، وعليه فالحجاج "آلية تأويلية يستخدمها المحاج/المؤول، لإثبات مواقفه وترشيح آرائه"³، وهذه الإرادة تبحث تحقيق إنجاز حي في ذلك المشهد الإنساني المتحاور عليه بالكلمة والفعل، حيث تظهر سطوة المحاج بتأويله للسياقات، يقول ابن الأثير: "هو مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال"⁴. مخادعات تأويلية تحمل على الإذعان والإنجاز، وكما يقول "روبول": "أن الحجاج يتوجه إلى الإنسان في كليته، إلى الكائن الذي يفكر، لكن الذي يفعل ويحس أيضاً"⁵، فالخطاب ببعده التداولي يحقق هذا النفاذ والهيمنة، لكي يمارس حيويته التي تقتضيها الوظيفة التواصلية، "لأن الدفع إلى الفعل هو أهم وظيفة حجاجية"⁶، لأن إنجازية الخطاب هي ما يجعل المتكلم يشحذ آلياته الحجاجية بمقاصدها التي يرصد لها مختلف التقنيات الحجاجية، ويبنى استراتيجية حجاجية تحقق له هذا المتغى، وهو ما عمل الإمام على تحقيقه بتصميمه البرهاني مع الخصوم والمتراجعين المنكفئين على أنفسهم عن سلطة الحق، وعليه فالحجاج: "ليس قمعا لفكر الآخر بقدر ما هو إخماد للتصورات الساذجة الخالية من أي مضمون"⁷، في مسار نزالي يتطلب إرادة الفعل وقبلة بلاغة الكلمة تحقيقاً لاسترداد وازن واستعادة حيوية فاعلة:

I / الحجاج اللغوي: هل تحمل اللغة خاصيات حجاجية؟! وهل في أنساقها ونظمها قوة الإقناع والتأثير؟! مما لا شك فيه أن اللغة، هي تمثل لعلامات خطاب دال وكاشف، حيث تظهر قوتها باعتبارها فاعلية تواصلية، أي في اجتماع مقومات توجيه مقاصد الخطاب، سانحة بذلك بوصول الرسالة وتحقيق مقصد القول، وهذه عملية مشتركة تداولية بين أطراف الخطاب، ولذا فإن الحجاج

¹ - الشريف الجرجاني : التعريفات، ص 73.

² - بشير إمام زكريا : حول مفهوم الحجاج في القرآن الكريم، مجلة دراسات دعوية، ع4، يوليو 2000، جوبا، السودان، ص 91.

³ - الشيعان علي : الحجاج و الحقيقة وآفاق التأويل (بحث في الأشكال والاستراتيجيات)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2010، ط1، ص64.

⁴ - ابن الأثير : المثل السائر، ج2، ص 64.

⁵ - روبول أوليفي : مدخل إلى الخطابة، تر رضوان العصبية، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2017، ص 127.

⁶ - الزبيدي رائد مجيد جبار : رسائل الإمام علي في نهج البلاغة، دراسة حجاجية، مؤسسة علوم نهج البلاغة في العتبة الحسينية المقدسة، كربلاء العراق،

2017، ط1، ص69.

⁷ - شندوخ هادي وبرزان حيدر: وظيفة الحجاج في نهج البلاغة، مجلة كلية الآداب جامعة بغداد، ع97، 1972، مطبعة المعارف بغداد، ص 330.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

اللغوي حاضر في بنية اللغة، ويتمثل في مختلف "الوسائل والإمكانات اللغوية التي تمدنا بها اللغات الطبيعية لتحقيق بعض الأهداف والغايات الحجاجية"¹؛ هذه الغايات التي تتنوع بما يستجد من مواقف كلامية تتجلى في مختلف صور القول الخطابي ببعده التواصلي، لتصبح الخصائص المكونة للأقوال حجاجية التي "هي خصائص لغوية أو دلالية"²، تهدف إلى حمل المتلقي على الخضوع لسلطة الخطاب، باقتناع جمالي إذعاني، وهذا بوصفه طرفا مشاركا في إنتاج الخطاب، وتوجيه مساراته بتوجيه المتلقي الذي يدخل في عملية محاجة مع الأقوال الخطابية، وما تمليه الوظائف التداولية للغة بنسقتها الطبيعية، قرائن إثبات، ووسائل تأثير حي، تضطلع بها الأدوات والروابط اللغوية.

- الروابط الحجاجية: جاء في "القاموس الموسوعي للتداولية"، في معنى الرابط اللغوي الحجاجي قولهم: "إن الرابط هو علامة لغوية ترتبط بين عمليتين لغويتين داخل القول الواحد، ونقول عن رابط حجاجي إذا ما ربط بين عمليتين حجاجيتين وأن عمل الحجاج يتمثل في إلقاء قول يعمل عمل الحجة"³، والمستفاد هنا ارتباط المقولات اللغوية فيما بينها برابط حجاجي وظيفي يحتوي عمليا على مقدمة مؤسسة ونتيجة ينتهي إليها، بحيث يكون للرابط دورا هاما في بيان حجاجية الكلام وقيمه، وفي توجيه المتلقي إلى الدلالة المتعينة المقصودة، فالروابط "لكن، بل، حتى، كي، الواو، الفاء"، روابط لغوية تتجلى وظيفتها في تحقيق انسجام الخطاب وتماسك بنياته النصية، وإبراز بعده الحجاجي.

1- روابط التعارض الحجاجي: وتمثله بالرابطين "لكن"، و"بل" :

أ- الرابط الحجاجي (لكن): وهي عند "ابن هشام" تفيد "الاستدراك، وفسر بأن تنسب لما بعدها حكما مخالفا لحكم ما قبلها، ولذلك لا بد أن يتقدمها كلام مناقض لما بعدها"⁴. إن هذا الربط الذي تقوم به هذه الأداة بين أقوال تظهر متناقضة أو متنافية، هو ترجمة فعلية تدعو المخاطب إلى حال من الاستدراك لجهة ما، ويحمل في طياته محاجة ضمنية كشفية، "وعليه فهو من الناحية الحجاجية ربط حجاجي تداولي بين المعطى والنتيجة"⁵، فنحن أمام حجتيين ظاهرة وضمنية، وهي أقوى دلالة وتعبيرا من الأولى، وقد ميز "ديكرو" بين استعمالين لهذا الرابط الإبطلائي مثل: "ليست

¹ - العزاوي أبو بكر : الحجاج و الانسجام في القرآن الكريم، خواتيم سورة البقرة نموذجا، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، مطبعة النجاح الجديدة، ع5، 2014، الدار البيضاء، المغرب، ص 45.

² - جاك موشلر، آن روبول : القاموس الموسوعي للتداولية، ص 321.

³ - المرجع نفسه، ص 299.

⁴ - ابن هشام : مغني اللبيب، ج01، ص 320.

⁵ - رائد مجيد جبار الزبيدي : رسائل الإمام علي في نهج البلاغة، دراسة حجاجية، ص 108.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

السيارة سوداء ولكن بيضاء"، فهذا التعارض إبطالي وليس حجاجي، وأما الآخر فهو التعارض الحجاجي¹، في مثل قول الإمام: "هذا جزء من ترك العقدة! أما والله لو أي حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيرا، فإن استقمتم هديتكم، وإن اعوججتم قومتكم، وإن تداركتكم لكانت الوثقى، ولكن بمن، وإلى من؟ أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة"²، ففي هذا النص نلاحظ أن الرابط "لكن" ومن خلال توضع في السياق يتم فصل في بؤرة مركز بين حقيقتين متعارضتين، في محاججة قائمة على بنية نسقية متضادة، فما كان قبله يحمل حجة مضمنة بمخرجاتها الواقعية، ذلك أن أمر الإمام إلى الناس بما فيه من مكروه حملهم عليه، فيه الخير لهم بناه على سياقات شرطية إن تحققت كانت الوثقى، حيث يوجههم إلى الهداية والتقويم والتدارك، وهو مؤسس على موقفهم من الاستقامة وقابلية الانقياد لذلك الأمر.

إن هذه الحجج سوف تسقط أمام تحاذلهم وانفكاكهم، لذا تأتي الحجة الثانية بعد الرابط لتقييم تعارضا بينا مع السابقة، فالرابط "لكن" يوضح "علاقة القوة الحجاجية ويوضح أيضا مفهوما جديدا هو مفهوم التناقض"³، المضمنة لنتيجة طبيعية افتراضا، الاستجابة للخير وعدم ترك العقدة، فما بعد الرابط أسس لحجة نقيضة ونتيجة معاكسة للأولى، تحمل أولى مؤشرات ترك العقدة وعدم الاستجابة، إلا أن المضاعفة الحجاجية كانت فارقة، لأن الصيغة التركيبية بعد "لكن" قد وردت استفهامية مجازية بجمولاتها الدلالية، فهي محاججة لموقفهم ومبدئهم، ذات طبيعة إنكارية تعجبية مملوءة بالتحسر، "فمن" المسبوقة بحرف الجر "الباء" تشخص ذاتا غير قادرة على السير في هذا الطريق، تؤشر إلى عدمية واضحة، وهو ما أوضحه الاستفهام "إلى من" في إشارة إلى من يكون له التوجه وغايته، لينكشف جليا ضالة هؤلاء القوم أمام الحق، ولذا فإن "هناك ظرف للحجاج، وهناك ظرف للعمل الجاد المتوجه إلى أهدافه الخاصة"⁴، يبرزه قول الإمام: "أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي"، وهي حجة أخرى تتصاعد في هذا السلم الحجاجي، ليقوم الحجة القاطعة على هؤلاء، فهم داء لا دواء، فلماذا المحاولة مع هذا النوع المهترض الإرادة، ولأن الأمر يتعلق بأمر الخلافة وخير الأمة، وبطريق من طرق المكاره كان لا بد من أن يتضاعف النسق الحجاجي إلى ذروته، فجاء

¹ - ينظر رائد مجيد جبار الزبيدي : رسائل الإمام علي في نهج البلاغة، 109.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 174، 175.

³ - حسين العمري : الخطاب في نهج البلاغة، ص 301.

⁴ - زكرياء بشير إمام : حول مفهوم الحجاج في القرآن الكريم، ص 91.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

بمحااجة جديدة هي الأقوى في هذا السلم، وتتمثل في حجة المثل، وأصله: "لا تنقش الشوكة بالشوكة فإن ضلعها معها"¹، وهي صورة بليغة تلخص هذا المقام بأحواله، ومضرب المثل في المخاصمة، حيث يتم الاستعانة بقريب المخاصم وأهله، وهنا تصل المحااجة إلى ذروة تمامية، ذات مطلب تأويلي منشط لذهن المتلقي يسحبه إلى جهة ملء المحل الشاعر لهذا التمثيل الذي صار بنية لغوية، ووظيفة حجاجية، فوق الوظيفة الشعرية والإبلاغية، والإقناع بالقوة الحجاجية المؤطرة بهذا الرابط تنفتح أمام إستراتيجية الخطاب، وصولاً إلى النتيجة المضمنة في الأقوال، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾²، فهذا قطع صلة، فأمر الخلافة والعقدة هو حالة وصل بالله و ميثاقه، وترك هذا هو فتح أبواب الفساد في الأرض، وتخل عن منهج الحق من أهله، وجميع هذه الحجج المبطنة متصاعدة قوة ومتدرجة دلالة وإحاطة تحقيقاً للتأثير والإقناع، وذلك "لأن ترتيب الحجج له دور في فهم المعنى"³، من تبني إستراتيجية الخطاب ومقاصده النهائية، حيث أن إقامة منهج الحق وبناء دولته، يتقدمه وجود عناصر البناء، فهو "يقدم احتجاجه بطريقة وعظية وجدانية لها آثارها في الإصلاح المستقبلي"⁴، من فئة حية عاملة طائعة، ذات إرادة قوية، تتمثل الحق.

ب- الرابط الحجاجي (بل): وهي من الأدوات التي تستعمل مثلها مثل "لكن" للإبطال والحجاج⁵، مما يفترض طاقة دلالية متوزعة على مدار النسق التركيبي، وقوة حجاجية مرجحة لكفة القول اللغوي الذي يأتي بعدها، وهذه الأداة مثلها مثل "حتى": "ينتميان إلى قسم حجاجي واحد"⁶، يمكن رصد دالاتها الحجاجية في كثير من سياقات نصوص النهج، يقول الإمام في محااجة أخرى تدفع إلى توجيه نوعي يتمثل في تعلم القرآن: "وتعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستغشوا بنوره، فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص، فإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله، بل الحجة عليه

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 175.

² - سورة البقرة، الآية 26.

³ - رائد مجيد جبار : رسائل الإمام في نهج البلاغة، دراسة حجاجية، ص 112.

⁴ - هادي شندوخ وحيدر بزان : وظيفة الحجاج في نهج البلاغة، مجلة كلية، ص 329.

⁵ - رائد مجيد جبار : المرجع السابق، 118.

⁶ - جاك مودلر، آن روبول : المرجع السابق، ص 300.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

أعظم، والحسرة له ألزم، وهو عند الله ألوم¹، ففي القسم الأول من النص يقيم الإمام حجة ضمنية بنتائجها البينة، من خلال الدال اللغوي "تعلموا" المستحثة للمتلقي، لكي ينهض إلى الاسترشاد بهذا المعلم، وهو فعل توجيهي إنجازي يحمل غايات ومقاصد المتكلم، فهذه الحجة تلخص ضرورة مهمة، لخدمة غرض ضمني من الخطاب، فتعلموا القرآن، تعني إمكانية محققة، كما أنها موجبة لغاية ضمنية تفهم وراء هذا التعلم، أي الدعوة إلى العمل به في الحياة وموافقته التي تعادل موافقة الحق، ولذا فإن الجهل والحيرة مردها الانصراف عنه، كان "لابد عليه أن يسخر ما يمتلكه من طاقة حجاجية في محاولته تصحيح المسار الثقافي الذي درج عليه المجتمع من قبل"²، وفي هذا المسار الذي أراده الإمام في تخصيص خطابه في القرآن والاقتناع بوظيفته الحيوية، فإن الجملة الثانية من القسم الثاني الواقع بعد الرابط "بل"، تضاعف حجاجه، بل وتجعل من الحجة الثانية هي الأقوى، هذا إذا افترضنا ضمنا أن الناس أعرضوا عنه، أو أنهم وهو الأفظع أنهم تعلموه دون العمل به، "لأن الحجة التي ترد بعد (بل) أقوى من الحجة التي ترد قبلها في إقامة المعنى الكلي وإقامة الحجة³. إذن فالحجة الثانية أقوى في تحديد إستراتيجية الخطاب، وهنا نقف عند هذا المقتضى الضمني، ويعني أن العلم المستفاد من القرآن وأن العمل به يعني موافقته، وأن مجانبة هذه الحقيقة حيرة وتيه وخسار، وعند هذا المفصل يكون الكسر والانحطام، فكان لابد أن تتضاعف الحجة عليه -الإنسان- تلزمه الحسرة من التفريط والتضييع، وشدة اللوم عند الله، لأنه عرف فعطل، وعليه فإن "كل وسيلة للإقناع الحق تعد منطقاً سليماً معيارياً بهذا المفهوم"⁴، كما يطرح المنطق القرآني في خطابه للناس ومحاجتهم ودفعهم إلى تمثل الحق، لأنه "لم يستخدم إلا المنطق الحق"⁵، والإمام ينهج في كلامه هذا المنطق ويدفع إليه ويستحث المتلقي إلى أن يخلق في مدارات القرآن، وما هي الحجة الثانية الضمنية تفصح عن مخرجات واقعية، تركز هذه الحقيقة وتعلنها إلى المخاطب: أنكم غير مطبقين للقرآن، فأنتم والقرآن خطان، وأن انحرافكم هو انحراف عنه، وهذا تخل بين، ومادام أن الإمام يفتح ضمنا هذه المحاججة، فهو يمنحها مسارا تصاعديا، أي سلما حجاجيا، بحيث يصل الوضع الوقائعي إلى حد

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 162.

² - حسين العمري : الخطاب في نهج البلاغة، ص 294.

³ - رائد مجيد جبار : المرجع السابق، ص 123.

⁴ - زكرياء بشير إمام : حول مفهوم الحجاج في القرآن الكريم، ص 96.

⁵ - المرجع نفسه، ص 96.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

متطرف وأقصى في تطرفه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾¹، وهذا المعنى الضمني يكون عليه كل هاجر له، وكل متعلم له بلا عمل. إن هذا التصاعد الحجاجي الذي يبدأ من سلم الحيرة وعدم الاستفاقة، إلى عظم الحجة عليه، إلى حسرته، إلى اللوم، لا شك أنه يدفع المتلقي إلى محاججة ذاتية عقلية تنهي هجره للقرآن، ومن ثم فإن عودة الروح إلى الأمة، وإلى خطها التاريخي، هي العودة إلى القرآن وتعلمه وتعليمه وتحكيمه.

2- روابط التساوق الحجاجي: الرابط (حتى): وتقوم هذه الروابط بعمل وظيفي في الربط بين الحجج، في إتجاه تحقيق نفس النتيجة، فمن معاني "حتى"، أنها "حرف يأتي لأحد ثلاثة معان: انتهاء الغاية وهو الغالب، والتعليل، وبمعنى إلا في الاستثناء، وهذا أقلها"²، وواضح من دلالتها على الغاية والتعليل هذا الارتباط بين قسميها، ما يجعل التساوق في الخطاب بينا، يقول الإمام: "وكم عسى المجري إلى الغاية أن يجري إليها، حتى يبلغها، وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه، وطالب حثيث من الموت يحدوه، و مزعج في الدنيا حتى يفارقها رغما"³، ومدار حديث الإمام هنا عن سعي الإنسان الذي يحاوله في هذه الدنيا، وهو محدود في حركته بمقدار لازم، فوضع له حدا وغاية، هي نهاية السير والبلوغ، وهذا ما أوضحه الرابط الحجاجي "حتى"، حيث يقيم الإمام محاججة مبصرة للمتلقي، هدفها إعلامه بنهاية الدنيا، وبلوغ كل إنسان هذه الغاية، هذه الحجج بمخرجاتها تدفعه إلى معاودة بناء مفاهيمه، وتزداد المضاعفة لهذه الحجة بما يورده بعدها من حجج موسعة للأولى، و هي أبنية محاججة متساوقة مع نتائجها الختامية، تكشف النتيجة المؤسسة عن هذا المقول، و بهذا " تتساوق الحججتان في رفق النتيجة بالطاقة الحجاجية الفاعلة"⁴، ومن ثم فكل بقاء له يوم انتهاء، وطالب حثيث من الموت يتبعه، وهذه الحجية تفصح عن قوة النتيجة، بفاعلية دلالية شديدة التأثير والإقناع، وعليه "تبقى الحجة التي يأتي بها الرابط (حتى) هي أقوى من الحجة التي سبقتها"⁵، وكلها علامات بينة في تحديد وظيفة الحجج، كشفية وتأويلية، لذا تكون هذه الحجج المتصاعدة هي بمثابة إزعاج للمتلقي من سكرته بالخلود والركون إلى الدنيا، لأن المفارقة للدنيا تكون رغما عنه، وإن تشبث الإنسان بالدنيا يأتيه البطلان من جهة نقصانه بموته، وبذلك تصبح

¹ - سورة الفرقان، الآية 30.

² - ابن هشام مغني اللبيب، ج01، ص 141.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 145.

⁴ - رائد مجيد جبار الزبيدي : آليات الحجج اللغوي في رسائل الإمام علي، ص 124.

⁵ - المرجع نفسه، ص 124.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

كل هذه الحجج مؤسسة للنائج، بلوغ الغاية ومفارقة الدنيا، فتساوق الحجة والنتيجة يظهر تماسك الخطاب وترابطه العلائقي، وإستراتيجية الحجاج المؤطر بهذه الكيفية واحدة مبدأ وختاماً، مادام أن الموت يتبع الإنسان ويفقده الخلود، وهي النتيجة الضمنية التي حشد لها هذا التأطير الحجاجي.

3- روابط التعليل الحجاجي: إن تعليل المتكلم لخطابه يعد من الضرورات التداولية، فمن وجهة دلالية يعلل ويفسر ويبرز مقاصد القول ليربط بين النتيجة والحجة، وتمنح المخارج النهائية للوقائع الخطاب قوة وفاعلية تأثير من جهة ثانية بهذه الروابط: [لأن، لام التعليل، كي، والوصل السببي].

أ- الرابط (لأن): يقول الإمام: "والله ما أرى عبد يتقي تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه، وإن لسان المؤمن من وراء قلبه، وإن قلب المنافق من وراء لسانه، لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم تدبره في نفسه، إن كان خيراً أبداه، وإن كان شراً واره"¹. اعتمد الإمام في هذا القول على الرابط التعليلي الحجاجي "لأن" الذي يفيد التعليل، حيث تتقدم النتيجة ويأتي بعدها التعليل المناسب لها، "ويعد هذا الرابط من أهم ألفاظ التعليل والتفسير، وهو إلى جانب هذا يستعمل لتبرير الفعل، كما يستعمل لتبرير عدمه"²، فبيان العلل والأسباب يزيل غوامض ما تم تأكيده وتقريره، وقد قدم الإمام نتيجة لكلامه عندما تحدث عن دور اللسان في توجيه الإنسان وفاعليته، ومن خلال مقارنته بالمنافق الذي يخالف المؤمن في التفكير والسلوك، يكشفها الرابط: لأن:

النتيجة: إن التقوى تكون بخزن اللسان، أو أن آية التقوى تتمثل في خزن اللسان.

الحجة: ح 1 : - إن إرادة المؤمن الكلام تدفعه إلى تدبره في نفسه.

ح 2 : - إن كان خيراً أبداه.

ح 3 : - إن كان شراً واره.

إن هذا الحجج تتحرك متصاعدة في سلم يبرز في النهاية دفع الشر المنبعث من النفس وتحصيل الخيرية، وهذه أقوى الحجج، ولا يمكن لهذه الحجة أن تظهر إلا إذا تم تدبر الكلام ومراقبته، حتى يظهر من الإنسان الصلاح والخيرية، وعليه فهذه العملية التعليلية الحجاجية، هي كشفية، وذلك أن مقتضى الخطاب من متطلباته الضرورية أن يلجأ فيه إلى التعليل والتفسير والتبرير، لأن الغايات المتحكمة في كل إرسالية تحقيق التأثير والإقناع والتوجيه بصحة طرح المتكلم³، فالنتيجة التي

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 240.

² - رائد جبار الزبيدي : المرجع السابق، ص 133.

³ - ينظر المرجع نفسه، ص 133

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

تم التأسيس لها تقتضي الإقناع بجدواها وأهميتها في إحداث الأثر، ومن ثم توجيه المتكلم إلى تلك الاستراتيجيات، تحصيل الحالة العرفانية التي تتشاكل مع الجوهر الروحي للرسالة.

ب- لام التعليل: لقد حمل الإمام على عاتقه محاولة تصحيح مسار الأمة على خط النبوة، لذا كانت محاججاته تصب في هذا الباب، ونجده في هذا الكلام يعتمد رابطا حججيا تعليليا جديدا، هو "لام التعليل" الذي يفيد الاختصاص وهو تميز دال تكشف عنه العملية الحجاجية المعللة لارتباطي النتيجة والحجة، ويحدده "ابن هشام" في إفادة "التعليل"¹، يقول الإمام: "لو تعلمون ما أعلم مما طوي عنكم غيبه، إذا خرجتم إلى الصّعدات، تبكون على أعمالكم، وتلتدمون على أنفسكم، ولتركتكم أموالكم لا حارس لها، ولا خالف عليها، ولهمت كل امرئ نفسه، لا يلتفت إلى غيرها، ولكنكم نسيتم ما ذكرتم، وأمنت ما حذرت، فتاه عنكم رأيكم، وتشتت عليكم أمركم، ولوددت أنّ الله فرّق بيني وبينكم، وألحقني بمن هو أحقّ بي منكم"²، ورد هذا الكلام في سياق نصيحة أصحابه، ومن ثم دفعهم إلى محاجة ذاتية ومكاشفة واعية، تحرك الطاقات نحو الإنماء والعرفان، بيدوها الإمام بوضع نتيجة مستفزة ومستحثة وردت في سياق شرطي، أعقبت بحجج متنامية تحمل وظيفة كشفية وتأويلية وتربوية، مع الرابط "لام التعليل":

النتيجة: لو تعلمون ما أعلم مما طوي عنكم غيبه..

الحجة: ح 1 : - خرجتم إلى الصعدات تبكون أعمالكم.

ح 2 : - تلتدمون على أنفسكم.

ح 3 : - تركتم أموالكم لا حارس لها ولا خالف عليها.

الحجة الأقوى ح 4 : - همت كل امرئ نفسه لا يلتفت إلى غيرها.

ثم يأتي الإمام بسلسلة حججية جديدة مضاعفة للسلم الحجاجي، فمن هذه القوة الحجاجية يأتي كشف جديد، يبدأ مع الرابط الحجاجي "لكن" الدال على التعارض، بحيث ينسف من خلاله إمكانية تحقق عملهم بما ينتظرهم، وهذا الرابط يزيد من إنماء نسق الخطاب.

ح 1 : - نسيتم ما ذكرتم.

ح 2 : - أمنت ما حذرت.

ح 3 : - فتاه عنكم رأيكم.

¹ - ابن هشام : مغني اللبيب، ج01، ص 234.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 171.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

ح 4 : - و تشتت عليكم أمركم.

ح 5 : - و لوددت لو أن الله فرق بيني وبينكم.

الحجة الأقوى ح 6 : - ألقني بمن هو أحق بي منكم.

ومن ثم تتحرك هذه الحجج المرتبطة بالنتيجة لتعلل حقيقة هؤلاء القوم وما هم عليه، كما أنها تبرز عدم أهليتهم لاستقبال هذا العرفان، وتحصيل الكمال والإنسانية، فهذا برهان قاطع على عدم قبولهم النصيحة، فالإمام يبني هذه العملية التعليلية على تقابل ثنائي طرفاه هو والقوم المخاطبون، "لأن هذه الوسيلة من التقابل الحجاجي (الأنا والآخر) تدفع بالمتلقي إلى تقبل هذه الهزة المباغته للأشياء المضادة في تفكيره الراسخة في قناعاته"¹، فقد انصبت محاججته في إطار تقابلي هدفه تنزيهي ليتحرر المخاطبون من المادة والشهوات والهوى ضرورة، وليأخذوا موقعا جديدا من خلال هذه الإستراتيجية الحجاجية التي جعلت الإمام يضع قوة المحاججة في أمنيته أن يفارقهم ويلحق بقوم آخرين مختلفين عنهم "ميامين الرأي"²، وهو وضع يظهر من خلال الوقائع الحجاجية باستحالة تحريكه، ولكن إقامة الحجة تصبح هي الضرورة الوظيفية الأقرب إلى التمثل، "ولذلك فإن الحجاج أمر حيوي"³، وعليه فلب بناء هذه الإستراتيجية الحجاجية، هو في هذا الإحياء العرفاني.

4- روابط العطف الحجاجي: يدخل العطف بوصفه تعالقا دلاليا جامعا للقضايا ورابطا للحجج بالنتائج، يظهر الأثر الشكلي للعطف في إحداث التماسك والانسجام النصي، كما يمنح الحجج صفة ترايبية متنامية تحقيقا لطاقة الحجاج وقوته التأثيرية، ومن هذه الروابط نجد الواو والفاء، ومن ثم فهي عبارة عن عوامل دلالية، كما أنها تمثل تنصيذا للقضايا والحجج بنتائجها.

أ- الرابط الحجاجي (الواو) : وهي "الواو العاطفة، ومعناها مطلق الجمع، فتعطف الشيء على مصاحبه؛ وعلى سابقه، وعلى لاحقته... وللترتيب كثير، ولعكسه قليل"⁴، ويقوم الرابط "الواو" بالجمع بين قضيتين، وهذا الجمع باعتباره زيادة تركيبية وإفاضة دلالية يمنح قوة وطاقة حجاجية، وهي الوظيفة التي تمد المحاج بإمكان استراتيجي مضاعف لا يدع مجالا للمخاطب من الهروب بفضل هذا السلم التراتبي الذي ينتج عنه، بفاعليته الخطابية، والمطلق في الجمع هو حكم نحوي، وحكم

¹ - هادي شندوخ وحيدر بزان : رسائل الإمام في نهج البلاغة، ص 329.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 171.

³ - زكريا بشير إمام : حول مفهوم الحجاج في القرآن، ص 90.

⁴ - ابن هشام : معني اللبيب، ج 02، ص 408.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

دلالي رابط، يقول الإمام: "اعملوا -رحمكم الله- على أعلام بينة، فالطريق نهج، يدعو إلى دار السلام، وأنتم في دار مستعتب على مهل وفراغ، والصحف منشورة، والأقلام جارية، والأبدان صحيحة، والألسن مطلقة، والتوبة مسموعة، والأعمال مقبولة"¹. إن الحجة التي ينطلق منها الإمام مؤطرة بسلم حجاجي متدرج دال، حيث يدفع المخاطب من خلال الفعل "اعملوا" المستحث للطاقت إلى إنجازية حية والذي يقيده بدلائل لغوية تجعل من جملة القول حجة أقوى هي مقصد الخطاب، ذلك أن هذا العمل يكون على أعلام بينة، فالطريق واضح، يدعو إلى دار السلام، مع هذا المهل والفراغ، فهذه الإحاطة بالحج تؤسس لمنطق حجاجي بوقائعه المفردة، ثم يرفق بواسطة الرابط الحجاجي "الواو" هذه الحجة، بحجج هي مكملات بيانية متضافرة في إقامة الحجة والدليل، وبعدها لن يكون أمام المتلقي مساحة فراغ تشككه في هذا المطلب الحيوي، يجمع فيه الإمام بين صورة الترغيب المحببة، وصورة الترهيب المحفزة، وهي حجج تدعم الحجة الأصل تتدرج من الأدنى إلى الأعلى إلى الأقوى، وما يمكن لمسه في هذا الخطاب الحجاجي أنه يتم "في جو من الهدوء والسكينة والوقار، واحترام عقل الإنسان وقدراته الذاتية في الفهم والرؤية"²، ومنها تنطلق الذات في حرية تامة، وفق مقصد عال يضع دار السلام غاية، ومن دار الدنيا سيلا إليها، لتكشف ضياع هؤلاء في هذه الزحمة، وتحقق خسارتهم لذواتهم، وتهدف هذه المحاججة "إلى مراجعة الجهل الذي لا يليق بما أراده الله لتلك النفس البشرية"³، تحقيقا ليقظة ووعي تسهم في تحصيل كفاية عقلية بمسؤولية وحرية.

ب- الرابط الحجاجي (الفاء): يعمد الإمام في بناء إستراتيجية حجاجه على الرابط "الفاء" العاطفة في كثير من السياقات، وتفيد "ثلاثة أمور: أحدها الترتيب. الأمر الثاني التعقيب، والأمر الثالث: السببية"⁴، فيقول: "ولم يضع امرؤ ماله في غير حقه ولا عند غير أهله إلا حرمه الله شكرهم، وكان لغيره ودهم، فإن زلت به النعل يوما فاحتاج إلى معونتهم، فشر خليل، وألام خدين"⁵، وقد ورد هذا الكلام في سياق معاتبته للإمام على التسوية في العطاء، لذا كان عليه أن يحاجج المعاتب ليثبت عدالته في التسوية وحكمته في إدارة المال وفق سنن الحق: "ولم يضع امرؤ ماله في غير حقه، ولا عند أهله إلا حرمه الله شكرهم وكان لغيره ودهم"، يضعه في أعلى مراتب هذه

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 141.

² - زكرياء بشير إمام : حول مفهوم الحجاج في القرآن الكريم، ص 97.

³ - هادي شندوخ، وحيدر برزان : وظيفة الحجاج في نهج البلاغة، ص 324.

⁴ - ابن هشام : مغني اللبيب، ج01، ص 183، 184، 185 .

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 180.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

المحاجة القوية الدلالة بمقتضاها الحجاجي، لتأتي الحجج متدرجة بواسطة الرابط "الفاء"، فوضع المال في غير حقه يعلل بنتيجة "فإن زلت به النعل"، وقوله: "فاحتاج إلى معونتهم" التي هي ممهّدات حجاجية للصورة النهائية، لذلك الوضع الذي ينتهي إليه سوء التقدير والتصرف "فشر خليل وألام خدين"، وهو ربط تعاقبي سببي تعليلي، وتفسير طبيعي لبلاغة الحجة الأقوى في المقول، وهذا ليبقى المتلقي في "ذلك الانشداد إلى الحق فقط"¹، وهي إستراتيجية حجاجية بمقتضيات خطابية سياسية.

ج- الرابط الحجاجي (ثم): يستعمل الإمام من روابط العطف الحجاجي "ثم"، وهو "حرف عطف تقتضي ثلاثة أمور: التشريك في الحكم، والترتيب والمهلة"²، وهي مؤشر على ذلك العطف الذي يدفع إلى النظر بما يمنح من فرصة حية للمتلقي لكي يتأمل الخطاب، يقول الإمام: "تعبدوا للدنيا أي تعبد، وآثروها أي إيثار، ثم ظعنوا عنها بغير زاد مبلغ، ولا ظهر قاطع؟ فهل بلغكم أن الدنيا سخت لهم نفسا بفدية، أو أعانتهم بمعونة، أو أحسنت لهم صحبة؟"³. إن الحديث عن الدنيا وأهلها الراحلين يستوقف المتأمل في علاماتهم وآثارهم الدالة على رحيلهم عنها، أولئك الذين كان جل همهم التعبّد لها، فهذه الحجة التي تشكل الإطار المحوري لعملية الحجاج، هي بؤرة الدلالة الحجاجية، فقد "تعبدوا للدنيا أي تعبد، وآثروها أي إيثار"، وهي الجملة الحجاجية الهدف التي يأتي الرابط الحجاجي "ثم" بحمولته الوظيفية ليستحث على تأملها، فبين الفعل "تعبدوا - وآثروا"، والفعل "ظعنوا" مسافة زمنية، وفاصلا دالا على هذه المفارقة، ومن خلال هذه الإفادة لحالة التراخي، فإن حضور المتلقي بطاقاته الحيوية ليتفكر ويتأمل، يصبح حتمية يجليها هذا النسق، فالوظيفة الحجاجية للسباق دافعة إلى تحفيز المتلقي واستثارته ذهنيا، وشحن انفعالاته النفسية، لأن هذه الحجج المتتالية في ترتيبها تعري هؤلاء القوم من الصفات الإيجابية، كما تحيظهم بسياج الغفلة، وهو ما تكشف عنه الحجج الواقعة بعد هذا الرابط وأدوات الاستفهام بإفاداته النافية المعززة للحجة السابقة.

II/ الحجاج العقلي: يعد الحجاج العقلي ضرورة منطقية حتمية تفرضها طبيعة الجدل والنقاش والإقناع بصحة الفكرة ودحض مقومات الخصم، "لأن الحجة في النهاية إما منطقية أو ليست كذلك!"⁴، والحجة المنطقية هي ما يتأسس إطارها الحجاجي على العقل ومدى ارتباطه بالواقع

¹ - حسين العمري : الخطاب في نهج البلاغة، ص 294.

² - ابن هشام : مغني اللبيب، ج 01، ص 135.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 13، 164.

⁴ - أوليفي روبول : مدخل إلى الخطابة، ص 198.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

والحقائق والمفاهيم، قصد الوصول إلى تحقيق الإذعان، وهذا الإمكان له سلطة تأثيرية، ثم إن الواقع يمدّه بالقوة اللازمة من أجل تعديل الأفكار والآراء وكشف حالات التناقض الحاصلة، يقول الجاحظ: "وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة كحاجته إلى الجزالة والفضامة، وأن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب، وتثنى به الأعناق وتزين به المعاني"¹، وهي مقتضيات يحتاج إليها الخطاب لتحقيق غاياته، وقد تطلب واقع الإمام في رحلته التغييرية مواجهة عقلية، لأن المخاطبة تتجه رأساً إلى تصحيح المفاهيم والآراء الفاسدة التي عملت عليها جبهات الصراع والفتن.

- ترتيب أجزاء القول: إن النص باعتباره خطاباً، يتطلب تصميمًا هندسيًا وبنية تشكيل منتظمة مؤسسة من وجهة منطقية على هيكل مرتبة وواضحة، وهو ما يعرف بأجزاء القول، يقول "محمد غنيمي هلال": "لكل كلام جزءان جوهريان، هما عرض الحالة ثم البرهنة عليها"²، فالكلام باعتباره منتجاً عقلياً، فهو محاجة منطقية، ولذا "يعد النص الحجاجي من أكثر النصوص المتماسكة والمتراطة، لأنه يبدأ بالفرضية، يخلق لها مقدمة تمر عبر استنتاجات ليصل بها إلى نتيجة"³، هذا التماسك هو قوة تشد المتلقي إلى الفكرة وتوجهه نحو مقاصد القول، تحقيقاً لإذعانه، ويمكن أن تمثل على ذلك بالخطبة الغراء⁴، من حيث الترتيب ونظام البرهنة، والقدرة الحجاجية المؤطرة، ففي الأجزاء الجامعة لهذه الخطبة تتحدد هذه البنية الثلاثية، مع تضمينات برهانية حجاجية.

أ- الاستهلال: وهو ما يبدأ به الخطاب، ويمثل وظيفة اتصالية، بهدف "جعل السامع منقاداً ومنتبهاً وعطوفاً"⁵، وهذه الوظيفة هي معقد الغاية الخطبية، حيث يجعل الخطيب المتلقي داخل هذا الرسم التخطيطي المعد لتحقيق مقاصد الخطاب، وتعريف "روبول" للخطابة: "إنما الخطابة فن المقانعة بالخطاب"⁶، فهي فن بمقوماته التأثيرية، والمقانعة بالخطاب تستدعي تحقيق الاستمالة العاطفية إلى ذلك المراد الخطبي يتبع باستحضار عقلي يفهم المتلقي ويفحم الخصوم، ونرى في خطبة الإمام استهلالاً عجيباً في بيانه ومنطقه، حيث مفتحه بالحمد الإلهي وبيان فضله وكرمه، وهذا حتى يضع المتلقي داخل هذا النسق التوجيهي الملفت الذي يقرن فيه الحمد بالعظمة، ويؤكد

¹ - الجاحظ : البيان والتبيين، ج 1، ص 14.

² - محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص 133.

³ - السعيد سعاد فهد : بخلاء الجاحظ، ص 499.

⁴ - ينظر نهج البلاغة: "الخطبة الغراء" رقم 82، ص 101، 112.

⁵ - أوليفي روبول : مدخل إلى الخطابة، ص 83.

⁶ - المرجع نفسه، ص 20.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

هذا البيان على مركزيات حيوية يدور حولها الاعتقاد الإنساني: الإيمان، والاستهداء، والاستعانة والتوكل، وهو ما يعد إلفاتا عاطفيا انفعاليا، وعقليا منطقيًا يترتب عليه حسن الأخذ وصواب الوجهة وإرادة الفهم ثم العمل، أعقب هذا بالجزء الثاني من شهادة الإيمان، وهي مفصلة لإيضاح الدليل ومقاصد الرسالة، تمثلت في إنفاذ -الله- أمره، وإنهاء عذره، وتقديم نذره.

إن هذا التوجيه نحو النبي ﷺ، هو توجيه نحو الله، وهي محاجة لطيفة وذكية تبرز هذا البعد التداولي للملفوظ ومقاصده، وبهذا يتكامل هذا الاستهلال الجامع بين الحمد المرفق بالعظمة والفضل الإلهي، وشهادة النبوة المخرجة والموجهة نحو هذه العظمة، حيث أن استشعار هذا الإنعام هو مقدمة لذلك البسط الذي سيأتي به عرض الحال، ولذا "المقدمة التي يقصد بها السامعون تهدف إلى توكيد نياتهم الطيبة، أو إثارة مشاعرهم، أو اجتذاب أنظارهم إلى خطورة الحالة"¹، وهذا الإدراك قد حرص عليه الإمام ليكون الوسيلة التي بها ينفذ إلى عقول تحتاج منازلة حجاجية يحصل معها الإذعان، وعليه فإن "القريب الهادي جدير بأن تطلب منه الهداية، والقادر القاهر حقيق بأن يستعان به لأنه قوي على المعونة، والكافي الناصر حري بأن يتوكل عليه"²، فهذه البراعة في الاستهلال التي تتفرد بها نصوص النهج ومحاطباته، تحمل طاقة تأثيرية وتوجيهية عجيبة، فهي تبحث في النظام الذهني للإنسان لتوجيهه من جديد وقبل هذا خلخلة المستقر فيه من الأفكار الفاسدة، وذلك الجمود الذي أصابه، ودفعه إلى تأمل العظمة الإلهية وإبصار النعم الإلهية، وهي من أكبر وسائل التوجيه، محاجة تستفز الذهن وقوى الذات في عملية استنفار حي وتوجيه للطاقة.

ب- عرض الحال؛ السرد والاستطراد: ويتعلق بالغرض الذي من أجله أنشئ الكلام، "وهو يشمل ما يسمى القصة الخطابية، وإقامة الحجة، وتفنيد حجج الخصم، وما يتبع ذلك من وسائل العرض"³، حيث بسط الموضوع مشفوعا بتلك الطاقة الحجاجية الإثباتية والتوجيهية التي تتوالى في العرض، وهذا "السرد هو عرض الوقائع الخاصة بالقضية"⁴، وقد احتوت هذه الخطبة على موضوعات وجزئيات تصب جميعها في نسق الاعتبار يوجه إليها الإمام العقول، وهي خلاصات تفكر تعيد بناء التصورات والمطالب التي تنتظر الإنسان في الحياة، وتعد برهانات حجاجية، وهي:

¹ - محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص 134.

² - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 102.

³ - محمد غنيمي هلال: المرجع السابق، ص 136.

⁴ - أوليفي ربول: مدخل إلى الخطابة، ص 84.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

1- الوصاية بالتقوى: وهي مقيدة حجاجيا بتأطير راصد لمختلف الحجج الموجبة لهذه التقوى، مشكلة حزمة من الحجج العقلية التي تستهدف إذعان المتلقي للحق، متمثلة في:

- 1- ضرب لكم الأمثال.
 - 2- وقت لكم الآجال.
 - 3- ألبسكم الرياش.
 - 4- أرفع لكم المعاش.
 - 5 - أحاطكم بالإحصاء.
 - 6- أرصد لكم الجزاء.
 - 7- أنركم بالنعم السوابغ والرفد الروافع.
 - 8- أنذركم بالحجج البوالغ.
 - 9- أحصاكم عددا.
 - 10- وظف لكم مددا.
 - 11- في قرار خبرة، ودار عبرة أنتم مختبرون فيها ومحاسبون عليها.
- موجبات التقوى =**

إن موجبات التقوى، تمثل محاججة عقلية منطقية موجهة، من خلال اعتماد آلية التذكير، والتقوى هي المكافئ الذي يعادل النعم، تحقيقا لغايات الحجاج ومقاصده، لأنها خيار صلاح، ومنهج حق، وسبيل تصحيح وضع الأمة، ووضعها على طريق الحق، ولذا نرى أن الإمام "يسخر ما يمتلكه من طاقة حجاجية في محاولته تصحيح المسار الثقافي الذي درج عليه المجتمع من قبل"¹، تذكير ورد في متواليه حجاجية من شأنها تحقيق الإذعان لسلطة الحق.

2- حجة انتهاء الدنيا: إن الدنيا نسق بطاقة تأثيرية، تحرف عن منهج الحق، وتقع نقيضا للحجة الأولى، بأوصاف هي بمثابة حجج عقلية منطقية، لإدراك حقيقة الدنيا وهذا ما يتم بآليات منطقية:

- 1- رفق مشربها، ردع مشرعها، يوفق منظرها، يوبق مخبرها { نسق حجاجي.
- 2- غرور حائل، وظل زائل، وسناد مائل
- 3- حتى إذا آنس نافرها واطمأن ذاكرها = الاطمئنان { تضاد: حجة واقع.
- 4- قمصت بأرجلها، قنصت، أفصدت، أغلقت، فائدة إلى ضنك المضجع { قوة حجة

إذن فقمصت حجة مثل من قولهم "ما بالعيير من قماص"²، تضمين يشخص الحقيقة ويقوي الحمولة الدلالية، والصورة البيانية التي تكررت على مدار هذه الجملة: "قمصت، قنصت" أخذت مادتها من بنية الواقع، وهي ذات مجال توجيهي تحذيري دال، ولذا تقوم متتالية المحازات

¹ - حسين العمري: الخطاب في نهج البلاغة، ص 294.

² - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 103.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

برصد هذه الأوجه التحذيرية بوظائفها الحجاجية الكشفية التي تؤكد على النهاية والفناء الحتمي، لإقامة حجة أخرى على الإنسان الذي لا يعرّوي، حيث "أعلقت المرء أوهاق المنية"، وتقوم حجاجية الصورة بهذا الدور، لتثبيت سنة جارية، "وكذلك الخلف يعقب السلف، لا تقلع المنية احتراماً، ولا يعرّوي الباقر احتراماً"، حجة هي منطق عقلي، وتحريك ذهني، وتنشيط لانفعالات النفس، وصولاً إلى المقصد الحجاجي، ملخصاً في الاعتبار والنظر من "صور الفناء"، فهذه "الموعظة الحسنة كلها حق ويقين"¹، هادفة إلى توجيه الإنسان إلى المنهج الأمثل لاستدرار إمكان الخير منه.

3- حجة البعث: وهي نسق غيبي إيماني ماثل في الذاكرة في شقها الاعتقادي، "حتى إذا تصرمت الأمور، وتقضت الدهور، وأزف النشور"، يكشف عنها الرابط الحجاجي "حتى" الغائية التي تفيد التساوق بين الدنيا المتصرمة، والآخرة المقبلة بالموت، "أخرجهم من ضرائح القبور"، وتقوم الجمل الواصفة لهذا المشهد بمضاعفة النسق الحجاجي المثير للعقل والوجدان، وتحريك الذهن ليتأمل الصورة البعدية، فالإمام يرسم صورة ثانية ذهنية تسحب المتلقي من المجال الحسي للدنيا، "فالمنطلق إذن في الوظيفة الحجاجية هنا هو إعلاء القيم الرفيعة في النفس"²، ودفعه نحو يقظة إيمانية تتجه إلى الآخرة.

4- خلق الإنسان؛ المقدره- المربوبية: تتلخص قيمة هذا الخلق في تحديد مجال ومدة الإقامة الزمنية في الدنيا، وربط الإنسان بخالقه اقتساراً، أي غلبة وقهراً، بضبط يوجهه نحو مقصده، وتقوم حجة المثل في قوله: "ومقبوضون احتضاراً" بكشف هذا الخطر المحدق بالإنسان، حيث المنية تترصده، ومفاد هذا المثل من قولهم: "اللبن محتضر فغط إنائك"، وهو اللبّن الفاسد ويعنون أن الجن حضرته³، وهي حجة تأخذ بلب الإنسان ليجمع أمره وإرادته فيما يتوجب عليه القيام به، وضرب الإمام مثلاً آخر "وعمروا مهل المستعب" فيه حجة بالغة في إلزام الإنسان الحق، ذلك أن الله سُبْحَانَهُ قد فسح له في الأجل كي يرضيه بالعمل الصالح، إن أراد وأحسن⁴، ويواصل الإمام هذه المحاجة العقلية التي يوظفها بطاقة المثل البليغة، كما في قوله: "وأناة المقتبس المرتاد"، وهو الذي يسلك طريقه بروية ونور إضاءة، حتى يصل إلى نهاية السعي وقد حصل زاد هذا الطريق، ومعنى المقتبس هو "الذي أخذ بيده مصباحاً ليرتاد على ضوءه شيئاً غاب عنه، ومثل هذا يتأني في حركته أن يطفأ"

¹ - زكرياء بشير إمام : حول مفهوم الحجاج في القرآن الكريم، ص 101.

² - هادي شندوخ، وحيد ريزان: وظيفة الحجاج في نهج البلاغة، ص 326.

³ - ينظر محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 105.

⁴ - ينظر المصدر نفسه، ص 105.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

مصباحه وخشية أن يفوته في بعض خطواته ما يفتش عليه لو أسرع"¹، ولذا يدفع الإمام المتلقي أن ينطلق في حياته على نور وهاديات مضيئة من أنوار العلم والحكمة وقائد يبصره ويهديه، ومثل هذه المحاجة ملزمة مفحمة، موجهة إلى السلوك الأرشد، "فالمثال إذن هو بمثابة المعيار الذي ترتفع الأشياء أو تسقط بالقياس إليه"²، والمعيار هو مثال العقل البصير، يستحث طاقات المتلقي، ويضعه أمام حتمية منطقية، واستدلالات كاشفة، وبصيغة التعجب يلفت إلى قيمة الأمثال، أي الحجج وبلاغتها في الوعظ والاعتبار: "فيا لها أمثالا صائبة، ومواعظ شافية، لو صادفت قلوبا زاكية، وأسماعا واعية، وآراء عازمة، وألبابا حازمة!"³، وهي قوى استنهاض، وهذا يعني أن الحجة تكون ذات قيمة وطاقة إذا وجدت العقل الواعي والقلب الذكي.

5- حجة التقية العملية المستندة إلى الوعي والذكاء: في سياق شرطي إمكاني منفتح، هو بمثابة المتتالية الحجاجية يدخل الإمام هذه الفنية = التقية بنية في الذات حتى تتأسس جوهرًا وإضاءة منبعثة من الجوانب الإنسانية، والمقصد الحجاجي هنا هو بناء المثال بحجة الأنموذج، ويقدم الإمام هذا المثل الرفيع لإنسان الكمال الروحي وسيما التقوى العالية، من خلال متتالية وصفية وحجاجية توجيهية إنجازية بمعامل الشرط، وهي تنطلق من الفعل الإنجازي التوجيهي: "فاتقوا الله تقيه"، ليوجه العقل إلى الأنموذج، ويحاجج واقعا تردى إنسانه وانتكس عن صورة الرجال الأوائل، "من سمع فخشع، واقترب فاعترف، ووجل فعمل، وحاذر فبادر، وأيقن فأحسن، وعبر فاعتبر، وحذر فحذر، وزجر فازدجر، وأجاب فأناب، وراجع فتاب، واقتدى فاحتدى، وأرى فرأى، فأسرع طالبًا، ونجا هاربا، فأفاد ذخيرة، وأطاب سريرة، وعمر معادا، واستظهر زادا، ليوم رحيله، ووجه سبيله، وحال حاجته، وموطن فاقته، وقدم أمامه لدار مقامه"⁴، أوصاف شارفت العشرين وكلها ذات قيمة بنائية في تكوينية هذا الإنسان الأنموذج، وهو ما يعطي للتقية قيمة عملية تكوينية سلوكية وبعدها روحيا، كمعيار مراقبة يجاهد بها الإنسان لتحقيق تخليصه وتمحيصه، وتركيزه قائمة على تحلية وتحلية، ليكون في النهاية هدف هذا الأنموذج ما يحمله منطوق الصورة وعكسه الحاضر بقوة الواقع مبالغ في توبيخ الناس وتقريعهم على ما هم عليه، كمثل سيئ الصورة⁵، ولذا يعيد لازمة الفعل الإنجازي "اتقوا الله

¹ - محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 105.

² - عمران علي: حجاجية الصورة الفنية في الخطاب الحربي، خطب الإمام علي أنموذجا، دار نينوى، دمشق، 2009، ص 232.

³ - علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، ص 105.

⁴ - المصدر نفسه، ص 105، 106.

⁵ - ينظر علي عمران: المرجع السابق، ص 234.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

عباد الله" مقرونا بالنداء، وهو ينسحب على المسرود الرابع "عباد مخلوقون اقتداراً"، فالالتقاء يكون لجهة ما خلقكم له، ولذا فالإطار الحجاجي يتواصل، ليدعن المتلقي لسلطة الحق وأنوار العلم.

6- حجة توجيه الأذهان إلى أهمية استعمال أجهزة الوعي: وتعني توظيف العقل والوعي "جعل لكم أسماعاً لتعي ما عناها، وأبصاراً لتجلو عن عشاها"¹ والحجة بالذم تكون بإهمال هذه الأجهزة والطاقات الإدراكية، وهي تبع لسلسلة المحاججات السابقة، فاستثمار العمر بالتقوى والعمل الصالح، وطاقه البدن بجيويته، هو توجه منتج، فمن إقامة الحجة على العبد أنه منح هذا التكريم، وهذا مفصل حجاجي يرتبط بالسابق واللاحق.

7- حجة القصص والاعتبار: إن المحاججة بآيات الاعتبار غايته وعظية، حيث يؤطر هذا الحجاج بنسق لافت في قوله: "وقدر لكم أعماراً سترها عنكم"، وهي جملة حجاجية ضاغطة، تذكيرية وتوجيهية واستفزازية، تشحن الطاقة وتوجهها، وقوله: "وخلف لكم عبراً من آثار الماضين قبلكم"، عبارة عن جملة تكوينية حجاجية بالأنموذج، أي مثل السابقين، وهي وجه قرائي للجملة الأولى ستر العمر المقدر وقراءة علامة أثره الدال عليه، لغاية هي العبرة ومقصد الحكمة والتعلم، بذكر متوالية وصفية لحالمهم وتحولهم، وهذا مهم "في توجيه الحياة والمجتمع"²، فهذه المتوالية الوصفية الحجاجية الرادعة للعقول السكرى بالملذات ونعيم الدنيا والهوى والغفلة، تضاعف طاقة هذا النسق بمقاصده التوجيهية، وبذلك يقود الإمام المتلقي إلى توجيهه حي نحو إنجازية عملية نوعية، وهذا بإقامة الأنموذج السابق، ليكون دليلاً اعتبارياً بالقصص الصالح ورسمه، ولذا تكون تحولات الصورة التكوينية، قصص أولئك الراحلين بلاغة في الحجاج بعد أن تحولت تلك الغضاضة إلى مشهد محزن يستدعي النظر والتأمل، حيث صارت (الأجساد شحبة بعد بضتها)، و(العظام مرتحنة بثقل أعبائها)، فهذه التحولات دالة على حجة الأنموذج، وتنزل هذه الجمل بمحاججتها على الذوات المتلقية صاعقة لها، ليكون الحجاج بطاقته التوجيهية وتأطيره المنجز موبخاً للغافلين، ساحباً المتلقي إلى تمثلات نوعية.

8- حجة الإلحاق، إلحاق اللاحق بالسابق: تبدأ بجملة استفهامية، ذات دلالة مجازية حاملة لطاقة حجاجية رهيبة، حيث يوجه الذهن إلى دالة اعتبارية: "أولستم أبناء القوم والآباء وإخوانهم والأقرباء؟"³، بحيث يربط بين الآباء والأبناء في مسيرة الوجود، المنتهية إلى حتمية ومصير واحد،

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 106.

² - زكريا بشير إمام : المرجع السابق، ص 110.

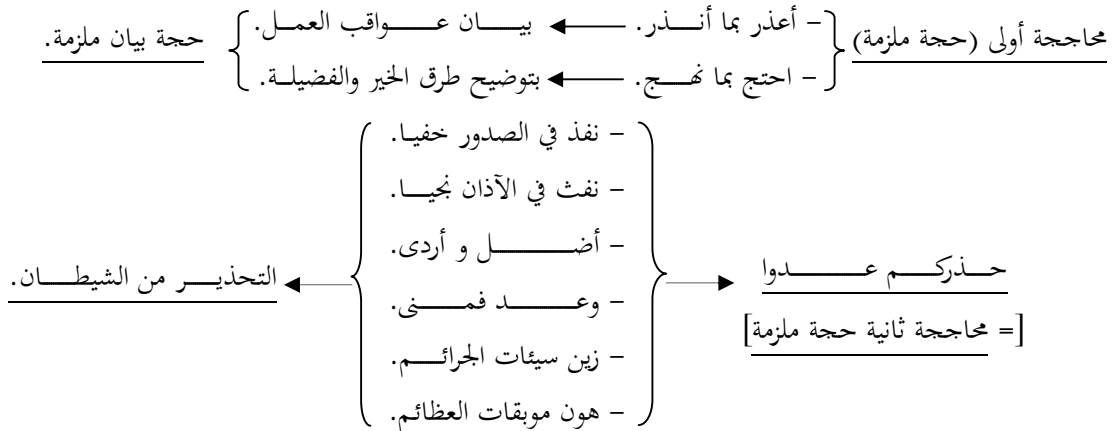
³ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 108.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

فمن معتبر إلى عبرة: "تحتذون أمثلتهم"، ويدل هذا التشريح الكاشف على غفلة تامة، بما أن "القلوب قاسية عن حظها" غفلة عن، "بجازكم على الصراط"، زيادة في التنبيه، وتحقيقا لغايات الاعتبار والوعظ، وهي محاجة تحرك العقل، وتنشط الوجدان، بالتأمل الضروري، "فكل خطاب حال في اللغة تمنحه هذه الأخيرة العناصر الأولية والقاعدية لكل حجاج، أي عناصر الاستدلال والتدليل"¹، استدلالات مفحمة ومحقة للإذعان، توجه إلى سلطة الحق بفاعلية الطاقة الحجاجية.

9- التقية صورة الأنموذج الإيجابي: وهو نموذج التقى المثال، مع متوالية نعتيه لمنحى تعبده ونشاطه الروحي، ويحدث الإلفات بالفعل التوجيهي الإنجازي النداء، إلى تقية صاحب اللب، وهذه القيمة الحجاجية الموبخة والمستحثة للقوى الذاتية تحمل ضرورات الانطلاق نحو الغايات، ولا يمكن صناعة هذا الأنموذج - مثال التقى، إلا إذا تم له مراعاة الحقائق واليقينيات الإيمانية التي تكفيه مطلبه في الرحلة الصعبة الشاقة، حيث تحمل صورة المحاجة المطلقة في القوة والطاقة والتأطير الحجاجي التي هي كفاية يقينية جلية، فكفى (بالجنة ثوبا ونوالا)، و(بالنار عقابا ووبالا) و(بالله منتقما ونصيرا)، و(بالكتاب حجيجا وخصيما)، محاجة بكبرى اليقينيات، وترصد العملية الحجاجية مشهد حضور هذه الحقائق في الذات = المتلقية، رغبة ورهبة وخوفا وحذرا، ومحبة وإقبالا، حيث يتم توجيهها إلى الأخذ بالأنموذج، كما أنها توبيخ لحالات الانحراف والشقاء التي تصرف عن رؤية الحقيقة فعكس النموذج الذي يمثله الشاهد الواقعي يحاجج عقليا بالمثال في سعي لتثبيت يقينية جديدة.

10- حجة تقوى الله والإعذار: ويبرز الإمام في هذا العرض قيام الحجة، فهي بينة والإعذار قد تحقق فلا مجال معه لإنكار أو تسويق، حجج مرهنة للإنسان قائمة في حقه، وهي مرتبة بهذه الكيفية السردية على الشكل الآتي:

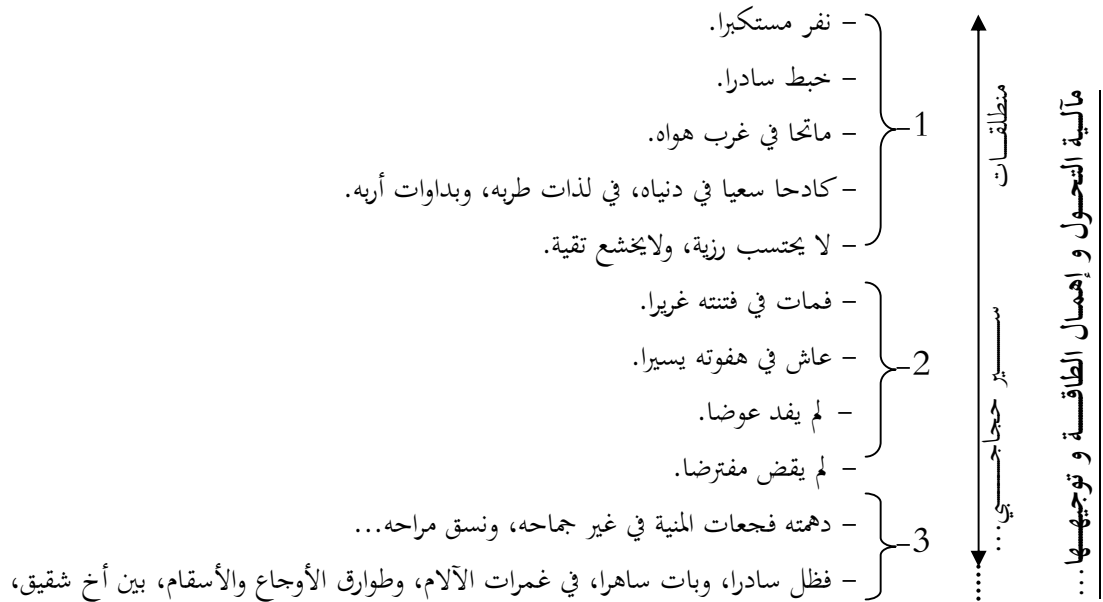


¹ - أعراب حبيب : الحجاج والاستدلال الحجاجي: "عناصر استقصاء قطري"، مجلة عالم الفكر، ع1، مج 30، سبتمبر 2001، الكويت، ص100.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

ويربط بين الحجة والنتيجة بالرباط الحجاجي التساوقي "حتى" لبيان منتهى هذا الأمر: "حتى إذا استدرج فريسته، واستغلق رهينته، أنكر ما زين، واستعظم ما هون، وحذر ما أمن"¹، وهذه مضاعفة حجاجية تبرز دور هذا العالم الشيطاني الخفي عن الإنسان الذي ينشط على مستوى الداخل الجواني، بنفته فيوهن ويزين ويضل، وعليه "فإن الإثبات ليس منفصلا دائما عن السرد"²، وبهذا تتقوى الطاقة الحجاجية، بهذه الأدلة تحقيقا للإقناع الضروري والإذعان الذي يقصده.

11- صفة خلق الإنسان؛ الحجة الثابتة والارتهان الأبدي: يتواصل سرد الحالة، وعرض هذه التنويعات الحجاجية تسهيلا على المتلقي فهم أبعاد هذا النسق الوعظي الاعتباري التعريفي، فخلق الإنسان ومراحل تكوينه، هي حجة ملزمة، وبهذا السرد المستمر يأخذنا الإمام في رحلة تموجية، باستطراد هو "مقطع متحرك"³، قصد الإحاطة التامة بتجليات هذا الوجود الإنساني وحضوره النوعي، وضرب مفاسد التصورات التي تنزل به إلى قعر غير إنساني أو = خارج إنساني، فهذا الاعتدال حجة ارتهان الذات الإنسانية لخالقها، بحيث يقوم الرباط التساوقي "حتى" ببيان مخالفة الإنسان وانحرافه، "حتى إذا قام اعتداله، واستوى مثاله"⁴ التي تتطلب تماثلا منهجيا مع مقاصد هذه الحلقة، إلا أن بنية الواقع تكشف عكسها، فتأتي متتالية حجاجية مقرعة موبخة، وهي كشفية تأويلية لهذا التحول وتبدل فطرة الإنسان، لذا فهو:



¹ - علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، ص 110 - 109.

² - أوليفي ربول : مدخل إلى الخطابة، ص 86.

³ - المرجع نفسه، ص 87.

⁴ - علي بن أبي طالب، المصدر السابق، ص 110.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

ووالد شفيق، وداعية بالويل جزعا، ولادمة للصدر قلقا، والمرء في سكرة ملهية.	}	3	}	3
وغمرة كارثة، وأنة موجعة، وجدبة مكربة، وسوقة متعبة...				
- ثم أدرج في أكفانه مبلسا، وجذب سلسا، ثم ألقى على الأعواد ...	}	4	}	4
- أقعد في حفرته، نجيا، لبهته السؤال، وعثرة الامتحان.				
- وأعظم ما هنالك بلية نزول الحميم، وتصلية الجحيم، وفورات السعير، وسورات الزفير ...	}	4	}	4
- وأعظم ما هنالك بلية نزول الحميم، وتصلية الجحيم، وفورات السعير، وسورات الزفير ...				
الخسران والعذاب.				4

إن ما يمكن ملاحظته أن الإمام قد عمل على تنشيط المخيلة بواسطة الحملة الحجاجية المتنوعة، وكما يقول "علي الشبعان": "فكأن القول بالإرادة الإنسانية استرداد لحرية مفقودة غمرتها إرادة الأقوياء وكمدت صوتها إمرة الأتقياء"¹، فهذا الإنسان يحتاج إلى حرية وإرادة، ليختار بوعي ومسؤولية، ويتحرر بقوة إرادته من المكبلات، ليكون واحدا من الأحرار، ويزيد الإمام من هذا الوخز الذكي الذي يصيب به هذه الذوات المشلولة التي فقدت روح المبادرة وإمكان التحلي والتجاوز، فهي أسيرة مرهنة، تحتاج إلى مثل هذه الضربات النوعية تحقيقا للإفافة، فيأتي بمحاججة تنطلق من فعل النداء التوجيهي والاستفهام الإنجازي، دافعة إلى مواصلة النظر والتفكير في القصص والآيات التكوينية، لتجسيد نسق من الاعتبار الوظيفي الوعظي: "عباد الله! أين الذين عمروا فنعموا، وعلموا ففهموا، وسلموا فقسوا؟!"² سؤال مبطن بالدلالة من تحذير إلى توبيخ إلى توجيه وحث، وتنشيط واستفزاز، لأن الجواب الذي قدمه لهذا السؤال يخبر عن حالهم، إخبارا يحمل سيما توترية، فقد "أمهلوا طويلا، ومنحوا جميلا، وحذروا أليما، ووعدوا جسيما"³، فهم مثلكم، وهنا ينقل هذه الدلالة التوتيرية إلى المتلقي محذرا وموبخا وموجها، قاصدا إذعانه للحق، وعليه "فإن منتهى الحجاج الناجح بناء واقع جديد يقنع به المحاج جمهوره ويرسم من خلاله معالمه الرؤيوية وهيئاته التصورية"⁴، وهذه الإرادة من الإمام يحاجج بها الواقع بالعقل والمنطق ليدعن الناس للحق، لكي يتبدل هذا الواقع برؤية مغايرة، تعتمد رسم الأنموذج الجديد وفق الهاديات والمثال الرفيع، ثم يسجل جملة تحذيرية وتوجيهية، وهي لافتة ذهنية، وسنة سير إنساني على قواعد الصلاح "احذروا الذنوب المورطة والعيوب المسخطة"⁵، هي غاية هذا السرد والاستطراد المتنامي، فقد شكلت الحجج متتالية حجاجية جامعة، تعد بمثابة

¹ - الشبعان علي : الحجاج الحقيقة وآفاق التأويل، ص 338.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 111، 112.

³ - المصدر نفسه، ص 112.

⁴ - علي الشبعان : المرجع السابق، ص 165.

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 112.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

"بسط حجارجي للموضوعات، وهو أن يكون الموضوع فكرة، فيحاول المرسل أن يثبت صحتها وإقناع المتلقي بها؛ فيشكل حولها الموضوعات المنطقية والدلالية والافتراضية"¹، قصد هندسة الحقائق الحجاجية، وتأطيرها، بحيث تحقق التوجيه والإنجازية، وترصد الحجج والإثباتات من أجل الإقناع والإذعان، لترسيخ المقاصد الدلالية، وبناء نسق الوعظ والاعتبار، وتصحيح التصورات والمفاهيم.

وعليه فمن وظائف الاستطراد، كما في الخطبة "الغراء" بما تحكيه وتصفه من وقائع وأحوال، "يمكن أن يصلح أيضا دليلا غير مباشر لما هو يصير استعادة تاريخية للماضي البعيد"²، ولعل الإمام يريد المثال النبوي الذي تجسد في الأصحاب الأختيار أنموذجا وفي كمال المجتمع الأول سيرة.

ج- الختم: تشكل الخاتمة البنية الترتيبية الثالثة المشكلة للهندسة البنائية لأجزاء القول المنتظمة منطقيا، ومن ثم قدرتها الحجاجية والتأثيرية، فالختم "هو ما ينهي الخطاب، ويمكن أن يكون من جهة طويلا ومنقسما إلى أجزاء متعددة، لنذكر ما هو رئيسي"³، وهو إنتهاء طبيعي دال، تقود إليه مساقات هذا السرد المتواصل والفكرة المحتج لها بالصحة والقوة، "ويلخص ما تمت البرهنة عليه في الحجج"⁴، ليصبح العمل مصمما بطريقة فنية وعقلية تثبت هذه البرهانات في العقول، وقد اختار الإمام ختما لخطبته هو خلاصة مركزة، وعلامة على تلك المحاجة التي توزعت على مدار هذه المخاطبة البليغة، فقد بدأها بجملة وظيفية حجاجية: "أولي الأبصار والأسماع"، نداء توجيهي إنجازي ينسحب على موضوع العظة ويرتد إلى الجملة السابقة عنها، المحذرة للناس: "احذروا الذنوب المورطة، والعيوب المسخطة" التي اعتبرناها لافتة العظة وقانونها السنني [= الاستعادة]، والإذعان لسلطة الحق، ففي هذا النداء يبرز لفت شكلي دال، ولفت كفي وظيفي دلالي حامل لبنية المحاجة التي تخاطب عقل المتلقي، وتستحثه من أجل التبصر والاعتبار.

وبعد هذا التوجيه الدال يأتي الاستفهام، المقتضى التركيبي بسؤاله الحجاجي وحمولته الدلالية وخرقه المجازي، "هل من مناص أو خلاص، أو معاذ أو ملاذ، أو فرار أو محار، أم لا، فأني تؤفكون؟ أم أين تصرفون؟ أم بماذا تغترون؟"⁵، وهي صورة القوة الآتية من الاغترار بما يملكه الإنسان من صحة

¹ - سعاد فهد السعيد : بحلاء الجاحظ، ص 498.

² - أوليفي ربول : مدخل إلى الخطابة، ص 87.

³ - المرجع نفسه، ص 87.

⁴ - أبو مصطفى أئمن: نظرية الحجج: مراحل بناء النص الحجاجي، http://taj23.blogspot.com/2011/07/blog-post_23.html، 2019/09/01.

⁵ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 111، 112.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

وعافية ومال ومكسب ونشر وتوسع، وهنا يعود الإمام إل محاجة عقلية منطقية تستند إلى بنية الواقع لتهز هذا الموقع الممتلى بالاغترار والفخر والعزة، فيذكر جملا إخبارية تقريرية، هي حجاج منبت في أرض الواقع وبنيته، يحدده قوله: "وإنما حظ أحدكم من الأرض، ذات الطول والعرض، قيد قدة، متعفرا على خده!"¹. إن اختصار المسافة الأرضية = الكونية المنبسطة أمام الإنسان، تصبح في لحظة بمقداره لا بمقدارها الذي يتحدد بقبره، وهذه هزة ذهنية لعقل يسرح بعيدا عن منتظره، ناسيا هذه النهاية "وقيد قدة" كناية عن المضجع أو القبر، ومادتها مأخوذة من الآلة، وهي قريبة من عالم الناس، ومعنى هذا أن هذه النقطة المنغرس في الأرض الواسعة، إنما تلخص حالة انتهاء الحلم والحركة والرحلة، إلى وضع يقصم جبروت هذا الكائن: "متعفرا على خده" في دلالة على التحول والصيورة، وهي تنسحب على ما جاء في العرض، بمحاجة ذلك البهاء والجسم البض وإيحائه الذي يصير إلى جثة منتهية، بلا جمالية، وبهذا يكون للخاتمة وظيفتان: "تثبيت درجة اليقين، وذلك بفضل التطابق بين السرد (البروبوزيسيو) والاستنتاج. وبفضل التكرار بشكل مختصر للحجج التي تم الإدلاء بها في الحجاج. وثانيهما هي إثارة عواطف مساندة للطرف المرافع من شأنها أن تدفع القاضي إلى إصدار حكم لصالحه"²، وهذا التناسب ظاهر في هذا السياق الوعظي التعريفي الذي تم سرده، وهو ما تم التأكيد عليه في الخاتمة، وإثارته من خلال مفصل فكري تم تثبيته بشكل دقيق في محاجتين سابقتين، والثالثة حددها الظرف "الآن"، الدالة التلغظية الإشارية التي توجه الذهن إلى اختصار الطريق في العمل، ومباشرة هذه الوظيفة "الآن عباد الله، والحناق مهمل، والروح مرسل (...). وقبل قدوم الغائب المنتظر، وأخذة العزيز المقتدر"³، محاجة دافعة إلى العمل، وتنشيط الطاقة إنجازيا، ومن خلال كل هذا "فإن الحجاج سيكون بالأولى شبيها بمغزل حجج، مستقل بعضها عن بعض تتجه نحو النتيجة نفسها"⁴، خدمة لهذا النسق الوعظي الاعتباري، وقصد خلق الأنموذج العملي الكمالي، واستعادة البعد الروحي في الإنسان.

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 112.

² - أيمن أبو مصطفى : نظرية الحجاج، مراحل بناء النص الحجاجي، http://taj23.blogspot.com/2011/07/blog-post_23.html.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 112.

⁴ - أوليفي ربول : المرجع السابق، ص 124.

المبحث الخامس : أثر النهج في الفكر والعلم:

1- قيمة الكتاب العلمية والمعرفية: يقول "مصطفى ناصف": "دعني أذكرك.. بأن الفن العظيم كله يتميز بميزة خاصة، فهو ينقل إلى كثيرين معنى سطحيا واضحا، ويحتفظ للقليلين بمجموعة أكمل من الأعماق"¹، وبتطبيقنا للمقولة على كتاب نهج البلاغة، فإن هذا الكتاب العظيم بعلمومه ومعارفه يحتفظ للقليلين بمجموعة أكمل من الأعماق، بما تفرد به من خاصياته نوعية، ومنها هذه العلوم والمعارف الجديدة التي لم يسبق إليها في الفكر العربي، حيث فتح أبواب العلوم أن تظهر وتتأسس على وحي أفكاره، فقد حير العقول بأنواره وبلاغته المدهشة، لذا وصفه "جبران" بقوله: "في عقيدتي أن ابن أبي طالب كان أول عربي لازم الروح الكلية وجاورها وسامرها، وهو أول عربي تناولت شفتاه صدى أغانيها على مسمع قوم لم يسمعوا بها من ذي قبل، فتأهوا بين مناهج بلاغته، وظلمات ماضيهم"²، تتفرد هذه المقولة بتوصيف دقيق لشخصية الإمام ﷺ الفكرية والعلمية والروحية بالخصوص التي مكنته من تناول الروح الإنسانية في كليتها، حيث نجد العلم الإلهي ناطقا في كلامه، مع ذلك الدمج النادر بين مكونات كونية وإنسانية : الله، الإنسان، الكون بحثا عن الحقيقة. إن هذه القيمة العالية من هذا السفر المعرفي المتميز تركت ظلالها، فأولا قد أوقعت الإمام في غربة فكرية وروحية عن الناس الذين لم يستطيعوا التواصل معه وفهم معارفه، وثانيا قد ترك الإمام معرفة إلهية غزيرة نادرة وغير مسبوقه أثرت على مدار الزمن في العلماء والمفكرين في مختلف العلوم والمعارف، سبق أغنى الحركة العلمية ورفع وطور من شأن العلم ومباحثه، وبذلك "تلتقي سيرته -عليه رضوان الله- بالفكر كما تلتقي بالخيال والعاطفة، لأنه صاحب آراء في التصوف والشريعة والأخلاق سبقت جميع الآراء في الثقافة الإسلامية ولأنه أحجى الخلفاء الراشدين أن يعد من أصحاب المذاهب الحكيمة بين حكماء العصور، ولأنه أوتي من الذكاء الذي تحسه في الفكرة والخاطرة قبل أن تحسه في نتيجة العمل ومجرى الأمور"³. إن أفكار الإمام وآراءه ومعارفه شكلت أرضية لعلوم ومعارف علم الأخلاق والتصوف والشريعة والإلهيات.

2- الموضوعات العلمية والفكرية : يزخر نهج البلاغة بكثير من الموضوعات العلمية والفكرية التي كانت من صميم إبداع الإمام وعبقريته التجديدية، فقد ظهرت على يديه معارف وعلوم عديدة حية فاعلة تطلبها جدل وحركة التاريخ ومساراته، وعليه "فأقرب شيء إلى العقول أن يكون إمام العصر كله

¹ - مصطفى ناصف : قراءة ثانية لشعرنا القدم، ص 153.

² - ص 29.

³ - عباس محمود العقاد : عبقرية علي، ص 12.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

قدوة في الاجتهاد والنظر وعنوانا للنوازح التي تفرقت بين أهل زمانه وتعبيرا صادقا لتفكيره ووعيه"¹، فهذه اللغات العلمية والفكرية التي تفرقت بين الناس في زمانه وتالي الأزمنة في الإلهيات والتوحيد والتصوف والزهد والأدب والأخلاق والفكر والمعرفة وعلم الكلام، ومثل هذه الأفكار نعثر عليها موزعة على طول نصوص النهج، ويبقى التحدي القائم أمام الباحث معرفة التناصت الفكرية التي تلاقت مع هذه النصوص، ومع ما ذكره "ابن أبي الحديد" من أسماء بعض العلماء الذين ثبت تلاميذهم وتلاميذهم على فكر الإمام، عن طريق علماء أخذوا عليه بالتواتر، فمفصل هذا البحث إثبات أثر هذه الفاعلية القرائية لأفكار الإمام وتأويلاتها المختلفة وتفجر معرفته وما أخذته من مسارات.

3- أثر النهج في العلم والفكر: إن تأثير نهج البلاغة في العلم والفكر ظاهر بين، مما يثبت أصالة الكتاب الفكرية والعلمية، وتأثيره الحي في المعرفة بعده :

أولا: علم الكلام: يقول "ابن خلدون": "هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات"²، وبهذا ارتبط هذا العلم بالدفاع عن عقائد الإيمان بمحاججات عقلية خالصة تبطل وتدحض أفكار الابتداع والانحراف، حفاظا على سلامة التوحيد من كل المدخلات، "وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد"³، أعلى وأرفع منازلها ورتبها، فسلامة التوحيد هي المؤسس للنظام والعلاقة الصحيحة بين الله والإنسان التي تحفظ سلامة العبودية من كل دخل وفساد، ووظائف هذا العلم أنه "يصلح أن يكون وسيلة من وسائل الدربة الذهنية والتمرينات العقلية"⁴، وهي وظائف توجيهية للعقل من مفاصد التصورات ودرءا لمخاطرها، كي تبقى العقيدة سليمة من كل دخل ودجل، لكن طريق العقيدة يبقى الإيمان في القلب عندما يصبح قوة راسخة، لأن "ملكة الإيمان إذا استقرت عسر على النفس مخالفتها"⁵، رغم أن القرآن نفسه يدعو إلى النظر في آيات الكون وإعمال العقل فيها، يقول الإمام: "الإيمان يبدو لمظة في القلب، كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة"⁶، لتزيد قوة رسوخ الإيمان بصبغة علمية تدخل الإنسان إلى أحوال اليقين، فالإيمان حقيقة نفسية. وقد أخذت مسائل الإيمان والعقيدة طرقا أخرى في البحث نظرا لعوامل موضوعية دفعت إليها

¹ - عباس محمود العقاد : عبقرية علي، ص 40.

² - ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون، ص 507.

³ - المصدر نفسه، ص 507.

⁴ - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 67.

⁵ - ابن خلدون : المصدر السابق، ص 511.

⁶ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 470.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

تحولات تاريخية وحضارية، لأن من طبيعة الأديان أنها تمر في تاريخها بمرحلتين، مرحلة الإيمان والتصديق والتسليم، ومرحلة الجدل في مسائل العقيدة¹، وقد رأينا كلام الإمام السابق كيف يعتبر الإيمان لمظة في القلب، وهو في هذا يسير مع التصور الفطري البسيط والسليم في الإيمان والاعتقاد.

يدرك المتأمل في النهج هذه المعارف والمباحث الإلهية، تظهر لنا في أوائل الخطب: "أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، بشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حده، ومن قال "فيم" فقد ضمنه ومن قال "علام" فقد أخلى منه، كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه، متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده"². إن هذا الكلام النفيس في المعرفة الإلهية ينزه فيه الإمام الله ﷺ عن كل وصف لا يليق به، ولهذا بنى هذه المعرفة على تلازمات ضرورية، يقول "محمد عبده": "بل هو في هذا الكلام يصفه أكمل الوصف"³، فالله لا يمكن الإحاطة به ومعرفة كنه ذاته، بهذا العقل الإنساني القاصر المحدود، قال تعالى ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾⁴، فهذه الاستحالة تدفع العقول المؤمنة إلى عدم الجري والانسحاق وراء افتراضات لا ترقى إلى إثبات ولا دليل معها يقويها.

لقد فتحت مباحث الإمام الطريق أمام العلماء في البحث في هذه المعرفة الإلهية بمسائلها العقدية، فالإمام "له أسبقية تأويل ظواهر الكتاب وتحكيم العقل في الدفاع عن الدين والتوفيق بين العقل وظاهر الشرع"⁵، وهناك من الأسباب التي دفعت إلى مثل هذا تحولات الأمة بسياقاتها السياسية والاجتماعية والاندفاع إلى تأويلات نصية تتماشى مع تصورات هذه الفرق المتصارعة ومحاولة امتلاك الحجة التي تثبت صحة الرؤية والخيار السياسي والمذهبي، انطلاقاً من النص القرآني،

¹ - ينظر أحمد محمد صبحي : في علم الكلام، دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين(2) الأشاعرة، دار النهضة، بيروت، 1985، ط5، ص 15.

² - علي بن أبي طالب، المرجع السابق، ص 17، 18.

³ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 17.

⁴ - سورة الرعد، آية 14.

⁵ - شهيد حسين حمزة : تأسيس علم الكلام الإسلامي عند الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، مجلة العقيدة، عدد 18، 1440هـ، <https://aqeeda.icss.iq/files/investigations/2nq64pv3a.pdf>، ص 163.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

إضافة إلى موجات الطعن والزندقة في الدين، يقول "ابن أبي الحديد": "أن العلم الإلهي يعود إلى الإمام، فعنه "اقتبس وعنه نقل، وإليه انتهى، ومنه ابتداء، فإن المعتزلة- الذين هم أهل التوحيد والعدل، وأرباب النظر، ومنهم تعلم الناس هذا الفن- تلامذته وأصحابه"¹، فأصل هذا العلم يعود تأسيس مبادئه وشذراته ومحاته إلى الإمام علي عليه السلام، هذا العلم الذي تفرع وتطور في القرون اللاحقة نتيجة عوامل فاعلة، فمن كلام الإمام السابق "وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه"، يقول "ابن أبي الحديد": "فهو تصريح بالتوحيد الذي تذهب إليه المعتزلة، وهو نفي المعاني القديمة التي تثبتها الأشعرية وغيرهم"²، وقد أخذ هذا الجدل سجالاتاً بين الفريقين، بل خاض في هذا الفقهاء والعلماء، وبذلك أخذ مسارات مختلفة بين التطرف والتوسط والمجاجات العقلية، حتى وصل إلى إصدار الأحكام بالكفر، ومن الجلي أن هذا الصراع الذي كان نواة للفكرة القرآنية [= التوحيدية] ومحاولات التأويل والتفسير لسلوك الاعتقاد مع شيوع مظاهر كثيرة من رقة في الدين وذهاب الأخلاق مع قدوم الوافد الأجنبي بثقافته وإشاعة الحوار والجدل والمناظرة في أعقد وأخطر المسائل خاصة تلك التي تتعلق بالذات الإلهية، كل هذا يعد من صميم هذا العلم، يقول "العقاد": "إن علياً عليه السلام، أبو علم الكلام في الإسلام، لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه"³، والأکید أن القرآن ذاته يدفع إلى النظر والتأمل وبناء النظام الفكري والعقدي على أساس من المعرفة السليمة، بطرقها الكونية والملتوية والتكوينية، ولهذا كان نهي النبي صلى الله عليه وآله عن التفكير في كنه الذات: "تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله عز وجل"⁴، ومثل هذا النظر كفيلاً يبعث الاطمئنان في النفوس، لكن التطرف في الخوض في قضايا دقيقة نهي عنها مثل الذات الإلهية والقدر تنحرف بالبحث عن أهدافه، ولذا فقد "حاولت كل فرقة أن تصل مذهبها بالمتقدمين من صحابة الرسول، ولكن الأشاعرة كانوا في ذلك أشدهم إصراراً كي يطمئن الناس أنهم بحق أهل سنة"⁵، بهذا الإرضاء المذهبي، تقوية لحجة المذهب بالعقيدة على خصومه، بدل التحقق بأدوات معرفية، حيث كانت تختفي السياسة.

إذا كان المعتزلة يحملون شعار العقل منهجاً في تأويلاتهم للمسائل العقدية الشائكة في التوحيد والصفات والقدر ومرتكب الكبيرة والإرادة، وما يوهم ويوقع في التشبيه والتجسيم، فإن

¹ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 1، ج 1، ص 17، 18

² - المصدر نفسه، ص 51.

³ - عباس محمود العقاد : عبقرية علي، ص 38.

⁴ - أبو عبد الله بن حمدان : الإبانة الكبرى لابن بطة، ج 6، ص 86.

⁵ - أحمد محمود صبيح : في علم الكلام، ص 21.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

الإمام يعطي للعقل مزية خاصة، فيقول: "كفاك من عقلك ما أوضح لك سبل غيك من رشك"¹، ويميز بين عقليين، فيقول: "عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية، لا عقل سماع ورواية، فإن رواة العلم كثير، ورعاته قليل"²، بذلك العقل العلمي تحصل المعرفة التوحيدية الصحيحة، بينما العقل الذي يجمع المعلومات دون فقه تنتفى معه المنفعة، لأن حقيقة وعاية العلم نفع الناس، وفي وجه هذا الصراع المحتدم كان رد "أبو الحسن الأشعري" على غلو المعتزلة في اعتمادهم على العقل، لأنه لا يؤدي بنظره إلى نصره الدين، والأمر الآخر أن الإيمان جوهر في الاعتقاد³، وبهذا تتحرك هذه المحادلات منتصرة للعقل عند طائفة وللنقل عند أخرى، مع أن الأمر كان يقتضي اعتماد منهج معتدل مع العلم والرؤية البصيرة بالحقائق والأشياء، وإذا عدنا إلى الإمام نراه يجمع بين العقل والنقل بحسب ما تقتضيه الضرورة، حيث يقول "العبد الله بن العباس" لما بعثه للاحتجاج على الخوارج: "لا تخاصمهم بالقرآن، فإن القرآن حمال ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن حاججهم بالسنة، فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً"⁴، وهنا يبعد الإمام عن القوم أن يفتحوا باب التأويل البعيد غير النافع في الآيات، وما قد يقود إليه من أخطار وانقسام، بل بالسنة لأنها ضابطة مقررة وعملية في التنفيذ، من المطبق الأول في فهم النص والحق وهو النبي ﷺ. وفي سياق آخر وفي كتاب إلى "أبي موسى الأشعري"، يقول: "فإن الشقي من حرم نفع ما أوتي من العقل والتجربة"⁵، فالعقل والتجربة عوامل صلاح وإدارة وتوجيه يحققان المصالح الإنسانية والإيمانية، لذا فالوقوف عند حد النقل غلو كما أن الوقوف عند حد العقل غلو هو الآخر، وعليه يمكن أن نسأل: كيف يتم التوفيق بين النقل والعقل؟ وكيف يتم التوفيق بين القرآن والسنة؟! ولماذا الغلو والتطرف، وما الذي يمكن أن يحققه؟!

إن حركة الفكر الكلامي كانت شديدة النشاط عند "واصل بن عطاء" و"أبو الحسن الأشعري"، ولذا فقد انفتح باب البحث في مختلف المطالب الإلهية، فالمعتزلة تركزت أصول عقائد بحثهم في خمسة قضايا رئيسة، في التوحيد والعدل، والمنزلة بين المنزلتين والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي قضايا تطرق إليها الإمام في مواضع كثيرة، وبالتالي فالمبحث الكلامي قد أفاض فيها في شبه سجل محتدم مع خصومه ومناوئيه، يقول "المسعودي": "فهذا ما

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 496.

² - المصدر نفسه، ص 333.

³ - ينظر أحمد محمود صبحي : المرجع السابق، ص 58، 59.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 425.

⁵ - المصدر نفسه، ص 429.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

اجتمعت عليه المعتزلة ومن اعتقد ما ذكرناه من الأصول الخمسة، كان معتزليا، فإن اعتقد الأكثر أو الأقل لم يستحق اسم الاعتزال، فلا يستحقه إلا باعتقاد هذه الأصول الخمسة، وقد تتوزع فيما عدا من فروعهم¹، وهي قضايا شائكة خلافية خاصة بالنسبة لمرتكب الكبيرة الذي حلوه في منزلة لا كافر ولا مؤمن، على خلاف الأشاعرة وأهل السنة أن الموحد لا يدخل النار، ويقسم الإمام المعاصي إلى كبيرة وصغيرة، وهي ناتج أعمال العباد يتحدد من ورائها ثوبا وعقابا، فيقول: "من كبير أوعد عليه نيرانه، أو صغير أرصد له غفرانه"²، من منطلق أن العبد المؤمن يتحرى الاستقامة ما استطاع، فإن المعصية يتعين مجانبتها، فمن غير اللائق بالمخلوق أن يعصي خالقه كرامة لله ﷻ ولنفسه أن تنزل عن مرتبة التقدير الإلهي، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾³، ولهذا كان مقام التوحيد كما مر بنا يقوم على المعرفة، وهو التأسيس الذي يعطيه الإمام لمثل هذه العلاقة الحيوية: الله- الإنسان، "أقل ما يلزمكم الله أن لا تستعينوا بنعمه على معاصيه"⁴، وعليه فالمعرفة التوحيدية الخالصة والإيمان والفتوة السليمة كفيلة بتجنب مختلف التصورات والمفاهيم غير المسلم بصحتها.

ويزخر النهج بكثير من الضوابط الإيمانية والتوحيدية والمعرفة الإلهية، ولذا يدفع الإمام إلى التأمل والتدبر لتحصيل هذه المعرفة الجليلة، فيقول: "بل ظهر للعقول بما أرانا من علامات التدبير المتقن والفضاء المبرم"⁵، وهي دعوة للتأمل في الملكوت، فالإجابة عن أسئلة العقل تولد الاطمئنان وتريح من هم السؤال في الذات والصفات الإلهية، يقول الإمام: "فإنما يدرك بالصفات ذوو الهيئات والأدوات، ومن ينقضي إذا بلغ أمد حده بالفناء"⁶، والملاحظ أن إشارات الإمام بما يغلب عليه من روحية يخرج المتلقي من الاضطراب والحيرة ويمنحه السكينة، وهذا فارق بين نظر علماء الكلام وكلام الإمام، فكلامهم عبارة عن دربة عقلية بينما كلامه فيه عبق من الموعظة الروحية، وإذا كان "أبو الحسن الأشعري" يستدل على وجود الصانع بحدوث العالم، فإن هذه الفكرة قد أشار إليها الإمام في كلامه، جاء في اللمع: "الدليل على ذلك أن الإنسان الذي هو في غاية الكمال والتمام، كان نطفة ثم علقة ثم لحما ودما [وعظما]، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال إلى حال، لأننا

¹ - المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج3، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 2005، ط1، ص 185.

² - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 25.

³ - سورة الأنعام، الآية 91.

⁴ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 483.

⁵ - المصدر نفسه، ص 247.

⁶ - المصدر نفسه، ص 249.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

نراه في حال كمال قوته وتمام عقله لا يقدر أن يحدث لنفسه سمعا ولا بصرا، ولا أن يخلق لنفسه جارحة"¹، ويقول أيضا: "لأن القديم لا يجوز انتقاله وتغييره، وأن يجري عليه سمات الحدث"²، هذا الكلام في الدليل على وجود الله بالمخلوق نراه في كلام الإمام، حيث يقول: "الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد، ولا تراه النواظر، ولا تحجبه السواتر، الدال على قدمه بحدوث خلقه، وبحدوث خلقه على وجوده"³، واضح وجه التلاقي بين الفكرتين وأثر النهج في واحد من أقطاب علم الكلام، في مثل هذه المفاهيم من المعرفة الإلهية، يقول "الطوسي": "صار جميع ما أسهب المتكلمون من بعده في تصنيفه وجمعه إنما هو تفصيل لتلك الجمل وشرح لتلك الأصول"⁴، فمن الفكرة النواة في الحديث عن المعرفة والعلم الإلهي للإمام تفجرت هذه المعرفة وتفتقت عند كثير من العلماء سواء وافقت تصور الإمام أو خالفته في الرؤية، فمختلف مسائل علم الكلام نجد إشاراتها في نهج البلاغة يطول الحديث في تقصي تفاصيلها المختلفة، وبذلك استطاع الإمام: "أن يؤسس منظومة كلامية سار عليها من بعده أحفاده الأئمة"⁵، وقد ذكر "ابن أبي الحديد" سلسلة تواصل سند هذا التلاقي المعرفي بين نهج البلاغة وأقطاب علماء الكلام، وبذلك يشق الفكر العربي طريقه إلى العالمية انطلاقا من حدث التاريخ العظيم المرتبط بنزول القرآن، بدءا بـ "إقرأ"، حيث بدأت ديناميكا الفكرة في الانطلاق. وقد حذر الإمام من مزالق الخوض في القدر وتفسيراته كما حذر من ذلك النبي ﷺ، يقول الإمام: "ذلك طريق مظلم فلا تسلكوه، وبجر عميق فلا تلجوه، وسر الله فلا تتكلفوه"⁶، ويقول في القضاء والقدر: "ويحك لعلك ظننته قضاء لازما، وقدرا حاتما، ولو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد، إن الله سبحانه أمر عباده تخييرا، ونهاهم تحذيرا، وكلف يسيرا، ولم يكلف عسيرا"⁷، وهذا رد على القائلين بالجبر والتفويض، وهي الأفكار التي ظهرت في مذاهب مستقلة بعد الإمام بزمان، يقول "محمد عبده": "ولا شيء منهما يضطر العبد لفعل من أفعاله، فالعبد وما يجد من نفسه من باعث على الخير والشر، ولا يجد شخص إلا أن اختياره دافعه إلى ما

¹ - الأشعري أبو الحسن : اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، تح حمودة غرابة، مطبعة مصر، 1955، ص 17، 18.

² - المصدر نفسه، ص 19.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 254.

⁴ - الطوسي أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسن: الأمالي، ج1، مطبعة النعمان، النجف، 1964، ص 148.

⁵ - حسين حمزة شهيد: تأسيس علم الكلام الإسلامي عند الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ص 180.

⁶ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 477.

⁷ - المصدر نفسه، ص 440، 441.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

يعمل، والله يعلمه فاعلا باختياره إما شقيا به وإما سعيداً¹. إن الإمام يدفع العقل أن يتحرر من الأوهام التي تحاول أن تغوص في فهم كنه الذات الإلهية وحكمته المطلقة، وهو أمر ينبغي أن ينضبط به الموحد تأديبا وتخلقا، وأمامه كون الله المفتوح يتأمله ليعرف عظمة خالقه، فينتهي إلى توحيده وتعظيمه وتنزيهه وعبادته، وأن يقع اهتمامه على العمل، لأنه مسؤول بحرية ووعي عن أفعاله.

ثانياً: علم التصوف: يقول "ابن خلدون": التصوف "طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة مال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة"². إذن فالتصوف فن الطريقة والمسار الذي يقطعه السالك إلى الله في تمثله للحق، ويقتضي هذا التحلي عن متع الدنيا كاملة والزهد فيها، حيث يفضي هذا بالإنسان المتصوف أن ينقطع إلى عبادة الله، ورغم أن المصطلح ظهر متأخرا عن بدايات الإسلام، إلا أنه كحقيقة تعبدية نجد آثاره عند الصحابة والسلف، وإن ظهوره "في القرن الثاني وما بعده نتيجة إقبال الناس على الدنيا والانغماس في ملذاتها"³، ويوصفه حقيقة ومسلكا نجد أسسه عند الإمام علي عليه السلام، وحتى في أفكار القرآن والسنة النبوية في دفعها إلى تهذيب وتركية النفس وصقل الروح، والتحذير من الدنيا وزخرفها، وقد كان "إجماع الفكر العربي والإسلامي قديمه وحديثه على أن التصوف غرسة أصيلة انبثقت من محتوى السلف الصالح مستلهمين القرآن الكريم والأحاديث النبوية"⁴، غرسة هي انبثاق طبيعي لتطور الفكر الإسلامي فجدوره وجذوة تطوره تعود إلى مصادره الدينية من قرآن وسنة وعلماء الصحابة، يقول "ابن أبي الحديد": "ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال التصوف، وقد عرفت أن أرباب هذا الفن في جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون وعنده يقفون وقد صرح بذلك الشبلي والجنيد وسري وأبو زيد البسطامي وأبو محفوظ معروف الكرخي وغيرهم ويكفيك دلالة على ذلك الحرقرة التي هي شعارهم إلى اليوم وكونهم يسندونها إليه بإسناد متصل"⁵، فهذا الكلام يثبت هذا التلاقي بتأثيراته المختلفة في هذا العلم ومفرداته وعلمائه ومدارسه وتطوره وأبعاده التي أخذت من الإمام وما صار إليه بعده.

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 440، 441.

² - ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون، ص 517.

³ - المصدر نفسه، ص 517.

⁴ - رزيق برهان : التصوف في الفكر الإسلامي، وزارة الإعلام السورية، دمشق، 2016، ط1، ص 76.

⁵ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج1، ج1، ص 19.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

يعج كتاب النهج بموضوعات التصوف، من مثل الفتوة والفقر والزهد والدينيا والعرفان والعبادة وغيرها وهي المواد التي نراها عند المتصوفة مع التطورات التي أخذها هذا العلم عبر العصور والتي تعود فكرتها الأساس للإمام، يقول "القشيري": "التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق"¹، حيث يتركز التصوف في الارتباط بالله ﷻ توجها وعبادة وتعلقا، في خط يقطعه السالك بعقبته ومحفوفاته سيرا إلى الله، وما يحتاجه من أدوات معرفية يقتضيها هذا الطريق، وأولها التخلية ثم القيام بالفرائض وترويض النفس، ومسلك الروحانيات والتزكية والإرادة والمعرفة بالحقائق.

وعندما نعود إلى أصول هذا العلم، فلا يمكن أن نجد إلا عند الرعيل الأول من الأمة فالصحابا والتابعون كانوا أمثلة حية في التعبد لله ﷻ بفقته وعلم بتوجيه من الوحي الإلهي والسنة النبوية، ومن أعظم رجالات هذا الزمن نجد الإمام علي ﷺ علما على هذا الطريق وإليه نسب هذا العلم، بحيث أرسى قواعده وضوابطه وروحه، ففي النهج نجد الكثير من الكلام عن المقامات والأحوال والمراتب والأخلاق والزهد، ومن أمثلة ذلك ما يعطيه الإمام لمفهوم الاستغفار، بعيدا عن الفهم الظاهر للكلمة أو فقه الرسوم كما يقول المتصوفة، فقال لقائل قال بحضرتة "استغفر الله": ثكلتك أمك! أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليين، وهو اسم واقع على ستة معان"²، لقد حول الإمام الاستغفار إلى مقام رفيع استند فيه إلى الفقه والعلم والمعرفة بتدرجات تصل إلى مرتبة العبودية الحقة ومقامات أهل الكمال، يبدأ من الندم ثم العزم وأداء الحقوق والفرائض والحزن، وذوق ألم الطاعة، ومثل هذا الفهم هو الذي ينقل السالك من العبادة الحرفية الشكلية إلى العبودية الخالصة، وبهذا يعد الإمام مؤسسا لمثل هذا الخط الروحي، يقول "العقاد": "لأنه صاحب آراء في التصوف والشريعة والأخلاق سبقت جميع الآراء في الثقافة الإسلامية"³، ومن هؤلاء الذين اتصلوا بهذا العلم الشبلي والجنيد والسري وأبو زيد البسطامي ومعروف الكرخي بتواتر ينتهي إلى الإمام.

وتكشف نصوص هؤلاء العلماء عن تناصات بينة وتلاق حي واضح مع نصوص النهج وتلق لهذا العلم على يد علماء هذا السند في سلسلة تعليمية مذكورة، يقول الجنيد: "إن لله عبادا صحبوا الدنيا بأبدانهم وفارقوها بعقود إيمانهم، أشرف بهم على اليقين على ما هم إليه صائرون، وفيه مقيمون وإليه راجعون، فهربوا من مطالبة نفوسهم الأمارة بالسوء والداعية إلى المهالك والمعيشة

¹ - القشيري أبو القاسم : الرسالة القشيرية في علم التصوف، تح معروف مصطفى رزق، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 2001، ط1، ص 280.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 497.

³ - عباس محمود العقاد : عبقرية علي، ص 12.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

للأعداء والمتبعة للهوى والمغموسة في البلاء، والتمكنة بأكناف الأسواء، إلى قبول داعي التنزيل المحكم الذي لا يحتمل التأويل"¹. إن الحديث عن هذا المقام الرفيع من هذه المشاركة الإيمانية المفارقة للأرضية والتعلق بالمحل الأعلى، هو عين ما نراه عند الإمام، حيث يقول: "صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه، ودعاته إلى دينه"²، واضح وجه التأثير والتأثير تظهرها هذه الموازنة بين النصين، وثبتتها الفكرة واللغة، وبذلك أسس كلام الإمام لمفاتيح هذا العلم. وفي كلام آخر "للجنيد" يصف فيه الأولياء، قائلاً: "وهم الذين لا يعرفهم إلا من جعل الله سبحانه وتعالى نورا في سراج الديمومة، فمن لم يجعل الله له ذلك النور فما له من نور"³، وهذا الكلام في غربة الأولياء عند الناس الممتنع عنهم، إلا على أهل النور، وتلك المعرفة الروحية التي تكون بأنوار القلوب، هو نفسه الوصف الذي يعطيه الإمام لهؤلاء الأولياء، فيقول: "يجادلهم في سبيل الله قوم أذلة عند المتكبرين، في الأرض مجهولون، وفي السماء معروفون"⁴، فالأولياء بوصفهم ووظيفتهم، هم أفاذا متميزون وناكرون، وما توصيف الإمام إلا محاولة لنعث سيما أهل الحقيقة منهم، فالصوفية هم "أطفال في حجر الحق"⁵، وهم الأقلون الأعظمون، من خلال تمثلهم التام للحق وامتثالهم له، فكانوا عينا على الحقيقة. إذن لقد صار البحث الصوفي في هذا المعنى الذي وضع أساساته الإمام عند علماء الحقيقة والتصوف من بعده واقعا علميا وعمليا.

لقد تعمق البحث الصوفي في الحقيقة والمعرفة إلى درجة كبيرة أراد أن يصلها بشوقه وتوتراته، هذا الحافز أعطى قوة وعمقا لهذا العلم، باعتباره لغة كشفية خاصة، حيث "تشكل المغامرة الصوفية في الإسلام الجوهر الأساس الذي دفع التفكير الإسلامي إلى منطقة البحث عن المطلق، ونموذج هذه المغامرة هو الصوفي الذي تقترب صورته من صورة الرومانسي الحالم في المخيال العام الذي يتعامل مع هذا النموذج يفهم بأنه يجيا خارج الذات وخارج حقائق العالم"⁶، أي مغامرة وحلما خارج حدود هذا المعلوم وقفزنا نحو المطلقة وكشفا واطمئنانا إلى الحقيقة من خلال اللغة، يقول

¹ - الجنيد أبو القاسم : رسائل الجنيد، رسالة دواء التفريط ، تح جمال سنديدي، تصدير عاطف العراقي، دار اقرأ دمشق، 2005، ط1، ص 119.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص454.

³ - الجنيد : المصدر السابق، ص 65.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 148.

⁵ - البسطامي أبو زيد : المجموعة الصوفية الكاملة ويليها تأويل الشطح، دار المدى، دمشق، 2004، ط1، ص 71.

⁶ - قاسم محمد عباس : مدخل تحقيق كتاب المجموعة الصوفية الكاملة لأبي زيد البسطامي، ص 11.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

"البسطامي": "ليت الخلق عرفوني، فكفاهم من ذلك معرفتهم بأنفسهم"¹، وهي معرفة بالحق والعلم توصل إلى الحقيقة، بما تحدثه من نقلة نوعية، يكون الإنسان فيها خارج وفوق أسوار ظواهر الأشياء، نقلة إلى الحقيقة التي تغيب عن الناس، هذا الإعلان الشفيف نجده واضحا عند الإمام في قوله: "أيها الناس! سلوني قبل أن تفقدوني، فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض"². إن ما يجمع القولين هو الاطمئنان واليقين إلى الحقيقة والمعرفة والعلوم والمعارف التي يمتلكها العارف بعد التجربة والمغامرة والإحاطة، وهنا "تظهر مزية العقول العاملة والنفوس الرفيعة وبها ينال الرشد، ويستضيء الفكر"³، وهي المفاتيح التي تجمع القولين وتظهر وجه هذا التلاقي ورمزية الإمام بالنسبة لكل علماء الحقيقة في انتسابهم ورجوعهم إليه، فمنه انطلقت هذه الشرارة العرفانية.

ويدفع "البسطامي" الإنسان إلى الزهد في الدنيا رابطا بينه وبين معرفتها، فيقول: "من زهد في الدنيا فقد نبه عن قدرها من قلبه، وأي قدر للدنيا حتى يحتاج أن يتكلم في الزهد فيها، يا غلام إن الأجسام لا تقوم إلا بالله"⁴. لقد صار الزهد تبصرة ومعرفة قائمة إلى الحق، ومن ثم التبخر في عوامل النور والحقيقة، وكثيرا ما نرى الإمام يدفع ويستحث العقول إلى مثل هذا الفقه الرفيع، فيقول: "ازهد في الدنيا يبصرك الله عوراتها، ولا تغفل فلسست بمغفول عنك"⁵. فالزهد يصبح بصيرة ومعرفة وتذكر وكشف يجلي حقيقة الدنيا أنها ليست غاية ولا منتهى، وبهذا يحول توجه الإنسان إلى الآخرة، وهذه الجوامع بين النصين في الفكرة واللغة والرؤية هي ثابت يؤصل أثر النهج في أعلام التصوف، وكيف أخذوا من هذا النبع واستضاءوا بفكره وأخذوا من هذه المبادئ الروحية في العلم الإلهي وعلوم الحقيقة، حتى صاروا أعلاما لها، ومثل هذا التوتر يدفع الصوفي إلى البحث عن إصابة الحق من طريقه، يقول البسطامي: "كفر أهل الهمة أسلم من إيمان أهل المنة"⁶، فهو يرى في الهمة السلامة، لأنها باعث على التوتر بعيدا عن المن الذي لا يكون معه الأمان، ولذا فإن حركة الإنسان القلقة توصل إلى اليقين والاطمئنان عكس حالة الرضا والسكون الباعثة على إيمان هش غير مأمول، وهو

¹ - أبو زيد البسطامي، المجموعة الصوفية الكاملة، ص 53

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 264.

³ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 264.

⁴ - أبو زيد البسطامي : المصدر السابق، ص 90.

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 494.

⁶ - أبو زيد البسطامي : المصدر السابق، ص 100.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

عين ما أقر به الإمام، فيقول: "نوم على يقين، خير من صلاة في شك"¹، ويقول: "قليل تدوم عليه أرجى من كثير مملول منه"²، حيث يركز المبدأ عند الإمام في المداومة والمجاهدة المستمرة مع قليل من الأعمال، حيث تتجلى الإرادة والهمة في الاستمرار في قطع هذا الطريق نحو الحق بمختلف إكراهاته التي تدفع تلك المشاشة التي لا تحقق السلامة، ومن ثم نرى وجه التأثير واضحاً، فأفكار الإمام في هذا العلم والطريق هي لبنات بناء هذا العلم وصرحه. إن مفاهيم التصوف المختلفة ومصطلحاته ومقاماته وأحواله كلها نجدتها مبنوثة في النهج، وهي المفردات التي أثرت في مباحث هذا العلم، مثل الوقت والمقام والحال والقبض والبسط والهيبة والأنس والفقر وغيرها، وهي عينها التي أثرت عند هؤلاء الأعلام ممن تأثروا بالإمام مثل "الجنيد" و"الشبلي" و"معروف الكرخي" و"البسطامي"، مع باقي التأثيرات الحادثة على مر العصور كما عند "ابن عربي" بمعرفته وعلمه الغزير، فأوجه التأثير والتلاقي كما يثبتها العامل التاريخي بالتلمذ، يؤكدها العامل الفني الذي تظهره اللغة، والعامل الفكري والمنهجي الذي تثبته الأفكار والمبادئ والمفاهيم العلمية والذوقية الكثيرة.

ثالثاً: أثر نهج البلاغة في الفكر الإسلامي: يتميز الإمام بأكثر الخصائص الإنسانية، وهي قوة العقل وقوة الفكر وقوة الذكاء وقوة الخيال، وهي صفات تجعل من كلامه مخصوصاً بعظمة نادرة تؤهله أن يحدث أثراً بليغاً في العلم والفكر الإنساني، حيث نجد النظرية الاجتماعية بمعالمتها، والفكر السياسي بقواعده وقيمه، وبمثل هذا الوعي والحضور المتميز نراه في نظراته في النفس والفقه والأدب. تتميز نظرة الإمام إلى المجتمع بالدقة والشمولية، وتشكل رؤاه نظرية متكاملة في الفكر الاجتماعي، وأسس بناء المجتمع العادل الفاضل وعلاقاته المختلفة، علاقة الحاكم بالمحكوم والمحكوم بالحاكم في إطار أداء الحقوق والواجبات وعلاقة الأفراد فيما بينهم، أو ما يسميه "مالك بن نبي" بشبكة العلاقات الاجتماعية، فقد حدد الإمام طبقات المجتمع التي تبنيه، وقيمتها على تراتب وظيفي مبني على معايير علمية دقيقة وأسس معرفية عادله، يقول الإمام: "واعلم أن الرعية طبقات: لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض"³، طبقات متكامل من خلال أداء الأدوار الموكلة لها، وتكامل بمعايير التقوى والعدل والإنسانية، ونظرة الإمام لا تهمل حتى أضعف الطبقات، دفعا لكل اختلال اجتماعي يكسر نسيجه، كما أكد أن الأموال ومصادر الثروة وعمارة الأرض

¹ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 444.

² - المصدر نفسه، ص 476.

³ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 396.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

ينبغي أن تعالج في إطار مبدأين هما ملكية الجماعة وعمارة الأرض بالعدل¹، وهذا توجيه متقدم سبق نظرات علماء الاجتماع المحدثين، أما أثر هذه الأفكار الاجتماعية فنجد تفصيلاتها في مقدمة "ابن خلدون" وتصوراتها الاجتماعية والسياسية، ومثل هذا الفكر بدقائقه ورؤيته الثاقبة التي تضبط التصورات الاجتماعية السليمة يعلن عنها الإمام: "فما جاع فقير إلا بما متع به غني"²، فهذا بغي ترفضه نظرية الإمام، وترفض انكسار الفقير أمام سلطة الثراء الفاحش: "ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلبا لما عند الله وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالا على الله"³، فالفكرة الاجتماعية تقوم على الكرامة، وهي فكرة قرآنية، ترفض قاعدة الاستضعاف والاستكبار لتحقيق مجتمع العدل. إن تأسيسات الإمام الاجتماعية يبنها على قيم الحرية والمسؤولية قصد تحرير الطاقات الاجتماعية من الموانع والمكبلات المختلفة، كي تتحقق العدالة في توازن بين دور الفرد ودور المجتمع، فالناس "أحرار في المولد والمنشأ لا قسر يجوز عليهم ولا إكراه"⁴، بهدف بناء حياة فاضلة مثلى، يتساوى فيها الجميع على أساس الأخوة، لأن الإنسان في عرفه، ووفق قاعدة العلاقات الاجتماعية، هو أخ في الدين أو نظير في الخلق، فيقول: "الناس صنفان: إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق"⁵، وما تمليه طبيعة الاجتماع الإنساني من تآلف وتآزر واحترام، إلغاء للطغيان والظلم والجور. ولا تقوم نظرية الإمام الاجتماعية دون التفكير في الفرد بوصفه معادلة هذا البناء، ولهذا فحديثه عن النفس بمركباتها وتناقضاتها وتعقيداتها يوليه أهمية كبيرة، ولذا يدفع إلى ضرورة الاعتناء بالنفس والاشتغال في حدود هذه الدائرة حتى تستقيم قبل أن تصبح بنية اجتماعية في تركيب اجتماعي ينتفى منه الأذى والظلم والفساد، وهو شرط دخولها [= الذات الفردية] وانتمائها الاجتماعي، يقول الإمام: "طوبى لمن ذل في نفسه، وطاب كسبه، وصلحت سريره، وحسنت خليفته، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من لسانه، وعزل عن الناس شره، ووسعته السنة، ولم ينسب إلى البدعة"⁶، تركز هذه الأفكار على الإصلاح النفسي الذي يقيم حياة الفرد، وفق أبنية معرفية تصلح الذات وتزكي النفس لتثمر جمالية العلاقات مع الآخر، ويعني هذا أن النفس ينبغي

¹ - ينظر جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، دار الأندلس، بيروت، النجف الأشرف، 2010، ط1، ص 178، 179.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 483.

³ - المصدر نفسه، ص 495.

⁴ - جورج جرداق : الرجوع السابق، ص 237.

⁵ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 392.

⁶ - المصدر نفسه، ص 448.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

"أن تقهر وتركن إلى جانب العقل"¹، قصد ضبط جماحها وميولها مع الأهواء والشهوات، كما يمثل هذا أكبر حماية لهذا الجوهر الروحي الداخلي لعالم الفرد الذي هو أساس كل بناء فردي واجتماعي وإنساني، يقول الإمام: "من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر"²، محاسبة تدخل في هذه الرياضة النفسية لتحصيل صلاحها، "بإعادة صياغة السلوك على وفق ما ينسجم مع الدين الحنيف"³، وبذلك يحاول الإمام إنشاء منظومة سلوكية ومعرفية تركز على قواعد علمية بمعرفة النفس ومركب اشتغالها، كما يوجه إلى الحذر من أخطر مهدداتها "الشيطان المضل والنفس الأمارة"⁴، لأن تحقيق السواء الذاتي يتوقف على الفوز في هذه المواجهة الدائمة والمتجددة.

إن ما يطرحه الإمام من قواعد ونظرات نفسية دقيقة، كانت مبدأ انطلاق البحث العلمي والمعرفي عند العلماء، كما مر بنا عند علماء التصوف في بحثهم ومجاهداتهم، وجميعها تركز على المكون النفسي في أبعاده الإيمانية والتعبدية، فقد أدرك أهمية هذا المركب وخطورته، كما كان الشأن بالنسبة للعلماء، عند "ابن سينا" و"الغزالي" و"ابن باجة" و"الرازي" وغيرهم.

إن الحياة في نظر الإمام لا يمكن أن تستقيم إلا بقيام منظومة أخلاقية فردية واجتماعية ترعى القيم الفردية والاجتماعية والإنسانية، لذا وجه إلى أهمية الأخلاق في حياة الإنسان، فيذكر: "كفى بالقناعة ملكا وبحسن الخلق نعيما"، "التقى رئيس الأخلاق"، "الطامع في وثاق النذل"، "بئس الزاد العدوان على العباد"⁵، وهي توجيهات تأسيسية هدفها إعادة بناء الحياة وفق قيم إيمانية وإنسانية وجمالية وقيم العدل، "فهو مطمئن إلى صلاح ما يعمل"⁶، استنادا إلى بصيرته بالواقع وعلمه ومعرفته، وهي الأفكار التي اشتغل عليها الفكر الإسلامي في عصوره التالية عند الفلاسفة والعلماء المسلمين في إشاراتهم الدقيقة في قضايا تتعلق بعلم النفس وكذلك علماء التصوف، وبذلك صار النهج أرض العلوم والمعارف والفكر ومرجع الأدباء والمفكرين، فقد فتق أبواب الحقيقة أمام العقل والنظر لتقصيها، فألفت المدونات العلمية والفكرية حول هذا الكتاب العظيم والرجل العظيم.

¹ - رضا شاه كاظمي : العدل والذكر، ص 67.

² - علي بن أبي طالب، المصدر السابق، ص 461.

³ - حسين العمري : الخطاب في نهج البلاغة، ص 241.

⁴ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 483.

⁵ - ينظر نهج البلاغة على الترتيب، ص 464، 496، 464، 463.

⁶ - جورج جرداق : على صوت العدالة الإنسانية، ص 108.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

ويحرك الإمام عليه السلام الفكر للجولان في الملكوت والسياحة في العوالم المختلفة، تحريك يرتكز على العقل وإعماله وإنفاذه في الحقائق، فلا اطمئنان للنفس إلا بالتأمل والنظر والتفكير والتدبر حتى تستقر المفاهيم والتصورات والحقائق على بينات، على أن يبقى التحفز والتنشيط والحيوية سيدة وقائدة للإنسان، لأن الحقيقة لا يمكن القبض عليها، وكثيرا ما تحجب وراء الضلالات والأوهام تقف حائلا عن إدراكها، لذا نجده يقول: "بينكم وبين الموعظة حجاب من الغرة"¹، يتعين أن تزال بأدوات العلم والمعرفة، وحتى الدين هو في ذاته لا يسلم من هذا العمل والمراكمة المضللة بهدف إبعاد الإنسان عن الحق، لهذا جعل الإمام من الدين محور الفكر، فيقول: "أول الدين معرفته"²، لأنه فكرة تدرك وتفهم وتفقه، وبعدها تنفذ وتطبق، فصار الدين عنده "موضوعا من موضوعات التفكير والتأمل والتبصر وما كان لعبقري كعالي أن يكتفي من الدين بظاهره من إجراء الأحكام وإقامة الحدود وطقوس العبادة"³، وبذلك يتخطى بالعقل سطح الأفكار إلى جوهرها، أي إلى الوعي بالحقيقة الدينية، لأن الوعي هو السلاح الذي ينتصر به الإنسان على الشيطان فلا تبقى له مداخل ولا منافذ، مما يعد تحررا يدفع الإنسان إلى الانطلاق نحو الكمالات والرقى في العبودية بأنوار العلم والمعرفة والفكر، وهو الذي أعطى نسبة للإسلام لم تعط له، فيقول: "لأنسب الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل الصالح"⁴. نلاحظ أن هذا المفهوم يبدأ بالمعرفة وفكرة معنى الإسلام وينتهي بالعمل، وبذلك فالاعتقاد فكرة ومعرفة والعمل فكرة ومعرفة، وهو ما يعد فتحا للعقل ليتحرك في بناء المفاهيم على قاعدة علمية صحيحة، وقد دفع هذا العلماء إلى تحقيق وتمثل الحق على هذا الأساس، ورأينا ما أنشأه علماء الكلام على هذه المعاني وكذلك نظرات الفلاسفة المسلمين، وحتى المذاهب الفقهية وعلى رأسهم "أبو حنيفة" إمام أهل الرأي في تأثره بالمنهج العقلي عند الإمام وطبيعة تفكيره في القضايا، وكذلك الإمام "مالك بن أنس"، وثبتت الوقائع التاريخية تسلسل التلقي المعرفي لهذين العلمين الذي ينتهي عند الإمام⁵، فالمسائل الفقهية للإمام موجودة وقضاءه في القضايا كذلك جلي، يظهر معرفته وعلمه وهو يعمل عقله في الفصل

¹ - علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، ص 477.

² - المصدر نفسه، ص 17.

³ - جورج جرادق، المرجع السابق، ص 114.

⁴ - علي بن أبي طالب، المصدر السابق، ص 449.

⁵ - ينظر ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 1، ج 1، ص 18.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

فيها، هذا الإطار الفقهي الذي برع فيه، كانت تأثيراته جلية في ظهور علماء الفقه بمذاهبهم المختلفة، "فقد امتاز علي بالفقه الذي يراد به الفكر المحض والدراسة الخالصة"¹، أشبه بالنظر الفكري والفلسفي الذي يضع أسس المذاهب والنظريات، كما قعد له هؤلاء العلماء.

إن العقل هو الذي يمكن الإنسان من مثل هذا الفهم العميق البصير بالأشياء لذا نراه يدفع إلى التأمل في الكون وفي آياته وما تمنحه من معرفة واستقرار تطمئن إليه النفوس في رحلة بحثها، وهو وعي يتمثل الحقائق، قصد إدراك غاياتها، "وهذا النمط من النظر الفلسفي"²، لا يمكن أن يستغرب، حيث كان محطاً لميلاد الفرق والمذاهب الإسلامية جميعها في الفقه وعلم الكلام والتصوف والفلسفة والفكر، بسطان العقل الذي يحرك النفوس لترى بشكل جلي وتختار عن مبدأ، لأن في عرفه أن "الناس أعداء ما جهلوا"³، فالجهل هو عدو الحقيقة وعدو المعرفة والتعارف، الأمر الذي دفعه إلى هذه التوصية: "لا تقسروا أولادكم على آدابكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم"⁴، ويقول: "مروا الأحداث بالمرء والجدال، والكهول بالفكر، والشيوخ بالصمت"⁵، ومعناه دفعهم إلى إعمال العقل في الأمور والقضايا لتحصيل المعرفة أولاً، وثانياً البحث عن الحرية وامتلاك الإرادة والاستقلال الذي يواجهه به الإنسان معضلات ومشكلات زمنه، مران يهيئهم للبحث عن الحقيقة على مبدأ الأحرار العظماء، وبهذه المرونة وبهذا الذكاء، ذلك أن فهمه للزمن يتماهى مع محاور الوجود الإنساني وتفاعلاته: "للمؤمن ثلاث ساعات: فساعة يناجي فيها ربه، وساعة يرم معاشه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذتها في ما يحل ويجمل"⁶، فهذا التقسيم للزمن متقدم وسابق، وطالما بحث فلاسفة هذا العصر في حقيقة الزمن، إلا أن الإمام يضع هذه الفكرة الفلسفية للزمن مجزئة تستجيب لمطالب الإنسان في اعتدال وتوسط واستقامة، وهذا وعي بالزمن النفسي والوجودي جديد يقوم على العقل والإدراك، مع الاستجابة لمطالب الإنسان بتلبات وظيفية جسدية وروحية وذاتية، وعلاقته العامودية التي تربط الإنسان بالله ﷻ مناجاة، وأفقياً بأداء أدواره الحيوية مرة معاش ولذة في حل.

¹ - العقاد : عبقرية علي، ص 37.

² - المرجع نفسه، ص 40.

³ - علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، ص 458.

⁴ - ابن أبي الحديد، المصدر السابق، مج 10، ج 20، ص 140.

⁵ - المصدر نفسه، ص 150.

⁶ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 494.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

يبحث الإمام عن الحقيقة انطلاقاً من داخل الإنسان، في النفس والعقل وقواه الروحية والجسدية وجمالياته الإنسانية، وخارج الإنسان، في بيئته ومحيطه والمجتمع ومتعلقاته التنظيمية والسياسية والاقتصادية، وعلاقاته بالناس والآخر، وداخل الكون، بالتأملات والتدبر فيه، ومع القرآن، قراءة وتأملاً وتدبراً وترتيلاً، فهذه هي خطوات البحث عن الحقيقة تنتهي إلى تحصيل المعرفة الإلهية توحيداً وعبادة وعمارة وتعارفاً. قد تحولت إلى مرجع فكري لعلماء المسلمين ومذاهب الفكر. إن أثر النهج في العلم والمعرفة متنوع، وهو في علم الأدب كذلك جلي أثره، فهو أولاً كتاب أدب ولغة وبلاغة وجمال وفكر، جذب إليه الأدباء والشعراء لينهلوا من أساليبه ونظمه ومعارفه وأسراره، فهذه الروح الأدبية العظيمة قد ألفت بسحرها على الأدباء، وهذا ناتج لصفاء هذه الذات ولقيمتها التكوينية والتثقيفية والحسية والجمالية التي تمتع بها الإمام، يقول "جورج جرداق": "إنك لا تجد في الأدب العربي كله هذا المقدار الذي تجده في "نهج البلاغة" من روائع الفكر السليم والمنطق المحكم في مثل هذا الأسلوب النادر"¹، والأكد أن هذه البراعة في البيان التي تجمع بين عناصر فاعلة تمنحه هذه القوة والجذب، ويلخص "جورج جرداق" عناصر هذه العظمة الأدبية، في الحس الجمالي الرفيع، فأساس بلاغته التي تأتي بعد بلاغة القرآن وبلاغة النبي ﷺ، تعود إلى ما أخذه من البيان الجاهلي بفطرته السليمة، ومن البيان الإسلامي بفطرته ومنطقه القوي، ومن البيئة، وما تمتع به من تسلسل منطقي وتماسك فكري وعقل قوي وقوة خيال². إذن وعلى هذا الأساس صارت بلاغة هذا الكتاب بأديته وشعريته وجماله محط أنظار الأدباء، حيث "تتصل به أساليب العرب على نحو ثلاثة عشر قرناً فتبني على بنائه وتقتبس منه ويحيا جيدها في نطاق من بيانه الساحر"³، فهو معين الأدباء والشعراء، "وكل نمط من أنماط كلامه، شاهد له بالملكة الموهوبة في قدرة الوعي وقدرة التعبير.. فهو لا شك من أبناء آدم الذين علموا الأسماء وأوتوا الحكمة وفصل الخطاب"⁴، ولا شك أن مثل هذا المستوى الرفيع من الكلام والبلاغة العالية تجعله محج الأدباء ومقصد العلماء، وبذلك يصبح النهج كتاب العربية الأول بعد القرآن الكريم في التأسيس لعهد جديد للأدب العربي بشعره

¹ - جورج جرداق، المرجع السابق، ص 285.

² - ينظر المرجع نفسه، ص 281، 282، 285.

³ - ينظر المرجع نفسه، ص 281.

⁴ - العقاد: عبقرية علي، ص 148.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

ونثره الفني بمقاييس جمعت بين البيان الجاهلي والبيان الإسلامي، ونذكر أمثلة من تأثير النهج في أدباء العربية وتلقيهم لنصوصه وأفكاره وحكمه، قول المتنبّي:

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدًّا فَمَنْ الْعَجْزِ أَجْ تَكُونُ جَبَانًا
كُلُّ مَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ فِي الْأَثَرِ فُسْ سَهْلٌ فِيهَا إِذَا هُوَ كَانَا¹

إن معنى البيت مقتبس من قول الإمام: "إذا هبت أمرا فقع فيه، فإن شدة توقيه أعظم مما تخاف منه"²، وهذا التناص والتلاقي بين فكري النصين، مع هذا المنزع العقلي للمتنبّي أخذه من الإمام وأخذ حكمة الحياة عنه، وكذا في زهديات أبي العتاهية، حيث يقول في التحذير من الدنيا:

إِنَّ دَارًا نَحَرْنَا فِيهَا لَدَارًا لَيْسَ فِيهَا لِمُقِيمٍ قَرَارٌ
كَمْ وَكَمْ قَدْ جَلَّهَا مِنْ أَنَاسٍ ذَهَبَ اللَّيْلُ بِهِمْ وَالنَّهَارُ
فَهُمُ الرِّكْبُ أَجَابُوا مُنَاجَاً فَاسْتَرَجَوْا سَاعَةً ثُمَّ سَارُوا
وَكَذَا الدُّنْيَا عَلَى مَا رَأَيْنَا يَذْهَبُ النَّاسُ وَتَخْلُو الدُّجَارُ³

أخذ "أبو العتاهية" هذا المعنى من قول الإمام: "إن أهل الدنيا كركب، بينا هم حلوا إذ صاح بهم سائقهم فارتحلوا"⁴. إن هذا التأشير لمحدودية الدنيا يتناص فيه "أبو العتاهية" بمعناه مع مقولة الإمام، ومن خلالها يظهر تحذيره وزهده في الدنيا، كما يعمد إلى القصص التكويني في التزهيد من الدنيا عندما يذكر الأقبام السابقين الذين انتهوا على شاكلة ما يوجه إليه الإمام وتظهر في زهدياته:

أَيْنَ الْمُلُوكِ بَنُو الْمُلُوكِ فَكُلُّهُمْ أَمْسَى وَأَصْبَحَ فِي التُّرَابِ رُفَاتَا⁵

وفي معنى هذا البيت يقول الإمام: "ألستم في مساكن من كان قبلكم أطول أعماراً"⁶، ويذكر الأديب "ابن المقفع" في كتابه "الأدب الكبير" قوله: "وإني مخبرك عن صاحب لي، كان من أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما أعظمه في عيني، صغر الدنيا في عينه، كان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يتشهى ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجاً من سلطان فرجه، فلا يدعو إليه ريبة، ولا يستخف له رأياً ولا بدناً، وكان خارجاً من سلطان لسانه، فلا يقول ما لا يعلم ولا ينازع

¹ - المتنبّي أبو الطيب: ديوان المتنبّي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1983، ص 474.

² - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 458.

³ - أبو العتاهية : ديوان أبو العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1986، ص 182.

⁴ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 496.

⁵ - أبو العتاهية : ديوان أبو العتاهية، ص 83.

⁶ - علي بن أبي طالب : المصدر السابق، ص 163.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

فيما يعلم، وكان خارجا من سلطان الجهالة، فلا يقدم أبدا إلا على ثقة أو منفعة، وكان أكثر دهره صامتا، فإذا نطق بذ الناطقين¹، أخذه من قول الإمام: "كان لي فيما مضى أخ في الله، وكان يعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه"². إن الأثر بين الدلالة في الأخذ والتلاقي، وهو ما يثبت قيمة ورمزية النهج وصلاته الفكرية والثقافية في الأدب العربي في لغته وأساليبه ورؤاه وأحيلته "وخلاصة ذلك أن ثقافة الإمام هي ثقافة العلم المفرد والقمة العالية بين الجماهير في كل مقام"³، وبهذه المعرفة العلمية والثقافة الأدبية يحدث هذا الكتاب تأثيرا في العقول والمذاهب والمعارف ويخطط مستقبلها وقوتها وتطورها، من ذلك علم النحو الذي أشار به الإمام على "أبي الأسود الدؤلي" أن ينحوه وفق مبادئ هذا العلم وأقسام الكلم، يقول "العقاد": "فحصه الإمام من علم النحو -مثلا- عظيمة لأن الابتداء بها أصعب من تحصيل المجلدات الضخام التي دونها النحاة بعد تقدم العلم وتكاثر الناظر فيه"⁴، والأمر نفسه ينطبق على بقية المعارف والعلوم التي كان رائدها الأول، بهذه التلقائية التي هي فيض الإمكانيات وازدحامها أمام الذات⁵. لقد كان الإمام تلقائية مفتوحة وفيض إمكانيات أثرت وغيرت وعدلت ووجهت، وصار النهج إمكانا تاريخيا مفتوحا.

لقد أراد الإمام أن يصوب حركة التاريخ وانكسار المثال في النفوس، وإن النفخ في الرماد وفي جذوة النار المتبقية كان حتمية وخيارا ضروريا كي يكون التغيير مؤسسا على نهج علمي يسهم في نشأة وتركيبية الإنسان الذي يقوم على عاتقه واجب بناء حركة التاريخ وتصحيح مسار المجتمع، اضطلعت بهذه المهمة اللغة بحمولاتها الدلالية. إن اللغة الثانية التي اعتمدها الإمام بشعريتها وجمالياتها استهدفت هز موقع المتلقي وخلخله قناعاته الفكرية واعتقاداته ومسلماته الإيمانية، ومحاولة سحبه إلى جهة ثانية، بناء الإنسان وإعادة بناء التاريخ بالإنسان، ولهذا فالأدوات اللغوية الفنية المعتمدة التي رأيناها في هذا الفصل كان هدفها السعي إلى تشكيل رؤية فنية جديدة، تكشف أمراض هذا الواقع والتاريخ وعلل الإنسان وخلل المجتمع، وتمنح مجاوزة هذا بعلاجات فكرية وإيمانية وروحانية، وتقديم بدائل استشرافية عميقة تسهم في نقل المتلقي من واقعه المعقد المأزوم المنغلق الذي

¹ - ابن المقفع عبد الله: الأدب الكبير، تج: محمد حسن المرصفي، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2016، ص 77.

² - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 477.

³ - العقاد: عبقرية علي، ص 150.

⁴ - المرجع نفسه، ص 146.

⁵ - محمود عبد الرحمن مرجبا: الفكر العربي في مخاضه الكبير، ص 476.

الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة

تفرض فيه الحلول الأحادية الظرفية والنفعية الضيقة إلى فضاء مغاير، إلى أفق المطلقية الذي تتعالج فيه النفوس الباحثة عن الحقيقة، بعيدا عن مألوف العادة والعيش في أسر المهشاشة الدنيوية.

إن تأثيرات كهذه قد تلقفها العلماء بعد النهج وحالوا بتلك الأفكار التي حواها بتحديد المعرفة العلمية، كما حاول ذلك علماء الكلام، والبحث عن الحقيقة، كما أراد المتصوفة، وتحديد الأفكار الاجتماعية والنفسية، كما كان مع علماء الفكر والفلسفة والاجتماع، وتحول إلى معين في اللغة والأدب، كما التقط ذلك أهل اللغة والأدب من بلاغته وأدبه، وكذا في تأسيساتهم كما في علم النحو، والغرف من بلاغته وأدبه، كما عند الشعراء والأدباء.

إن نهج البلاغة يعد كتاب العربية بعد القرآن والحديث، فلم يشهد كتاب هذا الاهتمام والتلاقي الوظيفي والحيوي في العلم والفكر والأدب مثلما كان معه، ويبقى دائما نقطة الضوء والجذب نحو مركزه، ويبقى كتابا مفتوحا مع الأيام أمام العقل العربي.

خاتمة



لقد تأسس تصورنا لماهية الإنسان في بحثنا على نظرة ترصده من خلال مدونة الاشتغال من زواياه المختلفة، لأن الإمام ﷺ يتصوره في كليته، جامعا بين الصورة العلمية عنه، كمركب تكويني بسننه، وبين الإنسان باعتباره واقعة اجتماعية تاريخية، ومعنى هذا أن هذه الواقعة الإنسانية تظهر لنا شديدة التعقيد والتشابك متينة التركيب الفكري والنفسي، ولذا فإن تأويل هذه الحقيقة تصبح خيارا منهجيا هدفها تقديم رؤية متكاملة عنه، ومعرفة ما يغذي هذه الروح الكمالية، وأمر آخر محاولة تتبع كاشف للتجاذبات التي تتناوشه في ذاته وفي وسطه الخارجي التي تعيقه عن تحقيق صورته النوعية.

يمدنا السياق التاريخي برفد معرفي ورؤية منهجية مهمة، ولذا كان المدخل محاولة استقصاء لزمين من التحولات، الجاهلي والإسلامي، فقد قادنا البحث عن الكمال الجاهلي إلى إدراك الطبيعة المتناقضة لصورة إنسانه، حيث يتجلى لنا بكرمه المفرط ومبالغته في جهله، وما رفعه لبعض القيم، إلا محاولة لإيجاد معادل وازن، مثل اعتباره الكرم والخمرة والناقة والفرس كمالا.

• إن الإغراق في الجزئيات والافتقار لبنية معرفية، وعدم وجود نمو للذات من الداخل بالتربية، أسقط تلك الإيجابية التي فيه بهذه النواقض، وأفضل تطلعه ومنعه من إدراك الحقيقة. وتبين أن ملخص مشكلته روحية، وأن علاجها يكون في النبوة، مع ما امتلكه من حيوية ويقظة وتطلع.

• أحدث الإسلام تغييرا عظيما في حياة العربي، فقد أعطته الفاعلية الدينية المخارج اللازمة لذلك، فكانت البعثة إصلاحا لكل ذلك الفساد، غيرت حركة النبي محمد ﷺ هوية الإنسان "كان يفرغنا ثم يملأنا"، وصاغه صياغة جديدة في عالم يصنع الوثن، إذن فهناك سر. هناك مفتاح. هناك ميلاد.

• إن هذا التغيير صنعه عظيم كامل، هو النبي ﷺ: "الإنسان المصنوع على عين الله"، بالاصطفاء، الأكمل والأشد نبوة، المؤدب من ربه، وإن جميع صفاته هي تأهيل رباني متفرد لحيازة كل الأكمل البشرية، وهو جاذبها إلى الكمال ونموذجها الرباني التطبيقي، بها أقلب وغير ونقل، فصار الإنسان معه ﷺ يمتلك كمالا على قاعدة الأمثل فالأمثل، وبهذا أعاد للإنسان هويته.

• أعطى القرآن معالم كمال النبي وعظمة الذات المحمدية برسمة واضحة المعالم، حيث تأسس كماله ﷺ على منبت أصيل، وأرضية انطلاق محورية متجهة نحو الله رأسا وأفقاً نحو الناس، كما ألبس ذاته الشريفة خلعة من التحليلات الإضافية والتمييزية تزيد هذه الذات وضاءة وإشراقا، لتكون بذلك عين الكمال، وقد قاده الوحي إلى رؤية الحق بالقرآن، حيث مده برؤية تجاوزية آفاقية ترتسم معها الغايات جلية، وبهذا تصل الذات إلى العروج ما يجعل منها إمكانية مجسدة لمرتبة الإنسان الكامل.

- يعد الإنسان الصحابي نموذج هذا الكمال الذي أحدثه الإسلام، وهو يمثل نقلة نوعية في التاريخ، فصار مثالا للإيمان، ودالا على تربية النبي ﷺ له؛ وخلاصة منهجه في التزكية.
- انتقلنا بعد هذا التوطيء المنهجي إلى بدء عملنا التأويلي الذي نحاول من خلاله إبراز أبنية مشروع الإنسان كما يتصوره الإمام في مختلف أبعاده، ويكشف كتاب النهج لمتصفح عن ثلاثة صور للحياة كونية اجتماعية فردية، ذات أهمية كبيرة للكائن الحي، تلخص حيوية وجوده النشط.
- تسفر الحياة الكونية عن علاقة كونية جمالية يحاول من خلالها الإمام التأكيد على ضرورة حضور الإنسان الكوني في شبه من التعبد والإجلال والتعظيم، وطريقها التأمل وتفتح الفهم والمعرفة بنفي الشرك والعبثية والعدمية، والثبات على الطاعة والتوحيد الخالص، وتمثل الكونية، عبادة أولي الألباب، بالمعرفة والسياحة الكونية التعبديّة، وأن الأرض هي مكان العمل والجنة هي مآل الرجوع.
- لقد تفتن الإمام إلى التركيبة الاجتماعية وعناصرها حواضن الفرد وخمائر المجتمع الأولى التي تمكن الفرد من الدخول الآمن في المجتمع، فتصور المجتمع طبقات سبع بمعاييرها، تنوع تفرضه الحالة الإنسانية، ومن ثم فالبنية المجتمعية مبناهما المجموع العام المتضام ثقافيا وروحيا بعلاقاته، وتبدأ بدور الأفذاذ والأقطاب، منشأ الأفكار العظيمة التي تصنع قدر المجتمعات العظيمة، والبنية الثقافية ويخصصها في الكتاب (القرآن) نبع هذا النظام الثقافي الفكري والأخلاقي، وكذا أهمية النواقل الاجتماعية للأفكار وتصنيف الناس لإدراك طبيعة المركب الاجتماعي لتصحيح الرؤية الاجتماعية.
- إن صحة العلاقات الاجتماعية تساوي مجتمعا سليما، وضعها الإمام سواء العامودية منها أو الأفقية، في دوائر متشابكة قصد تفعيل الأداء الاجتماعي، وتحقيق اللحمة الاجتماعية.
- يولي الإمام الحياة الفردية منزلة كبيرة بفهم أساسها وسننها، فقد أعطى مقومات هذه الحياة، وبذلك فإن سوية فردية مقدمة لسوية اجتماعية، ويلح الإمام على ضرورة التفاعل الحي للذات الفردية انطلاقا من الأبعاد الأربعة لهذه الحياة، النفسي والعبادي والعملي والمعاملاتي، وهي دوائر تلاقى وظيفي في حياة الفرد.
- تجسد صور الحياة تفاعلا حيا يصنعه الإنسان حينما يقرأ ذاته الفردية، ويقرأ ما في مجتمعه، ويقرأ ما في الكون، بإدراك بصير، ولذا فإن رؤية الإمام للكائن هي رؤية كونية، وتقتضي هذه الصور نفي كل عبثية وعدمية وسطحية ونظرة ميتة، وبهذا تكون الحياة فكرة وامتلاء، والإنسان إرادة، والطاعة امتثالا وفكرة جامعة، والحق صورة كونية، ويصير العدل ميزانا كونيا وفرديا واجتماعيا.

اصطلحنا على الإنسان الذي يسير في غير طريق الكمال "بالإنسان الشقي"، المقابل قرآنياً "للإنسان السوي"، وهو الذي يعرفه الإمام "بالمُنخدع لهواه"، وحدد ماهيته بأنه "من حرم نفع ما أوتي من العقل والتجربة"، ومن صفاته الأمر بالباطل والفساد، والغفلة والطمع والقول بغير علم، وغياب الوعي، وعدم إتباع شرعة الإسلام، والظلم والتلون في دين الله، وتمثل صفاته تهيئة حقيقة تقود إلى الانحراف العقدي والفكري والعملي، إضافة إلى معيقات الكمال.

● يبرز الانحراف العقدي خللاً في صحة المعتقد والعمل بالباطل وضرباً للبناء الإنساني الفطري، وأما الانحراف الفكري فهو عبارة عن ملوثات فكرية تلخص بعداً عن الرشد، تتجلى في تعطيل المنهج وإتباع الرأي ومخافة الكتاب، ويثبت الانحراف العملي عوجاً في المخارج السلوكية للفكرة.

● تعد معيقات الكمال الرسم الحي لصورة شقاء الإنسان، أولها إتباع الشيطان، حيث يبعد الناس عن الحق ويدفعهم إلى الازدحام على حطام الدنيا، وإثارة الفتن، وتشكيل حزبه، وفريق أهل النفاق، وتمثل الشهوات سيما الإنسان الشقي، وتشكل الشبهة والطمع والمال وعالم اللذائذ ومركباتها نموذجاً فاسداً واعوجاجاً في السير، ويأتي الهوى معيقاً وحائلاً يحول بين الإنسان والحق، وداعية انحراف عن الهدى، وتمثل الدنيا زينة مغرية ونزعة مادية مفسدة، تعبر عن ضيق أفق وفهم سطحي. وتدل هذه المعوقات على شقاء الإنسان، بينما يمثل تأطيره لها حركة واعية نحو بلوغ مراتب الكمال.

لقد كان الحديث عن الإنسان الشقي مدخلاً ضرورياً لفهم طبيعة الإنسان السلبية، ولذا فإن تزكية النفس ستثمر تحصيل مراتب كماله الأربعة، وتشكل من ناحية منهجية مضاداً للمعيقات السابقة، كما أن اجتماع هذه المراتب في الذات يعني تحصيل الإنسان لكمال النوعي.

● يعد التوحيد أول مرتبة كمالية، وتمثل الشهادة مركزه الذي يعطي المدار الإيماني المعرفي، وتحصل بآيات ثلاث، المتلوة والمشهودة والتكوينية وتعد أهم وسائل الهداية والتوحيد. تمثل الآيات المتلوة [= القرآن] كتاب الهداية والتربية والتغذية المتكاملة، به يقرأ العالم قراءة مفتاحية إيمانية توحيدية وتأويلية، وأما الآيات المشهودة، فهي قراءة تأمل في الكون، تحصل معرفة تكمل نقصنا وعجزنا، وتعد في النهاية لكثيرين طريقاً نحو الإيمان، وتكون لآخرين استزادة، ولل بعض الآخر ترقياً وكمالاً. وتمنح الآيات التكوينية الإنسان المعرفة والبصيرة التي تعينه في مواجهاته، وتصحيح مساره الإيماني.

● تقوم مرتبة العبودية على العلم والمعرفة، وتبنى على مقوم الحرية والمملوكية والقضاء والقدر، وتجسد خضوع الإنسان الحر الواعي وتحرره من عبادة الشهوات والأغيار، وهذا بتغذية القلب واللسان بالقرآن وطرائف الحكم والموعظة والفكر الحي، لتحقيق تمثلات العبودية من ذكر وتفكير وتدبير.

• تتدرج العبادة إلى ثلاث مراتب، وهي عبادة التجار (الرغبة)، وتفتقد إلى المعرفة والتأدب، وعبادة العبيد (الرغبة)، وتنشأ عن الخوف دون تمثل الجمال الإلهي، وأرقاها عبادة الأحرار (الشكر)، وتمثل نقلة من العبادة الحرفية إلى كمال العبودية، وتتحقق بمعيار الصبر في حال (المصائب)، وبمعيار التأدية بالشكر في حال (النعم)، وبمعيار الشكر في حال (الفتوح)، وبمعيار الخضوع والارتباط والاستجابة في حال (الدعاء).

• تمكن مرتبة العقل الإنسان من إدارة ماكنته الإنسانية، ويقسمه الإمام إلى عقل وعاية، وهو عقل العلم المحقق للهوية الإيمانية، وعقل سماع وهو عقل تقليد لا يوصل إلى الحقيقة، كما يصنف الناس بمعيار العلم إلى ثلاثة أصناف، هم الرباني (العارف بالله)، والمتعلم، والرعا (أتباع كل ناعق)، ولذا يثمر العلم في بناء الإنسان عبر مراحل العمر المفصلية، ليدخله إلى أرض الكمالات وفسحة الحق، وتحول الفكرة الضعف والظلمة والعدمية والعبثية في الذات، إلى المعنى الإنساني التكريمي والجمالي.

• يظهر الإنسان كامل العقل محاورا وقارئا ومؤولا يتلقى العرفان بطريق التفكير والتدبر بالنظر في العواقب، وطريق التذكر للخلص، وبتأول ثان فإن كمال العقل يكون بهذه الطرق، وهو يعد حجة قائمة بين الإنسان وربّه ليدرك معنى التكليف، وتطبيق الوحي الإلهي والانتماء إلى الإنسانية والحق. • تعد مرتبة العمل الصالح عبادة وخيار الحياة الصالحة والتدفق التلقائي للخيرية من الإنسان، ثمرة للمراتب الثلاثة، ويتمثل العمل الصالح مع الآخرة، ويبرز هذا ارتباط العمل بالإيمان، بحيث يتأسس عليه إحراز الآخرة، وآليتها أن ترى الجنة بعين العمل، وترى الدنيا بعين الآخرة.

• ويعتبر العمل كمالا عندما يكون فكرة إيمانية ونية وصوابا وحسنا، مع التقوى التي تضع الإنسان في منعة من الملوثات الروحية، وبذلك تعطيه رؤية يتجاوز من خلالها الدنيا التي تحسنت له إلى الآخرة بحسنها، وهذا وجه إدراك الإحسان، ويعد العطاء صورته باليد الاجتماعية، وفكرة كونية ترى الكون وما فيه رأي الإحسان، يتجلى ذلك في مسلك الساعي والطالب والمقصر.

تقودنا نتائج الفصل الرابع إلى بيان تجليات الإنسان الكامل، تلك البدايات الدالة على كماله الإنساني، ويتحقق كماله هذا بالمعرفة والعمل، وبجمالية تميزه عن صورة الجهل نعت الشقاء، ولذا فإن الحق لا ينتمي إليه الإنسان إلا بالمعرفة والعمل. وتعد تجليات الكمال عملا دقيقا في الذات وقواها، وتأسيسا لأبنية العالم الإنساني بالعلم والمعرفة والتركية المتواصلة، وهو مبدأ قرآني يحقق تماثل كمال المعرفة وكمال العمل، ومن تجليات هذا الظهور تحققها :

• في الإنسان العارف، بالمعرفة الباطنية، والظاهرة الروحية والعقل النير، وفي الإنسان العالم، بحيث يحدد العلم بوصلة قدر الذات وهو سنة إلهية يبحر بها في بحثه عن الحقيقة، وفي الإنسان العامل المجاهد بالعمل على الإصلاح بوعي ليظهر الحق.

• تعد الفكرة التي يحمل الإنسان هي مجلى حال الخفاء والتجلي تبعا لمصادرها، قرآنية كانت أو نفسية شيطانية، فمن ناحية وظيفية يكون الخفاء والتجلي قائما بين الفكرة والأداء، مثل فكرة الإيمان في النفس، ولذا فتمتد القوة الداخلية بالإيمان له مخرج أدائي بالعمل تظهره العبودية.

• تعكس صورة الخفاء والتجلي كمالا إنسانيا وجمالا يصنع وجه الخيرية، وتتجلى لنا صورته في الإنسان الزاهد التقى، حيث يعطي الزهد المقترن بالتقوى جلاء، خارج فردي/اجتماعي، يفيض من هذه القوة الخفية الإبحار وعظمة الأداء، ويوجه إرادة الذات من إرادة الدنيا إلى إرادة الآخرة، وفي الإنسان العابد، الممثل للحق، الذاكر المعبد نفسه لله بالمعرفة، ولذا فطوية حسنة تعني برانية خيرة.

• تنطق جوانية الإنسان ببرانيته وبرانيته بجوانيته، أعلى تجلياتها مقولة الإمام "لا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق"، حيث صار الإنسان في منطقة الرؤية حقيقة إيمانية وأيقونة حق، وبهذا يستقر في الجوانية الصفاء، ويظهر في البرانية الصواب، حيث تحارج الذوات الإنسانية بتجلياتها الجمالية.

• يتحقق تشاكل الظاهر والباطن في الإنسان بعد عملية تصفيف القطع الداخلية المبعثرة، وعليه فالظاهر والباطن يتميزان ويتجاذبان، بعد استكمال البعدين العلمي والعملي يمثل له الإمام بالتخليص [= تصفية باطنية]، والتمحيص = [الإختبار في الابتلاء والفتن]، ويعني هذا أن ما طاب ظاهره، طاب باطنه، ووجودا في الدنيا وتعلقا بالآخرة، وهذه علامة تأول لصورة الكمال.

ويجلي لنا الفصل الخامس ماهية الإنسان الكامل بإضاءة علمية معرفية تقابل السؤال الإشكالي الذي يحير كل إنسان، وتبدأ المعالجة المعرفية بتحديد ماهيته المعنوية، حيث يشير القرآن إلى أطوار الحلقة الأربعة، وأن التسوية والنفخة أخرجت الإنسان إلى الوجود كما هو نوعا وطاقا وحياة ومعنى، وتأهيل آخر انتصابه وامتلاكه للجهاز الصوتي، فصار بيانا وعقلا، وأيقونة معناه، وأثبت له العلماء توصيفات نوعية تجلي أبعاده وترسم هويته.

• يحمل الإنسان إمكانية إنسانية قائمة على حدين، الأول تمثله الإرادة الإنسانية مع العوارض والتلبات المختلفة لمطالب الذات، ويمثل الثاني الإرادة الإلهية، وما تفرضه من أداء مطالب التكليف، ولذا يتعين تجنب التذهينات غير المتوازنة والتعارضات، بالتزكية لتحقيق سوية الإنسان وهويته.

- امتلك الإمام رؤية بصيرة ثاقبة في تحديد هوية الإنسان وسيماه، حيث أوله في كل التخارجات، من سر النفخة الإلهية إلى نفي الهوى عنه إلى صورته المعرفية الباطنية، أسند إليه مهمة تصويب الحركة التاريخية للأمة، وأبرز أن كماله يتطلب أسسا هيكلية تقيم صرحه، جعلناها خمس مقومات :
 - تتحدد الكونية في علاقة الإنسان بالله وبالكون بالتأمل فيه، وإمكانية معرفية وعبادة كونية تعمق وجوده، وأما مقوم الإنسانية فهو الخروج إلى الآخر بقيم السلام والخير والجمال، ومن الانتساب الدنيوي الضيق وتعطيل الظلم والتمييز، وتبني الفطرية سلامة وسواء النفس وإنسان الحق، بإزالة الالتباس الخارجي للشيطان والنفس، بالتزكية والتذهين القرآني، ليتجلى الإنسان بقلب سليم.
 - تعد الفكرية قدرة على الجمع بين البعد المادي (الأرضي) والبعد الغيبي (السماوي)، ورؤية هادية تربط وتكامل بين الإنسان والكون وتحرك الحدث الواقعي، ويمثل القرآن والكون مصادرها لتوجه إلى الحق والرشد. ويتحقق ضبط الذات بمقوم التوازنية، بتصريف قوى الجسد والعقل والروح على مقتضى الكمال، وبهذا تتحرك الذات عموديا إلى العبادة، وأفقيا إلى الخيرية، وعمقا (صبغة) إلى الجمالية، وحركة إلى الإنسانية بالعمارة والتعارف، وعليه فكلما زاد تحقق الإنسان بالتوازن ازداد كماله.
- إن الإضافات النوعية التي تسكب على الذات تزيد من تفرد الإنسان، وبهذا تصبح خصائص الكمال اللباس المعنوي للذات، ومن وجه آخر تمثل تفتحاً لمقومات الكمال، أجمالناها في:
- تمثل خاصية الربانية ارتباط الإنسان بالله، وتحقق بإدراك الحكمة الإلهية، وهي تعد تنمية وتربية تحصل درجة النفس المطمئنة. ويلح الإمام على عامل بناء تكريمية ذاتية بتجربة إيمانية، بميزان التقوى والعدل والصبر، لتحصيل الكرامة الثالثة في الجنة. وتعد العبادة مرسخ الروحية الأول، وآليات تحقيق العروج إلى الجنة برؤية ومخيلة جنانية، وقوة ذاتية سبيلها وعي الزمن، وصولاً إلى حالة المؤمنين.
 - تثمر الخيرية معنى خدمة الآخر وفق رؤية قرآنية كونية وإنسانية تعرف بالحق، وجمالية انطلاق إلى ما يثمر البناء الإنساني/ الكوني/ الأخرى الدال على الحالة الإيمانية والإنسانية والكونية. وتعد الحكمية صواباً ودواءً ووقاية فوق التزكية وبعدها، وبقية حجة الله على الأرض، تمكن من إصابة الحق في يسر وجمال، ونورا يضبط تجاذبات خط الحق وخط الإنسان. وتمكن الجمالية من تحقيق الميلاد النوعي الجمالي الكوني للإنسان، وصولاً إلى بسط الجمالية الأخرى، كما يعالج النظر إلى الدنيا [زينة سألبة] بالوعي الجمالي والعمل.

- تمكن هذه المقومات والخصائص الإنسان من تحقيق إنسانيته وخيريته بخمائر الوعي والمعرفة والحرية. وإن أول إثبات يميزه أنه إنسان جدير بالحياة، وسليل نوعه بالمعرفة، وتجل حي بالوعي والجمال تقوم سيماه على سنن بنائية وظيفية، ويمثل الحق والظلم جرحا عميقا للذات، يعالج بالوعي والإرادة والمعرفة، محققة حالة حكمية توازنية جمالية دالة: "لم يدخل في الباطل، ولم يخرج من الحق".
- تقودنا هذه العملية التأويلية للإنسان الكامل في نهج البلاغة إلى تأويل المبني اللغوي، باعتباره حاملا لهذا المعنى، وتضع لغته القارئ والمتأمل أمام وقفة تأويلية تستجلي أسرار الصنعة وطريقة التشكيل، حيث نلاحظ فيه تعانق الفكرة والمبنى التي تظهر لمستة البيانية، وعلى هذا الأساس قمنا بتأويل هادف يكشف هذه البيانية، فلغته تحاكي تمثلاته وتعكس رؤيته، وهي ذات رمزية وتمثل ثقافي تقرأ العالم بتجلياته، يواجه بها الإمام الحقائق برسالة وأدوات جمالية ولغة خاصة، بحيث يصبح الشكل علامة الذات، مما يجعل منهما إمكانا تأويليا، قائم على مبدأ الاستعادة من أجل وعي ثان.
- تمثل شعرية الإيجاز، وكسر النظام والتحول الوظيفي، والتوكيد والحذف، والتوازيات كسرا شعريا وجماليا، يبدو من خلالها الكلام وكأنه رسم يشكله الإمام باللغة يصنع به رؤيته الخاصة، محققا إدهاشا كبيرا يسحب المتلقي إلى أفق جمالي جديد، كي يترقى إلى بلاغة الحق بهذه الشعرية.
- تعطي أنساق التكرار والتضاد والتقابلات والتناظر الإيقاعي والسجع والجناس جمالية شعرية، تستوعب الدفق الفكري الذي يشكل الرؤية، ويضع المتلقي في قلب المطلقية، الكونية/ الإنسانية/ الإلهية، ليمارس حضورا دالا بمستوى عال من الشعرية والجمالية ورؤية تتجاوز إسفاف الواقع.
- يمثل نسق الاستمتاع نصا شعريا مفتوحا متكامل الرؤية الجمالية، يفتح الذهن ليتأمل والعقل ليتأول، والنفس بالمخيلة لتستمتع بالجمال. وينطلق الإمام في بناء معجمه من ذاته إلى مختلف العوالم، يتأسس على رؤية دينية/ إلهية خالصة، حيث يتركز حول كلمة مفتاحية: "الله ﷻ بتوارد مرتفع هو محور الدلالة الكلية، لأن ربط الإنسان بخالقه وإعادة صياغة الواقع هي مهمة الإمام.
- وضعنا نسق الاستمتاع في شكل مصنفات مجازية ودوال وظيفية، هي مجازية الدنيا والتحويلات الاجتماعية، والفتنة والشيطان، ومجازية النبي ﷺ والقائد العظيم، والإيمان والعبادة، وغايتها هي دمج الفكرة والصورة والرؤية، وتقديم نص مجازي دال بجمالياته يدفع إلى تأول حياتي تصنعه المخيلة، فقد أعطت اللغة فيض التجدد بالفكرة والكلمة والتسامي بالمخيلة لاستعادة ألق الإنسانية بالجمال.
- يمثل النهج بنصوصه خطابا بمكوناته الوظيفية والتواصلية، ولذا فإن تأويل مساقه التداولي يصبح ضروريا، ومن خلاله ثبت في هذا البعد التداولي تفاعل أطراف العملية الكلامية التي تعبر عن

الحالة الإنسانية ونقل ذلك التجاذب الحاصل أثناء عملية التواصل بحيويته بين مختلف الفواعل الثقافية والاجتماعية بأبعادها التأثيرية والتوجيهية، وغاية ذلك تسهيل إدراك مقاصد الخطاب.

• يكشف إطار التلفظ بمختلف مؤشرات حضور المتكلم بملفوظ لغوي عاكس للحظة تاريخية واجتماعية، ويثبت هوية متينة لذاتية المبدع، بحثا عن تفاعل واندماج وقيم جديدة تحمل مرسلة متعالية عن الاسفاف الواقعي، يصل إلى درجة من الشوق إلى الآخر الذاهب تعبر عنه الذات بهذا الملفوظ الصريح "الروح إلى الله"، لانقطاع الوصل مع ما يبرزه سياق الموضوعية [= قوم الإمام].

• إن نفاذ الخطاب وهيمته يمر عبر الآلية الحجاجية، من خلال رسم إستراتيجية تكشف الآخر وتهدم قناعاته، وتضطلع روابط اللغة بدور حجاجي رائد، تتمثل أهداف الخطاب المختلفة، وبجهد حجاجي يحقق وظائف كشفية وتأويلية وتربوية، إقامة منهج الحق. وتسعى المحاججة العقلية إلى تصحيح المفاهيم والآراء الفاسدة التي عملت جبهات الصراع والفتن على تعميمها، وكشفت أن العقول تحتاج إلى منازلة حجاجية، حتى تدعن لسلطة الحق ودفعها إلى إقامة تجربة إيمانية روحية وعظمية تستعيد جمالية الروح، ومن ثم إلى بناء أنموذج الكمال فردا ومجتمعا.

تميز نهج البلاغة بقيمة علمية وفكرية ومعرفية عالية، وبذلك أحدث أثرا واضحا في الفكر والعلم والأدب، وتثبت وقائع التاريخ هذا التلاقي والوصلات المعرفية، وعليه فما خطه في تاريخ العلم والفكر عظيم.

• لقد أسس الإمام لمنظومة كلامية في العلم الإلهي أثرت في علماء الكلام بعده بالتلمذ والتواصل، فهو واضح أسس هذا العلم، فمنه انطلقت هذه الشرار العرفانية وتأثر بها المعتزلة والأشاعرة في تأويلاتهم المختلفة.

• نعثر في النهج على كثير من مفاهيم التصوف ومصطلحاته ومقاماته وأحواله، مثل الوقت والمقام والحال والقبض والبسط والهيبة والأنس والفقر وغيرها، وهي المفاهيم التي نعثر عليها عند علماء التصوف ممن تأثروا وتلمذوا على فكر الإمام.

• تجلت نظرات الإمام الفكرية والنفسية والاجتماعية والفلسفية والأدبية في كتاب النهج واضحة بينة، وهي أفكار تميزت بدقة علمية ومعرفية، ألقنت بظلالها على الفكر الإسلامي بعده، فقد حركت أفكاره العقل للجولان في الملكوت والسياحة في العوالم المختلفة بالتأمل والنظر والفكر والتدبر والفهم العميق والوعي بالحقيقة الدينية، فكان هذا الكتاب مركز جذب نحو فكره وأدبه وعلمه وبلاغته.

قائمة

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع :

- 1- القرآن الكريم : رواية حفص.
- 2- ابن أبي طالب علي: نهج البلاغة شرح محمد عبده، دار الكتاب العربي بيروت، دار الأضالة، الجزائر، 2005.
- المراجع :
- 1- الإبراهيمي محمد البشير: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، جمع أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2011، ط3.
- 2- ابن أبي الحديد عز الدين عبد الحميد : شرح نهج البلاغة، ضبطه محمد عبد الكريم النمري، مج 3، ج6، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.
- 3- ابن الأشعث أبو داود سليمان: سنن أبي داود، بيت الأفكار الدولية، عمان الأردن.
- 4- ابن الحجاج أبو الحسن مسلم: صحيح مسلم، شرح الإمام النووي، ت، عبد الرحمان عادل ابن ربيعة، مج7، دار ابن الهيثم، القاهرة، 2003، ط1.
- 5- ابن الحجاج مسلم: صحيح مسلم، تح محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج1.
- 6- ابن العربي أبو بكر: النص الكامل لكتاب العواصم من القواصم، تح عمار طالبي، مكتبة دار التراث، مصر، ج1.
- 7- ابن المقفع عبد الله: الأدب الكبير، تح : محمد حسن المرصفي، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2016.
- 8- ابن أنس مالك: الموطأ، تح محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية، أبو ظبي، ج05، 2004، ط1.
- 9- ابن باجة أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ : تدبير المتوحد، مطابع سراس للنشر، تونس، 1994
- 10- ابن باديس عبد الحميد : في مجالس التذكير من كلام البشير النذير.
- 11- ابن باديس عبد الحميد بن محمد : في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ط2.
- 12- ابن بني مالك: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر بسام بركة، أحمد شعبو، دار الوعي، روية الجزائر، 2013، ط1.
- 13- ابن بني مالك: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق 2011، ط10.
- 14- ابن بني مالك: ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 2006، ط6.
- 15- ابن جني عثمان : الخصائص. تح: عبد الحكيم بن محمد، المكتبة التوفيقية، مج1.
- 16- ابن حمدان أبو عبد الله: الإبانة الكبرى لابن بطه، تح رضا معطي وآخرون، دار الرسالة، القاهرة، ج6، 1994، ط2.
- 17- ابن حنبل أحمد: مسند الإمام أحمد، تح شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، ج10، 2001، ط1.
- 18- ابن حنبل أحمد: مسند الإمام أحمد، تح شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، 2001، ط1، ج32.
- 19- ابن حنبل أحمد: مسند الإمام أحمد، تح شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، ج30، 2001، ط1.
- 20- ابن خلدون عبد الرحمان: مقدمة ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الجليل، بيروت.

- 21- ابن سيدي محمد وفا سيدي علي وفا: الواردات الإلهية (الوصايا)، تح أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007، ط1.
- 22- ابن عاشور محمد الطاهر: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، دار سحنون تونس، دار السلام مصر، 2006، ط2.
- 23- ابن عاشور محمد الطاهر: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، د ط، 1984، مج22.
- 24- ابن عاشور محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ج 11، 1974.
- 25- ابن عربي محي الدين: رسالة الذي لا يعول عليه، دار الكرامة، 2018.
- 26- ابن فارس أحمد : مقاييس اللغة، تح أنس محمد الشامي، دار الحديث، القاهرة، 2008.
- 27- ابن منظور محمد : لسان العرب، دار الحديث، القاهرة، 2002، مج2.
- 28- ابن نبي مالك: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر الجزائر، دار الفكر دمشق، 1988، ط3.
- 29- ابن نبي مالك: الظاهرة القرآنية، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر دمشق، تر عبد الصبور شاهين، 1987، ط4.
- 30- ابن نبي مالك: القضايا الكبرى، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر دمشق، 1991، ط1.
- 31- ابن نبي مالك: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1969، ط1.
- 33- ابن نبي مالك: شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، 2015، ط6.
- 34- ابن نبي مالك: مجالس دمشق، دار الفكر دمشق، 2006، ط2.
- 35- ابن نبي مالك: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر : بسام بركة و أحمد شعبو، دار الوعي، الجزائر، 2013، ط1.
- 36- ابن نصر الكسي أبو محمد عبد الحميد: المنتخب من مسند حميد بن حميد، تح صبحي البدري السامرائي، ومحمود محمد خليل الصعيدي، مكتبة السنة، ج01، 1980.
- 37- أبو العتاهية : ديوان أبو العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1986.
- 38- أبو داود: سنن أبي داود، بيت الأفكار الدولية، عمان.
- 39- أبو رغييف نوفل هلال: المستويات الجمالية في نخب البلاغة، دراسة في شعرية النثر دار بغداد، 2011، ط2.
- 40- أبو عود أحمد: الإنسان في القرآن، دراسات فلسفية مقارنة، سلسلة منشورات الزمن، وزارة الثقافة، المغرب، 2014، ع39.
- 41- أبو موسى محمد محمد : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، دار التضامن، القاهرة، 1986، ط2.
- 42- أبو موسى محمد محمد: دلالات التراكيب، دراسة بلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة، 1987، ط2.
- 43- أحمد بالحاج آية وارهام : الرؤية الصوفية للجمال، منطلقاتها الكونية وأبعادها الوجودية، المطبعة الورقية الوطنية، مراكش، 2008، ط1.
- 44- الأسمر أحمد رجب : فلسفة التربية الإسلامية انتماء وارتقاء، دار الفرقان، عمان، 1997، ط1.
- 45- الأشعري أبو الحسن : اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، تح حمودة غرابية، مطبعة مصر، 1955.
- 46- الأصفهاني الراغب : المفردات في غريب القرآن، تح : صفوان عدنان الداودي، دار العلم، دمشق، ج 1.
- 47- الأصفهاني الراغب: معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، تح ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008، ط3.

- 48- الألباني محمد ناصر الدين: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، دار المعارف، القاهرة، 1992، ط1.
- 49- ألبيرداس - ج. غريماس : سيميائيات الأهواء من حالات الأشياء إلى حالات النفس، تر سعيد بن كراد، دار الكتاب الجديد، المتحدة، بيروت، 2010، ط1.
- 50- الأمدي القاضي : غرر الحكم ودرر الكلم، المفهرس من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، تح عبد الحسن زهني، دار الهدى، بيروت، 1992، ط1.
- 51- أمين أحمد : كتاب الأخلاق، دار العالم العربي، القاهرة، 2012، ط01.
- 52- أمين أحمد : يوم الإسلام، دار الأصالة، الجزائر، 2010، ط1.
- 53- الأنصاري فريد : جمالية الدين، معارج القلب إلى حياة الروح.
- 54- الأنصاري فريد : مفاتيح النور في مفاهيم رسائل النور، القاهرة، 2010، ط1.
- 55- أوשו : الإنسان الجديد، تر، متيم الضايح، دار الحوار للنشر، اللاذقية سورية، 2014، ط1.
- 56- اينوتسو توشيهيكو: المفهومات الأخلاقية- الدينية في القرآن، تر عيسى علي العاكوب، دار الملتقي، حلب، 2008، ط1.
- 57- اينوتسو توشيهيكو: الله والإنسان في القرآن- علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، تر هلال محمد الجهاد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007، ط1.
- 58- باشلار غاستون: جدلية الزمن، تر خليل أحمد خليل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- 59- الباليسياني أحمد محمد طه : هوية الإنسان بين الثبات والتغير، دار الكتب العلمية، بيروت، 2015، ط1.
- 60- البخاري محمد بن إسماعيل : الجامع الصحيح، مج 2، دار الشعب، القاهرة، 1987، ط1.
- 61- البخاري محمد بن إسماعيل: الأدب المفرد، تح سهير بن أمين الزهيري، مكتبة المعارف، الرياض، ج01، 1998، ط01.
- 62- البخاري محمد بن إسماعيل: الجامع المسند الصحيح المختصر، تح محمد زهير بن ناصر الناصر، ج3، 1432هـ، ط1.
- 63- بدر إهام عبد العزيز رضوان : بلاغة الصورة السردية، دراسة في رسالة الغفران للمعري، دار الانتشار العربي، بيروت، 2015، ط1.
- 64- البسطامي أبو زيد : المجموعة الصوفية الكاملة ويليها تأويل الشطح، دار المدى، دمشق، 2004، ط1.
- 65- البغوي أبو محمد الحسين : شرح السنة، تح شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، 1983، ط2، ج4.
- 66- بل كلايف: الفن، تر عادل مصطفى، رؤية للنشر، القاهرة، 2013، ط1.
- 67- بليل عبد الكريم: المفاهيم المفتاحية لنظرية المعرفة في القرآن الكريم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة، مكتبة الأردن، عمان- بيروت، 2015، ط1.
- 68- بليل عبد الكريم: المفاهيم المفتاحية لنظرية المعرفة في القرآن الكريم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي هرنندن، فرجينيا، الولايات المتحدة، 2015، ط1.
- 69- بن قاسم الصديق بن محمد: جمالية الإحسان مدخل إلى الرؤية الجمالية الإسلامية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011، ط1.
- 70- بندحمان جمال : الأنساق الذهنية في الخطاب الشعري، التشعب و الانسجام، دار رؤية، 2011، ط1.

- 71- بوحديدة عبد الوهاب : الإنسان في الإسلام، دار الجنوب، تونس 2007.
- 72- البوطي محمد سعيد رمضان : الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري- شرح وتحليل دار الفكر، دمشق، مج2، 2005، ط2.
- 73- بول جورج : التداولية، تر، قصي العتاي، الجار العربية للعلوم، ناشرون بيروت، دار الأمان، الرباط، 2010، ط1.
- 74- بومسهولي عبد العزيز: الشعر والتأويل، قراءة في شعر أودنيس، أفريقيا الشرق، المغرب، الدار البيضاء، 1998.
- 75- بيار ماشيري: بم يفكر الأدب تطبيقات في الفلسفة الأدبية، تر جوزيف شريم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، ط1
- 76- بيضون إبراهيم: الإمام علي في رؤية النهج ورواية التاريخ، دار بيسان، بيروت، 2009، ط2.
- 77- بيغوفيتش علي عزت: الإسلام بين الشرق والغرب، تر محمد يوسف عدس، مؤسسة بافاريا، دار النشر للجامعات، مصر، 1997، ط 02.
- 78- البيهقي أبو بكر: شعب الإيمان، تح عبد العلي عبد الحميد حامد، ج 13، 2003، ط01.
- 79- تدهاريس وأن لاغستروم : أنصت إلى ذاتك، تر إثمار عباس، دار نينوى، دمشق.
- 80- الترمذي محمد بن موسى : سنن الترمذي، تح بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج04.
- 81- تسفانج ستيفان: بناء العالم، تر: محمد جديد.
- 82- التوحيد أبو حيان : الإمتاع والمؤانسة، تح غريد الشيخ محمد، إيمان الشيخ محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، 2004، ط1.
- 83- التوحيد أبو حيان : الهوامل والشوامل، تح أحمد أمين والسيد أحمد صقر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، 1951.
- 84- الجاحظ عثمان بن بحر : البيان والتبيين، ج1، مطبعة الخانجي، القاهرة، تح عبد السلام محمد هارون، 1998، ط7.
- 85- الجاحظ عثمان بن بحر : كتاب الحيوان، مكتبة الخانجي، القاهرة، تح عبد السلام محمد هارون، ج3، 1965، ط2.
- 86- جاكندوف راي : علم الدلالة العرفانية، تر عبد الرزاق بنور، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010.
- 87- جبران خليل جبران : الأجنحة المتكسرة، المكتبة الثقافية، بيروت.
- 88- الجرجاني الشريف : التعريفات، تح محمد صادق المنشاوي، دار الفضيلة.
- 89- الجرجاني عبد القادر : دلائل الإعجاز، تح محمود محمد شاكره، مطبعة دار المدني، السعودية، مصر، القاهرة، 1992، ط 3.
- 90- الجرجاني عبد القاهر: أسرار البلاغة، تح محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1991.
- 91- جرداق جورج: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، دار الأندلس، بيروت، النجف الأشرف، 2010، ط1
- 92- الجزري ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ج2.
- 93- الجسر نسيم : قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، دار الهدى، عين مليلة الجزائر.
- 94- جلبي خالص: سيكولوجية العنف واستراتيجية الحل السلمي، دار الفكر دمشق، دار الفكر المعاصر بيروت، 1998، ط1.

- 95- جمال الدين ابن هشام : مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تح محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ج1، 1991.
- 96- الجنيد أبو القاسم : رسائل الجنيد، رسالة دواء التفريط ، تح جمال سندي، تصدير عاطف العراقي، دار اقرأ دمشق، 2005، ط1.
- 97- الجوزية ابن القيم: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ضبطه عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004، ط1.
- 98- حاج محمد أبو القاسم: حرية الإنسان في الإسلام، مراجعة محمد العاني، دار الساقى، بيروت، 2012، ط1.
- 99- حاج محمد أبو قاسم: العالمية الإسلامية الثانية، مج1، دار ابن حزم، بيروت، 1996، ط2.
- 100- الحادرة قطبة بن محسن : الديوان، جمعه محمد بن العباس البيهقي
- 101- الحميدي أبو بكر القرشي: مسند الحميدي، تح حسن سليم وأسد الداراني، دار السقا، دمشق، ج 01، 1996، ط01.
- 102- الحوفي أحمد محمد: بلاغة الإمام علي، نهضة مصر للطباعة، 2005، ط3.
- 103- خليل عماد الدين : التفسير الإسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، 1991، ط5.
- 104- خليل عماد الدين : في النقد الإسلامي المعاصر، دار ابن كثير، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2007، ط1.
- 105- خليل عماد الدين : في النقد الإسلامي المعاصر، مؤسسة الرسالة بيروت، 1984، ط3.
- 106- خليل عماد الدين : مؤشرات إسلامية في زمن السرعة، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 2008، ط1.
- 107- خليل عماد الدين: مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 2008، ط1.
- 108- الدارمي محمد بن حبان: كتاب الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، تح شعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة، بيروت، ج9، 1988، ط1.
- 109- درنيقة محمد أحمد : القرآن والعلم، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان.
- 110- الدروبي أحمد : تأويلية الفن في كتابات غادامير، دار رؤية، القاهرة، 2021، ط1.
- 111- دشتي كاظم محمدي محمد : المعجم المفهرس لألفاظ نوح البلاغة، دار الأضواء بيروت.
- 112- الذيباني النابغة : الديوان، تح، عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، 1996، ط3.
- 113- الرافي مصطفى صادق : أوراق الورد، رسائلها و رسائله، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، 2003.
- 114- الرافي مصطفى صادق : تاريخ آداب العرب، دار ابن حزم بيروت، ج2، 2008، ط1.
- 115- الرافي مصطفى صادق : تحت راية القرآن، دار ابن حزم، بيروت، 2011، ط1.
- 116- الرافي مصطفى صادق : كتاب المساكين، دار ابن الجوزي، القاهرة، 2010، ط1.
- 117- الرافي مصطفى صادق: وحي القلم، ج1، دار ابن الهيثم، القاهرة، 2007.
- 118- رانسير جاك: سياسة الأدب، تر رضوان ظاظا، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات العهدة العربية، الحمراء بيروت، 2010، ط1.
- 119- رزيق برهان : التصوف في الفكر الإسلامي، وزارة الإعلام السورية، دمشق، 2016، ط1.
- 120- رسول فاضل : هكذا تكلم شريعتي، دار الكلمة، لبنان، 1982، ط1.

- 121- ر- سيرل جون: بناء الواقع الاجتماعي من الطبيعة إلى الثقافة، تر. حسنة عبد السميع، المركز القومي للترجمة، ع1757، 2012، ط1.
- 122- الرفاعي عدنان: الحكمة المطلقة، نظرية قرآنية في إطلاق النص القرآني، دار الخير، دمشق، بيروت، 2011، ط4.
- 123- رمضان طارق : على خطى النبي درس من حياة النبي ﷺ، تر زهير السمهوري، دار العبيكان، السعودية، 2016.
- 124- ربول أوليفي : مدخل إلى الخطابة، تر رضوان العصبه، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2017.
- 125- زغواني رشيدة : المعمار المنظومي للرؤية العمرانية في القرآن الكريم، أعمال الندوة العلمية: الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط المغرب، 2015، ط1.
- 126- الزين محمد شوقي : الإزاحة والاحتمال، صفائح نقدية في الفلسفة الغربية، الدار العربية للعلوم، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008، ط1.
- 127- سايب إدوارد: اللغة والخطاب الأدبي، تر سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، المغرب، 1993، ط1.
- 128- السجستاني سليمان بن الأشعث: سنن أبي داود، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ج4.
- 129- سركيس إحسان : الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية.
- 130- سروش عبد الكريم : بسط التجربة النبوية، ت، أحمد القبانجي، دار الانتشار العربي، بيروت، لبنان، 2009، ط1.
- 131- السعدي مصطفى : المدخل اللغوي في نقد الشعر، قراءة نبوية، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- 132- سعيد النورسي بديع الزمان : كليات رسائل النور، المكتوبات، تر إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، القاهرة، 2011، ط6.
- 133- سعيد النورسي بديع الزمان: الآية الكبرى : مشاهدات سائح يسأل الكون عن خالقه، تر: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، القاهرة/ الجزائر، 2015، ط1.
- 134- سعيد النورسي بديع الزمان: رسالة الطبيعة، تر : إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، القاهرة، ط5.
- 135- سعيد النورسي بديع الزمان: كليات رسائل النور، إشارات الإعجاز في مظان الإعجاز، تح حسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة، القاهرة، 2009، ط1.
- 136- سعيد جودت : الدين والقانون، رؤية قرآنية، دار الفكر، دمشق، 2002، ط2
- 137- سعيد جودت: حتى يغيروا ما بأنفسهم، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1993، ط7.
- 138- سعيد جودت: كن كابن آدم، دار الفكر دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1998، ط2.
- 139- السيد أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
- 140- السيد جلال : علي بن أبي طالب، دراسة عن حياته دار الجيل، بيروت، لبنان، 1997، ط1.
- 141- سيرفوني جان : الملفوظية، تر قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1998.
- 142- الشبعان علي : الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل (بحث في الأشكال والاستراتيجيات)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2010، ط1.
- 143- شحرور محمد : الكتاب والقرآن رؤية جديدة، دار الساقى، بيروت، 2011، ط1.

- 144- شطاح محمد وبوقرة نعمان: تحليل الخطاب الأدبي والإعلامي بين النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب، القاهرة، 2006، ط1.
- 145- الشعراوي محمد متولي : الإنسان الكامل محمد ﷺ،، دار الندوة، الإسكندرية.
- 146- الشعراوي محمد متولي : تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، مصر، مج 16، 2015.
- 147- الشعراوي محمد متولي : موسوعة الأحاديث القدسية وشرحها، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ج1.
- 148- شكشك أنس : فلسفة الحياة وحكمة الوجود، دار الحافظ للكتاب، حلب، 2002
- 149- شمس الدين إبراهيم: حكم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006، ط1.
- 150- شمس الدين محمد مهدي: دراسات في نخب البلاغة، الدار الإسلامية، بيروت، 1981، ط3.
- 151- الشنقيطي أحمد مختار : شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2004.
- 152- صالح سليمان خزاعي: الإنسان والوعي، دار البلد، السويداء سوريا، 2009، ط1.
- 153- صبحي أحمد محمد : في علم الكلام، دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين(2) الأشاعرة، دار النهضة، بيروت، 1985.
- 154- الصواف محمد محمود: نظرات في سورة الحجرات، مكتبة رحاب الجزائر، 1987.
- 155- الطحاوي أبو جعفر الأزدي : شرح مشكل الآثار، ج10، تح شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، 1994، ط1.
- 156- الطوسي أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسن : الأمالي، ج1، مطبعة النعمان، النجف، 1964.
- 157- عابدين سامي : أصل الإنسان في القرآن، دار الحرف العربي بيروت، 2005، ط1.
- 158- عبد الحق منصف: الكتابة والتجربة الصوفية (نموذج محي الدين بن عربي)، منشورات عكاظ، الرباط، 2011، ط2.
- 159- عبد الرحمن طه: تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط 2، ص 244.
- 160- عبد الرحيم محمد: لقمان الحكيم، دار الفكر، بيروت، 2008.
- 161- عبد اللطيف محمد حماسة: بناء الجملة العربية، دار الشروق، القاهرة، 1996، ط1.
- 162- عبد المطلب محمد: جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، 1995، ط1.
- 163- عبد المطلب محمد: مناورات الشعرية، دار الشروق، مصر، 1996، ط2.
- 163- العبد محمد : النص الخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، 2005، ط1.
- 165- عرابي غازي : الإنسان الكبير، حوارات في الفلسفة الصوفية، دار المعرفة، دمشق، 1999، ط1.
- 166- عزام محمد : النقد والدلالة، نحو تحليل سيميائي للأدب، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، 1996.
- 167- عزام محمد: اتجاهات التأويل النقدي من المكتوب إلى المكبوت - 3 في نظرية الأدب، مكتبة الأسد، دمشق، 2007، ط1.
- 168- العفيفي طه عبد الله : من وصايا الرسول ﷺ، شرح وتعليق، دار التراث العربي، القاهرة، 1981.
- 169- العقاد عباس محمد : مطلع النور، أو طوالع البعثة المحمدية، شركة نخب مصر، 2009، ط4.
- 170- العقاد عباس محمود: إبليس، دار نخب مصر، القاهرة، 2005، ط3.
- 171- العقاد عباس محمود: عبقرية علي بن أبي طالب، دار الصحوة، القاهرة، 2015، ط1.
- 172- العقاد محمود عباس: الإنسان في القرآن، مطابع نخب مصر.

- 173- العقاد عباس محمود: عبقرية محمد ﷺ، دار نهضة مصر للطباعة و النشر والتوزيع.
- 174- عمران علي : حجاجية الصورة الفنية في الخطاب الحربي، خطب الإمام علي (إنموذجا)، دار نينوى دمشق، 2009.
- 175- العمري أحمد خيرى : البوصلة القرآنية، إبحار مختلف، بحثا عن خريطة للنهضة، دار الفكر، دمشق، 2003، ط1.
- 176- العمري أحمد خيرى : الفردوس المستعار و الفردوس المستعاد، دار الفكر، دمشق، 2006، ط1.
- 177- العمري الحبيب بن سيدي عز الدين : الفهم المعبر للقدر، دار وحي القلم، 2008، ط1.
- 178- العمري حسين : الخطاب في نهج البلاغة، بنيته وأمطاه ومستوياته، دراسة تحليلية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010، ط1.
- 179- عودة ناظم : نقص الصورة، تأويل بلاغة الموت، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 2003، ط1.
- 180- غادامير هانس غيورغ : فلسفة التأويل، الأصول المبادئ الأهداف، تر: محمد شوقي الزين، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2006، ط2.
- 181- الغانمي سعيد : الكنز والتأويل، قراءات في الحكاية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، 1994، ط1.
- 182- غدترت أنتوني : علم الاجتماع (مع مدخلات عربية) تر فايز الصباغ، المنظمة العربية للترجمة مؤسسة ترجمان، بيروت، 2005، ط1.
- 183- الغدامي عبد الله : الخطيئة و التفكير، من النبوية إلى التشريعية، مقدمة نظرية و دراسة تطبيقية، دار سعاد الصباح.
- 184- الغزالي أبو حامد : المقصد الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، تح نجاح عوض صيام، دار المقطم، القاهرة، 2008، ط1
- 185- الغزالي محمد : الطريق من هنا، دار المعارض، عنابة، الجزائر.
- 186- الغزالي محمد : فقه السيرة، دار المعرفة، باب الواد، الجزائر.
- 187- الغزالي محمد : فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء والمرسلين، دار المجدد، سطيف، الجزائر.
- 188- الغزالي محمد : كيف نفهم الإسلام، نهضة مصر للطباعة، الفجالة، القاهرة، 2005، ط3.
- 189- الغزالي محمد : مع القرآن، دار الرجاء، عنابة، الجزائر.
- 190- الغزالي محمد : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، دار الشروق القاهرة، 2010، ط11.
- 191- الغزالي محمد: أركان الإيمان، الشهاداتتان، منشورات بغداددي، الجزائر.
- 192- غفيري خديجة : سلطة اللغة، بين فعلي التأليف والتلقي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2012.
- 193- الفاروقي اسماعيل راجي: التوحيد، تر : السيد عمر، مدارات للأبحاث و النشر- القاهرة، 2014، ط1.
- 194- فان ديك : النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر عبد القادر قنيني، أفريقيا الشوق، الدار البيضاء، المغرب، 2000.
- 195- فلاق أحمد عروات: الترعة لمثالية في نهج البلاغة -موضوعا وأسلوبا- ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون، الجزائر، 1998.
- 196- فهد السعيد سعاد: بخلاء الجاحظ، دراسة تطبيقية في علم لغة النص، نادي أجهما، السعودية، دار الانتشار، بيروت، 2014، ط1.

- 197- القرطبي محمد بن أبي بكر: الجامع لأحكام القرآن، تح أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1964، ط2، ج10.
- 198- القشيري أبو القاسم : الرسالة القشيرية في علم التصوف، تح معروف مصطفى رزيق، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 2001، ط1.
- 199- القشيري أبو القاسم : لطائف الإشارات تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم، تح إبراهيم بسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2000، ط4، مج3.
- 200- القلعة خالد آغة: السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة، ج3، ذهنية الانفعال. دار كنعان، دمشق، 2001، ط1.
- 201- القنطار كمال : فكر المعري، ملامح جدلية، دار الفارابي، بيروت، 2014، ط1.
- 202- كاظمي رضا شاه : العدل والذكر، تعريف بروحانية الإمام علي، تر سيف الدين القصير، دار الساقى، ومعهد الدراسات الإسماعيلية، بيروت، 2009، ط1.
- 203- الكاظمي محمد سليم : السر الأعظم (سر الأسرار) دراسة في أسرار وخفايا سورة الرحمان، دار المعتز، عمان الأردن، 2017، ط1.
- 204- كحالة عمر رضا : العالم الإسلامي. ج 2/1، الشركة المتحدة للتوزيع دمشق، 1984، ط3.
- 205- كريشنامورتي جدو: التأمل، ترجمة ديمتري أقييرينوس، معابر للنشر، دمشق سوريا، 2008، ط1.
- 206- كموي سعد حسن: العقل العربي في القرآن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، 2005، ط1.
- 207- الكواز محمد كريم: كلام الله، الجانب الشفاهي من الظاهرة القرآنية، دار السياقي، بيروت، 2002، ط1.
- 208- كولن محمد فتح الله : أسئلة العصر، ت، أورشان محمد علي دار النيل، القاهرة مصر، ط5.
- 209- كولن محمد فتح الله : أضواء قرآنية في سماء الوجدان، دار النيل للطباعة، القاهرة، 2010، ط5.
- 210- كولن محمد فتح الله : النور الخالد، محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، تر، أورشان محمد علي، دار النيل، القاهرة، 2010، ط5.
- 211- الكوفي إبراهيم: نصوص الخلق، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 1990، ط1.
- 212- كوهين جون: النظرية الشعرية، اللغة العليا، ج2، تر أحمد درويش، دار غريب- القاهرة، 2000.
- 213- لاوت رينهارد : إبراهيم وأبناء عهده مع الله، ت غانم هنا. خطوات للنشر، دمشق، 2006، ط1.
- 214- لهوير محمد: منظومة القيم عند مجتمع النمل، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2015، ط1.
- 215- لوتمان يوري: تحليل النص الشعري- بنية القصيدة، تر محمد فتوح أحمد، دار المعارف، القاهرة.
- 216- الماجدي خزعل : العقل الشعري، ألفا للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، 2011، ط1.
- 217- مالك فضل الرحمان: المسائل الكبرى في القرآن الكريم، ت محمد أعيف، جداول للنشر الكويت ، مطبعة لبنان، 2013، ط1.
- 218- المالكي أبو العباس : بلغة السالك لأقرب المسالك بحاشية الصاوي، دار المعارف القاهرة، ج4.
- 219- المباركفوري صفى الرحمان: الرحيق المختوم، الشركة الجزائرية اللبنانية، الجزائر، 2006، ط1.
- 220- المنتبي أبو الطيب: ديوان المنتبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1983.
- 221- مرجبا محمد عبد الرحمان : الفكرانية، قوى الأفكار وقوانين الأفكار وأثرها في نشأة العقل العربي الإسلامي وتفجير طاقاته، القسم النظري، دار النهضة العربية، بيروت 2005، ط1.

- 222- مرجبا محمد عبد الرحمان: الفكر العربي في مخاضه الكبير، أعضاء "السيكوسوسيوديناميكا"، دار الجيل بيروت، مكتبة السائح طرابلس.
- 223- المرسوسي عبد الستار كريم : ضبط البوصلة، نحو علاقات بناءة لنهضة الأمة، دار المعراج، دمشق (ومداد العراق الرمادي)، 2011، ط1.
- 224- المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج3، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 2005، ط1.
- 225- المسيري عبد الوهاب : الحقيقة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود، دار الشروق القاهرة، 2002، ط1.
- 226- مغربي عبد الغني : الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، تر محمد الشريف بن دالي حسين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988.
- 227- مغنية محمد جواد : في ظلال نهج البلاغة محاولة لفهم جديد، دار العلم للملايين، بيروت، 1979، ط3.
- 228- المناوي محمد عبد الرؤوف : التوقيف على مهمات التعاريف، تح محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت، دمشق، ج1، 1410، ط1.
- 229- مهدي زيتون علي : أدبية الخطابة الإسلامية، مدرسة نهج البلاغة نموذجاً، دار الفارابي، بيروت، 2012، ط1.
- 230- موشر جاك - ريبول آن : القاموس الموسوعي للتداولية، تر، مجموعة من الأساتذة، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010، ط2.
- 231- مولاي سعيد : أضواء قرآنية على ظواهر كونية في الآفاق والأنفس، دار ابن حزم للطباعة، بيروت، 2006.
- 232- النابلسي محمد راتب : موسوعة أسماء الله الحسنى، ج2، دار المكتبي دمشق، سورية، 2009، ط5.
- 233- النابلسي محمد راتب: مقومات التكليف، دار المكتبي، دمشق سورية، 2010، ط2.
- 234- ناصف مصطفى : قراءة ثانية لشعرنا القلم، دار الأندلس، بيروت، لبنان.
- 235- ناصف مصطفى : مسؤولية التأويل - المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام- القاهرة الإسكندرية، 2004، ط1.
- 236- ناصف مصطفى: اللغة والتفسير والتواصل، سلسلة عالم المعرفة، ع 193، يناير 1995، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- 237- النجار عبد المجيد: مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، دار الأدب الإسلامي، تونس، 2012، ط2.
- 238- نصر ملاك : الجمال من بيوت التجميل إلى بيوت العبادة، دار العين، القاهرة، 2013، ط1.
- 239- نيتشه فريدريك : هكذا تكلم زرادشت للمجتمع لا للفرد، تر فليكس فارس، الأهلية للنشر، عمان، 2009، ط1
- 240- هابرماس يورغن: مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية، تر جورج كتورة، المكتبة الشرقية، بيروت، ط01، 2006.
- 241- هانه تيك نات: الحجة في العمل: كتابات حول التغيير الاجتماعي اللاعنفي، تر: غياث جازي، معابر للنشر، دمشق، 2008.
- 242- هلال محمد غنيمي : النقد الأدبي الحديث، نُهضة مصر للطباعة، القاهرة، 1997.

- 243- هوكينج ستيفن. مولدينوو ليونارد: التصميم العظيم. إجابات جديدة على أسئلة الكون الكبرى، تر أيمن عياد، دار التنوير بيروت لبنان ودار محمد علي للنشر تونس، 2013، ط1.
- 244- هيدجر مارتن : ماذا يعني التفكير؟ تر نادية بونفقة، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 2008.
- 245- وو تن : الصينيون المعاصرون التقدم نحو المستقبل انطلاقاً من الماضي، ج2، تر عبد العزيز حمدي، سلسلة عالم المعرفة،
- 246- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، ع 211، 1996.
- 247- وولش نيل دونالد : سماؤك الداخلية، حوار مع الذات الكلية، تر: عماد رافع، محاكاة للدراسات والنشر، دمشق، 2011، ط1.
- 248- يحيى هارون: أهمية الضمير في القرآن تر، أحمد بنار مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، 2004، ط1.
- 249- يوسف حسين عبد الجليل : أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي، مؤسسة المختار، القاهرة، دار المعلم الثقافية، الإحساء، السعودية، 2001.
- 250- يول جورج : التداولية، تر قصي العتاي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، دار الأمان، الرباط، 2010، ط1.
- المقالات والمجلات والرسائل :**
- 1- إبراهيم محمد الحسن بريمة : "رؤية القرآن للعالم، الأهمية التعريف والقضايا"، القرآن الكريم ورؤية العالم، مسارات التفكير والتدبير.
- 2- إدريس رنا : رولان بارت ودلالاته، مجلة الآداب، ع 3، 4، سنة 1981/29، بيروت.
- 3- أعراب حبيب : الحجاج والاستدلال الحجاجي: "عناصر استقصاء قطري"، مجلة عالم الفكر، ع 1، مج 30، سبتمبر 2001، الكويت.
- 4- آيت لمقدم أحمد: "المشترك الإنساني في الرؤية القرآنية"، القرآن الكريم ورؤية العالم، مسارات التفكير والتدبير.
- 5- بشير إمام زكريا : حول مفهوم الحجاج في القرآن الكريم، مجلة دراسات دعوية، ع4، يوليو 2000، جوبا، السودان.
- 6- بنفيست إميل : الذاتية في اللغة، تر: حميد سمير - عمر علي، مجلة نوافذ، ع09، 1999، النادي الأدبي الثقافي، جدة.
- 7- حب الله عدنان: الجدلية العقلانية عند لاكان، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع16، 1981، مركز الإنماء القومي بيروت.
- 8- حنفي حسن : عالم الأشياء، عالم الصور، مجلة فصول، ع62، 2006، القاهرة.
- 9- الزبيدي رائد مجيد جبار : رسائل الإمام علي في نخب البلاغة، دراسة حجاجية، مؤسسة علوم نخب البلاغة في العتبة الحسينية المقدسة، كربلاء العراق، 2017، ط1.
- 10- السيد رضوان: القيم القرآنية، مسارات التفكير والتدبر في القرآن الكريم، أعمال الندوة العلمية الدولية، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط.
- 11- سيد عيد محمد: مفهوم الهرمينوطيقا في فلسفة هايدغر، الاتصال بالكائن كمنهج للعلم مجلة الاستغراب، ع5، السنة2، بيروت.
- 12- شريط ياقوت : الجمال سحر الحياة، مجلة العربي، ع 02، 7 مايو 2017، وزارة الإعلام، الكويت.
- 13- شلي طارق سعيد : جماليات التلقي. الاستفهام والتلقي ونشاط لغة النص، مجلة الرافد، ع31، 2000، دائرة الثقافة والإعلام الشارقة.
- 14- شندوخ هادي وبرزان حيدر: وظيفة الحجاج في نخب البلاغة، مجلة كلية الآداب جامعة بغداد، ع97، 1972، مطبعة المعارف بغداد.

- 15- الطاهر ناجي بن الحاج: "ملامح رؤية القرآن الكونية في أول ما نزل من الذكر الحكيم" القرآن الكريم ورؤية العالم مسارات التفكير والتدبير.
- 16- عباس قاسم محمد : مدخل تحقيق كتاب المجموعة الصوفية الكاملة لأبي زيد البسطامي.
- 17- العزاوي أبو بكر : الحجاج و الانسجام في القرآن الكريم، خواتيم سورة البقرة نموذجاً، مجلة البلاغة و تحليل الخطاب، مطبعة النجاح الجديدة، ع5، 2014، الدار البيضاء، المغرب.
- 18- علوان قصي سالم : الصورة الشعرية النواسية في النقد العربي القديم، جريدة الأفلام العراقية، ع11، آب 1980.
- 19- ناصف مصطفى : عن الصيغة الإنسانية للدلالة، مجلة فصول، ع02، 1986، القاهرة.
- 20- النعيمي حسن محمد : سلطة المكان المغلق، قراءة في قصة "النمور في اليوم العاشر"، لذكريا تامر، عالم الفكر، ع03، مج41، 2013، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- 21- ولد أباه عبد السيد: الحداثة والدين، في نقد تأويلية الانفصال، مجلة التأويل، مركز الدراسات القرآنية الرابطة المحمدية للعلماء، ع1، 2014، الرباط المغرب.
- 22- أبو مصطفى أمّـن: نظرية الحجاج: مراحل بناء النص الحجاجي، http://taj23.blogspot.com/2011/07/blog-post_23.html, 2019/09/01.
- 23- كوليو لي أنطوان: نظرية التكلم، لسانيات الخطاب وخطاب اللسانيات، تر زهور جوتي https://www.aljabriabed.net/n89_zhour.htm, 2019/08/31.
- 24- مزهود سليم: نظرية التلفظ <http://salim-mezhoud.hooxs.com/t820-topic>, 2019/08/31.
- 25- شهيد حسين حمزة : تأسيس علم الكلام الإسلامي عند الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، مجلة العقيدة، عدد 18، 1440هـ، <https://aqeeda.iicss.iq/files/investigations/2nq64pv3a.pdf>.
- 26- حمداوي جميل : سيميوطيقا التلفظ بين النظرية والتطبيق، موقع الألوكة www.alukah.net.

ملاحق

الإمام، النهج، التأويل

- أولا : الإمام

- ثانيا : المدونة [= نهج البلاغة]

- ثالثا : التأويل

أولاً: الإمام:

1- الولادة: ولد الإمام علي **d** في العام 600م تقريباً¹، وهو "أول هاشمي من أبوين هاشميين"²، فأبوه هو أبو طالب ابن عبد المطلب، وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، من هذه الأسرة الكريمة ولد الإمام ونشأ في أحضان قيمها وأخلاقها، ومن "جملتها النبل واليد والشجاعة والمروءة والذكاء، عدا المأثور في سماتها الجسدية التي تلاقت أو تقاربت في عدة من أولئك الأعلام"³. والأكد أن القيمة التربوية والأخلاقية لهذه الصفات التي وجدها الإمام في وسط النشأة تعد أكبر المغذيات الروحية والفكرية لشخصيته التي ستظهر في قادم حياته، وهي الظلال الأولى التي كست شخصيته، فغطته أغصان هذه الشجرة العريقة النسب. وتعد ولادته متميزة، لأنها كانت في الكعبة الشريفة، كما كانت وفاته في المسجد⁴. وهي قرائن روحية وإيمانية تشحذ طاقة هذا الطفل بما تمده من تميز وانطلاق وتأثير، فقد كان طفلاً مبكر النماء سابقاً لأنداده في الفهم والقدرة، لأنه أدرك في السادسة أو السابعة من عمره شيئاً من الدعوة النبوية التي يدق فهمها والتنبيه لها على من كان في مثل هذه السن المبكرة⁵. اعتنق الإسلام ولداً صغيراً، وهذه حيازة سبق مكنته من إثراء تكوينيته بفكرة جديدة وروح عظيمة أسهمت في تشكيل عبقريته وتفردته، وعليه نقول أن ولادة هذا الطفل طفل متميزة في خضم تحولات تاريخية عظيمة ونقلات غير مسبوقه عاشها وعاصرها.

2- مفتاح الشخصية: كيف يمكن أن نقرأ شخصية الإمام في التاريخ والعصر؟.

يمكن أن نعتبر ثلاثية: الإسلام والجهاد والإمامة، مفتاح فهم شخصية هذا الفذ المتعذرة، فإسلامه وجهاده وإمامته تمثل حياة الإمام بزخمها، ويعد العلم والبطولة والزهد والروحانية العالية خميرة هذه الثلاثية، وتشكل هذه الثلاثية نسيجاً واحداً مترابطاً تخدم بعضها بعضاً وتسوق وتقود إلى بعضها البعض. تقودنا هذه المفتاحية الذهبية في فهم شخصية الإمام إلى معرفة صفاته التي ميزته وتفرد بها على أقرانه فنال العظمة والعبقرية، ومن جهة أخرى هي مقتضيات لهذه الثلاثية. إذن فصفت الشجاعة والقوة والسخاء والحلم والعلم وسجاحة الأخلاق والفصاحة والزهد والعبادة

¹ - بيضون إبراهيم: الإمام علي في رؤية النهج ورواية التاريخ، دار بيسان، بيروت، 2009، ط2، ص 19.

² - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج1، ج1، ص 14، 15.

³ - العقاد عباس محمود: عبقرية علي بن أبي طالب، دار الصحوة، القاهرة، 2015، ط1، ص 15.

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص 158.

⁵ - المرجع نفسه، ص 16.

ملاحق : الإمام، النهج ، التأويل

والرأي والتدبير وجمع القرآن وتفسيره¹، هي أهم فضائل الإمام التي حازها، صفات ستعطيها القوة على مزاوله وظيفته ودوره في الحياة بقوة وفاعلية.

أ- الإسلام: إن دخول الطفل [= علي] إلى الإسلام صغيراً أعطاه فرصة التزكية المتنامية والمتكاملة، من خلال تذهينات قرآنية إيمانية وملازمته لصاحب الوحي، فكان تمثله للحق تاماً متوافقاً، يخبر الإمام عن هذه التكوينية بقوله: "ولقد كنت أتبعه إتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاعتداء به"²، باقتفاء أثر النبوة وتنزلات الوحي، إتباع يفتح آفاق هذه الذات، مع هذه التغذية المعرفية والقيم الخلقية، وهي عوامل عبقريته، كما منحه الإخلاص، فقد "كان المسلم الخالص على سجيته المثلى"³، فزاده عمقا في دينه و يقينا في إيمانه، فقد تكثفت فيه مختلف الخصائص والصفات التي جاء بها الإسلام⁴ وتشربتها ذاته، فأفكار الدين صارت مثل الدم تجري في عروقه، فلا تصدر أفعاله وسلوكاته، إلا من هذا النبع، بحيث "أن إيمانه هو الذي يرسم له خط سيره"⁵ في الحياة، وعليه فإسلام الإمام، هو إسلام الوعي والحرية والمبدأ، وإن مثل هذا الفهم والتمثل هياً الإمام إلى تحصيل حالة روحية نادرة، حالة الكمل من الناس بفضل مزودات الفهم من حقائق الزهد والتخلية والعلم، يقول العقاد: "وإنما هو إسلام الرجل الذي أتيح له أن يتلمذ لربه ويتربى في حجر نبيه ويصبح إمام المقتدين من بعده"⁶، ولذا كان إسلامه مقرونا بالبطولة النادرة في نشر تعاليمه والدفاع عنها.

ب- الجهاد: مثل جهاد الإمام نقطة فارقة في حياة هذه الشخصية العظيمة وفي أيام الإسلام، جهاد أوقع به الكثير من العتاة والصناديد والأبطال، يقول الإمام: "فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه"⁷، فالجهاد باب الخاصة وباب الجنة، معلوم طريقه وهدفه، فمن يعلي كلمة الله هو الولي الذي خصه الله لرفع هذه الكلمة العظيمة إلى العالمين، فكان "سيد المجاهدين"⁸، بهذه البطولة والقوة والشجاعة. إن هذا الجهاد الذي يرتكز في عقيدة الإمام على الشجاعة والقوة والإيمان

¹ - ينظر خلاصة هذه الصفات عند ابن أبي الحديد في مقدمته التعريفية بالإمام، من ص 19 إلى ص 25.

² - علي بن أبي طالب: نوح البلاغة، ص 282.

³ - العقاد : عبقرية علي، ص 36.

⁴ - ينظر جلال السيد : علي بن أبي طالب، ص 130

⁵ - المرجع نفسه، ص 210.

⁶ - العقاد : المرجع السابق، ص 41.

⁷ - علي بن أبي طالب: المصدر السابق، ص 55.

⁸ - ابن أبي الحديد : المصدر السابق، ص 21

والأخلاق وعلى الفروسية التي يراها العقاد مفتاح شخصية الإمام¹، تمثل أخلاقا ونخوة²، وهي من فضائل الأخلاق الهاشمية، حيث بغضت إلى نفسه أن يتعرض إلى خصومه بالسباب³، وبهذا لازمته الفروسية في جهاده، لأنها صارت وعاء لعلمه وزهده وروحه وتعبده، تأخذ منها البصيرة والقيم الرفيعة، كي يخط طريقا أرادته وارتضاه بجرية وتلقائية.

ج- الإمامة: تأتي القضية الثالثة من مكون عالم شخصية الإمام، في قمة هرم الأوصاف، نظرا لأهمية الإمامة بوصفها منزلة إيمانية ذات طابع روحي مسيجة بالعلم، وليست منصبا سياسيا مجردا، بل تتعدى لتكون رؤية تاريخية تحاول تصحيح المسارات الاجتماعية والإنسانية، وقد كانت لقب الإمام، حيث "لم يكتب لأحد منهم أن يحمل علم الإمامة ليناضل به علم الدولة الدنيوية"⁴، في لحظة الفتن والتحويلات، فكانت هذه الإمامة نضالا من أجل استمرار الخط الديني الراشدي، وظف لها طاقاته الفكرية والعلمية والروحية والجسدية، كي تبقى الخلافة والقيم الاجتماعية ناهضة.

إن الإمامة التي تقاوم بالحق الدنيا ومتاعها، ويقاوم رائدتها مختلف الرؤوس التي بسطت الدنيا أمامها فنافست لتكون الدنيا دولة أهلها، تمثل قتال الدنيا بالعلم، حتى صار منشئ مذاهب العلم والفكر في الإسلام تعود إليه فكرتها وإنشائها، أو هو محور الموضوعات التي تناولتها بعده مختلف الفرق والمذاهب⁵، بفضل علمه الغزير، وهذا ما يعزز لديه لقب الإمام، بوصفها علما خاصا ونضالا دافع به عن الحق والدين أمام مبسطات إغراءات الدنيا، وبذلك "فالإمامة أحق لقب به، وهو أحق الأئمة بلقب الإمام"⁶، وبهذا تصبح الإمامة رتبة كمالية ومنزلة عرفانية استشهد من أجلها لتواصل فكرة الخلافة وخط الرشيد في التاريخ.

3- الخاصية التكميلية: تمدنا ثلاثية الشخصية بمعلم ثابت يقوي هذا الافتراض أن الإمام دخل باب العظمة والعبقرية من خلال هذه المتلازمة بثقلها. إن كل وصف منها يمثل حملا يعز وينوء به الكثير، ذلك أن هذه الثلاثية شكلتها خميرة أوصاف مكملية، وهي الأخرى تصلح أن تأخذ رأس المثلث وأسا في قاعدته وفي ضلعه، فماذا نقول عن علمه وزهده وبطولته وروحانيته؟!

¹ - ينظر عباس محمود العقاد: عبقرية علي بن أبي طالب، ص 30.

² - المرجع نفسه، ص 30.

³ - ينظر المرجع نفسه، ص 30.

⁴ - المرجع نفسه، ص 135.

⁵ - المرجع نفسه، ص 136.

⁶ - المرجع نفسه، ص 136.

إذا كان الإمام قد تفرد في علمه الذي صبغ "بمسحة من العلم الإلهي، وفيه عبقة من الكلام النبوي"¹، فإن تكوينية الشخصية ستكتسب عمقا كبيرا فتح لها باب الروحانية، وبذلك صار العلم رافعة هذه العظمة والعبقرية. إن العلم هو وعي وتفتح يعطي للشخصية رؤية بصيرة، ترى الدنيا وحقائق الوجود بشكل جلي، وبذلك شكل نظره إلى الدنيا نظر الزاهد فيها وفي متاعها، انطلاقا من هذا اليقين العلمي، فكان سيد "الزهاد وبدل الأبدال"². راقب ذاته وألزمها منهاجها وخطا تسير عليه، وراض نفسه رياضة علمية صارمة، هذا الزهد قاده إلى طلاقه للدنيا وتحرره من علائقها.

ويدفع مثل هذا الزهد المقرون بالعلم إلى انتهاج خط العبادة، فقد كان الإمام "عابدا يشتهي العبادة كأنها رياضة تريجه، وليست أمرا مكتوبا عليه"³، هي عبادة الأحرار التي حرص عليها ودعا إلى تمثلها، "ومنه تعلم الناس صلاة الليل، وملازمة الأوراد وقيام النافلة"⁴، وبهذا فهو إمام العباد ومعلمهم سلوك طريق الحق وتذوق أحواله، وهي المعاني التي نقلته إلى تلك الحالة الروحية الرفيعة الخالصة أجلتها الكثير من صور مناجاته وما انعكس من ذاته من روحية عالية رأت الحق رأي الوثائق المطمئن، "لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا"⁵، ويقول: "فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض"⁶، هنا نفحات إيمانية ربانية بتجلياتها العلمية والروحية، تمثل صبغة إنسان عابد عارف بطرق السماء بالعلم اللدني والروحاني الذي ناله في مسيرته الإيمانية، وملازمته للنبي ﷺ وانفتاحه على القرآن لينهل من فيوضه وعلى الكون في تأملاته وتدبره.

ثانيا: المدونة: [= نهج البلاغة]:

1- المفهوم: أطلق "الشريف الرضي" جامع الكتاب اسم "نهج البلاغة" على هذا الأثر الأدبي، فيقول: "ورأيت من بعد، تسمية هذا الكتاب بـ (نهج البلاغة)، إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها ويقرب عليه طلابها"⁷، ونلاحظ المنحى البلاغي في التسمية نظرا لعبقرية البيان التي تفرد بها، يقول "محمد عبده": "ولا أعلم اسما أليق بالدلالة على معناه منه، وليس في وسعي أن أصف هذا الكتاب

¹ - الشريف الرضي : مقدمة نهج البلاغة، ص 14.

² - المصدر نفسه، ص 15.

³ - العقاد : المرجع السابق، ص 36.

⁴ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج 1، ج 1، ص 23.

⁵ - القاضي الآمدي : غرر الحكم ودرر الكلم، ص 320.

⁶ - علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 264.

⁷ - الشريف الرضي : شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، مج 1، ج 1، ص 16.

بأزيد مما دل عليه اسمه¹، فهذه الدلالة تتماثل مع الخط البياني للكتاب ببلاغته النادرة، كلام اختار له الإمام طريق البلاغة في إيصال معانيه وأفكاره إلى المتلقي، وقد قصد الإمام أن يرفعه إلى أضواء البلاغة لينير ذاته وحياته بهذا الدفع البياني ليحيي القلوب والعقول.

2- محتويات الكتاب: اشتمل الكتاب من الناحية الفنية على الفنون الآتية أبان عنها الرضي: "ورأيت كلامه عليه السلام يدور على أقطاب ثلاثة: أولها الخطب والأوامر. وثانيها الكتب والرسائل، وثالثها الحكم والمواعظ"²، فهذه الأجناس الأدبية هي التي تشمل نواحي الكتاب.

3- موضوعات الكتاب: تنوعت موضوعات النهج، فقد تناول أفكار الدنيا والحياة والكون والإنسان والمجتمع والعقائد والإيمان والآخرة والآفاق، يقول "أحمد فلاق عمروات": "يدور كلام علي d في نهج البلاغة حول محاور رئيسة ثلاثة على العموم، هي الله عز وجل، والإنسان والكون بمظاهر العلياء والدنيا معا"، وهي من أعقد الموضوعات وأصعبها وأشكلها على كاتب ومفكر وعالم، فليس من السهل الكلام عن الله ﷻ، ولكن الإمام جعل كتابه محورا للحديث عن الله تعظيما وتمجيذا وتوجيها وتأسيسا لفكرة الإيمان والتوحيد، فهي من أعلى تواترات الدلالة فيه بتعدد بلغ [1342 مرة]، وهذا بين في التأشير على هذا الخيار، ثم الإنسان وموضوعه الذي أشكل وحير الحكماء والحكماء، والكون بعجائبه وأسراره وألغازه المحجوبة عن الكثير، وما يتطلبه من تأمل وقراءة لفقه علاماته ومعانيه، وتحت هذه الموضوعات الرئيسة تنضوي الكثير من الموضوعات الهامة ملحقات هذه الثلاثية، فهناك الدنيا والآخرة والعلم والزهد والمجتمع وعلاقاته، والأخلاق والسلوك والإيمان والكفر والسياسة والحكم والعباد والزهاد والأتقياء والتربية والتنشئة والتهديب والشيطان والفساد والضلال والمخلوقات والكائنات والجزئيات والجليل والصغير، مما يجعل منه كتابا عظيما بدوالة وإشاراته، فهو علامة على هذه البلاغة والبيان وبلاغة الحياة، "خصوصا وهو لم يترك غرضا من أغراض الكلام إلا أصابه، ولم يدع للفكر ممرا إلا جابه"³، ومقصد طلاب العلم والمعرفة والحقيقة.

4- القيمة العلمية للكتاب: يمكن النظر إلى الكتاب من زاوية أخرى غير موضوعاته، إنها الزاوية العلمية، وهذا المعيار هو الذي يعطينا القدرة على قياس موضوعاته والحكم عليها في الإطار العلمي

¹ - محمد عبده : شرح نهج البلاغة، ص 6.

² - الشريف الرضي : المصدر السابق، ص 15.

³ - محمد عبده : المصدر السابق، ص 6.

والمعرفي، وإن صمود هذا الكتاب وخلوده في التاريخ، هو البرهان على هذه القيمة وقوة دلالاته وإمكانياته التأويلية وانفتاحه على القراءة على مدار الزمن.

أ- اللغة والأسلوب وبلاغة الكتاب: إن من أول المطالعات التي يلتقي بها القارئ وهو يتصفح هذا الكتاب براعته الفنية، فلغته وبلاغته وأسلوبه الفذ دليل على هذا البيان الرفيع الصادر من مشكاة خاصة، فهو مبدع من ذات بيانية، تعد قمة في الصفاء النفسي والروحي، فهو "بلاغة فطرة"¹، قبل المقدررة العلمية والفكرية والعقلية، يقول "محمد عبده" واصفا بلاغة الكتاب: "أن للبلاغة دولة، وللفصاحة جولة"²، فبلاغة الإمام تماثل في قوتها قوة وتأثير الدولة التي أرادها، وبهذه البلاغة حاول استعادتها، فالإمام هو "مشرع الفصاحة وموردها، ومنشأ البلاغة ومولدها"³. وبهذه المسحة الرفيعة الدلالة صارت بلاغته الآخذة من نور الكلام الإلهي والنبوي من طبقة الكلام الرفيع.

ب- الأفكار من حيث الجدة والحيوية والزمنية: كيف يمكن أن تقاس أفكار الكاتب!؟

تكمن قيمة الفكرة في جدتها وحيويتها، عندما تواجه أسئلة الزمن والراهن، وإجابة ودواء لأسئلة العصر تتعداه إلى غيره، وفي صحة الفكرة وصلاحيتها في التاريخ، تلك الفكرة التي تبني الأنساق التاريخية، وتعيد تركيب بنية المجتمع، وتعطيه قوة الحضور الحي الفاعل الذي يصنع التاريخ بالفكرة الجديدة الحية، يقول "العقاد": "إنه كان **d** يتلمذ للقرآن الكريم ويستوحيه نصا في عرفان إسلامه وتقرير إيمانه فكانت نظريته على الخلق والخالق نظرة قرآنية يبتكر ما شاء ابتكار التلميذ في الحكاية عن الأستاذ"⁴. يعد هذا مؤشرا على هذه الجدة والحيوية وخصائص الفكرة المبتكرة التي تصنع الإنسان والحياة والمجتمع وتبني التاريخ.

إذن فأفكار النهج وبهذا التميز الفطري تعد أفكارا دالة على عظمة التاريخ، تلخص في:

- أ- قدرتها التجديدية في نطاقها الفردي والاجتماعي والإنساني.
- ب- علمية الأفكار وإيجابتها على الأسئلة الراهنية وعبقريتها المتقدمة بشكل كبير على عصرها.
- ج- تنوع الموضوعات وغزارة الأفكار وعمقها.
- د- شموليتها في معالجة أحوال الإنسان في مختلف أبعاده وعلاماته وأحواله وتصرفاته.

¹ - ناظم عودة : نقص الصورة، ص 49.

² - محمد عبده : المرجع السابق، ص 5.

³ - الشريف الرضي : مقدمة نهج البلاغة، ص 14.

⁴ - العقاد : عبقرية علي، ص 39.

5- النهج في ميزان العلم والتاريخ: يزخر نهج البلاغة بالكثير من الأفكار العظيمة التي إن وضعناها في ميزان العلم والتاريخ أثبتت صدقيتها وفعاليتها وقابليتها للتطبيق، بما تحمله من صحة وصلاحيّة وإمكانية للبناء والتغيير.

أ- قابلية الكتاب للتأويل: يلاحظ قارئ النهج تمتعه بخصائص متنوعة، نجملها في النقاط الآتية:
- أن النص مخاطبة ذات بنية عميقة الدلالة.

- تنوع بنية النص، بنية متراكبة ومتراكمة، بمعنى مركبة من نصوص متنوعة، من نص التاريخ، ونص الدين، والإنسان، والمجتمع، والنفس، والروح ونص الجمال والحكمة والدنيا والآخرة.

- تنوع مصادر معرفته الفكرية، من كونية، وقرآنية، وتاريخية، وإنسانية، وبيئية، وتجربة.

يتأسس على مجموع هذه البنى تشكل كلامي - نص [= مخاطبات] عميق الدلالة، متين البنية، قوي اللغة رفيع البيان عال الجمال. لقد تشكل هذا الكتاب في واقع زمني ومكاني خاص بتجلياته، فهو يحمل بين طياته زخماً فكرياً وثقافياً وحضارياً دالاً على عصره. ويحمل رؤية فنية عميقة للإنسان والحياة والكون، رؤية تجمع بين عالم الغيب والشهادة، وبناء على هذه الرؤية، فهو يمتلك إمكانية كبيرة للتجاوز، لأنه كتاب آفاقي يتجاوز زمنه، وتشفيراً مهولاً من ناحية علمية وفكرية، ومن ناحية بلاغية جمالية. لقد صار الكتاب الآن إمكانية لقيام مشروع قرائني، ومن ثم قابليته للتأويل، وهذا يثبت من جهة أخرى قيمته العلمية والفكرية بميزان العلم والتاريخ.

ب- أسئلته الخالدة: يخاطب الإمام الناس، فيقول: "أيها الناس: سلوني قبل أن تفقدوني، فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض، قبل أن تشغر برجلها فتنة تطأ في خطامها، وتذهب بأحلام قومها"¹، يظهر الإمام في رفعة مقام ودرجة من العلم والعقل، صاحب مؤهلات تحل معضلات الناس، يقودهم نحو الرشد وينجيهم من مخالب الفتن، ويعالج سؤال الواقع المأزوم بالتوجيه، فهو أقدر على تحويلات مختلف الأسئلة والإشكالات، ليوجه نحو مسلك النجاة، فيقول: "أيها الناس! من سلك الطريق الواضح ورد الماء، ومن خالف وقع في التيه"²، وهنا تظهر قيمة السؤال في بناء الواقعة التاريخية والاجتماعية والإيمانية، فماذا عن أسئلة النهج إذن؟! إن طبيعة أسئلة الكتاب نجملها في:

- أنها أسئلة من نوع الإشكالات الروحية والإيمانية والاجتماعية والكونية، أي هي آفاقية.

- أنها أسئلة إشارة وتوجيه وعلامات.

¹ - علي ابن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 264.

² - المصدر نفسه، ص 298.

- أنها أسئلة آتية من بنيات الأوامر والمحاججات.

ويتميز النهج بتوجه أسئلته إلى جهات أخرى فكرية وجمالية وبنائية بقصد إعادة التمثلات المختلفة وصياغتها صياغة جديدة غير مألوفة، كما تدفع إلى بناء عوالم وأحوال حياتية غير مسبوقة، إلى بناء المثال، ونأخذ بعض عينات إشارة السؤال وتحريك العقول:

- " أَيْنَ خِيَارِكُمْ وَصَلْحَاؤُكُمْ؟ وَأَيْنَ أَحْرَارِكُمْ وَسُمْحَاؤُكُمْ؟ وَأَيْنَ الْمُتَوَرِّعُونَ فِي مَكَاسِبِهِمْ، وَالْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ؟ أَلَيْسَ قَدْ ظَعُنُوا جَمِيعاً عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ، وَالْعَاجِلَةِ الْمِعْصَةِ؟ وَهَلْ خُلِفْتُمْ إِلَّا فِي حُثَالَةٍ لَا تَلْتَقِي إِلَّا بِدَمِّهِمُ الشَّفَتَانِ، اسْتِصْعَاراً لِقُدْرِهِمْ، وَذَهَاباً عَنْ ذِكْرِهِمْ"¹، إنها أسئلة كتاب يبحث في القدوة والمثال والعظمة التي تغير وتصنع وتبني التاريخ والمجتمع والنفوس.

- "فأين تذهبون؟ وأنى تؤفكون؟ والأعلام قائمة، والآيات واضحة، والمنار منصوبة! فأين يتاه بكم؟ وكيف تعمهون؟"²، يفتح السؤال خيارات أخرى أمام العقل لينفتح على مصادر الحق، ومحاولة إخراج الإنسان من المزالق والوضعيات المعقدة التي تقود بطرقها إلى التيه، وهنا نجد محاولة لتصحيح وضعية حضارية بمخرجات روحية وإيمانية وعلمية بالإحالة على القرآن وأهله.

تمثل خطبة الأشباح* وضعية مفتاحية من خلال سؤال وجه إلى الإمام أن يصف الله سبحانه كأنه يراه عيانا فغضب لذلك، فأعاد بناء التصور السليم عن الله في العقول والنفوس تنزيها وتعظيما. إن أسئلة الكتاب هي أسئلة تتعلق بالواقع والتاريخ والحاضر والمستقبل، بأسئلة تدخل في بنية الحدث، يسأل في الذي أشكل على الإنسان بتعبير "أبي حيان"، ويسأل في الرؤية ويبحث عن رؤية، ويحمل الإنسان على تشكيل تجربة إيمانية وإنسانية وكونية وتعبدية خاصة، ويدفع إلى سلوك الطريق ومواصلة المغامرة الروحية، سؤال لا يكون إلا في العمق والبحث عن جدل الواقع والصراع وتقلب الأحوال، وتعقد العضلات، وفي المخرجات الفكرية والعملية والسلوكية والاستشراعية والجمالية.

¹ - علي ابن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 184.

² - المصدر نفسه، ص 117، 118.

* - ينظر خطبة الأشباح في نهج البلاغة، ص 122.

إن هذا الكتاب غايته أن يسائل الإنسان ويسائل الحقائق ليصل إلى الرشد، لذا فهو يمنع سؤال التعنت: "اسأل تفقها ولا تسأل تعنتاً"¹، ويرفض ازدحام الجواب: "إذا ازدحم الجواب خفي الصواب"²، وهنا يستحضر السؤال الذي يجلي عممة الطريق ويزيح الازدحام.

كل هذا يضع النهج في قمة العلمية، ويميزان التاريخ هو كتاب يمنح البصيرة للفعل الاجتماعي والتاريخي وللرؤية التاريخية، ويقدم الحس بالاتجاه، ويعطي أسئلته الخلود.

ج- علمية الموضوعات: قد تكون موضوعات كتاب ما من الترف الفكري، أو الحينية الظرفية أو الفاقدة للقيمة، والنهج خلاف هذا كله فموضوعاته علمية، ومعنى علمية أنها صالحة لتقديم تصورات عن الحياة والإنسان، وأنها دواء لعلل النفوس وأمراض الروح ومشكلات المجتمع. إن موضوعات من مثل النفس والمجتمع والروح يقدمها الإمام مع الأدوية لأمرضها، وهي كما تكون شافية تكون دافعة إلى العظمة والتميز والتفرد، حيث أن موضوعات الدنيا والإنسان والزهد تمثل منعطفاً فكرياً وتاريخياً في ضبط أعقد وأخطر القضايا التي تترك حركة الكائن وتضعفه أمام مؤثرات شديدة الوقع على الذات، وعليه فهي تقدم البصيرة والرؤية السليمة التي تفهم الإنسان حقيقته وتشعره بدوره، نرى الإمام "وكأنه ينشئ علماً حول الإنسان، ييسر فيه طبيعته وسلوكه وحركته، وما هو عليه، وما ينبغي أن يكون عليه"³. إذن فالنهج كتاب علم الإنسان.

وإن موضوعات مثل الله والكون تعد من أجل وأرفع الكلام الذي تولى تقديم تصورات جديدة، دافعة إلى التعظيم الإلهي والإجلال والتأمل في الملكوت لتحصيل المعرفة الإلهية والبحث عن الحقيقة بما تحققه من مقامات وأحوال تعبدية وكمالية رفيعة. وثبتت أهمية هذه الموضوعات وغيرها المعالجة الشاملة لأحوال الإنسان في علاقاته العامودية والأفقية، ليدرك بأدوات العلم والمعرفة والفقه والإرادة والحرية أنه أحد أبنية الكون الفاعلة، يعد هذا من علمية الكتاب، يثبته ميزان التاريخ.

6- عبقرية التقسيمات والتصنيفات: إن ما تفرد به النهج تقسيماته لكثير من الحقائق والأشياء والناس والأحوال، وتقدم هذه التقسيمات المتنوعة مصفوفات تراتبية ووظيفية تجلي صالح الحقائق والأشياء من فاسدها، وتدفع إلى خيرها وأفضلها وأكملها، بحيث تزيل بتلك الموازنات اللبس عن العقول وتذهب بكلال الرؤية التي تحجب عن الحق وتبعد عن إدراك الحقيقة، وهي في جملتها تنم

¹ - علي ابن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 482.

² - المصدر نفسه، ص 466.

³ - ناظم عودة : نقص الصورة، ص 62.

عن عبقرية فذة تميز بها الإمام دون غيره، مكنته من النفاذ في أعماق الأشياء، كشفها وتأويلاً*، ومن خاصيات تصنيف الإمام أنه يذكر الصنف بحقيقته وصفاته وآثاره ومرتباته، فهناك متبع الشرعة يضاده متبع البدعة، وهناك طبقات المجتمع بأدوارها، وهناك العالم الرباني والمتعلم والناعق، وهناك الفقير المكابد والغني كافر النعمة والبخيل والمتمرد، وهناك الأخيار والصلحاء والأحرار والسّمحاء الغائبون، وهناك الحثالة الحاضرة؟!

إن هذه التقسيمات لتمثل أحد أعظم تحليات عظمة هذا الكتاب التي تثبت علميته وترفع قيمته وترجح به الكفة بميزان التاريخ. إن كل ما ذكر عن قيمة الكتاب العلمية ورفعته في ميزان التاريخ يجعل منه كتاباً عظيماً، ويقود هذا إلى انفتاح مخاطباته وكلامه على تأويلية رفيعة.

ثالثاً: التأويل:

1- المفهوم: يقول "ابن فارس": "ومن هذا الباب تأويل الكلام، وهو عاقبته وما يؤول إليه، قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف الآية 53]، "ما يؤول إليه في وقت بعثتهم ونشورهم" يريد مرجعه وعاقبته، وذلك من آل يؤول¹، فهذا معنى لغوي يؤسس للدلالة التأويلية بوصفها بحثاً في المآلات، "فآل يؤول، أي رجع"²، وفي اللسان يقول "ابن منظور": "الأول: الرجوع، آل الشيء يؤول أولاً ومآلاً رجع، وأول إليه الشيء: رجعه، وآلت عن الشيء: ارتدت، وأول الله عليك أمرك، أي جمعه"³، وهذا المعنى قريب من الأول ويدل على الرجوع إلى الأوليات والأصول، فالتأويل من معانيه التفسير، ويعني تقليب الأمر وإرجاعه إلى أولياته قصد الفهم، ويبقى التأويل عملاً يستند إلى معرفة، يقول تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾⁴، لقد تطلب تأويل كلام الله أمرين: العلم والمؤولون، وهم الراسخون في العلم، وامتناعه من غير هذين الشرطين، ونفس الإشارة مع رؤيا الملك في قصة يوسف

*- يمكن تصفح هذه التصنيفات على مدار النهج، وقد أفردنا لها تأويلات في فصول البحث، تعرفنا بذلك الفارق النوعي بين الحسن والسيئ، والنافع والضار، والسليم والفاقد.

¹ - ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ص 62.

² - المصدر نفسه، ص 61.

³ - ابن منظور: لسان العرب، مج 1، ص 273، 274.

⁴ - سورة آل عمران، الآية 7.

العلامة، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَضُغْتُ أَحْلَمُ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَلَمِينَ﴾¹، فامتناع تأويلهم للرؤيا ارتبط بغياب العلم، وعلى هذا الأساس فإن التأويل هو علم بالحقيقة المراد تأويلها. إذن "فالتأويل هو النظر فيما تؤول إليه الأشياء، أي صيرورتها"²، وهذا النظر التأويلي هو إدراك للحقائق الخفية وإظهارها، وممارسة تكشف السر المتواري. "وإن التأويل يبقى فعلا معرفيا يخفي إرادة ما في المعرفة"³، لأن من طبيعة الأشياء أنها لا تعطى بطريق مباشر، وإنما تخفي دلالتها وراء دالها الظاهر.

إن الجذر الذي أتت منه مادة هذا المصطلح النقدي أن التأويل أو "الهيرمينوطيقا": "منهج نقدي مأخوذ من المصطلح الفلسفي المأخوذ بدوره من الفعل اليوناني Hermeneuein ومعناه يفسر ويؤول ويشرح"⁴، وهذه المهمة التأويلية هي التفسير والشرح. يعد التأويل منهجا فنيا يستهدف تأويل الحقائق والأشياء، ويقصد تذويب المسافة بين القارئ والنص، بمحاولة فهم أعماق النصوص وخفاياها المتوارية خلف ظاهرها وسطحها، يقول "مصطفى ناصف": "التأويل هو البيان أو الفصاحة، والفصاحة هي جلاء مشكلة الوجود"⁵. إذن يتعدى الفعل التأويلي إلى كشف حقيقة الوجود بدلالاته وأماراته وحقائقه الخفية، وبذلك يصبح التأويل إجراء عمليا يمارس على الفعل التاريخي بتراته وشموليته، "ومناطه إعادة بعث الروح"⁶، وعملية بنائية للنفس الإنسانية، بحيث يعطي للمؤول الأدوات المعرفية التي يتحاور بها اللحظة الراهنة، وانفتاح على الكلية التاريخية والكونية، فالتأويل الفني "إنما هو حركة وجودية مرتبطة بالحياة وحدث الوجود"⁷، كل هذا التفاعل والتشابك بتعقيداته يفرض هذه الممارسة التي تسعى إلى اقتناص الدلالة والمعنى الخفي المتواري وراء ظاهر الأشياء.

2- النص والتأويل: إن فعل التأويل باعتباره ممارسة نقدية، يرتبط بالنص المؤول، مما يستدعي قيام علاقة تفاعلية بينهما، علاقة رهينة بخلفياتها المعرفية وما تفترضه من انفتاح حي، "وتفاعل متواصل بين مقروء وقارئ، أو نص وتأويل له"⁸، وهو عملية مثمرة بهذا اللقاء الحيوي الذي يصنع المعنى، "لأن

¹ - سورة يوسف، الآية 44.

² - الزين محمد شوقي : الإزاحة والاحتمال، صفائح نقدية في الفلسفة الغربية، الدار العربية للعلوم، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008، ط1، ص 33.

³ - عبد الحق منصف: الكتابة والتجربة الصوفية (نموذج محي الدين بن عربي)، منشورات عكاظ، الرباط، 2011، ط2، ص 37.

⁴ - عزام محمد: اتجاهات التأويل النقدي من المكتوب إلى المكبوت - 3 في نظرية الأدب، مكتبة الأسد، دمشق، 2007، ط1، ص 12.

⁵ - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 10.

⁶ - المرجع نفسه، ص 86.

⁷ - الدروي أحمد : تأويلية الفن في كتابات غدامير، دار رؤية، القاهرة، 2021، ط1، ص 90.

⁸ - سعيد الغانمي : الكنز والتأويل، ص 6.

النص هذا التكوين الخصب، سيظل مجالا لافتراضات شتى وعرضة لتحليلات لا حصر لها¹، فما دام النص تكويننا خصيبا، فهذا يفترض أن له عمقا خفيا يدل عليه ظاهره، يكشف عنه مؤول النص الذي أقام معه هذه العلاقة التفاعلية الضرورية، ولذا "فليس في إمكان المؤول الاستناد إلى شاهد مباشر، فالنشاط التأويلي صعب ومعقد، لأنه ليس لدينا فاعل فريد يصنع التاريخ ويؤثر فيه"²، وبهذا فالعملية التأويلية صارت نشاطا معقدا بحيثاته، حيث يتمتع الأول [= النص] عن البوح، ويحتاج الثاني [= المؤول] إلى أسلحة وأدوات معرفية وزاد يمكنه تحقيق هذه القراءة بتعقيداتهما، وبذلك تتحول كل قراءة إلى فاعلية تأويلية من فواعل تأويلية صانعة لتاريخ المعنى، وعليه فإن "علاقة المؤول بالنص. إذن هي جدل"³، قائم بين مكونات النص وتاريخيته وبين المؤول وتاريخيته = ثقافته وفكره وأدواته، وهنا يتقدم الفعل التأويلي لتحقيق استشراق للنص وبوحه، لأنه "مستودع خبرات واسعة"⁴، يستلزم خبرات أخرى مماثلة عند المؤول والقارئ، وبهذا تصبح الإمكانية التأويلية متاحة أمام ممارسة هذه الوظيفة في فك شيفرات النص ومغاليقه، وعليه فهذه العلاقة بالنص، هي علاقة تفاعلية مستفزة ومستحثة، مع شروط صحية ترعى هذا الفعل كمارسة متشابكة.

3- التأويل والفهم : إلى أين يقود التأويل وما هي غايته؟

إن التأويل هو فعل إنساني يتجه نحو تحليل العلامات والشيفرات النصية، لغايات وظيفية استجلاب المعنى بعد عملية استقصاء تتبع خيوطه، وعليه "فمعرفيا، الفهم هو الموضوع المحوري الذي تدور حوله حلقة التأويل"⁵، فغاية تأويل الإشارات والعلامات الفهم، لأن الطبيعة النصية والإشارية مستغلقة على القارئ وخفية متوارية، وهذا ما يسعى إليه الفهم بوصفه آلية تأويلية متحركة، وبهذا "الفهم إبداء الفهم تجاه شيء ما"⁶، فالتأويل فهم، والفهم هو مدار التأويل. إذن "فمهمة التأويل (الهيرمينوطيقا) هي فهم النص كما فهمه مؤلفه"⁷، وهذا التجاذب الحي والحيوي ضروري لعملية الفهم، وبالتالي فنحن أمام فهمين يتواجهان في معركة المعنى، النص بأسلحته، والمؤول بأسلحته،

¹ - ناظم عودة : نقص الصورة، ص 16.

² - غادامير هانس غيورغ : فلسفة التأويل، الأصول المبادئ الأهداف، تر: محمد شوقي الزين، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2006، ط2، ص140.

³ - مصطفى ناصف : مسؤولية التأويل، ص 9.

⁴ - مصطفى ناصف : اللغة والتفسير والتواصل، ص 75.

⁵ - محمد شوقي الزين : الإزاحة والاحتمال، ص 35.

⁶ - غادامير : فلسفة التأويل، ص 173.

⁷ - محمد عزام : المرجع السابق، ص 83.

وبذلك تتقوى الفاعلية التأويلية من تجاذب المقصدين، لأن " مهمة الفهم والتفسير هي السعي إلى كشف (الخفي أو المستتر من خلال (الظاهر)، واكتشاف ما لم يقله النص، من خلال ما يقوله"¹، وبهذا يقود جذب النص، من خلال دواله الظاهرة، وما يقوله المؤول تأويل وكشف هذا الخفي الباطن المستتر، وما لم يقله هي المساحة البيضاء التي تقع بين الجذبين لا يملؤها إلا الفهم والمعنى المتوخى والمقاصد المفترضة.

إذن لقد أصبح "الفهم نوعا من "المسافة التاريخية" الضرورية لكل إدراك وتمييز"²، فتلك المسافة البيضاء قبلا تصبح مسافة تاريخية تقتضيها العملية التأويلية، بين التجربة النصية والإنسانية لمؤلفها، في تلاقيها مع التجربة الإنسانية للمؤول، وبهذا يسمح المؤول لنفسه بهذه الممارسة على سلطة النص، "فمعنى التأويل والفهم، هو أنني أفهم وأعبر دلالة النص حسب أقوالي وتعبيراتي الخاصة"³، هذه السلطة نابعة من قدراته الفكرية والذهنية واللغوية للمؤول، وهذا التأهيل المعرفي هو حجة المؤول التي تسمح له بهذه الممارسة.

4- التجربة التأويلية: تشكل الممارسة التأويلية في شرطها النقدي والمنهجي لقاء نوعيا فارقا، يستدعي تجربة إنسانية ضرورية في هذا الفعل الحيوي، "وإن اللقاء التأويلي لا يقوم إذن على رفض أفقنا الخاص ونفيه، فذلك أمر مستحيل، وإنما يقوم على شيء غير قليل من تحدي هذا الأفق، ومحاولة المخاطرة به في سبيل تفتح حر"⁴، فهذا اللقاء يمثل انفتاحا قرائيا متجاوزا لكل تأطير، بل هو تفتح حر من الذات وهي تصنع تجربتها، وبهذا فإن "كل وجود إنساني هو "وجود - من أجل - الحقيقة محركه إرادة الفهم ومحققه أخلاقية التفاهم"⁵، فالوجود من أجل الحقيقة باعتباره مسعى إنسانيا وتأويليا يتطلب تجربة نمكن من خلال مجموعة أدوات عملية من تحقيق هذا المبتغى، وبهذا "تصبح كل تجربة تأويلية خلقا أو فتحا جديدا للوجود ذا علاقة وثيقة بالحاضر، علاقة ما كان لها أن تحدث من قبل"⁶، لولا هذا اللقاء التأويلي، لما كان الفتح الجديد في الوجود، لأنه يمثل تقدما إلى الأمام، نحو الحقيقة وبهذه

¹ - محمد عزام : المرجع السابق، ص 89، 90.

² - محمد شوقي الزين : الإزاحة والاحتمال، ص 77.

³ - غادامير : فلسفة التأويل، ص 141.

⁴ - مصطفى ناصف : اللغة والتفسير والتواصل، ص 177.

⁵ - الزين محمد شوقي : عالمية الفكر التأويلي، مقدمة كتاب فلسفة التأويل لغادامير، ص 34.

⁶ - مصطفى ناصف : المرجع السابق، ص 177، 178.

ملاحق : الإمام، النهج ، التأويل

الإرادة في الفهم، وتعني "مشاركة الإنسان في وجود متحدد نشيط على الدوام"¹، بهذه الفاعلية الإنسانية والفاعلية التأويلية، وما تعطيه التجربة الإنسانية من اندفاعه للإنسان نحو المستقبل، من أجل إدراك ومعرفة الحقيقة.

لقد صارت التجربة التأويلية نشاط الذات الدائم، وهي تبحث عن لحظة أخرى، "هي نشاط الفهم في طيات لغة حية، وفاعلية الحوار بين قارئ ومقروء ينتميان إلى اللحظة التأويلية كتجربة معاشة"²، تصبح بعد ذلك كشفا، يحصل معرفة ومعنى، بل تكون تجربة مغذية للكائن تنميه وتقوي إرادته.

تقتضي هذه التجربة التأويلية قيام عناصر هذه الفاعلية في شبه حلقة دورية تمد بعضها بعضا بالطاقة والإمكان الحي، وعليه فإن "الفهم يقتضي سبق الامكانات والسبق يستلزم التأويل، والتأويل يستند إلى الفهم، هكذا تتشكل حلقة دورية للفهم تعبر عن المكونات والتلفعات الوجودية للكائن"³، وهذه سيرورة عملية متداخلة شديدة الارتباط والتشابك صعبة الفصل، ذات نظام دوري حلقي يتكئ على بعضه البعض، وبهذا يصبح التأويل معبرا عن إرادة من أجل الفهم، تتطلب قدرات عقلية ومهارات وكفاءات مع حيوية وتجربة غنية، "فالحلقة الدورية هي دائرة ودليل الدور، والدور هو دليل الحور، أي منتهى الحيرة والدوران على رحي الوجود"⁴، حركة دائرة تشبه دوران الصوفي في حضرته وطوافه الدائم، وهو يبحث عن الحقيقة، بمعنى أنها تجربة ذاتية خاصة بمقوماتها المعرفية، فهذا التأويل بتعقيداته وتشابكاته، تجربة يمثل هذا الزخم والتفاعل، لاقتناص اللحظة التأويلية بلهفة وشوق معرفي، مع مكابدات هذا الفعل وهذه العملية، وجميع هذا الوعي بالحقيقة، يجعل من التجربة التأويلية ضرورة تبني هذا الإطار التأويلي.

¹ - مصطفى ناصف : اللغة والتفسير والتواصل، ص 178.

² - محمد شوقي الزين : المرجع السابق، ص 31.

³ - غدامير : فلسفة التأويل، ص 64.

⁴ - المرجع نفسه، ص 64، 65.

فہرست



فهرس

02 ص مقدمة
13 ص مدخل : الإسلام وميلاد الإنسان الجديد
13 ص أولا : الإنسان في العصر الجاهلي
13 ص 1- توطئة؛ الإنسان والعصر
16 ص 2- كمالات الإنسان الجاهلي
19 ص 3- أخلاق في العصر
21 ص 4- نواقض إنسانية
23 ص 5- عالم ووسط بموج
24 ص ثانيا : التحولات الكبرى التي أحدثتها الإسلام
26 ص I- تحول وإنسانية
31 ص II- تحولات حرية وموقف
34 ص III- تحول وارتقاء
36 ص ثالثا : الرسول ﷺ نموذج الإنسان الكامل
36 ص I / توطئة.. كمال النبوة
38 ص II / النبوة كمال وعظمة
44 ص III / النبوة ممارسة كمال
50 ص IV / تجليات كمال النبي [= القرآني]
50 ص أولا : الكمالية النبوية
50 ص أ- التوجه الرأسي [التوجه العبادي الإيماني مع الله]
53 ص ب- التوجه الأفقي [التوجه الأخلاقي الاجتماعي مع الناس]
56 ص ثانيا : الإضافية تجليات كمال النبي ﷺ
59 ص ثالثا : أصل معدن الاصطفاء
59 ص رابعا : العقبة الكؤود
63 ص الفصل الأول: صورة عن الحياة من خلال نهج البلاغة
65 ص المبحث الأول: الحياة الكونية (الطبيعية) :
65 ص 1/ المفهوم
68 ص 2/مظاهر الحياة الكونية (الطبيعية)
68 ص أولا : العلويات
68 ص عناصر الكون العليا
68 ص أ/ جمال الصنع والإتقان
71 ص ب/ الحديث عن الملائكة

72 ص	1/ نشأتهم
72 ص	2/ التكاليف الملائكي وخصائصه
74 ص	3/ الثبات في الطاعة
75 ص	ج/ خلق العالم
76 ص	ثانيا : السفليات
76 ص	1/ الإنسان
78 ص	2/ الأرض
81 ص	3/ الحيوان
81 ص	أ/ الخفاش
82 ص	ب/ النملة
85 ص	المبحث الثاني : الحياة الاجتماعية
86 ص	أولا : تركيبة المجتمع وعناصره
86 ص	1/ الفرد والأسرة
87 ص	2/ الفرد والعشيرة
87 ص	3/ البنية القبلية
89 ص	4/ المجموع؛ [= البنية الاجتماعية]
93 ص	ثانيا : طبقات المجتمع
94 ص	1/ معيار التصنيف
95 ص	2/ الطبقات الاجتماعية
96 ص	ثالثا : بنية المجتمع وعلاقاته
96 ص	1- دور الأفاذ والأقطاب في المجتمع
99 ص	2- البنية الثقافية، المجتمع والكتاب
107 ص	3- العلاقات الاجتماعية
108 ص	أولا : العلاقات العمودية
108 ص	1- علاقة الحاكم بالمجتمع
110 ص	2- علاقة المجتمع والرعية بالحاكم
113 ص	ثانيا : العلاقات الأفقية (الفردية)علاقات المجتمع ببعضه
117 ص	المبحث الثالث : الحياة الفردية
117 ص	أولا : مفهوم الحياة الفردية ومقوماتها
117 ص	I- المفهوم
118 ص	II- مقومات الحياة الفردية
125 ص	ثانيا : أبعاد الحياة الفردية

125 ص	I- البعد النفسي
128 ص	1- إصلاح النفس
130 ص	2- الاهتداء
131 ص	II- البعد العبادي
133 ص	1- طرق تحصيل البعد العبادي
136 ص	2- مهددات حصول البعد العبادي
137 ص	III- البعد العملي
138 ص	1- العمل فضائل ومكاسب
140 ص	2- العمر والحياة
142 ص	VI- البعد المعاملاتي
147 ص	المبحث الرابع : التفاعل بين صور الحياة
167 ص	الفصل الثاني الإنسان الشقي
138 ص	I- المفهوم اللغوي
169 ص	II - مفهوم الشقاء
169 ص	- المبحث الأول : الإنسان الشقي
170 ص	1- مآلات الشقاء
172 ص	2/ حقيقة الشقاء
174 ص	3- مآلات الشقاء
176 ص	المبحث الثاني : الانحراف العقدي/الفطري
176 ص	- أشكال الانحراف الفطري
176 ص	أ- انقلاب الحقائق والقيم والمفاهيم
178 ص	ب- الضعف في العقيدة
181 ص	المبحث الثالث : الانحراف الفكري
181 ص	أ/ مفهوم الفكر
181 ص	ب/ تجليات الانحراف الفكري
181 ص	1/ تعطيل المنهج
183 ص	2/ إتباع الرأي
186 ص	3/ التقلب وغياب العقل
188 ص	4/ صفات الانحراف الفكري
192 ص	المبحث الرابع : الانحراف العملي/السلوكي
192 ص	1- حقيقته
198 ص	2- ميزات وسلوك

202	ص نتائج	3-
204	ص المبحث الخامس : معيقات الكمال	
204	ص أولا : إتباع الشيطان	
204	ص حقيقة	1-
205	ص قصة الإنسان والشيطان؛ الخلق والعداوة	2-
208	ص الهبوط والارتقاء	3-
209	ص عمله	4-
210	ص I- الآيات المجلية لعمل الشيطان وأساليبه	
211	ص II- أدوار الشيطان في نهج البلاغة	
222	ص III- الآثار المدمرة للكمالات	
224	ص ثانيا : إتباع الشهوات	
225	ص 1- العمل بالشهوة	
230	ص 2/ الشهوات سيما الإنسان الشقي	
235	ص ثالثا : إتباع الهوى	
236	ص 1- مركب الهوى وانطلاق قوى النفس النزوعية	
239	ص 2- الهوى تيه الإنسان وإساءة العمل	
241	ص - تأويل واستنتاج	
243	ص - رابعا : زينة الحياة الدنيا	
243	ص I/ زينة المال	
249	ص II/ زينة الحياة الدنيا	
249	ص 1- المفهوم والحقيقة	
254	ص 2/ الوصف والنعته	
264	ص الفصل الثالث : مراتب الكمال الإنسان :	
266	ص المبحث الأول : مرتبة التوحيد	
269	ص - طرق المعرفة وآياتها	
269	ص أولا : الآيات المتلوة [= الكتاب]	
270	ص 1- مفاهيم وميزان	
271	ص 2- هداية وعلوم	
273	ص 3- تعريفية القرآن	
276	ص ثانيا : الآيات المشهودة	
276	ص 1- الربط بين الحمد والملكوت	
277	ص 2- عناصر من الكون، الطاووس مثلا	

278 ص	3- آية السماوات والتجلي الإلهي
278 ص	4- تعجبات من طمس القراءة الكونية
280 ص	ثالثا : الآيات التكوينية
287 ص	المبحث الثاني : مرتبة العبودية
287 ص	1- مفهوم العبودية
289 ص	2- مقومات بناء نظام العبودية
289 ص	أولا : الحرية
292 ص	1- المملوكية
292 ص	2- الحرية تحرر من الأغيار
293 ص	3- الحرية وعلاقتها بالقضاء والقدر
294 ص	ثانيا : القلب واللسان
294 ص	أ/1- القلب/المفهوم
295 ص	أ/2- تغذية القلب
295 ص	أ- القرآن
296 ص	ب- طرائف الحكم
296 ص	ج- الموعظة وحياة القلب
296 ص	أ/3- القلب السليم
297 ص	ب/1- اللسان/المفهوم
299 ص	ب/2- اللسان والعقل
300 ص	ب/3- اللسان الصالح
300 ص	ب/4- التصرف والإدارة
301 ص	ثالثا : مراتب العبادة
301 ص	1- عبادة التجار [= عبادة الرغبة]
303 ص	2- عبادة العبيد [= عبادة الرهبة]
305 ص	3- عبادة الأحرار [= عبادة الشكر]
307 ص	رابعا : معايير الشكر ومعادلة عبادة الأحرار
313 ص	المبحث الثالث : مرتبة العقل
313 ص	1- مفهوم العقل
315 ص	2- العلم والفكر
321 ص	3- أساس المعرفة
322 ص	4- طرق العقل الموصلة إلى الكمال
332 ص	5- العقل حجة (بين الله والإنسان)

337 ص المبحث الرابع : العمل الصالح
339 ص 1 - الإيمان والعمل
344 ص 2- العمل الصالح والتقوى
350 ص 3- الإحسان
351 ص أ/ الإحسان والصلاح
353 ص ب/ كمالية الإحسان
355 ص ج/ وظائف الإحسان
357 ص 4- علاقة العبادة بالعمل الصالح
366 ص الفصل الرابع : تجليات الإنسان الكامل:
368 ص المبحث الأول : الإنسان الكامل بين المعرفة والعمل
368 ص 1- الثابت المعرفي وأحوال الإنسان
373 ص 2- الإنسان العارف
379 ص 3- الإنسان العالم
384 ص 4- الإنسان العامل المجاهد
395 ص المبحث الثاني : الإنسان الكامل بين الخفاء والتجلي
395 ص 1- الخفاء والتجلي
407 ص 2- صور الخفاء والتجلي
410 ص 3- الزاهد التقي
417 ص 4- الإنسان العابد
422 ص 5- تجليات جماليات سيما الكمال
426 ص المبحث الثالث : الجوانية والبرانية
426 ص أ/ المفهوم التعريفي للحقيقة؛ الذات الجوانية إسقاطا على برانية الإنسان.
430 ص ب/ إصلاح الجوانية، إصلاح البرانية
435 ص ج/ يقينية الجوانية ثبات البرانية
440 ص د/ الحقيقة الجوانية والبرانية؛ علاقة اختبار وتمحيص
445 ص هـ/ الجوانية دليل الأولياء في الكشف
449 ص المبحث الرابع : تشاكل الظاهر والباطن - صورة الكمال -
449 ص أ/ المفهوم
450 ص ب/ الظاهر والباطن علامة امتثال الحق
454 ص ج/ حقائق واصفة لتجليات إنسان تشاكل ظاهره وباطنه
459 ص د/ امتزاج الظاهر والباطن مثال الهيئة الإنسانية
462 ص هـ/ تشاكل الحالة بالطلب والحضور

467 ص الفصل الخامس : الإنسان الكامل :
469 ص المبحث الأول : الإنسان، الماهية والمفهوم
469 ص أولا : ماهية الإنسان
479 ص ثانيا : الإنسان في القرآن
479 ص 1- الوصف السالب، وموجبات استكمال الصورة
482 ص 2- تأويل الصفات السلبية اختبار الإرادة
484 ص 3- الوصف الموجب وتعديل الطبيعة
484 ص I- ثنائية الجمال والانتكاس
484 ص II- الإيمان مدافعة الخسران
485 ص III- النموذج الإيماني الكمالي
486 ص 4- الأنبياء [عليهم السلام] نماذج الإنسان القرآني
488 ص ثالثا : الإنسان في نهج البلاغة
492 ص المبحث الثاني : مقومات الإنسان الكامل
492 ص أولا- الكونية
498 ص ثانيا- الإنسانية:
505 ص ثالثا- الفطرية
512 ص رابعا- الفكرية
519 ص خامسا- التوازنية
527 ص المبحث الثالث : خصائص الإنسان الكامل
527 ص - أولا : خاصية الربانية
534 ص - ثانيا : خاصية التكرمية
542 ص - ثالثا : خاصية الروحية
550 ص - رابعا : خاصية الخيرية
556 ص - خامسا : خاصية الحكمية
564 ص - سادسا : خاصية الجمالية
575 ص المبحث الرابع : سيما الإنسان الكامل في نهج البلاغة
575 ص أولا : العلامات التأويلية في الإنسان الكامل
576 ص 1- تجليات علامة كمال العقل
577 ص 2- تجليات سيما الصديقية
578 ص 3- تجليات سيما الإنسان المناجي
580 ص ثانيا : تجليات سيما الإنسان بين جرح الظلم وجرح الحق
588 ص الفصل السادس : أدوات التشكيل الفني للرؤية في نهج البلاغة :

590 ص المبحث الأول : اللغة والأسلوب
593 ص 1- نظم الإيجاز وشعريته
596 ص 2- شعرية كسر النظام
596 ص أ- نظم التقديم والتأخير
600 ص ب- نظم الاعتراض وشعريته
602 ص 3- شعرية التحول الوظيفي؛ نظم الاستفهام
605 ص 4- شعرية نظم التوكيد والحذف
605 ص أ- شعرية التوكيد
608 ص ب- نظم الحذف، شعريته وجماليته
610 ص 5- شعرية نظم التوازي، وجماليته
615 ص المبحث الثاني : شعرية التشكيلات الإيقاعية، نظم الصوت والإيقاع
616 ص 1- نسق التكرار
621 ص 2- نسق التضاد وجماليته
628 ص 3- نسق التقابلات والتناظر الإيقاعي
632 ص 4- نسق السجع والجناس المزدوج
637 ص المبحث الثالث : نسق الاستماتع، وجماليات التشكيل
637 ص أولاً : جمالية المعجم الشعري
637 ص 1- البنية الفكرية والدلالية للمعجم
641 ص 2- الحقول المعجمية
643 ص 3- روافد المعجم
643 ص 4- خاصيات المعجم
644 ص ثانيا : البنية المجازية وتشكيل المفهومات
646 ص مصنفات مجازية لحقول دلالية
646 ص 1- مجازية الدنيا
652 ص 2- مجازية التحولات الاجتماعية
656 ص 3- مجازية الفتنة والشيطان
661 ص 4- مجازية توصيف النبي والقائد العظيم
665 ص 5- مجازية الإيمان والعبادة
669 ص المبحث الرابع : تداولية الخطاب في نهج البلاغة
669 ص التداولية مفهوماً وحقيقة
670 ص أولاً : النظرية التلفظية
671 ص I. المعينات التواصلية الإشارية في النهج

671 ص أولاً : الذات المتكلمة والضمير الشخصي
675 ص ثانيا : الذات المخاطبة
676 ص ثالثا : المعينات السياقية التأثير المكاني والزمني
678 ص II. الذاتية والموضوعية المعينات وثنائية الذات والموضوع
680 ص 1- سياق الذاتية أنا - أنتم
680 ص 2- سياق الموضوعية أنا- هم
681 ص 3- سياق الذاتية والموضوعية أنا- هم
681 ص ثانيا : النظرية الحجاجية
681 ص - مفهوم الحجاج
682 ص I / الحجاج اللغوي
683 ص - الروابط الحجاجية
683 ص 1- روابط التعارض الحجاجي
687 ص 2- روابط التساوق الحجاجي : الرابط (حتى)
688 ص 3- روابط التعليل الحجاجي
690 ص 4- روابط العطف الحجاجي
692 ص II / الحجاج العقلي
693 ص - ترتيب أجزاء القول
693 ص أ- الاستهلال
694 ص ب- عرض الحال؛ السرد والاستطراد
702 ص ج- الختم
704 ص المبحث الخامس : أثر النهج في الفكر والعلم
704 ص 1- قيمة الكتاب العلمية والمعرفية
704 ص 2- الموضوعات العلمية والفكرية
705 ص 3- أثر النهج في العلم والفكر
705 ص أولاً : علم الكلام
711 ص ثانيا : علم التصوف
715 ص ثالثا : أثر نهج البلاغة في الفكر الإسلامي
724 ص خاتمة
733 ص قائمة المصادر والمراجع
746 ص ملاحق : الإمام، النهج، التأويل :
747 ص أولاً : الإمام
747 ص 1- الولادة

747 ص	2- مفتاح الشخصية
748 ص	أ- الإسلام
748 ص	ب- الجهاد
749 ص	ج- الإمامة
749 ص	3- الخاصية التكميلية
750 ص	ثانيا : المدونة [= نهج البلاغة]
750 ص	1- المفهوم
751 ص	2- محتويات الكتاب
751 ص	3- موضوعات الكتاب
751 ص	4- القيمة العلمية للكتاب
753 ص	5- النهج في ميزان العلم والتاريخ
753 ص	أ- قابلية الكتاب للتأويل
753 ص	ب- أسئلته الخالدة
755 ص	ج- علمية الموضوعات
755 ص	6- عبقرية التقسيمات والتصنيفات
756 ص	ثالثا : التأويل
756 ص	1- المفهوم
757 ص	2- النص والتأويل
757 ص	3- التأويل والفهم
759 ص	4- التجربة التأويلية
761 ص	فهرس

الملخص باللغة العربية: تركز تصور حقيقة الإنسان الكامل في نهج البلاغة على رصده من زواياه المختلفة كما أراد الإمام تصوره واقعة اجتماعية وتاريخية، تتناوشه التجاذبات في ذاته ووسطه، إنسان برزت لنا طبيعته متناقضة في صورة إنسان الجاهلية بنواقضها، وتبين أن ملخص مشكلته روحية خالصة. وقد منحت الفاعلية الدينية مخارج هذه الأزمة، مثلها الإنسان الصحابي. ويعد النبي محمد ﷺ مجسداً لمرتبة الإنسان الكامل حقيقة، وبذلك صار جاذب الإنسانية إلى الكمال على قاعدة الأمثل فالأمثل، وليعيد بذلك لها هويتها الإيمانية. يتطلب تجسيد مشروع الإنسان إدارة الحياة، الكونية بحضوره الإنساني الكوني والجمالي بطريق التأمل. والاجتماعية التي يبينها الأفضال والأقطاب، والبني الثقافية ونواقل الأفكار بتصنيفاتها الحيوية، والحياة الفردية بمقوماتها الضرورية وأبعادها الوظيفية، وهذا عندما يقرأ الإنسان ذاته الفردية، ويقرأ ما في مجتمعه، ويقرأ ما في الكون. ولا يتحقق كمال الإنسان إلا بفهم مضاده "الإنسان الشقي" المقابل قرآنيًا "للإنسان السوي" بصفاته وسيره المنحرف.

لا يتحقق كمال الإنسان إلا بتركية ذاتية تحصل مراتب كماله بتجلياتها في أحواله وتصرفاته. إنسان لا ينهض إلا بمقومات وخصائص كمالية هامة، معجونة بخمائر الوعي والمعرفة والحرية والجمال. تميز النهج هذا الكتاب الذي هندس لبنية هذا الإنسان بمبنى لغوي رفيع وطريقة تشكيل قدمت رؤية الإمام أثرت في الفكر والعلم والأدب، تعانقت فيها الفكرة والمبنى قصد استعادة وعي ثاب يضع هذا الإنسان في قلب المطلقة الكونية/ الإنسانية/ الإلهية ليمارس حضوره ودوره.

الكلمة المفتاحية: الإنسان - الكامل - العقل - النهج - المرتبة.

RESUME : The perception of the ideal human reality in "NAHJ ELBALAGHA" based on treat it from its different angles as the "IMAM" wanted to percept it in a social, historical reality, it contains many factors of attraction. A human whose contradictory nature had revealed in the image of "ELJAHILYA's" human with its contradictories. This can lead to the essence of his problem which is mainly spiritual. The religion efficiency gave issues for this crisis, illustrated by "ELSAHABY". In fact, the prophet "MOHAMED" is considered as the one who concreted the rank of ideal human, so he became the attractive of humanity to idealism on the basic of idealist and more idealist, for the reason of coming back to its believing identity.

Concreting the project of the human needs for ruling universal life with his human, universal and artistic by the way of introspection, and socialism that built by individuals, also the cultural structures, ideas transported with its vital classifications, and the individual life with its essential, functional basics. All these elements come when the human reads his self, and what is happening in his society, and what is happening in his universal. Achieving the idealism of human can be reached only by understanding his opposite "the sad human", and this latter opposite the "strict human" in the holy "CORAN". Achieving the idealism of human can be reached only by assuming his self as "IMAM" exposed in his book. A human who cannot be developed without an essential basics and characteristics mixed with conscience, knowledge and freedom and beauty. The methodology of the book which had engineered the structure of this human by a high level of linguistic structure, and a method of composing that presented the point of view of "IMAM" which influenced thought, science and literature, by relating idea and structure to explore a second conscience, which put this human in the essence of totality/universality/humanity to practice his presence and his role.

Les Mots Clés : Human - Complete - Mind - Way - Grade